

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

سنوحي المصري

مكتبة الأسرة

مايكا وولتاري

تقديم الدكتور طه حسين



مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

إهداء ٢٠١٢

دكتور محمد محمد الشماع

جمهورية مصر العربية

المصـرى
دنيا سنـوحى



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

المصرى
ننيا سنوحى
تاليف : مايكا وولتارى
تعريب : حامد القصبى
تقديم : د. طه حسين

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

المصــــرى
دنيا سنوحى

تاليف : مايكا وولتارى
تعريب : حامد القصبى
تقديم : د. طه حسين

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

تقديم الكتاب

لعميد الأدب العربي

الدكتور طه حسين

هذا الكتاب قرأته مترجما الى اللغة الفرنسية منذ أكثر من عامين فأعجبت به أشد الاعجاب ، وكان من أشق الأشياء علي ، أن تقف القراءة بي فيه عند حد من هذه الحدود التي تفرضها ظروف الحياة المادية والاجتماعية على الناس .

فأنت تأخذ في القراءة كلفا بها ، مشوقا اليها ، تريد أن تفرغ لها ، والا يشغلك عنها شيء ، ولكنك لا تكاد تمضي فيها ساعة أو ساعات ، حتى يصرفك عنها زائر جاء على موعد أو غير موعد ، أو زيارة وعدت بها قبل أن تأخذ فيما أنت آخذ فيه من القراءة ، وليس لك بد من أن تفي بالوعد ، أو عمل لا ترى سبيلا الى ارجائه ، او موعد الغداء او العشاء أو النوم ، أو ما شئت من هذه الصوارف التي تصرف الناس عما يحبون الى ما ليس لهم منه بد .

وقد كنت أكره الانصراف عن هذا الكتاب ، لأني لم أكد أمضي في قراءته حتى شغفت به أشد الشغف ، وأحببت أن أصل الى غايته ، وتمنيت ان تكون هذه الغاية بعيدة أشد البعد .

ذلك ان الكتاب سحرني واستأثر بنفسي ، نقلني نقلة بعيدة جدا من بيئة الحياة الواقعية التي كنت غارقا فيها ، ومن بيئة الدراسة الادبية التي كنت مقبلا عليها ، الى بيئة غريبة بالقياس الى أشد

الغرابة ، هي هذه البيئة الشرقية القديمة التي عاش فيها « أخنــاتون » ومعاصروه من المصريين وغير المصريين في ذلك العالم القديم .

فالكتاب لا يصور الحياة المصرية في عصر « أخنــاتون » فحسب ، ولكنه يصور الحياة في العالم الذي عــرفه المصريون في ذلك الوقت ، فبطل الكتاب الذي يتحدث اليك حديثا مباشرا لأنه يقص عليك حياته ، قد اضطر الى أن يكون أخا سفر ، جواب آفاق . فهو يتنقل في مصر ، ثم يتجاوز حدودها الى فلسطين وسوريا ، ثم يمضي الى « بابل » ثم الى جزيرة أقرطيش أو « كريت » .

وهو يعاشر حكام هذه البلاد كلها ، كمـا يتصل بأهلهـا اتصـالا دقيقا ، ويقص علينـــا من سير أولئك وهؤلاء ، وأنبائهم ، أطرافا أيسر ما توصف به إنها تخلب وتروع .

ثم هو يتصل بالقصر المصري ، فيصوره لنا ادق تصوير واخلبه ، وهو طبيب قد طلب الطب في معبد « آمون » ، فيصف لنا درس الطب وطلابه ، ودقائق حيــاة الكهنة في معابدهم ، ودقائق الصلة بين الكهنة والقصر . ولست ادري ماذا يرى العلماء الأخصائيون في كل ما يقص علينا الكاتب من تاريخ مصر والشرق في ذلك العصر ؟!

وليس يعنيني ان يرضى العلماء عن هذا كله أو يسخطوا ، ولا أن يعرفوا أو ينكروا لأني لم اقرا هذا الكتاب ملتمسا للعلم بالتــاريخ ، فللعلم بالتاريخ مراجعه ومصادره ، وانما قراته ملتمسا للمتعة الفنية ، والروعة الأدبية ، والبراعة في الاختراع والابتكار وفي الوصف والتصوير ، وفي القصص الذي يتنقل بك بين ألوان الفن في غير مشقة ولا جهد ، كأنه يتنقل بك بين صور من الحياة التي تحياها دون تكلف أو تصنع ، الا ماياتي من انه يصور لك عصرا بعيدا اشد البعد عن عصرك الذي تعيش فيه .

وما أكثر ما تمنيت أن أرى مثل هذه القصة مكتوبة في لغتنــــا العربية ، مع أني قرأت في لغتنا لبعض أدبائنا قصصا مختلفا قيما عن عصر « أخناتون » ، ولكنه لم يبلغ من السعة والدقة والتفصيل والتنوع والروعة ما بلغت هذه القصة .

وهنالك تمنيت أن أرى هذه القصة نفسها مترجمة الى العربية ، كما ترجمت الى غيرها من اللغات الحية الكبرى .

ولكنني لم أطمع في ذلك ، لان صاحب القصة فنلندي ، قد كتبها في لغته الخاصة وهي من اللغات الكثيرة التي لم يصل الينا العلم بها .

ونحن قوم ، أرادت ظروف التعليم في بلادنا أن نجهل أكثر اللغات الكبرى ، فكيف باللغات التي لا تتجاوز حدود بلادها الا قليلا بين حين وحين ؟ !

لذلك كله ، دهشت حين أقبل على ذات يوم ، الأستاذ « حامد القصبي » ومعه ترجمة عربية لهذه القصة ، نقلها من اللغة الانجليزية الأمريكية .

دهشت ، لأني لم أكن أنتظر أن أراها في لغتنا ، ودهشت لأن الذي يحمل الى ترجمتها مهندس ، أنفق حياته في فنون الهندسة على اختلافها ، وفي شئون وزارة الأشغال ، له مشاركة حسنة في الأدب ، ولكني لم أكن أنتظر أن يفرغ لكتاب طويل عسير كهذا الكتاب ، تحتاج ترجمته الى الوقت والى الجهد العنيف الثقيل ، فليس اشد عسرا من ترجمة الكتب الأدبية الرائعة .. ! وأسفت آخر الأمر لأن الكتاب لم ينقل عن لغته الأولى نقلا مباشرا ولكن شيئا خير من لا شيء .

وكان أشد ما راعني — حين قرات فصولا كثيرة من هذه القصة — أن اللغة التي نقل اليها الكتاب ، ليست اقل جمالا ، وروعة أداء ، من التراجم الأخرى التي قرات فيها الكتاب . وقد وفق المترجم الى ان يحسن النقل احسانا ، لا زيادة فيه لمستزيد ، وكأنه سبق المترجم الأمريكي الى نفس الكاتب الفنلندي ، فعبر عما فيها تعبيرا صادقا دقيقا ، في لغة جمعت .. الى الجزالة والرصانة .. عذوبة ورقة ويسرا ، لا تجتمع لكثير من كتابنا المعاصرين .

فمن الحق — اذن — أن الأدب ليس مقصورا على الذين يفرغون له ، ويقفون حياتهم وجهودهم كلها عليه ، وانما هو شيء حر طلق ، يستطيع أن يتجاوز أصحابه الذين أخلصوا له ذات نفوسهم ، الى المهندسين والأطباء وأصحاب الفنون المختلفة اذا أتيح لهم أن يحبوا الجمال ويذوقوه ، وأن يجمعوا الى حب الجمال وذوقه ، القدرة على أن يمنحوه من أوقاتهم وجهودهم بين حين وحين ما ينبغي له .

وقد اتيح هذا كله للأستاذ « حامد القصبي » ، فاهدى اليهم

هذه الطرفة القيمة من الأدب الأجنبى ، الذى يصـور عصرا من أعظم عصـور تاريخهم خطـرا • فحق له عليهم أجمل الشـكر وأصـدقه ، وما أراه يريد منهم جزاء ولا شكورا أكثر من ان يقـراوا ويستمتعوا وينتفعوا ، عسى ان يكون لهم من ذلك ما يدعو بعضهم الى ان يصنعوا مثل صنيعه ، ويمتعوا مواطنيهم بطرائف الادب الاجنبى ، سواء أكان هذا الأدب قريبا منهم أم بعيدا عنهم ، فما أشـد حاجة مصر الى هـذا النوع من الانتاج الخصب •

طه حسين

كلمة المعرب

هذا الكتاب ، الذى أقدمه لقراء العربية مترجما بلغتهم ، من تأليف الكاتب الفنلندى « مايكا ولتارى » ، وهو كاتب من أعلام مؤلفى القصة فى العصر الحديث ، وقد ذاعت شهرته فى بلاده وتجاوزتهـــا الى أوروبا وأمريكا ، وكانت لآثاره الادبية فى كل مكان من دنيا الادب الرفيع روعة أخاذة ، وجاءت قصته التى ينطوى عليها هذا الكتاب من خير هذه الآثار ومن أجلاها دلالة على قوته وخصب بيانه ، ولهذا لم تكد تظهر فى لغتها الفنلندية فى عام ١٩٤٩ حتى تدوولت تداولا سريعا واسعا فى مختلف المجتمعات الادبية ، وتبــارى فى ترجمتهــا الى الفرنســـية والانجليزية والالمانية وغيرها من اللغات الحية الكبرى مشاهير الكتاب فى بلادهم حيث قراها واستمتع بها ملايين القراء هنالك .

وقد اتيح لى اخـيرا ان أقرا هذه القصـــة باللغة الانجليزية ، فاستهوانى منها بادىء ذى بدء أن حوادثها تنبعث من مصر وتتدفق من ينابيع تاريخها القديم الزاخر ، ثم استهوانى منها بعد ذلك تسلسلها الرائع الساحر ، فعكفت عليها قراءة ، ثم عكفت عليها ترجمة ، لأجلو بها لقراء العربية على العموم وللمصريين منهم على الخصوص ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر العظيمة ، موشاة بجمال الفن القصصى البديع .

ولئن كان يسرنى انى قد وفقت بهذا الى استظهار بعض أمجـــادنا العريقة التى تجتذب قرائح الكتاب الاجانب وتستثير نشاطهم واعجابهم ، فانه ليسرنى كذلك بل ليشرفنى ، ان اظفر على هذا الجهد المتواضع بذلك التقدير الكريم ممثــلا فى كلمة اســتاذنا الجليل ، عميد الادب العربى : الدكتور طه حسين .

ان هذه الكلمة التى تفضل بها مشــكورا لتقـديم ترجمة هذه

القصة ، تشعرنى بانى قد فعلت شيئا يرضى عنه الادب ، ويرضى عنه الشعور الوطنى . وهذا خليق ان يشعرنى أيضا بانى ـ وقد انقطعت صلتى بالخدمة العامة فى اطارها الرسمى ـ استطعت فى فترة فراغى أن أكون أوثق صلة بهذه الخدمة العامة فى أفقهـا الحر الرحيب . وحين يكون الامر كذلك حقا ، فانى به لسعيد فخور .

وفى تقديم هذا الكتاب ، يطيب لى ـ كمصرى ـ أن أقف حيال حوادثه القصصية الشائقة وقفة المتأمل فيما تنبىء به من عراقة مصر وسبقها فى تاريخ الحضارة البشرية ، فلا شك أن المؤلف قد استهدى بهذا التاريخ فى نسج الكتاب وما أراه الا مؤرخا صاغ عصرا من عصور التاريخ المصرى فى قالب قصصى ، فليس ثمة من شىء فى القصة الا وله بالحقائق التاريخية صلة وارتباط ، ومن هذا كانت أحداث القصة ومشاهدها تقريرا للحياة المصرية القديمة ، وتسجيلا لما استوى لمصر فى تلكم الازمان البعيدة من أمجاد عظيمة تقدمت بها على سائر الامم والشعوب .

وقد أذكرنى هذا بما كنت قرأته ـ قراءة سريعة ـ منذ ربع قرن فى دائرة المعارف الانجليزية للكاتب الانجليزى المعروف « آرثر مى » فقد قرأت وقتئذ فى بعض فصول هذه الدائرة شيئا عن مدنية المصريين القدماء مقارنا بما كان عليه اذ ذاك حال غيرهم من الاجناس البشرية المتناثرة فى أرجاء الدنيا .

ذكرت هذا ، وكانت قد أعجلتنى عنه شواغل العمل خلال تلك الفترة الطويلة فعدت اليه أقراه مرة أخرى ، فرأيت فيه حديثا يجدر بنا روايته فى عرض قصة الكاتب الفنلندى عن البطل المصرى «سنوحى»، ولهذا فانى ناقله فيما يلى لقراء القصة ، ابرازا للحقيقة التاريخية الكبرى التى يستشف المصريون فى ثناياها صورا جميلة من ماضيهم المجيد .

قال الكاتب الانجليزى « آرثر مى » :

« كانت جماعات واقوام شتى من البشر تحيا ، قريبا من دجلة والفرات ، حياة ملؤها الخشونة ، فلم يكن بينها الا ما يكون بين الجماعات المتنافرة من الضراوة والتقاتل ، والشر المقيم المتصل » .

« وفى ذلك الحين كانت هناك ، فى مصر ، جماعة بشرية أخرى تحيا حياة انسانية متوادعة متوادة ، ناعمة بالأمن والسلام » .

« هؤلاء المصريون كانوا – فى ذلك الوقت – مجتمعا ممتازا ، ففيهم تحرك العقل المنظم ، واندفع بهم الى ممارســـة الحياة على أسلوب انسانى بعيد كل البعد عن وحشية الآخرين وهمجيتهم » .

« ويبدو انهم كانوا كذلك لأن بلادهم كانت محصـــــنة بالبحر والصحراء ، فآمنهم هذا من تطاول الاعداء عليهم ، واغناهم عن الاستعداد للقتال والتفكير فى رد العدوان ، وبذلك شاع بينهم السلام ، وفى ظله نمت عقولهم وانحسرت عنها غواشى الظلمات ، فأخذوا يتأملون بها سر الوجود ، وينسقون أسباب العيش ومصادر الحياة ، وكانوا بذلك أقوى الامم انبعاثا للحضارة الانسانية ، وأعرقها نسبا اليها » .

« فبوحى عقلهم البشرى المتحرك المدرك ، نثروا حبوب القمح على الطمى الذى كان يتخلف عن فيضان النيل فى مدى الشهور من يوليو الى سبتمبر من كل عام ، وساقوا عليها قطعان الاغنام تمكينا لها من الطمى الرخو ، فقويت عناصر نمائها وثمرها بما يختلط من أرواث هذه الاغنام بالطين ، فكانوا أول من اهتدى الى النظام الزراعى على الأسس الكفيلة بوفرة الانتاج » .

« ولقد زرعوا الفاكهة وصنعوا الحبال من البردى ، وانداحت أمام تفكيرهم آفاق الخلق والابداع ، فنظموا وسائل الرى ، واقاموا الحواجز والمعابر ، وانشأوا لهم دورا ومساكن ، وتوسعوا فى ذلك فكانت لهم اضخم البيوت والقصور مما لم يسبقهم اليه سابق » .

« وارتقى بهم العقل المستيقظ الى البحث والتأمل فى مصـــــدر الحياة وعلل وجودها ، والقوى المتفاعلة فيها ، وكان أول ما اتجه اليـــه تفكيرهم هو « النيل » ذلك النهر العظيم ، فتساءلوا : كيف ومن أين يفيض ؟! وأية قوة هذه التى تدفعه فى دورة زمنية منتظمة ، فيقبل عليهم جياشا ، ويتدفق فى أرضهم غامرا حتى ليمـــلأ الأودية ويعلو عـــلى الشطآن ؟! .. وقالوا : ان هذه معجزة تجاوز طاقة الرجل الواحـد بل مجموعة الرجال ، فالواحد منهم يستنفد قوته فى رفع المـاء فى دلاء صغيرة لجزء محدود من الارض جد قريب ، فما بال هذا النهر يتعالى كأنه الجبال ، وينحط من بعيد على الوادى الفسيح فيغمره من جميع اقطاره بالماء فى لحظات ؟ ! فليس الذى يفعل ذلك من البشر ، وليست قوته بالتى تقاس بقوتهم ! .. وانتقلت تأمـــلاتهم فى ظاهرة النيل الى التأمل فى انفسهم وفيما يتصل بأنفسهم من حياة وموت ، وصحة ومرض.

وشبع وجوع ، الى غير ذلك مما لم يكونوا يفكرون فيه من قبل ، وأسلمهم هذا التفتح الذهني الجديد الى الاعتقاد بأن من وراء هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه قوة خارقة ، هي فوق القوى جميعا » .

« وكان لا بد من آن يصطلحوا على تعريف هذه القوة الخارقة ، فسموها الها ! .. ورسموا لصلتهم بهذا الاله طقوسا تعبدية ، سموها ديانة ! ... »

« فهم أول من اهتدوا الى اله ، وأول من اشترعوا شريعة تقربهم اليه . وقد تساموا في النظر اليه على الارض ، فراحوا يلتمسونه في السماء ، فكانوا دائما يرفعون رءوسهم الى أعلى ، ويديرون عيونهم في الكواكب والنجوم والافلاك ، فزادهم ادمان النظر لها والتطلع اليها استنارة فكر ، ويقظة عقل ، وقوة روح . وشيئا فشيئا ربطوا بين السماء بكواكبها ونجومها وافلاكها وسائر ظواهرها ، وبين أحداث الارض وتفاعلات الكون والناس كافة . وخلصت لهم من ذلك معتقدات دينية تتباين في مراسمها ومسمياتها ، ولكنها آخر الامر تتحد في لبابها وجوهرها ، اذ ينتهي بها كل فريق منهم الى اله يمثل القوة الخارقة المسيطرة على خلقه وأفعاله وحركاته » .

« ومن مظاهر تقريراتهم العقلية انهم اعتقدوا أن من وراء قوى الطبيعة الهائلة ، قوى أخرى أعظم منها ، تسيرها وتؤثر فيها ، فسموا هذه القوى غير المنظورة بأسماء يتعارفون عليها للتأليه والعبادة والتمييز . فلقوة الخير عندهم اله اسمه « أوزوريس » ، ولقوة الشر اله اسمه « ست » وجعلوا لاله الخير « أوزوريس » زوجة أسموها «ايزيس» وابنا أسموه «حوراس» . فمن شاء منهم مرضاة «أوزوريس» وبلوغ الحظوة عنده ، تقدم بالهدايا والقرابين الى « ايزيس » وهكذا »

« وهذه وامثالها مما زخرت به حياة المصريين القدماء ، قد لا تسلم من الخطأ لقيامها على الفروض والتخيلات ، ولكنها — ويجب الا ننسى هذا — كانت مقدمات التفتح العقلي ، واجتهادا في سبيل استكناه الحقيقة الكبرى ، ولم يكن من سبيل سوى ذلك في كشف سرها المجهول . ولم يشذ المصريون في هذا عن سنة التطور ، كما ان معتقداتهم هذه المفترضة أو المتخيلة لم تكن تبعد كثيرا عن الحقيقة المنشودة ، فقد كانت في القليل ارهاصا لها وتبشيرا بها . ونحن نرى ان قوانين العلوم الثابتة بدأت على فروض متعثرة ومحاولات تجريبية قائمة على محض الالهامات الغامضة . ومن أمثلة ذلك علم الفلك ، فهو ثمرة النظر الشارد

الى النجوم ، وكذلك علم الكيمياء ، فهو وليد السيمياء . وفى سائر الاحوال لاتخلص الحقائق مستكملة العناصر الا بعد محاولات شاقة يتخللها الشك والخطأ » .

« فمهما يكن من شأن معتقدات قدماء المصريين ، فان ثمة أمرا لا يمكن تجاهله وهو أنها كانت الطلقة الاولى فى اتجاه العقيدة الصحيحة التى انتبه اليها وسار فى طريقها من جاءوا بعد ذلك من عظماء البشرية . وقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يرتبط مبكرا جدا بذلك العقل الكبير الكامن خلف قوى الكون وأن يلهمهم بأن لهم حياة آخرى بعد هذه الحياة ، وأنهم محاسبون حسابا دقيقا أمام ذلك العقل الكبير عن أفعالهم فى حياتهم الأولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هيـــاكلها المادية لتخلد هناك فى برازخ الابدية ، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيرا وبالشر شرا . وبهذه العقيدة خطا المصرى خطوة واسعة نحو المدنية الرشيدة التى جاءت مخاض ايمان صحيح وديانات سماوية قويمة » .

« وهذا الذى بلغه المصريون القدماء عن طريق العقـــل حينذاك ، كان بلا ريب مشرق نور الحضارة الانسانية فى عالم بدائى يعيش وسط ظلمات متراكمة ودياجير حالـكة السواد ، وهو أمر يرفعهم الى القمـــة والصدارة من التاريخ البشرى المتحضر » .

« ومن الحق ، تبعـــا لذلك ، أن يقال : انه فى الوقت الذى كان اجدادنا يضطربون فى متاهات الهمجية والتوحش ، وكانت هذه الجزر البريطانية ادغالا أو كالأدغال ، تحيا على شريعة الغاب ، وقوانين الظفر والناب ، فى ذلك الوقت .. كانت معابد المصريين ، واهراماتهم الشاهقة، وآثارهم الرائعة ، تنهض على عين الدنيا دليلا على مدنيتهم وحضـــارتهم ، وعلى أنهم كانوا الشمس التى قبست منها كل آمة شعاعا من نور » .

« وكم هى جليـــلة مؤثرة تلك الاحساســـات الروحيـــة التى استشف بها أولئك المصريون القدماء قوة الاله ، واستظهروا بها صلة الـكون به ، فاتخذوا منهـــا ــ كما ينبغى أن يكون ــ منــارة الحق والخير والسلام ، ثم تداعوا اليها ، وتنادوا بها ، فكان دعاؤهم وتناديهم حفزا قويا الى تخليص البشرية من الجهـــالة والبهيمية العمياء والتقدم بهـــا خطوات واســـعة الى حظيرة الألوهية ، والى الايمان بالحياة الخالدة بعد الموت » .

« من أربعة آلاف سنة قبل ميـــلاد المسيح ــ اى من ضعف الزمن الطويل لحادث مولده الســـامى ــ كان المصرى ينحنى حتى يمس بجبهته

تراب الارض أمام هرمه الاكبر ، متخشعا لالهه الذى يتمثله متجليا فى هذا الاثر الرامز الى القوة العتيدة . وكثيرا ما كان يفعل ذلك فى كل ما يهيىء له وسيلة التعبير عن ايمانه بهذا الاله الذى يراه فوق صـــور البشر وأفعالهم » .

« فهؤلاء المصريون قد تقـدموا جميع من جاءوا بعدهم ، فسلكوا سبيلهم ، واذا كان أولئك الذين جاءوا بعـدهم قد حرروا آخر الامر اتجاهات العقل الانسانى من بقايا الخوف والخرافة ، فالواقع أنهم انما أتموا بفعل التطور العقلى ما بدأ المصريون به . فالسبق لا ينفك معقودا لهم ـ أى للمصريين ـ فى هـذا المجال ، والعالم كله ـ بلا مراء ـ مدين بالفضل لهم فى ذلك » .

« ثم انهم ـ الى هذا ـ يمتازون بخصـال انسانية .. قلما توافرت لغيرهم ، منها الانبعاث للعمل والكفاح فى انحاء الحياة الشتى ، فمهـدوا الأرض وأثاروها واستنبتوا فيهـا الزروع المختلفة كالشـعير والقمح والعدس والبصل والبقول والفاكهة ، وأحسنوا تربية الأنعام واستكثروا منها ، وغزلوا أصوافها ونسجوها واستعملوها لباسا لهم ، واصطنعوا الصيد وأجادوه ودربوا عليه كلابهم وقططهم ، وغير ذلك كثير مما أفاء عليهم رغادة العيش ونمى فيهم ملـكات الاستنباط والابتداع ، حتى أنهم أجادوا علم الحساب . وهذه أهراماتهم الخالدة التى تثير الاعجاب على وجه الزمان ، لم يكونوا ليستطيعوا تشييدها هذا التشييد العجيب المدهش ، لو لم يكونوا قد حذقوا جيدا علوم الرياضة . وكذلك مدنهم الكبيرة العظيمة وهياكل معابدهم الهائلة التى تأخذ بألباب مكتشـفيها ومشاهديها ، فانها أيضا من آثار أيديهم الصناع ، ومجالى عقلهم المنظم الخصيب » .

« وجماع القول ان مصر كانت ذائعة الشهرة بعيدة الصـوت فى اقطار الدنيا جميعا ، وكانت ملتقى أسواق العالم ، تتوافد عليها قوافل التجار والرحالة ومن اليهم من كل صوب وحدب ، كما كانت السفن المصرية تجوب البحـار فى كل الاراضين والاصقاع ، وبهـذا وبغيره من الثقافات والعلوم ، كان لها السبق والتقدم على سائر الامم والشعوب » .

وبعد ... فهذا اجمال ما سيراه القارىء مبسوطا مفصلا فى سيرة بطل قصتنا « سنوحى » . ونحن معشر المصريين أحرياء بأن نعتز به لقوة دلالته على ماضينا البعيد الجليل .

حامد القصبى
وكيل وزارة الأشغال السابق

فبراير ١٩٥٥

قارب الغاب



- ١ -

اكتب هذا أنا « سنوحى » ابن « سنموت » وزوجته « كيفا » ، ولست اريد به تمجيدا لآلهة ارض « كيم » أو اشادة بأمجاد الفراعنة ، فقد أجدبت فى نفسى هذه المعانى ، فسئمت الآلهة ، وضقت ذرعا بأفاعيل الفراعنة .

ولا اكتبه عن خشية من حاضر ، أو بأمل فى مستقبل ، فقد عشت ماعشت من حياتى ، ورأيت وعرفت وفقدت الكثير ، وراح كل هـــذا فريسة باطل طاغ مزعج .

انمـــا أكتب كتابى لنفسى وحدها ، لا تحدونى رغبة فى تخليد اسمى ، فقد برمت بالخلود مثلما برمت بالآلهة والملوك مخالفا بذلك ما اصطلح عليه الكتاب الذين تقدمونى ، والذين يجيئون بعدى .

وقد أخذت فى نظم حلقات هذا الكتاب بعد ثلاثة أعوام قضيتها بمنفــاى على شـــاطىء البحـــر الشرقى (البحر الاحمر) حيث لا شىء غير سفن تروح عليه وتغــدو الى أرض « بنت » ، وغير هاتيك التـــلال المتراكمة يستخرجون منها احجارا يصنعون بها تماثيل الملوك الذاهبين .

والحق أن الكتابة الآن هى لذتى الوحيدة فى الحياة ، بعد اذ أصبح « النبيذ » مر المذاق على لسانى ، وزايلنى الهوى الى النســاء ، وعدت لا احس متاعا فى النظر الى الحدائق ريانة الزهر ، فواحة العبير ، أو الى الاسماك الجميلة الملونة سابحة فى مسارب المــاء ، كمـــا لم أعد استشعر شيئا من الطرب للغناء ، فقد عافت أذناى نغم القيثار وألحان المزامير .

وهأنذا فى منفاى اجد من حولى ثرائى العريض ، واكوابى الذهبية ، وأدوات العاج والأبنوس ، وأعواد المسك نفاحة العطر ، وها هم الارقاء والحراس يهابون سلطانى ويحنون بين يدى هاماتهم حتى لتكاد تلمس الأرض اجلالا لمكانتى واحتراما لقدرى ، ولكن ماذا أنا من هذا كله والقيود

تحد خطاى ، وتغلل ارادتى ، ولا يؤذن لسفينة ان ترسو على شـــاطىء منفاى .

لقد استحال على أن أتنسم ريح الأرض الطيبة السوداء ، ولو فى ليلة واحدة من ليالى الربيع ..

كان اسمى منقوشا فى سجل فرعون الذهبى ، وكان مكانى دائما الى يمينه ، وآرائى تعلو فى أهميتها آراء الكبار المقدمين من أهل أرض « كيم » .

وكان النبلاء يجزلون لى عطاياهم وهداياهم ، كما كان عنقى يزدان بالقلائد الذهبية ذات البريق الأخاذ ، وكنت من هذا كمن أوتى أقصى ماتهفو اليه النفس ، ولكن طبيعة البشر مسرفة فى مطامعها نزاعة الى المزيد من شهواتها ، ومن هنا بقيت كما كنت ! ..

لقد أبعدت من « طيبة » الى هذا المنفى فى السنة السادسة لحكم فرعون « حور محب » محكوما على بالقتل ان جاوزت او حاولت مجاوزة النطاق المحدد لاقامتى ، هكذا قضت مشيئة فرعون الملك الذى كان صديقى يوما ما .

وانه حينمـــــا أبدأ فى شرح قصتى ، لتند عن قلبى صرخة الألم الممض الذى يغمرنى بالمنفى ، فان من ارتوى مرة من مياه نهر النيل ، ليظل دائم التحنان اليه والتلهف عليه . ولو انتهل أعذب ميــاه أنهار العالم ، لما ابتردت بذلك كبده الحرى الظامئة .

وهذه ثروتى الطائلة ، أعطيها عن طواعية وكامل رضا ، لمن يمكن لقدمى فى أن تعود فتطأ ، ولو مرة واحدة ، أرض (كيم) الطيبة . وانى لأتمنى لو اســـتبدلت بأثوابى التيلية التى يرفل فى مثلها النبـلاء جلد عبد مسترق ، لقاء عودتى لأستمع الى حفيف رياح الربيع وهى تهب رخاء على اعشاب النيل ..

كم كانت أيام شبابى مونقة صافية .

وكم كانت جميلة ممتعة ... حماقات الشباب .

ألا ليت الشباب يعود يوما ... لأشكو اليه أفاعيل المشيب

وليت (آمون) يبحر من الغرب الى الشرق ، ويخترق السموات العلى ، ليرد على ما أدبر من شبابى ..

ولكننى ، مع هذا ، لن استطيع ان ابدل مما فعلت فتيلا ، ولن أقدر على نقض شيء مما أبرمت ٠

اذن ،فهلم ايها القلم ، ياحليفى وصديقى ومؤنسى فى الشدائد ، لتعيد الى على صفحات البردى الناعمة ٠٠ ذكريات شبابى وحماقاتى ٠

- ٢ -

كان « سنموت » الذى ادعوه ابى ، طبيبا لفقراء « طيبة » ولم يعقب من زوجته « كيفا » الى ان وافيتهمـا وهما عجوزان ، ولفرط سذاجتهما حسبانى هبة من الآلهة ، غير مستشعرين شيئًا مما ستصيبهما به هذه الهبة فى المستقبل .

وقد اطلقت على « كيفا » اسم « سنوحى » على اسم بطل احدى الأساطير التى كانت مولعة بالاستماع اليها ، ظنا منها انى جئت ناجيا من خطر ، كذلك البطل الذى سميت باسمه . ففيما ترويه الأساطير ، أنه قد تناهى اليه عرضا ــ وهو فى خيمة فرعون ــ سر خطير ، ففرهاربا وعاش عدة أعوام حاشدة بالمغامرات فى بلاد اجنبية .

وكانت «كيفا» ــ فى براءتها ــ وهى تختار لى هذا الاسم٠٠٠تأمل ان اتخطى به الأخطار وأن يكون عاصـــمى من ســـوء الحظ ٠ وقد كان كهنة « آمون » يتخذون من الاسم فألا لصاحبه . وما أدرانى فلعل هذه التسمية هى التى جرتنى الى ما لقيت من الأخطار ودفعتنى الى ألـوان شتى من المغامرات ، وقذفت بى الى بـلاد بعيدة ،وربطت بينى وبين اسرار مخيفة تتصل بالملوك وزوجاتهم وتحمل لى الموت فى ثناياها حتى انتهت بى آخر الأمر الى ما أعانى من النفى والشراد .

على انى كنت احسب من البلاهة موافقة « كيفا » فى اعتقادها آن للاسم أثرا فى مقدرات الانسان ٠ أترى لو سميت «خفرع » أو « خفرو » أو « موسى » كان يحدث لى غير ما حدث ؟! لا أظن ذلك ٠

ومهما يكن من أمر الأسماء ومسمياتها فالواقع أن « ســـــنوحى » اصبح طريدا منفيا ، فى حين قد توج « حب » الذى يدعى بابن الصقرتحت اسم « حورمحب » ملكا على المملكتين العليا والسفلى وحمل فوق رأسه التاج الاحمر والابيض ٠ فلندع ٠٠٠ اذن ٠٠٠ لكل انسان تقديرهالخاص للاسماء ومميزاتها وما قد ينطوى عليه هذا التقدير من عزاء فيما يقع من شرور الحياة ومفارقاتها .

ولقد ولدت في عهد حكم الملك العظيم « امنحوتب الثالث » مقدورا ان اكون مجهول المنبت ، محروما من الاستمتاع بحقوقي ، ثم يشـــاء القدر أن يقع بعد مولدي بقليل مولد آخر تهتز له جنبات القصر الملكي فرحا وابتهاجا ، فتقام له هنا وهناك معالم الزينـات ومجـالي الغبطة والسرور ، ويتقدم الملك من أجله بالقرابين الى « آمون » في معبده ، ويهرع الشعب ، متنافسا ، الى مشاركة مليكه في فرحه وابتهاجه ، ذلك لان الملكة « تايا » التي ظلت اثنتين وعشرين عاما تتوسل الى الآلهـــة أن ترزق مولودا ذكرا ، قد وافاها أخيرا ذلك المولود المنشود ، فنودي به وليا للعهد بعد اتمام مراسم ختانه بوساطة الكهنة .

لم يكن هذا الولي للعهد قد ولد حتى الربيع ، وهو موسم الحصاد ، في حين أني ولدت في الخريف المتقدم عليه عندما بلغ فيضان النيل ذروته، وبقي يوم مولدي مجهولا لانني وسدت قاربا من الغاب مطليا بالقطران ، ومضى به تيار نهر النيل ، حتى اكتشفته أمي « كيفا » وسط حشائش الشاطيء على مقربة من عتبة دارها ، وكانت الطيور ساعتئذ تهوم فوقي ، وقد بدوت لامي ساكنا بلا حراك حتى ظنتني ميتا ، ولكنها عندما نقلتني داخل دارها اخذت توقد النار حولي لتمدني بالدفء والحرارة وراحت تنفخ في فمي حتى ظهرت علي أمارات الحياة من جديد .

وما لبث أبي « سنموت » أن رجع الى داره بعد فراغه من زيارة مرضاه حاملا معه بطتين ودقيقا ، فسمع صراخا خيل اليه انه مواء هرة جاءت بها زوجته ، فأوشك أن يؤنبها على ذلك لولا أن عاجلته ببشرى عثورها على المولود الذي بعثت به اليهما الآلهة .

ولم يبـد أبي ارتياحا لذلك بادىء الأمر ، ولـكن « كيفا » حملتني اليه فحركت فيه عاطفة الاشفاق على مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة ، ومن ثم اتفقا على أن يتخذاني ابنا لهما ، واذاعا بين الجيران أن « كيفا » قد ولدتني . ولست أدري كيف جازت عليهم هذه الاكذوبة السافرة .

بيد أن « كيفا » حرصت على أن تحتفظ بالقارب الذي حملني اليها ورفعته معلقا بالسقف فوق فراشي . وذهب أبي لفوره الى المعبد ، يحملني على اناء نحاسي ليقيد اسمي هنالك في ســـجل المواليد باعتبـــاري ابنه من زوجته « كيفا » . وتولى هو عملية ختاني ، لانه ، كطبيب ، لايطمئن الى آلات الكهنة غير المعقمة والتي كثيرا ماننشأ عنها جروح معدية، ذلك الى أنه قد وفر ماكان سيدفعه أجرا للكهنة وهو أحوج اليه منهم ، فطبيب الفقراء لا يمكن أن يكون الا فقيرا كذلك .

كانت هذه المعلومات تتساقط على سمعي فى الفينة بعد الفينة ، خلال احاديث وعبارات بريئة يدور بها لسان ابى أو أمى ، فى مناسبات مختلفة ، غير انى فى طور طفولتى لم أكن اشك أبدا ان « سـنموت » و « كيفا » أبواى حقا ، فعشت تلك الفترة فى ظلهما سعيدا لا تكدر الأيام صفو حياتى .

وما كاد عود شبابى يزدهر ، وأصبح فتى يافعا مفصوص الشعر ، حتى أخذ أبواى يظهرانني على حقيقة أمرى مجردة من الشك ، فهما يخشيان الآلهة ويقدسانها ، ولا يرى أبى - بخاصة - آن ثمة خيرا فى أن أعيش حياتى جاهلا هذه الحقيقة .

وحينئذ ساورنى القلق والحيرة ، فمن انا ؟ ! ومن أين جئت ؟ ! ومن يكون أبى وأمى ؟ ! ذلك ما لم أتبين سره الدفين الا فيما بعد .

ولم يغب عنى -وأنا فى عراك الحيرة بينى وبين السر المجهول- أننى لست الوحيد الذى ساقه القدر محمولا على قارب من الغاب يدفعه تيار ميـاه النهر . « فطيبة » بقصورها ومعابدها كانت مدينة عظيمة ، وكانت الاكواخ التافهة المبنية باللبن التى يسكنها الفقراء تنتشر بكثافة ملحوظة حول الابنية الفخمة والدور المنيفة ، وكانت مصر أيام الفراعنة العظام تحكم بقوتها وثروتها عدة شعوب مختلفة العادات والتقاليد ، فكان التجار والصناع من أهل تلك الشعوب يقبلون على « طيبة » ويستقرون بها ويقيمون فيها المعابد لآلهتهم ، وفى هذا المجتمع الزاخر المتباين ، كان ثراء أصحاب القصور والمعابد ، يتحدى فى سعته وكثرته، بؤس الفقراء والمساكين الذين كان الكثيرون منهم ، لشـدة املاقهم ، يتخففون من أطفالهم فيسلمونهم الى النهر ، عند ولادتهم ، فى قوارب من الغاب. كما أن كثيرات من زوجات الاغنياء الذين تطول أسفارهم كن يتخلصن من خطيئاتهن بهذه الطريقة .

ربما كنت واحدا من هؤلاء الاطفال ، أو قد أكون ضحية الفقر والاملاق ، وقد أكون خطيئة زوجة تمثلت طفلا ! ..

لقد وضعت « كيفا » خصائل شعرى المقصوص فى صندوق خشبى صغير ، وفى هذا الصندوق نفسه وضعت « الصندل » الذى كان فى قدمى يوم ساقتنى المقادير اليها .

انى لأنظر كثيرا الى قارب الغاب ، وأطيل النظر والتأمل فى دعاماته المحطمة وعقده المتشابكة ولونه الذى أعتمه دخان الموقد ، فلا يزيدنى

ذلك الا ابهاما وحيرة ، ولا أجد فيه بصيصا من نور أهتـــدى به الى أبى، وامى ، وقومى وأهلى •

وكان هذا هو الجرح الأول الذى أصاب قلبى وأدماه •

- ٣ -

عندما يتقدم عمر الانسان ، تحلق روحه كالطائر فى سماء طفولته البعيدة ، لتجمع الى حاضره ذكريات ماضيه ، والناس جميعـا فى ذلك سواء ، لا فرق بين أغنياء وفقراء ، وأحسبنى راضيا عن حاضرى فيما عدا بدوات قليلة كنت أتمنى الا تكون •

كان أبى « سنموت » يقطن فى حى كثير الاوســاخ دائـم الصخب والضجيج يقع بالجانب القبلى من أسوار المعبد ، ويقوم على مقربة من داره مرفأ السفن الجارية فى النيل حيث تلقي أحمالها ، وتزدحم الأزقة الموصلة اليــه بالحانات ودور المبــاذل واللهو الرخيص يرتادها البحــارة ورجال التجارة ، ويفد عليها أصحاب الثراء من أقصى المدينــة على محفاتهم التى يحملها الأرقاء •

وجيراننا من جباة الضرائب وربابنة السفن وضباط الصف والكهنة من المرتبة الخامسة كانوا كأبى يعتبرون من الطبقــة المحترمة التى ترتفع عن عامة الشعب بمقدار ارتفاع الحائط عن سطح الماء •

أما دارنا فكانت رحبة فسيحة بالقياس الى أكواخ الفقراء الطينية التى تتكاثف فى الأزقة الضيقة وتتغشاها الكآبة • ولهذه الدار حديقـة صغيرة تتوسطها شجرة الجميز الذى يسمى « تين فرعون » وهى من غرس أبى ، ويحد الحـديقة من ناحيــة الطريق ســور من أشجار السنط وبهــا حوض بنائى لا يملأ بالماء الا وقت الفيضان • ويتألف مبنى الدار من أربع غرف إحداها لطهو الطعام الذى كنا نتناوله فى شرفة متصلة بغرفة عيادة أبى الطبية وكانت تتردد علينا خادم مرتين خلال الاسبوع لتعاون أمى فى تنظيف البيت ، وفى يوم واحد من أيام الاســبوع كانت احدى النســاء توافينا لتحمــل ملابسنا الى شاطىء النيل لتغسلها بالمكان المخصص لذلك •

وفى هذا الحى الذى يصطخب شغبا والذى كان مسرحا لتفــاهات الحيــاة التى يحياها أهــله وبينهم أخلاط من الاجانب كان أبى وجــيرانه يحرصون على التمسك بالتقاليد والعادات الكريمة حتى فى الوقت الذى

جافت فيه الطبقة الراقية بالمدينة هذه التقاليد والعادات وانحرفت عن جادتها . ولعل أبى ورفاقه وأهل طبقته قد قصدوا من وراء ذلك الى تمييز سلوكهم وسيرتهم عن أولئك الذين يتصلون بهم بأسباب الحياة والعمل .

ولكن مالى أعرض لهذه الامور وهى التى كانت ترسم لى فى غمار طفولتى صورا بلهاء ساذجة ، فلم أتبين مكنون أسرارها الا بعد أن شببت عن الطوق ، واستوت عندى ملكة الفهم والادراك ؟!

ان فى ذكريات هذه الطفولة يطيب الآن حديثى ، أكثر من أى شىء آخر ، عن شجرة الجميز .. ذات العقد الكثيرة ، التى كنت أجلس الى جذعها لأحتمى بوارف أغصانها من لفحات الشمس المتقدة ، وعن تلك اللعبة الخشبية الجميلة التى تصور تمساحا يفغر فاه ويلوح بين فكيه بلعومه الاحمر ، فأجره ورائى مسحوبا بخيط رفيع وأمضى به فرحا مزهوا على الطريق المرصوف . لقد كان اترابى من أطفال جيرتنا لايقلون عنى ولعا بهذه اللعبة الطريفة التى تهيىء لهم أن يعبثوا بالتمساح الذى يخشاه فى دنيا الحقيقة أشداء الرجال .. ولم يكن باستطاعتهم أن يفوزوا بمثلها فقد كانت لعبة الاطفال من الطبقة الراقية ، وقد أهداها لأبى نجارالقصر الملكى لقاء إبرائه من دمل كان يوجعه ويمنعه من الجلوس ... وكنت أعرف ، لتفردى بها بينهم ، مقدار قيمتها عندهم ، فلم أكن أسمح لهم باستعمالها الا اذا منحونى الكثير من الحلوى والاحجار اللامعة وقطع النحاس البراق .

لقد كانت أمى فى الصباح تصحبنى معها وهى ذاهبة الى سوق الخضر ، وقد تعودت أن أراها تستعرض الاشياء وتطيل النظر اليها متأملة فاحصة ، حتى لتقضى ساعات فى ابتياع حزمة من البصل ، فان كان الامر متعلقا بشراء حذاء جديد فلا أقل من أسبوع تقضى صباح كل يوم فيه متنقلة بين الحوانيت الى أن يستقر رأيها على شرائه . وكانت تقول : ان الناس يظنونها ثرية لا تشترى الا القليل الذى ينال اعجابها . وطالما كانت تردد على سمعى أنها لا تحاول أن تقتنى دائماكل ما يروقها لتلهمنى عادة الاعتدال فى الحياة .. ومن رأيها على أى حال أن الغنى ليس بالمال وما اليه من مظاهر الثراء وانما الغنى الحقيقى هو غنىالنفس والرضا بالقليل ، وكانت تؤكد لى وهى تنظر الى المنسوجات الزاهية الالوان المستوردة من « صيدا » و « بابل » أنها لا تعدل نسيج بلادها العادى ولا ترقى الى مستواه جودة وأناقة ، وما أكثر ما كانت تصف

بالغرور والسفه أولئك الذين ينفقون أموالهم فى اقتنـاء ريش النعـام والآنية العاجية ... وهكذا كانت تذهب معى فى التعبير عن فلسـفة القناعة والحث عليها ٠٠ ولكن فى سمع الطفولة صمما لا يصغى الى تلك النصائح والتوجيهات بل انه ليتمرد عليها ويجرى فى غير سـبيلها ٠ ولذلك طالما تمنيت لو أن لى قردا كذلك الذى يلف ذراعيـه حول عنق صاحبه ، أو طائرا بريشه الجميل الزاهى الالوان يتصايح بكلمات من السورية حينا ومن المصرية حينا آخر ، ولماذا لا أتحلى بالقلائد الذهبيـة وأنتعل الصنادل المطعمة بالذهب ؟!٠٠

على أنى لم أعرف الا أخيرا أن (كيفا) المسكينة كثيرا ما التاعت بحسرة العجز والحرمان وكثيرا ما تمنت الغنى والثراء ، بيد أنها كزوجة طبيب فقير كانت تخفف من حنينها الى الثروة ، وتحد من تحسرها عليها، بما كانت تدأب على روايته من القصص والاساطير احياء للأمل فى المستقبل المجهول ٠

وفى المساء ، عندما نأوى الى فراشنا ، كانت لا تفتأ تردد على سمعى ، بالصوت الخفيض ، قصص الابطال والآلهة والملوك ، فسمعت منها قصص « سنوحى » الذى سميت باسمه ، والرجل الذى تحطمت سفينته فى اليم وعاد رغم ذلك بالثراء الطائل، وقصص الآلهة والارواح الشريرة والسحرة والفراعين القدماء ٠ وكانت كلما أغربت فى هذا القصص وأوغلت فيه أشعر برغبة متجددة فى الاستماع والتكرار ، وكان هذا يروقها فتمضى فيه ، ولكن أبى فى بعض الاحيان كان يفجأنا باعتراضاته ، مبـديا خشيته من أن تحشو زوجته رأسى بالخرافات ٠ وكنت فى نفسى أنكر عليه هذه المداخلات لانها كانت تقطع علينا ما كنت ألقاه فى قصص أمى من لذة وسلوى وبخاصة فى ليالى الصيف المؤرقة ٠

وان أنس لا أنسى ذلك الحنان السخى الذى كانت تضفيه على أمى « كيفا » ، وما أحسبنى كنت أظفر بمثله من أمى التى ولدتنى ٠٠٠ حقا لقد كانت أمى « كيفا » امرأة عطوفا طيبة القلب ، حتى ما كانت لتبخل بعطفها وكرمها على أولئك الغرباء من القصاصين ورواة الاساطير الذين كانوا يتواردون عليها ، فيجدون عندها عشاء طيبا وتحيات لطافا ٠

وكما كانت أقاصيص أمى تسلينى وترويني، كانت الجلبة الدائمة فى الشارع ، والروائح الكريهة المتطايرة منه ، وأسراب الذباب المطوفة به ، تضايقنى وتؤذينى وتكدر صفو خيالى ٠

غير أنه بين آونة وأخرى كانت تهب علينا رياح مقسـلة من المرفأ

حاملة عبق أشجار السدر وأعواد المسك وأنفاس العطور التى تتضمخ بها الغانيات السانحات بالشارع على محفاتهن فوق رءوس الأرقاء ، فتتفتح بذلك نفسى المكظومة وينشرح صدرى المنقبض ..

وفى كل مساء حينما كان قارب « آمون » الذهبى يتوارى خلف التلال الغربية ، كانت تتصاعد من أكواخ الفقراء القريبة منا ريح شواء السمك والخبز الطازج ، وكنت فى طفولتى أستطيبها ، وانى لأتشممها الآن ولا أزال أستروحها .

وقد تلقيت الومضة الاولى من ثقافتى التعليمية فى شرفة منزلنا حيث بدأ أبى يتعهدنى ويدارسنى بعد تناول الطعام ، ثم درجنا على ذلك.

وكان أبى يهل علينا من حديقة المنزل عائدا من زيارة مرضاه أو خارجا من غرفة عيادته ، ورائحة العقاقير الطبية النفاذة تنبعث من ملابسه ، فتخف أمى الى لقائه ، وتصب الماء على يديه ، ونجلس معا لنتناول الطعام فى حين تظل أمى ناهضة على قدميها لخدمتنا . وكثيرا ما كانت تمر أمامنا جماعات من البحارة الثملين فيضربون حوائط المنازل بعصيهم ويقف من يشتد بهم الثمل ليتجشأوا ما فى أجوافهم بجانب أشجار سور منزلنا . وكان أبى ، فى هدوئه ورزانته ، لا يقول شيئا حتى يمضوا ، فيلتفت الى ويقول : لا يمكن أن يكون هؤلاء الا رعاعا ، فالمصرى المهذب يتخفف من جوفه المثقل بالخمر بعيدا فى احدى الخرائب ، لا هكذا قريبا من الدور والاسوار ، والنبيذ هبة من الآلهة اذا اعتدلنا فى تعاطيه ، وقدح منه لا يضر أحدا ، وقدحان يحلان عقدة اللسان ، وأكثر من ذلك يضل شاربه ويستلب لبه ، ويلقى به على قارعة الطريق ، فان أفاق بعد ذلك وجد نفسه مضروبا منهوبا .

وقد يحدث ونحن جالسون بشرفة منزلنا أن تتسلل الى أنوفنا روائح معطرة تنفضها حسناء تمشى بالشارع متثنية متدللة بملابسها الرقيقة التى تشف عن محاسنها وتجلو مفاتنها ، وعلى خديها وشفتيها وحاجبيها قشرة من التمويه الملون الدقيق ، وفى عينيها بريق أشد اثارة وفتنة ، وأبعد ما يكون من معنى الفضيلة . فاذا ما وقع عليها نظرى أخذتنى من جمالها غشية المفتون ، فينبهنى أبى قائلا : اياك ـ ياولدى ـ والمرأة التى تستميل بمثل ما ترى مشاعرك ، فحبائل المرأة مصيدة للرجال وجسمها يحرق أشد مما تحرق النار .

فلم يكن عجيبا بعد تلك التعاليم والنذر التى لقنتها فى طفولتى إن أشب وجلا من الخمر خائفا من الحسان ، ولو انهما ـ كليهما ـ ما برحا

فى غمر من الغموض جعلهما أكثر اثارة للفكر وأقوى سـيطرة على العاطفة ٠

وسمح لى أبى ـ وأنا ما أزال صغيرا ـ أن أشهداستشاراته الطبية وأستمع الى تشخيصه لأدواء مرضاه ، ثم كشف لى عن آلاته الجراحية من مشارط وملاقيط وقوارير دواء شارحا لى وسائل استعمالها ، وطاب لى أن أكون الى جانبه وهو يفحص المرضى ويعالجهم ، فأناوله أوانىالمياه الساخنة والضمادات والزيت والنبيذ ، ولم تكن أمى تطيقرؤية الجروح، فكانت تعجب من هوايتى هذه ، ولكن الطفل عادة لا يقدر الآلاموالاوجاع حتى يجربها بنفسه ، وكنت اذا أتيحت لى رؤية جراحة بسيطة لفتح دمل أو نحوه أروح أروى خبرها لرفاقى فىفخار طمعا فى نيل احترامهم٠

وفى عناية واهتمام كنت أتابع أسئلة أبى لمرضاه وهو يتـولى الفحص عما بهم ، فاذا انتهى من هذه المهمة سمعته يقول : هذا المرض قريب من الشفاء ، أو يعبر عن اطمئنانه قائلا لمريضه : سأتولى علاجك ٠٠ وفى حالات يأسه من برء المريض كان يكتب له بضعة أسـطر على ورقة البردى ليذهب بها الى « دار الحياة » بالمعبد ٠ فاذا غاب هـذا المريض عن نظره تنهد وهز رأسه وقال : مسكين هذا المخلوق !٠٠

ولم يكن مرضى أبى كلهم من الفقراء المعوزين ، بل كثيرا ما كان يقدم عليه رواد بيوت اللهو والمباذل بملابسهم التيلية الفاخرة ليضمد لهم جراحا أصيبوا بها خلال منافراتهم العابثة ، كما كان يقدم عليـه أصحاب السفن من السوريين لعلاج أسنانهم ٠ وقد أقبلت على عيادة أبى سيدة فى أبهى زينتها متحلية بحليها الذهبية وأحجارها الثمينـة ، تلتمس عنده الشفاء من علتها التى كانت تشكو متوجعة منها ، وكانأبى يستمع اليها فى انتباه شديد ، ولما فرغ من تعرف ما بها تنـاول القلم ليكتب على ورقة البردى ، فعندئذ خاب أملى فى أن يعالجهابنفسه لتؤجره أجرا مجزيا ، وفى حركة غير ارادية تنهدتوهززت رأسى قائلا : مسكينة هذه المخلوقة ! فما كادت هى تسمع ذلك حتى ارتجفت وحدقت فى أبى قلقة ، غير أنه مضى يكتب سطورا باللغة القديمة ثم جاء بوعاء خلط فيه الزيت بالنبيذ ، وألقى فى هـذا المخلوط بورقة البردى وظل يديرها ويقلبها حتى اصطبغ السائل بلون المداد الذى كتب به السطور ، وبعد ذلك أفرغ السـائل فى زجاجة ناولها اياها وطلب اليهـا أن تتجرع منه كلما أحست ألما فى رأسها أو أمعائها ٠ وعندما انصرفت السيدة نظرت الى أبى الذى كان بادى الارتباك ، فتنحنح مرة أو اثنتين وقال : ان كثيرا

من الأدواء يعالج بالمداد ! ألسنا نكتب به الأدعية المستجابة ؟ ثم استمر يتمتم كأنما يخاطب نفسه : على أية حال فان هذا الدواء لن يحدث ضررا ·

ولما بلغت السابعة من عمرى ألبستنى أمى مئزرى وأخذتنى معها الى المعبد لنشهد تقديم القرابين الى الآلهة ، وكان معبد « آمون » فى (طيبة) أهم معابد مصر كلها ، وكان الطريق المؤدى اليه من بحيرة الهة القمر يخترق المدينة وتقـــوم على جانبيه رءوس الكباش وتماثيـــل أبى الهول ، وكانت تحيط بالمعبد أسوار من الحوائط السميكة ، وهو يلوح كأنه مدينة داخل المدينة لكثرة ما يعمره من بنايات وأبراج تخفق فوقها الاعلام الملونة ، وعلى أبوابه ومداخله النحاسية تقـــــوم تماثيـــل الملوك الضخمة ·

فلما اجتزنا الباب الذى دلفنا منه الى الداخل أحاط بنا بائعو كتب الموتى وأخذوا يعرضون علينا كتبهم فى اغراء حتى لقد كانوا يجذبون ثوب أمى امعانا فى رغبتهم الملحة لتشترى منهم شيئا ، ولكنها تخلصت منهم ومضت بى الى حيث يصنع النجارون من الاخشاب تماثيل الأرقاء والخدم لتكون ، بعد رسامتها بوســـاطة الكهنة ، فى خدمة أصحابها بالدار الثانية وليكون لهم بها غناء عن خدمة أنفسهم بأنفسهم ··

ودفعت أمى الاتاوة المقررة لنشهد بعض الكهنة وهم بمــــلابسهم البيضاء يقدمون القرابين للآلهة · فرأيناهم حينئذ يذبحـــون بأيديهم الصناع الماهرة ثورا ويشطرونه أربعا ، بعد أن ألصقت بين قرنيه ورقة بردى تشهد بأنه مبرأ من العيوب وليست به شعرة بيضاء واحـــدة ، وكانت أجســـامهم مكتنزة وتعلو وجوههم سمات القداسة ، ورءوسهم حليقة عارية اكتسبت بدهن الزيت لمعانا ، وهم مسترسلون فى أحاديثهم الخاصة بعضهم مع بعض لا يعيروننا التفاتا ، نحن النظارة وشـــهود الاحتفال وكنا نحو مائة ، وكنت فى شغل بما يقع عليه نظرى خلال ذلك من الصور الحربية المنقوشة على الجدران · وقد هالتنى بخاصة ضخامة أعمدة المعبد ولم أفطن بعد هـــذا الى السبب الذى حرك عواطف أمى وأعجلها لتأخذ بيدى عائدة الى المنزل والدموع تنحدر على خديها ·

- ٤ -

فور وصولنا الى المنزل أبدلت أمى حذائى الذى كنت أحتـــذيه بصندل أتعبنى بادىء الأمر ثم مالبث بالمران والاستعمال أن أصـــبح مريحا ·

وبعد أن تناولنا غداءنا جعل أبى يمسح على رأسى بحنان وعطف وقال لى وعلى وجهه أمارات الجد : انك الآن « يا سنوحى » فى السابعة من عمرك ، فعليك اذن أن تختار الحرفة التى تتعلمها ويكون عليها اعتمادك فى مستقبل أيامك ·

فأجبت على الفور : أريد أن أكون محاربا ·· قلتها عن رغبة صادقة متفاعلة فى نفسى ، فلم يكن فى تقديرى ما هو أفضل من حياة المحارب · وقد كانت آثر الالعاب وأحبها عند رفاقى وعندى هى التى تمثل أدوات الحرب وتتصل بمعانيها ولطالما شاهدت الجنود وهم يهيئون أنفسهم فى غبطة لحمل أسلحتهم أو التدرب عليها أمام ثكناتهم· وكانت تبهجنى مشاهد العجلات الحربية وهى تتسابق الى خارج المدينة للقيام بمناوراتها ، وأكثر من ذلك فى ايثار الجندية أنها لا تشترط فى الجندى أن يتعلم الكتابة ، وكنت أخشى هذا التعليم وأتهيبه ، فما أكثر ما كان الاولاد الذين يكبروننى سنا يذكرون الحكايات المخيفة عن صعوبة فن الكتابة وقسوة المعلمين فى شد شعر رءوس التلاميذ الذين تنكسر ألواحهم الطينية أو أقلامهم التى لا يحسنون ضبطها بين أصابعهم ·

وقد بدا على أبى أنه لا يوافقنى فى هذه الرغبة ، ولكنه كان يدرك مقدار تأثرى بأفكارى واصرارى عليها ، فلم يشأ التعليق على رأيى ،وان كنت أحسست بشىء من خيبة الأمل ·

لقد كان أبى ذا تجربة أفاد منها الحنكة والحكمة ، ولعله لم يكن رجلا موهوبا ، والا فقد كان من الممكن أن يكون فى خير من مركز طبيب الفقراء · غير أنه رغم ذلك كان رجلا ممتازا بتجاربه وحسن قيامه بواجبه ، فهو ، وقد سكت دون أن يعقب على جواب سؤاله ، يبدو كأنه لا يوافق على رأيى ، وهذا ما لا يطمئن له خاطرى ·

على أنه تناول وعاء فملأه نبيذا رخيصا يحتفظ به فى غرفة عيادته، وطلب منى أن أتبعه ، فذهبنا معا الى شاطىء النهر ووقف بى عند المرفأ ، فرأينا الحمالين يفرغون حمولة سفينة كبيرة على الرصيف ·

كانت الشمس وقتها تنحدر الى مغيبها خلف التلال الغربية حيث مدينة الموتى ، ولكن هؤلاء الحمالين كانوا مع ذلك يتفصدون عرقا للاجهاد المضنى الذى يكابدونه فى عملهم تحت السياط التى تنهال فوق ظهورهم من المشرف عليهم ، فى حين كان الكاتب جالسا على مقعده يرصد فى الورق بيان البضائع التى يفرغونها ·

وهنا التفت أبي الى وسألني قائلا : هل تحب أن تصبح واحدا من هؤلاء ؟

فحدقت النظر في وجهه دون أن أقول شيئا ، وحيل الى أنه سؤال بالغ السخف ، فمن ذلك الأبله الذى يقبل راضيا أن يكون كهؤلاء الحمالين المعذبين ؟

ولكن أبى استطرد قائلا : لقد اخشوشنت جلودهم حتى صارت كجلد التمساح ، وتضخمت قبضات أيديهم حتى صارت كذلك كأقدام التمساح ، وهم يعنون أنفسهم بالعمل حتى تدركهم الظلمة المتكاثفة فينقلبون الى أكواخهم الحقيرة زاحفين ، ليتبلغ كل منهم بكسرة من الخبز الجاف وقطعة من البصل الحار ويبل فمه بشراب خفيف من الجعة كالعلقم مذاقا . هذه هي حياة الحمالين ، وشبيه بها تماما حياة الفلاحين وغيرهم ممن يكسبون قوتهم بأيديهم الكادحة ، فهل تراها حياة يحسدون عليها ؟!..

فهززت رأسى مستغربا ، وظللت أنظر اليه فى دهشة !.. فما هذا الذى يقول ؟!..

لقد اخترت أن أكون جنديا ... ولم أختر أن أكون حمالا أو زارعا أو راعيا ...

وفى طريقنا عائدين من المرفأ قلت له : يا أبت ، ان الجنود أسعد حالا . انهم يعيشون فى ثكنات نظيفة ، ويطعمون طعاما جيدا طيبا ، واذا جن الليل انطلقوا الى بيوت اللهو والتسلية يشربون بها النبيذ ، وتضاحكهم الغانيات ، ويتقلد رؤساؤهم القلائد الذهبية ، وهم لا يعرفون الكتابة ولم يتعلموها ، فان كانت الحرب عادوا ومعهم الاسلاب والغنائم والأرقاء يستخدمونهم فى التجارة ويضاعفون بهم ثرواتهم ، فلماذا اذن لا أحاول أن أكون جنديا محاربا ؟!

ومرة أخرى لم يجب أبى ، ولم يعقب على سؤالى . ثم استحث الخطى الى أن بلغنا مكانا تلقى فيه القمامة وتتغشاه أسراب الذباب . فوقف أبى وانحنى ليدخل من باب كوخ حقير زرى ونادى قائلا : «عنتيب» يا صديقى : هل أنت هنا ؟ فبرز الينا رجل هرم يدب على عصا ، وذراعه اليمنى مقطوعة من أسفل الكوع وملابسه تشيع فيها الاوساخ ، ووجهه ضاو ضامر ، وقد تداعت أسنانه وتعرى منها فمه ! .

هالتنى ، بل أرعبتنى ، هذه المفاجأة وقلت لنفسى : أهذا .. أهذا

هو « عنتيب » بطل معركة سوريا تحت قيادة « تحوتمس الثالث » أعظم فراعين مصر ؟! أهذا هو « عنتيب » الذى ترن فى الآذان قصص بسالته وبطولته والهدايا التى أغدقها عليه فرعون ؟! ..

ورفع الرجل العجوز يده اليسرى فى حركة عسكرية محييا ،وقدم له أبى زجاجة النبيذ ، ثم افترشنا الارض خارج الكوخ ، فليس عنده مقاعد نجلس عليها ، وأخذ « عنتيب » يضع زجاجة النبيذ على فمه بيده المختلجة ، ولكن فى حذر شديد حتى لا تسقط نقطة واحدة منها فى غير جوفه الظامىء .

وقال له أبى مبتسما : ان ولدى يود أن يكون محاربا ، وقد جئت به اليك « يا عنتيب » لانك آخر من بقى على قيد الحياة من أبطال الحروب الكبرى ، فأنت خير من يحدثه عن عظمة الجندية ونباهة قدرها وفخار البسالة فيها .

فأخذنى الرجل بنظرة صارمة نافذة وقال : بحق « ست » و « بعل » وكل الشياطين الاخرى .. ان هذا الولد لمجنون .

واشتد فزعى من الرجل بشفتيه المنفرجتين عن فمه الخرب وعينيه المعتمتين وذراعه المهيضة ووجهه العبوس الصارم ، فتراجعت متعلقا بذراع أبى لأحتمى به .

ولكن الرجل استطرد يقول : يا بنى .. اننى اذا أخذت قطرة من النبيذ عن كل لعنة صببتها على القدر الغاشم لانه جعل منى محاربا ، ثم صببت هذه القطرات فى بحيرة فرعون التى أنشأها لزوجته العجوز ، لكانت كافية لاستحالتها الى بحيرة من نبيذ خالص غير مخلوط بماء ! .. حقا اننى لم أشهد هذه البحيرة لانى لا أملك أجر عبور النهر الى الشاطىء الآخر ، ولكنى على يقين من أن قطرات النبيذ بعدد اللعنات ستملؤها ويبقى منها بعد ذلك ما يسكر جيشا بأكمله .

قلت وشفتاى ترتجفان فرقا : ولكن الجندية أشرف الوظائف العامة وأمجدها ..

فقال « عنتيب » بطل جيوش « تحوتمس » : قد تكون كما تقول، بل لعلها خليقة أن تكون كما تقول ، ولكننى فيما أعانى منها الآن ،أراها على النقيض من ذلك،فاسمعها منى يا بنى كلمة حقة صريحة : ان الجندية فى زماننا هذا أتعس وظيفة ، والجندى أشقى من فى الوجود وأشدهم عناء فى حياته .. ولقد طالما خدعت الأغبياء من الناس وصورت لهم

الجندى انسانا سعيدا ، موفور الشرف والكرامة لانهم كانوا يستطيبون هذا الحديث الملفق ويأجروننى عليه النبيذ .. ولكن أباك ليس عندى من هؤلاء ، فهو رجل طيب مستقيم وفيه فطنة فلا أستطيع أن أخدعه وأموه الحقيقة عليه .

وأخذت الخمر تشيع فى رأسه وبدنه فتراخت تجاعيد وجهه وشع البريق فى عينيه المعتمتين ثم انتفض واقفا وأمسك رقبته بيده وقال : أنظر يا بنى الى هذه الرقبة النحيلة الضامرة ، لكم حملت من القلائد الذهبية ، لقد وضع فرعون بنفسه خمسا منها ، ان أحدا لا يستطيع أن يحصى عدد القتلى الذين أطحت برءوسهم وألقيت بها أكواما مكدسة أمام خيمة فرعون .. ومن ذا الذى كان يا بنى أول من تسلق أسوار « قادش » ؟ ومن ذا الذى كان ينصب انصبابا على جحافل الأعداء فى المعارك فيفتك بهم فتك الأسد الهصور بفرائسه ؟ انه لم يكن احدا غيرى ، انه أنا .. أنا « عنتيب » البطل .. فأى جزاء ألقاه الآن ؟! لا شىء الا أننى بعت قلائدى الذهبية لأعيش من ثمنها . وماذا أجدت على ذكرياتها المجيدة ؟ ان الذكريات لا تصلح طعاما لجائع ولا كساء لعار ولا شرابا لظامىء ! . وقد ذهب عنى أتباعى الذين عدت بهم من معامع الحروب ، ذهبوا عنى فرارا من حياة البؤس التى صرت أحياها ، بل لقد مات بعضهم جوعا ، وأين .. يابنى .. ذراعى اليمنى ؟! . لقد تركتها هناك فى أرض « ميتانى » ، وهل ترانى بعدها الا انسانا مشوها ، وكدت يابنى أن أكون ـ لفرط عجزى وفاقتى ـ متسولا يستجدى الناس فى الطرقات لولا أن فى الناس من يحسبوننى لطول ما كابدت فى الحروب ، قاصا وراوية ومؤرخ حوادث ، فهم يقدمون لى السمك والنبيذ لأقص عليهم وعلى أطفالهم روايات الحروب المثيرة .

اننى أنا « عنتيب » البطل العظيم فانظر الى جيدا ... يا بنى : لقد فقدت شبابى فى الصحراء ، سرقه منى الجوع والعوز والعناء الطويل ، وهناك ـ فى الصحراء ـ ذاب لحم أطرافى ، وخشن جلدى ، وتحجر قلبى . وأسوأ ما أورثتنيه حروب الصحراء جفاف فى الحلق واللسان وظمأ لا ينطفىء . وما كان شأنى فى ذلك غير شأن أى جندى يعود الى بلاده حيا من حروب أجنبية .

لقد كانت الحياة عندى ، حينما فقدت ذراعى ، كوادى الموتى ، ولا احتاج أن أصف ما كابدت من هول وألم عندما وضع جراحو الجيش بقية ذراعى فى الزيت المغلى ليوقفوا النزيف بعد بترها ، فذلك شىء يعرفه

أبوك جيدا . ألا فليباركك الله يا « ســـنوحى » وكن ... كما أتوقع لك ... عاقلا فطنا .

وهنا كان « عنتيب » قد أفرغ آخر قطرة من وعاء النبيذ فى جوفه ، فران الصمت على الرجل العجوز ، وأخذ يلهث كمن أصيب بسعار .وهو يقلب الوعاء فارغا بين يديه ويرمقه بحسرة وأسى ، وعيناه تلتمعان كأنما تمجان شررا ثم أقعى متهالكا مكتئبا وحسبت الفرصة قد واتتنى لأتكلم ، فقلت له فى استحياء : ولكن المحارب يمكن أن يكون انسانا لا يعـرف القراءة والكتابة ؟!

فهمهم همهمة من أصيب بخرس وألقى على أبى نظرة جانبية كأنه يريد شيئا . وأدرك أبى اشارته فأخرج من جيبه على الفور قطعة نقود نحاسية وناوله اياها فهتف بفتى صغير قذر أقبل عليه مهرولا فأعطاه الوعاء وقطعة النقود وطلب اليه أن يشترى بها نبيذا رخيصا ليمتلىء به الوعاء . ثم بدت عليـه علامات التفـكير وهو يتجه الى ليقول : حقـا ان الجندى يمكن أن يكون انسانا لا يعرف القراءة والكتابة ، لانه يحارب فحسب ، ولكنه اذا استطاع أن يكون قارئا أو كاتبا فستعقد له الزعامة على أقوى جنوده الذين يدفعهم الىمقدمة المعارك ليتلقوا أهوالالحروب. أما الذى لا يعرف القراءة والكتابة فلن يزيد على أن يكون تحت امرته مائة جندى . وأى مفخرة للجندى فى تحلية صدره بالقلائد الذهبيـــة وشارات الشرف اذا كان زميله الذى يحمل القلم ويسطر به على أوراق البردى هو الذى يصدر اليه التعليمات والأوامر ؟! فاذا شئت يابنى أن تكون جنديا نابهـــا معقودا لك لواء الزعامة ، آمرا مطاعا نافذ الرأى والارادة ، ينحنى أمامك حاملو القلائد الذهبية ويذهب بك الارقاء محمولا فوق كرسيك على أكتافهم الى ميدان القتال ، فينبغى أولا أن تتعلم القراءة والكتابة .

وعاد الفتى القذر يحمل اناء النبيذ مسرعا ، فلاح البشر على وجه الرجل وتناوله متلهفا ، ومضى قائلا : ان أباك « سنموت » رجل طيب ، وهو يعرف القراءة والكتابة ، وان كان لا يستطيع أن يستعمل قوسـا أو يطلق سهما ، فقد استطاع أن يكون طبيبا نافعا محترما .. لكشكرى الجزيل يا « سنموت » .

وفى عصبية وانفعال نظرت الى وعاء الخمر الذى انصرف اليـــه « عنتيب » مهتما به وحده فيعب منه عبا متداركا . لقد أشفقت على بطل

الحروب أن يلقى مصرعه هكذا باسرافه في هذا الشراب الرخيص القاتل ... وكذلك كان شعور أبي ٠

وبينما كنا نيمم وجهينا الى منزلنا كان الرجـــل يقف مختلجـا متحاملا على نفسه منشدا بصوته المتهدج أغنية سورية ، في حين يقف قريبا منه ذلك الفتى العارى القذر الذى لفحت حرارة الشمس جسمه ، وهو مستغرق في السخرية منه والضحك عليه ٠

وعندئذ دفنت في صدرى آمالى العذبة في الجندية ، ولم أبد أية معارضة عندما أخذنى أبى فى اليوم التالى الى المدرسة ٠

- ٥ -

لم يكن أبى ثريا ليلحقنى باحدى مدارس المعبد الكبير التى يتعلم فيها أبناء الأغنياء والنبلاء والكهان المشاهير ـ وفى بعض الاحيان بناتهم ـ فألحقنى بمدرسة الكاهن العجوز « أونح » الذى يقع منزله غير بعيـــد عن دارنا . وفى شرفة هذا المنزل المتداعية ،كان يجتمع تلاميذه ويتعهدهم بالدراسة ٠ وكانوا من أبناء الصناع والتجار ورؤساء العمال وضباط الصف الذين كان كل مبتغاهم أن يفتحوا أبواب المستقبل لأبنائهم عن طريق هذا التعليم ٠

وكان «أونح» يعمل فى شبابه رئيسا للخدم فى معبد الالهة «موت»، فكان بهـــذا مؤهلا لتدريس الكتـــابة الاولية للاطفـــال الذين يراد أن يصبحوا كتابا يسجلون حساب البضائع ومكاييل الحبـــوب وموازين السلع واحصاء أعداد رءوس المواشى ومؤن الجيش ٠

وكانت مدينة « طيبة » تزخر بالمئات من أمثال هذه المدرســـة ، وكانت نفقات التعليم فيها يسيرة على طلابها ، اذ كان يكفى فيها أن يقدم التلاميذ لمعلمهم ، شيئا مما يقع فى حرفة آبائهم ٠ فابن تاجر الفحم يزود موقده بالفحم فى فصل الشتاء ، وابن النساج يقدم قطعة النســـيج لملبسه ، وابن الزارع يقدم الدقيق ، وهكذا تتوافر لهذا المعلم حاجات معيشته دون مشقة على تلاميذه ٠ أما أبى فكان يتولى علاج أمراضـــه وتخفيف آلامه بالنبيذ يقدمه اليه مخلوطا بالمسكنات ٠

و « أونح » بهذا راض عن تلاميذه ، مغض عن زلاتهم ، ما عرفوا السبيل الى تقديم الهدايا اليه ٠ فالذى ينام أثنـــاء الدرس ينجـو من العقاب ، اذا أقبل فى صباح اليوم التالى وفى يده الهدية التى ترتاح

اليها نفسه ، وتكون نفسه أكثر ارتياحا اذا ارتكب ابن تاجر الحبوب خطيئة ليقدم عليه فى الغد ومعه اناء من الجعة ... لقد كان أستاذنا أونح » ممن يحبون هذا الشراب ويؤثرونه .

وفى تلك المدرسة كنا نصطنع الانتباه والاصغاء الى ما يقصه علينا أستاذنا « أونح » من قصص الدنيا الثانية ، والالهة « موت » والخالق العظيم « بتاح » ورفاقه من الآلهة ، ونحسب بيننا وبين أنفسنا أننا بالانتباه والاصغاء اللذين نصطنعهما اصطناعا نغريه بالافاضة والاسترسال فى هذا القصص لعلنا نشغله بذلك عن واجباتنا القاسية المتعبة فى تعلم الكتابة . ولكننى أخيرا أدركت أن أستاذنا انما أراد ذلك عن قصد مرسوم ، وعن حكمة لم نكن يومذاك ندريها ، فقد عرفنا من قصصه ورواياته تقاليد مصر القديمة ، كما عرفنا أن الاعمال الشريرة لا يمكن أن تمضى بغير عقاب ينال مقترفيها . فقلب كل انسان يوزن أمام عرش « أوزوريس » فى ميزان الاله الذى له رأس كرأس الذئب ، فمن ترجح كفة سيئاته كفة حسناته ، يقذف به الى الاله الذى له هيئة التمساح والوحش معا ، لينال هنالك عقابه جزاء وفاقا .

وكذلك كان «أونح» يحدثنا عن الاله ذى العينين الخلفيتين المثبتتين فى مؤخرة رأسه ، وكيف أن هذا الاله يعبر السماء بمركبه حاملا الصالحين والاطهار الى الارض المقدسة ، وهو فى تسياره بهم يجدف الى الخلف لا الى الامام كما يفعل البحارة فى النيل .

وتوسلا الى بلوغ مكاننا عند هذا الاله ، كان « أونح » يستحثنا على حفظ واستذكار أدعية نتقرب بها اليه ، ويطالبنا بأن نكتبها من الذاكرة ويصحح ما يقع من أخطائنا فى كتابتها ، مؤكدا أن تكرار الاخطاء على تفاهتها خليق أن يفقدنا الامل فى حياة رغدة بالدنيا الثانية ، ويجعلنا تعيش فى دنيانا الاولى كالاشباح الضالة على ضفاف النيل القاتمة .

وقضيت بمدرسة «أونح» بضع سنوات وكان من بين رفاقى ومن أعز أصدقائى بها « تحوتمس » ، وهو يكبرنى بعام أو عامين . وكان أبوه رئيسا لكوكبة من عجلات الحرب ، ومن شارات مركزه النابه أنه يحمل فى يده سوطا مزينا بالنحاس ، وكان يطمع فى أن يصبح ابنه « تحوتمس » ، فى يوم ما ، ضابطا برتبة عالية . ولهذا الغرض كان يعلمه الكتابة ، ولكن الرياح أحيانا تأتى على غير ما تشتهى السفن ، فقد أخذت حياته بالمدرسة ترهص بأنه يسلك لمستقبله سبيلا غير هذا

السبيل ، اذ كف بالمدرسة عما كان يتميز به قبلها من حب المصارعة وركوب الخيل ، وبدا عليه نشاط غير عادى فى تعلم الكتابة حتى بذنا فيها اجادة وسرعة ، وعلى ألواحها كان يرسم صـــورا متقنة للعـربات والخيول الجامحة والجنود المتصارعين ، كما كان يحمل معه الى المدرسة عجينة من الصلصال ليصنع منها صورة سافرة لاله الجحيم وهو فاغر فاه ليلتهم رجلا بدينا أصلع الرأس محدودب الظهر يشبه أســتاذنا « أونح » شبها قريبا من الحقيقة • ولم نلحظ على أستاذنا أنه استاء أو امتعض من ذلك ، فان «تحوتمس» كان سمحا رقيقا يحبه رفاقه وأستاذه على السواء • وفى وجهه العريض وقامته القصيرة وساقيــه الأملدين وعينيه المشعتين بالبريق ، فى هذا كله جاذبيـــة مغناطيسية جمعت القلوب على حبه واستمالتها اليه • وكانت الى ذلك ترفه عنا وتثــير اعجابنا ، صور الطيور والحيوانات التى يرسمها بيديه الماهرتين • وقد سعيت الى صداقته منذ شممت فيه الميل الى الفروسية ، وتوثقت بيننا أواصر هذه الصداقة بالرغم من انصرافه عن هذا الميل بعد ذلك •

وخلال أيامى المدرسية حدثت مفاجأة ظننتها الهـــاما أو معجزة ، ففى يوم ندى من أيام الربيع الجميلة ، حيث الطيور تملأ جو المدينــة تغريدا ، ومياه النهر تجرى فى لين واسترخاء ، والحقول والحدائق محلاة بالنمو والازدهار ، خرجت من شرفة منزل « أونح » المتداعية ، مدفوعا باغراء شديد الى هذه الطبيعة الحانية الوديعة فى افقها الرحيب ، ومن ثم مضيت بين مجاليها المونقة ، منتشيا بعبيرها الفواح ، الى أن بلغت ، من حيث لا أقصد ، صخورا تعلوها رموز منقوشة ، فرحت أتأملها فاذا بهذه الرموز حروف مكتوبة والى جانبها علامات توضحها ، وهنا تواردت على ذاكرتى تعاليم « أونح » • وبحافز من داخل نفسى أخذت أقرأ ، وأنفخ الحياة فى هذه الحروف ، فانحسرت الصور عن كلمات ، ومن الكلمات تكونت المقاطع ، وأخيرا صارت المقاطع رسالة طويلة . وكلما ضممت صـــورة الى أخرى خرجت بمعنى مختلف عن الرموز ، وقد بان لى أن صورة واحدة قد يتاح لمن يجهل الكتابة أن يفهمها ، أما ضم الصـــور بعضها الى بعض ، واستخلاص المعانى منها ، فليس بالامر المستطاع الا للمتعلمين ، ولعل الذين درسوا الكتابة وتعلموا القراءة يفهمون هذا .

كانت تجربة القراءة هذه بالنسبة لى مثيرة للغاية • وكانت عندى أيسر تناولا كما لو مددت يدى الى سلة الفاكهة لآخذ منها ثمرة ، وكانت فى شعورى أحلى مذاقا من التمر ، واشهى من الماء عند الظامىء الصادى . فلم اعد بعد ذلك محتاجا الى من يستحثنى للمثابرة على التعلم واصبحت

أتشرب ارشادات « آونج » وتعاليمه ، كما تتشرب الأرض الجافة مياه فيضان النيل · وسرعان ما حذقت فن الكتابة · وبعد فترة قصيرة كنت أقرأ ما يكتبه غيرى ، وفى السنة الثالثة غدوت قادرا على أن أملى على الآخرين حكايات مطولة ليكتبوها ·

ومنذ ذلك الحين بدأت أتكشف فى نفسى اشياء لا يشبهنى فيها رفاقى التلاميذ · فوجهى كان أكثر ضيقا ، ولون بشرتى أكثر وسامة وتفتحا ، وأطرافى دقيقة غير مترهلة ولا متضخمة ، ولولا غثاثة الملبس لحسبنى من يرانى واحدا من أبناء النبلاء الذين يروحون ويغدون على كراسيهم المحمولة على أعناق الارقاء ، أو أولئك الذين يمشون على الارض مرحا متبوعين بخدمهم ، ولهذا كنت مرموقا من الجميع ·

وجاءنى مرة أحد التلاميذ ، وهو ابن تاجر حبوب ، فطوق عنقى بذراعه ، وجعل يخاطبنى كما يخاطب فتاة ، فوكزته بقلمى ودفعته بعيدا عنى ، متبرما به وبرائحته الكريهة .

لم يكن من رفاقى التلاميذ من هو عندى بمنزلة « تحوتمس » . لقد كان وحده الصديق الذى تطامنت اليه نفسى وعواطفى لاخلاصه ولطف معشره . وقد أقبل على يوما ليقول لى فى استحياء : انه يستطيع أن يصنع لى تمثالا ، فاصطحبته الى منزلنا واخذت مكانى قبالته تحت شجرة الجميز ، فلم يمض غير قليل حتى استوى فى يده تمثال من الصلصال يصورنى تصويرا دقيقا ، وبقلمه المعدنى نقش اسمى على قاعدة التمثال . فلما جاءت أمى « كيفا » تحمل الينا الكعك الذى صنعته ، ووقع نظرها عليه أصابتها رجفة واستعاذت بالآلهة من شر ذلك السحر الذى جعل من الطين انسانا ·

غير أن أبى حينما شاهد التمثال أعجب به وأثنى على «تحوتمس» وقال : ان هذا ليبشر بمستقبله الباهر ، ولو انه التحق بمدرسة المعبد فانه يصبح يوما ما فنان الحاشية الملكية · وهنا ابتسمت لصديقى « تحوتمس » وتخيلت هذه البشرى قد تحققت · فانحنيت فى حركة تمثيلية أمامه ، مادا ذراعى الى قريب من الارض محييا فنان الحاشية الملكية العظيم · وبادلنى « تحوتمس » الابتسام قائلا : أحسب هذا مستحيلا ، فوالدى قد اختار لى الجندية وحياة الثكنات ، وسيلحقنى بمدرسة سلاح العجلات · وهأنذا قطعت المرحلة الأولى التى يمهد بها الى ذلك · فأنا الآن أجيد القراءة والكتابة كأحسن ضابط ·

وتركنا أبى لنأخذ أنا و « تحوتمس » فى التهام الكعك فى رضا وسعادة .

- ٦ -

وجاء اليوم الذى رآنى فيه أبى أهلا لالحاقى بمعبد « آمون » العظيم ، فارتدى افضل مالديه من ثياب ، واحاط رقبته بطوق احسنت « كيفا » توشيته وتطريزه ، ويمم وجهه شطر المعبد .

وابى « سنموت » فيما بينه وبين نفسه لا يضمر حبا للكهان ، ولكن الواقع الذى لا بد من التسليم به أن الامور جميعا فى « طيبة » بل فى مصر كلها كانت لذلك العهد الى هؤلاء الذين لا يحبهم ولا يؤمن بهم . فأحكام القضاء التى يصدرها قضاة فرعون تستأنف أمام الكهان وكان من حقهم آن ينقضوها ، وكذلك كان لهم الاشراف الفعال على الوظائف الادارية العليا . وهم الذين يتنبأون بدرجات فيضان النيل المقبل ، ويقدرون محاصيل الزراعة ، ويفرضون على أساس هذا التقدير الضرائب لتجبى فى سائر أنحاء مصر .

وكان يخيل لى أنه ليس من السهل على أبى آن يسعى الى هؤلاء الكهان فضلا عن خضوعه لهم . فقد كان طبيب الفقراء فى حى فقير بالمدينة ، وليست بينه وبين المعبد و .. « دار الحياة » القائمة به ، أسباب متصلة أو حاجات دافعة ، ولكنه كواحد من الآباء الفقراء كان عليه أن ينحنى مثلهم بحكم التقاليد والطقوس واجبة الرعاية والتقديس .

وانى لأتمثل الآن فى ذهنى هؤلاء الآباء الفقراء وقد وقفوا فى أحسن ازيائهم صفوفا متراصة امام الهيئة الادارية بالمعبد منتظرين آن يأذن بعض أولئك الكهنة القديسين فى استقبالهم .

لقد امتلأ بهؤلاء الآباء المنتظرين فضاء المعبد الفسيح ، وأفكارهم ساعتئذ تومض بالأمل فى مستقبل سعيد لأبنائهم .. انهم أقبلوا من كل فج ، وكثير منهم جاءوا من أقاصى البلاد فى قوارب النيل مزودين بالطعام وببعض النقود لارشاء حراس الأبواب أو الكتاب حتى يمكنوا لهم من شرف الحظوة بلقاء كاهن مضمخ بالعطور متشح بالذهب، ليلقى عليهم فى استعلاء وأنفة كلمات تتخللها القسوة والصرامة .. وهم يتقبلون هذا العناء ، بل يسعون اليه جاهدين ، فى سبيل أن يقبل أبناؤهم خدما وأتباعا لآمون ،

إذ كانوا يعدون هذا القبول منحة وشرفا جديرين بالتزاحم واستساغة المذلة أيضا ٠٠ ذلك على الرغم من أن حقيقة الحال كانت لا تحتمل هذا كله ، فآمون من قوة السلطان واستفاضة الثراء وسعة الأعمال بحيث كان محتاجا الى مزيد لا ينقطع من الأتباع والخدم والكتاب والنساخين وغيرهم ٠ ولكن لهفة الآباء الفقراء على مصير أولادهم كانت تدفعهم دفعا مضنيا الى التماس هذا المصير عند الكهنة ، فاذا فازوا به اعتصروا أنفسهم ليقدموا لهم الهدايا الغالية ٠

وكان أبى موفقا فى هذه الزيارة التى كنت أعتقد أنه ذهب اليها مكرها ، فان النهار لم يكد ينتصف حتى لمح غير بعيد رفيق صباه بالدراسة « بتاحور » الذى أصبح على مرور الزمن جراح الجمجمة فى حاشية فرعون، فهتف به ، وكانت تلك جرأة غير متوقعة ، وكان ثم لقاء على غير ميعاد بين الرفيقين القديمين ، وتحدث اليه أبى فى شأنى مهتما ، ولشد ماكانت غبطته حينما وعده بأن يزورنا فى منزلنا ليرانى ٠

واستعدادا لهذه الزيارة الكريمة اقتصد أبى ثمن أوزة وكمية من النبيذ الممتاز ٠ ولما وافى الموعد شمرت « كيفا » عن ساعديها لتفتن فى الخبز والطهو ٠ وقد فاحت فى الجو رائحة الطعام الشهى ، فتجمع حول دارنا المتسولون وجعلوا يغنون ويرقصون ويلجون فى طلب نصيبهم من الوليمة ، فخرجت اليهم « كيفا » غضبى مزمجرة وألقت لكل منهم قطعة من الخبز عليها أدام من دهن الأوزة ٠ وما زالت بهم حتى أقصتهم عن الدار ٠

وأخذت أنا ورفيقى « تحوتمس » فى كنس الطريق العام الذى يربط بين المدينة والمنزل ، وقد رغب أبى الى « تحوتمس » فى أن يكون حاضرا زيارة الضيف العظيم عسى أن يكون له نصيب من عنايته والتفاته ، وشعرنا بالرهبة كأنما كنا فى المعبد حينما أشعل أبى حارقة البخور ليشيع فى جو المنزل ، بداخله وخارجه ، عبق العطور ٠ وجئت أنا بقارورة الطيب لأنفح به المنسوج الكتانى الأبيض الذى كانت تدخره أمى ليكون كفنا لها عند موتها ، فقد تقرر فى برنامج الزيارة أن نتخذ من هذا المنسوج العزيز على أمى « منشفة » يجفف بها « بتاحور » يديه بعد غسلهما ٠

طال انتظارنا ، ومالت الشمس الى الغروب ثم غابت ، وأخذت حرارة الجو تحور بردا ، وأوشك عبق البخور أن يتلاشى ، ووجه أمى « كيفا » يتحرك منفعلا بين انبساط وانقباض ، فى حين تستعر عندى شهوة الطعام كلما نظرت الى الأوزة وهى تتقلب فى شوائها المثير ، وأبى صامت لاينبس

بينت شفة ، ولم يشأ أن يشعل المصباح لانارة المنزل عندما رانت عليه الظلمة ، واحتوانا جميعا صمت أبى فبقينا جلوسا على مقاعدنا كالتماثيل الخرساء وكأن على رءوسنا الطير ، يتحاشى كل منا أن ينظر الى وجه الآخر . ولأول مرة فى حياتى ذقت مرارة الأسى وخيبة الأمل التى يلقاها الفقراء من الأغنياء .

وأخيرا .. لاح ضوء المشعل بالطريق المؤدى الى المنزل ، مؤذنا بقدوم الزائر الكبير ، فانبعث أبى لفوره قفزا ، ومضى مسرعا الى المطبخ فجاء بقبس من النار وأشعل به المصباحين ، وأمسكت أنا وعاء الماء بيدين مرتجفتين ، فى حين وقف « تحوتمس » بجانبى مهتما متلهفا .

وأهل علينا « بتاحور » جراح الجمجمة الملكى مقتعدا كرسيا يحمله رفيقان زنجيان ويتقدمه حامل المشعل المكتنز الجسم الذى كان يبدو ثملا. وهبط « بتاحور » من فوق كرسيه وسط التهليل والترحيب ، فحياه أبى منحنيا الى مستوى ركبتيه ، ووضع الضيف العظيم يده على كتف أبى ، ولعله أراد بذلك أن يشعره بأن هذه المراسم التى تعنى الاحترام والتبجيل ليست ضرورية بينهما ، أو لعله أراد أن يتماسك ويحفظ توازنه . ثم التفت الى حامل المشعل وأمره باطفائه والانتظار تحت شجرة الجميز ، أما الزنجيان فانهما دون انتظار أوامر سيدهما قد وضعا الكرسى الى جانب أشجار السنط وألقيا جسميهما فى استرخاء على الأرض .

ودلف « بتاحور » الى داخل المنزل وهو لايزال يعتمد كتف أبى فصببت الماء على يديه وهو يتأبى ويعترض ، وعندما قدمت اليه (المنشفة) قال لى : لقد بللت يدى فعليك أنت أن تجففهما ، ففعلت مغتبطا ، وأعرب عن ارتياحه لذلك بقوله : انك لولد ظريف .

ودعاه أبى الى مقعد الشرف ، وهو كرسى مؤزر بظهر ، استعرناه من جارنا ــ تاجر التوابل ــ فاستوى عليه ، وفى ضوء المصابيح راح يدير عينيه الفاحصتين فيما حوله ، وبعد فترة صمت طلب شيئا من الشراب، لأن طول الرحلة جفف حلقه ، فأسرع أبى مبتهجا الى اناء النبيذ فصب منه فى كأسه ، وقبل أن يفرغه فى جوفه أخذ يشمه ويتذوقه فى شىء من التشكك ثم استساغه وتجرعه مبديا ارتياحه .

كان « بتاحور » مقوس الساقين ، حليق شعر الرأس ، وتشف ملابسه الخفيفة عن ارتخاء صدره وبطنه ، وحول عنقه وشاح مرصع بالأحجار الكريمة ، ومن جسمه وملابسه معا تفوح رائحة الطيب والنبيذ والعرق .

وفي احترام ، وضعت « كيفا » أمامه الكعك وقليلا من السمك المقلى في الزيت والأوزة المشوية والفاكهة ، ولكنه كان على ما يظهر قد أتخم بطعام دسم قبل أن يقدم علينا ، فلم يكن يتناول من طعامنا الا النزراليسير ليتذوقه ، ومع ذلك أثنى عليه منوها بدقة طهوه ومهارة صنعه . وهنا ارتفع رأس « كيفا » زهوا وخيلاء .

وصدوعا بأمره حملت طعاما وشرابا الى خدمه خارج المنزل ، ولكنهم لم يحمدوا لى ذلك بل أخذوا يسبون ويلعنون ويقولون : ألم يحن الوقت بعد لخروج هذا العجوز ؟! .

ومشى الوقت في ألفاف من الغموض وأغشية من الابهام ، فقد أكب « بتاحور » على شراب النبيذ يتناول كئوسه مترعة متلاحقة ، وأبى يتناوله معه ، مسرفا مثله في الشراب على غير مألوف عادته ، و « كيفا » ترى هذا فيزعجها ويحيرها ، وتجلس بالمطبخ قارعة كفا بكف . وفرغت جرة النبيذ التى أعدت لهذه المناسبة ، فجاء أبى بما في عيادته من النبيذ الطبى ، فكرعاه وأتيا عليه كله ، وما تزال شهوة « بتاحور » الى الشراب مضطرمة ، فأخذا يكرعان الجعة ، وقال « بتاحور » ان أنواع الشراب تستوى عنده .

وفعل الشراب فعله بهما ، فهما يتمايلان ، ويضم أحدهما صاحبه ويتذاكران أيام دراستهما في « دار الحياة » ، و « بتاحور » يروى الكثير عن تجاربه كجراح للجمجمة ويقول ان هذا الفرع من صناعة الطب ينبغى أن يكون آخر ما يفكر فيه طبيب متخصص ، فعملياته الجراحية بالغة الخطورة ، وأولى بها أن تكون فى « دار الموتى » لافى «دار الحياة» ، وقد آثره بالاختيار بادىء الامر لميله الى الكسل ، معتقدا أن العمل فيه قليل وبسير، فرأس الانسان ـ باستثناء الأسنان والأذن والأنف والحنجرة والعين التى لها متخصصوها ـ كانت ، فى تقديره ، من أيسر الدراسات تناولا .

واستطرد « بتاحور » قائلا : ولو كان لى أن أختار الآن لاخترت أن أكون طبيبا عاديا شريفا ، يتيح الحياة لمرضاه ، لا أن يتعامل مع الموت فى أشخاص المرضى الميئوس من شفائهم الذين لا يأتى بهم أهلوهم الى الطبيب الا ضجرا منهم .. كم كنت أتمنى يا صديقى « سنموت » لو بقيت طبيبا مثلك أعيش مع الفقر عيشة شريفة هادئة .

وهنا أدار أبى وجهه الينا ليقول : لا تصدقوا هذا يا أطفالى ، فكم أنا فخور أن يكون جليسى ورفيق صفوى فى هذه اللحظات ، صديقى

« بتاحور » جراح الجمجمة الملكى ، انه فى الحق أمهر أطباء مصر فى هذا الفرع من الطب ، وقد عرف له الناس فضله ودقته وبراعته فى العديد من العمليات الجراحية التى أنقذ بها حياة كثير من المرضى الأغنياء والفقراء على السواء . وكان بذلك ، ولا يزال ، موضع اعجاب العالم كله ، حسبه فضلا على الانسانية أنه يخلص المرضى من الأرواح الشريرة التى تنتهى بهم الى الجنون ، فما ينفك يلاحقها بمهارته ودقة مبضعه فى خلايا الجماجم ولفائف الأدمغة ، حتى يقتلع جذورها جميعا ، وهو دائما يتلقى من المقدرين والمعجبين المكافآت الجزلة ذهبا وفضة وقلائد وكئوس شراب مذهبة .

وصاح « بتاحور » قائلا : ولك أن تضيف ياصديقى « سنموت » الى ما ذكرت شيئا آخر ، هو ابتهاج وثناء أقارب المرضى الذين يموتون تحت يدى ، وما أكثر هؤلاء المرضى ، ان واحدا من كل عشرة ، بل من كل مائة ممن أدير مبضعى فى رءوسهم هو الذى تكتب له الحياة وينجو من الموت ، أما الباقون ، وأكثرهم من الأغنياء ، فان حبل حياتهم يتقطع ، وتكون النتيجة ، دائما أو غالبا ، أن يرث أقاربهم ثرواتهم ، فهم الكاسبون الغانمون بموتهم . واذن فأنت ترى أن يدى كما تخفف آلام المرضى ، توزع ثروات الموتى من أرض وأنعام وذهب ، على الأحياء من خلفائهم ، بل لطالما لعبت يدى هذه أدوارا فى اقامة فراعين جدد على عروشهم ، فالجميع لذلك يهابوننى ولا يستطيعون نيلى بقالة سوء ، فانهم ليعلمون أننى أعرف الكثير من أسرار وخفايا . على أنه بقدر ما يعرف الانسان من هذه الأسرار والخفايا يكون بؤسه وعذاب ضميره ، فلست فى الواقع سعيدا .

قال « بتاحور » ذلك ثم انفجر باكيا وجعل يمسح دموعه بالمنشفة التى أعدتها « كيفا » لتكون كفنا لها .. ثم التفت الى أبى وقال : انك فقير يا « سنموت » ولكنك شريف . ولهذا فانى أحبك ، أما أنا فعلى ما تعلم من غناى وثرائى لست فى اعتبار نفسى جديرا بأن أكون انسانا بالمعنى الصحيح .

وخلع « بتاحور » قلادته المرصعة بالجواهر وعلقها حول رقبة أبى ، وأخذا يغنيان معا أغنيات لم أتفهمها ، وان كان « تحوتمس » قد أخبرنى بعد أنها مما ينشد فى الثكنات .

وقد اشتدت مخاوف أمى « كيفا » عندما بلغت حال الضيف والمضيف هذا الحد ، ولم يغمض جفناها اللذان كانا يذرفان الدمع أسفا على تلك الحال التى لا عهد لها بها .

واقتحم علينا مجلسنا أحد الخدموطوق « بتاحور » بذراعيه ليحمله ويضعه على كرسيه ويعود به ، قائلا : ان موعد ايوائه الى فراشه قد انقضى من وقت طويل ، ولكن « بتاحور » تأبى عليه وقاومه واستغاثنا بمنعه منه قائلا : ان هذا الخادم يريد أن يقتلنى ٠٠ وكان أبى قد افتقد القدرة على نجدته ، فاستعنت « بتحوتمس » وأعملنا العصى فى الخادم حتى فر هاربا وهو يسب ويلعن ، ولم يلبث أن اصطحب رفاقه والكرسى على كتفه خاليا من صاحبه وذهبوا ٠٠

أما « بتاحور » فقد أخذ يفرغ ما بقى من الجعة على ملابسه ، ويطلب زيتا عطريا يمسح به وجهه ، ويعلن عن رغبته فى الاستحمام بحوض الماء الموجود بالحديقة ٠ واذ ذاك مال « تحوتمس » على أذنى ليقول فى همس : لا علاج لهذه الحال المتفاقمة الا أن نحمل العجوزين المخمورين الى الفراش، وقد كان ما أشار به ، ورقد جراح الجمجمة الملكى جنبا الى جنب مــع والدى على سرير « كيفا » ، وكل منهما يضع ذراعيه حول رقبة صاحبه ، ثم استسلما الى نوم عميق طويل ٠٠

و « كيفا » فى جزعها المسترسل تبكى وتعفر رأسها بتراب الموقد ؛ فى حين كنت أنا فى غمر من عذاب التفكير فيما ستلوكه فى الغداة ألسنة جيراننا ، فسوف لا نسلم من قالة السوء الساخرة عندما يتذكرون هــذا الذى يحدث فى دارنا على غير العـــادة ، من جلبة صاخبة يتردد صداها وسط سكون الليل ، ولكن « تحوتمس » ظل هادئا ، فقد اعتاد أن يرى أمثال هذه المشاهد فى أماكن أخرى ، وفى بيت أبيه على وجه خاص ، حينما كان يجتمع اليه سائقو العجـــلات الحربية ويتناقشون محتدين متنافسين فى ذكريات الايام المواضى التى كانت ترسل فيهـــا الحملات التأديبية الى سوريا وبلاد الكوش ، ولذلك فقد أخذ فى تهدئة « كيفا » رهدهدة روعها ، حتى راضت نفسها على الامر الواقع ٠ وبعد أن تولى معى ازالة آثار هذه الوليمة وتنظيف المكان منها أوينا معا الى فراشنا ٠ وكان « تحوتمس » قد أصاب شيئا من النبيذ فراح يحدثنى عن الفتيات بعض الاحاديث ، ولكنى لم أستطب هــذا ، لانى كنت أصغر منه سنا واستغرقت فى نومى ٠

واستيقظت فى الصباح الباكر على حركة وصوت ينبعثان من الحجرة المجاورة فذهبت اليها ورأيت أبى لا يزال نائمـــا ، وحول عنقه قلادة « بتاحور » ، فى حين كان بتاحور جالسا ورأسه بين يديه وهو يســـأل نفسه : أين أنا ؟! فحييته باحترام وقلت له انه هنا فى حى الميناء بمنزل

الطبيب « سنموت » ! فاطمأن قليلا وطلب مني بحق « آمون » أن آتيه بمزيد من الجعة ! فأنبأته أن ما كان باقيا منها قد أفرغه على ملابسه التى تشهد بذلك • وعندئذ هب من فراشه ليجر نفسه فى وقار الى خارج الغرفة ، وجئته بالماء وصببت منه على يديه ، وحتى رأسه الأصلع فصببت الماء عليه كذلك • وكان «تحوتمس» قد استيقظ هو الآخر ، فأقبل على «بتاحور» مقدما اليه فى اناء نحاسى ، اللبن المخوض وسمكا مملحا ، فطعم منهما ، ثم غادرنا الى شجرة الجميز وجعل يضرب بعصاه حامل المشعل الذى كان نائما تحتها • فهب هذا مذعورا وانتفض واقفا ، وقد علقت بملابسه آثار تراب الارض المنداة ، ومضى « بتاحور » يلهبه بعصاه قائلا له : أبمثل هذه الهيئة الشوهاء ـ أيها القذر ـ تكون حامل المشعل أمام موكبى ؟! وأين الكرسى ؟ انى لا أكاد أراه ! • وأين ردائى النظيف . وأين حبوبى الطبية ؟ أغرب عن نظرى أيها الحقير الأحمق ••

وراح الخادم مضطربا يبحث عن الكرسى الذى يحمل سيده عليه •

وجلس بتاحور تحت الشجرة مسندا ظهره الى جذعها ، وجعل ينشد شعرا عن الصباح وزهر اللوتس وعن ملكة تستحم فى النهر ، ويقص علينا قصصا مما يهوى الاطفال سماعه •

وترامى الينا بالحديقة صوت « كيفا » وهى تتحدث الى أبى بصوت جهير • لقد استيقظت وشرعت فى ايقاد النار واستيقظ هو كذلك ، ثم وافانا بعد قليل بملابسه النظيفة وعلى وجهه مسحة من كآبة ••• وبادره بتاحور بقوله : ان ابنك هذا ظريف « ياسنموت » ، انه يبدو فى مظهره كأمير وكان عينيه لرقتهما عينا غزال •

ولم أحسبه جادا فيما يقول ، وانما حسبته يصطنع هذا المديح لننسى أو نتناسى ما فعله على مشهد منا بالأمس • ولكنه استطرد قائلا : فهل عين روحه ، ياترى ، متفتحة كعينى رأسه ؟!

عند ذلك أسرعت أنا و « تحوتمس » فحملنا اليه الواحنا ، وفى سهوم أخذ جراح الجمجمة الملكى يحدق بنظره فى فروع الشجرة الباسقة ثم أملى علينا شعرا قصيرا ما زلت أذكره حتى الآن وهو :

استمتع أيها الفتى بشبابك •
فقناة العمر كثيرة السدود •
والأجسام المحنطة لا تبتسم •
فى ظلمة القبور الساكنة •

وقد بذلت أقصى الجهد فى كتابة هذه الأبيات من الشعر بالحروف العادية وبالصور كذلك ، وتأملها « بتاحور » فأعجب بها لأنهـــا كانت سليمة غير مشوبة بأى خطأ ٠٠ وأحسست أن أبى كان فخورا بذلك ٠

ونظر « بتاحور » الى « تحوتمس » الذى كان جالسا بمبعدة منـــا يدير قلمه على لوحه ، وأشار اليه أن يعرض لوحه هو الآخر ، ليرى ماذا فعل ، فأقبل عليه وقدم له اللوح مترددا ، فى حين كانت ترتسم الغبطة على وجهه ٠٠ ولشد ما دهشنا حين رأيناه قد ملأ لوحه صورا ، احداها لبتاحور وهو يضع قلادته فى عنق أبى ، وثانيتها له وهو يصب الجعة على ملابسه ، وثالثتها تمثل الاثنين « بتاحور » و « أبى » وهمـــا يغنيـــان وأذرعتهما متشابكة حول عنقيهما ٠

كانت صورا متقنة معبرة ، تمثل « بتاحور » تمثيلا دقيقا فىقصره وصلع رأسه واسترخاء بطنه واعوجاج ساقيه ٠٠ الخ ٠

وخشينا أن يغضب « بتاحور » لهذا الذى قد يراه ســـخرية به وزراية ، أو يراه فى القليل أمرا قد خلا من اللياقة وواجب المجاملة ٠

ولكن « بتاحور » لاذ بالصمت فترة طويلة ، كانت عيناه الحادتان خلالها تنتقلان فى انفعال مستسر بين « تحوتمس » وبين صوره ، وأحس « تحوتمس » من ذلك بكثير من الحرج ٠ ثم خرج « بتاحور » من صمته قائلا لتحوتمس : كم تطلب ثمنا لهذه الصور أيها الفتى ؟ انى أريد أن أشتريها ٠

فاحمرّ وجه « تحوتمس » وقال : انى لا أبيع صورى ، ولـــكنى اهديها لصديق ٠

فافتر ثغر « بتاحور » وقال : حسنا اذن فلنكن صديقين ، وهـذه الصور لى ٠

وعاد يتأملها بامعان مرة أخرى ، ثم ألقى اللوح ضاحكا على حجر فتحطم وتناثر قطعا ، فاعترانا الوجوم جميعا ، وتقدم اليه « تحوتمس » معتذرا عما يكون قد وقع فيه من خطأ غير مقصود ٠

فقال « بتاحور » فى فتور : وهل أحنق على الماء اذا انعـــكست صورتى على صفحته ؟! ان عين هذا الرسام ويديه كانت كهذا الماء فى الصدق ودقة التعبير ، وقد عرفت من صوره كيف كانت حالى بالأمس

ولولا حرصي على الا ينكشف هذا السر لغيركم لما حطمت اللوح ، على أني اعترف بأن هذا الفتى فنان ماهر ٠

فتهلل وجه « تحوتمس » بشرا لهذا الاطراء ، والتفت « بتاحور » الى ابي وأشار الى قائلا بتعبير الأطباء : انني ساضطلع بعلاج حالة ابنك ٠٠ أما هذا الفتى فسأصنع له المستطاع ٠

ووضع ابي يده فوق راسي وسالني عما اذا كنت أريد أن أصبح طبيبا مثله ٠ فانحدرت الدموع من عيني ، وامتنع على الكلام ، فهززت رأسي علامة الموافقة ، وتخيلت أني سوف أغادر دارنا الحبيبة فاخـــذت أنظر فيما حولي وأدير عيني في الحديقة وشجرة الجميز وحوض الماء ، لقد كانت كلها عزيزة على ، أثيرة عندي ٠

واسترسل أبي يقول : وهل تحب يا ولدي أن تكون طبيبا خيرا مني لتكون لك سيطرة على الحياة والموت معا وتفوز بثقة الأغنياء والفقراء على السواء ؟! ٠

فقاطعه « بتاحور » قائلا : أحسب أنه سيكون خيرا مني ومنك ، فاني أتوسم فيه الصدق والاستقامة ، وهما اقوى عدة للانسان في الوجود ، وأمام مثل هذا الطبيب الصادق المستقيم ، يقف « فرعون » عاريا كمايقف الأغنياء والمتسولون ٠

وقلت أنا في خجل كأني أهمس لنفسي : انني انما أريد أن أكون طبيبا حرا ٠٠ قلتها في سذاجة الطفولة غير متفطن لما تدخره الســـنون للرجال في مستقبلهم من آمال وآلام ٠

ومال « بتاحور » على « تحوتمس » ليريه خاتما في اصبعه وقال له: اقرأ العبارة المنقوشة على هذا الخاتم ٠٠ فقرأها بصوت مسموع : « كأس مترعة تبهج قلبي » ٠

وقد أضحكته هذه العبارة حين قرأها فقال « بتاحور » في غضب : ليس فيها ما يضحك أيها الأبله ، وليست هي مجرد الاغراء بشراب النبيذ على اطلاقه في سائر الناس ، وانما هي تعني منهم أصحاب المواهب الذين يفتقرون في اجادة أعمالهم الى النشوة ، وسترى عندما يتاح لك أن تكون فنانا مبدعا أنه لا غناء لك عن طلب الكأس مترعة ، لتزداد ابداعا ٠ فالاله « بتاح » لا يظهر نفسه كخالق عظيم الا للفنان المبدع الذي يتقن فنه ، ولا يبلغ الفنان شأوه البعيد منذلك اذا كان كل شأنه رسم المرئيات

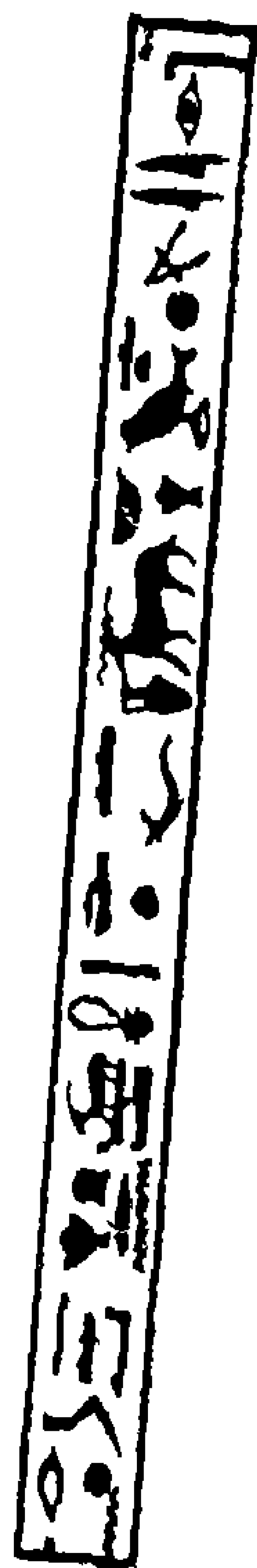
والمشاهد ، انه هنا لا يعدو أن يكون ناقلا ، تماما كصفحة الماء أو كصفحة المرآة ، وهما بغير عقل الانسان وشعوره ، ولا يميزه منهما الا الهامات فكرية وشعرية تنثال على قلمه وريشته فيجليها صورا قوية التعبير صادقة الملامح والسمات • ان الفنان الموهوب هو الذى يشخص الأفكار والمشاعر وليس هو الذى يعكس الشخوص ، ولن يكون كذلك الا اذا كان له قلب مبتهج ، وبهجة القلب حليفة الكأس ، الكأس المترعة ! • أفهمت الآن سر هذه الحكمة المنقوشة على خاتمي ؟! انى أنصح لك أن تكون فنانا كبيرا ذا شهرة ومجد ، مرسلا فى الحياة على طبع الانسان الشاعر الخالق لا أن تكون فنانا آليا مقلدا أو ناقلا • ولا تقنع فى هذا السبيل بما قد تلقى من رضا الناس واعجابهم • فليس لقناعة الفنان المبدع حدود •

وتوقف « بتاحور » قليلا ليقول لأبى انه سيحاول بكل مافى استطاعته مساعدة « تحوتمس » ليلتحق بمدرسة الفن بمعبد « بتاح » ، أما أنا فسأدعى قريبا للالتحاق (بدار الحياة) •

ثم أضاف الى ذلك قوله : أيها الفتيان •• أنصتا جيدا لما سأقول لكما ، وانسياه بعد ذلك ، أو على الاقل انسيا أنكما سمعتماه من جراح الجمجمة الملكى : ان مستقبلكما سيكون فى أيدى الكهنة ، فعندما تصبحان بينهم كونا معهم فى حرص ابن آوى ومكر الثعبان ، وليكن لكما مظهر البراءة كالحمام ، ولا عليكما فى أن تصطنعا هذا حذرا من الضلال واتقاء للشر ، واحتيالا على تحقيق الأمل وبلوغ الهدف ، ومن الخير للمرء فى سبيل ذلك أن يصانع وأن يبدو أحيانا على غير حقيقته •

وتشعب الحديث بيننا بعد ذلك ، الى أن عاد حامل المشعل يحمل كرسيا آخر غير الذى ذهب به الرقيقان بالأمس ، وجاء به الى سيده مع رداء نظيف ، فلما تساءل « بتاحور » عن كرسيه المفقود ، قيل له ان الرقيقين رهناه فى الماخور القريب ، وشربا به خمرا حتى فقدا وعيهما فناما هناك ، فأمر « بتاحور » خادمه أن يستخدم اسمه وسلطانه لاسترداد الكرسى واستعادة الرقيقين • ثم ودعنا مؤكدا صداقته لأبى ، وغادر دارنا بين مظاهر التكريم متجها الى حى الطبقة الراقية بالمدينة •

وفى اليوم التالى بعث « بتاحور » الى « كيفا » بهدية تتمثل فى جعران مقدس منحوت من حجر كريم لتضعه الى جانب قلبها تحت الكفن فى قبرها ، ولشد ما فرحت أمى بهذه الهدية ، وغفرت له ما تقدم من ذنبه • وكفت عن محاضراتها المسهبة فى لعنة النبيذ •



دار الحياة



- ١ -

كهنة « آمون » لذاك العهد هم اصحاب السيطرة البعيدة المدى على التعليم العالى كله فى « طيبة » فليس مستطاعا بغير اذنهم أو توصيتهم اللحاق بالدراسات التى تؤهل للمناصب الهامة ، كما كانت لهم هـذه السيطرة نفسها على « دار الحياة » و « دار الموت » ، وهما تقومان منذ عهود متطاولة داخل أسوار المعبد • وكذلك كان شأنهم بالنسبة لمدارس اللاهوت التى يتخرج منها الكهنة ذوو الدرجات العليا ، وكانت تتبع هذه المدارس معاهد العلوم الرياضية والفلك ، على أنه كانت هنـاك مدارس أخرى لدراسة القانون وعلوم التجارة ، وهى بطبيعتها ألصق بالشئون المدنيـة التى تقع فى اختصاص فرعون وسلطة جباية الضرائب ، ولكن حتى هذه ، كان الكهنة لا يفلتونها من اشرافهم وسـلطانهم • وقد اقلق ذلك بال المتنورين الذين أصابوا حظا من الثقافة والرشد ، وأدركوا أن الكهنة انما يريدون بسط نفوذهم على هذه المدارس التى ليست لها الصفة اللاهوتية للتدخل فى الشئون العامة ، غير أنهم أدركوا أيضا الا مناص من هذا التدخل ، فهناك حقيقة لا يستطيعون تجاهلها ، هى أن « آمون » يملك خمس أراضى القطر المصرى ، وتبعا لهذا يقع فى حوزته خمس تجـارة البلاد ، ومن هنا كان لابد لأولئك الذين يطلبون الدراسات القانونيـة والتجارة أن يبدأوا دراستهم فى مدارس الـكهنوت ليتأهلوا بدرجاتهم الكهنوتية الصغرى ، وليكونوا بها فى عداد الخدام المخلصين لآمون •

وكان مفروضا قبل أن أضع قدمى فى « دار الحياة » أن أجتاز مرحلة الامتحان المقررة قبل لحاقى بمدرسة اللاهوت لأصبح كاهنـا من الدرجة الصغرى • وفى هذه المرحلة قضيت أكثر من عامين ، فقد كنت فى الوقت نفسه ارافق أبى فى زياراته لمرضاه لأفيد من تجاربه وأتزود بها لمستقبل حياتى العملية كطبيب •

وكان المرشحون لدرجات الكهنوت الصغرى ينقسمون في دراساتهم الى مجموعات وفق التخصص المهنى الذى تتهيأ له كل مجموعة فيما بعد ، وبطبيعة الحال كانت لنا نحن الذين سننتسب الى « دار الحياة » مجموعة خاصة متميزة بهذا الطابع المهنى • ولكننى لم أتخذ من رفاقى صديقا مقربا ، فقد آثرت العزلة عملا بنصائح « بتاحور » الحكيمة ، واقتضانى تأثرى بهذه النصائح أن أعيش بينهم وكأنى لست معهم ، متجاهلا تجاهلا تاما كل ما يصدر عنهم من معابثات ومشاكسات •

وكان من هؤلاء الرفاق أبناء الأطباء ذوى الشهرة ، الذين تؤجر مشوراتهم وعلاجهم بالذهب ، كما كان معنا من أبناء أطباء الأقاليم من كانوا يكبروننا سنا وأبدانا ، وقد لفحت شمس الريف وجوههم ، وهؤلاء كانوا يحاولون اخفاء خجلهم بانكبابهم على دراساتهم انكبابا كليا وكان فى فرقتنا أيضا أبناء الطبقات الدنيا الراغبون فى الارتفاع عن مستوى آبائهم المهنى والاجتماعى ، وكان ملحوظا عليهم الميل الشديد للاستزادة من المعرفة ، ولكنهم كانوا يلقون أقسى المعاملة من الكهنة الذين لم يكن يروقهم أن يوجد من هذه الطبقة الشعبية طامحون قد يغريهم طموحهم بالنشوز على الأوضاع القائمة •

وزادتنى حياتى فى هذا الجو اقتناعا بفائدة الحيطة والحذر ، فقد بدأت أكشف أن للكهنة علينا عيونا وأرصادا ، فكلمة طائشة فى حديث، أو عبارة تساق فى مزاح ، كانت على الأثر تبلغ مسامع الكهنة وكثيرا ما يساء تأويلها ، فيستدعون قائلها ويستجوبونه ، ثم يعاقبونه ، وأحيانا كان العقاب جلدا بالسوط ، وأحيانا كان فصلا ، الى الأبد ، من « دار الحياة » سواء أكانت فى « طيبة » أم فى أية مدينة أخرى بالقطر المصرى•

وقد منحتنى قدرتى على القراءة والكتابة مكانا مرموقا بين أقرانى جميعا حتى الذين يكبروننى سنا وجسما ، وأصبحت أعتقد أنى بلغت مبلغ الصلاحية والاعداد للحاق « بدار الحياة » ، فلما تتابع الوقت دون أن يتقرر انتقالى اليه ، لم أجد عندى الشجاعة لاستيضاح الأسباب ، فقد كان ذلك يعد تمردا على « آمون » •

وكنت أنشد تسليتى ومشغلة وقتى بنسخ كتب الموتى التى كانت تباع فى ساحات المعبد الأمامية ، ولكن كثيرا ما كانت تعرونى الكآبة

ويؤلمني الشعور بالظلم كلما رأيت غيري ممن هم دوني موهبة واستعدادا قد سبقوني الى « دار الحياة » • ولم يكن لي ثمة عزاء عن ذلك الا ما كان أبي يؤكده من أن امتداد هذه المرحلة التعليمية والريث فيها خليق أن يجعلني أكثر رسوخا في العلم وتمكنا من لبابه ، وأكثر احاطة بدقائقه وأسراره من أولئك الذين تعجلوا وتقدموني •

واخيرا ، أنبئت بأن دوري قد حل لأبدأ الصلاة في المعبد ، ومن ثم أدخلت الى حجراته لأقيم بها أسبوعا كاملا لا أبرحها ، آخذا نفسي فيهـا بالصوم للتطهير والتنقية ، وسر أبي لهذا ، فقص شعري وأقام لجيراننا وليمة احتفالا ببلوغي مبلغ الرشد ، ولم يكن هذا ليستحق الاحتفال ، ولكني كنت فيما قد بلغته بموضع السابق الممتاز على أبناء جيراننا الذين هم في مثل سني ، ولهذا اقيمت الوليمة وبذلت « كيفا » أقصى الجهد في اعدادها ، ولكني لم أستسغ في تلك الليلة شيئا مما طعمته كما لم تتفتح نفسي لشيء مما كان يدور بين الحضور من الملح والفكاهات ، ولاحظ أبي « سنموت » وأمي « كيفا » ما يعروني من كآبة وانقباض • وكأنما وقع في ذهن أبي أن مبعث هذا عندي هو القلق من غموض علاقتي البنوية بهما ، فرأى أن يضع حدا لذلك بمكاشفتي بالحقيقة ، ولهذا طفق يحدثني في أناة وهدوء عما لا أعلم من سر أمري وخفي قصتي ، وكانت « كيفا » تتدخل في الحديث لتضيف اليه ما لم يكن أبي يذكره عن سهو ونسيان ، وكنت أستمع الى حديثهما مشدوها ، وأتطلع خلال ذلك بقلب متفطر الى قارب الغاب الذي يعلو فراشي بعمده المتداعية ولونه القاتم ، وقد ذهبت بي كل مذهب افكاري أشد قتاما من لون القارب • اذن ــ فالحقيقة أني مخلوق مقذوف الى هذا العالم من شاطيء مجهول ، وأن الأقدار الظالمة قد حرمتني نسبا صريحا ، فليس لي أب ولا أم معروفان • فأنا في هذه المدينة الكبيرة وفي هذا المجتمع الزاخر ، وتحت نجوم هذه السماء الرحيبة الأقطار احيا وحيدا يتيما ، مشكوكا في نسبي وأصلي ، فمن يدري ؟ فلعلي أن أكون في حقيقتي أجنبيا عن أرض « كيم » أو لعلي أن أكون قد جئت الى الحياة عن طريق سر مخجل ؟! يالها من حقيقة تظهر ليحتويها الغموض المتـكاثف والشك المفجع ! ••

وقضيتها ليلة ليس كمثلها في الليالي السود !

وفي الصباح أخذت طريقي مبكرا الى المعبد ، وقلبي طافح بالأسى ، واضعا فوق ملابسي رداء المعبد الذي حاكته لي « كيفا » بنفسها •

كنا خمسة وعشرين صبيا وشابا حينما تلاقينا فى ذلك اليوم ، استعدادا لحياتنا الجديدة بالمعبد ، وقد بدأنا مراسم الدخـــول اليـه بالاستحمام فى بحيرته ، وشعورنا مقصوصة ، ثم ارتدينا ملابس خشنة وكان الكاهن المعين للاشراف علينا أكثر من غيره تدقيقا فى مراقبة أحوالنا وكان من حقه ، وفقا للتقاليد ، أن يشتط ما يشاء فى معاملتنا ، باسم اخضاع النفس واذلالها • على أن هذه المعاملة القاسية لم تكن تمتد الى بعض الطلاب من أصحاب المكانة الخاصة ولا الى غيرهم ممن أتموا دراســة القانون واجتازوا امتحانها ، وهم باستواء نموهم أقرب الى الرجال منهم الى الشباب ، وما رغبوا فى الانتساب لخدمة « آمون » الا ليكون مستقبلهم أكثر أمنا ، فهؤلاء وأولئك كانوا يبذخون فى تقديم هداياهم الى الكاهن طعاما ونبيذا ، وبذلك كانت عيون المراقبة تغض عنهم وتطوع لهم فى كثير من الأمسيات أن يخرجوا من المعبد ليقضوها فى بيــوت الملذات ، وما كان ذلك بالأمر الغريب عليهم ، فقلوبهم خواء من العقيدة الكهنوتية•

وما كنت أنا من هذا فى شىء ، فأفكارى المضطربة ومشاعرى الجريحة كانت تضغط على نفسى ضغطا شديدا ، فقنعت بكسرة الخبز وكوب الماء وهما غذاء الكهنوت ، مرتقبا فى أمل مشوب ، ورجاء يخالطه التشاؤم ، ذلك المستقبل الذى لا تتضح سماته ولا تبين معالمه •

لقد كنت فى سنى الصغيرة أشعر بالحنين الى العقيدة ، وقد قيل لنا ان « آمون » يظهر بنفسه فى محيط الكهنوت ، ويتحدث الى كل طالب على انفراد كلما بلغ درجة معينة من الصفاء الروحى • وكنت أتلمس الراحة فيما أرجو أن يتاح لى من القدرة للتغلب على متاعبى النفسية والتحرر من ظروفى الاجتماعية • وقد أحسست فى هذا الجو الكهنوتى بأشياء لم أكن أحسها قبل انتقالى اليه • ذلك أنى لما كنت فى رفقة أبى وبحكم اتصـــالى بمهنته عرفت المرض والموت ، وبهذه المعرفة تميزت عمن كانوا فى مثـــل سنى ، على أن هذه المعرفة كانت كذلك قد قررت فى ذهنى أن الطبيب انسان تتهاوى أمامه القداسات ، ففرعون على جلاله وخطره يقف أمام الطبيب عاريا كما ولدته أمه ، وينحنى له ، ويخضع لأوامره ، ويستجديه

العافية ، بل الحياة نفسها • فالطبيب فى عالم الأحياء أقوى سلطانا وأبعد نفوذا ، ولا يطأطىء رأسه الا أمام الموت وحده ، وهو أمر يتساوى فيه الجميع من غير تفاوت ولا استثناء • ومن هذا كانت نظرتى الى المقدسات داخل المعبد نظرة ينقصها اليقين أو أنها كانت نظرة الاستعلاء ، اذ كنت فى سبيلى الى أن أكون طبيبا ، له كل هذه الخصائص والمميزات • وباعد ذلك ، شيئا فشيئا ، بينى وبين ما كانت تلهمنى اياه حداثتى الأولى من الحنين الى العقيدة ، وزادنى ما رأيتـه عن كتب بالمعبد خلال السنوات الثلاث التى قضيتها به استغراقا فى هذا الشعور الذى يمكن أن يسمى الحادا ومروقا •

على أنى مع هذا كنت أطمع فى أن أستكشف « المجهول » المتوارى خلف قدس الأقداس ، عسى أن يظهر لى « آمون » ليمنح قلبى السلام ، ويفيض الراحة على روحى المعذبة •

كانت هذه الأفكار الشوارد هى شغلى الشاغل وأنا أتجنـــول بين الأعمدة التى يتقارب حولها العلمانيون ، وأدور بعينى على الصور المقدسة البديعة الرقوش والنقوش المعبرة فى وضوح عن عظمة الهدايا التى كان يقدمها الفراعين الى « آمون » باعتبارها نصيب الآلهة من غنائم الحروب •

هنالك وقع نظرى صدفة على سيدة كأنها تمثال من جمال ، وهى تأخذنى بنظراتها المثيرة ، فى فضول سافر ، وقد كانت كالغصن قـواما وكالصباح وجها ، ومع ذلك جعلت تزيد من فتنتها ، فهى ترتدى ثوبارقيقا من الكتان يشف عما وراءه من أجزاء جسمها البض ، وجمالها الغض ،وقد طلت شفتيها وخديها وزججتحاجبيها بألوان تزيدها فتنة واغراء ، وقبل أن يرتد طرفى عنها سمعتها تسألنى : ما اسمك أيها الفتى اللطيف ؟!

وكانت وهى تفجأنى بهذا السؤال تحدق بنظرها فى ردائى الرمادى الذى ينبئها بأنى طالب فى سلك الكهنوت •

وأجبتها فى شىء من الخجل : اسمى « سنوحى » • وكادت عيناى لاتقويان على مواجهة نظراتها الأخاذة الفاتنة ، ولكننى فى الوقت نفســه وددت أن تدعونى لأكون رائدها فىمشاهدة المعبد ، فقد كان ذلك من عمل الكهان •

وقالت ، وهى تفكر وتردد اسمى وتنظر الى من الرأس الى القدم :

سنوحي ؟! اذن فانت ممن يسهل ازعاجهم ، ويكفي أن يفضي اليك انسان يسر لتفر هاربا ٠٠

وكانت هذه تورية الى اسم «سنوحي» وما اشتهرت به أسطورته ٠ فكانما اضافت بدلك مضايقة جديدة الى كثير من المضايقات التى أعانيها فى مكايدات زملائى بالمدرسة ٠ غير أنى استجمعت شجاعتى لأقول لها ، وانا اغالب سحر عينيها : وماذا يزعجنى أو يخيفنى يا سيدتى ؟! ان الذى يهيىء نفسه ليكون طبيبا لا يمكن ، أو لا ينبغى له ، أن يخاف الأسرار ٠

فتهلل وجهها وقالت : مرحى ٠٠٠ انفيك لبشيرا بالنجـــابة ٠ فخبرنى اذن : هل تعرف بين زملائك شابا اسمه « متيوفر » ؟! انه ابن رئيس البنائين من حاشية فرعون ٠٠

« متيوفر » ؟ كيف لا أعرفه ، انه هو الذى غمر الكاهن عند قبوله بالمدرسة بالهدايا الطيبة ، نبيذ وسوار ذهبى ، ولكنى أحسست بشىء من الألم اللاذع حينما أجبتها بأنى أعرفه ٠٠٠ لقد طرأ على نفسى نحوها شعور غريب لم أتبينه تماما، وبخاصة عندما طلبت منى أن أدعوه اليها، فياله من فتى سعيد ! ٠

وحاولت التجرد من هذا الشعور الذى بدأت أدرك أن مصدره الغيرة فتصورتها أخت « متيوفر » أو احدى قريباته ، وأنها جاءت لتلقى أخاها أو قريبها ، وهذا أمر لاغرابة فيه ٠

وقلت لها : ما اسم سيدتى لأنبئه به ؟! فأجابت : انه يعرف ٠٠٠ ودقت الأرض فى حركة عصبية ، بحذائها المحلى بالجواهر ، واستطردت تقول : انه يعرف من أنا ٠٠ ولعلها استبانت فى وجهى أثر الشك فقالت : قد يكون مدينا لى فى شىء فجئت أتقاضاه ، وقد أكون زوجة رجل مرتحل طال غيابه فأقبلت لأدعو صاحبى « متيوفر » ليسلينى عن وحدتى ، أو ليس هذا معقولا ؟! ٠

وعاد الألم يحز فى أعصابى ، ولكنى قلت على الفور : حسنا أيهـا الجميل المجهول ! سأبحث عن « متيوفر » وأخبره أن سيدة فى مثل جمال الهة القمر وفتنتها تدعوه اليها ٠ وهو بالطبع سيعرف من أنت لأول وهلة فمن رآك مرة لا يستطيع أن ينساك ٠٠

وأدرت عنها وجهى ذاهبا للبحث عن صاحبها ، ولكنها أمسكت بى قائلة : ولماذا تذهب هكذا سريعا ؟! ابق هنا بعض الوقت فان لى معك حديثا غير هذا ٠

واخذت تتاملني من جديد فكانما كانت تسدد من عينيها الفاتنتين سهاما الى قلبى ، حتى أني كنت لديها وقتئذ كمن يذوب فى مصهر ٠

ولم تدعنى هذه الفاتنة فريسة الشعور المبهم ، فدنت منى ومدت يدها المثقلة بالخواتم والأساور الذهبية ، وأخذت تمر بها على رأسى قائلة فى حنو واسترخاء : ان هذا الرأس المقصوص حديثا ليبدو جميلا ! ٠٠

وفى رقة ودلال تساءلت : أكنت تقول حقا حين وصفتنى بجمال الهة القمر وفتنتها ؟! أنظر الى من قريب ٠

ونظرت اليها فاذا هى تلوح لى فى ردائها الكتانىأكثر فتنة وجمالا، لقد كانت أجمل من رأيت من النساء ، وهى من تلقاء نفسها تعرض جمالها عرضا صريحا لا تخفى منه شيئا ، فنسيت نفسى أو كدت أنساها ، بل نسيت « آمون » و « دار الحياة.» وانعقد لسانى فلم أحر جوابا ٠

وقالت فى حزن : انك لا تجيب ٠٠٠ ولا أحتاج منك الآن الى جواب لقد عرفت أن عينيك الحلوتين قد نظرتا الى كما لو كنت عجوزا شمطاء ٠٠ فاذهب اذن وادع الى « متيوفر » ، فلعل فى ذلك ما يريحك منى ٠

لم أتحرك ، ولم أنطق ، ولكنى أدركت أنها تقول ذلك لاثارتى ٠٠ وكانت الظلمة تنشر أجنحتها حينذاك بين أعمدة المعبد ، لايخالطها الا شعاع من ضوء بعيد ينعكس على عينى هذه السيدة الجميلة ٠٠٠ كنا وحدنا ، ولم يكن أحد يرانا ٠٠

قالت وهى تبتسم : أحسبك لا تريد أن تدعو رفيقى « متيوفر » فان كنت حقا لا تريد هذا فانى راضية أن تحل بموضعه منى وأن تجىء معى لتسلينى ، هلم ! ٠

وقبل أن تستهوينى تماما هذه الدعوة العذبة ، أومضت فى ذهنى ذكرى أحاديث أبى « سنموت » عن النساء اللوائى يغوين الشباب الموفورين بالفتوة والملاحة ، فتراجعت خطوة الى الوراء لأبتعد عنها ٠

ولكنها قالت وهى تزداد اقترابا منى : ألم أقل لك ان « سنوحى » انسان مطبوع على الخوف ؟ وحاولت أن تمد يدها لتضعها فوق رأسى ، ولكنى فى فزع نحيتها قائلا : الآن ، عرفت أى صنف من النساء تكونين! إن زوجك غائب ، وقلبك أحبولة صيد ، وجسمك يحرق أشد مما تحرق النار ٠

كان ذلك مني جرأة متكلفة . فالحقيقة أنني مع هذا التأبي الظاهر لم أستطع أن أترك المكان بعيدا عنها ، وعرفت هي ذلك مني ، فقاربتني بعد مباعدة قليلة وقالت في ابتسام ماكر : « أجاد أنت فيما تقول ؟! . أحسبك غير صادق فيه ، ولا مؤمن به ، فجسمي لا يحرق كالنار ، وانما يمكن أن يقال ان فيه اغراء .. ومع ذلك فما يمنعك أن تختبره بنفسك لتعلم ؟! » .

وفي حركة سريعة تناولت يدي ووضعتها على جسمها من فوق ملابسها الشفافة ، فسرت بي رجفة ، وعلت وجهي حمرة ، فقالت متخابثة كما لو كانت تخشى خيبة الأمل ، لا ، هذا لايكفي ... ان ردائي يحجب عنك الحقيقة فيما يظهر .

وأخذت تدير يدي على صدرها عاريا فأحسست بملامسته نعومة وطراوة ، وكأن نفسي تسربت في جسمها . وهنا قالت : هلم يا «سنوحي» الى منزلي لنشرب نبيذا ونقضي وقتا هانئا ...

قلت لها : لا أستطيع أن أبرح المعبد . قلتها في خشية واستحياء ، فعلى فرط اشتهائي لها ورغبتي فيها كانت الشجاعة لا تواتيني لموافقتها فيما تدعوني اليه ، بل لقد اخذت أخافها كخوفي من الموت . ولهذا استطردت قائلا : يجب أن أظل مصونا لا تلوثني مأثمة حتى أنال هنا مرتبة الكاهن ، فأي انحراف عن هذه الجادة من شأنه أن يقصيني الى الأبد من المعبد ومن « دار الحياة » ، وهذا ما لا يمكن أن يكون .

بهذه العبارات الصارمة كنت أدافع استسلامي لدعوتها اذا حاولت تكرارها ، ولكنها كانت امرأة لعوبا ، فلم تؤخذ بهذا الذى فهمت أنه تظاهر ملفق ، انها كانت ترى وراء هذا التظاهر ، عواطفي التي تضطرب ملتاعة مهمومة في داخل نفسي ، وكنا لانزال وحيدين ، وان كان الناس منا غير بعيد يروحون ويجيئون ، وعلى آذاننا يترامى صوت الدليل الذى يقود الزائرين شارحا لهم غرائب المعبد أو طالبا منهم نقودا نحاسية ليريهم هذه الغرائب .

وفي هذه الوحدة التي مازالت تحتوينا راحت تواصل اغراءها قائلة: لشد ما أراك خجولا يا « سنوحي » ، انك يا فتى لاتعلم أن الأغنياء والعظماء يخفون الى سراعا بأموالهم وهداياهم اذا ما أومأت اليهم بمثل ما أدعوك اليه . وأنت .. أنت تريد أن تظل مستعصما ! . يالها من حماقة ! .

قلت في تخاذل : الا تريدين أن أدعو لك « متيوفر » ؟ انه لن يتردد في استجابة دعوتك ، وفي وسعهأن يذهب اليك اذا ما جن الليل ولن يمنعه عنك أن عليه نوبة المراقبة في هذه الليلة • انه لا يبالى ولا يخشى ، لأنه ابن رئيس البنائين في حاشية فرعون •

قالت : لم أعد في حاجة الى استدعاء « متيوفر » • حسبي أنى لقيتك ، وأوثر أن نفترق ، أنا وأنت ، صديقين ، وانى لمخبرتك من أنا ، اننى « نفر نفر نفر » وهذا هو اسمى الذى يردده فى شغف المعجبون بجمالى ، المتغنون به ، وما أكثرهم ! •• والآن وقد أصبحنا صديقين ، أسالك ما هى هديتك التى ستهديها الى قبل أن نفترق ؟ لقد جرى الأصدقاء على أن يتهادوا عندما يفترقون ليتذكر بعضهم بعضا بهذه الهدايا خلال فترة الغياب •

ووقعت كلماتها على قلبى موجعة ، واستبدت بى الحيرة فى موقفى منها • انها تفرض صداقتها علىفرضا وتأخذنى بها أخذا مفاجئا وتتقاضانى ضريبتها الأولى فى صورة « هدية » وأنا الفقير الذى لا يملك شيئا ، ولو انى كنت أملك خاتما نحاسيا لما طوعت لى نفسى أن أقدمه هكذا قربانا لامرأة تعرض لى فى الطريق لأول وهلة • نعم انى كنت قد أحسست بنشوة الميل اليها ، ميل الغريزة المتحكمة فى عواطف شاب الى امرأة جياشة الأنوثة ثائرة الفتنة ، ولكنى كنت كملاح غير مدرب ، تلاطمت على قاربه الصغير بغتة أمواج عاتية ، ان كل مايفكر فيه هو كيف ينجو بنفسه • ولهذا خفضت رأسى حيرة أو خجلا ، دون أن أنبس بكلمة •

ولكن المرأة الفاتنة عادت تقول : هيه ، أين الهدية ؟ عجل ياصديقى إن قلبى الظامىء يريد أن تنعشه هديتك• وفى حركة سريعة أقامتبيدها رأسى المطرق ، وسلطت على وجهى أشعة عينيها المتأججتين ، ثم قربت وجهها منى ففهمت ما أرادت ولمست شفتيها بشفتى •

فقالت وهى تتنهد : شكرا لك ، ان عبير هذه القبلة عندى خير من أثمن هدية ، وساظل أتطيب به وأستروحه ما حييت • غير انى اخالك غريبا عن هذه الديار ، فأنت لا تعرف كيف تقبل سيدة ، وكأنما عجزت فتيات « طيبة » عن أن يعلمنك هذا ، وأنت •• أنت بشعرك المقصوص تستشرف الرجولة وتدنو منها •

قالت هذا ، ثم نزعت من ابهام يدها خاتما من خالص الذهب ، يتوجه حجر كبير من غير نقش • وفى رفق وحنان وضعته فى اصبعى

قائلة : هذا هو هديتي لك يا « ستوحى » فلعلك ذاكرى بها ، وانى لأرجو حينما تجتاز طور الكهنوت وتنتقل الى « دار الحياة » أن تنقش اســمك على هذا الحجر كما يفعل الأثرياء وأصـحاب المراكز الرفيعة • ولا تنس ان لونه أخضر لأن اسمى « نفر نفر نفر » ولأن عينى ، كما يقولــون ، خضراوان كلون مياه النيل فى حرارة الصيف •

وخرجت من صمتي المطبق لأقول : ولكنى لا أستطيع ، لا أستطيع أن آخذ خاتمك يا «نفر» . وكررت «نفر نفر » ، فأحسست فى تكرار هذا الاسم لذة وارتياحا •

قالت : فاحتفظ به ، أيها الفتى الأحمــق ، انثى أريد ذلك ، وقد تســتطيع فى قابل أيامك أن تهدى لى شيئا يعدله ، واستطردت وهى تهز أصبعها فى وجهى قائلة : وتذكر دائما أن تكون حذرا من النســاء اللائى تحرق أجسامهن أشد مما تحرق النار ! ••

واستدارت مولية وجهها شطر الباب بعد أن أشـارت بألا أتبعها ، ولكنى تابعتها بنظرى مشدوها ،فرأيتها من ثنايا باب المعبد ترقى كرسيا مزخرفا بالنقوش ، كان خدمها ينتظرونها به هناك بالساحة الامامية ، ثم حملوه وهى من فوقه ، ومضوا بها وأمامهم واحد منهم يصيح فى النــاس أن يفسحوا الطريق •فلما غابت عن نظرى شعرت بوحدة قاسية ، وكأنما انحدر رأسى الى هوة سحيقة مظلمة •

وعندما لقيت « متيوفر » بعــد ذلك بأيام ، استرعى نظره خاتم « نفر نفر نفر » فى أصــبعى ، فأمسك بيــدى ليتأمله فى امعــان ، وفى دهشة وشك ، قال : بحق قرود « أوزوريس » الأربعين ، انى لأكاد أشم ريحها فى هذا الخاتم ، ولكن كيف يمكن أن أصدق ذلك ؟!

كان لا يقع فى تصوره أن مثلى فى رقة حاله يستطيع أن يبلغ من هذه المرأة موضع الآخرين الذين يتفردون عنى بالجاه والثراء ، ولــكنه برغم ذلك وتأثرا بظنون لم ترق الى مرتبة اليقين ، كان ينظر الى منــذ ذلك الحين ، بما يشبه الاحترام ، حتى وهو يرانى مكبا على تنظيف أرض المعبد ، قائما بالأعمال التافهة التى كان يوجبهــا الكاهن على ويلزمنى بها الزاما ، لا لشىء ، سوى أنى عاجز عن تقديم الهدايا اليه •

وقد تأثرت أنا بهذا الشعور ، فتصــورت احترام « متيوفر » لى لونا من النفاق الذى ينطوى على الحــقد والكراهية ، وعلى توالى الأيام ، أخذ هذا التصور يقوى حتى صار فى قسـوة الحقيقة • ولقد كان يغلبنى

الحنين الى « نفر » ، فأهم حين ألاقيه بأن أسأله عنها ، ولكنى كنت أرد نفسى عن ذلك معجلا ، حفاظا بالسر ، وتعللا بالحقائق المجهولة ، فكثيرا ما تجد النفس عزاءها فى الخيال ، وهناءتها فى الاحلام • وكم كانت الحقائق اذا نضت عنها القشرة المموهة مجلبة عذاب وآلام ،ومدعاة تعاسة وشقاء••

رضيت اذن بالحياة على ذكرى « نفر » الملفقة الغـــامضة ، وكنت بها سعيدا • وكان أكثر ما يسعدنى منها هذا الحجر الأخضر الذى أنظر اليه فيذكرنى بعينيها الخضراوين ، تتألقان جمالا وتنفثان سحرا ! ••

كانت هذه الذكريات جدولا رقراقا انتهل منه آمالى وأحـلامى ، وبخاصة بعد أن ظهر لى « آمون » وتحررت أو كدت من مظاهر التزمت التى كان لامعدى لى منها قبل ذلك •

- ٣ -

قلت ان « آمون » قد ظهر لى ، وهذه قصة يجمل بى الآن أن أرويها فانه بعد أربع ليال من لحاقى بالمعبد ، كنت أحد الذين نيطت بهم الرقابة والسهر على الامن فى أرجائه ، وكان رفاقى فى هـــذه المهمة ستة ، هم « ماتا » و « موسى » و « بيك » و« سنوفر » و« نفرو » و« أحمس » • ولم أكن أعرف منهم الا «موسى» «وبيك» ، لانهما كانا يتأهلان مثلى لدخول « دار الحياة » •

وكان علينا أن نمضى فى اثر الكاهن فى وقار ، وهو يقـــودنا الى الجانب المغلق من المعبد ، فى حين كانت سفينة « آمون » (الشمس) فى ذاك الوقت ، قد أبحرت خلف التلال الغربية ، والحـــراس ينفخون فى أبواقهم الفضية ايذانا باغلاق الأبواب •

وسار الكاهن أمامنا مكتنز الجسم بادى القـوة لفرط ما يأكل من لحم القرابين والفاكهة والكعك الحلو ، ووجهه يقطر عافية ولمعانا وحمرة، كأنه الوعاء البلورى الذى يشف عما أسرف فيه من الزيت المعطر والنبيذ المسكر ••

وكنا ، وأنا بخاصة ، على النقيض من ذلك تماما • لقد كان الضعف والهزال يسريان فى أوصالنا ويهدان من قوانا ، لأن الصوم وتفـاهة ما نتناوله من غذاء ، قد فعلا فينا فعلهما • ذلك الى ما كان يساورنى وحدى من قلق فى هذه الحياة الجديدة •

وتقدم الكاهن ، وهو يضحك لنفسه ،فرفع ستارا علىفراغ منحوت فى الصخر لنرى قدس الاقداس،حيث يقف «آمون» وعلى رأسه غطاء منضد بالجواهر وحول عنقه قلادة مرصعة بالاحجار الكريمة ذات الألوان الخضراء والحمراء والزرقاء ، وهي جميعا تبدو شديدة التألق فى ضوء المصابيح المقدسة ٠

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التى أرى فيها « آمون » ٠ لقد رأيته قبل ذلك فى عيد الربيع محمولا على قاربه الذهبى فى ساحة المعبد الخارجية ٠ وكان الناس جميعهم يخرون أمامه ساجدين ٠ ثم رأيته كذلك عندما كان فيضان النيل يبلغ ذروته ، يمخر بالبحيرة المقدسة فوق سفينته المصنوعة من خشب السدر ٠ ولكنى حينذاك كنت تلميذا تحت التمرين ، وكنت من رؤيته غير قريب ٠ ولهذا لم يكن لردائه الأحمر مثل هذا التأثير القوى على نفسى ، وأنا أراه الآن فى ضوء المصابيح وسط السكون الرهيب الذى يشع فى المحراب الطاهر ٠٠

ان الأثواب الحمراء كانت الأردية التى يتفرد بها الآلهة والفراعين وقد أخذتنى الرهبة ، وأحسست كأن أحجارا ثقيلة وضعت فوق صدرى عندما رأيت « آمون » في ثوبه الاحمر شامخا برأسه المتألق بالجواهر ٠

وانتبهت على صوت الكاهن وهو يقول ــ مستندا الى قائمة الستار ليحفظ توازنه ــ أنظروا وصلوا « لآمون » ، واسألوه أن يدفع الشر عنكم فقد يستجيب لكم ، فمن عادته أن يكشف عن نفسه للطلاب ، ويناديهم بأسمائهم ، ويخاطبهم اذا كانوا يستحقون ذلك ٠

وبعد قليل رسم الكاهن علامات مقدسة متمتما باسم « آمون » المقدس ، وأعاد الستار مسدولا كما كان ، وانصرف تاركا ايانا فىالظلمة الداجية بغرفة الانتظار الداخلية ، وكانت أقدامنا العارية تكاد تتقلص من شدة الرطوبة فى بلاط هذه الغرفة ٠

وما كاد الكاهن يغيب عن انظارنا ، حتى أخرج « موسى» مصباحا كان يخفيه تحت عباءته وقال : ان من الحماقة أن نظل هكذا فى الظلام طول الوقت ، وتسلل « أحمس » الى المحراب ، فجاء بلهب قدسى وأشعل المصباح ، ثم حمل الينا بعد ذلك خبزا ولحما تناولناهما فى شىء من الطمأنينة ٠ واستلقى «أحمس » على الأرض بعد فراغنا من الطعام وقد لف جسمه فى عباءته لينام ، وتبعه رفاقه فأخذوا أمكنتهم بجواره متلاصقين ، وهم يتململون من صلابة الأرض ومن البرد القارس ٠ أما

انا فقد بقيت مستيقظا غير مستسلم لدواعي النوم ، ساهرا على الرقابة وان كنت لا أخشى مفاجأة الكاهن بزيارته لنا ، فقـد عرفت أنه تلقى من « متيوفر » اناء نبيذ ، وسمح له ولاثنين آخرين من الطلاب بأن يتناولوا النبيذ معه في غرفته ٠

كنت مخلصا لواجبي في الرقابة ، فلم أتخل عنها كما فعلوا ، على الرغم من أن الطلبة كانوا يجعلون من أيام التلمـذة طور لهو وعبث ، يقضونه موزعا بين طعام وشراب ، ولعب ونوم ٠

وخلال ليلي الطويل كان يساورني الشوق الى رؤية «آمون» منفردا ، اذ كان رفاقي كلهم قد استغرقوا في نومهم ٠ وقد وجهت نفسي بجملتها اليه ، مكررا أسماءه المقدسة ، كبير الأمل في أن يظهر لي ويناديني ، فقلبي عامر بالاخلاص له ، وروحي قد صفاها الصيام وصـدق التعبد ، ولكن السكوت والصمت العميق كانا يخيمان على المعبد ، ولم ألحظ شيئا سوى اختلاج ستار المحراب قليلا عند اقتراب الصباح ، ولم تكن هذه الحركة الا أثر الهواء الذي أحسست به متساقطاً على المكان في ذاك الوقت ٠

وعلى ضوء النهار الذي أخذ ينساب في القاعة أيقظت زملائي ، وفي اللحظة نفسـها كان الجنود ينفخون في أبواقهم ، وحراس الأسـوار يتبادلون نوباتهم ، والساحات الأمامية بدأت تزخر بالناس الذين يضطربون في جنباتها ٠

وأقبل علينـا الكاهن يرافقه « متيوفر » متأبطاً ذراعه ، ورائحـة النبيذ تفوح من أنفاسهما ، وباحدى يديه المحراب المقدس ، وكان يتمتم بأدعية دينية خاصة ٠ ثم سألنا نحن السبعة ـ بعد أن حيانا ـ عما اذا كنا قد أدينا واجب المراقبة والصـلاة تقربا الى الاله العظيم « آمون » وتوسلا الى نيل رعايته ورضاه ٠ فأجبنا جميعـا ، وفي صوت واحد : نعم ، لقد فعلنا ٠

وكان هذا جواباً خالياً من الصدق بالنسبة لرفاقي الستة ٠ وعاد الكاهن يسألنا وهو يحدق نظره فينا : وهل أظهر « آمون » نفسه لكم ، برا بوعده لمن يستحقون ذلك ؟

فجعل كل منا ينظر الى الآخر بجانب عينه كأنما يستوحيه الجواب عن هذا السؤال ٠ وكان « موسى » أسرعنا الى الجواب فقال : نعم ٠ لقد أظهر نفسه لنا ٠ وتابعه الرفاق ، واحدا بعد الآخر ، فكرروا نفس مقالته ٠ وكان « أحمس » أشد تحمسا في تأكيد ذلك ! ٠٠

وكما أدهشتنى اجابتهم الأولى ، أدهشتنى اجابتهم الثانية ، فهم فى الحالين كاذبون • ووقف قلبى استهوالا لهذا الكذب الجرىء المنافى لمبادىء الخلق القويم • وكان أعجب ما عجبت له ، تلك الفرية الضخمة التى قذف بها « متيوفر » فى وجوهنا وفى وجه الكاهن على الاخص • فقد زعم أنه كذلك ، قد راقب وصلى فى مكان آخر ، مدعيا أن ضرورة عمل هام قد اضطرته لأداء هذا الواجب بعيدا عنا ، وأردف قائلا : ولقد ظهر لى « آمون » فى شكل اناء ضخم من النبيذ وأسر الى أسرارا مقدسة تتعلق ببعض شئون لا يليق ذكرها هنا ، وقد أنعشنى اتصاله بى مثلما أنعشنى النبيذ الذى ظللت أروى به نفسى الظامئة حتى مطلع الفجر •

وكان « متيوفر » فى أكذوبته الجريئة ينظر الى الكاهن محملقا ، ويستشهد به على صدقه • ولم تخف علينا معانى هذا الاستشهاد ، فقد كنا نعلم أن «متيوفر » قضى ليلته مع الكاهن ، يسمران على أقداح النبيذ ، فلا رقابة ولا صلاة ولا تجليات « آمون » ولا شىء من أسراره المزعومة •

وأبى الرفاق أن يكون حظهم من ظهور « آمون » أقل من حظ هذا الرفيق « متيوفر » ، فراحوا يتزيدون فى اجاباتهم ، فقال « موسى » : لقد ظهر لى « آمون » فى صورة ابنه « حوراس » ووقف على كتفى كالصقر هاتفا : بورك فيك يا « موسى » وفى آلك ، وفى أفعالك ، اننى جد راض عنك ، وبفضل رضائى هذا سيتحقق لك ثراء طويل عريض ويصبح لك منزل فخم ، لأسواره بوابتان ، وسيكون لك حاشية وخدم كثيرون •

وقال الآخرون مثل مقالة « موسى » بفارق يسير فى الشكل واللون وصيغة الأداء • وكل منهم ينافس صاحبه فى الزيادة والتهويل ، بل فى الاختراع والتزوير • فقد أسرفوا جميعا فى هذا ، وما كان يجول بخاطرى ان يأثموا بأكاذيبهم الى هذا الحد ، فانعقد لسانى ولم أحر جوابا •

وكان الكاهن يستمع اليهم ، وهو يهز رأسه مبتسما راضيا ، فلما رآنى جامدا معقود اللسان صرخ فى وجهى قائلا فى ضيق : وأنت يا « سنوحى » ! ألم تكن جديراً برؤية « آمون » ؟! قل • ألم تره فى صورة ما ؟ تذكر •• لعله ظهر لك فى صورة فأر صغير •• انه يظهر نفسه فى صور وأشكال متعددة •

واستجمعت قوتى المشردة لأقول : بلى •• لقد رأيت ستار المحراب المقدس عند الفجر يتحرك قليلا ، ولكننى لم أر شيئا آخر ، وبالتالى لم يتحدث الى « آمون » •

وهنا انفجر الجميع ضاحكين • وكان «ميتيوفر» أكثرهم استغراقا في الضحك وقال للكاهن كما لو كان يعتذر عني : انه فتى ساذج •• ثم مال على أذنه ليهمس بكلام لم أسمعه ، فنظر الى الكاهن بعده نظرة صارمة وقال محتدا : اذا لم تسمع صوت « آمون » فمن المستحيل أن تحصل على شهادة اللحاق « بدار الحياة » وأردف قائلا في لهجة الرثاء والعطف : وعلى أية حال ، ينبغي أن نجد لذلك علاجا فأنت على ما أعتقد شاب طيب ، تنزع الى الأغراض الشريفة •

ومضى عنا الكاهن بعد ذلك الى قدس الأقداس • وأقبل « متيوفر » نحوى وعلى ثغره ابتسامة ليقول لى : لا تخف •• قالها بلهجة تقطر حنانا ليسرى عنى الكآبة التى استفاضت على وجهى ، والأسى الذى ملأ جوانح نفسى •

ولم نلبث الا قليلا حتى فجأنا صـوت خارق للطبيعة ، لا يشبه صوت انسان ، ينبعث فى القاعة ، مترددا فى كل جنباتها ، كأنه صادر من كل الأنحاء فى وقت واحد ، من السـقف ، ومن الحوائط ، ومن بين الأعمدة ، وكان يقول : سنوحى !! سنوحى !! أيها الفتى البليد •• أين أنت ؟! أقبل معجلا وانحن أمامى ، فوقتى أغلى من أن أضيعه من أجلك •

ولكنى لم أحرك ساكنا ، فجذبنى « متيوفر » بكل قوته وأدنانى من ستار قدس الأقداس ، وضغط على رأسى من خلف فأحناه ، حتى كاد يبلغ موضع قدمى وكانت هذه هى التحية المفروضة للآلهة والفراعين ، على أنه حين رفع يده عنى عدت فرفعت رأسى على الفور ، فرأيت الضوء قد غمر قدس الاقداس ، وسمعت اذ ذاك الصوت كأنه يخرج من فم «آمون» فيقول : سنوحى !! سنوحى !! أيها القرد •• هل أثملك الشراب ؟! أو كنت نائما عندما ناديتك ؟! حقا انك لتستحق أن تلقى فى عين حمئة ، وتزدرد من طينها طوال أيامك ، ولكنى من أجل شبابك سأعفو عنك برغم غبائك وقذارتك وتراخيك ، وانى لعطوف على من يشقون بى • أما أولئك الذين لم يمس نور الايمان قلوبهم فمصيرهم الى هوة سحيقة فى مملكة الموت •

واستطرد الصوت ، أو على الاصح صاحب الصوت ، يقـول كلاما كثيرا تتخلله عبارات السباب واللعنات التى لم أعد أتذكرها كلها ، ومن الخير الا أتذكرها فقد ثقلت فى ذلك الوقت على روحى وشعرت منهـا بالمرارة والمهانة ، لم يسترح عقلى الى صدورها عن آله مقدس ، فشككت

فى مصدرها وأرهفت سمعى الى جرس الصوت ونبراته ، متفقدا ناقدا ، فتبينت أنه صوت الكاهن ، قد زاده التمثيل ورجع الصدى اتساعا وقوة رنين .

وتوقف الصوت ، فلم أبرح مكانى حتى أقبل الكاهن فنحانى عنه ، وتبادر رفاقى فحملوا البخور والزيوت والعطور والملابس الحمراء ، وكان لزاما على كل منا ان يؤدى عملا ، فمضيت الى الساحة الامامية وعدت منها باناء الماء المقدس والمناشف المقدسة لغسل وجه الاله ويديه وقدميه ، واشمأزت نفسى حين رأيت الكاهن يبصق على وجه « آمون » ثم يمسح البصقة بكم قميصه القذر ، وأخذ «موسى» و «نفرو» يدهنان بالطلاء شفتيه وخديه وحاجبيه . أما «متيوفر» فكان يدلك جسمه بالزيت ، وعلى عادته من المرح والفكاهة كان كذلك يمسح بالزيت المقدس وجه الكاهن ووجهه هو أيضا ! ..

كان تمثال « آمون » عاريا كله ليغسل وينظف ويضفى عليه قميص جديد أحمر ومن فوقه مئزر باللون نفسه .

وقد جمع الكاهن الملابس التى رفعت عن التمثال بعد استبدالها بأخرى ، واستولى معها على المياه التى غسل بها آمون ، وعلى المناشف التى مسح بها جسمه ، لتباع الملابس فى الساحة الخارجية للسياح الاغنياء ، وتستعمل المياه دواء للامراض الجلدية .

وبعد أن فرغنا من هذه الواجبات ، انطلقنا أحرارا الى ساحة المعبد، حيث الشمس الساطعة هناك ، وقد أخذ ايمانى بالآلهة يخبو نوره وشيكا فى قلبى وفكرى .

وأخيرا ، وبعد انقضاء أسبوع ، وضع الزيت فوق رأسى ، واقسمت يمين الكهنوت ، وأعطيت شهادتى ، موسومة بخاتم معبد « آمون » ومكتوبا عليها اسمى لأنتقل بها الى « دار الحياة » .

ومن ثم أصبحنا ، انا و «بيك» و «موسى» ، طلابا بهذا المعهد : ونقش اسمى فى سجله كما نقش فيه من قبل اسم أبى «سنموت» واسم أبيه من قبله ، وكان ذلك حقيقا أن يسعدنى ، ولكنى حينما اجتزت أبواب « دار الحياة » كنت قد فقدت سعادتى .

« دار الحياة » .. جزء من معبد آمون العظيم ، وكان الاشراف الدراسى الفنى بها موكولا الى أطباء ملكيين ، كل للفرع الذى تخصص فيه ، وقليلا ما كنا نراهم ، فقد شغلتهم فى أكثر الوقت أعمالهم الطبية الخاصة خارج المعهد ، وكانت أعمالا واسعة النطاق ، يصيبون منها دخلا وفيرا وبخاصة ما كان يتوافى اليهم من هدايا مرضاهم الاغنياء . وكانوا يتخذون مساكنهم بمبعدة من المدينة ومن المعبد ، على أنه اذا حدث أن وفد على «دار الحياة » مريض أنهكه المرض واستعصى علاجه على الاطباء العاديين ، فان الطبيب الملكى المختص يستدعى فيجىء لفوره ، ويأخذ فى تطبيب هذا المريض على مشهد من الطلبة التابعين لفرعه ، وقد يشهد عمله معهم الاطباء العاديون الذين عجزوا عن علاج المريض ليزدادوا علما . ومن هنا كان مفهوما دائما أن المرضى الفقراء لا يفقدون حظهم من عناية الطبيب الملكى . وقد ذهب هذا فى الناس مأثرة من مآثر «آمون» .

وكانت مرحلة التعليم طويلة حتى بالنسبة للموهوبين الاذكياء ، اذ كانت منهاجا ذا حدود وآماد لا مجال فيها للسبق والتجاوز . وكان علينا أن ندرس العقاقير والادوية السائلة ، ونتعلم أسماء وخصائص الاعشاب والنباتات ، والفصول والساعات التى تحصد أو تجنى فيها ، وكيفية تجفيفها واستنباط موادها . فالطبيب أو الطالب الذى سيكون طبيبا ، ينبغى أن يعرف دقائق الدواء الذى يصفه لعلاج مرضاه ، وأن يمرن على تركيب عناصره بنفسه ، فقد يتطلب الامر ذلك . وكنا نشعر بشىء من الضيق لهذا ، فقد كان الرأى عندنا اذ ذاك أن عمل الطبيب مقصور على تحرير تذكرة الدواء ، وفق ما تمليه عليه حال المريض الذى قام بالفحص عن مرضه ، أما تحضير الدواء نفسه والمزاوجة بين أنواعه وما يقتضيه ذلك من تقطير وتصعيد وقياس ووزن ، فهذا من عمل القسم الخاص بالصيدلية فى « دار الحياة » . ولكن هذا الذى برمنا به وغابت عنا حكمته ، كان له بالنسبة لى أحسن الاثر فى مستقبل أيامى .

وكان علينا كذلك ، أن نتعرف ـ تعرفا دقيقا ـ أعضاء الجسم المختلفة وأسماءها وطبائعها ووظائفها وعلاقة بعضها ببعض وأن نتعلم كيف نكتشف أمراضها ونستشف ما خفى واستتر من عللها وكيف نستعمل المباضع والآلات والاجهزة لشتى الامراض والاجسام ، وأن نمرن أيدينا على كثير من عمليات الجراحة وفصل الاعضاء .. الى غير ذلك .

كما كان علينا أن نتعلم كيف نستظهر حقائق الامراض فيما نسمعه من أفواه المرضى ونميز بين النفسى منها والعضوى وبين الصحيح منهـــا والزائف ، وما هى الاسئلة التى نلقيهـا على المرضى لنستبين من الاجابة عليها نوع المرض وماهيته •

وقطعنا المرحلة المرسومة ، وفرغنا من منهجهـــا المقرر ، وبلغنا من الدراسة الطبية مبلغ القادرين على التمرس بأعمال المهنة ومقتضياتها ، وشهر ذلك فى احتفال تقليدى يقام عادة فى ختام الدراسة • ومن ثـم لبست ردائى الابيض وأخذت فى مباشرة واجباتى الجديدة بقاعة استقبال المرضى • وقد تنـــاول عملى كثيرا من صنوف العـــلاج لاقتلاع الاسنان المريضة ، وتضميد الجروح وتقويم العظام واستعمال المبضع فى فتـــح الدمامل والبثور • ولم يكن شيء من هذا جديدا فى حياتى ، فقد ألفت ذلك وخبرته خلال مراقبتى لأبى ، وضاعفت الدراسة المنظمة علمى به وخبرتى فيه ، فنلت بهذا تفوقا ملحوظا على زملائى ، ومكن لى من حق الاشراف عليهم واصدار التعليمات اليهم ، وفى بعض الاحيان كنت أتلقى من هدايا المرضى مثلما يتلقاه الاطباء الاساتذة •

وكنت أكتب تذكرات الدواء للمرضى ، فطاب لى أن أنقش اسمى على الحجر الاخضر للخاتم الذى اهدته لى « نفر نفر نفر » لأوقع به على هــذه التذكرات •

وألقى على كاهلى كثير من الواجبات الهامة ، ونيط بى الاشراف على المرضى الميئوس من شفائهم والذين يتولى علاجهم أشهر الاطباء ، ســواء أكان ذلك بتناول الدواء أم باجراء عمليات الجراحة ، وقلما كان يشفى واحد من كل عشرة منهم • وحينذاك أدركت أن الطبيب لا يخيفه اقبال الموت ، كما أن من المرضى من لا يرهبه الشـــعور بأنه فى طريقه وشيكا اليه ، بل ان منهم من يشغف بلقاء الموت مثل شغفه بلقاء صديق رحيم • لقد كانوا ، لطول ما عانوا من أوجاعهم ، يلتمسون فى الموت راحتهم ، حتى اننى قد رأيت منهم مرضى أفلتوا من الموت واســـتعادوا صحتهم ، ولكنهم كان يلوح عليهم انهم غير راضين عن أنفسهم بهذه النتيجة ! •• ذلك لانهم عائدون الى ما كانوا عليه من مكابدة الشقاء فى حياتهم •

والى ذلك الحين كنت أعيش فيما يشبه الغفلة فى عماها وصممها ، غير أنى فى هذا الطور الجديد من حيـــاتى بدأت أحس بحرارة اليقظة تنثال على ذهنى فجاة ، كما كان قد حدث فى طفولتى وأنا فى مدرسة « أونح » عندما انبعثت الحيـــاة انبعاث المعجزات فى الصور والحروف

والكلمات ، فتفتح بها ما كان مغلقا من عقلي وتعلمت القراءة والكتابة ، وكنت احسبهما شيئا غير مستطاع ! ..

ولقد أصبحت في يقظتي الجديدة لا أعرض لأمر الا ساءلت نفسي : لماذا ؟!

لم أعد أراني في هذا المحيط أداة جامدة تتحرك في موضعها تحركا آليا ، فليس يجمل بي أن أبقى كذلك مادمت انســـانا ذا عقل وارادة وبصر ..

وحدث بعد هذا أن جاءتني امرأة لم تنجب أطفـــالا ، وقد بلغت الاربعين من عمرها ، فاستقر في عقيدتها أنها عاقر واستنامت الى الراحة في اليأس ، ولكن محيضها تخلف أخيرا عن موعده ، وانتابتها لذلك آلام ، فأقبلت على « دار الحياة » لعلها تجد فيها خلاصا من هذا العارض الذي تخشى أن يكون روحا شريرا تسلل اليها ، لينفث السم في جسمها ..

وعلى أساس ما تعلمناه موصوفا في مثل هذه الحالة ، ألقيت ببعض حبات القمـــح في قطعة صغيرة من الارض ، وشطرت القطعة شطرين ، وسقيت أحدهما بماء النيل ، ودفعت الى الآخر مقدارا من «بول» المرأة ، وطلبت منها أن تعود بعد يومين ، ففيهما ، وبفعـل حرارة الشمس في الارض ، يظهر نبات القمح ، ويمكن عند ذاك ابداء الرأى .

وفي الموعد عادت المرأة ، ونظرنا الى الارض فاذا بالجزء الذي سقاه ماء النيل يبدو نباته ضئيلا متهـــافتا ، أما الآخر فبدا نبـــاته مزدهرا مخضوضرا قـــوى الاندفاع ، وهنا قلت للمرأة اليائسة القلقة : أبشرى ياسيدتي ، فقد منحك آمون المقدس بركته ونداه ، وستلدين طفلا كمن أنعم عليهن آمون من النساء ..

وتندت عينا المرأة بقطر من دموع الفرح فما كان يخطر ببالها أن تنال مثل هذه الحظوة من الاله المقدس فيحور يأسها الطويل املا ، وتتبدل حياتها من صحراء ممحلة الى واحة مزهرة ، هكذا فجأة . وكانت هـــذه بشرى حبيبة الى نفسها رأت أن تجزيني عليهـــا في الحـــال ، فانتزعت الســـوار الذي كان يزين أحد معصميها وقدمته لي في بســـمة عريضة شاكرة ، وقالت وهي في نشوة : لعلك مخبري — أيها الصادق العليم — أيكون ما بين أحشائي ولدا ؟! .. وكانت فيما بدا من لهفة سؤالها ترجو أن يكون الجواب بشرى ثانية بأنها ستلد ذكرا ، فلم أشأ أن أقطع عليها سبيل الرجاء . فأجبتها غير متلبث : نعم سيكون ذلك .

وكنت حينما ارتجلت هذا الجواب أحس كأني أتجاوب مع سر مولودها المغيب ، ففي تلك الايام كان حظي يسـعى بين يدي متفتحا ، وكثيرا ما كنت أتنبأ بأمور غير منظورة ، فتقع كما تنبأت بها ، وهو شيء أدين به الى الحظ وحده ، ووثوقا مني بمحالفةهذا الحظ ، تنبأت لهـا بمولودها الذكر ، وأنا مطمئن الى الحظ لا الى العلم اليقيني • أما السيدة نفسها فقد لاحت سعيدة أكبر السعادة بهذه البشرى الثانية ، ولفورها التزعت سوارها الآخر من معصمها الثاني وقدمته لي متهللة ، لتضاعف به هديتها • وكان كل من السوارين يزن ست أوقيات ونصف أوقية من الفضة •

وعدت الى نفسي ، بعد انصراف السيدة أسائلهـا : كيف أن حبة القمح تؤتي علما لم يؤته الطبيب ، فتنبيء بالحمل في حين لا يجد الطبيب بعينه وعلمه أمارة من أماراته ولا ظاهرة من ظواهره ؟!

واستخفي السر على عقلي ، فسألت أسـتاذي ، مجترئا ، السؤال نفسه ، ولكنه رمقني بالنظر الشزر ، وقال في لهجة من يتهمني بالغباء : هكذا قالت الكتب •

وطبعا لم يقنعني جوابه • وفي « دار الامومة » حركني الشك ، فكررت سؤالي على الطبيب الملكي المولد ، فلعـله أن يكون بطبيعة عمله وتجاربه أكثر علما ، ولكنه لم يزد سوى قوله : ان آمون اله الآلهة يعلم ما تحمل كل أنثى ••• وهو بعلمه هذا يمنح حب القمح قوة النماء في معرض الاشارة الى ما تجري به مشيئته في خفاء عن علم الناس ، فما بالك لا تدرك هذا ؟!

لكني كذلك لم أقتنع •• ومن هذا وأمثال هذا ، أصبحت أعتقد أن اطباء « دار الحياة » لا يجاوزون في عملهم حدود ما قرأوه نصوصا جامدة ، وما تلقوه ميراثا من مصطلحات العرف والتقاليد ، بل ان العرف والتقاليد كانت أشد تحكما في تصرفاتهم من نصوص الدراسة • فلو أنني سألت: لماذا يعالجون الجروح التي تنزف قيحا وصديدا بالكي ولا يعالجونهـا بالتنظيف والتضميد ، فان الاجابة لا تعدو قولهم : على هذا وجدنا آباءنا!

ان العمليات الجراحية وعمليـات البتر المائة والاثنين والثمانين المبسوطة في كتب الطب ، كانت في أيدي الاطباء مجرد أدوات يختلفون فيها اختلافا آليا ، كل منهم بقدر ما أصاب من التجربة والمران ، والدقة والاهمال ، والسرعة والبطء ، وعلى ذلك لم يكونوا يزيدون عليها شيئا بالاجتهاد وطلاقة التفكير •

وأحيانا كان الطبيب اذا رأى مريضــــا مصفر الوجه ناحل الجسم لا يتحرى العمـــق فى الكشف عن العلة الكمينة المسببة لذلك ، فيصف لعلاجه تناول الكبد النيئة من حيـــوانات القرابين ، وهو عـــلاج تمليه التقاليد ، ولا يمليه العلم المنظم القائم على الدراسة ، ولكن المريض مع ذلك قد يشفى تماما بتناوله هذه الكبد التى يشتريها بالثمن الغالى ، ولا يجوز أن يسأل انسان مثلى : لماذا يكون هذا هو العلاج الشافى ؟! .

وشبيه بهذا ما كان يعرض للاطباء من بعض أمراض المعدة الظاهرة ، انهم كانوا من غير تدقيق وبدون مبالاة يعالجونها بالمسهلات أو المسكنات، فمن المرضى من يبرأ ومنهم من ينتفخ بطنه ثم يموت ، ولا يعرف أحد لماذا برىء هذا أو لماذا مات ذاك ، فما يفكر أحد فى نشدان المعرفة أو الجد فى طلبها ..

وضقت بهذه الحال ذرعا ، فالشكوك فى نفسى تنمو وتلح ، والذين حولى قد سئموا منى تكرار الاسئلة والاستفسار ، وهم غير فاقهين دواعيها السليمة عندى ، وليس عندهم من الرشد وسعة الاحاطة العلمية مايهيئهم لمسايرتى فى التعرف على الحقائق واستكناه العلل والاســباب ، وربط النتائج بالمقدمات ، فأثاروها شكوكا على عقيدتى ، وأنكروا ذلك منى ، فتخلفت وسبقنى المتأخرون ، وعلا مكانهم على مكانى ، فلم أستطع المقـام بينهم ، ومن ثم خلعت ردائى الابيض ، وخرجت من «دار الحياة» حاملا معى السوارين الفضيين اللذين يزنان ثلاث عشرة أوقية .



استرعى نظرى بعد خروجى من المعبـــد الذى أمضيت فيه بضع سنين ، أن مدينة « طيبة » قد تبدلت خلال هذه السنين تبدلا واضــــح المعالم ، وبخاصة على امتداد شارع « رامس » وفى الاسواق .. فهنا وهنـــاك حركة جياشة ، والناس فى ملابسهم وأزيائهم قد بدوا أكثر أناقة ، ورقت الفوارق المميزة بين الرجال والنساء ، فهم جميعا يستعملون الشعر المستعار الذى صار يجلل رءوسهم ، وكذلك النصف الاسفل من لباسهم متعدد الثنيات . وفى الحانات ودور المبـــاذل كانت تترامى على الاسماع نغمات الموسيقى السورية مجلجلة ، وفى الطرقات كان السوريون والزنوج والمصريون يغدون ويروحون جنبـــا الى جنب وقد اختلطت فى أحاديثهم اللهجات المتباينة ..

رأيت هـــذا فلم أستغربه ، فقد بلغ القطر المصرى أقصى درجات

القوة والثروة ، لان قرونا مضت لم تطأ فيها أرضه قدم عدو ، ومنذ بعيد سكنت الحروب ، التى كانت تفنى فيها أرواح وتضيع أموال ، وأكثر متوسطى الاعمار من المواطنين لم يدركوا حربا ؛ ولكننى مع ذلك كنت ألمح على وجوههم بعض سمات القلق كأنهم يرتقبون فى شىء من الوجل حدثا من الاحداث ، فهل تراهم حقا غير سعداء ؟

وبقلب مفعم بالهموم بلغت دارنا ، فاذا أبى «سنموت» قد لاح عليه الكبر ، فظهره الى انحناء ، وضوء بصره فى خفوت وذبول ، وكذلك كانت حال أمى « كيفا » فهى تلهث اذا تحركت قليلا ، وحديثها لايكاد ينقطع عن المقبرة التى ستثوى بها • وكان أبى قد أراح بالها من هذه الناحية ، فقد اشترى ، بما استطاع أن يدخره ، مقبرة فى «مدينة الموتى» بالجانب الغربى للنهر ، وشهدت أنا بعد ذلك هذه المقبرة فألفيتها ذات رونق وجمال ، قد بنيت بالأحجار ، وعلى حوائطها نقوش وصور مما جرت به العادة ، وحولها من مثلها مئات وألوف باعها الكهنة للشرفاء والاثرياء بأثمان عالية ، طمعا فى الخلود • وبدافع من حبى لأبى وأمى أعددت كتابا عن الموت يهتديان به فى المقبرة خلال رحلتهما الطويلة ، وكان كتابا رائعا تأنقت فى كتابته بخطى وان لم يكن مزركشا أو ملون الصور . كتلك الكتب التى تباع بمكتبة معبد «آمون» •

وعندما كانت أمى تقدم لى الطعام ، كان أبى يسألنى عن دراساتى، وفيما عدا ذلك لم نجد حديثا نديره بيننا• كانت الدار كما كانت الشوارع، وكما كان الناس الذين يضطربون فيها ، كان كل أولئك فى نظرى صورا غريبة ، كأن لم تصلنى بها صلة من قبل •

ان أيامى الاخيرة فى «دار الحياة» قد أنشأت عندى شعورا ساخطا ضجرا ولهذا لم ألق ما كنت أرجوه ، بعيدا عنه ، من تسرية وتحرر وانتعاش روح •

وفى هذا الضيق المتصل ، ومضت بخاطرى ذكرى صديقى «تحوتمس» الذى التحق بمعهد «بتاح» ليكون فنانا ، فتعلقت بهذه الذكرى ، ووجدت فيها متنفسا من همومى الجاثمة ، ثم صح عزمى آخر الامر على ملاقاة صديقى«تحوتمس» لأجدد معه عهدالطفولة وآنس بصحبته فلعلى أنسى ماقاسيت من رفاق «دار الحياة» وأساتذتها وأطبائها ومسائلها المعقدة التى أعيانى السؤال عنها دون أن أجد جوابا •

ومن ثم ودعت أبوى زاعما لهما أنى عائد الى «دار الحياة» ، ومضيت متجها الى معبد (بتاح) ، حاملا السوارين اللذين ما زلت محتفظا بهما،

فبلغته قبل مغيب الشمس ، وأرشدني الحارس الى مقرمدرسة الفنون • وهناك وجدت الطلبة حول استاذهم ، ولم أجد من بينهم صـــــاحبي «تحوتمس» ، فسألتهم عنه ، فتجهموا وبصقوا على الارض كأنما ذكرت لهم اسم نجس ، وقالوا انه قد فصل من وقت طويل •

وأزعجتني المفاجأة ، ولكن الطلبة حين خلا المكان من أستـاذهم ، أسروا الى أني واجد صاحبي في حانة « الجرة السورية » •

فرحت أستهدي الناس اليها حتى بلغتها في مكان وسط بين الاحياء الفقيرة والاحياء الغنية ، وقد علت واجهتها لافتة تعلن عن خصائص النبيذ المستخرج من كرمة «آمون» ونبيذ المرفأ ، وامتـد بصري الى داخلهـــا مستطلعا ، فرأيت فيها أشخاصا أدركت لأول وهلة أنهم من الفنانين ، فقد كانوا ، وهم جلوس على الارض ، مكبين على لوحات يرسمون فيها ، وقريبا منهم رأيت انســانا يرنو في أسى الى اناء بجانبـه كان فارغا من النبيذ ، فما ان تلاقت نظراتنا حتى انبعث هاتفا باسمي ، وأقبل نحوى رافعا يديه في دهشة ، وقد اكتشفت فيه ، بعد جهد ، صديقي «تحوتمس» وأنكرت حاله ، فقد صار هو الآخر شخصا غير الذى كنت أعرفه • انه الآن انسان حائل متهالك ، تشيع في وجهه تجعدات الشيخوخة ، ولم تكن ملابسه بأقل من ذلك تشوها ، فهي رثة مهلهلة قذرة • على أن هذا الانسان الذى تراءى هكذا ناحلا متلاشيا ، كان لايزال فيه من «تحوتمس» نظراته النفاذة وروحه المرح ، فما ان تلاقينا حتى طوقني بذراعيه يضمني الى صدره ضم الحبيب المشوق ، ويقبلني قبلات حارة متدافعة •

وسرني منه أنه مابرح وفيا لعهد الصداقة وذكريات الصبا ، ولم أحفل اذ ذاك بما يغمره من مظاهر الحياة الواهنة ، فانما كنت أبحث عن قلبه وروحه وشعوره ، وقد وجدته من ذلك في عافية ، فما يعنيني منه شيء غير هذا •

وبادرته قائلا : هيا ياصديقي «تحوتمس» نشرب نبيذا ، ونسبح به في أجواء الخيال ، فقد أمضتني حقائق الناس ، وأشقاني العقل معهم • انهم يتسابقون سراعا الى غيرهدف معلوم ، فاذا أثارني العقل لأسأل أحدهم فيم هذا الامر أو ذاك ، لوى وجهه عني ساخرا ، ومضى في سبيله متسابقا مع الآخرين ، وانتهى أمرى الى حيث وجدت نفسي وحيدا متخلفا ، ولم أكن على باطل ولم يكونوا على حق ، فسئمتهم كما سئموني ، وبادلتهـم جفوة بمثلها ، وتركتهم لشأنهم ، وخرجت لشأني باحثا عنك ياصديقي •• فالى النبيذ اذن ، فليس في سواه لنا عزاء •

ولكن صديقي «تحوتمس» أومأ الى اناء النبيذ الفارغ ، والقى يده في جيبه ليخرجها كذلك فارغة ، ونظر الي نظرة باهتة تعبر عن أسفه ، فليس عنده نقود لما أدعوه اليه ، فعاجلته بقولي مبتسما : لا عليك من ذلك ثم أخرجت السوارين الفضيين من طيات ملابسي ولوحت بهمـــا قائلا : أحسب في هذين الكفاية ؟

ولم يجب «تحوتمس» ، الا أنه أشار الى رأسي المقصوص الشعر ، وفهمت المراد من اشارته ، فالناس يعدون صاحب الرأس المقصوص كاهنا . وكنت من قبل أطمع في أن أظهر بينهم بمثل هذه المرتبة العالية ، ولكني الآن كرهت ذلك وضقت به ، فهو مانعي من حق الجلوس في حانة ، ومن تعاطي النبيذ على مشهد منهم ، وغمرني شعور الاسف لأني جردت رأسي من الشعر ولم أدعه ناميا مرسلا كما كان ، على أن نفسي الثائرة على التقاليد المنافقة ، لم تأبه لذلك ، وقلت لصاحبي : لست كاهنا ، ولكنني طبيب ، ويجوز لي أن أشرب النبيذ في الحانات . وقد قرأت على لافتة الحانة اعلانا عن نبيذ المرفأ ، فادع لنا به ان كان جيدا .

فهتف «تحوتمس» بالساقي . وطلب منه نبيذا «مخلوطا» وقال انه يستطيبه لقوة تأثيره ، وجاء أحد الأرقاء فصب الماء على أيدينا ، ثم حمل الينا طبقا به بعض التوابل المشهية ، في حين أقبل صاحب الحانة نفسه حاملا قدحين مترعين بالنبيذ ، فوضعهما على المائدة ، فرفع «تحوتمس» قدحه وأفرغ منه قطرة على الارض ، داعيا بحق (اله الخزف المقدس) أن يحل الطاعون ويهلك أساتذة مدرسة الفنون ، وراح يردد أسمـــاءهم بترتيب كراهيته لهم ، فأغراني هذا بمجاراته ، فما كانت نفسي أقـل منه غيظا وسخطا على من تركتهم هناك داخل أسوار المعبد فأملت قدحي مثله وصببت منه قطرة على الارض قائلا : فلتثقب سـفينة « آمون» ، ولتغرق الى الأبد ولتنزل اللعنة على الكهنة ، ولتبقر بطـونهم ، وليفتك الوباء بأساتذة « دار الحياة » .

قلت هذا في صوت خفيض متلفتا ، حتى لاتتلقفه اذن شـــخص لانعرفه ، غير أن «تحوتمس» قال لي : لاتخف ، فآذان «آمون» بهذه الحانة قد أصابها الصمم لطول ما سمعته مكررا ومعادا من هذه اللعنات .

وأخذنا بأطراف الحديث بعد ذلك، فقال وهو يقص على بعض شأنه: أتراني كنت أجد خبزا وجعة لو لم أكن وفقت الى فكرة وضع كتب مصورة لأطفال الاغنياء ؟

واستطرد : وهاك شيئا مما يعجب به هؤلاء الاطفال ولا يرضى عنه الكثيرون من الرجال ، ثم راح يضع تحت بصرى مجموعة كان يدير فيها ريشته قبيـــل مقدمى ، فما وسعنى الا أن أضحك حين رأيت رسم قلعة تقوم هرة على حمايتها ، والهرة ترتجف فرقا أمام فار يحـــاول الاغارة عليها . وكذلك أضحكنى رسم فرس البحر يشدو بالغناء على قمة شجرة فى حين كانت حمامة تصعد اليه ، متثاقلة على درجات سلم مسند الى جذع الشجرة .

وانما ضحكت لأن صاحبى فى تصويره هذا يبرز الطبيعة المألوفة مقلوبة الاوضاع ، فالهرة لايمكن أن تحمى قلعة ، وهى تخيف الفار ولا تخاف منه ، وفرس البحر لايعلو قمم الاشجار ، وانما تعلوها الحمـــامة التى صورها صاعدة متثاقلة ، وهى الخفيفة ذات الجناحين ، على درجات سلم ! ..

وفى ابتسامة ساخرة ، طوى «تحوتمس» أوراق البردى التى تحمل هذه الصور لينشر أمامى لوحة اخرى رسم عليها كاهنا قصير القامة أصلع الرأس ، يقود فرعونا ضخما كأنه بهيمة القربان ، وهما يسيران معا على حبل دقيق !. وثمة لوحة غيرها صور عليها فرعونا ضـــئيل الجسم وهو ينحنى أمام تمثال ضخم لآمون .

وهنا لم أضحك ، فقد كان فى تصويره الأخير يهجم فى غير تقية أو حذر على مقدسات وعقائد لايأمن المتطاول عليها خطر العقاب الصارم ، وأدرك هو مايجيش بخاطرى فقال : وما فى هذا أيضا من غرابة ياصديقى ؟ أليس هو الواقع الذى نحسه ملموسا ونراه شائعا ! لماذا يدهشنا أن نرى فارا يهاجم قطة ، ولا يدهشنا أن نرى «فرعون» يقوده كاهن ؟ مع أن الامر الاخير أشد مطابقة لواقع الحال .

وكأنه ذكر فجأة ماوراء هذه الصراحة الجريئة من خطر ، فبدا عليه شىء من الانزعاج وقال : غير بعيد على أية حال ، أن يلقانى الكهنة فى الطريق العام فيضربونى بهراواتهم حتى أموت ، ولا يجدينى عندئذ أن جوفى قد ملىء خبزا وجعة .

فقلت مسريا عنه : دع هذه المخاوف ، ولا تكدر علينا صفو اللقاء ونشوة الشراب ، ومضينا فى شرابنا ومفاكهاتنا .

ولكن قلبى كان لم يزل بعد غير مبتهج ، فان تفكيرى فى «دارالحياة» وفى العوامل التى طوعت لى الخروج منها ، كان يلاحقنى ولا يفلتنى ، فقلت لصديقى «تحوتمس» : هل من الخطأ أن يسأل الانسان : «لماذا ؟» .

فأجاب: نعم . فهذا خطأ ، ومن يجترىء عليه فجزاؤه الحرمان من الراحة والمأوى في أرض «كيم» . هذه هي الحقيقة هنا ياصديقي ، وعلى من يؤثر السلامة والعافية ، أن يرضى بما هو كائن ، ويسير مع القافلة والا تحطم تحت سنابك خيلها المسرعة .. ولعلى مثلك قد قارفت الخطأ نفسه، فعندما التحقت بمدرسة الفنون كنت أكاد أطير فرحا واغتباطا ، كنت كالظامىء وجد عينا جارية، أو كالجائع وقع على خبز دسم ،وقدتعلمت أشياءكثيرة ودقيقة ، منها كيف أحسن استعمال القلم والريشة ، وأجيد استعمال الأزميل وصوغ نماذج الشمع لما ينحت في الصخر ، ونحت الحجر وصقله ، والنقش في المرمر والرخام . تعلمت هذا كله لقانة ودرسا ومرانا . فلما انتقلت من طور النظريات والتجارب ، الى طور التطبيق العملي ، لم أجد أمامي الا ألواحا من الطين ، ولم يؤذن لي بالعمل في غيرها خضوعا لحكم التقاليد . وللفنون كما للكتابة تقاليدها ، وهي المسيطرة المتحكمة . ومن يجاوز نطاقها أو يشذ عن أحكامها فانه الآبق المرتد الملعون ، ومن ثم يصبح غير صالح للبقاء في المعبد ، ويحال بينه وبين الاحجار والأزاميل والمراسم . وقد حيرني هذا ولم أفهمه ، فسألت مثل سؤالك : «لماذا ؟» . وأظنك الآن قد فهمت السبب الذى ألقى بى من أجله الى هذه الحانة . فلقد طردت ، كما لاأحتاج أن أقول ، من المعبد ، بعد أن جعلوا وجهي ، بضرباتهم ، شائها كما ترى .

استمعت الى حديث «تحوتمس» وتمثلت مأساته فاستراح قلبي ، فلم أعد وحيدا في الحياة ولا في الشقاء ، واستطرد هو قائلا : لقد ولدنا يا «سنوحي» في أوقات عجيبة ، وتلاقينا في أوقات عجيبة مثلها ، والاقدار التى صنعت هذا لكلينا تريد أن توثق العلاقة بيننا ، وارادتها هي الغالبة فلنمض على وحيها ، وليكن ما يكون بعد ذلك ، وما أرى الامور الا في سبيبها الا التحرر والتحلل ، فالأزياء والكلمات والموروث من العادات، وغير ذلك من طبائع الحياة وتقاليدها ، كل هذا قد شمله التغيير ، وتفاعلت فيه نزعات الفكر المستيقظ ، وما هي الا نزعات الخلاص من أسر طال أمده واحتلك ليله . والناس قد وهنت عقائدهم في الآلهة ولكنهم يخافون الجهر بذلك ، وهم لايخشونها وانما يخشون على أنفسهم ومصالحهم من أصحاب السلطان الحاكمين باسمها . على أني ألمح ــ غير بعيد ــ مشرق يوم جديد . ومن يدرى ياصديقي ، فلعل أن تكون الاقدار قد هيأت لنا أن نشهد مغيب عالمنا الذى نعيش فيه. والحق انه لعالم شائخ يفتقد عناصر الحياة، وهذه اثنا عشر قرنا قد مضت منذ شيدت الاهرام ومعاقل الآلهة وحصون الكهنة ، السث معى فى انه عمر طويل ، ممعن في الطول ؟ .

وأردف «تحوتمس» الى ذلك : الا وانى كلما تصورت حياتنا هذه التى تختلج اختلاج الاحتضار ، وتهتز اهتزاز الفناء ، هاجت نفسى حسرة ، وصرخت باكيا صراخ الاطفال ..

قال « تحوتمس » ذلك ولكنه لم يبك .. فقد كنا نشرب النبيذ المخلوط فى أقداحه الملونة ذات الصفاء الخالب ، وكان صاحب الحانة لايكف عن الالمام بنا ليملأها من جديد ، ومن لحظة الى أخرى يجىء خادم الحانة ليصب الماء على أيدينا ، والجو يزداد فى شعورنا انتعاشا ، فأحسست أن قلبى الذى كان مثقلا بهمومه ، قد أخذ يتحرك منتشيا ، ويخف حتى لكأنه فى خفة العصفور فى مطلع الشتاء . وخيل الى أنى أستطيع ان أنظم قصيدا وألقيه على الجماهير ، فأستولى به على مشاعرهم ، فاذا هم جميعا طوع اشارتى .. وكان «تحوتمس» يسبح معى بلا شك فى هذا البحر من الخيال والشاعرية ، فقد كان موفور البهجة ، ظاهر المرح ، متلاحق الضحكات ..

وقال «تحوتمس» : حسبنا من الحانة ذلك الوقت الذى قضيناه على هذه المائدة ، فهيا بنا الى مكان آخر ، وليكن بيتا من بيوت اللهو ، نستمع فيه الى الموسيقى ، ونستمتع برقص فتياته ، ونقضى هناك لحظات أوفر سعادة ، وأكثر مرحا ، ولنكف ياصديقى عن أن نسأل : «لماذا !» .

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب حين أخذنا سبيلنا الى حى الملاهى . وهناك رأيت ليل «طيبة» قد استحال نهارا ، ففى هذا الحى المائج كانت المشاعل تسطع أمام بيوت الملذات ، والمصابيح المعلقة على الاعمدة فى زوايا الشوارع ترسل ضوءها فياضا ، والأرقاء فى غدو ورواح يتصايحون وعلى أكتافهم ورءوسهم مقاعد سادتهم ، وقد اختلطت بصيحاتهم موسيقى الملاهى وصخب الثملين والسكارى ، ولم أكن حتى هذه اللحظة قد غشيت بيتا من بيوت اللهو ، ولكنى استسلمت الى صديقى «تحوتمس» وهو يقودنى الى بيت منها يسمى بيت« القطة والأعناب»وكان بيتا جميلا تزينه المصابيح المذهبة ، والوسائد الوثيرة وفيه القينات الجميلات يغنين على نفخ المزامير ، وضرب الأوتار ، وتوقيع المزاهر . فجلسنا الى رواد الملهى وأدلينا بدلونا فى دلائهم ، وارسلنا أنفسنا معهم ، ولما فرغ القيان الجميلات من الغناء والعزف طفن حولنا ، ثم اتخذن مكانهم الى جانبنا ، وفى تيه ودل ، وتمايل واغراء ، يسألننا نبيذا يترطبن به ، فقد جفت ، كما يزعمن ، حلوقهن . وبعد قليل نهضت فتاتان شبه عاريتين وانسابتا بيننا انسياب الأفاعى ، فرقصتا على ضروب من الخفة والمهارة

ودقة التثنى ، رقصا استهوى منا الأفئدة ، واستثار اعجابى بوجه خاص، فلم أر من قبل ، على كثرة مارأيت وأنا طبيب ، من اجسام النساء العارية مثلما رأيت الآن فى هاتين الراقصتين ، من امتشاق قد ، واتساق صدر ، الى فتنة مشتهاة فى افترار الثغر، وازدهار الوجه. على انى لم أكد أسرح بخيالى فى هذا الجو الذى ينفث المتعة والجمال حتى هبت عاصفة الموسيقى فارتدت خواطرى من حيث لاأدرى الى شيء من الشجن والأسى ، كأنما كانت الموسيقى تنفض على أذنى لحنا جنائزيا • وفيما كنت كذلك اقتربت منى فتاة بادية الجمال والفتنة ، وراحت تصانع عواطفى ، ثم قالت لى وهى تطيل النظر فى عينى الجامدتين : ان فى عينيك بريق أعين الحكماء •

فنظرت اليها دون ان آجيب، ذلك لأنى لم أتبين فى عينيها خضرة ماء النيل فى حرارة الصيف ، كما لم أر على اجزاء جسمها غير العارية لباسا من الكتان الملكى ، فلم أحفل بها • وعلى رغم امعانها فى اغرائى لم أجد بى ميلا الى مطاوعتها فى مجاذبة الحديث ، أو الى مناداتها بكلمة : « يا أختى » ، كما يفعل الآخرون • وانصرفت عنها الى النبيذ ، أتجرع كئوسه دراكا ، وظللت هكذا حتى غبت عن وعيى ، فما أدرى بعد ذلك الا أننى افقت فوجدت نفسى طريحا فى الطريق ، وفى راسى شجة عرفت بعد أنها نتيجة سقوطى على درج السلم مدفوعا من زنجى كان يركلنى ، فكان أول ما ذكرته وأنا فى تلك الحال ، أن أبى «سنموت» قال لى يوما ان هذا بعض ما ينتهى اليه المسرفون فى شراب الخمر ، وغاظنى أكثر من أى شيء آخر أنى وضعت يدى فى جيبى فلم أجد به شيئا متبقيا من المال • وبهذا بلغت المأساة أقسى حدتها •

وعندما أهل الصباح كان رأيى قد استقر على عودتى الى «دار الحياة» ، فما فى غيرها خير ، وليس عنها بعد مالقيت محيص • فأخذت وجهى اليها مقررا فى نفسى ألا أجرى على لسانى كلمة «لماذا ؟!» • انها كلمة ، على رءوس حروفها المتاعب ، فمن الحماقة وخطل الرأى أن أظل متعلقا بها ، وأن أكون وحدى ناشزا بها على رأى الجماعة وأوضاعهم •

وكانت عيناى قد انتفختا ، وملابسى قد رانت عليها اثارة من قذارة فأسرعت فور وصولى الى ملابسى البيضاء ، فارتديتها بعد أن أصلحت نفسى بقدر ما تهيأ لى من ذلك ، ولكن أستاذى لم يخف عليه أمرى ، فراح يقرعنى بكلمات لاذعة لاأنساها ، مستعملا فيها السؤال الذى طالما اضجرتهم به ، كقوله « لماذا » كنت تدور طول ليلك حول الملاهى ؟!•

« ولماذا » كان اسرافك فى شراب النبيذ ؟! « ولماذا » كان ارتيادك بيوت الملذات وتحطيمك أوانى الشراب على نحو لا يلائم المواطن الشريف ؟

وأردف أستاذى هذه الاسئلة بابتسامة عريضة تحمل معنى الرضا والتسامح واصطحبنى معه الى حجرته ، وجرعنى دواء مليناً لتنظيف معدتى ٠

ومن هنا بدأت تسرى فى مشاعرى روح الانتعاش ، فقد أدركت أن « دار الحياة » تغضى عن مآثم الخمر وبيوت الملذات ، على أن يكف مرتكبها عن سؤاله « لماذا ؟! » ٠

- ٦ -

وأغرانى ما لقيت فى « دار الحياة» من التسامح واغتفار الزلات ، بلهو «طيبة» ولياليها المرحة ، فشغلت بها حتى أصبحت مشاعلها المتألقة أحب الى نفسى من ضوء الشمس ، فما يقبل المساء الا تعجلت الغدو عليها كأنها عندى بداية نهار ٠ والواقع أن أذنى كانتا تحنان دائما الى تهاليل الموسيقى السورية والى ذلك الجرس الرقيق من نغمات القيان الحسان ولطائف غزلهن ، وكانتا من قبل لاتسمعان الا أنين المرضى وشكاتهم ٠ وقد دفعنى الحرص على أن أظل فى أمن من اعتراض أساتذتى ووقوفهم فى طريقى ، الى أن أكون أشد محافظة على واجباتى ، وامضى همة فى القيام بعملى ، وأكثر اقبالا على مرضاة الممتحنين بوجه خاص ٠ والى حد بعيد تحقق لى ما أردت من ذلك ، وصار هؤلاء الذين كنت أخشاهم يرغبوننى وان لم يكن ترغيبا صريحا ، فى مطاوعة شهوات النفس ، والاستجابة الى نداء الشباب ، فذلك يحيى القلب ويبهجه ٠ وقد يجد الطالب فى هذا قوة دافعة ، أو اثارة نافعة ، أو ذلك هو المعنى الذى فهمته من اشارات الاساتذة ٠

وأرسلت نفسى على هواها فى غشيان ملاهى «طيبة» كلما أقبل الليل ومع ذلك لم أتجاوز العلاقة الخفيفة مع النساء ، حتى بعد أن تبينت أن اجسامهن لاتحرق أشد مما تحرق النار ٠

وفى هذه الايام كان القلق شائعا فى الناس ، «ففرعون» العظيم كان مريضا ، وقد رأيته بوجهه العجوز المتجعد محمولا الى المعبد فى عيد الخريف ، وكان ، فى أبراده المزينة بالذهب والاحجار الكريمة ، يبدو كأنه تمثال لاحركة فيه ، حانى الرأس تحت التاج المزدوج لفرط وهنه وضعفه،

وقد غلب اليأس فى علاجه ، فما عاد يجدى فى شفائه طب الأطباء ، ومن هنا تردد بين الناس أن أيامه باتت معدودة ، وأن رأس ولى عهده يقترب وشيكا من التاج ، وكان شابا فى سن المراهقة مثلى ٠

وفرعون «أمنحوتب الثالث» كان يطمع منأبيه «آمون» فى أن يشفيه ويرد العافية اليه ، ويرى من حقه أن ينال ذلك منه ، فهو قد أقام له أعظم معبد لم تشهد مصر مثله فى سائر عهود تاريخها ٠ ولكن هذا الرجاء أخذ يضمحل مع اضـــمحلال بدنه ، ويتزايل مع تزايل قوته ٠ وقد بلغ من يأسه وضعف رجائه فى المدد المنتظر من آلهة مصر « ان ولى وجهه شطر صهره ملك « ميتانى » فى مدينة « نهاران » ليرسل اليه الالهة «عشتروت» صاحبة الشهرة المدوية فى صنع المعجزات ، لتبرئه من علته ، وتخلصه من براثن الموت ٠ ولـكن أمله فى هـــذه المحـــاولة قد خاب ، كمـــا خاب رجاؤه فى آلهته . وكان من حســـن حظ الكهنة أن عجز الآلهة الأجانب عن شفائه .

ولم يبق من سبيل فى محيطنا الطبى الا أن يستعان فى علاجـــه بالمحاولة الاخيرة ، وهى اجراء عملية فتح الجمجمة ، ولذلك استدعى الى القصر جراح الرأس الملكى «بتاحور» ٠ وكنت لم أره خلال عهدى الطويل فى «دار الحياة» ، اذ كانت عمليات جراحة الرأس عندنا نادرة ، فضلا على انه لم يكن مســموحا لى فى عهـد الطلب بأن أحضر مع الاخصـائيين فى علاجاتهم وعملياتهم ٠ فهاهو ذا الآن قد أقبل علينا فى «دار الحيـاة» ، وكان — على مارأيته لاول مرة فى دارنا — أصلع نفاذ البصر، فياض الحيوية وان كان وجهه قد تجهم بالشيخوخة وبما أشاعته فيه من تجعدات ٠ ولقد عرفنى فى الحال وقال مبتسما : انه انت يا «سنوحى» ! هل تقدمت ياابن «سنموت» ؟ ! ثم ناولنى صندوقا خشبيا أسود اللون محتويا على آلاته وأجهزة عمله ، ودعانى الى مرافقته ، وكان ذلك شرفا عظيما آثرنى به دون الآخرين ، وكنت به موضع الغبطة ، بل الحسد ، حتى من بعض الاطبـاء الملكيين ٠

وعرفت من «بتاحور» أنه يريد أن يتحقق ، قبل العملية التى سيقوم بها فى جمجمة فرعون ، من أن يده لم تزل تحتفظ بقوتها وثباتها ، ولهذا يرغب فى تجربتها بفتح جمجمة أو اثنتين ، وكانت يده فعلا تختلج بعض الاختلاج ، ولعل هذا هو الذى أخافه منها ٠

ودخلت معه غرفة المرضى المفلوجين والميئـــوس من شـــفائهم ، فاستعرضهم وسبر حالاتهم ثم اختار رجلين منهم ، أحدهما عجوز استفحل

مرضه حتى ليعد الموت راحة له ، وثانيهما رقيق من الأرقاء وثيق البناء قوى العضل ولكنه كان فاقد النطق ، وأطرافه معطلة منذ جيء به مصابا بضربة فى رأسه ، فأعطاهما تخدرا وأشار بحملهما الى حجرة العمليات ، وعملا باشارته قصصت شعر رأسيهما ، ونظفتهما غسلا بالمـــاء ودلكا بالمرهم • ثم شرع «بتاحور» ، بعد تعقيم أسلحته فى عمله مبتدئا برأس المريض العجوز فسلخ فروته وأدار به ، بعد تعريته ، مثتابا تداعت على اثره دائرة العظام فرفعها ، وأجال بصره فيما تحتها فاحصا فى حين كان الرجل المريض يئن انينا موجعا ، وقد كسا وجهه اللون الأزرق ، وقال «بتاحور» بعد قليل من التأمل : لاأرى شيئا هنا يمكن أن يكون سببا فى مرضه • ثم أعاد دائرة العظام الى موضعها من الرأس ولفها بالضمادات ليحبس الدماء التى كانت تتدفق منها غزيرة ، على أن الرجل المريض كان فى هذه اللحظة يسلم النفس الاخير من حياته •

وطلب«بتاحور» كأسا من النبيذ ليتماسك به، فقد أحس بشيء من الاعياء وارتعاش اليد ، وكان يحيط به جهرة من النظارة ، ومن بينهم أساتذة «دار الحياة» والطلبة الذين يعدون أنفسهم لجراحة الجمجمة • فلما استعاد نشاطه بالنبيذ تحول الى المريض الثانى مقيدا ، وكان ينظر الينا نظرات مفزعةعلى الرغممن أنه كان تحتتأثير المخدر • وقد أشار «بتاحور» بأن يزاد وثاقه وأن نضع رأسه بين فكي منجلة مخافة أن يفلت • •وكما فعل بفروة رأس المريض الاول ، فعل بهذا المريض الثانى ، ولكنه فى هذه المرة كان أكثر عناية بوقف نزف الدم ، فأدار على شرايين الفروة سفودا محميا ليكويها ، ومسح عليها بالمرهم ، ثم أخذ يزيح قطعة من الجمجمة فى مكان الاصابة ، بقدر قبضة اليد ، مستعملا مثتابا ومنشارا وملقاطا • وعندئذ أومأ الينا لننظر الدم متجمدا ، ومتجمعا فى ثنية هذا الموضع من المخ ، وفى كثير من العناية والدقة أزال هذا الدم المتجمد ذرة فى اثر أخرى ثم التقط كسرة من العظم كانت قد اندفعت فى مجرى المادة المخية •

واستغرقت هذه العملية بعض الوقت ، فاستطاع الطلبة خلالها أن يعوا الكثير من دقائق جهاز الرأس • وكان «بتـاحور» نفســه يعنى بأن يفيدوا من هذا الدرس العملى ، ولهذا أشرك معه فى العملية بعض أطبـــاء «دار الحياة» ، ولو أننى فهمت وقتها أنه انما استعان بهم عن قصد آخر هو اراحة يديه للعملية الكبرى المقبلة فى رأس فرعون •

وبعد أن فرغ «بتاحور» من استخراج كسرة العظم من مخ المريض ، وضع على فتحة الجمجمة صحيفة من الفضة كانت قد أعدت منذ قليل على

مقاس الجزء المكشوف ، وثبتها فى مكانها بمشابك دقيقة خاصة ، وخاط الاطراف وأحاط الرأس بالضمادات ، ثم أمر بايقاظ المريض الذى ظل فاقد الوعى وقتا طويلا . فحلوا وثاقه وصبوا فى حلقه نبيـــذا ونشقوه بعض العقاقير المنبهة . وما ان فعلوا هذا حتى هب من مرقده ثائرا وهو يقذف من فمه الشتائم واللعنات .

ولم يحوجنى «بتاحور» الى أن أسأل لماذا تكلم هذا الذى كان منــذ لحظات معقود اللسان ، أو لماذا تحرك هذا الذى كان بيننا مشلول الاطراف معطل الحركة ؟ فقد أخذ من تلقاء نفسه يشرح لنا فى ابانة وتفصيل كيف أن شظية العظام التى تسربت الى المخ وجمدت الدم هى العلة والسبب .

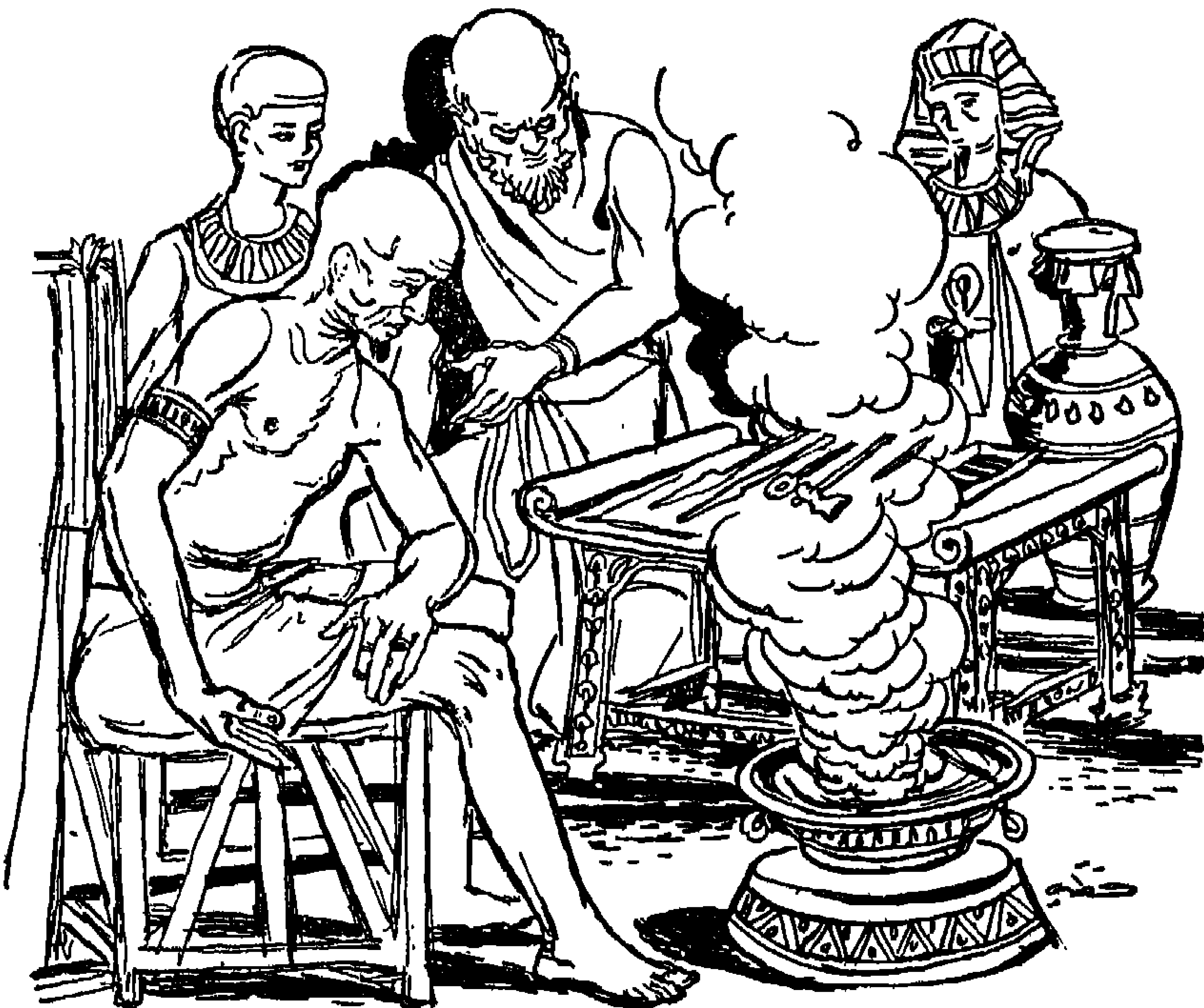
وقال «بتاحور» : ان هذا المريض سيزول عنه الخطر تماما بعد ثلاثة أيام ، وبعد اسبوعين يستطيع أن يعصف بالرجل الذى ألقى الحجر عــلى رأسه فكسره .

ثم وجه شكره الى مساعديه فى العملية وذكرنى باســمى بينهم ، فزاد بذلك من غبطتى ، وشعرت بأنه يولينى اهتماما أكثر منهم عندما دعانى الى مساعدته فى عمليتين أخريين من عمليات الجراحة . وأخيرا قال لى : الآن يمكن الاطمئنان اليك فى ممارسة العملية الكبرى بجمجمة فرعون فهيىء نفسك لذلك .

فاسرعت مزهوا الى رداء الطبيب المبتـــدىء فأفرغته على جسمى ، وأخذت مكانى الى جانب «بتاحور» على محفته وبجوارى المساعد المختص بوقف نزف الدم ، وسارت بنا المحفة متهادية ، والخدم يتقدمونها ليوسعوا الطريق أمام حامليها ، الى أن بلغنا المرفأ ، ومنه أبحرنا على سفينة فرعون التى كانت بانتظارنا وعلى ظهرها الرجال الاشداء الذين جعلوا يجدفون مسرعين بها الى مرفأ فرعون ، ومن هناك حملنا بنفس السرعة الى قصره الذهبى .

ولم استغرب هذه الحركات السريعة فى قدومنـــا الى القصر ، فان المظاهر التى رأيناها ونحن نخترق شوارع «طيبة» كانت تنبىء بأن المدينة تتأهب لملاقاة حادث جلل . فالجنود متراصون على أهبة الاســـتعداد ، وأبواب المدينة مغلقة والتجار يتسابقون الى ايداع بضائعهم فى مخازنهم . وأبواب الدور قد اغلقت بالأرتاج والمزاليج ، كل هذا لانهم عرفوا أن « فرعون » يصطرع مع الموت فى جولته الأخيرة .

القلق في "طيبة"



- ١ -

وفى مثل تدفع المياه من القمة العالية سرى بين الناس نبأ قدومنا الى القصر الملكى ، وكانوا يتجمعون حواليه ويرضدون بعيون متلهفة ما يجرى بداخله ، وكذلك كانت صفحة الماء بين يدى مرفأ القصر تغشاها وتزحم أقطارها القوارب المصنوعة من الخشب والغاب ، قد توافت بأصحابها من الأغنياء والفقراء على السواء ليشتركوا فى تسمع آخر الانباء . ولم يكن اقتراب السفن والتوارب من المرفأ قبل ذلك مباحا لأحد ، لوقوعه بمنطقة القصر ذات القداسة . ولكن الامر فى ذاك اليوم كان خاضعا ، كغيره ، لسلطان العاطفة المضطربة ، ولا يقيده نظام قائم أو تقليد متبع .

وكنا ، ونحن ماضون الى القصر ، نرى فى وجوههم علامات مستفيضة من القلق و لفزع ونستمع اليهم يلهجون بعبارات اليأس والقنوط . فقدوم جراح الجمجمة ايذان بخيبة الرجاء فى نجاة «فرعون» ، ذلك لانهم يعلمون انه مامن فرعون من فراعين مصر السابقين ، أجريت له جراحة فتح الجمجمة ، وهو فى مثل هذه الحال من ادمان العلة واستعصاء المرض ووهن القوة ، الا لقى حتفه ، وتوارت عن هذا الوجود شمسه .

وبلغنا جناح الملك مجتازين اليه طريقا تظلله أشجار السوسن ، وتلقانا الامناء ورجال الحاشية فى احترام كبير ، وحفاوة بالغة ، وتبادل «بتاحور» وطبيب الملك الخاص بعض عبارات ، تجهم لها وجه « بتاحور » فقد أدرك كما أدركنا أن الحالة من السوء بحيث لا يومض فى ناحية منها أمل ، ولكنه راح يعد تدابير العملية غير مكترث لنتيجتها ، وقد خصصت لها احدى الحجرات ، ومن ثم أضيئت الانوار المقدسة ، واتجهنا الى مخدع الملك .

وكان فرعون مسجى على سريره الذهبى ، الذى يقوم على أعمدة من تماثيل الأسود ، منتفخ الجسم مجردا من شارات الملك ، وراسه مائل الى جنبه ، فاقد الوعى والحركة الا من زفرات خافتة . وهنا شهدنا فرعون

العظيم الذى تحرسه الآلهة وتحميه ، قد زالت عنه مظاهر العظمة المميزة وأصبح على أبواب النهاية ، كأى مريض آخر من الفقراء الراقدين هنـاك فى «دار الحياة» • انه الآن تحت أعيننا لايستطيع أن يجد مسعفا من ملكه العريض ، وسلطانه القوى ، يتقى به القضاء النازل ! فليس ثمة فرق بينه وبين أعجز فرد من عامة رعاياه ومقدسيه ! وماذا يجديه اليوم أن غرفته تتزين بلوحات تمثل قوته وشجاعته ومن بينها لوحة تمثله علىعربة تجرها خيول مطهمة وتركض به ركضا سريعا وهو يريش السهام الى الأسـود فيرديها • لقد ذهب عنه كل شيء ، حتى مجرد النظر الى ماضيه منقوشا على لوحات الرسم •

وانحنينا أمام مرقده احتراما للموت الذى يطل عليه بكل علاماته ، وكان الرأى عندنا أنه لاجدوى من فتح رأس فرعون فى هذه اللحظة التى تتلاشى فيها آخر قطرة من زيت المصباح • ولكن كان لامناص من اجراء العملية مهما يكن الرأى فيها ، فمنذ أقدم العصور كانت هى المحـاولة الاخيرة ، ولهذا قرر «بتاحور» البدء فيها ، ومن ثم عكفت على تعقيم الادوات فى لهب النار ، كما راح طبيب القصر الخاص يحلق شعر رأس الملك ، فى حين أشار «بتاحور» الى رفيقنا المختص بوقف نزف الدم ليعلو السرير ويمسك رأس الملك بين يديه •

وفى هذه الآونة أقبلت علينا الملكة «تايا» واتجهت فى عجـل الى السرير ، فنحت الرجل عن رأس الملك قائلة : لايجوز لمثل هذا أن يلمس الها ، فان كان لامعدى من أن يمسك انسان براس الملك ، فانى لفاعلة ذلك بنفسى •

وكانت الملكة تبدو فى أسى ظاهر ، ومن خلفها يتف وريث العرش الصغير «أمنحوتب» واخته«باكيت آمون»،وقد عرفتهم ثلاثتهم بسيماهم بمجرد النظر اليهم ، فقد كانت تقوم لهم بالمعبد تماثيل تطابق صـورهم اشد المطابقة . أما ولى العهد فكان فى مثل سنى وان كان أطول منى قامة، وأما أخته الاميرة فكانت ترتسم على وجهها سمات الجمال والنبل ، وأما أمها الملكة فكانت أميل الى القصر ، فى شيء من البدانة الملحوظة ، وفى بشرة وجهها سمرة واضحة ، وبخديها سعة ونتوء عظام ، وقد ذكرت حين رأيتها ماكان يقال عن الاصل الذى انحدرت منه • لقد كان يقال انها من بنات الشعب ، وفى عروقها يجرى دم الزنوج • على أنه مهما يكن أمر مولدها ونسبها ، فانها قد تراءت لنا مهيبة جليلة المظهر ، يبرق الذكاء وتلتمع القوة فى عينيها النفاذتين •

وكانت في تنحيتها الرجل عن رأس فرعون تعرب عن شعورهـا المستعلي بالنسبة لفرد من العامة في مثل هوانه شأنا • والحق انها ، بهذه الحركة ، قد دلت على قوة ذكائها وفطنتها ، فالرجل أصلا من طبقة الرعاع وكان راعي ثيران لايعرف القراءة والكتابة ، ولم يكن اختياره لعملية وقف النزف راجعا الى مواهب خاصة يمتاز بها ، وانما كان اختيـــارا عاديا لايتطلب شيئا من الامتياز • وقد انقطع لهذا العمل ومرن عليه لقاء أجر معين وكان من الممكن أن يقع الاختيار على غيره من بيئته نفسها ، فالامر في ذلك بجيء اتفاقا لا أكثر . على أن حاله تغيرت بطبيعة لصوقه بصناعة الطب ، من أحد أطرافها ، فصار على شيء غير قليل من النظافة وصفـــاء المنظر بالقياس الى ماكان عليه قبلا من الخشونة والغلظة •

ولم يسترح «بتاحور» الى تدخل الملكة على هذه الصورة ، فالرجل الذى لاتأذن له بمباشرة عمله ، لاتستطيع الملكة أن تقوم فى العملية مقامه وقد وجه نظرها الى ذلك قائلا ان العملية جراحة ونزف دماء ولا تحتمل أعصابها أن تشترك فيها ، فكيف وهى تحمل بين يديها رأسا عزيزا عليها هو رأس زوجها الملك ؟ ولكن الملكة لم تحفل بهذا الاعتراض وتقدمت فى رباطة جأش وجلست على طرف السرير وحملت على كفيها ، فى عنـــاية بالغة ، رأس فرعون ، وكان لعابه يسيل من فمه فيبلل يديها وملابسهـا ونظرت الينا قائلة : انه زوجي ومليكي ، ولا يحق لاحد غيرى أن يقعد منه الآن هذا المقعد ، ومن بين ذراعى هاتين ينبغى أن يدخل الى مملكة الموتى •

ورأى «بتاحور» أن يصرف أفكار الملكة عن العملية الجراحية المثيرة للأعصاب فقال مسايرا اتجاه ذهنها الى مملكة الموتى : انه سيرحل عـلى سفينة أبيه اله الشمس ، فمن الشمس جاء ، واليها يعود ، وسيبقى اسمه مذكورا بين الناس بالاكبار والتمجيد على وجه الزمان الخالد •

قال ذلك وهو يحرك أسلحته فى الرأس الذى تحمله الملكة ، فتفجر الدم غزيرا على يديها واصيبت من ذلك بذهول اشاع فى وجههـــا ظلالا صفراء . وهنا انتبه الرجل المبعد عن عمله بأمر الملكة ، وفطن الى واجبه فاقترب من سرير الملك وتولى عملية وقف الدم المتدفق ، وقمت فى اثره بتنظيف الرأس من آثاره ، ومضى «بتاحور» فى عمله وهو يكرر للملـكة عبارات التهدئة كقوله : ان الملك فى طريقه الى أبيه على السفينة الذهبية مرتحلا الى عالم الشمس حيث النور والضياء ، مزودا ببركات « آمون » على أنه لم يكد يذكر بركات «آمون» حتى قاطعه ولى العهد قائلا ووجهـه

يختلج انفعالا : لا ·· بل نحن نلتمس له بركات «رع هيرختي» الذى يتمثل فى «آتون» وليس فى «آمون» ·· فهمهم «بتاجور» وقال متكلفا : حقا ·· لقد نسيت ، أنه «آتون» وليس «آمون» ·· واستطرد قائلا : وانى لأذكر أن الملك بوحى حكمته المقدسة أقام معبدا لآتون عقب مولد ولى العهد ، وأحسبك تعرفين ذلك جيدا ياسيدتى الملكة «تايا» ·

وفى هذه الاثناء أحس «بتاحور» بالظمأ الى النبيذ، فاستأذن الامير فى قليل منه قائلا : انه ينفث النشاط فى يده ويجعلها كالسلاح المشحوذ ، ثم أكب على راس فرعون ماضيا فى جراحته ، ففصل قطعة من سياجها العظمى ، وراح يتأمل مادة المخ تحت الأضـواء المسـلطة عليها ، وكانت أطراف فرعون قد تحركت قليلا ثم سكنت ، واستغرق فى غيبوبة عميقة وعند ذلك هز «بتاحور» رأسه وقال : لقد أدينا واجبنا · أما ما وراء ذلك فمتروك الى «آتون» فذلك أمر يرجع الى مشيئة الآلهة ، ولا حيلة فيـه للبشر ·· وأعاد الحجاب العظمى للجمجمة الى مكانه وغطاها بفروة الراس جامعا أطرافها ، بعضها الى بعض ، ولفها بالضمادات · وأسندت الملكة راس فرعون الى تكأة وثيرة ونظرت الى «بتاحور» مستطلعة ، فقال لها : انه قد يبقى فى عداد الأحياء الى الفجر ، الا أن يشاء الهه غير ذلك ، ثم رفع يديه علامة لليأس الغالب والجزع الغامر · وقد تابعته فى هذه الحركة متأثرا بالحقيقة التى يمليها الموقف ، ولكنه عندما أعاد الحركة نفسها للتعبير عن حزنه وأسفه : لم أشاركه فى ذلك لانى لم أر فيه الا صورة من نفاق ، فما نحن والملك ، وماذا يضيرنا اذا خلت منه دنيانا ؟ ·

وتشاغلت عنهم بتعقيم أدوات الجراحة فى حين كانت الملكة تعـد « بتاحور » بالمكافأة السخية على ما تجشم من عناء ، ثم دعتنا الى تنـاول الطعام فى غرفة مجاورة فانتقلنا على الفور اليها ، وفيها وجدنا مائدة حافلة باطايب الاطعمة · وكان «بتاحور» أكثر ابتهاجا بما احتشد على جوانبها من قوارير النبيذ الفاخر ·

فلما طاب مجلسنا على المائدة أخذ «بتاحور» يشرح لى شيئا ممـا أحس أنى مستوضحه اياه عن « رع هيرختي » متمثلا فى « آتون » ، الاله الذى قال ولى العهد انه يستمد البركات منه ·

قال : ان «رع هير ختى» يعتبر الها قديما ، بل أقدم من «آمون» ، وكان هو اله «أمنحوتب الثالث» متخذا لنفسه شكل «آتون» · ومما يروى

أن ولى العهد هو الابن المقدس لهذا الاله (آتون) ، ذلك أن الملكة « تايا ألقيت اليها بشرى مولده في رؤيا سنحت لها في نومها ، وكانت خلال هذه الرؤيا كأنها في معبد «رع هيرختي» ، فلما جاءها المخاض وولدت ولى العهد ، اعتبر منسوبا الى هذا الاله بالبنوة ، لانه بشر به من قبل مولده فما كانت الرؤيا التى رأتها الملكة الا وحيا منه ، والا فما معنى أن تقع في معبده ؟ وما معنى أن يجيء الميلاد مطابقا لها ؟ ! وكان في خدمة الملكة بعد مولد ولى العهد كاهن اسمه «آى» وكان طموحا فطنا بلغ بطموحه ونطنته مكانا أثيرا من نفسها فاختار زوجته مرضعا لولى العهد ، وكانت هذه الزوجة ترضع في الوقت نفسه ابنتها واسمها «نفرتيتى» ، وقد شبت وترعرعت في القصر الى جانب ولى العهد ، وكانا يلهوان معا ، باعتبارهما أخوين ، فتوثقت العلاقة بينهما من هذا الطريق ، ويستطيع أى انسان أن يتصور في غير مشقة ما عسى أن تؤدى اليه هذه العلاقة من نتائج !

ومضى « بتاحور » يعب من كئوس النبيذ حتى اذا بدا كأنه أراح أعصابه وأطفأ سعاره ، واصل حديثه قائلا : ليس ثم شيء أفضل من النبيذ بالنسبة لرجل عجوز مثلى يتحدث فيما لايعنيه .. آه لو تعرف يا«سنوحى» أية أسرار تنطوى خلف هذه الجبهة المجعدة ؟ قد لاتعلم أن الناس طالما تساءلوا : لماذا لم يولد مولود ذكر وفيه حياة ، في جناح الحريم بقصر هذا الملك الراقد هناك بالغرفة الاخرى مفتوح الجمجمة ؟! انهم كانوا دائما يستغربون ذلك ويتساءلون عن سره ! .. وظلت هكذا الحال حتى ظهرت «تايا» في حياته ، هذه الملكة المقربة وأم ولى العهد ، قالوا انه وجدها في رحلة صيد ، وأنها ابنة صائد طيور كانت تعيش بين أعشاب النيل ، رآها الملك وتحدث اليها فأعجب بذكائها ورجاحة عقلها ، ومن ثم اتخذها روجة وأضفى على أبويها تكريما سابغا بأن ملأ قبريهما بالهدايا الغالية ، وازدادت على الايام قربا من قلبه بدماثة خلقها وسعة حيلتها ولطف مدخلها ، حتى انها لم تكن لتبدى اعتراضا على استرساله في الملذات مع نساء القصر الاحريات ، فما تبالى هذا ولا تخشاه ، لانها تعلم أنهن لايلدن مولودا ذكرا ونظر الى «بتاحور» نظرة ذات معنى ، وتلفت حواليه وقال في عجلة كأنما يتقى أذنا تسمعنا من قريب : هذه أقاصيص نسجها خيال ذوى النية السيئة والقلوب المريضة ، فلا تصدق شيئا منها يا « سنوحى » . أما

الحقيقة التى يؤمن بها سائر الناس فهى أن الملكة «تايا» تتحلى بأعلى ما فى النساء من فضائل الحكمة وعذوبة الاخلاق وحسن التقدير للرجال النافعين المخلصين ، ولهـــذا فهم يلتفون حولها عن اعجاب بمواهبها ، واكبار لفضائلها •

وأمسك «بتاحور» عن الكلام،وان لم يكن قد أمسك عن شراب النبيذ، فأخذت بيده الى الشرفة لنستروح فيها الهواء النقى الذى يسرى فى حناياها لطيفا منعشا ممتزجا بأرج الازهار الفواحة التى تزدان بها حديقة القصر وكان الليل قد أقبل فاعتادنى باقباله شعور القلق الذى يغمر « طيبة » ، ولكن أضواء المدينة أخذت تتلاقى مع تالق النجوم ، فهدهد هـذا المنظر أعصابى وأراحها وأشاع ىيها نشوة جميلة فقلت ، وكأنى أناجى نفسى : ماالطف هذا الجو الشاعرى !! انه ليحرك بى أحاسيس الحب ! •• وسمع «بتاحور» هذه العبارة ، فرفع رأسه وعلق عليها قائلا : ليس صحيحا أن فى الدنيا شيئا اسمه الحب ، ان الرجل لياسى عندما لايجد المرأة بجانبه، فان وجدها أصبح أشد أسى • انه لشقى بها بعيدة عنه ، وشقى بها قريبة منه ولايحتاج الانسان الرشيد أن يسأل لماذا كان الأمر هكذا فى الحالين ؟! ذلك لأنها قضية أزلية لايتغير الحكم فيها بتغير الأزمان ، فكف أيها الأحمق عن حديث الحب ، والا فأنت ، من حيث لاتدرى ، تضع جمجمتك بين يدى لأفتحها ، وانى لعلى استعداد ان افعل ذلك بلا مقابل ، لأدفع عنك شر هذا المرض الخبيث الذى يتنزى منها !

وأثقل النبيذ رأس «بتاحور» وهو بعد مسترسل فيه • فخشيت عليه مغبة هذا الاسراف ، وحملته بين ذراعى ووضعته على سريره بالغرفة التى أعدت لنومنا ، ودثرته بغطاء سميك اذ كان الجو مشبعا بالرطوبة ، وقد كان يترنح ترنح المخمورين ويطلب فى كلمات متقطعة مزيدا من النبيذ ثم غلبه النوم فاستغرق فيه ، وعدت الى الشرفة لأسبح فى خيال الشباب واملأ صدرى بأرج الازهار، وكانت تهدر فى مسمعى أصوات أولئك الذين يقضون ليلهم ساهرين على مشارف القصر • انهم قد آلوا على أنفسهم الا يبرحوا أماكنهم وألا يناموا ، ارتقابا للنبأ الاخير عن «فرعون» الذى يحتضر ولكنى لم أنق لهم بالا ، فقد كنت وقتئذ فى شغل عنهم بهذا الصفاء العاطفى الذى أحيـــا فى ذهنى ذكريات عذبة كانت لى فى هـــذه الوحدة أنسا ومتاعا ، وانى لكذلك اذ لاح بالشرفة شبح لم أتبينه تماما لأول وهلة ،

وقبل أن أسأل من هو ، سمعته يقول بصوت فيه صرصرة الطفولة ، وفيه كذلك رنين الاستعلاء : أهذا أنت أيها الوحيد ؟

وهنا استجليت وجهه ، وعرفت أنه الامير ولى العهدبجسمهالضامر الناحل ، فانحنيت لديه ، دون أن أتكلم ، فوكزنى قائلا : انهض أيهـــا الغبى ، ان أحدا لايرانا الآن ، فلا حاجة بنا الى هذه المراسم التى يجب أن نحتفظ بها للاله الأعظم الواحد الأحد ، الذى أعتبر نفسى ابنا له ، فليس يوجد اله سواه وجميع الآلهة صور له ، ماعدا «آمون» فانه اله زائف .

وأخافنى منه هذا الحديث الصريح المفاجىء ، فأومأت ايماء المعترض المشفق ، ولكنه استطرد قائلا : دعنا من هذا .. لقد رأيتك الى جانب أبى الملك وانت وحدك ، تقدم آلات الجراحة الى ذلك الرجل المخبول العجوز «بتاحور» فأطلقت عليك اسم «الوحيد» ، كما اطلقت أمى على «بتاحور» اسم « القرد العجوز » فأذكر هذه التسمية جيدا ، الى أن يحين حينك ، فمن يدرى ، فلعلك ملاق حتفك فى هذا القصر ولا يتاح لك أن تغادره حيـــا .

وفزعت أكثر من أى شىء آخر لاشارته الى هذا المصير المفجع ، فقد تذكرت لفورى قول « بتاحور » انه اذا مات فرعون فاننا ميتون كذلك . وقد وقف وقتذاك شعر رأسى فرقا من هذا الموت الذى لا أريده ، ولكنى بعد هذا اقصيت الفكرة عنذهنى اذ تصورتها لا تتصل بسبب منالحقيقة، فلماذا يقضى علينا بالموت اذا مات فرعون ؟ ذلك مالايستقيم مع المنطق ولا مع الفهم الصحيح ، فنحن انما جئنا لنحاول انقاذه من الموت المحقق ، وهى محاولة اخيرة فى حال يتفشاها اليأس فى أدق معانيه وأجلى صوره، ولسنا صانعى معجزات ، فذلك شأن الآلهة كما قال بحق «بتاحور» ، وقد فعلنا أقصى مافى طوقنا كبشر ، فلا علينا بعد هذا أن يموت فرعون .

ونظرت الى الامير فاذا به يلهث ، كالمجهد ويداه تختلجان كالمفلوج ، وهو يتمتم : انى لقلق ، سأكون بعد قليل فى مكان آخر .. فلتبق معى أيها الوحيد ..

قال ذلك وجذبنى بقوة مشيرا بحركة آمرة أن أتبعه ، فانعقد لسانى رهبة وخوفا ، ورجح فى رأيى أنه مجنون ولا حيلة لى معه ، فتبعتهكارها وهبطنا الى بحيرة فرعون ، وركبنا أول قارب لقيناه ، وأخذنا نجدف به خلال مياه البحيرة ، ولم نر أحدا يمنعنا من ذلك ، مع أن القارب ليس قارب الامير ، وكنا كمنسرقشيئا أمام أعينالجماهيرعلىالشاطىء ، الساهرة طول ليلها بمقربة من القصر ، ولكن أمور الناس فى تلك الليـــلة كان يسودها الاضطراب ، والقوارب رائحة غادية فى حركة غير عادية ، فلما

بلغنا الشاطيء الآخر صعدنا فيه ، وسار الأمير وأنا في اثره ، على طريق بدا أنه يعرفه معرفة تامة ، فقد كان لاينحرف عنه يمينا أو شمالا وكان يوسع الخطى مشدود الجسم ، وضوء القمر يرسل أشعته عليه فيبدو منه وجه صافي البشرة ، ولكنه صفاء مشوب بانفعالات غامضة • وقد لقيت في مسايرته غير قليل من العناء ، فقد كان كأنما تدفعه في تسياره السريع قوة خفية تجاوز كثيرا قدرة مخلوق مثله بادى الهزال على ساقين رخوتين•

ولم نكن وحدنا في الطريق ، فان آخرين كانوا يسيرون عليه في ذلك الوقت ولكن الامير مضى في سبيله غير مكترث ولا مبال ، وكان الجو باردا غير انى كنت أتفصد عرقا لفرط مانالنى من تعب ، وما زلنا نسرع في السير حتى جاوزنا الوادى الى الصحراء وصارت «طيبة» خلفنـــا ، والتلال الثلاثة التي تقوم عادة بالجانب الشرقى تطل علينا بظلالهـــا المتكاثفة كأنها موكلة بحراستنا •

وفجأة تهاوى الامير على الرمال وهو يلهث ، وقال في ذعر : خذ بيدى يا«سنوحى» فانهما ترجفان ، وقلبى مثلهما يرجف بين ضلوعى ، اننى اقترب وشيكا من لقاء الاله العظيم ، ان لحظة اللقاء منى قاب قوسين ، ياله من لقاء !

وأمسكت بيديه وكان جسمه ينتفض كالمقرور ، مبللا بالعرق كما لو كان يسبح في الماء ، ولم أدر ماذا عسى أن أصنع ونحن في هذا القفر النائى ، وليس في الصحراء من حولنا دليل على الحياة الا عواء ابن آوى يترامى على آذاننا منذرا بالشر ، وحتى هذا الوميض الذى كان يؤنسنا من اشعاع النجوم، قد اخذ يتوارى، ويلفنا الليل في سواد حالك رهيب. على أن الامير هب واقفا نازعا يديه من يدى ، وأدار وجهه الى الشرق ، الى التلال ، وهو يقول في شرود : ان الاله مقبل ، ان الاله آت •• ثم انفجر صوته عاليا مدويا في أرجاء الصحراء ، وهو يكرر هذه العبارة ••

وشيئا فشيئا •• أخذت ظلمة الليل ترق وتتمزق وتنساب فيها اشعاعات ذهبية ايذانا بمقدم الشمس . فما ان أشرقت الشمس نفسها حتى انطلقت من الامير صرخة أشد دويا وقع على اثرها مغشيا عليه ، وقد اشتد وجيب قلبه وارتعاش معارف وجهه واختلاج فمه وأطرافه جميعا ، ولم يكن هذا المنظر بالغريب على ، فكثيرا ماشاهدت مثله في «دار الحياة»• وكان من مقتضيات الوقاية العاجلة في هذه الحالة ان نضع مرودا من الخشب بين فكى المصاب لتحول بين اللسان واصطكاك الاسنان ، ولكنى في مكانى من الصحراء الآن لاأجد هذا المرود ، وفتقت الحاجة ذهنى فاقتطعت في

الحال قطعة من قماش ثوبى ولففتها لفا محكما ودسستها بين فكيه ورحت أمسح بيدى على جسمه وأريحه بالتدليك • وفى هذه الاثناء سمعت صوتا يتساقط فوق آذاننا من عل ، فرفعت اليه بصرى ، فرأيت صقرا يتراءى كأنه خارج من قرص الشمس وهو يصيح محلقا فى شبه قوس ، ثم أخذ يهبط على اتجاه جبهة الامير ، حتى أيقنت أنه سيحط عليها ، ففى حركة غير ارادية اندفعت أؤدى بيدى مراسم التقديس «لآمون» ووقع فى وهمى أن الامير قد تخيل «حوراس» فى ذاكرته وهو يحيى الهه ، فأهل عليه فى صورة هذا الطائر .

وانحنيت على الامير الذى كان يتوجع ويئن أنينا مثيرا ، فلما رفعت راسى لم أجد الطائر ولكنى وجدت انسانا ، غض الشباب ، متألقا فى أشعة الشمس ، يحمل حربة ، وعلى كتفيه عباءة خشنة مما يلبسه الفقراء ومع أنى لا أومن بالآلهة فى صورة البشر ، انحنيت له ، طالبا للسلامة ؛ انحناءة التقديس ، فسألنى بلهجة أهل المملكة السفلى ماهذا ؟! أهذا الفتى مريض ؟

فقلت له : نعم • انه مريض ، وليس معنا شىء مما يطمع فيه سارق وان الآلهة لتباركك اذا ساعدتنى فى أمر هذا الفتى المريض •

وهنا صرخ الشاب الغريب صرخة حادة لها رنة الصقر وجرسه ، فما هى لمحة الطرف حتى رأيت الصقر الطائر يعود ويحط فوق كتفه •

ومن ثم أخذ الشاب الغريب يقول فى كبرياء : أنا «حورمحب» ابن الصقر ، وقد جئت للدنيا من أبوين يصنعان الجبن ، ولكن نبوءة وقعت فى مولدى بأنى سأكون زعيما وسأتولى حكم الكثيرين ، وقد قدمت الى هنا تابعا للصقر الذى يقودنى لأغدو على «طيبة» مبكرا ، وكل ما أرجوه أن أدخل فى خدمة فرعون ، فانى لقوى متين • وقد قيل ان فرعون مريض ، وأكبر الظن أن سلطانه يحتاج الآن الى السواعد الصلاب لتحميه وتؤازره ..

وتأوه الامير محركا ساقيه ، ومارا بيديه على وجهه ، فانتزعت من فمه قطعة القماش ، وتمنيت لو انى استطيع أن أجد ماء لأسقيه ، فقد بدا كأنه يتلظى بسعير الظمأ • وحدق فيه «حورمحب» وعاد يسألنى : أهو فى حالة احتضار ؟ فأجبته : انه لايحتضر ، ولكنه يعانى من المرض المقدس •

وقال «حورمحب» وهو يمسك بحربته ويتأملها : اذا كنت ترانى

على صورة الفقراء الحفاة فى هذه الأسمال التافهة ، فحذار أن تهون من شأنى ، فانى أجيد القراءة وسأكون حاكما وصاحب سلطان .. ثم قل لى: اى اله يعبد هذا الفتى ؟! ان الناس يعتقدون أن الذين تتقمص الآلهة اجسامهم يستطيعون أن يجيبوا عن الاسئلة التى توجه اليهم ، فلنسأله فلعله يجيب .

قلت : ان له الها خاصا ، وأغلب ظنى أن بعقله لوثة !! ..

قال : انه يرتعش ! ، وخلع عباءته فألقاها على الأمــــير واستمر يقول : ان صباح « طيبة » مشحون بالبرودة ، ولكن الدماء الحارة التى تجرى فى عروقى تدفئنى وتمنعنى من هذا البرد ، ويلوح لى أن هذا الفتى ابن رجل من الأثرياء ، فبشرته بيضاء فى نعومة ، ويداه تبدوان رخصتين كأنهما لا تتحركان فى عمل .. والتفت الى قائلا : ومن تكون أنت ؟! قلت : اننى طبيب وكاهن من المرتبة الاولى فى معبد « آمون » بطيبة ..

ونهض ولى العهد لينظر فيما حوله بذهول ، ثم قال : لقد تراءى لى الاله فى فيض نوره ، ورأيته رأى العين المجردة ، وكانت اللحظة قصيرة ولكنها كانت كأنها جيل من الزمن ، وكنت مشرفا على الموت ، فرأيته يمد الى الف يد ، مرت كلها فوق رأسى لتباركنى ، وفى كل يد منهـــا رمز لحياة دائمة ، أفلا ينبغى لى بعد ذلك أن أومن وان أشكر ؟!

وعندما وقع نظره على « حورمحب » برقت عيناه بشعاع من الدهشة وقال : أهذا أنت ؟! أنت الذى بعثك الاله الاوحد « آتون » ؟!

وقال « حورمحب » : لا أدرى سوى أن الصقر طار أمامى فتبعته حتى صرت اليكما ..

واربد وجه الامير حين رأى الحربة فى يد «حورمحب» . وقال له متبرما : أتحمل حربة أيها الرجل ؟! فشرع « حورمحب » الحربة فى يده وقال : ان قبضتها من لباب اخشاب منتقاة ، ونصلها النحاسى متعطش الى دماء خصوم « فرعون » ، ان اسمها « قاطعة الرقاب » .

فصاح الامير : لا تذكر الدماء ... انها منكر ينهى عنه « آتون » . وليس فى الدنيا شىء أشد نكرا وازعاجا من اسالة الدماء .

قال « حورمحب » : بل ان الدماء تطهر الناس وتصهرهم فتزكو معادنهم ، وتنفث فيهم القوة فتكون لهم الغلبة والسطوة والشأو البعيد .. والحروب فى هذه الدنيا جزء من طبيعتها ، فالحياة بين الناس وبين

الامم ، صراع لا ينتهى ، وتدافع لا يسكن • وما دامت هناك حروب ، فلا معدى من دماء تهدر ، وأرواح تزهق ، وسيوف مرهفة ، وحراب مشرعة !

قال ولى العهد : كلا •• ان السلام هو أصل الحياة وجوهرها ، وهو الصلة بين الارض والسماء ، وقد خرج الناس باختلافهم وحروبهم على أسمى مبادىء الحياة ، وارتدوا بها الى طبائع الغابات ، حيث لا أمن ولا اطمئنان ، وقد آن أن يتحرروا من هذه الوحشية ، فهذا هو الاله الفرد الرحيم ، (قال هذا متطلعا الى الشمس) ، يتجلى برحماته عليهم ليلهمهم الخير ، ويجردهم من منازع الشر ، ويجمعهم على صفاء من الاخوة الانسانية • فالناس كافة أبناؤه ، وهم عنده سواسية • وسائر اللغات والالوان ، على تباينها واختلافها ، كلها لديه عقد منظوم متساوى الحبات ، فلا تفرقة ولا تفاضل ، وانى لصادع بأمره ، منفذ مشيئته ، عامل على نهجه • فمنه ولدت ، واليه أعود •

وأخذ ولى العهد يحيى الشمس مظهر الاله « آتون » رافعا اليها يديه فى ضراعة وابتهال ، ووجهه عندئذ يطفح ابتهاجا ونورا وايمانا •

وهمس « حور محب » فى أذنى قائلا : ان صاحبك لمريض بالجنون ، وأراه محتاجا الى طبيب •

وأتم الأمير صلواته الحارة ، فاتجهنا به عائدين الى « طيبة » ، وقد نالت منه نيلا شديدا نوبة التشنج ، فسار معنا متهالكا متزايل الأعصاب، فمددنا اليه، أنا و «حورمحب» ، ذراعينا ليعتمد عليهما فى مشيته المتهافتة، وكان الصقر يتقدمنا محلقا ، فحين بلغنا الوادى الأخضر والأرض السوداء ، رأينا محفة ملكية وأرقاء يجثمون على الأرض ، وكاهنا يعلو المحفة ويطل منها برأسه المقصوص الشعر ووجهه المربد فى رصانة ، وقد لمحت فيه سمات الكاهن « آى » الذى حدثنى عنه « بتاحور » وكان على ما وصفه لى بدينا عريض الضواحى ، فتقدمت اليه منحنيا مرخيا ذراعى الى الركبتين ، ولكنه لم يحفل بى ، وتقدم الى الأمير فحياه فى احترام مسندا اليه لقب الملك ، فأدركت أن « أمنحوتب الثالث » قد انتقل الى عالم الموتى • ثم تبادر الأرقاء الى خدمة فرعون الجديد ، فغسلوا أطرافه ومسحوها بالزيت ، وألبسوه الرداء الكتانى الملكى ، ووضعوا التاج على رأسه •

وفيما هم كذلك ، خاطبنى « آى » متسائلا : هل قابل الهه يا سنوحى ؟ •

فأجبت : نعم • وقد حرصت فى رفقتى له على الا يصاب بسوء فى ذلك القفر المنقطع • واستطردت أقول : ولكن كيف عرفت اسمى ؟ فابتسم وقال : انه لا تخفى على خافية مما يدور بين جدران القصر • وانى لأعرف اسمك ، كما أعرف أنك طبيب ، وأنك من كهنة « آمون » الذين أقسموا يمين الولاء له • ولهذا فانى على ثقة من أنك معنى بالملك •

قال ذلك باشارة معبرة عما يقصد اليه من ذكر يمين الولاء «لآمون» والعناية بالملك • فمددت يدى ورسمت بهما مراسم الولاء الذى يعنيه •• فبدا عليه الاطمئنان • ونظر الى « حورمحب » الذى كان يقلب حربته كما لو كان يجربها والصقر رابض على كتفه ، وقال : ومن يكون حامل الحربة هذا ؟! ألا ترى من الخير أن يبعد بالموت عن أسرار فرعون التى يجب أن تظل بمنأى عن أمثاله ؟ • قلت : لعله أن يكون حيا أنفع منه ميتا ، وقد أعرب عن استعداده لتمزيق أعداء فرعون بحربته ، وكان بادى العطف على فرعون حين كان يرتعد تحت وطأة البرد فنضا عباءته وألقاها عليه . وهنا انتزع الكاهن سوارا ذهبيا من ذراعه وألقاه الى « حورمحب » قائلا له فى غير اكتراث : تستطيع أيها الرجل أن تسعى إلى يوما لتلقانى بالقصر الذهبى •

ولكن « حورمحب » لم يمد يدا الى السوار ، فسقط على الارض عند قدميه ، ونظر فى ازدراء الى الكاهن وقال له : انى لا أتلقى أمرا الا من «فرعون» ، واذا لم أكن مخطئا فانه هو الذى يحمل الآن التاج على رأسه . واستعاد الكاهن سواره وهو يكتم غيظه ، وخاطب « حورمحب » قائلا : أن الذهب شيىء ثمين ، وهو نافع دائما ، وعلى أية حال فعليك أن تكون الى آخر حياتك شديد المحافظة على الطاعة والولاء لفرعون ، على أنه لا يجمل بك أن تظهر فى حضرته حاملا مثل هذا السلاح •

والتفت الينا « فرعون » فى لباسه الملكى الجديد ، وكانت تلتمع فى وجهه أضواء قدسية شعرت بأنها تبعث الحرارة الى قلبى ، فدعانا الى مرافقته بالمحفة قائلا : فلنبدأ السير فى الطريق السوى ، طريق الحقيقة والصدق . فتبعناه على حين كان «حورمحب» يتحسس حربته ويقول : ان الحقيقة والصدق ليكمنان ها هنا ! •

وسارت بنا المحفة حتى بلغنا الشاطىء ، فهبطنا الى قارب كان بانتظارنا عند المرسى ، ومن طريقنا الأول نفسه مضى بنا القارب الى مرفأ القصر ، وكان الناس لايزالون فى تجمعهم واحتشادهم خارج آسواره ، على أن أحدا منهم لم يعرنا التفاتا •

وبعد صعودنا فى القصر ، أذن لنا الامير « فرعون الجديد » بالدخول عليه فى غرفته الخاصة ، وكانت ملآى بجرار مصنوعة فى جزيرة «كريت» وقد نقشت عليها رسوم أسماك وحيوانات مختلفة . واذ كنا نجيل فيها النظر معجبين ، أنبئنا بأن الملكة الوالدة فى طريقها الآن لتقديم التهنئة والطاعة لفرعون الجديد ، فأذن لنا فى الانصراف ، بعد أن حيانا ، أنا و « حورمحب » ، قائلا : انه سيذكرنا بالخير دائما ولن ينسانا ..

وعندما صرنا خارج الغرفة قال « حورمحب » فى قلق : الى أين أذهب ؟! انى طارىء على هذه المدينة ، ولا أعرف فيها أحدا ولا مكانا ؟! . فاشرت عليه بأن يبقى فى القصر مستريح البال ، ففرعون قال انه سيذكره ولن ينساه ، ومن الخير أن يكون بمقربة منه ليراه ، فذلك أكفل لتذكره اياه ..

ولكن « حورمحب » تساءل : وهل أبقى هنا لأكون كهؤلاء الخدم والندامى الذين يترامون محتشدين كأسراب الذباب على باب الملك ؟! وما يكون مصيرى ، اذا كان سيدى ومليكى يخاف الدماء ويفزع منها ويعتقد ان سائر الناس والأمم واللغات والألوان سواسية فى المراتب والحقوق؟! لقد خلقت محاربا ، وبشعور المحارب لا أرى لى مكانا فى هذا القصر ..

قال هذا ومد الى يده مودعا .. فقلت له ، انه يستطيع أن يلقانى فى « دار الحياة » كلما رأى نفسه بحاجة الى صديق ، وعلى ذلك افترقنا .

وذهبت الى « بتاحور » فى غرفته ، وكان ينتظر مقدمى ، فما ان رآنى حتى سألنى أين كنت ؟! ثم أردف قائلا : فى غيبتك عن القصر ، وفى أثناء نومى ، لفظ « فرعون » أنفاسه الأخيرة فلم يكن كلانا هناك لنرى روحه تطير من أنفه صاعدة الى الشمس .

فلما قصصت عليه ما حدث ، قلب كفيه دهشا وقال : فليحفظنا « آمون » فان فرعون الجديد ليبدو مدخولا فى عقله .

ولكنى ، بعد الذى رأيت وأحسست ، لا أرانى أطاوعه على مثل هذا الرأى فى عقل « فرعون » . فقلت : غالب الظن أن ثمة اتصالا قويا بينه وبين اله جديد ، وما أحسبه الا وعاء صافيا لتموجات روحية مقدسة ، وقد ترى أرض « كيمى » فى عهده كثيرا من أعاجيب لم تألف وقوعها فيما سلف من عهود .

قال « بتاحور » : انها أفكار ونزعات ينكرها « آمون » وينهى عنها،

ولا خير فى أن تشغل انفسنا بها .. ثم دعا بنبيذ ليشربه ، لأن حلقه – على ما يقول – قد صار جافا كتراب الطريق ٠

وبعد قليل قادنا الحراس الى أحد الأبهاء الفساح فى «دار العدل» ، فتلا علينا حامل خاتم الملك نصوصا من القانون تقضى بقتلنا ، لأن فرعون لم ينج من المرض ومن الموت بعد أن قمنا بفتح جمجمته ، فأفزعنى هذا الذى كنت قد حسبته خيالا ، ونظرت الى « بتاحور » مأخوذا ، فأدهشنى أنه كان يبتسم ، فى حين أنه كان يقترب منه حامل السيف شاهرا اياه ليطيح برأسه تنفيذا لهذا القانون العجيب ! ٠ وأشار «بتاحور» الى رفيقنا الفلاح الذى كان مختصا بعملية وقف نزف الدم ، وقال لحامل السيف ٠ فلتبدأ بهذا ، فانه لأكثر منا لهفة على الرحيل ٠ ان أمه ، هناك فى مدينة الموتى ، قد أعدت له طعاما شهيا وهى ترجو ألا يبطىء قدومه عليها ٠

فشهق الفلاح جزعا ، وخر على ركبتيه راكعا ليصلى « لآمون » صلاة الموت ، وهز السياف سيفه ثم لمس به طرفا من عنق الرجل ، وكان لمسا خفيفا ، رفيقا ٠ ولكن الرجل مع ذلك سقط على الأرض مغمى عليه ، ولم يخطر ببالنا الا أنه سيفيق بعد قليل ، فان السيف لم ينل منه منالا ولم يحدث به خدشا ٠

وجاء دورى ، فركعت مادا عنقى للسيف وقد زايلنى الخوف ، وكان السياف وهو يلمس عنقى أكثر خفة ورفقا ، حتى لا يصيبنى ما أصاب رفيقى الأول ٠٠ وبالطريقة نفسها نفذ الحكم فى « بتاحور » ٠

وهكذا تم تطبيق القانون ، وقيدت أسماؤنا فى سجل الموتى ، وخلعت علينا أسماء جديدة محفورة فى أطواق مذهبة ، فكان اسم ٠ « بتاحور » الجديد هو : « القرد العجوز » ٠ أما اسمى فكان كما أنبئت به على لسان ولى العهد « الوحيد» ثم سيقت الينا أعطيات جزيلة وهدايا ذهبية ثمينة، والبسنا ثيابا جديدة ٠ ولأول مرة أضع على جسمى ثوبا من الكتان الملكى متعدد الثنايا ، وأتزين بقلادة من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ٠

وتفقدنا رفيقنا الفلاح فاذا به لا يزال ممددا على الأرض ٠٠ وعندما حاول الخدم ايقاظه وجدوه بلا حراك ، فلقد مات حقا ، ولكنه مات بغير السيف ، مات بالوهم والخوف ! ٠

وأصبح اسمى منذ ذلك الحين « سنوحى الوحيد » ، فلا أكتبه الا كذلك ولا أنادى فى القصر الا به ٠

عدت الى « دار الحياة » رافلا في ملابسي الجديدة . وذراعي تلتمع السوار الذهبي ، فقوبلت من أساتذتي بالحفاوة ، وأعظموا شأني ، أنا الذي ما زلت في عهد الطلب ، فقد كنت في نظرهم جديرا بذلك لجلال المهمة التي ندبت لها في قصر فرعون ، ولمظاهر التقدير التي أضفيت على بسببها . وكان من واجبي أن أكتب تقريرا عن العملية الجراحية التي أجريت لفرعون ، وعن موته كذلك ، فعكفت على كتـــابته وقتا طويلا ، وقد جاء في النهاية تقريرا وافيا ، تضمن وصفا دقيقا للعملية ، ووصفا شائقا لتسلل روح فرعون من انفه ثم صعودها محلقة كالطائر الى الشمس رأسا ، وكنت أشعر بلذة كبرى كلما سمعت هذا التقرير مقروءا على الناس طوال السبعين يوما التي كان يجرى فيها اعداد جسم فرعون للخلود في الحياة الثانية .

وكانت « طيبة » في تلكم الأيام السبعين تحيا حياة حزينة ، فبيوت اللهو مغلقة ومواخير النبيذ موصدة ، وليس من حق انسان أن يلهو أو أن يشرب نبيذا ، ومن كان لا يستطيع صبرا على ذلك فهو يخالس الأعين الراصدة ويتسلل الى هذا الملهى أوذاك الماخور من الباب الخلفي ، على غير قليل من الخشية والحذر !

وانبئت بعد انقضاء السبعين يوما أنني أصبحت طبيبا مؤهلا ، وفي وسعي أن أستعمل تجاربي الطبية حرا في أى حي من أحياء المدينة ، ولا يمنعني هذا — اذا شئت — من متابعة الدراسة للتخصص في أى فرع من فروع الطب الأربعة عشر التي كانت تدرس في « دار الحياة » ، كطب الأسنان أو الأذن أو الولادة أو الجراحة الخ .. وكان تيسير هذه الدراسة مع اجازة العمل خارج « دار الحياة » يعد فضلا من « آمون » على المنتسبين الى خدمته .

ولكنني لم أشعر بميل الى مزيد من الدراسة في « دار الحياة » ، فقد كانت الحياة في « طيبة » تستهويني وتصرفني عما عداها ، وكنت أكثر ميلا الى عاجل الثراء والشهرة ، وقد شاعت لي بين الناس في هذه الظروف شهرة طيبة ، فآثرت الافادة منها ، قبل أن يعفي عليها الزمن .

ومن ثم خرجت الى الحياة الطليقة مدفوعا اليها بنزعات الشباب الطامح ، واشتريت ببعض ما توافر لدى من المال منزلا صغيرا في طرف الحي الراقي من المدينة وزودته بقدر ما في الطاقة من أثاث وأدوات ، واشتريت انسانا من الرقيق لخدمتي اسمه « كابتاح » ، وكان ناحل الجسم وله عين واحدة وقد خيل اليه أنني ربما تشاءمت من عينه العوراء ،

فقال لى ان عينه الواحدة ستكون فالا حسنا وعلامة خير لمستقبل عيادتى ، فسيزعم للمرضى المترددين عليهــا أنه كان أعمى محروما من البصر فى عينيه معا ، فاستطعت بمهارتى وسعة علمى أن أعيد له نصف بصره ، وهذه لهم آية ومعجزة ٠٠ !

وعنيت أكثر ما عنيت بتجميل الغرفة التىأعددتها لاستقبال المرضى، فزينت جدرانها بلوحات زيتية ، تصورنى احداها واقفا بجسمى الضئيل أمام « أمحوتب » الحكيم بجسمه الفاره الجليل ، لأتلقى منه التعاليم والتوجيهات ، على ما جرت به التقاليد ، وكان منقوشا على هذه اللوحة فى جزئها الأدنى ٠ هذه العبارة : أحكم وأمهر الحواريين « سنوحى بن سنموت الوحيد » ٠

وتصورنى لوحة أخرى متقدما الى « آمون » بالقرابين ، أما اللوحة الثالثة فكانت تمثل فرعون العظيم وهو ينظر الى ، راضيا ، من السموات العلى فىشكل طائر ، بينما يحفبى خدمه ، يقدم لىبعضهم ذهبا ، ويلبسنى بعضهم ثيابا جددا ٠٠

كانت هذه اللوحات خليقة أن تكسبنى ثقة المرضى واطمئنانهم ، ففيها تعبيرات عن معان محببة اليهم ٠ فصلتى بالحكيم « أمحوتب » شهادة تقدير لعلمى ، وصلتى بالاله « آمون » تقدير لايمانى ، وصلتى بفرعون فى حياة الخلود شهادة تقدير لاخلاصى ٠ وهذه كلها صفات اذا اجتمعت لانسان فى مثل عملى ، كانت كافية للظفر بمرضاة الناس ، وبخاصــة منهم المرضى !

ولا بد لى هنا أن أذكر أن هذه اللوحات الجميلة البديعة الصنع كانت من عمل صديقى « تحوتمس » ، وهو حتى ذاك الوقت لم يحصل على اجازته العلمية من مدرسة الفنون ، كما ان اسمه لم يدرج فى سجل معبد « بتاح » رب الفنون والصناعات .

وتهيأت بعد هذا الاستعداد لاستقبال المرضى ، ولكن اليوم انتهى دون أن يلم بى واحد منهم ٠٠ وكانت لا تزال عندى بقية من الذهب والفضة ، فرأيت أن أقضى شطرا من مساء ذلك اليوم باحدى حانات النبيذ لأسرى عن نفسى بعض ما يثقلها من الضيق ، فلقد ساءنى أن يمضى النهار كله فى انتظار ممل على غير جدوى ، ولكنى ، بعد ، لم أبلغ مبلغ اليأس فى المستقبل الحسن . وقد رافقنى فى شراب النبيذ تلك الليلة صديقى « تحوتمس » ، وما أسعدنى به رفيقا . وكان أكثر حديثنا جدلا ونقاشا

في الشئون العامة بالمملكتين ، فذلك كان أهم ما تدور عليـــه أحاديث الناس في سائر المجتمعات والأوساط •

والواقع أن الشئون العامة كانت فيذاك الحين مثيرة ، مغرية بالخوض فيها والتحدث عنها ، فقد امتحنت بالتغيير والتقلقل والتشعب على غير المألوف بين الناس • وكنت كلما عرض الحديث فيها أذكر ماكان يقوله حامل خاتم الملك العجوز : « ان الدنيا تقبل لتدبر » •• فهكذا كانت الحال ، بين اقبال وادبار •

فانه بعد أن تم تحصين جثة فرعون العظيم ضد الفناء ، ونقل الى مقر راحته الأبدية بوادى الملوك ، وأوصدت أبواب القبر وختمت بخاتم الملك ــ بعد هذا ارتقت الملكة عرش « فرعون » حاملة في يديها السوط وعصا الراعى ، واضعة على طرف وجهها الأسفل لحية سيادة الدولة ، متمنطقة بذيل الأسد • وكان هذا لأن ولى العهد « فرعون الجديد » لم يتوج بعد للجلوس على العرش • وقيل في تعليل ذلك : انه منصرف الى تطهير نفسه ، مشغول بالتعبد للآلهة ، استعدادا لولاية السلطان وحمل أعباء الملك . وقد فصلت الملكة الوالدة حامل أختام الملك السابق ، وأحلت محله الكاهن المجهول (آى) وأدنت مكانه منها ، فكان يقف عن يمينها علامة التشريف ورفعة القـــدر ، فعز بذلك مكانه ، وعلت على كبـــار الدولة منزلته ، ولم يكن هذا أمرا يستراح له أو يقابل بالرضا ، وكان معبد « آمون » مجال الانفعال لذلك • فالكهنة هناك يرون في التصرفات الملكية نذير شر يتهدد سلطانهم ، فراحوا يجاهدونها بوسائلهم • فاذا جاءهم الناس يستفسرونهم أحلاما رأوها في منامهم أغربوا في التفســـير وأفزعوا به • واذا هبت الرياح عاصفة قالوا : انها ثورة الطبيعة في أوان دعتها وهدوئها ، واذا هطلت الأمطار ، كما يقع أحيانا ، في غير موسمها ، أذاعوا أنهـــا مظهر غضب الآلهة ، ويهولون في هذا حتى ليقال ان مياه البحيرات والبرك بأرباض « طيبة » قد تحولت الى دماء ، واختلفت آراء الناس في ذلك اختلافا شديدا ، والقليل منهم من كان يعلم أن الكهنة ، لا الآلهة ، هم الغضاب الساخطون ! •

أما الملكة فقد أخذت من ناحيتها تمكن لعرشها باستمالة الجيش ، فأغدقت عطاياها على الجنـــود وبخاصة منهم جنـــود الثكنات من مصريين وسوريين وغيرهم ، فتوافر لها بذلك ما أرادت من توطد النظام والأمن ، ولم يكن يساورها شيء من القلق على حاميات الجيش المصرى في الخارج،

فهي هناك ممسكة بالزمام وقابضة على ناصـــية الحال ، كما أن أمراء « بابل » و « أزمير » و « صيدا » و « غزة » لا يتطرق الشك الى اخلاصهم، فقد أمضوا طفولتهم فى خدمة فرعون وشبوا فى بيته الذهبى ،وحين أنبئوا بوفاته بعثوا بكتبهم الى الملكة يبايعونها على الولاء ويعربون عن بالغ حزنهم كما لو كانوا قد فقدوا آباءهم ، وبادر ملك أرض « ميتانى » فى «نهارانى» الى توكيد علاقته بعرشها ، فأرسل ابنته الأميرة « تادوخيبا » عروســا لفرعون الجديد ، كما فعل أبوه من قبل ، ووفاء بعهد كان قد عاهد عليــه فرعون المقدس قبل وفاته. وقد قدمت هذه الأميرة التى لم تتجاوز السادسة من عمرها ، على « طيبة » فى قافلة كبيرة من الخدم والأرقاء ، والدواب تحمل الهدايا الكثيرة الفاخرة . وقد ارتضاها الأمير زوجة له ، تحقيقا لأهداف سياسية تتعلق بسلطان بلاده ، واتساع رقعة نفوذه ، فقد كانت مملكة « ميتانى » تقوم سدا بين ثورة « سوريا » والأراضى التى تقع فى شماليها ، كما كانت بحكم موقعها ، بمثابة الحارس القوى لطرق القوافل على مدى بعيد من أرض بلاد ما بين النهرين الى شاطىء البحر ، وفى الوقت نفسه كان كهنة « سيخمت » الابنة المقدسة لآمون ، قد أعلنوا الحداد لوفاة فرعون فأغلقوا أبواب معبدها اعرابا عن حزنها الشديد ..

فى هـــذا ، كانت أحاديث الناس ومجادلاتهم ، وقد أخـــذت أنا و « تحوتمس » بأطراف من هذه الشئون ، الى أن خلى بيننا وبينها شراب النبيذ وألحان الموسيقى ورقص الغانيات ! ..

واصبحت بعد هذا أحيا على نظام مرسوم فى منزلى وعيادتى ، فاذا كان الصباح ، استيقظت على صوت خادمى الأعور ، وهو يهفو باحترام الى جانب فراشى ، واضعا أمامى الخبز والسمك المملح وقدح الجعة ، فأنال من ذلك حاجتى ثم أستحم بالماء مجددا نشاطى ، وأنتقل الى غرفة المرضى لأنتظرهم أو أعالج ما بهم .

- ٣ -

أقبل النيل جياش الفيضان مصطخب الموج حتى بلغ فى فيضانه أسوار معبد « آمون » ثم عاد موادعا هادئا ، يجرى سلسلا ليمنح الناس الخير ، ويمنح حقولهم الخصب والنمـــاء ، ويضفى على الزروع والورود والأشجار نضرة الشباب وازدهار الحياة .

ففى يوم من أيام ذلك الفصل الذى يثور فيه النيل ثم يهدأ ، ويجزع

فيه الناس ثم يأمنون . كنت بمنزلي خاليا الى نفسي أستعرض في ذهني هذا الصراع الدائم بين الأرض والسماء وبين الانسان والانسان ، وعلى حين فجأة رأيت « حورمحب » ماثلا أمامي ، مرتديا الملابس الكتانية الملكية ومتقلدا قلادة ذهبية ، وحاملا في يده سوطا ، اشارة الى أنه أصبح ضابطا في حاشية فرعون ، فحياني قائلا : هأنذا قد جئتك يا صديقي « سنوحي الوحيد » لتعالج أمري ! .. فقلت له مفاكها : ولكن فيم العلاج ؟! اني لأراك ريان العافية موفور الصحة ، وما أحسبك محتاجا الى طبيب ! ..

فاستوى على مقعد قريب وقال : انما جئتك صديقا لا مريضا ! ..

فشعرت بارتياح للقائه ، وهفت نفسي الى حديثه وتوقعت منه الجديد والطريف من أنباء القصر وأسراره .. وجاء الخادم « كابتاح » فصب الماء على يديه ، وقدمت له كعكا كانت أمي « كيفا » قد صنعته وبعثت به الى ، وسقيته أقداحا من نبيذ المرفأ وقلت له : لقد رقيت اذن ، فأنت الآن ضابط في الحاشية الملكية ، ولا شك أنك بهجة عيون السيدات ومهوى قلوبهن !.. فهذا الشباب المشرق في هذه الحلة المونقة ، خليق أن يستأثر منهن بالعيون والقلوب وبما قد يكون أكثر من ذلك ! .

قال في كآبة : ان هـذا الذي تراه بعين خيالك عظيما فخما ، لا يساوي في دنيا الحقيقة شيئا ، ولا ترجح به كفة ميزان . وأنا – كما ترى – ضابط في الحرس ، وهذا مكاني الطبيعي ، ولكن هنالك أيضا ضباط صغار أحداث لا يزيد سن الواحد منهم على عشر سنوات ، قد أقحموا اقحاما ، وفرضوا على هذه الوظيفة فرضا ، لشفاعة من أحسابهم وأنسابهم ، وهم من أقل الناس جدارة للجندية في معانيها الصحيحة ، لحداثتهم وضعف سواعدهم ، فلا يستطيع أحدهم أن يريش سهما أو يرمي به عن قوس . وقد بلغ من السخرية بوظائفهم أن كانت السيوف التي يتقلدونها لعبا من الفضة والذهب ، قد تصلح في تقطيع اللحم عند تقديمه للطهو ، ولكنها لا يمكن أن تستعمل في مصارعة أعداء ، أو مدافعة غزاة ، فالأمر لايعدو أن يكونوا قد جيء بهم أدوات زينة لا جنود حرب ، وشبيه بهم الهررة في صور الأسود ! .. ويؤلمني أكثر من كل شيء أن الغرور يركبهم فيطاولونني بالحظوة التي ظفروا بها ، ويعدونها سبقا وامتيازا ، ويعيرونني بأن ليس لي مثل مكانتهم . وكانت هذه حال الجنود من مختلف الرتب ، فهم جميعا منصرفون الى شراب الخمر والخلوة الآثمة بالفتيات الرقيقات في الحاشية ، لا يصدهم عن ذلك نظام ولا يمنعهم

منه خلق . وليست الحال بالمدرسة الحربية أقل سوءا وفسادا . فهم فيها لا يتدارسون الا فنونا قديمة من مخلفات بالية لا تلائم عصرنا ولا تساوق زماننا ، وضباطها المقدمون لم يشهدوا حربا ، فهم يأخذون علوم الجندية نقلا ولقانة ، ولا يعرفون منها الا نصوصا ونظريات ، وأمثال هؤلاء لا يثبتون أمام عدو ولا يصبرون على ما تفرضه حقائق الحروب من عناء ونصب وجوع وظمأ ، ومكابدة أهوال ، في ليل أو نهار ..

قال « حورمحب » ذلك ، ونظر الى قلادته في ازدراء وسخط ثم استطرد قائلا : ما قيمة القلائد وعلامات الشرف اذا لم تكن تقديرا لحسن بلاء في معركة قتال ؟! . وأى شيء تكون هى اذا كانت لا تعطى الا لمجرد الانحناء بها أمام فرعون؟! لقد انقلبت المعانى الى نقيضها ، وسميت الأشياء بأضدادها . وهذا هو الهوان الذى لايقبله رجل شريف . وهذه الملكة قد بدأت بنفسها فى هذه الحياة القائمة على التمويه والابتداع ، فاقتعدت مكان فرعون ولفقت صورتها بلحية مستعارة، تمنطقت بذيل أسد ، لتبدو فى صورة رجل ، ولكن الناس جميعا يعلمون أنها امرأة ، وأنها هى التى تحكم ، فكيف يستطيع الرجل الشجاع المحارب أن يتلقى أمرا يصدر اليه من سيدة تتهرب من مظاهر أنوثتها ، وكيف يمكن أن يوليها كل احترامه وهو يعلم أنها هى نفسها تشعر بالفرق الكبير بينها وبين الرجال ؟! .. فما كانت لتمسخ أنوثتها تحت أشكال الرجولة المستعارة الا لأنها موقنة أن الرجال لا يرضون عن صاحب السلطان الا اذا كان رجلا منهم .. لقد كان الجندى المحارب فى عهود الفراعنة العظام بموضع التمجيد والتكريم ، فأصبح اليوم بموضع الزراية والاحتقار . كان الناس يعجبون برجولته وقوة بأسه ، ويرهبونه فيكبرونه ، فأصبحوا لايرون فيه شيئا من الرجولة وقوة البأس ، فاستحالت رهبتهم منه زراية عليه ، واكبارهم له استهانة به . ولهذا افتقدت الرغبة فى بقائى بينهم ، فانى لأشعر أن شبابى وقوتى يضيعان عبثا مع أولئك الضباط الأحداث الذين يلهون ولا يتعلمون ، ويهزلون ولايجدون . وبحق الصقر ، طائرى المقدس ان الجندى لا يكون جنديا حقا الا فى ميادين الحروب وبين قعقعة الاسلحة .. فهناك ، يتعلم وينصهر ويخشوشن ، ويصبح مواطنا نافعا لبلاده ، مؤهلا للذود عن حياضها .

قال « حورمحب » ذلك ، ثم ضرب المنضدة بسوطه منفعلا ، فاطاح

بكأس النبيذ .. وكان خادمى قريبــا منا فأصـابه من هذه الحركة العصبية ذعر شديد ، ولاذ بالهرب خائفا ..

فقلت : يا صديقى « حورمحب » انك بلا شك مريض ، ففى عينيك علامات حمى ، وهذا جسمك يتفصد عرقا ..

قال : لا . لست مريضــا ، بل انى رجل موفور العافية . وفى استطاعة يدى هاتين ان تحمل كل منهما رقيقا مفرط البدانة والثقل وتصطفقان بهما فيتحطم رأساهما معا في وقت واحد ... وفى وسعى أن أحمل على كتفى أحمالا أشد ثقلا من ذلك وأعدو بها الى أبعد المسافات دون أن يعترينى كلال أو تعب ،فأنا جندى ذو بأس يقدم على الهول ولا يخشاه ، وفى أى ميدان اعرف واجبى وأؤديه كاملا لا يصدنى عنه جوع ولا ظمأ ، وحتى شمس الصحراء المحرقة لا تستطيع أن تفل همتى وعزمى ولكن ذلك كله غير مطلوب فى الحاشية الملكية ولا مرغوب فيه من القادة ورؤساء الأجناد فى هذا العهد ، حتى أن ســيدات البيت الذهبى قد استحال تقديرهن للرجولة الى النقيض مما هو مألوف فى طبيعة المرأة ، فهن يترنحن حبا واعجابا بأولئك الشبان الرقعاء متأودى الأعواد ، المتزينين زينة النساء ، صبغا للشفاة وحملا للمظلات وتعرية للصدور ، المتناشدين الأغانى والألحان ، اثارة لأخس العواطف وأحقر المشاعر ... وان هـذا لهو العجب العاجب ، فكيف جاز للمرأة أن تؤثر بحبها واعجابها ، فتى لا يفترق عنها طراوة ورخاوة ، وهى التى كانت لا تحب فى الرجل الا قوته وصرامته وشدة بأسه ، ولا ينال اعجابها منه الا هذه الخصائص الجنسية الفوارة التى تنثال عليهــا دائما نزعات المرأة ؟! . فالأمور يا سيدى تجرى هنا مقلوبة متضاربة المعانى ، متضادة الطباع . فالحظوة والتشريف ، والاعجاب والحب ، انما هى لمن ذكرت من أشباه النساء . أما أنا . أنا « حورمحب » فمنبوذ محتقر ، لأنى قوى البناء ، مفتول الساعد بادى الشجاعة ، صارم المظهر ، أى لأنى ... رجل ! ..

وسكت « حورمحب » ســارحا ببصره فى فضاء الحجرة ، كأنما يستذكر فى صمته شيئا آخر ... وفى هذه اللحظة قدمت له كأسا من نبيذ أفرغها عجلا فى جوفه وعاد يقول : كلانا وحيد يا « سنوحى » وانى أنظر فأرى أحداثا وشيكة الوقوع ، وأرى أن المملكتين العليا والسفلى ستحتاجان فى يوم غير بعيد الى رجل فى مثل شجاعتى ، أنا الذى أشعر بأننى خلقت لأكون قائدا عظيمــا ، ولكننى مع هذا لا أطيق البقاء على

ما اعانيه من هذه الوحدة القاتلة الى أن تقع الاحداث وتغشى الغاشية ، فينبغى أن أبرح « طيبة » ، هذه المدينة التى أفرخ فيها الفساد وتفاقم الشر ، وذل فيها الكريم الحر •

وتمهل قليلا ليستأنف الحديث قائلا : ولكن قل لى يا « سنوحى » ، انك طبيب ، وعندك يلتمس المرضى الشفاء ، فهل لى أن أجد لديك الدواء الذى يشفى قلبى من مرض الحب ؟! •

قلت باسما : ذلك شيء يسير ، أن بضعة حبات أعطيكها فتذيبها بالنبيذ وتشربها ، تمنحك القوة التى تختلب بهـــا اعجاب أى امرأة ، وتقذف بها قذفا الى شبكة حبك ! ••

قال : لم تفطن الى ما أريد ، فما تنقصنى القوة حتى أطلبها فى دوائك ، بل ان هذه القوة لتعذبنى وتشقينى ، وانما أردت دواء يطفىء ثورة القلب ويروى ظمأه المستعر •

قلت له : لا أعرف لمثل هذا علاجا الا أن تأخذ بالمثل الذى يقول : ادفع الشر بالشر ، ، فلعله يصلح لك ، وان كنت لا أراه مما يدخل فى فنون الطب التى تعلمناها •

قال : وكيف يكون دفع الشر بالشر علاجا ، مع أن معناه ، بكل بساطة ، هو الخلاص من الشر للوقوع فى مثله ، وربما كان الشر الدافع أسوأ أثرا من الشر المدفوع ؟ •

قلت : قد يكون هذا صحيحا ، وقد لا يكون • على أن ظاهر أمرك يوحى بأن لا خوف من استعمال وسيلة من هذا النوع ، فان ذهب الشر بالشر فقد خف عناؤك وانفثأت وقدة النار التى تؤرقك ، وان حدث غير ذلك ، فما احسبك قد خسرت شيئا ، والغريق لا يفزعه البلل ••

قال : ماذا تعنى ؟ أوضح ، فقد سئمت هذه العبارات المبهمة • •

قلت : أعنى أنه من الممـــكن أن تحتفظ بقلبك حيا • فان كانت امرأة قد ثغرت ثغرة فيه ، فأنت واجد أخرى تبرئه وتشفيه ، و « طيبة » زاخرة بالنساء الجميلات النواضر ، الرافلات فى الحلل الهفهافة البواهر ، فاختر منهن التى تؤنس وحدتك وتنفى وحشتك، بالبسمة العذبة والعشرة الممتعة • وفى شبابك الفياض بالحيوية ، وقلادتك البراقة الذهبية ، ما يجذبها اليــك ويلقى بهـا بين يديك • على أنى لا أدرى ما الذى يحول

بينك وبين تلك التى تعلق بها فؤادك ، وانصرف اليها هواك ؟ .. انه لا شيء يحول بين الرجل والمرأة التى يحبها حتى لو كانت زوجة لرجل سواه ! .. فالحب يتسلق الجدران ويتخطى الحواجز والاسداد ، وتتهاوى أمام قوته الحصـــون ، وقد تبدو المرأة المحبوبة فى عين الرجل المحب أسكن منه عاطفة وأهدأ بالا ، فيساوره اليأس ويحسبها بعيدة المنال ، ولكنه لو استطاع أن ينفذ الى خفايا نفسها ، لعلم أنها تبادله العاطفة نفسها والشعور نفسه ، وكل ما بينهما من فرق أنها تأخذ الأمر بالتريث والحذر ، بينما هوينندفع فيهاندفاع اللهب المحرق ، ويطيب للمرأة فى مثل هذه الحال أن تتخذ من سكونها وهدوئها سلاحا تؤجج به وقدة ناره ، فهذه طبيعتها . ولكنها ما تلبث أن تلقى هذا السلاح اســـتسلاما اذا ما طغت عليها عاطفة الحب ، وهى لا محالة طاغية . ما من امرأة تشعر أن رجلا يحبها أو يفكر فيها تفكير المحبين ، الا جنحت اليه ، وأقبلت بقلبها عليه . وقد قيل ان المرأة حين تحب ، تروض نفسهـــا أول الأمر على السكون ، ولكنه السكون الذى يسبق العاصفة ، فان عصفت فهى متقلبة فى اتجاهاتها متموجة فى اندفاعاتها ، والرجل يستطيع دائما أن يحرك فى حياتها الرياح ويثير العواصف ، ويقال فى ذلك انه كما تذيب الحرارة الشمع ، فكذلك لا يتســلط رجل على امرأة بحرارة حبه الا أذابهـــا ذوبان الشمعة .

قال : « حورمحب » : ان ثرثرتك هذه تبعد كثيرا عن نقطة البحث الرئيسية ، فالمرأة التى ملكت لبى واستولت على قلبى ليست متزوجة وليست فى شيء مما تذكره عن النســاء . فهى لا تكاد ترانى ، مع انى تحت نظرها ، ولا تكاد تلمس يدى مع أنى أهيىء لها مقعدها وأساعدها فى الجلوس عليه .. أرأيت كيف أن أمرى معها جد مختلف عن تصورك وتقديرك ؟

قلت له : لا شك أنها من سيدات الطبقة العالية ؟! .

قال : أرى الكلام عنها غير مجد ، انها فى صورة القمر جمالا ، وهى مثله علوا وارتفاعا ، فليس الى اللقاء بها من سبيل ؛ ولهذا كان الرأى عندى أن آخذ نفسى بنسيانهـــا ، ولا يتحقق لى ذلك الا بمبـــارحتى « طيبة » ، فلو بقيت قريبا منها . فانى ملاق حتفى كمدا ويأسا .

قلت له فى خبث : على أية حال ، لا أظنك صريع جمال الملكة الوالدة ، فهى أكثر بدانة وأكبر سنا من أن يعلق بها قلب شاب مثلك متين البناء مفتول العضل .

فقال بازدراء : ويمكنك أن تضيف الى هذا التخمين البارع أن لديها كاهنها المفضل الذى تصله بها صلة الرجل بالمرأة فى أدق ما يكون بين الزوج وزوجه • فرفعت يدى مقاطعـــا ، وقلت له : حسبك يا هـذا • لا تسترسل هكذا فى الحديث عنها • انى ليغلب على ظنى أنك شربت من آبار كثيرة مسمومة منذ قدومك الى « طيبة » •

فمضى يقول وكأنه لم يسمع : ان مالكة قلبى ليس كمثلهـــا فى النساء نضارة وبهاء ، واعتدال قوام ، وســـحر عيون ، انها عذراء لم يمسسها بشر • انها « باكيت آمون » ، ابنة فرعون ، فهل عرفت الآن لماذا صرت مجنونا أو كالمجنون ؟! لقد كشفت لك عن سرى الدفين الذى لم أبح به لأحد ، وحذار أن يجرى على لسانك ، وحاول دائما ألا تذكره بينك وبين نفســـــك ، فان لم تفعل فلن أتردد فى اطاحة رأسك عن جسدك !

وهنا اعترانى الفزع ، ولم أر فى « حورمحب » الا أنه قد استحال مخلوقا مسلوب العقل حقا ، فلا يمكن أن يخطر بالخيال والتصور أن رجلا فى مثل تفاهة شأنه ووضاعة أصله ، يرتفع ببصره ، بله غرامه ، الى ابنة فرعون ، ثم يشغل نفسه بها كما لو كان يجوز أن يبلغ منها مبلغ الرجل العاشق من المرأة العاشقة ، فتلك جرأة لا تصدر الا عن انسان مخبول •

وقلت له مستغربا : أنسيت أن ابنة فرعون لا يحق لمخلوق من عامة الناس أن يضع قلبه فى طريقها الا اذا كان قد أراد أن تسحقه تحت قدميها ، انها حينما تشاء أن تتزوج من انسان ، فلن يكون ذلك الزوج الا أخاها ولى العهد ، ليرفعها الى مكان الملكة شريكته فى الملك ! وسيقع هذا ، فقد كانت ونحن الى جانب فراش أبيها وهو يحتضر ، تضع نظرها على أخيها فلا ترفعه عنه ، ثم هى فتاة رهيبة ، يجتمع الموت والفراغ فى نظراتها ، فأين أنت منها يا صديقى ؟! وأخيرا فان تكن جادا فيما تقول ، فليس ثمة من وسيلة الا أن تأخذ سبيلك هربا ، راحلا عن « طيبة » التى لم تعد بلدا يطيب لك المقام فيه •

قال « حورمحب » : أعرف هذا كله ولا أجهله ، وما كان أمرى ، على ما تقول ، جرأة وتطاولا فيما لا تجوز فيه الجرأة والتطاول ، انما كان خفقة قلب لا سلطان للعقل عليه ، قلب لا يؤمن بالفوارق الانسانية لأنه لا يعرفها • ان للقلوب عيونا غير عيوننا ، وهى تضطرب فى صدورنا اضطراب الضال فى الصحراء ، قد تعلقت عينه بالأنجم الساطعة فى جوف

السماء ، وكثيرا مايدركها الردى وهى لاتدرى ، فلا حيلة لى فيما كان ولا تدبير ، وانى لأوثر أن نعود الى ما كنا بسبيله من حديث الشر الذى يدفع الشر ، فما فى سواه يكون عزائى وسلوتى . ان امرأة أخرى ، أية امرأة ، يمكن أن أخادع بها قلبى الحائر الضال ، على أن تكون فى صورة فتاة القصر ، مرتدية مثلها ثوبا من الكتان الملكى ، وعلى شفتيها وخديها الطلاء الفاتن اللون ، ويعلو رأسها الشعر المستعار مصففا لامعا .

فقلت له وعلى وجهى ابتسامة مشرقة : حسنا ، انك الآن تتكلم كما يتكلم العقلاء .

قال : اصغ الى يا « سنوحى » ، ان من بين زملائى الضباط واحدا اسمه « كيفتا » من أهل جزيرة « كريت » كنت قد اشتبكت معه فى شجار ، ثم تصافينا واصبح يولينى الكثير من الاحترام ، وقد دعانى لأصاحبه اليوم الى حفلة استقبال بمنزل قريب من معبد لأحد آلهة رءوس القطط ، ولا أذكر الآن اسم ذلك الاله ، لأنى لم أكن راغبا فى تلبية الدعوة .

فاستدركت قائلا : لعلك تقصـــد الاله « باست » ، وانى لأعرف معبده ، وهو مكان لايخلو أبدا من النساء الجميلات ، فهن يتواردن عليه دائما ويقدمن القرابين لهذا الاله ويصلين له صـــلوات حارة ليبسر لهن اقتناص المحبين والعشاق من السراة والأثرياء . وانك لواجد فيه الدواء والشفاء .

قال : فلنذهب معا ، فما أستطيع أن اذهب وحدى . انى أجهل سلوك أهل « طيبة » وبخاصة نساؤها ، وأنت ، الذى ولدت ونشـأت هنا ، أعلم منى بذلك وأوسع احاطة ، ولهذا أرجو أن تكون رفيقى .

وكان « حورمحب » فى دعوته اياى ، على أساس معرفتى بأحوال النساء ومجتمعاتهن ، يجهل بلا شك أننى فى ذلك لا أزيد على معرفته شيئا ، ولكنى وقد أثملنى النبيذ ، خجلت ألا أجيب دعوته . فأمرت خادمى « كابتاح » أن يعد لنا محفة ويستأجر حامليها ، فجاء بهم وحملونا عليها الى معبد «باست» ، فلما دنونا منه تراءت أضواء المشاعل والمصابيح متوهجة ساطعة أمام المنزل الذى نقصد اليه . وعند ذاك أدرك حملة المحفة أنهم قادمون بنا الى مكان يطمعون فى أن ينالوا عنده أجرا مضاعفا ، فهو المثابة التى يتوافد عليها الأغنياء وطلاب اللذات ، فصاحوا مطالبين

بذلك • ولكن « حورمحب » واجههم بسوطه مهددا ، فلزموا الصمت خائفين •

ودلفنا الى داخل المنزل فتلقانا الخدم متهللين ، وصبوا الماء على ايدينا ، ورشقوا الزهور على صدورنا . وكان جو المكان يتنفح برائحة الطعوم الشهية ممتزجة برائحة الزهور العطرة . وفى خطوات متئدة رصينة انتهينا الى البهو الكبير ، وكان حاشدا بمن سبقنا اليه من رجال ونساء ، يجالس بعضهم بعضا ، ويتساقون النبيذ فى لذة وامتاع ، وعلى وجوههم جميعا فيض من الصفو والانشراح • وانى لأطوف بنظرى فى هذه الوجوه المنضرة قبل أن نجاوز مدخل البهو ، اذا به يقع فجأة على وجه السيدة التى خفت لاستقبالنا ، فيقف على هذا الوجه الطافح بهاء وجمالا ولا يتحرك ، انها ترتدى ثوبا كتانيا ملكيا رقيقا يشف عن أعضاء جسمها اللطاف الفاتنة ، فتلوح فيه كأنها الهة ، وعلى رأسها شعر مستعار كثيف ازرق اللون ، وقد افتنت فى زينتها ، فحاجباها مزججان بالسواد ، وطرفا عينيها مصطبغان باللون الأخضر ، واللآلىء الباهرة المتكثرة بها كان أكثرها من اللون الأحمر ، فكانت بهذه الزينة كأنها باقة من زهور الربيع الريانة ، تبدت فى ألوانها الزاهية ، ذلك الى عينيها الخضراوين خضرة مياه النيل تحت حرارة شمس الصيف •

نظرت مبهورا اليها ، وأدركت لفورى أننى أقف وجها لوجه من السيدة الرشيقة الجميلة التى كنت قد لقيتها فيما مضى بين أعمدة معبد « آمون » ! نعم ••• انها هى « نفر نفر نفر » بلا ريب • لقد عرفتها ، فان صورتها لمطبوعة على صفحة ذهنى لم تمحها الأيام أو الأحداث ، ولكنها بدت كأنها لا تعرفنى ، ولا تذكرنى فقد اختصت « حورمحب » بحفاوتها وابتسامتها ، ولم تمنحنى شيئا منهما • وحياها هو برفع سوطه ثم شغل عنها بصديقه الضابط « كيفتا » الذى أسرع اليه ليضمه الى صدره ويبالغ فى الترحيب به •

وأخذ كل منا مكانه فى هذا المنتدى الزاخر بفنون اللهو والطرب ، وقد لعب الشراب دوره فى رءوس كل من فيه ، فأوانى النبيذ متناثرة على الموائد ، والزهور مبعثرةعلى الأرض ، والجميع يتصايحون ويتضاحكون ويخلطون فى أحاديثهم ، وآلات الموسيقى مشدودة الأوتار تضرب عليها أيدى العازفين السوريين ، فتجلجل أنغامها وتعلو على أصوات النشاوى والمخمورين •

وكدت أكون وحدى لولا أن هتف « حورمحب » باسمى ، فأقبل على « كيفتا » ، فضمنى كذلك الى صدره واحتفل بى كصديق ، وهنا التفتت تلك السيدة التى لم أشك فى أنها « نفر نفر نفر » ، وقالت : « سنوحى » ؟! • لقد عرفت مرة ، واحدا هذا اسمه •• كان يتعلم الطب ليصبح طبيبا • فقلت وأنا أنظر اليها وجسمى يختلج اختلاج المحموم : نعم • أنا هو « سنوحى » •

قالت متخابثة أو منكرة • لا : لست اياه ! •• ان « سنوحى » الذى عرفته يومذاك كان شابا صغيرا ذا عينين صافيتين كعينى الغزال •• أما أنت فرجل تشوب جبهتك بعض التجاعيد ، وليس فى وجهك من وجه « سنوحى » هدوؤه وبساطته ••

فمددت يدى مشيرا الى الخاتم ذى الحجر الأخضر الذى أزين به اصبعى ، معتقدا أن فيه الدليل الذى يقنعها ولا يجدى فيه الانكار والمراء ولكنها هزت رأسها متظاهرة بالشك والتردد ، وقالت : يمكننى الآن أن أقول اننى أستقبل بمنزلى لصا ، قتل « سنوحى » الذى عرفته ذات يوم ، واستلب منه هـذا الخاتم الذى كنت قد أهديته اليه علامة صـداقة ، وتذكار محبة ، ويمكننى كذلك أن أقول انك سرقت مع خاتمه اسمه ، وجئتنا الليلة بالاثنين معا ! ••

ثم أتبعت قولهـا بحركة معبرة عن أسفها على « سنوحى » الذى تحسبه قد فارق الحياة مقتولا بيدى ، أنا الذى سرق خاتمه واسمه ! ••

وشعرت بمرارة قاسية فى هذا الموقف الغريب ، فلم يسعنى الا أن أنزع الخاتم من اصبعى وأقدمه اليها قائلا : هذا هو خاتمك فخذيه ، وسأذهب عنك لساعتى حتى لا أثير فى نفسك ألما أو أسبب لك ضيقا ! •
ولكنها عاجلتنى قائلة : كلا •• لا تذهب ••

وأدارت يدها بخفة على رأسى ، كما فعلت مرة منذ سنوات •• وعادت تقول فى حنان وتلطف : نعم • ابق هنا ••

ومن غير وعى ، بقيت ، فلم أجد الشجاعة لأبرح المكان ، فقد كان قلبى ، الذى تسيطر عليه هذه المرأة ، هو المسيطر على ارادتى وحركاتى • وقد رضيت عن نفسى كثيرا بهذا البقاء ، ليمتد به قربى من المرأة التى أحببتها بكل جارحة من جوارحى ، وكنت أعرف مع ذلك أن جسمها قد يحرقنى أشد مما تحرق النار •

وأخذ الخدم يدورون علينا بالنبيذ ويصبونه فى كئوسنا ، ولم يكن النبيذ ألذ وألطف مذاقا فى فمى منه فى تلك اللحظات ، وكان رفاق الملهى قد أطالوا وأسرفوا فى تعاطيه ، فأخذ القيء احدى السـيدات ، فأسرع أحد الخدم اليها بوعاء تتجشأ فيه ، ولكنها كانت قد أفرغت مافى جوفها قبل أن يصل اليها ، فسال على ردائها ، وتضاحك الحاضرون عليها . ولكنها عندما أفاقت من غشيتها غادرت المكان فأبدلت ثيابها وعادت لتواصل شرب النبيذ ، وتنتقل بيننا وهى تتثنى وتتمايل وتغنى وتتهلل ، حتى انتهت الى « حورمحب » فناولته كأسا وجلست الى جانبه ، وأخذا يتبادلان الحديث فى نشوة وايناس ، وقد خيل الى أنها بلغت من نفسه مبلغا أحاله انسانا آخر أقرب الى الرقة منه الى الفلظة، والى الرجاء منه الى اليأس ، فاسترحت الى ذلك ، وتمنيت أن يكون قد وجد فى صاحبتـه الدواء المنشود .

وعدت الى نفسى لأحلق بها فى آفاق السعادة التى وافتنى على غير ميعاد ، فى وجه « نفر نفر نفر » ..

كنت سعيدا بهذا اللقاء المفاجيء الذى أيقظ بين جنبى قلبا عاشقا كان قد أغفى ..

ولكنها سعادة لم يطلع نجمها الا ليأفل ، ولم أتنسمها عبيرا منعشا الا لأتلقاها بعد اعصارا مدمرا .. فليتها لم تكن ! ..

- ٤ -

نظرت الى « نفر نفر نفر » وهى جالسة الى جانبى ، وأطلت فيها النظر . لقد كانت أكبر سنا مما رأيتها لأول مرة ، وكانت ابتسامتها تتلألأ على فمها ، ولكن عينيها الخضراوين كانتا قليلتى الابتسام ، بل لعلهما كانتا جامدتين ، على غير ما كنت قد شمته فيهما من قبل . ان السنوات التى باعدت بيننا قد أحدثت فى حياتها شيئا ، ولـكنها على التحقيق قد زادتها فى عينى وفى قلبى بهاء وسحرا .

قلت لها متسائلا : أهذه دارك ؟!

أجابت : أنها دارى ، وهؤلاء ضيوفى ، فانى لأستضيف الكثيرين كل مساء فرارا من الوحدة .

وشعرت كأن هاتفا من أعماق نفسي يستحثني لمساءلتها عن أمور أخرى قد يكون العلم بحقائقها مؤلما ، ولكنني آثرت القصد في ذلك بقدر ما يسمح به الموقف ، وبدأت بسؤالها عن « متيوفر » فأجابت وهي عابسة الوجه : لقد مات ! ٠٠ مات « متيوفر » بعد أن أساء التصرف في أموال فرعون التي أعطاها أباه ليقيم بها معبدا ٠٠ أجل ٠ لقد مات ، ولم يعد أبوه رئيسا للبنائين في القصر الملكي ٠٠ كيف لم تعرف هذا ياسنوحي ؟!

قلت مبتسما : ان كان ذلك صحيحا ، فقد انتقم « آمون » منه ٠٠ ان « متيوفر » كان يسخر من اسم « آمون » ولا يخشى لعنته وغضبه !٠٠

ثم ذكرت لها بعض ما أذكره من تصرفاته ، كبصقه هو والكاهن على تمثال «آمون » عندما كانا يقومان بتنظيفه ، واستباحتهما عطوره المقدسة باستعمالها في تطييب جسميهما ، الى غير هذا مما يدل على ضعف الايمان والاستخفاف بالمقدسات الالهية !٠

فافتر ثغرها عن ابتسامة باهتة ٠ وراحت تحدجني بنظراتها الغامضة في صمت ، وفجأة قالت : اذا كنت لم تزل تفكر في حقا ، فلماذا لم تسع الى زيارتي قبل الآن ؟! ٠ الا ترى أنك قد أخطأت اذ ترسل نفسك على هواها مع نساء أخريات ، وفي اصبعك خاتمي الذي أهديته لك لتذكرني ، فنسيتني لتذكر غيري ؟ ٠٠

قلت لها : كنت صبيا يوم لقائنا الأول ، وقد شغفت بك حبا ، ولكنني خشيتك وخفت منك ، ولازمني هذا الشعور بعد ذلك ، فكنت لا أذكرك الا في رهبة ، ولا أفكر فيك الا في وجل ٠٠ وقد لا تصدقينني اذا قلت لك انك المرأة الوحيدة التي تعيش فيها ، منذ ذلك الحين والى الأبد ، أحلامي وأفكاري ومشاعري جميعا ٠٠ وكانت أمنيتي العزيزة التي أمسي وأصبح عليها ، هي أن تتاح لي فرصة لقائك مرة ثانية ، وها قد تحققت أمنيتي ، وانني بها لجد سعيد ٠٠

فبدت كأنها في ريب مما أقول ، وعقبت قائلة : أكبر ظني أنك تبعد كثيرا عن الحقيقة ، فما أنا في عينيك الآن الا المرأة التي انفصلت عن شبابها وجمالها ، واعتصرتها السنون فلم تبق منها الا آثار ربيع زائل ، وشباب حائل ٠٠ قل انك تصانعني لترضيني ، فذلك أدنى الى الحق الذي يظاهره منطق سلوكك طوال هاتيك السنين ! . والا فكيف أبحت لنفسك أيها العاشق الواله أن تداول بين النساء ، ولا تحاول مرة أن تفتش عن المرأة التي تزعم أنك تعيش في ذكراها ؟! المرأة التي يجمعك بها الليلة محض الصدفة والاتفاق ! ٠٠ أو أنك كنت قد تقصيت

أنباءها فقالوا لك انها ماتت ، فرحت تنشد السلوى في أحضان غيرها ؟ · ما اسوأ شأن الرجال حين يكذبون ويلفقون ! ..

قالت ذلك ، وعيناها تلمعان ببريقهما الساحر الذي افتقدته فيهما منذ حين ، وتجلت في نظرى أكثر جمالا وأشد اغراء ، فقلت لها وقلبي يخفق خفقا متلاحقا : أقسم لك بالآلهة ومقدساتها جميعا ، انني قد صدقتك القول ، فلم أعرف من النساء الا اللواتي يترددن على عيادتي ، وهن يختلفن وجوها وأعمارا وعقولا ، ولكنهن جميعا مريضات جئن في طلب الشفاء ، لا لشيء غيره · وكنت بطبيعة عملي وطبيعة واجبي أنظر اليهن نظرة واحدة بلا خلاف ، نظرة الطبيب الى المريض ··· ولعل من بينهن من حاولت أن تحرك قلبي ، ولكنه ، واقسم لك مرة أخرى ، كان كالأصم الذي لا يسمع ، وكالجماد الذي لا يتحرك .

قالت : ربما كنت في صباك الراحل ، نافرا من الناس ، فطاب لك المقـــام في عزلة عنهم ، وأتيح لك بذلك أن تكتشف فضـــائل العيش وحيدا ! .. ثم ضحكت ... ولمستني بيدها لمسا أجج اللهيب في قلبي ، وقالت : هيا بنا نشرب النبيذ معا ، فاني لأشعر بأنك مؤنسي ياسنوحي !

فأخذنا نتبادل الكئوس والأحاديث ، وليس على وجه الأرض من هو أسعد مني قلبا في ذلك الوقت ..

وآذن الليل بالرحيل ، فانصرف الضيوف تباعا على محفاتهم .. وكان « حورمحب » قد استغرق في متعة جلوسه الى السيدة التي اختارته رفيقا دون الآخرين ، وبدا أنها استهوت فؤاده الشارد ، وأروت نفســه الصادية .. فعندما نهضت لتنصرف ، خلع قلادته ليقلدها بها ولكنهــا أبت عليه ذلك قائلة: انها سيدة شريفة وليست من بنات الهوى، وخرجت ومضى في اثرها ، ولم أعرف ماذا كان من شأنهما بعد هذا ..

وخلت الدار من جميع الرفاق ، وأومأت « نفر نفر نفر » الى خدمها فجعلوا يطفئون بعض المصابيح ، ويرتبون المقاعد وينظفون القاعة ، ولم يبق الا أن أنصرف بدوري ، فقد كانت هذه الحركة اعلانا بهذا ودعوة اليه ، فوقفت لأقول لها : ينبغي أن أنصرف أنا أيضا ؟ ..

قلتها ، وقلبي يضطرب جزعا ، فقد كنت أرجو ألا يكون لهذا الليل آخر ، ولا لهذا اللقاء نهاية ! ..

وسألتني وهي تصطنع الدهشة : والى أين يكون منصرفك الآن ؟!

قلت لها : لن أبعد عن هذا المكان كثيرا ، فسأقيم من نفسى حارسا الطريق على باب دارك ٠٠ فاذا انبلج الصباح ذهبت الى كل معبد فى «طيبة» لأقدم القرابين للآلهة شكرا لها على لقائنا بعد يأس ، ثم أمضى الى الحدائق فاقطف الزهور والورود ، وأنثرها فوق الطريق الذى تسيرين عليه ، ثم أبتاع العطور لأعطر بها أعمدة هذه الدار الفيحاء ٠٠ الدار التى تضم معبودتى المقدسة ! ٠٠

فهشت وقالت : أما الزهور والعطور فعندى منها الكثير ، ولا أرى الا أن تبقى فأنت وحيد وقد أسرفت فى شراب النبيذ فاذا خرجت مخمورا فان قدميك من حيث لا تدرى قد تدفعان بك الى نساء أخريات ، وهــذا ما لا ارضاه لك ولا أسمح به ! . .

كانت كلماتها اشعاعات تنثال على نفسى الداجية فتملؤها نورا ، وفى بهجة غامرة هممت بضمها الى صدرى ، ولكنها دفعتنى عنها قائلة : ان عيون الخدم تتلصص علينا ! ٠ وقادتنى الى حديقة الدار ، الى الزهور يفوح عبيرها منعشا ، والى القمر يكسو خمائلها حلة فضية رائعة البهاء ٠٠٠ ويالها من حديقة ، لم أر مثلها ازدهارا وجمال تنسيق ! ٠٠

كانت زهرات « اللوتس » تتدلى حانيـــة على حفافى بركة الماء السلسل ، كأنها قلوب العاشقين تنهل من نهر الحب ، أو أرواح المؤمنين تصلى خاشعة أمام هيكل مقدس ٠٠٠ وكان الماء يترسل فى حنايا البركة ترسل الأمل فى هذه القلوب الولهى ، أو ينعكس صافيا على جنباتهــا المزركشة بالأحجار الملونة ، كأنها المرآة ينعكس عليها الشـــباب ريان الحيوية ، عذب الأحلام ! ٠٠

الى هذا الفردوس الجميل ، قادتنى « نفر نفر نفر » ، لنأخذ منه مجلسنا بعيدا عن عيون الرقباء والمتلصصين ؟ ٠٠ وباشارة منها ، أقبل الخدم فصبوا الماء على أيدينا وحملوا الينا أوزة مشوية ، وفواكه معسولة ، ودعتنى الى مشاركتها هذا الطعام الشهى ، فلبيت دعوتها مسرورا ، ولكن حلقى فى تلك اللحظة كان جافا فلم أزدرد من الطعام الا قليلا ، ولعلى كنت موفور السعادة ، فلم أجد فى نفسى حاجة لشىء آخر ! ٠٠ ولــكن « نفر » راحت تلتهم طعامها كما لو كان الجوع قد استبد بهــا أياما ، وكانت تنظر الى خلال ذلك نظرات تزيدنى شغفا وهياما ، فأدنو منهــا لأحتضنها فتنحينى برفق قائلة : لماذا كان « باست » اله الحب على صورة قطة ؟! ٠

قلت : ليس يعنيني الآن أمر القطط أو الآلهـــة ! ٠٠ وانما الذى يعنيني هو أنت ، أنت وحدك ٠٠٠وبسطت يدى على كتفها ، فنحتها كذلك وقالت : قد تستطيع عاجلا أن تلمسني ، وقد تضع يدك على صدرى ، فيهدىء ذلك من روعك ، ولكن يجب ، قبل كل شيء ، أن تستمع الى لتعلم لماذا كانت القطة رمزا لحب المرأة ؟! ٠٠ لقد كان ذلك لأن كف القطة ناعمة لينة ، ولكنها تخفى تحت نعومتها مخالب حادة ، تنشبها فتجرح وتدمى وتميت ٠٠ وان المرأة لعلى هذا المثال ، نعومة مظهر ، وقســـوة مخبر ، فكلتاهما تشعر باللذة فى تعذيب فرائسها ، والقضاء عليها ! ٠٠ هذه هي الحقيقة أصارحك بها ، لتأخذ حذرك ، فما أريد لك الا الخير والســـــلامة ! ٠ ٠ ٠ثم أخذت احدى يدى وحركتها على صدرها ووضعت الثانية على بطنها ، فارتجفت وطفرت الدموع من عينى ! فدفعتنى عنها مرة ثانية ، ومدت يدها لتصافحنى قائلة : ويمكنك الآن أن تذهب على الا تعــود ، فانك ان بقيت ، أو عدت وأبيت الا أن تندفع فى مجرى حياتى ، غير مستفيد بنصيحتى ، فانما تسلم نفسك الى الأخطار ، وتلقى بها فى أتون النار ، وعندئذ تندم حيث لا يجدى ندم ! ٠٠

قالت هذا وتركتنى لأنصرف ، ولكننى لم أفعل ، فقد تسمرت فى مكانى ، كأنى احدى أشجار الحديقة قد امتد جذعها الى غور بعيد من الأرض ، وكان حديثها عن القطة والمرأة خليقا أن يخيفنى منها ، ولكننى لم أشعر بخوف وانما شعرت بعكسه ، شعرت بالطمأنينة والثقة والرغبة الملحة فى التعلق بها ، وقلت لنفسى : اذا كانت صادقة فى تحذيرى منها كامرأة ، لها مخالب القطة القاتلة ، فهى اذن تحبنى ، والا فلماذا تجنبنى موارد الهلكة ، ولماذا لا تخدعنى كما تخدع أية امرأة ، أى رجل ؟! ٠٠ انها تقول : فما أريد لك الا الخير والسلامة ــ وهى عبارة تحمل كل معانى الحب والايثار ، واذ كانت هذه هى منزلتى عندها ، فكيف أستطيع أن أحيا بمبعدة ؟! ومتى كان للخوف واتقاء الخطر مـــكان فى دنيا الحب الصادق ؟! ٠

تجاوبت هذه الخواطر متدافعة فى كل مسالك تفكيرى ، ومن ثم كان القرار الذى لم يكن منهمهرب ، وهو أن أبقى متصلا بها اقوى مايكون الاتصال ، وليكن بعد ذلك ما يكون ٠٠

وأعربت لها عن هذا القرار الحاسم ، وعينى مبللة بالدمع ، تأثرا بهذا الموقف الرهيب ! ٠٠٠

فقالت : اذن ، فليكن ما تريد ! .. ولكنى أرى الجو هنا شـديد البرودة ، ثم صحبتنى الى غرفتها ، حيث سريرها المصـنوع من العاج والابنوس ، وخلعت رداءها وفتحت لى ذراعيها وكنت كأن جسمى كله قد اصبح رمادا من حرارة جسمها ، وتثاءبت متراخية واستسلمت .

وعدنا الى ما كنا فيه ، نتبادل أعذب الأحاديث ، الى أن بدأت تتراخى مجهـدة ، وتترنح ترنح المتعب ، فأشفقت عليهـا ، ونهضت مستأذنا فى الانصراف، وقفلت عائدا الى منزلى موفور السعادة والهناءة ...



ولم تغمض لى عين حتى الصباح ! ..كنت أدفع النوم وأغالبه حتى لايحول بينى وبين ذكرى هذه الأمسية التى كانت كأنها الحلم الممتع الذى اخشى أن يمضى فلا يعود ..

وأمرت خادمى « كابتاح » أن ينبىء المرضى بأنى لا أسـتطيع أن اباشر اليوم عملا ،.وفى وسعهم - اذا شاءوا - أن يذهبوا الى غيرى من الأطباء ..

فتلقى « كابتاح » هذا الأمر مشدوها مغيظا ،فما تعود أن يرانى متثاقلا فى لقاء المرضى ولا مصروفا عنهم ولا زاهدا فيهم على هـذه الصورة من قبل ، ذلك الى أنه كان يحرص حرصا شديدا على أن يزداد عددهم ، ليزداد اطمئنانا على دخل العيادة وعلى فائدته منها ، ولكننى لم أحفل بهذا وطلبت منه أن يدعو فى الحال « حلاقا » فجاء وأصلح من شعرى ، وانتقلت الى « الحمام » فقضيت به بعض الوقت مغتسـلا ، ثم ارتديت فى عجل أجمل ملابسى ، وأفرغت عليها أزكى العطور وأطيبها ، واستدعيت محفة وطلبت من حامليها الاسراع بى الى بيت « نفر نفر نفر » ..

لقد كانت هى كل شىء فى حياتى ، فلأمض اليها مسرعا فى هـذا الوقت الباكر ، لتكون أول زهرة أتنسم عبيرها ، ولأكون أول سعيد يحظى بلقياها ..

واستقبلنى خادمها ، وسار أمامى الى داخل الدار وأشار الى حجرتها الخاصـة ، فاجتزت بابهـا ، وكانت وقتذاك تجلس الى المرآة تنسق زينتها ، فمـا ان رأتنى حتى أخذتنى بنظـرة بادية الصرامة والقسـوة ،

وقالت : لماذا جئت الآن يا سنوحى ؟ •• انك تضجرنى بهذا ••

قلت لها : لم أطق صبرا على البعد عنك يا سيدتى ••

وخطوت لأقترب منها ، فقالت مغلظة : مكانك •• ليس وجودك اليوم بالأمر المرغوب فيه ، فان لى حياتى الخاصة التى لاينبغى لك ان تقتحمها وتتدخل فيها على هذا النحو ! •• أما وقد جهلت هذا اوتجاهلته فمن حقى أن أنبهك اليه لتلزم حدك ، وأزيد على ذلك فأخبرك بأن تاجرا من « صيدا » قدم الى « طيبة » أخيرا ، يحمل جوهرة ثمينة لاحدى الملكات عثر عليها فى أحد القبور ، وانى لأتزين كما ترانى ، اســــتعدادا للقائه فثمة موعد بيننا على ذلك فى هذا النهار ، وسأفرغ له وحده لأنال هذه الدرة الغالية التى سيجيئنى بها والتى طالما تمنيت أن يكون لى مثلها ؟ •• أرأيت كيف انه من الحماقة ـ الى حد بعيد ـ أن أجعل لك مكانا عندى فى هذا اليوم ؟ ••

وتركت مكانها فى المرآة لتجلس متمددة علىمقعد مستطيل،وجاءت خادمتها لتدلك أطرافها ، بينما وقفت أنا ، غير بعيد منها ، مبهورا والوجد يقيم قلبى ويقعده .. فلما انصرفت الخادم ، التفتت هى نحوى وقالت : فيم البقاء يا سنوحى ؟ لماذا لم تذهب ؟ اننى أريد أن أبدل ملابسى ••

انها تدعونى الى الخروج ، بل تأمرنى به ، ولكننى بقيت جامدا فى مكانى كأنى لم أسمع ، ولم أحتمل آخر الأمر قسوة الموقف ، فقلت لها : لا أستطيع أن أخرج ، كما لا أستطيع أن أرى شخصا آخر يغلبنى عليك وينتزعك منى ، فلن يكون هذا ولو لقيت حتفى فى سبيله •

قالت : أتمنعنى من الاتصال بالناس ، وتريدنى لك وحدك ؟ • هذا ما لا قدرة لك عليه ، ولأفرض أنى أبحتك نفسى هذا اليوم كله ، فقضيناه معا فى شراب ومتعة ، فأى شىء أظفر به منك بعد ذلك ؟ •

قلت لها ، وأنا مأخوذ بفتنتها الساحرة : حقا ، لا أملك شيئا مما ينبغى أن اقدمه اليك ، ولقد تمنيت لو أنى اســـتطعت ان اشترى لك الجوهرة التى رفعت شان صاحبها عندك ، وجعلتـــه اليوم بالمحل الأثير لديك ، لا • بل اننى لأتمنى لو استطعت أن أحمل اليك كل ما فى كنوز الدنيا من جواهر ولآلىء وذهب . تمنيت انى املك هذا كله لأضعه بين يديك قربانا الى مرضاتك وحبك ، ولكن وا أسفاه .. ما كل ما يتمنى المرء يدركه ••

واتجهت الى الباب لأخرج ، فاستوقفتني قائلة في شيء من الرقة : اني راثية لحالك ، آسفة عليك ، والواقع أنك أعطيتني أعز ما في الوجود على انسان ، وهو القلب والحب ، وهما لا يوزنان بمال ولا يقدران بثمن، ولا ترجحهما جبال من ذهب ‥ على أنهما مع هذا لا يقضيان حـوائج الناس ، ولا يحققان مطامعهم في الحياة ، وما أراك على اية حال فقيرا ، فأنت طبيب تملك بيتا وعيادة ، ولك من عملك معين لا ينضب !‥

قلت لها في غير تردد : فليكن لك كل هذا يا « نفر » اذا شئت ، وان كان بالنسبة اليك يعد شيئا تافها ، ان بيتي ليحتوي على الكثير النافع مما يحتاج اليه الاطباء ، ومن الممكن أن نجد في « دار الحياة » طالبا من أبناء الأثرياء ، يدفع فيه ثمنا حسنا ، فليس الا أن تأمري بأن أفعل ، فيتم الامر على ما تشائين ٠

قالت في زهو : لا يسعني الا القبول ما دمت أنت راضيا عن هذا ، وعليك اذن أن تمضي الى مسجل العقود لينقل هذه الاشياء الى اسمي ، فانني كما تعلم أعيش وحيدة وأخشى المستقبل المجهول ، ويهمني أن أتزود له ، فمن يدري فقد تتخلى عني يوما يا سنوحي ؟٠

ووقع هذا من نفسي موقع الاغتباط ، كأنما قد أزجت الي به ثراء عريضا ، وغنى سابغا ، فانطلقت لفوري دون أن أتكلم ، فقد جمد لساني في حلقي لفرط سروري ، وقصدت الى المسجل القانوني الذي قام بحصر الأمتعة والأدوات ، وأعد الوثيقة الناقلة لملكيتهـا الى « نفر نفر نفر » وأثبتها في سجل المحفوظات الملكية ، وحملتها في خفة الطير وسرعتـه عائدا بها اليها ٠٠٠ وكانت على مدخـل الدار محفـة تنتظرها ، فدخلت عليها معجلا وقدمت اليها الوثيقة قائلا ، ان كل شيء أملكه قد سجل لها فيها حتى الملابس التي أرتديها ، وسألتها أن تجعل لي يومهـا هذا كله ؟٠ ٠

فتناولت « نفر » الوثيقة في غير اكتراث ، وألقتها في صندوق من الأبنوس وقالت ان أمرا طارئا يدعوها الى مغادرة بيتها الآن ، وانهـا ستدعوني يوما عند ما تكون مستعدة لاستقبالي ٠

فكأنما قد رمتني في كلماتها هـذه بسـهم مسموم ، وأذهلتني المفاجاة ، فلم انبس بكلمة ، وخيل الى أنني أواجه الموت حين سـمعتها تقول في انفعال : دعني فاني أتعجل الخروج ٠ ٠

فلم يسعني الا أن أدعها كما أرادت ، وخرجت وصدرى مثقل بالهم والأسى ، وعدت الى المنزل الذى لم أعد أملكه منذ لحظات ، ورحت أرتب محتوياته وأعدها لمالكته الجديدة • وكان خادمى « كابتاح » يلاحقنى فى كل خطوة ، ويهز رأسه استغرابا ، فقلت له فى ضيق : لا تقتف آثرى هكذا ، فلم أعد سيدك •• لقدأصبح سيدك شخصا غيرى • وعليك عندما يجىء ، أن تخلص فى خدمته وطاعته فلا تسرق منه كثيرا كما كنت تفعل ، فربما كانت عصاه أكثر ايلاما وأشد ايجاعا ••

فهوى « كابتاح » على الارض كالمغشى عليه وأمسك رأسه بيديه كأنما يحس بأنه سيطير ، ثم قال وهو ينتحب كالاطفـــال : لا تتركنى يا سيدى ، فقلبى العجوز يتمزق لا محالة اذا انفصلت عنك ؟ وأؤكد لك بأنى لم أسرق منك شيئا كما تتصور ، فبما كنت آخذ الا ما أعتقد أنه جزائى الحق عن جهود كنت أعتصر فيها نفسى ، سيرا فى الطرقات تحت وهج الشمس المحرق ، على ساقى هاتين الشائختين ، هاتفا باسمك ، ومشيدا بشهرتك ، وقد أسخط هذا الاطباء وأحفظ قلوب خدمهم ، فكانوا كلما رأونى قذفونى بالحجـــــارة ، وضربونى بالعصى ، فلا تتخل عنى يا سيدى ، فانى لك المخلص الأمين •••

وآلمنى أشد الألم موقف « كابتاح » وتوسلاته ، وما كنت بقادر على أن أحقق له رجاءه ، فقد أفلت الزمام من يدى ، فأخذت بيده متأثرا ، وقلت له : انهض يا « كابتاح » فليس يجدى بكاؤك وحزنك ، وثق بأنى ما تخليت عنك كارها لك ، أو غاضبا منك ، فانى أقدر اخـــلاصك حق قدره ، كما أقدر نشاطك وأمانتك فى خدمتى على الرغم مما كان يعتريك من الاضطراب العصبى فى بعض الاحيان ، فتنفعل وتثور وتحطم الاطباق وغير الاطباق مما يلقيه سوء الحظ بين يديك أو قريبـــا منهما ! • وقد اضطرتنى أسباب قاهرة الى النزول عن دارى وكل ما فيها ومن فيها الى شخص آخر ، حتى ملابسى هـــذه التى أرتديهـــا قد صارت ملكا له ، فلا تبتئس وارض بالامر الواقع ، واحفظ عليك دموعك ، فما هى بمجديتك شيئا بعد •

ولكن « كابتاح » استرسل فى أنينه ونشيجه وقال وهـــو يشد شعر رأسه : هذا يوم أسود مشئوم ! •• وسكت قليلا كمن يفـكر ثم انتفض قائلا : اصغ الى يا ســـيدى : انك طبيب نابه عظيم ، ولم تزل شابا ، والمستقبل يفتح ذراعيه أمامك باسما ، فمن الخير أن نخرج بليل من هذه المدينة حاملين معنا بعض ما نحتاج اليه من محتويات هذا المنزل ذات القيمة ، شادين رحالنا فى غفلة الأعين الى الاراضى الحمراء حيث

لا يعرفنا هناك أحد ، أو نمضى الى بعض جزر البحر حيث النبيذ موقور والحياة رغدة ، أو نجعل هجرتنا الى أرض « ميتانى » أو « بابل » حيث الانهار تجرى متعاكسة الاتجاهات ، وهم هناك يقدرون فن الاطبــــاء المصريين ويثقون بعلمهم ومهارتهم ، فلا يمضى طويل وقت حتى يقبل عليك الثراء ، وتسترد ما فقدته هنا أضعافا مضاعفة،ولا أنفك أنا الخادم الأمين للسيد الكريم ... فخذ يا سيدى برأيى ومشورتى وعجل فليس فى الوقت متسع ...

فقلت له : ذلك مستحيل يا «كابتاح» ، فكما أنى لا أملك شــيئا الآن فى دارى هذه ، فانى كذلك لا أملك من قلبى وجسمى وفكرى شيئا، فلست حرا كما تظن ، وانما أنا رهين قيود أشد صلابة من السلاســل النحاسية ، ولا يدهشنك أنك لا تراها فهى ليست فى شىء من المــواد المجسدة التى تراها الأبصار ، وانها لتشدنى شدا الى « طيبـــة » فلا أستطيع منها فكاكا ولا هربا !..

فاقتعد « كابتاح » الارض متوجعا ، اذ كان لا يقوى عــلى الوقوف طويلا ، لمرض فى قدميه كنت أعالجه فى أوقات فراغى ، وقال فى يأس: يظهر أن « آمون » قد انصرف عنا برحمته ، وانك يا سيدى لمسئول عن ذلك ، فانت لا تذهب الا فى القليل النادر لتقدم اليه القرابين !.. أما انا فانه ليعلم أنى كنت أبذل راضيا خمس ما أسرقه منك شكرا له على أن أتاح لى ســـيدا مثلك ، طيب القلب ، على أنه مهما يكن من أمر فان « آمون » قد تخلى عنا !.. فعلينا أن نتجه الى آلهة غيره ، نتقرب اليها، ونضحى فى سبيل مرضاتها ، فقد تدفع عنا هذا الشر الجائح ، وتعيــد الينا الأمن واليسار !..

قلت له : هذا هراء كله .. وهل فى أيدينا الآن شىء نقدمه قربانا لآلهة أخرى ؟!.. ان كل شىء ، أيها الأحمق ، قد صار ملكا لغيرنا .. أفهمت ؟!..

فقال مستسلما : والمالك الجديد ! .. أرجل هو أم امرأة ؟! ..

ولم أشأ أن أخفى عنه حقيقة سيعرفها عما قليل ، فقلت له : انها امرأة .

وهنا ارتطمت فى وجهه موجة من الأسى والتحسر ، وقال فزعا : امرأة ؟!.. ليت أمى لم تلدنى أو ليتنى مت قبل هذا !..فما أقسى القدر الذى يضع رقيقا تحت امرة امرأة لا قلب لها . نعم ، لا قلب لها ، فان

التي صنعت بك هذا يا سيدي لأشد قسوة وضراوة من وحش الغابة!٠

قلت وأنا أشعر بالأسف لتعجلي في افشاء السر له : لا تخف،فهي ذات قلب كالنسيم رقة ، وذات وجه كالقمر بهاء ؛ وستكون في خدمتها سعيدا محسودا ٠

فصاح « كابتاح » : بل الحق أنها ستبيعني لحمال أو حجار ، أو تعذبني حتى أموت ميتة حمار !٠٠

وبيني وبين نفسي كنت أشعر بأنه صادق في مخاوفه ، فان « نفر نفر نفر » لا يجد مثله عندها الا الذلة والهوان ، فتساقطت دموعي أسفا وحزنا ، واعتمدت رأسي بين يدي مسترسلا في البكاء ٠ فمد « كابتاح » يده العريضة ليربت بها على يدي وهو يقول : انني أنا الذي جلبت عليك هذا الشقاء ، فقد كان من واجبي أن أشدد الرقابة عليك ، ولكنني لم أكن أتصور أن قلبك ساذج يقع صيدا سهلا لأول صائد ، ولقد كنت أراك تعود من الحانة في المساء ثملا ، فأعرف أنك لم تعد من أصحاب القلوب الشبيهة بالقماش الابيض الذي يغسل لاول مرة ، وأنك بهذا في منعة من اغراء النساء الخادعات ٠ ولقــد كنت أدهش حين لا تطلب مني أن آتيك بامرأة تطفىء في أحضانها حرارة الشباب ، يعود متوقدا من حانة النبيذ ٠ ولكني كنت راضيا عن هذا ، معتقدا ، لقصــور ادراكي ، أن الآلهة قد صرفتك عن النساء حتى لا تتزوج وتجيء لي بسيدة تؤذيني وتعذبني ، ولم أكن أدري أن الصاعقة ستنقض مرة واحدة على هذا العش الهانيء فتنثره وتذروه !٠٠

وقال « كابتاح » غير هذا كلاما كثيرا ، ولكنه كان يطن في أذني طنين الذباب ، فلم أع منه شيئا ٠ وأخيرا انتهى من محـــاضرته وراح فأعد طعاما ، ولكنني لم أتناوله ، فقد كان جسمي اذ ذاك يحترق أسى والتياعا ٠

نِفر
نِفر
نِفر



- ١ -

بت ليلتي مؤرق الجفن تراودني أفكار مزعجة الى أن استقرت في ذهني فكرة معينة سيطرت ، دون سواها ، على جميع حواسي .

فلما أهل الصباح اخذت طريقي الى بيت « نفر نفر نفر » وكانت لا تزال نائمة ، وكذلك كان خدمها نياما ، وطرقت البـــاب فاستيقظوا ولكنهم لم يفتحوه وترامت على سمعي شتائمهم ، لاعنين هذا الطارق الذي يقتحم عليهم مبكرا سياج راحتهم ، فلزمت الباب كما لو كنت متسولا حتى انبعثت من الداخل حركة استيقاظهم استيقاظا عاديا ، وانفتح الباب فدلفت منه مسرعا الى حجرة « نفر » فألفيتها ممددة على سريرها نصف صاحية ، ، وكان وجهها يبدو ضئيلا وأكثر بياضا ، وعيناها الخضراوان مشوبتان بسواد لكثرة ما شربت من نبيذ ..

وحين رأتني بادرتني قائلة في امتعاض : انك لا تزال تضايقني . فماذا تريد مني ؟.

فأجبت في تثاقل : أريد أن أجلس اليك ، وأقاسمك الطعـــام والشراب . ألسنا قد تحالفنا على هذا ؟..

قالت : كان ذلك بالأمس . ونحن الآن في يوم جديد . ولكل يوم حكمه .

وأقبلت خادمتها فجعلت تدلك جسمها الغض الفاتن حتى اذا ما شعرت بالحيوية تسري في جميع أقطاره نهضت من فراشها ووضعت فوق رأسها طاقية الشعر المستعار وفتحت صندوق جواهرها ،فتناولت منه الجوهرة الجديدة ووضعتها على جبينها . ونظرت الى قائلة: أليست هذه الجوهرة جميلة رائعة ؟ ألا تراها تعدل الثمن الذي اشتريتها به ؟.

فقلت لها : اذن فقـــد كنت بالأمس تكذبين على وتلفقين وعدا وعدتنيه ٠٠٠

قالت وهي تبتسم في سخرية : أشعر بأنني أخطأت باخلافي هذا الوعد ، وأرجو أن أكفر لك عن خطئي هذا ، فلا تحزن ٠٠٠

قلت : وهذه الجوهرة !٠٠ أهي التي حدثتني عنها ؟! أو مصدقة أنت أنها أحضرت من أحد القبور الملكية في سوريا ؟!

قالت : الذي أعلمه يقينا أنها وجدت تحت وسادة تاجر سوري ، ولا يسخطك هذا ، فقد كان رجلا بدينا أفطس كالخنزير ، ذا كرش منتفخ، ينفض جسمه ريحا كريها ، وما يعنيني من أمره الا انني اصبت منه ما أريد ، ولن أراه مرة ثانية ٠٠٠

وخلعت طاقية الشعر والجوهرة والجواهر الاخرى التي كانت قد تزينت بها والقت بها جانبا ، وجعلت ترق في حديثها وتتلطف قائلة : انني متعبة يا « سنوحي » ، وأنت تعرف مواضع ضعفي فتنالني منها غير مشفق ، وانك لتنظر الى نظرات حادة كأنما تريش بها ســـهاما الى صدري ! ٠٠ لا تحتقرني هكذا يا صاحبي فاني على وحدتي وضعفي لاأقبل أن أكون سيدة مطعونة في كرامتها ٠٠

فقلت لها : انك لتعرفين جيدا انني قد خرجت لك عن كل ما أملك، فلم يبق عندي شيء أعطيه ٠

فوضعت يدها في حنان على رأسي ثم استردتها معجلة وهي تقول : ما اقدركم على الخـداع وما أيسره لكم ، أيها الرجال !.. حتى انت يا « سنوحي » تخفي عني الحقيقة مستغلا ايماني بصدق غرامك ٠ ولكن كلا.. فقد عرفت ماشئت ان تخفيه، وما احب أن أتعامل مع الغشاشين المخادعين ! ٠٠ كيف لا تنبئني بأن لأبيك « ســـنموت » منزلا في حي الفقراء قريبا من الميناء ؟! قد لا يكون للبناء في ذاته قيمة تثير اهتمامي، ولكن الارض التي يقوم عليها غالية الثمن بلا ريب ، لقربها من المرفأ ، وكذلك الأثاث الذي يشتمل عليه ، فان أكبر الظن اننا واجدون بالسوق من يدفع فيه ثمنا طيبا ٠ ارايت كيف مكرت بي وخدعتني ؟! ٠٠

على أني أتجاوز لك عن هذا السلوك ، وأجدد وعدى أن أكون لك وحدك اذا أضفت الى ما أملك ، هذا المنزل بمحتوياته مسجلا كما فعلت بالأمس • ولا تحسبنى طامعة فيك أو مسرفة عليك ، فانما أريد أن أقف منك على أرض صلبة حتى لا تعصف بنا أعاصير الغد المحجب • انه ضرب من الاستيثاق والحفاظ يفرضه منطق الحياة ، ويوحى به الرأى الرشيد •

قلت لها محتدا : ولكنه ملك أبى ، وليس من حقى التصرف فيه ، فلا يجوز لك يا « نفر » أن تسأليني ما ليس لى ••

فأمالت رأسها وغمزت بعينيها الخضراوين وقالت : ان ما يملكه أبوك هو ملكك قانونا بحكم الميراث ، هذا الى أن أباك فاقد البصر ، وقد عهد اليك بالاشراف على أملاكه ، فلك حق التصرف فيها مطلقا من كل قيد كما لو كانت ملكك الخاص ••• لقد أخفيت عنى هذا أيضا بالأمس ، فهأنذا أواجهك به لتعلم أننى أقص أثرك وأتتبع خطواتك !••

وكان الذى قالته « نفر » هو الحقيقة التى كنت أعتقد أنها لا تعلمها ، فان أبى حينما فقد بصره أقامنى على أملاكه لأشرف على شئونها وأديرها ، وأعطانى خاتمه ، لانه قد استحال عليه أن يوقع بخطه على الأوراق ، وكان أبى « سنموت » وأمى « كيفا » يقولان دائما انهما يرغبان فى بيع منزلهما ليشتريا ببعض ثمنه بيتا صغيرا خارج المدينة يقيمان به ويزودان مقبرتهما بما يعينهما فى رحلتهما الى حياة الخلود •••

وقد انعقد لسانى حيال هذا المطلب الجديد الذى تفاجئنى به « نفر » ، فلست بمستطيع أن أطيعها فيه • ولو أننى فعلت ما تريد لكنت خائنا مفرطا فى أمانة أبوى عابثا بحقهما المقدس •

ولكن « نفر » عاجلتنى قائلة وفى عينيها فتور مغر : خذ رأسى بين يديك يا « سنوحى » فانى متعبة • وجعلت تردد على مسمعى عبارات رتيبة مؤثرة عن ضعفها ووحدتها وخوفها من المستقبل وحاجتها الى الاستعداد له ، فأمنت خوفها من هذه الناحية ووعدتها بأن أصنع لها ما تشاء •

فقالت : حبذا لو عجلت يا « سنوحى » فكثيرا ما تعدون معشر الرجال ولا توفون ، وترتجلون الرأى ولا تثبتون عليه •

فتركتها عائدا الى مسجل العقود ، وفى عجل حررنا وثيقة التنازل عن منزل أبى بما يحتوى ، وختمناها بخاتمه ، وسجلناها فى سجل المحفوظات الملكية •

وقفلت بها مسرعا الى بيت « نفر » ، فقال الخدم انها نائمة ولا يستطيعون ايقاظها عملا باشارتها ، ومن الممكن أن أعود اليها فى المساء المتأخر • فبرمت بهذا ، ولكن لم يكن ثمة مناص من التسليم به فانصرفت لشأنى ، ورجعت اليها فى المساء وقدمت اليها الوثيقة فتناولتها وأجالت نظرها فيها خطفا ، ثم ألقت بها فى صندوق بجانبها فى غير اهتمام وأخذت تبدو كأن النوم يغالبها • وفى عبارة مقتضبة ساهية قالت : أرجو أن تعفينى من مجالستك الليلة ، فانى ـ كما ترى ـ متعبة ، ولتعد الى فى يوم آخر •

فضاق صدرى بسلوكها هذا الذى لم أكن أتوقعه بعد أن نفذت رغبتها ، فقلت لها : ان تصرفاتك معى غير مفهومة ، أو هى فى القليل تدل على أنك عازفة بقلبك عنى ، غير راغبة فى لقائى •

قالت : أنت واهم يا « سنوحى » • وينبغى أن تثق بأننى سيدة شريفة لا تنكث بعهدها ولا تخلفه •

ثم استلقت على فراشها ، وفتحت لى ذراعيها واستقبلتنى بينهما ولم تلبث الا قليلا حتى أدارت عنى وجهها لتنظر الى نفسها فى المرآة وكانت تتثاءب من خلف يديها ، وبهذا تحولت المتعة التى كنت أنشدها الى رماد •••

وعندما تركت فراشها قالت : لقد أخذت منى ما طلبت يا «سنوحى» فاذهب اذن لانك متعب ، ويمكن أن تعود الى يوما آخر لتجد عندى ما تطلب •••

وانصرفت عنها مغلوبا على أمرى ، تاركا عندها قلبى وروحى ، فكأننى قشرة البيض ألقيت فى الطريق • وقصدت الى منزلى لأقضى الليل خاليا الى نفسى فى غرفة مظلمة ، أبكى فيها ما شاء حظى العاثر أن أبكى • ولكننى رأيت هناك رجلا غريبا يضع على رأسه قلنسوة من الشعر ويرتدى لباسا سوريا ، معصفر الالوان ، فحيانى باحترام وقال انه جاء ليستشيرنى كطبيب • فقلت له : لم يعد من حقى أن أستقبل مرضى فى هذا المنزل ، فقد صار له صاحب غيرى • فقال : ولكن بقدمى أوراما توجعنى ، وقد عرفت من خادمك « كابتاح » أنك خير من يعالجها ، فأرجو منك أن تريحنى من آلامى ••• ولا شك أنك لن تجد فى هذا ما يثير شيئا من الأسف والندم • فأدخلته الى غرفة المرضى ، وناديت « كابتاح » ليحضر ماء ساخنا أغسل به يدى ، ولكنه لم يجب ولم أسمع

ضوتا أو حركة • وعندئذ كشفت عن قدم المريض لأرى ما بها • فاذا بها قدم « كابتاح » نفسه ، فانى لأعرفها جيدا لطول ما كنت أطب لها • وهنا هب واقفا وقد ألقى قلنسوة الشعر عن رأسه وانفجر ضـــاحكا • فلم استطع كتمان غيظى لهذه الفعلة الطائشة فهويت عليه بالعصـــا حتى استحال ضحكه عواء • ولما توقفت عن ضربه أخذ يشرح لى الدافع لذلك قائلا : عندما عرفت أن لامناص من أن أصبح عبدا لغيرك ، قررت الهرب متنكرا • وبدا لى أن أجرب معك هذا التنكر فجئت مصطنعا المرض فى هذا الثوب السورى ، ولو لم تكن تعرف قدمى لجازت عليك الحيلة • فالتجربة اذن ناجحة والهرب مستطاع •

فحذرته عاقبة الهرب ، مذكرا اياه بالعقوبات التى تأخذ برقاب الارقاء الهاربين وما أحسبه يفلت منها ، فليس لديه ما يعينه على العيش بعيدا عن أعين الرقباء ، وسيفتضح سره لا محالة ، ان عاجلا أو آجلا ••

ولكنه لم يعر قولى شيئا من المبالاة واسترسل يقول : فى الليلة الماضية ملأت جوفى بالجعة لأطارد بها الهم الذى ركبنى بسبب تصرفك ، وأخذتنى غفوة فرأيت فيما يرى النائم أتونامتقدا بالنار ، ورأيتك ممددا فيه تتلظى بسعيره ، فأسرعت اليك وأمسكتك من عنقك وانتزعتك منه وصببت عليك الماء حتى زال عنك خطر الموت • فلما صحوت من غفوتى رحت أفتش عمن يفسر لى هذه الرؤيا المزعجة فقيل لى : ان سيدك فى خطر وانه مقبل على رحلات طويلة شاقة ، وانك ستتعرض لعدة ضربات مؤلمة فى مغامرة جريئة • وها أنت ذا ترى يا سيدى أن رؤياى صادقة ، فلا مراء فى أن الحال التى صرت اليها منبئة بالخطر المحدق بك وشاهدة عليه ، وقد تلقيت أنا الضربات المؤلمة من يدك ، وهذه خاتمة الرؤيا ••

فقلت له : لست فى ريب من ولائك واخلاصك يا « كابتاح » وان عواطفك هذه لتثير عواطفى حزنا وألما • وحقا اننى قادم على رحلة طويلة ولكنها ليست الى مكان مجهول ، فســـتكون الى وادى الموتى ، ونحن نعرفه وهو منا غير بعيد •• على أنى أظنك لا ترضى الرحلة معى اليه ، ولا الثواء الى جانبى فيه •

قال : ما من أحد يعلم ماذا سيكون فى الغد ، فانه غيب محجب • ولكن الذى أعلمه ويجب أن تعلمه أنت كـذلك ، أنك لا تزال فى نضرة الشباب وغضارة الصبا ، فلا تذهب نفسك هكذا حسرة ويأسا • على أنه اذا كان لا مفر الآن من رحيلك الى وادى الموتى فانى راحل معك ، فمابى

على احتمال فراقك قدرة ولا طاقة ، لان قلبى قد تعلق بك فهو يتبعك مقيما أو ظاعنا ، سعيدا أو شقيا ، حيا أو ميتا •

واكبرت وفاء « كابتاح » • ولكن الامر الواقع أنه لم يعد تابعا لى ، فلا خير فى متابعته على آرائه وعواطفه ، فتركته فى اكتئاب وأسى، ولذت بغرفة نومى فدسست جسمى فى الفراش ، حتى كان الصباح فنهضت وليس فى خيالى الا وجه « نفر » بعينيها الخضراوين ، وغسلت وجهى وارتديت ملابسى وقررت الذهاب اليها على الفور •

- ٢ -

كانت « نفر » حينما اقبلت عليها تجلس على بحيرة الحديقة،خالية الى نفسها ونظراتها تسبح حالمة فيما حولها من أزهار اللوتس وفيما يتناثر بالحديقة من ورود جميلة أخرى • وكانت تبدو أمرح نفسا وأبهج طلعة ، ولكنها عندما رأتنى لم تعرنى التفاتا كبيرا ولم تزد على أن قالت. ها أنت ذا تعود يا « سنوحى » ! •

وقبل أن أجيب ، أخذت تخلع فى بطءثوبها الرقيق وتنحدر عارية الى ماء البحيرة وتغيب بالماء لحظة لتطفو عليه أخرى ، وهى فى الحالين تأخذ بمجامع القلب فتنة وسحرا • لقد كانت اذا ما أطلت برأسها من الماء تلوح أروع جمالا ، وأبهى منظرا من أزهار اللوتس والازهار الاخرى التى تحف بها كأنها أيدى المعجبين تمتد اليها محيية • وفى سبحاتها الساحرة اقتربت منى وطفت على سطح الماء مستلقية على ظهرها كأنما تضطجع على فراش نومها ، ونظرت الى ورأسها يرتفع قليلا فوق يديها المتشابكتين اللتين اتخذت منهما وسادة له وقالت : انك لصامت اليوم يا « سنوحى » •• ومع ذلك فان وجهك المتورد ووجنتيك المحمرتين بالدم ، لأفصح تعبيرا عما فى نفسك ، فان كنت قد آلمتك وأثرتك فانى لمستعدة أن أعوضك عن هذا •• ويمكنك الآن أن تخلع ملابسك وتهبط هنا الى الماء لتسبح معى بعض الوقت ، وترطب جسدك الذى يفور حمية فى هذا اليوم القائظ • ان أحدا لا يستطيع أن يرانا ، فهيا •• ولاتتردد•

وفى سرعة خفقان قلبى ، وفى مثل لهفته ، نضوت عنى ملابسى واندفعت الى الماء ولامس جسدها جسدى ، ولكنها عندما مددت يدى لاطوقها وأضمها الى صدرى ، دفعت بنفسها بعيدا عنى كأنها السمكة

تهرب خيفة من الصائد ، واغرقت في ضحكاتها اللطاف ذات الجرس المثير وهي تقذف بالماء في وجهي مداعبة ، ثم قالت : انني أفهم تماما حاجتك يا « سنوحي » . وقد يخجلني أن أنظر اليك بسببها ، ولكنها تصبح أمرا مقضيا اذا عرفت أن تنالها بحقها ..فعليك أن تقدم لي هدية تشعرني بأني امرأة تستحق منك التضحية .

فصحت مغيظا : هل اختبل عقلك الى حد أنك نسيت ، بهذه السرعة ، أنني تجردت لك من كل ما أملك ؟..

قالت في تردد : اذن فأنت لا تريد شيئا .

قلت : عجيب أمرك أيتها المرأة . الا تعلمين حتى الساعة أنه لاشيء في هذه الدنيا أحب الى نفسي من أن أقضي العمر كله الى جانبك ؟! .

قالت : ربما كان هذا صحيحا . وأشعر من ناحيتي بأنني في حاجة الى رفيق مثلك ، يحبني حبا خالصا يختلف عن ذلك الحب الزائف الذي يخادعني به أولئك الذين يطلبون في المرأة متعة الجسد لا أكثر ، ولكنني في وحدتي ، التي أحتاج فيها الى الصديق المحب المخلص ، يشغلني كذلك التفكير في المستقبل . فعواطف المحبين الأوفياء لا تكفي في حياة امرأة وحيدة تواجه مستقبلها ، غير مزودة له بما يسد حاجتها ويؤمن مخافتها .

قلت لها : لقد فعلت في سبيل اطمئنانك للمستقبل كل ما أستطيع أن أفعل ، وبالأمس جاوزت في هذا حد الاستطاعة ، فأمضيت رغباتك في ممتلكات أبي وهي لا تخصني ، ونقلتها اليك اختلاسا وأنا الأمين عليها . وقد ألقيت أبي بذلك في هوة سحيقة من الفاقة والفقر ، وهو الشيخ الفاني الذي فقد بصره وافتقد موارد عيشه ، بعد أن كان طبيبا عالي الشأن رخي الحال ، فلم يعد له من وسيلة الا أن يتسول ليعيش ، وستدور أمي المسكينة المهدودة القوى على دور الآخرين لتغسل ملابسهم وتقضي حوائجهم لقاء أجر تافه تستعين به هي الاخرى على العيش الذليل الى جوار أبي .

قالت : مالنا والامس ، لقد مضى ولن يعود ؟.. مضى بما فيه من خير وشر ، فلننظر الى يومنا الحاضر ، فالالتفات الى الوراء مضيعة للوقت . وينبغي أن تفهم انني لم ارغمك على ما فعلت ، ولم اقسرك على اعطائي مما أعطيتني شيئا ، فالذي بيننا هو أنك راغب في أن أكون لك وحدك وان اقطع صلتي بغيرك ، وتحقيق هذه الرغبة يقتضيك التضحية ،

وكثيرا ما تكون التضحية شيئا مما يعز وقوعه ويغلو ثمنه · على أني لا أرى أنك قد أسرفت في تضحيتك أو جاوزت بها المألوف بين المحبين!·· فالحياة أخذ وعطاء ، وأنت ظافر مني بالصفقة الرابحة ، فستأخذ مني أكثر مما أعطيت ! ·· ولعلك تكون أكثر ادراكا للموقف وأكثر فهما لهذا المنطق الطبيعي اذا أخبرتك لماذا كنت في هذا الصباح بادية الابتهاج · فاعلم اذن أن رجلا من مشاهير المملكة السفلى قدم أخيرا الى « طيبة » حاملا معه طاسة ذهبية تزن أكثر من ثلثمائة أوقية ، محفورة عليها صور جميلة منوعة الرسوم والاشكال وهي تحفة نادرة ، يسرني أنها ستكون عما قليل زينة في هذا البيت ؟ ·· وليس بذي بال عندي أن صاحبها عجوز شائه الوجه دميم الصورة ؟ ··

واعتراني وجوم فلم أتكلم · أما هي ، فقد تمددت على الماء ونهداها ينجمان من صدرها كأنهما زهرتان من زهرات اللوتس عائمتان على الماء ؟· وعادت تسائلني لماذا لا أقول شيئا ؟··

قلت لها : ماذا عساي أن أقول ؟! انك تقدحين شرر غيرتي ،وتلهبين مشاعري ، وأنا العاجز الذي لا حيلة له ·

قالت : بل أردت أن تقاسمني ابتهاجي ، وأكبر ظني أنك مهد الى هدية أخرى في هذه المناسبة !··

قلت مغضبا : أيبهجني أن أراك متهيئة لاحضان عاشق غريب ؟! وماذا تظنين أن أكون ؟! ·· وهل أبقيت مني على شيء أهديه اليك ؟! لقد خرجت لك عن قلبي ، وخرجت لك معه عن كل ما أملك ، وكل ما يملكه أبي · وما أشد ما أشعر به من خجل كلما تذكرت أنني ، من أجلك ، قد اثمت في حق أبي اثما لم يأثمه ابن في حق أبيه من قبل .

وفي فورة الغضب اعتادني ما يعتاد العاشق المسلوب الارادة ، وهب قلبي مدافعا عنها ، متشفعا لها ، فتراجعت متخاذلا لاقول لها : ارحميني يا « نفر » فحسبي ما أعاني من عذاب ، ولا يزعجك مني اليوم أنني فقير لا أجد الهدية التي تريدينها ، فما زلت طبيبا مسجلا في «دار الحياة » ، وسوف أعمل وأفيد من عملي المال الذي أقدم اليك به الهدايا التي تطيب بها نفسك في المستقبل ··

قالت : تحدثني عن الماضي ، ثم تحدثني عن المستقبل ، وبينهما الحاضر الذي يجب أن يكون الحديث الآن فيه لا في غيره ·· وانك لتهرب منه مخادعا ، شأنك في هذا شأن من عرفت من الرجال المخادعين · ولو

كنت صادقا فى دعوى الحب فانه لا يعجزك أن تجد ما تقدمه لى اليوم ، وما أبتغى به الا دليلا جديدا على اخلاصك أزداد به شعورا بأنك ، حقا الصديق الذى يؤنس وحدتى ، ولا يعرف بى حاجة الا قضاها ·

قلت : ولكننى أصبحت خاوى الوفاض لا أملك شيئا ، وأنت تعلمين هذا جيدا ··

قالت : ألم أقل لك انك تخادعنى ؟!·· لقد أخفيت عنى ، عامدا ، أن لأبويك قبرا فخما فى مدينة الموتى ، وأنهما دفعا للمعبد قدرا كبيرا من المال لتحنيط جثتيهما وتزويدهما بوفر من الزاد الذى يستعينان به فى رحلتهما الى الارض الحمراء ··

فقلت فزعا : لم يبق الا هذه الفعلة النكراء ؟·· سرقت أبوى فى حياتهما ، ثم أسرقهما بعد موتهما ، وأحرمهما الأبدية ورحلة الخلود ، وأسلم جسديهما للبلى والفناء يتفتتان وتذروهما الريح ، كاجســـاد المتسولين والأرقاء وأولئك الأثمة الذين يقذف بهم الى النهرعقابا لهم على جرائمهم !·· هذا مستحيل !··

قالت فى تراخ وهدوء : ان أعطيتنى قبر أبويك فسأكون لك أختا مدى الحياة ···

ومرة أخرى غلبنى قلبى على عقلى فأحالنى ضعيفا مهزوما ، فبكيت وقلت : فليكن ما تشائين ، انك لساحرة ولا يسعنى الا الاذعان ·

قالت : دعنا من السحر والسحرة ، فهذا يضايقنى ، وما أحب أن تستجيب لرغبتى مسحورا ، وانما أحب أن ترسل نفسك فى ذلك عن صدق عاطفة ، وانى لموفدة أحد الخدم ليأتينا بمسجل العقود !·· ونظرت الى فى استرخاء وقالت : ان الضعف ليعترينى يا « سنوحى » عنـدما أراك عاريا فى بحيرتى !··

وحسبتها تدعونى دعوة المرأة للرجل ، فى أشد ما يكونان عليــه من وقدة الجسم واهتياج الغريزة ، فاندفعت اليها لأحتويها بين ذراعى وأعتصرها على صدرى ، ولكنها عند ذاك أسرعت الى الخروج من البحيرة ، وأخذت ، الى جانب شجرة بالحديقة ، تجفف الماء عن جسدها ·

وخرجت فى اثرها فلاقتنى متلطفة مزدهرة المحيا ، ودعت بالطعام فجيء به وأخذنا فى جلسة ممتعة نتناوله معا ، وكان شهيا وفرا ، من

بينه خمسة الوان من اللحوم واثنا عشر طبقا من الفطائر ، ودعت بالنبيذ المخلوط ، فشربنا منه ما وسعنا الشراب !...

وجاء المسجل فحرر الوثيقة التي تقرر النزول الى « نفر نفر نفر » عن قبر أبوي بمدينة الموتى بكل محتوياته ، وكذلك المال الذي رصد باسميهما ولحسابهما بالمعبد للتحنيط وزاد القبر ، ووقعت على الوثيقة بخاتم أبي وذهب بها المسجل الى دار المحفوظات الملكية ليسجلها هناك في اليوم نفسه .

قلت لها : قد جرى الامر على ارادتك يا « نفر » ولكن كيف لي أن أنجو من لعنة الآلهة ؟!.. ان ضميري ليعذبني عذابا شديدا ، فهل أنت مدركة ماذا فعلت من أجلك ؟!..

قالت : دع هذا الى اللذة التي نحن فيها ، واشرب نبيذا ، فان فيه للقلب بهجة ، وللضمير عزاء .

وبعد قليل نظرت الى السماء وقالت : ها هي الشمس تنحدر مسرعة الى المغيب ، لقد ولى النهار واقبل الليل ، وآن لك أن تنصرف .

ولكنني ظللت في مكاني ، لا أريم عنه ، كأني لم أسمع .. وهنا هتفت بخدمها فجاءوا خفافا وقالت لهم في صرامة : اقذفوا هذا المتسول السمج الى الخارج ولا تدخلوه مرة أخرى الى داري ، واذا ألم بها بعد الآن فاطردوه ، واذا لج في سماجته فاضربوه ! ..

وحملني الخدم والقوا بي في الطريق ، وكنت مخمورا ظاهر الاضطراب ، فنهضت مترنحا واخذت اقرع الباب محاولا أن أعود اليها ، فخرج الخدم بعصيهم فضربوني ، وصرخت متوجعا ومحتجا ، فتجمع الناس لينقذوني من أيديهم ، ولكنهم زعموا لهم أنني سكير متهور ، وقد سببت سيدتهم في دارها وهي سيدة كريمة لا يجوز لانسان ان يتطاول على مقامها الكريم ! .. فما سمع الناس منهم هذا حتى انهالوا على ضربا بالأيدي وركلا بالأقدام ، ولم يكتفوا بهذا بل كانوا يتبارون على وجهي ليبصقوا فيه اظهاراً لتقززهم واستيائهم ، ولم ينصرفوا الا بعد أن فقدت وعيي فتركوني بالطريق على تلك الحال الزرية ! ..

وانتبهت من غشيتي وكانت الظلمة قد رانت على الوجود ، وخيل الى أن البقاء في هذا المكان الى آخر الليل خير مما لو انصرفت عنه

فلا اعلم الى أين يكون منصرفى ، ولا اى الناس ألقى . على ما أنا فيه من هوان ، فبقيت حيث كنت مستخفيا عن الناس فى لفائف الظلام ، وذكرت عندئذ لن ولى العهد كان قد لقبنى « بالوحيد » ، فهأنذا « وحيد » حقا فى محنتى . ولا أرى فى الناس من يصدق فيه وصف الوحدة سواى ! .

وعندما أخذت تتسلل فى الليل اشعاعات الفجر ، وبدأ الناس ينسلون الى الشوارع ويترامى على سمعى من بعيد ضجيج العربات التى تجرها الثيران محملة ببضائع التجار ، جمعت اوصالى المتزايلة ومضيت استرق الخطى محاذرا ، كأننى اللص الذى يتقى العيون الراصدة ، حتى جاوزت نطاق المدينة ، ولم أجد غير الأعشاب موئلا آوى اليه ، متواريا عن الناس لفرط شعورى بالخجل من ملاقاتهم ، وهناك قضيت ثلاث ليال وثلاثة أيام لم اصب خلالها طعاما أو شرابا ، الى ان كدت اموت جوعا وظمأ .

- ٣ -

ولم يكن لى بعد هذا مناص من الفكاك من ذلك الأسر القاتل ، فنظفت ملابسى وازلت ما علق بها من دماء ، وغسلت يدى وقدمى بالماء ، وقفلت عائدا الى المدينة ،.،ومضيت راسا الى منزلى ، ولكنى فوجئت هناك بما كان ينبغى أن اقدره واحسب حسابه ، ذلك ان المنزل لم يعد منزلى ، وقد احتله فعلا ساكن جديد ، هو أيضا طبيب ، قرأت اسمه مكتوبا على لوحة ثبتت بواجهة الباب ، وخطر لى أن أعود أدراجى ولكننى ، بدافع الرغبة فى معرفة ما حدث ، ناديت « كابتاح » فأقبل مسرعا ، وما ان رآنى حتى تهلل وخر راكعا امامى وهو يقول : سيدى ، واقول سيدى . . لأن قلبى لا يعترف لغيرك بحق هذه السيادة ، ولو كان شخص آخر يصدر أوامره الى باعتباره سيدا ! . . فليست السيادة أمرا يتلقاه الخادم من هذا السيد أو ذاك ، ولكنها اتصال روح بروح ، ووحى قلب الى قلب ، وقد تعارفنا على هذا وأحببتك حبا لا يتحول مع صروف الأيام ، ولايختلف باختلاف الآمرين . وهذا المخلوق ، الذى قضت الظروف القاسية أن يكون سيدى الجديد ، لا يستطيع أن ينزل من نفسى منزلتك ، فهو شاب مفتون يتوهم أنه طبيب عظيم ، ولكن المرضى لا يعترفون له بذلك وهم لايخفون أسفهم

لانهم حرموا حلمك وخفة يدك فى تطبيبهم ، ولانهم لا يجدون فى هـذا الذى حل محلك كفؤا لك ، ولا عوضا عنك . وقد رأيت فى تصرفاته بدوات طيش ، فهو اذا ما رأى ملابسك راح يقلبها ثم ينشرها ويطويها ، ضاحكا مسرفا فى الضحك ، دون أن أفهم لماذا يفعل ذلك ، وليست أمه اقل منه حماقة ونزقا ، فقد كان اول مافعلته حينما دخلت المطبخ أن ألقت الماء ساخنا على قدمى دون أن أفهم لماذا فعلت ذلك ، ثم انهـا لا تكاد تفلتنى من لسانها السليط المقـذع ، فهى على الدوام تلقانى صاخبة ، وتحدثنى لاعنة .

وكان « كابتاح » وهو يذكر هذا بادى الحزن والكآبة ، وفى عينه الواحدة احمرار البكاء الطويل ، فسـألته ان يتماسك ويخبرنى عما حدث غير هذا فى غيبتى ، فما يعنينى حديث الطبيب الجديد أو حديث أمه الحمقاء ، قدر ما يعنينى الحديث عن « نفر » التى هى صاحبة البيت !.. ولكن « كابتاح » استرسل قائلا وهو فى غمرة من الفزع : لقد كنت مستعدا أن أفقأ عينى الثانية بيدى وأن أصبح أعمى لو كان فى هذا فداؤك من الشر ، ووقاؤك من الضر ، ولكنى ، وقد جاوز الأمر ارادتنا وجرى على غير هوانا ، ارجو أن تتجمل بالصبر ولا يروعنك ما انا مخبرك به الآن : لقد مات أبواك اليوم يا سيدى « سنوحى » . وكأنك أحسست بذلك ، وأنت منهما بعيـد ، فجئت لتشهدهما مودعا قبل أن يغيبا فى رحلة الأبدية .

فرفعت يـدى جزعا وصرخت : أبى « سـنموت » .. وأمى « كيفا » ! .. وانعقد لسانى فلم أجد كلمة واحدة أعبر بها عن هول هذه المصيبة الأخرى الداهية ، فى حين مضى « كابتاح » يقول : ولم يكن احد قد اكتشف موتهما ، ولكن حدث أن الجهة القـانونية تلقت طلبا بتنفيذ اجراءات نزع ملكية منزل ابيك ، فأوفدت موظفيها المختصـين الى هناك لاخلائه ، فوجدوه مغلقا ، فدقوا البـاب ليخاطبوا من فيـه ولكن احدا لم يجب ، فكسروه وفوجئوا بأبويك ممددين معا وقد فارقا الحياة ، وتستطيع الآن يا سيدى أن تنقل جثتيهما الى مدينة الموتى .

وسألت « كابتاح » وأنا أوارى وجهى خجلا : وهل عرف أبواى قبل ان يموتا ان المنزل قد بيع الى مالك جديد ؟ ! ..

قال : الذى أعلمه أن أباك « سنموت » جاءنى باحثا عنك ، وكانت امك تقوده ، وقد رثيت لحالهما ، اذ كانا يتعثران فى مشيتهما ، ولم يبق

منهما العجز والشيخوخة الا ومضة خافتة مترنحة في مصباح الحياة ، ولم أستطع أن أدلهما على مكانك لأنى لا أعرفه ، وقد أخبرنى أبوك فى استسلام وتخاذل ان موظفى تطبيق القانون جاءوه فأنذروه باخلاء المنزل وختموا جميع الخزائن والأمتعة ، وحذروه من الاقتراب منها أو العبث بها ، فلما سألهم عن سر هذا ، سخروا منه وأنبأوه أن ابنه « سنوحى » باع المنزل بمحتوياته ، وكذلك باع قبرهما بمحتوياته ، الى امرأة مريبة السلوك ، وبذلك أصبح هو وزوجته لا يملكان الا الخرق البالية التى يلبسانها . ثم طلب أبوك منى ، فى تردد ، قطعة من النقود النحاسية ليدفعها أجرا الى احد الكتبة ليكتب اليك خطابا باملائه ، فهو — وقد فقد بصره — لا يستطيع أن يكتب اليك بنفسه . ولكننى قبل ان أجيبه الى طلبته ، اقتحم علينا السيد الجديد وصرخت امه من داخل المنزل تدعونى اليها على عجل ، فأسرعت الى تلبية دعوتها مخافة شرها . بيد انى لم أنج مما خفت وقوعه ، فقد تلقتنى بعصاها وأوسعت قفاى ضربا بها . وجريرتى التى استحققت عليها هذا العقاب هى أننى — كما تزعم — أضيع وقتى عبثا فى الوقوف مع المتسولين الحقراء ! ولم يكفها هذا فاحتجزتنى بالحجرة الى الصباح لتطمئن الى انى لا أعود ثانية الى الشارع ، وبذلك استحال على أن أخرج لأبيك لأعطيه قطعة النقود التى طلبها . وقد شجانى هذا واحزننى ، فقد كنت أحسبنى عائدا اليه قبل أن يبرح مكانه لأقضى حاجته وفاء ببعض حقك على ، غير مقدر انى سأقع فى أسر هذه المرأة الصارمة . وأرجو أن تصدقنى يا سيدى ، فلا يزال عندى أثارة من فضل مالك ، وبقية من سابق رفدك ، ولست بالناكر للجميل .

وتنهد « كابتاح » وقال : وا أسفاه ياسيدى على أيامك الغر الحافلة بالخير . لقد مضت وابدلنى منها الحظ العاثر أياما نحسات كقطع الليل ظلاما ، فذلك الطبيب المفتون ليس فى شىء من نداك وسخائك وتسامحك واغضائك ، وهو يحاسبنى على الفتيل والقطمير ، ويشتد فى الحساب حتى لأظنه يحاسبنى على اللقيمات التى أسد بها رمقى ! .

وسمعت مقالة « كابتاح » مذهولا شارد الفكر ممزق القلب ، فما أرى لى ، بعد ، موضعا بين الأحياء أو بين الموتى ، فكأنما أنا الخطيئة المجسمة تطاردها اللعنة فى كل مكان !.. .

وبعد قليل استعدت بعض ما ذهب منى كانسان ، وقلت لكابتاح :

اما وقد بلغت المأساة هـذا الحد ، فليس ثمة سـبيل الى الفـرار من واجبي الأخير حيال أبوين كنت انا مصدر شقائهما وسبب مصرعهما ، فاعطنى كل ما لديك من نقود فضية ونحاسية، اعطنيها سريعا ولاتتلبث، وهي لك دين في عنقي ، وان عجزت عن ردها اليك ، فستجزيك الآلهة عنها خير الجزاء . ان الواجب ليسـتصرخني أن اعجل بنقل جثتي ابوى المسـكينين الى « دار الموت » ، وان اجتاز بهما عتبة الأبدية محنطين ، وهذا يتطلب نقودا لا أملك منها الآن شيئا ٠

وكان « كابتاح » ينشج بالبكاء تاثرا بالموقف الرهيب . ولم يسعه الا أن ينسل الى ركن بالحديقة ويتلفت يمنة ويسرة ليستوثق من أن احدا لا يراه ، ثم ينحني فيرفع حجزا ويلتقط من تحته خرقة كان قد طواها على ما ادخر من نقـود ، وعاد بهـا فى حذر فأفرغهـا فى يدى ، وكانت قطعا من الفضة والنحاس تزن نحو سبع أوقيات ٠

ومضيت بها مسرعا الى بيت أبى ، فراعنى منه انه صار شبيها بالطلل البـالى ، فأبوابه محطمة ، وامتعته مكومة ، وعليها أختـام الحكومة ، تحذيرا للأيدى من الامتداد اليها . وكان الجيران وقتذاك متجمعين بالحديقة ، يجلل وجوههم الاسى، فما ان ابصرونى حتى رفعوا ايديهم استنكارا ، واشاحوا عني سخطا واحتقارا ، ولم تتحرك السنتهم بكلمة يقولونها لذلك الابن العاق الذى اشقى أبويه وقتلهما ، لقد كان فى نظرهم احقر من أن يتحدثوا اليه ...

وفى الحجرة الداخلية رايت أبى « سـنموت » وامى « كيفا » مسـجيين على سريرهما وفى وجهيهما الاشراقة الوردية التى طالمـا استقبلانى بها فى حياتهما الذاهبة . ورايت فى وسـط الحجرة الموقد الذى اختارا أن يموتا بدخانه ...

وتقدمت منهما مترددا فلففت جثتيهما فى ملاءة كانت ، كأى قطعة من متـاع الدار ، مختومة بخاتم الحظر والحفظ ، ثم جئت بمكارى فحملهما على حماره ، وذهبت بهما معه الى « دار الموت » ..

وهناك واجهت الحقيقة المؤلمة ، وهى اننى لا املك نقودا تكافىء نفقات أدنى مراتب التحنيط ، فما عساى ان اصنع ؟! . لقد أزعجتنى هذه الحقيقة ، ولكننى تشـجعت وقلت لغاسـل الجثث : اننى أنا « سنوحى » ابن « سنموت » واسـمى مسجل فى « دار الحياة » ، وهاتان جثتا أبوى ، ولا أملك أجر تحنيطهما ، فقد جردتنى الاقدار من

كل شيء . وانى لمستحلفك بآمون وجميع آلهة مصر ان تحنطهما . ولقاء هذا ارجو أن تقبلنى خادما معك فى عملك الى ان أوفيك بما كان يجب ان ادفعه اليك الساعة . .

وكان هذا أمرا غير مألوف عندهم ، فانتهرنى الرجـــل وازدرانى رفاقه ، وصدونى عنهم صدا عنيفا . ولكن كبيرهم ، بعد لجاجة وطول مساومة ، رضى أن يأخـــذ منى بقية ما اعطانيه « كابتاح » وان ابقى عاملا معهم الى ان اتم النفقة ، ومن ثم القوا بالجثتين فى حوض ماء . وعرفت لأول مرة أن تحنيط جثث الفقراء يكون بوضع الملح على الماء ؛ ثم تبقى الجثث فى هذا المـاء المملح ثلاثين يوما كاملة .

وعندما فرغت من الاتفاق معهم على ذلك ، ذكرت الملاءة المختومة التى لففت بها الجثتين ، فاستأذنت رئيسهم فى العودة بها الى المنزل ، فانكر على هذا وظننى افاقا أخاتلهم ، وتوعدنى قائلا : اذا لم تعد الينـا فى الغد فسنخرج الجثتين من الحوض ونقذف بهما الى الكلاب فى عرض الطريق .

وقفلت راجعا الى منزل ابوى ، واحسـست حين دلفت اليه أن كل ما فيه يتلقانى باللعنة ، فوضعت الملاءة فى مكانها وأسرعت بالخروج كمن يفر من هول . وانى لفى طريقى أوسع الخطو الى « دار الموت » ، اذا بى أرى انسانا يعترضنى قائلا : أأنت سنوحى » ابن « سنموت » المستقيم البار ؟ . .

قلت : نعم . اننى هو « سنوحى » . .

قال : لك عندى رسالة من ابيك اسكتبنيها بعد أن استحال عليه لقاؤك ، ثم نشر الرسالة بين يديه واخذ يقرأ بصوت جهير :

« نحن « سنموت » الذى سجل اسمه فى « دار الحياة » وزوجته « كيفا » ، نبعث بتحيتنا الى ولدنا « سنوحى » الذى سمى فى قصر فرعون « بالوحيد » ، ونوجه اليه هذا الخطاب فى اللحظات الأخيرة التى نزمع فيها الرحيل عن هذه الدنيا .

« لقد أرسلت الينا الآلهة ياولدنا ، على شـــوق الظمآن الى الماء ، ثتيمنا بك واستبشرنا . وكنت خـلال حياتك معنـــا مبعث غبطتنـــا وهناءتنا ، وكنا بك فخورين ، نحوطك بالحب ونتابعك بالدعاء ، فلمـا تناهى الينـــا آخر الأمر أن ريحك لم تجر رخاء ، وأن طريقك قد حف

بالمكاره والشدائد ، وعركتك محن لم يكن لك على دفعها طاقة ، أهمنا ذلك همًا شديدا ، وأحزننا حزنا فادحا ، وكنا نتمنى لو أن لدينا وسيلة نعينك بها على الخلاص من الشر ، ونمد لك بهـا أسباب النجـاة من الضر ، ولكننا صرنا الى حال من العجز لا تسعفنا بشيء ، وهذا هو الذى يسبب لنا أقسى الشجن ، ويؤلمنا أشد الألم . ولسنا آسيين على ما فعلت ، ولا ساخطين على ما صنعته ، فاننا لعلى يقين من انك فى ايما عمل تعمله وفى أيما أمر تقدم عليه ، انما تصدر عن فكرة الصواب . فان كانت الأقدار قـد دخلت عليـك فأفسدت مقاصـدك ومراميك ، وقادتك من حيث لا تدرى الى ما لم تكن تحب ان يكون ، فلا شـك عندنا فى انك كنت لا تستطيع أن تقف عجلاتها أو تصد اعصارها ، فقد كانت أقوى منك أيدا وأضرى بطشا . ونحن لهذا مشفقان عليك راثيان لحالك ، ونرجو مخلصين الا تبتئس من أجلنا ، وأن تهون على نفسك أمرنا ، فقد بلغنا من الحياة أقصى المدى وشربنا كئوسها حتى الثمالة ، ومللنا البقاء فيها ، وحسبنا منها اننا سـعدنا بك طفلا ساقته الآلهة الينا ، وصبيا آنس وحدتنا ، ونفى عنا وحشـتنا ، ونضر ما كان قد تصوح من آمالنا . فالآن وقد استحال الربيع المزهر خريفا ممحلا ، وعصفت بشيخوختنا العواصف ، ونزلت بساحتنا النوازل ، وفقدنا الدار والمتاع ، وتقطعت فى حياتنا أواصر العيش وأسـبابه ، وباعدت الأقدار بيننا وبينك ، فاننا ثمة لانرى غير الرحيل سبيلا ، ولا نجد فى غير الموت ملاذا ، وقد قر الرأى عندنا على ذلك . واننا بعد قليل لمقبلان على الميتة التى اخترناها راضيين ، تعجلا للراحة بعد العناء ، واستباقا للهدوء بعد الفـزع ، ولا يهولنك اننا لا نجد قبرا نأوى اليه ونثوى فيه ، فمن الخير أن نتلاشى فى فضـاء العدم غـير المحدود ، وألا نركب ظهر الأهوال غير المنظورة فى رحلتنا الشاقة الى الأرض الغربية . وثق يا ولدنا ان ميتتنا معا تقع فى يسر وغبطة ، واننا قبل أن نفارق الحيـاة نباركك ونبتهل الى آلهة مصر كلها ان تحوطك بعنايتها وتعصمك من كل المخاطر ، وان تهيىء لك عيشا رغدا وهناءة متصلة ، وأن ترزقك أطفالا سعداء تقر بهم عينك ، وتبتهج بهم نفسـك ، وتجد فيهم من السعادة اكثر مما وجدنا فيك ، والسلام عليك من أبيك « سنموت » وأمك « كيفا » »

وكنت استمع الى الرجل وهو يتلو الرسـالة وقلبى يخفق خفقـا دراكا ، ودموعى تنحدر من عينى غزيرة ، ورأسى يتصدع حزنا والتياعا . فلما فرغ من تلاوتها ناولنيها قائلا : انها لا تحمل خاتم أبيك ، فخاتمه

كان معك ، ولكنها ، وأقسم لك ، كلماته التى أملاها بلسانه حرفيا ، لم أزد عليها ولم أنقص منها ، وقد تناثرت على بعض حروفها دموع أمك ، على ما ترى من آثارها ، فكأنما أرادت هي كذلك أن تشارك فيها ، فكانت دموعها الصامتة ابين لسانا وافصح مقالا !..

وتناولت الرسالة مضطربا ، وقد رانت غشاوة الأسى على بصرى ، فلم استطع قراءتها بنفسي مرة اخرى ، فطويتها ووضعتها فى جيبى . على أن الرجل مضى يقول : كان أبوك « سنموت » طبيبا محمود الخصال كريم السجايا ، وكذلك كانت أمك « كيفا » ولو انها كانت على طبع النساء ، فى بعض الأحيان ، خفة رأى وحدة لسان . وقد كتبت هذا الخطاب ناقلا كلمات أبيك ومسجلا مقالته ، أمينا فى النقل والتسجيل ، وكابدت فى هذا رهقا وعناء ، ولم ينقدنى أبوك أجرا على ذلك ، لأنه كان لا يملك ما يعطينيه ، وهأنذا قد أنفذت رغبته ، وأديت أمانته ، فلعلك منتفع بما فى الخطاب ، فاقه دلالته ومعانيه !..

وفطنت الى اشارته وتلويحه ، فقلت له : اشكر لك فضلك ايها الكاتب الماهر ، والرسول الأمين . وانه ليخجلنى حقا أننى لا أملك الآن نقودا أكافئك بها ، ولكنى أرجو أن تتقبل معطفى هذا هدية متواضعة ، وهو من نسيج جيد وان لم يكن نظيفا كما ينبغى ، ولتباركك الآلهة ، ولتحفظ جسمك من الفناء الى الأبد .

ووضع الرجل معطفى على كتفيه وذهب لطيته مسرورا به ، واخذت انا طريقى الى « دار الموت » مرتديا جلبابى مجردا من المعطف الذى كان يستره ويخفيه ، كأى رقيق أو سائق ثيران ، لأعمل خادما مع غسلة الجثث ومحنطيها مدى ثلاثين يوما بلياليها ..

- ٤ -

ظننت عملى فى « دار الموت » شيئا مما الفته فى حياتى كطبيب ، فما أكثر ما رأيت من الموتى، وما أكثر ما شممت الروائح الكريهة تنبعث من اجسادهم ، وما أكثر ما انغمست يدى فى قروح المرضى التى تنزف صديدا ! .. فهذا الجو الذى صرت اليه ليس اذن جديدا على ، غير انى ما كدت أوغل فيه حتى أخذت أشعر بأننى أدخل منه فى دنيا أخرى غير تلك الدنيا التى عرفتها وعشت فيها ، فكل ما ارى فيه يبدو غريبا

ومثيرا ولا صلة له بسابق علمي وخبرتي .. ومن ذلك أن جثث الموتى يختلف العمل فيها باختلاف درجات أصحابها ، وباختلاف قيمة الاجور التى تدفع عنها .. وقد كانت جثث الفقراء منهم لاتتقاضانا الا أيسر الجهد ، فهي تلقى القاء في أحواض ملآى بماء الرماد والملح ذى الرائحة النفاذة ، ثم يستعملون خطافا فى تقليبها بهذا السائل ، وكنت ممن يقومون بهذه العملية فلم ألبث الا قليلا حتى حذقتها ، أما جثث الطبقات الأعلى مركزا والأوفر مالا ، فكان يعنى بها عناية متميزة ! .. فأمعاؤها توضع بدقة ومهارة فى جرار خاصة ، وتضفى عليها رعاية متصلة خلال مراحل التحنيط ، وكان من علامات الخصوصية وآياتها فى هذه الجثث أن يظهر عليها « آمون » أكثر من ظهوره على الاحياء ! .. وللمحنطين في ذلك براعة لايعدلهم فيها أحد ، وكانوا قبل البدء بالعمل يقضون وقتا طويلا في مساومة أهل الميت فى اثمان الزيوت والمراهم والمواد التى يزعمون أنهم يستعملونها فى حفظ الجثث من التعفن والبلى ، وهى مواد يغالون فى تقديرها ويهولون فى خصائصها وأسرارها ، وان كانت كلها ترجع الى مصدر واحد هو الزيت المستنبط من السمسم .. وبهذه الوسيلة كانوا يحصلون من القادرين على الأجور العالية ويختصون جثث موتاهم بالمهارة الفنية التى لا يبذلون منها شيئا لجثث الفقراء .. وقد كان من عنايتهم بالجثث المأجورة أنهم اذا ما اخرجوا امعاءها ، ملأوا فجوة البطن بقطعة نسيج نظيف يتخللها صمغ الصنوبر ، أما جثث الفقراء فكانوا يملأون فجواتها بالزيت القارض الذى يذيبها ويبليها ، فاذا انقضت عليها ثلاثون يوما بأحواض ماء الرماد والملح ، آخرجوها قليلا لتجف ، ثم سلموها لأهل الموتى ..

وكانت «دار الموت» تحت رقابة الكهان ، ولكنها رقابة خيالية ليست بذات أثر ، فالمغسلون والمحنطون يعبثون بملابس الموتى ويستولون على ما فيها ، ويرونه حقا لهم ، والواقع أنهم فى هذا كانوا يجرون على طبيعتهم ، فهم من المجرمين الذين تطاردهم لعنة الآلهة ، ومن الآبقين الخارجين على سلطان القانون !.. وكانوا يعرفون بسيماهم ، وبما ينبعث من روائحهم الكريهة غادين ورائحين، ولهذا كان الناس يقذعونهم ويتحامون لقاءهم ، ولم يكن ليسمح لهم بغشيان الحانات أو بيوت الملاهي . ولقد ضقت بهم ايما ضيق ، وبخاصة حينما كنت اراهم ، اذا ما خلوا الى الجثث ، يمعنون فى العبث بها ، حتى ما كان منها لاناس ممتازين ، فيبترون بعض أعضائها ليبيعوها للسحرة والعرافين ، حيث يتخذون منها مادة لشعوذتهم . ولو كانت هناك حقا حياة ثانية فى

الأرض الغريبة ، فان الكثيرين من الموتى عندما يستيقظون سيدهشهم أن يفتقدوا في أجسامهم أعضاء مبتورة ، وسيدهشهم كذلك أن النفقات التي دفعت للمعبد لقاء حفظهم ودفنهم قد ضاعت عبثا !..

ولقد فكرت اكثر من مرة في الهرب من هذا الجو الطافح بالرذيلة والفساد . ولكن كان يمسكني به ويكرهني على البقاء فيه أن الحياة في خارجه كانت في نظري أضيق من سم الخياط ، وانني لقيت فيها اهوالا أشد وأقسى مما الاقى به ، ذلك الى أن الذين يعملون في « دار الموت » لا يجدون من الناس الا نفورا وتقززا . فهم لا يغادرونها الا ليعودوا اليها ، فلن يطيب لهم مقام في غيرها ..

على أنه كان من بين هؤلاء الملتاثين في عقولهم ، عدد قليل ممن استقاموا على الجادة ، يتوافرون على عملهم بالاخلاص والشرف ، ويعدونه عملا انسانيا بالغ الأهمية . ولعل ذلك لأنهم قد توارثوه عن آبائهم وأجدادهم ، فهم ليسوا كالآخرين ، دخلاء عليه ، وكان لكل منهم فرع تخصص فيه ، كما هي الحال في « دار الحياة » ، فهذا متخصص في الرأس ، وذاك في الأمعاء ، وثالث متخصص في القلب ، ورابع في الرئتين ، وهكذا سائر أعضاء الجسم موزعة بالتخصص عليهم ليحصنوها ضد الفناء !..

فهؤلاء القلة كانوا بيننا أشبه بالومضات التي تشع اشعاعا ضئيلا وسط الظلمة الحالكة ، ولكنها على ضآلتها كانت تبعث في مثل قلبي الواجف بريقا من الأمن والطمأنينة .

وكان « راموس » أكبر هؤلاء سنا يتمرس بفرع هام من فروع التحنيط ، فقد كان عليه أن يفصل المخ ويستله من ثنايا الأنف بآلة دقيقة خاصة بذلك ، ثم يغسل الجمجمة بالزيت النقي ، وكنت لاعجابي به أرافقه في عمله وأعينه عليه . واسترعى نظره حسن استعدادي للعمل وخفة يدي فيه ، فأخذ يتعهدني برعايته وثقته ويزودني بما لا أعلم من دقائق عمله ، ثم اتخذني مساعدا له ولما أبلغ نصف المدة التي تقررت لخدمتي معهم ، ورفع هذا من شأني في نظر الآخرين فلم يعودوا يغلظون القول لي أو يلقون بمخلفات الجثث في وجهي ، ذلك لأن « راموس » كان ، لاهمية العمل الذي تخصص له ، ذا نفوذ قوي عليهم !..

ولم يعجلني هذا عن التفكير في جثتي أبوي ، وفي اعدادهما الاعداد

الذى يكفل لهما الراحة بقدر المستطاع فى حيـــاتهما الأبدية ، وقد اضطرنى ذلك الى مجاراة رفاقى فى سرقاتهم ، لعلى أصيب منها بعض ما يعيننى على اتمـــام واجبى نحوهما ، وكنت أعلم أن هذه خطيئة ، ولكنها لا تقاس بما اقترفت قبلها من خطايا ، وكانت السرقات على أية حال خلقا شائعا فى هذا الوسط القذر ، وهى ليسرها وسهولتها وانتفاء الزاجر عنها ، كانت ذات اغراء دافع . وقد اســـتطعت بمســـاعدة « راموس » تحنيط الجثتين العزيزتين على نفسى ، تحنيطا حسنا ، ثم ادرجتهما فى لفائف من الكتان ، ولم يبق الا أن أضـــعهما فى صندوق خشبى ، وهو أمر يند عن قدرتى ، وقد طال فى ذلك تفكيرى ، الى ماكان يشغل بالى من أمر قبرهما الذى أصبح لا وجود له بين القبور ! ..

وقد امتـــدت بسبب ذلك اقامتى فى « دار الموت » حتى بلغت اربعين يوما ، واخيرا تهيأت للخـــروج منها ، وحاول « راموس » آن يستبقينى معه لأظل مســـاعدا له فى عمله ، لما استبان من كفايتى ومهارتى ، ولكنى اعتذرت عن عدم الاستجابة لرغبته ، ولا أدرى لمـــاذا كان اعتذارى !. فقد كانت ظروفى الخاصـــة خليقة ان تحملنى على البقاء ، فما جدوى أن أخرج لحيـــاة تموج بالمتـــاعب وتزدحم بالآلام ، وقد جرعتنى الصاب والعلقم ، وفقدت فيها الشرف والـــكرامة ، كما فقدت الأهل والاصدقاء ؟ ! وليس من شك فى أننى « بدار الموت » على ما فيها من فساد أخلاق وشيوع رذائل ، أحسن حالا منى فى خارجها !. على أنى مع هذا آثرت مفادرتها الى غير مآب !..

ومن ثم ارتديت ملابسى بعد أن غسلتها ونقيتها من أوضارهـــا ، وخرجت من « دار الموت » مشيعا من المغسلين بالشتائم والسخرية ، على طريقتهم فى التخـــاطب والتحيات دون قصد الاســـــاءة وجرح الشعور !..

وعلى أنى حرصت على أن أكون نظيفا بقدر الامكان ، فان النـــاس الذين كنت أمر بهم كانوا مع هذا يخلون الطريق أمامى ممسكين بأنوفهم لاعنين ، كأنما كانت تهب عليهم فى تسيارى بينهم رائحـــة الموت الذى يزعجهم ويخيفهم ! ..

ولـــا بلغت المرفأ ، أبى أصحاب القوارب آن ينقلونى عبر النهر الى الجانب الآخر فبقيت حتى جلل الليل صفحة الأفق ، وعندئذ غافلت الأعين الراصدة ، ونقلت على قارب من الغـــاب جثتى أبوى ، ومضيت بهما الى مدينة الموتى ..

ولم اجد فى مدينة الموتى قبرا أوارى فيه الجثتين ، فقد كانت الحراسة القوية المؤزرة تحيط بها من جميع جوانبها واقطارها ، وعبثا حاولت مغافلة الحراس الأشداء الأيقاظ ، وكان على مع ذلك أن أودعهما قبرا ليعيشا بين هذه الكثرة الكاثرة من الموتى ، ناعمين بالهدايا والمنح التى يقدمها اليهم الاغنياء وذوو السعة والكفاية، وانه لأشقى مايشقينى ان يقضى عليهما أيضا بالحرمان مما لا أعـرف أن أحدا قد حرم منه قبلهما فى هذه المدينة الخالدة ، ولهذا حملتهما على كتفى ومضيت بهما فى الصحراء التى حولتها الشمس فى ذلك الوقت نارا تلظى ، وقد أوقرنى الحمل وهد كيانى وكدت اهوى به مجهـدا . ولكننى فى هذا الجو الصارم الشديد القسوة جمعت أطرافى وتماسكت تماسك الذى لا مفر له من ذلك ، ورحت اتلمس الطرق الوعرة التى لا يسـلكها عادة الا اللصوص الفتاكون ، مصعدا الى التلال المهجورة ، وانتهيت الى « وادى الملوك » حيث يرقد الفراعين فى قبورهم المنيفة ، وهو منطقة حـرام يحظر السير فيها ، وكان الليل قد ران بظلماته عليها فزادها رهبـة . وغير بعيد منى كان عواء ابن آوى يتجاوب فى سكون الليل مخيفا مرعبا ، كما كان فحيح حيات الصحراء السامة يتسـاقط على سمعى فى كل خطوة اخطوها ، فكأنما كنت أسمع منه نداء الموت المترصـد ، وكان يخطف بصرى منظر الثعابين السارية من أوكارها زاحفة على الصـخور التى لا تزال متقدة بالحرارة ، ولكن هذا كله لم يفزعنى ، ولم يثبط عزمى فقد كنت اريد ، مصمما ، الا تطلع الشمس من جديد حتى أكون قد اديت واجبى الأخير لأبوى اللذين لم يبق منهما الا هذه الكومة من لحم وعظام ، وان الموت لأهون على نفسى ، أنا الذى ما زلت فى عنفوان الشباب ، من أن أصبح على الحيـاة وفى نفسى حرقة الخجل الممض ، لسوء ماقدمت يداى الآثمتان ، وقد كان هذا الموت يحف بى من كل جانب ، ولكننى فيما يظهر لم أخطر له على بال ، فكنت ارى الحيـات والثعابين تدنو منى ثم تتراجع وتتفرق ! ..

وكان الحمل الثقيل الذى احمله فى هذه الرحلة المخيفة الشاقة خليقـا أن يزهق روحى ، ولكننى بقيت به حيا ، وكان حراس الوادى العتيد يقفون على كل موضع منه كمردة الجان ولكنهم كانوا كأنهم عمى

لا يبصرون وصم لا يسمعون . ولو انهم رأونى وسمعوا قعقعة الصخور تحت قدمي وأنا انحدر الى واديهم ، لكان حتما أن يقتلونى ويلقوا بجثتى الى الذئاب الجائعة .

لقد تخلى عني الموت ، وانا منه جد قريب ، وانداح لى صدر الوادى الرهيب كما لو كنت ضيفا ينزل بساحة مضياف كريم ، وأخذتنى منه روعة العظمة المتجلية على قبور أولئك الملوك الثاوين فيه ، بما لا تقاس به عظمة عروشهم التى كانوا يجلسون عليها أحياء .

وبين قبورهم العظيمة التى كنت أدور عليها متفحصا ، وجدت قبرا تبدو عليه الجدة ، فوقفت به واخترته مثوى لجثة أبوى ، فصاحبه حديث عهد بالموت ، وهداياه كثيرة ، وما فيه من زاد وفير ، وفى معبده تؤدى مراسم الموت بانتظام كأى قبر جديد لملك عظيم . واذن فهو أصلح القبور وأوفاها بحاجة أبوى . ومن ثم أخذت أحفر حفرة فى الرمال بجانب بابه . وفيها دفنت جثتيهما ، وكنت ، وأنا اهيل الرمال عليهما ، أشعر براحة بال ، ذلك لأنهما يرقدأن ، الى الأبد ، الى جوار فرعون العظيم صاحب القبر ، وسينعمان بما يقدم اليه من زاد وهدايا ، وسيرحلان معه من الأرض الغربية على قاربه المقدس ، ويأكلان من خبزه ويشربان من نبيذه . وكان يخيل الى أن « انوبيس » يطل خلال الأفق عليهما ، مرحبا بهما ، متهيئا لمرافقتهما فى رحلة الأبد . وطاب لى هذا الخيال ، وتمثلته حقيقة مبلورة ، ولم أنكر فى نفسي أن تكون نهايتهما هكذا ، فقد كنت واثقا أن الصفاء والنقاء والخير والفضيلة بكل معانيها كانت من أجلى الصفات التى تحليا بها فى حياتهما ، وستكون لهما بها الرجاحة فى ميزان « أوزوريس » ، وزادنى استبشارا وتفاؤلا أننى عندما كنت أهيل الرمال على جثتيهما ، وقع فى يدى فجأة «جعران» من حجر أحمر اللون ، له عينان دقيقتان ركبتا فيه من الجواهر ، وقد نقشت عليه كلمات قدسية ، فكان هذا فى يقينى اشارة الى أن أبوى يرقدان فى طمأنينة وسلام ورضا ، فبكيت تأثرا ، وتناثرت دموعى على الرمال فبللتها ، ولم يغلبنى على تصور هذا المعنى أن الجعران لم يكن فى الواقع الا حلية من الحلى التى أزجيت الى قبر فرعون !..

وكان القمر قد أخذ يتوارى فانحنيت على مثوى أبوى رافعا يدى بالتحية لهما وانقلبت راجعا حتى بلغت شاطىء النيل مجهدا منهوك القوى ، دامى اليدين ، ممزق القدمين ، وفى عينى من رمال الصحراء

غشاوة ، فانتهلت من ماء النيل راويا سعار ظمئى ، وارتميت على الاعشاب كالمغشى عليه من فرط التعب ، واسترسلت فى نوم عميق ...

- ٦ -

وعلى صوت البط الذى اتخذ أكنانه وسط الاعشاب ، استيقظت مع الصباح فى الوقت الذى كان « آمون » يبحر فيه على قاربه الذهبى عبر السماء . ومن الشاطىء البعيد ترامت الى مسمعى ضجة المدينة المستيقظة ، وتراءت قريبا من بصرى سفن النهر جاريات على صفحة الماء تخفق على سواريها القلاع الحمراء ، وتواردت جموع النساء مبكرات كعادتهن على حافة النهر يغسلن الملابس على الألواح الخشبية المعدة لذلك ، أو يملأن جرارهن متضاحكات أو متبادلات الاحاديث التى لا يكتمن فيها سرا خبيئا .

وكانت هذه الصور والمناظر تلوح مع الصباح فى مثل اشراقه لطفا وابتهاجا ، ولكن قلبى كان موصدا دونها ، جامدا لا يتأثر بها ، فما أنا منها فى قليل أو كثير ، وأكبر ظنى فيها انها لا تطلع على الوجود الا ليستمتع بها السعداء الخليون ، الذين لا ترنق صفاء حياتهم الهموم والأرزاء ، ولست منهم ، ولعلها حين تطلع على الاشقياء المنكوبين ، أمثالى ، تسخر منهم ليزدادوا شقاء وعذابا ؟ ..

كان الذى يشغل أفكارى ، وتنفعل له سائر مشاعرى ، اننى بذلت اقصى ما فى طاقتى من جهد للتكفير عن خطيئتى التى لا تعدلها خطيئة فى حياة الناس ، ولا أرانى بعد خليقا بالبقاء فى هذا الوجود الانسانى ، فقد فقدت كل مؤهلاته وخصائصه ، واذا كنت قد استطعت أن أصلح من شأنى مع الآلهة بالتكفير ، فانى أعجز ما أكون عن استرداد مكانى المفقود بين الناس فوق هذه الارض ، فهم لا شك قد عرفوا الآثام التى ترديت فيها ، ولسوف ينبذوننى نبذ النواة ، احتقارا لشأنى ، واستنكارا لعارى ، ثم كيف يمكن أن أبرز لهم على ما أنا فيه من حال زرية ، تجفوها الابصار ، وتعافها النفوس ، فهذه ملابسى صارت مزقا مهلهلة وخرقا بالية كأنها ملابس الأرقاء المستذلين مهدورى الآدمية ، وهذا ظهرى قد ألهبته حرارة الشمس ، الى ما وقره من حمل جثتى أبوى ، فاحترق وانسلخ عنه الجلد ، فأصبح شائها وصرت به كالموبوء الذى يفر الناس من لقائه ، ولا أملك مع هذا شيئا من النقود أشترى به قوتا يعصمنى من الجوع ،

وثمة أمر آخر يمسكنى فى مكانى ويقيدنى فى موضعى ، ذلك أنى اذا ماخطوت متجهـا الى المدينة فسيعترضنى الحراس المنبثون فى ثنايا الطريق ، وسأقع فى قبضتهم لا محالة عندما يعرفون أننى أنا « سنوحى » الآثم الذى تطارده اللعنة ! ..

أخذت هذه الخواطر تتقاذفنى فى عنف وشدة ، ولم أر فيها غير الموت سبيلا الى الخلاص .

وانى لأفكر فى هذا ، اذا بى أحس بحركة تدنو منى ، ثم ألمح خلالها انسانا يلوح كأنه شبح يتراءى فى حلم مزعج ، لقد كان — وهو يقترب منى — مخلوقا مسخا عجيبا ، انفه مثقوب وأذناه مقطوعتان ، ويداه ضخمتان ناتئتا العظام ، وجسمه ، على ضموره وصلابته ، تتناثر عليه أخاديد من بقايا جروح مندملة كأنها آثار حبال مشدودة كان يحمل بها الاثقال .

وتكلم هذا الانسان الذى تصورته شبحا مرعبا ، فقال : ما هـذا الذى تطوى عليه يدك !؟

ودون أن أحرك لسانى مجيبا ، فتحت يدى وأريته الجعران المقدس الذى عثرت عليه فى الرمال بوادى الملوك ، فقال : أعطنيه فقد يؤتينى حظا سعيدا يبدل ما ترانى عليه من قسوة البؤس ..

قلت له : واننى لكذلك بائس فقير ، وليس معى شىء سـواه ، فسأحتفظ به لنفسى كتميمة قد تؤتينى ذلك الحظ السعيد المنشود .. وأنا به أولى ..

قال : خير لك وأنت على تلك الحال من الخواء أن تجد بديلا منه نقودا تقضى بها حاجتك العاجلة ، وانى وان كنت فقيرا لمسـتطيع أن أعوضك عنه بعض النقود الفضية ..

وافتض حزاما كان يتمنطق به وأخرج منه قطعا من هذه النقود ، ولكننى أبيت أن أعطيه الجعران ، اذ أيقنت أخيرا أن فيه سرا جالبـا للسعادة .

فقال مغضبا : كان بوسعى أن أفصل رأسك عن جسدك وأنت تغط فى نومك ، فقد كانت عينى تلحظك من قريب منذ بلغت هذا المكان . وكان يغرينى بك هذا الذى كنت تقبض عليه فى يدك متشبثا به خـلال نومك ، ولكنى آثرت أن أدعك حتى تستيقظ لأسألك كما يفعل الرجل

الشريف ، ولو عرفت انك ستأباه على جاحدا فضلى لحقدت عليك ، وانتزعته منك ، على انى مازلت مستطيعا أن أفعل ..

قلت له : لا أستغرب عليك هذا ، فانت على ما ارى من صورتك الشوهاء المريبة ، مجرم هارب من المحاجر ،ولو أنك قتلتنى لصنعت بى خيرا وحققت لى أمنية اتمناها ، فأنا وحيد فى بؤسى وعذابى . وليس لى مأوى أسكن اليه ، ولا أهـل أتعلق بالحيـاة من أجلهم ، على أنه وقد فاتك ان تفعل هذا فى نومى ، وفى غفلة من العيون ، وفى وحشة الليـل وظلمته ، فانك الآن لا تأمن الافلات من الحراس وهم منا غير بعيد ، وانى لناصحك أن تتركنى لشأنى ناجيا بروحك ، ذلك لانهم ان رأوك فلن يفلتوك ، وسيلهبون جلدك بسياطهم ، ويعلقونك على الجدران من قدميك . واذا أخذتهم بك الرحمة فهم — على الاقل — معيدونك الى المكان الذى اجتويته وكرهت أن تبقى فيه فهربت منه !

قال ساخرا : أغلب الظن أنك غريب عن هذه البلاد ، لا تعرف شيئا من اخبارها وأحوالها ، فقل لى يا هذا : من اى بلد جئت ؟! الا فاعلم اننى لا أخشى الحراس الذين تروعنى بهم ، فلقد أصبحت حرا كما أصبح الارقاء احرارا ، ومن حقى أن ادخل المدينة من أى أبوابها شئت ، ولا شىء يمنعنى من ذلك سوى وجهى الذى تراه ، فانى لأخشى أن أزعج به الاطفال ! ..

فقلت متعجبا : كيف يصبح المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة حرا طليقا ؟! هذا مالا أتصوره فضلا عن أن أصدقه !..

قال : الم اقل لك انك غريب عن هذه البلاد ؟! فلو كنت من أهلها لعرفت ان ولى العهد عندمااعتلى العرش ووضع على رأسه تاج المملكتين العليا والسفلى ، أصدر مرسوما بفك كل القيود وتحطيمهـــا ، وعتق الارقاء الذين يعملون مسخرين أو محكوما عليهم فى المحاجر والمناجم ، فأصبحوا بذلك احرارا طلقاء ، والذين بقوا منهم فى العمل هناك أصبحوا يؤجرون على عملهم !..

ثم ضحك واستطرد يقول : وكثير من الرفاق طاب لهم المقام وسط الاعشاب حيث يطعمون اشهى الاطعمة وأسخاها ، توافيهم متتابعة وهى فى سبيلها الى الاثرياء بمدينة الموتى . وقد اتخذت مكانى بين هؤلاء الرفاق ولا ارضى عنه بديلا ، وما يستطيع الحراس أن يعترضوا طريقنا

فانهم ليعلمون من شدة بأسنا ما يخيفهم فنحن لا نخاف أحدا · حتى الآلهة . .

ولأول مرة عرفت ، من حديث هـــذا المخلوق العجيب ، أن ولى العهــد ارتقى العرش تحــت اسم « أمنحوتب الرابع » وأنه حرر الأرقاء واطلق سراح المسجونين ولا ريب فى أن المناجم الواقعة فى الصحراء الشرقية قد أصبحت خالية من عمالها ، ولابد أن تكون الحال كذلك فى شبه جزيرة سيناء ، فليس يوجد من يرضى بالعمل فى المناجم مختارا وبمحض ارادته !..

ثم قال هذا العامل ان الملكة المقربة الصغيرة هى اميرة « ميتانى » التى لا تزال تقضى وقتها لاهية بلعب الاطفال ، وان فرعون الجديد يتبع الآن ، على الجهر ، الها جديدا · وهو ، كما يقول العامل ، اله عجيب فى الآلهة ، نظهر أفعاله الغريبة فى تصرفات « فرعون » الشاذة التى تبدو كأنها تصرفات مجانين · فاللصوص والقتلة الذين أطلقهم وفك اسارهم، يجوسون احرارا خلال الديار بالمملكتين العليا والسفلى وقد تعطلت حركة الانتاج بالمناجم بسبب هجرة العمال منهـــا بمجرد تقرير حريتهم ·· وقال : والحرية فى ذاتها أمر محبب ، ومبدأ انسانى مقدس ، ولكنها فى اطلاقها غير مأمونة الضرر ، فهى لا تعطى الا بحقها ، ولا ترسل هكذا جزافا ، ولقد احسن « فرعون » حينما أباحها لمن حرموا منهـــا ظلما ، ولكنها تحسب عليه سيئةحينما يساوى بهم فيها المجرمين العابثين بالأمن والخارجين على القوانين ، فهؤلاء الأشرار لا يمتنع أذاهم فى الناس الا اذا قيدت حريتهم ، وعزلوا عزل الموبوءين عن الاصحاء · وقد أعطيت بهذه الحرية حقى ، اذ قد هدروا انســـانيتى عندما قذفوا بى الى المناجم مسخرا مظلوما ، يعتصرون فيها بدنى اعتصارا بلا أجر ومن غير جزاء، وهذه محمدة لفرعون اقدرها له ، ويقدرها له أمثـــالى المســخرون المظلومون ، ولكن ما شأن المئات والالوف من أولئك المجرمين الاشرار الذين حطم قيودهم وأزال الحواجز القـــائمة بينهم وبين المجتمـــع ؟! انهم بلا شك عائدون الى اجرامهم ليفسدوا الحياة على الناس .

على انه مهما يكن من أمر ، فهذه مشيئة « فرعون » ، وهو المسئول عنها ، أليس كذلك ؟! .

قال هذا وهو ينظر الى نظرة المطمئن الى أنى أطابقــه على رأيه ، وقد استرعى نظره خلال ذلك ما يغمرنى من مظاهر الالم والاعياء ، فقال

لى فى لهجة الرائى لحالى المشفق على شبابى : ان جلدك هـــذا المتسلخ قد آذته الشمس بلفحها المتوقد ، وان معى لزيتا يمكننى أن أصلحه به ! ولم ينتظر أن اجيبه الى ذلك ، فأخرج من ملابســه قارورة الزيت ، واخذ يدلك بها ساقى وذراعى وظهرى ، وكان ، وهو يفعل ذلك ، يردد عبارات مختلفة سمعت منها قوله : لست أدرى ـ بحق « آمون » ـ لماذا اصنع هذا لك ، أنا الذى لم أجد قط من يرحمنى عندما كان جسمى تندلع فيه السياط وتتهاوى عليه العصى الغلاظ ، وتنفجر منه الدماء ، وتدمى به الجراح والقروح ! • ان احدا لم يكن عنـد ذاك يحفل بى أو تخفق به عاطفة الشفقة على ، فأظل مهملا كأنى سائمــة من السوائم ، او قطعة من حجر تافه . وما أكثر ما كنت ألعن الآلهة لانها تخلت عنى، وأسلمتنى الى وحوش مفترسة لها أشكال الآدميين ..

وانست بالرجل لعطفه الذى يبدو غير متكلف ، وكنت أول الامر قد اجتويته مستريبا فى دعوى براءته ، فالأرقاء والأثمة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة كثيرا مايزيفون الحقائق وينحلون انفسهم البراءة من الآثام التى قارفوها وعوقبوا عليها ، مدفوعين الى ذلك بدافع من مركب النقص بطبيعتهم ، وبدافع الرغبة فى تحويل رأى الناس فيهم وكسب مافقدوه من الثقة بهم ، ولكنى شعرت انه اقرب الى الصدق منــه الى الكذب ، وأدنى الى البراءة منه الى الاثم ، فتطامنت له ورأيته من الخير على أية حال ان أوافقه على دعواه ، وأبادله عطفا بعطف ، فكلانا شقى معذب، ثم انى لأرانى أثقل اجراما ، وأفدح خطيئة واثما من أولئك الذين حوكموا على خطاياهم وآثامهم ، فهنالك اذن آصرة تجمعنى اليه ، وتربطنى به ، وهنالك ماهو أكثر من هذا ، هو أنى وحيد فى هذا المكان الذى لاأعرف كيف أريم عنه ولو أننى نافرت هذا الانسان الطارىء وأبيت صحبته ، فسيتركنى لوحدتى التى تنهشنى نهش الضوارى ، ولهذا رأيت أن أصانعه وأتجمل له ، فقلت متلطفا : لقد أثرت شعورى بحديثك أيهـــا الرفيق الكريم ، فنبئنى بتفصيل ما وقع عليك من ظلم لعلى استطيع ان أشاركك فى بلائك به ..

قال : انها قصة طويلة ولكن لاضير عليك فى ان تعرفها كلها . فهى قصة الصراع المحتدم بين الحق والباطل ، الثائر دائما بين العدل والظلم • كنت من قبل حرا املك أرضا افلحها واعيش ناعما بثمارها ، واملك معها ماشية أتوفر بها فى عملى ورزقى • وكان لى فى هذه الأرض كوخ اسكن اليه أنا وزوجتى وأولادى ، وترفرف علينا فيه أجنحة الســعادة

والرغد ، ولكن هذه الحياة الصافية الوادعة ، قد شاءت الأقدار أن تغشيها بالأكدار والهموم ، فرمتنا بجار سوء من ذوى الثراء العريض والنفوذ المتفاقم يدعى « انوكيس » ..

كان هذا الجار يملك رقاعا من الأرض تندح وتتسع حتى لاتبلغ العين آخر مداها ، وكانت الانعام والسوائم التى يملكها بهذه الارض فى مثل رمال الصحراء ، كثرة عدد ، ولكنه مع ذلك كان شرها لايقنع ، جائعا لا يشبع ، وقد وضع عينه على أرضى ذات الرقعة الضيقة محاولا أن يضيفها الى أرضه الواسعة الأقطار ، المترامية الأطراف ، وكان كلما رآنى متشبثا بها حريصا عليها ، ازداد امعانا فى محاولاته ، واستطاع ان يغلبنى عليها عن طريق مساحى الأرض الذين يفدون علينا فى أعقاب كل فيضان ليقيسوا الأرض ويوضحوا معالمها من جديد ! .. فهؤلاء الذين اشترى ذممهم بالرشوة والهدايا الكثيرة ، كانوا يتقدمون بأحجار التحديد فى أرضى توسيعا لحدود ارضه ، على اشارته وهواه ، فاذا احتججت واعترضت أولونى دبر آذانهم ، وعلى مرور الزمن تلاشت أرضى فى أرضه كما تتلاشى السمكة الصغيرة فى جوف الحوت ، فأصبحت وليس لى منها الا الكوخ الذى صار كالأثر الحائل فى عالم الذكريات ، وكان من الممكن ان أعيش فيه بلا أرض أملكها كما يعيش الأرقاء والعمال الأجراء الذين يعملون فى أرض ذلك الغنى الكبير ، بل كان من الممكن ان اكون عنده أحظى مكانا وأيسر رزقا ، لو أننى طاوعت شهوته الصارخة التى كان يتعقب بها ابنتى الجميلة !..

لقد كنت وقتئذ ابا لخمسة من البنين وثلاث من البنات ، وكانوا قبل أن تنزل بنا كارثة ذلك الجار الغنى الطامع ، عدتى فى حياتى ، وأعوانى فى عملى ، ومبعث غبطتى ومناط أملى ، وقد نقصوا واحدا ، اختطفه صغيرا تاجر سورى ، فأسيت عليه ، ولكنى تعزيت عنه بأخوته ، وهكذا الفقراء يكثر نسلهم فلا يضيقون ذرعا بكثرة الأبناء ، اذ يجدون فيهم أعوانا على العمل ، وأسبابا توثق صلتهم بالحياة ، فاذا فقدوا منهم وجها وجدوا فى وجوه الباقين نضرة العزاء . وقد كانت ابنتى الصغرى ذات حظ وافر من الجمال ، ولفرط اعجابى بها حجزتها عن الحقل وعن حرارة الشمس حتى تنمو زهرتها وتتفتح براعمها فى الظل الوارف ، وكانت فعلا تزداد على الايام ازدهارا وجمالا ، ولو انى اطلعت على الغيب لبدلت جمالها قبحا ودمامة ، حتى تزور عنها عين جارنا الغنى الذى رآها فاستملحها واشتهاها ، وراح يلاحقها ملاحقة الذئب للشاة ، وقد أنكرت عليه ذلك حين صارحنى برغبته فيها ، فعرض على أن يترك لى أرضى ، ويوسع لى

فى رزقى ، ان حققت له رغبته ، فأبيت معتزا بكرامتى ، ذلك لأنى كنت أعد ابنتى لرجل من طبقتنا ، يتزوج منها زواج الشرف ، لازواج المتعة ، وأتخذ منه عضوا جديدا فى أسرتى ، يعاوننى معاونة الابن لأبيه ، لا معاونة السيد لخادمه !..

واستغل « انوكيس » جارنا الغنى المتجبر ، ضعفى وفقرى والمصير التعس الذى صرت اليه بعد اغتصابه أرضى ، ومورد رزقى ، فلج فى مضايقتى واعناتى لأستجيب له مكرها ، فلما استعصيت عليه سلط على خدمه وأرقاءه ، فنابذونى وقاتلونى ، فواجهتهم دفاعا عن نفسى وضربت أحدهم ضربة قضت على حيـــاته ، فاهتاجهم هذا وتكاثروا على فجدعوا أنفى وقطعوا أذنى على ما تراه ماثلا فى وجهى ، ومن ثم ، وبقوة نفوذ سيدهم ، نفيت الى المناجم ، وبيعت زوجتى وأولادى رقيقا ، واحتفظ هذا السيد الظالم « انوكيس » بابنتى الصغرى التى هام بها ، حتى اذا ما أطفأ بين أحضانها سعير شهوته ألقاها الى أحد خدمه ..

وقد ظللت بمنفاى عشرة أعوام معذبا خلالها بالعمل الشاق ، الى مرارة الشعور بالظلم ، فلما تحررت بأمر الملك أسرعت الى موطنى مشوقا غاية الشوق الى أهلى ، ولكننى لم أجد أحدا منهم كما لم أجد أثرا للكوخ الذى كان يجمع شملهم ، وأقبلت ابنتى الصغرى التى كانت سبب شقائى، فلاقتنى فى غير مبالاة والقت على قدمى مياها ساخنة ، ثم عادت من حيث اتت . وهناك علمت أن « انوكيس » قد مات ودفن بقبره بمدينة الموتى وأن قبره يمتاز عن القبور بكتابة مطولة نقشت على بابه ، فشخصت الى « طيبة » لأدلف منها الى مدينة الموتى باحثا عن قبره لأرى ماذا كتب عليه، وقد عثرت على القبر ورأيت على بابه الكتابة المنقوشة التى انبثت بها ، ولكنى لم أجد من يقرؤها ، فانى لا أعرف القراءة ! ..

هذه قصتى ، أعنى مأساتى ، ولم يبق منها الا أن أعرف ماذا رأى أن يسجله هذا الظالم على باب قبره ؟ ! ..

قلت له : اذا شئت فانى لمرافقك الى هناك لأقرأ لك ..

فاغتبط لهذا وشكرنى عليه وقال : الحق أن أقصى ما أتمناه قبل أن أموت ، هو أن أستبين ما أودعه فى ثنايا نقوش قبره ، ولعله وقد ذهب عن هذه الدنيا يقرر أمورا تتصل بضحايا جشعه وشهواته ! ..

واخذنا سبيلنا الى مدينة الموتى ، فبلغناها دون أن يعترضنا أحد من حراس الطريق وبعد جولة صغيرة فى انحائها انتهينا الى قبر كبير

وجدنا على مدخله لحوما والوانا مختلفات من الكعك والفاكهة والزهور ، كما وجدنا الى جانبها جرة مقفلة مملوءة بالنبيذ ، فانكب الرجل على هذا الطعام والشراب يلتهم ويعب ، ويقدم لى من هذا وذاك لأواكله وأشاربه ثم أشار الى واجهة القبر لأقرأ له ، فتأملتها واستنطقت الكلمات المنقوشة عليها وقرأتها عليه هكذا :

« أقرر أنا « أنوكيس » أننى عنيت فى حياتى بزرع الحبوب وأشجار الفاكهة ، وكانت عنايتى بذلك تنتج المحاصيل الوافرة التى قلما يؤتاها غيرى من الزراع ، وذلك بفضل الآلهة وبركاتها التى كانت لا تتخلى عنى أبدا ، فقد كنت إخشاها وابذل فى سبيل مرضاتها خمس هذه المحاصيل، وكان النيل يحبونى بالخير المستفيض المتصل كفاء ما كنت اسخو به على العاملين بأرضى ، بارا بهم ، موفيا كل حاجاتهم ، وكانت معاملتى لجيرانى مشربة بالكرم والمحبة والعطف ، فكنت أعينهم على مد مياه الرى الى اراضيهم ، واذا نزل بهم القحط فى بعض السنين العجاف منحتهم الحبوب ليأكلوا حتى يشبعوا ، وكم رفهت عن اليتامى وخففت من همومهم وكفكفت دموعهم ، وكم ترفقت بالأرامل من النساء متجاوزا لهن عن ديون أزواجهن ، فكانت السنتهم دائما تترطب بالثنـــاء على والدعاء بالخير لى ، وما أكثر ما كنت اعطى الذين نفقت ثيرانهم ثيرانا غيرها من حر مالى ، ولم احاول مرة ان أستخدم نفوذى وقدرتى فى ادخال اى جزء من أرض جيرانى الى أرضى ، بل لقد كنت جد حريص على أن تبقى علامات الحدود ثابتة فى مواضعها بينى وبينهم ، فكذلك كنت ماضيا معهم على جادة الاستقامة ، متحريا العدل والرحمة والعفة والنزاهة فى سائر علاقاتى بالناس جميعا ، ولقد فعلت هذا كله أنا « أنوكيس جاريا على طبيعتى المسماحة ، داخلا به فى رحمة الآلهة ، لتنير طريق رحلتى الى الارض الغربية ٠ »

وكان رفيقى ، مجدوع الأنف ، يستمع لهــذه الكلمات فى اصغاء يخالطه التأثر ، فلما انتهيت من تلاوتها ، قال وعينه تشرق بالدمع : الحق أن « أنوكيس » كان التقى الصادق فى حياته ، وانه لكذلك فى مماته ، وليس لمثلى الا أن يؤمن بهذا ، وسيقرأ الناس هذه الصفحة من تاريخه ، جيلا بعد جيل ، وطبقة فى اثر طبقة ، فيذكرونه فى احترام ، ويتخذون منه مثلا للانسان الكريم الذى عاش ندى الكف ، بارا بالفقراء عطوفا عليهم ! ٠٠ وهكذا الأغنياء من أمثاله، لا يتخلى عنهم المجد والتكريم أحياء وأمواتا !٠٠ وما أنا بالقيـــاس اليه الا المخلوق البائس الشرير ، أضطرب بين الناس بالأنف المجدوع والأذن المقطوعة مجفوا منهم ، محتقرا

فى أعينهم ، يجللنى الخجل من ملاقاتهم ؛ فاذا أدركنى الموت القوا بى الى النهر كما لو كنت حشرة قذرة ، ولا يكاد اسمى يذكر على لسان احد ، فقد عشت منسيا ثم نقلنى الموت الى واد من النسيان سحيق، فحياتى وموتى سواء فى ذلك ! .. الا ترى يارفيقى أن كل ما فى هذه الدنيا عبث وباطل ؟!..

وتناول جرة النبيذ وراح يجرع منها . وهنا أقبل احد الرقباء فضربه بعصاه ، فالتفت اليه وقال : كان « أنوكيس » كريما وطالما أسدى الى الخير فى حياته ، ولهذا فانى أتناول الطعام والشراب على قبره تمجيدا لذكراه العزيزة فى نفسى ، فارفع ، أيها الحارس ، يدك عنى ، ولا تمس رفيقى هذا بأذى ، فانه رجل يمتاز بالعلم والثقافة ، فان أنت لم تفعل ، فاعلم أن من خلفنا رفاقا أشداء يحملون الخناجر المسنونة المتعطشة للدماء ، ومن اليسير علينا أن نعود اليك جماعة فى الليل ، فنذبحك ذبح الشاة !..

وبدا على المراقب شيء من الوجل لهذه الكلمات ، يتهدده بها ذلك المخلوق المخيف ، فأجال بصره يمينا ويسارا ثم مضى لطيته دون أن يعقب .

وبقينا ، انا ورفيقى ، نأكل الطعام ونشرب النبيذ تحت ظل السقيفة القائمة بين يدى قبر « أنوكيس » ، وبعد قليل اخذ يتحدث قائلا : ألم يكن من حسن الرأى أن أستجيب الى رغبة « أنوكيس » فأعطيه ابنتى راضيا ؟ ان ذلك ، لو فعلته ، كان خليقا أن يحمله على أن يدع لى كوخى ويظفرنى منه بالهدايا ، فقد كانت عذراء دافقة الصبا والجمال ، وكان الارجح أن تهيىء لى عنده حظوة ومكانا دانيا ، فماذا أجدى على تمنعى وابائى ؟! لقد نالها منى قسرا ورمى بها ، نكالا بى ، الى خدمه ، فأصبحت امرأة لا قيمة لها ؛ واصبحت أنا العاجز الشرير المنفى من الارض ، الشائه الخلقة ، المسلوب الحق فى الحياة ، حتى بعد أن تقررت الحرية للجميع ! .. فها أنت ذا ترى ، يا رفيقى ، أن الحق فى دنيانا ، لا مكان له الا فى رحاب الاقوياء والاثرياء ، وصوت الفقير بعيد ، بعيد ، حتى عن سمع « فرعون » !..

ورفع جرة النبيذ الى فمه قائلا : تحية لذكراك أيها العادل المقسط « أنوكيس » ! .. وليبق جسمك محفوظا الى الابد ... ولك إن تطمئن، فما اريد ان أتبعك الى الارض الغربية ، فمن حقك أن تحيا كأمثالك فى دعة ورغد ، وفى صفاء غير مشوب ، ممتعا برضوان من الآلهة ، ولقد

اسلفت الخير للناس في حياتك الاولى ، على ما شئت أن تسجله على باب قبرك ، واني لمصدقك ، وما أراك الا ماضيا على هذا المنهج الكريم في حياتك الثانية ، ولهذا فسيرضيك أن نقاسمك كئوسك الذهبية ومجوهراتك الثمينة التي ترقد في القبر الى جوارك • واقتناعا بكرمك وسخائك سآتيك زائرا في هذا المساء ، عندما يتحجب وجه القمر بالسحاب !..

وفهمت ماذا يعني ، فقلت له ، راسما علامة الصلاة لآمون : انك لتتقدم على أمر خطير ، وليس شيء هو أبغض الى الآلهة والناس وأدعى الى غضبهم ونقمتهم من جريمة السطو على قبور الموتى ••

قال ، وقد بدت عليه رعدة المحموم لكثرة ما جرع من النبيذ : يمكنك أن تعالج أمورك الخاصة بطريقتك المثلى المهذبة التي يرضاها الآلهة والناس ، ولكنني لا أستطيع الا أن أجرى على الطريقة الأخرى التي اقامني عليها هؤلاء أنفسهم ، وما احسبهم سيغضبون ، فهكذا شاءوا أن أكون ! .. والا فقيم جعلوا هذا الظالم « انوكيس » رجلا عظيما، وجعلوا مني ، انا المظلوم ، شقيا تعسا ، موسوما بالشر والجريمة ؟!.. لقد ذهب عن هذه الدنيا وفي عنقه دين لي ، دين كبير ، أفليس من حقي أن اقتضيه منه ؟! ولئن كنت ترى في الوسيلة التي اخترتها لذلك عملا غير شريف ، فهل أنت مخبري عن شرف الوسيلة التي سلب بها حياتي ومالي وكرامتي؟!•• ألا فاعلم انني مسترد ديني منه الليلة على أية حال، فان حاولت مدافعتي عن ذلك حطمت رأسك ، وخير لي ولك ، ونحن في الشقاء صنوان ، أن تعينني على هذا ، فأربع عيون ترى أكثر مما ترى عينان ، وأربع أيد تفعل أكثر مما تفعل يدان ، ومن الحماقة أن نترك ذخائر هذا القبر عندما يكون استيلاؤنا عليها ممكنا ، فليس هناك من هو أولى بها منا •••

قلت له في خوف : كلا ، لا أريد أن أصبح معلقا على الحائط ، ورأسي مدلى الى أسفل والسياط تلهب بدني .. ان الموت لا يفزعني قدر ما يفزعني أن يراني الناس مصلوبا بهذه الصورة على الحائط ، فيشيرون الى بأصابعهم قائلين : انه « سنوحي » .. لقد صار لص مقابر !..

ولكن الظروف جرت في تلك الليلة على هوى رفيقي مجدوع الانف، فقد رأينا جمعا من الجنود يهبطون في القوارب التي حملتهم من المدينة

الى وادى الموتى ، ثم ينحدرون الى المقـــابر فيدورون عليهـــا ويشربون الانبذة التى كانوا يجدونها موفورة بين الهدايا المقدمة للموتى ، فما ان تهيجهم الخمـــر حتى ينهالوا على القبور يحطمون أبوابها وينتهبون ما فيها ، واختلطنا بهم فلم ينكرونا ، ولم نجد عندئذ من يعترضنا حينما فعلنــــا مثل فعلتهم بقبر « أنوكيس » ، حيث استولينـــا على الكئوس الذهبية ، وعلى ما لايقل قيمة عنها من أشياء أخرى ..

وكان هؤلاء بعض جنود « فرعون » ، لم ينالوا الأعطيات التى جرت العادة بها عقب كل تتويج ، فأسخطهم هذا ، واندفعوا غضبا ينهبون القبور التى كان من واجبهم أن يحافظوا عليها ..

وفى مطلع الفجر كان على شاطىء النهر عدد غير قليـــل من التجار الســـوريين يترصدون هذه الاســـلاب ليشتروها وينقلوها على سفنهم ويبحروا بها . وقد اشتروا منا ما حملناه من قبر « أنوكيس » بمائتى دبن (أى سبعمائة أوقية) من الذهب والفضة ، وكان هذا ثمنا بخسا ، بالنسبة لما تساويه الأشياء المشتراة ، ولكننا رضينا به واقتسمناه . وقد فرح مجدوع الأنف بنصيبه فرحا شديدا وقال : منذ الآن أعتبر نفسى فى عداد الاغنياء ، والواقع انه لعمل ســـهل موفور الربح والفـــائدة ، وسيريحنى من حمل الاثقال ، أو من عناء العمل فى زراعة الارض ، فلن أكون بعد اليوم حمالا بالميناء ، أو زارعا فى الحقـــل ، أو ضحية جبار طاغية ! ..

وقلت مستدركا : ولكن لا تنس أن العرق ينزع ، وأن جرة المـــاء تسعى الى البئر ...

وقد عنيت بهذا أن طبيعة الانسان تتحكم فى تصرفاته ، مهما تختلف ظروفه ..

ثم افترقنا على ذلك ، وعبرت النهر الى «طيبة» على أحد الزوارق ، فاشتريت ملابس جديدة ، وذهبت عنى «رائحة الموت» التى كانت عالقة بملابسى القديمة الرثة ، ومن ثم اختلطت بالناس ، فلم يبق ما يريبهم منى ، وعرجت على احدى الحانات فتناولت طعاما وشربت نبيذا ، بينما كنت ، وكان أهل المدينة ، نسمع جلبة القوات والعربات الحربية تمضى الى مدينة الموتى ، لاقتفاء أثر اللصوص الذين سطوا بليل على القبور فسرقوها . وقد رأينا فى المساء أجساما كثيرة معلقة على حائط التعذيب ، فتنفست الصعداء ، اذ قدر لى أن أنجو من هذا المصير التعس .

قضيت ليلتي الاولى بأحد الفنادق . وفي الصباح قصدت الى المنزل الذى كنت صاحبه يوما ما ، فهتفت « بكابتاح » الذى أقبل مسرعا ، وكان وجهه مربدا ، فارتمى على قدمي وهو يبكي وقال : ما أعظم فرحي اذ أراك تعود وكنت أحسبك فى عداد الموتى ، فلقد طالت غيبتك حتى قلت لنفسى، لو كان حيا لما تخلف عني ليأخذ نقودا ، فما أعرف أنك بعد الذى كان ، تجد انسانا مخلصا سواى يمدك بما تحتـــاج اليه ، وقد أعددت النقود وظللت أنتظر عودتك ، وفى ســـبيل اعدادها أسرفت فى سرقة سيدى الجديد ، وكلفنى هذا كثيرا من العذاب ، فلا ينقضى يوم دون أن أتلقى من هذا السيد ومن أمه ، الضربات الموجعة . وقد أقسمت هذه الام ، التى تشبه التمساح العجوز ، لتبيعننى الى من يسومنى سوء العذاب ، وانى من ذلك لفى فزع شديد ، ولا أرى غير الهرب طريقـــا للخلاص . فهيا ياسيدى ، نهرب معا ، فرارا من هـــذا الشر الذى تفاقم فى حياتنـــا واستشرى !..

وهززت رأسى مترددا ، فقال : لا تخش شيئا ، فلقد جمعت مبلغـــا كبيرا من المال ، وهو يفى بحاجاتنا وقتا طويلا ، فاذا نفد قبل أن نجد موردا فسأعمل من أجلك ولا أدع الحياة تشق عليك .

قلت له : ما جئت لهذا يا «كابتاح» ، وانما جئت لأفى لك دينك ، فعندى الآن من المال عشرات الاضعاف لما أعطيتنيه فى عسرتى الشديدة . وفى استطاعتى ، ان شئت ، أن أشـــترى حريتك من سيدك بأى ثمن ، لتذهب طليقا الى أى وجه تشاء .

قال : ولكنك اذا حررتنى لتطلقنى للحياة بعيدا عنك ، فقد لا أجد موضعا من الارض يطيب مقامى فيه منفردا ، فما الخير فى أن تدفع المال لتهب لى حرية لا أنتفع بها ؟! .. اننى فى بعدى عنك ياسيدى أصبح كالهرة العمياء ، أو الحمل الصغير الذى تركه القطيع منبوذا فى الصحراء .

ثم أغمض عينه الواحدة نصف اغماضة ، مستوحيا حيلته ومكره ، وقال : لا شىء غير أن نهرب معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمشكلة ، وقد علمت أن سفينة كبيرة تستعد الآن للرحيل الى «أزمير» ، وفى وسعنا ، بقليل من المجازفة والجرأة ، أن نبحر عليها . ويمكننا أن نتسلف النجاة من الاخطار ، بتقديم القرابين الى الآلهة ، لندخل فى حمايتها .

وهنا تذكرت « الجعران » المقدس الذى أحمله ، فأخرجته وقدمته الى

« كابتاح » قائلا له : هذا اله موفور القـــوة ، على ضآلة حجمـــه ، ومن خصائصه القدسية دفع الضرر عن حامله ، واجتلاب الحظ السعيد له ، فخذه واحفظه ٠٠ وانى لموافقك على الرحيل ، فالواقع اننى لم أعد أطيق النظر فى وجه أى مخلوق فى « طيبة » أو فى أى مكان غـيرها بمصر ، فلنرحل اذن ، ولتكن رحلتنا الى غير مآب ، ولا يشغلنك أمر المال ، فأن معى ذخيرة حسنة ٠

قال « كابتاح » : هذا حسن ، ولكن لماذا تكون رحلة الى غير مآب؟! ان احدا لا يعلم ما سيأتى به الغد ، ولسنت يائسا مثلك من العودة الى هذا الوطن ، بل اننا لا نستطيع أن نعيش الى آخر العمر بعيدين عن النيل ، فان أى انسان شرب مرة من مائه السلسبيل لا يمكنه أن يروى ظمأه بماء أى نهر آخر ! ٠٠ وما هجرتنا الآن الا وسيلة تقتضيها ظروف عارضة ، وتفرضها علينا حاجتنا الى الاختفاء عن الناس بعض الوقت ٠ واذا كنت قد ترديت فى آثام يخجلك تذكرها ويستحييك أن تظهر موسوما بها ، فأنت ماتزال شابا ، والزمن كفيل بنسيان كل شىء ، وما عمل الانسان الا كحجر يلقى فى بحيرة واسعة يحدث بها أول الامر تموجات صغيرة ، لا تلبث أن تتلاشى فى غمر المـــاء ، وتعود البحيرة كما كانت هادئة كأن شيئا لم يقع ٠ وكذلك الناس ، ما أسرع ماينسون !٠ ولهذا ثق أنك عندما تعود من هجرتك فلن يذكر الناس ما كان من سيئاتك ، وانما سيقولون ، معجبين ، انك المصرى الجرىء البارع الذى استطاع أن يرحل الى أوطان اخرى ، ويعيش بين أقوام آخرين ، ثم يعـــود الى وطنه موفور القـــوة واليسار ٠٠

قلت له : حسبك ثرثرة ، لقد يبس ما بينى وبين النـــاس هنا ، وسواء ذكرونى بالشر أو بالخير ، فان ثمة حقيقة سأذكرها دائما هى أننى قد لقيت منهم مايزهدنى الى الابد فيهم ٠٠ لقد صممت على الرحيل الى غير عودة ٠٠

وقبل أن يعقب « كابتاح » ، مثرثرا كعـــادته ، على قولى ، نادته سيدته بصوتها الذى يشبه زئير اللبؤة ، فهرول اليهـــا ، وتواريت عن عينها منتظرا عودته ٠ وبعد قليل أقبل حاملا سلة وفى يده نقود نحاسية، وقال لى فى ابتهاج : ان أم التماسيح كلها أمرتنى بشراء أشياء من السوق وأعطتنى هذه النقود ، وهى قليلة ولكنها على أى حال ستنفعنا فى رحلتنا الى « أزمير » التى لا أعتقد انها تقع بعيدا من هنا ٠

وكان « كابتاح » قد دس في السلة ملابسه وطاقية شعره ، فلما بلغنا الشاطىء انتحى جانبا بين الأعشاب فارتداها ، مستبدلا بها ملابسه الاخرى ، وحمل فى يده عصا انيقة كالتي يحملها الخدم فى المنـــازل الكبرى ، وكنت قد اشتريتها له خاصة امعانا فى التنكر ، ومضينا بعـد ذلك الى الميناء حيث مرسى السفن السورية ، فوجدنا هناك واحدة من ذوات الحمولة الكبيرة متعددة القلاع ، ومن فوقها يمتد حبل غليظ يصل مقدمتها بمؤخرتها وتعطى به اشـــارة الرحيل من أعلى الصارى ، وكان ربانها سوريا ، وفى خلقه الطيبة والسماحة ، فلم يغلظ لنا أو يشتط فى استكناه أمرنا ، بل تلقانا مرحبا ، على خلاف ما كان يقع فى وهمنا ، وقد سره أن يسمع اننى طبيب ، فكثيرون من بحارته مرضى ، وهو يثق بالطب المصرى ويقدره أحسن التقدير ، ولهذا أجاز لنا الابحار على سفينته دون أن يتقاضانا أجرا ، وكان ذلك ، فى رأينا ، علامة من علامات البركة التى أضفاها علينا « الجعران » المقدس ، وقد بالغ «كابتاح» فى تقديسه كاله ، فهو فى كل يوم يدهنه بالزيت ويجففه بقطعة من نسيج مطهر ·

ومخرت السفينة بنا عباب النيل ، وبحارتها يعملون مجاديفهم فى الماء ناشطين ، فبلغت حدود المملكتين بعد ثمانية عشر يوما ، وقطعت دلتا النيل فى ثمانية عشر يوما أخرى ثم خلصت بعد يومين الى حوض البحر الكبير · وهنالك انداحت أمام عيوننا صفحة الماء ، فلم يلح لنا فى أية ناحية منها أثر لشاطىء آخر ··

وعندما اندفعت السفينة فى تيار هذا الخضم الهائل ، الذى لاترى العين له برا ولا ساحلا ، أخذت تضطرب اضطرابا شديدا فى مصطخب الامواج ، وانعكاس اتجاهات الرياح ، واختلافها فى أحوال المد والجزر شدة ورخاء · وقد أزعج هـذا « كابتـاح » ، فاصفر لون وجهه واعتراه ما لا عهد له به ، فتعلق بالحبل الكبير ، وقال وهو يئن ويتلوى ، ان معدته فيما يحس قد طفرت من مكانهـــا وارتفعت الى أذنيه وانه يواجه الموت المحقق · وكنت أول الامر أنظر اليه ساخرا ، ولكننى أخذت أشعر مثل شعوره ، وأحس كأنى قد أصبت بما قد أصابه ، وكلما مددت بصرى الى البحر ورأيت السفينة تتراقص وسط أمواجه المتراكمة كالجبـــال ، ووسط أعاصيره العتيدة التى لو تلاطمت على اليابسة مثل تلاطمها على البحر ، لسقطت مدن ، وتهاوت حصون وقلاع · كلما رأيت هذا ، تفاقم الخوف فى قلبى ، واسود الافق الازرق فى عينى ، وزاد خوفى وقلقى حينما رأيت « كابتاح » يدفع ، بغـير ارادة ولا شعور ، ما فى جوفه ، ثم

يسقط على ظهر السفينة أعياء وضعفا • وكذلك كانت حال الكثير من راكبي السفينة ، فقد رأيتهم أيضـــا يقذفون ما في أجوافهم ، وتكتسو وجوههم صفرة الموت ، ويتساقطون في أماكنهم تساقط أوراق الشجر في الخريف • وعندئذ أسرعت الى ربان السفينة لأقول له ان الآلهة صبت لعنتها على سفينته فنشرت الوباء على ظهرها ، ولا أجدني ، وأنا الطبيب الماهر ، قادرا على مقاومة هذا الوباء ، فلم يبق الا أن يرتد بالسفينة الى الشاطىء ان كان ثمة سبيل الى ذلك ، والا فانني ـ كطبيب ـ غير مسئول عن النتائج !••

غير أن الربان أجابني في هدوء واطمئنان بأنه لا شيء فيما أرى يدعو الى الخوف ، فتلك حال تعرض عادة في مستهل رحلات البحر ثم لا تلبث أن تزول ، وأرسل بصره الى الافق واستطرد يقـــول ان الريح مواتية ، والرحلة على طول طريقها ستكون هادئة مريحة ، ولا ينبغي أن نذكر لعنة الآلهة في مقام الثناء عليها اذ هي ترعانا ولا تلعننا ، وأمسك الرجل بذقنه مقسما بها أنه ما من راكب في سفينته الا وهو بالغ نهاية الرحلة ، وواطىء بقدمه الارض التي يقصد اليهـا ، في مثل خفة الغزال نشاطا ورشاقة وعافية !••

وفي تحفظ كبير استمعت الى كلماته المطمئنة ، فقد كنت بالرغم من ذلك لا أستطيع أن اشعر بالطمأنينة كما يشعر بها ، وكان عذري أن راكبي السفينة قد تراموا تحت عيني صرعى ، وليس فيهم من دلائل الحياة الا ومضات باهتة تنذر بالخفوت ••

وخلال ذلك عجبت من أمري ، فقد كنت على فزعي مما ارى ، لاأشعر بأن حالة غير عادية قد انتابتني ، فأنا لم اقذف ما في جوفي ، ولم أسقط كما سقط الآخرون كالموتى ، ولم يذهلني ، في القليل ، دوار البحر كما اذهلهم • ولكني أخيرا عللت ذلك بأنني عندما ولدت وضعوني في قارب من الغاب ودفعوني به الى النهر ، وظللت في تلك الرحلة البحرية الاولى الى أن رسوت على الشاطىء الذي تلقتني عنده أمي « كيفا » ، فلا شك أني قد اكتسبت بذلك شيئا من طبيعة البحار •

ورحت أتعهـــد رفاقي المصـــابين وأحاول علاجهم ، ولكنهم كانوا يدفعونني عنهم لاعنين ، حتى «كابتاح» أبى أن يتناول الطعام الذي قدمته له لتغذيته ، وهو الذي كان لا شيء يمنعه من ذلك ، فما عرفته الا متهالكا على الطعام ، مستزيدا منه أبدا • وقد خشيت أن يكون امتناعه عن الطعام

فى هذه المرة مظهرا من مظاهر خطورة العلة الطـارئة وعلامة من علامات انتهائه من الحياة ، فلو أن الموت اختطفه منى فان مصابى فيه يكون أفدح مصاب ، فليس لى عنه غناء فى حياتى ·

ومضى هذا اليوم المفزع وتعاقبت بعده الأيام دون أن نفجع بموت احد من الركاب ، بل انهـــم على توالى الايام أخذوا يصحـــون وينقهون ويعودون الى ما كانوا عليه من عافية ونشاط · وكان « كابتاح » حينما استعاد عافيته لا ينقطع عن الصلاة للجعران المقدس ، معتقدا أنه لم ينج من الموت الا ببركته ·

وبعد سبعة أيام لاح لأعيننا شاطىء من بعيد ، وقال ربان السفينة اننا قد جاوزنا مدينتي «يافا» و «وتاير» ، وانـنـــا مقبلون على «أزمير» وبالغوها بعد قليل · وقد صح تقـــديره ، ولم أعرف كيف جاءه العلم بذلك ، فتراءت لنا «أزمير» فى اليوم التالى ، ثم انتهينا الى مينائها ، بينما كان الربان يقدم القرابين الى آلهة البحر ، فى قمريته ، ويصلى لهم ·



العبريون



- ١ -

أستطيع الآن أن أتكلم عن « سوريا » وعن غيرها من البلدان التى تنقلت بينها وطوفت فيها • وأول ما يتمثل فى ذهنى منها ذلك الاختلاف الواضح بينها وبين «مصر» ، فالأرض هناك تضفى عليها الرمال لونا أحمر ليس لها سواد أرض « مصر » ولا استواؤها وصلابتها • ولم أر فيها نهرا كالنيل ينساب بين حناياهافى خطوط مستقيمة ، انما تهطل عليها الأمطار فى فصول خاصة ومواسم معينة ، فتتشربها الارض ولا يمسكها بالأودية المتناثرة تحت التلال الا أغوار متقطعة متباعدة الآماد ، وفى كل واد من هذه الاودية المتحاجزة بالتلال العالية يسكن قوم يختلفون عن غيرهم طباعا وسلوكا ، يتولى الحكم فيهم أمير باسم « فرعون » ، وباسمه أيضا يؤدى الجزية له ، والأمر الذى لا يكاد يختلف فيه سكان الأودية بتلك البلاد هو أن لباسهم من الصوف دقيق الصنع وهم يفرغونه على أجسامهم من الرأس الى القدم ، كما لو كانوا يتخذون منه غطاء يخفى كل شىء فيهم • وقد رأيتهم شديدى التمسك بهذا الرداء الحاجب ، حتى أن أحدا منهم اذا ما ألمت به حاجة الى الكشف عن جزء من جسمه إنتحى بعيدا عن الآخرين لكيلا تقع عليه عين ، ولا شىء من هذا فى عادات المصريين ولا فى مألوف حياتهم ، ومما يتميز به أهل « سوريا » أنهم يرسبلون شعورهم على أبدانهم ويعفون لحاهم فتتدلى شعورها الطويلة على صدورهم ، ولا يأكلون الطعام خارج بيوتهم ، وفى كل مدينة من مدنهم الهها الذى يتعبدون له ، ويقدمون القرابين على مذبحه ، وقرابينهم عادة من الآدميين •

وفى «سوريا» مصريون اختيروا للعمل بوظائفها العامة كالاشراف على جباية الضرائب أو رياسة الحاميات العسكرية ، وكان مفهوما أن اختيارهم للعمل بتلك البلاد ليس الاصل فيه التشريف والكفاية الممتازة ، وانما هو

نوع من الابعاد المنطوى على معنى العقوبة وهم جميعا يحنون حنينا متصلا الى شواطىء نهر النيــل ، ومنهم قليلون طال اغترابهم فيئسوا من العودة لوطنهم ، واستسلموا راغمين للحياة فى هذه الغربة وساروا على مناهجها، فارتدوا ملابس السوريين وتشكلوا بأشكالهم وداروا فى فلك عاداتهم ، وقدموا مثلهم القرابين لآلهة غير آلهتهم · وكان يزيد فى متــاعب هؤلاء الموظفين المصريين شيوع الفتن والدســائس بين السكان ، الى شــيوع النفاق والمداورة بين دافعى الضرائب ، الى شيوع المنافرة والمشاحنة بين الأمراء ·

وتختلف «سوريا» عن «مصر» كذلك فى أن الأطباء هم الذين يبحثون عن مرضاهم ، ويذهبون اليهم فى دورهم ، والأمر على نقيض هذا فى مصر، حيث يذهب المرضى الى الاطباء· ومنشأ هذه العادة فى سوريا أن المرضى هنــاك يسلمون شــفاء عللهم الى الآلهة . فالأطباء لذلك يفتشـــون عنهم ويترددون على مســاكنهم من غير دعوة منهم ، فيقــع فى وهــم المرضى أن الأطباء مبعوثون اليهم من الآلهة ، ويستغل الأطباء هذا الاعتقاد فيفرضون أجورهم ويتقاضونها معجلة، ولا يقبلون اقتضاءها نسيئة ، ويدفع المرضى هذه الاجور فى غير تردد ، لاعتقادهم أنهم يدفعونها الى مبعوثى الآلهة · وذلك ، ولا شك ، يوافق مصلحة الأطباء ، فالمرضى قلما يذكرون أجور العلاج أو قلما يتحمسون لدفعها اذا ما تم شفاؤهم ·

وقد قضيت فى « أزمير » ســنتين تعلمت خلالهما اللغــة البابلية ، قراءة وكتابة ، ذلك لأننى عرفت أن هذه اللغة هى لغة التفاهم والتخاطب بين المثقفين فى سائر أنحاء العالم ، وحروف كتابتها تنقش على ألواح من الطين بأقلام معــدنية · وبهذه الوسيلة يتبــادل الملوك مراسلاتهم ، وقد استغنوا بهذه الالواح عن الاوراق ، ويرجع ذلك الى أنها أطول بقاء وأشد حفظا للاتفاقات والمعاهدات التى كثيرا ما ينساها أو يتناساها الحكام !·

وقد اعتزمت أن أباشر عملى كطبيب على هذا النحو فى « أزمير » ، ولكن « كابتاح » رأى أن أخالف القوم فى طريقتهم ، فلا أذهب الى أحد من تلقاء نفسى بل أظل فى عيادتى لأستقبل الوافدين عليها من المرضى ، وفى سبيل تنبيههم الى ذلك واغرائهم به ، نطلق المنــادين يعلنون فى سائر الاماكن العامة عن شهرتى ومقدرتى الخــارقة فى ابراء المرضى من أدوائهم ، كما يعلنون أننى لا أزور مريضــا فى داره ، وأن عليه ــ اذا شاء ــ أن يشخص بنفسه الى عيادتى · وقد حاولت أن أثنى « كابتاح » عن هذا الرأى لاقتنــاعى اذ ذاك بأنه ضرب من الحماقة فى بلد لا يعرفنى

فيه أحد من أهله ، فضلا على مخالفته لعادة ألفوها واستراحوا اليهـا ؛ ولكن « كابتاح » كان ، على طبعه ، عنيدا فأصر على أن يكون ما أراد ، ولم أر فائدة من قيام الخلاف بيننا فرضخت لرأيه • وعندما صار الأمر موكولا الى خطته وتدبيره ، أخذ يوجهني فيه التوجيه الذى يطابق الهدف الذى رسمه وحدده • ومن ذلك أنه اشترط أن يدفع المريض ، قبل الكشف عليه ، قطعة ذهبية على الاقل ، كما اشترط أن أقابل المرضى فى ملابس فاخرة تكبر من شأنى فى أعينهم •

وكان ممـا أشار به ، ولم يسـعنى الا تنفيـذه ، أن أزور الأطباء السوريين المشهورين ، وأقول لهم : اننى أنا « سنوحى » الطبيب المصرى ، الذى اختصه «فرعون» الجديد باسم «الوحيد» ، وان لى فى بلادى مكانة لا يدانى بين الاطباء ، ففى استطاعتى بتأييد آلهتى أن أعيد الحياة للموتى ، وأن أرجع النور الى عيون العميـان الذين فقـدوا نعمة البصر ، وان فى حقيبة سفرى الها قادرا يظاهرنى فى مهنتى ، ويؤازرنى فى عملى • على أنى اذ كنت أعلم أن المعرفة تختلف في مكان عنهـا فى مكان آخر ، وأن الامراض كذلك تختلف باختـلاف الأجواء والطبـائع ، فانى أشـعر فى مدينتكم بحاجتى الى دراسة أمراضها لأعالجها على هدى هذه الدراسة ، مستعينا بعلمـكم وحكمتكم • وليس فى نيتى على الاطـلاق أن أتحـدى تجاربكم أو أنافس نشاطكم ، وانمـا أنا أضع يدى فى أيديـكم معترفا بفضلكم وسبقكم ، وكل ما أسألكم اياه ، هو أن تبعثوا الى بالمرضى الذين يكون غضب آلهتكم عليهم سببا فى تعذر شفائهم ، وبخاصة منهم الذين يحتـاج علاجهم الى استعمال السـلاح الذى لا تستعملونه ، فلعل الهى يعيننى على شـــفائهم ، فاذا قدر لأحدهم الشـفاء فانى لمعطيكم نصف ما يعطينى اياه ، فما جئت الى هنا طامعا فى مال ، وانما جئت لأستزيد من المعرفة ، وهى بغية العلمـاء البـاحثين • أما اذا أخطأنى التوفيق فى شفاء المريض فلن آخذ منه شيئا ، وأعيده اليكم مزودا بهداياه •

وقلت هذا للأطباء ، فكانوا كلما لقيتهم بعد ذلك يقولون لى : انك وان كنت لاتزال شابا فان الهك يمدك بالحكمة ويمنحك النور ، فكلماتك تقع من آذاننا وقعا جميلا ، وما تقوله عن المال والهدايا ، وزهدك فيهما ، يدل على مكانتك فى مجـال العلم ، وليس يخفى علينـا ما تشـير اليه ، متواضعا ، من قدرتك على استعمال الاسلحة الجراحية ، وهى قدرة لا تجد فينا من يدعيها ، لأننا فى الواقع لا نستعمل أى سلاح فى علاج مرضانا ، وهم أنفسهم لا يؤمنون بعلاج الاسلحة لخشيتهم من الموت بها • على أننا

نرجو أن تحـــدث بها تحولا فى الأفكار والعقائد ، وسنفسح لك الطريق ولا نطلب منك الا شيئا واحدا هو ألا تستعمل السحر فى علاجك ، فنحن فى هذا السبيل أقوى منك وأبعد شأوا ، وفى « أزمير » وفى المدن الاخرى على طول هذا الشاطىء تقوم منافسة شديدة فى أفعال السحر وآثاره •

وقد كان حقا ما قالوه عن استفحال أمرهم فى السحر ، فذلك أمر تبينت شواهده فى سواد الناس ، وكان كثيرون من المرضى يتهافتون على العلاج به ، وقلما يرضون به بديلا • ومن هنا كثر الدخلاء المشعوذون ، وانبثوا فى كل مكان ، زاعمين القدرة على شفاء العلل بالسحر والشعوذة، وكانوا يصيبون من هذه الحرفة مغانم كثيرة ويعيشون منها فى رغد ، ولا يهمهم فى شىء أن يموت المرضى أو يشفوا، فهم اذا مات مريض لم يعدموا سببا لذلك يردونه الى ارادة الارواح التى تتحكم فى أعمالهم ، واذا شفى المريض جعلوا من شفائه آية من آيات قدرتهم المعجزة •

وكثيرا ماكان يأتينى المرضى اليائسون من الشفاء فأعالجهم بطريقتى، وكنت قد أحضرت معى من معبد « آمون » نارا مقدسة ، لتعقيم أسلحتى ، وبهذه الأســلحة التى لا عهد لهم بهــا أجريت عمليات جراحيــة كثيرة ، وكتب لى فيها النجـــاح مما أثار اعجاب أطباء « أزمير » ، واســـتطعت بمساعدة الحظ أن أعيد البصر الى أعمى باستعمال الابرة ، وبذلك ذاعت شهرتى كطبيب •

وكان التجــار والاثرياء يسرفون فى تنــاول الاطعمــة الدسمة ، فأصيبوا بالبدانة والترهل وأمراض المعدة وضيق التنفس ، فأخذت فى علاجهم بالعقـــاقير الطبية التى تزودت بها من « مصر » ، وكانوا بعد قليل يعودون أصـــحاء موفورى النشاط والعــافية • ولما فرغت هــذه العقاقير اعتمدت على معلوماتى وتجاربى ورحت أجمع الاعشاب بنفسى فى أوقات معينة على ضوء القمر والنجوم ، وأعدها اعدادا كيماويا وأبيعها للمرضى بأسعار تختلف باختلاف مقدرتهم ، وكانوا جميعا جد راضين ، فلم يحدث أن أحدا منهم ضجر بمطلب من مطالبى •

وكما أرضيت مرضاى فقد أرضيت كذلك الاطبــاء اذ كنت أبعث اليهم بالمرضى الذين كان شــفاؤهم على يدى غير ميسور ، وكان ذلك منى تنويها بكفايتهم ، وكنت الى هذا أرسل الهدايا اليهم والى رجال السلطة

المدنية ، وكان لهذه الهدايا أثرها الحسن فى هؤلاء وهؤلاء ، فأفدت من ذلك سمعة طيبة ، في حين كان «كابتاح» دائب الدعاية لى ، ومن وسائله فى ذلك ، الانفاق السخي على الفقراء والمتسولين ، وعلى الرواة والقصاصين، ليتحدثوا عن أعمالى البارعة فى الشوارع والاسواق العامة ٠

وتوافر بين يدى الذهب والفضة ، واجتمعت لى منهما ثروة كبيرة ، استثمرت شطرا كبيرا منها فى أعمال تجارية بمساهمة تجار « أزمير » الذين كانوا يرسلون سفنهم محملة بالبضائع الى مصر وجزر البحر وأرض الحيثيين ، وقد بلغت سهومى فى كثير من السفن نسبا تتراوح بين واحد وخمسة بالمائة ، وكان بعض هذه السفن يتحطم فى الطريق أو يغرق أو يصاب بأية كارثة أخرى فلا يعود ، غير أن أكثرها كان حليف السلامة والتوفيق ، فيروح ويغدو بالخير ووافر الربح ، فتضاعف نصيبى من الفائدة تبعا لذلك، وكانت حصص المساهمين بالارباح تضاف الي قيمة سهومهم فيزداد رصيدها فى حساب هذه التجارة ٠ وكانت الظاهرة التى لفتت نظرى فى هذا المجال أن الكثير من دهماء الناس وفقرائهم يهتمون الى درجة كبيرة بالمساهمة فى تجارة السفن ، فلا يكاد يجتمع عند أحدهم بعض نقود نحاسية حتى يسارع الى دفعها لقاء نصيب ، مهما يكن ضئيلا، فى سفينة ، أو حمولة سفينة ، وينمو هذا النصيب بما يضاف اليه من نصيبه في الربح على توالى الأيام ، وكانت هذه وسيلة حسنة للادخار والاستثمار ، تختلف عن المتبع فى مصر ٠

وقد كان من الآثار الاولى لايداع أموالى الفائضة فى هذا العمل التجارى ، أن بالى استراح واطمأن من جهة هذه الاموال ، فلم أعد أخشى اللصوص الذين يطمعهم المال فى السطو على البيوت والاعتداء على الارواح، كما أن تفكيرى قد انصرف كله الى العمل ٠ وكنت ، كلما احتجت مالا فى أسفارى الى بلد آخر « كصيدا » أو « بابل » ، أعطانى التجار ألواحا طينية تخولنى حق استبدالها بنقود فى محال تجارية معينة بتلك البلاد ٠

وعلى هذا النحو كانت حياتى هناك ، سلسلة من النجاح المتصل ، فأصبحت ذا ثراء ، وأصاب « كابتاح » حظا ملحوظا من ذلك ، كان يتمثل فى ملابسه الفاخرة وفى الزيوت العطرية التى كان يتضمخ بها ، وقد أخذه من هذا الترف شيء كثير من الغرور والصلف ٠ ولكننى كنت دائما أحد من غروره وصلفه ، وكان هذا يكلفنى معه بعض العناء ٠

- ٢ -

مع هذا لم أشعر بما كان ينبغي أن أشعر به من البهجة فى هذه الحياة الجديدة الموفقة ، فكنت أكثر الاحيان ضيق الصـــدر ، وقد سئمت شراب النبيذ لأنه لم يخرجني مرة واحدة من هذا الضيق، بل كان قصارى ما يبلغه مني أن يحيــل لون وجهي الى ســواد قاتم ويسلمني الى تراخ واستخذاء ، فاعتزمت الانصراف عنه الى الاستزادة من المعرفة والاشتغال بالدرس والتمحيص ، فرارا من هذه الحال النفسية الكريهة ، التى تشوب حياتى وتكدر صفوها .

وشغلت نفسى ، فيما شغلتها به ، بالتقرب الى آلهة « أزمير » ، لعلها تكشف لى بعض أسرار مستقبلى المغيب . وكانت هذه الآلهة ، ككل شيء آخر فى أزمير ، تختلف عن آلهة مصر . فكبيرها «بعل» كان لا يرضى بغير الدماء البشرية قربانا لتلبية الرغبات ، وقضاء الحاجات ، وكان كهنته يختارون من الأخصـــياء .

ومن عادات الناس التعبدية هناك ، تقربهم كذلك بالضحايا والقرابين الى البحر ، فكانوا يقذفون بالأرقاء المقعدين وبالفقراء الذين يرتكبون ذنبا مهما ضؤل ، حتى الذى يسرق سمكة لاطعام أولاده الجياع ، كان يلقى به الى البحر . يريدون بذلك التخلص ممن لا خــير فيهم ولا عمــل لهــم ، ويعتقدون أن الاله « بعل » يأمر بهذا ويرضى عنه .

وكان من بين الهتهم المقدســة الالهة « عشتروت » وهى تمتــاز عن الآلهة الأخرى بأن لها عدة صدور لا صـــدرا واحدا . وكانوا فى كل يوم يلبسونها حلة جديدة دقيقة النسيج ، ويحلون صـــدرها بالجواهر وتقوم على خدمتها نسوة يطلق عليهن اسم « عذارى المعبد » ، وهى تسمية أقرب الى المجاز منها الى الحقيقة ، فلسن من العذارى فى شيء ! .

ولم أستسغ تقدمى للآله « بعل » بقرابين من الآدميين ، فذلك أمر لم آلفه من قبل ، فكنت أقدم الذهب الى معبده .

ووجدت فى معبد « عشتروت » متنفسا لاعصابى المكدودة ، فكنت ألم به فى بعض الأمسيات ، لأســتمع الى الموسيقى ، واستمتع بشــهود نسائه ، أو عذاراه كما يسمونهن ، وهن يرقصن رقصاتهن المثيرة تمجيدا لالهتهن .. وكان هذا المعبد هو المـكان الذى لا يقع مثلى على سواه طلبا للمتعــة والترفيه ، فاهل « أزمير » محافظون لا يرخصون لنســائهم فى السفور ، ولا يأذنون لهن بمغادرة الدور ، وهؤلاء النســـاء على أية حال

لا يظهرن الا فى غلالات أشبه بالستائر المغلقة تخفيهن اخفاء تاما ، وتبعا لذلك لم يكن فى « أزمير » بيوت للمبـــاذل واللهو الرخيص ، وكان هذا سببا فى رواج سوق الرقيق من النســاء يؤتى بهن محمولات على السفن من مختلف الاقطار والأجناس ٠

وقد رأى « كابتاح » أن يشترى امرأة من هؤلاء النساء لأعاشرها معاشرة متعة ، اذ كان يرانى مقفل القلب ، شارد الفكر ، ولم يتلبث ، فاشتراها دون مراجعتى، وأصلح شأنها وألبسها ملابس حسنة ، وطيبها بالعطور ، ثم قدمها الى مشيدا بمحاسنها التى كشفها ، ورأى أن يؤثرنى بها ، ولم أشأ أن أغضبه فتقبلتها ٠

وكانت فتاة مكتنزة الجسم بيضـــاء البشرة ، مسواة الأسنان ذات عينين جميلتين موفورة المــلاحة ، اذ كانت من بنات جزر البحر ٠ ولـكن قلبى لم يتفتح لهــا كثيرا ، على ما كانت تبــديه من مظاهر احترامهــا لى واقبالها على ٠

وبدأت حياتى مع هذه الفتاة مشربة بالعطف عليهـــا حتى لا تشعر بمرارة العيش مع رجل مغلق القلب ، غير أن هذا العطف من جانبى أغراها بالتدخل فى دقائق حياتى، وخاصة فيما يتصل بمرضاى خلال زيارتهم لى ، وكان هذا يضايقنى ، ولكنها لغبائها لم تفطن لحقيقة شعورى نحوها، فاسترسلت فيما كان يثير نفورى منها دائما ، فهى لا تنفك تطلب المزيد من الحلى والجواهر والملابس الجديدة ، ثم هى تفرط فى الطعام الدسم فزادت بدانتهــا ، وعنــدما كنت أعود من رحلاتى المســتمرة فى المدن الداخلية أو فى مدن الشواطيء ، كانت تتلقــانى باكية منتحبة ، الى غير ذلك من تصرفات شاذة جعلت حياتى معها لا تحتمل ولا تطاق ٠

وهنــا أسعفنى « الجعران » المقــدس بالحظ الحسن ، على عادته معى كلما حزبت الأمور ، فقد حدث فى ذلك الوقت أن جاءنى الملك «عزيرو» حاكم الاقليم الداخلى « لعمورية » لمعــالجة أسنانه ، فعالجتهــا وصنعت له سنا من العاج بدلا من سن قال انها كسرت فى احدى مواقعه الحربيــة ، وغطيت له أسنانا أخرى بقشرة من الذهب ، وقد سره هذا أيما سرور ، فكان يزورنى يوميا طوال المــدة التى قضاها بالمدينة فى أعمــال خاصة باقليمه لدى السلطات الحاكمة ، وفى كل زورة من زياراته كان يرى تلك الفتاة ، التى أطلقت عليهــا اسم « كيفتيو » تخلصا من اسمها الاغريقى الذى كان عسير النطق،فيعجبه منها بدانتها ولباسها الذى كانت تحرص أن تبدو فيه على الطريقة الاغريقية ، وهو لباس كان يكشف عن صدرها

خلافا لما تعودهذا الملك أن يراه على أجساد النساء المحجبات . وقد أسلمه هذا الاعجاب الى الميل اليها والتعلق بها . وكان هو رجلا قوى البنـاء متين العضل أبيض البشرة تشع عيناه بريقا قويا ، فكانت « كيفتيو » تخالسه النظر معجبة ، وكنت ألمح هذا فأسكت عنه عامدا ، حتى تقوى العلاقة بينهما ، فلعل ذلك أن يريحنى منها !.. وقد تحقق هذا حين خلا بى الملك « عزيرو » وقال لى مستجمعا شجاعته : الحق أنك ياصديقى « سنوحى » قد أسديت الى فضلا باصلاح أسنانى وتقويمهـا واعطائها هذا البريق الذهبى الجميل الذى يكسبنى ، كلما انفرجت شفتاى ، مهابة وجلال شأن فى بلاد « عمورية » . وانى لقاء هذا سأغدق عليك الهدايا التى أرجو أن تنال رضاك واعجابك ، على أنه لم تزل لى عندك حاجة أطمع فى أن تقضيها ليتضاعف فضلك ، فهـذه الفتـاة قد سحرنى جمالهـا ، وأصبحت بها مغرما كلفا وعبثا حاولت أن أطفىء فى قلبى لهيب الشـوق اليها ، وقد داويتنى بفنك أبرع ما يكون الفن ، ولكننى برئت من مرض لأقع فيما هو شر منه ، وعندك أيضا دواؤه ، والدواء فى هذه المرة لايجىء من طريق فنك البـارع ، ولكن يجىء من طريق مروءتك وكرمك ، وانى لأتصور هواك لهذهالفتاة وشغفك بها ، ومع ذلك فانى أسألك اياها لأتخذ منها زوجة مع زوجاتى الأخريات وأحررها من الرق ، تكريما لها ، وهذا خليق أن يرضيك ، فانك ان كنت تهواها فسيسرك ، بلا شك ، أن تصير حرة وزوجة ملك ، وأنت واجد بين الرقيقات مثلها أو خيرا منها ، وسأدفع لك ما تشاء كفاء تنازلك عنها . وأحسب أننى غير محتاج الى أن أقول لك اننى أستطيع ، فيما لو أبيت أن تعطينيها راضيا ، أن أعود فأنالها قسرا وأحملها الى مملكتى بالقوة ، فذلك أمر أعتقد أنك أسمح خلقـا من أن تدفعنى اليه .

واستمعت الى حديثه مبتهجا ورفعت يدى علامة الموافقة والقبول ، وكان « كابتاح » يلقى بأذنه متسمعا لهذا الحديث ، فلما رآنى قد وافقت على الخروج عن الفتاة، اقتحم مجلسنا وهو يشد شعر رأسه غضبا ويقول: هذا يوم أغبر ، فان هـذه الفتاة أغلى عند سـيدى من كل ما فى الدنيـا بأسرها من ذهب وجواهر ، انهـا المخلوقة الوحيـدة التى تؤنس وحدته وتسعد حياته وتملأ روحه وقلبه، ولا يمكن تعويضه عن فقدها ولو أعطى وزنها ذهبا .

وكنت أعلم ان « كابتاح » يصطنع ذلك اصطناعا ، فهو لا يقل عنى رغبة فى التخلص من هذه الفتاة ، ولكنه كان بهذا الموقف يجرى على عادة أهل هذه البلاد وعلى طريقتهم التجـارية واستغلالهم الظروف ، وقد كان يهدف بذلك الى أن يكون المال الذى يدفعه الملك مقابل الفتاة كثيرا .

ولم تكن «كيفتيو» ، عندما عرفت اننى نزلت عنها الى الملك «عزيرو» بأقل من « كابتاح » تزييفا لشعورها ، فقد تظاهرت بالبكاء قائلة انها لن تغفر لى ذلك ، بينما كانت خلال دموعها الكاذبة تنظر الى الملك نظرات الرضا به والارتياح اليه ! ..

غير أنى أشرت اليهم جميعا بالسكوت ، وقلت متكلفا الحزن : يا « عزيرو » ملك « عمورية » ، وصديقى ، حقا ان هذه الفتاة عزيزة على قلبى ، أسيرة عندى وأدعوها أختى ، ولكن صداقتك تعلو فى نفسى على كل عزيز ، ويرتخص فى سبيلها كل غال ، وكدليل على ذلك أعلن أنى قد نزلت لك راضيا عن « كيفتيو » الحبيبة من غير مقابل ..

وهنا صاح « عزيرو » قائلا فى غمرة من الغبطة والسعادة : مرحى ، مرحى ، أيها العزيز « سنوحى » المصرى الكريم ، لقد أسلفتنى مكرمة لا تعدلها عندى مكارم الدنيا جميعا ، والحق انك لطيب القلب ، صادق الود والوفاء ، ومنذ الآن فأنت أخى الحبيب ، وصديقى الأثير ، وسيكون اسمك أبرك الأسماء فى كل أرض « عمورية » اذا تفضلت بالقدوم اليها ، فعندئذ سيكون مكانك عن يمينى وكلمتك فيها هى العليا وسيكون الآخرون دونك منزلة ولو كانوا ملوكا .

وكان فيه يفتر عن أسنانه الذهبية مبتسما ، وهو ينظر بنهم واعجاب الى « كيفتيو » التى ما أسرع أن كفت عن بكائها المصطنع وراحت تحدق فيه مسرورة ، فأخذ بيدها وحملها معه على محفته الى النزل الذى كان يقيم به فى المدينة ، حيث خلا بها ثلاثة أيام بلياليها لا يخرج للناس ولا يراه أحد منهم .

وشعرت كما شعر « كابتاح » بأن عبئا ثقيلا قد انحط عن أكتافنا بالتخلص من هذه الفتاة ، ولكنه كان غير راض عن تنازلى عنها بدون مقابل ، فتلك فى نظره كانت فرصة نادرة للحصول على ما نشاء من « عزيرو » العاشق المفتون ! فقلت له : اننى كسبت بذلك صداقة « عزيرو » ، وهى قد تعطينا فيما بعد خيرا مما نأخذه الآن ، فالمستقبل غيب وما ندرى ما سيأتى به الغد .

وقبل أن يعود « عزيرو » الى مملكته جاء يودعنى ويقول : لقد أعطيتنى الكثير ولم أعطك شيئا ، ولا أزعم أن باستطاعتى أن أعطيك ما يعدل كرمك ويكافئه ، فمملكتى صغيرة وليست بذات ثراء ، فكل مواردها مقصورة على الضرائب التى تجبى من التجار الذين تمر قوافلهم

بأرضها ، وقد نغنم بعض المغانم من الحرب التى أثيرها على جيراننـا كلما أعوزنا المال ، والى هذا فانى أؤدى الجزية لمصر ، فأنت ترى أن الحال غير مسعفة ، ولكنى مع ذلك لن أتردد فى أن أقدم اليك كل مافى مقدورى الا أن يكون نساء أو خيلا ، فلا غنى لنا فى المملكة عن النساء والخيل ، ندبر بهما الحياة والحروب ، ثم ان اشارة منك تكفى لكى أرسل اليك على الفور من يقضى على أى انسان يعتدى عليك دون أن يعرف أحد ان لك دخلا فى ذلك ، فنحن الأشداء المغاوير ، وللصداقة عندنا حقها ، وفى سبيلها نبذل الأرواح والدماء ٠

وخلع قلادته الذهبية فوضعها فى عنقى وضمنى الى صدره بطريقته السورية ، فخلعت بدورى القلادة التى كان قد أعطانيهـا تاجر غنى من « أزمير » كفاء علاجى زوجته ، فوضعتها فى عنق « عزيرو » ، فسر بذلك سرورا عظيما ، ثم افترقنا ٠

- ٣ -

وأحسست بعد أن خلا منزلنا من هذه المرأة كأن كابوسا ثقيلا كان يجثم على قلبى فانزاح عنه ، فصرت كالطائر خفة ونشاط حركة ، وراق لى وجه الحياة كما لو كنت حبيسا عنه أمدا طويلا ٠ وكنا وقتئذ فى الربيع ، فبدا فى عينى جميـلا ، فهـذه الارض تتنضر بالخضرة الكاسية ، وهذه الأشجار تزدان بأغصانها الفوافة المورقة ، وتلك أسراب الحمائم والعصافير تزقزق على حفافى الماء كأنها ترتل الأناشيد وتشدو بالأنغام ، فتبعث فى النفس الغبطة والطرب وأحلام الشباب ٠

وتواردت علينـا مع الربيع أنبـاء العبريين الذين احتشـدوا فى الصحراء ، وأغاروا على الحدود السورية من الجنوب الى الشمال وأحرقوا القرى وحاصروا المدن ٠

وكان مثل هذا الغزو شيئا يتكرر كلمـا أقبل الربيع ، فهو أمر تعود أهل « أزمير » أن يسـمعوا أنبـاءه دون أن يقـلق خواطـرهم ، اذ كان العبريون » فى غزواتهم لا يتجاوزون القرى القريبة من الصحراء ، أما المدن التى تقوم عليها الحاميات ، فكانوا يجتنبون دائما الاغارة عليهـا لمنعتها ، ولكنهم فى هذا الربيع أغاروا على مدينة «قطنة» المحمية بالقوات المصرية ، فذبحوا ملكها ، فأزعج هذا أهل «أزمير» وتطيروا به ٠ وقد عرفوا من الأنباء التى كانت تتساقط عليهم فيتلقفونها فى لهفة أن جنود « فرعون »

اقبلوا على « العبريين » من مدينــة « تانيس » عبر صــحراء « سينا » ، فردوهم الى الصحراء وأسروا منهم القادة والرؤساء ٠

ولكن أمر المصريين والعبريين لم ينته عند هذا ، فالحرب بينهم لم تسكن ، وتطايرت أنباؤها هنا وهناك ، ولم أكن قد شاهدت حربا من قبل ، فراودتني الرغبة الشديدة في الالتحاق بقــوات « فرعون » لأجرب حظي فيها ، ولأؤدي واجبي الانساني كطبيب في معالجة المصــابين وتضميد جراحهم ، وقويت هذه الرغبة في نفسي حينما علمت أن « حورمحب » على رأس القوات المصرية التي تقاتل هنالك ، فقــد كنت في الحقيقــة أشوق ما أكون الى لقاء هذا الصديق القديم ٠ وفعلا أنفذت رغبتي فأبحرت على احدى السفن وهبطت منها الى اليابسة حيث كانت على مقربة منا احدى الكتائب المصرية الذاهبــة الى المعركة ، فاندمجت فيها وسط المركبات التي تجرها الثيران والدواب المحملة بالحبوب وجرار الزيت والنبيــذ ومغالق البصــل ، وبلغنــا بلدة صغيرة تقوم عليهــا أسوار من البنــاء اسـمها « أوروشليم » ترابط بها حامية مصرية ، وكانت الاشاعات التي راجت في « أزمير » تصورها لنا حامية كبيرة ضخمة موفورة العدة والعدد ، ولكننا رأيناها على خــلاف ذلك ، لا تزيد على فرقة من العجــلات الحربية وألفي جندي من حملة الرماح ورماة السهام ، وكان مفهوما أن قبائل «العبريين» كرمال الصحراء عددا ٠

وكان «حورمحب » هو قائد هذه الفرقة المصرية فارتاحت نفسي الى ذلك ، وذهبت اليه في الكوخ الذي كان جالسا به مع أركان حربه ، فلما رآني قال في تردد وهو يراجع ذاكرته : عرفت مرة شــخصا يدعى « سنوحي » ، وكان وقتذاك طبيبا من خير أطباء طيبة وانك لتشبهه ! ٠

وكان غير غريب على « حورمحب » ألا يعرفني لأول وهلة ، فقد غيرت السنون من ملامح وجهي ، ثم اني كنت أحمل على كتفي عبــاءة سورية ، وليست هي مما يلبسه المصريون ، على أنه أخذ يجيل في وجهي نظراته الفــاحصة ، ثم قال ضــاحكا وهو يرفع ســوطه المضفر بالذهب : بحق « آمون » انك أنت لسنوحي ! مرحبا بك أيها الصديق ، لقد كنت أحسبك في عداد الموتى ، فهأنتذا تبعث بغتة بين الأحياء ! ٠

وفي عجــل تحدث مع رجاله وصرفهم بأوراقهم وخرائطهم ، وعاد يقول : انها لاحــدى معجزات « آمون » أن نتلاقى مرة أخرى على الأرض الحمراء وفي هذه المدينة البائسة القذرة ٠

وطلب نبيـــــذا وأخذنا نتساقاه معا فى نشوة ، وقد شرح لقــاؤه صدرى ، وخفق بالمسرة قلبى الذى كنت أحسب أنى قد فقدته ، ورحت أقص على « حورمحب » أطرافا من حياتى ومخاطراتى ، فقال لى : عليــك الآن أن تتوج قصتك المثيرة بشرف المساهمة معنا فى هذه الحرب التى أضع بين شقى رحاها أولئك « العبريين » الأنجاس ، وسوف لا أفلتهم منهــا حتى تطحنهم طحنا ، ويتمنوا لو أنهم لم يولدوا ٠

واستطرد قائلا : ان أنس لا أنسى لقاءنا لأول مرة ، فمن ذلك اللقاء بدأت حياتى التى ترانى اليوم فيها قائد جيش ورئيس أجنــاد ، ولقــد كنت أنا يومذاك شابا قليل الخبرة بالدنيا وبالناس ، وكنت أنت بالنسبة لى الرجل العارف المجرب ، فشددت أزرى بالرأى الرشـــيد ، والتوجيه السديد ، وقد انتفعت بمشورتك ونصحك وتهديت بهما فيما صادفنى من أمور جسام، وهاأنذا أحمل السوط المضفر بالذهب وهو شارة البطولة التى طالما تمنيتها ، ولكنى لم أبلغ هذه المكانة المرموقة الا بحقها من العناء المضنى فى الخدمة بالحرس الملكى ، فقد كان علينا أن نحفظ الامن والنظام وهيبة الحـكم حين شــاء « فرعون » بجنونه ، أن يطلق سراح اللصوص وقطاع الطريق وسافــكى الدماء ، فجاسوا خلال الديار وأشــاعوا فيها الفوضى والفســاد ، فلاحقناهم وتعقبنا آثارهم حتى قضينا عليهم ، ولمــا ترامت الينا أنباء القبائل العبرية الثائرة على الحكومة ، والمغيرة على ماحولها من البــلاد ، طلبت من « فرعون » أن يمدنى ببعض الفرق الحربية لقمع الثوار وتأديبهم ، فأمر بذلك وأقامنى قائدا عليها ، ولم أجد بين الضباط القدامى من يزاحمنى فى هذه القيادة ، فقد استغرقوا فى الحيــاة المترفة المتراخية ، وزايلتهم الرغبة فى حياة المعارك ومعامع القتال ، وقالوا ما لنا والصحراء وقتــال « العبريين » ذوى الحراب الحادة والضربات الموجعة ، والصرخات المزعجة !٠ والواقع أنهم وهم يحيون فى ظلال وارفة من الثراء ومظاهر الترف لم يعودوا يرون أنفسهم بحاجة الى مـكابدة الحـــروب ومعاناة أهوالها ، فما الذى ينقصهم وادعين آمنين ، لينالوه فى حرب قد لايعودون منها احياء ؟! ولكنى على عهدك بى ، كنت ، ولم أزل ، رجل حرب لا أرى فى غيرها شرفا ومجدا ، وكنت قد أفدت من النضال الداخلى كثيرا من التجارب والمعارف العسكرية ، فطاب لى أن أستخدمها فى تلك الحرب التى فتح « العبريون » ميدانها ، ولم يكن شىء يهم «فرعون» وهو ينفذنى اليهــا الا أن أقيم بأوروشليم معبدا لألهــه الجديد ٠ واتبــاعا لسياسته المسترخية ، أوصانى بألا أريق دما فى مقاتلة « العبريين » ، وهى وصية

تثير السخرية والضحك ··· ولست أدرى كيف نقـاتل هؤلاء ، وندفع أذاهم ، ثم يكون علينا أن نحفظ دماءهم ؟!·

وانفجر « حورمحب » ضاحكا ، ورفع كأس النبيذ فأفرغه فى جوفه ثم قال : ان أمر «فرعون» لعجيب !· وما أكثر مالقيت من أفكاره الغريبة بالغة الشذوذ ! · انه دائما يتحدث عن الهه الجديد ، فهو يقول انه يختلف عن جميع الآلهة ، فلا شكل له ولا صورة مجسدة ، وهو مع ذلك موجود فى كل مكان وفى كل زمان ، ويرى جميع الناس فى وقت واحد ، ويطل عليهم ويتصـــل بجميع أحوالهم دون أن يروه ، ويده غـير المنظورة تبارك سائر المخلوقات ، ولا فرق عنده بين سيد وعبد ، وهكذا كان يتحدث لى عن الهه هذا فأشعر كأن حشودا حاشدة من النمل قد تسللت الى رأسى ، فلا يهدأ لى بال ولا تغمض لى عين الا أن أشرب النبيــذ فى جوار امرأة تخلص رأسى من هذه الافكار السوداء المضنية ، ومن هنا تغيرت حالى عما كانت يوم أن تلاقينا أول مرة ، فصرت مدمن خمر ورفيق نساء ، ولم أكن كذلك من قبل ··

وتوقف «حورمحب» ليجرع كأسا أخرى من النبيذ ، ثم مضى يقول: ألست ترى يا « سنوحى » أن « فرعون » بهذا الاله الذى يفنى فيــه كل هذا الفناء ويجد به كل هذا الوجد ، أقرب الى أن يكون انسانا مريضا ، مأفون الرأى ؟!· أكبر ظنى أن كلبا مسعورا قد نهشــه بأسنانه الحادة وهو طفل صغير ·· ومع أنى ما زلت على ايمانى بالهى « حوراس » فانى لا أحس فى نفسى بغضا للاله « آمون » ، ولكن يبدو أن اله « فرعون » الجديد ، ان صح وجوده ، قد جاء معارضا لآمون ليقوى سلطان « فرعون » به ، بعد أن استفحل أمر « آمون » وعظم شأنه ، واتسعت به سلطات الكهنة ومداخلاتهم ، أو هذا على الاقل هومافهمته من احاديث الملكة الوالدة والكاهن « آى » الذى يحمل عصا الراعى ويقف بها عن يمين « فرعون » فهم اذن يريدون أن يتخلصوا بالاله « آتون » من الاله « آمون » أو فى القليل يحدون من سلطانه ، حتى لا يظل كهنته مسيطرين على شئون البلاد من فوق رأس « فرعون » ··· وعلى هذا الوجه يبـدو الأمر تدبيرا لمصلحة العرش وتوطيد سلطة الملك ، وقد يكون ذلك معقولا ومستساغا ، ولا ضير على الناس والبلاد من أن يظهر اله جديد تتوازن به السلطات ، ولكن فرعون لا يقصر أمره على مجرد ما ينبغى لالهه من اقامة المعـــابد واستخدام الكهنة لخدمته والدعاية له ، وانما هو ، أى « فرعون » لا يفتأ مشغولا به متحدثا عنه ، مصروفا بسـببه عن كل شـأن آخر من شئون الدولة · وما تعرض مناسبة الا أدار الحديث عنها فى فلك هذا الاله ، فما

من شيء يقع للناس فرادى أو جماعة الا هو متصل بارادته‌صادر عن أمره ٠ ولا يزال « فرعون » يتحدث على هذا الغرار لـكل جلسائه والمحيطين به حتى يكونوا مثله تعلقا بالهه وايمانا به ، ويقول « فرعون » انه يحيـا بالصدق ، ولكن الصدق كالمدية المسنونة فى يد طفل ، قد لا ينجو منها اذا عبث بها ، وهكذا الحاكم يجب أن يحذر الصدق ، بمقدار ما يجب أن يحذر الطفل خطر المدية المسنونة ٠

وقد أحس كهنة « آمون » بالخطر الذى يتهددهم بظهور هـذا الاله الجـديد الذى يضطلع « فرعون » بالدعاية له، فراحوا ينـاهضون هـذه الدعاية ويبذرون بذور الشـك فى سبيلها ، واقتضـاهم ذلك اختراع القصص الكثير عن أصـل « فرعون » تهوينا من شأنه ومن شـأن الهه ، وساعدتهم ، فى هذا ، الظروف التى تم فيها زواج الملك الجديد ، وذلك أن أميرة « ميتانى » التى كان مقررا أن تكون زوجته قد لقيت حتفها بغتة ، فأحل مكانها « نفرتيتى » ابنة الكاهن « آى » ، وهى جميلة وأنيقة ولكنها موصوفة بالعناد وصرامة الخلق ، وفيها من أخلاق أبيها شيء كثير ٠ وقد ساء الناس ان يحدث هذا ، فغضبوا ، واستغل كهنة « آمون » غضبهم فى الحملة التى يحملونها على « فرعون » والهه !٠

وتناول « حورمحب » كأسا مترعة من النبيذ ، واستطرد قائلا:وقد تركت « طيبة » وأنا أشـد ما أكون ضجرا منهـا وضيقا بأهلها ، فانهـا بمنازعاتها وشيوع الفرقة فيها قد أصبحت كوكر الثعابين ، وقد حمدت لصقرى أن أتاح لى فرصة البعد عنها ٠

وكنت أفـكر فيما ذكره «حورمحب » عن موت أميرة « ميتانى » ، فاستوقفته لاسأله المزيد من الايضاح ، فانى كنت قد رأيتها فى «طيبة» أوفر ما تكون صحة ونضارة ، وكانت وهى ذاهبة وقتذاك الى المعبد خلال طريق « رامس » تبهر العيون ببهائها وروعة جمالها ٠

فقال « حورمحب » ضاحكا : قرر الاطباء انها لم تحتمل جو البلاد ، وهو زعم لا يكاد يوجد انسان فى مصر يصـدقه كتعليل لموتها الفجائى ، ذلك لأن الناس يعلمون جيـدا أن جو مصر من أفضل الاجواء وأعدلهـا مناخا ؟ ولهذا فقد ارتابوا فى سبب موتها !٠٠ على أن ثمة ظاهرة غريبة أنت تعرفها يا « سنوحى » فى حوادث الموت التى تقع بالقصر الملكى ، هى أن نسبة وفيات الاطفال بهذا القصر غير عادية ، بل انهـا لاكثر ارتفاعا منها فى الاحياء الفقيرة ، وهو أمر يحار الناس فى تعليله ، ولكننى شخصيا أرى أن للكاهن « آى » دخلا فى ذلك ٠

وكنا قد سلخنا من الليل أكثره فى الحديث والشراب ، فآوى كل منا الى مرقده ، واستيقظت فى الصباح على صوت النفير ، فرأيت الجنود يتتابعون ، جماعات جماعات ، ورؤساؤهم برتبهم المختلفة يصدرون اليهم التعليمات . وبعد أن سويت صفوفهم خرج عليهم « حورمحب » وفى يده سوطه المضفر بالذهب ، وخادمه يتبعه حاملا باحدى يديه مظلة تحمى رأسه من وقدة الشمس ، وبالاخرى مذبة يدفع بها الذباب عن وجهه ، واخذ يخاطبهم قائلا :

يا جنود مصر : انى أقودكم اليوم الى معركة ينتظر الوطن منا أن نعود منها وعلى رءوسنا أكاليل النصر ، وليس شىء هو أشد خزيا وعارا على الجندى من أن يعود منهزما، فالموت فى ميدان القتال خيرمن الهزيمة، وقد علمت من تقارير رجالى المستطلعين أن « العبريين » يعسكرون خلف التلال ، ولم يذكروا فى هذه التقارير عددهم ، على أنهم لا شك كثيرو العدد ، فقد فزع المستطلعون حين رأوهم فولوا الأدبار خوفا منهم ، فان لم تثبتوا لهم وتردوهم على أعقابهم فأنتم غير خلقاء بأن تكونوا جنودا تحت امرتى ، وفى هذه الحال لن آسى عليكم اذا حصدوكم حصدا ، بل ربما سرنى أن أتخلص بذلك من الجبناء الرعاديد أمثالكم لأعود الى مصر فأنشىء جيشا من رجال أصلب عودا وأوفر شجاعة ، وأكثر استعدادا للتضحية فى سبيل وطنهم ، وأشد رغبة فى طلب النصر والفخار . واعلموا جميعا اننى سأكون فى المقدمة ولن التفت الى وراء لأرى من سيتبعنى منكم ، فأنا ابن « حوراس » ، والصقر يحلق بجناحيه طائرا أمامى ، وقد وطدت العزم على مقاتلة « العبريين » والقضاء عليهم ولو كنت فى ذلك وحدى ، على أنه يجب أن تذكروا ولاتنسوا أبدا أن سوطى لايفلت مترددا ، وأنه قاس شديد العذاب ، وسأتولى به عقاب المتخلفين وتأديب الناكصين على أعقابهم ، وعهدى به أنه لا يعرف غير الموت واراقة الدماء ... فقاتلوا « العبريين » بكل ما فيكم من قوة ، ولا تهنوا ولا تضعفوا ، فخير لكم أن تلاقوا الموت مقبلين ، من أن تلاقوه مدبرين ، وان أعداءكم ليتخذون من أصواتهم المزعجة وسيلة الى اشاعة الرعب والرهبة ، فصمنوا آذانكم عن سماع أصواتهم ولو اقتضاكم هذا أن تملئوها بالطين ، واحرصوا على أن تتراءوا لهم رجالا أبطالا غير عابئين بالموت ، فانكم بهذا تلقون الرعب فى قلوبهم ، وتغلبونهم فى قلتكم على كثرتهم ، وعندئذ تنتهى اليكم أنعامهم وعتادهم وأقواتهم والغنائم الكثيرة التى غنموها فى اغاراتهم على المدن ، كما تنتهى اليكم نساؤهم اللواتى اشتهرن بحب الرجال الأشداء . وسيكون كل هذا لكم تتقاسمونه ،وتستمتعون به وحدكم .

وهنا صاح الجنود ، فى صوت واحد ، صياح الترحيب بالقتـــال والانبعاث له ، ضاربين على دروعهم ، بحرابهم ، وملوحين فى الهـــواء بأقواسهم ٠

فابتسم لهم « حور محب » وقال : انى لمغتبط بكم ، أيها الجنود ، اذ اراكم هكذا تتحرقون شوقا الى القتال ، ولكن ثمة عملا يجب أن نعمله الآن وهو أن نرسم هنا معبدا لاله « فرعون » الجديد «آتون» ، ونؤدى له فيه مراسم التقديس والتمجيد ؛ وقد لا يقع هذا على رغبتكم وهـــواكم فلعلكم لا تؤمنون بهذا الاله الذى يكره الحروب وينهى عنهـــا ، ولكنها مشيئة « فرعون » ، وعلينـــا أن ننفذها لنظفر بمرضاته ، ونمضى فى رحلتنا على طاعته ، وأرى ألا يعوقنا ذلك عن الواجب الأكبر وهو منازلة الأعداء ، ولهذا آمر بأن تتجه القوات الرئيسية منذ الساعة الى أهدافها الحربية ، وتبقى معنا هنا قوة الاحتياط لرسم المعبد واتمـــام طقوسه الدينيـــة ٠

وهتف الجنود مرة ثانية « لحور محب » ، واتخذوا وجهـــاتهم الى الميدان ، فسار كل فريق منهم وراء علمه المرفوع على سارية خاصة به ، وكانت شعائر الأعلام تختلف باختلاف الفرق ، فشعار احداها « ذيل الأسد » ، والأخرى « الصـــقر » والثالثة « رأس التمساح » ، الى غير ذلك من الرموز التى كانت تتقدمهم بالطريق الى ساحة المعركة ، كماكانت العجلات الحربية تسير فى الطليعة لكشف الطريق وتأمينه ٠

على أن الضباط الذين كانت اليهم مقادة الجنود تخلفوا مع جنـــود الاحتياط ، وتبعوا « حور محب » الى معبد « آتون » الذى أعد على عجل فوق ربوة فى خارج المدينة ، وقد أقيم بناؤه الصـــغير من الخشب وملىء فراغه بالطين ، وكان صحنه مكشوفا ، ومذبحه كذلك ، على خلاف المعابد الاخرى ٠ وقد حاول الجنود عبثا أن يروا الاله بأعينهم ، كما تعودوا أن يروا الآلهة ، ولكن « حورمحب » قال لهم انه ليس كمثله فى الآلهة شبيه! فهو محيط بهذا الوجود كله ، متصل بهذه الكائنات جميعها ، وهـــو شبيه بقرص الشمس فى أعلى درجات قوتها النورانية ، فيمكنكم أن تنظروا اليه فى السماء ، اذا قويت عيونكم على احتمال الضوء ، وان يديه لتباركـكم من عليائها ، وفى رحلتكم اليوم الى المعركة ستحسون بأصابعه فى ظهوركم كالابر الحمراء المحماة ٠

وسرت فى الجنود زمجرة خافتة عندما علموا أن اله « فرعون » بعيد عن عيونهم كل هذا البعد الشاسع ، فقد كانوا يودون أن يـــكون قريبا منهم ليخروا أمامه سجدا ويلمسوه بأيديهم اذا واتتهم الشجاعةعلى ذلك ، ولكنهم صمتوا حينما تقدم اليهم كاهن شاب غير حليق شـــعر الرأس ، وعلى كتفيه رداء أبيض وفى عينيه بريق أخاذ ، ثم اتجه الى المذبح فنثر عليه الزهور وصب الزيت والنبيذ ، وأخذ يرتل « لآتون » نشـيدا قيل انه من انشاء « فرعون » ، وكان طويلا ومملا ، وقد استمع اليـــه الجنود فاغرى الأفواه وهم لا يفهمون منه الا قليلا : ومن هذا النشيد : —

انك أجمل مافى الأفق ٠

أيها الحى « آتون » مصدر كل شىء حى

عندما ترتفع فى السماء الشرقية

يملأ بهاؤك وجلالك الأرضين

فأنت عادل وقوى ومتألق فوق الدنيا

واضواؤك تشمل كل مافى الوجود الذى خلقته

وكل مافى الوجود يربطه رباط حبك

وأنت بعيد ، ولكن أشعتك تغمر الكائنات بحنان وعناية

واسترسل الكاهن يرتل فى نشيده كلاما عن «الظلمة» و «الأسود» التى تخرج من أغراسها فى الليل خائفـــــة ، وعن الثعـــابين والأفاعى والحشرات تنساب من أوكارها جزعة ، وعن غير ذلك من الكائنات والأحياء التى يخشاها الناس فيسلط « آتون » عليها الخوف والجزع ٠ وانتقل الكاهن من ذلك منشدا ، عن ضوء النهار والطيور التى تستقبل الصـباح مرفرفة أجنحتها ، مزقزقة طروبة ، والزروع والأنعام والدواب كلها تمرح منتعشة فى أحضان من بركات ذلك الاله الخالق العظيم « آتون » ٠

وأنشد الكاهن كذلك أن هذا الآله الكبير يحفظ الأجنة فى الأرحام فكل ما بين الأرض والسماء منوط بارادته ، موكول الى أمره ، حتى الفرخ الصغير لا ينقر قشرة البيضة ليخرج منها الا بأمر « آتون » ومعاونته ٠ واختتم نشيده بهذه المقاطع : —

أنت وحدك يا « آتون » تسكن قلبى

ولا يعرف أحد ذلك الا ابنك الملك
فانت تشاطره آراءك وأفكارك
وأنت تمسح عليه بيد حبك وحنانك
والدنيا كلها بين يديك لأنك خالقها
وفي ضوئك تحيا جميع الكائنات
ولو حجبت محياك عن الوجود لأدركه الفناء
فأنت الحياة وكل من فيها يحيا فيك
وكل الأبصار تتجه الى مجدك
وتظل كذلك الى ساعة غروبك
وكل الأعمال تتوقف تماما
عندما تسكن فى الغرب
ومنذ خلقت الدنيا كنت تعدها لابنك المرتقب
من أجله كان هذا الذى أبدعت خلقه
وانه هو الملك الذى يعيش بالصدق
وهو سيد المملكتين « ابن رع »
من أجل سيد التاجين خلقت الدنيا
وكذلك من أجل زوجته المقربة الحبيبة
ملكة المملكتين « نفرتيتى »
التى ستعيش وتزدهر الى الأبد كما كانت من الأزل

وعندما انتهى الكاهن من تراتيله ، أعلن الجنـــود ايمانهم بالاله «آتون» ، وهتفوا تحية لفرعون العظيم ، فقد فهموا مما سمعوا أن المقصود هو تمجيد « فرعون » وتحيته باعتباره ابن ذلك الاله .

وأذن « حورمحب» للكاهن فى الانصراف ، فذهب مبتهجا بهتافات الجنود وتحياتهم ليكتب عن هذا الحفل تقريرا يبعث به الى « فرعون » .

- ٤ -

سار الجنود تتبعهم المركبات تجرها الثيران وحمير النقل ، وفى طليعتهم «حورمحب» مسرعا بعجلته الحربية ، وخلفه الضباط على محفاتهم، وهم من حرارة الشمس فى ضيق وتأفف ، وكنت أمتطى حمارا الى جوار أحد رؤساء الجند ، وقد استصحبت معى صندوق العقاقير الطبية التى رأيت أنها ستكون ذات فائدة كبيرة فى المعركة ، وكانت الرحلة طويلة وشاقة لم تتوقف القافلة خلالها الا فترةقصيرة ، تناولفيها الجنود قليلا من الطعام والشراب ليتماسكوا ومع ذلك كان كثير منهم يتساقطون اعياء ولا يقوون على النهوض برغم الركلات والسياط التى كان رؤساؤهم ينهالون بهـــا عليهم ، فقد كانت أقدامهم لا تستطيع أن تحمل أجسادهم المنهوكة لفرط ما أصابها من القروح الدامية .

واقتربنا ، مع المساء من منطقة المعركة وكانت النبال عند ذلك قد أخذت تنصب علينا من أعالى الصخور المتـــاخمة للطريق ، وبين الفينة والأخرى كانت تنبعث من صفوفنا صيحات الذين أصابتهم هذه النبال ، ولم يكن « حور محب » ليتوقف لانقاذهم بل يتركهم يتساقطون ، ويمضى وشيكا حتى لا تشيع الفوضى فى الصفوف ولا يتمهل سير القافلة ، وكنا على جانبى الطريق نرى جثثا « للعبريين » ملقاة فى ملابس رثة ، والذباب يتجمع عليها ، فيقف عندها بعض رجالنا بحثا عن شىء ، أى شىء ، ولكنهم كانوا لا يجدون شيئا ! .. وقال لى رفيقى وهو يلهث على حماره ، انه يشعر بأن هذا اليوم آخر ايام حياته ، ولذلك فهو يحملنى تحيته الأخيرة الى زوجته وأطفاله .

وعلى تلك الحال من العناء والجهد والجوع والظمأ ، أشرفنا على السهل الفسيح الذى يعسكر به جنود « العبريين » ، فأمر « حورمحب » على الفور بالنفخ فى النفير ، تجميعا للصفوف ، وايذانا بالهجوم ، ومن ثم انتظم الجند فى الدوائر المعينة لفرقهم ، فكان حاملو الحراب فى القلب ، وحاملو الأقواس فى الجناحين ، واندفعت العجلات الحربية الى مكان آخر لتؤدى دورها فى المعركة متسابقة ، حتى أثارت فيما حولها غبارا كثيفا أخفاها عن العيون .

وخلال سحائب الدخان المتصاعد من القرى المحترقة بالأودية الواقعة تحت التلال ، كان « العبريون » مقبلين فى عـــدد لا يحصى ، ودروعهم وحرابهم تلمع من بعيد ، وصراخهم الذى يشبه قصف الرعود يكاد يوقر الأسماع .

وفي صوت مجلجل صاح « حور محب » قائلا : تشجعوا أيها الرفاق ولا يهولنكم هذا الحشد الذى تلمحونه من بعيد ، انه ليس الا قطعانا من الأنعام ، وأحمالا مما يتزود به « العبريون » الجبناء من أقوات وأمتعة ونساء وأطفال ، وسيكون لكم هذا كله بعد قليل ، فهلموا اليهم ، لنأكل على رءوسهم طعاما شهيا ، فانى وحق الآلهة لأشد منكم جوعا ، وان بى الى الطعام لنهما كنهم التمساح ٠

ولكن « العبريين » كانوا يقتربون منا فى أعداد كأرجال الجراد كثرة وتجمعا ، وبدا واضحا أننا دونهم عددا وقوة ، ولأول مرة شعرت كأنى ألوم نفسى على الاشتراك فى معركة كهذه ليس فيها الا ما يخيف ويفزع ، بل ليس فيها الا الموت ، فمن لم يمت بضربة حربة ، مات بضربةشمس أو مات جائعا صاديا ٠

وكادت تضطرب صفوفنا ، فقد هال جنودنا أن يلاقوا ، وهم مجهدون ، هذا الجيش الجرار ، وكانحملة الحرابمنا أكثر اضطرابا وفزعا، على أن « الجاويشية » (رؤساء الفرق) كانوا يحيطونهم بسياطهم ويلمون شعثهم ويردونهم الى النظام ٠ والواقع أن الجنود لم يجدوا من ورائهمفرجة للفرار من المعركة فاقبلوا عليها ، فما من ذلك مناص ، على حين كان « العبريون » يزدادون منهم دنوا واقترابا ، وقد ترامت علينا سهامهم وهى تئز فى الهواء أزيزا كطنين النحل والذباب ، وأصابنى منها ومن صيحاتهم وجل شديد ، ولم يذهب عنى الروع الا حين رأيتها تمر على رءوسنا ،فتقع منا بمبعدة أو يتلقاها الجنود بدروعهم فتتكسر عليها ٠

وعاد « حورمحب » يصرخ فى الجند مستنهضا عزائمهم ، وهو يستبقهم الى الأعداء ، فاطلق سائقو العجلات الحربية العنان لجيادهم فى اثره ، وأخذ القواسون يريشون سهامهم على قلب رجل واحد ، وكذلك فعل حاملو الحراب ، والجميع يصرخون صراخا أشد ازعاجا من صراخ « العبريين » ٠ وبهذه الشجاعة التى كان يثيرها فيهمخطر الموقف ، انقضوا انقضاض الصاعقة على أعدائهم ، وفى تلك اللحظة حمى وطيس المعركة واتقد أوارها ، ووسط زحمتها الخانقة شرد حمارى وكاد يلقينى على الأرض ليذهب ناجيا بنفسه ٠ وكان « العبريون » يقاتلون فى اصرار وحنق ، حتى من كان يسقط منهم تحت سنابك الخيل لا ينفك يضرب بحربته ضربا دراكا حيثما وجد الى الضرب سبيلا ، وقد قتل من المصريين كثيرون كانوا ينزلون عن صهوات جيادهم ليلتقطوا ضحاياهم من الأعداء ليكونوا

فى أيديهم ، دليل انتصارهم • ومن الجانبين كان تدفق الدماء يفوق تدفق عرق المحاربين ! ••

وفجأة صاح « العبريون » صياح الغضب واليأس ، وتوقفوا عن القتال ، وأخذوا يتراجعون ، اذ رأوا العجلات الحربية التى كانت قد قامت بحركة التفاف حول السهل ، قد اقتحمت معسكرهم ، واستولت على حريمهم ومواشيهم ، فارتاعوا لذلك أيما ارتياع ، وهرعوا محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكن العجلات الحربية المصرية عاجلتهم وأحاطت بهم وأعملت فيهم الحراب والسهام ، ولم تغب الشمس حتى كان السهل قد امتلأ بجثث القتلى منهم ، كما كان معسكرهم طعاما للنيران ، ومن كل ناحية كان ينبعث خوار المواشى الهائجة الهائمة •

وأخذ رجالنا زهو الانتصار ، فأطالوا فى معركة لم يبق فيها من ينازلهم ، وأمعنوا فى جثث القتلى من أعدائهم ضربا بالحراب ، بل كانوا يذبحون هذه الجثث بعد أن فارقت الحياة ، دون أن يفرقوا فى ذلك بين رجل أو طفل ، وكانوا كذلك يسددون سهامهم الى البهائم فى عصبية طاغية ، وظلوا هكذا الى أن استدرك أمرهم «حورمحب» فأمر باطلاق النفير اعلانا لانتهاء المعركة ، فساد الهدوء بين الجنود والضباط ، وعادوا يتجمعون حول قائدهم •

أما أنا فكنت لا أزال متشبثا بحمارى الذى لم ينفك طول المعركة يقفز ويلف ويدور • وكنت ، فى تشبثى به خلال ذلك ، انما أتشبث بالحياة التى كان هذا الحمار الآبق الجامح سيفقدنى اياها ، لولا أن عاجله أحد الجنود بضربة قوية ، ثم أمسك به فنزلت عنه مستردا أنفاسى • وقد ضحك الجنود من منظرى هذا ، وطاب لهم أن يسمونى منذ ذلك الوقت « ابن الحمار الوحشى » •

وأحيط الأسرى من الأعداء بالحراسة الشديدة ، بعد أن جردوا من أسلحتهم التى أضيفت الى الأسلحة الكثيرة الأخرى المتخلفة من المعركة• وعلى ضوء المصابيح المعلقة بالخيام ووسط أكوام طعام الجنود وعلف المواشى جيىء بالصندوق المقدس فوضع أمام «حورمحب» ففتحه بيده وأخرج منه « سيخمت » المعبودة ذات رأس الأسد ، وذات الصدر المنتفخ كبرياء ، واحتشد حولها الجنود وأخذوا يرشونها بقطرات من الدماء التى تسيل من جروحهم ، ويضعون بين يديها أكواما من الأيدى والأعضاء المبتورة من أجسام القتلى ، علامة الانتصار ، وبعد ذلك جعل « حور محب » يوزع على

رجاله القلائد والأساور وشارات الشرف مكافأة لهم على حسن بلائهم ، كما أعلن ترقية البواسل منهم الى درجات تكافيء بسالتهم ، وكان هو لايزال معفرا بتراب المعركة والدماء لاتزال تتساقط من سوطه ، ولكنه كان يبدو منشرحا مفتر الثغر يواسى الجرحى من جنوده بالعبارات الحسنة المشجعة . ولم يعجلنى هذا الابتهاج الشامل الذى يغمرنا جميعا كمنتصرين كما لم يعجلنى ما عانيت من حمارى المتوحش ، عن واجبى كطبيب . وقد وجدت أمامى عملا كثيرا ، فان حراب « العبريين » وهراواتهم قد أحدثت فى رجالنا جراحات شتى واصابات خطيرة ، فعكفت عليهم أنظف جراحهم وأطهرها وأضمدها وأعيد الأمعاء الى أجواف البطون وأرتقها . أما الميئوس من شفائهم فقد كنت أعطيهم حبوبا مخدرة وأسقيهم جعة ليقضوا اللحظات الباقية لهم من الحياة فى راحة وهدوء .

ولم أغفل شأن الجرحى من أعدائنا « العبريين » الذين وقعوا أسرى فى أيدينا ، فعالجت جراحهم بالطريقة نفسها ، وكان اهتمامى بهم يرجع أكثر من أى اعتبار آخر ، الى اعتقادى بأن « حورمحب » يستطيع أن يبيعهم رقيقا بثمن أغلى وهم أصحاء ، ولكن الكثيرين منهم لم يرحبوا بعلاجى لهم بل لقد أثارهم ذلك وأسخطهم ، فكانوا يمزقون جروحهم بعد خياطتها وبخاصة عندما كانوا يسمعون أصوات وعويل الأسرى من الأطفال والنساء ، وكذلك كانوا يغطون وجوههم بملابسهم ويتركون جراحهم تنزف الدماء حتى يموتوا ! .. وقد أثر حالهم فى نفسى وصيرنى أقل شعورا بلذة النصر ، فهؤلاء البدائيون الفقراء جوابو الصحراء بحثا عن القوت والكلأ لهم ولأنعامهم ، كان يشتد بهم الجدب أحيانا فلا يجدون ثمة سبيلا غير مهاجمة البلاد السورية ، وهم مع فاقتهم القاسية وأجسامهم النحيلة ومعاناتهم الشديدة من بعض الأمراض الخطيرة وأشدها عليهم مرض العيون ، فانهم – مع ذلك – الأقوياء الصناديد ورجال الحرب المغاوير . وكثيرا ما أحرقوا القرى وأزهقوا الأرواح وأشاعوا الفزع فى القلوب . وقد تجرعنا منهم فى المعركة الأخيرة كأسا مرة المذاق . أقول ان هؤلاء ، على الرغم من كل ذلك ، قد أثاروا فى نفسى شعور العطف عليهم حينما أبوا الا أن يموتوا تخلصا من حياة الأسر الذليلة ، وحينما أبوا الا أن يغطوا وجوههم اخفاء لعار الهزيمة أو تواريا عن أنظار نسائهم وأطفالهم الذين كانوا يستصرخونهم فلا يستطيعون أن يفعلوا لهم شيئا ! .

وفى اليوم التالى قابلت « حورمحب » واقترحت عليه أن يقيم مصحا يبقى به الجرحى من الجنود حتى ينقهوا خشية أن يصابوا بنكسة

قاتلة اذا رافقونا الى « أورشليم » ، فأخذ يشكرني على المساعدات التى قدمتها ويقول انها مساعدات قيمة ولا يستطيع أن يجزيني عليها الجزاء الحق ، ثم نوه بما تحملته في هذا السبيل من عناء بالأمس ، وخاصة عندما كنت أركب حمارا مجنونا ٠ وقال : ولقد سمعت الجنود ينادونك بابن الحمار الوحشى ، فأرى أن يكون مكانك دائما الى جانبي فوق عجلتى الحربية حتى لا يرديك مثل هذا الحمار في معركة أخرى ! ٠

قلت له : الواقع أنك أنت الذى ينعقد له وحده لواء هذا النصر فى هذه المعركة ، فما أرى مثلك بطلا شجاعا ولا قائدا حكيما ، وقد دان لك الجنود جميعا عن حب وتقدير ، والتفوا بقلوبهم حولك ، وانبعثوا بأمرك الى القتال لا يبالون الموت ولا يحفلون بالحياة ، فكان النصر المؤزر الذى رفعتم به راس مصر عاليا ، ولكن أتأذن لى يا صديقى القائد العظيم أن أسألك كيف نجوت من حراب الأعداء وهى تحيط بك بالميـــدان احاطة السوار بالمعصم ؟! لقد رأيت بعينى هذه الحراب على مقاتلك جميعا ،وكانت واحدة منها كافية أن تنالك بالمكروه الذى نخشاه ، ولكنك كنت لاتباليها وتمضى كأنك لا تراها ، وترتد عنك كأنها تبحث عن غيرك ، وهذا أمر لا يخلو من سر ، فهل تراك فى حصانة من السحر ؟! ٠

قال : مثل هــذا يجوز أن يقال عنك أيضــا يا « سنوحى » فكذلك كنت أنت فى قلب المعركة ، وبين الحراب المشرعة ، وتحت النبال المتدافعة وعلى ظهر حمار جامح ، ولم تكن تحمل حربة ولا قوسا ولا درعا ، ومع ذلك فقد بقيت حيا ! ٠٠ ولا أرى الا أن هذا من حسن الحظ ، وربمـــا جاز لى أن أقول عن نفسى اننى أعرف أن أعمالا عظيمة ندبتنى الأقدار لها وانى لأؤديها مطمئنا الى أنى منها فى رعاية قدرية متصلة ، وقد لا أستطيع ان أقول كيف عرفت ذلك على وجه التحقيق ، ولكن الذى لاشك فيه عندى أن هنالك مظاهر حسية يمكن أن نستبين منها حظوظنا ، واحسب أنى قد استبنت حظى عندما قادنى الصقر الى « فرعون » ، فهو لا يقودنى الا الى خير ، ولو أنه فيما يخيل لى لا يستطيب المقام فى القصر الملكى ، فانه منذ قادنى اليه لم يعد يلم بى ، وقد حالفنى التوفيق بفضل مقــادته فى كثير من الأمور ، وعندما كنت أتقدم الجنود على عجلتى الحربية مع بعض الرفاق لكشف الطريق واخلائه من وحوش الصحراء التى كنا نتصيدها بسهامنا ، رأيت من بعيد نارا تلوح مشتعلة بأحد الأودية على شكل شجرة تحترق ، وقد صعد الى أنفى من الأرض المحيطة بها رائحة غريبة لم تلبث أن دارت فى رأسى وسرت الى أعضاء بدنى فأحالتنى انسانا آخر لا يشعر

بشيء من الجوع والظمأ ، ولا بشيء من العناء والوهن ، وانما يشعر بالقوة والشجاعة فى أعلى درجاتها ، فأدركت أن تلك علامة الظفر والنصر ، وزادنى شعورا بذلك أن أحدا من رفاقى لم يشهد هذه النار فكأنما أراد القدر الذى يرعانى ويحالفنى أن يختصنى بها دون غيرى ، تثبيتا لقلبى وانعاشا للأمل فى صدرى ، ومن ثم فقد خضت المعركة غير هياب ولا وجل متحصنا بالقوة الخفية التى تدرأ عنى الموت ، وتحمينى من الأخطـــار ، وها أنتذا ترى أن الحرب والسهام والهراوات وما اليها من أسلحة المعركة لم تنل منى منالا ، ولم تقع منى على مقتل ، مع أنها كانت تطوقنى وتحدق بى من كل جانب ، فذلك هو الحصن السحرى الذى تسألنى عنه ٠

قال « حورمحب » هذا ، فلم يسعنى الا أن أوافقه ، متأثرا ، فقــد كنت لا أرى ثمة سببا يدعوه الى اختراع قصة كهذه ، هى فى ظاهرها أقرب الى الخيال منها الى الحقائق ٠

ووزع « حورمحب » فى اليوم الثالث فرق الجنود ، فأرسل فرقة الى « أوروشليم » ومعها الغنائم والأسلاب لبيع الرقيق والأمتعة والحبوب وعهد الى فرقة أخرى برعى المواشى ، ومضى هو ببقية الجند على العجلات الحربية مقتفيا آثار الفارين من « العبريين » بعد أن عرف من بعض أسراهم أنهم قد حملوا معهم الهمهم ، واصطحبنى معه على عجلته التى كانت تسير بسرعة جنونية ، ملأت قلبى خوفا على حياتى ، فكنت أتعلق به متخيـــلا لفرط فزعى ، أننى بذلك أتقى السقوط من فوق العجلة وهى تترنح بين أغوار الطريق وأنجاده ، وكانت هذه منى محاولة لاقيمة لها فى الحقيقة ، فان امساكى به فوق العجلة المجنونة لا يمكن أن يعصـــمنا من الخطر اذا ما انقلبت ، وهو كذلك لا يمنعها من الانقلاب اذا قدر لها أن تنقلب ، ولكن الأمر عندى فى ذلك الوقت كان شبيها بالغريق الذى يحسب أن القشة التى يمسك بها ستقيه خطر الغرق ! ٠٠

وقد رآنى « حورمحب » على تلك الحال من الفزع والخوف فقال لى ساخرا ، انه يروضنى على مخاطر الحروب وأهوالها لأبلوها وأعتادها ، فينبغى أن أثبت لها لأكون خليقا بلقب المحارب الشجاع ٠

وبهذه السرعة المخيفة التى كانت تسير بها العجلات أدركنا فلول « العبريين » الذين ظنوا أنهم نجوا من الموت ، فانصبت عليهم العجلات الحربية انصباب الصواعق وراحت تحصدهم حصد المناجل ، لا تفلت منهم طفلا ولا امرأة ٠

وشهدت من هول هذه المعركة مالا أنساه أبدا ، واستطاع «حورمحب» ان يلقى بها على « العبريين »درسا قاسيا، فلا شك أنهم بعدذلك لن يعودوا الى شيء مما الفوه من الاغارة على البلاد السورية ونهبها ، حتى لو ماتوا فى الصحراء جوعا ·

وتعقب « حور محب » أولئك الذين كانوا قد حملوا الههم وفروا به ، فأوقع بهم وأشعل النار به أمام الالهة « سيخمت » على مشهد من الجنود الذين انتفخت أوداجهم زهوا واستكبارا ، اذ يرون اله « العبريين» يذهب طعمة للنار · وكان اسم هذا الاله « ياهوى » ، وهو أعز شيء عند « العبريين » ، ومنه كانوا يستمدون القوة فى غاراتهم وحروبهم ، فخسارتهم فى المعركة ، اذن ، فادحة الى أقصى حد ·

- ٥ -

عاد بنا «حورمحب » الى « أوروشليم » ، وكانت يومئذ تموج باللاجئين اليها من البلدان المتاخمة ، واشرف على بيع ما لم يكن قد بيع من الغنائم ، وكان الأهالى الذين يشترون منها الأمتعة والحبوب يشعرون بمرارة قاسية ، لأنها كانت قد نهبت منهم ، وكانوا لذلك يطمعون فى أن تعاد اليهم بلا مقابل ، ولكنهم لم يجدوا سبيلا الى استعادتها سوى شرائها بالثمن كأنهم ليسوا أصحابها ، وقد اضطروا أن يقترضوا أثمانها من معابدهم ومن التجار ومن جباة الضرائب الذين وفدوا على « أوروشليم » من كل انحاء « سوريا » ، وبهذا استطاع «حورمحب» أن يحول الغنائم الى ذهب وفضة · وقد جعل لكل جندى من هذا المال نصيبا · وراح الجنود بما أصابوا من ذلك يسرفون فى الطعام والشراب والترفيه عن أنفسهم ، فازدادت « أوروشليم » ازدحاما وضجيجا وراجت الحركة التجارية رواجا كبيرا ، ورأى « حورمحب » هذا ، ففرض على التجار ضرائب مختلفة اجتمع له منها مال كثير ·

وذهبت الى « حورمحب » أستأذنه فى السفر الى « أزمير » فقال : ان المعركة انتهت فى بدايتها وواتانا فيها النصر العاجل ، وما كان أمرها ليكون كذلك لولا أننا خضناها شجعانا أشداء على أعدائنا ، ولكن «فرعون» لم يرضه منا ذلك ، فقد بعث الى بكتاب يلومنى فيه على أنى خالفت أمره فأرقت الدماء ، ويأمرنى بالعودة الى مصر بجنودى لأسرحهم وأبعث

بأعلامهم الى دار الحفظ بالمعبـد • وانى لفى حيرة من هـذا ، فهؤلاء الجنود الذين يأمر بتسريحهم ، هم الفرق المدربة فى «مصر» ولن نجدسواهم يملأ فراغهم فى قوة الجيش ، فكل من عداهم لا يصلحون لشىء فى هذه الناحية• والواقع أن « فرعون » قد استسلم استسلاما خطيرا لفكرة السلام التى لا أراها فى عالمنا الا وهما وخيالا ، وأصـبح ميسورا غاية اليسر ، أن تكتب الألواح فى بيته الذهبى عن شرف الآلهة ، وترتل الأغانى فى المحبة التى تسود البشر ، كما أصبح من العسير ، غاية العسر ، أن يجنح انسان الى فكرة الحرب ، أو يتظاهر بالرغبة فيها ، فهو فى نظر « فرعون » يعـد خائنا لرسالة «فرعون» الالهية ، رسالة السلام والحب وامكان تآخى الامم من غير اراقة دماء • على أن « فرعون » لو رأى ما رأينا من وحشـية « العبريين » ، ولواستمع الى أنين الرجال وعويل النساء فى القرى التى أحرقوها لما كان له فى الحرب مثل رأيه الآن ! ••

فقلت « لحورمحب » : وماذا تخشى ؟! لقد قضيت على « العبريين » ولا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير فىتجاوز العلاماتالتى أقمتها على الحدود، ومصر الآن ذات ثروة ضخمة ورخاؤها عام ، وهى لا تحتاج الى مزيد تسعى اليه محاربة أو تطلبه بمظاهر القوة والارهاب ، فليس ثم ما يخيفك اذا تم تسريح الجنود على هوى « فرعون » وارادته •

قال « حورمحب » : انك يا « سنوحى » كالآخرين ، تأخذون الأمور بظواهرها وتحسبون السراب ماء ، ولا تلتفتون الى ماوراء ظهـوركم •• والحقيقة التى ينبغى أن تعرفها ويعرفها أمثالك ، أن مصر تخطىء اذ تؤثر الانطواء على نفسها فى ذلك العالم المتسع الفسيح ، الذى تغلى فى كثير من أرجائه مراجل ثورات مخربة مدمرة ، ولعل أقرب مثل على ذلك أن ملك « عمورية » يعمل جادا فى جمع الخيول وصنع العجلات الحربية ، فهل تحسبه يفعل ذلك لمجرد الزينة حتى يبدو أكثر اقتدارا على دفعالجزية لفرعون ؟! • ثم ماذا يمكن أن تعبر عنه أحاديث كبار رجاله حين يذكرون فى ولائمه واجتماعاته أن « عمورية » كانت فى وقت من الأوقات تحكم العالم ؟! أليس فى هذا وذاك معنى الاستعداد والتهيؤ لأمر يخفونه الآن ليظهروا به غدا ؟؟ وهل يجوز لمصر لقاء ذلك أن تنام ملء جفونها ايثارا للسلام المزعوم ؟! •

وهنا ذكرت « عزيرو » ملك «عمورية» ، فقلت « لحورمحب » : اننى أعرفه ، بل هو صديقى ، فقد عالجت أسنانه وأصلحتها وموهتها بقشر

الذهب ، وأكبر ظني به أن في عقله خبلا ، وأن احدى زوجاته تتحكم في تصرفاته ! ٠

وصادف هذا القول ارتياحا عند « حورمحب » فقال : حسنا ٠٠ وانك يا «سنوحى » لمأمول الخير فيما يجب أن تؤديه لبلادنا من خدمات ؛ فأنت أكثر من غيرك احاطة بالأمور وأوسع علما بأحوال البلدان ، وفى وسعك وأنت الحر الطليق أن تنتقل من مدينة الى أخرى ، وتكشف عن كثب خفايا شئونها ٠ ولو كان لى مثل حريتك ونشاطك لما ونيت ولاكففت عن الرحيل الى سائر الممالك والأقطار ، مستزيدا من المعرفة والاطلاع ، كنت أشخص الى بلاد « ميتانى » و « بابل » وأتعرف الكثير من العجلات الحربية التى يصنعها أو يستعملها « الحيثيون » ، وأستشف الوسائل التى يدربون بها جنودهم ، كما كنت أقصد الى الجزر فى البحر لأرى السفن الكبيرة التى تتناثر علينا أنباؤها غير مفصلة ٠٠ كنت أفعل هذا وكل ما هو من هذا بسبيل ، ولكننى لا أستطيع للأسف ، لأن اسمى معروف فى كل أنحاء سوريا ، وحركاتى كاسمى تقترن بالشهرة والمعرفة ، وهذا يقيدنى ولا يهيىء لى فرصة التجوال والارتحال ، ويحول بينى وبين الحقائق السافرة ، وليست هكذا حالك ، فأنت تلبس ملابس السوريين وتحسن الحديث بلغتهم ولسانهم وتجيد الى ذلك لغة أخرى يعرفها المتعلمون فى سائر أقطار الدنيا ، ثم انك فوق هذا طبيب ، وقلما يخطر بذهن أحد أنك تعنى بشىء مما يدور حولك غير ما يقع فى نطاق مهنتك ، وحديثك فى عمومه يجرى مع الناس هينا يستميلهم اليك ولا يريبهم فيك ، وقلبك بعيد الغور يختزن الأسرار والملاحظات ولا يفشيها ٠

قلت له : قد يكون كل هذا صحيحا ، ولكن ماذا تعنى ؟!

قال : أعنى أن تذهب الى تلك البلاد مزودا منى بمقدار من الذهب ، فتباشر بها أعمالك كطبيب ، وهنالك سيكون لك باقتدارك الفنى مكان مرموق وشهرة بعيدة فى علاج المرضى وشفائهم ، فيقبلون عليك ، ويطمئنون اليك ، ويمهد لك هذا سبيل الاتصال بالأغنياء وأصحاب النفوذ والملوك ، وهؤلاء فى أغلب الأحوال أكثر طلبا للأطباء المهرة ، وعندئذ تستطيع أن تنال مودتهم وثقتهم فيتكشفون لك ، وتعرف من حيث لا يشعرون دخائلهم وأسرارهم ، واذا عدت الى مصر أفضيت الى بها ! ٠

قلت : ولكننى لاأنوى العودة الى مصر ، ثم انى لا أحب أن يكون مصيرى أن أعلق من أعقابى على الجدران فى بلد أجنبى ٠

قال « حورمحب » : أما أنك لاتنوى العودة الى مصر ، فذلك أمر أشك فيه كثيرا ، فأنت عائد حتما اليها مهما يكن رأيك فيهــا الآن ، ذلك أن الذى شرب من مياه النيل ولو مرة واحدة لايبترد ظمؤه فى مكان آخر ، حتى الطيور والعصافير تمضى فى تحليقها بعيدا عن شواطئه ثم تنقلب عائدة اليه، كأنما تجذبها اليه قوة خفية ساحرة ، وأما التعليق فوق الجدران فشيء بعيد الاحتمال ، بل هو غير متوقع على أى صورة لرجل فى مثل حصافتك واتزانك وسعة حيلتك ، وأنا لم أدعك الى مقارفة اثم هناك ، ولم أطلب اليك أن تخرق قوانين تلك البلاد ، ومادام شيء من هذا لايحدث فليس ثمة ما يدعو الى الخشية والخوف ، على أنه اذا اقتضاك الأمر أن تطــوف بنظرك ودراساتك فى مرافقهم ومنشآتهم ، فان هذا لايثير ارتيابهم بك ، فكثيرا ما نرى فى كل البلاد ميلا الى اجتذاب الغرباء والسائحين ليشهدوا معابدها وآثارها ومرافقها على العموم ، وهى تفعل ذلك للمفاخرة واشاعة الأحدوثة الحسنة عنها ، الى جانب ماتفيده من أموال الوافدين عليها حيث ينفقونها فيها خلال اقامتهم ، وسيكون لك من هذه الناحية المكانة الحسنة بفضل ما بيدك من ذهب تنفقه بينهم سخيا ! ٠

فأنت ترى أنه لا بأس عليك فى بلاد يغمر الجهل أهلها ، ولا سابقة لهم بمثل أساليبك الطبية البارعة ، وفى وسعك أن تتصور ماذا سيكون لك من الشأن بين قوم لا يعرفون وسيلة لعلاج شيوخهم ومرضاهم ، فيضربونهم بالفئوس أو يقذفونهم الى الصحراء ليموتوا ، وفى اعتقادهم أن هذا خير ما ينبغى أن يفعلوا ليريحوهم ويستريحوا منهم ! ٠٠ والمأثور عن ملوكهم أن فيهم كبرياء ، فهم لهذا يهتمون بعرض جنودهم المدربين على أعين الغرباء ، وستجد فى ذلك فرصتك المواتية لمعرفة ما أرجو أن تعرفه جيدا عن تسليح جنودهم وعدد عجلاتهم ، الى ما يتصل بذلك من أنواعها وأحجامها ، وهل هى كبيرة ثقيلة أو خفيفة صغيرة ، وهل تحمل كل عجلة منها رجلين أو ثلاثة ؟! ولن يفوتك أن تعرف ما اذا كان الجنود يتناولون غذاء كافيا ، ومبلغ ما يكونون عليه من قوة وضعف ٠ وقد قيل ان « الحيثيين » اكتشفوا معدنا جديدا يصنعون منه أسلحتهم ! ويهمنى أن تعرف ما اذا كان ذلك صحيحا ، كما يهمنى أن تعرف ـ على وجه خاص ـ قلوب الحكام ومستشاريهم ، وما يدور فى رءوسهم من أفكار واتجاهات ٠

وكان «حورمحب» يقول هذا وفى عينيه مثل بريق الجمر المتقد ، وتقع كلماته على أذنى كأنها نفث السحر فتسرى فى مشاعرى جميعا ٠

وخيل الى لقوة أثرها فى نفسى أننى أتلقـــاها من رجل عظيم رهيب ، فانحنيت أمامه مستسلما ..

فقال مبتسما : لعلك قد آمنت الآن بأنى رجل ذو سلطان ؟! .

قلت له : هذا صحيح . ولا شك عندى فى أنك ، على ما قلت لى من قبل ، قد خلقت للزعامةوالبطولة والسيطرة على الكثيرين ، وانى لماض على أمرك ، وأرجو أن أكون ، كما تريد ، عينك الباصرة ، وأذنك الواعية وعسى أن أوفق فى هذا ، وثق بأنى باذل أقصى ما فى طاقتى ، لا لأنك معطينى ذهبا ، بل لأن صداقتك عندى أعز منزلة من الذهب .

قال : ولن تندم يوما على هذه الصداقة ، وانى من جانبى لأقدرها قدرها ، ولكننى ، فيما قررت أن أزودك به من الذهب ، لا أقصد أن أوجرك به ، وانما قصدت أن أجعل منه أسبابا تصل بها الى أهدافنا المشتركة ، وسترى أنك بحاجة اليه هناك ، فانى لأعرف من طبائع الناس مالا تعرف وقد اخترت هذه الوسيلة للتسلل الى خفايا القوم وأسرار خططهم ، لأن الفراعنة اعتادوا أن يبعثوا عن طريق الرسميات السافرة رجالا يمثلونهم فى بلاط البلاد الأجنبية ، وكان مفروضا أن يكونوا فى وظائفهم هـــذه عيونا راصدة ترى كل شىء وتنقله ، ولكنهم لا يكادون يعرفون واجباتهم على هذا النحو ، فليس يعنيهم الا أن يظهروا فى تلك البلاد على صورة من الأناقة وحسن الهندام ، وأن يحرصوا على مراسم التشريف دون سواها ، فهؤلاء يذهبون ويعودون من غير أن يؤدوا عملا ذا نفع لبلادهم !.

واقترب « حورمحب » منى متأثرا ، فقبلنى وضمنى الى صدره وقال: ان قلبى يخفق أسى لفراقك يا « سنوحى » ، وقد كنت أود أن تكون دائما الى جانبى فكلانا فى هذه الحياة وحيد ، وقلبى كقلبك تهصره الوحـــدة وتثقله الهموم والأسرار ، ولكن واجب العمل لمصلحة بلادنا وخيرها يعلو على كل اعتبار خاص ، ونحن نفترق الآن فى سبيل هذا الواجب ، لنلتقى فى القريب أسعد لقاء .

ثم أعطانى ذهبا كثيرا ، أكثر مما كنتأتصور ، وأرسل معى حارسا رافقنى حتى بلغت الشاطىء آمنا من لصوص الطريق . وهناك أودعت الذهب فى احدى الشركات التجارية ، وأخذت بقيمته ألواحا على حسابها وركبت السفينة مبحرا الى « أزمير » .

يوم
الملك
الزائف



- ١ -

استقبلني « كابتاح » في « أزمير » مهللا ، وألقى بنفسه عند قدمي وهو يبكي من فرط تأثره بالفرح ، وقال : لا أرى في أيامي على كثرتها يوما هو أسعد من يومي هذا ، ذلك لأنه اليوم الذي أراك فيه ، على يأس من عودتك ، فما كنت أحسب الا أنك قد لقيت حتفك في المعركة ، وكثيرا ما تعذبت كلما تصورتك صريعا هناك تحت سنابك الخيل أو مـــذبوحا بحراب المقاتلين الأشداء القساة . وحقا لقد كانت مخاطرة جنونية أن تذهب الى ميدان حرب وأنت الذي لا سابقة لك بالقتال ولا تحذق فنا من فنون النضال ، وقد نصحتك وحذرتك فلم تحفل بنصحي وتحذيري ، ولهذا كنت قلقا عليك أشد القلق ، ولم يخفف عني أنني وريثك الوحيد وأن أموالك الكثيرة المودعة عند تجار « أزمير » ستصبح كلها ملكا لي ، لو أن الذي قدرته وقع فلم تعد ، فالآن يسرني سرورا عظيما أن يحفظك « جعراننا » المقدس ويحميك ، ويدفع عنك الشر ، وينجيك من الموت ويردك في عيني ســـالما من المكروه ، والحق انه اله قوى عظيم يرعانا ولا يتخلى عنا ، ولا نستطيع أن نفيه حقه من الحمد والشكر ، ولست حزينا ، وأقسم لك ، لأني حرمت من ثروتك الكبيرة باعتباري وارثك الوحيد ، فان ما أجد من عطفك وحنانك لهو خير عندي من هذه الثروة ، ولم أفكر البتة ، طوال غيبتك ، في أن أمد يدي الى شيء من أموالك ، بل لقد حفظتها وحرصت عليها كما لو كنت معي .

وعلى هذا الغرار ظل « كابتاح » يثرثر ويبدىء ويعيد ، وهو يغسل قدمي ويصب الماء على يدي ، ويغدو ويروح مفتنا في تحيتي واعداد وسائل راحتي .

ولكنني قطعت عليه سبيل هذه الثرثرة وهذا الفرح المسرف ، قائلا

له : دعنا من هذا ، وعليك الآن أن تأخذ فى اعداد متاعى ، فاننى من الغد مرتحل الى أرض «ميتانى » و « بابل » وجزر البحر ، وهى رحلة طويلة قد تستغرق سنوات ذات عدد ،وستكون محفوفة بالكثير من الصعاب والمتاعب •

فصرخ جزعا وقال : ما هذا يا سيدى ؟! •• أيطيب لك أن تشقينى وتعذبنى بهذه التصرفات العجيبة ؟ ليتنى لم أكن ولدت فى هذه الدنيا • فانى لا أكاد أسعد فيها يوما حتى تلاحقنى التعاسة والحسرة أياما ، ولقد كانت رحلتك لشهر أو شهرين تكرثنى وتقض مضجعى وتسهد عينى ، فكيف تكون حالىوهذه رحلة الىسنوات ؟! فاذا أصررت عليها ولمتستجب الى رجائى فى أن نبقى هنا قانعين بحالنا ، فانى مرافقك فيها ، اذ لا أستطيع البقاء بدونك كل هذا الزمن الطويل •

ولم يكن لدينا منفسح من الوقت نضيعه فى نقاش تغلب عليه بلاهة « كابتاح » الذى لا تزيده السنون الا خبلا وعقم تفكير ، فأشرت عليه بالكف عن ثرثرته فاستسلم على مضض ، وراح يعد المتاع ويعد نفسه كذلك لمرافقتى فى الرحلة •

وفى الغد التحقنا بقافلة متجهة الىسوريا الشمالية ، اذ أن «كابتاح» كان قد أقسم من قبل ألا يضع قدما على سفينة • وقد أتاح لى السفر بهذه القافلة أن أرى أشجار « الأرز » فى لبنان • تلك الأشجار الباسقة التى يستخرجون منها الأخشاب القوية الأعراق ، الطيبة العنصر ، ويستخدمونها فى بناء القصور وتأثيثها ويصنعون منها قارب « آمون » المقدس •

ولم تكن الرحلة على طولها مضنية ، ولم تقع فيها حوادث مثيرة ، خلافا لما يحدث أحيانا فى خطوط السير الطويلة عبر الصحراء والجبال كهجوم اللصوص وقطاع الطريق • وكنا نجد فى الفنادق القائمة بالطريق الراحة والنظافة والطعام الشهى والشراب العذب • وفى بعض المحطات التى وقفنا بها كان هناك بعض المرضى فتوليتعلاجهم • وقد استرعى هذا انظار المسافرين فأحاطونى بغير قليل من التكريم ، وكنت بينهم أقتعد

كرسيا موطأ على ظهور حمير . وكانت الرياح المتقدة بالحرارة تلفح وجهى، ولكنى كنت أدلكه بالزيت . وهكذا لم أشعر فى الرحلة بالعناء الذى كنت أتوقعه . وقد سرنى خـــلالها ، أكثر من كل شىء ، أشـــجار « الأرز » بضخامتها وشذاها العطر ، وعلى مقربة منها مسارب الماء الصافية وجداوله الرقراقة ، وعيونه الثرة . والحق أن « لبنان » ، هذا القطر الجميل ، يمتاز بهذه الظواهر الطبيعية التى يظن من يراها أن أهله من أسعد الناس بها على وجه الأرض ، وقد ظل هذا رأيى فيهم الى أن رأيت الأرقاء الذين يقطعون الأشجار ويشقونها ليرسلوها الى سفوح التلال فشاطىء البحر، فقد كان هؤلاء على صورة من التعاسة تثير الأسى والاشفاق . فسواعدهم وسيقانهم لم تكن تتفصد عرقا فحسب ، بل كانت كذلك مرعى القروح التى تتنزى قيحا وصديدا ، بسبب ماتصاب به جلودهم من تمزقات أثناء قطع الأشجار وتسويتها بالآلات الحادة دون أن يجدوا أية عناية بهم .

وأخيرا وصلنا الى مدينة « قادش » وفيها حصن وحامية مصرية . ولكننا لم نجد حول أسوار الحصن أى مظهر من مظاهر الحراسة ، فقد كان الضباط والجنود يقيمون بالمدينة مع أهليهم ولا يظهرون للعمل الا حينما يحل موعد توزيع الحبوب والبصل والجعة من مخـــازن فرعون . وقد اضطررنا الى البقاء بهذه المدينة أياما قضيتها فى علاج « كابتاح » من بعض قروح أصيب بها ، وفى هذه الأيام عالجت كذلك الكثيرين من المرضى .

وفى مدينة « قادش » بدت حاجتى الى خاتم ينقش عليـــه اسمى لاستعماله فى التوقيع على الألواح ، فصنعت خاتما على حجر نادر يرمز الى مكانتى ، فالأختام هناك تختلف عنها فى مصر ، وهى لا توضـــع فى الاصبع وانما تعلق فى الرقبة على شكل اسطوانة ، ولا يستعملها الفقراء وغير المتعلمين ، فهؤلاء يبصمون بأصابعهم اذا دعت الحاجة الى ذلك .

ومضينا فى رحلتنا فاجتزنا الحدود الى « نهارانى » من غير أن نجد عائقا ، وبلغنا نهرا قيل لنا انه فى أرض « ميتانى » ، وأدينا رسوما كان على المسافرين أن يؤدوها لجباة راصدين . وعندما عرف الناس فى هذه البلاد أننا من المصريين أخذوا يرحبون بنا ويحيوننا باحترام ، ويقولون لنا : انهم مسرورون اذ يروننا ، فقد مضى عليهم زمن طويل لم يروا فيه وجوها مصرية ، وهم يشعرون بكثير من القلق لأن « فرعون » لم يبعث اليهم جنودا أو أسلحة أو ذهبا ، وان ثمة شائعة قد سرت اليهم هى أن فرعون قد اتخذ لهم الها جديدا لا يعرفون عنه شيئا ولا حاجة بهم اليه.

فهم في غنية عنه بالاهتهم «عشتروت» الهة الحب والجمال ، الى آلهة اخرى ترعاهم وتحميهم وتمنحهم الخير والبركة ٠

وقد دعاني هؤلاء لزيارتهم بمنازلهم واحتفوا بي وأقاموا لي الولائم وكذلك فعلوا مع « كابتاح » الذى لم ينظروا اليه بوصفه خادما وانما نظروا اليه بوصفه مصريا ٠ وقد أعجبه هذا التكريم فقال لي : ان هذه بلاد طيبة كريمة وفي أهلها سذاجة ، وهي لنا مرتع خصيب وحقل مثمر، فالخير في أن نبقى بها ٠٠ ولكنني كنت في شغل عنه وعن آرائه بالمهمة التي ندبني اليها « حورمحب » ٠

وكان الملك وحاشيته قد انتقلوا فيهذا الوقت الى أعاليالجبال اذكان الجو حارا ، ولم أشأ أن أصعد اليهم مؤثرا أن أتعرف أحوال بلدهم في غيبتهمفاتصلت بالناسعلى اختلافمراكزهم الاجتماعية ، كبارهم وصغارهم على السواء ، وكانوا جميعا ، كالذين تحدثوا الينا فور قدومنا ، يشعرون بالقلق ويشكون من انقطاع المدد المصرى عنهم ، ويرون أن بلادهم أصبحت في مهب رياح عاصفة ٠ والواقع أن « ميتاني » في ذلك الحين تقوم على موقع لا يوحى بالأمن والطمأنينة ، فعلى حدودها من الشرق مملكة «بابل» ومن الشمال تربض قبائل متوحشة ومن الغرب بلاد الحيثيين وأهلها مصدر خوف ورعب ٠

وأهل « ميتاني » ذوو أجسام ضامرة ، ونساؤهم جميلات وأطفالهم ضئال مثلهم حتى أنهم ليشبهون الدمى ، والشيوخوالشباب معا يتفاخرون بأنهم كانوا فيما مضى قوما أشداء دان لهم يوما الشمال والجنوبوالشرق والغرب ، فهم يعيشون على ذكريات ماض يبالغون في تعظيمه ، شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب التي تشعر بالنقص في حاضرها فتطلب الكمال في ماضيها ! ٠

على أن الحقيقة المعروفة عن هذه المملكة هي أنها منذ صار أمرها الى الفراعين العظام كان « فرعون » يتخذ من بنات ملوكها زوجات له يقمن في بيته الذهبي ، وقد زادت علاقتها بمصر ، بهذه المصاهرات ، توثقا وتوطدا ٠ ٠

والذى عرفته اجمالا أن عناية الفراعنةبهذه البلاد وتدعيمهم لعروش ملوكها واغداقهم عليها الذهب والسلاح والبضائع ، كان دافعهم الى ذلك كله أنها تعتبر بحكم موقعها درعا تتقى به مصر وسوريا هجمات البابليين والمتوحشين من أهل التخوم القريبة ، وقد ظلت تتلقى هجماتهم كلما

ثاروا على سلطان مصر • وكانت بما يتوافر لهـا من المدد الفرعونى المتصل ، تصدهم دائما وتلزمهم حدودهم ، وهذا هو السبب فى مباهاتهم بقوتهم التى يحسون أنها قد وهنت •

ومع أن الشنعب « الميتانى » يلوح منهوك القوى لطول ماعانى فى دفع المغيرين ، فانه كان كذلك يلوح غير عابيء بذلك ، فأكثر هم الناس هناك منصرف الى الطعام الذى يطهونه بطرق مشهورة ، وهم دائمو الاحتفـال بملابسهم الرشيقة وأحذيتهم المدببة وقلانسهم الطويلة ، وفى أحاديثهم ومعاملاتهم رقة وظرف ، فالحياة عندهم فى عمومها وديعة هادئة ، حتى بيوت الملذات لايقع فيها شغب أو شجار ، وكثيرا ما كنت أشعر بالسأم كلما ترددت عليها لأشرب فيها كئوسا من النبيذ •

وكان أطباؤهم فى مستوى عال من المعرفة ، ويعلمون منفنون الطب أكثر مما أعلم ، وقد أفدت منهم خبرة وتجارب ، وبخاصة فى علاج فقـد البصر الذى كانوا يستعملون فيه الأبر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن فتح الجماجم ، وكانوا يقولون ان أمراض الرأس لا يستطيع شفاءها غير الآلهة • ولعل هذه العقيدة هى التى صرفتهم عن دراسة عملية جراحة الجمجمة التى حذقناها فى مصر • وعلى وجه عام كانت « ميتانى » أوفر حظا من غيرها فى مجال الطب، ولكن الناس مع ذلك ماكادوا يعرفون أننى طبيب حتى أخذوا يهرعون الى زيارتى مصحوبين بمرضاهم ، ذلك لأنهم مشغوفون بالغرباء ، يجرون وراء كل جديد • وهذه الظاهرة واضـحة كل الوضوح فى شئونهم المختلفة ، فأزياؤهم وطعامهم وحركات سيرهم يغلب عليها التنـافس فى محاكاة الأجانب والأخـذ عنهم ، حتى أنهم لا يشربون من النبيذ الا المستوردمن الخارج ، ولهذا أقبلوا على لعـلاج مرضاهم مع وفرة الأطباء المهرة عندهم • وكان النساء يتوافدن على كذلك ويكاشفننى بالخفى من أمراضهن ، وبما يعانين منعجز أزواجهن ، فأعطيهن الدواء المناسب لكل حالة ، وأصنع لأزواجهن « حبوبا » يتناولونهـا مع النبيذ • وقد رأيت فى هؤلاء النسوة جنوحا الى الحرية الفضفاضة ، ولعل هذه الحرية هى سبب قلة النسل عند بعضهن ، وانعدامه عنـد أكثرهن ، وكان واضحا ان ثمة خطرا يتهدد مستقبل تلك البلاد اذا ظل عدد سكانها فى هذا التناقص الملحوظ •

والناس هنالك ضعاف امتحنوا بجيرانهم الحيثيين الذين لم يكن على ظهر الارض ـ كما يروى عنهم ـ قوم أشد منهم قسوة وصلابة وغلظة ، ولهذا كانوا دائما ينالون جيرانهم « الميتانيين » بالأذى ويلاحقونهم بالمساءة

والضرر ، فيرفعون أحجار الحدود الفاصلة بينهم ويضعونها حيثما شاءوا من مواضع ، ويطلقون مواشيهم وعجلاتهم في حقول « الميتانيين » خلف الحدود ، فاذا حاجوهم في ذلك أو حاولوا منعهم ساموهم العذاب النكر ، وقطعوا أيديهم وأرجلهم أو نزعوا جلود رءوسهم وجعلوا منها أستارا متدلية على عيونهم حتى لا يروا أحجار الحدود عندما ينقلونها من أماكنها، أو لا يروا مواشيهم وعجلاتهم وهي تمضي في مزارعهم فتلتهمها وتخربها . وقد قيل لي الكثير من اعتداءات « الحيثيين » وشناعة أعمالهم . وكان « الميتانيون » يرونهم شرا عليهم من الجراد الذى كان يفاجئهم بأسرابه وأرجاله فيأتى على زروعهم وثمارهم ومراعيهم ، ذلك لان الارض تعود بعده فتعوضهم عما فقدوه ، أما «الحيثيون» فكانوا لا يتركونها صالحة للانبات، فعجلاتهم الثقيلة ، حيث تمر ، تمحل الارض وتفتت عناصر حيويتها .

وقد زهدتني تلك الحال في الاقامة الطويلة بينهم ، فأزمعت الرحيل عنهم ، مكتفيا بما عرفت من دخائل أمورهم ، ولكنني أحسست أن أطباء «ميتاني» يظهرون ارتيابهم في مقدرتي على جراحة الجماجم ، فتلبثت في فكرة الرحيل راجيا أن تواتيني فرصة قريبة للقضاء على شكوكهم . وقد تحقق هذا الرجاء عندما ساقت الظروف الى رجلا نابه القدر ، جاءني يشكو مرضا في أذنيه ، ويقول : ان فيهما ما يشبه هدير البحر المستمر، وان آلاما شدادا تتجمع في رأسه حتى ليكاد ينفجر ، وانه يتعذب من ذلك عذابا ان لم يجد من يبرئه منه ، فهو يؤثر الموت العاجل ، ثم قال ان أطباء «ميتاني» قد عجزوا عن علاجه ، وهو يرجو أن يجد المعجزة التي لم يستطيعوها .

وقلت للرجل : قد تبرأ من علتك هذه اذا فتحت جمجمتك ، ولكنها عملية غير يسيرة فليس ينجو منها أكثر من واحد في المائة !..

فقال : ذلك أمر يهون على أية حال ، وخير لي أن أموت على يدك في طلب الحياة ، من أن أموت بيدى فرارا من هذا العذاب المتصل ، فما جدوى الحياة عندى مع هذه الآلام القاسية ؟! . على أنه لو قدر لك أن تبرئني منها فاني لمعطيك ــ مغتبطا ــ نصف ما أملك ، وهو كثير .

ولى اهتمام كبير أخذت أفحص عن علة الرجل ، متحسسا بيدى كل جزء في رأسه . ولكن أجزاء رأسه جميعا كانت سواء في درجة الحساسية، ولم يبد عليه أى ألم في واحد منها . وقبل أن تعتريني الحيرة من هذه الظاهرة ، قال لي «كابتاح» : دق بالمطرقة على رأسه ، فلن تخسر شيئا ..

وكان رأيا صوابا ، فلم أكد أدق بالمطرقة على موضع معين بالرأس حتى صرخ الرجل وسقط على الأرض مغشيا عليه • وهنا فطنت الى مكان الداء ، فاغتبطت بذلك ، ودعوت على الفور الاطباء المتشككين فى مقدرتى وقلت لهم : سأفتح جمجمة هذا الرجل ، والعملية بالغة الخطورة ، وقد تعلمون أو لا تعلمون أن نسبة النجاة من الموت فيها قليلة جدا ، ولكنها مع ذلك من أدق فنون العلم فى سبيل الحياة ، وقد دعوتكم لتشهدوا فيها شيئا جديدا لم تعرفوه من قبل ••

وقالوا فى سخرية لم يستطيعوا اخفاءها : الحق أنها عملية جديرة بأن نشهدها !••

وبدأت عملى ، فطهرت يدى ، كما طهرت المريض وأدوات الجراحة بالنار المقدسة التى تزودت بها من معبد «آمون» ، ثم سلخت جلدة الرأس وأوقفت نزف الدم الغزير بطريقة الكى بالنار • وقد أحدث هذا ألما شديدا للمريض ، ولكنه لم يزعجه ، فقد كان ـ كما أخبرنى ـ يقاسى أشد منه قبل العملية • على أنى فى سبيل تخفيف آلامه سقيته نبيذا مخلوطا بالمخدر ، فسكن وهدأ واحتمل الالم • وفتحت بعد ذلك الشبكة العظمية للجمجمة بالآلات الدقيقة المعدة لذلك ، وعندما نزعت قطعةالعظام من موضع الداء بدا أنه شعر بارتياح ، وكنت أكثر منه ارتياحا بطبيعة الحال ، فقد كان الوقوع على موضع الداء من الوهلة الاولى علامة توفيق وبشيرا بنجاح العملية الخطيرة ، فهذه القطعة العظيمة التى أدرت عليها المشرط كانت هى الجزء الذى ينبغى أن أفتح منه الجمجمة ، ومن هذا الجزء وضعت يدى على الداء الذى باض فيه وأفرخ ، ومن ثم اجتثثت الموضع الخبيث الذى كان بادى الالتهاب كما لو كان جمرة متقدة ، وتناولت سفودا محمى بالنار فكويته ، وأعدت الجمجمة كما كانت وغطيتها بصفائح فضية وجمعت أطراف فروة الرأس ثم خطتها بالخيوط الدقيقة الخاصة •

ونهض المريض بعد ذلك مستردا شعوره الكامل وأخذ يخطو بيننا خطوات مليئة بالنشاط والحيوية ، وعلى وجهه سمات بهجة مترعة ، فقد زال من أذنيه الهدير المزعج ، كما لم يعد يحس بشىء من تلك الآلام الطاغية ، وأقبل على يصافحنى ويشكرنى شكرا متصلا بقلبه ولسانه •

ولم يسع الاطباء الذين كانوا منذ قليل يسخرون الا أن يظهروا إكبارهم لى لنجاح هذه العملية الدقيقة التى كانوا يحسبونها ضربا من الوهم والحماقة •••

واكسبني هذا النجاح شهرة واسعة في أرض « ميتاني » وراحت تشيع وتستفيض حتى جاوزت الحدود الى « بابل » ٠

وقد حدث بعد هذا أن مريضي الممتـــاز استخفه الفرح بالشفاء ، واستطارته العافية بعد اليأس ، فأسرف على نفسه بشرب النبيذ وكثرة الحركة بين الناس ، فسقط من فوق حائط عال كان قد تسلقه مزهوا بقوته فانكسر عنقه ، ولقي حتفه ، ولكن أحدا من الناس لم يرني مسئولا عن هذا الحادث ، فقد كان الجميـــع يمتدحونني ، ويشيدون بمقدرتي الفنية التي لم يشهدوا لها مثيلا من قبل ٠

وأخيرا استأجرت قاربا بمجاديفه ، وأبحرت به في النهر مع «كابتاح» الى « بابل » ، حيث سبقتنا الى هناك شهرتي كطبيب بارع ٠

- ٢ -

تسمى الاراضي التي ينتظمها حكم «بابل» بأكثر من اسم واحد ، فهم يعرفونها حينا باسم «الكلدان» وحينا آخر باسم «الكاسيت» وهو اسم الأقوام الذين يستوطنونها ٠ ولكن الاسم الذى أوثره ــ على اختـــلاف أسمائها ــ هو اسم «بابل» لانه الأوسع اشتهارا في التعريف بهذه المملكة الخصيبة ، التي تتخلل أراضيها شبكة وثيقة من قنوات الري وجداول الأنهر ، ويتسق واديها حتى لا يكاد النظر يقع على نهاية حدوده وأقطاره ومستفيض حقوله ومزارعه ٠

وفي « بابل » أنواع قليلة من الاشجار يعتبر قطعها ذنبا يرتكبه فاعله ضد الآلهة والأهلين ، ويحل عليه عقاب القانون فوق غضب الآلهة ، وعلى نقيض هذا يعد حائزا لرضاء الآلهة كل من يغرس شـــجرة بجانب أخرى ٠

وأهل «بابل» تموج أجسامهم من البدانة والترهل ٠ وهم ، كأمثالهم من أبناء الشعوب ذات البدانة والترهل ، يميلون الى الضحك والفكاهة ، ويرجع هذا الى وفرة ما لديهم من الاطعمة الدسمة وكثرة تناولها في يسر وسهولة ٠ وقد رأيت فيما رأيت هناك طائرا يسمونه «دجاجا» له جناحان ولكنه لا يستطيع أن يطير كغيره من الطيور ذوات الاجنحة ٠ والدجاجة الواحدة من هذا الطير الذى يعيش مع الناس على الارض ، تضـــع كل يوم بيضة في مثل حجم بيضة التمساح ، وقد استغربت هذا ، كما اعتقد أن

غيرى من البعيدين عن هذه البلاد سيستغربونه . و «البابليون» يأكلون هذا البيض ويقولون عنه انه طعام لذيذ شهى . وقد قدموه لى طعاما فلم أتناوله لانى لم أطعمه قبـل ذلك ، وخشيت أن تصيبنى منه مضرة اذا تناولته لاول مرة فى هذه البـــلاد النائية ، واكتفيت فى طعامى هنالك بأنواع مما أعرفه أو أعرف عناصره .

وأهل «بابل» يتفاخرون بمدينتهم ويتطاولون بها على أبناء الشعوب الأخرى ، ويرون أنها أعظم وأقدم مدن العالم . ومع انى لم أسلم لهم هذا الرأى على اطلاقه ، مقررا أن «طيبة» تسبق «بابل» فى عظمتها وقدمها : فانى أعترف بأن مدينة «بابل» أدهشتنى حقا بضخامتها وفيض ثرائها ، وارتفاع حوائطها التى تشبه التلال شهوقا ، ومساكنها المشيدة من طوابق ذوات عدد ، حتى أن الناس فى هذه المساكن التى تبلغ أحيانا الخمسة الطوابق كانوا أخلاطا وصنوفا منوعة يعلو بعضهم بعضا ، وهو أمر غير مألوف وقتذاك فى غير هذا المجتمع البابلى . وقد افتنوا فى البناء الذى أقاموه لآلهتهم ، فكان أكثر من سائر أبنيتهم ارتفاعا وسموقا ودقة عمارة .

وكان الههم المعبود هو «مردوخ» ، وفى الطريق الى معبده أقيمت ، على مشرف الالهة «عشتروت» ، بوابة أعلى من أبراج معبد «آمون» وعلى حوائطها مجموعة من القرميد المصقول منوع الالوان يضفى عليها صورة باهرة تأخذ بالابصار . وبين البوابة ومعبد « مردوخ » طريق يمتد فى التواء حلزونى ، ولكنه كان عريضا ممهدا يتسع لاعداد من العجلات تسير عليه جنبا الى جنب ، وفوق برج المعبد كان يقيم المنجمون الذين يرصدون الأجرام السماوية ويحسبون حركاتها وتسيارها ، ويتنبأون للناس بأيام نحوسهم وسعودهم ، وقيل إنهم كانوا يستطيعون أن ينبئوا أى شخص بما هو مقدور له من خير أو شر فى مستقبل أيامه اذا عرفوا اليوم والساعة التى ولد فيهـا ، ولم يتهيأ لى أن أجرب علمهم فى ذلك لأنى كنت أجهل تماما يوم مولدى وساعته ...

ومن مصرف هذا المعبد استبدلت بمـــا كان معى من ألواح ذهبا ، وأقمت قريبا من بوابة «عشتروت» فى فندق كبير مكون من عدة طوابق مرتفعة ، وعلى سطحه حديقة رائعة حافلة باشجـــار الفـاكهة وشجيرات «الآس» ، والمياه تجرى فى قنوات مبنية ، وفى مياه بحيرتها تسبح أنواع جميلة من السمك .

وكان هذا الفندق الفاخر مقصد الممتازين الذين يتواردون على المدينة

من قراهم وضياعهم ، وكذلك كان ملتقى أفراد البعثـــات الاجنبية ومقر اقامتهم ، وفيه يجد الجميع راحتهم موفورة ميسرة ، فغرفه مفروشـــة بالسجاجيد الثمينة ومزينة بلوحات الصور المرحة ، وفروشها وحشياتها وثيرة صنعت من جلود الحيوان الناعمة ٠

وكان الاسم الذى يطلق عليه مشيرا الى ما يجد النزلاء فيه من الجمام والترفيه ، فاسمه «بيت عشتروت للسرور» ، وهو ، كأى شيء هام بالمدينة، ينتمى الى برج هذه الآلهة الأثيرة المحببة عند أهلها ٠

« وبابل » حينذاك أحفل بلاد العـــالم بأخلاط الناس من مختلف الصنوف والاجناس ومتباين اللغات واللهجات والافكار ، وهناك تسمع منهم جميعا ان سائر الطرق تؤدى الى «بابل» لوقوعها فى مركز وسط بين أقطار الدنيا ، ولأهلها شهرة لا تدانى فى التجارة ، فهم يحذقونها وقلما يعنون بشيء سواها ، حتى قيل ان آلهتهم يتجرون كذلك فيما بينهم ٠ ولفرط تأثرهم بهذا الطابع التجارى يؤثرون الســـلام ويحرصون عليه ويكرهون الحروب ويتقونها ، ولهذا أقاموا الاسوار حول مدينتهم لتأمين أموالهم والمحافظة على متاجرهم ، ونشروا جنودهم المدربين على الاسوار والمعابد وسبل المواصلات حفاظا للامن ، ودفعا للاخطار ، وكانوا معجبين بهـــؤلاء الجنود الذين يطالعونهم كل يوم ذاهبين الى بوابة « عشتروت » بقلانسهم وأسلحتهم المتألقة بأوسمة الذهب وشارات الفضة ، تنويها بما تنطوى عليه حياتهم من الثراء والترف ، ويبلغ بهم الاعتداد والزهو بتلك الحال أنهم كلما أقبل عليهم غريب وافد ، سألوه عما اذا كان قد رأى فى غير بلدهم جنودا أفضل من جنودهم عدة وزينة ؟!٠٠

وكان ملكهم صبيا غض الاهاب ، ناعم الصبا ٠ وقد اقتضاه وقار العرش أن يبدو فى صورة رجل ، فوضع أو وضعوا له على مدار وجهه لحية مستعارة ، ولكنه مع ذلك كان بدافع من غريزة الطفولة ينزع الى اللعب ويتلهى بالاقاصيص ذات الاغراب والاثارة ٠٠

ذلك ماقد عرفته عن هذا الملك حين تلقيت الدعوة لأتشرف بمقابلته، وأنا اذ ذاك مقيم بفندق « بيت عشتروت » ٠ وكانت هذه الدعوة وليد شهرتى التى سبقتنى الى « بابل » من بلاد «ميتانى» ، وثمرة تعرفى الى كهنتها وأطبائها ٠

ولم يسترح «كابتاح» الى تلبيتى الدعوة ، فنصح لى بألا أذهب الى

لقاء الملك قائلا : انه يتوجس الشر فى الاتصال بالملوك ، ويرى أن الخير فى ان يكون الانسان بمنأى منهم ليسلم من أذاهم ! ..

ولكننى لم آخذ بنصيحته ، وقلت له لأطمئنه : لا تخف فان الجعران المقدس معنا ، وهو كما تعلم تعويذة تقينا شرور الناس ولو كانوا ملوكا..

فقال مصمما على رأيه : ان سر الجعران قد لا يحتمل كل شيء ، وهو حجر على أية حال ، ومن الحكمة ألا تسرف فى الاعتماد عليه ، فربما يكون الروح الذى انبث فيه قد انحسر عنه لطول الزمن واختلاف الاجواء واتصال الحركة ، فلسنا ندرى الحقيقة وهى غيب مستور . وانما الذى أعلمه يقينا أن الوقاية خير من العلاج ، والسلامة فى ألا نجازف بأنفسنا ونلقى بها فى المآزق ، فان أصررت مع ذلك على لقاء الملك فلست بمانعك ولكنى لا أدعك تذهب وحدك ، فسأرافقك اليه لأحمل معك ما قد يتمخض عنه هذا اللقاء من سوء ، ولو أنك وحدك المسئول عنه . على أنى أرى أن نبدو فى عين الملك بمنزلة من الاحترام تغريه بتكريمنا ، وسبيل ذلك أن نطلب مقعدا ملكيا يحملنا اليه ، فهذا أجدر بمن يدعوهم الملك الى مقابلته وهم من غير رعاياه ، ثم ليكن ذهابنا اليه فى غير يومنا هذا ، فهو اليوم الأخير من الاسبوع ، ويعدونه فى هذه المملكة يوم نحس ، الا ترى المتاجر قد أغلقت أبوابها ، والناس قد لزموا بيوتهم ؟! ذلك لانهم يعتقدون أن النحس مصيبهم اذا عملوا فى هذا اليوم عملا ، فلماذا نغامر بحظنا فيه ؟!.

وقع رأى «كابتاح» منى موقع القبول ، فما ينبغى أن نشذ على عادة أهل «بابل» فى هذا اليوم ، فلابد أن لمخاوفهم منه حقيقة لا نعلمها ، ونحن فى «مصر» لانفرق بين الأيام ، ولكننا هناك نعرف أن ثمة أياما غير معينة تنبىء النجوم بأنها نحسات ، ولعل منها ذلك اليوم الاخير من الاسبوع فى هذه المملكة .

واستسلاما الى هذه العادة رغبت الى رســـول الملك فى أن تؤجل المقابلة الى الغد ، وأن يجيئنى بمقعد أذهب محمولا عليه الى الملك ، فلا يجمل أن أمثل بين يديه معفرا بتراب الطريق !..

وبدا الخادم دهشا من تقييد الدعوة الملكية بمثل هذا الشرط غير المألوف . فالملك عندما يدعو انسانا ، ويحدد موعدا ، وجبت الطاعة على الفور ، ولهذا قال : أخشى ألا يقبل الملك مطلبك ، وأن يأمر فتذهب اليه فى الحال مرغما ومن ورائك حراب الجند !..

ثم تركنا عائدا الى قصر الملك ، وقضينا الوقت الى صباح اليوم التالى

بالفندق فى غمر من الظنون والتكهنات ، مترقبين أحداثا تهب علينا من جانب الملك الذى سمعنا من رسوله كلاما فيه وعيد وانذار ٠٠

على أن أعصابنا المضطربة عادت الى سكينتها وهدوئها حينما أهل على الفندق خدم القصر الملكى ومعهم الكرسى ليحملنى الى الملك ٠

ولم يرض « كابتاح » عن هذا الكرسى ، لانه كان عاديا مما يرسله القصر عادة فى طلب التجار الذين يعرضون على الملك السلع والجواهر والقرود وريش النعام وغيرها ، فصرخ فى وجوه الخدم محتجا وقال لهم : بحق «ست» وسائر الشياطين ان لعنة الهكم «مردوخ» ستنصب على رءوسكم التى تحمل هذا الكرسى الحقير ٠٠٠ نحوه جانبا ، فان سيدى لأكبر شأنا من أن يجلس على مثله ٠

وفى غمرة هذه المفاجأة التى أثارت دهشة الخدم وحنقهم ، كما أثارت فضول النزلاء الذين أطلوا برءوسهم ليروا ذلك السيد ، الذى يرى خادمه أن الكرسى الملكى غير لائق به ، أسرع «كابتاح» فاستأجر من ادارة الفندق مقعدا ضخما يستخدمه سفراء الممالك فى تنقلاتهم ٠

وهبطت من حجرتى مرتديا حلة موشاة بالذهب والفضة ، وفى عنقى القلائد الذهبية التى انعكس عليها ضوء الشمس ، فتوهجت وأضفت على شخصى غلالة من نور ، وفى اثرى خدم الفندق يحملون عقاقيرى وآلاتى الجراحية فى صناديقها المصنوعة من خشب السدر والأبنوس المطعم بالعاج ٠

وقد رآنى الناس فى هذا المظهر الفخم فقال بعضهم لبعض انه لسيد عظيم وفيه جلال آلهة الحكمة ٠ وبحافز من الرغبة فى استطلاع جلية أمرى تجمعوا حولى وتبعونى الى القصر الملكى ٠٠٠

وهناك عند بوابة القصر وقف الحراس صفا وبأيديهم الحراب والدروع المذهبة ، وكانت كثيرة متلاصقة حتى لتبدو كأنها حائط منيع من الحلى ، وقد أخذ هؤلاء الحراس يدافعون الناس المحتشدين عند بوابة القصر ليفسحوا لى طريق المرور الى ساحته الداخلية ٠ فلما دلفت اليها رأيت على جانبيها صفوفا من تماثيل الأسود المجنحة ، وتلقانى فيها رجل عجوز حليق الذقن كالعلماء ، فى أذنيه أقراط مدلاة من الذهب الخالص ، وكانت تشيع فى وجهه وعينيه سحابة من الغيظ حينما ابتدرنى قائلا : عجيب أمرك أيها الرجل !٠٠ تقدم على الملك فى مثل هذه الضجة ، وهو سيد أركان الدنيا الاربعة ، انه ليسأل من أى صنف من الناس ، ذلك

الذى يدعوه ويحدد لدعوته موعدا فيابى الا أن يجىء فى الموعـد الذى يختـــاره هو ، وبالطريقة التى يرسمها هو ، ثم لا يقنع بهذا فيجىء فى قافلة من الجماهير ؟!

فقلت له فى كبرياء : أيها الشيخ !٠٠ ما أشبه كلامك هذا بطنين الذباب فى أذنى ٠ وانى لمسائلك بدورى من تكون أنت فى هذا القصر ، وبأى حق تخاطب ، بهذه الغلظة ، رجلا جاء الى هنا مدعوا من الملك ؟!٠٠

قال : اننى رئيس الاطباء فى حاشية سيد أركان الدنيا الاربعة ، وما أراك أنت الا دجالا مشـــعوذا ، جئت لتختلس الذهب والفضة من الملك ! ٠٠ ولن أفلتك من قبضتى الا اذا أعطيتنى نصف ما سوف تناله من ماله ٠٠

قلت له ساخرا : ذلك شأنك مع خادمى ، فمن الاعمال التى تقع فى اختصـــاصه أن يخلى الطريق أمامى من الطفيليين ومتوترى الاعصاب وقناصى المنافع !٠٠ على أنى لمشـــفق عليك لانك عجوز متهالك ، وآية اشفاقى عليك هذه الاساور الذهبية التى أمنحك اياها الآن كرما منى ، لتعلم أن المال عندى ، كالتراب تحت قدمى ، كثير ولا قيمة له ، فليس هو مطلبى ، ولا من أجله جئت اليكم ، وانما أنا طبيب ، وفى سبيل الحكمة ، لا فى سبيل غيرها ، أجوب البلاد ، وأسعى فى الارض ٠٠٠ (وانتزعت بعض الاساور الذهبية التى يتزين بها ذراعى ودفعت بها اليه) ٠

فبهت الرجل عندئذ وأرتج عليه ، ولكنه تناول الاساور ، وســار أمامى ، فى احترام متكلف ، الى قاعـة الملك ٠ وقد بلغ من تجمله لى أنه لم يمنع «كابتاح» من مرافقتى الى لقاء سيده وسيد أركان الدنيا الاربعة ، كما يقول !٠٠

وكان الملك « بورنابورياش » يجلس فوق وسائد وثيرة مفوفة فى حجرة ذات مسارب عدة للهـواء ، وحوائطهـــا مكسوة بألوان براقة من القرميد المصقول ، وقد بدا ــ وهو الصبى المدلل ــ عابس الوجه ، واضعا يده على خده ، وبمقربة منه يرقد أسد ، صدرت عنه زمجرة خفيفة حين رآنا ٠

وخر الرجل العجوز ــ وهو يتقدمنا ــ على الارض كأنه يسجد فى محراب صلاة ، وفعل مثله «كابتاح» ولكنه ارتاع فزعا عندما سمع زمجرة الأسد ، فدار على يديه وتداخل فى نفسه حتى كأنه الضفدعة لفرط خوفه،

فانفجر الملك ضاحكا لمنظره ، ومال على وسائده مغرقا فى الضحك حتى بدرت الدموع من عينيه ٠

ولكن الملك اعتاده الألم فعاد الى عبوسه معتمدا خده بيده ، وأخذ يئن متوجعا ، وأدركت على الفور أنه يشكو علة فى هـــذا الموضع من وجهه ، فقد كان به ورم ظاهر امتد الى عينه حتى بدت نصف مفتوحة ٠ وأوما الى الرجل العجوز ، فنهض هذا قائلا فى زلفى وملق : هـــذا هو المصرى العنيد يا سيدى ٠٠٠ ان كلمة منك لكافية أن تطيح برأسه عقابا له على عناده !٠٠

وقبل أن يسترسل فى هذا ، دفعه الملك برجله قائلا : ليس هذا وقت الهراء والكلام السخيف ، انما هو وقت العمل السريع الذى دعونا هذا الطبيب المصرى اليه ٠ ان الالم الذى أشعر به فظيع لا يحتمل ، وهو يعصرنى عصرا ، وقد قضيت عدة ليال مسهدا كأنما أتقلب على الجمر ؛ ولم اتناول خلال هذا الوقت الطويل سوى الحســـاء حتى لأكاد أموت جوعا !٠٠ ولقـد عجزت أيها الطبيب العجوز عن علاجى ، فليتوله اذن ذلك الطبيب المصرى ٠

وهنا أخذ الشيخ العجوز يخبط رأسه بالحائط منتحبا وهو يقول : لقد صنعنا ــ ياسيد أركان الدنيا الاربعة ــ كل ما فى وسعنا لشفائك ، وتقدمنا بالكثير من الاشداق والاسنان الى المعبد مبتهلين الى الآلهة أن تطرد الروح الشريرة المتسللة الى شدقك وأسنانك ، ثم انك ياسيدى لم تأذن لنا بلمس شخصك المقدس فاستحال علينا أن نجرب الطب بأيدينا فى موضع العلة ، وما أظن هذا المصرى سيأتى بما لم نستطعه !٠٠

فقلت : اننى أنا «سنوحى» المصرى الذى يلقب بالوحيد وابن الحمار الوحشى ، وفى استطاعتى أن أريحك من هذا الالم الذى يقض مضجعك ، ومصدره ، دون حاجة الى فحص عنه ، انك لا تنظف أسنانك ، فعلقت الجراثيم باحداها واتخذت منها بؤرة خبيثة، ومن ثم تنزت قيحا وصديدا، فكان مرضا موجعا وألما ممضا ، وهو أمر من بدهيات الطب ، ولا بد أن يكون أطباؤك قد عرفوه ، وعرفوا ما ينبغى له من علاج ٠ وعلى أية حال لا مناص من أن تشفى من هذا المرض ، فما يليق أن يستبد بك على هذا النحو ، وأنت سيد أركان الدنيا الاربعة ، الذى يرتعد أمامه الأسود خوفا!٠

قال الملك وهو لا يزال ممسكا بخده كأنه يدفع الألم بيده : انك تتحدث حديث الجرىء الواثق من نفسه ، فعجل اذن بعـــلاجى ، ولئن

أبرأتني لأعطينك أسخى العطاء ، ولأكافئنك أجزل المـــكافأة . أما اذا اخفقت كما أخفق الآخرون ، فجزاؤك الذبح العاجل الذى لا تقبـل فيه شفاعة !..

قلت : فليكن ما تشاء ، ولن يكون الا الخير الذى ترضى به ، فان الها صغيرا قويا يرافقنى ، وقد أوحى الى الا أحضر هنا بالأمس ، فنزلت على اشارته ، وبان لى الآن أنه كان حكيما فيما اشار به ، ذلك أن تلك البضعة المريضة فى أسنانك لم تكن قد صلحت حتى الأمس للعمل الجراحى الذى هو الوسيلة الطبية الحاسمة للعلاج ، ولكنها اليوم قد بلغت من ذلك ، الحد المراد ، وانى الآن لعلى استعداد لمباشرة عملى ، وقد لا يخلو من ألم ولكنه ألم عاجل الى راحة مستقرة ، وليس فى مقدور الآلهة نفسها أن تمنع عن أحد ، ولو كان ملكا ، ألم العلاج ..

وعلت وجه الملك انفعالات الحيرة والتردد ، وشعرت نحوه فى هذه اللحظة بشىء كثير من المحبة والاحترام ، فقد بدا شابا لطيفا ، فيه براءة الشباب وبساطته ، مجردا من غطرسة الملوك واستعلائهم . انه الآن انسان ضعيف يفكر فى الخلاص من الألم الذى لم يعصـــمه منه ملكه الواسع وسلطانه العريض ، وعلى شدة لحاجته فى طلب الشــــفاء فانه يتهيب الوسيلة اليه ، ويفزع من يد الطبيب تمتد الى موضع الداء .

وأخيرا يخرج الملك من حيرته وتردده ويقول فى حزم : عجل بما ترى أن تفعل !..

وهمهم الرجل العجوز ، وأخذ يضرب رأسه بيده ، ولكنى لم أعره التفاتا ، وطلبت على الفور نبيذا سـاخنا ثم خلطت به مادة مخدرة ، وسقيت منه الملك ، فهدأ الألم بعد قليل ، واستبشر بذلك فقال : هانذا فى سبيل الخلاص من الألم ، وأظنك فى غير حاجة الى استعمال مبضع أو منزع .

وكانت رغبتى فى اجتثاث مصدر الألم بالجراحة أقوى من رغبـة الملك فى الاكتفاء بتسكينه ، فأخذت برأسه بين يدى بقوة وفتحت فمه وهو يتململ ، وفى سرعة أعملت مبضعى المعقم فى الدمل ، فصرخ صرخة مدوية تحرك لها الأسد الرابض ، وأخذ يزأر كما لو كان ينذرنى بالكف عن سيده .

وبعد بصقات بصقها الملك لعابا ودما وصديدا ، شعر بالراحة التى

حرم منها أياما عدة ، فقال مبتهجا : يا «سنوحى المصرى» .. انك في الحق لطبيب ماهر ..

وضاق صدر الرجل العجوز بهذا فقال : كان باستطاعتى أن أصنع مثلما صنع ، بل خيرا مما صنع ، لو أن مولاى أجاز لى – كما أجاز له – لمس الفك المقدس ، وما من شك فى أن طبيب أسنان الملك كان أقدر منا كلينا على ذلك ! .

وعقبت على كلام العجوز المحنق قائلا : هذا صحيح ، فما صنعت شيئا يعجز عنه هو أو طبيب الاسنان أو غيرهما من أطباء هذا البلد ، ولكن أحدا منهم مع ذلك لم يستطع أن يخلصك من آلامك على هذا الوجه الذى استطعته أنا .. ذلك لأنهم ضعاف الارادة ، وأنا قويها ، وكان واجب المهنة يفرض عليهم أن يهاجموا العلة فى موضعها بوسائلهم الفنية ، غير عابئين بسخطك أو رضاك ، فليس الامر هنا أمر ملك ، ولكنه أمر مريض ، ولكنهم أوجسوا منك خيفة ، وفزعوا منك مريضا متوجعا يستدله الألم كما يفزعون منك سيدا جبارا وملكا باطشا موفور القوة والسلطان . وهم بهذا قد خرجوا من صف الحكمة الوقور الشجاعة الى مضطرب الدهماء والأرقاء ، والفرق بين الطائفتين كبير .

قال الملك : لم أسمع من قبل كلاما كهذا ، وهو فيما أرى معقول مستساغ ، فالواقع أنك أنقذتنى من ألم شديد ، ولهذا فقد غفرت لك اجتراءك بقوة على رأسى ، واجتراء خادمك هذا على الوقوف هكذا ليرانى تحت مبضعك ويسمع صراخى بين يديك ، وانها لكبيرة منكما معا ، ولكنى عفوت عنه كذلك ، فقد أضحكنى منظره وهو ينقبض وينكمش فرقا من زمجرة الأسد ! .

وأمر الملك بالطعام ليأكل ، فقد كان جائعا ، فجىء به فى أطباق من فضة ووضعت على مائدته كئوس النبيذ الذهبية ، ودعانى لتناول الطعام معه قائلا : انى أسمح لك يا « سنوحى » بمواكلتى والجلوس معى على هذه المائدة الملكية ، وهو ما لا يتفق مع مكانتى ، ولكنى أخصك بهذا الشرف اعترافا بمهارتك وتقديرا لشجاعتك .

وحين فرغنا من الطعام والشراب قلت له : انك قد استرحت الآن من الألم يا سيدى ، ولكن ثمة بقية بداخل فمك يجب أن تزول ، حتى لا يتجدد الألم فيما بعد ، فهنالك الضرس المعتل الذى هو فى الحقيقة مصدر الداء ، ولا مناص من اقتلاعه ، ومن الميسور أن يفعل هذا طبيب أسنانك بعد زوال الورم والتئام الجرح .

وتبرم الملك ، اذ كان يظن أن الأمر قد انتهى ، فما بالى أشير الى ألم سيتجدد والى عملية أخرى تضع رأسه من جديد بين يدى طبيب آخر ! • ولكنه بعد تفكير قليل عاد يقول : انك تقول الحق ، فان الألم يعتادنى فى كل ربيع وخريف ، على أنه ان كان لا معدى من اقتلاع الضرس فانك أنت الذى تفعل ذلك ، لا طبيب أسنانى هذا الذى لا أريد أن أرى وجهه . فلست أعفيه من جريرة هذه العلة •

قلت له : انه طبيب متخصص في علاج الاسنان ، وهو فى فنه أمهر أطباء مملكتك ، بل انه لأمهر منى أنا فى هذه الناحية ، ولا يعوزه الا أن نأذن له فى ممارسة عمله فى أسنانك . وليس من حقى أن أزاحمه على موضعه منك • ولكن اذا شئت ، فانى مستعد للوقوف بجانبك أثناء قيامه بعمله ، وسأستخدم فى سبيل تهوين الامر عليك كل ما عندى من عقاقير طبية وكل ما حذقته من فنون الطب فى سائر البلاد والممالك التى تنقلت فيها • ومن الممكن أن يتم هذا بعد أسبوعين من اليوم • والأفضل أن نحدد هذا الموعد من الآن ، ففى خلال هذه الفترة سيكون جرح خدك قد شفى تماما . وسأعطيك دواء تنظف به أسنانك يوميا ، وسيكون مذاقه غير سائغ ولكنه محتمل •

قال الملك مغضبا : فاذا لم أستعمل هذا الدواء ؟ ! •

قلت : من الخير أن تستعمله ، ففيه لك شفاء وعافية ، وشخص الملك يجب أن يصح من العلل ويوقى من الآلام ، ولو أنك وثقت بى وعملت باشارتى فانك واجد من فنونى عجبا عجابا ، فسأريك عندئذ كيف أحول الماء دما ، وأعلمك كيف تفعل ذلك بنفسك ، فتنال به من نفوس رعاياك اكبارا فوق اكبار ، اذ يرون فيه اعجازا يجاوز قدرة البشر ، ولا أقتضيك على هذا السر شيئا سوى أن تكتمه حتى عن أقرب القرباء اليك ، فهو من أسرار كهنة « آمون » ، وأنا من أصحاب المرتبة الاولى بينهم ، وما كنت لأعلمك سرا من أسرارهم لو لم تكن ملكا عظيما أحببته ملء قلبى •

وقبل أن أفرغ من كلامى سمعنا صرخات « كابتاح » تترامى على آذاننا من الخارج مستنجدا بنا لننحى الأسد من طريقه الى الملك ، فهو يريد أن يراه بنفسه ليطمئن على صحته ! ••

وضحك الملك ، وأذن « لكابتاح » بالدخول عليه وباعد بينه وبين الأسد ، وقال لى : ان خادمك هذا شخصية مسلية طريفة لم أر مثلها فى

حياتى ، فهلا بعته لى بما شئت من مال يغنيك ؟ ! . فلم أحر جوابا ، فذلك ما لم يكن الى الموافقة عليه سبيل . وأدرك الملك هذا فلم يتشدد فى طلبه .

وبدأت عينا الملك تغفوان . فقد قضى ليالى طوالا لم يذق فيها طعم النوم . فاستأذنته فى الانصراف ، فأذن مؤكدا لى صداقته .

وتبعنا الرجل العجوز فقلت له : يجمل بنا أن نتشاور فيما يجب أن نفعل خلال الأسبوعين القادمين ، فان اليوم الأخير منهما سيكون يوما عصيبا على الملك وأرى من واجبنا منذ الآن أن نتقدم من أجله بالقرابين الى الآلهة .

ولاح عليه الارتياح الى هذا الاقتراح ، فواعدنى على اللقاء بالمعبد ، لتقديم القرابين والتشاور مع الأطباء الآخرين .

ولم ينس الرجل العجوز ، ونحن نعتلى مقعد الفندق بعد مغادرة القصر ، أن يمنح عامليه طعاما وشرابا ، فسروا بهذا وشكرونى مقدرين ، ومضوا بنا وهم يغنون على طول طريقنا للفندق وجموع الناس تواكبنا الى هناك .

ومنذ ذلك الحين لمع اسمى فى « بابل » .

- ٣ -

وفى برج الاله « مردوخ » ، وقبيل الموعد المحدد للعملية الملكية ، اجتمعت بأطباء الملك حيث قدمنا هناك قربانا مشتركا ، وكان شاة من النعاج،اذ هى من أطيب الضحايا الى ذلك الاله كما يقولون، وفى كبدها أسرار، زعم الكهنة أنها تنبئهم بالغيب . وقد أخذوا يتأملون كبد ضحيتنا ويقلبون أنظارهم فيها ، ثم قالوا : ان الملك سيكون مغيظا محنقا ، ولكن أحدا منا لن يناله من ذلك مكروه يودى بحياته أو يصيبه بعاهة مستديمة ، وان من الخير أن نحذر الحراب والمخالب ! ..

ورغبنا الى أولئك المنجمين فى أن يراجعوا كتاب السموات ليعرفوا ما اذا كان اليوم الذى اخترناه للعملية موافقا لحسن الطالع ؟ ! . فصبوا زيتا على ماء وراحوا يطيلون النظر فيه ، وبعد لأى قالوا انهم لم يتبينوا شيئا يثير الملاحظة ، وعلى الاقل فانهم لم يلمحوا علامة من علامات الشر ..

وعندما تركنا المعبد رأينا نسرا يحلق فى الجو قريبا من رءوسنا وبين مخالبه رأس انسان التقطه من جدار غير بعيد ، فأوجست من ذلك شرا ، ولكن الكهنة قالوا ان هذا اشارة بالخير ، ولم أستطع فى داخل نفسى ـ وقتها ـ أن أومن بهذا التفسير ! ..

ومرة أخرى تلاقينا بالقصر لمباشرة العملية فى موعدها . وعملا بتحذيرات العرافين التمسنا اخلاء المكان من جنود الحرس حاملى الحراب ، ومن الأسد ذى المخلب والناب . وكنت أشد خيفة من هذا الأسد ، فقد أخبرنى الاطبـــاء أن الملك اذا غضب على أحد أطلق عليه رفيقه الأسد ، ففتك به .

وطلع علينا الملك « بورنابورياش » فياض البشر موفور العافية ، محصنا كبده بالنبيذ على حد تعبيرهم فى « بابل » ، غير أنه ماكاد يرى كرسى طبيب الاسنان ، وكان قد نقل الى القصر فى ذلك اليوم لاجراء العملية ، حتى امتقع وجهه ، وقال ان لديه أعمالا هامة تتصل بمصلحة الدولة ، وكان قد نسيها ، فهو عائد اليها لانجازها . ثم أدار الينا ظهره منصرفا عنا ، وران على الأطباء سكوت مطلق ، وتدلت وجوههم الى الارض خشوعا ورهبة . ولكننى أدركت أن الملك يختلق هذا العـــذر هربا من العملية ، فأسرعت اليه وأمسكت بيده ، وقلت له متلطفا : يا سيدى أن كل شىء سيتم بسرعة وبغير عناء . فتوقف مستسلما ، وعندئذ أشرت الى الاطباء ليظهروا أنفسهم ويستعدوا ، وعقمت على النار آلات الجراحة بنفسى ، وأخذت أدلك لثة الملك بالدهان المخدر حتى شعر أن وجهه صار كأنه قطعة من خشب ، وأن لسانه قد توقف عن الحركة ، ومن ثم أجلسناه على الكرسى الطبى ، وأحنينا رأسه الى ظهر الكرسى ، وجعلنا بينهما وثاقا محكما ، ووضعنا فى فمه قواطع خشبية مصقولة لانفراج فكيه حتى لا يطبقهما . وجعلت أفاكهه وأسرى عنه بالحديث العذب الذى يستهويه ، فى حين كان الاطباء يتضرعون الى آلهة « بابل » فى صوت مسموع ، أن يعينوا الملك ويحفظوه ، ووضع طبيب الاسنان آلته فى فم الملك المفتوح ، وقبض بها على الضرس المريض ، ثم انتزعه بمهارة فاقت ما كنت أحدسه وأتوقعه منه .

وصرخ الملك صراخا أهاج الاسد فى الخارج ، فسمعناه يزأر زئيرا مرعبا ويضرب الباب المغلق بمخالبه محاولا فتحه واقتحامه . وفى الحق كان الجـــو وقتـــذاك مشـــحونا بالفـــزع من كل جانب ، فالملك لم

يسكن صراخه ولم ينقطع ، بل لقد ازداد واشتد عندما حللنا رباط رأسه وأنزلناه من فـــوق الكرسى واستللنا القواطع الخشبية من فكيه ، وجعل يبصق فى الوعاء الذى وضعناه بين يديه دما ، فهنا كان صراخه فظيعا مختلطا بنشيج مثير من البكاء ، فما دار فى أذهاننا الا أن صراخ الملك وبكاءه بالغان آذان حراسه ، وأنهم فى طريقهم الينا ليفتكوا بنا جميعا ! ٠٠ وبلغ الجزع من هذا المصير أقصى مضاعفاته عند ما خرج الملك من صراخه ليأمر فى غضب صارم بادخال الاسد الى الحجرة ، ثم يركل برجله وعاء النار فينثرها ، ويمسك بعصاه وينهال بها ضربا على طبيب أسنانه ٠

على أنى غالبت أعصابى المتوفزة ، فرحت أداهيه وأهدهد من ثورته ، مبالغا فى التلطف ، وأناشده أن يغسل فمه بدواء قدمته اليه ، ومازلت به حتى لان وأسلس وأخذ يغرغر بالدواء وفق اشارتى ، فى حين كان الاطباء سجودا عند قدميه فى ارتعاش ظاهر ٠ أما طبيب الاسنان فكان يتغشاه ذهول المقبل على الموت المحتوم ! ٠٠

وبعد قليل هدأت العاصفة الهوجاء ، وانجاب الزلزال المخيف ، فقد أخذ الملك يستشعر الراحة والطمأنينة ، وراح يشرب نبيذا ، فاسترد الجميع أرواحهم التى كانت توشك أن تفارق أجسادهم ٠

وكره الملك أن نبقى فى حجرة العملية ، فدعانا الى مغادرتهـــا ، ورافقناه الى قاعة الولائم الكبرى ، وأقبل على متهلل الوجه كما لو كان يختصنى بالرضا والثناء ثم سألنى أن أظهره على عجائب فنونى كما وعدته ، فدعوت بماء قراح ، وصببته فى اناء ، وطلبت الى الملك والاطباء أن يتذوقوه ليتحققوا من أنه ماء قراح لا شية فيه ، ففعلوا ثم صـــببته ببطء فى اناء آخر ، فما ان استقر فيه حتى استحال الى دم قان ، فهالهم أن يحدث هذا ، وصرخوا مشدوهين فزعين ٠٠

وأذن الملك للأطباء بعد ذلك فى الانصراف ، بعد أن أجزل مكافآتهم ، واستبقانى لديه دونهم ، وراح يستوضحنى سر هذه المعجزة التى يتحول بها الماء دما ، فكاشفته به وأعطيته المادة التى تفعل ذلك ، وكانت طريقة استعمالها ميسرة لا تعقيد فيها ولا جهد ٠ فأعجبه هذا كثيرا ، وفرح به فرحا عظيما ، ولجت به الرغبة فى أن يصنع المعجزة بنفسه ، فدعا فى الغد عددا كبيرا من رجال مملكته الممتازين وأصحاب المناصب الكبرى فى الدولة ، فاجتمعوا له بحديقة القصر على حفافى بحيرته الجميلة ، وظهر الملك فيهم وقال لهم : ماذا ترون فى هذه البحيرة ؟ !

قالوا : ما نرى غير الماء ! ..

قال : يمكنكم أن تتحققوا من ذلك قبل أن أمد يدى اليه ..

فوضعوا أيديهم بالماء انصياعا لأمر الملك ، وهم دهشون من مفاجأته لهم بهذا الامتحان العجيب ، فما الماء فى أعينهم بمختلف عن الماء فى أيديهم وفى أفواههم ، انه حقيقة سافرة لا تحتاج الى شيء من المساءلة والتحقيق.. وأخيرا قالوا للملك : قد تحققنا يا سيدى من أن ماء البحيرة لا يزال كالعهد به أصفى ماء وأعذبه ..

فابتسم لهم الملك ، ومد يده الى البحيرة ، ثم رفعها قائلا : انظروا ! ..

فلشد ما كانت دهشتهم حين رأوا ماء البحيرة قد استحال فجأة الى دم مخيف ، وتراموا جميعا الى الارض ساجدين أمام الملك الذى صار الها يصنع المعجزات ! ..

ورأيت الملك فى هذه اللحظة ووجهه يطفح بشرا وابتهاجا وخيلاء ، فما حسبت أن فى الدنيا انسانا هو أسعد منه اذ ذاك ..

وانصرف المدعوون وفى أنفسهم ما فيها من هذا الحادث العجيب ، انصرفوا ليتذاكروا به وينشروا نبأه بين الناس بكل ما يتسع له من الافاضة والمبالغة .

وقال لى الملك وقد ذهبت عنه آلامه وأوجاعه جميعا : يا «سنوحى» أيها المصرى العظيم ، لقد أبرأتنى من علة مستعصية ، وأنقذتنى من آلام مضنية ، وعلمتنى ما لم أكن أعلم ، وما لا يعلمه غيرك من الناس ، وشرحت صدرى بما هيأت لى من فنونك العجاب ، فمن حقك أن تطلب منى أقصى ما تنزع اليه نفسك من أمانى ، فما شئت من مال ومن هدايا سيكون بين يديك ، وكائنا ما يكون فانه بالنسبة لك قليل ..

فأجبت قائلا : أيها الملك « بورنابورياش » ، يا سيد أركان الدنيا الأربعة ، حسبى منك رضاك ، فما أطمع فى غيره ، وما بى من حاجة الى سواه . على أنى وأنا الطبيب الغريب الذى سينزح قريبا عن ديارك ، أخشى أن يلازمنى الشعور بالألم كلما ذكرت أن ملك « بابل » الذى تهابه الممالك وتخشاه وترهب سطوته وسلطانه ، كان مريضا يتوجع ويئن ويصرخ ، وأن يدى كانت تمسك برأسه ، ومبضعى يدور فى فمه ، ولا آمن أن أنا تركت بلادك متأثرا بهذا الشعور أن ينفلت لسانى به ،

فيتسامعه أهل بلادي ويبالغون في روايته ، ويقال هناك ان ملك «بابل» انسان كسائر الناس يمرض كما يمرضون ، ويألم كما يألمون ، ولا يداويه من علته الا طبيب وافد ، فذلك أمر أخافه من نفسي على هيبتك ومقامك ، ولهذا أريد أن تمحو ذكراه من خيالي ، وتبدلني من شعوري به شعورا خيرا منه ، وسبيل ذلك فيما أرى ، أن تأمر فيتلاقى في صعيد واحـــد جميع جند الدولة وقوادهم وأسلحتهم وأدوات حربهم ، وتقف أنت الملك العظيم تستعرض هذه القوات الرهيبة ، في حين أكون عن كثب منك ، تمتلىء خواطري بمناظرها ، وتنفعل مشاعري بهيبتها ، ومن ثم أركع ساجدا مقبلا تراب الارض بين يديك · فتلك هي حاجتي التي أطمع في أن تقضيها ، ورغبتي التي أرجو أن تحققها ، وما يدفعني اليها الا محض الحب الذي أستشعره نحوك منذ رأيتك ·

وابتهج الملك لحديثي وأثنى عليه وقال : انني مجيب طلبك يا «سنوحي» وان كان سيجشمني عناء الجلوس يوما بأكمله على العرش الذهبي ·

وأصدر أوامره في الحال الى سائر أنحاء المملكة لارسال القوات الحربية من مختلف معسكراتها ، وتجميعها لعرضها عليه عند بوابة الالهة « عشتروت » ·

وفي الموعد المحدد استوى الملك على عرشه المذهب ، والاسد رابض عند قدميه ومن حوله أصحاب المقامات الرفيعة من رجال الدولة وحكامها بكامل أسلحتهم ، وقد بدا لفرط زينته كأنه يسبح في بحر من الذهب والفضة ، وعليه حلة من اللون الأرجواني رمز العظمة والسلطان ·

ومن الشرفة العالية التي أعدت لمجلسه ، أخذ يستعرض قـوات جيشه وهي تسير في الطريق العريض صفوفا متتابعة من الجنود والقواد بحرابهم وسهامهم ، ومن خلفهم تلاقت العربات الحربية في صف واحد ، وكانت لهذه القوات المنوعة قعقعة وارعاد وزمجرة تلقي الرعب والهيبـــة في القلوب ·

وهمست في أذن « كابتاح » قائلا : لا يكفي أن نقول في تقريرنا ان المحاربين في « بابل » كرمال الصحراء كثرة عدد ، فينبغي أن نحصيهم عدا

فقال « كابتاح » معترضا في همس : هذا غير ممكن يا سيدي ، وحسبك أن تقول : انه ليس على وجه الارض مثيل لهذا الجيش في وفرة عدده وعتاده ··

على اننى كنت راغبا فى الاحصاء بأقصى ما فى الاستطاعة ، فجعلت أستعرض فى ذاكرتى الصفوف التى شهدتها ، فهؤلاء المشاة كانوا ستين رجلا ، وقد تتابعوا ستين مرة ، وكانت العربات ستين هى الأخرى . وعلمت من هذا أنهم يلتزمون فى اعدادهم هذا الرقم لأنهم فى « بابل » يعدونه رقما مقدسا .

واسترعى نظرى منظر دروع الحرس الملكى وأسلحته ، فقد كانت تلتمع بتوشيات أنيقة من الذهب والفضة ، كما كانت وجوه جند الحرس تلتمع بالزيوت التى يجملون بها بشرتهم ، ولكنهم كانوا مفرطى البدانة ، ولذلك بدا عليهم خلال العرض الطويل أثر ملحوظ من الرهق والاعياء ، وخيل الينا أنهم يفهقون ويلهثون وتتلاحق أنفاسهم ، وكان عددهم مع ذلك قليلا . أما الفرق الأخرى الوافدة من الأقاليم البعيدة فكانت وجوه جندها بادية السمرة والضمور ، لقد لوحتها الشمس ونالت منها ، وكانت ملابسهم ، كأجسادهم ، تعلوها القذارة ويرين عليها الاهمال ، حتى كانت تتسرب الى أنوفنا منهم ريح كريهة ، والأكثرون منهم كانوا من غير حراب ، ولم تكن عجلاتهم الحربية أحسن منهم حالا ، فقد كانت لقدمها تتخلخل فى سيرها وتصدر عنها أصوات تنبىء باضطراب أجهزتها . فقلت لنفسى ، وقد رأيت هذا وتأملته ، ان هذه أيضا حال الجنود فى الاقطار الأخرى ، فما أرى فى جيش « بابل » ، على كثرته ، سبقا على غيره ! ..

ودعانى الملك الى حضرته ، وقد أرخى الليل سدوله ، وقال لى فى زهو وخيلاء : أرأيت يا « سنوحى » عظمة ملك « بابل » ؟!..

فركعت بين يديه وقبلت الارض تعظيما له ، وقلت : حقا ياسيدى ، انك لسيد أركان الدنيا الأربعة ، فليس على وجه الارض قاطبة ملك مثلك عظمة وبذاخة سلطان وثراء ملك ، وما شعرت فى حياتى بمثل ما شعرت به من الرهبة والجلال وأنا أستعرض جيشك اللجب الذى هو كرمال الصحراء عددا ، وكالجبال الشم قوة واعتدادا . ولا أخفى عنك يا سيدى أن عينى قد اعتراهما الجهد لطول ما تقلب عليهما من هذه الصنوف الرائعة لقوات الجيش طوال يوم كامل ، فهو ما لم أر له شبيها فى مملكة أخرى ! ..

وطابت نفس الملك لهذه الكلمات المنمقة ، وقال : اما وقد حققت لك ما أردت فدعنا نستروح من عناء ذلك اليوم الطويل ، ولنشرب الان النبيذ ، ففيه راحة القلب وبهجة الفؤاد .

وخلال نشوة النبيذ الذى أخذنا ننهل كئوسه دراكا ، كان يسألنى أسئلة ساذجة . فأجبته عنها اجابات تسره وتضاعف مرحه . وقد أثار الشراب غرائز صباه ، فنهض من مجلسه ودعانى لمرافقته الى جناح حريمه . وكان ذلك أمرا غير مألوف ولكنه قال : انك طبيبى ، ولا حرج عليك فى أن تكون رفيقى بين نسائى .

وقد رأيت عندما انتقلنا الى جناحهن عددا كبيرا منهن يرفلن فى حلل موشاة بالجواهر الكريمة . وهن مختلفات الأجناس والألوان واللهجات والاعمار . ولكنهن جميعا نضرات جميلات يطفحن أنوثة ويتلهبن مشاعر ورغبـــــات ، وقد أخذن يرقصن رقصا مثيرا أمام الملك ، ويتنافسن فى ارضائه وابهاجه بكل الوسائل .

وعرض على أن أختار لنفسى احدى جواريه الحسان ، فاعتذرت — فى أسف — معللا ذلك بأن بينى وبين الهى موثقا ألا أقرب امرأة عندما أكون مقبلا على جراحة لمريض ، وأن ثمة عملية من هذا النوع قد واعدت أحد رجال حاشيته بها فى الغد ، ثم استأذنت الملك فى الانصراف ، فأذن ، وشيعنى الجوارى وأنا أغادر مقاصيرهن بنظرات تفيض أسى واستياء ، فأدركت أنهن جياع الى رجل ، وظماء الى المتعة الجنسية التى لا تواتيهن فى بلاط الملك ، فقلما يتاح لهن الاتصال برجل مكتمل الرجولة ، فليس عندهن دائما الا الخدم الخصيان والملك الصبى ! ..

وقال لى الملك وهو يصافحنى مودعا : لقد فاضت الأنهار ، وسالت على الشطآن ارهاصا بحلول الربيع ، وعلى مقتضى العادة اختار الكهنة اليوم الثالث عشر من يومنا هذا ، ليكون عيدا للربيع ، واحتفالا بملك زائف . وقد أعددت لك فى ذلك اليوم مفاجأة أعتقد أنك ستجد فيها تسلية ممتعة . وأكبر ظنى أننى سأجد فيها أيضا هذه التسلية ، ولن أقول لك الآن ما هى ، فسأحتفظ بسرها لتصبح بها المفاجأة ولا أحرم من لذتها المتوقعة ! .

وخرجت غير مطمئن كثيرا لهذه المفاجأة ، فلعلها أن تكون شرا من حيث يراها ذلك الملك الصغير مثار تسلية ومتاع ، وكان هذا احساس « كابتاح » نفسه ، حينما ذكرت له أمر هذه المفاجأة المستسرة ، فقد كان بطبعه أكثر ميلا الى التشاؤم فيما لا يعرف كنهه ، ولا يستكنه خفاءه .

وفى الايام التى تلت ذلك حرصت على مداومة الاتصـــال بالكهنة والمنجمين البابليين ، فأفدت منهم كثيرا مما أحتاج أن أعرفه من الاسرار

فى بلادهم وبخاصة التنبؤات التى حذقوا وسائل استقرائها ، فتعلمت منهم كيفية استنباء كبد الشاة ، وترجمة الرسوم التى تحدثها فقاقيع الزيت على سطح الماء ٠

ويجمل بى ، قبل أن آخذ فى حديث عيد الربيع ويوم الملك الزائف، أن أشير فى معرض الكلام عن التنبؤات الى حادث يتعلق بمولدى ، فقد قال لى الكهنة بعد أن استنبأوا كبد الشاة ورسوم الزيت على سطح الماء : ان هنالك سرا مرعبا يكتنف مولدك ، ولكننا لا تستطيع أن نستبين شيئا واضحا عنه ، وكل ما يمكن أن يقال فيه انك لست مصريا خالصا كما تقول ، أو كما تعتقد ، وانما أنت غريب ، غير ظاهر النسبة الى بلد معين فى هذا العالم ! ٠٠

وهنا قلت لهم فى غير تحفظ : الواقع أننى لم أولد ميلاداً متضح المعالم ، ومبلغ علمى به أن أمى وجدتنى بين أعشاب الشاطىء فى لفائف المهد على ظهر قارب من الغاب قذف به تيار النهر من جهة غير معلومة !٠٠

فتبادل الكهنة النظرات ، وقالوا : ذلك ما أنبأناك به تضمينا !٠٠ واستطردوا يقولون : وكان هـذا بعينه شان ملكهم « سارجون » الذى خضعت أركان الدنيا الاربعة لحكمه ، واندياح سلطان ملكه من بحر الشمال الى بحر الجنوب ، بكل ما بينهما من أقطار وجزر وشعوب ٠ فهذا الملك وجد كذلك مولودا موسدا فى لفائف مهده ، فوق ظهر قارب من الغاب متشابك العقد ، تتقاذفه أمواج النهر ، ولم يعرف هو ، ولم يعرف أحد ، من هو ؟! ولا سر مولده ؟! ٠ ولكن أعماله العظيمة بعد ذلك دلت على أنه مولود من الآلهة ٠

وخفق قلبى اضطرابا لهذه النبوءة ، وحاولت أن أطرد أثرها من ذهنى ، فقلت لهم : انى على التحقيق لا أرى وجها لهذا القياس بالنسبة لى ، ومن أبعد ما يكون عن الظن أن تحسبونى ، أنا الطبيب ، مولودا من الآلهة ، فقد تكون هنالك مماثلة فى الصورة التى وجد عليها كلانا ، أنا وذلك الملك ، فى الميلاد التائه ، ولكن لا سبيل الى هذه المماثلة فى نشأة كل منا وظروف حياته ٠

فقال الكهنة : لا ندرى ! ٠ ولكن الاحتمال الارجح عندنا ، انك وقد ظهرت للوجود من غير أب ولا أم معروفين ، فانك اذن سليل آلهة ، ولهذا فنحن نحنى الرءوس أمامك اكبارا وتقديسا ٠٠٠

وثقل هذا على نفسى ، ونكأ فى قلبى جراحا ظننتها اندملت ، فانه

لا شيء هو أشد تعذيبا لى من ذكرى مولدى ، وذكرى الاحداث المفجعة التى تتابعت بعده · وقد حاول الكهنة أن يبلغوا برأيهم فى أمرى درجة اليقين ليزيلوا من نفسى هذا الشك الصارخ ، فعادوا الى ألواحهم يستطلعونها . ويتخذون من أوقات تقريبية لتاريخ مولدى أساسا لهذا الاستطلاع ، ثم قالوا : ان الطالع يقول : انك اذا كنت قد ولدت فى هذه الاوقات ، فانك بلا شك منحدر من صلب ملك ومقدور لك أن تحكم شعبا عظيما ··

ولكننى لم أصدق ولم أومن ، واعتادتنى ذكرى الماضى أشد قسوة ، فقـــد تذكرت ، فيما تذكرت ، جرائمى فى « طيبة » ومقارفاتى الآثمة التى اشقيت بها أمى «كيفا» وأبى «سنموت» ، وجردتهما من بيت الحياة ومن بيت الممات معا ، فكان جزاء احسانهما الى ذلك الشر القاتل ، وهذا المصير الفاجع ، وقلت لنفسى : أى شىء من هذا الماضى الآثم يمت بصلة الى أرواح الآلهة ؟! وأى شىء منه يؤهلنى لذلك المقام العظيم الذى ينبئون به ويعقدون به روابط الشبه والتمـــاثل بينى وبين ملكهم الســـالف « سارجون » ؟! ··

ولاح المستقبل فى عينى حالك السواد ، منذرا بالمخاوف ، ولم أر فى ثناياه الا اننى خلقت شقيا ، وساظل كذلك ···

- ٤ -

وجاء يوم « الملك الزائف » ، وانه لمن أعجب الأعاجيب فى «بابل» · وهو يبدأ فيما جرت به عادة أهل هذه البـــلاد ، حين تنجم فى الحقول سنابل الحنطة ويأخذ برد الشتاء القارس فى اخلاء الطريق لدفء الربيع المنعش ·

فى صباح ذلك اليوم ذهب الكهنة الى خارج المدينة ليعودوا بالههم من برزخه معلنين أنه قد نهض ثانية ، وعند ذلك انقلبت «بابل» الى مسرح كبير تزاحمت عليه ، فى شوارعها وانحائها وميادينها ، جموع الناس فى أبهى أزيائهم يرقصون ويهزجـــون · وفى ضجيج وهرج شديدين أغار الدهماء على الحوانيت فانتهبوها ، وفى معبد الالهة « عشتروت » تكاثرت السيدات والفتيات ليجمعن الفضة من أزواجهن ، أو من المؤهلين للزواج منهن ·

وعلى كثرة ما عرفت من عادات «بابل» الغريبة فانى كنت أكثر دهشة

واستغرابا ، اذ رأيت رجال حرس الملك الخاص يقتحمون في مطالع فجر ذلك اليوم فندق «بيت عشتروت للسرور» ويحطمون أبوابه ويهجمون على حجراته ويضربون كل من يلقونه هناك بمقابض حرابهم ، صائحين بأعلى أصواتهم قائلين : أين يختفي ملكنا ؟! .. اننا نريد أن يظهر من مخبئه على الفور .. فان الشمس توشك أن تشرق ، وينبغي أن يظهر قبل شروقها ليمنح رعاياه العدالة والبهجة !..

وجاوزت الضوضاء حد الاحتمال ، في حين كانت المصابيح لا تزال ترسل ضوءها في الفندق ، والخدم في ممراته ومداخله يغمرهم الفزع ويموج بعضهم في بعض كأنما قد اختلطت عقولهم ؛ فلا يدري أحد منهم الوجهة التي يريدونها . وأصاب «كابتاح» من ذلك فوق ما أصابهم ، وظن أن زلزالا وقع فجأة بالمدينة ، أو أن كارثة تزحف على نزلاء الفندق ، فلم يجد لنفسه مخرجا منها ، أو هكذا خيل اليه ! الا أن يختبيء تحت سريري .

وأثارتني الضجة المفزعة من مرقدي فخرجت معجلا من حجرتي ، وفوق جسمي العاري عباءة من صوف ، وقلت للجند الذين رأيتهم بالباب: علام هذه الضجة ؟! وماذا تريدون في هذا الوقت غير الملائم ؟! ان من حقي أن أطالبكم هنا بحسن السلوك ، فانني أنا «سنوحي» المصري ، ولا شك في أنكم قد سمعتم بهذا الاسم ..

وقبل أن أتم عبارتي صاحوا : اذا كنت أنت «سنوحي» حقا ، فأنت طلبتنا ومبتغانا ، ونحن منذ جئنا ، ننشدك ونفتش عنك !..

وفي حركة تنافسية مدوا أيديهم جميعا ليأخذ كل منهم بطرف من عباءتي ، ويتجاذبوها بعنف الى أن ذهبت في أيديهم مزقا ، وبدوت عاريا أو شبه عار . وما ان رأوني كذلك حتى راحوا يتضاحكون ويسخرون ، ثم قالوا في لهفة : لا تضيع وقتنا ، وأسلم لنا في الحال خادمك ، فانما جئنا لنذهب به على عجل الى القصر بأمر الملك ، فهذا يوم «الملك الزائف» ، وقد شاء الملك أن يكون هذا يوم خادمك ... فهاته ، ولا تتردد ..

وسمع «كابتاح» ذلك في مخفاه ، فأصابته من شدة الخوف رعدة اهتزت لها جوانب السرير ، فكشف بذلك لهم عن مكانه ، فمدوا اليه أيديهم وأخرجوه عنوة وهو يدافعهم مدافعة الخائف الوجل ..ولكن ما أشد ما اعترانا معا من الدهشة عندما انحنوا أمامه بعد ذلك في خضوع كبير ، قائلا بعضهم لبعض : اننا في الحقيقة لذوو حظ سعيد اذ كنا أول من وجد

ملكنا الموعود واهتدى الى مكانه ، وان أعيننا لقريرة بمرآه وبما لا بد أن نناله من أعطيته وهداياه ، كفاء كشفنا عنه ، وولائنا له . ولكن «كابتاح» كان كأنما سمرت عينه على وجوههم ، يطيل النظر فيهم مشدوها، مضطرب الحواس ، لا يكاد يصدق أنه في يقظة ، وان هذا الذى يسمعه يمت الى الحقيقة بسبب قريب أو بعيد ، فكل غرائب الدنيا يجوز أن تجد لها مكانا من تصوره وخياله الا أن يرسل الملك جنده في هذا الوقت ، وعلى هذه الصورة ، ليحملوا اليه خادما مثله ، لا لينزل به عقابا على اثم ارتكبه ، أو ليأمن فراره من عقاب على جرم ، بل ليبوئه عرشه ، ويقيمه ملكا على شعبه !. ان هؤلاء ، لاشك ، يقارفون معه حماقة لا تحتمل . وانه لفى هذه الافكار كالقطعة الصغيرة من بقايا سفينة محطمة فى مضطرب الموج وعصف الأعاصير ، اذا به يرى الجند يراودون ظنونه وشكوكه ويحاولون تأمينه من فزعه ومخاوفه ، فيقولون بلهجة التأكيد : يقينـــا ، انه ملك أركان الدنيا الاربعة .. هو ، هو ، ولا أحد سواه ..

وعادوا الى انحنائهم أمامه اعرابا عن طاعتهم وخضوعهم ، ثم قادوه ، وهو لا يستطيع فكاكا ولا هربا ، الى الكرسى الذى أعد لنقله الى القصر .

والتفت الى «كابتاح» وقال بصـوت متهدج : لست أدرى اذا كنت الآن أقف على رأسى أو على قدمى !.. وربما كنت لا أزال أغط فى نوم عميق ، مسترسلا فى تيار حلم مزعج !.. ان هذه المدينة التى ساقنا اليها الحظ العاثر ، ليحتشد فيها كل ما فى هذا العالم العريض من الهوس والجنون .. فما هذه الضجة التى تثار حولى ، أنا الانســـان الذى يأبى الهه «الجعران» أن يحميه ؟! وعلى أية حال فليس لى أن أختار ، ولا مفر من أن أذهب مع هؤلاء الرجال الاقوياء ، فلا قبل لى بهم . أما أنت ياسيدى فانى أرجو أن تنجو بحياتك ، وكل ما أطمع فيه منك ، هو أن تحاول ـ بقدر ما تستطيع ـ انزالى من فوق الجدران اذا علقونى عليها من الاعقاب ، وأن تمنعهم ، بكل ما ترى من وسائل ، من القاء جثتى الى النهر ، وأن تعنى بتحنيطها حتى لا تحرم نعمة الخلود ...

وبدا على الجنود حينما سمعوه يتحدث هكذا ، انهم كانوا يحسبونه معقود اللسان لا يستطيع الكلام ، فقالوا فى شىء من البهجة والتفاؤل : بحق «مردوخ» اننا لم نر ملكا خيرا من هذا !. انه يتكلم دون أن يتلعثم وذلك ما لم نعهده فى غيره ..

وكان نور الفجر قد أخذ يشيع فى كل مكان عندما حملوا «كابتاح» الى القصر لنبدأ من هناك مهزلة «الملك الزائف» ..

ولم أطق صبرا على هذا الحادث الغريب الذى انتزعوا فيه ، بغتة ، رفيقى «كابتاح» ، ذاهبين به الى المصير المجهول . فارتديت ملابسى مسرعا ، ومضيت فى اثرهم الى قصر الملك ، فراعنى أن رأيت هناك تجمعات لا عهد لى بمثلها من أخلاط الشعب تملأ ساحات القصر ومداخله وحجراته الخارجية ، وينبعث منها ضجيج صاخب كأنما قد استحال هذا المكان الرحيب الى غابة تعج بالوحوش وتفهق بالعواء والزئير ، فما حسبت الا أن الأمن قد اضطرب تماما وان الزمام قد أفلت من أيدى حماته المسئولين ، وليس ما أرى الا نذر مذبحة دامية وشيكة الوقوع ولا عاصم منها الا اذا تواردت على عجل امداد من قوات الاقاليم ، ولكن كيف ، ومتى تأتى ؟! ..

واستطعت وسط هذا الموج الزاخر أن أشق طريقى الى داخل القصر والحق بالجنود الذين كانوا حينئذاك يدفعون «كابتاح» الى قاعة العرش الكبرى فى حين كان بعضهم يخلى الطريق حواليه وأمامه ، وقد رأيت الملك «بورنابورياش» جالسا ، كعادته ، على عرشه الذهبى ، مرتديا حلته الملكية ، وصولجانه فى يده ، والاسد رابض تحت قدميه ، وحوله يقف رؤساء الكهنة والمستشارون والمقدمون من رجال المملكة ، ولم يبد الجنود أى اكتراث به ، عندما دخلوا عليه وأمامهم «كابتاح» . ورانت على الجميع سحابة صمت بددها «كابتاح» فجأة بقوله للجند فى لهجة الأمر الصارم : أخرجوا هذا من هنا ، مشيرا الى الملك ، فلن أستطيع ولاية الحكم فيكم الا اذا أخرجتموه وأخليتم مكانه ، والا فانى عائد من حيث جئت .

وقال جميع من فى القاعة بصوت رجل واحد : نعم .. فليخرج هذا الصبى من هنا .. لقد سئمنا حكم الصبيان الاغرار ، أما هذا الرجل (وأشاروا الى «كابتاح») فانه الحكيم العاقل الذى نرضى به ملكا وحاكما!

وأدهشنى أشد الدهشة ، أنهم ، فى مثل سرعة البرق الخاطف ، تكالبوا على «بورنابورياش» ليصبوا فى أذنيه كلمات غلاظا وعبارات بالغة الفظاظة وينزعوا الصولجان من يده ويجردوه من حلته وهم يسرفون فى الزراية به قائلين : يالها من سخافة أن يحكمنا هذا الطفل ، وما نرى نساء القصر الا أنهن أكثر منا ابتهاجا بخلعه وتنحيته ، فقد مللن عشرة طفل عاجز ، فهن سعيدات بلا شك اذ يجىء هذا الرجل المصرى القوى «كابتاح» ليملأ فراغا طالما شكون من وحشتهن فيه !

وتضاعفت دهشتى حين رأيت «بورنابورياش» يتلقى هذه الحملات

القاسية اللاذعة ، ضاحكا غير معترض ولا متبرم ، وحين رأيت أسـده المخيف مسوقا الى خارج القاعة بقوة الجمع الحاشد ، وقد عراه الخوف والذلة ، فانطوى ذنبه بين ساقيه ! ·

وتحول هذا الجمع الى «كابتاح» فالبسوه الحلة الملكية التى كانوا قد اعدوها على مقاس جسمه ، ووضعوا الصولجان في يده ، ثم رفعوه الى العرش ، وخروا أمامه سجدا ، وكان « بورنابورياش » يفعل مثلهم وهو يقول : هذا هو مايجب أن يكون ، وما يصلح هذا العرش الا لهذا الرجل وما كان بالاستطاعة أن نختار خيرا منه ·

وأدار «كابتاح» عينه الواحدة فيهم ، وهي تختلج اختلاجا متصلا لا تكاد تثبت على وجه واحد من هذه الوجوه المحتشدة له · وقد بدا كأن شعر رأسه لا يطيق التاج الذى وضعوه عليه منحرفا ، وأخيرا استجمع ــ جاهدا ــ ما تشتت من قواه وقال لهم في جرأة متكلفة : أما وقد صرت ملكا ، فأين اذن شراب النبيذ ؟ أيهـا الأرقاء : عجلوا به ، والا ألهبت ظهوركم بعصاى هذه ، ثم أمرت بتعليقكم من أرجلكم على الجدران ! · · هلموا فآتونى به كثيرا وفرا ، لأروى به نفسى الظامئة وليشرب معى هؤلاء الامجاد والاصدقاء ، فنحن فى يوم عيد سعيد ·

فسرهم أن يسمعوا منه هذه الكلمات التى تنبىء بأنه قـد اندمج في الدور الذى فاجأوه به ، وهذا هو الذى يريدونه منه امعانا فى تزييف الحقيقة · ومن ثم تبادروا اليه فى موجة من الابتهاج فنقلوه مخترقين به الزحام المتكاثف الى قاعة أخرى فسيحة أقيمت فيها موائد حافلة بـكل شهى طيب من الطعام والشراب ، وتكوفوا على جوانبها يتناولون منهـا ماشاءوا ، وكان «بورنابورياش» يرتدى حينذاك لباس خادم المائدة ، فهو يدور عليهم بقوارير النبيذ وأطباق الحساء وينفلت من يده ما يحمله منها فيسقط على ملابسهم ، فيضحك لهذا كثيرا فى حين تتساقط عليه لعناتهم، ولا يكتفى بعضهم بذلك فيقذفه بالعظام وفضلات الطعام !

وعندما كان هذا يجرى فى قاعة الطعام كانت الساحات الاماميـة للقصر تموج موجا بجماهير الشعب ، وكان الطعام والشراب يوزعان عليهم كما كانت النعاج والثيران تذبح وتشطر أرباعا وتوزع عليهم لحوما نيئة ليحملوها الى بيوتهم ، اشباعا لسائر البطون فى هذا اليوم الفريد ·

وكلما ارتفع قرص الشمس فى الافق ، ازدادت تجمعات النـاس وشاع ضجيجهم وساد هرجهم ·

وفى هذه الاثناء كان القلق يعتريني ويستبد بأفكارى ، وأخـذت أسترق فرصة الاتصال من «كابتاح» حتى وجدتها فى تهالك الحاضرين على الشراب ، فهمست فى أذنه قائلا : فلنهرب يا « كابتاح » ٠٠ هيا واتبعنى على الفور وفى حذر ، فمن وراء مـا نحن فيه شر محتوم اذا لم نعجـــل بالفرار ٠

ولكن «كابتاح» كان قد أسرف فى شراب النبيذ ، وأتخم جوفه بما أمامه من شهى الطعام ٠ فنظر الى منفعلا وقال : ان كلامك على أذنى كطنين الذباب وما أراك الا مجنونا اذ تريد أن تخلى بينى وبين هذا النعيم ، وأن تنتزعنى من بين هؤلاء الكرام الفضلاء الذين أقامونى من تلقاء أنفسهم ملكا عليهم ، وانحنوا أمامى اجلالا واحتراما وخضـــوعا ! ٠٠ لا ٠ لا ٠ لست مجنونا مثلك ٠٠ ثم لوح فى وجهى بعظمة كان قد قضم لحمهـــا بأسنانه ، وصرخ قائلا : أخرجوا من هنا هذا المصرى الأحمق ٠

وقبل أن يهرعوا لتنفيذ أمره انفجر صوت نفير ، ووقف أحد الرجال على الاثر معلنا أن الوقت قد حان ليهبط الملك على أفراد شعبه ، حيث يوزع العدالة بينهم ، فانصرف الحاضرون عنى الى «كابتاح» ليأخذوا بيده من فوق العرش ويقودوه الى « دار العدل » ٠

فلما انتهوا به الى منصة القضاء ، قال انه يدع الحكم فى قضايا أفراد الشعب الى القضاة المختصين بها، فهو يثق فى قضائهم ويطمئن الى عدالتهم ولكن أصوات الشعب انبعثتمجلجلة مرددة : لانريد عنالملك بديلا ، انما نريده هو بشخصه لنرى حكمته ونشهد عدله ، ولنستوثق من أننا لم نخطىء فى اختياره ملكا حصيفا عالما بقوانين البلاد ٠

وهنا لم يجد «كابتاح» مناصا من اعتلاء المنصة ومواجهة هذا الموقف الخطير ٠ وقد وضعوا بين يديه السوط والاغلال وميزان العدالة ، وتتابع عليه أصحاب الشكايات ، واحدا فى اثر الآخر ٠ فأصدر فى بعض أمورهم المعروضة أحكاما على قدر مااتسع له ذهنه ، ثم توقف قائلا لمن حوله ، انه يشعر بالكلال والتعب ، فقد شرب وأكل كثيرا ، ويرى ضمانا لعدلالاحكام أن يؤجل «جلسة القضاء» لوقت آخر ٠ وأردف قائلا : وأريد أن أستجم وأستريح ، وليكن هذا فى جناح الحريم ، ان زوجات الملك الاربعمائة هناك من حقهن أن يعرفن مليكهن الجديد ! ٠٠ ذلك الىأن من حقى أنا أن أتعرف الى زوجاتى ٠

ونهض « كابتاح » ليدخل الى القصر متجها الى جناح هؤلاء الزوجات الأربعمائة ٠٠ وانهالت جموع الشعب خلفه لتملأ ساحة القصر ٠

وهنا كف « بورنابورياش » عن الضحك الذى كان مسترسلا فيه ورانت على وجهه سحابة قاتمة · وما أن رآنى حتى هتف بى منفعلا · انك ياسنوحى صديقى ، ولا أحد غيرك يستطيع انقاذ «كابتاح» من الهاوية التى يوشك أن يتردى فيها ، فعليك أن تدركه على عجل ، وانت كطبيب يجوز لك أن تغشى جناح الحريم ، لتمنعه من ارتكاب حماقة سيندم عليها حين لا ينفعه ندم ، ولتقول له منذرا : اننى سأسلخ جلده حيا ثم أفصل رأسه من جسده وأعلقه على الجدران ليتخطفه الطير ، اذا امتدت يده الى أية سيدة هنالك ·

قلت له : أى «بورنابورياش» : أيها الملك ، انى حقا لصديقك الذى يتمنى لك الخير والسعادة ، ولكننى اليوم لأكاد أفهم شيئا من هذا الذى أنتم فيه ، وكيف أراك هكذا فى المنزلة الدنيا من هؤلاء الناس ؟ ! وأى حدث فاجع أصار الملك العظيم خادما لايؤبه له ؟ فهلا أخبرتنى أولا عن سر هذا كله ؟

قال فى ضجر وامتعاض : هذا هو يوم الملك الزائف ، ان الناس جميعا يعرفونه · فامض مسرعا الى صاحبك قبل أن يقع الشر ·

ولما رآنى مستأنيا لاأزايل مكانى ، أمسك بذراعى ليدفعنى الى اللحاق «بكابتاح» فقلت له : انى أجهل عادات مملكتك ، ولا علم لى بما أرى ، ولا أستطيع أن أخطو خطوة فى هذا الجو الغريب الغامض ، فأرجو أن توضح لى هذه الاحاجى والمعميات !

فأجاب وقد ازداد تململا وضجرا : اذن فاسمع ، ولا تكثر من الأسئلة حتى لايضيع الوقت وتطم الكارثة · فى هذا اليوم من كل عام ، يتجرد الناس هنا من الحقيقة الواقعة ، فيزيفون لحياتهم يوما عجيبا ، ليس كمثله فى الزيف والشذوذ يوم · وقد رأوا أن ذلك لايتحقق لهم على صورة جامعة ، الا فى أعلى وأرفع شخصية ، وهى شخصية «الملك» ، فهم فى يومهم هذا يختارون من الطبقة الدنيا أشد الناس غباء وأكثرهم خبلا ليجعلوا منه ملكا عليهم من فجر اليوم الى غروب شمسه ، ويمكنوا له خلال هذه الفترة من كل أسباب الحكم والسلطان · وامعانا فى مظاهر الزيف والتلفيق يشترك معهم فى ذلك ، الملك الحقيقى نفسه فينزل من الملك الجديد منزلة الخادم ، على الصورة التى ترانى عليها الآن · وقد اخترت «كابتاح» لهذا الدور ، لما لمحت فيه من دلائل الغباء والخبل ، وهو لايدرى ماذا سيحل به بعد قليل ، وهذا هو أغرب ما فى ذلك اليوم الذى يسمى «يوم الملك الزائف» !

فقلت متسائلا فى قلق : وما عسى أن يحل به ؟!

قال : بمثل السرعة التى توج بها ملكا فى الصباح ، سيذبح عندما يقبل المساء ! على أنى أستطيع أن أجعل ميتته أهون من الذبح ، كما أستطيع أن أجعلها أفظع من ذلك . وقد كنت فى مثل هذه المناسبة أترفق ببعض الملوك الزائفين ، فأدس لهم فى النبيذ الذى يشربونه سما ، يلقى بهم فى نشوة الى نوم عميق ثم لايستيقظون بعد ذلك ! .. ولك أن تختار أى المصيرين لصاحبك ..

قال هذا وهو يستحثنى لادراك « كابتاح » ، لكى لا يقترف فى جناح الحريم مأثمة تنير غضبه فيفظع قتله .

وانى لأهم بالشخوص الى « كابتاح » . اذ به يخرج علينا فجأة وهو يضطرب غضبا والدم ينحدر من أنفه ، ويده على عينه الواحدة ، كأنما يمسكها حتى لا تسقط ، فصحت به متسائلا : ماذا بك ؟ !

فقال ، وهو ينشج بالبكاء : جاءونى بفتاة حسبتها من حسان القصر ، فما كدت أقترب منها حتى انتفضت فى وجهى كأنها حيوان مفترس ، ولطمتنى على عينى لطمة قوية طار لها صوابى ، وتلاشت بها أحلامى ، ولم تقنع بهذا فضربتنى بحذائها على أنفى .

وما سمع «بورنابورياش» هذا حتى ترنح ضاحكا ... أما «كابتاح» فقد ظل يفهق بالبكاء كالاطفال ويقول : لن أجرؤ على الدخول مرة أخرى من هذا الباب . فتلك الفتاة ، أعنى ذلك الحيوان الشرس ، ستقتلنى لو عدت الى هناك ، الا اذا جئت معى يا «سنوحى» لتفتح جمجمتها وتستل منها الروح الشريرة التى تسيطر عليها . وما أرى الا أن تنال هذه المتوحشة عقابها الصارم ، فقد ارتكبت الخطيئة الكبرى حين فعلت هذا بى أنا سيدها ! .. ألا تنظر ياسيدى أن ضربة حذائها قد أسالت دمى وجعلت من أنفى عنق ثور مذبوح !

وهنا همس «بورنابورياش» فى أذنى قائلا : اذهب معه .. واستطلع الامر بنفسك ، وعد لتخبرنى بما حدث . وفى ظنى أن الفتاة التى أحسنت استقبال سيدها «كابتاح» على هذه الصورة ، هى التى جىء بها الى القصر بالامس من جزر البحر ، فانى ألحظ عليها سرعة الانفعال والغضب ، ولعلها تكون بحاجة الى جرعة من سائل «الخشخاش» لتهدأ أعصابها المستوفزة .

وقصدت ، بعد الحاح منه ، الى جناح الحريم ، فألفيت الجميع هناك

في هرج ومرج ، ولم أجد صعوبة في الاختلاط بهم ، فقـد كان الخصيان يعرفون انني طبيب ، وان هذه الصفة تخولني الدخول الى هذا المكان في أي وقت • وقد استخف الفرح أكثر من لقيت من النساء ، وخاصة أولئك العجائز من الجواري اللائي نيط بهن شرف خدمة الملك الزائف في يومه هذا ، فقد ظهرن في أبهى زينة ، متأنقات في أجمل حلل • وما ان رأينني حتى أقبلن نحوى هاتفات : ماذا جرى له ؟ انه حبيبنا وزهرة قلوبنا ، نحن منذ الصباح في انتظار قدومه السعيد •

ولكن الخصيان قالوا في ضجر : لاتلق بالا لهؤلاء النسوة المتصابيات، لقد أسرفن في شرب النبيذ تنافسا في حظوة القبول لدى الملك الزائف ؟ وما بنا من حاجة اليهن الآن ، وانما عندنا فتاة غريبة الاطوار وفدت علينا في الامس • ويخيل الينا أن بها مسا من الجنون ، وقد اعترتهـا ثورة عصبية ، ولم نستطع كبح جماحها فهي فيما تبدو مخيفة ، ولم ينج أحد هنا من قدمها ركلا ، أو من يدها لطما ، وهي الساعة ، في أقسى حالات انفعالها • وقد أمسكت بيدها سـكينا ، فلسنا ندرى ما نصـنع في أمرها •

ومضوا بي الى احدى قاعات الجناح ، وهي كبيرة متسعة ، بوسطها بحيرة مستديرة ، تتخللها تماثيل الوحوش تقذف المياه من أفواههـا ، ورأيت الفتاة التي تحدثوا عنها ، وقد اعتلت تمثالا من هذه التماثيل ، وكانت ملابسها مشوشة وممزقة ومبتلة ، وفي احدى يديها سكين تلمع ، في حين أمسكت بالاخرى التمثال الذي تستند اليه ، وشفتاها تختلجان وتتحركان ، كما لو كانت تتكلم ، ولكن خفق المياه بالبحيرة ، وصياح الخصيان •• قد جعلني لا أسمع شيئا من كلامها •

كانت الفتاة جميلة باهرة الجمال على الرغم من شذوذ مظهرهـا ، وأحسست في نفسي شيئا خفيا يجذبني اليها ، فصرخت في المحيطين بها أن اخرجوا ودعوني لأنفرد بها ، وأغلقوا صنابير المياه ، فاني أريد معهـا جوا ساكنا •• فانصرفوا ••

وفي هدأة المكان من الاصوات والحركة ، تبينت أن صراخها الذي تطيرنا به لم يكن الا ألحانا ترتلها بلغة غريبة ، وكان رأسها اذا ذاك منحنيا الى الوراء ، وعيناها ترسلان شعاعا قويا ، وهما في مثل خضرة الهرة الوحشية ، وخداها في مثل لون الورد توقدا واحمرارا •

ووجهت اليها الحديث قائلا في عطف : دعي ما أنت فيه أيتها الهرة

الصغيرة ، والقى من يدك هاته السكين التى لايجمل بفتاة أن تشهرها هكذا ، واقتربى من هنا ، فانى طبيب ، وسأبرئك من علتك ٠

فاجابتنى بلغة «بابلية» مشربة باللحن : اقفز أنت الى هذه البركة ، أيها القرد ، لأروى غيظى من دمك ٠

قلت لها : لكننى لاأريد بك شرا ٠

قالت : كل الناس يقولون هذا ، ولكنهم لايصدقون ٠٠ ولن أستطيع الاقتراب من رجل حتى لو كنت أريد ذلك ٠٠ فانى موهوبة لالهى لأرقص أمامه ، وليس لغيره مكان من نفسى أو جسدى ٠ وهذه السكين فى يدى لأقطع بها يد أى رجل تمتد الى ، مهما يكن شأن هذا الرجل ، فكيف به اذا كان ذلك الشيطان ذا العين العوراء ، الذى انطلق نحوى منذ هنيهة كأنه وحش ضار أو حشية من نجاسة البشر ؟! ٠

قلت لها : لك ما تشائين ، ولكن دعى جانبا هذه السكين ، فقد تؤذين بها نفسك قبل أن تؤذى بها أحدا آخر ، ثم ما هذا الذى أراك تفعلينه وانت الفتاة التى شروها بالامس من سوق الرقيق بثمن غال لتكون حظية الملك ؟ ٠

قالت منفعلة : كلا ٠ لست من الرقيق ٠ ولو كان فى وجهك عينان تبصران لادركت بهما أنى لست ممن يبعن رقيقا فى الاسواق ، وانما أنا فتاة وقعت فى شباك الصائدين وقوع الطير الآمن ٠

ثم أردفت قائلة فيما يشبه الهمس : ألا يمكن أن نتحدث معا بلغة أخرى لايعرفها هؤلاء الذين يضعون علينا من وراء الاعمدة آذانا متلصصة ؟

فأجبت بلغتى المصرية : انى مصرى ، واسمى « سنوحى » ، وألقب بالوحيد ، وصناعتى طبيب ، وحسبك منى هذا لتطمئنى ولا تخافى ٠

عندئذ تغير موقفها فجأة ، فانحدرت من فوق التمثال الى الماء ، وسبحت فيه ثم خرجت منه والسكين فى يدها ، وألقت بنفسها أمامى وقالت : الآن أشعر بالطمأنينة والأمن ، فانى أعرف فى المصريين الوداعة والرقة ، ومن خلائقهم ألا ينالوا المرأة قسرا ، ولهذا أضع فيك ثقتى ، وقد أسديت لى الآن فضلا ، اذ جعلتنى فى غير حاجة الى هذه السكين التى كان من المحتمل فى هذا اليوم نفسه أن أقطع بها عروقى طلبا للموت حتى لا أقع فى أيدى أولئك الأنجاس ، فأتدنس ويلحق الدنس بالهى عن طريقى! وأرجو ـ اذا كنت تخشى الآلهة وتشعر نحوى حقا بالعطف ـ أن تعيننى على الخلاص مما أنا فيه ، وتأخذنى بعيدا عن هذه البلاد ٠

قلت لها : هذه مخاطرة غير مأمونة ، وأنا شخصيا لاأستسيغ مساعدتك على الهرب ، فهذا يعد من جانبي شيئا مجافيا لصداقتي بالملك الذى دفع ذهبا كثيرا لتكوني الى جواره فى هذا القصر العظيم ، الحافل بكل ما تصبو اليه فتاة طموح • وخير مما تفكرين الآن فيه أن تنزلى على حكم الأمر الواقع ولا يروعنك منه ماترين فى هذا اليوم العجيب ، وهو اليوم الذى شاءت المصادفة أن يكون يومك الاول فى حياة القصر • وما أشك فى أنك ستغيرين رأيك تماما لو عرفت الحقيقة ! فذلك المخلوق الذى جيء به اليك منذ قليل ، وأنكرت منه دمامته وقبح منظره ، ليس هو الملك ، وانما هو ملك زائف ، هو واحد من عامة الناس وأوزاعهم ، اصطلحوا فى عاداتهم الجارية على أن يجعلوا من مثله ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ، ملكا زائفا ، يضحكون منه ويضحكون عليه ، ثم ينتهى أمره عند غروب الشمس • أما الملك الحقيقى الذى سترينه هنا فى الغداة ، فهو شاب غض الصبا ، ريان الشباب ، صبوح المحيا ، لطيف العشرة • وأكبر ظنى أنك ستسرين به ملكا وصاحبا ، وستؤثرين معه تلك الحياة الجديدة الموفورة أسباب البهجة فأعدى نفسك له ، ولا أراك تخسرين شيئا اذا استسلمت لما لايستطاع اجتنابه ، ولا يشغلك عن ذلك ، التفكير فى سلطان الهك ، ان سلطانه لا يصل اليك هنا •• ضعى أيتها الفتاة حدا لهذه الحماقة ، وتجملى كما ينبغى أن تتجمل فتاة فى عين مليكها ، وأصلحى هذا الشعر المبلل ، ووجهك هذا الجميل الذى تخضب كله بحمرة شفتيك !

وكأنما أثارت عبارتى الاخيرة انتباهها الى مالم تكن تدركه من أمر نفسها ، فراحت تتحسس بيدها •• شعرها وحاجبيها وشفتيها ، وتنفض عنها بقايا الماء ، ثم التفتت نحوى وقالت فى ابتسام : ان اسمى «مينيا» ولك أن تدعونى بهذا الاسم عندما نخرج معا ، هاربين من بلاد الشرور والشياطين هذه ، فلن أستطيع البقاء هنا ، على أية حال • وانى أشعر انك انسان كريم ، وسوف لاتتخلى عن حمايتى ، أنا الفتاة الضعيفة مهيضة الجناح ، واعرابا عن هذا الشعور ، أعطيك هذه السكين التى اعتددت بها حتى الآن فى حماية نفسى من غيلان البشر ، فما عدت بحاجة اليها بعد أن أسلمت مقادتى اليك •

ولقاء اصرارها على هذا الموقف الغامض ، لم أر أن أطيل معها البقاء فى مكان تتناهبه العيون الراصدة ، فتركتها مهموما ، وشعرت ـ وأنا أنظر الى سكينها فى يدى ـ انها غلبتنى على أمرى ، فان هذه السكين لم تكن

الا الرباط الذى شاءت أن تصل به بين مستقبلها ومستقبلى ، وكان قبولى لها عهدا بذلك ٠

وتلقانى «بورنابورياش» خارج الجناح متلهفا على ما أحمل اليه من أنباء ، فقلت له : ان ماحدث كان نتيجة خطأ أولئك الذين لم يفهموا أن «مينيا» التى شروها له ليست الا فتاة مخبولة العقل ، فلم يحولوا بينهـا وبين «كابتاح» وقد سبرت غورها فعرفت أنها تؤمن باله يحظر عليهـا الاقتراب من الرجال ، وأرى لهذا أن ندعها على حالها الى أن ينحسر عنها ذلك الشعور الغريب ٠

وعلى خلاف ماكنت أتوقع ، ضحك «بورنابورياش» ، وأشرق وجهه غبطة وهو يقول : هذا هو النوع الذى أحبه فأوثره من النساء ، ان العصا وحدها هى أفصح لسان يتحدث اليها ، وانى لاأزال ـ كما ترى ـ شابا فتيا ، فهذا وجهى لم تنجم فيه شعرة واحدة ، ومن هنا يحلو لى أن أرى ألوانا جديدة من التسلية ٠ ولقد أسأمنى من نسائى ، التهالك والترامى فى طاعة واستسلام ، فسأجد اذن فى هذه الفتاة العصية المتمردة ، المخبولة العقل كما تقول ، كثيرا من اللذة حين أستمع الى صراخها وهى تتلوى ألما من عصى الخدم وسياطهم ، وسيكون هذا عاجلا ، وفى هذه الليلة بالذات فليس من عادتى ارجاء الملذات ٠

قال ذلك وهو يفرك يديه فرحا ، فى حين كنت أنظر اليه مشدوها متحسرا ، فقد خاب فيه أملى ٠ ومنذ هذه اللحظة شعرت بأنه لم يعد له فى نفسى أثر من محبة ، وافترقنا وسكين « مينيا » فى يدى ، وكأنها توحى الى أن أفعل شيئا ٠

— ٥ —

وعافت نفسى هذه المظاهر الحاشدة المتدفقة مرحا وسرورا ، فقد كان الناس يزدادون تجمعا فى أبهاء القصر وساحاته ، ويزدادون انكبابا على اللهو وشراب الجعة والنبيذ ، وهم من حول «كابتاح» يضجون ضجيجـا متصلا بالتهليل والضحك ٠ وكان «كابتاح» قد نسى ما أصابه من لكمات موجعة وكدمات دامية بجناح الحريم فى القصر ، فراح يضاحكهم ويفتن فى المزاح معهم ، مأخوذا بنشوة الجو الذى صار فيه ، والشراب الذىاستكثر منه ٠ كانوا كلهم يهزجون ويطربون ، ويتناهبون السعادة ، ويتنافسون

فيها . وكنت أنا وحدى أقف من هذا كله قلقا ، مبلبل الفكر ، متشائما من العاقبة التى تطل علينا بوجهها الشاحب خلال الساعات القليلة الباقية من هذا النهار .

كانت الأفكار المتناقضة تعصف بعقلى عصفا شديداً ، فهذا «كابتاح» صاحبى ورفيق رحلتى سيصير بعد قليل فى عداد الموتى ، هكذا سيكون ، وليس من هذا مفر ، اشباعا لشهوة الملك الشريرة ، ونزواته الجامحة ، واتباعا لعادة بغيضة جعلوا منهـا قانونا مقدسا وقدرا نافذا .. وهذه « مينيا » تلك الفتاة البريئة التى استودعتنى ثقتها وأملها فى الخلاص من الشقاء الذى تعانى منه أشد العناء . ان المسكينة لاتدرى الآن أى عذاب ستلاقيه فى المساء من هذا الملك الطائش المفتون ، فى حين أنها ترقب من ناحيتى اليد التى تفك قيودها وتطلقها من أسرها وذلها ! ..

كل من الاثنين « كابتاح » و « مينيا » ، فى موقف بالغ السـوء والخطر ، وأشعر أن لكليهما فى عنقى واجبا ، هو واجب الانقاذ من هوة أرى أنهما ـ من حيث لا يدركان ـ سيترديان فيها .

ولكن ماذا عساى أن أصنع لهما ؟ ان حاجتى من « بابل » لم تنته بعد ، فما زلت مفتقرا الى كثير من العلم بأحوالها واستكناه أسرارها ، ولم أبلغ ما أريد من الاحاطة بخفايا علوم الكهنة التى يستنطقون بها الغيب فى كبد الشاة أو فى رسوم نقط الزيت الطافية على سطح الماء .

ثم هذا الملك «بورنا بورياش» .. لقد توطدت الصداقة بينى وبينه، وأصبحت منه بالموضع الأثير ، وفى ظل صداقته وثقته أطمع فى أن ينالنى منه خير كثير ، وسبيل ذلك ألا أعجل بالرحيل ، فلو أنا آثرت البقاء الى جواره ـ طمعا فى نواله وتزيدا من العلم والمعرفة فى بلاده ـ فانى لقاء ذلك أقتل العاطفة التى تصرخ فى أعماقى وتستحثنى لدفع الضر عن رجل وفتاة تربطنى بهما أوثق الأواصر ، وفى هذا تنكر للواجب ، وخيانة للأمانة ، ونكث للعهد ، وان أنا طاوعت عاطفتى ، وأديت واجبى ، فقد خسرت الملك وجزيل عطاياه ، وقطعت سبيل علمى بما لا يزال مجهولا بهذا البلد ، ذلك الى ما قد أتعرض له من أخطار ربما ذهبت بحياتى وحياة من أريد انقاذهما ! .

يالها من حيرة طاغية ! .. ولكن كان لابد لى من أن أختـار . . فاخترت ، آخر الامر ، أن أعمل على الفور لانقاذ «كابتاح» و «مينيا» مهما كلفنى ذلك ، وما ينبغى أن أتشبث بالبقاء فى بلد لست من أهله ، أو أنشد فيه مغنما قد أجد منه بديلا فى غيره . وفيم حرصى على صداقة ملك

يستسيغ ، دون مراعاة لمشاعرى ، أن يتخذ منخادمى أضحوكة يومه ليقتله فى مغرب الشمس ؟ ! • ان هذا الملك ذا القلب الغليظ غير جدير بأن أرعى له عهدا ، أو آمن من شره •

وكانت الشمس حينذاك تشق عباب السماء آخذة سبيلها الى مرفأ الغروب ، فهرولت لساعتى الى شاطىء النهر ، ووقفت هناك على قارب ذى عشرة مجاديف ، وقلت لأصحابه : ان بى الى قاربكم حاجة عاجلة، ولكم ما شئتم على ذلك من أجر ، فان لى عما ذا ثراء كبير قد أدركه الموت اليوم هنا • ولا مناص من أن أنقل جثته عبر النهر لترقد الى جوار جثث آبائه وأجداده هناك فى موطننا عند حدود بلاد «ميتانى» • وانى أعلم أن هذا هو يوم الملك الزائف وانكم فيه لفى نشوة اللهو والشراب ، وقد يثقل عليكم أن تستجيبوا لرغبتى ، ولكن اليوم قد استشرف نهايته ، وأصبتم منه خير مافيه ، ومع ذلك فانى مضاعف أجركم ، مجزل جزاءكم ، فالامر يقتضينى البدار حرصا على نصيبى من ثروة عمى • ذلك لان أبناءه وأخى هناك ، سوف يتنازعون عليها أو يتقاسمونها اذا أنا أبطأت فى اللحاق بهم اليوم ومعى الجثة •

وكما كنت أتوقع ، لم أجد منهم ترحيبا بهذه المهمة ، ولا تفتحا لمغادرة الشاطىء ، استرسالا فيما هم فيه من لهو اليوم ، فجئتهم بجرتين من الجعة ، وقلت لهم : انكم تستطيعون أن تستزيدوا من نشوتكم بهذا الشراب حتى تغيب الشمس ، فسأتحمل مضطرا ارجاء الرحلة الى الليل من أجل متعتكم •

ولكنهم قالوا : مهما تكن أسبابك ودواعيك ، فابحارنا خلال الظلام غير ممكن ، فهذه الليلة مليئة بالشرور – كبيرها وصغيرها – وسيحدث أن تفجأنا الارواح الشريرة بصرخاتها المرعبة فتلقى بنا وبقاربنا الى جوف النهر ، وربما ذبحتنا ذبحا فلا يكون هناك أمل فى نجاة ، فما لنا ولهذا أيها الرجل ؟! ••

فقلت لهم : ان كان هذا هو مايخيفكم ، فانى أؤكد لكم أن شيئا منه لن يقع ، ذلك أنى أحفظ أسرارا تدفع الارواح الشريرة ، وانا رفيقكم وها أنتم أولاء ترونني مطمئنا غير خائف ، ثم اننى – مبالغة فى الاطمئنان والوثوق – سأتقدم الى المعبد بالقرابين استدفاعا لاى مكروه محتمل فى هذه الرحلة ، فلا عليكم من بأس أبدا • واذكروا ، ولا تنسوا ، انى معطيكم من الفضة الكثيرة ما تخفت أمامه أصوات الشياطين •

وخففت هذه العبارات من عنادهم وألانت صلابتهم ، وتبادلوا النظرات ، وهم يعبون من الشراب ، ثم قالوا : فليكن ما تريد ٠

وتركتهم آخذا طريقي الى برج المعبد ، ولم يكن هناك الا قلة من الناس ، فأكثرهم قد ذهبوا الى ساحة القصر ، فاشتريت شاة وذبحتها ، واستللت كبدها ، ورحت أسلط عليها نظرى مستقرئا ما فيها من سر ، ولكنى لم أتبين فيها شيئا يروى ظمئى ، ولم يسترع نظرى منها سوى أن لونها قاتم وأن رائحتها غير مستطابة ، فأحسست بخيبة الامل وجمعت ما سال من دم الشاة فى كيس من الجلد وعدت به عجلا الى القصر ٠ ٠ وفى طريقى اليه رأيت طائرا يحلق من قريب فوق رأسى ، فتيمنت به واطمأن قلبى لمنظره لانه كان من الطيور المعروفة عندنا فى « مصر » ، وتخيلت ساعتها أنه قادم من هناك ليلهمنى ، فى غمرات اليأس ، رباطة الجأش وانتعاش الروح ٠٠

وعندما بلغت جناح النسوة بالقصر أشرت الى من هناك من خدم وحراس بأن ينصرفوا لأخلو بالفتاة وأستخلص عقلها من الشيطان الذى صيرها مجنونة ! فأطاعوا وتركونى معها فى حجرة صغيرة ، واذ ذاك كشفت لها الخطة التى رسمتها للهرب ، والدور الذىستقوم به ، وأعطيتها السكين وكيس الجلد محتويا على دم الشاة ، فسرت بذلك ، وخرجت من حجرتها مغلقا بابها من ورائى ، واخبرت الخدم والحراس بأننى جرعتها دواء لطرد الشيطان ، وعليهم ألا يفتحوا عليها باب الحجرة حتى يتلقوا منى أمرا بذلك ، فهذا الشيطان عنيد وسيبطش بمن يفتحه قبل أن يلقى مصرعه فى الوقت الذى عينته ، وربما قضى على حياة الفتاة أيضا ، وهذا يثير سخط الملك ونقمته ، فأجابوا بالسمع والطاعة ٠

وعدت الى حيث كان الناس لايزالون يحتفلون «بكابتاح» ملكهم الزائف ، وهو مسترسل معهم فى اللهو الغامر ، والشراب المتصل والدعابات الماجنة ، و «بورنابورياش» قائم على خدمته ، مستغرق فى الضحك والثرثرة ، فملت على أذنه وقلت له : انك تعلم أن «كابتاح» خادمى ، ولهذا أرغب اليك فى أن تكون ميتته مريحة لا يشعر فيها بألم ، وبوسعى أن أحقق له هذه الراحة وهو يفارق الحياة ، فذلك ، كما ترى ، حقه على أو هو واجبى نحوه ٠

فقال : لك ماتريد ، فما يعنينى على أية صورة يلقى حتفه ، واذن فينبغى أن تسرع الى الرجل العجوز الذى يتولى اعداد وسيلة موته .

لتشترك معه فى ذلك ، فلم يبق الا قليل حتى يأتى الموعـد الذى يلقى اجله فيه ٠

وكان الرجل العجوز الذى يعنيه هو «طبيب الملك» ، فمضيت اليه وقلت له : ان الملك بعثنى اليك للاشتراك معك فى اعداد كأس الموت ، فبدا عليه الارتياح لذلك وقال: جئتنى فى الوقت المناسب، فما أحوجنى اليك فى الحقيقة ، ان يدى لا تكاد تثبت على شيء لفرط اختلاجها ، وكذلك تضطرب عيناى لكثرة ماشربت اليوم من نبيذ ، فهاك السم والنبيـــذ ، فامزجهما بنفسك ٠

ودون أن أثير انتباه الرجل استبدلت بالسم عصارة الخشخاش ، وألقيتها بكأس النبيذ بالقدر الذى يشيع الخدر فى «كابتاح» ويجعله فى مثل حال الموتى ، ولكنه لا يقضى عليه آخر الأمر ٠

وذهبت بالكأس الى «كابتياح» وقلت له : أرى ياصاحبى أننـا قد لانتلاقى مرة ثانية ، فقد أتيح لك من حيث لم تكن تقدر ، أن تبلغ أعـلى قمم العظمة والسلطان ، ولم يعد مأمولا أن تعود الى ما كنا فيه ، ففى هذه اللحظة السعيدة أرجو أن تتقبل من يدى هذه الكأس التى أقدمهـــا لك تحية وتهنئة ، وسوف أقول مفاخرا عندما أعود الى القطر المصرى ، ان سيد أركان الدنيا الاربعة كان ، فى أوج عظمتـــه وأســعد أيامه ، صديقى !٠٠

قال « كابتاح » : ان هذا المصرى يقول كلاما لا أكاد أتبينه ،حتى ليقع على أذنى كطنين الذباب ، على أنى مع ذلك أتقبل من يده كأس الشراب ، فما أكثر ما تناولت فى هذا اليوم من كئوس ، وان رعاياى المخلصـــين ليشهدون أنى قد شاركتهم تماما فى سرورهم ومرحهم فلم أمتنع عن قبول كئوسهم المتلاحقة التى كانوا يتنافسون فى تقديمها الى ، فهات كأسك أيها المصرى ، فسأشربها وان كنت أشعر بما سيكون لهــدا الشراب من قسوة على رأسى غدا ٠

وأفرغ «كابتاح» الكأس فى جوفه ، وكانت الشمس قد توارت وراء ستر الغروب ، فجاءوا بالمشـــاعل ومصـــابيح الاضاءة ، وران الصمت والسكون فجأة على القصر وسـائر من فيه ، ونهض الحضور وقوفا فى خشوع ، وأحس «كابتاح» بوحشة المكان ، وكان الشراب قد استبد به ، فرفع التاج الملكى عن رأسه قائلا : لقد أتعبنى حمل هذا التـاج الملعون ، وأشعر أن ساقى وأهداب عيونى قد تيبست كأنها قدت من حـــديد ٠٠ وأريد الآن أن أذهب الى فراشى لأنام ٠

ولكنه لم يستطع الوقوف على ساقيه ، فاستلقى على الارض وسحب غطاء المائدة ليلتف به فى نومه ، فتهاوت بهذه الحركة جرار النبيذ وكئوس الشراب التى كانت على المائدة ، وسال كل ما فيها عليه حتى صار كأنه فى بركة من نبيذ ، فأسرع الخدم فنضوا عن جسده الملابس الملكية التى كان يرتديها. وجاءوا برداء « بورنابورياش » وألبسوه اياه ووضعوا التاج على رأسه وأجلسوه على العرش وفى يده صولجان الملك ، وعندئذ قال «بورنابورياش» فى لهجة ملكية آمرة : كان هذا اليوم مضنيا ، ولكننى مع هذا لم يغب عن فطنتى أن فيكم من لم يكن فى غمرة المهرجان يولينى — متعمدا — الاحترام الواجب ، وربما توهموا اننى سأعجز عن استعادة عرشى ، فهيا أيها الخدم ، اطردوا هؤلاء الناس واضربوهم بالسياط واخلوا منهم ساحات القصر ، وطهروها من دنسهم وقذارتهم ، وضعوا جثة هذا الأحمق فى جرة الأبدية ، فقد سئمت النظر الى وجهه القبيح .

وجاء الطبيب العجوز وتحسس بيده المرتعشة جسم « كابتاح » الممدد على ظهره ، وأعلن أنه قد مات فعلا ، فحملوه وألقوه فى وعاء كبير من الطين يستعمله البابليون لمواراة جثث الموتى ، وأوصدوه بسدادة من طين ،وأمر الملك بأن يذهبوا به الى قبو فى أسفل القصر ويضعوه الى جانب أسلافه من الملوك الزائفين !

وهنا تدخلت قائلا : ان هذا الرجل مصرى ، وكان خادمى ، ولنا فى مثل هذه الحال عادات وتقاليد ، فأرجو ، وقد انتهى أمره من هذه الحياة ، أن تدعوه لى لأحفظ جثمانه وفقا لتقاليد بلادنا ، وأزوده بما تفرضه علينا هذه التقاليد من أشياء يحتاج اليها فى رحلته الطويلة الى الارض الحمراء. وتدبير ذلك — فيما جرت به العادة — يستغرق زمنا يتردد بين ثلاثين وسبعين يوما ، فالامر فى هذا منوط بمكانة الشخص الميت فى حياته ، وقد لايزيد الوقت بالنسبة «لكابتاح» على ثلاثين يوما ، لانه من طبقة الخدم وسأعيده اليكم بعد انقضاء هذه المدة لتدرجوه الى جانب أسلافه بالقبو المعد لذلك .

واستمع «بورنابورياش» الى هذا الكلام مستغربا ، ثم قال : مادامت هذه هى العادة فى بلادكم فاصنع به ماشئت ، فما أريد أن أخرق تقاليد الآخرين ، وقد يكون فى مخالفتها ما يغضب الآلهة وأنا أصلى لهم ، ولست أحب أن أقع فى ذنب يضطرنى فيما بعد الى الاعتذار اليهم .

ومن ثم أشرت الى الخدم فحملوا وعاء الجثة الى خارج القصر ، وقلت للملك وانا أهم بالانصراف : سوف لاأستطيع التشرف بلقائك خلال ثلاثين

يوما ، فعملية التحنيط تحتجزني عن الناس طول هـــذه الفترة ، ذلك لانني لو ظهرت لهم فيها ، فان الشياطين التي تتجمع حول الجثة تتسلل اليهم وتنفث فيهم الشر والاذى ٠

فوافق الملك على ذلك ، ولحقت بوعاء الجثة حيث استأجرت كرسيا لحمله ٠ وبعد أن استقر فوقه ثغرت فيه ثغرة ينفذ منها الهواء الى صدر «كابتاح» حتى لايموت مختنقا ٠ ثم خالست العيون وعدت متســللا الى جناح النسوة بالقصر ، وكان الخدم ينتظرون عودتي في لهفة وقلق ، فقد كان الملك على وشك أن يقدم عليهم وهم لا يعرفون ما يصنعون اذا ما طلب اليهم أن يحضروا اليه الفتاة «مينيا» ٠ فنحيتهم عن باب حجرتها ودلفت اليها ثم انقلبت اليهم صارخا مصطنعا البكاء وأنا أقول : يا للداهية،لقد وقع مالم يكن في الحسبان ! تعالوا فانظروا ! ٠٠ ان الفتاة قد قتلت نفسها بالسكين ، هاهي مضرجة في دمائها والسكين الى جانبها تقطر دما ٠

وراعهم الامر واعتراهم الذعر الشديد ، وأخذوا يولولون ، لاأسفا على الفتاة ، بل فزعا مما سيلقونه من الملك ٠

وقلت لهم : انه الحظ السيىء ، ونحن فيه على درجة سواء ، وسبيل الخلاص من هذا المأزق أن تسرعوا باحضار لفافة حصير نخفي الفتاة فيها ونقصيها عن هذا المكان ، وان تسرعوا كذلك بازالة الدماء السائلة عـلى بلاط الحجرة حتى لايلاحظ الملك شيئا مما حدث ، ففعلوا ما أشرت به على الفور ، ثم أحاطوني بنظراتهم الواجلة كأنهم يقولون : وماذا بعد ذلك ؟ ! ان الملك قادم بعد قليل ، وهو الى هذه الفتاة جد مشوق ٠

فقلت لهم : اني أعلم مايجول بخاطركم ، فسيكون غضب الملك شديدا وعقابه صارما ، اذا عرف أن الفتاة قد قتلت نفسها ، وستحملون كمـا سأحمل معكم فعلتها ، وستحل بنا جميعا نقمته ، ولكنني أعلم أيضا أن الملك لم يجتمع بهذه الفتاة قبل ذلك ، فهو لا يعرفها على وجه الدقة ، وليس أمامنا الا أن نحتال لدرء الخطر عن أنفسنا ، وهذا ممكن بوســيلة واحدة ولا وسيلة غيرها ، وهي أن تجيئوا على عجل بفتاة أخرى تحسنون اختيارها من بين الفتيات الاجنبيات اللواتي لا يتحدثن بلغتكم ، وتجملوها باللباس والزينة حتى تروق للملك اذا ما قدمتموها اليه ، وهو قد بلغه أن في الفتاة «مينيا» شرسا وجموحا واختبال عقل ، فقرر أن يعذبها ضربا بالعصي والسياط ، لاعتقاده أنه بهذا يبرئها من أرواح الشياطين ، فافهموا هذا جيدا ، وسيجزل مكافأتكم اذا نفذتم أمره ، فقد صرح لي بذلك ٠٠

فقالوا : هذا حسن ، وهو ممكن ، ولكن شراء فتاة أخرى يحتـاج مالا ٠٠ فأعطيتهم نصف الثمن الذى قدروه ، وخرج بعضـهم مهرولين ليعودوا بالفتاة التى يملأون بها فراغ «مينيا» ٠

وأعاننى الآخرون فى نقل «مينيا» الى خارج القصر ملفوفة بالحصير فوضعتها على حالتها هذه الى جانب وعاء جثة «كابتـاح» بالكرسى الذى استأجرته لذلك ، ثم رفعه الحمالون على كواهلهم ، فلما بلغنا شاطىء النهر أمرتهم بنقل الوعاء والحصير الى القارب ففعلوا ، ونفحتهم قطعا من النقود الفضية وأوصيتهم بألا يذكروا شيئا مما رأوا لاحد اذا ما سئلوا ، فقالوا وهم فرحون بالنقود التى أخذوها : حقا انك لسيد ممتاز كريم ، وثق أن فى آذاننا وقرا ، وعلى عيوننا غشاوة ، فلم نر ! ٠٠ ثم انصرفوا ، وانا غير واثق تماما من حرصهم على كتمان الامر ، فهؤلاء من الأوزاع المستضعفين فى الارض ، وسينفقون ما فى أيديهم من القطع الفضية فى الشراب بعـد قليل وسيسلمهم الشراب الى الثرثرة وافشـاء السر ، ولكنى لم أكن أستطيع الا أن أطلب منهم الكتمان تشبثا بالامل الضعيف فيهم ، فقد كانوا ثمانية ولا قدرة لى على القائهم فى النهر لأتخلص منهم معانا فى الاحتفاظ بالسر ٠٠

وأيقظت مجدفى القارب بعد أن سويت على ظهره مكانا لـكل من جثتى « كابتاح » و « مينيا » ! ٠٠ وكانت رءوس المجدفين مثقلة بفعل الشراب الذى أسرفوا فيه ، فأخذوا ، وهم يتثاءبون ، يدفعون بالقارب الى عرض النهر ٠

وعلى هذا تمت الخطوة الاولى لفرارنا من «بابل» ، ولم أكن حتى هذه اللحظة أستشف فيما فعلت سببا معقولا يبرره ٠ لقد كنت مسوقا الى ذلك بدافع خفى ، ولا شك فى أنه كان قدرا مقررا فى طيـات الغيب المجهول ، وما أكثر ما أعانى من أقدار الغيب التى تقررت لحياتى قبـل أن أوله ٠



"مينيا"



- ١ -

ومضى بنا القارب موغلا فى النهر ، وشيئا فشيئا كانت « بابل » تتوارى عن عيوننا ، فأزداد بذلك أمنا ، ولم تعد تهجس فى نفسى خشية من احتمالات المطاردة فى بقية الطريق ، فالرقابة على النهر غير مفروضة ليلا . وعندئذ حاولت أن أسلم جسمى المنهك الى النوم طلبا للراحة .. ولكن «مينيا» فى تلك اللحظة تجردت من وثاق الحصير وراحت تغرف بيديها من ماء النهر وتمسح به الدماء التى علقت بجسمها وتقول مؤنبة : أطعت أمرك فتدنست بهذا الدم الذى لا أعرف كيف أخلص نفسى من خطيئته ومن خبث رائحته ، فقد ألقيتنى بذلك فيما أكره وكأنه لم يكفك هذا فلففتنى بهذا الحصير لفا شديدا حتى صرت لا أستطيع الآن ترديد أنفاسى ..

وضقت بكلماتها هذه أشد الضيق ، فقلت لها ضجرا : اليك عنى أيتها الفتاة الملعونة ، أتذكرين الدم والحصير ولا تذكرين أن لهما عليك فضل الخلاص الذى كنت تنشدينه بجدع الأنف ؟! .. ثم لاتذكرين- أيتها العاقة الجاحدة - اننى بسببك وفى سبيل خلاصك قد فقدت الكثير مما ليس فيك من بعضه عوض ، واستهدفت وما زلت مستهدفا لما لا أدرى من أخطار فادحة ؟!. ألا تعلمين -أيتها الغبية- اننى لولاك لبقيت فى«بابل» صديقا للملك ودانيا من عرشه،وظافرا بما شئت من أعطيته وهداياه؟!.. ولولاك لظل حبل اتصالى بكهنة البرج ممـــدودا ، أستزيد من حكمتهم ، وأستبين المحجب من أسرار طبهم ، لأصبح بما أضيفه من علومهم الىعلمى أحكم طبيب فى العالم ؟! ولولاك لبقيت هناك طبيبا موثوقا به من الجميع موفور الربح بما أتقاضاه من غالى الاجور وسخى المكافأة ؟! كل هذا قد فقدته فجأة من أجلك واستجابة لرغبتك ؟! وأكثر من هذا فاننى للعجلة

التى اقتضاها ضيق الوقت وفرضها الخوف من كشف السر والوقوع فى الخطر ، لم أتمكن ، بل لم أجترىء على استبدال النقود بالالواح الطينية من بيت الصراف بالمعبد ، وأنت بعد ذلك حانقة مغضبة ؟!٠٠ وأشعر فى الحقيقة أننى كنت أكثر منك حمقا وغباء ، فما كان ينبغى أن أقذف بنفسى الى هذه الهوة السحيقة ، مأخوذا برغبة تافهة تصدر عن مثل عقلك الملتاث ، وما كان يجدر بى الا أن أدعك للملك ليلهب ظهرك بالسياط ، فذلك هو الدواء الذى كان قد أعده لك فى هذه الليلة ، ويبدو أنه هو الدواء الناجع لك !٠٠ على أن باستطاعتك الآن أن تلقى بنفسك فى النهر لتذهبى الى بطون حيتانه مطهرة من الدم الذى تكرهينه ٠٠٠

قالت وهى تحدق فى ماء النهر الذى كان يسطع تحت ضوء القمر كأنه سبيكة من لجين : اذن فليكن ماتريد !٠٠

ونهضت لتلقى بنفسها فى الماء ٠٠ فامسكت بها قائلا : ألا تكفين عن ارتكاب الحماقات ؟! ٠٠ انك ان تفعلى هذا فلن أفيد منه شيئا بعد ماكان ، فتعقلى وقدرى الموقف الذى نحن فيه ، والا فقد ضاعت عبثا كل محاولاتنا وجهودنا ، وأستحلفك بجميع الآلهة أن تدعينى قليلا لأنام فى هدوء ٠٠٠

فانحسر عنها الروع والجموح، فى حين تمددت أنا على أرض القارب، وكان جو الليل باردا ، فاتخذت من الحصير غطاء واقيا ، واقتربت هى منى هامسة : اذا لم أستطع أن أفعل لك شيئا أيها النائم المقرور ، فلا أقل من أن أدنو هكذا منك لأدفئك ٠

وكان التعب قد أخذ منى مأخذه ، فاستسلمت ، مستدفئا بجوارها الى نوم عميق ٠ واستيقظت بعد طلوع الشمس لأرى المجدفين قد قطعوا مرحلة طويلة ، ولكنهم كانوا برمين بعملهم ، باديا عليهم التعب ، ويقولون أليس لهذه الرحلة من آخر ؟ لقد أجهدتنا ، وثقل العمل علينا حتى كلت سواعدنا وظهورنا ، وكأنك تريد أن تقضى علينا ، ولا نعلم لماذا العجلة فهل فى بيتك هناك حريق تستحث السير اليه لتطفئه ؟!٠٠

ولمحت فى وجوههم بوادر الشر والتمرد ، فكان على أن أستعمل معهم الحزم والصرامة حتى لا يفلت زمامهم من يدى ، فقلت لهم منذرا : اذا لم تنشطوا وتمضوا فى عملكم جادين فان عصاى التى ستوجع ظهوركم كفيلة أن تدفعكم الى ذلك دفعا ، ولن آذن لكم بالتوقف الا عند الظهيرة ، وحينئذ تنالون راحتكم ، وتأكلون وتشربون ما شئتم ، وسأعطى كلا منكم من نبيذ البلح مايجعلكم فى خفة العصافير ونشاطها ٠ واعلموا أن بوسعى ، اذا

ابطالتم ، أن أسلط عليكم جميع الشياطين لتنهش أبدانكم وأرواحكم ، فانني كاهن وساحر في وقت واحد ٠

ولكنهم كانوا من العناد والتبلد بحيث لم يؤثر فيهم وعيدى ، فأخذوا يتبادلون نظرات خبيثة ، فهمت منها أنهم يحسبونني غير صادق فيما أزعمه من القوة ، وانهم على النقيض يستطيعون الفتك بى ، فهم عشرة أشداء ، وأنا واحد ، وقد هم أحدهم فعلا ، وكان أقربهم منى ، أن يضربنى بمجدافه ٠ غير أنه أمسك فجأة لان وعاء الطين الذى يندرج «كابتاح» فى جوفه قد أخذ يترنح وتنبعث من جوانبه صرخات غير واضحة فارتاعوا وانزعجوا وشحبت وجوههم هلعا ، وكأنهم تخيلوا الموت مقبلا عليهم من هذا الوعاء الغريب ، فالقوا بأنفسهم في النهر فرارا منه ، وقد أبعدوا في سبحهم حتى غابوا عن نظرى ٠

وصار القارب ، بعد أن خلا منهم ، يتأرجح ويضطرب بفعل التيار العاصف ، وأحسست انه يوشك أن ينقلب بنا ، فأسرعت بالقاء «المرساة» الى قاع النهر لتمسكه ٠

وهنا ظهرت «مينيا» على سطح القارب ممشوقة القوام ، مسواة الشعر ، مشرقة الوجه ، وكانت الشمس قد ازدادت سطوعا وبهاء ، والطيور بين الاعشاب والحقول القريبة ترسل الينا شدوا مطربا ، فزايلنى فى هذا الجو البديع ما كان قد اعترانى من خوف وارتباك ، وخطوت الى جرة «كابتاح» فرفعت سدادتها وهتفت به ليخرج منها ، فاطل برأسه وكان منظره مثيرا حقا وانطلق لاعنا ساخطا مرددا عبارات هاذية كقوله : أية حماقة هذه ؟ اين أنا ؟! وأين تاج ملكى وصولجان سلطانى ؟! وأين الملحفة التى أدافع بها هذا البرد القارس ؟ وما هذه المطارق التى تدق فى رأسى ٠٠ ولماذا تصلبت أطرافى هكذا فلا أستطيع لها حراكا كأنها استحالت حديدا أو رصاصا ؟ أيمكن أن أصير الى تلك الحال وانا الملك العظيم ؟ لا شك أنك يا « سنوحى » تعبث بى على عادتك جاهلا أنى أصبحت ملكا آمرا ؟ ألا فاحذر عاقبة ما تفعل ، فمن أخطر الامور معابثة الملوك أو محاولة المزاح معهم ٠

فقلت له : انك تهذى هذيانا سخيفا يا «كابتاح» ، ولكنه النبيذ الذى تجاوزت فى شرابه حد الاعتدال فذهب بالبقية الباقية من عقلك ، فلعلك بعد لا تعود لمثل هذا ، وقد آن أن تصحو وأن تندم ، وعليك أن تذكر أننا أبحرنا معا من « بابل » على أحسن حال ، فسولت لك نفسك أن تشرب

النبيذ وأن تفرط فيه ، فما لبثت حالك أن تغيرت ورحت تحدث بالقارب مرجا لا يطاق وحملت على النوتية حملات قاسية بالقول البذيء والشتائم النابية ، ممـا اضطرهم الى أن يضعوك حيث أنت الآن فى جرة من طين ليأمنوا شرك • والعجيب أنك خلال هذيانك كنت تتحدث عن الملوك والقضاة كما لازلت تتحدث الآن ، وهو شيء غير مألوف فى خواطر أمثالك حتى لو فقدوا وعيهم تماما •

وأغمض « كابتاح » عينيه سابحا فى خضم من ذكريات الأمس التى تتحول فى حديثى معه الى خرافة وهذيان • ولم يستطع وهو يراجع نفسه أن يربط بينها وبين الحقيقة ، فمن المستحيل أن يكون وهو ذلك الانسان التافه قد صار ملكا محتفلا به من شعب بأكمله فى لحظة واحدة ، بله فى يوم كامل • واذن فالواقع ، كما قلت له ، انه أسرف على نفسه فى شرب النبيذ ، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، وهنـا قال : أنت على حـق يا سيدى ، فلعنة الآلهة على النبيذ وشاربه ، ولن أعود اليه • لقد غيبنى عن هذا الوجود ، واستبد بعقلى وطار به الى آفاق حاشدة بالمخاطرات • وقد تخيلت أنى لم أكن فيها صريع الشراب الملعون ، وانما كنت محمولا على أجنحة « الجعران المقدس » ويا له من خيال ذلك الذى جعلنى ملكا وأجلسنى على العرش وجمع الناس حولى لأوزع العدالة بينهم ، ثم يدخلنى على مقاصير النساء بالقصر الملكى لتلاقينى هناك فتاة رائعة الجمال ، الى أشياء أخرى كثيرة .لا خير فى ذكرها الآن ، فقد كانت خيالا كاذبا •

وحانت منه التفاتة ، فرأى « مينيا » على الطرف الآخر من القارب ، فعاد يدس رأسه فى الجرة ويقول فى صوت خافت : يظهر ياسيدى أننى ما زلت مخمورا أو حالما ، فكأنى أرى بهذا القارب فتاة القصر التى لقيتها بالامس • ان ذكراها تزعجنى ، فكيف بى وأنا أراها ملء عينى ؟! ثم وضع يده على عينه التى تبدو عليها آثار اللكمات ، وأمسك بأنفه المتورم ، وراح يئن ويتوجع ••

ولم يطل استخفاؤه بالجرة ، فقد جاءت « مينيا » وأمسكت بشعر رأسه وراحت تشده بكلتا يديها وتقول له : ألست أنت الذى أزعجتنى بالأمس ؟! انك هو بلا ريب وما أنا بتاركتك بعد •

فزاده هذا هلعا وأرخى رأسه وهو يغمض عينه مخادعا نفسه بأنه لم يزل نائما وأن هذه الفتاة ليست الا سرابا من رؤى النوم • وكان يقول فى رعدة الخائف : رفقا بى يا آلهة مصر جميعـا •• لقد كرهتم منى أن عبدت آلهة أخرى وضحيت من أجلهـا ، فصببتم نقمتكم على

راسي ، فاغفروا لي هذا الذنب الكبير ، وامنحوني رحمتكم وعونكم فقد حل بي مالا طاقة لي به من عذاب ٠

ونحيت عنه « مينيا » وأخرجته ، بعد ملاحاة ، من الجرة وسقيته سائلا مرا لغسل أمعائه وربطته بحبل ودفعت به الى النهر ليذهب الماء بما بقي في رأسه من أثر الخشخاش والنبيذ ، وتركته بعض الوقت يغوص ويطفو وهو يصرخ محتجا تارة ومستنجدا تارة أخرى ، ثم شددته بطرف الحبل الذي كنت أمسكه به حتى عاد الينا فوق سطح القارب مجهدا متلاحق الأنفاس ٠

وقلت له : لقد عصيتني وأبقت من طاعتي ، وأنا سيدك ورفيق غربتك ، فحق عليك ما لقيت من عقاب ٠ ولعل أن يكون لك في هذا عبرة واعظة فلا تعد الى مخالفتي . واعلم انك لم تكن ياهذا في خيال مخمور أو في حلم نائم ، وانما كنت حقيقة ملكا تقتعد عرشا وتحمل تاجا وصولجانا وتجلس بين الشعب مجلس القضاء ، كل هذا قد حدث في دنيا الواقع ، ولكنك كنت كذلك لساعات تنتهي في مغرب الشمس ثم تنتهي بنهايتها حياتك وتلقى مقتولا كالحشرة القذرة في هذا الوعاء الى جانب من سبقوك من ملوك زائفين !٠٠ على أني في اللحظة الأخيرة تدخلت محتالا لانقاذ حياتك ٠

ثم قصصت عليه القصة من بدايتها الى نهايتها ، وكنت أعيدها واكررها لترسب في ذهنه القلق الشارد ٠ وأخيرا قلت له : وعلى أية حال فلندع ما كان الى ما هو كائن ، فنحن اليوم في موقف بالغ الخطورة ، وحياتنا جميعا أصبحت مستهدفة لأسوأ الاحتمالات ، فعليك أن تسترد صوابك كاملا وتعينني في الاسراع لبلوغ أرض « ميتساني » قبل أن يكتشف الملك أمرنا ويلحق رجاله بنا ، وحينذاك لا يكون لنا من الموت مهرب ٠

ولكن « كابتاح » بعد اطراق وطول تفكير أخذ يفرك يديه ويعبث بشعر رأسه ويقول : اذا كان ما حدث صحيحا كله كما تقول ، فاني اذن قد تجنيت على النبيذ ولم أكن عادلا في الحكم عليه باللعنة ، ولهذا فاني أعتذر اليه ، وسأشرب منه نهلا وغللا حتى يرضى ، وما دام يوم أمس قد مضى دون أن أفارق الحياة ، فاني لسعيد بذكرى أحداثه اللطاف الممتعة ٠ والحق أنه كان يوما عظيما ليس كمثله في العمر الطويل يوم !٠

قال هذا وانفلت من بين يدي الى قمرية القارب ففتح اناء النبيذ ، وراح يعب منه وهو يرتل عبارات الثناء والدعاء لآلهة « مصر » و « بابل »

ويذكرهم بأسمائهم ، وما زال هكذا حتى ارتمى على الارض ليدخل فى نوم ثقيل ، مرسلا من صدره شخيرا مزعجا خلته رغاء الجواميس فى النهر ! ··

وأضجرنى منه هذا السلوك الطائش ، فهممت أن ألقيه بالماء ، ولكن « مينيا » دافعتنى عنه قائلة : لا أرى فى تصرفه ما يثير الى هذا الحد ، لقد قضى وقضينا نحن كذلك يوما حاشدا بالعناء والمضايقات ، فلا عليه أن يجتر نفسه منه بهذا الاسلوب ، ولا علينا ، أنا وأنت ، اذا جرينـــا مجراه ، فنشرب ونطرب ، وحسبنا ما لقينا بالأمس ، واننا الآن من هذا النهر فى موقع غير مخيف ، فهذه الاعشاب التى تدانينا قمينة أن تخفينا عن العيون ان كان ثمة عيون تطاردنا ، ثم هذا الجو الرائق الجميل الذى يتنضر بأشعة الشمس منعكسة على صفحة الماء ، والطيور من حوالينا تزقزق وتغنى ، وحقـــول القمح على حفافى النهر مزهرة بخضرلهـــا وازدهارها ، أليس فى هذا ما يغرينا بالمتعة ويستخفنا اليها ؟! فما بالنا لا نفتح قلوبنا للسعادة وهى ترفرف علينا بأجنحتها ! ·· أما انا فشاعرة بالبهجة تغمر قلبى لأننى على الأقل قد تخلصت من أسر الرق والعبودية··

قلت لها مستسلما : أما وقد صرت مجنونة كما قد صار (كابتاح) مجنونا ، فلا يسعنى الا أن أكون مجنـــونا مثلكما ! ·· وفى الحق أنه لا معنى لهذا الخوف الذى يركبنا من الموت ، فكل شيء مقدور علينا فى السماء قبل أن تولد ، وسواء عندى أوقع موتى اليوم أو غدا أو بعد عشرة أعوام ، فهو واقع على أية حال ، وهذا هو ما ألهمنيه كهنة البرج فى « بابل » ، وهم على صواب ·

وعلى هذا ، انطلقنا نلهو فنزلنا الى النهر وسبحنا فيه وخرجنـــا منه ، فجففنا ملابسنا على حـــرارة الشمس ، واخذنا نتناول الطعـــام ونتساقى النبيذ ، وذكرت « مينيا » الهها ، فراحت تندمج بروحها فيه وترقص له ، وكانت رائعة فاتنة ، واحسست بأنهـــا قد اقتحمت قلبى بجمالها الساحر ، قلت لها : حدث مرة واحدة فى حيـــاتى أن تسللت سيدة جميلة الى قلبى فملأته ، وكنت أناديها «أختى»! ، ولكنها سحقتنى ودمرت حياتى ! ·· وان فيك لجمالا فاتنـــا ، وفتنة آسرة ، وأخشى أن أحترق مرة أخرى فى المصهر نفسه !·

فحدجتنى بنظرها وقالت دهشـــة : أكبر ظنى أن ســيدات بلادكم غريبات الأطوار ، فاسدات الطباع ، وهن بهذا يختلفن تماما عن سيدات بلادنا · على أنه مهما يكن الأمر فانك تستطيع أن تطمئن من ناحيتى ،

فلا شيء هو أبعد عن أهدافي من مواصلة الرجال أو الاندماج فيهم ، وذلك لأن الهي يحرم علي ذلك ويمنعني منه ، ويقتلني ان فعلته .

ثم أخـــذت برأسي بين يديها ، وأمالته حانية على ركبتها وقالت : ان تصورك النساء على هذا النحو ينبيء بأن في خلايا هذا الرأس غبـاء وهو شيء مؤسف ، فكما أن الرجال ليسوا كلهم ســواسية أو على خلاق واحد ، فان النسـاء مثلهم كذلك تناقضـــا واختلافا ، وان كان من بين النساء سيدات يسممن الآبار ، فان من بينهن سيدات يشبههن عيون الماء الجارية وسط الصحراء القاحلة ، أو يشبهن الندى فوق الأعشاب الذاوية والحشائش الجافة . ولكنه الغباء الذى يستكن فى رأسك هذا ، هو الذى أخفى عنك هذه الحقيقة ، على بساطتها ووضوحها ... ومع هـــذا فانى لألمح في عينيك شيئا يثير الاغراء ، ولكنني آســـفة وحزينة معا لانني غير قادرة على الاستجابة لنداء هذا الشعور الخفي ! .. تلك ارادة الهى، وأنا أخشى ارادته وأقدسها ..

وقد استهواني حديثها ، فأمسكت بيديها البضتين مداعبا وقلت لها : «مينيا » ! .. يا أختى لا تضلي طريقك كامرأة مسحورة بعقيـــدة خاطئة فى الآلهة ، وكائنا ما يكون الهك ، فانه لا يمـــكن أن يرتضى لك هذا الحرمان فى دنيانا الزاخرة بالمتاع ، وانك لتصورينه ظالما وقاسيا حين تعتقدين أنه فرض عليك ذلك ، فما عرفنا الآلهة الا سماحا رحماء ، وهم بالطبع أكثر تسامحا ورحمة مع المؤمنين صادقي الايمان من أتباعهم . على أنه لا يجب أن تسرف العقول المستنيرة فى الفناء فى الآلهة على نحو ما تفعلين . وصدقيني ، لقد بلوت الكثير من أمرهم ، وعرفت من حقائقهم مالا تعرفين ، وما ظنك يا أختـاه بآلهة يصـــنعهم الناس بأيديهم ثم يرفعونهم بالأيدى نفسها ليعبدوهم ويستشعروا الخوف منهم ؟ ! فليكن رأيك فيهم ما يكون ، أما رأيي فالامر لا يعدو أن يكون وهما بولغ فيه حتى صـــار عقيدة ، ومع ذلك فأكثر الناس يتبعون الآلهة ويعبدونهم ويتقربون اليهم زلفى ، ولا يمنعهم ذلك من مباشرة وظائفهم البشرية التى لا تعمر الدنيا بغيرها ، فلو أن الرجال والنســـاء تحـــاجزوا وتقاطعوا واستدبر بعضهم بعضا لخلت الأرض منهم جميعا ، ولما بقي عليها من يعرف ربا أو يعبد الها . ولا شك أن الآلهة لا يريدون ذلك ، فأنت اذن تنحرفين عن ارادتهم ، وتذهبين فى الحياة مذهبا يجافى مشيئتهم ، فدعى عنك هذا ، ولا تخشى الهك كل هذه الخشية ، وتعـــالى الى لنمضى بعيدا الى بلاد لا يمتد اليها سلطانه ، فنأكل معا الأســـماك والطيور ، ونتقلب على الحشـــائش وننام على الأعشـــاب ، هناك وسط قبائل بادية ، تحيا

بالفطرة وتعيش عليها ، حيث الانطلاق من قيود المدن وأسر التقاليد ، ومخافة الآلهة وسطوة الملوك ، ونظل على هذا الى آخر حياتنا ، سعيدين ناعمي البال ..

ولكنني بهذا الحديث لم أبلغ منها حد الاقناع ، بل لقد تقبضت له وقالت : عبثا تقول ، فان الهي قد صاغ قلبي ورسم عليـــه رقاع العالم ومعالمه كلها ، فهو رفيقي في أي مكان أنزل به ، وقريبة كنت أو بعيدة فاني في متناول يده ، وانك على عادة الرجال وطبعهم تحاول اغرائي لأوثرك عليه ، وهذا أمر بعيد المنال ، فهو يرصد تصرفاتي بعين لا تغفو ، وسيأمر فيتلقفني الموت عاجلا اذا أسلمت جسدي لرجل ، وأكاد أحسه الآن غاضبا ، اذ أنظر في عينيك وأتحدث اليك ، فتخل عن أفكارك واكبح جماح رغبتك ، وســوف لا يضـيرك هذا ، ففي الغداة سيتغير شعورك ، فتزهدني بل تنساني ، فتلك حالكم معشر الرجال !..

وشعرت حيال موقفها هذا كأني كومة من عشب جاف أشعلتها شرارة من نار ، فقلت لهـا : بل تلك حال النســاء وطبعهن في معــاملة الرجال ، وأنت على مثالهن تلتمسين اللذة والمتــاع في تعذيب قلبي وترويعه ، ولكنني أعلم هذا فقد جربته وعانيت منه ، ولم أعد ، بعد ، الصيد الذي يقع في الشرك يا فتاتي الصغيرة !..

قالت : انك لا شــــك تجهل من أكون ، فاعلم أني لست من غمار النساء ، وانما أنا فتاة تفردت دونهم بالحكمة والمعـرفة ، أحطت علما بلغات ذات عدد ، منها لغة « بابل » ولغة « مصر » التي هي لغتك ، وأكتب اسمي على الالواح والاوراق بثلاثة أنواع من الحروف ، وقد طوفت في بلاد وأقطار شتى ، وهنا وهناك خلبت الألبــاب برقصتي الالهية البارعة ، وما أكثر ما ترامت حولي سهام الشهوات ولكنها كانت تتكسر دائما على حصون منيعة من عفتي وطهري ، الى أن حدث أخيرا أن كنت مبحرة على احدى السفن في رحلتي الدينية ، فغرقت السفينة ووقعت في أيدي تجار الرقيق ، وصرت بعد ذلك الى جناح الملك في « بابل » ، ولكن الهي المقدس الذي لا ينفك يرعاني قد أنجاني من الغرق ثم أنجاني من رق الملك ، ولا عجب فقد صنعني على عينه واصطفاني لنفســه فلا تستطيع قوة في الوجود أن تفصلني عنه ، وربما شق على عقلك أن يدرك الصلة بين الهي ورقصي ، ولكنك قد تدرك ذلك اذا وقع لك يوما أن ترقص بين ثيران متوحشــة تتناهبك بقرونها الحــادة ، فتدافعها بكمامة في يدك غير متوقف عن حركات الرقص بقدميك ، ثم تظهر عليها في النهـــاية بحذقك وبراعتك وجـرأة قلبك ، ولا يلحق بك أذى من

هجماتها الشرسة ، فهل كنت تستطيع أن تثبت لهذا وتنجو منه اذا لم تكن من ورائك قوة اله عظيم ؟! ‥ فذلك هو الرقص الذى علمنيه الهى وفطرنى عليه ، وقد اقتحمت به حلبات الثيران المتوحشة ، وحلبات الرجال المتوحشين أيضا ، وحفظنى الهى وصاننى فى كل المواقف ، لاننى ارقص بأمره ولمرضاته ٠

قلت لها : هـذا شىء غريب حقـا ، وما سمعت من قبل أن فتـاة تؤتى هذا الحظ العظيم من غضارة الشباب والمعرفة ، يقضى عليها أن تظل عذراء لتراقص الثيران المتوحشة وتفلت منها ! ‥ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه ، على أنه يذكرنى بما كنت قد سمعته عما يصنعه الـكهنة فى « سوريا » ، فقد قيل انهم هناك يقدمون الفتيات قربانا الى الخراف ! ٠

فثارت غضبا لسخريتى بها ، وتطاير الشرر من عينيها الغاضبتين، وصاحت فى وجهى قائلة : وما أرى فرقا بين الخراف والرجال ، فهما سواء فى غريزة الحيوانية الدنسة ، فاليك عنى ، ولا تضـايقنى بجدالك ومعاريض شهواتك ، فأنت لاتفقه من حقيقة أمرى أكثر مما يفقهالخنزير من أمر الفضة ! ‥

وكانت بهذا قد بلغت أقصى المدى فى الاقذاع والايلام ، فانصرفت عنها ، وتناولت صندوق أدواتى وعقاقيرى الطبيـة ، وجعلت أتشـاغل بتنظيف الآلات ، ووزن السوائل والمسـاحيق ، فى حين راحت هى تدلك جسمها بالزيت ثم ترقص رقصات عنيفة أحدثت اهتزازا فى القارب ، وخالستها النظر خلال ذلك فأدهشنى منها أنها كانت تنحنى الى الخلف حتى تلمس يداها الارض ، وجسمها يستدير كأنه القوس ، وترفع ساقيها وترسلهما ممددين فى الهواء ، فلا يبقى منها على الارض الا يدان تحملان جسما مقلوبا ٠ أما رأسها فكان فى هذا الوضع يترنح غيرمستند الى شىء ، وشعرها يتموج حوله تموجا رائعا٠٠٠لقد كانت ترقص رقصا دقيقا لم تر عينى مثله على كثرة ما رأيت من أوضاع الرقص وفنونه فى بيوت اللهو بسائر البلاد التى تنقلت بينها أو عشت فيها !٠٠

وتأثرت بمنظرها هذا ، وانتفى من نفسى النـدم على ما فقدته فى سبيل هجرتى معها ، وازددت تأثرا حين رأيتها تخرج من رقصتها هذه مجهدة ، فتتشح رداء تغطى به جسمها المتفصد عرقا ، ثم تنطوى على نفسها لتبكى بكاء حارا ، فقاربتها فى حذر ولمست كتفها برفق متسائلا عما اذا كانت تشكو مرضا ؟! ولكنها دون أن تجيب دفعت يدى عنها وراحت مستغرقة فى بكائهـا ٠ فجلست الى جوارها آسـيا على حالها ،

وقد أحسست بان ضميرى يوبخني على ما بدر مني نحوها فعولت على تغيير سلوكي معها ، فقلت لها بعد اطراق : أختي « مينيا » ! · لاتبكي ، انى أتوسل اليك ألا تبكى ، فما عنيت بحديثي سوى الترفيه عن نفسك بعض الشيء ، ولن أعرض لهذا بعد الآن ، بل سأتحرى فى كل تصرفاتي ان أدفع عنك كل ما قد يسبب لك الألم والأسى .

فرفعت راسها وكفكفت دموعها وقالت · انني لاأخشى الآلام والمآسى ولا أبكي منها ، وانما بكائى لان رجلا ملحدا فاسد العقيدة يلمزني فى عقيدتي ، ويتعيب ديني، فيعتريني الضعف أمامه ، وكنت القوية الغالبة، ولا أفهم من هذا الا أن الهي الذى يمدني بالقوة فى سائر المواقف قد تخلى عني ونبذني ، وذلك يهولني ويزعجني ·

وتراخت تحت كلكل من الهم ، فأمسكت بيديها ، فاجالت نظرها فى وجهى غير متأففة وقالت فى هدوء : لعلى أن أكون فى تقديرك الآن جاحدة ، وكان ينبغي أن أشكرك لأنك حققت رجائي فى الخلاص ، وضحيت ما ضحيت من أجلى ، ولكن لا ذنب لى فى ذلك ، وقد لا يكون ماذكرته لك عن الهي كافيا لتعرف حقيقته كاملة ، وليس بمستطاعى أن أنبئك بكل شيء ، فثمة حدود قد رسمها للحديث عنه ولا يجوز لى أن أعدوها ، على أنه من الممكن فى نطاق هذه الحدود أن أخبرك بانه « اله البحر » وأنه يأوى منه الى مكان مظلم لا يدخل اليه فيه انسان الا بقى معه هناك الى الابد ، ويرى بعض الناس أنه يشبه الثور ، ولهذا فنحن الفتيات المختارات لخدمته نتعلم الرقص له أمام الثيران التى تشبهه ، ويروى آخرون أنه يشبه رجلا يعلوه رأس ثور ، وهذه رواية أعتقد انها غير صحيحة ، وانما الذى لا شك فيه أن اثنتي عشرة فتاة يحتشدن فى كل عام لاختيار واحدة منهن لخدمته عندما يكون القمر فى تمامه ويجرى هذا الاختيار عن طريق الاقتراع بينهن ، فاذا خرجت القرعة بالفتاة المختارة كانت هى ذات الحظ السعيد دون الباقيات · وقد كنت أنا السعيدة التى اختارها الاله فى هذا العام ، ولكنني عندما كنت فى طريقي اليه غرقت السفينة ، فوقعت فى أيدى تجار الرقيق ، وكان بعد ذلك ما عرفت من أمرى · وبهذا حيل بيني وبين ما ظللت ، منذ فجر شبابي ، أحلم به ، وهو العيش بجوار الهي ناعمة ، فى بيته هناك ، بالخلود السرمدى ، فتلك سعادة كانت مني جد قريبة ولكنها تلاشت فجأة ، وهذا هو الذى يحزنني ويقض مضجعي ، ويمكنك أن تتصور مدى هذه السعادة التى فقدتها وهى فى يدى ، اذا علمت أن الفتاة التى تختار لخدمة هذا الاله العظيم يؤذن لها بالعودة الى هذا

العـالم اذا قضت فى بيته شهرا ، ولكن جميع الفتيات اللائى واتاهن حظ الاختيار له لم تعد منهن واحدة الى عالمنا هذا ، ذلك لانهن قد وجدن هناك من الخير والسعادة والمتاع مالا وجود له هنا ، فآثرن البقـاء وأبين الرجوع ! ..

كان حديث « مينيا » مؤتنسا ، وكانت الشمس حينذاك قد تجللتها غيمة عارضة ، فبدا الجو مظلما موحشا ، وهكذا كان قلبى ، فقد أدركت أن « مينيا » ما برحت صريعة الخرافات الدينية التى يفشيها الكهنة فى عقول الناس فى كل قطر من أقطار الأرض . ومن ثم فليس لى من روحها او قلبها موضع . ولم أشأ أن أحنقها وأستثير ما سكن من غضبها . فقلت لها موادعا ، ويداها ما زالتا فى يدى : قد فهمت موقفك تماما ، فأنت تريدين المضى الى الهك لتسعدى بالخلود الى جواره ، وسأنزل على ارادتك ، ويمكنك أن تعتمدى على فى ذلك . ولقد عرفت من حديثك أن « كريت » هى المكان الذى جئت منه ، ولهذا فانى جاعل سبيلنا اليها عبر البحر ، ومنها تأخذين وجهتك الى البيت المظلم الذى يأوى اليـه الهك . واذا كان قد بدا لك من حديثى أننى غير مؤمن به حتى الآن ، فذلك لأن روايات شتى كان يتناقلها عنه التجار والبحارة فى « أزمير » ولا يثبتون فيها على رأى يقينى يعتد به فى تقرير العقيدة ، فكان يقال مثلا ان الكهنة يذبحون ، أو يحاولون أن يذبحوا كل من يخرج من بيت هذا الاله عائدا الى وطنه وأهله ، حتى لا يعرف الناس شيئا عنه ، كما كان يقال ان الذين يذهبون اليه لا يعودون ، لا لأنهم استطاعوا المقـام معه . وانما لانهم قد ماتوا فى جوف البحر ! .. ومعنى هذا أنه لا وجود له ، وكيفما كان الأمر فانك ستعرفين الحقيقة على وجهها الصحيح عندما يتحقق أملك فى بلوغ مأواه ، أعنى بيته المظلم ! ..

وقالت «مينيا» فى ضعف ملحوظ . نعم ، ينبغى أن اذهب الى الهى فما أرى فى غير بيته مكانا يرفرف عليه الأمن والسـلام . على أن رغبتى فى ذلك لا تمنعنى من مصارحتك بأننى صرت أشعر بأن الوقت الذى أقضيه معك يمتلىء فيه صدرى بالبهجة والغبطة ، فلم أعد بالنسبة لك تلك الفتاة المتمردة العاقة وليس هذا لأنك أنقذت حياتى وخلصتنى من الأسر ، بل لانك ، أكثر من هذا ، رجل لم أصادف مثله فى الرجال كرم أخلاق ولطف معاملة . وقد نال هذا الشعور من شغفى الى لقاء الهى ، فلم يعد كما كان شغفا مشبوبا ، وربما سرنى هذا الآن ، ولكنه بلا ريب يورثنى الأسى كلما اقتربت من بيت الاله ! .. على أنه اذا كان مقدرا لى أن أعود بعد انقضـاء الأجل المحدود ، فستكون عودتى اليك

أنت . والآن ، فلندع هذا ، فالوقت قصير ولا يعلم أحد ما سيجيء به الغد كما تقول ، وليكن شأننا معا ـ منذ هذه اللحظة الى أن نفترق بعد قليل ـ استمتاعا بهذه الحياة فى هذا الجو العاطفى البديع ! ..

وكان واضحا أن موقف « مينيا » قد تبدل ، وأن بمستطاعى استغلال عواطفها التى سلست بعد عناد ، فأستدرجها الى الرضا بالبقاء معى والحياة بجانبى الى آخر العمر . وكان هذا فى الواقع مبتغاى ، ولكننى خشيت منها الانتكاس ، فعيقدتها فى الهها أعمق من عاطفتها الطارئة ، ولا آمن منها ثورة العقيدة يوما ، فتنقلب ساخطة لاعنة ، وتهجرنى هاربة الى الهها ، فما أشد سيطرة الآلهة على مثل هذا الطراز من المؤمنين ! .. ولهذا أمسكت عن التفكير فيما سوف يكون ، مستسلما الى القدر المحجوب الذى أومن بأنه مقرر لحياتى قبل ان أولد ، فلا حيلة لى فيه ..

واستجبت مسرورا الى رغبة « مينيا » المتفتحة ، فأكلنا وشربنا فى لذة وانشراح ، وتلاقى فمى بشفتيها فى نشوة الشراب .

- ٢ -

وأقبل المساء ونحن كذلك، وهنا استيقظ «كابتاح» ونضا عنه غطاءه، وأخذ يفرك عينيه ويتثاءب ويقول : وحق « الجعران المقدس » ، وحق « آمون » أيضا ـ فلست أنساه ـ ان رأسى قد اكتملت عافيته وانزاح عنه الشيطان الجاثم ، وأشعر كأنى بعثت للحياة من جديد ، فلا ينقصنى الآن الا الطعام ، أضع به حدا للمعركة المشبوبة بين عصافير جوفى التى تتقاتل هنالك لفرط جوعها !.. ولم ينتظر منا جوابا ، فأقبل على طعامنا يلتهم منه التهاما !..

وقلت له : أيها السكير المعربد .. كنت أستطلع رأيك فى كيف يكون الخروج من المازق الذى أوقعتنا فيه ، فلم تحفل بهذا ورحت تتهالك على شراب النبيذ ، ليسلبك شعورك ويسلم راسك الى النوم الثقيل ، ثم تستيقظ آخر الأمر فيكون همك كله مصروفا الى الطعام وحده ! .. أفلا علمت أيها الغبى ، أن جنود الملك تطاردنا وأن مصيرنا ، اذا وقعنا فى أيديهم ، هو الموت المحقق؟!.. قل لنا ، عاجلا ، ماذا عسانا أن نصنع؟!

قال وهو يعبث بشعره كالمفكر : الواقع أن هذا الزورق أكبر من أن يقوى ثلاثة فى مثل حالنا على تسييره تجديفا فى هذا النهر المتلاطم

الأمواج المتعاكس التيارات • وأنا بخاصة ، وأقول الحق ، أبغض التجديف لانه يصيب يدى بالفقاقيع الدامية • فلست أصلح لهذا ، والرأى عندى أن نغادر الزورق الى الشاطىء • ومن الممكن أن نجد حمارين من تلك الحمير الآبدة ، أو نسرقهما ، فنضع أمتعتنا على ظهريهما ثم نأخذ سبيلنا هربا • ولكيلا نلفت الينا الأنظار ينبغى أن نبدل ملابسنا بأخرى رثة قذرة ، وأن نداخل الناس على أننا فقراء هائمون على وجوههم فى الآفاق، ولنجعل من ثلاثتنا فرقة مجون وتهريج متنقلة بين القرى على طول الطريق، وسيقبل القرويون علينا فرحين ، رغبة فى التسلية ، وفى استطاعتنا أن نطالعهم بما لم يألفوا من المظاهر الغريبة التى تدهشهم وتضحكهم فانت تقرأ لهم حظوظهم فى نقط الزيت مخلوطا بالماء ، وقد عرفت هذا فى « بابل » ، وأنا أطرفهم بالقصص والروايات المثيرة ، وهذه الفتاة تفتنهم برقصاتها الرائعة ، فهذه حرفة لا تشق علينا وستخفى حقيقتنا فى أستارها ، فلا نخاف أحدا ، لان المشعوزين الفقراء لا يطاردهم أحد ولا يرى فيهم اللصوص ما يغرى بالسرقة •

وأردف « كابتاح » قائلا : فذلك الذى أراه هو خير ما ينبغى أن نفعل ، خروجا من المأزق وتخلصا من القلق • أما أن نظل فى الزورق نضرب به وحدنا فى هذا التيه من النهر ، فليس عملا مأمون العاقبة • وما أحسب أصحابه المساكين بمبعدة منا ، فهم لا شك مختبئون بين هذه الاعشاب القريبة يرصدون حركاتنا ، فاذا جن الليل ودجت الظلمة وثبوا علينا ليقتلونا ويستردوا زورقهم ، فما يتركوه لنا لنسرقه على أعينهم !••

وكان « كابتاح » على صواب فيما يرى ويفترض ، فأصحاب الزورق — وهم عشرة من الرجال الأشداء — سيضربون ضربتهم المتوقعة حتما ، وما لنا بهم طاقة ، ولهذا أقررت رأيه على الفور ، ونهضنا فأفرغنا على أجسامنا زيتا مما تركوه بالزورق وصبغنا وجوهنا بسواد الطين ، وتقاسمنا نقودنا الذهبية والفضية الباقية معنا ، وأخفيناها فى أحزمتنا وملابسنا ، ولم يكن صندوق عقاقيرى مما يمكن أن أتركه ، فلففته فى الحصير وربطه «كابتاح» الى ظهره وهو يتأفف ، وأخذنا نجدف بالزورق خائضين به ما كان يعترضنا من الأعشاب حتى بلغنا الشاطىء ، فغادرناه تاركين عليه الطعام والنبيذ أخذا بما أشار به « كابتاح » اذ قال لنا ان أصحاب الزورق — عندما يسترجعونه — سيعنون بشراب النبيذ أكثر مما يعنون باقتفاء أثرنا ، واذا كانوا قد اعتزموا شكايتنا الى القاضى

فسيكونون مخمورين ، وعندئذ تضطرب مقالتهم له ، ويكون جزاؤهم الطرد والضرب بالعصى !٠٠

ومن الشاطيء بدأت رحلتنا الغامضة على هذه الصورة التنكرية ، مدلجين في سبل شعثاء غير واضحة المعالم الى أن بان لنا طريق من طرق القوافل فاستهدينا به في مسيرنا ، حتى انتهينا في مشرق الصباح الى قرية تلقانا أهلها مرحبين معجبين بجرأتنا على قطع الطريق سيرا على الاقدام خلال الظلام ، في غير وجل من الشياطين ! وقدموا لنا خبزا معجونا باللبن ، وباعونا حمارين ، وقد فرحوا بالنقود التي دفعناها ثمنا لهذين الحمارين ، فهم قوم فقراء يعيشون على الكفاف في أكواخ تافهة من الطين الى جوار حيواناتهم ، ويندر أن تتداول بينهم عملات النقود ، حتى أنهم ليؤدون الضرائب المفروضة عليهم من حنطتهم ومواشيهم ٠

وتتابعت الأيام ونحن على تجوالنا هذا سالكين طرقا شتى بين بلاد النهرين ، نقابل عليها صنوفا متباينة من الناس ٠ وكنا اذا لقينا الأغنياء المحمولين على كراسيهم ننحرف عن طريقهم أو ننحنى احتراما لهم ، اجتنابا لما نتوجسه من شرورهم ، فما نعرف في أمثالهم خيرا ؛ وعلى النقيض من ذلك كنا أهدأ بالا وأكثر تطامنا اذا ما لقينا عامة الناس ، فهؤلاء كانوا كلما أقبلنا على جماعة منهم أنسوا بنا وتجمعوا حولنا ، فأثير دهشتهم واعجابهم حينما اقرأ لهم حظوظهم في نقط الزيت على صفحة الماء ، وكنت أتحرى في ذلك ما يرضيهم ، فأنبئهم عن أوقاتهم السعيدة التي ينتظرونها ، وأبشرهم بوفرة المحاصيل ، والزيجات الهانئة ، الى آخر ما يفرحهم ويثلج خواطرهم ٠ وفي الحق ان الفقراء ليتعلقون في حياتهم الساذجة المقفرة بمثل هذه الآمال ، ويرون في التبشير بها ، على صورة من الصور ، عزاء لنفوسهم المحرومة ، ذلك الى أني لم أر من الحكمة أن أنجمهم في آمالهم فاسخطهم علينا ، ونحن أحوج الى مودتهم وكسب رضاهم ٠٠٠ وقد كانوا فعلا يهشون لنا ويحسنون ضيافتنا ٠ وما كان ذلك ليكون ، لو أنني صارحتهم بالحقيقة التي المسها في حياتهم ، أي لو أنني ذكرت لهم ــ مثلا ــ غلظة جباة الضرائب وما سيلاقونه من قسوتهم ، وأنبأتهم بالفساد متغلغلا في نفوس قضاتهم وشيوع الرشوة في أحكامهم وحدثتهم عن غشيان الحميات وقت الفيضان وانتشار الجراد والذباب والقحط وغيض المياه في الصيف ، والموت الذي يتلقفهم جماعات وأفرادا بعد العناء والضنى ٠ فلو أنني قلت لهم هذا كله لما عدوت به الحقيقة الواقعة في حياتهم وكنت به في نظرهم

صادقا ، ولكنهم ـ بلا ريب ـ كانوا يسأمونني ويكرهون لقائي ، ولست اريد هذا بطبيعة الحال ٠

فاذا فرغت من هـذا الرجم بالغيب ، أخـذ « كابتاح » يطرفهم بقصصه عن السحرة والأميرات والبلاد الغريبة التي يحمل أهلها رءوسهم تحت آباطهم ويتحولون يوما ما في كل عام الى ذئاب كاسرة ٠

وكانت «مينيا» اذا ما جاء دورها ، تفتن في الرقص أمامهم وتدير جسمها فيه على أوضاع بارعة ، لا ليسروا به ، بل لتواصـل رياضة أعضائها عليه ، حتى تستوفي الغاية منه استعدادا لملاقاة الهـها في اليوم المرتقب ، وكانوا يطيرون فرحا بهـذا الرقص العجيب الذى لم يشهدوا له مثيلا من قبل ٠٠

ان هذه الرحلة ـ على ما اكتنفنا فيها من مشقة وجهد ـ قد أمدت عقلي بما كان يصبو اليه من الاحاطة الشاملة بأخلاق المجتمعات البشرية المتناثرة في أرجاء الدنيـا المتباعدة ، وأستطيع الآن أن أخلص منهـا الى رأى حاسم هو أن جميع الناس في جميع الأنحاء على غرار واحـد ، لا يكادون يختلفـون في شيء باختـلاف مواطنهم ، فالأغنيـاء والاقوياء هم في هذا القطر أو ذاك متماثلون في أساليب حياتهم وطرائق تفـكيرهم ونوازع نفوسهم ، وكذلك حال الفقراء ، فهم في كل مكان متشابهون في هوان الشأن ومذلة العيش وبلاهة التفكير ٠ وقد لا يتقـاربون في العادات والتقاليد والعبادات ، وقد لا تتلاقى عقـائدهم الدينية في الآلهة ولكنهم فيما وراء ذلك على شاكلة واحدة كمجموعات انسانية مغمورة مسترقة ، تحيا في دياج حالكة من الجهالة والفقر والمرض ٠

وقد نظرت الى هؤلاء البؤساء المحتشدين حولنا من زاوية هـذه الحقيقة ، فرثيت لحالهم وأشفقت عليهم ونزع بي الشعور الى مجـاوزة ما كنا فيه معهم من الشموذة والمماراة ، فأخذت أدعو مرضاهم واحـدا بعـد آخر ، وأعالج عيونهم المغشـاة بالأقذار وجروحهم المتنزية بالدم والصديد ، دون أن اقتضيهم على ذلك أجرا ٠ ولم أحفل بما قد يقع لنا بسبب هذا ، اذا كان من المحتمل أن يعرف ذلك عنـا ، فتنكشف الحقيقة التي نخفيها ومن ثم نستهدف للخطر !٠٠ ولست أدرى على وجه الدقة لماذا فعلت هـذا ؟ وما هو حافزى اليـه في ظروف تفرض علينـا التزام التنكر المطلق ؟ ! ولكن لعلى أن أكون قد فعلته متأثرا بمصاحبة « مينيا » تلك الفتاة ، التي رققت عواطفي وارهفت مشاعرى وحلقت بروحى الى سماوات السعادة ، ونحن ـ أنا وهي و «كابتاح» ـ نهيم على وجوهنا حينذاك مشردين في حال زرية ونتخذ مراقدنا اذا ما جن الليل متلاصقين

على الارض الجرداء أو الاكوام السبخة أو أهراء القش العفن ، وانها لحال تشغل البال وتبلبل الفكر وتمسك القلب عن أن يخفق بمثل ما أشعر به من السعادة · بيد انى مع هذا شعرت فى جوارها بأن قلبى يتلقى الهامه من قوة أخرى هي فوق ما نحن فيه ، وأعتقد أن «مينيا» نفسها هي مصدر هذه القوة الملهمة فقد عرفت فيها الايثار فى أعمال الخير والانبعاث له تقربا الى ذلك الآله الذى ملك عليها كل حواسها ، فانا أجرى فى مجراها وأدور فى فلكها من غير أن تكون لى ارادة مقررة فى ذلك ، فان لم يكن هذا هو التعليل الصحيح لما فعلت ، فقد يكون ذلك ـ هو مجرد افتراض ـ لان طبيعتى كطبيب قد غلبتنى حينما رأيت أولئك المساكين يعانون من شقاء المرض ما يعانون من شقاء الفقر ، وقد يدخل فى هذا الافتراض حرصى على أن أختبر مهارتى الطبية لأستوثق من أننى لم أفقد منها شيئا ! ··

وعلى أية حال يمكن القول بأن أعمال الانسان التى يندفع اليها اندفاعا تلقائيا ، تكون لأكثرها دوافع غير منظورة وقد يطول به العمر دون أن يعرف مصادرها او أسبابها ·

ولقد تعاقبت علينا فى هذه الرحلة التى خضنا غمراتها ، خلال بلاد ما بين النهرين ، أزمات ومشقات ومواقف كثيرة معقدة ، ولكننى ـ على ما لقيت فيها من كبير عناء وشدة بلاء ـ لا أزال أشعر بالحنين اليها، سعيدا بذكرياتها ، كما لو كانت شيئا جميلا محببا ، ذلك لأنها تمثل فى تاريخ حياتى أنضر صفحات قوتى وشبابى · وكم اتمنى أن أنقلب فتيا عارم القوة كما كنت فيها لأكررها هانئا بمشقاتها ، باذلا فى سبيل ذلك كل ما خلص لى فى دنياى من معرفة ومال، فحسبى أن تكون «مينيا» الى جوارى تلتمع عيناها بما هو فى عينى أجمل من ضوء القمر على صفحة ماء النهر ·

وفى كل خطوة كنا نخطوها فى طرقات الرحلة ومسالكها الطويلة المتعددة ، كان الموت يمد على رءوسنا ظللا سوداء ، ولكننى لم أكن وقتئذ أبالى الموت أو أخشاه ، بل لقد كنت لا أكاد أفكر فيه كلما نظرت الى وجه « مينيا » فياضا بالجمال ، والى رقصها فياضا بالروعة ، ففى صحبتها نسيت كل شيء سواها · نسيت حتى جريمتى المخجلة التى اقترفتها فى أيام شبابى ، وما كان نسيانها بالامر اليسير ! ·

وأخيرا انتهينا الى حدود بلاد ما بين النهرين ، ولم يجد رعاة الأغنام الذين لقيناهم هناك ما يغريهم بنا ، فقد كانت مظاهرنا الزرية تنبيء بأننا فقراء لا مطمع فينا ، فانصرفوا عنا بعد أن أرشدونا الى طريق أرض « ميتانى » ، فسلكناه ودخلنا المدينة دون أن ندفع مكوسا ، أو يعترضنا أحد من حراس المملكتين المتجاورتين ·

وفى هذه المدينة الـكبيرة المكتظة بالناس الى درجـــة أن بعضهم لا يعرف بعضا ، لم نر ما يدعو الى التنكر ، فغشينا أسواقها واشترينا منها ملابس جديدة خرجنا بها أحسن مظهرا واخترنا لمقامنا هناك أفخم الفنادق .

وخشيت أن ينفد ما أملك من مال محدود ، فلم أجعل معولنا عليه، وأخذت فى مجاهرة النـــاس بأننى طبيب يعـــالج المرضى ، فتكاثروا على طلبا للشفاء اذ كان أهل « ميتانى » أكثر نزوعا الى الغرباء وأوفر ثقة بهم ، وقد تهيأ لنا باقبالهم مورد حسن للمال ، يتأدى فى صورة أجور علاج وثمن دواء .

وكانت « مينيا » موضع اعجابهم ، وملتقى أبصارهم ، فتنافسوا على جمالها ، والحوا فى طلب شرائها ، ولكنى كنت أتخلص منهم برفق غير موئس .

واستراح « كابتاح » من عنائه ، واسترد ما كان قد تزايل من عافيته ، فألقى بنفسه فى مجتمعـــات النـــاس وأندية لهوهم ، يطرفهم بالغريب من قصصه وخاصة قصة اليوم الذى توج فيه ملكا على «بابل» ، وكثيرا ما كان يلقى النساء فيفتنهن بهـــذه الأقاصيص التى لم يسمعن مثلها من قبل ، وكان الجميع يستمتعون به محدثا لطيفا ، وراوية لبقا ، فيثنون عليه ويجزلون له الهدايا .

وعلى تلك الحال تتابعت الايام ، الى أن رأيت « مينيا » ذات مساء تطيل التحديق فى وجهى وعلى عينيها سحابة رقيقة من قلق اليأس . ثم رأيتها بعد ذلك تنطوى على نفسها وتنشج بالبكاء فقلت لها : انى أعلم أنه الحنين يقتادك الى وطنك والهك ، وفى سبيل هذا قد أزمعت الرحيل عن هذه المدينة ، وسيكون علينا أن نقطع رحلة اخرى ليست أقل طولا من الرحلة الأولى ، حيث ينبغى أن نلم ببـــلاد « الحيثيين » لأسباب قد لا يهمك ذكرها ، وأظن أنه من المستطاع الابحار من هناك الى جزيرة أقريطيش « كريت » . بيد أنه من الممكن ، اذا راق لك ، أن أمضى بك الى الشاطىء السورى ، ومن هذا الشاطىء تبحر السفن مرة فى كل أسبوع . على أننى علمت أن قافلة ستبدأ رحلتها من هنا تحمل الهدايا التى اعتاد أن يرسلها سنويا ملك « ميتانى » الى ملك « الحيثيين » . وفى وسعنا أن نرحل مع هذه القافلة ، وسنكون فيهـــا أكثر أمنا ، فوق ما نصيبه من معلومات كثيرة جديدة ... والرأى فى ذلك اليك على أية حال .

وكان حديثى عن توجيه الرحلة الى طريق القوافل المؤدى الى بلاد « الحيثيين » ينطوى على اغرائها بمرافقتنا فى هذا الطريق الأطول ، فقد أردت بذلك اطالة الوقت فى صحبتها قبل أن تمضى عنى الى الهها ·

وأجابتنى قائلة : فليكن ما ترى ، فليس لى رأى فيما ترسم من خطط ، وانى لماضية معـك حيث تمضى ، وما يضـيرنى أن تطول الرحلة او تقصر ، ما دمت فى النهاية صائرة الى بلادى ، فذلك وعدك لى ، وأنا به واثقة ·

وعلى هذا قررت الانضمام الى القافلة الراحلة ، وأن أكون طبيبها ، واطمأنت نفسى الى ذلك لأننا سنكون فيها تحت حماية ملك « ميتانى » · ولكن « كابتاح » لم يعجبه هـذا فراح يعترض ويحتج ، ويهمهم لاعنا ساخطا ، ثم يقول : أهكذا لا ننجو من خطر الا لتدفعنا يا سيدى الى خطر جديد ؟ ! · ان الناس جميعا ليعلمون أن « الحيثيين » قوم قساة غلاظ الأكباد ، فما شأننا بهم ؟ ! ·

فلوحت فى وجهه بالعصا ليكف عن ثرثرته وقلت له : سأبعث بك مع بعض التجار المسافرين رأسا الى « أزمير » ولن أندم على ما أدفعه أجرا لرحلتك هذه ، فقد ضاق صدرى بحمقك وسخافاتك ، وعليك عند ما تصل الى « ازمير » أن تلزم منزلى هناك ، وترعاه الى أن أعود ، فليس لك فى غير خدمة المنازل مكان ! ·

وتراجع « كابتاح » وقال متخابثا : قد تكون على صواب فيما ترى من أمرى · ولكننى ـ وأنت شاخص الى أولئـك الحيثيين القسـاة ـ لا تطاوعنى النفس ، بل لا أسمح لها ان هى طاوعتنى ، أن أدعك وحيدا فى مثل هـذه الرحلة المخيفة ، فلا مناص من مرافقتك فيها ، والا فكيف يكون مصير الحمل الوديع وسط كلاب الصيد الشرسة بدون حارس يذود عنه ؟! وماينقصنى فى ذلك سوى أن أعلم ما اذا كانت بلاد «الحيثيين» تتصل بالبحر ؟!·

قلت له : مبلغ علمى أنه لا يوجد بحـر بين أرض « الحيثيين » وأرض « ميتانى » ، فقـال متظاهرا بالسرور : حمدا لالهنـا « الجعران » المقدس ، فالرحلة اذن ستكون ميسرة ، فما أبغض شيئا أكثر من اجتياز البحار ، وقد اقسمت بالآلهة الا تطأ قدمى ظهر سـفينة تمخر عبـاب بحر ····

قال هذا ، وراح يحزم أمتعتنا استعدادا للرحيل ·

- ٣ -

لم تقع لنا فى هذه الرحلة مع قافلة « ميتانى » حوادث تستحق الذكر ، فعلى طول الطريق كان « الحيثيون » بعجلاتهم يتولون حراستنا، وفى كل محطة نقف عنـدها كانوا يعنون بتزويدنا بمـا نحتاج اليه من طعام وشراب •

« والحيثيون » كما رأيناهم ، أشداء صلاب الأعواد ، لاينال منهم الجو ، باردا كان أو حارا ، ولا يهابون اقتحام الأخطار وقد اشتهروا فى الحروب بالقوة والعناد ، ويرجع ذلك الى ما ألفوه من الحياة بين التلال القاحلة ، واعتـادوه من شـظف العيش وطول الاغتراب عن أهليهم وأطفالهم ، وهم لهذا يستطيلون على الشعوب الضعيفة ويعملون دائما على اخضاعها لسلطانهم • أما الشعوب القوية فانهم يظهرون لها الاحترام ويسعون الى كسب صداقتها ! وهم فى عمومهم ينقسمون الى عديد من القبائل والقرى ، يقوم على كل منها أمير مطلق السلطان فيها ، وأمراؤها جميعا يخضعون فى الوقت نفسه لملك عظيم بمدينة « هاتوشاش » التى تقع بين الجبال ، وهم يعدونه كاهنهم الأقدس وقائدهم الأكبر وقاضيهم الأعلى ، وبين يدى هذا الملك تجتمع السـلطات المتعددة من روحيـة وزمنية ، وبها يحكم الناس ويسوس أمورهم • وكانت هذه السلطات من السعة والتعدد وقوة التأثير بحيث تفوق ما عرفت من السـلطات المطلقة عند الملوك الآخرين ، فان هؤلاء ، وخاصة فى مصر ، كان الكهنة والقضاة يحدون من سـلطانهم ويسـيطرون فى أغلب الأحوال ، على أعمالهم وتصرفاتهم ! •

وكان الذين يتحدثون عن المدن الكبرى فى العالم لذاك العهد ، يذكرون « طيبة » و « بابل » وربما ذكروا مدينة « نينيفا » التى لم أرها ، ولكنهم لا يذكرون « هاتوشاش » التى هى أكبر مدن «الحيثيين» ومقر ملكهم ، والتى قيل لى انها مدينة كبيرة ذات مبان منيفة منحوتة من الاحجار ، ولعل ذلك لانها تقع بين الجبال كما يقع وكر النسر وسط حقول الصيد ، وقد أوصدها الملك فى وجوه الغرباء عنها ، فلا يؤذن لغير القوافل العابرة بالدخول اليها لتضع احمـالها بين يديه ، وهى فى العادة لا تحمل الا الهدايا المزجاة اليه من الأمراء الخاضعين لسلطانه ، وكانت الرقابة الدقيقة تفرض على رجـال هذه القوافل خلال اقامتهم بالمدينة أن يرحلوا عنها ، ومن هنا بقيت سرا مجهولا من العالم البعيد •

وقد بلغت القافلة المدينة ، وبانت لنا ــ على ما عرفت من أوصافها

أثناء الطريق - مدينة زاخرة بالحياة ، متفاعلة الحركة فخمة المبانى ، تزدحم بالمصانع التى تنبعث من أجوافها العامرة قعقعة الآلات والمطارق حيث تصنع فيها الأسنة والحراب وطارات العجلات الحربية وهياكلها ، وكان ذلك تفسيرا لما أنبئت به من نزعة «الحيثيين» الى الحروب وتبريزهم فيها ، واعتدادهم بوظائفهم فى الجيش أكثر من اعتدادهم بأنسابهم ، حتى لقد أغناهم ذلك عن استئجار جنود من عناصر وجنسيات غريبة ، كما كانت حال بعض الممالك الاخرى • وقد بلغ من شيوع روح الجندية فيهم وانطباعهم عليها أن كل شبانهم فى سن التجنيد يتواردون من تلقاء أنفسهم على ساحات التدريب العسكرى ليتلقوا الفنون الحربية على أيدى القواد •

ومع أن أهل المدينة كانوا يبدون فى حرص شديد ، وحذر ملحوظ ، عند ما يتصلون بنا ، نحن الوافدين عليهم فى القافلة ، الى حد أنهم كانوا يجنحون الى الصمت المطلق ، فاذا سئلوا سؤالا لم يخرجوا فى الجواب عليه الا بعبارة « لا أفهم » أو « لا أعرف » ، ويبالغون فى هذا الحذر مخافة عين من عيون أصحاب السلطة تقع عليهم فيؤخذون بمظنة التحدث الى أجنبى !••

مع هذا قد كشفت فيهم روح أخوة طيبة وميلا الى الرقة ، على خلاف ما وقر فى أذهاننا عن غلظتهم ، من ذلك أننى رأيتهم يعجبون بالازياء الاجنبية الحسنة ، ويلاحقون مرتديها فى تجوالهم ، ويتلطفون معهم ، ولو لم يتكلموا ، ليستمتعوا بمنظرهم فى هذه الازياء .

وفى الوقت الذى وصلنا فيه الى المدينة كان قد مضى على حكم الملك « شوبلوليوما » ثمانية وعشرون عاما ، وكان اسمه مخيفا ، لا يسمعه الناس الا رفعوا أيديهم مسبحين بحمده داعين له •

وهو فى قصره الشامخ وسط المدينة محوط بمظاهر الاكبار والاجلال من جميع أفراد شعبه ، ولا تفتأ ألسنتهم تردد الروايات المهولة عن مولده وشجاعته وأعماله الخارقة بما يرفعه درجات عالية عن مستواهم البشرى •

ولم أكن قد رأيته بعد ، وكذلك أعضاء بعثة « ميتانى » لم يروه . فقد كان عليهم أن يضعوا الهدايا على أرض قاعة الاستقبال ويعودوا أدراجهم ، وقلما يلقاهم الجنود بشىء من الاحترام ، بل لعلهم كانوا لا يسلمون من سخريتهم ! ..

وكان الرأى عندى قد اتجه الى مزاولة عملى كطبيب فى المدينة ، ولكننى ووجهت بحقيقة عجيبة هى أن «الحيثيين» لا يتداوون من المرض، بل يخجلون من الشكوى منه ، فان أصيب أحدهم به أخفاه عن غيره . والقاعدة عندهم أن الطفل اذا ولد ناقص النمو أو مشوها قتلوه فور ولادته ، وكـذلك كانوا يفعـلون بأرقائهم حين تلوح عليهم عـلة ، وكان فى « الحيثيين » أطباء لا يعدو عملهم تضميد الجروح وعلاج الرضوض مما لا ينشأ عن أمراض وعلل ، ولهذا كانوا قليلى الخبرة بفنون الطب. ولم أر فيهم شيئا يجاوز حدود الأمية والجهل سوى أنهم يعـالجون بنجاح امراض المناطق الجبلية ، فقد كانت لهم وسـائلهم الخاصة فى خفض حرارة الجسم ، وكان ذلك ينقصنى فتعلمته منهم .

على أن يأسى من احتراف مهنة الطب بين هؤلاء النـاس لم يطل ، فقد كانوا ، فى اخفائهم أمراضهم ، أسرى العادة المسيطرة ، ولكنهم بحكم الطبيعة البشرية كانوا يتمنون الشفاء منها. فلما علم مرضاهم أننى طبيب اخذوا يتسللون الى غرفتى بالفندق تحت جنح الظلام يلتمسون عندى العلاج فى خفية ، وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا أننى غريب وافد لا يعرفهم بأسمـائهم ولا يخشون منـه اذاعة أسرارهم . وقـد أحسـنت علاجهم واستطعت أن أعيـد العافيـة اليهم ، فسروا لذلك وأجزلوا مكافأتى ، فأصبحت أملك الـكثير من الذهب والفضة بعـد أن حسبت بادىء الامر أننى سوف أخرج من مدينتهم متسولا !..

ومن بين الأمراض التى عالجتها ، مرض كان أكثر شيوعا فى الطبقة العالية ، وهو اضطراب الاعصـاب وارتعاش الايدى ، وعرفت أن سببه التزمت والتزام الظهور بالاستقامة وحسن السلوك ، فقد كانت هذه هى الصفة العامة التى لا يجوز الانحراف عن جادتها ، ولكن الحياة الموفورة التى كان يحياها أثرياؤهم كانت تسلمهم فى كثير من المناسبات والاحيان الى شرب الخمر ، فاذا شربوها ثملوا ، ولكنهم كانوا يكبتون ثملهم ويخفونه حتى لا يقال عن سلوكهم قالة سوء تخدش كرامتهم وتقدح فى كبريائهم. وقد أبرأت هؤلاء من هذه العلة فطابت نفوسهم لذلك كثيرا .

ومن هذه الناحية نشأت بينى وبينهم أحسن الصلات ، وصرت منهم بالموضع الأثير ، وزادنى قربا من قلوبهم أننى كنت أسمح « لمينيا » بأن ترقص لهم فى أنديتهم ومحافلهم ، وكانت تثير فيهم الاعجـاب الشديد ، فيغدقون عليها الهدايا ، ولا يتجاوزون معهـا حد الاعجاب التزاما لقاعدة « حسن السلوك » التى صارت أصلا من أصول أخلاقهم .

وفى هذا الجو من الثقة والتطامن تفتحت أمامى مغـالق نفوسهم ، فكنت استوضحهم أشياء كثيرة فأظفر منهم بالكثير من معلومات كنت فى حاجة الى الاحاطة بها • وقـد عرفت منهم رئيس محفوظات الملك ، وهو ذو ثقافة ، ويجيد العديد من اللغات ، كتابة وتحدثا ، وكان بحكم مركزه على علاقة مباشرة بدخائل الملك وأسرار بريده المتبادل بينـه وبين البلاد الخارجية ، فعنيت بتوثيق صلتى به مقررا فى ذهنه أننى هاجرت من مصر منفيا ، ولا مبتغى لى فى هذه الاسـفار الطويلة الشاقة سوى التزود من المعرفة والمال • وقد لمست فيـه نزعة الى التحرر من التقاليد القـائمة ، وميـلا الى مجالسة « مينيا » على مائدة شراب ، فوافقت هواه وساقيه النبيذ ذات مساء ، و « مينيا » الى جوارنا تطفح فتنة وجمالا •

وعندما أحسست بأنه قد انتشى ، سألته : لماذا تكون «هاتوشاش» مدينة مغلقة فى وجه الاجانب ؟! ولماذا تلتزم قوافل التجـارة فى سيرها طرقا معينة فى حين أن مدينتكم هـذه غنية وهى تنافس بعجائبهـا أكبر مدن العالم ؟! ألم يكن من الخير أن تجتلى الدنيا البعيـدة والقريبة مجالى عظمتكم وتتعرف الى مفاخر بلدكم ، ويشيد النـاس فى مختلف الاقطار بذكر محامدكم ؟!•

فافرغ كاس النبيذ فى جوفه ، ثم غمز بعينه مسرورا «لمينيا»وقال : ان مليكنا « شوبلوليوما » قال عندما ارتقى العرش : أعطونى ثلاثين عاما، وأنا قمين بان أجعـل من بلاد « الحيثيين » أقـوى مملـكة فى العالم !•• وها قد قارب الاجل نهايته ، وعما قليل سوف يسمع أهل الدنيا فى جميع اقطارها ما لم يكن يخطر لهم على بال عن هـذه البلاد التى قلمـا يعرفون عنها الآن شيئا ••

قلت له : لـما كنت فى « بابل » استرعى نظرى أن الملك هنـاك يستعرض جنود جيشه فى كثرة كاثرة ، فقـد رأيت يوما هـذا العرض فاذا الجنود يتداركون تحت عينى صفوفا متراصة وفرقا مترسلة ، عددتها فكانت كل فرقة ستين رجلا تمضى احداها فى اثر الاخرى الى ستين فرقة، فاذا أتمت دورتهـا ، بدأت دورة غيرها بفرق أخـرى الى سـتين دورة ، وهـكذا حتى كانت الأرض ترتج تحت أقدامهم ، وكان لصـوت حركاتهم العسكرية المتلاحقة مثل هدير البحر فى قوة جيشانه ، ولكنى لا أذكر انى رأيت عندكم من قوة الجيش اكثر من مائة جندى دفعة واحدة ، ولهذا لا أكاد أدرى ماذا تصنعون بهذه الاعداد الـكبيرة من العجـلات والاسلحة الحربية التى تخرجها مصانعـكم ؟! وما جدوى هذه الآلات اذا لم يقابلهـا

جنود مدربون فى مثل كثرتها ؟! وماذا أنتم فاعلون بها فى مملكة جبلية ، وهى لا تصلح الا للحروب فى الاودية والسهول ؟!٠

فضحك ضحكة ماكرة وقال وهو يغمض عينيه عن قصد : أمن عادة الاطباء ، أيها الطبيب المصرى ، أن يكثروا هكذا من الاسئلة ؟! وهل أنت مقتنع اذا أجبتك بأننا قد لا نحصل على الخبز الذى نقيم به أودنا الا عن طريق هذه الآلات ، نبيعها الى الممالك ذات الحروب فى الاودية والسهول ؟!٠٠

قلت له : هذا ما لا أقتنع به حقا ، الا اذا جاز أن أقتنع بأن الذئب يخلع نابه ليسلمه الى الارنب البرى راضيا ليصيد له ويطعمه !٠٠

فتعالت ضحكاته ، وأخذ يضرب على ركبتيه حتى انسكب النبيذ من كأسه ، وقال : ان كلامك ليثير الضحك ، وانى لناقل نبأك الى الملك ٠ وان شئت مزيدا من المعرفة ، فاعلم أن الحياة تجرى هنا على نسق يختلف عنها فى بلاد السهول ٠ انها عندنا القوة المصفاة من الضعف والوهن ، وقد يكون الاقوياء قليلى العدد ، ولكنهم بقوتهم يظهرون على الضعفاء مهما كانت كثرتهم ٠ فمن صفات القوة ، الشجاعة ٠ والشجاعة عدل وسلام٠ لذلك يعيش «الحيثيون» اخوانا متوادين مسالمين لتكافئهم قوة وشجاعة ، ولا يكونون حربا الا على الضعف حيثما كان ، وليست هكذا حال الشعوب الاخرى ، فانها تستكثر من القوة والضعف ، ومن الغنى والفقر ، ليتحكم الاقوياء فى الضعفاء ، والاغنياء فى الفقراء ، وانكم لكذلك فى مصر ٠ وعلى هذا فسترى قبل أن يشتعل الرأس منك شيبا يا « سنوحى » أن العالم يوشك أن يتلقى عنا درسا جديدا لا عهد له به !٠٠

قلت له وأنا أصطنع السذاجة : أما نحن فى مصر فان فرعون الجديد قد اتخذ له الها جديدا يأمر بالعدل والسلام ويدعو الى المحبة والمساواة، فليس لكم وحدكم فضل السبق فى ذلك ٠٠

قال : أعرف هذا ، فقد علمته من الرسائل التى ترد على الملك من الخارج ، وان دعوة اله فرعون الجديد ، التى تعنى السلام بين الافراد والامم ، ولا ترى فى العالم مشكلة تستعصى على الحل بروح الاخوة والمودة، دون حاجة الى الملاحاة والقتال — لهى دعوة تلقى منا التأييد ، لانها تطابق مبادئنا وطباعنا ، ولهذا أحببناه ولو أننا لا نحب أن يمتد سلطانه الى أبعد من مصر وأراضى السهول ٠ وقد أرسل فرعونكم هذا الى مليكنا شارة رامزة الى السلام ، فتقبلها قبولا حسنا ، وأعتقد أن فرعون يستطيع أن ينال من ناحيتنا السلام الذى ينشده لأمد بعيد على أن يتابع تزويدنا

بالكثير من ذهبه الوفير ، ليتاح لنا الاستزادة من مواد النحـاس والحديد والحبوب ، فيتسع بذلك نطاق مصانعنا ، ويزداد انتاجهـا من العجـلات الحربية الاكثر عددا وثقـلا ، ولقـد حشد لها ملكنا عددا كبـيرا من مهرة الصناع فى الممالك المختلفة ، وهو يسـخو فى مكافأتهم ، ويقتضى هـذا مزيدا من المال ، وهو عند فرعون مصر كالتلال !٠٠ وقد تسأل : فيم كل هذا ونحن الراغبون فى السـلام ؟!٠ فأجيبك بأن للاطبـاء ، فيما أرى ، عقولا يشق عليها ادراك الغاية منه !٠٠

قلت له : ذلك لأن عقول الاطباء ليست كعقول الغربان وأبناء آوى التى قد تجوز عليها هذه المتناقضات . وما أرى فى الناس ــ الاطباء منهم وغير الاطباء ــ من يستطيع أن يدرك الغاية التى يهدف اليها قوم مثلكم ، يستعدون كل هذا الاستعداد للحروب وهم فى الوقت نفسه يتخذون من السلام شرعة ومنهاجا ويتداعون اليه ، فذلك أمر غير مفهوم ٠ ثم اننى قد سمعت فى « ميتانى » انكم على الحدود القائمة بينكم وبينهم تزعجونهم بأحداث جسام ، يصورونكم بهـا قساة متوحشين ، ولم أسـمع من أحد هناك ، على كثرتهم ، وعلى قربكم منهم ، أنكم فى شىء من هذه الثقافة التى تضفيها على قومكم !٠٠

قال : الثقافة ؟! نعم نحن مثقفون ، ونبلغ من الثقافة ما لا يبلغون . واننا لنقرأ ونكتب ، ونجمع فى مكاتبنا ومحفوظاتنا ألواحا طينية منسقة مسلسلة ، نستظهر فيها عناصر الحياة ومقوماتها ، ونستهديها فى تنمية ملـكات الخير والسـلام ، وهى التى تحفزنا الى ما يراه أهل « ميتـانى » قسوة وتوحشا ، ونراه من زاوية تفكيرنا تدبيرا حازما فى معاملة الآخرين، فهذه الثقـافة تملى لنا فى السعة وبسـط السلطان ، وتفرض علينـا أن نرهب أعداءنا لينضووا آخر الامر تحت لوائنا ، وعندئذ يصبحون مثلنا ، أهل مودة وموادعة ، دون ان تنشب بيننا وبينهم حروب تراق فيهـا الدماء ، وتزهق الارواح ، وتفـدح الخسائر ٠ فهـل فهمت اذن كيف أن ثقافتنا تدعونا الى الاستعداد للحروب ، حتى لا تكون حروب ؟!٠

قلت : أليس يكفى أن تعيشوا فيمـا تريدون من سـلام فى حدود مملكتكم ، وأن تدعوا الآخرين لشأنهم ؟!

قال : هؤلاء صنفان ، أما أولهما فأصدقاء موالون يأخذون بأسباب الحياة مثلما نأخذ أوقريبا مما نأخذ، وهم يدفعون لنا الضرائبفيشتركون بها معنا فى اعداد وسائل القوة ، ولهم علينا حق الامان ، فنحن تاركوهم أحرارا فى تقاليدهم وعباداتهم ٠

وأما الصنف الآخر ، فاقوام لا يعرفون من الحياة الا أن تكون بغيا وسطوا واستطالة على غيرهم واغارة على بلاد غير بلادهم ، وأولئك وان كانوا منا بمبعدة الا أننا لانامن منجانبهم المنافرة والاعتداء ، ولهذا نستعد لهم ، ونسلط على أعصابهم قوتنا في غير قتال ، لا لنتقي شرهم فحسب ، بل لنفتح لهم أبواب السلام أيضا فيريحون ويستريحون ...

قلت : أو مرسلون أنتم في هـذا على رأى آلهتكم ؟! ان الآلهـة في الممالك الأخرى هي التي توحي وتشير ...

قال : أعتقد أن هذا المبدأ من السهولة واليسر بحيث لا نحتاج فيه الى استيحاء الآلهة واستشارتهم . انه حكمة صاحب السلطان فيتيسير الحياة على الناس ، وقد لا يكون هـذا هو الشأن في بلاد السهول، فان للآلهة هناك سلطانا واسعا مسيطرا على كل شيء ، حتى فيما لا ينبغي أن يقحمها الناس فيه ، فهم يستنبئونها الصواب والخطأ ، ولكنها فيما أعلم لا تجود بالصواب الا على الاغنياء ، أما الفقراء فهم دائما المخطئون الذين لا يصيبون !..

ولم أشأ أن أثقل علىصاحبي أكثر من هذا ، فانهيت الحديثومجلس الشراب وقلت « لمينيا » بعـد أن خلونا : لقـد فرغت حاجتي من بلاد « الحيثيين » ، واني لأرى أن نرحل عن هذه البلاد ، فما أطيق المقام فيها أكثر من ذلك ، فهذا الرجل الماكر قد ينقل الحديث الى الملك ، واخشى أن يستريب في أمري فينالني منه سوء ، فعلينا أن نعجل بالرحيل دون أن يشعر أحد بذلك .

ولم أجد مشقة في الحصول على رخصة السفر في طريق معين ، فقد أعانني على ذلك بعض المتازين الذين توثقت علاقتي بهم ، وحينما فطن مرضـاي الى أني مفـارقهم أعربوا عن أسـفهم ، وحاولوا أن يثنوني عن السفر مؤكدين لي أنني لو بقيت بينهم فسأصبح في سنوات قليلة من كبار الاثرياء ، ولـكني ضاحكتهم وتفـكهت معهم وتقبلت هداياهم التي قدموها لي سخية وافرة كتحية وداع .

وغادرنا « هاتوشـاش » معجلين ، وكنـا ونحن نمتطي ظهور الحمير نرى الارقاء والعميـان يديرون أحجـار الطواحين على جانبي الطـريق ، فنستحث المطي على السير واسعة الخطى .

وبعد عشرين يوما قضيناها على هذا السير الحثيث ، بلغنا أول ميناء على البحر .

- ٤ -

وفى المدينة التى يقوم هذا الميناء على مشارفها ألقينا رحالنا ، ولبثنا هناك نرقب السفينة التى نبحر عليها • وكانت المدينــة تزدحم بالفساق والمجرمين ، ولا يكاد ينقطع فيها الصخب والضجيج ، فليس فيها ما يغريا بالبقاء ، ولكننا اضطررنا الى التخلف بها وقتا أطول مما كنا نقدر ، ذلك أن السفن الثلاث التى تتابعت على المرسى مبحرة ، قد أبت « مينيا » أن تركب فى واحدة منها : فقد كانت الاولى فى نظرها صــغيرة ، وستكون ـ كما ترى هى ـ معرضــة للغرق ، وهى تخشى أن يقع لهــا مثلما وقع حينما تحطمت السفينة التى كانت تركبها فى طريقها الى الهها ، أما الثانية فكانت أكبر من الاولى ، ولا خوف من غرقها ، ولكن « مينيا » تراها سفينة سورية ، وهى لا تريد الابحار فى السفن السورية ، وأما الثالثة فقد أخافها منها أن ربانها يلوح الشر فى عينيه ، وهى لا تأمن أن يبيعنا رقيقا فى بلاد أجنبية ! ••

ومن هنا طال مكثنا بالميناء ، ولم أضق بذلك ، فقد وجدت فى هذا المجتمع الصاخب المتشاكس عملا متصلا ، من تضميد جروح الى خياطتها الى فتح وتجبير جماجم مهشمة ، فما أكثر ما كان يقع من حوادث ، وما أكثر ما يكون بعدها من مصابين !••

وشاع أمرى كطبيب بين جمهور المينـــاء ، فجاءنى رئيس الحركة البحرية ، وكان يعانى من مرض تنــاسلى مزمن ، وكنت قد عرفت الشىء الكثير عن هذا المرض وعن وسائل علاجه فى « أزمير »، فعالجته حتى برىء منــه ، فسره ذلك غاية السرور ، وأخذ يشــكرنى ويثنى على مهارتى ، ويسألنى عما أريد من أجر على ما أسديت اليه من فضل كبير !••

فأظهرت له زهدى فى المال كأجر على علاج صديق مثله ، وقلت له اننى لا أسأله شــيئا ســوى أن يهدى لى السكين التى كانت تتدلى من حزامه الجلدى ، فسأعتز بها كذكرى لصداقته •

ولكنه قال معترضا : انها سكين عادية ليست بذات قيمة ، فمقبضها ، كما ترى ، خال من توشية الذهب أو الفضة ، وما أراها جديرة بالاهداء الى طبيب بارع مثلك •

ولم يغب عنى أنه انما يهون من أمرها لانها من الاسلحة المصنوعة من الصلب فى مصــانع الحيثيين ، وأنهــم ممنوعون من التعــامل بها مع الاجانب بيعا أو اهــداء • وفى « ميتانى » كان لا يحملهــا الا الاشخاص

الأكثر امتيازا، فأثمانها كبيرة حتى لتبلغ عشرة أضعاف وزنها ذهبا ، ولم يكن بمستطاعي شراء واحدة منها لامتناع بيعها الى الاجنبي، ولهذا رغبت في الحصول عليها هدية من رئيس حركة الميناء ، مستغلا عاطفته الشخصية نحوى بمناسبة ابرائه من مرض خطير ، ولكنى ازاء رفضه وتأبيه لم اشأ الالحاح عليه حتى لا أثير الشكوك حولى •

غير أنه عاد يفكر ويراجع نفسه ، فقد كان عليه أن يعطيني شيئا، ويبدو أنه وازن بين أن يعطيني المال الذى يرضيني ، والسكين التى اطلبها ، فرأى أن الافضل عنده الاحتفاظ بالمال الذى هو أكثر فائدة له من السكين ، ومن ثم قال : هذه هي السكين ، فخذها هدية وتذكارا .

وتناولتها منه فرحا شاكرا ، وتحسستها فألفيتها مرهفة حادة ، حتى ليستطيع أى انسان أن يحلق بها ذقنه ، واعتزمت تحلية مقبضها بطبقة من الذهب كما رأيت كبار الرجال يفعلون في « ميتاني » •

وفي هذه المدينة كانوا من وقت الى آخر يقيمون معارض للثيران الوحشية على ساحات واسعة يتوافى اليها النظارة ليشهدوا الصراع بينها وبين شبانهم الذين مرنوا على هذا النوع من أنواع الرياضة اظهارا لشجاعتهم ، وكان ذلك أمرا مألوفا في كل المدن القائمة على موانىء البحر ، وقد أتيح لنا أن نشهد خلال اقامتنا عرضا من معارض هذا الصراع ، فرأينا فتيانا خفاف الحركة يواثبون هذه الثيران المخيفة ويقفزون على أكتافها وظهورها ويحاورونها محاورة بالغة الخطورة ، وقد أبهج هذا « مينيا » وأثارها فاندفعت الى الساحة ، ولاول مرة رأيتها في مهارة عجيبة ترقص أمام تلك الثيران التى هى أشد ضراوة وتوحشا من الحيوانات الاخرى • فالفيل مثلا ، وهو أكثر ضخامة وأكثف بدنا فى دنيا الحيوانات يمكن أن يكون أليفا مأمون الخطر اذا لم يثره أحد ، أما الثور المتوحش وبخاصة في ساحة صراع ، فهو مستثار لا يهدأ ولا يستكين ولا يوادع ، بل هو يهاجم منازليه في عصبية مرعبة ، مسددا اليهم قرنيه الطويلين مدببى الاطراف كأنهما في حدتهما مخراز حداد ، وكثيرا ما رأى الناس أن هذه القرون تنفذ الى صدور المصارعين الاشداء ، فيهوون لفورهم قتلى تحت أقدام الثيران الهائجة •

وعلى ما عراني من خوف شديد على «مينيا» وهى تواجه هذه الثيران في حلبة الموت ، كنت مبهورا بما رأيت من فنون رقصها الساحر •

كانت ترقص متشحة ثوبا من النسيج الرقيق ، والثيران في أشد حالاتها ثورة واندفاعا ، فتنفلت منها في خفة العصفور ثم لا تكاد تختفى

عن الاعين وسط جسومها المطبقة عليها حتى تعود فتظهر فى قفز سريع على قرونها المشرعة ، وعندما تستوى على قرنى ثور منها تنهض على قدم واحدة وتلطم بالاخرى وجهه امعانا فى اثارته ، ثم تثب فى الهواء وثبات مدهشة تنطوى فيها وتنتشر وترتد منهـا لتقف متماسكة على ظهر الثور العنيد غير وجلة ولا هيابة !٠٠

ولم يكن النظارة المحتشدون قد شهدوا مثل هذا من قبل ، فأعجبوا « بمينيا » اعجابا عظيما أعربوا عنه بالهتاف المتواصل والتصفيق الحاد ، وأقبلوا عليها بعد أن فرغت من رقصها العجيب الفاتن يضعون ضفائر الزهور فوق رأسها وحول عنقها ، وأهدى اليهـا فتيان المصارعة طستا منقوشا عليه صور الثيران باللونين الاحمر والاسود ، وكان من بين الحاضرين ربابنة السفن الذين يجوبون البحر دائما ، فهؤلاء كانوا كذلك فى دهشة كبيرة من هـذا الرقص الرائع الذى قالوا انهم طوال رحلاتهم الى « كريت » وغيرها لم يشهدوا مثل هـذه الفتاة فى دقة فنهـا ومرونة أعضائها ، فضلا على قوة جنانها وجرأة قلبها .

وألقت « مينيا » بنفسها على صدرى بعد ذلك مجهدة ، فقد كانت تتفصد عرقا حتى ابتل رداؤها ، كما كانت تبدو مزهوة مغتبطة ، وتلقيتها محييا مثنيا عليها ، مصطنعا السرور بما أبدت من فنونهـا السـاحرة ؛ فالواقع أننى حينذاك كنت أشعر بأن الأشجان والهموم قـد تحركت فى قلبى ، فكأنما كنت أقرأ على لوحة الغيب المجهول أن رقصها هـذا الذى رأيته مدهشـا أمام الثيران المتوحشـة ، انمـا هو ايذان بالفراق بينى وبينها ٠

وجاءت فى اثر هذا سفينة من « كريت » ، ولم تكن صغيرة يخشى فيها الغرق ، كمـا لم تكن كبيرة من سفن سوريا التى لا تريد « مينيا » الابحار عليها ، ولم تكن نظرات ربانهـا تنذر بالشر كذلك الربان الذى كانت قد وجلت من الركوب فى سفينته ، وأبدت « مينيا » ارتياحها الى السفر على هذه السفينة العائدة الى « كريت » ، وزادها ارتياحا الى ذلك أن ربانها كان يتكلم لغتها ، وقالت لى : سأكون على ظهر هـذه السفينة فى رحلة آمنة الى الهى ، وفى وسعك أن تتركنى مطمئنا ، وانى لآسفة على فراقك ، كما أنى آسفة لما حدث لك بسببى من مضايقات ومحرجات وخسائر ٠٠

قلت لها : ولكنك لن تكونى وحدك يا « مينيا » فانى لذاهب معك الى « كريت » ٠

قالت وهي تمد الى وجهي عينيها الصافيتين صفاء ماء البحر تحت ضوء القمر : لا أدري لماذا تعنى نفسك هذا العناء بمرافقتي في سفرة لا حاجة بك اليها ؟!

قلت لها : لو أنك سألت قلبك لانبأك عن سر اصراري على مرافقتك ٠

قالت وقد وضعت يدها في يدي : لقد طال طوافنا معا يا «سنوحي» وعرفت ما لم أكن أعرف من بلاد وأقوام كثيرة ، حتى كاد يبعدني هذا عن التفكير في بلادي وقومي ، بل حتى صرت أشعر أن الحنين الى الهي قد اصبح أقل حرارة مما كان ، ولهذا كنت أنسىء عودتي اليه وأرجئها متعللة بأسباب تافهة ، وتلك حال أوشكت أن تميل بي عن طريقي المرسوم ، وتسلمني الى مصير غامض . على أني بعد ان راقصت الثيران عرفت أن الهي لا يزال يحتوي نفسي ويجذبني اليه ، وأنني يجب أن اموت له وفي سبيله قبل أن تنتزعني أنت منه ٠٠٠ وانك لتعلم ماذا اعني !٠٠

قلت لها : أجل ، اني أعلم ما تعنين ، وما هو بالأمر الذي ينقصه الوضوح ، ولكنني لا أريد أن أغتصبك من الهك ، لاني لا أريد أن سخطه ٠٠٠

وتجهمت « مينيا » لسماعها هذه العبارة مني ، فقد كانت ــ فيما يبدو ــ تتوقع أن تسمع شيئا آخر غير أن أقول انني لا أريدها !٠٠ وابتعدت عني نافرة نفور الغضب ، واستلقت على موضع نومها ثم تمددت تحت غطائها لتنام ٠ فاقتربت منها بعد قليل وأحسست أن جسمهاينفث حرارة شديدة ، فقلت لها : انك تعانين من حمى ، وهممت أن أعد لها علاجا ، فتأبت أول الامر ، ثم عادت فطلبت هي ذلك ، فاستعملت لها بعض العقاقير حتى هدأت ونامت !٠

وكان اليوم التالي هو يوم الرحيل ، فطلبت من « كابتاج » أن يعد الحقائب لنبحر الى جزيرة « كيفتيو » اذ كنت أرى أن الطريق اليها هو طريق « مينيا » نفسه الى الهها ٠

وقال « كابتاح » معترضا : كيف ذلك ؟! ألم نتفق على ألا نضع قدما في سفينة ؟! أو لعلك نسيت ما أصابني من شقاء الرحلات البحرية ؟!

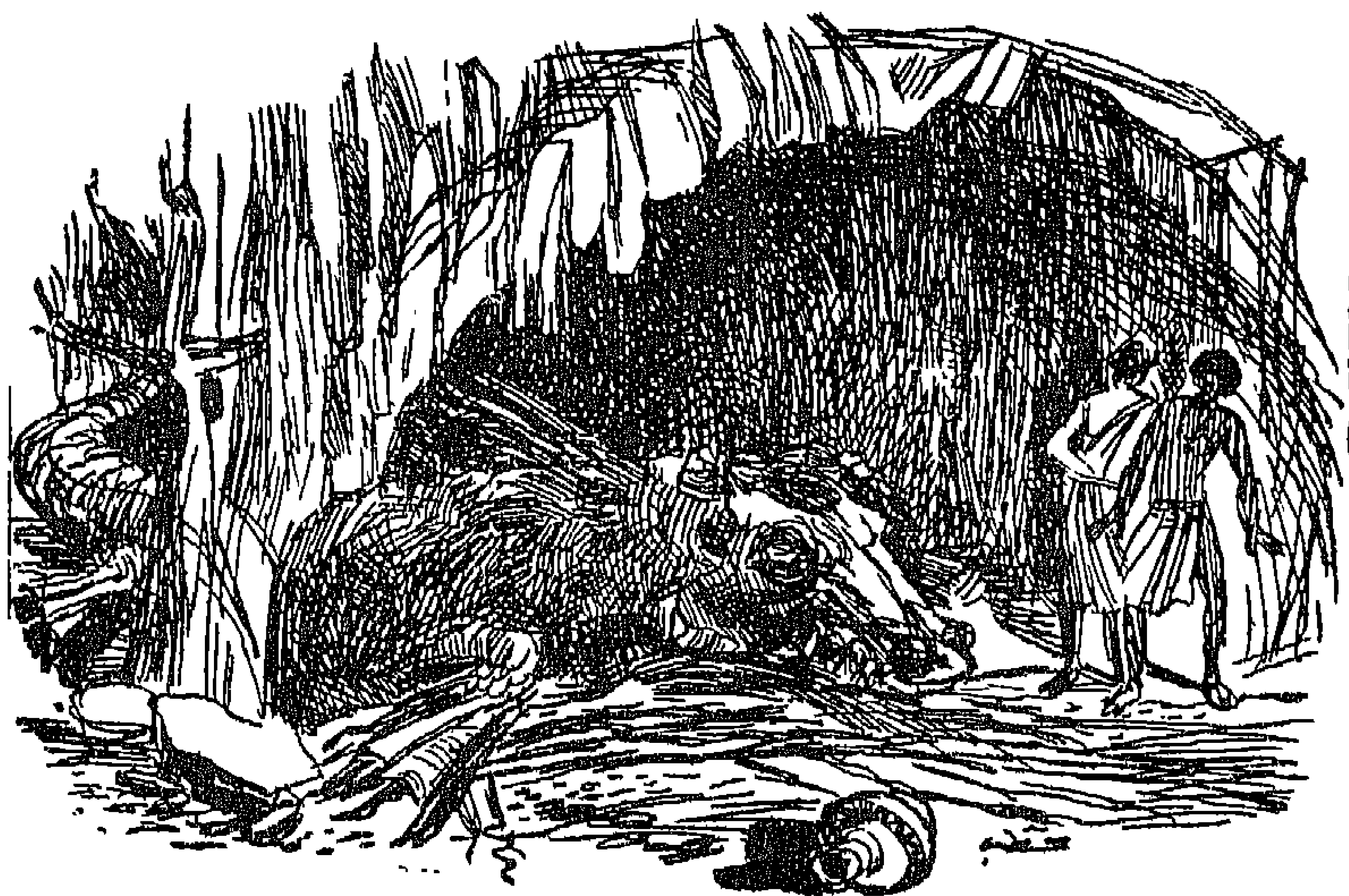
ولكنه لقاء ما رأى من عدم مبالاتي باعتراضه ، عاد يقود : اذا كان

لا بد مما ليس منه بد فانى مضطر الى مرافقتك ، حرصا على سلامتك ببركة « الجعران » المقدس الذى احمله ، ذلك لأنى لا أستطيع أن أعطيكه وأبقى بدونه ، كما لا أستطيع السفر وحدى الى « أزمير » برا من غير أن يكون معى ، فلا مناص اذن من أن نسافر ـ كما تشاء ـ بالبحر ، ليكون « الجعران » رفيقنا معا .

وكان « كابتاح » ـ فيما علمت بعد ـ يعتمد فى موافقته على السفر بالبحر ، خلافا لرأيه الاول ، على شىء آخر غير هذا التعليل ، ذلك لانه ، بدافع الخوف الذى ركبه من البحر ، كان قد أخذ يسائل البحارة ومعتادى الاسفار بالسفن عن وسائل الوقاية من أخطار البحار وأمراضها ، فزودوه بما يعرفونه من ذلك واشترى من بعضهم تميمة من السحر قالوا ان فيها أسرارا واقية ، وقد رأيته يعلقها فى عنقه قبل أن تقلع بنا السفينة ، وزاد على ذلك أنه شرب مزيجا من أعشاب مخدرة ، وحينما صرنا على ظهر السفينة بدا عليه أثر انفعال هذه الاعشاب فى رأسه ، فكانت عينه الواحدة كعين السمكة المسلوقة . وفى صوت أجش طلب قطعة من لحم الخنزير لان البحارة أكدوا له بان فى تناولها حصانة من مرض البحر . وقد آوى بعد ذلك الى سريره بقمرة السفينة ، وفى احدى يديه القطعة التى جىء بها اليه من لحم الخنزير ، وفى الاخرى « الجعران » المقدس .

وغادرت السفينة خليج الميناء ناشرة شراعها ، وراحت تمخر عباب الماء فى اتجاهها الى « كريت » مبتعدة شيئا فشيئا عن الشاطىء .

البيت المظلم



- ١ -

وعلى ما كان يروع من هذا البحر الذى ينداح على مرمى أبصارنا ، وينبسط ويستفيض من غير أن تلوح له من هنا أو من هنساك حواجز أو حدود ، كنت أشعر على ظهره بالكثير من الراحة والهدوء ، ذلك لان « مينيا » كانت معى ، وهذا حسبى . وقد كان نظرى لا يريم عنها فرأيتها تقف عند مقدمة السفينة تتنفس هواء البحر وتطيل فى هذا التنفس كأنها تلتهمه التهاما ، ووجهها يفيض بشرا وعيناها تتألقان بمثل ضوء القمر ، وكانت تميل الى البحر تارة والى السفينة أخرى كأنها تستحثهما السير ليسرعا بها الى النهاية التى تنشدها .

وكان الجو منعشا ، فالسماء صافية والشمس ساطعة والريح تجرى رخاء ، وربان السفينة راض بذلك كل الرضا ، وأنا خلال هذا أكثر انشراحا بمرافقة « مينيا » وبما يلوح عليها من ابتهاج وغبطة .

ولكنى فى اليوم التالى أحسست بشىء من التطير والضجر ، ذلك لأنى تفقدت الطيور البحرية ذات الأجنحة البيضاء التى كانت بالأمس تحلق على السفينة . لقد اختفت تماما من الأفق ، وكنت متيمنا بها ، وقد إقترن اختفاؤها بظهور أسراب من الحيوانات البحرية الشريرة الضخمة ، وكان ضوء الشمس ينعكس عليها وهى تسبح على سطح الماء فيزيدها ظهورا ويزيدنى تشاؤما بمناظرها ، غير أن « مينيا » على خلاف ذلك ، كانت تلوح لها بيديها وتحييها فى صوت واضح بلغتها الاصلية ، ثم تلتفت الينا قائلة فى غبطة : هذه رسل الهى قد جاءت تحمل الى تحياته !..

كنت واياها فى ذلك اليوم على طرفى نقيض، فهى تتعجل الوصول

الى الههـا ، وتحت تأثير لهفتها الى لقائه ، تتخيل هذه الحيوانات الشريرة رسلا من عنده، وأنا أوجس منها وأشعر لموقف « مينيا » حيالها بالمرارة، لا لأن تلك الحيوانات شريرة فقط ، بل لان احساسات « مينيا » الصارخة تؤذن بقرب ساعة فراقنا أيضا !٠٠

وشغلنا قليلا عندما رأينا سفينة « كريتية » من سفن الحرب تقترب منا على خط السير نفسه ، وتلتمع على جوانبها الدروع النحاسية ، ولكنها سرعان ما أعلنت اشـارة الأمان بانزال رايتهـا بعـد أن استوثقت من أن سفينتنا من سفن السفر العادى ، وبعد ذلك عاد كل منا الى شأنه الخاص الذى يعنيه ٠

واستيقظ « كابتاح » بعد نوم طويل ، وخالط البحارة وراح يتحدث اليهم ، فى مفاخرة وزهو ، عن رحلاته البحرية الكثيرة فى عدة من البلاد الاجنبية ، كرحلته من « مصر » الى « أزمير » ، والرحلة التى انفصل فيها الشراع عن الصارى ، والرحلة التى كان رفاقه فيها يرقدون جميعـا على ظهر السفينة يجترون ما فى بطونهم ، وكان هو والربان وحدهما يأكلان ويمرحان فى نشاط وعافية ، كما تحدث اليهم عن الوحوش المرعبة فى دلتا النيل وكيف أنها كانت تثب على قوارب الصيد فتغرقهـا ومن فيها حين تقترب منها !٠٠

وكان ، كعادته يضفى على أحاديثه وقصصه صورا من التهـويل والمبالغة ، ولم يكن هؤلاء البحارة بأقل منه انطباعا على الخيال ، فأخذوا بدورهم يتحدثون اليه عما شاهدوه من الأعمدة الغريبة فى أطراف المحيط البعيدة التى تحمل السموات،وعن العذارى المتشكلات فى صورة سمك ، واللائى يترقبن البحارة فيغوينهم بالقـاء السحر عليهم ، وعن وحوش البحر المفترسة التى تفجأ ركاب البحر من حيث لا يشعرون فترديهم ، وقد كانوا يذكرون هذه الاقاصيص على نحو مثير ، ويصطنعون فيها الجد ، فقف لها شعر راس « كابتاح » خوفا وفرقا ، وجاءنى مرتعدا كالهارب من وحش يطارده ٠٠

وكنت لا أزال على حالى من اضطراب البال والمشاعر ، فكلما أوغلت السـفينة فى البحر تراءت « مينيا » أكثر جمـالا وابتهاجا ، وأشـد فتنة وسحرا ، فيعتادنى الأسى الممض ، وتبدو الدنيا فى عينى سـوداء قاتمة ،

حتى كأنها قد استحالت في نظري ركاما من رماد ، فهي على وشك الوصول الى الهها ، حيث لا أمل في لقاء بعد ذلك ، وقد صارت قطعة من قلبي ، وسيظل هذا القلب بدونها تعسا شقيا ، ولا أدري كيف يواتيني الصبر على فراقها حين أتفقـدها الى جواري فـلا أجد منهـا غير الذكرى ، وأية ذكرى ؟!٠

ان ربان السفينة ورجاله يتحفون بهـا أعظم الحفـاوة ، ويولونهـا احتراما كبيرا ، لانهم علموا أنها الفتاة الجميلة المختارة للاله ، الذاهبة اليه ، فكأنهم حراسه وجنده ، تجمعوا حولها ليذودوا عنها كل ما يمكن أن يحول بينه وبينهـا !٠٠ واذن فلا حيـلة ولا مناص ، ولا أمل ، وكم يضاعف هذا في عذابي ؟!٠

ولاحت لنا « كريت » من بعيد كأنها قطعة من سحاب أزرق، فتهلل البحارة وابتهج الربان وأخذ يقدم الاضاحي الى اله البحر ، شكرا له على ما منحهم من جو طيب وريح مواتية ، ثم أخذت «كريت» تدنو منا بجبالها ومنحدراتها وشواطئها المخضوضرة بأشجار الزيتون ، وهنا تندت عينا « مينيا » بقطرات من دموع الفرح ، لأنهـا تشرف من قريب على معـالم وطنها الحبيب ٠

وبلغنا الميناء ، ورست السفينة الى جوار السفن الأخرى الرابضـة هناك من كل البلاد ، وكانت تنيف على الألف سفينة بين تجارية وحربية، وقد دهش « كابتاح » لكثرة عددها فقال انه لم يكن يظن أن سفن العالم كلها تجتمع في هذا الميناء !٠٠

وكان مما استرعى نظري أنه ليس للمدينـة أسوار أو حصون أو ابراج ، فهي تقف في وجه البحر سافرة كأنها البطل الشجاع الذي يواجه الاخطار في غير خوف ، فدل هذا على سـيادة « كريت » على البحار ، كما دل في الوقت نفسه على قوة الهها وسعة سلطانه ٠

- ٢ -

ان خواطري لكثيرة عن هذه الرحلة بذاتها ، ولـكنني أقصر حديثها على « كريت » ومشاهداتي فيها كمدينة ٠ أما رأيي في هـذه المملكة وفي الهها ، فاني ممسكه في نفسي ومغلق عليه قلبي ٠

لقد طوفت في الارجاء والاقطار الـكثيرة من هـذا العالم الـكبير ،

وزرت أشهر ما فيه من بلدان ومدن ، فلم أجد فيها ، على كثرتها ، مثلما وجدت فى « كريت » من الطرائف والغرائب ٠٠

لقد بدت أول ما رأينا فى مرسى‌السفن ، حالية بالاشراق كالعروس فى جلوتها ، والبحر بين يديها يهتز كما لو كان يرقص طربا وينثر زبده تحت قدميها براقا كأنه نثار اللجين ، ثم يموج كالذى تشتد به نشــوة الطرب ، ويتراجع مسترخيا وديعــا تاركا تحت قدميها أيضــا ركاما من أصدفائه مطويات على الدرر واللآلىء ، كأنما يحييها بخير ما عنده !٠٠

فلما صعدنا اليها وعشنا بين أهليها ، رأينا ما لم نر من قبل ، من انطباعات السرعة التى تتميز بها حياتهم ، فالانسان فيها سريع الانتقال من حال الى حال ، لايثبت على أمر الا ليجاوزه الى غيره ، فالاعمال والافكار متجددة دائما ، متغيرة من ساعة الى أخرى ، حتى ليشق هناك الاطمئنان الى الوعود والاتفــاقات ، على أن أهلها على العمــوم ظرفاء فى أحاديثهم ، يبتهجون بالحياة فى سائر أحوالها ولا يعترفون بالموت ، ولا أذكر أنهم أداروا حديثه على ألسنتهم مرة واحدة ، فهو عندهم شىء مخيف مزعج ، وهم أهل مرح وبهجة فما يحبون أن يرنقوا صفوهم بذكره ، ولذلك فانهم اذا ما مات أحدهم ، أسرع أهله الى مواراته التراب فى خفاء حتى لايزعجوا بذلك غيرهم ، وربمــا أحرقوا جثث الموتى حتى لا يبقى منهــا أثر يذكر بالموت ، وخلال مقــامى « بكريت » لم يقع نظرى على جنــازة واحدة لميت منهم ٠ وليس هناك من المقابر سوى بعض بنايات شيدت من‌الاحجار فى عصور قديمة لملوكهم‌السابقين٠وهذه المقابر الملكية القليلة‌كانوا يحرصون على ألا تقع عليهــا عيونهم ، فهم يتخذون لهم طرقا بعيدة عنها ، وهــكذا يباعدون بينهم وبين فــكرة الموت كما لو كانوا ســـــيظلون أحيــــاء لا يموتون !٠٠

وفى « كريت » فنون ، ولكنها عجيبة٠ فالمصور لايتقيد فى مرسمه بقاعدة ، وانما يصور أى شىء يوحى به خيــاله ، ولا يبالى رأى غيره من النــاس فى ذلك ، فحسبه أنه قــد صنع ما يروقه هــو ٠ وقد شــهدت لمصوريهم لوحات حاشدة بالصور الملونة للأوانى والازهار والاحياء المائية والفراشات،ولكنها فى مجموعها لا ترضى الفنان‌المتذوق ، فانها قد رسمت على غير قواعد الرسم الفنية ، ومثلت خيال المصور وحده ، وكثيرا مايكون خيالا سقيما ، ولعل ذلك راجع الى انطباعات السرعة الفاشية فى هؤلاء القوم ٠

ومبانى « الكريتيين » وان لم تكن لها فى ظاهرها هيبة المعـــابد

والقصور كما هو الشان فى البلاد الاخرى، الا أنها تنم عن الدقة والعناية وتوخى الافادة منها داخليا أكثر من الاهتمام بمظاهرها الخارجية • وقد رأيتها موفورة أسباب الراحة والرفاهية ، فعلى نوافذها ستائر شبكية ينفذ منها الهواء صافيا غير مشوب بالجراثيم ، وفى داخلها حمامات المياه البـــاردة والساخنة مزودة بالصنابير والاحواض المصنوعة من الفضة ، وتتصل بها أنابيب تمتد الى بالوعات خاصة لتصريف المياه وامتصاصها ، ويستوى فى هذا جميع السكان ، وما رأيت لهذا الترف المهذب مثيلا فى مدينة غير هذه المدينة •••

ونساء « كريت » مولعات بالنظافة والتجميل ، وحظهن من الحيـــاة المترفة أكثر من حظ رجالهن بطبيعة الحال ، فهن يقضين أطول وقت فى الاستحمام وتدليك أجسادهن وترقيق بشرتها وطلاء وجوههن بالأدهنة والمساحيق ، ويرتدين من الملابس حللا منسوجة بخيوط الذهب والفضة يفرغنها على أجسامهن ما عدا الاذرع والصدور فانها تبقى عارية ، ابرازا لجمالها ومفاتنها • وكانت ملابسهن تختلف فى أزيائها ورسومها وأذواقها، ولكنها جميعا بالغة الاناقة ، فمنهـــا الملابس المفردة ومنهـــا ذات الثنـــايا والاجزاء المتعددة، وهذه أو تلك تزدان بتوشيات ورسوم من صنع الفنانين تمثل بعض الطيور والحيوانات وأغصان النخيل أو ما الى ذلك مما يزيدها رونقا وبهاء • وكن يضعن فوق رءوسهن قلانس من الشعر المتشابك ، ومن فوق هـــذه القلانس يضعن قبعات صغيرة خفيفـــة تتماسك عليهـــا مشابك من ذهب ، ولا يظهرن الا مبديات هذه الزينة الكاملة ، لتزيدهن جمالا واشراقا • وفى الواقع كانت عنايتهن بهذه الناحية تفوق عنايتهن بأى شىء آخر ، ولهذا كانت أجسامهن دائمـــا رخصة ريانة ، ووجوههن ملتمعة مشرقة ، وخواصرهن رفيعة دقيقة ، ويحرصن على التظاهر بهذا الجمال المتأنق فى مختلف أدوار حياتهن • وفى سبيل ذلك يتجنبن بقدر الامكان الحمـــل والولادة ، ولا يرين عيبـــا فى ألا يحملن ولا يلدن ، وقد تحمل احداهن فتلد فى عسر شديد •

والرجال يجـــرون فى هـــذا المجرى بأقصى ما تســـمح به طبيعتهم الجنسية ، فهم يلبسون أحذية مزخرفة طويلة الى الركبتين ، ويشدون اوساطهم بأحزمة عريضة يختالون بها ، وأيديهم صغيرة بضة وسيقانهم دقيقة ، وهم ، كالسيدات ، يتعهدون أجسامهم بالنظافة ويجردونهـــا من الشعر ، ويحتفلون بذلك احتفالا ملحوظا •

وهم على خلاف أهل الموانى البحرية لا يعرفون الا لغتهم الاصلية ،

والقليل جدا منهم هو الذى يتكلم بلغة أجنبية ، فاذا سئلوا فى ذلك قالوا أنهم يؤثرون لغتهم لسهولتها وعذوبتها ..

وحياتهم هذه الوادعة جعلتهم لا يهتمون كثيرا بأعمالهم ، فثرواتهم مثلا مستمدة من تجارة البحار ، ولكنهم مع ذلك قلما يذهبون الى الميناء لأنهم هنـاك مضطرون الى مخـالطة الغرباء والطبقة الدنيا من العمال ، وهؤلاء يعيشون فى ذلك الحى المعزول عيشة تافهة قد لا تؤمن فيها عدوى الأمراض . وكثير من أصحاب التجارة البحرية الواردة أو الصـــادرة ، يعتمدون فى أعمالها على وكلاء يعهدون اليهم بذلك . وقد ترتب على هذا أن الغرباء الوافدين على الميناء والمقيمين بمنطقته قد استطاعوا أن يصيبوا ثروات كبيرة دونها ثروات تجار المدينة أنفسهم .

وفنونهم الموسيقية عجيبة غاية العجب ، فعندهم آلات تعزف الحانا من غير عازف ، ويزعمون أن باستطاعتهم أن ينقلوا الموسيقى الى حروف مكتوبة على لوحات ، فاذا قرأها انسان استحالت الى أصوات موسيقية رتيبة من غير أن يكون قد استمع اليها أو عرف شيئا من ضوابطها الفنية . وكنت قد سمعت من الموسيقيين فى «بابل» أنهم يستطيعون أن يفعلوا مثل ذلك ، ولكنى لم ألق بالا لمزاعم البابليين والـكريتيين على السواء ، فلست أعرف شيئا كثيرا عن الموسيقى ، وانا أقل معرفة بهـا فى البلاد الاجنبية ، وأذنى لاتستسيغها على أية حال، وأشعر أن الكريتيين ينقصهم الصدق فيما يقولون ، ففى أنحاء أخرى من العالم يجرى فى الناس مثل مشهور يقول : « أكذب من كريتى » ..

وليس فى « كريت » معابد ، ومظاهر عنايتهم بآلهتهم تكاد تكون منعدمة الا فيما رأينـا من قيامهم على خدمة الثيران وحسن تعهدهم لها ، وهى التى شاع الاعتقاد بأنها ترقص للآلهة . على أنى موقن أنهم لايبالغون هكذا فى رعايتها وترويضها عن عقيدة دينية دافعة ، وانما هم يفعلون ذلك شغفا بهذا الفن من الرياضة ، ونشدانا لمتعة الرقص أكثر من أى شىء آخر ..

وللملوك فى الممالك الاخرى اسـتعلاء وقداسة ، ولـكن الملك فى « كريت » يعد بين أهلها شخصا عاديا ، لا يميزه فيهم سوى قصره الذى هو أكثر ســعة من دورهم ، فلا يحفظون له فى أنفسهم أو يبدون له فى معـاملتهم توقيرا غير عادى وهم يذهبـون اليــه فى قصره متى شـاءوا ، ويجالسونه ويتحدثون اليه كما لوكانوا واياه على درجة سواء ، لاتقيدهم فى هذا مراسم معينة ولا طقوس مفروضة .

وهم يشربون النبيذ ، ولـكنهم يشربونه فى قصد واعتـدال لمجرد الرغبة فى أن يظلوا منشرحى الصدور ، ويرون الافراط فيه الى الحد المسكر ضربا من الوحشية غير اللائقة بالانسان ، ولهذا لم أر فيهم واحدا استبد الشراب بوعيه أو غلبه على أمره فى المآدب والمجتمعات ، على غير ما نراه من أحوال السكارى فى « مصر » وغيرها من مختلف البلاد .

وفى حرية واسـعة يتلاقى النســاء والرجال هنــاك ، حتى ليبلغ الجنسان فى ذلك حد الاباحية . ومن المألوف فى حياتهم أن يرقص الفتيان والفتيات معا أمام الثيران فى حلبات الرقص العامة .

تلك هى « كريت » ، وهؤلاء هم أهلها كما عرفنا من امرهم فى هذه الرحلة .

ولأعد بعـد هـذا الاستطراد الى ما كان من شأننــا منـذ غادرنا الميناء ..

لقد كان الفندق الذى نزلنا فيه صغيرا ولكنه على صغره كان أنيقا جميلا ، يفوق فى أناقته وجماله ، فندق « بيت عشتروت للسرور » فى « بابل » ، كما كان يمتاز عنـه بالخدمة والنظافة ، لأن الخـدم فى « بيت عشتروت » كانوا لغبائهم لا يحسنون ذلك .

وبعد أن استقر مقامنا به أخذنا نعد أنفسنا للخروج الى المدينة ، فاغتسلنا وأبدلنا ملابسنا ، وتجملت « مينيا » فوضعت على شعر رأسها قبعة صغيرة فى حجم المصباح ، وانتعلت حذاء ذا عقب مرتفـع تضطرب به مشيتها ، وهو شيء مستغرب ، ولكنى لم أشأ ابداء ملاحظتى عليه حتى لا أضايقها، بل لقد ساعدتها على استكمال زينتها فاعطيتها أقراطا وقلادة من أحجار منوعة الالوان ، وكان الذى اشتريتها منـه قد قال انها أحدث ما ظهر للزينة فى تلك الايام ، وكان ينبغى أن يقول أيضا انها لا تفقد بهاءها وروعتها حين تظهر أنواع سواها فى الايام المقبلة ، فما ان تحلت بها « مينيا » حتى بدت من فتنة الجمال وسحره بحيث لا أعرف أنى رأيت مثلها فيما مضى من أيام حياتى ..

وأحسسنا بالفرق الكبير بين حى الميناء والمدينة عندما انتهينا اليها ، ففى ذلك الحى الذى يقوم به الفنـدق ، زحام وضجيج وجماهير محتشدة للبيع والشراء وما يتخلل ذلك من مسـاومات ومماحكات ، وأكوام من عروض السلع ، ومنها سمك البحر ينفث روائحه غير المحتملة ، وليست

هكذا حال المدينة ، فهي وادعة هادئة ، حالية بحدائقهـــا الغناء ودورها المتعددة منافذ الهواء كأنها من حي الميناء عالم آخر !

ومضت بي « مينيا » ، وهي تعرف من شأن المدينـة ما لا أعرف ، الى رجل عجوز من الوجهاء قالت ان رباطا من الصداقة القديمة يربطها به ، فقد كان لثقته بمهارتها في فنون الرقص ايراهن عليهـا في حلبات الثيران ، ومن هنا نشأت الصداقة بينهما ، فكانت تتردد على بيته وتقيم أحيانا فيه ٠ وحينما دخلنا عليه رأيناه منكبا على قائمة الثيران يتفحصها ويؤشر فيها على مايعتزم الرهان عليه فيالیوم التالي ٠ وقد فوجيءبزيارة « مينيا » ، وأثارتهذه المفاجأة فرحه وابتهاجه ، فأقبل عليها لهجا، وضمها الى صدره في غير تحفظ صـائحا : في أي مكان كان اختفاؤك كل هـذا الزمن الطويل ؟! لقد حسبتك ، هناك في بيت الاله !٠٠ على أني الآن سعيد بلقائك مهما يكن الأمر ٠ ولقد كان احساسي بعودتك صادقا ، فلم أسمح لأحد بالاقامة في غرفتك ، ثم قال مســـتدركا : وأرجو الا يكون الخدم قد غفلوا عن أمري فشغلوها بشيء ما ، أو ألا تكون زوجتي قد أحالتها الى بحيرة ماء لتربي فيها السمك !٠٠ حقا ان زوجتي لتستهويها الى حد بعيد فكرة تربية السمك !٠

وقالت « مينيا » في دهشة: «هيليا» تربي السمك ؟! ان هذا لشيء غريب ! ٠٠

واضطرب الرجل العجوز قبل أن يقول : لا ٠ انها ليست « هيليا » انما هي زوجتي الجديدة ٠٠٠ انك لا تعرفينها بعد ، وأظنها الآن مشغولة بعرض سمكها على فتى صغير ٠٠٠ فلندعها لما هي فيه ، فهي لا تحب أن يزعجها أحد عندما يكون فكرها مشغولا بهذه الهواية ٠٠

وفي هذه اللحظة فطن الرجل الى وجودي ، فاستقبلني مرحبا ، وقال لها : ألا تقدمين لي صديقك ؟! انه سيكون صديقي كذلك ، وله أن يعد منزلي هذا منزله منذ الساعة ٠٠

فقالت « مينيـا » انه صـديقي « سـنوحي » المصري الـذي يلقب بالوحيد ، وصناعته طبيب ٠

وقال معقبا فيمزاح : وكم من الوقت سيبقى هنا وحيدا؟! ثم ماذا؟! أمريضة أنت يا « مينيا » حتى يرافقك طبيب ؟! ان ذلك يحزنني ، فلشد ما أرجو أن تكوني موفورة العافية لترقصي غدا أمام الثيران ، فيعود لي بذلك ، الحظ الذي أدبر ٠٠ لقد تخلى عني الحظ السعيد طوال غيبتك عن

هـذه الديار ، على كثرة ما بذلت فى سبيله ، وقد ساءت حالتى المالية ، او هكذا يقول وكيلى بالميناء ، فما أعرف الحقيقة ، وربما كان غير صحيح أن « ايراداتى » أصبحت أقل من « مصروفاتى » كما يدعى ، فانه ليلقى أمامى بقوائم حسابات معقدة لا أدرى من أمرها شيئا !·

قالت « مينيا » : لست مريضة ، ولكنى لقيت فى رحلتى أهوالا جساما ، تعرضت فيها للموت أكثر من مرة ، فأنقذنى منها هذا الصديق « سنوحى » ، وأبى أن يتخلى عنى الى أن عدت كما ترى ، فكان لى ، فى هذه الرحلة الطويلة الحاشدة بالاخطار ، نعم الرفيق ، ونعم الصديق ·

ثم روت له قصة الرحلة منذ تحطمت السفينة التى كانت قد أبحرت عليها الى « سوريا » لترقص أمام الثيران المتوحشة ·

فقال الرجل ، وهو لا يكاد يخفى قلقه : أرجو أن تكون أخطار الرحلة قد زالت عنك تماما ، وألا تكون هذه الصداقة الجديدة قد أضاعت شيئا مما تعتدين به فى سباق الثيران ؟!

واستطرد يقول وهو يقلب عينيه فيها : ان صدرك يا «مينيا» يبدو ناميا ، وألمح فى عينيك ومضات متندية على غير ما أعهد فيهما من قوة التسديد ، وهذا يخيفنى عليك فى مجال الرهان !·

فقالت « مينيا » : كنت أعتقد أنك ، كصديق ، ستسر لعودتى بعد طول غياب ناجية من الاخطار ، ولكنى أرى ألا شيء هو أشغل لبالك وفكرك من الثيران والرهان ، وأنت لهذا تفحصنى بعينيك كما يفعل البابليون فى أسواق الرقيق ! ··

قالت هذا مغضبة ، وتحدرت على وجنتيها قطرات من الدموع لفرط تأثرها ···

قال الرجل ، محاولا اصلاح موقفه منها : بل عنيت الاطمئنان على سلامتك يا « مينيا » ، وما ذكرت الثيران الا تعبيرا عن ذلك · فان غيابا طويلا فى سفر شاق ، من شأنه أن يقلقنى عليك ، وأنا أعلم أنك تلتزمين فى حياتك العادية أسلوبا خاصا كالاستحمام يوميا ، وهو أمر أشك فى أنه كان ميسورا لك فى تلك البلاد الغريبة التى لا عهد لك بها من قبل · وما دمت ، كما تقولين ، قد عدت فى وفر من العافية ، فذلك يسرنى ويسعدنى ، فقرى عينا ولا تحزنى ··

وأردف قائلا كمن تذكر شيئا كان قد نسيه : كنت على أن اذهب

الى « مينوس » فى موعد مضى من لحظات غير قصار ، فأنا سائر اليه الآن، وأرجو أن تبقى حتى أعود فاذا جاءت زوجتى فاخبريها أننى هناك ، وأننى لم أشأ ، قبل ذهابى ، أن أقطع خيوط استمتاعهـا ، هى والصغير الذى معها ، بهوايتها المفضلة !٠٠ وقد يطيب لك أن تعرفى يا « مينيا » أننى فى طريقى الى « مينوس » سأعرج على حظيرة الثيران لأشبع نظرى من الثور الجديد المميز بنقطة جانبية ، فانه حيوان عجيب ليس له فى الثيران مثيل ٠

وانه ليهم بالخروج ، اذا « بمينيا » تستوقفه قائلة : سنرافقك الى « مينوس » فانى أريد أن أقدم « سنوحى » الى أصدقائنا ٠٠

ولم يسع الرجـل العجوز الا أن يوافق على ذلك ، فأخذنا وجهتنـا جميعا الى « مينوس » ، هذا الذى لا أعرف من يكون ؟! على أنى بعد قليل عرفت أنه « الملك » ٠ ولا ينفرد هو باســم « مينوس » وانمـا هو اسم يطلقونه على ملوكهم واحدا بعد آخر ، تمييزا لهم من أفراد الشعب ٠

وكما يتميز الملك فيهم بهذه التسمية ، كذلك قصره يتميز عن منازل المدينة بالسعة وفخامة المظهر ٠ وقد رأيت فيه ، حين دخلناه ، حجرات كثيرة العدد ، مموهة بالطلاء الجميل ٠ وقد كانت جدران قاعة الاستقبال تزدهى برسوم دقيقة الصنع لحشائش البحر وأمواهه المتموجة ، وسمكه السابح فيها ٠ وهذه القاعة الرحيبة كانت ساعتئذ تزخر بجمهرة كبيرة من الناس ، يتألقون جميعا بأزيائهم الجميلة غالية الثمن ، حتى ليبدو أنهم يتنافسون فى ذلك ٠ وهم فى جلوسهم وقيامهم وأحاديثهم ، أحرار طلقـاء يتنقلون من مكان الى آخر كما يشاءون ، أو يتحلقون جماعات كما يريدون، ويضاحك بعضهم بعضا فى جهارة وسفور ، ويتساقون فى لذة ونشـوة كؤوس المرطبات من نبيذ أو عصير فواكه، ولم يخل مجلسهم من السيدات اللواتى كن كذلك متزينـات بأبهى زينـة ٠ وكان أكثر الحـديث بينهن منصرفا الى الموازنة بين ما يرتدين من ملابس وحلل وما الى هذا ممـا يحلو للنساء أبدا أن يأخذن فيه !٠

وقدمتنى « مينيا » الى كثير من أصدقائهـا ، فرحبوا بى ترحيبـا تقليديا ، فى حين كانت عقولهم تسبح فيما هم فيه من سمر ٠ ثم قدمتنى الى الملك « مينوس » ، ذاكرة له فى ايجاز قصة الاخطار التى أحاقت بها وكيف أنجيتها منها ، فحيانى بلغتى فى كلمـات مشوبة بالود ، وشكرنى على ما قدمت « لمينيا » من معاونة أتاحت لها العودة الى وطنها سالمة ، وقال : وأرى أنه ينبغى أن تذهب « مينيا » فى أول فرصة تسنح ، لتدخل

الى بيت الاله ، فما يمنعها من ذلك أن دورها الذى اقترعت عليه بيدها قد فات أوانه ، فقد كانت لهذا أسباب خارجة عن ارادتها ، ولا حيلة لها فيها ، والاله يعرف ذلك ويقدره ٠

وبعد لقائنا بالملك راحت « مينيا » تجول بى فى أنحاء القصر ، وحجراته المختلفة ، وكأنها من ذلك فى منزلها الخاص ، وكانت خلال هذا تحيى الخدم ويحيونها كما لو لم تكن غريبة عنهم ، أو كما لو لم تكن قد غابت عنهم أمدا طويلا ٠ وقد كان هذا طبعا شائعا فى « كريت » ، فهم هناك لا يشعرون بمن يغيب عن أبصارهم ولا يثير حضوره ، بعد غيابه شيئا من اهتمامهم ٠ وكثيرا ما يذهب بعضهم الى خارج المدينة ، فى زيارة مزارعه ، أو فى أيما عمل من الاعمال ، فلا ينبىء بذلك أحدا ثم يغيب ما شاء أن يغيب ، ويعود فلا يسأله أحد أين كان أو لماذا غاب ؟!٠ ويلقاه أصدقاؤه لقاء من لم يغب عنهم سوى ساعة أو بعض ساعة ، وهو نفسه فى حديثه معهم لا يذكر شيئا من سفره أو رحلته أو عمله ٠ ولعل هذه العادة التى انطبع عليها سلوكهم الاجتماعى قد خففت ، أو ساعدت على تخفيف أثر الموت فى نفوسهم ٠

وأخيرا ذهبت بى « مينيا » الى حجرة تقوم على صخرة فوق مشارف البناء تطل نوافذها الواسعة على الحقول المزدهرة والاراضى المهيأة للزراعة وعلى غابات أشجار الزيتون المتناثرة بالمدينة ، وعرفت من « مينيا » أن هذه هى حجرتها الخاصة التى كانت تحيا فيها قبل أن تغادر « كريت » ، وكان كل ما فيها من أمتعة وملابس وجواهر خاصا بها ، وقد رأيناها منسقة مرتبة على الحالة نفسها التى تركتها عليها ، لم تمتد اليها يد أخرى ، كما عرفت أيضا أن « مينيا » تمت بصلة القرابة الى « مينوس » ، وكنت قد فطنت الى هذه القرابة من اسميهما ٠٠٠

وازدحام حجرة « مينيا » بما رأيت من ذهب وفضة وأزياء منوعة هى فوق ما تطمع اليه فتاة مترفة ، ولا يعنى أنها واحدة من أولئك الفتيات المسرفات فى رفاهية الحياة ورغادتها وترفها ، كما قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة ، وانما أمرها فى هذا كان لا يعدو رغبتها فى التجمل بشىء غير ما يتجمل له النساء الاخريات ٠ ذلك أنها نشأت فى بيت الآلهة ، وتأثرت منذ طفولتها بالفكرة الدينية فى أوسع معانيها ، ومن ثم أصبح لا يشغلها من الحياة شاغل الا أن تكون العروس المختارة للاله ، وما ان وضحت نزعتها هذه حتى أزجيت اليها هذه النفائس تحقيقا لرغبتها فى الاستعداد لملاقاة الهها على ما ينبغى له من الاحتفال ٠

وغادرنا الغرفة لتقودني « مينيا » الى بيت الثيران ، وهو أشبه ما يكون بمدينة قائمة بذاتها ، فهناك الاصطبلات ومسارح الصراع وأبنية المدارس وبيوت الكهنة . وهذه المجموعة من المؤسسات تخفق بالحركة وتنفعل بالحيوية ، كما لا بد أن يكون ، وقد سميت « بيت الثيران » لأن كل ما فيها أو أكثر ما فيها متصل بها ودائر في فلكها .

وكانت « مينيا » غير غريبة عن هذا البيت الكبير ، فهي معروفة هناك حق المعرفة ، حتى أنها ، في تجوالنا بين الثيران نفسها ، كانت تنادى كل ثور باسمه ، فيخور ويهتز ويضرب الارض بحوافره كأنه يحييها مسرورا ! .. وكذلك كانت حال من لقينا من فتيان وفتيات . لقد أقبلوا عليها جميعا متظاهرين بالفرح للقائها ، ولم يكن من العسير ادراك ما يعتلج في قلوبهم من الغيرة لعودتها اليهم ، فهم يصارعون الثيران ويراقصونها ، ولا ريب في أنهم ينفسون على « مينيا » مهارتها وتفوقها عليهم في هذا المجال ، ولذلك كان باديا عليهم أنهم يلفقون في لقائها مظاهر الترحيب والحفاوة . على أن الكهنة الذين يدربون الثيران والراقصين على السواء ، كانوا أصدق شعورا حينما استقبلونا مبتهجين، فقد كانت « مينيا » أثيرة عندهم محببة اليهم ، فما ان رأوها حتى تلقوها أحسن لقاء ، وأدرجوا اسمها على الفور في برنامج السباق لليوم التالي .

وعندما علموا أنني طبيب ، أخذوا يسألونني أسئلة متعددة عن الجهاز الهضمي للثيران وعن الغذاء الذى يصلح لها ، الى غير ذلك مما يعرفون الاجابة عنه خيرا مما أعرف ، فلست ــ كما توهموا ــ طبيبا للحيوانات ! ...

وفي هذه الجولة قصدنا الى البيت الذى يقيم فيه كبير كهنة اله « كريت » ، وهم يطلقون عليه للتمييز اسم « مينوتوروس » ، كتسميتهم الملك « مينوس » للسبب نفسه . وكان هذا الكاهن أكثر أهل «كريت » مهابة وجلالا . وقد بان في عيني « مينيا » ــ ونحن ذاهبان الى زيارته ــ أنها تهابه الى حد الخشية ، وهي التي عرفتها لا تهاب أحدا ولا تخشاه ...

ولما أذن لنا في الدخول عليه ، كان اذ ذاك في غرفة مظلمة ، يجلل رأسه ووجهه بأقنوم ذهبي يمثل رأس ثور ، فخيل الي لأول نظرتي اليه انه الاله الذى طالما سمعت عنه القصص والروايات،ولكنه بعد أن انحنينا أمامه احتراما ، رفع هذا الرأس المصنوع الذى كان يلبسه ، وبدا لنا على صورته الآدمية الاولى ، وابتسم لنا محييا ، غير أني ، على الرغم من

ابتسامته اللطيفة ، لم أشعر نحوه بميل ، فقد كانت ملامح وجهه تنم عن الصرامة والقسوة والسيطرة ٠

ولم تكن « مينيا » بحاجة الى أن تذكر له قصة حياتها ، فقد كان يعلم كل شيء عنها ٠ وكانت أسئلته قصيرة لا تجـــاوز الضرورة التى تقتضيها فى أضيق الحدود ٠

والتفت نحوى ، فشكرنى على المعاونة التى أمددت بها « مينيا »فى رحلتها حتى استطاعت أن تعود الى وطنها والهها ، وأخبرنى أن الهدايا الثمينة تنتظرنى بالفندق الذى أنزل به وتمنى أن ترضينى !٠٠

وقلت لكبير الكهنة : لا حاجة بى الى الهدايا يا سيدى ، فانما أنا رجل علم ومعرفة ، وهما عندى خير من الذهب والفضة ، وفى سبيل العلم والمعرفة كان تطوافى بين أقطار الارض ، وقد أحطت خبرا بما لم يكن لى به علم من قبل عن آلهة « بابل » و « الحيثيين » ٠ وهأنذا فى « كريت » أنشد المزيد من العلم عن الهها الذى سمعت انه يؤثر بحبه العـــذارى والفتيان الأصـــحاء على خلاف ما علمت عن آلهة « سوريا » ، فان بيوتها هنالك تعج باللهو والمسرات ويقوم على خدمتها كهنة من الخصيان ٠

فقال معقبا : ان آلهتنا كثيرو العدد ، والعبادة هنا تجرى فى نطاق واسع من الحرية ، ويتمتع بهذه الحرية الاجانب الوافدون علينـــا أو المقيمون بيننا ، وفى ميناء مدينتنا تقوم معابد لآلهتهم ، يتعبدون بها على بعد الشقة ونأى المزار ، وفى استطاعتك أن تقدم هناك ما شئت من قرابين « لآمون » و « بعل » ٠

وصمت قليلا ثم عاد يقول : ومع هذا فان عظمة « كريت » تعتمد ، أكثر ما تعتمد ، على ذلك الاله الذى يعبد سرا من عهود قديمة ، ممعنة فى القدم ، لا نعرف متى بدأت ولا كيف بدأت ، لان أجدادنا القـدماء لم يتركوا لنا شيئا واضحا عنه ، ولأن الذين يذهبون اليه ، ويلقونه وجهـا لوجه ، لا يعودون !٠٠

قلت له : ان آلهة « الحيثيين » هى السموات والمطر حيث تتنزل عليهم غيوث الامطـــار فتحيى موات الارض وتنمى زروعها ، وتؤتيهم الارزاق التى يعيشـــون عليها هم وأنعامهم ، وأظن أن اله « كريت » هو اله البحر ، اذ كانت ثروتها ومصادر قوتها مستمدة من البحر ، ومرتبطة به ، ومتفرعة عنه ٠ وهكذا الآلهة فى كل مكان من الارض،تتمثل للناس فيما يمس حياتهم وأسباب معايشهم ، فيكون تعظيمها والتعبد لها بقدر ما يكون لها من أثر فى هذه الناحية من وجودهم ٠

قال الكاهن الاكبر ، وثغره ينفرج عن ابتسامة غريبـة : ما أراك قد جاوزت الحقيقة ، على أننا ، نحن الكريتيين ، نعبد الها حيا على خلاف البلاد الاخرى التى تعبد الآلهة فى أشكال شتى من تماثيل مصنوعة من حجارة أو خشب . انها آلهة لا حياة فيها ، ولهذا اتخذوا لها رموزا من جماد . أما الهنا فقد اتخذوا له رمزا يتمثل فى الثيران ، وهى حيوانات موفورة الحيوية والقوة ، وقد اضفى على «كريت» بحياته وقوته السيادة على البحار ، وستبقى لنـا هـذه السيادة عليها ما دام حيا . ومع هـذا فنحن من جانبنا لا نغفل العناية بمراكبنا وخاصة البحرية منها ، حتى لا تستطيع مملكة أخرى أن تنافسنا فى هذه السيادة البحرية .

قلت له : ولكننى سمعت أن الهكم يأوى الى بيت مظلم فى «بربى» وأن الذين يختارون لخدمته فى بيته هذا غير ممنوعين من العودة منه بعد انقضاء شهر على وجودهم فيه ، غير أنى لم أسمع أن أحدا منهم قد عاد ، فلست أدرى لماذا لا يعودون ؟!..

قال : طوبى لهم أولئك الذين يؤثرهم الاله بالاختيار لخدمتـه ، فذاك منتهى الفخار والتكرمة لهم دون الناس جميعـا ، ولا بد أنك قد علمت أن جزر البحر ينافس بعضها بعضا فى هذا السبيل ، فهى تبعث بخيرة فتيانها وزهرات شبابها لمراقصة الثيران والاقتراع عليهـا لنيل شرف الاختيار لبيت الاله !.. ولعلك لم تسمع شيئا كثيرا عن الحيـاة هنالك ، ولكن الذى لا ريب فيه أنها حياة طيبة سعيدة تختلف اختلافا كبيرا عما نبلوه من حياتنا نحن البعيدين عن ذلك البيت المقدس ، وهذا هو السر فى أن الذين يدخلون اليه يطيب لهم المقام فيه وتنتفى عندهم الرغبة فى مغادرته ، وما لهم يعودون الى عالمنا هذا ، المشـحون بالآلام والأكدار ؟!..

ثم التفت « مينوتوروس » الى « مينيا » وقال : وهذه « مينيـا » العذراء المختارة لهذا الشرف .. انها عما قليل سترى هناك مصـداق ما أقول ...

ولكن « مينيا » لم تخرج من صمتها للتعقيب على اشـارة الكاهن الكبير ، وتدخلت أنا مستأنفا الحديث فقلت : ان كل ما يقال عن بيت الاله لا يخرج عن كونه استنتاجا وتصورا لحقيقة غامضة ، لا نجد من يحدثنا عنها حديث الذى رآها رأى العين . ومع ذلك فليس يسعنى الا أن أصدقك كما يصدقك الآخرون ، وانى لأتمنى الخير « لمينيا » فيما هى مقبلة عليه ...

فقال « مينوتوروس » : عند تمام القمر ، وسيكون ذلك قريبا ، سترى « مينيا » بيت الاله ، وفى هذه الحظيرة المقدسة سينعقد لها الشرف المنشود ٠

قلت وانا أكتم غيظى : وماذا ياسيدى لو أن«مينيا» لم تشأ الذهاب الى هناك ٠

قال : سنوحى !٠٠ أيها المصرى !٠٠ أمسك بزمام عواطفك ٠ ان « مينيا » لا تستطيع أن تتخلف عن نداء الاله ، وقد رقصت أمام الثيران معلنة بذلك ارادتها الحرة فى الذهاب الى بيته المقدس ، ولم يحدث من قبل أن فتاة نزلت عن هذا الشرف بعد اعلانه ٠٠

قال هذا ، ثم وضع رأس الثور الذهبى على رأسه ووجهه فأخفاهما، وكان ذلك ايذانا لنا بالانصراف ٠ وهنا أمسكت « مينيا » بيدى لتقودنى الى الطريق الخارجى ، وعلى وجهها غيمة من الكآبة ٠

- ٣ -

عدت الى الفندق فتلقانى « كابتاح » منتشيا لفرط ما احتسى من نبيذ فى حانات الميناء ، وقال لى : ان للخدم فى هذه البلاد شأنا ذا عجب ، فسادتهم لا يضربونهم اذا ما أخطأوا ، ولا يزيد عقاب السيد لخادمه ان أثار غضبه على أن يأمره بمغادرة منزله ، ولكن الخادم لا يغادر المنزل بل يخفى نفسه فيه عن عين سيده، ثم يعود ليظهر فى اليوم التالى مستأنفا عمله ، فلا يجد من سيده اعتراضا على وجوده لانه يكون قد نسى كل ذنوبه ، وقد ينسى السادة كذلك ما يكونون قد تركوه فى أيدى خدمهم من أكياس نقود ومجوهرات ٠٠ أفلا ترى يا سيدى أن للخدم هنا منزلة ليست لهم فى البلاد الاخرى ؟!٠٠

ثم قام « كابتاح » فأغلق باب الحجرة وأرهف سمعه ليطمئن الى أن أحدا لا يصغى الينا من قريب ، وتابع كلامه قائلا : وثمة نبأ هام يتهامس به البحارة فى الحانات ٠٠ انهم يقولون ان اله « كريت » قد مات ، وان الكهنة من ذلك فى رعب ووجل لخشيتهم أن يذاع خبر موته قبل أن يقيموا مكانه الها جديدا ، وهم لهذا مشغولون بالبحث عن ذلك الاله الجديد حتى لا يصبح الناس بغير اله يملأ فراغ عقيدتهم ٠ وليس البحارة بأقل اضطرابا وجزعا من الكهنة ، فهم متشائمون من هذه الفاجعة ، ويخيل اليهم أن سمك البحر سيطغى عليهم ويلتهمهم ، فقد

ثبت فى يقينهم أن الههم الذى مات كان يحميهم ، وطالما سمعوا من الكهنة أن عظمة « كريت » بناسها وبحرها ستنهار حين يموت ··

وشرح هذا النبأ صدرى ، وسرى الأمل به الى قلبى ، ولم أستغرب وقوعه ، فان الحياة فيما جرت به سنن الوجود تنتهى دائما الى موت ، وما داموا قد جعلوا من الههم كائنا حيا ، يسكن بيتا ويحتاج الى من يخدمونه فيه ، فما وجه الغرابة - اذن - فى أن يموت كما يموت الاحياء ؟!·· ثم ان أولئك البحارة لا يتحدثون هكذا عن موته ، ويركبهم شعور الخوف لزوال حمايته الا اذا كان الخبر صحيحا ، وبذلك يصبح ذهاب « مينيا » اليه واختفاؤها هناك فى بيته المظلم ، شيئا غير متوقع ، فان لم تؤمن بموته وذهبت اليه فانها لابد عائدة حين لا تجد الها تخدمه وتعيش فى كنفه : وهذا هو أملى المنشود ··

وكان علينا فى اليوم التالى أن نشهد الرقص أمام الثيران فى الحلبة المخصصة لذلك ، فذهبت الى هناك مبكرا لأحتجز لى مكانا ، فوجدت ساحة تحيط بها مقاعد حجرية ، يرتفع بعضها عن بعض ، حتى يستطيع النظارة فى صفوفهم المتراصة أن يشهدوا جميعا تلك الالعاب فى الساحة الدنيا · وقد أعجبنى هذا الترتيب الهندسى فى ملعب عام ، فذلك ما لم أره فى غير هذه البلاد ، حتى فى «مصر» ، فانهم يتجمعون على مصطبة عالية ذات استواء واحد ، ليشهدوا متزاحمين ما يعرض عليهم من مشاهد الآلهة أو الكهنة أو الرقص ·

وتتابعت الثيران على الحلقة ، واحدا اثر واحد ، ليواثبها الراقصون كل فى دوره المعين ، وكانت رقصات مجهدة معقدة مثيرة للاعصاب ، يتحرى فيها المصارعون الانتباه الدقيق والحركة السريعة البارعة ، ليفلتوا من خطر الموت وبخاصة عندما يقفزون بين قرون الثيران فى أشد حالات ثورانها وجموحها ، أو عند ما يثبون على ظهورها متماسكين عليها وهى تجرى وتهتز وتهبط وتعلو ، ثم يمعنون فى تجلية مهارتهم فيتقلبون فى الهواء كخفاف الطير ليعودوا الى ظهورها بأقدام ثابتة وجأش رابط · وكان الاثرياء والهواة من سكان «كريت» يراهنون على الثيران والمصارعين معا · ولم أستطع أن أتبين سر شغفهم بهذه الالعاب ، ولا سر اختلافهم عند الرهبان فى تمييز ثور عن ثور أو راقص عن راقص ، فقد كانت الثيران ، كما كان اللاعبون عليها كذلك ، سواء فى نظرى بلا خلاف !··

وعلى كثرة ما رأيت من مهارة « مينيا » فى هذا الرقص بذاته قبل ذلك ، فانى أحسست بمزيد من الخوف على حياتها ، حينما اقتحمت

الحلبة فى دورها · ذلك أن الالعاب كانت قد بلغت ذروتها من الخطر ، وأبدى اللاعبون ضروبا رائعة من المهارة والمقدرة لا تستطيع « مينيا » ـ فيما أظن ـ أن تأتى بمثلها تحت أعين هذه الجموع الزاخرة من الناس ، هذا الى ما كنت ألمحه على وجهها أخيرا من علامات التردد وشرود الفكر ، ولكنها سرعان ما أبدلت فى نفسى مشاعر الخوف بمشاعر الاعجاب ، فقد أظهرت من البراعة والخفة والرشاقة ما جعلها تفلت من الموت الذى كان يحيط بها من كل جانب بمهارة عجيبة ·

ولم تكن « مينيا » الفتاة الوحيدة الراقصة فى الحلبة ، فقد كانت هنالك فتيات أخريات يرقصن فى أدوارهن ، وقد تخففن من الملابس وظهرن شبه عاريات كما تخفف الفتية الراقصون من ملابسهم كذلك · فارتداء الملابس فى هذه الالعاب الخاطفة فيه خطر جسيم ، فقد يعطل الثوب الحركة ، أو قد يعلق بقرن ثور فتكون الكارثة ··

وكانت « مينيا » ، وجسمها يلمع بالزيت الذى دلك به ، تبدو فى نظرى أجمل فتيات الرقص وأشدهن سحرا · ومع أنى أعترف أنه كان من بين زميلاتها فى الرقص من اجتذبن اعجاب شهود الحلقة ونلن تصفيقهم الطويل الحاد ، فاننى كنت بعاطفتى منصرفا اليها دونهن · على أنه لم يكن يهمنى رأى هؤلاء الناس فيها بقدر ما كان يهمنى أن تسلم من الخطر · ولهذا لم أحفل كثيرا بغضب صديقها العجوز الذى راهن عليها فخسر الرهان ، وما كان ذلك عن قصور منها وانما كان ـ كما شهد بذلك خبراء اللعب ـ أثرا من آثار غيابها وانقطاعها فترة طويلة عن المران الذى لم تنقطع عنه الفتيات الاخريات ·

وقابلت « مينيا » بعد ذلك فى حظيرة الثيران ، فقالت لى فى هدوء: لن يكون بيننا لقاء بعد الآن يا « سنوحى » ، فانى لماضية الى وليمة دعانى اليها بعض الاصدقاء ، وسأعكف على اعداد نفسى بعدها لرحلتى الى الهى ، فالقمر سيكتمل فى ليلة بعد غد · على أنه من الممكن ـ اذا شئت ـ أن تكون بين من سيرافقنى من الاصدقاء لتوديعى الى هناك ··

قلت لها : فليكن ما تريدين يا « مينيا » ·· أما أنا فسأغتنم فرصة انشغالك عنى لأتزود بما أود الوقوف عليه من عادات أبناء « كريت » واختلاف أزياء سيداتها ، وكذلك فسأستجيب لدعوات صديقاتك لى ، التى وجهنها الى خلال مشاهدة الرقص ، فقد أثار اعجابى جمال وجوههن وصدورهن ، وان كان بعضهن أكثر بدانة منك !··

وهنا لمعت عيناها ، فأمسكت بذراعى وقالت وأنفاسها تتلاحق

مسرعة : لا ، يا سنوحى ، انى أرجو ألا تتصل بهؤلاء الصديقات مادمت أنا هنا • وفى وسعك أن تفعل ما تشاء بعد أن أذهب • واذا كنت قد صرت فى عينيك الآن أقل جمالا منهن ، فلا أقل من أن تصطنع الوفاء لصداقتنا بعض الوقت ، ولا يكلفك تحقيق رجائى شيئا عسيرا !••

فقلت لها باسما : انما أردت امتحان عواطفك ، وما لغيرك من نساء الدنيا مكان فى نفسى ، فاطمئنى ، وسأذهب من فورى الى الفندق حيث ينتظرنى هناك كثير من المرضى ، لا من النساء !••

وودعتها عائدا الى الفندق ، فسرت وما تكاد تزايلنى رائحةالثيران التى تلازم من يلمون بحظائرها فى « كريت » • ومنذ ذلك الوقت كنت لا أرى قطيعا من الحيوانات الا ثارت عندى تلك الرائحة ، فأحس كأنى أصبت بمرض خبيث لا يطيب لى معه طعام أو شراب !••

وفى الفندق ، ظللت مشغولا بعلاج المرضى الكثيرين ، باذلا أقصى طاقتى فى تخفيف آلامهم ، الى أن أقبل المساء واقتحمت الظلمة حجرتى بالفندق • وكان « كابتاح » قد أعد لى فراش نومى ، ولكنى لم أنم كما لم أضيء المصباح ، فقد كان نور القمر يطل علينا من النافذة ، فحرك فى نفسى أشجانها ، وشعرت كأنى أكرهه فهو الذى سيفصلنى ، عند تمامه، عن شقيقة روحى فى هذا العالم •• وزدت ضيقا بحالى حين رأيت غير بعيد أضواء المصابيح تشع من بيوت الملذات بالميناء ، ومنها تنبعث أنغام الموسيقى وضحكات اللاهين • لقد كان الناس جميعا من حولنا يمرحون ويهزجون ، لا فرق فى ذلك بين سيد ومسود ، وكنت وحدى ، قابعا فى غرفتى المظلمة ، فريسة الأسى والألم ••

وانى لفى وحدتى هذه الموحشة ، اذا بالباب ينفرج فى هدوء ، وتدلف منه « مينيا » فى حذر ، وقد نضت عنها الملابس الكريتية التى تركتها عليها ، واستبدلت بها الرداء البسيط الذى كانت ترقص به أمام الناس فى البلاد الاخرى ، وكان شعر رأسها حينذاك مشدودا بشريط ذهبى يزيدها بهاء ••

فقلت مشدوها : « مينيا » ! •• ماذا جاء بك ؟! أما قلت لى انك تستعدين لالهك واننا لن نلتقى الا مودعين فى ساعة الفراق ؟!••

قالت ، فيما يشبه الهمس : لا ترفع صوتك ، فلست أريد أن يسمع حديثنا أحد •

وجلست دانية منى حتى لتكاد تلتصق بى ، وراحت فى شرود

وحسرة تقلب نظرها فى القمر ، ثم قالت : لقد كرهت مكان نومى فى بيت الثيران ، كما لم أعد أشعر بما كنت أشعر به من ســـعادة فى مخالطة أصدقائى القدامى هناك ٠٠ وقد يبدو غريبا ، بل لعله مما يثير الملاحظة والتساؤل أن أسعى فى هذا الوقت بالذات الى هذا الفندق بحى الميناء، وهو الحى الذى لا ينبغى أن تظهر فيه عذارى الاله ! ٠ ان أفكارا ومشاعر جديدة قد طرأت على حياتى ، وغيرت مجرى ســلوكى واتجــاهاتى ، فلا أدرى لماذا صرت أوثر حيــاة الارتحال والتطواف بين البــلدان والشعوب الاجنبية ، وكيف لم أعد أشعر بالحنين الى وطنى نفسه ، كما لم أعــد أستشعر لــذة الراحة بين الثــيران وهى التى كانت أعز الحيــوانات الى نفسى ، وكذلك لا أدرى كيف افتقدت فى قلبى لذة الزهو باعجــــاب الناس وتصفيقهم ، وأكثر من هذا لم أعد أحس بشىء من الحماســــة والبهجة لدخول بيت الاله كما كنت من قبل !٠٠ لقد تغير كل شىء فى احساسى ومشاعرى ، وأصبحت أرى كأنى بمعزل من الناس ، فأحاديثهم على سمعى كثرثرة الاطفال ، ومباهجهم كمثل زبد البحر متنــــاثرا على الشاطىء ، فلست معهم فى شىء من هذا أو ذاك ٠ وقد كان من الممكن تعليل هذه الحال اذا كان هناك ما يشغلنى فى خاصة أمرى وذات نفسى، ولكننى أحس بقلبى فارغا ، ورأسى خاليا ، وتفــكيرى معطلا ، ويعجزنى الآن أن أزعم ، مجرد زعم ، أن فكرة واحدة من شتيت الافكار حولى ، تنبع من عقلى أو تصدر عنه ، ومن هنا يتمثل لى كل شىء غريبا عنى،وهو أمر يؤلمنى غاية الألم ٠ ولــكن انســانا واحدا أستشف فيــه شعاعا من العزاء عن ذلك كله ، هو أنت يا «سنوحى» ٠٠ فما أخشى فى هذه الحياة شرا ، حتى لو كان الموت نفسه ، ما بقى لى مكان من قلبك ، وما دامت يدى ممسكة بيدك !٠٠ أقول هذا عن صدق عاطفة ولا يمنعنى من التصريح به أنك ، فيما يبدو ، أكثر شغفا بنساء هــذه المدينة اللاتى تراهن أنضر وجوها وأملأ أجساما !٠٠

فقلت لها مأخوذا بسحر هذه المفاجأة الجميلة : «مينيا»٠٠ يا أختى المحبوبة : لقد قلت لك صادقا انه ليس لغيرك من نساء الدنيا مكان من نفسى ، وانى لأكرر هذا ولا أمل تكراره الى آخر نفس يتردد فى صدرى، وما أعرف أن فم الدهر قد انفرج لى عن مثل هذه الابتسامة الساحرة المسعدة ، تتمثل الآن فى عواطفنا المشتركة ومشاعرنا المتبــادلة ٠ انك فتاة هواى الوحيدة فى هذا العالم ، وما كان يشقينى ، أقسى ما يكون الشقاء ، سوى أنك مفــارقتى الى بيت الاله الذى ليس منــه مآب ٠ لقــد كانت طفولتى وصباى جدول ماء رقراق يجرى فى حياتى صافيا ، فلما

صرت رجلا استحال هذا الجدول نهرا كبيرا جياش الموج ، يفيض ويتدفق ويجاوز شاطئيه ليغمر ما حوله من بطاح يابسة ثم ينحسر عنها فتصير على جانبيه مستنقعات راكدة ، مكدورة الماء مرنقة الصفاء ، ترتفع فيها الأفاعي والهوام ، ثم تنساب الى جوفه فتوبقه وتحيله مستنقعا كبيرا ، فتلك كانت حياتي كرجل ، فلما جمعت الاقدار بيني وبينك ، تبدل أمري ، وعدت الى عهد طفولتي وشبابي ، ولا أقول ان نهري الكبير قد ارتد جدولا صغيرا ، وانما أقول انه صار بك بحرا واسعا عميقا لا يصطخب ولا يثور ولا تتدافع مياهه على يبس الارض لتكون مستنقعات خبيثة ، وبهذا هدأت حياتي بعد طول صخب ، وتطهرت بعد طول فساد ، وأنت سر هذا ومصدره ، ولك وحدك الفضل فيه ٠ وقد لاحت لي الدنيا بعد ذلك على صورتها المزدهرة ، تلهم الأمل وتشرق بالسعادة ، وتحفز للخير ، ولهذا أقبلت عليها بعد احجام ، ورضيت عنها بعد سخط ٠ على أن ذلك كله سيتقلص ظله ، ويتصوح زهره ، وتتحول واحته الفيحاء الى صحراء مقفرة ، وبلابله المغردة الى غربان ناعقة ، اذا ما وقع ما يرتعد قلبي فزعا منه ، وهو ذهابك الى بيت الاله ، فاني اذن لمنقلب الى شقائي وتعاستي ، أبغض الحياة وأبغض النـاس وأبغض الآلهة ٠٠٠ وانك لتستطيعين الا يكون هذا ٠٠ وما أحسبك وقد تساقينا كئوس الحب عذبا طهورا بتاركتي لأحترق بنار فراقك الأبدي ، منساقة وراء عقيدة تائهة في واد سحيق من الغموض ٠ ألا فاعلمي يا « مينيا » أن هذا العالم الذي يحتشد بالممالك المختلفة والشعوب المتباينة ، والمعالم التي لا عدد لها ولا حصر ، ليس فيه لمثيلينا من المحبين الا نهر واحد ، يمنح السعادة والهناءة والخلود ٠٠ فتعالي ، تعالي معي الى الأرض السوداء حيث النيل ، ذلك النهر الواحد السعيد ، فنحيا هنالك على شاطئيه الممرعين بالخصب والجمال ، ونأنس بالبلابل والاطيار من كل جنس شادية وسط الاعشاب وفوق الاشجار ، والشمس في مركبها الذهبي صاعدة عبر السماء ٠٠٠ تعالي يا « مينيا » نكسر الجرة بيننا ، ايذانا بزواج لا تنفصم عراه ولا ينتهي مداه ، فان متنا فسيحفظ جسدانا ، ومن ثم نتلاقى في الأرض الغربية ، فنخلد معا خلود الأبد ٠٠٠

ولكن « مينيا » التي استمعت الى كلماتي هذه بتأثر ظاهر ، شدت على يدي باحدى يديها ، ومسحت بأطراف أصابع يدها الاخرى فمي وعنقي وأهداب عيني ، وقالت : ان ما تدعوني اليه يا « سنوحي » صعب المنال ، فلست بمستطيعة أن أتبعك الى حيث تريد ، لسبب لا حيلة لي فيه ، ذلك أننا لن نجد السفينة التي تحملنا ، ولا الربان الذي يرضى أن

يخفينا فوق ظهرها ، فانني محوطة برقابة شديدة من أجل الهي ، ولئن طاوعتك فيما تدعوني اليه فأكبر الظن أن يكون في ذلك هلاكك ، وهو ما لا أرضاه أو أقدم عليه ، وانه ليحزنني أن تفني رغبتي الخاصة فيما تجلى من رغبة الاله القوية المسيطرة منذ رقصت له أمام ثيرانه ، وقد لا أستطيع أن أحملك على الايمان بهذه الحقيقة ما دمت لا تشعر بها في أعماق نفسك ، وعلى هذا فلا مناص من أن أمضي في سبيلي الى بيت الاله عندما يصل القمر الى تمامه ، فذلك قضاء لا تستطيع قوة على هذه الارض أن تدفعه ، ولعله لا يوجد انسان يفقه سر هذا القضاء ، ويحيط بأسباب قوته النافذة غير « مينوتوروس » .

قلت لها ، وقلبي في مثل وحشة القبور : لا أحد من الناس جميعا يعرف ما قد يطلع به الغد ، كما أن أحدا منهم لا يعتقد أنك عائدة من بيت الاله بعد اذ تبلغينه . واذا صدق ما يقوله ذلك الكاهن الاكبر فانك ، هناك في ذلك البيت الذهبي ، ستنعمين بالحياة الدائمة ، وستنسين بها كل شيء في دنيانا ، حتى أنا ، ستنسينني . ومعنى هذا انك ، كمن سبقك من العذارى ، لن تعودي ايثارا للبقاء في فيض هذه الحياة الهانئة وافرة النعيم . ولكنني في غمرات شوقي اليك ولهفتي عليك لن أطيق الصبر على هذا الحرمان ، ولهذا ينبغي أن تعلمي أن أمرا قد تقرر في نفسي ولا متحول لي عنه ولو لقيت الموت في سبيله ، وهو أنك ان لم تعودي بعد انقضاء عدة الزمن المحدود فاني ماض الى بيت الهك ، ومقتحم أسواره ، لو كانت له أسوار ، وسأخرجك منه أردت أو لم تريدي ...

قالت ، واجفة مذعورة وهي تدير نظرها فيما حولنا كأنما تخشى علينا أذنا متلصصة : صه ! لا تتكلم هكذا ، ولا تفكر ، مجرد تفكير ، في شيء من هذا ، فان بيت الاله معصوم قوى التحصين تقوم عليه أبواب نحاسية محكمة الأرتاج ، ثم انه مغلف في حلكة من ظلام ، وليس هناك غير الموت لمن يحاول أن يسلك طريقه من غير المختارين له . أقول لك هذا محذرة حتى لا ينالك وبال لا مهرب منه فيما لو سولت لك نفسك أن تجرب هذه المحاولة الاخيرة ، ولا شك عندي في صدق عاطفتك نحوي ، وهي هي عاطفتي نحوك ، ومن أجلها سأعود اليك ، ولن يصرفني الاله عنك ، فهو اله كريم ومن صفاته العدل والرحمة ، ويقيني أنه سيرضى عن عودتي لأن فيها سعادتي ، وما أراه في عدله ورحمته وبالغ عطفه بمانعي من هذه السعادة ... الا تراه من أجل سعادة الناس وخيرهم يحرس « كريت » ويضفي عليها العظمة والمجد ، وينفح أهلها نماء الزروع

ووفرة الثمر وأمن البحار ، مرسلا الرياح فيها رخاء ، والسحب اليهـــا مدرارا ، دافعا عنها الضلال والظلام وأخطار السفر ، فـكيف به لا يريد لعذراء من عذاراه أن تستمتع بما يستمتع به سائر رعاياه ! ..

وكانت « مينيا » تقول هذا وأهداب عينيها مسترخية كأنها نائمة تردد حلما ، أو كأنها تخاف التحديق في وجهى استحياء من التعبير عن عاطفة حبهـــا لى ، ولا أدرى كيف لم أستطع أن أفتح عينيهـــا هاتين الساذجتين وأنا الذى ـ بطبى ـ طالما فتحت عيونا مفقودة وأعدت اليها النور الذاهب ؟! .. وانما الذى أدريه أننى تأثرت بهذا الموقف ، وانفعالا به ، احتويتهـــا بين ذراعى وقبلتها قبـــلات حارة ، وأرسلت يدى حانية لتلامس من جسمها أطرافا كانت كأوراق الورد نضارة ونعومة،وكالبللور نصاعة واشراقا ، ولم أعرف من نفسى فى تلك اللحظة الا أننى الظامىء الصادى فى صحراء مقفرة وقع على عين ماء ثرة صافية ، تحت ظلال شجرة وارفة .

ولم تدفعنى « مينيا » أو تحـــاول الافلات من بين ذراعى ، وانما استسلمت استسلاما ، ملقية برأسهـــا على صدرى وأعصابها تختلج كما لو كانت ترتجف خوفا .

واحسست بدموعها تتساقط على يدى غزيرة سخينة ، ثم تقول : «سنوحى» ، ياصديقى : سأعود اليك ، أعنى أننى سأبذل كل ما فى وسعى لأعود ، فان لم أعد ، فافعل ما تريد فى سبيل أن نقضى الحياة جنبا الى جنب ، فانى معك وبين ذراعيك لا أرهب الموت ولا أخشى الردى ..

قلت لها : أفهم من هذا أننا على درجة واحدة من الشعور بالحب ، والرغبة الصادقة فى أن نعيش العمر كله معا .. أليس هـــذا هو الذى تعنين ؟! ..

قالت فى شىء من التردد : لست أدرى ماذا أعنى يقينا ، وكل الذى أعرفه اننى اذا بعدت عنك ، فانى أشعر بالقلق والاضـــــطراب وأن على عينى غشاوة كالضباب ، فاذا لقيتك شعرت بالوهن يدب فى أوصالى ، وأنا التى لا تهاب أحدا من الناس ! ..

قلت لها : حسبى هذا دليلا على ارتباط قلبينا واتحـــاد روحينا ، ولو لم يكن الامر كذلك لما وافيتنى هنا الآن متسللة على غير ميعاد بيننا ، وعلى رغم الرقابة المفروضة حولك ، وما أسألك الســــاعة شيئا الا أن تعطينى الشريط الذهبى الذى تمسكين به شعر رأسك ...

قالت ، وهى تسدد الى وجهى نظرة طويلة ، كأنما تتفحص صـــدق

عاطفتى ، وتستوثق من أنى لا أزخرف لها الحديث مخادعا ، وقد وضعت يدها فى رشاقة على خاصرتها : قد تكون نحافتى شيئا يستحق أن تراجع فيه شعورك هذا ، فالبدانة فى النساء كثيرا ما تستميل اليها الرجال ، أو لعلها بالنسبة لك أدنى الى ما تحب وتهوى ! ٠ ٠

قلت مبتسما : مرة أخرى أؤكد لك يا «مينياء أنك الفتاة الوحيدة فى حياتى ، وأنك لأجمل من رأيت ومن سوف أرى من نساء العالم ، وما كانت البدانة عندى يوما سمة من سمات الجمال فى امرأة ، فهى بالأحرى شيء لا يصادفمنى ميلا أو هوى ٠ وانيأخيرا لا أحاول ، أو قد لاأستطيع أن أحاول ، اعتراض طريقك الى الهك ، فاذهبى اليه كما تشاءين ٠ على أنى - بعد - أريد أمرا أحب أن ننجزه الساعة تمكينا للرابطة بيننا ، وتثبيتا للطمأنينة فى نفسى حتى تعودى ، ذلك أن أجيىء بجرة فنكسرها بيننا ، وبهذا نصبح زوجين لا يفترقان ، ولا يهم أن يتم ذلك الآن من غير كهنة يشهدون عليه ويكتبون اسمينا فى سجل المعبد ، فما شـــهادتهم وتسجيلهم الا قشورا لا قيمة لها بالنسبة للجوهر نفسه ٠

ووقع هذا من نفسها موقعا جميلا ، فاتسعتحدقتا عينيها ابتهاجا، وبدا وجهها فى ضــــوء القمر زاهيــا مشرقا بالفرح ، فأسرعت بالخروج باحثا عن « كابتاح » ليأتينا بالجرة ، فرأيته قابعا لدىالباب وهو يمسح دموعه بظهر يده ، وما ان رآنى حتى أجهش بالبكاء بصوت مســموع ، فقلت له منتهرا : ما هذا البكاء ، وفيم أنت هنا ؟!٠٠

وقال فى خبث : كيف لا أبكى يا سيدى ؟! ألا تعلم أن لى قلبــا رقيقا ؟! فقد سمعت حديثكما ، أنت وهذه الفتاة ، فشجانى وأبكانى ، فما سمعت مثله كلاما يحرك العواطف ويلهبها ٠٠٠

فركلته بقدمى مغضبا وقلت : تعنى أنك كنت تضع أذنك علىالباب متسمعا متجسسا علينا !٠٠

فأجابنى مصطنعا السذاجة : أما أننى كنت أسمع من وراء الباب ، فهذا صحيح ٠ وأما أننى كنت أتجسس ، فلا ٠ وانما كان هناك غيرى من الغرباء الجواسيس جئت فرأيتهم فى هــــذا المكان يرهفون آذانهم ليلتقطوا حديثكما ، وهم لا يقصدونك بالذات وانما يقصدون « مينيا »، لانهم يتتبعون خطواتها ويتقصون حركاتها ، فزجـرتهم وأقصيتهم عن الباب ، واتخذت مكانهم منـه حتى لا يعودوا ، وما فعلت ذلك الا لأحفظ عليكما أمن اللقاء وأمن الحديث ، فهل ترانى فعلت سوءا ؟! وعلى أية حال

فقد سمعت الحديث ، وهو بلا شك حديث لطيف مؤثر ، ولهـــذا كان بكائى ٠ ٠ ٠

قلت ، وقد تبدلغضبى منه رضا عنه : ما دمت قد وعيتالحديث ، فقد عرفت ــ اذن ــ ماذا عليك أن تفعل الآن ٠ فاذهب أيها الغبى وعجل بالجرة ٠٠٠

قال مراوغا : الجرار أنواع يا ســـيدى ، فأيها تريد ؟! أمن طين أم حجر ؟! ومنقوشة أم من غير نقش ؟! وطويلة أم قصيرة ؟! وواسعة أم ضيقة ؟!٠٠

فتناولت عصاى وهويت بها على ظهره فى غير شدة ، فقد كنت غير حانق بالقدر الذى يدعو الى ايجاعه،وقلت له : الوقت أضيق منأنيتسع لهذه المخابثة ، وانك لتعرف من الأمر ما فيه الكفاية ، فآتنا بأول جرة تقع يدك عليها ، ومن أى نوع تكون ، فانها مؤدية الغرض المنشود ٠٠٠

قال « كابتاح » : سآتيك بها !٠٠ ولكنى أحب أن تعيد النظر فى هــذا الأمر الهام ، فليس ثمة شىء هو أكثر أهمية وخطرا من كسر جرة بين رجل وامرأة ، ولهذا ينبغى ألا تقدم عليه من غير أناة وتقليب رأى ٠٠

وقبل أن يتلقى منى ضربة أخرى على رأسه خرج مسرعا وعاد بعد قليل ومعه جرة زيت لا تزال بها بقية من رائحة السمك ، فكسرناهـــا بيننا ، أنا و « مينيا » وتم بها ميثاق زواجنا ، وكان « كابتاح » هـــو شاهد هذا الزواج ٠ وقد ارتمى على قدم « مينيا » ووضعها على عنقـــه قائلا : منذ هذه اللحظة أنتسيدتى ، ولك مثل ما لسيدى من حقاصدار الاوامر لى ، أنا خادمكما المطيع ، على أن لى عندك رجاء ، هو ألا تصبى الماء الساخن على قدمى عندما تكونين غاضبة ، وألا تنتعلى من الاحذية الا الخفيف المنبسط ، فلشد ما أكره فى أقدام السيدات الاحـــذية ذوات الكعوب فانها تحدث فى رأسى كدمات مؤلمة اذا ما بدا لك يوما أن تجربى ذلك !٠٠ وثقى أن قلبى أصبح ينطوى على الاخلاص فى خدمتك ، تماما كاخلاصى فى خدمة سيدى ٠ والاخلاص يشفع فى الخطأ ان وقع ، ويغتفر الذنب ان حدث ، حتى لو كان فى صورة السرقة ، فذلك محتمل بين الخادم والمخدوم !٠٠ ثم انى ــ لسبب لا أتبينه ــ أشعر بأن قلبى قد تعلق بك على ما فيك من نحافة وضمور صدر ، فلا شك أن سيدى بالرغم من هذا قد وجد فيك محاسن كثيرة أخرى تعلو على النحافة والضمور ، حتى ليخر هكذا ساجدا فى محراب حبك !٠٠

كان «كابتاح» يمزح بهذه العبارات ، ولكنه كان كذلك بادى البهجة، وقد بلغ من تأثره بالموقف أنه كان يضحك ويبكى فى وقت واحد · فاقبلت عليه « مينيا » وأدارت يدها على رأسه وخديه لترفه عنه · وعندما هدأ ، أشرت اليه أن يرفع القطع المتناثرة من الحرة ، فجمعها ومضى بها الى خارج الحجرة ، وخلوت الى «مينيا» بعد ذلك حيث قضينا الليل معا · وقد نامت الى جوارى وذراعاى يحتويانها ، وأنفاسها مسترسلة فى نومها الهادىء كأنها نفح الزهر المعطار ، وشعرها مسدل على وجهها كأنه الحارس الذى يذود عن جمالها الباهر · وفى الواقع لم أحاول ، وقد صرت زوجها ، أن يكون بينى وبينها فى تلك الليلة ما يكون بين الرجل وزوجته ، فقد كنت أحس أن هذا يغضبها الآن ، فتركته الى أوانه ، قانعا بها الى جانبى ، سعيدا بشعورى أنها أصبحت لى وحدى ·

وعلى كثرة ما تردد فى نفسى من المشاعر فى هذه الليلة الجميلة التى لم يغمض لى فيها جفن ، فان ثمة شعورا كان أقوى من هذه المشاعر جميعا وأشدها سيطرة على نفسى ، ذلك هو الشعور بالخير والرحمة فى أوسع معانيها ، فكل رجل ، بعد ذلك عندى ، أخى ، وكل امرأة ، أمى أو أختى ·· ولا يختلف هذا الشعور باختـــلاف المكان أو الاقليم ، فالارض السوداء والارض الحمراء ، فيه سواء · «فمينيا» ـ اذن ـ قد أحالتنى انسانا ليس فى نفسه أو قلبه أثر من الشر ·

- ٤ -

وفى اليوم التالى انعقدت مرة ثانية حلبة الرقص أمام الثيران · وكان على «مينيا» أن تلعب دورها هناك ، وقد تزايد خوفى عليها حينما رأيت الناس يتجمعون على هذه المممة ويتكاثر المتحمسون للرهان فيها أكثر من ذى قبل ، فقد حمى وطيس الرقص وافتن اللاعبون فى اظهـــار أقصى ما لديهم من مقدرة وبراعة ، وسقط شاب من رفاق « مينيا » ومن مهرة اللاعبين ، منزلقا من فوق جبهة الثور الذى كان يراقصه ، فبقر الثور بطنه وخاض بحوافره فى أحشائه ، فهب النظارة جميعا مذعورين لشناعة الحادث · ولكن عندما أخرج الثـــور من الملعب ، وحملت جثة الراقص الصريع الى احدى الحظائر ، لم يتبعه الى هناك غير السيدات ، وكن فى غمر من الاسف والحزن عليه ، وقد لمسن أطرافه بأيديهن اعرابا عن شعورهن الحزين المتفجع ، فى حين بقى الرجال فى أماكنهم بالملعب يتابعون الرقص والرهان عليه ، وقد نسوا الحادث فلم يعـودوا يتحدثون الا عن

هذه المسابقة البارعة التى مضى وقت طويل عليهم لم يروا فيه مثلها ٠ وكان طبيعيا أن يتمثل لى فى هذا الموقف ، اختلاف ما بين الرجال والنساء فى ميزان العواطف ! ٠٠

وقد انتهى السباق دون أن تصاب «مينيا» بما كنت أخاف عليها منه ، فأراح هذا قلبى ، وعدت الى الفندق وحدى ، لأنها لم تكن تستطيع أن ترافقنى كما لم تكن تستطيع أن توافينى بعد ذلك ٠ وهكذا تفرق الجمع الحاشد ، فمضى الرجال الى بيوتهم ليقضوا فيها ليلة ساهرة زاخرة باللهو وشراب النبيذ ، احتفالا بما شهدوا من روائع الرقص وبما أصابوا من ربح الرهان ، ومضت زوجاتهم الى بيوت أخرى غير بيوتهن ليقضين ليلهن فيها بعيدات عن أزواجهن الذين لا يتحرجون من ذلك ، فقد كان هذا تقليدا متبعا عندهم ! ٠٠

وكنت أنا الوحيد الذى قضى هذه الليلة مسهدا مشغولا « بمينيا » التى ستفارقنى فراقا غامضا بعد قليل ٠

فلما تنفس الصباح ، خرجت فاستأجرت محفة من الميناء وذهبت بها الى حيث يبدأ الاحتفال بتوديع «مينيا» فى رحلتها الى الهها ، فقد قررت أن أتبعها الى آخر الطريق ٠

وهنالك رأيت «مينيا» محمولة على عربة مذهبة تجرها جياد مزينة بالريش ، ومن ورائها جمع كبير من أصدقائها ، بعضهم محمول على محفات ، وآخرون يسيرون على أقدامهم ، وجميعهم يشربون النبيذ ويمرحون ضاحكين مهللين وينثرون على عربتها الزهور والرياحين ٠ وكان الطريق طويلا ، ولكنهم لم يملوا السير فيه فقد تزودوا له ، واستعانوا عليه بالمرح والابتهاج ، وكلما لفحتهم الشمس بحرارتها المتقدة مالوا على الاشجار فانتزعوا فروعها المورقة ، وجعلوا منها ظللا فوق رءوسهم ، وكان موكبهم فى صخبه وضجته مثيرا لقطعان الاغنام التى كانوا يمرون بها ، فكانت تتفرق محفلة هاربة !٠٠

وعندما استشرفوا مكانا قفرا فى سفح جبل قريب من شاطىء البحر ، أخذت الاصوات الصاخبة فى الخفوت حتى كادت تكون همسا ، فقد كان بيت الاله فى هذا المكان ، وهو يشبه تلا منخفضا تتكاثر عليه الحشائش والازهار النامية ، ويتصل بالجبل اتصالا مباشرا ، وعلى مدخله أبواب من نحاس مغلقة شاهقة الارتفاع وعلى مقربة منه معبد صغير تقام فيه مراسم التدشين ويقوم عليه حراس ورقباء ٠٠

وهنا ترك أصدقاء « مينيا » محفـــاتهم وافترشوا الارض المكسوة بالحشائش وراحوا يأكلون ويشربون ويلاعب بعضهم بعضا ، العابا ذوات حيلة ومخادعة اسرافا فى التسلية ، ناسين قداسة المكان الذى كان قد ظهر عليهم منذ لحظة أنهم أكبروه • وهكذا أهل «كريت» لا يستقرون على حال ، وهم أشد ميلا الى المرح والسرور !•• فلما أقبل الليـــل أضاءوا المشاعل التى بدت شاحبة فى نور القمر ، واسترسلوا فيما هم فيه من لهو ومجانة ، وكانت حركاتهم وأصوات ضحكاتهم ترن رنينا قويا بعيد المدى وسط سكون الليل •

ولكن « مينيا » كانت تجلس منفردة بالمعبد ، فما يستطيع أحد الاقتراب منها هناك ، وكانت فى ردائها الذهبى كتمثال مقدس ، وكان نظرى لا يتحول عنها ولا يطرف دونها ، كما كان ذهنى كذلك لا ينصرف الى شىء سواها ، وقد رأيتها تحاول أن تبتسم لى ولكن ابتسامتها كانت تلوح على ثغرها مشوبة بالكآبة ..

وما ان ارتفع القمر مستديرا ، حتى أحاطوا بها ونضوا عنهـــا جواهرها وحليها الذهبية ، والبســـوها ثوبا عاديا بسيطا ، ثم غطوا شعرها بشبكة فضية ، وشد الحراس ، متجمعين فى قوة مشحوذة ، مصاريع الأبواب النحاسية الوثيقة فكان لانفتاحها قعقعة داوية ، وخلال السكون العميق الذى ران على المعبد ، ظهر « مينوتوروس » متمنطقا بحزام ذهبى يتدلى منه سيف ، وقد تغطى رأسه ووجهه برأس الثور المذهب ، وبذلك تنكرت فيه صورة الانسان ، ومن ثم تقدم الى « مينيا » وكانوا قد وضعوا فى يدها مشعلا مضيئا ، فقـــادها الى داخل البيت المظلم ، وفيه اختفيا معا عن الأنظار ، وحتى المشعل نفسه لم نعد نرى شعاعا من ضوئه • وبعد هــذا أغلقت الأبواب فى صرير شديد ، وأحـكم ارتاجها بالقضبان التى احتاجت ، لضخامتها وثقلها ، جهد عدة رجال أشداء ، وكان ذلك اعلانا بأنه قد حيل بينى وبين « مينيا » ، فلن أراها أو أرى أثرا لها مادامت فى هـــذا المكان الســحيق المجهول المصير ، فاحسســت كأن خنجرا قد اخترق قلبى وأدماه ، وأقعيت على ركبتى خافضا رأسى على الأرض ، فى أسى مرير ويأس طاغ . وبينما كان فتيات « كريت » وشبانهـــا يمرون أمامى والمشـــاعل بأيديهم وهم يرقصون رقصات معقدة ويرتلون أغنيات غريبـــة على أذنى ، ويتراكضون كأنما أصابهم مس ، كنت أعانى ، بمعزل منهم ، قسوة الشعور بأنى فقــدت « مينيا » الى الأبد ، ومعنى ذلك أنى قــد فقدت معها حيــاتى ، فلا حياة

لى بدونها . وكنت ، قبل أن أراها تتوارى خلف ابواب بيت الاله ، أتعلل بالأمل فى أنها ستعود ثانية ، على ماشاءت أن تقرره فىخاطرى من رغبتها فى ذلك وثقتها بأن الهها مسماح عطوف وأنه سـيأذن بعودتها الى من تحب ، ولكننى ، بعد ، قد زايلنى هذا الأمل ، فما أراها الا قد انتقلت الى عالم غير عالمنا ، حيث لا لقاء بيننا على هذه الأرض .

كان « كابتاح » الى جانبى ينشج بالبكاء منفعلا بما يرانى عليه من سوء الحال ، وفجأة كف عن بكائه ليقول : لقد رأيت الآن شيئا أعتقد أن عينى لا تكذبنى فيه ، فانى لم اشرب اليوم نبيذا بالقدر الذى يموه المرئيات فى نظرى . لقد رايت رأس ثور يخـرج الى الجبل صاعدا من بيت الاله ، ولا أدرى كيف كان ذلك ، فالأبواب ما زالت على حالهـا من الايصاد المحكم ؟ ! . .

ونظرت الى حيث يشير « كابتاح » ، فرأيت « مينو توروس » مشتركا مع الآخرين فى رقصاتهم التى تقضى بهـا الطقوس الدينية فى هذه المناسبة ، وكان راس الثور الذهبى الذى يضعه على راسه ووجهه ينعكس عليه ضوء القمر فيزيده سطوعا ، فقفزت اليه من مكانى فى حركة سريعة غير واعية ، ، وامسكت باكمامه وسألته فى لهفة وانفعال : أين « مينيا » ؟ ! . .

فدفع يدى عنه ، ولكنى لم أترك موضعى منه ، متشبثا بمساءلته عن « مينيا » التى دخل معها البيت المظلم وعاد بدونها !. . فرفع القناع التنكرى عن وجهه وقال مغضبا : انك يا هذا تفسد الطقوس الدينية وتمس قداستها ، وهو اجتراء محظور لا يؤذن به قط لانسان ، ولكنك اجنبى عنا لا تفهم هذا ، وانى لذلك اغفر لك هذه الزلة ، على الا تعود لمثلها مرة اخرى . . .

وكأنى لم أسمع منه شيئا ، فأعدت عليه السؤال الأول نفسه : أين « مينيا » ؟ ! .

قال : وما سؤالك عنها وقد رايتها منذ قليل تأوى الى بيت الاله ؟! انها هناك سعيدة هانئة ، وقد عدت أنا لأؤدى واجبى فى اقامة الطقوس الدينية المقدسة ، ولا غرابة فى أن تبقى هى الى جوار الهها ، كما لا غرابة فى أن أعود لمباشرة اعمالى !. . على أن الغريب حقا أن تقحم انت نفسك على هذه الفتاة التى خلصت للاله ، وانتهت الى حظيرته ، وامتنعت على من سواه ، وأنت الغريب الطارىء على حياتها ! . . الأنك ساعدتها فى

العودة الى وطنها ؟ ! هذا بلا ريب كان عملا حسنا منك ، وقد كوفئت بالشكر عليه ، وهذا حسبك !..

فأثارنى بهذه العبارات اللامزة ، وفى لندفاع وغضب قلت له : أو لست كبير الكهنة لهذا الاله وأوثقهم صلة به ، فكيف جاز لك أن تدخل اليه مع « مينيا » ثم تخرج وحدك بدونها ؟ ! لماذا تدعها هناك نهب الظلمة ووحشة الانفراد ؟ ! ..

قلت هذا وأنا أمسك بتلابيبه ، وهو يدفعنى بيـــديه ، وتدخل الراقصون ليفرقوا بيننا ، وشدنى « كابتاح » من ذراعى وأخذ يجرنى حتى أبعدنى عنه ، وقال لى : انك لا تدرى ماذا يمكن أن يحدث لنـــا من سوء بهذا الشغب ، وخاصة حين يكون الأمر متعلقا بفتاة الاله وكبير كهنته ، وانه لمن الخطأ أن تلفت لك الأنظار هكذا ! .. وكان خيرا من هذا وافضل أن تخفى عواطفك فى ذات نفسك وان تصطنع الاندماج فى الآخرين فترقص معهم وتغنى مثلهم ، اجتنابا للظنون وسوء العاقبة .. وارجو أن تكون قد أفقت الآن من هذه الفشية العارضة ، لتعلم ماكان خافيا من سر خروج هذا الكاهن الكبير من بيت الاله دون أن ينتبه اليه أحد !.. لقد عنيت أنا باستجلاء هـــذا السر فتسللت من وراء ظهوركم الى هناك ، وعرفت أنه خــرج من باب صغير ملحق بالأبواب النحاسية ، وقد رايت الحارس يغلقه بعد خروجه ويخفى مفتاحه معه . ويبقى بعد هذا أن نشرب يا سيدى نبيذا ، وتسترد أعصابك المتلاشية، فوجهك شديد التجهم وعيناك قلقتان كعينى البومة ! ..

وناولنى « كابتاح » نبيذا فشربت ، وفى ضوء القمر مترقرقا فى أضواء المشاعل اخذتنى غفوة على الحشائش ، استغرقت منها فى نوم عميق . وكان « كابتاح » قد خالسنى فخلط النبيذ بعصير الخشخاش، لا ليثأر لنفسه مما كنت قد فعلته به ونحن فى « بابل » ، حينما وضعته مخمورا فى جـــرة ، بل ليقصـــينى عما رآنى مستهدفا له فى ملاحاة « مينو توروس » . ولعله بذلك قد انقذ حياتى ، فما كان مســـتغربا منى فى ثورة يأسى وغضبى أنأغمد سلاحى فىعنق ذلك الرجلوأذبحه ، وعندئذ تكون الكارثة ! ..

وقام « كابتاح » على حراستى ، بعد أن سدل على جسمى غطاء ليذود عنى أقدام الراقصين ، فى حين ظل هو يجرع النبيذ من الجرة حتى أتى على كل ما فيها .

واستيقظت فى مطلع الصبح وما أزال متأثرا بفعل الشراب المخدر الذى كان قويا ، حتى انى لم أتبين أول الأمر أين أنا ! .. وشيئا فشيئا تذكرت ما حدث وحمدت « لكابتاح » ما صنع .

وكان كثير ممن اشتركوا بالأمس فى الموكب قد عادوا الى المدينة ، والذين بقوا منهم ما زالوا نياما تحت الأشجار ، وكانوا خليطا من رجال ونساء ، وقد بدا عليهم انهم شربوا كثيرا اذ كانت أجسامهم عارية ، واوضاع نومهم غير رتيبة . فلما استيقظوا ارتدوا ملابس جديدة ونسق السيدات شعورهن المشعثة ، وكان من عادتهن الاستحمام صباحا ، ولكنهن لا يستطعن ذلك لأن المياه فى مجراها القريب كانت من البرودة بحيث لا تطيقها أجسامهن التى ألفت الماء الساخن من أفواه الصنابير الفضية ، فاكتفين من هذا الماء البارد بالقليل يحملنه بالأيدى الى افواههن ينظفن به الحلوق والأسنان ، ثم رحن يزججن حواجبهن ويدلكن وجوههن وشفاههن بالادهنة تجميلا وزينة ..

واخذ هؤلاء وأولئك يتساءلون عمن سينقلب منهم الى المدينة ومن سيبقى فى هذا المكان انتظارا لعودة « مينيا » ! . فأما الذين اجهدتهم الرحلة وحركة الرقص وعربدة الشراب ، فقد اخذوا وجوههم الى المدينة ، وأما الفتيان والشابات فقد اختاروا البقاء بدعوى انتظار « مينيا » ، ولكنهم فى الواقع كانوا يريدون الافتنان فى لهوهم وعبثهم ، والاستزادة من متعة اجتماعهم فى ذلك الموضع النائى البعيد عن الأعين ... وكان النسوة أشد اغتباطا بذلك اذ يفرغن لهواهن بعيدات عن أهليهن ! .. وهنا فطنت لماذا لا توجد بيوت مباذل خاصة فى مدينة « كريت » الا فى حى « الميناء » ، وهو منها حى الأجانب !..

ورأيت « مينو توروس » يتأهب لمغادرة المكان ، فدنوت منه وقلت له فى تجمل ولطف عبارة : أيأذن لى سيدى فى أن أبقى هنا مع أصدقاء « مينيا » هؤلاء انتظارا لعودتها ؟! ..

قال ، وهو يكتم غيظه : انك تنتظر عبثا ، فالذين وهبوا انفسهم لهذا البيت المقدس لا يبرحونه ، ومن الخير لك أن تعود الى وطنك « مصر » ، وانى لأعلم أن سفينة ترسو الآن فى الميناء ، ففى وسعك الابحار عليها ! ..

قلت له فى سذاجة مصطنعة : الحقيقة ، يا سيدى ، أننى أحببت « مينيا » حبا ليس كمثله حب فى الوجود ، فان كان قد قضى على أن

أكون منها محروما الى الأبد ، فلا أقل من أن أتلمس بعض العزاء فى وجودى قريبا منها ، وماذا لو بقيت هنا كهـــؤلاء الآخرين الذين يتخذون من الأمل فى عودتها سببا فى بقائهم ؟! ألا ترى ، ياسيدى ، أن وجودى بين هؤلاء الفتيات والسيدات الجميلات ، خليق أن تتبدد به عواطفى المتلظية بوقدة الحب والحرمان ؟!.. أنهن ، مجتمعات ، لا ينزلن من قلبى منزلة « مينيا » ولا ينسيننى شيئا من ذكراها ، ولكننى اطمع فى أن أتخيلها ماثلة فى عين من عيونهن ، أو فى حديث مع احداهن ، بل لقد أتخيلها ، كما يتخيلنها ، عائدة من لدن الهها ، مأذونا لها بذلك منه ، رحمة بنا واشفاقا علينا ...

وكنت أقول له هذا ، متملقا مشاعره ليرخص لى فى البقاء ، فانى غريب ، وشـــأنى فى البقاء هنا جد مختلف عن الآخرين ، وهم من أبناء « كريت » ، فلا يجوز لى أن أبقى بغير اذنه ، وخاصة بعد الذى شجر بينى وبينه . وقد رأيت أن أترضاه معتـــذرا عما بدر منى بالأمس ، فقلت له : أرجو أن تغفر لى ، يا سيدى ، ما فعلته البارحة فى غير وعى ولا تدبر ، فقد كنت ثملا أكثر مما تعودت ، ولم أدر شيئا مما حدث الا اليوم ، فأسفت لذلك أسفا شديدا ...

فربت « مينو توروس » على كتفى مبتسما ، وقال : اذا كان الأمر كذلك ، فانى أراك غير مسئول عن خطيئتك ، وحبذا لو اقتصدت فى شراب النبيذ ، ولست بمانعك من البقاء هنا مســتمتعا بالأمل والخيال وبما شئت من مخالطة النساء ، فنحن فى « كريت » لا نحرم انسانا متعته لاننا لسنا ـ كغيرنا ـ قصار نظر ! ..

فشكرته على هذا ، وتركنى موليا وجهه شطر المدينة ، ولكننى لم اثق فى سلامة طويته ، وقد شعرت بأنه أوصى الحارس بالتشديد فى مراقبتى ، كما أوصى بذلك « الكريتيين » الباقين معى ، فهؤلاء ما كاد «مينو توروس » يغادرهم حتى احاطوا بى جميعا ووضعوا عقود الزهور حول عنقى وأطالوا النظر فى وجهى ، وأقبلت السيدات فترامين على صدرى وبين ذراعى ، وأظهرن من الخـــلاعة ضروبا قوية الاثارة . وفى هذا الجو الطافح باللهو والحماقات ، استــرسلت مع هـــذا الجمع ، وتقلبت واياهم فيما شاءوا من طعام وشراب ، حتى ثملت ثملا شـــديدا كاد يعكر ما هم فيه من صفو وهناءة ، فأخذوا يضـــيقون بى ذرعا ، ويصبون على اللعنات ، ويصفوننى بأنى انســـان بدائى متوحش ... وهنا تدخل « كابتاح » متظاهرا بالضجر منى ، لارضائهم ، وجرنى من

ذراعى ليبعدنى عنهم ، ثم عرض عليهم ان ياخذ مكانى بينهم ليفاكههم ويسليهم ، ولكنهم لم يستطيبوا منظره ، وسخر شبانهم منه ، مشيرين الى رأسه الأصلع ، وكرشه المتدلى ، وعينه العوراء ... غير أنه كان غريبا عن بلادهم ، وهم — وخاصة نساؤهم — يستهويهم كل ما هو غريب ، فكيف به اذا كان انسانا مسخا على مثال « كابتاح » ، فانهم عندئذ يتلهون به فى غير حرج ، فأجازوا له الانضمام الى جماعتهم ، متضاحكين منه ، وقد جرى معهم فى ذلك الى أبعد الحدود ، فقد كان كل شىء من تصرفاته وعباراته ، يعطيهم أكثر مما قدروا من المرح والفكاهة ...

وعلى هذا النحو من اللهو والمجون ، انقضى اليوم وجاء الليل بعده ، فلم يهدأوا اذ مضوا على هذه الحال نفسها اسرافا فى الشراب ، واسرافا فى اللهو . وكانت النساء أكثر صخبا ، فصياحهن لا ينقطع ، وهن يتنقلن هنا وهناك خفيفات ، مصطنعات الهرب من الشبان ، اغراء لهم واثارة لمشاعرهم . على أنهم فى صباح اليوم التالى لم يستطيعوا الاسترسال فى ذلك ، فقد نال منهم الاجهاد والسهر المتصل ، واحسوا بالملالة وفقدان الشهية ، واشتدت بهم الرغبة فى الاستحمام الذى لم يكن ميسورا لهم فى هذا المكان ، ولهذا عاد أكثرهم الى المدينة فى ذلك اليوم . ولم يبق منهم الا الفتية الأشداء الأكثر احتمالا . ولكن هؤلاء الفتية استنفدوا طاقتهم ، وتجشأوا كل شهواتهم عند مطلع اليوم الثالث فولوا وجوههم شطر المدينة ، وكنت قد برمت بهم جميعا ، فعرضت المحفة التى كانت تنتظرنى ، على المكدودين منهم الذين لايقوون على السير ، مخافة أن يمنعهم ذلك من العودة ، لأبقى وحدى خاليا الى نفسى والى الغرض الذى جئت من أجله .

وبعد انصرافهم ، عنيت باستمالة الحراس الذين لم يبق سواهم، فقدمت اليهم جرة من نبيذ ، فتقبلوها مغتبطين ، اذ كانوا يعانون من الوحدة فى هذا المكان الخالى من أية تسلية ، ولم ينكروا منى سوى أنى تخلفت هنا عن قافلة الراحلين ، مؤملا ان تعود « مينيا » ، وهو أمل مستحيل التحقيق ، ولكنهم عللوا ذلك بانى غريب ابله ، فأغضوا عن بقائى ، وأخذوا يتساقون النبيذ فى ابتهاج .

ولم يكن الكاهن المقيم هناك باقل منهم ارتيابا فى سلامة عقلى ، واستغرابا لانتظارى الفتاة التى لن تعود . وهنا قلت « لكابتاح » : انه

لا سبيل لنا الا الرحيل استسلاما لقضاء الآلهة ، فليس ثمة من جدوى في بقائنا ترقبا لعودة « مينيا » ولكنني مع ذلك لا أستطيع مغادرة هذا المكان مهما تكن العاقبة ، واظن انى سأظل هنا حتى الموت ، فسأحاول البحث عن « مينيا » فى أعماق هذا البيت المظلم وهى محاولة محفوفة بأشد الأخطار ، ولكنى سأبقى رهين الظروف ، ولا أرى الا أن ترحل أنت عائدا الى سوريا ، فما ينبغى أن اربطك بالمصير الذى رسمته لنفسي، وقدكتبت لك لوحا طينيا وقعت عليه بخاتمى السورى لتسحب به نقودى من بيوت التجارة ، ولك ــ ان شئت ــ ان تبيع منزلى هناك ، وأنت حر بعد هذا فى غدوك ورواحك ، واذا رأيت الا تعود الى « مصر » خوفا من القبض عليك باعتبارك رقيقا هاربا ، ففى مستطاعك أن تقيم فى « أزمير » وأن تعيش بما يجتمع لك من نقودى . ولن أوصيك بشىء لتحنيط جسمى اذا مت ، فاننى ان لم أجد « مينيا » لا يعنينى أن يكون جسمى محفوظا أو مهملا ، فاذهب اذن ، ودعنى لشأنى ، ولعل بركة « الجعران المقدس » لا تتخلى عنك .

ولكن « كابتاح » لبث صامتا مطرقا لفترة طويلة ، وأخيرا رفع وجهه ليقول : انى كما تعلم ، خادمك المخلص ، ولم أشعر مرة بالحقد عليك حتى حينما كنت تضربنى ضربا قاسيا موجعا ، فدائما كنت أعتقد انك تفعل هذا عن سلامة نية ، وفى كثير من المشكلات كنت تستشيرنى وتستمع لمشورتى ايمانا منك باخلاصى . ومشكلة اليوم لاتخصك وحدك، لأنها مشكلة « مينيا » وانت تعلم أنى وضعت قدمها فوق رأسى تقريرا لسيادتها على ، فأنا مسئول عنها كخادم لها ، وقد وضحت نيتك فى دخول هذا البيت المظلم بحثا عن « مينيا » ، وهذه مخاطرة لن ادعك تنفرد بها . وعلى هذا فسأظل رفيقك حيث تمضى ، وقد تنفعنا بركة « الجعران المقدس » وان كنت انت لا تؤمن به كثيرا ، وخاصة فى هذه المشكلة التى اراها كذلك فوق قوى الجعارين المقدسة !..

وكانت عبارات « كابتاح » تتسم بالحزن وهدوء التفكير على نحو لم أعهده فيه من قبل ، فلم يكن يتخللها كالعادة شىء من الصراخ وطيش الحركة . ولا شك فى انه كان صادقا فى عواطفه وفى تصميمه . ولكنى ــ من وجهة نظرى ــ كنت ارى من الحمق أن يبحث اثنان عن الموت ، فى حين يكفى أحدهما لذلك . ولهذا رغبت اليه مرة اخرى فى أن يدعنى وحدى ، ولكنه قال لى فى إصرار وعناد : اذا لم تأذن لى بمرافقتك ، فانى سأتبعك مخالفا رأيك ، فمن الأفضل أن توافقنى ، فرجلان اقوى

من رجل واحد ، وأربعـــة أقدام خير من قدمين ٠٠٠ ولا يغيبن عنك أن هذا البيت المظلم مخيف مرعب وسنحتاج فى سبيل اقتحامه الى مايشد أعصابنا ويزيل مخاوفنا ، ولا يكلفك هذا أكثر من أن تسمح لى بحمل جرة من النبيذ ، فان جرعات منها أثناء الطريق تكفى ، بالنسبة لى على الأقل ، لمواجهة الأخطار فى شجاعة واقدام ! ..

فقلت له ، منهيا هذه المناقشة : كفاك ثرثرة . وهات النبيذ كما تريد ، ولنبدأ العمل من الساعة ، والفرصـــة فيما أرى ســـانحة ، فالحراس مستغرقون الآن فى نوم عميق بتأثير المواد المخدرة التى خلطت بها النبيذ الذى شربوه .

وكان الحراس ، كما كان الكاهن ، نياما كالموتى فى تلك اللحظة . فتسللت الى بيت الكاهن ، وفى عجل تناولت المفتاح من الموضع الذى دلنى عليه « كابتاح » ، ثم حملنا طبقا عليه جذوة من نار ، كما حملنا مشعلا لم نر اذ ذاك حاجة الى اشعاله لأن القمر كان ساطعا ، وكان من السهل علينا بعد ذلك أن تدير المفتاح بالباب الصـغير فينفتح ، ومنـه دلفنا الى بيت الاله بعد أن أحكمنـــا اغلاقه ٠ وفى خلال الظلام الحالك كنت أسمع صوت أسنان « كابتاح » وهى تصطك ارتجافا على فوهة جرة النبيذ !٠٠

— ٥ —

وقال لى « كابتاح » فى صـوت خافت مرتعش : ان الظلمة هنا كظلمــة القبور ، بل هى أشد منها تراكمـا وانطباقا ، وما نستطيع أن نخطو فيها خطوة دون أن نضـل أو نتعثر ، وما دمنـا قد دخلنا فيهـا بمحض اختيارنا ، فلا بد لنا من أن نستهدى بهذا المشعل ، فلنضـئه ياسيدى ، ولا خوف من ذلك فان ضوءه لن يظهر لمن فى الخارج .

وكان رأيه هو الوسـيلة الوحيدة لمتابعة السير فى هذه المتاهة المخيفة ، فنفخت فى جذوة النار وأضأت منها المشـعل ٠ وهنـا رأيت أننا فى سرداب كبير اغلق مدخله بالأبواب النحاسية ، ومن قبو هذا السرداب تتفرع عشر طرق مختلفة الاتجاهات يفصل كلا منها عن الآخر حائط سميك من الطوب ، ولم أستغرب هذا ، فقد سمعت من قبل أن اله « كريت » يقيم فى « بربى » ! ٠٠ وكان كهنة بلاد ما بين النهرين

يقولون لى ان « البربى » تقام على شكل احشـــاء حيوانات القرابين ، واستنادا الى هذه الفكرة بدا لى أنه من الممكن التعرف على طريقنا وسط هذا الأخطبوط المتشابك ، فانى كثيرا ما شاهدت احشاء الثيران التى كانت تقدم قربانا للآلهة ، ومن ثم اخترت ممرا يقع فى أحد الجوانب ، وقلت : فلنسر من هذا الطريق .. ولكن « كابتاح » قال : اظن أن التأنى والحيطة أجدى علينا من العجلة ، وقد لا نخسر شيئا اذا تجنبنا السير على غير هدى ، والرأى الصواب أن نفكر بحذر وانتباه فى طريق عودتنا اذا كان مقدرا لنا أن نعود ... وأخرج من جيبه كرة ملفوفا عليها خيط طويل ، وثبت طرفها على قطعة من العظام كالمسمار ودسها فى فراغ بين طوبتين ، وكانت الفكرة على بساطتها بارعة فى ذاك الوقت ولكنها لم تخطر لى ببال ، وقد استحسنتها دون أن أشعره بذلك حتى لا أنبه غروره !..

وفى الطريق الذى اخترناه أخذنا نســـير فى غمر من الحـــيرة والاضطراب ، فلســـنا ندرى مصـــيرنا خلال ما يطبق علينا فيه من ظلمات قاتمة ، وكان يواجهنا احيانا حائط معترض ، فنميل عنـــه الى طريق آخر من الطرق المفتوحة ...

وبعد أن قطعنا شوطا على هذه الحال ، توقف « كابتاح » وهو يقول فى كثير من القلق : ما هذه الرائحة الكريهة ؟! ألا تشمها ياسيدى؟! ان أنفى يكاد يثب من وجهى هربا منها - انها رائحة الثيران ! .

وفى اللحظة نفسها كنت مثله أشم هذه الرائحة المتطايرة علينـــا من الجدران وهى كرائحة الثيران بل أشـــد منهـــا نتنا ، فكأنما المكان كله حظيرة لمجموعة من هـــذا الحيوان ، ولكننى لم أر فيها سببا يدعو الى التوقف ، فأمرت « كابتاح » بمتابعة السير ، فرشف رشفة من جرة النبيذ مستجمعا بها نشاطه وأخذنا نستحث الخطى ، ولكن قدمى تعثرت بعد قليل فى شىء لم أتبينه ، فانحنيت لأراه ، فاذا به جمجمة لسيدة كان شعر الراس لا يزال لاصقا بها ، وهنا أصابنى فزع شديد ، فقد أدركت فيما يشبه اليقين انى لن أرى « مينيا » حية بعد ... وكان هذا مثيرا لرغبتى الجنونيـــة فى الاسراع لاكتشـــاف ما وراء ذلك من شر مجهول ... فمضينا قدما وأنا ألطم « كابتاح » ليوسع خطاه ويمتنع عن الشكوى التى كان لا يفتأ يرددها متثرثرا ..

ومرة أخرى توقف « كابتاح » وهو يشـــير الى الارض مذهولا متجهم الوجه فنظرت الى حيث يشـــير ، فرأيت روثا جافا يعلو الأرض

ويرتفع عنها كما لو كان تلا فى مثل طول الرجل الفـاره ، وانه ـ كما يبدو ـ روث ثور ! ٠٠ ولكن كيف يكون هذا الثور واحدا ؟! ٠٠ انه اذن لثور تفوق ضخامته تصور أى انسان ! ٠٠ ولم يكن « كابتاح » بأقل دهشة واستغرابا ، فقال : انه من المستحيل أن يكون هذا روث ثور ، ذلك لأن الثور لا يمكن أن يسير فى مثل هذا الممر ، وأغلب ظنى أنها تجشؤ ثعبان فظيع تكاثر هكذا على مدى السنين الطوال ٠٠٠

وتمثلت هذا صحيحا ، فمن الجائز أن تكون هذه « البربى » قد صنعت لانسياب ذلك الثعبان الذى تخيله « كابتاح » ، وتحت تأثير هذا الخاطر نشأت عندى نية العودة ، ولكن رغبتى فى البحث عن « مينيا » جاشت فى نفسى هى الاخرى ، وكانت أقوى تأثيرا وأشد دفعا ، فتقدمت مدفوعا بها الى الامام ، ممسكا « بكابتاح » لأجره ورائى ٠ وقد أخرجت سكينى وأشهرتها فى يدى المبتلة بالعرق المتفصد ، استعدادا لملاقاة الخطر المتوقع ، وان كان الموقف ـ على ما شعرت به حينئذ ـ أكبر من أن تجدى فيه مشافر السيوف والسكاكين ٠٠٠

وكنا كلما تقدمنا فى السير ازدادت الرائحة الكريهة انبعاثا وشدة حتى كدنا نختنق لفرط خبثها وتعفنها ، ولكننى برغم هذا كنت أشعر أننا نقترب من الهدف ، فتابعنا السير فى غير تلبث الى أن لاح لنا من بعيد شعاع ضوء شاحب يتساقط على الممرات ، فرأينا اذ ذاك أننا صرنا فى ثنايا الجبل ، فقد ظهرت لنا الحوائط من الحجر لا من الطوب ، وأخذنا بعد ذلك نتعثر فى عظام أجسام بشرية وأكوام من الروث ، وانحدر بنا الطريق حتى استشرفنا مغارة كبيرة ، فوقفنا هنالك على صخرة ناتئة كانت جزءا من سلسلة صخور بارزة فى مياه البحر ٠

وكان الضوء ينعكس من البحر على هذه المغارة ، وهو ضوء باهت غريب يتلون بالخضرة ، ولكنه كان يكفينا لنرى ما حولنا ، وقد رأينا على سطح هذا البحر الذى كنا نسمع تلاطم أمواجه ، شيئا ذا ضخامة ملحوظة يترنح عائما فى الماء ، وقد تخيلناه أول الامر صفا متلاصقا من الأكياس الجلدية ، ولكننا بعد انعام النظر اكتشفنا أنه حيوان هائل ميت !٠٠ وقد روعنا لضخامته التى قلما يقع مثلها فى خيالنا ٠ ولم أشك فى أن الرائحة الكريهة التى ضقنا بشمها كانت تنبعث من هذه الجثة المتعفنة ، وكان رأسها متواريا فى الماء ، ولكننى تبينته كرأس ثور كبير الجرم ، أما الجسم نفسه فقد بان شبيها بجسم ثعبان ، خف ثقله بالتحلل فتلاعبت به أمواج البحر ٠٠

وتزاحمت الافكار فى ذهنى ، ثم تجمعت كلها فى فكرة واحدة ، هى انى الآن بازاء اله « كريت » ، وأنه هو ذلك الحيوان القذر الذى تعاف النفس رؤيته ورائحته ، وتعبث به مياه البحر كأى حشرة تافهة ، وكيف لا وقد تنوقل من شهور خبر موته ؟! فهو اذن قد مات حقا ، وها هو ذا ملء أعيننا وليس هنا سواه ··· ولكن « مينيا » أين هى ؟! وكيف جيء بها الى اله لا وجود له ؟! ··

وعندما ذكرت « مينيا » فى هـذا الوقت ذكرت معها كذلك كل من سيقوا قبلها الى هذا البيت المظلم !·· ذكرت الفتيـان الذين حرم عليهم الاقتراب من النساء ، والفتيات اللائى فرض عليهن أن يظللن عـذارى ليدخلوا جميعا ــ فيما زعموا ــ رحمة هذا الاله وبركته ··· ذكرت المصير الذى ترددوا فيه فلم يبق منهم الا جماجمهم وعظامهم متناثرة فى ممرات هذا القبر الموحش المهجور الذى سموه بيت الاله !··· وذكـرت ذلك الوحش الضارى الذى قذف بهم هكذا الى الموت الفظيع موصدا دونهم الأبواب الى الأبد !···

لا شك فى أن هـذه الاجسام الغضة الفيـاضة بالشباب والقوة ، كانت تساق الى هذا الحيوان الضخم الصريع مرة فى كل شهر لتكون له طعاما وغذاء · هذه هى الحقيقة المفزعة التى اتخذها حـكام « كريت » شرعة مقدرة وسنة متبعة ، ليؤكدوا فى عقول الناس خرافة سيادتهم على البحار !···

أما هذا الحيوان نفسه ، فهو فيما يظهر، حوت مفترس ، دفع به من أعماق البحر اعصار شديد ، فارتمى فى أحضان هذه المغارة من عهـد بعيد ، وحينئذ شاءت سياسة الحكام والـكهنة أن تبتدع له صفة الاله ، حارس سـيادتهم البحرية ، ومن ثم أقيم حاجز على منفـذ المغـارة حتى لا يعود الى البحر ، وأقيمت « البربى » متصلة بهذه المغارة ، وقدمت اليه فى مواعيد مقررة مترادفة··· هذه الضحايا الغالية ، لينهش لحومها ، ويفرى عظامها ···

ولكنه ، وقد قضى نحبه ، وصار رمة كهذه الرمم ، فكيف ؟! ولمن جيء الى هنا « بمينيا » ؟! · فأين أنت « يامينيا » ؟! ··

وفى مثل ثورة المجنون رحت أردد بأعلى صوتى هذا النـــداء ، وجدران المغارة تردد صداه ، ولا من يجيب ، الى أن أشار « كابتاح » الى الصخرة التى نقف عليها فرأيت ، ويالهول ما رأيت ! ·· رأيت على الصـــخرة دما متجمدا يمتد أثره الى الماء ! · وفى نظرة سريعة رأيت على

هذا الماء جسم « مينيا » أو بالأحرى ما بقى من هـذا الجسم ، وكانت مكبوبة على وجهها ، ولكن شبكة شعرها الفضية كانت اعلانا صارخا بأنها هى ، هى بعينها !٠٠

وهنا كانت الجريمة الشنعاء تتحدث عن نفسها فى وضوح تام ٠ فهذا الجرح الدامى النافذ فى صدر «مينيا» هو الطعنة القاتلةالتى أودت بحياتها ، وما كان وراءها حين أدخلت هذا المكان سوى « مينو توروس » فهو اذن الذى طعنها بسيفه من ظهرها وهى آمنة مسرورة بلقاء الهها !٠٠ وهو الذى دفعها بعد ذلك الى الماء ٠٠ لقد فعلها هذا المجرم لا لشىء سوى أن يظل الناس على اعتقادهم أن الاله المزعوم لا يزال حيا لم يمت !٠٠فما أفظع ما فعل ، وما أشقانى بفعلته !٠٠ وآنفجرت فى صدرى صرخـــة المفجوع اليائس ، ثم اعترتنى غشية سقطت فى اثرها وكدت أهوى الى البحر لولا أن أمسك بى « كابتاح » وحال بينى وبين ذلك ، وظللت فى غيبوبتى الى أن أخبرنى «كابتاح» فيما بعد أنه حسبنى قد فارقت الحياة، فتعاظمه الأمر وأبكاه كثيرا ، وكان مصابه مزدوجا ، فانه فى وقت واحد يفقد سيده وسيدته المحبوبين ، وقال انه كان يؤثر أن يموت عـلى أن يرى بعينه هذه الفاجعة ، ولكنه رأى أن عليه واجبا هو أن يتحـكم فى مشاعره وأعصابه لينقذ حياتى ، وان لم يكن بمستطيع أن يفعـل شيئا لانقاذ « مينيا » ، فقد قتلها ذلك الجزار «مينوتوروس»كما قتل الكثيرين قبلها من الشبان والفتيات ، أولئك الضحايا الذين رأى بعينه بقـــايا اجسادهم فى الممر وفى قاع البحر الرملى ، ثم قال « كابتـــاح » متمما القصة التى لم أشعر بها خلال اغماءتى ، انه قرر أن يعود بى ، فلو بقينا ـ كلينا ـ ساعة فى هذا المكان لقضينا نحبنا اختناقا بالرائحة النتنة ، ولكن هذا كان يقتضيه أن يحملنى ، وليس فى وسعه أن يفعل ذلك ، وهو فى الوقت نفسه يحمل جرة النبيذ والمشعل ، فلم يتردد فى أن يفرغ ما بقى من النبيذ فى جوفه جملة ، ويلقى الجرة فىالماء فارغة ، وقد منحهالنبيذ قوة أعانته على حملى ٠ وعندما كان ينوء بى كاهله كان يكتفى بحمـــل نصفى الأعلى ويمضى بى مجرورا من نصفى الأدنى ، مسترشدا بحبال الخيط التى لم ينس أن يجمعها ويطويها حتى لا تترك أثرا يدل عـــلى دخولنا ٠ وأثناء عودته كشف ـ على ضوء المشاعل ـ بعض علامات سرية فوق الجدران أدرك منها ان «مينوتوروس» احتفرها ليتخذ منها معالم هادية فى طريق ذهابه وعودته ، ثم قال « كابتاح » أيضا : انه حين ألقى جرة النبيذ فى الماء تخففا من حملها ، خطر له كذلك أن يجعلمن وجودها هناك

شيئا يراه « مينوتوروس» فيبلبل فكره ويشغل خاطره عندما يذهب مرة أخرى بضحية جديدة ٠

وقد وصل بى « كابتاح » الى الأبواب النحاسية عند مطلع الفجر ففتح الباب بمفتاحه ثم أغلقه بعد خروجنا ، ومضى فوضع المفتاح في موضعه ببيت الكاهن ، وكان لايزال ، هو ومن معه من الحراس ، يغطون في نومهم بفعل المخدر الذى تناولوه مخلوطا بالنبيذ ٠ وحملنى «كابتاح» بعيدا الى غابة على غدير ماء ، فغسل وجهى وصب الماء على رأسى وأخذ بذلك يدى حتى أفقت من غيبوبتى التى لم أشعر خلالها بشيء من كل هذا الذى أخبرنى به ! ٠٠

وحين أفقت كنت شارد الفكر لا أكاد أعى شيئا واضح المعالم ، فأعطانى « كابتاح » حبوبا منبهة ، فنشطت قليلا ونهضت لأسير مستندا الى ذراعيه قاصدين الى المدينة ، فلما اقتربنا منها كنت قد استعدت شعورى وأفكارى تماما ، وتذكرت فى صورة واضحة ، المصير المفجع الذى انتهت اليه « مينيا » العزيزة ، وكان هذا أمرا لاتحتمله مشاعرى ٠ ولكننى ذكرت أن هنالك أمورا خطيرة ينبغى أن أفرغ لها وأغالب عواطفى من أجلها ، ولهذا رأيت من الحكمة ألا أرسل نفسى فى التفجع على «مينيا» التى صارت طيفا بعيدا وروحا هائما فى عالم آخر ، ولم يكن يشغل فكرى بعد الذى عرفته من أسرار فى تلك المغامرة المخيفة سوى أن هؤلاء الناس من أهل « كريت » الذين استقبلونى فى غبطة وابتهاج لم يعد لهم اله ، أو أنهم على الأصح ليس لهم ذلك الاله الذى آمنوا به وقدموا له القرابين الغالية من زهرات شبابهم أمدا طويلا ، وكنت فى الوقت نفسه أشعر بغير قليل من الارتياح لأنى وجدت فيهم شعبا مخدوعا تتحكم فيه أكذوبة شريرة ، فجزاؤه الحق على غفلته أن تتهاوى عظمته التى جعلت من اله لاوجود له ٠٠٠ مصدر وجوده ، ومصدر حمايته ! ٠٠ وانى لأنظر الى مدينة «كريت» فأستشف فى ثنايا الغد القريب علامات نهايتها ، فهذه عماراتها الجميلة المتأنقة ستذهب طعاما للنيران ، وهؤلاء النساء المترفات الرشيقات ستذوب أجسادهن فى هذا الأتون المتسعر الذى لن يبقى ولن يذر ، وهذا أيضا قناع « مينوتوروس » الذهبى الذى اختفت فيه الحقائق والجرائم ، سيصبح صفائح مصهورة تشوى جلد صاحبها ، وهكذا ينتهى كل شيء من مدنية « كريت » وترتد هذه الجزيرة الى البحر لتغرق فيه ٠

على أنى قطعت نفسى من هذا الخيال لأفكر فى « مينوتوروس » ٠٠

لقد قتل هذا الرجل « مينيا » ويكفي هذا لكي أبغضه بكل قلبي ٠٠ ولكن ماذا كان يمكن أن يفعله غير ذلك ؟! ان واجبه ثقيل وأسراره أشد ثقلا ، وقد كان يعلم أن الفتيان والفتيات لا يذهبون لخدمة الاله وانما يقذف بهم شهرا بعد شهر ، وسنة اثر أخرى ، ليأكلهم حيوان البحر الحبيس في المغارة ، ولكنه كان يعلم كذلك أن عظمة « كريت » البحرية لاتقوم الا على أسناد من هذا السر المجهول أو هذا الاعتقاد الزائف ، فهل كان يستطيع أن يميط اللثام عن الحقيقة فتدول دولته ، وينهار وطنه !٠٠

كنت أفكر في مسئولية ذلك الرجل على هذا النحو ، ولا أدرى كيف كنت أجنح في تفكيرى الى التهوين من مسئوليته ، وهو الذى يتمرغ في أقذار من جرائم متصلة لم تكن جريمته نحو « مينيا » أولها ولا ختامها ٠

ولعلى أردت أن أخفف عن نفسي شعور الحقد عليه لأستريح ، فقد كنت اذ ذاك في حالة أشبه ما تكون بكومة من هشيم ، تكفي شرارة صغيرة لاشعالها والاتيان عليها ٠ وأنا أريد أن أعيش وأتلمس أية فكرة للهرب من خطر جديد يدمر حياتي ٠

واعتراني بعد ذلك شعور طائش ، فبدوت كالمجنون ، أغني وأضحك وأنا سائر في الطريق متكئا على « كابتاح » ، وقد استغرب ذلك أولئك الذين يعرفونني من أصدقاء « مينيا » ، ولكن « كابتاح » أفهمهم أني شربت كثيرا من النبيذ خلال انتظاري لعودة « مينيا » ، وأني مازلت ثملا ! ٠

ورأى « كابتاح » أن يريح نفسه من عناء الاعتذار عن حالتي هذه التي تأباها عادات المدينة في الطريق العام ، فاستأجر محفة حملتنا الى الفندق ، وهناك استسلمت الى نوم عميق ٠

فلما صحوت ، عدت الى تذكر ما حدث بالأمس ، وعبثا حاولت تنحية وجه « مينوتوروس » عن ذهني ٠ لقد كان هو الشخص الوحيد الذى حال بيني وبين « مينيا » الى الأبد ، وهو الذى ساقها الى المغارة ليقتلها ، وهو يعلم أن الحيوان الذى اتخذوه الها قد مات ، ومعنى ذلك أنه كان يستطيع ، وقد عرف مقدار حبي لها ، أن يبقى على حياتها بوسيلة من الوسائل ، لتعود في الأجل الذى حددوه دون أن تهتز لذلك عقيدة الناس ، ولكنه لم يفعل وأباح لنفسه أن يهدر دمها في غير ماداع الى ذلك ، واذن فلأذهب اليه لأقتله ، فذلك جزاؤه وهو أقل ما ينبغي

أن أفعل وفاء بحق « مينيا » ، ثم ان قتله ، ثأرا لدمها المسفوك ، سيفتح من ناحية أخرى بابا لتخليص أرواح كثيرة بريئة يتسابق أصحابها الى الموت وهم لا يشعرون ، اعتقـــادا بأنهم ظافرون بالمجد والفخار اذا وقع عليهم الاختيار لدخول بيت الاله ، شأنهم فى ذلك شأن « مينيا » ومن قبلها ! ٠٠ ولكنى ذكرت وأنا أرتجل قرار قتله أن الحق فى مثل هـــذه البلاد كالسيف فى يد طفل ، يريد أن يطعن به فيرتد الى صدره ٠٠٠ ومن ثم أبعدت هذه الفكرة عن ذهنى الذى كان قد أخذ يصفو ٠ وفى هدوء رأيت أن أمر « مينيا » قد انتهى بموتها وأن أمر اله « كريت » لا يعنينى بعدها فى كثير أو قليل ٠٠

وملت على « كابتاح » أستشيره ، فقال : ليس هذا أوان التفكير ، وانما هو أوان الراحة ، وما أرى الا أن تعتكف بعض الوقت وليكن بعــد ذلك ما يكون ٠

ثم قدم لى طعاما ودعانى فى اصرار الى تناوله ، ولكنى لم أكن أشعر برغبة فى طعام ، قدر ما أشعر بالظمأ الى النبيذ ، فأخذت أشرب منه فى افراط ، وكنت أحس فى شربه بالهدوء والنشوة ، فان الحقـــائق كانت تختفى فى مفعوله أو تزدوج بمرئيات ذات ألوان شتى ، وفى هذه الفوضى الفكرية كان يضطرب العقل ويستغلق الفهم !٠٠ ولكن أليس هذا ، فى مثل حالتى ، أسلم عاقبة مما لو ترك العقل طليقا ، فلا يكون الا التفكير فى « مينيا » والحقد على الناس والآلهة جميعا ؟! ٠٠

وفى صباح اليوم التالى استيقظت فرأيت « كابتاح » جالسا فى ركن من الحجرة وهو يبكى فى صمت معتمدا رأسه بيديه ، فتناولت جرة النبيذ وعببت منها مقدارا كبيرا أسـكرنى ، ثم سألته : علام تبكى أيها الأحمق ؟! ٠٠

قال : انما أبكى يا سيدى لأن سفينة بالميناء تتهيأ للابحار الى «سوريا» وهى آخر السفن فى هذا الفصل ، ولن تأتى أخرى الا فى الشتاء ، فان لم نسافر عليها فسنبقى هنا كل هذا الوقت الطويل ، وهذا يخيفنى ، ومن أجله أبكى ! ٠٠

قلت له مشتدا : أغرب عن وجهى ، وارحل بنفسك على الســـفينة التى يزعجك انتظار غيرها ، فمن الخير لى ألا أرى وجهك هذا الدائم الكآبة وألا أسمع صوتك هذا الدائم الشكوى والأنين ! ٠٠

ولكنى عندما قلت هذا شعرت بالألم والخجل فالقيت بجرة النبيذ

بعيـــدا ، لأن « كابتاح » فى الواقع كان عزائى الوحيد فى هـــذه الغربة الطويلة الموحشـــة ، وقد أخلص لى اخلاصا ينـــدر أن يوجد مثله فى الخدم والأرقاء ، بل يندر أن يوجد فى الرجال الأحرار من الأصدقاء .

وقال « كابتاح » بدوره : الحق معك يا سيدى ، ولكن يجب أن تضيف الى هذا أننى كذلك سأستريح من ثملك الذى لا ينقطع ... لقد فقدت خير ما فيك وأنت لا تدرى ! .. وكأنى بك قد قذفت من النافذة بكل ما توافر لك فى رحلاتكمن ذهب وفضة ، وما أراك ـ بعد ـ قادرا على علاج مريض واحد بيديك هاتين المرتعشتين ، وغدا قد لا تستطيع أن تمسك بها جرة النبيذ ، فان الخمر لاتفلت شاربيها من هذا المصير المحزن .. وقد كنت أحسب الشراب شيئا يضفى الراحة على العقل والنفس ، فوافقتك عليه من غير تدبر فىالعاقبة ، وسرت أنا نفسى فىهذا الطريق . وحينما كنت تسرف فى الشراب ، كنت أقول للناس ـ مفاخرا ـ انك لاتحصى عدد جرات النبيذ التى تفتحها وتأتى عليها لـــكثرتها ، وانك تشرب كما يشرب التمساح ، وتنفق الذهب والفضة بغير حساب فى شراء النبيذ . ولكن ... لكل شىء حدود ، وقد تجاوزتها ، ولم يعد هناك محل للمفاخرة بما قد تفاقم شره وبان خطره ، وفرق كبير بين الاعتـــــدال والافراط ، فذلك الرجل الذى يشرب النبيذ ثم يذهب الى الشـــــوارع فيشاغب ويضرب فتشج رأسه ، يهون أمره كثيرا عندما ينقلب الى بيته فيتناول الجعة والسمك المملح وينهض مستأنفا عمله على ما فرضته الآلهة وقضت به مطالب الحياة فى هدوء وكياسة ، ولكنك يا سيدى لست من هذا فى شىء ، فأنت تدمن الشراب فى كل يوم كما لو كان هو آخر يوم فى حياتك ، وقد يكون هذا حسنا لو أنك تتعجل به آخرتك ! .. على أن الأفضل ، اذا كنت تقصد الى ذلك ، أن تغطس مرة واحدة فى حمام من النبيذ ، فهذا أسرع الوســـائل الى ما تريد دون أن تتعرض للعيون الراصدة والألسنة الناقدة ! ..

واستقرت كلمات « كابتاح » من نفسى فى مكانها من التقدير ، فلم يقل الا الحق الذى لم أفطن اليه ، وتحسست يدى المرتعشين فاذا بى أفقد الســـيطرة عليهما ، وكانتا يدى ، طبيب ، ثابتتين ، قويتى الحركة ، فأصبحتا فى بدنى كجزء متهالك منفصل ، وأخذت أستعرض رحلاتى والمعرفة التى حصلتها فى بلاد كثيرة ، فأدركت أنى قد بلغت منها الكثير وأن الرغبة فى الاستزادة منها لا تخلو من حماقة ، مثلها فى ذلك مثل الافراط فى الطعام ، وفى المسرات ، وفى الأحزان .

وعلى هذا قلت « لكابتاح » : ان الأمر في الحق كما تقول ، ومنذ هذه اللحظة سأدع هذا الشراب المهلك ، ولن أفتح بعد جرة من نبيـــذ او اتناول كأسا من خمر ، فهذا هو ما يمليه العقل السليم وهو أصدق عندى من مشورتك ونصحك ، وارى اخيرا أن نشد رحالنا الى « أزمير » فحسبنا ما عانينا فى هذه البلاد ·

وفرح « كابتاح » لهذا القرار فرحا شديدا ، وراح يعدو هنا وهناك ليجمع أمتعتنا ويحزمها ، ولم تنقض ساعات حتى كنا على ظهر السفينة ، حيث أخذ ملاحوها يضربون بمجاديفهم فى البحر الى أن جاوزوا بها منطقة الميـنـــاء ، ثم أمر الربان بنشر شراعها فانطلقت تمخر عباب الماء ، فى حين كان الربان يقدم ، فى قمرته ، القرابين لاله البحر والآلهة الأخرى ·

وشيئا فشيئا ، اخذت « كريت » تغيب عن أبصارنا ، وعندئذ احسست بالوحدة فى هذا الخضم الهائل ·

ذَنَبُ التمساح



- ١ -

لم يكن احساسي بالوحدة شيئا جديدا في طبيعتي ، فقد جئت ـ من حيث لا أعلم ـ الى هذه الدنيا وحيدا محمولا على قارب الغاب الى شاطىء « طيبة » ، ولا زمتني الوحدة في اسمي نفسه منذ سميت بالوحيد . فعندما عاودني الاحساس بها على ظهر السفينة شعرت كأني قد عدت الى حقيقتي التي عشت عليها أكثر عمري ، فلم أضق بها ، بل لعلي قد ارتحت اليها . على أنها وان لم تمنعني من مخالطة رفاق السفر بالسفينة ومجاراتهم في تناول الطعام والشراب وفيما لا معدى عنه من المشاركة الاجتماعية ، الا أنها كانت تجنح بي أكثر الأحيان الى قلة الكلام والقصد في الحركة والتماس الهدوء بمبعدة منهم .

وفي هدأة الانفراد والوحدة ، وفي نشوة الهواء اللطيف يملأ صدري ، تراءت « مينيا » في خيالي بعينيها الخضراوين كلون ضوء القمر منعكسا على ماء البحر ، وبضحكاتها المشعة ذات النغم الهادىء ، وبرقصها الرائع الأخاذ على أهراء الحقول في طرق « بابل » ، وبلباسها الرقيق الشفيف على قوامها الرشيق الفاتن ! .. هكذا ، وعلى هذه الصورة الجميلة ، تراءت « مينيا » في خيالي ، وهي أصدق ما تكون صورة في حقيقة حياتي ، ولكنها وقد توارت عني خلف أستار الأبدية ، لم يبق لي منها غير هذا الخيال ، وهو خيال محزن حقا ، بيد أنه كان حزنا مشربا بالمتعة ، متعة الذي يستيقظ من حلم جميل ، فلا يجد منه في دنيا الواقع غير الذكرى .

وأخيرا عدت الى « أزمير » بعد أن غبت عنها ثلاثة أعوام ، أحطت خلالها علما بالكثير من الخير والشر وتنقلت فيها بين ممالك وشعوب ذات

عدد ، وكان شعورى الغالب حين بلغتها أنى صرت أنضج رجولة وعقلا وأوفى ثقافة وحكمة ، فلم أعد بعد شابا تنقصه المعرفة والتجربة ، ولهذا عددت نفسى رابحا من هذه الرحلة الطويلة الشاقة بالرغم مما لقيت فيها من عذاب وعناء ٠

ولكننا حين ذهبنا الى بيتى فى « أزمير » لم نجد منه الا قوائم أشبه ماتكون بآثار كاد يعفى عليها الزمن ، فأبوابه ونوافذه قد حطمها اللصوص الذين اقتحموه وجردوه من كل ذى قيمة فيه ، واستباح جيراننا حرمته فاتخذوا من الفضاء المحيط به مستودعا لمخلفات بيوتهم ، فكان كالخرابة القذرة ومسرحا للجرذان ، ومثابة للأقذار ، ومهبا للروائح الكريهة التى تزكم الأنوف ٠ وبدا على جيراننا هؤلاء امتعاض شديد لعودتنا ، فكانوا يشيحون بوجوههم عنا ، ولا نسمع الا أن يقول أحدهم للآخر : لقد عاد هذا المصرى ، ومن « مصر » يفد علينا كل الشر !٠٠

وكان مستحيلا علينا أن ننزل فى البيت وهو على تلك الحال من التخريب والقذارة ، فأوينا الى أحد الفنادق ، وأمرت « كابتاح » بأن يذهب الى البيت ليشرف على ترميمه وتنظيمه حتى ننتقل اليه وأستأنف حياتى فيه ، وألممت بعد ذلك ببيوت التجار الذين استودعتهم ثروتى ، فقد كنت محتاجا الى المال اذ أنفقت فى السنوات الثلاث كل ما كنت قد تزودت به منه ، حتى الهدايا التى تلقيتها من « حورمحب » قد اضطررت الى انفاقها هى الأخرى ٠ وأكثر هذه الثروة أنفقته على الكهنة « ببابل » فى سبيل « مينيا » ومن أجلها ٠

وتلقانى شركائى المساهمون فى السفن بكثير من الاستياء ، ذلك لأنهم كانوا قد اعتقدوا لطول غيابى أن مالى الذى ساهمت به فى سفنهم قد أصبح ملكا لهم ٠ ولكنهم تسليما بالأمر الواقع اضطروا الى تقديم الحساب صحيحا ٠ وعرفت منه أننى صرت أغنى منى وقت رحيلى منذ ثلاث سنوات ٠ فانه وان كانت سفن معينة قد غرقت واندرجت فى قائمة الخسارة ، فان بقية السفن أصابت ربحا طائلا ٠ وهنا شاعت الطمأنينة فى نفسى ٠ ولم يعد ثم شىء يقلقنى اذا ما فكرت فى البقاء « بأزمير » ٠

ودعانى أصحاب السفن لزيارتهم فى محال أعمالهم ٠ وهناك قدموا

لى نبيذا وخبزا مأدوما بالعسل . وتحدثوا فقالوا : أيها الطبيب .. انك صديقنا وشريكنا فى أعمالنا . ونحن نحب مصـــــارحتك بأننا لا نكره التعامل تجاريا مع « مصر » . ولكننا مع ذلك نكره أن نرى المصريين بيننا أو آخذين طريقهم الينا . وينبغى أن تعلم أن هذا هو الشعور العام فى هذه البلاد . فالجميع هنا متذمرون حانقون لكثرة ما يفرض عليهم من ضرائب لحساب « فرعون » وقد أصبحوا لا يضيقون بشىء مثلما يضيقون بهـــؤلاء المصريين الجباة يترصـــدونهم فى الشوارع ويلاحقونهم غادين ورائحين . وقد اشتدت كراهيتهم لمصر الى حد أنهم يلقون بالخنازير الميتة فى المعابد المصرية ، والى حد أنهم يمتنعون عن الظهور مع أى مصرى فى المجتمعات العامة ، وهو أمر يقتضينا واجبنا أن نكاشـــفك به لتتصرف بحكمتك .

وادهشنى حديثهم هذا . فقد كنت قبل رحيلى عن « أزمير » أرى اهلها يتنافسون فى مرضاة المصريين والتفتح لهم وكسب مودتهم حتى كانوا لا ينفكون يدعونهم الى بيوتهم ويبالغون فى الحفاوة والترحيب بهم ولم يكن هذا بغريب ، فذلك هو ما يلقاه السوريون من المصريين فى « طيبة » .

وعدت الى الفندق مهموما لهذا التبديل فى شعور أهل « أزمير » ، ووافانى بعد قليل « كابتاح » عائدا من جولة فى المدينة ، ولم يكد يرانى حتى قال : لا شك أن روحا خبيثا قد سرى فى أهل هذه المدينة ، فمـــا لقيت منهم أحدا الا تنكر لى وأشاح بوجهه عنى ، وما تحدثت الى انسان الا استغلق دونى متظاهرا بأنه يجهل لغتى المصرية ، وقد دخلت حانة لأتناول شراب النبيذ ، فما ان عرف الذين فيها أنى مصرى حتى تجهموا وامتعضوا وراحوا يرموننا نحن المصريين بالسيئات والمناكر ، فتركت هذه الحانة الى أخرى ، فكان من فيها أشد نكيرا عـــلى المصريين وأقسى ثلبا لهم . وقد سمعتهم يقولون ، فيما يقولون ، ان مدينتهم كانت فيما مضى مدينة حرة غير مستذلة لبلد آخر ، ولا تؤدى جزية لأحد ، وكذلك كانت مدن « سوريا » كلها ، وهم الآن يثورون لحريتهم ويأبون أن يكونوا أتباعا للمصريين ، ويقولون ان هذا واجب الأحرار الذين لايقبلون الضيم والا فما قيمة حياتهم ، وما جدوى أن يتناســـــلوا لتكون ذريتهم عبيد أرض لفرعون ؟! ..

بهذا اللغو كانوا يتحدثون يا سيدى ... ولابد أن تـــكون قد أصابتهم جنة ، ففقدوا صوابهم ونسوا أن « مصر » فى حكمها لبـــلاد

« سوريا » تحميها وتنظم حياتها ، وأن السوريين أكثر انتفاعا ، من « مصر » نفسها ، بهذا الحكم • ولو أن « مصر » تخلت عن حماية بلادهم لكانوا أشبه بالقطط المتوحشة تحتشد داخل كيس مغلق ، فيضرب بعضها بعضا ، ويأكل أقواها أضعفها • وهكذا لا تكون الا الفوضى والفساد والعبث بالزراعة والتجارة • وأمعن من ذلك في اللغو أنهم يذكرون في زهو ومفاخرة أن المدن السورية جميعها قد تحالفت على تحطيم مايسمونه بأغلال الحكم المصرى • وهذا مالا أجد في عقلى متسعا لتصديقه ! ••

ولقد آلمنى حديث القوم وهراؤهم ، فخرجت من حانتهم وهم لا يزالون معرضين عنى ، حتى صاحب الحانة نفسه كان يولينى ظهره ، وكان هذا خيرا ، لأنى لم أجد أحدا أدفع له ثمن الشراب ! •

وهذا الذى رواه « كابتاح » ، مضافا الى ما سمعته من التجار ، قد ضاعف همى ، ورأيت — الى أن تتضح الحقيقة تماما — أن أقتصد في التجوال بالمدينة ، وفى التكشف بمصريتى للناس ، فكنت أرتدى الملابس السورية حينما كان لا معدى لى من الاضطراب بينهم ، وكان الذين يعرفوننى كل المعرفة يديرون وجوههم عنى اذا ما رأونى • وفى هذا الوقت كان المصريون الآخرون بالمدينة لا يسيرون فيها الا فى حراسة قوية ، ومع ذلك قد كانوا لايسلمون من سخرية الناس وزرايتهم وسخطهم ، فما أكثر ماكانوا يقذفونهم بالفواكه المعطوبة والسمك المتعفن •

وعلى أن الحالة كانت توحى وقتئذ بالخطر على علاقة المدينة بمصر ، فاننى كنت أشعر بأنها لا يمكن أن تستمر هكذا طويلا ، ذلك لأنها فيما أعتقد وليدة التذمر من الضرائب الجديدة ، وهذا أمر يستطاع علاجه ، هذا الى أن « سوريا » فى مجموعها تفيد كثيرا بارتباطها بمصر ولا غنية لمدنها عن تلقى القمح المصرى •

وكان قد تم ترميم منزلى وتنظيمه ، فانتقلنا اليه ، واستقبلت فيه المرضى لعلاجهم كما كانت الحال من قبل ، ولم يكن يحجزهم عنى جنسيتى التى كانت وقتذاك تبدو بغيضة بالمدينة ، ذلك لأن المرضى فى آلامهم ونشدانهم البرء منها لاتعنيهم جنسية الطبيب وانما يعنيهم منه مهارته فى فنه • بيد أن أمرهم معى لم يكن يخلو من الجدل فيما كان يتردد صداه خارج عيادتى ، ففى بعض الأحيان كان بعضهم يقول : ألا ترى أيها المصرى أن من الظلم أن تقتضينا « مصر » هذه الضرائب المرهقة وتمتص فيها

أرزاقنا ، لنجوع وتشبع ، كما يمتص دود العلق غذاءه من الدماء ؟! ..
ثم أليس من الجور والعسف والتحكم فى الحرية أن يمنعنا الحكم المصرى من ترميم أسوارنا وحصوننا عندما نريد ذلك على نفقتنا الخاصة ؟! .. ولماذا تفرض علينا « مصر » حكاما ورجال قضاء ومن لاعدد لهم من الموظفين والعمال يتولون أمورنا ويتصرفون فى شتى شئوننا على هواهم أو على هوى سياسة بلادهم ، حتى أصابتنا الفاقة وشاع فينا الفقر ، وفى بلدنا من أبنائه أكفاء قادرون لو أنهم أقيموا على حكمنا لكانوا أرعى لمصالحنا ، وأوفر همة فى نشر العدل والرخاء فينا ... وبحق « بعل » لو أن أمورنا كانت اليهم لكنا أيسر حالا ولما عانينا ما نعانى الآن من حكم « مصر » ومن قسوة رجالها ... وأخيرا ، أيها المصرى ، يقسرنا «فرعون مصر » على عبادة اله جديد ، ليحول بيننا وبين الهنا !..

كنت أسمع هذا من بعض المرضى ، فأشفق على نفسى من مناقشتهم ولكننى كنت أقول لهم فى غير انفعال مثير حينما كنت لا أستطيع صد نفسى عن الكلام ، وما حاجتكم الى اقامة الأسوار والحصون الا أن تكونوا قد قررتم مناجزة « مصر » العداء ؟! .. وذلك مالا تؤمن عاقبته ، ولا أحسبكم تكسبون منه شيئا ، وقد يكون من الخير والانصاف للحق أن تذكروا أن مدينتكم وقت أن كانت حرة مستقلة ، كانت كذلك مسرح حروب عديدة متصلة مع جيرانكم الذين لا زلتم تكرهونهم ، وكنتم فى هذه الحروب تهدرون الدماء وتبذلون الكثير من أرواحكم وأموالكم حتى صرتم فى فاقة وقلة . وبينما كانت حالكم هكذا كان أمراؤكم وولاة أموركم يسومونكم سوء العذاب ، ويفشون الظلم فى أغنيائكم وفقرائكم على السواء ، وليس الأمر كذلك الآن فانكم محميون من أعدائكم بدروع «مصر» وحرابها ، والقوانين المصرية تحفظ الحقوق العامة وتكفل الأمن والمساواة للجميع ، وها أنتم أولاء فى عامة مظاهركم ذوو بدانة ظاهرة تنم عن بسطة الرزق ورخاء الحال ولا تنم عن العبودية والحرمان ، وما أكثر ما سمعتكم تفاخرون بثرواتكم التى كسبتموها فى ظل غباء المصريين ، فلو كنتم أحرارا بالمعنى الذى تقصدونه لتنافستم وطاول بعضكم بعضا وصارت سفنكم وأموالكم نهبا بينكم ، وعز عليكم فى تجوالكم داخل بلادكم أن تجدوا الأمن والسلام .

وكانوا ، حين يسمعون هذا منى ، يثورون وتحمر عيونهم غضبا ، ويقولون : انك مصرى تدافع عن بلادك ، ولا نعرف فى المصريين الاالتلفيق

والظلم . أما نحن فقد وقرت في نفوسنا كراهية آلهتها ، وأصبحنا هنا على رأي جامع هو الخلاص منها ، وليكن الحكام من أهلنا طغاة مستبدين كما تقول ، وهذا ما لا نعتقده ، فانهم على أية حال أحنى علينا منكم ، لانهم منا ونحن منهم ، والظلم في بلد حر خير من العدل في بلد مستعبد .

يقولون هذا في عصبية جامحة ، ثم يلقون بأجر العلاج وينصرفون غضابا ..

ولم اعد ، وسط هذا الشعور الشعبي المتفجر في كل ناحية ، استطيب المقام في « أزمير » ، فأخذت في تهيئة نفسي للرحيل وجمع أموالي المودعة بالمدينة . وقد رأيت من واجبي أن أعجل بالعودة الى «مصر» وفاء بوعدي « لحورمحب » لأفضي اليه بنتائج المهمة التي عهد بها الى في رحلتي ، ولكن الذكريات التعسة التي خلفتها ورائي في « مصر » لم تكن تستحثني لسرعة العودة ، فأقعدتني وقتا آخر بهذه المدينة الساخطة .

وذات مساء كنت عائدا من معبد « عشتروت » الذي كنت أتردد عليه من حين الى حين تردد الصادي على أي ماء يلقاه ، فاعترض طريقي جماعة من الرجال وراحوا يتفحصون وجهي ويقول بعضهم لبعض :لاشك أنه مصري ، فلا ينبغي أن نفلته من أيدينا .

ورأيتهم يهمون بالاعتداء علي ، فقلت لهم : انني طبيب أخدم الانسانية التي تتساوى فيها الجنسيات والأوطان ، وأنتم باعتدائكم على رجل مثلي يعالج مرضاكم ترتكبون حماقة سوف تندمون عليها .

ولكنهم لم يأبهوا لقولي ، فوضعوا عباءاتهم على وجوههم وألقوا بأجسامهم جملة على جسمي ، فتهاويت على الأرض ، وانهالوا ضربا على رأسي ثم خلعوا ملابسي وأداروا أيديهم فيها بحثا عن النقود ليسرقوها ، وفي هذه الأثناء تأمل احدهم وجهي ثم صاح قائلا : ألست أنت «سنوحي» المصري طبيب الملك « عزيرو » وصديقه ؟! .

وبدا لي أنهم توقفوا خوفا من أن أكون ذلك الرجل الذي تبين حقيقته رفيقهم ، فآمن هذا من خوفي ، ونهضت مصطنعا الشجاعة لأصرخ فيهم متوعدا ومقسما بأني لن أدعهم حتى أجهز عليهم وألقي بجثثهم للكلاب . وقد أدهشني أنهم على الفور أعادوا ملابسي وفروا هاربين ، وقد أخفوا وجوههم بأذيال عباءاتهم ، رغم أنهم بكثرتهم كانوا أقوى من أن يخيفهم فرد واحد بوعيد متكلف ، مهما تكن قوته ، فلست أدري لماذا فعلوا ذلك ؟! .

- ٢ -

وأقبل على منزلى ، بعد أيام قليلة ، رجل يمتطى صهوة جواد · وكان ذلك منظرا نادرا ، فلا المصريون ولا السوريون يركبون جيادا فى هذا البلد ، وقلما يرى الناس أحدا يركب مثل هذا الجواد الا اذا كان حارسا من حراس الصحراء ، وقد هتف بى هذا الفارس دون أن يحيينى قائلا : عجل باعداد محفتك ياسنوحى ، واتبعنى فانى آت من أرض « عمورية » مبعوثا اليك من ملكها « عزيرو » لتوافيه هناك مسرعا ، ذلك لأن ابنه مريض ، وقد استعصى علاجه · وقد تركت الملك هائجا كالأسد لشدة ما ينتابه من قلق ولهفة على ولده ، ولا يكاد يقترب منه انسان حتى يكسر عظامه ·

قال هذا ، مأخوذا بالقلق الذى تنفعل به نفسه كرسول أوفده الملك فى طلب طبيب ينقذ ابنه من الموت · وكان جواده يلهث ويقطر الدم من فمه ، مما يدل على أنه قطع به مسافة طويلة فى سرعة متصلة ، كما كان الرجل نفسه مغبر الوجه والملابس ، وقد بلغ من لهفته على انفاذ أمر مليكه وفرط تأثره بالمهمة التى جاء من أجلها أنه كان يطلب منى الاسراع فى لهجة الآمر ، فقد قال لى وهو يستحثنى مهددا : هيا فعجل ، والا فانى قاطع رأسك من فوق كتفيك وملقيه فى الطريق ! ·

فقلت له : قد تستطيع أيها الهمجى القادم من التلال ومراعى الأغنام أن تقطع رأسى ، ولكن ماذا تكون قد فعلت لخدمة مليكك الذى يطلب طبيبا لانقاذ ولده ؟! · فلو أنك حملت اليه رأسى مقطوعا بدلا من أن تلقيه فى الطريق ، فانه قاتلك لامحالة ، لأنه انما يريد طبيبا حيا ، لا رأس طبيب مقطوعا ؟ ·· وعلى أية حال فانى متجاوز عن تهورك وحماقتك ، وسأمضى معك ، لاخوفا من وعيدك ، ولكن تلبية لرغبة الملك « عزيرو » لأنه صديقى ومن حقه على أن أسارع الى نجدته ·

وأمرت « كابتاح » فجاء بمحفة وخرجت بها مع هذا الرسول شاعرا بشىء من راحة القلب ، فقد كنت اذ ذاك أشد ما أكون ضيقا بالمقام بين هؤلاء القوم الذين يجاهروننى بالعداء كمصرى ، ورأيت فى مسيرى الى الملك « عزيرو » متنفسا من هذا الضيق ، وتوقعت أن أجد عنده شيئا من العزاء والسلوى ، ولكننا عندما بلغنا أول الطريق بظاهر المدينة بدأت أواجه سلسلة من متاعب الرحلة ومشقاتها ، حيث اضطررنا الى الانتقال من المحفة الى عربة تجرها جياد ، وهذه راحت تخب وتضع خلال أحجار

وصخور متشابكة متراكمة ، وكانت أعصابنا فوقها ترتج وتتداعى ، وينال منها النصب كل منال ؛ فى حين كان رسول الملك يتبعنا بجواده ، وقد تمنيت وقتها لو أن جواده جمح به ودق عنقه لنعود من حيث جئنا هربا من عناء هذا السفر المجهد • وناءت بنا العربة بعد أن قطعنا بهـا مسافة طويلة من الطريق ، فانتقلنا الى عربة أخرى بجياد جدد ، ولكننا لم نكن فيها أحسن حالا ، فانها أيضا كانت تصعد حينا وتهبط حينا ، وتتلوى فى سائر الأحيان ذات اليمين وذات اليسار حتى ما كنت أدرى وهى على تلك الحال ، ما اذا كنت جالسا فيها أو واقفا على رأسى ، وانما الذى كنت أدريه تماما أننى شددت بيدى على طرف العربة متشبثا بها خشية السقوط • ومع أن صراخى لم يكن ينقطع لعنا فى السائق وسخطا عليه ، فانه لم يكن يبدى أى اكتراث كأنه لا يسمع ، بل لعل هذا كان يزيده امعانا فى السرعة فيلهب ظهور الجياد بضربات سوطه ، فتوغل فى الصخور والأحجار ايغالا عنيفا وتصطدم بها اصطداما متصلا • وظللنا على هذه الحال المضطربة المخيفة الى أن بلغنا قبيل غروب الشمس مدينة تحيط بها أسوار شامخة شيدت حديثا • وكان على هذه الأسوار جنود يحملون التروس لحراستها ، ولكن أبوابها كانت مفتوحة لنا فدخلنـــا منها الى المدينة ، ولقينا أول ما لقينا فيها نساء وأطفالا يتصـــايحون ، وحميرا تنهق باصواتها المنكرة ، وسلالا من الفاكهة معلقة فى الهواء ، وجرارا لاحصر لها تضطرب فى الطريق ، فى حين كانت عربتنا تمضى فى سرعتها نفسها ، لايبالى السائق المتهور أن يسحق بها كل ما يصادفه •

وانتهينا أخيرا الى بيت الملك ، فتوقفت العربة ولم أستطع لفرط ما نالنى من اجهاد أن أهبط منها الا محمولا على ذراعى السائق ، وجاء الأرقاء فحملوا صندوق عقاقيرى ، وساروا خلفى حيث اجتزنا الحائط الخارجى الذى كان معلقا عليه التروس والدروع والحراب ذات الأهداب فلما صرت فى حضرة الملك « عزيرو » تلقانى وهو يبكى ويئن أنين الفيل المجروح ، وقد مزق ملابسه وعفر شعره بالتراب وأدمى وجهه بأظافر يديه ، وضمنى بحرارة الى صدره وقال لى فيما يشبه الضراعة : ولدى ! ولدى ! • أنقذه من الموت « ياسنوحى » ، ولك كل ما أملك •

قلت له : ينبغى أن أراه فى الحال لأعرف مبلغ ما أستطيع أن أفعل له •• فقادنى معجلا الى حجرة فسيحة أشعلوا فيها موقدا ينفث حرارة ملتهبة لا داعى لها اذ كنا فى فصل الصيف ، مما جعل جو الحجرة خانقا ، ورأيت وسط الحجرة مهدا فى أرجوحة تمدد عليها طفل لما يبلغ العـام

من عمره ، ملفوفا فى ملابس من صوف ، وهو يصرخ فى مشقة وعسر ، ووجهه مربد تعلوه زرقة المخنوق ، والعرق يتفصد من جبهته ، وكان شعر راسه كثا كشعر رأس أبيه ، ولم أتبين أول الأمر مصدر علتـــه ولكنى أدركت من صراخه أنه لم يدخل حتى هذه اللحظة فى دور الاحتضار خلافا لما يتصوره أبوه ٠

والى جانب مهد الطفل ، وعلى أرض الحجرة ، كانت تربض «كيفتيو» المرأة التى كنت أعطيتها للملك « عزيرو » ، وقد بدت أكثر بدانة وبياض وجه عما كانت من قبل ، وكان جسمها المكتنز باللحم يترجرج وهى تضع جبهتها على الأرض معولة باكية ، ومن أركان الحجرة الأربعة كانت تنبعث صيحات المراضع والرقيقات وهن مسترسلات كذلك فى النحيب والبكاء ، وقد تورمت وجوههن من أثر اللكمات التى كان يصبها « عزيرو » عليهن، لأنهن عجزن عن شفاء ولده ! ٠

والتفت الى « عزيرو » وقلت له : لاتجزع ، فابنك لا يحتضر كما تتوهم ، وشفاؤه مأمول ، فلا تيأس ٠٠ غير أن الأمر يتطلب ، قبل أن أعد نفسى لفحصه أن ترفعوا من الحجرة هذا الموقد الملعون ، فاننا نوشك أن نختنق جميعا ٠ وهنا رفعت « كيفتيو » رأسها وقالت فى فزع : ولكننا اذا رفعنا الموقد فقد يصاب الطفل بالبرد ؟! ٠ وقبل أن تتم عبارتهـــا فوجئت بوجودى أمامها وجها لوجه ، فابتسمت واستوت فى جلستها وراحت تصلح من شعرها وملابسها ثم قالت : هذا أنت يا «سنوحى» ؟!٠ بينما كان « عزيرو » يضرب كفا بكف ويقول : ولكن الطفل لايتناول طعاما الا رده فى الحال ، وحرارة جسمه شديدة مستمرة لا تنفثىء ولا تنخفض ، ومنذ ثلاثة أيام استحال عليه أن يتناول طعاما ولم يبق فيه من دلائل الحياة الا هذا الصراخ الذى يفتت قلوبنا أسى عليه وحزنا ٠

فأشرت عليه باخراج المراضع والرقيقات ، فأخرجهن على الفور ، وأقبلت على الطفل بعد أن نظفت يدى وأدواتى ، فرفعت عنه ملابســه الصوفية ، وفتحت نوافذ الحجرة المغلقة فشاع فيها نسيم المساء الرطب، وعندئذ انقطع صراخ الطفل وهدأ اضطرابه ، وأخذ يدفع بساقيــه فى حركة عادية ، وتحسست جسمه وبطنه فلم أجد بهما شيئا يمكن أن يعزى اليه المرض ، فخطر لى أن أتحسس فمه أيضا فوضعت فيـــــه أصبعى وكنت موفقا فى هذا الخاطر ، فقد وجدت على جسر اللثة ســـنا ناتئة هى أولى أسنان الطفل ، أطلت من فكه كأنها لؤلؤة صغيرة ، وعرفت أنهـــا سر ماهولوا فيه من مرض الطفل ، ولم أتمالك نفسى من أن أقول

« لعزيرو » في غيظ : أمن أجل هذا العارض التافه تجرد خيلك ورجلك على أشهر أطباء « أزمير » ليساق اليك كالمقبوض عليه في رحلة شـــاقة مضنية ؟! . ان هذه القطعة الصغيرة من العظم في فم ولدك هي التي أنشأت في جسمه هذا الانفعال الذي أجمعتم على أنه مرض مخيف .. وهي مع ذلك شيء طبيعي في منطقة الفم لكل الأطفال ، وهم جميعا يحســـــون الاحساس نفسه ويألمون الألم ذاته عندما تأخذ طريقها للظهور لأول مرة، وربما كانت مضاعفات هذا الاحساس عند ولدك شبيهة بمضاعفات الحمى، أو لعلها كانت الحمى نفسها ، ولكنها على أية حال في طريق الزوال الآن ، أما الطعام الذى كان يخرجه فسببه فيما أرى أنكم تتخمون معدته بلبن دسم يجاوز طاقتها ويزيد على حاجتها فتلفظه بدافع الشعور الطبيعي الكامن ، ولا شيء في هذا ، وأرى أن الوقت قد حان لفطامه ، وعلى «كيفتيو» أن تنظم له غذاء خاصا خفيفا ، وتمنعه عن ثديها . فانه ، على ما يبدو ، طفل عصبي سريع الغضب كابيه ، ولا يبعد أن يدمي ثديها بقرضـــات أسنانه ! .

وما كاد « عزيرو » يسمع هذا ويرى بعينه سن ولده حتى انفجر مبتهجا واخذ يعدو في الحجرة ويثب هنا وهنـــاك وهو يرقص ويغني ويصفق بيديه ، وكذلك كانت « كيفتيو » متهللة فرحة ، وهي تنظر الى فم الطفل وتقول انها لم تر مثل جمال هذه اللؤلؤة في فم طفل آخر .. ثم حاولت أن تعيد الملابس الصوفية لتلف الطفل فيها فمنعتها من ذلك ، وطلبت نسجا من الكتان فلففته فيه .

ولم ينقطع « عزيرو » عن رقصه وغنائه ممعنا فيهما كما لو كان قد أصابه مس ، واجتمع أفراد حاشيته وضباطه ، وتوافد في اثرهم حراس الأســـــوار ، ليروا ماذا حدث لسيدهم حتى تبدل من حال الى حال ! .. وعندئذ دعاهم ، في فرح بالغ ، الى أن يروا بأعينهم اللؤلؤة التي نبتت في ثغر ولده ، فالتفوا حول مهد الطفل بدروعهم وحرابهم متنافسين على شهود هذه اللؤلؤة الجديدة، مظهرين سرورهم واعجابهم، وقد حاولوا أن يضعوا أصابعهم على قذارتها في فم الطفل ليلمسوها ، فوقفت في وجوههم ومنعتهم من أن يفعلوا وامرتهم أن يخرجوا في الحال من الغرفة ، ونبهت « عزيرو » الى ما ينبغي أن يكون عليه في مثل هذا الموقف من الاحتفاظ باتزانه ووقاره ، ولكنه قال في سذاجة : قد أكون ــ حقا ــ نسيت نفسي وأحدثت هرجا فوق المألوف ، ولكن ما أكثر ما قضيت من ليال ســـــاهرا متوجع القلب بجانب طفلي هذا ! .. يجب

ان تعلم يا « سنوحى » انه ولدى الأول وولى عهدى وجوهرة حياتى وقرة عينى ، وسيحمل فوق راسه يوما ما تاج « عمورية » ويحكم اقواما كثيرين ، وانى لأعمل جاهدا على أن تكون بلادى مملكة عظيمة ، فماذا يكون أمرها اذا لم يكن لى ولد يلى حكمها ويخلفنى فى رئاستها ، ويمتد به ذكرى ومجدى فى مستقبل أيامها ؟ ! . ولهذا فانى اراك قد أسديت لى فضلا سأحفظه لك ما حييت ، اذ أحييت فى نفسى أملا عزيزا كان قد مات ... وانك لترى ان ولدى هذا جدير بأن يكون خليفتى فى الملك .. أنظر اليه جيدا ، فهل رأيت فى كل ماطفت من بلاد طفلا فى مثل ظرفه وجماله ؟ ! وهل رأيت فيمن رأيت من أطفال العالم شعرا كثا كشعر راسه وهو بعد لا يزال فى مهده ؟ ! ان كل شىء فيه ليدل على العظمة والسمو والجمال ووثاقة البدن ، حتى سنه الأولى لتبدو فى فمه نادرة المثال ليس كمثلها فى افواه الأطفال سن !..

وضقت صدرا بهذه الثرثرة الحمقاء ، ورغبت اليه فى أن يكف عنها لأنى مجهد من الرحلة الشاقة .. فربت بيده على كتفى ، ودعانى الى حجرة أخرى حيث قدم لنا طعام شهى ، مختلف الألوان ، فى أطباق من فضة ، وشربنا النبيذ فى أقداح من ذهب ، حتى شعرت بالراحة والانتعاش ، ومن ثم تجاوزت عن حماقته ، أو لعلى قد نسيتها !..

وبقيت فى ضيافته بعد ذلك أياما ، كنت فيها موضع تكريمه وحفاوته . وقد أهدى لى الكثير من النفائس الذهبية والفضية . ومما اثار ملاحظتى ان ثروته زادت زيادة كبيرة عما كانت عليه عند مقابلتنا السابقة . وعندما أردت استدراجه لمعرفة أسباب هذه الزيادة التى تبدلت بها حال بلاده من فقر الى غنى ، لم يزد سببا واحدا سوى الحظ ، الحظ السعيد الذى حالفه منذ أن تزوج من « كيفتيو » التى اهديتها اليه ... وكان يقول هذا وهو يتهلل ضحكا ويشرق سرورا ، تعبيرا عن عواطف المحبة التى يختص بها فى نفسه هذه الزوجة مصدر الخير والنعمة دون زوجاته الأخريات من بنات زعماء القبائل ، اللائى كان زواجه منهن قائما على ضرورة تحالفه مع آبائهن !..

وفى مبالغة ظاهرة ، كانت « كيفتيو » تبدى نحوى احتراما وودا ، وتقبل على دائما لتحيينى فى ابتسام وغبطة ، وتتحدث الى عما هى فيه من ثراء وعز ووافر سعادة ، مما لم يكن يخطر من قبل على بالها ، داعية لى بالخير لأنى كنت السبب فى هذا ، وكنت مطمئنا الى صدق شعورها ، وان كنت فى شك من أنها قد نسيت عصاى التى طالما ألهبت

ظهرها ! .. ولكن لا بأس عليها من تذكر عصـــــاى ، فهذا خليق أن يشعرها بلذة ما صارت اليه بعد ذلك من متاع ورغادة ، وبضدها تتبين الأشـــــياء ..

وكان «عزيرو» فيما عدا الحديث المفضل عنده عن ولده وزوجته « كيفتيو » لا يفتأ يحدثنى مفاخرا عن عظمته كملك على بلاد عظيمة !.. مشبعا بذلك غروره ومحاولا أن يرسم فى ذهنى - وقد علم أنى كثير الرحلات والأسفار - أنه خير من رأيت من ملوك ، وأن بلاده خير ما رأيت من بلاد . وفى غمرة زهوه وغروره ذكر لى أشياء كثيرة مما كان ينبغى أن يحرص على كتمانها ، ولا ريب فى أنه قد ندم على ذلك فيما بعد . وقد عرفت منه أن الرجال الذين اعتدوا على فى « أزمير » وكادوا يقتلوننى انما هم من رجاله الذين ارسلهم الى هناك ، وأنه قد علم منهم أنى لم ابرح بعد « أزمير » ، فأرسل فى طلبى لانقاذ ولده ، وأخذ يعرب لى عن آسفه لما حدث ، معتذرا بأنى لم أكن مقصودا لشخصى ، ولهذا فانهم نفضوا أيديهم منى عندما بان لهم أننى « سنوحى » صديقه .. واستطرد قائلا : فى الواقع ان رءوس الكثير من المصريين تهتـــز الآن لتهوى عما قريب مهشمة ، وان الكثير من الجنود المصريين ســـــيجدون فى البحر متسعا لأجسادهم المتراكمة حينما يلقى بهم جميعا اليه ، وسيحدث هذا قبل أن تفرغ « أزمير » و « بابل » و « صيدا » و « غزة » من مشاوراتها ، لاعتقـــادها بأن المصريين ليسوا على ما يهول من البأس والشدة ، وأن أمرهم أهون من أن تخشاه هذه المدن مجتمعة ، ولا يتطلب الأمر الا زعيما قويا يقود الثورة ، ويشعل الهمم ، ويؤجج المشـــاعر ، وينير الطريق أمام الناس . فالتجار السوريون أهل حرص وحــذر ، يخافون على أموالهم ومتاجرهم ، وأمراؤهم مثلهم بل هم أشد حرصا وخوفا على ســـــلطانهم ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء عامة الناس ، لهم مثـــل قوة الثيران ، ولكنهم كالثيران أيضا لا يتحركون الا فى مقادة ولا يخطون خطوة بغير زمام .. فلا مناص اذن من ذلك الزعيم المرتقب ! ..

قلت ، وقد عرفت مرماه : ولماذا يقع هذا يا « عزيرو » ؟ ! وكيف أصبح المصريون عندك بهذه المنزلة من البغض والكراهية ؟ ..

قال فى ابتسامة ماكرة : ومن قال انى أكره المصريين يا «سنوحى» ؟! كلا ، اننى لا اكرههم ، وربما لا أستطيع أن اكرههم لأنى نشأت فى بيت « فرعون » الذهبى ، كما كان أبى ، وكما كان بقية الأمراء المصريين ، وهناك تعلمت أن الشعوب جميعا سواسية فى طباع الشجاعة والجبن ،

والقسوة والرحمة ، والفضائل والرذائل على وجه عام . وقد بدت هذه الطباع جلية أو صارخة ، في مصر وسوريا على درجة سواء ، وكما يحدث في غيرهما من الأمم ، فهما مستهدفتان حتما للقطيعة بعد وصل، والعداوة بعد حب ، ولا يكون هذا بدعا في الحياة ، فالأيام دواليك ، يوم لك ويوم عليك .. وتسليما بهذه الحقيقة التي ينبغي أن نؤمن بها ، يصبح الوضع بالنسبة لي على غير ما تتصوره ، فأنا لا أكره المصريين ، وانما أستخدم شعور الكراهية سلاحا للوقيعة بين «مصر» و « سوريا » ، وأنه لسلاح أشد فعلا وفتكاً من سائر الأسلحة الأخرى عندما يكون الأمر متصلا بتأليب الجماعات وتحويل قلوبها ودفعها الى هدف معين ، وما غايتي التي تبررها هذه الوسيلة الا تحرير « سوريا » من سيادة « مصر » ، وهي غاية كبيرة عظيمة ترخص في سبيلها أية تضحية ، ولهذا فاني عامل ، جهدي ، على اشعال الفتنة بين المملكتين ، ولن أكف عن ذلك حتى يتحقق الانفصال بينهما ، أما عنصر هذه الفتنة ومساكها فهو تصوير المصريين في كل مدن سوريا ومجتمعاتها بأنهم جبناء قساة ، طامعون مفسدون في الأرض ، وهكذا حتى يهيج في الجميع شعور الكراهية للمصريين فيتمردوا عليهم ، ويثوروا ضدهم . والكراهية دافع قوى يزحزح الجبال !..

قلت له ، وأنا أخفي استنكاري وضيقي : ولكن هذا الذي تصف به المصريين ليس حقا ، وأنت أكثر من غيرك علما بذلك !..

ولكنه هز كتفيه استخفافا ، وزم شفتيه استياءا ، وقال : اى حق يا «سنوحي» ؟! ومتى كان حقا لمصر أن تحكم «سوريا» ؟! ومتى كان حقا لها أن تمتص دماء السوريين ! ! انه ليس من الضروري أن يكون كل ما نصف المصريين به صحيحا ، فانما هو ، كما قلت ، وسيلة الى غاية تباح في سبيلها كل الوسائل . والحق الذي لا يؤمن السوريون بحق سواه ، هو أنهم أحرار يحبون الحرية ، أكثر مما يخافون الموت والجوع ، وأنهم ليبذلون في سبيلها أغلى ما يملكون من مال وأرواح ... إن فكرة الحق الجديدة التي أدعو اليها وأجمع الناس عليها ولن أدعهم حتى يؤمنوا بها جميعا ، هي أن « مصر » احتلت « سوريا » بالحديد والنار والدماء ، وان اجلاءها عنها لن يتحقق الا بالوسيلة نفسها : الحديد والنار والدماء ؟ ! ..

قلت له : ولكن ما هي تلك الحرية التي ستدعوهم اليها وتستحثهم للفناء فيها ؟ !

فرشقني بابتســـامة لطيفة ، وقال : الحرية كلمة مؤثرة ذات سحر ، ولكنها تختلف فى الناس اثرا ومعنى ، كاختلاف النغمة الواحدة في آذان مستمعيها وأذواقهم ، وهي في ســـائر الأحوال أمنية عزيزة محببة ينشدها الجميع ، ويسعون اليها ، ويتقاتلون من أجلها ، ولكنهـا حينما تخلص اليهم بعد الجهد لا تســـتطيع أن تحيا فيهم على أقدار متساوية ، فمن الخير لها ان يحتفظ بها أقواهم ، لتظل فى يده مصونة مكتملة عنـــاصر القوة ، واني لواثق من أن ارض « عمـورية » هذه ستسمى فى يوم قريب مهد الحرية ، فالعموريون بأسرهم يطلبونها ، ويتنافسون في نيلها ، وهم وان كانوا ، كغيرهم من الأمم التى تؤمن بكل كلام يقال لها ، أشباه قطيع من الأغنام يملأ الطريق متكاثفا ، الا انهم عندما يلى أمرهم قائد قوى بصير يصبحون قافلة من الأسود ، وأرى انى أنا ذلك القائد المختار ...

قلت له : يا صديقى « عزيرو » . . انك لا تدرى أى كلام خطير يدور على لسانك !. فلو أن « فرعون » قد سمعه ، لأرسل على الفور جنده وحزابه وعجلاته الحربية لقتالكم وهدم أسواركم ، ثم تساق أنت وابنك اليه ليعلقكما ، وراساكما الى أسفل ، فى مقدمة سفينته الحربية وهو عائد الى « طيبة » ..

قال « عزيرو » دون ان تفارق الابتسامة وجهه : اما من ناحية « فرعون » فانى لا ارى خطرا يتهـــددنى ، فقد تلقيت من يديه رمز الحياة ، واقمت معبدا لالهه ، وهو يثق بى أكثر مما يثق بأى شخص آخر فى سوريا ، بل أكثر من سفرائه وضباط حاميته الذين يعبـدون « آمون » ... ومع هذا فانى أريد أن أريك شيئا قد تجد فيه تسلية وترفيها ! ..

وقادنى الى الأسوار حيث رأيت جثة آدمى عارية ، تيبست وهى معلقة فى الهواء من اعقابها وقد تهالك الذباب عليها ، وقال لى وهو يشير الى الجثة مزهوا . انظر من قريب ... فسترى من ختان هذا الرجل أنه مصرى ! .. وقد كان جابيا من جباة « فرعون » سولت له نفسه أن يناقشنى فى أسباب تأخرى عاما أو عامين فى أداء « الجزية » ، وفاته ـ لفرط جهله وغروره ـ أن اللحوم ليست كلها صالحة للأكل !.. فكان جزاؤه كما ترى ، ولا يزال معلقا هكذا دليلا على أن المصريين لم يعد لهم هنا ذلك السلطان القديم ، وصار محققا أنهم لا يستطيعون القدوم الى بلاد « عمورية » ، حتى لو جاءوا فى جمـــاعات قوية ، وقد شاع هذا

الشعور فى الناس جميعا ، فالتجار أصبحوا لا يدفعون شيئا من الضرائب لجباة « مصر » ، وانما يدفعونها لى أنا عن يد وهم صاغرون . ولعلك مدرك واقع الأمر حينما تعلم أن مدينة « مجدو » قد صارت تحت سلطانى ، تدين لى بالطاعة والخضوع ولم يعد لرجال الحامية المصرية فيها كلمة تطاع ، بل انهم ليلوذون بحصونهم على خوف وترقب، ولا يجترئون على الظهور فى شوارع المدينة ...

فقلت له فى فزع واستنكار : ان دم هذا الرجل المسكين ليقع على رأسك .. ولئن استطعت أن تنكل به على هذه الصورة الوحشية لأنه وحيد بين جندك وقومك ، فما أحسبك مستطيعا أن تدفع غدا عن نفسك الجزاء الحق الذى يعدل فعلتك النكراء ، فان « مصر » قد تتسامح فى أى شىء الا أن يقع الاعتداء على جباة ضرائبها ! ..

وكان الرجل مغرورا ، فأردت أن أنبهه الى أن مصر بثرائها وقوتها أعز وأمنع من ان يطاولها مثله ، فما يزيد شأنه على القربة التى يملؤها الهواء فتبدو شيئا ضخما ، ولكن وخزة صغيرة فى احد اطرافها تحيلها فى لحظة خاطفة الى لا شىء !..

ولكنه اشتط فى غروره عندما قطع الحديث ضاحكا ملء شدقيه وقد انحسرت شفتاه عن أسنانه الذهبية التى كان لا ينى عن اظهارها والادلال بها ، ثم أمر بمزيد من الشواء فجىء به على أطباق من الفضة ثقيلة الوزن .. وكأنما أراد أن يظهرنى بهذه الطريقة ، على مبلغ ثرائه وكفايته ! . .

وكانت الحجرة التى اتخذ منها ديوانا لادارة اعماله محتشدة بالألواح الطينية ، ولم ألق لها بالا . ولكنه ، عامدا ، راح يذكر لى انها ملآى بالمخابرات السرية عن جميع مدن « سوريا » ، ومن بينها رسائل من ملك الحيثيين ومن « بابل » فهو لا يجهل شيئا من أسرار تلك البلاد ، وعيونه المنبثة هنا وهناك لا تخفى عليها خافية ، وقد بدت فى حديثه رغبة خاصة ليسمع منى كثيرا عن بلاد الحيثيين ولكننى لاحظت أنه يعرف عنها اكثر مما أعرف ، فقد كان سفراء الحيثيين يزورونه وبينهم وبين ضباطه ورؤساء قبائله وشائج وصلات ..

وكان الموقف واضحا . فهذا الملك يسير على سياسة التحالف مع الآخرين لتكون ثمة جبهة قوية منهم للتحرر ـ فيما يزعمون ـ من سلطان المصريين .

قلت له تعقيبا على هذه السياسة التى لم يعد ينقصها الانكشاف والوضوح : من السهل أن يتحالف الأسد وابن آوى فى سبيل اقتناص فريسة ، ولكن ليس من السهل بعد اقتناصها أن يقتسماها . وعلى افتراض ان الأسد سيرضى عندئذ بمقاسمة ابن آوى ، فهل تحسب انه معطيه شيئا أكثر مما يتفلت من بين شدقيه وهو يلتهم الفريسة ؟!

وعاد « عزيرو » الى ضحكاته ، وراح يداورنى ، مجريا الحديث معى فى مجرى المخادعة ، فقال : ان غايتى العظمى مما ترى انما هى البحث عن كل جديد ، وهى فيما أعلم الغاية نفسها التى تجرى أنت وراءها ! .. انى اشعر دائما بأن لذة الحياة ليست الا فى الاستزادة من المعلومات والمعارف ، ولهذا كان بى ظمأ شديد الى الاحاطة بكل ما يقع فى العالم من أحداث وامور ، على انك أوفى منى فى هذه الناحية حظا ، فانت حر طليق كالعصفور يتنقل خفيفا من مكان الى مكان ، ومن جو الى جو ، متى اراد ووقتما شاء ، اما انا فمثقل باعباء الحكم ومسئولياته الكبيرة ، وهى تقيدنى وتستغرق كل وقتى .

واستطرد يقول : وانت « يا سنوحى » قد علمت بالطبع أن لدى الحيثيين أسلحة حديثة ، الى ما توافر لهم من مهارة وقوة تجربة ، أفلا ترى أنه من الخير أن نستفيد هنا بضباطهم فى تدريب زعماء قبائلنا على فنون الحرب ؟! ... وقال مستدركا : اننا حينئذ نستطيع أن نكون من القوة بحيث نؤدى لفرعون خدمات كثيرة اذا مانشبت حرب ، وانك لتعلم أن « سوريا » ، وهى بلاد قوية المراس ، تعد درع « مصر » ، ومع ذلك فمالنا ولهذا الآن ! .. فلندعه الى وقته ! ..

وأثارتنى عبارة : « اذا ما نشبت حرب » ، فذكرت لفورى « حورمحب » ووجوب عودتى لمصر ، فقلت : لقد استمتعت بضيافتك وقتا طويلا ، وسأذكر دائما أنه كان وقتا طيبا ، والآن أرجو أن تهيء لى محفة تحملنى الى « أزمير » ، فانى لم أعد أقوى على السفر فوق هذه العجلات المزعجة التى أوثر أن أضرب بالهراوة والسوط على ان اركبها . ومن يدرى ، فقد لا نتلاقى قريبا ، أو ربما لا نتلاقى ابدا ، فاننى لن أبقى فى « أزمير » ، فقد أصبحت بالنسبة لى فى وحشة القفر ، وحسبى منها ذلك الزمن الذى قضيته فيها ، وحسبى من أهل « سوريا » ما أصبت من أموالهم ، فما أرانى محتاجا بعد الى اطالة المكث بينهم . ولهذا فانى عندما أعود الى « أزمير » سأبحر منها الى « مصر » ، فقد استحر شوقى الى مياه النيل الحلوة ...

قال « عزيرو » : ان القلق البادى فى عينيك ينبىء بأنك لا يمكن أن تستطيب المقام فى مكان واحد ، وكم أود لك الاستقرار ، فانه أجدى عليك من هذه الحركة الشتيتة المضطربة ، التى تشبه حجر الرحى ، يدور ويدور ، ولا يعلق به شيء مما يطحن ! . .

وأمر اتباعه فجاءوا بالمحفة ، وزودنى بهدايا كثيرة ، وودعنى وداع الصديق للصديق ، ورافقنى حراسه لحمايتى مما يتعرض له أى مصرى فى ذاك الوقت ، فلم يدعونى حتى بلغت « أزمير » .

على أنى وأنا أخطو من باب « أزمير » أطلق فوق رأسى سهم لو انه انحرف قليلا لأصاب منى مقتلا ، فاضطربت لهذا اضطرابا شديدا ، وأسرعت الى منزلى وقلت « لكابتاح » أول ما وقع عليه نظرى : اجمع متاعنا ، وتصرف بالبيع فى هذا المنزل ، فاننا عائدان الى « مصر » فى الحال . . .

- ٣ -

وعلى ظهر السفينة التى تبحر بنا الى « طيبة » ، اخذت اغدو وأروح بين اكوام من لفائف الأمتعة واكياس البضائع ، لا يكاد يقر لى قرار ، فالحنين الى « طيبة » ــ مهد طفولتى ومغنى صباى ــ كان يستبد بى حينذاك ، وشوقى اليها كان يعلو فى نفسى على كل ما سواه ، وكنت ما ازال احس برائحة « أزمير » تختلط بأنفاسى كأنها تأبى الا أن تلاحقنى وأنا مرتحل عنها ، ولكنها كانت فى الواقع تهيج عندى ذكرى وطنى وتستحثنى على العودة اليه ، فما أشد ما سئمت هذه الشواطىء الصخرية الجرداء ، وما أكثر ما تمنيت أن تبدلنى بها الآلهة تلك الأرض الطيبة المرعة التى ليس كمثلها فى بقاع الأرض خصب وازدهار ونماء زروع . . .

كان تفكيرى كله متجها الى « مصر » ، وطنى الحبيب ، حتى أن السفينة حينما ألقت مراسيها على آخر ميناء فى الساحل السورى لم أجد فى نفسى أية رغبة فى التأمل والاستطلاع بغية الحصول على ما قد يكون هنالك من جديد أتزود به فى اللحظة الاخيرة من هاتيك البلاد ، ذلك على الرغم من أن مظاهر الحياة التى شهدناها فى وقفتنا بهذا الميناء كانت تغرى باطالة النظر والذهاب بالفكر الى أعماقها . فالربيع

كان قد انعكس على وديان « سوريا » فبدت التلال المتناثرة على مبعدة من الشاطىء فى لونها الأحمر الذى يشبه لون النبيذ ، وعلى مشارف الميناء كان زبد الماء يضطرب ويتدافع ثم ينحسر فى ألوان من الخضرة الشفافة ذات الجمال ، وخلال هـــدير الموج كانت تترامى على آذاننا أصـــوات الجموع المتكاثفة على الشاطىء من بائعى الأسماك وتجار السلع الأخرى ومستقبلى الهابطين من الســفينة ومودعى الصـــاعدين اليها ، ومع اصواتهم اخلاط من اصوات الحيوانات ومنها الحمير المتجمعة هنـــالك استعدادا للركوب وحمل الاثقال . وفى هذا الزحام ، وفى هذه الضوضاء ، كنا نسمع كذلك اصوات كهنة « بعل » مجلجلة فى الأزقة الضيقة ، حيث يخدشون وجوههم بالسكاكين حتى تسيل منها الدماء ، والنســـوة يتبعنهم بعيونهن المتلهفة وشـــعورهن المســـدولة وهن يدفعن أمامهن عربات يد خشبية ..

ولكن اين انا من كل هذا ؟ ! .. وما حاجتى اليه ؟ ! انه لا جديد فيه ، وقد رأيته كثيرا حتى سئمته . وانى لأشـــعر ، بأن شـــيئا مما عشت فيه من مختلف العادات والتقـــاليد والمعتقدات وبين مختلف الأقوام والأجناس والبلدان ، لم يعد يثير فى نفسى شيئا من الاهتمام . لقد كان هدفى من هذه الرحـــلة على طولها هو كشف الأسرار وجمع المعلومات والاستزادة من المعرفة ، وربما اقتضانى هـــذا الهدف أن اندمج فى الحياة الغريبة التى عاشرت فيها أقواما غرباء ، ولكنه كان اندماج الذى يمثل دورا فى قصـــة ، فاذا انتهى الدور عاد الى حقيقته واصالة عنصره ، وذلك هو شانى وانا أولى وجهى شطر بلادى ... فأفكارى وعواطفى كلها متعلقة بالأرض السوداء التى طال بعدى عنها ، واشتد شوقى اليها ، وكانت تلك الأفكار والعواطف منصرفة الى آفاق كثيرة حاشدة بالحقائق والأحلام والأمانى ، كانت تحلق بى الى «طيبة» وازقتها ، فأستروح فيها روائح الأسماك عند اقبال المساء تنبعث من النيران التى توقدها النســـوة أمام أكواخهن الطينية ، وتذكرنى ، الى هـــذا ، بالنكهة الحلوة المذاق من نبيذ « مصر » ، ومياه النيل ممزوجة بطميها المخصب ، كما تذكرنى بالنسائم المعطارة تنفثها ـ خلال حفيف أوراق البردى ـ أزهار « اللوتس » المتفتحة على الشاطىء ، ثم شـــذا الطيب شائعا فى الجو بين اعمدة المعابد المزينة بالصور الملونة ، ولهـــذا تجردت من كل فكرة وكل عاطفة اجنبية ، ونضوت عن جسمى ملابس الغربة حتى أعود مصريا على حقيقتى ..

كانت تلك هي حالي وجماع شـــعوري ، ناسيا اني عائد الى وطن ليس لى فيه دار ، حيث عانيت الأهـــوال فيـــه ما عانيت ، حتى كنت اعيش فيه وكأنى غريب عنه ، ولكن الزمن ، وأخطار الرحلة ومغامراتها فيما كنت أدعوه تحصيلا للمعرفة ، قد تراكمت ، كالرمال ، على ما يثقل قلبى من هموم قلبى الماضية ، فلم اعد اشعر من ذكراها بما هو خليق ان يثير فى نفسى الأسى والخجل .

وتابعت السفينة سيرها ، تستحثها المجاديف كأنها تستجيب الى لهفة قلبى وفرط حنينه ، أو كأنها تمضى هى الأخـــرى هاربة من بلاد اكثر ما فيها البغض والقلق . وما كادت تقتـــرب بنا من شـــواطىء « سيناء » الحمراء ، حتى أحسسنا رياح الصـــحراء تهب علينا حارة على الرغم من جو الربيع الذى كان ينشر فيما عداها هواء لطيفا ونســـيما عطرا ، ولكنها الصحراء القـــوية الجبـــارة مرسلة دائما على طبيعتهـــا الثائرة ، غير مقيدة بنظام الفصول وأجوائها ! . .

وفى صباح يوم تال ، اســـتيقظنا فرأينا مياه البحر قد اتشحت باللون الأصفر ، وعلى غير بعيد من الشاطىء بدا لنا شريط من الأرض مزركش بالخضرة ، والايراق وألقى البحارة فى الماء جرة ثم استعادوها ملآى فشربوا وشربنا منها ماء حلوا .. لقد كان من مياه النيل ، ولهذا كان فى فمى أحلى مذاقا من شراب النبيذ ! ..

واهتزت جوانحى غبطة واستبشارا لبلوغنا أرض الوطن العزيز . . غير أن « كابتاح » لم يكن يشاركنى هذا الشعور ، فقد قال فيما يشبه السخف والبلاهة : وماذا فى ماء النيل الا انه ماء ؟ ! والماء فى كل مكان وفى كل معدة ، هو الماء . . فدعنا يا سيدى من هذا الخيال وتريث حتى نعرج الى حانة يكون صاحبها رجلا شريفا ذا ضمير يقدم لنا الجعة صافية يتوجها الزبد اللطيف ، ولا تشـــوبها قشور الحب التى كثيرا ما كنا نريقها على الأرض ، تخلصـــا منها ، فى بعض حانات التجار غير الشرفاء ! . . فاذا لم نشرب هـــذه الجعة الصـــافية فى حانة الرجل الشريف ، فلن نشعر باننا ، حقيقة ، أصبحنا فى أرض الوطن . .

قلت له ، متضايقا من سخفه وبلاهته : بل يجب أن تتريث أنت أيها الأحمق حتى أجد العصا لاقناعك ، فبغيرها لن تفهم أو تشعر ، ذلك لان الرقيق هو الرقيق ، وان ارتدى مثلمـــا ترتدى أنت الآن من ملابس صوفية رقيقة .

فلم يزعجه منى هذا التهديد ، ولكن دموعا طفرت من عينه فبادر

الى تجفيفها وقال وهو ينحنى امامى : فى الواقع يا سيدى ، أنك أوتيت موهبة ممتازة تلهمك الكلام المناسب ، فى الوقت المناسب ... فلقد كدت أنسى لذة وقع العصا الرفيعة على الساق أو الظهر ، وانى اليها لفى شوق شديد .. وقد لا تعرف مدى لذتها الا اذا تهيأت لك تجربتها عمليا ، ولهذا أنصح لك بهذه التجربة .. فسترى أنها أكثر امتاعا من الماء ومن الجعة ومن شذا الأزهار ، ومن منظر البط البرى وسط حشائش البحيرات ، وسترى انه ما دام مطلوبا من كل انسان منا أن يلزم مكانه ويقف عند حده ، فان الضرب بالعصا - اذن - أصدق تعبير عن حياتنا الواقعية ، والا فشت الفوضى واختلت الصفوف واضطرب النظام !.. ولقد جددت عندى ذكرى هذه العصا ، فشرحت صدرى وابهجت خاطرى ، فلك ثنائى وشكرى ، ومرحى بعصاك التى تردنى الى الماضى الحبيب ، الى حيث أعود فأندمج فى حياتى بمصر ، وطنى ، ومهوى فؤادى ، بعد الذى قاسيت فى غربتى الطويلة من غرائب ومزعجات !..

قال « كابتاح » هذا وهو يصطنع الجد والتأثر ، ولكننى كنت موقنا من انه ، على عادته ، يداجينى فى دهاء ، ويخلط السخرية بالسذاجة ، استدرارا للفكاهة والمرح ، فاشحت عنه غير معقب على حديثه ، بينما أخرج هو جعرانه لينظفه ويجلوه ، وقد لاحظت انه لم يعد يستعمل فى ذلك ، الزيت الجيد الذى كان يستعمله من قبل ، فلم يدهشنى منه انه اصبح لا يحتفل بالجعران المقدس ، فقد كان يقترب من ارض الوطن ، وهو انما يحتاج الى الجعران فى الغربة البعيدة ، ولهذا كانت عنايته به تضؤل وتقل بمقدار دنوه من الساحل المصرى !..

وعندما رست السفينة على شاطىء المملكة السفلى ، وشهدنا من قرب عمال الميناء وحماليه المصريين بملابسهم التيلية ووجوههم السمراء وذقونهم الحليقة وحركاتهم الخفيفة ، احسست كأنى قد تخلصت من عبء ثقيل ، فالواقع أنى كنت قد ضقت صدرا بالملابس السورية ذات الألوان الزاهية وبوجوه السوريين المكسوة باللحى غزيرة الشعر ، وبأبدانهم المنبسطة المترهلة ! ..

وبعد أن انجزت اجراءات الميناء ووقعت لموظفيه على كثير من الأوراق ، مضيت على عجل ، فاشتريت ملابس جديدة من نسيج الكتان وارتديتها ، اذ كانت أكثر ملاءمة لجسمى من بقايا الملابس

السورية المنسوجة من الصوف ، وأبى «كابتاح» الا أن يظل مرتديا ملابسه السورية لاعتقاده أن اسمه لا يزال مقيدا فى قائمة الأرقاء الهاربين ، وهو يخشى لو استبدل بملابسه ملابس مصرية أن تشى به وتدل عليه فيقع فى الشر الذى يفزع منه .. وعبثا حاولت أن انبهه الى انه لا موضع للخوف من ذلك بعد أن ظفرت له بشهادة مسجلة على أحد الألواح الطينية من سلطات « ازمير » بأنه من أرقاء سوريا المولودين بها ، ذلك لأن الخوف كان يركبه الى حد بعيد ! ..

وانتقلنا بأمتعتنا الى قارب صغير استأنفنا الرحلة به فى مياه النيل ، وقضينا أياما كنا نوغل خلالها فى صميم الحياة المصرية ، فعلى جانبى النهر كانت الأرض السوداء الطينية تتجمل بأشجار النخيل والجميز والتوت ممردة باسقة ، تتدلى ثمارها وأوراق غصونها ، وتنشر ظلالا على الأكواخ فى القرى المتناثرة ، وهنا وهناك أنعام وثيران تجر المحاريث وتثير بها الأرض وتدور دورانا متصلا على موارد الماء لتدفع به فى القنوات والمسارب . والطيور ، محلقة فى الجو أو متعلقة بأغصان الشجر أو متجمعة على الأرض تلتقط غذاءها ، كانت اذ ذاك تغرد تغريدا تطرب له النفوس الحزينة ، وتنتشى له القلوب الآسية .

ومررنا فى رحلتنا النيلية هذه على كثير من البلاد ، وكنا نتلبث بها بعض الوقت ، ولكنها كانت خالية من الحانات التى كان يطمع «كابتاح» فى أن يجد بها كأسا من الجعة المصرية التى اشتد ظمؤه اليها ، كما يطمع أن يجالس فيها ناسا على مائدة شراب ليقص عليهم شيئا من قصصه الغريب ... وقد ساءه ألا يجد ، طوال أيام عدة ، حانات ولا جعة ولا رفاق شراب ! ..

ولاحت لنا أخيرا التلال الثلاثة التى تقوم مقام الحارس على مدينة « طيبة » من الناحية الشرقية ، ولاحت بعدها المساكن المتجاورة ، من القرى الفقيرة الى الضواحى الغنية ، ثم بدت فى وضوح أسوار « طيبة » عالية شاهقة ، فرأيت سقف المعبد الكبير وأعمدته والمنازل المحيطة به التى لاتكاد تحصى عددا ، وكذلك البحيرة المقدسة ومدينة الموتى فى الناحية الغربية ممتدة بعيدا الى التلال ، ووسط منحدرات الرمال الصفراء كان يبدو المعبد الذى يثوى فيه الفراعين ، ساطعا ببياض لونه . وخلال صفوف الأعمدة بمعبد الملكة العظيمة كانت تظهر الأشجار المزدهرة وارفة الظلال . وقريبا من التلال كنت ألمح الوادى المحظور وأتخيله بحياته وأفاعيه . والى جوار قبر فرعون العظيم كانت ترقد الى الأبد جثتا أبى « سنموت » وأمى « كيفا » ، وقد تمثلا فى خاطرى حينذاك كأنهما

يهتفان بجرمي ويلعنان ماخفي من اثمي ‥ وبعيدا الى الجنوب على الشاطيء برز بيت فرعون الذهبي ، فخما وسط أسواره وحدائقه • وهنا ساءلت نفسي : أيكون صديقي « حورمحب » لا يزال مقيما فيه ؟! ‥

وخرجنا من القارب عند مرسى حجرى معروف ، ولم أجد شيئا قد تغير • وهذه هي الشوارع التي قضيت فيها طفولتي ما زالت على حالها • وقد جاشت حيالها ذكريات مؤلمة ، فما كان يخطر ببالي قط وأنا أمرح بين أفواف طفولتي أنني سأكون سببا في القضاء على حياة أبي وأمي ، ومن هذه الناحية تحركت أشجاني القديمة التي حسبت أن الزمن قد محاها من صدري ، فاذا هي تنتفض قوية ، وتثور متقدة ، كأنها وليدة الأمس ، وخيل الي ساعتئذ أن الدنيا بكل من فيها وما فيها أياد تشير الى استنكارا وسخطا ، فتمنيت لو أن لوجهي غطاء أتخفى به عن النـاس ، وأستر به جريمتي وخجلي ! ‥

وبدد هذا الشعور في نفسي كل ما كنت أشعر به من غبطـــة لعودتي ، فلم يتفتح قلبي للمدينة الكبيرة ، التي كان ضجيجها يتردد في أذني ، كما لو كان دقات مطارق على الحديد المصهور •

ولم أكن قد رسمت خطا أسير عليه عند عودتي ، تاركا هذا الى ما سوف يسفر عنه لقائي « لحورمحب » ومعرفة مركزه ومدى قوته في القصر • غير أني بعد وصولي الى الميناء وبعد أن تزاحمت في رأسي الذكريات والأفكار ، قررت أن يكون خط سيري المرسوم متجها الى خدمة المرضى الفقراء ، وأن تكون حياتي بينهم ألوانا من البساطة والسلامة واستخدام التجارب التي نضجت في نفسي ، ولا يعنيني بعد هذا شيء مما كنت أفكر فيه من شهرة وثروة وهدايا سخية لقاء المعلومات الهامة التي ندبت لها واحتملت العناء في سبيل جمعها •

وقلت « لكابتاح » ونحن لما نبرح الميناء بعد : دع متـــاعنا في القارب ، وامض على عجل فاشتر لي منزلا قريبا من هذا الميناء ، وليكن بالذات في حي الفقراء ، وعلى مقربة من دار أبي قبل هدمها •

وبدا على « كابتاح » أنه لم يفهم ماذا أعني بهذه المفاجأة ! ‥ فما معنى أن نحتجز الأمتعة بالقارب ، وأن أبقى أنا الى جوارها ، بينما أرسله بمفرده ليشتري دارا في مكان معين ؟! ‥

فصرخت في وجهه أستحثه على الذهاب قائلا : لن أبرح مكاني حتى تعود ، وليكن هذا سريعا ، لننتقل من هنا رأسا الى الدار الجديدة ، وفيها — من الغداة — أباشر عملي كطبيب •

ولم يرق هذا له ، لأنه كان يعتقد أننا لأول عودتنا الى « طيبة » سنهبط على خير ما فيها من فنادق حيث يجد مقاما طيبا ، ومتاعا وافرا ، وخدما من الأرقاء يأتمرون بأمره · ولكنه ، وقد رآنى أنحو نحوا آخر ، وأقرر ، فى اصرار ، قرارا مضادا ، لم يستطع الاعتراض وذهب عنى وهو يكظم الغيظ وخيبة الأمل ·

وعاد مع مغرب الشمس لينبئنى أنه اشترى منزلا كان يملكه تاجر نحاس ، فى حى الفقراء ، غير بعيد من الميناء · فانتقلنا اليه بأمتعتنا ورأيت عن كثب ، النيران الموقدة أمام أكواخ الفقراء ، وشممت رائحة السمك الذى ينضجونه على هذه النيران تنتشر متكاثفة فى أجواء ذلك الحى البائس المريض · وبعد قليل أضيئت المصابيح فى واجهات دور المباذل وترامت على آذاننا نغمات الموسيقى السورية مختلطة بصراخ البحارة ، وتراءت السماء من فوق « طيبة » مشوبة بالاحمرار ، أو هكذا يخيل الى الناظر ، لكثرة ما ينعكس هنا وهناك من الأضواء الكثيرة فى أحياء المدينة ·

وهكذا ، عدت الى وطنى وقومى ، بعد طواف طويل مضن فى انحاء شتى من العالم ، جمعت فيه ما استطعت من معرفة ·

- ٤ -

وقلت « لكابتاح » فى صباح اليوم التالى : نحن الآن فى حاجة الى لافتة ، نضعها على باب المنزل معلنة عنى كطبيب ، فاذهب لشرائها ولتكن لوحة بسيطة بلا نقوش أو زخارف ، واذا سألك أحد عنى فلاتذكر شيئا مما تعودت أن تغلو فيه عن قدرتى وشهرتى ، ولا تزد على قولك ان « سنوحى الطبيب » يستقبل المرضى ، وان الفقراء والأغنياء عنده سواء ، ولا يتقبل الهدايا من أى منهم الا على قدر ما يطيق ·

ومرة أخرى اعتاده الضيق والبرم ، فالتعامل مع الفقراء واظهار الزهد فى الهدايا ، أمر لا يرى فيه سوى خيبة أمل ، فقال : يا سيدى ما أراك الا فى عافية ، فلم تشرب من مياه المستنقعات ولم يلدغك ثعبان·· فما هذا الذى لا يقوله الا مريض مسموم تعبث برأسه الحمى ؟! ·

فقلت له فى حزم : لا تجادلنى ! ·· بل اصنع ما تؤمر اذا كنت تريد البقاء معى · واذا كان هذا المنزل المتواضع ، والتعامل مع الفقراء يغضان من قدرك ، ويحدان من كبريائك السورى ، فأنت من الآن حر

طليق ، تستطيع ان تذهب عنى الى ما تراه اجدى عليك وأوفق لمـــكانتك العظيمة ! ٠٠ وأظن أن فى مقدورك الآن أن تشـــترى منزلا وأن تتزوج فما أكثر ما سرقت من مالى ! ٠ ٠

فأجاب « كابتاح » متخاذلا : لاشك فى أنك يا سيدى على حق فيما تقول وفيما تأمر ، وكان يجب أن أفهم أن الرأى يصدر عن مثل عقلى لابد أن يكون رأيا واهنا بالنسبة للرأى يصدر عن مثل عقلك الكبير ، ولكنى مع هذا لا أستسيغ منك يا صاحب العقل الكبير أن ترانى أهلا للزواج ! ربما كان صوابا أو قريبا من الصواب أن أشترى دارا ، ولكن مالا صواب فيه ، بل ما لا يستطاع تحقيقه أن تكون لى زوجة ! فما أحسب فى النساء امرأة تطيق معاشرة زوج مثلى يعيش يومه كله بالمدينة الصاخبة ، فاذا عاد اليهـــا مع الليـــل متأخرا كما هى عادته ، فاحت عليهـــا من فمه أنفاس هى أكره ما تكون الى حاسة الشم عند المرأة ، واذا أوى الى فراشه أوى اليه مترنحا مسلوب الارادة ، فلا يكاد يلمسه حتى يسترسل فى نوم عميق ، فاذا كان الصباح استيقظ مصدوع الرأس متراخى الأعصاب متأوها كأنه مضروب بالسياط ! ٠٠ ان زوجته التى قضى عليها أن تكون عشيرته على تلك الحال لن تستقبله الا بالعصا ، وبالمختـــــار المنتقى من العبارات الفاحشة ! ٠٠ فدع هذه الفكرة ياسيدى ، وخاصة بعد الذى لقيته من المشقات والأهوال فى أسفارى معك ، ولكننى فى الوقت نفسه أرى أن مستقبلى قد ارتبط بمستقبلك ، وحياتى توثقت بحياتك ، فلست أستطيع البعد عنك ، ولهذا فسأبقى الى جانبك ، مشتركا معك فيما تلقاه من حلو الحياة ومرها ، وخيرها وشرها ٠ ولئن كان البؤس والـــكآبة يحيطان بنا ، فليس معنى هذا أن نفنى فيهما ، فان لكل شىء فى هـــذا العالم مخرجا ، وسنجد بلا ريب متنفسا من حالتنا هذه ، فى الحانات وبيوت الملذات القريبة ٠ وهذه هى حانة « ذنب التمساح » منا غـــير بعيدة ، وأرجو أن تأذن لى فى أن أقضى بها يومى هذا لعلى أستعيد فيهـــا نفسى التى فقدت أكثرها وأحسن ما فيها ، فيما مر بنا من أحداث ، وفيما احتملنا من شقاء ، ثم لعلى أجد فى هذه الحانة أيضا عزاء عما يملأ قلبى من أسى وحزن لاختيارك حى الفقراء مركزا لعيادتك ! ٠٠ فمن هو ذلك الانسان العاقل الحصيف الذى يخفى الجوهرة وسط أكوام من القاذورات كما تفعل أنت الآن بدفن مهارتك وفنك فى هذا الحى التافه الحقير ؟! ٠٠

فقلت له : ماتزال يا « كابتاح » بعيدا عن الحكمة ، محتاجا الى من يفرك لك أذنك ليقول لك :ان كل الناس سواء فى مصدر وجودهم ، وهم

كذلك سواء فى نهايتهم على هذه الأرض ، فهل رأيت انسانا لم يخرج الى الدنيا عاريا ، وهل ثمة انسان يخرج من دنياه بشىء ؟! فلماذا تكون التفرقة اذن ؟! على أنه فى المرض بنوع خاص لا فرق بين الغنى والفقير ولا بين المصرى والسورى ... هذا هو القانون الانسانى الذى يجب أن يدين به الطبيب ! ..

قال « كابتاح » فى شىء من الرزانة والأناة : الأمر كما تقول ياسيدى ولكن ماعلاقة هذه الحكمة العالية بالهدايا التى يحملها المرضى الى الطبيب؟! انهم يجيئون بها مختارين ، وهى تختلف طبعا باختلاف مقدرتهم وامكانياتهم ، غير أنهم حينما يرون فى طبيبهم هذا الزهد والتواضع والاستعداد للعلاج بغير أجر ، فانهم جميعا لن يفكروا فى تقديم هدايا ، والقليلون الذين يخجلون من العلاج بالمجان لن تكون هداياهم ذات قيمة والواقع أن أفكارك تحمل طابعا انسانيا كريما ، وقلما يستطيع الانسان أن يعترض عليها ، ولكن الواقع أيضا أن أحدا سواك من الأطباء لا يسير على هذا الطريق ، فلماذا تنفرد بهذه الأفكار الجديدة ، وفى استطاعتنا أن نتأرجح على أشجار من ذهب ؟!..

قلت له : من العسير علينا فيمايظهر أن نتفق على الهدف الذى أرمى اليه بخطتى هذه ، ولن أفرغ من تعليقاتك وأسئلتك فيما يضيق عقلك عن ادراك كنهه من تصرفاتى ، فلست أدرى مثلا ماذا أنت قائل حينما أخبرك بأننى أشتهى أن أعثر على طفل ضال منبوذ ، فأحتضنه وأتبناه ؟! ..

ولم يتمالك « كابتاح » نفسه فصاح متسائلا فى دهشة : ولماذا يكون هذا يا سيدى ؟! ان هناك فى المعبد بيتا لأمثال هذا الطفل الضال المنبوذ..هناك كما تعلم بيت اللقطاء،وفيه يجدون ما لم يكونوا بالغى شيئا منه فى بيوتهم التى نبذتهم ، ومنهم من يصيرون بالتنشئة الصالحة كهنة ، ومنهم من يخصى ليعيش عيش الرفاهية والترف فى حريم فرعون أو النبلاء .. ومع ذلك ، فما أيسر أن تجد الطفل الضال المنبوذ الذى تريده ان كنت جادا فيما تقول ...ولكننى لا أفهم ، واعذرنى ان كنت لا أفهم ، ما هو الخير فى أن تشغل نفسك بهذا الطفل الذى يجد مكانه دائما فى بيت اللقطاء بالمعبد ؟! فان كنت قد ضقت بالوحدة ، فمن الممكن أن تشترى فتاة من الرقيقات ، وهى فى رأيى أجدى علينا من طفل يملأ البيت تعبا ، فالاطفال متعبون على أية حال ، والسعادة المتخيلة من وجودهم مبالغ فيها كثيرا ، ذلك..فى حين أن فتاة تشتريها،ستحمل فوق

كتفيها الكثير من أعبائنا ، فهى ستضطلع بشئون خدمتك ، وتطهو طعامك وترتب أثاث منزلك ، واننا فى الواقع لفى أشد حاجة اليها ، فقد أصبحت لفرط ما عانيت ، مجهد الساقين ، مختلج أعصاب اليدين ، وأشعر بأنى لم أعد استطيع وحدى القيام بهذه الأعمال . فهذه الفتاة التى أرجو أن تشتريها من اليوم ، لن تخفف عنى عبء الخدمة فحسب ، بل انها كذلك ستعطينى الفرصة لخدمتك فى مجال آخر أكثر أهمية ، وهو مجال عملك وتثمير أموالك .

قلت له : أما شراء هذه الفتاة التى تريدها فأمر لم يخطر لى على بال ، ولن أفعله ، على أنى لا آبى عليك أن تستأجر خادما يرفع عن كتفيك أعباء خدمتى ، فذلك حقك على . واذا شئت بعد هذا أن تبقى معى ، فأنت حر غير مقيد بتكليف معين ، تغدو وتروح كما يروق لك ، فأنت مخلص أمين ، وأعتقد أنك عندئذ ستوافينى بمعلومات قيمة مما تسمعه من الناس فى اختلاطك بهم ، واذن فلا تجادلنى فيما ليس لك به علم ! .. وكل الذى يجب أن تفهمه هو أننى اذا أمرتك أمرا فعليك أن تنفذه مستسلما فاننى أصدر فيه عن دافع داخلى يند عليك ادراكه ، كما لا أستطيع أنا نفسى مقاومته .

وتركت « كابتاح » يضرب فى حدسه وتخمينه وفلسفته ، وخرجت لأبحث عن أصدقائى ورفاق صباى ، وألممت بحانة « الجرة السورية » لعلى القى فيها « تحوتمسن » ، ولكن صاحب الحانة الجديد قال لى انه لايعرف شيئا عن صاحبى الرسام الفقير البائس الذى يعيش من رسم القطط فى كتب لأطفال الأغنياء ! .. فمضيت الى الثكنات الحربية باحثا عن « حور محب » ، ولكنى ألفيت المكان مقفرا وليس فى الساحة الأمامية مصارعون ولا أحد من حملة الحراب ، كما لم أجد شيئا من القدور التى طالما رأيت البخار معقودا عليها خلال طهو الطعام تحت السقيفة المعدة لذلك .

ولاح لى ، غير بعيد ، جندى من الشردانيين ، فدنوت منه فلم يتحرك ولم يتكلم ، ولكنه كان يأخذنى بنظرات جامدة وهو يضغط على مقدمة حذائه فى الرمل ، وكان ضامر الوجه بادى العظام ، فسألته عن « حور محب » قائد قوات فرعون ، والذى كانت له مقادة الحرب المشبوبة من سنوات على العبريين فى « سوريا » ، فما ان سمع باسمه حتى انحنى أمامى وأجابنى فى لهجة مصرية مشوبة باللكنة : انه لا يزال على مكانه من قيادة القوات الحربية ، غير أنه منذ شهور فى رحلة الى بلاد «الكوش»

حيث يعمل هناك على تسريح الحاميات واجلاء سرايا الفرسان من الخدمة ولا يعرف أحد متى يعود ٠

ورثيت لحال هذا الجندى الذى كان يخيم عليه البؤس ، فناولته قطعة من النقود الفضية ، فزال عنه عند ذاك كبرياء الشردانيين وومضت فى وجهه الباهت ابتسامة عريضة ، وأخذ يدعو لى بأسماء آلهة مجهولة، واستوقفنى عندما هممت بالانصراف وأشار بيده المعروقة الواهنة الى ساحة الثكنات وقال : ان « حور محب » قائد عظيم يفهم الجندية ويقدرها وهو شجاع بنفسه ، ويحب الشجاعة فى جنوده ، وقد عرفناه أسد العرين ، فى حين لم نعرف فى فرعون الا أنه « تيس » بلا قرون ! ٠٠ ومن هنا استحالت الثكنات الى ماترى من الاقفار والخراب ، فلا جنود فيها ، لأنه لا أجر ولا طعام ، ورفاقى يجوبون البلاد الآن متسولين ، ولا أحد يدرى ما سيكون بعد ذلك ، وليباركك « آمون » ويجزيك عنى خير الجزاء ، فانك حقا لرجل كريم ، وهذه النقود التى منحتنيها قد هدهدت نفسى المثقلة بالكآبة والهم ، فانى من شهور كثيرة لم أذق طعم الخمر ولم أجد سبيلا الى جرعة واحدة منها تطفىء لهيب ظمئى ٠٠٠ لقد تركت وطنى موعودا بالفضة والنساء والشراب ، فهكذا يعد المصريون أمثالنا ترغيبا فى الجندية ، فلما صرت جنديا ، صارت حالى الى ما ترى ، فلافضة ولا نساء ، ولا شراب ، ولا عمل ! ٠٠

قال هذا وبصق على الأرض تعبيرا عن يأسه واشمئزازه ، وأدركت انا من حديثه أن « فرعون » قد أبطل عمل الجنود ففصلهم من الخدمة ، وقرر تسريح جنود الحاميات المصرية التى كانت فى خارج البلاد لعهد أبيه ٠

واتجه فكرى فى هذه اللحظة الى « بتاحور » العجوز ، ووددت لقاءه ، فاستجمعت شجاعتى وقصدت الى « دار الحياة » فى معبد «آمون» لأعرف مكانه من سجلات المعبد ، ولكن كاتب السجلات هناك قال لى ان « بتاحور » لأكثر من عام مضى يرقد فى مدينة الموتى ٠ وهنا شعرت بمرارة الوحدة فى « طيبة » ، فليس لى فيها الآن صديق ! ٠٠ وبدا لى وأنا فى المعبد أن أجول به متحسسا الحياة التى فارقته عليها من سنين بعيدة ، فمضيت الى بهو الاعمدة الذى تشع منه أضواء « آمون » المقدسة ويفوح شذى البخور حول أحجار أعمدته الملونة متعددة النقوش ،والطيور المحومة ، تغدو وتروح بين فتحات النوافذ ، ولكن حال المعبد اليوم كانت غير حاله بالامس ، فانى رأيته يكاد يكون خاليا ٠ وكذلك كانت ساحته

الأمامية ، حتى الحوانيت والمصانع التى تقوم فى أنحائه والتى كانت من الكثرة بحيث لاتحصى عددا ، لم تعد تنبض الا نبضا ضعيفا خافتا ، هو نبض المساومات القليلة فى البيع والشراء ، وهؤلاء الكهنة ذوو الرءوس المقصوصة الشعر الملتمعة بالزيت بعباءاتهم البيضاء ، كانوا على غير العهد بهم ، تعلو عيونهم وحركاتهم مسحة الخجل والحياء ، والقليلون من الناس الذين رأيتهم يضطربون فى الساحة الأمامية ، كانوا يتكلمون فى همس ، ويتبادلون النظرات الزائغة الحذرة كأنهم يتقون أمرا مخيفا ، وعلى الجملة كان الصخب والضجيج والحركة الجهيرة ، التى ألفتها فى هذا المعبد لعهد الطلب والتى كانت كعصف الرياح خلال الغابات ، قد انقلبت الآن الى ما يشبه سكون الموت ٠

وانى وان كنت لم أشعر فى دخيلة نفسى يوما بحب « آمون » ، الا أنى مع ذلك أحسست بغير قليل من الأسى لهذا الذى يلوح من تبدل الحال فى معبده ، فلا شك أن أحداثا كبيرة قد أدالت من قوة سلطانه ، والانسان بطبعه مجتذب الى ذكريات شبابه ، خيرا كانت أو شرا !٠٠

وفى طريقى الى الخارج ـ سائرا خلال الأعمدة وتماثيل الفراعنة الفخمة ـ وقع نظرى على معبد جديد ، أقيم ملاصقا للمعبد القديم ، وهو عجيب فى ضخامته وفى رسم بنائه ، لاتقوم حوله أسوار ، والأعمدة التى تحيط بفنائه مكشوفة ، وقد رأيت على مذبحه مجموعة من هدايا الحبوب والأزهار والفاكهة ، وضعت تحت أقدام تمثال منحوت يمثل « آتون » وهو يرسل أشعته على « فرعون » الذى يقدم له القرابين ، وكل شعاع ينتهى بيد البركة التى تمسك رمز الحياة ، وكهنة هذا المعبد يرتدون أيضا الملابس البيضاء ولكن رءوسهم لم تكن حليقة ، وأكثرهم من الشباب تفيض وجوههم بالبشر الروحى وهم ينشدون الأناشيد المقدسة التى كنت قد سمعتها فى المعبد الذى أقيم «لآتون» فى «أوروشليم » ٠ وكان أكثر تأثيرا فى النفس والشعور ، من هؤلاء الكهنة والتماثيل والنقوش ، تلك الأعمدة الأربعون الضخمة التى صاغ النحت على كل منها صورة « فرعون » الجديد ، وقد بدا كأنه يحدق فى وجه الناظر اليه وذراعاه مضمومتان الى صدره ، واحدى يديه ممسكة بعصا الراعى والأخرى بصولجان الملك ٠

كان نحت صورة « فرعون » على هذه الأعمدة دقيقا محكما ينبىء بمهارة ذلك الناحت الفنان ، فانه قد أبرز فرعون الجديد كما كنت قد رأيته بعينى رأسى ، بملامح وجهه العاطفى وأردافه العراض وساقيه الضامرتين ، وذراعيه الرفيعتين ، بل لقد كانت هذه الاجزاء الظاهرة

من جسم فرعون الجديد ، تلوح مجسمة على الأعمدة حتى ليحسب من يراها أنها عيـوب صريحة فى تكوين الجسم المرسوم • ولا شـك أن الفنان صانع هذه التماثيل قد أوتى الشىء الكثير من الحرية الجريئة فى ابراز هذه العيوب غير المتناسقة ، وهنا ذكرت صديقى « تحوتمس » ، فما أعرف فى صانعى التماثيل فنانا سواه له مثل هذه الجرأة فى تجهير الصور على حقائقها الأصلية ، حتى لو كانت لفرعون العظيم •• انه لم يخف شيئا مما كان مفروضا أن يخفيه عن الأعين من صورة « فرعون » ، بل لعله قد غالى فى اظهار الفخذ المنتفخة على الساق الضامرة ، والقـدم الضاوية كالمعلقة فى أسفل الساق ، والعنق ممتدا فى عصبية تحت وجه مستطيل ، والحاجبين على خط منحرف متعرج ، وعظام الخدين متكشفة ناتئة ، وعلى هذا الوجه العجيب أضفى ابتسامة غامضة تحلق على شفتيه الغليظتين تشبه ابتسامة الحالم المستغرق فى نومه ! •• انها فى الحقيقـة دقة فنية رائعة تتجلى فيها الحرية والجرأة ، وهى من صفات « تحوتمس » وحده فيما كنت أعلم ، فأين هو الآن يا ترى ؟! ••

ولقد كان اختلاف مظاهر المعبدين واضحا مستوقفا للنظر ، دافعا للتأمل ، ففى معبد «آمون» يرى الانسـان تماثيل الفراعنة على جانبى الاعمدة يحف بها الجلال الالهى ، والعظمة الرهيبة • وفى معبد «آتون» يقوم تمثال فرعون الجديد مكررا على أربعين عامودا !•• وناظرا خلالها الى مذابح « آتون » مطيلا فى النظر اليها كأنه ينفذ بعينيه الى أعمـاق بعيدة لا تصل اليها عيون غيره من الناس ، وهذه التماثيل فى مجموعها، وفى أوضاعها ، تنم عن مشاعر دينية مغرقة فى التعصب ! ••

وأثرت فى نفسى تماثيل فرعون الجديد « أمنحوتب الرابع » ، فقد كانت هذه أول مرة أراها فيها ، ولم أستغرب أن تقام بالمعبد على هـذا النحو ، فهو يؤثر الحقيقة المجردة ويعزف عما يعتقد أنه أكثر أو أقل منها وما أراه الا راضيا عن هذه التماثيل حين ينظر اليها لأنها تمثله عـلى حقيقته ، وتمثل ايمانه بالاله الجديد الذى يعبده ويدعو اليه ، ذلك لأنى لقيته وهو فتى صغير ، كان يومئذ مريضا منهكا ، ولكنه كان يرسـل الحديث طويلا عن الاله الذى تكشف له ، فلم أنظر اليه حينذاك الا نظرة الطبيب الى مريض ، ولم ألق بالا الى أشياء كثيرة كان يتحدث عنها ، فقد حسبته مخلوطا فى عقله يهذى هذيان المجنون ••• فالذى أراه الآن من معبد جديد وتماثيل جديدة وطقوس دينية أخرى ، ليس الا نتيجة لمقدمة شهدتها بنفسى من سنين طويلة •

على أن معبد «آتون» لم يكن يوجد فيه الا قليـــل من النـــاس ، وبعضهم ، كما تدل ملابسهم الكتانية والجواهر التى يتزينون بها ، من النبلاء ورجال الحاشية الملكية ، أما سائرهم من عامة الناس فقـد كانوا يسمعون أغانى الكهنة ولا يلوح عليهم أثر من فهم وادراك ، فقـد كانت عبارات الانشاد غريبة على أسماعهم ، مختلفة اختلافا كبيرا عن التراتيل التى ألفوها وفقهوا معانيها ، والتى كانت ترتل بالمعابد طوال ألفى عـام مضت ، أى منذ أن شيدت الاهرامات ·

وحدث بعد أن انتهت هذه التراتيل غير المفهومة ، أن تقـدم رجل عجـوز من القرويين الى الكهنة وسألهم فى احترام أن يبيعوه تميمة تقيه الشر ، وعينا تدفع عنه الحسد ، أو ورقة مكتوبا عليها بعض عبـارات السحر تصرف عنه السوء ! ·· ولكنهم ردوه قائلين ان شيئا مما يطلبه لا يباع فى معبد «آتون » ، اذ أنه لا يستخدم السحر ولا يقبل الهدايا أو القرابين ، وانما هو يمنح البركة بلا مقابل لأولئك الذين يؤمنـون به · ورأيت الرجل العجوز ينقبض لمقالتهم وينصرف مهمهما بكلمات تعبر عن عدم تصديقه لهم ، ثم يتجه الى باب معبد «آمون» فيدخل اليه ···

وتقدمت الى الكهنة كذلك امرأة متقـدمة فى السن من بائعـات السمك ، وسألتهم قائلة : ألا يمكن لأحد أن يتقدم بالقرابين من خراف وثيران الى «آتون» لتطعموا من لحومها أيها الفتيان الضعاف المهازيل ؟! واذا كان الهكم أشد من «آمون» بأسا وقوة ــ وان كنت أنا لا أعتقد ذلك ــ أفلا كان يجدر بكهنته أن يكونوا ذوى قوة وبدانة لتكون حياتهم سعيدة مرفهة ؟! · أقول هذا وأنا المرأة الساذجة التى لا تعرف مثلما تعرفون ، ولكنى أود من كل قلبى أن تتوافر لكم اللحوم والطعـام الدسم لتكونوا أنضر عافية وأبسط أبدانا ! ·

وتضاحك الكهنة من قولها ، وتهامسوا فيما بينهم ، ولكن كبيرهم اصطنع الوقار والاتزان وقال لها : ان « آتون » الرحيم يأبى أن يتقرب الناس اليه بالضحايا مسفوحة الدماء ، ولا يجوز لك أن تذكرى «آمون» فى هذا المعبد ، لانه اله زائف ، وعرشه يتهاوى ، وعما قريب سيصبح معبده خرائب وانقاضا ! ··

فتراجعـت المرأة الى الـوراء مروعة فزعة ، وبصقت على الارض مستنكرة ، ثم رسمت بيديها صلوات الاستعاذة والتقـديس « لآمون » وصاحت قائلة : ان «آمون» ليعلم أنكم أنتم الذين تقولون هذا ، ولست

أنا ! ·· فلتتنزل عليكم لعنته ·· وهرولت خارجة وتبعها آخرون كانوا يسمعون حوارها وهم ينظرون ، من فوق أكتافهم فى خيبة أمل ، الى هؤلاء الكهنة ·

وفي صوت عال هتف الكهنة بهم قائلين فى سخرية : اذهبوا ـ اذن ـ ياضعاف الايمان ، ولكن اعلموا أن «آمون» اله زائف ، وسيزول سلطانه مثلما تزول الحشائش تحت المنجل الحاصد ، ولتعلمن نبأه بعد حين ! ··

وعندئذ التقط أحد الذاهبين قطعة من حجر وقذف بهـا الكهنة ، فأصابت أحدهم فى وجهه وأسالت دمه فصرخ متأوها · وبينمـــا كان الكهنة الآخرون يهتفون بالحراس ليقبضوا على المعتدى ، كان هذا يركض فارا بنفسه ثم غاب مختلطا بالزحام المتكاثر حول أعمدة معبد «آمون» ··

وأثار فكرى كل هــذا الذى رأيت وسمعت ، فتقدمت الى الكهنة وقلت لهم : انى مصرى لحما ودما وروحا ، غير أنى كنت بعيدا عن «مصر» سنين طويلة عشتها فى « سوريا » ، وقد عدت أخيرا لأجد هنا هذا التحول فى العبادة ، من «آمون» الى «آتون» ، فلست أعرف من قبل شيئا عن الهكم الجديد ··· ألا تتفضلون بايضاح مالا ينبغى أن أجهله من أمره ؟! فمن هو ؟! وما شريعته التى يريد أن يقيم الناس على جادتها ؟! وما هى طقوس عبادته ؟! ·

ولعلهم حسبونى واحدا من أولئك الذين يسخرون منهم ، فترددوا فى الجواب ولكنهم بعد أن تأملوا فى وجهى طويلا ، أجابوا قائلين : ان «آتون» هو الاله الواحد الأحد ، خالق الارض وكل ما فيها وكل من عليها من نهر وانسان وحيوان ، وهو مبدع الكون كله ، والوجود بأجمعه ، أبدى لا يزول ولا يحول ، وكان قبلا يعبد فى صــــورة « رع » ، ولكنه أخيرا تجلى على حقيقته وباسمه لابنه المختار «فرعون» الذى يحيا بالايمان ويعيش بالحق والصدق ··· ان «آتون» هو الاله الأوحد ، وليس غيره من الآلهة الا خرافات وأوهاما ! ·· فهو لا يصد عنه قاصدا ولا يفرق بين انسان وانسان ، فالفقراء والاغنياء سواء عنده ، ونحن نحييه فى كل صباح ، وهو يتجلى فى قرص الشمس مرسلا أشعته المباركة على الارض لتحيا بها وتزكو ، وبها يمنح الحياة لكل فرد ، وهو حى لا يموت أبدا ، لا يحد وجوده مكان ولا زمان ، فهو موجود فى كل مكان وفى كل زمان ، ولا شيء يقع فى هذاالوجود الواسع الفسيح بغير ارادته ، وبقوته وبركاته

التى يمد بها «فرعون» يستطيع «فرعون» أن يرى ما فى قلوب النـــاس ويستشف ما خفى من افكارهم ٠

قلت لهم معترضا ، دون أن أشعر : ان «فرعون» بهذا لا يكون من البشر ٠٠ فما يقع فى طوق انسان أن يعرف ما فى صـــدور النـــاس ويطلع على المستتر فى قلوبهم ! ٠٠

فتبادل الكهنة الرأى فيما بينهم ، وقال صاحب الحديث منهم : ان «فرعون» نفسه لايريد أن يكون أكثر من انسان ، الا اننا لا نشك فى أنه قد صيغ من جوهر الألوهية ، فما أكثر الذين قد شهدوه فى أحـــلامهم موجودا ، فى وقت واحد ، بأنحاء شتى من الارض ، ولا يكون هذا الا لمن يمتون للآلهة بأقوى الصلات ، ومن هنا صوره الفنانون على هذه الاعمدة فى شكل رجل وامرأة معا ، رمزا الى أن « آتون » هو صانع النطفة فى أصلاب الرجال ، ليخلق بها الأجنة فى أرحام النساء ٠

فما ان سمعت هذا حتى رفعت يدى ووضعتها على رأسى وقلت لهم فيما يشبه اليائس الساخر : الحق أننى رجل بسيط ، فى مثل بساطة تلك المرأة التى كانت هنا منذ قليل ، ولهذا لم أستطع أن أفهم جيـــدا معلوماتكم الجليلة ٠ وقد لا أعدو الحقيقـــة اذا قلت انـــكم أنتم كذلك لا تفهمونها جيدا ! ٠ فانكم لاتعطون جوابا عن ســـؤال الا اذا تقابلت رءوسكم وتبادلتم الرأى والمشورة ! ٠٠

فأجابوا بحرارة قائلين : مهما يكن من أمر ، فالحقيقة التى لاينبغى الجدال فيها هى أن « آتون » مصدر الكمال ، وقد أوتى قرص الشمس هذا الكمال ، ولكن العقل البشرى مشوب بالنقص فهو كالضباب ، ومن أجل هذا فليس فى مقدورنا أن نوضح لك الحقيقة كاملة ، لأننا لانعرفها كاملة ، وانما نحن نتلقى ارادة « آتون » يوما بيوم ، وارادته لا تنكشف ولا تتضح الا لفرعون ، ابنه ، الذى يعيش فى الايمان به ٠٠

واهتزت مشاعرى لهذه الكلمات ، فقد أحسست أن هؤلاء الكهنة يقررون بها الحقيقة التى تتقاصر دونها عقول البشر حتى لو كانوا كهنة ، وفى تقريرهم هذه الحقيقة تعبير عن ايمانهم وعن عجزهم أيضا ، فهم اذن لا يمتازون فى هذا السبيل عن أى من الناس الا بملابسهم الـــكتانية وشعورهم المدهونة بالزيت وبهذه المظاهر التى تضفى عليهم قداسة فى أعين الرجال والنساء ٠ ولأول مرة أدركت أن عقل الانسان ينقصه كمال

الاحاطة والابداع ، وأن من ورائه قوة لا تراها عين ، ولا تسمعها أذن ، ولا تمسها يد ، فهل ترى قد اكتشف « فرعون » وكهنته هذه القوة فسموها « آتون » ؟! ..

- ٥ -

وعدت الى منزلى فى اقبال المساء ، وكانت تعلو بابه اللافتة البسيطة التى رغبت الى « كابتاح » صباحا فى أن يشتريها . وفى فناء المنزل كان قليل من المرضى البؤساء يجلسون القرفصاء فى انتظار قدومى ، وكان « كابتاح » ينقل نظره فيهم ، ضائق الصدر بهم وهو جالس تحت سقيفة الباب ، وفى يده غصن من النخيل يذود به عن وجهه الذباب المتكاثر الذى جاء مع المرضى متجمعا على ملابسهم القذرة ، ولكنه لم يكن قد نسى نفسه فقد كانت أمامه جرة مفتوحة من الجعة ! ..

وكان بين هؤلاء المرضى امرأة تحمل على ذراعيها طفلا هزيلا فأومأت الى « كابتاح » أن يدخلها على قبل سواها ، ففعل . وكان خير دواء لها عندى هو تلك النقود النحاسية التى أعطيتها اياها لتشترى بها طعاما يمدها بالغذاء ، ويؤتيها القوة لتغذية طفلها هذا الرضيع الواهن . وجاء بعدها أحد الأرقاء وكانت أصابعه قد تحطمت بين شقى رحى فأقمت ما نشز من عظامها ورددتها الى مواضعها ، وأحكمت لفها باللفائف والضمادات ، وأعطيته شرابا مرطبا يرفه عنه وينسيه آلامه . وفى اثره دخل كاتب عجوز قد برز فى عنقه تورم ضخم كأنه رأس طفل ، وكان الرجل لشدة ما يعانيه من ذلك جاحظ العينيين ، خافض الراس ، عسير التنفس ، فأعطيته مزيجا من عصارة أعشاب البحر ، وهو دواء عرفته فى « أزمير » علاجا لمثل هذه الحال ، وان كنت لم أتبين بالتجربة أنه الدواء الناجع لها ، وأخرج الرجل العجوز من خرقة كان يحملها قطعتى نقود نحاسية ، وقدمهما لى فى خجل مستشفعا بفقره ، ولكنى لم آخذهما وأشفقت على شعوره فزعمت له أنى سأحتاج اليه فى بعض الخدمات الكتابية ، فخرج فرحا بنقوده !.. وأخيرا جاءت فتاة تعمل فى بيت للملذات على مقربة من منزلى ، فسألتنى علاجا لعينيها المصابتين بقروح تضايقها فى عملها ، فنظفتهما ونفيت منهما القذى ، وأعددت لها سائلا عقاريا ، وأفهمتها طريقة استعماله غسيلا لعينيها الى أن يزول آخر اثر من القروح . وهنا نهضت أمامى ناضية ثيابها عن جسدها كله ،

فبدت عارية تماما ، ودنت منى لتعطينى من جسدها الشىء الوحيد الذى تملكه أجرا على علاجى ٠ ولم أشأ أن أنكر عليها هذا العرض المبتذل ، حتى لا أزيد فى آلامها ، فاعتذرت لها فى رفق بأن علاجا هاما يحجزنى الآن عن النساء !٠ وصدقتنى وحمدت لى الحرص على مقتضيات العلاج ٠٠ ورأيت على جسدها العارى زوائد جلدية متقرحة فى الخاصرة والبطن ، فدهنتها بالمرهم المخدر ، وبذلك لم تخل محاولتها من فائدة ٠ ثم خرجت هى الاخرى مغتبطة سعيدة ٠

وانتهت عملية الكشف ووصف الدواء وتقديمه للمرضى دون أن أنال على ذلك شيئا يكفى لشراء ملح الطعام ، وكان «كابتاح» يهز رأسه ساخرا ، وهو يضع أمامى أوزة سمينة مجهزة على الطريقة « الطيبية » ، وهى تملأ طبقا قلما يكون له مثيل فى أى بلد من بلاد العـــالم ، وقد اشتراها من افخم حانة بين حانات النبيذ بالمدينة ، وكان قد وضعها فى فرن المنزل ليحفظ حرارتها الى وقت تقديمهـــا للطعام ، فكانت لهذا ، شهية مغرية ٠ وخلال تناولى الطعام كان « كابتاح » لا يغفل عن متابعة تقديم شراب النبيذ لى مصبوبا فى دن زجاجية ملونة ، وكان شرابا ممتعا لانه من نبيذ كروم «آمون» ٠ ومن لحظة الى أخرى كان «كابتاح» يذكرنى متهكما بالربح العظيم الذى أصبناه فى يومنا المدبر !٠٠

ولكنى لم أكن افكر على طريقته من هذه الناحية ، فكم كنت فى الواقع سعيدا بعلاج أولئك الفقراء المساكين ولو لم أنل منهم شيئا ، بل لقد كنت بذلك أكثر سعادة منى لو كنت قد عالجت الاغنياء وكوفئت منهم بالقلائد الذهبية ٠٠٠ على أن اليوم لم يمض خاويا فارغا كما تراءى فى عين «كابتاح» فان ذلك الرقيق الذى جاءنى مهشم الأصـــابع عاد الينا بعد أيام ليبشرنى بأنه قد برىء من العلة وعادت اليه حركة يده الطبيعية ، حاملا الينا فى الوقت نفسه جرة مليئة بالدقيق !٠٠

وقال «كابتاح» مسترسلا فى تهكمه : ما أشك يا سـيدى فى أن شهرتك تسير الآن مهرولة فى كل مكان ، وتقرع أبواب كل بيت فى هذا الحى ٠ وما ان يطلع الفجر حتى يكون فناء هذا المنزل قد امتلأ بالمرضى !٠ وكأنى أسمع فى هذه اللحظة صياح المتسـولين قائلا بعضهم لبعض : هلموا الى بيت تاجر النحاس فى زاوية الشارع ، فهنـــاك طبيب يعالج المرضى بالمجان وبدون ايلام ، لعظيم مهارته ، ويعطيهم الدواء بلا ثمن ، لرقة قلبه ! ٠٠ وكذلك كأنى بنساء هذا الحى يتنادين ليأتينك مسرعات ، قائلة احداهن للاخرى : ما أوفر حظنا من السعادة بهذا الطبيب الكريم !٠

انه يمنح النقود في سخاء للأمهات الفقيرات ... ويجرى عمليات التجميل لفتيات دور الملذات ، ويصنع لهؤلاء وغيرهم الكثير من الخـــدمات ، ولا يتقاضى عن ذلك أجرا ! .. ولست أبعد عن الحقيقة اذا تخيلت الجميع من رجال ونساء يتراكضون اليك ، ويتعجلون المثول بين يديك ، لانهم لابد قد فطنوا الى أنك، ايها الطبيب الكريم المحسن ، لن تحبس آفضالك هذه على حى بعينه، ولا على اناس بذواتهم ، وانما انت متنقل بحسناتك وصدقاتك بين الأحياء والمجتمعات ، ليعم خيرك ويشيع فضلك بين الناس جميعا ، فأهل هـذا الحى اذن يأتونك زرافات ويقبلون عليك جمـــوعا متكاثرة في وقت واحد ، ليظفروا منك بحظوظهم من الخير قبل أن ترتحل عن حيهم ! .. ولكنهم جميعا أغبياء حين يعتقدون أنك ستضيق بهم في يوم قريب ، وسيحملك هذا الضيق على بيع المنزل واخلاء العيادة ، والابتعاد عن حيهم الى مكان آخر لا يعرفون السبيل اليه ، ذلك لان الحقيقة التى لايدركونها ـ لغبائهم ـ هى أن بينك وبين الحظ السعيد عهدا يحمل اليك به الذهب الذى تريد ، وربمـــا زاد على ما تريد ، فخزائنه ملأى دائما ، فما أنت بمحتاج الى طلب المال فى أيدى المرضى ، وبالتالى فأنت لن تفكر فى الهجرة من حى أولئك الفقراء المناكيد ، فليتهم عرفوا هذه الحقيقة وأراحوا أنفسهم من عناء التهافت عليك ، وأراحونا من هذا الزحام الذى قد يضجرنا منهم ، فتقل عنايتك بهم !.. ومع ذلك فليكثروا أو يقلوا ، فهذا غير مهم عندنا ما دام الحظ السعيد سيعطينا المـــال الكثير حيث أتـــولى أنا استثماره لك بخبرتى وواسع حيلتى ، وسيكون فى استطاعتى أن أقدم لك فى كل يوم ـ اذا شئت ـ أرزة دسمة شهية ، ونبيذا معتقا نقيا من أفضل ما يتناوله العلية والاثرياء فى «طيبة» ، وما لنا لا نفعل ذلك والثراء لدينا مستفيض ، وينبوعه متدفق لايغيض !! وليس بضمائرنا بعد هذا أن يكون مقامنا فى هذه الدار المتواضعة ، وفى هذا الحى البئيس ، وبين هؤلاء القوم المتاعيس ، أليس ذلك هو الواقع ياسيدى ؟! ألسنا فى الحق نحيا الآن على هذا الحظ السخى الكريم الذى لاتراه أعيننا ، ولا تلمسه أيدينا ؟! فان كان ذلك وهما وخيالا وسبحا فى جو الاحلام ، وهو ما افزع منه وأخشاه ، فسيأتى اليوم الذى ترانى فيه أحثو التراب على رأسى ، لانك اضطررت الى بيع المنزل ، والى بيعى معه ، وقد لا يكون هذا اليوم منا بعيدا !.. صدقنى ياسيدى ، اننى لشديد التطير من ذلك المصير الذى تتراقص نذره أمام عينى ، ومن أجل هذا أسالك أن تمنحنى الحرية التى وعدتنى بها ، امنحنيها مكتوبة على الورق وليست كلمات يدور بها اللسان ، ولا تلمنى على ذلك ، فان كلمات

اللســان ، يلحقها النسيان · أما الكلمات الموثقة بالاوراق ، والممهورة بخاتمك ، والمحفوظة بدار المحفوظات ، فهى الحجة التى أشعر فى ظلهــا بأنى حقا ، قد صرت حرا ، أغدو وأروح على ما أشاء وأشتهى · ثم ان ثمة سببا خاصا يبرر من ناحيتى هذا الطلب ، ولكنى لا أريد أن أثقل عليك بذكره الآن ، فأنت مشغول ووقتك ضيق ··· فلندع هذا الامر الى فرصة أخرى !··

وكنت أستمع الى حديث «كابتاح» دون أن أقاطعه ، مسترسلا فى تناول طعامى من الاوزة الطيبة المذاق ، ومن شراب النبيذ ذى النشوة اللطيفة ، وكان جو هذا المساء ممتعا حيث كانت تهب علينا من المينــاء نسائم رقيقة نستنشق فيها عبق أشجار السدر ، وان كان لم يخل من روائح شواء السمك الذى ينضجونه ، على مقربة منا ، فى النيران الموقدة هناك أمام أكواخ الفقراء ·

وفى هدوء ، أومأت الى «كابتاح» ليصب لنفسه نبيذا بكأسه الفخارية وقلت له : انك حر يا «كابتاح» ، فما كنت معى خلال زمن طويل الا رفيقا حرا ، وليس عبدا رقيقا · ولم أكن أدرى أنك تجهل ذلك · ولو أننى كنت أنزلك منى منزلة العبيد ، لما صبرت على ثرثرتك التى لا تخلو فى كثر الاحيان من جرأة وتجاوز للحد ، بين السيد ومولاه ··· لقد عاملتك دائما معاملة الصديق ، وعاملتنى أنت هذه المعاملة نفسها ، وقد أقرضتنى يوما نقودك الفضية والنحاسية وأنت وقتئذ موقن بأنك لن تستردها ، ولا يكون هذا الا بين صديقين ··· على أنى تحقيقا لرغبتك ، أؤكد لك منذ هذه اللحظة بأنك لم تعد رقيقا لى ، فكن طليقا يا «كابتاح» ، وكن كما شئت حرا سعيدا بحريتك · ومن الغد سأسجل لك هذا العتق فى أوراق مختومة منى بخاتمين ، لا بخاتم واحد ، خاتمى المصرى والسورى معا ··· والآن فخبرنى ، ما هى طريقتك التى ستسير عليها فى استثمار أموالى والتى ستجعلنى بها دائم الثراء ، غير مستهدف للحاجة فى يوم من الأيام ؟! ولقد كنت أمرتك بأن تودع الذهب بخزانة المعبد ، فهــل فعلت ذلك ؟!··

فحدق فى وجهى بعينه الواحدة وقال : لا · لم أفعل · فقد رأيت من الحماقة أن أودع الذهب بخزانة المعبد ، ولا غرابة فى ألا أطيعك فى هذا الامر ، فانك تعلم بأنى لم أطع لك من قبل أمرا يشوبه الحذر ؛ ففى سائر الأمور لا أفعل الا ما يمليه شعورى الطيب نحوك · وأنا أكون هذا الآن مطمئنا الى أنك لن تغضب لصراحتى بعد أن أعطيتنى الحرية

المؤكدة ، ذلك الى أنك لم تسرف فى شراب النبيذ ، فضلا عن أنى أخفيت عصاك اتقاء غضبك ، واجتنابا لما تدفعك اليه طبيعتك التى كثيرا ما تثور لأوهى الأسباب ، وهو للأسف عيب لم يبرئك منه الزمن • ويبقى بعد هذا أن تسألنى لماذا لم أنفذ أمرك الأخير ! •• فأقول لك وأنا لا أخشى عصاك التى لن يجديك البحث عنها : ان البلهاء هم الذين يودعون أموالهم فى خزانة المعبد ، ذلك لأن المعبد لا يدفع عنها فائدة كما هى الحال فى بيوت المال ولا يكتفى بذلك فيقتضى أصحابها الهدايا مقابل اخفائها واقامة الحراس عليها ! •• ثم ان فى كلمة « اخفاء » هذه تجوزا ومخالفة للواقع، فادارة الضرائب تحاط علما بالودائع التى تحفظ بالمعبد ، وعندما تتدخل ادارة الضرائب، وهى تتدخل دائما ، تصاب الوديعة بالانكماش والتضاؤل على كرور الايام ، الى أن تستنزف آخر قطرة فيها !•• وهنا الخطأ الذى شاب أمرك ، ورأيت أنا ألا أشاركك فيه ••• أما الرأى الصواب الذى ينبغى أن تؤمن كما أؤمن أنا به ، فهو اطلاق المال ليتداول حرا فى الأعمال، فيزداد ويربو ، لا أن يحبس هكذا حتى يتهلهل وتلقفه ادارة الضرائب . ولهذا فقد اتجهت هذه الوجهة ، وجهة تثمير أموالك فى الأعمال الحرة ، ورحت أتجول فى أنحاء المدينة ، وأتصـل بدوائر الأعمال ، وأتحسس الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، وأخيرا اهتديت الى أن خير وسيلة لذلك هى أن نشترى أرضا من أملاك « آمون » التى تقرر أن تباع لمن يشـاء أن يبتاع ! ••

قلت له فى استغراب : ما أراك الا مرسلا فرية أخرى من مفترياتك التى لا تريد أن تكف عنها ••• فان « آمون » لا يرضى أن تنقص أرضه شبرا ، بل هى تزداد بالشراء المتصل ، حتى أصـــبح يملك وحده ربع مساحة القطر المصرى كله ! •• وما يدخل منها فى حوزته لا يباح خروجه الى أحد • فلست بمصدقك يا هذا ! ••

قال « كابتاح » وهو يملأ كأسه من قارورة النبيذ : كلا يا سيدى •• ان ما أقوله لك لهو الحق الذى لا ريب فيـه ، وستعرف غدا أننى الصادق الامين الذى لا يكذب ولا يفترى ، وقد يبدو غريبا عليك وعلى كثير مثلك ان أرضا من أملاك « آمون » تعرض للبيع كأى أرض مما يملكه عامة الناس • وأنا شخصيا قد سـاورنى الشك حينما قيل لى ذلك ، ولكنى بوسائلى الخاصة المتميزة بالدقة والمهارة استطعت أن أكتشف أن هذا هو الواقع . ولك آن تثق تماما من أن «آمون» يبيع الآن من أراضيه، يبيعها فى عجلة ، وبأثمان رخيصة • وكل مافى الأمر أنه يتحرى السرية

التامة فيإجراءاتالبيع ، ويؤثر ألا يبيع الا للموثوق بهم منأصحاب المال٠ ولقد باع فعلا مساحات كبيرة ، وجمع أثمانها التى تمثل أغلب الذهب الموجود فى مصر ثم كدسها في قبوه ٠ ولما كان معروفا أن « آمون » يملك من أراضى « مصر » أكثرها خصبا ، فقد رأيت من الحكمة ، والمال فى أيدينا، أن نشترى جزءا منها ، فالارض الخصبة هى أفضل مجال لانماء الثروة ، والمال فيها غير معرض لتقلبات الأسواق واضطرابات التجارة ، ولا يغيب عنك يا سيدى أن الرجل العاقل يستطيع حينما تكون له أرض زراعية أن يلحق بها كل عام ، وعقب كل فيضان ، أجزاء أخرى ، ولا يكلفه ذلك سوى حسن التودد والتفاهم مع رجال المساحة ، ومعنى التودد والتفاهم هنا هو منحهم الهدايا ، وذلك أمر يسير ! ٠٠

قلت له ساخرا : انك تتحدث عن الأرض والزراعة كما لو كنت يوما تملك أرضا وتفلحها ! ٠٠

فقال : لست غبيا حتى أزعم هذا ، فانا لم أكن يوما صاحب أرض، ولم أولد فى حقل ، وانما ولدت ونشأت فى بيوت رفيعة العماد تطل على الشوارعالمرصوفة٠غير أنهذا لايعنى أنكل من لم يكن له أرض زراعية أو يولد فى حقل ، لا يجوز له أن يشترى أرضا ليستغلها ، فما كل هؤلاء الذين يملكون الأراضى الزراعيـة بزراع أو فلاحين ٠ فزراعـة الأرض وفلاحتها ينهض بها الأجراء والأرقاء ومن هم فى حكمهم ٠ وعلى هــذا يمكنك أن تفكر فى الامر باعتبــاره فرصة مواتية من الخير اغتنامها ، ولعلك تريد أن تسأل عن السبب الذى يدفع « آمون » الى بيع أراضيه ! ٠٠ ويمكننى أن أجيب عن ســؤالك بأن السبب هــو الفزع الذى يركب « آمون » من اله « فرعون » الجديد ! ٠٠

واستطرد « كابتاح » قائلا : ومع هذا ففكرة شرائنا أرضا من أملاك « آمون » لم تزد عندى على مجرد خاطر من خواطر كثيرة تواردت على ذهنى خلال بحثى عن المشروعات التى نوظف فيها أموالك ، مطمئنين الى أنها تؤدى ربحا مكفولا ومستمرا ، وقد يسرك أن تعرف الآن أننى ، دون الرجوع الى رأيك المتردد ، قد اشتريت لك عددا من أبنية الاســتغلال فى المدينة ، وهى تتألف من حوانيت تجارة وبيوت سكن ، تدر ايرادا ثابتا مطردا ٠ ولم يبق لاتمام هذه الصفقة الرابحة سوى توقيعك على على وثيقة شرائهــا ٠ وســترى أننى كنت بارعا فى الاتفــاق على ثمنها ، فهو ثمن ضئيل بالنسبة لقيمة الأبنية ، ولم يكن سواى ليستطيع ذلك ٠ وكنت فى المساومة فى هذه الصفقة أمثل دور الوسيط ، ولهــذا

فان أصحابها البائعين سيقدمون لى أجر الوساطة ، وهو حقي وحدى وليس لك أن تشاركني فيه ، وأنا أقول لك هذا لتكون على بينة من الأمر فلا تتهمني بأنني سرقت شيئا منك ! ٠٠ ولا ما نع من أن تمنحنى أنت أيضا هدية تكافىء المجهود الكبير الذى بذلته فى هذا السبيل لمصلحتك !

فقلت له : أما أن أمنحك أنا أيضا هدية ، فهذا شيء غير معقول ، لسبب بسيط ، هو أنك الذى تتولى تحصيل الايراد ، وسيتاح لك أن تنال جانبا منه ، علمت أنا أو لم أعلم ، وسيكون في وسعك أن تتفق مع المقاولين ، من وراء ظهرى ، على نصيبك ، في نفقات اصلاح المباني التى ترى أو يرون انها ضرورية في كل عام !٠٠

وأحنى « كابتاح » رأسه موافقا على هذا الاستنتاج في غير خجل وقال : لقد أحسنت التعبير يا سيدى عن وجهة نظرى في هذا الموضوع ، ولا أدرى ـ على أية حال ـ أن ثمة فرقا بيننا في الناحية المالية ، فثروتك هى في الواقع ثروتى ،وأنا أتصرف فيها على هذا الأساس ، ولقد أغرانى ما سمعته عن معاملات « آمون » الزراعية بالتفكير في تجارة الغلالفذهبت الى سوقها وخالطت الكثيرين المتعاملين فيها ، وأصغيت اليهم وتعقبت تصرفاتهم حتى عرفت الكثير من أسرار هذه التجارة ٠ ولهذا أرجو أن تأذن لى في شراء صفقة من الغلال من حصاد الصيف المقبل ، بجزء من الباقى من ذهبك ، وهذه طريقة مثلى ومجزية فى تثمير المال ، والأسعار الآن معتدلة ، بل هى أدنى من مستواها العادى لأنها تدفع نسيئة عن بضاعة غير حاضرة ٠ وعندما تسلم الينا الصفقة نقوم بخزنها فلا نعرضها للبيع الا اذا ارتفعت الأسعار ٠ والرأى عندى أنها سترتفع وتمضى صعدا مع الزمن ، ذلك لأن « آمون » يبيع أرضه ، وشيئا فشيئا ستصير الى من لا يحذقون فنون الزراعة ، ويؤدى هذا الى قلة فى الانتاج ، وقد أعددت لهذا الأمر عدته فساومت على شراء مخازن لحفظ الغلال ، جافة ووثيقة البناء ٠ وحينما تنتهى حاجتنا منها نؤجرها لتجار الغلال فنفيد منها ايرادا حسنا ! ٠

وكان طبيعيا أن أقابل جهود « كابتاح » ومشروعاته هذه بالموافقة والارتياح ، معربا عن تقديرى لاخلاصه الذى يحفزه الى معاناة المتاعب بحثا عما يحسبه محققا لمصلحتي ، ولو أنني موقن بأنه يشعر باللذة والمتاع فى الاشتغال بهذه الخطط والمشروعات ، مهما تكن عواقبها ٠

وقد شجعه ارتياحي لذلك فمضى قائلا : وهناك مشروع آخر مثمر رأيت أن أتولاه نيابة عنك ، ذلك أن بيتا من أكبر بيوت تجارة الرقيق

يعرض للبيع ، وأنا بحكم وضعي في الرق طول حياتي أعرف مالا تعرفه من هذه المهنة . فلو انك وافقتني على إبتياع هذا البيت ، وممارسة هذه التجارة ، فسأضمن لك من وراء ذلك مغنما كبيرا وموردا ثرا ، اذ سيكون بمستطاعي أن أخفي عيوب الأرقاء ، وأجملهم في عيون الناس ، فنبيعهم بالأثمان الغالية ... انه مشروع طيب للغاية ، ولكنني أخشى أن يغلبك طبعك فتأباه ! ..

قلت له : نعم أنا لا أقر مثل هذا المشروع ، ولا أرضي به ، ولايمكن أن أفكر مجرد تفكير في تجارة الرقيق ، لأنها عمل قذر ، ولا أدرى وهي كذلك من الانحطاط الانساني ، كيف أن الناس لا يكفون عن شراء العبيد والأرقاء ، كما لو كانوا أدوات تافهة تشترى من الأسواق ، وهم آدميون مثلهم ؟!

قال « كابتاح » : كنت أتوقع هذا ، ولذلك لم أشأ أن أبرم اتفاقا مع صاحب بيت الرقيق قبل مشاورتك ، واني أوافقك على ما ترى فيه من شر لا يليق بك ، وأشعر من جانبي بأن هذا المشروع سيلقى على كتفى أعمالا شاقة تنوء بها صحتي وسني المتقدمة ، فمن الخير اذن ألا نفكر فيه . وأحب بهذه المناسبة أن أطمئنك إلى أن الدور التي اشتريتها لك ليس فيها بيت من بيوت الملذات التي تخدش الوقار .

وتوقف « كابتاح » عن الكلام هنيهة ثم قال في حياء مصطنع : شيئا واحدا أسألك اياه في هذا المساء ، وقد يكون مما لايجمل بي أن أعرضه عليك ، ولكني أجترىء في عرضه راجيا ألا تغضب ، ذلك أن تصاحبني الى حانة النبيذ التي كنت قد حدثتك عنها كثيرا ، وهي المعروفة في حي الميناء بحانة « ذنب التمساح » لنستمتع فيها بشرب النبيذ الجيد ، فان بي شوقا اليها ، وكانت ذكراها لا تفارقني وأنا في « سوريا » و « بابل » !

وكان الشراب الذى تناولتـــه الى تلك اللحظة قد أشاع في نفسى نشوة ومرحا ، فضحكت لرغبة « كابتاح » ولم أنكرها ، ولكنها كانت في الوقت نفسه دعوة الى حانة حقيرة ، أرافق فيها خادما ، وليس هناك الا حثالة الرواد . وقد يكون نبيذ هذه الحانة كما يقال جيدا ، وقد يزيد شرابه في نشوتي ومرحي ، غير أنها بالنسبة لى مكان غير لائق ، فكدت لهذا أن أرفض دعوة « كابتاح » ، ولكني عدت فذكرت أنها رغبة ذلك الخادم الأمين الذى رافقني يوما ، بمحض ارادته ، الى بيت اله «كريت» المظلم ، حيث الخطر والتهلكة ، ومن ثم ربت بيدى على كتف « كابتاح » وقلت له : هيا بنا الى حانة « ذنب التمساح » .

وحانة « ذنب التمساح » هذه تقوم وسط حي الميناء بين مستودعات البضائع في زقاق مظلم ، وحوائطها مبنية باللبن في وثاقة تمنع تسرب الحرارة الى الداخل فيكون جوها في الصيف رطبا، وفي الشتاء دافئا، وعلى بابها علقت جرتان، ترمز احداهما للجعة ، والثانية للنبيذ ، وبين الجرتين علق تمساح محنط بعينين من زجاج لامع ، وفي فكيه المنفرجين صفان من الأسنان • وأرض الحانة مكسوة بألواح الخشب ، وكذلك حوائطها ، وعلى هذه الحوائط علقت الحراب ومحار جزر البحر وطاسات منقوشة من « كريت » • هكذا رأيتها حينما دلف بي اليها « كابتاح » وهو اذ ذاك متحمس مزهو ، وكان معروفا فيها لكثرة تردده عليها ، فقادني الى ركن منها يمتاز بالمقاعد ذات الحشيات الوثيرة ، وهتف بصاحب الحانة وأسر في أذنه كلاما ، بينما كان الرواد الذين يملأون الحانة يأخذونني بنظراتهم المستغربة ، وقال لي « كابتاح » : لعلك تعجب اذ ترى هذه الحوائط مكسوة بالخشب كما هي الحال في بيوت الأغنياء ؟! ولكنك لن تعجب حين تعلم أن ألواحها من مخلفات السفن القديمة المحطمة • وعلى كراهيتي للبحار وأسفارها وسفنها أيضا ، فاني أعرف أن تلك الألواح الصفراء قد شهدت في رحلتها أراضي « بنت » ، وهذه الحمراء الداكنة قد رحلت الى موانيء جزر البحر ، وهكذا •

وأقبلت علينا فتاة حسناء تحمل الينا الشراب المخلوط الذي عرفت أن « كابتاح » كان قد أسر لصاحب الحانة بأن يضعه خصيصا لنا • وكان الشراب مصبوبا في كأس جميلة على شكل أصداف البحار • ولكن هذه الكأس الجميلة لم تصرف نظري ولم تشغل بالي عن الفتاة الحسناء التي تقدمها • لقد كانت في مقتبل العمر ، محتشمة في ملابسها على خلاف مثيلاتها اللائي يختلطن برواد الحانات وهن نصف عاريات لاثارة الغرائز والشهوات ، وكان يتدلى باحدى أذنيها قرط من الفضة ، وعلى معصميها سواران من الفضة كذلك ، وفي وجهها جمال يغالب حزنا دفينا • وحين نظرت اليها أحسست بقلبي يهفو نحوها مبتهجا • ومع أنها لم تقابل نظراتي باكتراث ، فقد رأيت نفسي مسوقا الى محادثتها قائلا : ما اسمك أيتها الفادة المليحة !! فأجابت في صوت خفيض : اسمي « ميرييت » ، وأرى أنه لا يجمل بك أن تناديني بالفادة المليحة ، فانما يفعل هذا ، الشبان المفاليك الذين يغازلون الفتيات اللائي يخدمنهم ، ومن الخير أن

تتذكر ذلك اذا ما بدا لك أن تزور هذه الحانة مرة أخرى ، يا سيدى « سنوحى المصرى الوحيد » .

وفى دهشةوخيبة أمل ، قلت لها : ما أردت مغازلتك كما تتوهمين ، وما بى من رغبة فى هذا الغزل غير اللائق . ولكن من أين لك العلم باسمى ، وما أذكر أننا تلاقينا من قبل ؟! ..

وتنضر وجهها بالابتسام وقالت بلهجة مشوبة بالسخرية : هل كان ينبغى أن نتلاقى من قبل لأعرف اسمك ؟! ولم لا يكون ذلك عن طريق شهرتك التى سبقتك الينا يا ابن الحمار الوحشى ؟!

ولم تغضبنى منها هذه العبارات الساخرة ، فقد كنت ألمح فى عينيها أسى عميقا ، وظننتها تحاول بهذا الأسلوب اجتذاب قلبى اليها ، وقلت لها : اذا كانت شهرتى قد تقدمتنى اليك على لسان «كابتاح»،ذلك الرقيق الذى أعتقته اليوم من الرق ، فاعلمى أنه لا يصدق فى حديث أبدا ، فهو لا يعرف طول حياته ، الفرق بين الصدق والكذب ، وكثيرا ما يؤثر الكذب استرسالا مع طبعه الخبيث ، وقد حاولت ابراءه من هذه النقيصة الخلقية ولكن الطب والعصا معا عجزا عن ذلك !...

قالت : ليس الكذب مكروها فىسائر الحالات ، فقد يكون أجمل من الصدق وقعا وأحلى منه مذاقا ، عند الانسان الوحيد الذى جاوز ربيع حياته . وانى لأستعذب منك أن تصفنى بالجمال والملاحة ، وقد لاتكون فى هذا صادقا ! .. فالمناسبات والظروف هى التى تسيطر على الأخلاق وتتحكم فى معانيها ، من غير ما تقيد بمصطلحات الألفاظ المعبرة .

وفى حركة لطيفة قالت : وما لنا ولهذا يا سيدى « سنوحى » ، فهلا ذقت هذا الشراب الذى جئتك به ؟! انى لمشوقة أن أعرف رأيك فيه ، وفى أى درجة يقع من نفسك ، اذا قيس بما كنت تشربه هنالك فى البلاد الأجنبية التى طوفت فيها ؟! ..

فرفعت الكأس وأفرغته فى فمى ، وأنا أطيل النظر فيها معجبا ، ولكنى ما لبثت أن شعرت كأن صاعقة قد ثارت فى بدنى ، ونارا قد اشتعلت فى حلقى ، ودار رأسى مشتعلا كأنما قد صعد اليه دم الجسم كله وتجمع فيه حارا ، وكدت أختنق ، غير أنى غالبت هذه الحال حتى عاد هدوئى وتنفست مستريحا ، فقلت لها : الآن أعترف بأنى لم أشهد شهادة حق حينما وصفت « كابتاح » بنقيصة الكذب ! .. فليس أدل على أنه الصادق الذى لا يكذب ، من هذا الشراب العجيب . فهو أقوى من

أي شراب ذاقه لساني ٠ وانه ليبعث في البدن حرارة لا يستطيعها زيت بلاد ما بين النهرين ، الذى تشتعل به المصـــابيح هنالك ! ٠٠ ولست أشك في أن شرابكم قادر على أن يصرع أقوى رجل كأنما تنهال عليه منه لطمات من ذنب تمساح ! ٠٠

كان جسمي يهتز مضطربا ، وكنت أحس في فمي بقية من مذاق طعم غريب من التوابل ، وقلبي يكاد يثب من صـــدرى كأن له جنــاحي طائر ، فقلت مستطردا : بحق « ست » وكل الشياطين الأخرى ، انى لا أعرف كيف ومم صنع هـــذا الشراب !؟ أهو الذى سحرنى ، أم هما عيناك يا « ميريبت » !.. لقد عاذ قلبي شابا مرة أخرى ، ولا يدهشنك أن أطوق خاصرتك بذراعى ! ٠٠ انى لمسحور ، وكأسك هو الملوم ! ٠٠

وفى تؤدة ورشاقة وافترار ثغر ، قالت : لايدهشنى ذلك ، ولا ألومك عليه ، فهذه الحانة لطيفة حقا ، وأنا لست عجوزا ، وقد لا تصدق بأنى عذراء . وهذا الشراب كما رأيت ساحر عجيب ، وقد فعل فعله فى رأس عبدك «كابتاح »» فكلما جاء الينا ، وما أكثر ما يجيء ، لايكف عن مداخلتى ومراودتى عن نفسى، ولا يخطر فى حسبان هذا الأعور العجوز البدين ، أن أية امرأة لايمكن أن ترضى به رفيقا ... وقد دفعه تعلقه بهذه الحانة الى محاولة شرائها ،وشراء سر تركيب هذا الشراب معها ٠ ولكنه لن يستطيع ذلك الا بوزنات كثيرة من الذهب !..

وكان «كابتاح» يستمع الى حديثها قلقا مغيظا ، وبكل خلجات وجهه كان يتوسل اليها ألا تسترسل فى اذاعة أسراره ، ولكنها لم تحفل به ، ولم تتوقف ! ٠٠

وكنت قد تجرعت كاسا أخرى ، ودبت فى أعصابى حرارتها ، فقلت لهـــا : انى واثق من أن « كابتاح » يريد مخلصا أن يكسر الجرة بينك وبينه ، من أجل هذا الشراب ٠ ولا يضيره عندما تصبحين زوجته ، أن تلقى المياه فى أشد غليانها على قدمية ! ٠٠ والى حد كبير أراه معذورا فى افتتانه بك ٠ فانى لمدرك شـــعوره جيدا كلما نظرت أنا فى عينيك الفاتنتين ٠٠٠ ولكن تذكرى أيتها الحسناء الرقيقة أننى أتكلم الآن بوحى شراب « ذنب التمساح » ٠ وقد لا يكون هذا رأيى غدا ! ٠٠ ودعينى أسألك : هل صحيح أن « كابتاح » يملك هذه الحانة ؟! ٠٠

كان السؤال مفاجأة « لكابتاح » ، كما كان مفاجأة لى أنا نفسى ، فقد وقع فى خاطرى فجأة احتمال أن يكون قد اشترى الحانة فعلا ، فلم

يكن هناك ما يمنعه من ذلك ، اذ كان المال موفورا في يده • وهو ــ كما يؤكد لى مثرثرا ــ يجوب أنحاء المدينة بحثا عن الأعمال التى يتجر بها • واذا كان قد اتجه تفكيره الى شراء بيت لتجارة الرقيق ، فغير بعيد أن يتجه تفكيره كذلك الى شراء حانة « ذنب التمساح » التى يهوى شرابها وفتاتها !••

وارتاع « كابتاح » من السؤال وراح يقذف « ميرييت » بالشتائم قائلا لها : أغربى عنى أيتها الوقحة ••• والتفت الى قائلا فى سرعة ، خوفا من أن تسبقه « ميرييت » : ان هذا الموضوع يا سيدى عرض لى كمشروع من المشاريع التى أتقصاها لاستثمار ما فى أيدينا من مال ، وقد تحققت من أنه مفيد رابح فاشتريت الحانة من صاحبها ، واتصالى بهذه الفتاة ليس الا محاولة غامضة لاكتشاف سر تركيب الشراب الذى تعرفه ، فهو فى الواقع مصدر شـــهرة الحانة ، وبفضله صارت مهوى قلوب الكثيرين من طلاب المتعة والمرح • ولقد كنت طوال رحلتنا دائم الحنين اليه ، فمن يطعمه لا ينساه ولا ينتهى شغفه به • واذا كنت لم أكاشفك بهذه الصفقة فذاك لأنى خشيت ألا توافق عليها لأول وهلة • على أنى كنت سأخبرك بها حتما فى الوقت المناسب • والآن ــ وقد عرفتها ــ فانى أرجو أن تقرها ؟ فهى أمنيتى المفضلة ، وأنا خادمك المخلص ، وقد أطلقتنى ، فهل يســـخطك أن يكون لى مثل هذا العمل الخاص الذى أستمتع فيه بشعور الحرية التى منحتنيهـــا متفضلا ؟! ولا بأس عليك يا سيدى من ذلك ، فانما قد اشتريت الحانة من مدخر مالى الذى جمعته بفضل ما تسميه أنت سرقة ، وأسميه أنا مهارة ! وكثيرا ماكان يؤلمنى ألا أجد عملا أستخدم فيه هذا المال لحسابى الخاص • وأخيرا وجدت فى هذه الحانة بغيتى المنشودة ، اذ تكفل لى بجوها المنعش وشرابها الممتع ، راحة القلب وعافية البدن فى الأيام الأخيرة من حياتى • ولعلها العمل الذى قلما أحسن عملا سواه ، وطالما تمنيت أن أكون يوما صاحب فندق أو حانة ، وما رأيت مرة واحدا من أصحاب الفنادق والحانات الا نفست عليه حظه السعيد فى الحياة ، ذلك لأنه يستطيع أن يشرب النبيذ كلما أراد وبأية كمية شاء ، دون أن يجد من يطالبه بدفع الثمن !.. ثم هو الى هذا يستقبل الكثيرين من مختلف البلدان والطبقات ويتعرف اليهم وتتوثق علاقته بهم ، وبواسطتهم يستطيع أن يقف على ماجريات الامور وتفصيلات الحوادث فى سائر أنحاء الدنيا • وقد يجد فيهم الأصدقاء النافعين فى أى وقت ، والمناصرين له فى أية مشكلة • وسأكون فى هذه الحانة ألطف مدخلا وأرق حاشية وأدنى الى قلوب روادها من صاحبهــا

القديم ، بل من أى انسان آخر يتولى ادارتها · فلسانى ـ كما تعلم ـ مدرب على الأحاديث المنمقة ، ورأسى مشحون بالمعلومات والحوادث المثيرة فسأقص عليهم أغرب القصص ، وأستهويهم بالطرائف من الروايات ، وسيطيب لهم بذلك أن يطيلوا الجلوس ، وأن يكثروا من الشراب ، محلقين فى آفاق فسيحة من الخيال الممتع · وليس يخفى عليك يا سيدى مايكون لهـــذا من أثر كبير فى زيادة دخل الحانة ، فهى اذن عمل مربح ، وقد احسنت الاختيار · والواقع أننى خلقت لأكون مدير فندق أو حانة ، ولم أكن عبدا رقيقا الا لخطأ لا أدرى كنهه ولا مأتاه ، ولا كيف وقع !

وكان «كابتاح » وهو يقول هذا لا ينسى أن يعب من الشراب ، وقد بدت عليه النشوة ، فواصل الحديث قائلا : فادارة هذه الحانة ـ كما ترى ـ أجدى الأعمال وأسلمها عاقبة بالنسبة لى ، وهى لا تتأثر بالأحداث مهما تكن · فلو حدث مثلا أن انهار سلطان فرعون ، وتهاوت الآلهة عن عرشها ، فستبقى حانات النبيذ كما هى لا يتطرق اليها وهن ولا يصيبها بوار ، ذلك لأن شراب النبيذ مطلب كل انسان ، يقبل عليه اذا كان مسرورا ليستزيد من سروره ، ويهرع اليه اذا كان محزونا لينسى فيه أحزانه · ومن أجل هذا أقدمت على شراء الحانة مطمئنا متفائلا · وقد عهدت الى صاحبها السابق ، بادارتها فى الوقت الحاضر ، تساعده فى ذلك هذه الساحرة « ميرييت » على أن تكون أرباحها قسمة بيننا الى أن يحين الوقت الذى أفرغ فيه من الشئون الأخرى فأمسك بزمامها وحدى ، حيث أقضى فيها شيخوختى · ولست أخشى الآن على ادارتها فى يد هذا الرجل ، فقد عقدت بذلك اتفاقا معه وأقسمنا عليه بكل آلهة مصر ، ولا أحسبه ناقضا هـــذا الاتفاق ، أو ـ فى القليل ـ لا أحسبه سيخون الأمانة أكثر من المعقول ! ·· فانى لأراه رجلا تقيا يرتاد المعبد ويقدم القرابين ، وبينه وبين الكهنة صلات ود ، حتى أنهم ليترددون على حانته الفينة بعد الفينة ·

والى هنا كان الشراب قد استبد بوعى « كابتاح » فاختلطت فى رأسه مسالك الحديث ، وثقل لسانه فلم يعد يبين أو يفصح أو يقول كلاما مقبولا ، وشعر هو بهذا فقال : فى أى شىء كنـــا نتكلم ؟! وماذا أريد أن أقول لك ؟ ·· حقا لقد نسيت ··· ولكنى على أية حال مسرور ، ومسرور الى أقصى حد ··· لأننى أصبحت صاحب حانة ، ولأنك لم تبد اعتراضا على أن يصبح خادمك رجل أعمال حرا ! ··

وخارت قوى « كابتاح » لشدة ثمله ، ومال بجسمه المترنح على صدرى وهو يبكى ، فنحيته عنى فى رفق وأعدته الى مقعده وقلت له :

الحق يا « كابتاح » أنه ما من عمل هو أكثر ملاءمة لمواهبك من هـــذه الحانة ، وهى فضلا عن ذلك أفضل مأوى لشيخوختك . وقد صنعت ــ بلا شك ــ خيرا حين أقدمت على شرائها ، ولكن نقطة واحدة انبهمت على فكرى فى صفقتك الرابحة ، وأريد أن أســـتوضحك اياها ، فهلا أخبرتنى لماذا وافق صاحب الحانة على أن يبيعهـــا لك مادامت تربح الكثير ويملك فيها سر شراب « ذنب التمساح » الساحر العجيب ؟! أفلا يكون البدهي والمعقول أن يحتفظ بها لنفسه ؟! ٠ ٠

وكانما أعادت اليه هذه العبارة صحوه ومست شيئا هاما يحرص عليه ، فسدد الى نظرة طويلة من عينه الواحدة ، وقال فى اهتمام : ان من عادتك يا سيدى أن تعكرصفوى بالملاحظات الدقيقة ٠ على أنه ، الى جانب ما يخطر ببالك بشأن صاحب الحانة وكيف رضى ببيعها وهى التى تدر عليه ربحا كثيرا ، يحسن بك أن تدخل على هـــذا الخاطر احتمالين آخرين هما أقرب الى واقع الحال من خاطرك المزعج ! ٠ أولهما أننى وصاحب الحانة صديقان ، ومن أيام شبابنا حتى الآن يحب كل منا صاحبه كما يحب الأخ أخاه تماما ، وهو يؤكد ذلك ويتحدث به ٠ فهل يكون غريبا أن نتقاسم الخير ونتبادل المنفعة ؟ ٠٠ وقد يكون هذا فى تقديرك ، وربما كان فى تقديرى أيضا ، احتمالا ضعيفا ، يكمن وراءه ابن آوى المخادع المحتال ، فلننظر اذن فى الاحتمال الثانى : انه لم يعد خافيا على أحد أن صراعا شديدا يقوم بين « آمون » واله فرعون الجديد . هذا الصراع وان كان الآن يتفاعل تفاعل النار خلال الرماد الا أنه يوشك أن يصبح نارا تلظى ، تلتهم المغلوب وأتباعه وأنصاره والمؤمنين به ٠ ومن هنا يركب الخوف سائر الذين يشعرون بأن الهزيمة ستلحق بهم ، وهم فى غالب الرأى أتباع « آمون » ، وصاحب الحانة منهم ، بل من أكثرهم ظهـــورا لكثرة تردداه على المعبد ووثيق صلته بكهنته ، فهو يخشى ذلك اليوم ، الذى قد يكون أقرب مما يظن ، يوم تدور الدائرة على الهه فتتحطم حانته ويحرق كل ما فيها ويجلد هو بالسياط ثم يلقى به فى النهر ، فسبيل النجاة فى تفكيره هو أن يبيع الحانة ويتخفف من الأعباء استعدادا للفرار بنفسه قبل أن يدهمه الخطر المتوقع فى كل لحظة ٠ ولماذا لا يبيع حانته وهو يرى « آمون » نفسه يبيع من أرضه ؟! أرأيت يا سيدى أن الصفقة تبررها ظروف واعتبارات تتفق مع العقل ، ومع الحكمة كذلك ! ٠٠ ثم لا تنس ، فوق ذلك ، أن الجعران المقدس لا يزال معنـــا ، وهو فى قوة سلطانه يستطيع أن يحمى الحانة فى الوقت نفسه ، الذى يضفى رعايته وبركاته على المشروعات الأخرى التى تستثمر فيها أموالك ! ٠٠

ولزمت الصمت قليلا ثم قلت له : مهما يكن من الأمر ، فانه لايسعنى الا الاعتراف بأنك فى يوم واحد قد صنعت أشياء كثيرة وهامة !

فتظاهر « كابتاح » بالخجل من هـــذا الذى يراه تنويها بمقدرته واعترافا بكفاءته ، ولكنه أراد أن يؤيد استحقاقه للأطراء ، فقال مضيفا : ولا يغربن عن بالك أيضا أننا لم نصل الى « طيبة » الا أمس ـ أمس فقط ـ وكانت رحلتنا الطويلة جدا شاقة ومضنية ، وكنا أحوج ما نكون بعدها الى الراحة الكاملة أياما ولكنى آثرت العمل المتواصل لأظفر بهذه النتائج فى أقل وقت ممكن ! ..

وكان لابد لنا بعد ذلك من الانصراف ، فنهضت ونهض « كابتاح » متثاقلا ، وحيينا صاحب الحانة ، ورافقتنا « ميرييت » الى الباب . وقبل أن نخطو الى الخارج لاصقتها ووضعت يدى على خاصرتها ، ولكنهـــا أزاحتها بهدوء قائلة : قد تكون ملامستك لى هكذا شيئا لذيذا ، ولكننى لا أشعر بلذته لأنك تفعله متأثرا بشراب « ذنب التمساح » ! .. وأدركت ماذا تعنى ..

واخذنا وجهتنا الى المنزل من أقصر طريق ، وعلى فراشنا غير الرتيب استسلمنا الى النوم العميق ..

- ٧ -

وفى هـــذا الحى الفقير « بطيبة » بدأت حياتى الجديدة كطبيب ، وصحت نبوءة « كابتاح » ، فكان عدد المرضى الوافدين علينـــا كثيرا ، وما يقدمونه من أجور وهدايا قليلا تافهـــا ، فى حين كنت مضطرا الى شراء عقاقير غالية الثمن . ومن هنا كان ما أنفقه على هؤلاء المرضى أكثر مما أناله منهم ، ذلك عدا أن أثر العلاج فيهم كان ضعيفا ، لأنهم كانوا يعجزون عن شراء الطعام الذى يعين على رد العافية الى أبدانهم ، ومع هذا كنت سعيدا بهم ، وأكثر ما كان يسرنى منهم أنهم أصبحوا يباركون اسمى ويدعون لى .

وجاءنى«كابتاح» بامرأة عجوز لتدير شئون منزلنا ، وقد استرحت اليها لانهـــا كانت تجيد طهو الطعام وتحسن القيام بالخدمة فى هدوء لا يخالطه صخب ولا فضول . وعلى خلاف ما تعودت من « كابتاح » لم ارها تقف على الباب لتسب المرضى وتلعنهم متقززة من رائحتهم الكريهة ،

وانما كانت تغدو وتروح بالمنزل كأنها شبح أو ظل ، مشغولة بعملها وحده دون أن تعترض طريقي كما لو كانت تتحاشى لقائي ، ولهذا كنت لا أراها الا نادرا ، وكان اسمها « ميوتي » ..

وعلى هذه الحال تعاقبت الشهور ... وكان القلق في « طيبة » يتزايد يوما بعد يوم . وكنت خلال ذلك أرهف أذني لأسمع شيئا عن عودة « حورمحب » ، ولكن أحدا لم ينبئني بعودته ، فكان ذلك يزيدني لهفة على تسقط أخباره .

وكان الصيف قد أقبل ، وشاعت حرارة الشمس في الجو ، وأرهقت أشجار الحدائق حتى صوحت زهورها وأحالت ألوانها المخضوضرة الى اصفرار كالح ، فكنت ، التماسا للترفيه وطلبا للمتعة والتسلية ، أمضي من حين الى حين ، الى حانة « ذنب التمساح » مستصحبا «كابتاح ».وفي كل مرة كنت أحدق في وجه « ميرييت » وعينيهـــا ، وأدعوها للجلوس معي ، ولكنها في أكثر الأحيان كانت تنأى عني ، وكان هذا يحزن قلبي .

وقد استرعى نظري في هذه الحانة أنها لم تكن مكانا مباحا لكل مرتاد ، فروادها لا يختلفون في كل ليلة ، وجوها أو مقاعد ، فكأنما هي ناد خاص بهم ، لا يؤذن لغيرهم في دخوله . ومع أن من بينهم اللصوص وتجار السوق السوداء ، فانهم جميعا حينما يكونون بالحانة يحرصـــون على أن يبدوا سلوكهم مهذبا . وقد كنت أشعر بأنني غريب فيهم ، فلم يحدث أن تعرفت الى أحد منهم ، كما لم يحاول أحد أن يتعرف الى ، فكل مايعرفونه عني أنني صديق « كابتاح » ، وهذا حسبهم .

وبين رواد الحانة تدور أحاديث مسموعة في الأحوال الجارية ، ومنهم من كان يلعن « فرعون » ، ومنهم من كان يحمده . ولكنهم جميعا كانوا على اتفاق في السخرية بالهه الجديد. وذا تمساء وفد الى الحانة رجل من التجار ، مهلهل الملابس ، أشعث شعر الرأس ، بادي الكآبة ، فطلب ــ وهو لهج ثائر الأعصاب ــ شرابا يخمد به ثورة نفسه ثم أخذ يقول : ألا فلتنصب لعنة الأبد على « فرعون » ، ذلك الكاذب الأحمق الذي يتصرف في شئون الناس بوحي نزواته وأفكاره الخرقاء ، غير مبال بما ينالهم من ضر وسوء، وتعطل منافع ونضوب موارد، واليكم مثلا على ذلك: ان عملي ــ كتاجر ــ يقتضيني استيراد بعض المواد من ارض « بنت » ، وانا وامثالي من المستوردين نعتمد على السفن تروح وتغدو عبر البحر الشرقي . ورحلات هذا البحر ــ كما هو معروف ــ ليست معرضة للأخطار ،

ولذلك فان السفن فى رواحها وغدوها قلما تصاب بمكروه ، وبالتالى قلما تتخلف عن مواعيدها • على أنه يحدث فى القليل النادر أن يتأخر بعضها عن ميعاد العودة لسبب لا يعـــدو تقلبات الجو والأنواء ، ولا يكون فى هذا التأخير ما يدعو الى الخوف والقلق ، غير أن « فرعون » ذهب اليوم الى الميناء على غير المألوف ، فرأى بعض النساء والأطفال يبكون لأن بعض السفن التى يعمل عليها أهلوهم قد تأخر وصوله عن الميناء ، فأصـــدر لفوره أمـــرا بوقف ابحـــار الســـفن الى أرض « بنت » ، ومعنى ذلك ، الافلاس وخراب بيوت الذين تتوقف أعمالهم وأرباحهم على تجارة البحر ، وهم عـــدد كبير ، ومن بينهم هـــؤلاء الزوجات والأطفال الذين تظاهر « فرعون » بالشفقة عليهم ،فانهم سيموتون جوعا حينما لا يجد أهلوهم عملا لتوقف السفن عن السفر بالبحر تنفيذا لأمر « فرعون » الرحيم !

ولن يضار التجار والبحارة وحدهم بهذا الأمر الشاذ ، فهناك كذلك وكلاء الاعمـــال المصريون المقيمون فى أرض « بنت » فسيعضهم الفقر بنابه غدا ، وتغلق فى وجوههم أبواب العمل والرزق ، ومن وراء هؤلاء وأولئك عدد لا يحصى من أبناء الشعب ، سيحرمون من البضائع والعقود الزجاجية والجرار وما الى هذا من مختلف المواد التى ترد من تلك البلاد البعيدة ، وهكذا تجىء تصرفات « فرعون » مرتجلة طائشة خاليـــة من البصر وتقدير العواقب ! ••

وظل هـــذا التاجر ثائرا متتابع الكلام فى عيب « فرعون » وتسفيه أعماله ، غير أنه بعد الكأس الثالثة من شراب « ذنب التمساح » أخذ يهدأ وتخبو ثورته ، وعندئذ أدرك أنه جاوز فى حديثه الحد الذى ينبغى الوقوف عنده كلما ذكر « فرعون » ، كما أدرك أنه قد أساء الى من يعتقدون الخير فى « فرعون » ويحمدونه عليه ، فراح يعتذر من ذلك متعللا بأنه فى غضبه ويأسه كان ثائرا لا يعى ، وأردف اعتذاره بقوله : اذا كان « فرعون » لحداثة سنه وقلة تجربته يتصرف على هذا النحو بحسن النية ، فانى واثق أن الملكة « تايا » بحكمتها وسداد رأيهـــا ستحسن مقادة ابنها وتوجيهه التوجيه الرشيد ، وأعتقد أنها ســـتجد فى هذا السبيل عونا كبيرا من الكاهن « آى » ، ذلك الرجل الحصيف المتزن !..

ويتوقف الرجل قليلا ثم عاد الى الحديث قائلا : ولكن كل الذين الى جوار « فرعون » لا يفكرون الآن الا فى كيف يقضـــون على « آمون » ، وهم الذين تركوا « فرعون » مطلق العنان ، وأفسحوا الطريق أمام خبله وبطشه !.. مسكين أنت يا « آمون » ! . وهل فى القصر الملكى اليوم

الا العبث والاستهتار وفساد الأخلاق ؟! وهذه « نفرتيتى » الزوجه الملكية ، لا يعنيها من أمر الدولة الا الزينة والتجميل وارتداء أجمل الملابس وأغلى الجواهر ، والبحث بعد ذلك عما يشبع هواها ، ويجرى معها ، فى هذا السباق الشائن ، سيدات القصر ، فهن يبدين زينتهن للرجال ويظهرن لهم من اجسادهن مالا يجوز أن يظهر ! ..

وعقب « كابتاح » على مقالة هذا التاجر بقوله : هذا شيء غريب لم اجد مثله فى أى بلد من بلدان العالم التى طوفت بها وعشت فيها ، على الرغم من أنى رأيت هناك كثيرا من العجائب والغرائب ! . والتفت الى الرجل المتحدث وقال : وهل رأيت بعينيك سيدات القصر ، ومعهن الملكة ، يكشفن للرجال عن أجسادهن على الصورة التى تذكرها ؟! .

وقال التاجر : انى رجل ذو حياء ، وزوج ووالد أطفال ، ولا أسمح لنفسى أن أنظر الى سيدة فى وضع من هذه الأوضاع السافرة التى لا حياء فيها ، ونصيحتى اليك ألا تفعل شيئا غير لائق كهذا ! ..

وهنا تدخلت « ميريبت » فى الحديث مغضبة فقالت : ان كان ثمة شيء غير لائق ، فهو هذا الذى يتنزى على لسانك من العبارات الفجة والتعبيرات السمجة ، وليس هو تلك الأزياء التى ترتديها سيدات القصر ويذهب بها خيالك المريض كل مذهب ! .. انها ملابس خفيفة أعدت للصيف تلطيفا للحرارة واحتفاظا بما لا غناء عنه للجسم من الرطوبة ، وقد أحكم تفصيلها فى اعتدال بما يلائم أجسام السيدات ، ولو كنتم يا أصحاب الخيال قد دققتم النظر فى ملابس سيدات القصر التى تتخيلونها مكشوفة لرأيتم تحت الثوب الخارجى المتفتح من بعض جوانبه ثوبا آخر من الداخل يستر سائر أجزاء الجسم ويخفيها اخفاء تاما عن أحد العيون وأنفذها ، فما ذنبهن اذا كانت ليست لكم عيون ؟! .

وحاول التاجر أن يدفع هذا الهجوم بمثله ، ولكن الشراب كان أقوى من لسانه ، فمقده عن الكلام ، فتهالك فى مقعده واعتمد رأسه بيديه وراح ينشج بالبكاء ، لأن سيدات القصر العابثات يجدن فى مثل هذه الحالة لسانا كلسان « ميريبت » السليط يدافع عنهن ، ولأن سوء الحظ قد حل بالمصريين الذين قضى أمر « فرعون » أن يبقوا فى بلاد « بنت » مشردين جياعا ! ..

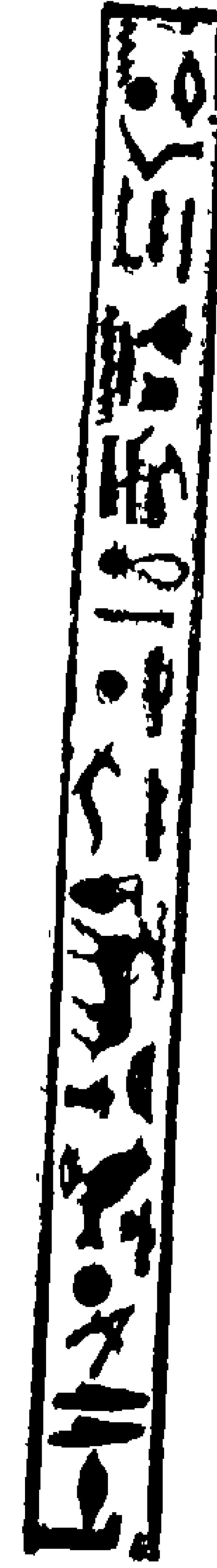
ولدى الباب عند انصرافنا ، قلت « لميريبت » : عيناك تقولان لى انك وحيدة ، وأنت تعلمين أنى كذلك وحيد ، فنحن من حياتنا على حال

واحدة ، وكلانا فى حاجة الى الآخر ، فهلا بادلتنى هذا الشعور ؟! قولى نعم ، ولو لم يكن صحيحا ، فقد سمعت منك هذه الليلة أن الكذب فى بعض الأحيان أحلى مذاقا من الصدق . وانه ليكون اشد حلاوة وأعذب مذاقا بالنسبة لشخص وحيد انقضى ربيع شـــبابه ... وان كان ثمة ما أتمنـــاه الآن فهو أن تلبسى ثوبا جديدا من أزياء الصيف التى كنت تتحدثين عنها منذ قليل بحماسة حارة ، فانه أكثر ملاءمة لتكوين جسمك الجميل ، واعتقد أنك لن تخجلى وأنت تسيرين به الى جانبى بطول طريق « رامس » ؟! ..

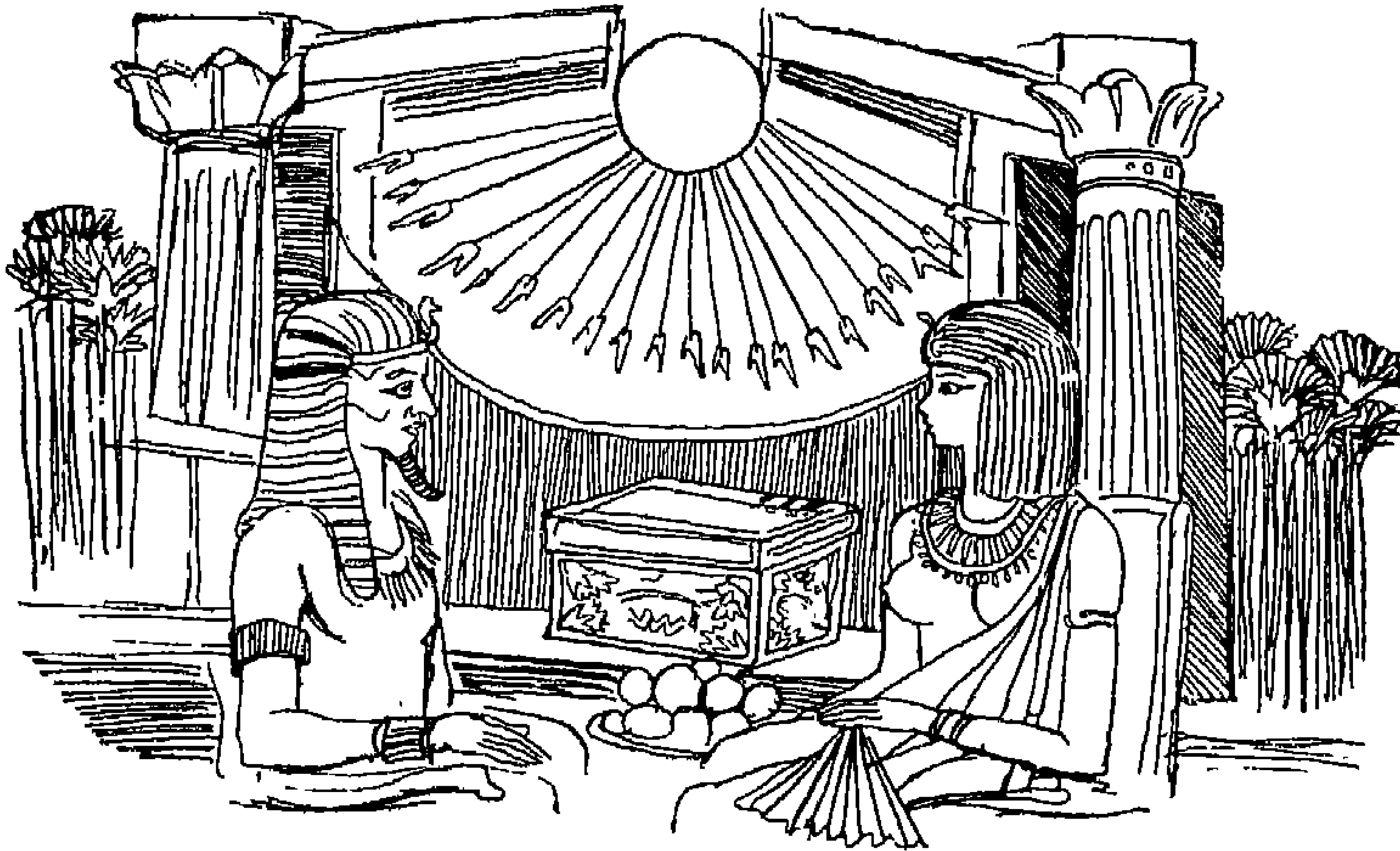
وفى هذه المرة لم تدفع يدى التى كانت تمسك بخاصرتها ، ولـكنها ضغطت عليها فى رقة ورفق ، وقالت : ربما فعلت ما تريد .

وافترقنا ، وصورتها لا تبرح خيالى ، وقلبى يخفق حنينا اليها .

وعاد « حورمحب » فى اليوم التـالى الى « طيبـة » على رأس القوات المسلحة ، والحديث عنه وعن موضوعات أخرى قريبة اليه أو بعيدة عنه ، مفصل فى القسم الثانى من هذا الكتاب . على أنى ، قبل أن أنتقل اليه ، ارى أن أسجل لنفسى فى هذه الفترة أننى أجريت عمليتين دقيقتين لفتح الجمجمة ، وكانت احداهما لرجل غنى موفور ، وثانيتهما لامرأة فقيرة ، وقد نجحتا نجاحا باهرا وكنت سعيدا بذلك أوفى سعادة ، ولم يكن الرجل الغنى أقل منى سعادة بعد شفائه ، ولكن المرأة لم يكن لها مثل حظنا من هذه السعادة ، ذلك لأنها كانت قبل شفائها تظن ، لاختلاط عقلها ، أنها هى الملكة العظيمة « حاتشيبسوت » ، فلما عاد اليها عقلهـــا عادت الى الواقع وعاشت فى الحقيقة ، فاذا هى كما كانت من قبل ، المرأة الفقيرة ، التى لا شأن لها ولا سلطان .



مدينة
السموات



- ١ -

عاد « حورمحب » من بلاد « الكوش » فى فترة من الصيف تفور بالحرارة فى أعلى درجاتها ، وقد طغى هذا الجو القائظ على الكائنات والاحياء ، حتى العصافير فى خفتها لم تقو على احتماله فغابت عن الأنظار هربا منه ، وران على مياه المستنقعات ركود مخيف ، وانسابت عبر الصحراء أرجال الجراد لتحط على الزروع والمحاصيل فتعبث بها فى نهم . ذلك كان شأن الحيـــاة وقتئذ بالنسبة لسواد الفقراء ، وقد شق عليهم فيها أن يجدوا ماء سائغا ، أو طعاما غير ملوث بالأتربة التى تتساقط عليهم خلال اشجار السنط والجميز . ولم تكن هكذا حال الاغنياء ، فحدائقهم فى « طيبة » كانت فى ازدهارها ونضارتها على جانبى طريق « رأمس » تنفح الطيب والعطر وتحيل الجو لأصحابها رقيقا لطيفا ! .. وجنوبا فى اقصى الشاطىء كان يشـــمخ « بيت فرعون الذهبى » بأســـواره وحدائقه ، وكان مفروضا أن يقضى فرعون هذه الفترة القاسية الحرارة بقصوره الصيفية فى المملكة الســـفلى ، ولكنه ، خلافا للعادة ، ظل مقيما بهذا البيت فى « طيبة » . ومن هنا بدا أن فى الأمر سرا ، وأن ثمة شيئا غير عادى سيقع ، وكانت قلوب الناس فى ذلك الحين مثقلة بالمخاوف ، فراحوا يحدسون ويتكهنون !..

ومع « حورمحب » ، عاد المحاربون وعلى صدور الفرق السوداء منهم دروع يعلوها التراب ، وبأيديهم الحراب النحاسية البراقة والاقواس المزودة بأوتارها ، فاحتلوا الثكنات التى كانت خالية ، وتجمعت ، على طول رصيف الميناء ، السفن التى عادوا عليها ، واحتشدت العجلات الحربية وجياد الضباط التى كان يعلو الريش رءوسها . وكان مما يلفت النظر ان هؤلاء المحاربين ـ على كثرتهم ـ لم يكن بينهم جندى من المصريين ، فقد كانوا جميعا من النوبيين الجنوبيين والشردانيين من الصحراء الشـــمالية الغربية .

وركب الخوف أهل المدينة من هؤلاء المحاربين غير المصريين ، وخاصة بعد أن رأوهم يزحمون ، فى تجوالهم ، شوارع المدينة وطرقها . وكان من أثر هذا الخوف أن توقف العمل بالمصانع والطواحين والمكاتب ومستودعات البضائع ، وحبس التجار بضائعهم داخل حوانيتهم وأغلقوا عليها الأبواب. أما الحانات وبيوت الملذات فقد استعان أصحابها بالرجال الأشداء ، يستأجرونهم لحماية أموالهم وارواحهم . ومضى عامة الناس متدفقين كالسيل الى معبد « آمون » مرتدين ملابسهم البيضاء حتى ضاقت بهم ساحاته على سعتها ، واضطر كثير منهم الى اعتلاء أسواره ، ليأمنوا هنالك على أنفسهم ، مما استطار بينهم من خوف ورعب ! .. ولكنهم ما كادوا يستردون أنفاسهم اللاهثة حتى فوجئوا بما زادهم اضطرابا على اضطراب، فقد ذاع بينهم خبر ينذر بحدوث شر قريب ، هو أن جثة متعفنة لكلب ميت قد ألقيت بالليل على مذبح معبد « آتون » لتدنيسه ، وأن حارس هذا المعبد قد وجد مذبوحا ! .. ومع أن هذا الحادث خليق أن يثير ابتهاجهم لفرط ايمانهم بالههم « آمون »، الا أنهم توجسوا منه شرا ، وخافوا سوء عاقبته .

وحتى مساء ذلك اليوم لم يقع حادث مثير سوى أن بعض النوبيين نهبوا بعض الحوانيت وخربوها واغتصبوا امرأتين ، فقبض عليهم حراس المدينة وجلدوهم على مرأى من الناس ، وكانت نهاية الحادث على هذه الصورة دليلا على أن جنود الحراسة قادرون على كبح جماح المحاربين المتهورين ، فبعث ذلك شيئا من الطمأنينة فى القلوب . على أن « كابتاح » كان يرى من وراء ذلك قرون الشر ناجمة فى رءوس الجانبين ، وأن ما حدث ليس الا بداية اشتباكات دامية ، فقال لى وهو يفرك يديه ارتياحا: ما أرى الا أن عملا كثيرا ينتظرك يا سيدى ، فجهز آلاتك واشحذها ، فما أكثر الجماجم المهشمة التى سيؤتى بها اليك لتفتحها ثم تعيدها سوية !..

ولكنى كنت فى شغل عن ذلك بالتفكير فى « حورمحب » ، اذ كنت جد مشوق الى لقائه ، وقد علمت أخيرا أنه لا يزال على ظهر سفينةالقيادة، فذهبت الى هناك مهرولا ، وطلبت من حارس السفينة أن ينبىء سيده برغبتى فى مقابلته ، فتلقانى الحارس فى فتور ، ولكنه ذهب وعاد ليدعونى الى الانتظار بقمرة الربان ، فارتقيت السفينة وكانت هذه أول مرة أركب فيها سفينة حربية ، وهى كما رأيت لم تكن تختلف عن السفن التجارية الا بما فيها من الأسلحة وعتاد الحرب وكثرة عدد البحارة . وبعد قليل أقبل « حورمحب » ، ولاح لى أطول قامة وأكثر هيبة وأعرض كتفين ،

ولكن وجهه مع ذلك كانت تغيم عليه بعض الخطوط الباهتة ، كما كانت عيناه تبدوان مجهدتين داميتين ، فانحنيت أمامه انحناءة كبيرة ومددت ذراعي الى الارض ! ·· ولكنه قابل حركتي هذه بضحكة عالية وقال : انا أنت « سنوحي » ابن الحمار الوحشي !·· حقا انها لساعة سعيدة ، هـذه التي ألقاك فيها ···

ونهضت مستأنسا بهذه العبـــارة اللطيفة ، وحسبته يفتح ذراعيه ليضمني الى صدره ، ولكنه لم يفعل كما لو كان ذلك شيئا غير لائق بمكانته كقائد عظيم ! ·· وسرعان ما التفت الى ضابط بدين منتفخ العينين كان يقف خلفه ، وناوله سوط قيادته الذهبي قائلا : خذ هذا وتول به القيادة ؛ ولعل يديك القذرتين لا تعجزان عن اراقة الدماء ! ·· ثم خلع طوقه الموشى بالذهب ووضعه على مشجب ، ووجه الحديث الى قائلا : هأنذا ، أيها الصديق « سنوحي » ، قد صرت حرا وباستطاعتي الآن أن أذهب معك الى حيث تشاء ··· وأرجو أن أجد بدارك حشية من فراش أستلقى عليها لأريح عظامي المكدودة ، فاني ، بحق « ست » وكل الشياطين ، لأعاني من الجهد والتعب فوق ما أطيق لطول معاشرتي للمجانين ومجادلتهم !··

والتفت « حورمحب » مرة أخرى الى الضابط الصغير الأقصر قامة ، الذى أعطاه سوط القيادة ، وقال لى : تأمل هذا الرجل جيدا يا «سنوحى» حتى تظل صـــورته مطبوعة فى ذاكرتك ، فهو الرجل الذى ألقت اليه الأقدار منذ اليوم حظ « طيبة » بأمر فرعون ، فقد شاء أن يبوئه مكانى في قيادة الجيش ، لأني كنت قد ذكرت له أنه مجنون ! ·· فلعلك حين تتأمله جيدا ، تشعر بأن « فرعون » سوف يضطر الى العدول عن رأيه فيه ، ويحتاج الى مرة ثانية ··· وأغرب « حورمحب » فى ضحكه ضاربا بيديه على ركبتيه ، ولكنه فى ضحكه هذا كان بادى التكلف ، فأحسست أن فى نفسه هما يداريه ، فلم أسترح لذلك ··· وكان الضابط الصغير يقف منا في وداعة ، والعرق لشدة الحرارة يتصبب من وجهه وعنقه وصدره ، فقال فى تأثر وبصوت واضح : أرجو ألا تغضب منى يا «حورمحب» فانك لتعلم أننى لم أنفس عليك قيادتك ، ولم أشعر يوما بأثر من الحقد عليك لمكانتك ، وكم كنت أتمنى أن أفرغ لقططى وحديقتى فانى أوثر السلام على ضوضاء الحرب ! ·· ولكنها أوامر « فرعون » ولا قبل لمن كان فى هوان شأنى بمعارضتها ! ·· ثم قال ان الحرب لن تكون ، لوثوقه أن الاله الزائف سينهار سلطانه من غير دماء تراق ...

فقال له « حورمحب » معقبا : لم يعلن « فرعون » الا مايتمناه ، وهو فى هذا التمنى يصدر عن قلبه الذى انفصل عن عقله انفصال العصفور من بيضته ! ٠٠ وأيما قرار لا يشترك العقل فى تدبيره لا يقام له وزن وبخاصة اذا كان متصلا بسياسة الأمور العامة ، فاستمع لما أقول لك ولا تنسه ، واعلم أنه لامعدى من اراقة الدماء ، حتى لو كانت دماء مصرية، فما أكثر ما تدعو الضرورة الى ذلك ، ولا ضير فى أن تتوخى ، فى هذا ، القصد والاعتدال ! ٠٠ وبحق صقرى لأجلدنك بيدى اذا رأيتك تتخلى عن عقلك الى ملاعبة قططك ! ٠٠ واذكر أنك كنت فى عهـــد « فرعون » السابق محاربا متألقا ذائع الشهرة ، وما كان « فرعون » الجديد ليعهد اليك بمنصبك الحالى الا لأنك كذلك ، وانك لمقبل على أحداث ذات خطورة ستلقى على كاهلك عبئا ثقيلا ! ٠٠

قال هذا ، ثم وكز القائد الجديد فى ظهره بينما كان هذا القــائد يلهث ويغص بريقه وتتجمد الكلمات على لسانه ٠٠

وفى خطو متئد ، سار «حورمحب» على ظهر السفينة ، وأنا برفقته والجنود على الجانبين يفسحون الطريق أمامه معتدلى القــامات ، رافعى الحراب ، تحية له ، وكان يهـــز لهم يديه قائلا : وداعا أيها الجنود ٠٠ وعليــكم أن تطيعوا أوامر هــذا الضابط الذى يتولى قيــادتكم الآن ٠٠٠ أطيعوه كمــا لو كان طفلا !٠٠ وأمنوه على نفســه فلا تدعوه يســقط من فوق العجلات ، فقد يصاب بجراح من سكينه نفسها ، وهو لا يدرى ! ٠٠

وأثار هذا ضحك الجنود فهتفوا له ، وأشادوا بمدحه ، فاستدار لهم غاضبا ، وقال وهو يهز فى وجوههم قبضة يده : كلا٠٠ اننى لا أودعكم الى غير لقاء ٠٠٠ فعما قريب سنتلاقى ، وما أردت الا أن أنصحكم بالمحافظة على سلوككم الطيب ، فان رأيت منكم انحرافا ، فلن أتردد ، عندما أعود اليكم ، فى تأديبكم ونزع أشرطتكم ! ٠٠

وقبل أن نغادر السفينة سألنى « حورمحب » عن عنوان منزلى ، وأنبأ به الضابط المنوب ، وأمره أن يبعث بأمتعته الى هناك ، لاعتقاده أنها بمنزلى تكون أكثر أمنا منها بالسفينة الحربية ٠

ووضع ذراعه فوق عنقى ، على ما جرت به التقاليد حينذاك ، وقال : انه ليس أحد يا « سنوحى » أشد منى فى هذه الليلة حاجة الى المنادمة والشراب!. . فدعوته لفورى الى شراب «ذنب التمساح» بحانة «كابتاح» منوها بقوته وسحره ، فرحب بهذه الدعوة مسرورا !٠٠ واهتبلت الفرصة،

فرغبت اليه فى أن يأذن باقامة جندى خاص على الحانة لحراستها ، فاصدر امره بذلك فى الحال الى الضابط الموكل بالمراقبة ، وهذا وعد بندب بعض الجنود الأشداء لتولى هذه الهمة ، وبذلك استطعت أن أؤدى فى هذه الظروف المتفاقمة الأحداث ، خدمة طيبة « لكابتاح » دون أن تكلفنى شيئا ٠

وكنت أعلم أن فى حانة « ذنب التمساح » عددا كبيرا من الحجرات الخاصة ، يتجمع فيها اللصوص الخطرون ومن يتعاملون معهم فى الأشياء المهربة أو المسروقة ، وفى بعض هذه الحجرات كان نساء ذوات شهرة يتلاقين ، على ميعاد ، مع حمالى الميناء ذوى السواعد المفتولة والعضلات القوية ، فاخترت لجلستنا بالحانة احدى هذه الغرف ، وأقبلت علينا « ميرييت » حاملة شراب الحانة الممتاز ، فاستوعبه « حورمحب » فى جرعة واحدة ، واستطابه فطلب كأسا أخرى ، وهو يصعد أنفاسه متأوها، فمضت « ميرييت » لتجىء له بها ، وكان يتابع الفتاة بنظره معجبا بجمالها ، وسألنى عما اذا كانت لى بها علاقة خاصة ، فنفيت له فى صيغة تأكيد ، وقد سرنى أنها لم تكن فى هذه الليلة قد ارتدت ثوبها المفتوح الصدر ، فلو أنها كانت ترتديه ، لكانت أشد اغراء واثارة لهذا القائد الظامىء ! ٠٠ على أنه لم يجاوز فى معاملتها حد التحفظ ، مكتفيا بالاعراب لها عن شكره ٠٠٠

وأمسك « حورمحب » كأسه الثانية ، وقال لى متنهدا ظاهر الجهد : غدا ، يا « سنوحى » ، ستهدر الدماء بغزارة فى شوارع « طيبة » ولن يكون بمستطاعى حقنها ، فان « فرعون » صديقى ، وانى لأحبه بالرغم من جنونه ، ولعلك لم تنس أنى دثرته بعباءتى وقت أن ربط « صقرى المقدس » مصيره بمصيرى ، ولكنى أشفق على مستقبلى من التورط فى نضال كهذا سيعرضنى لكراهية الناس ، وما أريد أن يكرهونى ٠٠ آه٠٠ يا صديقى « سنوحى » ، ان مياها غزيرة لا يمكن قياسها قد جرت فى النيل منذ التقينا ، انا وانت ، لآخر مرة فى « سوريا » ! .. وهاأنذا قد عدت أخيرا من أراضى « الكوش » مأمورا من « فرعون » بتسريح حامياتها ومعى الجنود السود ، ومعنى هذا أن جنوب القطر المصرى قد أصبح مكشوفا بغير حماية، فاذا ظلت الحال هكذا فلن ينقضى طويل وقت حتى تهب ريح الفتنة ويندلع لهيبها فى «سوريا»... وقد تعيد هذه الفتنة عقل « فرعون » الى رأسه ، ولكن البلاد خلال ذلك يكون الفقر قد انهكها

وأنشب فيها أظفاره ، فهى أعجز من أن ترد اذ ذاك عادية أو تقر نظاما ، وانك لترى أنه منذ اعتلى العرش متوجا ، لم يعد يعمل بالمناجم والمحاجر الا عدد ضئيل من العمـــال وهؤلاء على قلتهم لا يعملون الا فى كســـل واسترخاء ، فقد حظر استعمال العصى فى الهاب عزائمهم ، وقل بذلك انتاجهم ، وضاقت رحاب الرزق تبعا لهذا على الناس ، وتلك حال يتصدع لها فؤادى لا من أجل « فرعون » فحسب ، بل من أجل «مصر» أيضا ، ولن يكون مستقبل الهه أسعد حالا من ذلك ، ولا يعنينى أمر هـذا الاله الذى صرت محاربا لحسابه ، فأنى لا أومن بالآلهة، ولكن الذى يعنينى من أمره أن الكثرة الكاثرة من الناس سيلاقون حتفهم فى سبيله !٠٠ فما أشدها من حماقة ، وما أفدحه من جنون !٠٠ وعجيب أن يقع هـذا باسم الاله الذى زعم « فرعون » أنه اله الأمن والسلام !٠٠

واستطرد « حورمحب » قائلا ، بعد أن توقف قليلا : سيخلع «آمون» فى الغد ، ولن أندم على ذلك كفرد من الناس ، فقد طغى سلطانه على سلطان «فرعون» ، ومن الخير لهذه الامة أن يدال سلطانه ويتحطم نفوذه ، وتصادر أملاكه الواسعة ، وحين يفعل « فرعون » هذا يكون قد أعاد الى الشعب حقوقا مغتصبة وأرزاقا حبيسة ، بقدر ما يكون قد مكن لنفسه فى مباشرة سلطاته حرا غير متعثر فى قيود « آمون » ٠ ولكن هناك الى جانب هذا كهنة الآلهة الاخرى ، فان هؤلاء حاقدون بلا ريب على « آمون » لأنه يحد من قوتهم ويوهن مكانتهم ، فهم يتمنون زواله ، ولكنهم فى الوقت نفسه ليسوا أقل حقدا على « آتون » ! ٠٠ وللكهنة فى هذا الجـــانب أو ذاك سيطرتهم المؤثرة فى قلوب الناس ، ولهذا ستكون المعركة فى أكثر من ميدان ، وباصطراع هذه القوى المتعددة ، ستقع الكوارث فادحة ! ٠٠

قلت له : ولـــكن ثمة حقيقة ينبغى ألا تغرب عن البـــال ، هى أن « آمون » اله مكروه ، وأن كهنته يلقون بعقول الناس فى متاهات مظلمة ، ويحجرون على آرائهم حجرا شديدا ، فما يقدر انسان أن يرى رأيا أو يدير لسانه بكلمة الا اذا أذنوا له فى ذلك باسم « آمون » ، وليست هكذا حال « آتون » ، فهو على النقيض من ذلك يمنح النور والحرية والحياة الآمنة التى لا يشوبها خوف ولا وجل ، وهذا شىء عظيم ، عظيم جدا ، يا صديقى « حورمحب » ! ٠٠

قال : لا افهم ماذا تعنى بالخوف ! . . فهل يمكن أن تساس أمور الناس بغير خوف ؟! ان الخوف هو مساك حياتهم ومقومها ، وبغيره تصبح الحياة فوضى . والخلاف هنا هو ، على أى منهما يكون باعث هذا

الخوف فى نفوس الناس ، أهو « فرعون » ؟ أو « آمون » ؟! . فاذا كان الأمر الى «آمون» فهو يحكم الناس مرهوبا بالوهيته ، وحينئذ لايحتاج عرش « فرعون » الى حراب تدفع عنه ، فان انتقل الأمر الى « فرعون » كانت هذه هى النتيجة نفسها ، ولكنهـا تكون ، الى جانبه هو ، رهبة بسلطانه . ولو أن «آمون» قنع بأن يكون خادما لفرعون ،لاستقامت الحال، ولاستحق أن يبقى فى مكانه آمنا ، فلا بد ، مهما يكن الأمر ، من أن يحكم الشعب بالخوف مؤزرا بتفاهم السلطتين · وهاهو ذا « آتون » ، على وداعته ودعوته للمحبة ، يبدو ، فى مركز ألوهيته ، معبودا خطيرا مرهوب الجانب ! . .

قلت له فى هدوء : وأنا غير مدرك لماذا قلت له ذلك : انه اله أعظم مما تتصور !.. ربما كان يتقمصك وأنت لا تدرى ، وقد يكون كذلك معى !.. ولو أن الناس فهموه حق الفهم، لوجدوا فيهمنقذهم من الخوف ومن الظلام · ومع هذا فمن المحتمل أن يموت كثيرون فى سبيله ، كما تقول ، لأن الآراء الابدية لايمكن تثبيت عقائد الناس فيها الا عن طريق فرضها بالقوة ···

ونظر الى « حورمحب » متململا كما لو كان يستمع الى ثرثرة طفل ، ولكنه استمد من شراب «ذنب التمساح» روحا لطيفة أضفت عليه اعتدالا فى المزاج ، فقال : اننا فى القليل ، متفقان ، على أن « آمون » يجب أن يزاح ، وخير الوسائل الى ذلك أن يقع القضاء عليه فجأة ، وفى سرية مطلقة ، وفى كل انحاء البلاد وفى وقت واحد ، وأن يقتل ، على الفور ، الكهنة أصحاب المراتب العالية ، ويبعث بمن دونهم من الكهنة الى المناجم والمحاجر ··· فالمفاجأة الخفية الباطشة هى وحدها وسـيلة الخلاص ووسيلة اتقاء الفتنة ، ولكن « فرعون » فى خبال عقله يرى أن يتم هذا الانقلاب الخطير على مرأى من الناس جميعا وفى وضح نور الهه الذى هو قرص الشمس ، وهى عقيدة ليست بجديدة ! ·· وهذا اتجاه جنونى من غير شك ، ومعناه ، كما أتوقع ، اشتداد الصراع ، واراقة الدماء فى أوسع نطاق . ولن احاول الاشتراك فى تنفيذ هذه الخطة الجنونية التى لم أخطر بها مقدما ولم يؤخذ فيها رأيى من قبل · وبحق « ست » وسائر الشياطين ، لو أننى دعيت الى ابداء الرأى ، فى الوقت المناسب ، لأخذت على عاتقى مهمة الاجهاز على «آمون» بالوسيلة نفسها المحكمة التى ذكرتها ، وسيلة المفاجأة الخاطفة !.. ولكن ذلك شىء قد فات أوانه ، واستغلق سبيله ، فقد أصبح كل الناس فى شـوارع « طيبة » حتى أطفالهم ،

يعرفون الخطة الموضوعة ويتحدثون بها جهارا ، وراح الكهنة يفرغون كل جهودهم لافسادها ، باثارة النـاس الذين يتحـاشدون فى سـاحات المعبـد ، وصـار أمرا عاديا أن ترى الرجال ينتزعون أشـجار الحـدائق ويحملونها بايديهم ويتخذون منها أسلحة للمعركة المنتظرة ، وقلما تذهب الآن امرأة الى المعبـد الا وتحت ملابسها هراوة مخبأة !٠٠ فيـا الهى ان الأمر لفظيع ، وان « فرعون » بجنونه ليدفع بالشعب الى الهاوية ! ٠٠

قال « حورمحب » هذا منفعلا ، ثم ألقى برأسه بين يديه ليخفى دموعه التى تحدرت على وجهه لفرط تأثره ٠

وجاءت « ميرييت » حاملة الكأس الثالثة الى « حورمحب » ، ووقفت حياله تنظر فى اعجاب الى كتفيه العريضتين وعضلاته القوية ، فأمرتها محتدا أن تدعنا وحدنا ، فانصرفت ، وأخذت أنا فى تحويل مجرى الحديث معه الى ماكان من رحلتى فى «بابل» وفى أرض « الحيثيين» وفى «كريت» ولكنه كان قد استسلم للنعاس العميق ، كأنما تسلل تمساح الحانة حيا الى بدنه وضرب بذنبه فى رأسه ! ٠٠ وبت أرعاه فى نومه ، لا أقطعه عليه ، متشاغلا بمفاكهات الجنود وطرائف أحاديثهم ، وكان «كابتاح» وصاحب الحانة القديم يبالغان فى العناية بهم ، طمعا فى أن يكونوا حماة الحانة اذا ما ثار الاضطراب ووقعت الواقعة ! ٠٠ وخلال هذه الليلة ، التى شعرت كأنى وحيد فيها ، كان يقلقنى التفكير فى الأحداث الوشـيكة الوقوع ٠ فهذا الذى يقوله « حورمحب » صحيح كله ، فما يخلو بيت من بيوت « طيبة » من السكاكين المشحوذة ، والعصى المدببة ، والأوتاد الخشبية الطويلة قد ركبت الأسنة النحاسية بأطرافها ٠ ولا ريب فى أن القليلين جدا من الناس هم الذين نامت عيونهم فى تلك الليلة الرهيبة !٠٠ على أنه من المحقق أن « فرعون » لم يكن فى عداد النائمين ، بينما كان « حورمحب » ، القائد الذي ولد محاربا ، ينام بين يدى نوما عميقا !٠٠

- ٢ -

وفى تلك الليـــلة ذاتها تجمع الناس امام المعبد ، وقضوها كلها ساهرين ، مترقبين ، وافترش فقراؤهم حشـائش الحدائق الرطبة بينمـا كان الكهنة فى حركة دائبـــة يواصلون تقديم القرابين الى « آمون » فى سخاء ، ويوزعون لحومها مع الخبز والنبيذ على هذه الجماهير المتكاثرة

الساهرة ، وهم يبتهلون الى « آمون » بأصوت جهيرة ، ويبشرون بحياة الخلود لمن يؤمنون به ويضحون بأرواحهم فى سبيله ! ٠٠

وكان واضحا أن هؤلاء الكهنة يستطيعون ، أكثر من غيرهم ، درء الفتنة وحقن الدماء ، لو أنهم راضوا أنفسهم على التسليم بمشيئة «فرعون» ، فأنه حينئذ سيتركهم فى سلام آمنين ، لاينالهم بشر ولا يفكر فى اراقة دمائهم ، فالهه الذى يدعو اليه ويأبى أن يعبد الناس الها غيره ، يحرم سفك الدماء ، كما يحرم السخيمة والبغضاء ٠ ولكن الكهنة يريدونها حربا مشتعلة الأوار ، تشبثا بما تمكن لهم من الثروة والجاه وقوة السلطان ، فما يطيقون ان يضحوا بمطامعهم من أجل الأمن والسلام ، وهم لايجهلون أن موقفهم ، هذا العنيد ، مغامرة وخيمة العاقبة ، فلا هذه الجموع التى ينفثون فيها روح التضحية ، ولا حراس « آمون » القلائل ، بمستطيعين الوقوف طويلا فى وجه قوات مسلحة مدربة طالما خاضت غمار الحروب والمعارك ، وأنها ، لأول اشتباك بهم ستكتسحهم كما تكتسح المياه المتحدرة من عل كل ما فى طريقها من أكوام القش الجاف ٠٠٠ ان الكهنة ، مع وضوح هذه الحقيقة لهم ، يمعنون فى العناد والمغامرة ، لتكون الدماء المسفوكة ، بين يدى « آمون » و « آتون » ، وسيلة لتأكيد دعواهم أن « فرعون » قاتل سفاح ، سلط النوبيين على المصريين ليهدروا دماءهم ويمثلوا بهم ، ومن السهل عليهم أن يصوروا للمصريين أن دماءهم وأرواحهم قد بذلت قربانا من أجل « آمون » الذى يجب أن يظل اسمه خالدا الى الأبد ، حتى لو حطم تمثاله ، وتهدم معبده ! ٠٠

وأخيرا انجابت ظلمة الليل ، وظهر فى الأفق قرص الشمس « آتون » ، مرسلا أشعته من فوق التلال الشرقية الثلاثة ، وبدأت الحرارة اللافحة تدب فى أوصال الحياة ، واستفتح الناس يومهم على نفخ النفير وأصوات المنادين ، وهم يقرءون بلاغا من « فرعون » يعلن فيه أن «أمون» اله زائف ، وانه ـ لذلك ـ قد وجب خلعه وتشييعه باللعنة الى الأبد ، مع محو اسمه من النقوش والآثار والمقابر ، ومصادرة كل معابده ، فى المملكتين العليا والسفلى وكل أراضيه ومواشيه وخدمه ومبانيه وذهبه وفضته ونحاسه لحساب «فرعون» والهه ... ويعد «فرعون» فى بلاغه بتحويل معابد « آمون » وحدائقه وبحيراته المقدسة الى مرافق عامة ، ينتفع بها جميع أفراد الشعب أحرارا ، كما وعد بتوزيع أراضى هذا الاله الزائف على الذين لا يملكون أرضا ليزرعوها باسم « آتون » ٠٠٠

واستمع الناس الى هذا البلاغ فى صمت على عادتهم ، ولكنه صمت

اعقبه ، فى كل مكان ، فى الطرقات والميادين وأمام المعابد ، صوت قاصف كالرعد يردد : « آمون » ... « آمون » ! .. وكان مجلجلا عريضا صاعقا ، حتى لكأن الأحجار والجدران تردده هى الأخرى . وهنا ساد الاضطراب فرق الجنود النوبيين ، وتجهمت وجوههم وزاغت أبصارهم ، وتلفتوا يمينا ويسارا ليروا أنهم ، على كثرة عددهم ، صاروا قلة وسط المدينة العظيمة الصاخبة التى يرونها لأول مرة فى حياتهم ... وفى موج هذا الضجيج المتفاعل الشامل لم يسمع الكثيرون أن « فرعون » قد قرر فصل اسمه عن اسم « آمون » ، وأطلق على نفسه اسما جديدا هو « أخناتون » نسبة الى «آتون» ...

وعلى هذه الجلبة العارمة ، تحرك « حورمحب » ، وكان الى تلك اللحظة لا يزال مسترسلا فى نومه ، فتمطى وهمهم مبتسما ، وسمعته يقول وعيناه مغمضتان : انه أنت يا « باكيت » محبوبة «آمون» وأميرتى ؟! هل تنادينني ؟ ! ..

فهززته لأوقظه ، ففتح عينيه وغابت الابتسامة من وجهه ، وقال وهو يتحسس رأسه : بحق « ست » وسائر الشياطين ، ان شرابك هذا يا « سنوحى » لقوى شديد ، وأحسبنى كنت منه فى حلم ! ..

قلت له : ألا تسمع ؟! ان الناس فى الخارج يهتفون باسم «آمون» !..

وتذكر « حورمحب » كل شىء ، ونهض منتفضا وسار متجها الى الباب لفوره ، وكنا فى هرولتنا نتعثر بما فى طريقنا بالحانة من سيقان الفتيات والجنود العارية . وانتزع « حورمحب » فى طريقه رغيفا من فوق الرف ، فالتهمه وأفرغ فى جوفه ملء قارورة من الجعة ، فلما صرنا خارج الحانة حثثنا الخطى الى المعبد مجتازين الشوارع التى كانت خالية كما لم تكن من قبل، وعند أول نافورة صادفتنا توقف «حورمحب» ودس رأسه فى مائها ليغتسل ويفيق ، فقد كان « ذنب التمساح » لا يزال يتفاعل برأسه وأعصابه ...

وكان الضابط الصغير ، أو ذلك القط السمين ، الذى يسمى «بيبيت آمون » عاكفا فى ذلك الوقت على ترتيب فرق الجيش والعجلات الحربية وحشدها أمام المعبد ، وحينما ظن أن كل شىء قد تم على ما أراد ، وأن كل جندى قد فهم التعليمات التى صدرت اليه ، اعتلى محفته المذهبة وأخذ يصيح فى صوت حاد قائلا : يا جنود مصر ! يارجال « كوش » الأبطال!.. أيها الشردانيون الاشداء .. اذهبوا جميعا الآن ، وحطموا تمثال « آمون » الملعون ، صدوعا بأمر « فرعون » ، واعلموا أنكم ستنالون على ذلك أجزل المكافأة وأسخى الجزاء ! ..

واعتقد بعد هذا أنه قد فعل كل ما هو مطلوب منه فاستوى جالسا بالمحفة مسترخيا فى وسائدها الوثيرة ، بينما كان الأرقاء يظللونه بمراوحهم ويحركونها حواليه تلطيفا لحرارة الجو التى كانت بالغة الشدة ..

واذ ذاك كانت جموع من الناس لا حصر لها من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، يقفون فى ملابسهم البيضاء أمام معبد « آمون » ، فلما رأوا القوات العسكرية والعجلات الحربية الزاحفة عليهم لم يهنوا ولم يتراجعوا، وفى زئير مدو ، ألقوا بأنفسهم على الارض لتمر على أجسادهم الخيل والعجلات ، وهنا رأى قادة القوات العسكرية أنهم لن يستطيعوا التقدم من غير اراقة دماء ، وهم غير مأمورين بذلك ، فأمروا جنودهم بالتقهقر الى أن يتلقوا أوامر أخرى ، فكان هذا التقهقر المفاجىء ، الى ماتناثر على أحجار الميدان من دماء الذين سارت الخيل والعجلات على أجسادهم ، مثيرا لحماسة الناس وهياجهم ، وقد اعتقدوا أنهم انتصروا على الجنود ...

وعاد الضباط الى قائدهم « بيبيت آمون » ، وهم مضطربون يتفصدون عرقا ، لمشاورته فى الموقف ، ولكنه كان مشغولا عنهم فى هذه اللحظة بشىء آخر ، هو أن «فرعون» قد أعلن تغيير اسمه الى «اخناتون» ، وأن اسمه هو لا يزال مقترنا باسم « آمون » ، فلماذا لا يغير بدوره هذا الاسم ؟ ! . واذن فليكن اسمه « بيبيت آتون » من الآن . غير أن الضباط لم يكونوا قد عرفوا شيئا عن هذا التغيير ، فكانوا ، وهم يعرضون الموقف عليه ، ينادونه باسمه المعروف «بيبيت آمون» فلم يبد اهتماما بهم ، وتظاهر بأنه لا يسمعهم ! .. وبعد لأى فتح عينيه الواسعتين وقال لهم فى تثاقل : ليس هنا أحد بهذا الاسم ، ان اسمى ، ان كنتم تريدوننى هو: « بيبيت آتون » ! ..

واشتد غضب هؤلاء الضباط الذين كان كل منهم يحمل سوطا ذهبى المقبض ويقود ألفا من الجنود ، فتقدم أحدهم وهو رئيس سلاح العجلات الحربية وقال مخاطبا هذا القائد : فليذهب « آتون » الى الهاوية !.. ما هذه الحماقة ؟! انما نريد أوامرك ! ..

فقال لهم ساخرا : لست أدرى ، أمحاربون أنتم أم نساء ؟! عودوا كما كنتم ، فشتتوا شمل هذه الجماهير ، فما أرى ذلك أمرا يعجز الرجال المحاربين ! .. ولكن حذار أن تسفكوا قطرة من دم ، فهكذا أمر « فرعون » ! ..

فنظر الضباط بعضهم الى بعض مشدوهين ، وبصقوا على الارض

اعرابا عن امتعاضهم لهذا التصرف العجيب ، فكيف يعالجون الموقف الذى بلغ أقصى درجات الحرج من غير دم يراق ؟!٠٠ ذلك شيء غير مستطاع ولكنهم عادوا الى جنودهم حيارى اذ كان لا يسعهم الا أن يطيعوا أمر القائد الكبير ! ٠٠

وفى هذه الأثناء ، كانت جموع الناس تزداد تجمهرا وتتدافع فى قوة على الجنود المتراجعين ، وتنهال عليهم ضربا بالعصى والهراوات ، وقذفا بالطوب والحجارة ٠ وكان الجنـــود النوبيون يتلقون ضربات الثائرين المتلاحقة ، ويخرون أمامهم مضرجين بدمائهم . وهاجت جياد العجلات الحربية ، وعجز قادتها عن كبح جماحها ٠ فلما عاد رئيس سلاح العجلات هاله الأمر ، وأزعجه أن وجد هذه الجياد المفضلة عنده ، العزيزة عليه ، قد فقد بعضها عينه ، وأصيب بعضها فى ساقه ، بسبب ما كان ينصب عليها ، انصباب المطر ، من قذائف الحجـــارة والطوب ، فصرخ غاضبا مهتاجا وهو يقسم ليثأرن لها ، فهى احب اليه من الناس والآلهة جميعا !.. ومن ثم تقدم على رأس عجلاته مقتحما بها الجموع المحتشدة ، وكان عليه أن ينتقم ، متحاشيا اراقة الدماء ، طوعا لارادة « فرعون » !٠٠ فكانت وسيلته الى ذلك أن يخطف سائقو العجلات أكثر الثائرين تحمسا ، وأن يضعوهم فوق عجلاتهم ثم يجهزوا عليهم خنقا بسيور أعنة الخيل ، وقد قضوا بذلك عليهم دون أن يريقوا الدم المحظور ! ٠٠ وكذلك فعل الجنود النوبيون ، فقد كانوا يريشون سهامهم فى صدور الناس ثم يخنقون من يسقط منهم بأوتار أقواسهم ، وهم يتحامون ، قذائف الحجارة ، وعصى الثائرين ، بدروعهم ٠ وعلى شدة ما أصاب الناس من الرعب والفزع لكثرة ما رأوا من ضـحاياهم الذين قتلوا خنقـــا ، أو الذين خروا صرعى من العجائز والاطفال تحت سنابك الخيل ، فأنهم فى هيـــاج جنونى كانوا يتصيدون الجنود الذين ينفصلون عن صفوفهم فيمزقونهم شر ممزق ، وقد استطاعوا أن ينتزعوا سائق احدى العجلات من مقعده فيها ، ويهشموا رأسه فوق الأحجار التى رصف بها الطريق .

وبينما كانت المعركة على اشدها ، كان القائد العام «بيبيت آتون» قلقا لأن انتظاره قد طال ، والساعة المائية التى بجانبه (تخرخر) مؤذنة بأن الوقت قد تقدم أكثر مما كان يتوقع ، ولا تزال صيحات الثـائرين وضجتهم الصاخبة تقرع أذنيه وتترامى حوله كأنها السيل الجارف ، فأخذ ينادى ضباطه ويعنفهم على ابطائهم قائلا : ان قطتى السوداء « ميمو » تعانى اليوم من آلام الوضع ، وانى لمشفق عليها ، وكان ينبغى أن أكون بجانبها لأعينها ! ٠٠ فبحق « آتون » الا ما عجلتم بتحطيم تمثال «آمون»

الملعــون ، حتى نعــود الى دورنا ٠٠ والا فأنى ، بحــق « ســت » وجميع الشياطين ، منتزع قلائدكم من رقابكم ، ومقطع سياطكم ٠٠٠ وها أنذا قد أقسمت منذرا ، ولا تلومون الا أنفسكم ! ٠٠

فما ان سمع الضباط نداء قائدهم حتى أدركوا أنهم مسئولون عن النتــائج مهمــا تكن ، ورأوا أن عليهم أن ينقذوا شرفهم كجنود ورجال حرب ٠٠٠ فأعادوا تنظيم قواتهم وانقلبوا بها على الناس مهاجمين ، وأعمل الجنود النوبيون حرابهم فى رقاب المتجمهرين ، فسالت الدماء انهارا على أرض الميدان الفسيح ، وباسم « آتون » سقط فى ذلك اليوم عشرات الألوف قتلى بين رجال ونساء وأطفال ٠٠٠

ورأى الكهنة أن الزمام أفلت من أيديهم ، فلاذوا بالمعبــد وأغلقوا عليهم أبوابه ، فى حين تفــرق الذين نجــوا من الموت ، مســلمين سيقانهم الى الهرب كأنهم قطعــان من الأغنام الخــائفة ، ومن خلفهم الجنود ، الذين أسكرهم منظر الدماء ، ينكلون بكل من تصل اليه أيديهم ، وطافت العجلات الحربية فى الطرقات ملقية الرعب فى القلوب ٠٠

ولكن الفارين الفزعين ما لبثوا أن اتخــــذوا طريقهم متجمعين الى معبد « آتون » فحطموا مذابحه ، وأجهزوا على كل من لقيهم من كهنته فلحقت بهم هناك العجلات الحربية ، وانقضت عليهم انقضــاض الصواعق واصطبغت ساحة معبد « آتون » بالدماء المسفوحة ، وتراكمت على أرضها جثث القتلى ، وتكررت فيها المأساة نفسها ! ..

ووقف الجنـــود النوبيون على أبواب معبد « آمون » التى أغلقها الكهنة فى وجوههم ، وشق عليهم أن يخترقوا هذا الحصن عنوة ، وعبثا حاولوا فتح أبوابه النحاسية الضخمة بآلاتهم الحربية المعدة لهدم الأسوار ، ومن وراء أسواره كان الكهنة يرددون ، فى أصوات عالية ، لعنات «آمون» على منتهكى حرمته، وفى الوقت نفسه كان حراس المعبد يسددون سهامهم الى أجسام الجنود ويرشقونهم بالحراب ، حتى سقط منهم كثيرون بين قتيل وجريح ٠

وأبطأت نتيجة المعركة على « بيبيت آتون » فأقبل على عجلته المذهبة الى الميدان ، فارتاع لمنظر القتلى والدماء ، وشق ملابسه حنقا وحزنا ، وأمر أرقــاءه بأن يحرقوا البخور حوله لتنفى عنه رائحــة الجثث التى احتشدت عليها أسراب الذباب ، فانه لا يطيقها ، ولكنه كان لا يزال مع ذلك مشغولا بقطته السوداء « ميمو » قلقا عليها ٠ ولهذا أراد أن يتعجل عودته ، فقال لضباطه : سيكون غضب «فرعون» عظيما ، وهذا ما أخشاه ،

لأنكم لم تستطيعوا تحطيم تمـــال « آمون » تنفيذا لمشيئته ، ولأنكم بالرغم من هذا ، وخلافا لامره ، قدسفكتم الدماء حتى سالت هكذا أنهارا، فلا مناص من أن أعود مسرعا اليه لانبئه بما حدث مستشفعا لكم عنده، وسأعرج بعد ذلك على منزلى لأطمئن على حال قطتى ، ولأبدل ملابسى. ولا أرى اننا قادرون اليوم على هدم أسوار المعبد ، فلنرجئه الى أن يقرر « فرعون » نفسه ماذا يمكن أن نعمل ؟ . .

وعلى تلك الحال انتهى اليوم ، وقد سحب الضباط قواتهم من حول الأسوار ومن بين أكوام جثث القتلى وطلبوا أطعمة للجنود ، فسيقت اليهم محمولة على العربات .

على ان المدينة كانت خلال الليالى الثلاث التالية، مسرحا للاضطرابات والفوضى وعبث العابثين ، فاشتعلت النيران هنا وهناك ، وسطا الغوغاء واللصوص وسارقو المقابر وقطاع الطرق ، على المنازل وانتهبوها ، وكان هؤلاء ، وهم الذين لا يؤمنون بالآلهة ولا يخافونها ، يصطنعون التقى ويتظاهرون بالايمان « بآتون » ويرددون اسمه تبركا به ، ويدخلون الى معبده ، وكان قد أعيد تطهيره وتنسيقه ، ليتلقوا رموز الحياة من كهنته ويعلقوها فى أعناقهم كالتعاويذ والتمائم ، ومن وراء هذا الستار الزائف كانوا يعيثون في المدينة فسادا ويرتكبون شر المآثم . أما الجنود النوبيون فكانوا فى لهو متصل ، يشربون النبيذ فى كئوس مذهبة ، وينامون على الاسرة الوثيرة ، وتراخت حياتهم وسط هذه الفوضى على نحو لم يسبق له مثيل .

وكان طبيعيا أن تســـتنزف تلك الاحداث الرهيبة قـوة « طيبة » وثروتها ، فانسابت حيويتها انسياب الدم من الجراح العميقة فى الجسم الزاخر بالدماء ...

ولم يكن أحد يعتقد أن « طيبة » ، وهى فى تلك الحال من الدمار والانهيار ، عائدة الى ما كانت عليه قبل انقضاء سنين ذات عدد .

- ٣ -

وكان « حورمحب » بمنزلى حائرا شارد الفكر لا يغمض له جفن حتى ذبلت عيناه وفقد الشهية للطعام ، وكانت « ميوتى » تأسى له وتشفق عليه فتكثر من الجلوس بين يديه وتفتن فى الترفيه عنه ، وهى فى ذلك تبدو مشغوفة به ، تعطيه من الاحترام والعناية اكثر مما تعطينى منهما ،

وسر هذا انها ، مثل الكثيرات من النساء ، كانت تستهويها منه عضلاته القوية البازرة ٠

وقال لى « حورمحب » مكتئبا : ليس يعنينى شىء من أمر « آمون » أو « آتون » ، وانما يعنينى ويؤرقنى أن رجالى صاروا وحوشا بسببهما ، ومن الصعب العسير أن أستعيدهم الى حالتهم كجنود طائعين منظمين ٠ من غير أن تجلد ظهور الكثيرين منهم وتقطع رقاب بعضهم ٠٠ وهذا امر يؤسف له ، كنت اود ألا يكون بالنسبة لمثل هؤلاء الذين كانوا محاربين أبطالا ! ٠٠

تلك كانت حال « حورمحب » : حسرة ، وقلقا ، وعمق تفكير ٠٠

وعلى النقيض من هذا ، كان « كابتاح » موفور العافية تزداد ثروته يوما بعد يوم ، ويمتلىء جسمه شحما ويلمع وجهه نضارة ، ولا يكاد يفارق حانته لحظة من ليل ، لكثرة روادها من الضباط ورؤساء الجنود من الشردانيين ، وهؤلاء كانوا يدفعون ثمن الشراب ذهبا ، وينفقون فى شرابهم عن سعة ، وقد زخرت الحجرات الخلفية للحانة بأكداس من الجواهر والخزائن والرياش الثمين ، وهى ما كان يقدمه الرواد ثمنا للشراب بدلا من النقود ! ٠٠ وكانت الحانة بهذه الأكداس الغالية ، مما يغرى اللصوص بالسطو عليها ، ولكنها كانت اذ ذاك فى حراسة رجال « حورمحب » ، فكانت لذلك بمأمن من اللصوص الذين كانوا يغدون ويروحون على مقربة منها ! ٠٠

وأصابنى فى اليوم الثالث هم شديد ، فقد نفد كل ما عندى من الأدوية والعقاقير ، ولا سبيل الى شراء غيرها بأى ثمن حتى لو كان ذهبا ولم يبق لى من وسيلة عملية لمواجهة الامراض التى تفشت بالاحياء الفقيرة من المدينة ، بسبب جثث القتلى والمياه الآسنة ، فضاق صدرى لهذا وأحسست كأن بقلبى جرحا ٠ وبرمت بالفقر والأمراض و « آتون » ٠ ومن ثم لم يكن بوسعى الا أن أذهب الى حانة « ذنب التمساح » ألتمس فيها شيئا من الراحة ، وهناك شربت نبيذها المخلوط الى أن دار رأسى ٠ فغفوت ٠٠٠

وأيقظتنى « ميرييت » فى الصباح لأجد نفسى راقدا الى جوارها ، وعلى فراشها نفسه بالحانة ، فاخجلنى هذا ولكننى قلت لها فى غبطة ملحوظة : ان كانت الحياة فى عمومها أشبه ما تكون بالليلة الباردة ، فان أجمل ما فيها حقا أن يتلاصق اثنان وحيدان ، فيسرى بينهما الدفء

المؤنس للوحشة ، والمنعش للأمل ، ولا عليهما بعد هذا أن يغلب الحياء عيونهما وأيديهما ، فلا تبين ولا تتحرك ، تأثرا بعامل الصداقة ! ..

فتثاءبت وقالت مسترخية ، كأن النوم لا يزال ينازعها : تريد أن تقول اننا نخفي في اليقظة ما نبديه في النوم ؟ ! قد يكون هذا حقا وقد لا يكون ، ولكن الذى لا شك فيه أننى أجد بجوارك الهدوء والأمن ، والتحرر من المضايقات التى لا تنتهى بالحانة ، فما أشد ما ألاقى فيها من مشاكسات الرواد ، والجنود منهم على الخصوص ، وما أكثر ما أضطر الى ضربهم على أصابعهم ودفع ذقونهم عنى ! .. انهم يتهافتون على تهافت الذئاب على الفريسة ، حتى لأعانى من الافلات منهم ما أعانى ، ولكنى ، على بغضى الشديد لتصرفاتهم هذه ، لا أشعر بالاستياء من ذلك لأنى واثقة من أن دافعهم اليه هو الجمال الذى أعرف أننى أتمتع بقسط كبير منه ، ولا أحد يرانى الا شنهد بأن جمالى فوق مستوى الشوائب ، غير أنك أنت وحدك الذى تأبى أن ترضى شعورى ، ولو تجملا ، بمثل هـذه الشهادة ! ..

ولم أعرف كيف أجيبها ، وأحسست أن رأسى يخالطه الصداع ، فتناولت كأسا من الجعة ....

وابتسمت « ميريبيت » وهى تحدق بعينيها فى وجهى ، ولمحت فى اغماق نظراتها الباسمة آثارا من الأسى تشبه المياه القاتمة في قاع البئر الصافية ! .. ثم قالت لى : كم أتمنى يا « سنوحى » لو أننى أوتيته القدرة على مساعدتك ... على أنى أعرف بهذه المدينة امرأة مدينة لك بدين كبير ، ومن الخير أن تسعى للمطالبة بديونك ، ففى هذه الايام انقلبت الأوضاع وانعكست الأمور حتى أصبحت أرضيات الدور هى سقوفها وأبوابها تفتح الى الخارج ، وكان وضعها الطبيعى أن تفتح الى الداخل ، وكذلك أصبح اقتضاء الديون القديمة عملا لا يجد له صاحبه مكانا سوى الطرقات ! ..

قلت لها : أظن ذلك غير ميسور يا «ميريبيت» ، وتركتها خارجا من الحانة وفى آذانى من كلماتها نغم ، فما أنا الا انسان على أية حال ، غير ان قلبى ما لبث أن انتابته اللوعة لمنظر المذبحة وأشلائها المتنـــاثرة ، واستشرى الفزع فى نفسى حتى ظننت أن فى كل خطوة أخطوها شرا كامنا ... وهنا تذكرت معبد أحد آلهة رءوس القطط والمنزل القريب منه ، وكان الزمن قد محا ذكراهما من خاطرى ، ففى لحظات الفزع يتذكر المرء أعزاءه الذين افتقدهم بالموت ، ولهذا تذكرت أبى « سنموت » فى عطفه وحنوه ،

وتذكرت معه أمي « كيفا » في طيبتها ورحمتها ، وأحسست كأني ألعق الدم في ذكراهما ..

وفي ذلك الوقت لم يكن أحد في « طيبة » على شيء من الثراء والشهرة يخشى معهما الخطر على نفسه الا أبعد في سيره عن الحي الذي يعيش فيه، فلم أر أن بي من حاجة الى استئجار بضعة جنود يعينونني على تحقيق غرض شعرت أنه يهيم في خيالي ، ولكنه كان غرضا غامضا لا أعرف ما هو ! ..

وتفاقمت الامور في اليوم الخامس من أيام هذه المحنة ، فافلت الزمام من أيدي الضباط الذين يعملون تحت قيادة « بيبيت آتون » لخروج الجنود على طاعتهم ، ورفضهم الاستماع الى الأوامر التي تصدر اليهم بواسطة النفير العام ، ومجاهرتهم بالتمرد على رؤسائهم ، حتى انهم كانوا يلعنون هؤلاء الرؤساء علنا ويتخطفون سياطهم منهم ويضربونهم بها ، وهكذا بلغت الحال من الفوضى والفساد حدا لا يطاق السكوت عليه ، فذهب الضباط الى قائدهم « بيبيت آتون » وكان قد سئم حياة الجندية وانصرف عنها الى رعاية قططه ! .. فكاشفوه بالخطر المحدق بهم وبالمدينة ، وأرغموه على أن يقابل « فرعون » دون ابطاء ليطلعه على حقيقة الحال ...

وتمخضت الاحداث في ذلك اليوم عن النتيجة التي كان يتوقعها «حورمحب» ، فقد جاءت رسل «فرعون» الى منزلي ليبلغوه أن «فرعون» يدعوه اليه ، فنهض عندئذ نهوض الاسد حين يتأهب للخروج من عرينه، فغسل وجهه وارتدى ثيابه ، ومضى مع الرسل الى « فرعون » الذي كان سلطانه يتهاوى ! ..

فلما مثل بين يديه ، قال له في جد صارم : « أخناتون » .. لقد تأزمت الامور ، ولم يعد في الوقت متسع لتذكيرك بما كنت قد أشرت عليك به ونصحتك باتباعه ، ولا سبيل الى معالجة الموقف وحسم الفتنة الا بأن تتخلى لي عن سلطتك ثلاثة أيام فحسب ، ولك أن تطمئن ، فسأعيدها اليك في نهاية اليوم الثالث ! .. هذا هو رأيي ، ولا شيء عندي سواه ...

فقال « فرعون » متسائلا : وبهذا يتم تحطيم « آمون » وتمحى آثاره ؟! ..

وأجاب «حورمحب » : ما أرى الا أن بك مسا ! .. فماذا يكون

اذن ، وبعد هذه الحوادث الدامية ، الا أن يزول « آمون » ؟! .. نعم يا سيدى . لن يبقى « آمون » ، وسأحطمه كما تريد ، ولكن لا تسألنى كيف يتم ذلك ! ..

قال « فرعون » : يبقى أن أسالك أمرا واحدا ، هو ألا تصيب كهنة « آمون » بأذى ، فهم لا يفقهون شيئا مما صنعوا ! ..

فقال « حورمحب » منفعلا : يلوح لى أن جمجمتك فى حاجة الى من يفتحها ، فلا شىء غير ذلك يداويها ! .. ومع ذلك فسأطيع أمرك ، فان لك فى عنقى عهدا لا أنكثه منذ تلك اللحظة التى لقيتك فيها عبر الصحراء ضعيفا متهالكا ، فدثرتك بعباءتى ..

فبكى « فرعون » متأثرا ، واستسلم الى رأى « حورمحب » وأعطاه السوط وعصا الراعى ، ليلى الامر مكانه مدى الايام الثلاثة التى طلبها ..

وهبط « حورمحب » على المدينة بعد ذلك فى عربة « فرعون » المذهبة ، مخترقا بها الشوارع والطرقات ، مستصحبا معه أشد الجنود ولاء ، وأمر فنفخ فى النفير ، فلم يمض قليل وقت حتى تجمع الجنود تحت أعلامهم المميزة بصور الصقور وذيول الاسود ، وبعث الى كل مكان بالعسس والرقباء ليقبضوا على الجنود الآبقين الذين لم يطيعوا الامر المذاع بالنفير ، ثم أمر بجلدهم عقابا لهم ، ومن وجد بأيديهم أو ملابسهم دماء ، أمر بقطع رقابهم على مرأى من رفاقهم ... وما ان طلع الفجر حتى كان أوغاد « طيبة » قد استخفوا كما لو كانوا جرذانا توارت من الخوف فى جحورها ، فقد كان جزاء من يقع منهم فى أيدى الشرطة القتل العاجل ! ..

واستدعى « حورمحب » جميع البنائين والنجارين بالمدينة ، فأمرهم بتقويض منازل الاغنياء وتفكيك أخشاب السفن وانتزاعها ، كما أمر العمال والفعلة باستخدام هذه الانقاض فى اقامة الطوابى والحصون وأبراج الحصار ، وأخذ الجميع فى تنفيذ هذه الاوامر على الفور ، فجلجلت خلال سكون الليل أصوات الآلات التى تعمل فى الهدم والبناء، ولكن أصواتا أخرى كانت أشد منها دويا ، هى أصوات الجنود النوبيين والشردانيين المتمردين الذين كانوا فى ذلك الوقت يجلدون فيتأوهون ويشتد صراخهم ألما ، وقد كان المدنيون من أهل «طيبة» يسمعون صراخهم فتطيب نفوسهم به ! ..

ولم يشأ « حورمحب » أن يضيع الوقت عبثا فى مفاوضات مع

الكهنة ، وانما رأى أن يلافيهم فى قوة ظاهرة مخيفة ، ومن تم بدأ عمله عند شروق الشمس باصدار أوامره لضباطه ، فأحيطت أسوار المعبد بأبراج الحصار فى خمسة مواقع ، وأخذت البطاريات تصب قذائفها على أبواب المعبد ، ورتبت مواقف الجنود تحت سقائف أقيمت لحمايتهم ، فأخطأتهم – لذلك – رمايات حراس المعبد . ورأى الكهنة وحراسهم أنه لا قبل لهم بهذا الهجوم العنيف المركز ، فتشتتت قواتهم المتجمعة وتواروا مذعورين خلف أسوار المعبد ، بينما كانت ساحاته تتفجر بأصوات الذين التجأوا اليها من عامة الناس هلعا وخوفا ..

ولما أن رأى رئيس الكهنة أن الابواب قد تحطمت ، وأن الطريق قد فتح الى داخل المعبد ، وأن الجنود النوبيين قد سيطروا سيطرة تامة على الاسوار ، أعلن فى النفير طلبه للهدنة حفظا للارواح ، وحقنا للدماء ، فأذن « حورمحب » للمتجمعين داخل المعبد بالخروج ، فخرجوا يتدافعون فرارا ، قانعين من الغنيمة بالاياب الى منازلهم ، بعد أن جفت حناجرهم من فرط الصياح وطول وقوفهم تحت الشمس المحرقة ! ..

ومنذ هذه اللحظة دخلت فى حوزة « حورمحب » وفى سيطرته ، الساحات والمخازن والاسطبلات والمصانع بالمعبد ، دون أن يتكبد رجاله خسائر ذات بال ، وتبعا لذلك وقعت تحت اشرافه « دار الحياة » و « دار الموت » ، فبعث من أطباء « دار الحياة » من يعالجون المرضى والجرحى بالمدينة ، وترك « دار الموت » على حالها ، فقد كان الذين يقيمون بها بمنأى عن كل ما يجرى فى هذه الدنيا ! ..

ومع ان الكهنة كانوا يرون ، عندما اشتدت وطأة الهجوم ، الاكتفاء بالتضحيات التى بذلت فى سبيل « آمون » ، وأن الحكمة تقضى بأن تبقى حياة البقية الباقية من المؤمنين به للاستفادة بهم فى المستقبل ، فانهم قد شق عليهم التسليم طواعية فى المعبد الكبير ، ولهذا وقفوا منه موقف الحماة ، وقد ألقوا على حراسه سحرا وسقوهم مخدرا ، ليقاتلوا حتى الموت ، دون أن يشعروا بألم ، فى سبيل الدفاع عن قدس الاقداس ..

وظل القتال على أشده داخل المعبد الكبير الى ان أقبل المساء ، وظفر رجال «حورمحب» بالحراس المسحورين وبالكهنة الذين استعملوا السلاح ، وأجهزوا عليهم جميعا ، فلم يبق الا الكهنة من المرتبة العليا الذين تجمعوا حول الههم فى المحراب . وهنا أمر « حورمحب » فتوقف القتال ، وأرسل فى الحال رجالا يجمعون جثث القتلى ويلقونها فى النهر ... ثم اقترب من كهنة « آمون » وقال لهم : اننى لا أشن حربا على

« آمون » ، فلست من خصومه كما لست من أولياء الاله الآخر ، فالهى الذى أقدسه وأفنى فى خدمته هو صقرى « حوراس » ، على أنى قائد جند « فرعون » ، ومن واجبى أن أطيع أمره ، وقد أمرنى بخلع «آمون» ، فأرى أن ينتهى الامر بينى وبينكم على غير خلاف تسوء عواقبه حتما ٠ ومن الخير لكم ولالهكم أن يرفع تمثاله فى قدس الاقداس دون أن تمسه أيدى الجنـود ، فأنهم محطموه وممثـلون به فى غير تحفظ أو تكريم !٠٠ ولا يرضينى ، كما لا يرضيكم ، انتهاك حرمة الآلهة والمعابد ، فتدبروا ما أعرضه عليكم ، واعلموا أن الترفق بكم هو الذى يدعونى الى هـــذا الاجراء المسالم ، والا فانى كقائد جند « فرعون » لن تستطيع قوة أن تثنينى عن تنفيذ أمره ، وقد أعطيتكم وقتا بقدر ساعة مائية ، لتتخذوا قراركم خلاله ، وعندئذ يمكنكم أن تغادروا هذا المعبد فى أمن وعافية ، فلن ينالكم أحد بضر ما دمت قد حفظت أرواحكم ! ٠٠

ولقيت هذه العبارات من نفوس الكهنة ارتياحا ، وتركهم «حورمحب» يتشاورون ، فظلوا بالمحراب الى أن انتهى الوقت المحدد ، فجاء «حورمحب» ومزق بيده ستار المحراب ، ودعاهم الى الانصراف ، فانصرفوا ٠٠ ولكنه لم ير أثرا لتمثـال « آمون » بالمحراب ٠٠٠ لقد حطمه الكهنة أنفسهم وتقاسموه فيما بينهم قطعا ، وخرجوا وكل منهم يخفى فى عباءته القطعة التى أصابها ، وانما فعلوا هذا ليسووا فيما بعد أجزاءه ، وليعلنوه فى الناس حيا فى صورة معجزة ! ٠٠

وأمر « حورمحب » فوضعت الاختام على المخازن ، بينما ختم هو بيده أبواب الحجرات التى أخفى فيها الذهب والفضة ٠ وفى تلك الليلة ، وتحت أضواء المشاعل ، جعل النحاتون يمحون اسم « آمون » من التماثيل والنقوش التى على الآثار ، وفى الليلة نفسها أمر « حورمحب » فأخلى الميدان من الجثث والاشلاء ، وأرسل من يطفىء النيران المشتعلة فى بعض أنحاء المدينة ٠٠

وأعقب ذلك هدوء شمل « طيبة » ، وارتد اليها ما كان قد زايلها من السلام والنظام ، وحين استوثق الاغنياء وأبناء الطبقة الراقية أن « آمون » قد انتهى وتقوضت دعائم سـلطانه ، فتحوا منازلهم وأضاءوا المصابيح أمامها ، وخرجوا الى الشوارع فى ملابسهم الفاخرة مظهرين ابتهاجهم بانتصار «آتون» ومعربين عن تمجيدهم له ، ومن قصر «فرعون» الذهبى خرج رجال الحاشية الذين كانوا يحتمون به فعبروا النهر ، آمنين فرحين ، الى المدينة ٠ وفاضت سماء « طيبة » بوهج من أضـواء

المشاعل والمصـــابيح التي تنافس الناس في انارتها اظهارا لسرورهم بانتصار الاله الجديد ! ·· ولم يكتفوا بذلك فراحوا ينثرون الازهار في الطرقات مهللين ويعانق بعضهم بعضا في ابتهاج عظيم ! ··

وفي موج هذا الانتصار ، وفي مفيض هذه الافراح العامة ، انطلق الجنود والشردانيون والنوبيون يعبون من اللهو المتدفق في اسراف غير محدود ، والناس لخوفهم منهم يتبارون في تقديم النبيذ اليهم كرشوة اتقاء لشرهم ، ولم يستطع « حورمحب » أن يمنع هــــذا ، فأمعن هؤلاء الجنود في ملذاتهم وكانوا يطوفون بالمدينة وعلى أســـنة رماحهم رءوس الـكهنة الذين ذبحوهم ، وتهافتت عليهم النساء النبيلات فقضـــوا بين أحضانهن لحظات ممتعة ! ··

وباسم « آتون » سادت الاباحية ، وتحررت الشهوات ، وتلاشت الفوارق ، فلا فرق بين مصرى ونوبى ، ولا حائل بين رذيلة وفضيلة ، فكانت زوجات رجال حاشية « فرعون » يستقبلن في بيوتهن الجنـــود النوبيين الاشـــداء ، ويتجملن لهم بالزينة والعطور والملابس الصيفية ، ويروين معهم ظمأ الغريزة الملتهبة ··· وكان النســـاء على العموم أشد افتتانا بهؤلاء الجنود ذوى القوة والبأس حتى لقد حدث أن رجلا من حراس المعبد شـوهد من بعيد يدب على الارض وهـــو يئن من جراح أصيب بها ، وكان لا يزال يردد اسم « آمون » ، فهجم عليه جنـــود نوبيون وهشموا رأسه على أحجار الطريق ، وهنا تجمع النسوة حول جثته وأخذن يرقصن باديات السرور ! ··

رأيت كل هـــذا بعيني رأسى ·· ولم أر فيه الا جنـــونا فاشيا وانحلالا يتحكم في الناس باسم الآلهة ، وقر في ذهني أن أيما اله لايستطيع أن يبرىء انسانا من جنونه ! ·· ولكنني لم أشأ أن أطيل التفكير في ذلك ، فذهبت الى حانة « ذنب التمساح » ، وكانت لا تزال ترن في أذني كلمات « ميرييت » عن المرأة التي قالت إنها مدينة لى بدين كبير !·· فاعتزمت في نفسي أمرا ، وناديت الجنود الذين كانوا يحرسون الحانة حينذاك ، وكانوا يعرفون أنني صديق قائدهم « حور محب » اذ رأوني في صحبتـــه ، ودعوتهم الى مرافقتي ، فأطاعوا ، ومضيت بهم خــــلال الشوارع التي كانت تعج بحلقات الراقصين المبتهجين حتى انتهينا الى منزل « نفر نفر نفر » · وكانت الاضواء تغمره من الخارج ، وتنبعث من داخله أصوات عالية مشبعة بالمرح والمجون · وأحسست وأنا أقف ببابه أن قواى تخور ·· ولكنني تماسكت وهتفت بالجنـــود قائلا : بأمـر

« حورمحب » ، صديقي والقائد العام لقوات « فرعون » ، أطلب اليكم أن تقتحموا هـذا المنزل ، وستجدون فيه امرأة تشمخ برأسها ، ولون عينيها يشـبه الحجارة الخضراء ، فائتونى بهـا ·· فان تأبت عليـكم فاضربوها على رأسها بقبضة حربة ، لتستسلم ، ولا تحدثوا بها أذى أكثر من هذا ! ··

فأسرع الجنود متهللين الى داخل المنزل ، ولم تمض لحظة حتى تدافع الى الشـارع من كانوا فيه من الرواد اللاهين ، وهم يتسابقون فرارا ، وعاد الجنود وفى أيديهم فاكهة وخبز معجون بالعسل ، وجرار من نبيذ ، وكانوا يحملون على أكتافهم « نفر نفر نفر » والدم يسيل من رأسها الناعم وقد سقطت قلنسوة شعرها ، اذ قاومتهم فضربوها تنفيذا لامرى ، ثم ألقوها بين يدى ، فدسست يدى الى صدرها · وكان جلدها ، كعهدى به ، ناعما كالزجاج · ولكننى فى تلك اللحظة كنت كأنى أضع يدى منه على جلد ثعبان ··· وأحسست بدقات قلبها ، فأدركت أنهـا لم تصب بالاذى المميت ، ولففتها فى قماش غامق ووضعتها على محفـة اعددتها لذلك ، ولم يبد حارس دارها اعتراضا ، لخوفه من الجنود ··

وأشرت اليهم ، فحملوا المحفة واتجهت بهـا معهم الى باب « دار الموت » ، وهناك كافأتهم بنقود ذهبية وأذنت لهم فى الانصراف ، وأنزلت « نفر نفر نفر » ، وكانت لا تزال فاقدة الشـعور ، ودفعت لصاحب المحفة أجره ، فانصرف هو الآخر · وحملت الجثة الى داخل الدار ، وقلت لمن فيها من غاسلى الجثث : هذه جثة امرأة عثرت عليها بالطريق ، ولا حاجة بى الى القول بأننى لا أعرف اسمها كما لا أعرف شيئا عن أسرتها ، ولكنى أعرف أن الجواهر التى تتحلى بها تكفيكم جزاء على الجهد الذى ستبذلونه فى تحصـين جسمها ضد الفناء ! ·· فأخـذوا يتصايحون ويلعنون قائلين : أو تظن أيها الاحمق أننا فارغون لجثتك هذه ؟! ·· أننا فى هـذه الايام نتعامل مع الكثرة الكاثرة من جثث الموتى ·· وقد أضـنانا العمل ، وما نريد مزيدا من العناء ·· ولا نجد من يقدر ذلك ويوفى جزاءنا عليه ! ··

وكدت أظن أنهم ملقون بالجثة الى الخارج ولكنهم كانوا قد كشفوا الغطاء عنها وفطنوا الى أن الحياة لم تفارقها ، وبدت لهم جميلة فاتنة ، فخلعوا ملابسها ونزعوا جواهرها ، ووضعوا أيديهم على صدرها ليتحققوا من نبضات قلبها · وعندئذ ألقوا الغطاء على جسمها ، وتغامزوا فيما بينهم ، وتحول ضيقهم ارتياحا ، وقالوا لى : فى وسعك أن تذهب الآن مشـكورا فقد فعلت خيرا ، وسنعمل نحن كل ما فى وسعنا لتحصـين

جسمها الى الابد ، ولو كان الامر الينا لضاعفنا تحصينها سبعين مرة في كل يوم الى سبعين يوما ، ليبقى جسمها مصونا من البلى فوق ما تصان به الجسوم الاخرى ! ..

وتنفست الصعداء ، لاعتقادى أننى اقتضيت دينى من «نفرنفرنفر»، وثارت منها لقاء ما صنعت بى وبوالدى ، وارتحت كثيرا اذ القيت بها حية في « دار الموت » ، هذه الدار التى عرفتها من قبل عن طريق المتاعب التى كانت هى سببا مباشرا فيها ...

ولم أعلم - الا فيما بعد - أن ثأرى منها على هذه الصورة كان ساذجا ! ..

وعجلت بعودتى الى حانة « ذنبالتمساح » ، وعندما رأيت «ميرييت» أخبرتها بما فعلت . وكانت صورة « نفر نفر نفر » تتراءى فى خيالى كأنها استيقظت من غشيتها ، فرأت نفسها مجردة من الثروة والحلى ، وهى فى قبضة المغسلين والمحنطين كحبة القمح بين شقى الرحى . وهنا وددت لو انها كانت قد فارقت الحياة حقا ، فلا أدرى ما عسى أن تكون نهايتها فى « دار الموت » وهى لما تزل حية ؟! ... وشعرت ، رغم جو الليل الدافىء ، بالبرد يسرى فى أطرافى ، فطلبت نبيذا ، ولكنه كان فى فمى غير سائغ كما لو كان ترابا ! ..

واسترسلت فى تفكيرى ... راجعا الى الوراء سنين عديدة ، وتقززت من ذكريات هذه المرأة اللعوب ، وهانت نفسى أمام التصرفات الشائنة التى أكرهتنى بفتنتها على ارتكابها ، فلعنت هذه الذكرى وقلت، فليهلك جسمى اذا ما عدت مرة ثانية الى التعلق بامرأة ! .. انها مخلوق مخيف .. جسمها مقفر كالصحراء ، وقلبها أحبولة لاصطياد الرجال !..

وربتت « ميرييت » على يدى ، لتستردنى من بين براثن هذه الافكار المزعجة ، وقالت لى وعيناها تتالقان بابتسامة حلوة : ليس كل النساء سواء يا « سنوحى » ، وأنت فيما يبدو لم توفق الى المرأة التى تريد لك الخير ..

قلت لها فى لهجة ساخرة : المرأة التى تريد لى الخير ؟! فلتنقذنى آلهة مصر منها !.. فيا لسوء حظ الخير من مدعيه !.. فهذا « فرعون » أيضا يريد الخير ، ومع ذلك ، وفى سبيل الخير الذى يريده ، قد امتلأ النهر بجثث القتلى ! ..

وأهاجت الذكريات وشراب النبيذ ، عواطفى ، فبكيت ، وكانت « ميرييت » بموضعها منى ، فقلت أناجيها : « ميرييت »! .. ان خديك

ناعمان كالزجاج ، وهما يتوقدان كأنهما المصباح المضيء داخل هـذا الزجاج ، وفي يديك دفء كأنهما قد صيغتا من أشعة الشمس ، فهلا أذنت لشفتي في لمس خديك ؟! وهلا أخذت بيدي الباردتين بين يديك ؟! إنني كالظامئ والمقرور في آن واحد .. وعندك لي الري والحرارة ، وفي وسعك أن تسلميني الى نوم هادئ ، لا تعكره الاحلام المزعجة .. فافعلي .. ولك مني ما تشائين !..

فابتسمت « ميرييت » ابتسـامة تعلوها مسحة خفيفة من كآبة وقالت : ان « ذنب التمساح » هو الذي يدير لسانك بهذا الكلام ! .. وقد ألفت سماعه فلا اعتراض لي عليه ، ولكني أحب أن تعلم يا «سنوحي» أنني لا أبتغي منك شيئا ، ولم يحدث أن طلبت شيئا في حياتي من رجل مهما يكن ، كما لم يحدث أنني تقبلت هدية ذات قيمة من أي انسان ، وكل الذي أعطيه للناس ، انما أعطيه من قلبي ... واني الآن لمعطيتك من نفسي ما تريد ، فأنا مثلك وحيدة ! ..

قالت هذا ، ورفعت كأس النبيذ من يدي التي كانت ترتجف ، ثم نهضت فسوت فراشها ، وعليه رقدنا معا جنبا الى جنب ، وخلال عبق العطر الفائح من جسدها ، نعمت بما شئت من دفء اليدين والشفتين جميعا ! .. ودخلت بعد ذلك في نوم لطيف مريح غير مختلط بشيء مما كان يعتادني من الاحلام السيئة .

وفي تلك الليلة السعيدة ، تمثلت « ميرييت » كأنها « مينيا » قد بعثت الى الحياة في صورتها ! .. « مينيا » التي فقدتها الى الابد ، .. لقد كانت « ميرييت » ، في عطفها وصفاء حنوها نحوي ، كأنها أبي وأمي ... وقد أيقظتني في الصباح هامسة في أذني همسا رقيقا كما لو كانت تتحاشى اقلاقي ! ..

وهكذا صارت « ميرييت » في حياتي أكثر من صديقة ، كانت هي الحياة نفسها ، وكلما كنت بين ذراعيها أحسست بأنني أكبر شأنا مما كنت أتصور ، وأنني انسان جدير بأن يحيا ويعيش ! ..

فلما كان صباح اليوم التالي قلت لها: لقد كسرت الجرة يا «ميرييت» بيني وبين امرأة ماتت ، ولم يبق من آثارها عندي سوى الشريط الذهبي الذي كانت تربط به شعرها الطويل . والآن ، فاني أكون أسعد الناس حقا لو سمحت بأن أكسر الجرة بيني وبينك أنت ، أيتها الفتاة التي جعلت صحراء حياتي واحة خضراء ! ..

قالت وهى تتثاءب وتضع يدها على فمها : يحسن بك أن تكف الآن عن «ذنب التمساح » فهو الذى يطلق لسانك بما لا ينبغى أن يقال، واذكر يا « سنوحى » ، أننى هنا عاملة حانة ، ولا تخلو حياتى من ريبة، وخليق بزوجتك أن تكون من طبقة أخرى يجمعها اليك التكافؤ الاجتماعى ! ٠٠

قلت لها ، وأنا أضمها الى صدرى وفمى يلمس خدها : كلما نظرت لى عينيك يا « ميرييت » كشفت فيك شيئا كان ينقصنى الايمان به فى النساء ، وهو الطيبة والصدق ٠٠ ومن أجل هذا أطمع فى أن تكونى لى ! ٠

وفى ابتسامة عذبة قالت : وأنا الاخرى قد كشفت فيك شيئا يستهوينى ، لا أدرى ماذا أسميه ، وربما كان حبا ! ٠٠ وهو الذى أغرانى بمنعك من شرب مخلوط « ذنب التمساح » ، وأنا أعلم أنك تستطيبه وترغب فيه ، وما أردت الا أن أسبر غور عواطفك نحوى ٠ فالمرأة ، حينما تحب رجلا ، تستعين بوسيلة ما على معرفة مكانها من نفسه ٠ وقد تكون هذه الوسيلة فى صورة منعه من شىء يهواه ، فان استجاب لها ، وثقت به وأقبلت عليه ٠٠ ومع ذلك فانى أوثر أن ندع الحديث عن كسر الجرة بيننا يا « سنوحى » ! ٠٠ فخير لى ولك أن تظل علاقتنا حرة غير مشدودة بقيود ، وما دمت على ما أرى فيك من الوحدة والأسى ، ففراشى مباح لك ، ولا عليك من بأس أو لوم ، اذا راق لك أن تختار فتاة غيرى، فانى كذلك لن أتردد فى اختيار الرفيق الآخر ، ما طاب لى أن أفعل ذلك ، كلانا حر ، وينبغى أن يظل حرا ، وهذه الحرية ، التى أريدها لك ، هى دليل حبى ٠٠٠

وبيديها البضتين ، قدمت لى كأسا من مخلوط « ذنب التمساح » قائلة : والآن فخذ هذا الذى منعتك منه ! ٠٠

فتناولت الكأس منها مبتهجا ، وأحسست بروحى تنطلق ، كما لو كانت عصفورا خفيفا يحلق فى رحاب الافق ، ويتنقل حرا على الافنان ، وغلبتنى نشوة الشعور بالحرية على النبيذ ، فلم أستزد من شربه فى ذلك اليوم ، وقلت لنفسى : حقا ، ان عقل الانسان لا يعرف من حقائق الحياة الا القليل ! ٠٠

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى سعيت الى الحانة ، فدعوت « ميرييت » الى مرافقتى لنشهد معا موكب « فرعون » ، فذلك يوم مهرجانه الملكى . وكانت « ميرييت » ، على رغم طبيعة حياتها بالحانة ، تبدو فى جمال متألق ، وقد ارتدت ثوبها الصيفى المصنوع على النسق الحديث للازياء ، فزادها اشراقا ، ولم أشعر بشىء من الخجل فى ظهورها الى جانبى بالاماكن المعدة لذوى الحظوة المرموقة من رجال « فرعون » ، اذ كنت قد تلقيت طاسة ملكية مذهبة وامرا بتعيينى جراحا للجمجمة فى الحاشية الملكية .

وكان شارع « رامس » يزدان بالأعلام ويزخر بالجموع التى توافدت لشهود « فرعون » فى موكبه وكثير من الناس ضاقت بهم فسحة الطريق فتسلقوا أشجار الحدائق على جانبيه ، وبأمر « بيبيت آتون » وضع عدد لا يحصى من سلال الأزهار على طول الطريق لينثرها الناس أمام « فرعون » وفقا للتقاليد .

وخلال هذا المظهر الشعبى الجامع ، وبعد الذى جثم على الصدور بالامس من ويلات الأحداث الدامية ، شعرت بالكثير من الراحة وأمن النفس ، وانتعاش الامل ، فقد كان كل ما حولنا يوحى بأن «مصر» مقبلة على عهد يزدهر بالحرية والنور ، أو هكذا كان خيالى ، انفعالا بالموقف وتأثرا بالمظهر ! ..

وساد السكون حتى لم نكن نسمع الا نعيق الغربان محومة أو جاثمة على أسقف المعبد ، وكان احتشاد الغربان والنسور فى سماء « طيبة » أمرا غير مثير للغرابة فى ذلك الحين ، فقد بشمت وأتخمت بطونها بما أصابت من جثث القتلى ، فأثقلها ذلك عن الطيران الى التلال :

وفى اللحظة التى كنت سعيدا فيها بهذا السكون ، فوق سعادتى برفيقتى الجميلة « ميرييت » ، أهل الموكب الملكى ، وكان أول ما استرعى نظرى منه هؤلاء الجنود النوبيون السائرون خلف محفته ، فقد أحسست أن ظهورهم معه يشبه الايقاع النشاز فى اللحن الرتيب . ولا شك فى أن هذا خطأ كان من الخير تفاديه فى مثل هذا اليوم ، وفى مثل هذه المناسبة بخاصة ، ذلك أن منظرهم خليق أن يثير استياء الناس ، ويهيج فى نفوسهم ذكرى الكوارث القريبة التى أهدرت فيها دماء أهليهم ، وذهبت فيها بيوتهم طعاما للنار ، والكثرة الكاثرة من النساء والرجال

لم تكن دموعهم ، بعد ، قد رقات ، كما لم تكن جراحهم قد التامت ، ولكن هكذا كان ، فظهر « فرعون أخناتون » وفي موكبه هؤلاء الجنود الذين ملأوا « طيبة » في الايام السابقة فزعا وهولا ، وكان على محفته محمولا على رءوس الأرقاء ، ظاهرا ملء الأعين جميعا ، وعلى رأسه التاج المزدوج للمملكتين ، مؤلفا من زهرتي السوسن والبردي ، وذراعاه معقوفتان على صدره ، وفي يديه السوط وعصا الراعي • وكما كانت حال الفراعين منذ اقدم العهـــود ، كان يجلس عـلى المحفة بدون حركة كأنه تمثال • وقد استقبله حراس الطريق هاتفين بحياته وهم رافعون حرابهم ، وكذلك أخذ بعض الكبراء من مستقبليه يحيـــونه ويهتفون له وينثرون الزهور أمام محفته ، وفيما عدا هؤلاء وأولئك كان الصمت مطبقا على الجميع ، وقد تلاشت فيه تلك الهتافات القليلة الواهنة ، فأمسك عنها الهاتفون ، وهم يتبادلون نظرات الاستغراب • وهنا ، وخلافا للعادات والتقاليد ، اهتز « فرعون » ورفع السوط وعصا الراعي ، ملوحا بهما ، تحية للجماهير التي لا تحييه ! •• ولكنه ما كاد يفعل حتى اصطخبت هـذه الجماهير المحتشدة اصطخاب الموج في البحر الثائر ، وانفجرت أصواتها كأنها الرعد القاصف ، صائحة : « آمون » •• « آمون » •• أعد الينـا « آمون » رب الارباب ، وملك الآلهة جميعا ! ••

وأثار هذا الانفجار المدوي ، الغربان والنسور ، فطارت عن سطح المعبد لتحلق فوق « فرعون » على محفته ، في حين استرسل الناس في صياحهم المجلجل قائلين : اليك عنا أيها الفرعون الزائف ! ••

وأزعج هذا حاملي محفة « فرعون » فتوقفوا عن المسير ، ثم أخذوا يواصلون السير عندما دفعهم الضباط في ظهورهم ليستحثوهم ، ولكن الناس تدافعوا كأنهم جلاميد صخر حطها السيل من عل ، فسدوا الطريق وأزاحوا الجنود وأوقفوا سير الموكب ..

وأعقب هذا ارتطام هـذه الكتل بعضها ببعض ، وكان لا معدى للجنود ، وقد بلغ اختلال نظام الموكب حدا مخيفا ، من أن يأخذوا الناس بكل ما في استطاعتهم من شدة ، فأعملوا فيهم العصي الغلاظ ، لاجلائهم عن طريق الموكب • فلما لم يجدهم هذا ، ورأوا الخطر متفاقما عليهم ، استعملوا الحراب والخناجر دفاعا عن أنفسهم ، واشتدت بذلك المعركة بين الفريقين ، فلم يكن يسمع خلالها الا صلصلة الاسلحة وأزيز الاحجار والعصي ، وتأوهات الجرحى والمحتضرين ، وصرخات اللعنة على فرعون والهـه ! ••

على أن « فرعون » نفسه ، وهو جد قريب من مسرح المعركة التى اصطبغت الارض بدماء ضحاياها ، لم يصب بسوء ولم يجرؤ احد على أن يقذفه بحجر من تلك الاحجار المتراكمة ، فهو لا يزال ، برغم سخط الساخطين ولعنات اللاعنين ، شخصا مقدسا لا يجوز مسه بأذى ، وكيفما كان رأيهم فيما فجاءهم به من انقلاب فى الدين والعقيدة ، فانه مع ذلك ابن الشمس كغيره من الفراعين الذين سلفوا ، وما كان يمكن أن يخطر ببال أحد ، حتى من الكهنة أنفسهم ، أن يمد يده بضر الى شخصه المقدس ، فذلك عمل مخيف مرعب !..

وكان « فرعون » ينظر فى هذا الذى يجرى حواليه ، وكان شيئا منه لا يضايقه ، واذ رأى بعينه الجنود يهوون بأسلحتهم على الناس ويذبحونهم ذبح الشياه ، نهض واقفا ، ونادى فى الجنود أن يكفوا عن ذلك ، ولكن أحدا منهم لم ينفذ أمره ، أو ربما لم يسمعه ، فقد كان الضجيج غامرا ، والصراخ عاليا ، وهتاف الجماهير يتتابع مزلزلا : « آمون » ... « آمون » .. أعد الينا « آمون » .. اليك عن « طيبة » أيها الفرعون الزائف ، فانها لا تريدك ! ..

وأمر « حورمحب » فنفخ فى النفير ، فاقبلت العربات الحربية مسرعة ، وكانت تربض بالساحات والشوارع الجانبية بعيدة عن أنظار الناس ، ومن ثم اقتحمت ساحة المعركة ، وتحت عجلاتها وحوافر جيادها، سقط كثير من الناس . على أن « حورمحب » أمر بنزع المناجل المركبة بجوانب العربات حتى لا تراق بها الدماء تحقيقا لرغبة «فرعون» ، وكانت مهمة هذه العربات ، طبقا لخطة مرسومة ، احاطة محفة «فرعون» وحمايته هو وأفراد الأسرة الملكية ومن فى حكمهم من رجال الحاشية وأصحاب الحظوة والسلطان ، وقد استطاع « حورمحب » أن يخرجهم جميعا سالمين بهذه الحراسة القوية المحكمة .

ولم تتفرق الجموع الثائرة الصاخبة حتى رأوا « فرعون » عائدا عبر النهر هو ومن معه الى القصر . وهنا هتفوا مهللين فرحين ، وانطلقوا يهزجون مبتهجين ، واندفع غوغاؤهم الى بيوت الاغنياء فحاصروها ، وكادوا ينهبونها ويفتكون بمن فيها لولا أن عاجلهم الجنود ففرقوهم ، وما زالو يتعقبون الثوار والمتظاهرين حتى انصرف الجميع الى منازلهم ، وهدأت الحال وعاد النظام ..

وعندما أقبل المساء كان شارع « رامس » مرتعا للغربان والنسور التى هبطت على ما احتشد فيه من جثث القتلى تمزقها وتنهش لحومها !..

وهكذا رأى «فرعون» بعينه ، هياج الشعب وسخطه، والدم المهراق في يوم مهرجانه ، وكان هذا لان الشعب لا يريد أن يؤمن بالهه « آتون » ولا يرضى به بديلا من « آمون » ، فشق ذلك على نفس « فرعون » وبدأت افاعي الغيظ تنفث سمومها في مشاعر حبه للشعب ، ومن ثم أصدر أمرا بأن أى انسان يردد اسم « آمون » أو يخفيه منقوشا على تمثال أو أثر ، فعقابه النفي على الفور الى المحاجر !٠٠

وفي مساء اليوم نفسه ، دعيت على عجل الى البيت الذهبي ، لان فرعون » قد عاودته علته ، وخشي أطباؤه الخطر على حياته ، فما ان سمعوه يذكر اسمي حتى بادروا الى دعوتي لأحمل معهم المسئولية فيما لو وقع له مكروه ٠ وقد ألفيته ممددا على فراشه كالميت تماما ، فأطرافه باردة ، ونبضه خافت لا يكاد يبين ، وكل شيء فيه حينذاك ينبيء بأنه قد فارق الحياة !٠٠ ولكنني كنت أعلم أنه انما يجتاز أزمة عصبية تعتاده منذ سنين ، وقد توترت أعصابه في هذه اللحظة كنتيجة طبيعية لما لم يكن يتوقعه أو يحسب حسابه من أحداث اليوم المدبر ، ووقفت الى جواره مترقبا انفراج هذه الازمة ، فلم أكن يائسا من انفراجها ٠ وفجاءة ، وفي حركة عصبية عنيفة ضغط بأسنانه على لسانه فجرحه وأوجعه وسال الدم على شفتيه ٠ وهنا عاد الى وعيه واسترد شعوره ، وأخذ يصرخ في وجوه الاطباء طالبا اخراجهم لانه ، كما يقول ، لا يطيق رؤيتهم ٠٠٠ فخرجوا ، وبقيت أنا بأمره ٠٠٠

ومال «اخناتون» نحوى قائلا : انني لا أستطيع أن أبقى بعد في هذه المدينة التي يغمرها الظلام من جميع أقطارها ٠٠ ان سلوك أهل « طيبة » كان عدائيا ومجردا من كل لياقة ، وشيء من هذا لم يقع من قبل ، حتى الاجانب ، على مافيهم من بغضاء ، لم تحدث منهم سابقة كهذه !٠٠ فما بقائي في قوم يجاهرونني بالعداء ، ولا يؤمنون بالاله الحق الواحد « آتون » ؟!٠٠ واذن فقد اعتزمت ركوب البحر في رحلة أجد بها الأفق الفسيح لخيالي وروحي ، بعيدا عن هذا المجتمع الفاسد ، الذى استبد به الافك والضلال ، وسأمضي في هذه الرحلة البحرية الى أن أرسو على أرض لا يعمرها انسان ولا يعبد فيها اله ، فأمنحها « آتون » وأشيد عليها مدينة جديدة باسمه ، ولن أعود بعد ذلك الى « طيبة » ٠٠٠ واستطرد يقول : فادع أصدقائي لمرافقتي في هذه الرحلة ، ومر البحارة لينشروا القلاع الحمراء على سفينتي ٠٠٠

وكان الغيظ قد أخذ من « اخناتون » كل مأخذ ، فأمر بأن ينقل

على الفور الى السفينة ، ولم تكن حالته الصحية تسمح بذلك ، فنصحت له ـ كطبيب ـ بالانتظار بعض الوقت ، فأصر على رأيه ...

وبدا على « حورمحب » أنه راض عن فكرة الرحلة الملكية ، لانها ـ كما قال لى موضحا ـ حل للمشكلة المعقدة التى أشاعت الفتنة فى أهل « طيبة » ، فسيبقون فى غيبة « فرعون » أحرارا فى عقائدهم ومنـــاهج عبادتهم ، كما سيكون هو حرا فى عقيدته ومنهج عبادته ، لهم دينهم ، وله دينه ، وكل من الفريقين بعيد عن الآخر ، فلا احتكاك ولا اشتجار ، ولا عداوة ولا قتال ، ومن هنـــا يسود الامن فى البلاد ، ويرفرف الســلام على جميع أهليها !..

ورافقت « فرعون » فى رحلته الى النهر ، وكان ظاهر العجلة فيها ، فأبحر دون أن ينتظر وصول أفراد الأسرة الملكية لمصـــاحبته ، وقد أمر « حورمحب » ، فأبحر فى اثره بعض السفن البحرية لمرافقة ســـفينته وحراستها .

وشيئا فشيئا ، أخذت سفينة « فرعون » ، بقلاعها الحمراء ، تبعد عن « طيبة » التى أخذت هى الاخرى تغيب عن أنظارنا فلم نعد نرى من وراء الأفق شيئا من أسوارها وسقوف معابدها ورءوس مسلاتها المذهبة ، كما خفيت عن أعيننا تماما قمم التلال الثـــلاثة التى تقوم الى الأبد على حراسة « طيبة » ... ولكن هذه المدينة وان تلاشت فى عيوننا معالمها ، فان ذكراها لم تفارق أذهاننا بل لقد كانت تتبعنا طوال أيام ذات عدد ، فقد كان النهر يفهق بجثث معركة الامس يدفعها التيار حوالينا أو قريبا منا ، فتتواثب عليها التماسيح ضاربة بذيولها على سطح الماء ، فكأننا بهذا المنظر المتكرر لم نزل فى قلب المعركة التى نفر منها « أخناتون » !.. ولكنه كان بمبعدة من النظر الى شيء من ذلك ، مسترخيا فى قمرته الخاصة على فراشه الوثير ، وحوله الخدم يدهنونه بالزيوت المعطرة ، ويوقدون المباخر بالطيب لتنفحه ريحا ذكية ، تقصى عن أنفه ما لعله قد يتسرب اليه من ريح الجثث المتعفنة من بقايا المذبحة التى وقعت باسم الهه وبسببه !.

وبعد عشرة أيام صفت مياه النهر من كدرتها ، وخلت من خبثهـــا وشوائبها ، وظهر « فرعون » على مقدم السفينة سارحا بنظره الى الشاطىء حيث كانت الارض تبدو فى صـــفرة الصيف ، والفلاحون مكبون على حصادهم ، والمواشى تتوارد على النهر لتنهل منه ، فما ان رأى الفلاحون سفينة « فرعون » بقلاعها الحمراء ، حتى تركوا ما بأيديهم وأسرعوا الى ارتداء ملابسهم البيضاء ، وأخذوا يتسابقون على الشاطىء وفى أيديهم

أغصان النخيل يلوحون بها فرحين مهللين هاتفين بحياة « فرعون »، فسره هذا أيما سرور ، وابتهج به أعظم ابتهاج ، وكان له في منظر هؤلاء الراضين المخلصين أكبر عزاء عما كان يملأ صدره من الحنق على أهل « طيبة » ، بل لقد كان له من ذلك الدواء الشافي الذى عجزت عنه عقاقير الاطباء ، ولهذا كان في الفينة بعد الفينة يصدر أوامره لربان السفينة ليرسو بها في بعض الاماكن ، فيهبط الى الشاطىء ويخرج الى الناس ، ويتحدث اليهم ملاطفا ويصافحهم ويبارك نساءهم وأطفالهم ، معربا عن حبه لهم وسروره بلقائهم ، وكان يحدث أن تدنو منه قطعان من الاغنام فى زحمة هذه الاستقبالات ، فتتشمم أطراف ردائه ، فيتهلل لهذه الظاهرة ويزداد بها ارتياحا وابتهاجا .

وذات مساء كان يقف على مقدم السفينة متطلعا الى النجوم اللامعة، وكنت الى جواره فقال لي : سأوزع جميع أراضى « آمون » ، ذلك الاله الزائف ، على أولئك الذين قنعوا بالقليل ، وعاشوا حياتهم كادحين مجهدين ، فهم أولياء « آتون » وهو راعيهم ، ومن حقهم فى عهده أن يسعدوا ليمجدوا اسمه ، ولا سبيل الى اسعادهم الا بتمليكهم الارض التى يزرعونها بالجهد والعرق ولا يصيبون منها الا ما دون الكفاف ، واذن فسأوزعها عليهم لأراهم ، على ما أحب ، وعلى ما يحب « آتون » ، موفورى الرزق والعافية ، ناعمين بالمحبة والامن وعدالة الحكم ...

ومضى « أخناتون » يقول : الحق أن قلوب الناس تختلف صفاء وكدرة ، وقد كنت لا أفهم هذه الحقيقة الى أن رأيتها مجسدة فى «طيبة» ... فهؤلاء الذين تركتهم هناك قد رانت الظلمة على قلوبهم ، وكنت أحسبهم فى مثل ما أعيش فيه من صفاء القلب ، ولم أكن أتخيلهم على تلك الحال التى رأيتهم فيها ، لان القلب حين يشرق بالضياء ينسى أن قلوبا أخرى قد احتواها الظلام حتى ليرى أصحابها النور بعيونهم فينكرونه ، ويظنونه شرا يؤذى عيونهم ! .. وهم من أجل هذا لم يؤمنوا « بآتون » اله الضياء والنور ، وقد دعوتهم اليه فلم يستجيبوا ، وما كان يسعنى ، وأنا داعية المحبة والسلام ، الا أن أدعهم حيث أرادوا لانفسهم أن يكونوا ، مؤثرا الابتعاد عنهم حتى لا ازعجهم ، فما يطيب لى مقام بينهم ، وحسبى الآن أولئك الاطهار الأعزاء الذين لم تشب قلوبهم شائبة من ضلال ، أولئك البرآء فطرة وروحا ، الذين يتجمعون حولى ويتهافتون على نور الههم العظيم « آتون » ... فسأعيش لهم ومعهم ، ولن أتركهم .

وتوقف « آتون » محدقا بنظره فى النجوم ، ثم تابع حديثه قائلا :

كم هى جميلة هذه النجوم !؟٠٠ ولكننى مع ذلك لا أحبها لانها من علامات الليل ، وأنا أكرهه لان فيه ظلاما ، وقد كان حريا بى ، وقد صيغت روحى بنور « آتون » أن آنس خلال ظلمة الليل بما يتساقط عليها من اشعاعات نجوم السماء ، لولا أنها أيضا تؤنس الذئاب فتخرج آمنة من جحورها ، وتغرى الاسود بالانطلاق من عرائسها ، وهذه وتلك لا عمل لها اذ ذاك الا البحث عن الفرائس من ناس وحيوان ، وترويع الآمنين بما ترسله هنا وهناك من عواء وزئير !٠٠ انها شر لا يبدو على ظهر الارض الا فى ظلمات الليل وعلى أضواء نجـــوم الليل ، وما « طيبة » بالنسبة لى الا ليل داج طويل ، ولهذا فانى أحتقرها ، ولا أؤمل خيرا فى أهلها الذين عاشوا فى ظلامها وورثوا الشر من ماضيها ، وانما أؤمل هذا الخير فى الاطفـــال والاحداث الذين ما زالوا غصونا مخضوضرة وبراعم مزدهرة ، وحقـلا خصبا لتعاليم « آتون » ٠ فهؤلاء هم الذين أثق فيـــهم وأعتقد أنهـــم سينشأون أطهارا ، وبذلك تصبح الدنيا كلها خيرا وطهارة وتواصلا على الحب ، وتجمعا على الفضيلة ، تقبس من نور « آتون » وتحيا سعيدة به٠ وانى فى سبيل هذا سأنشىء المدارس على مناهج جديدة وأقصى عنها المعلمين القدامى ، وأجعل منها موردا عاما سائغا يرتوى منه جميع الناس ليعيشوا سواء فى نور العلم ، وسأخلص التعليم بها من تعقيدات الكتابة حتى تكون أمرا ميسرا سهل التناول مرغوبا فيه ، وحتى لا تكون ــ كما هى الحال الآن ــ وقفا على طبقة دون طبقة ، ولا يستأثر بها الاغنيـــاء دون الفقراء ، ولا تحرم منها القرى كبراها وصغراها ، فالعلم حق شائع للجميع كحقهم فى الماء والهواء ، وانما أريد أن يتعلم الناس كافة ليستطيعوا أن يقرأوا بأنفسهم ، من غير وساطة ، ما أكتبه لهم ، وأن يفقهوا فى غير عسر ما أوجههم اليه ، فان أشياء كثيرة سأكتبها لهم ، وأشياء كثيرة سأحدثهم عنها ، وينبغى أن يفهموا بأنفسهم كل شىء !٠

ولم أرتح لحديث « فرعون » عن سياسته هذه فى تبسيط الكتابة وتعميم التعليم على هذا الاساس ، فانى أعلم أن ذلك معناه تجريد الكتابة مما تمتاز به من قداسة وجمال ، وتجريد التعليم من العمق والتخصص وروعة الابتكار ، فقلت له : ان تفكيرك هذا يا سيدى دليل على بالغ عطفك على رعاياك ، ولكن عواقبه العملية قـــد لا تكون فى مصلحتهم ، فتعميم التعليم مبسطا هكذا سيفضى الى انحدار مستوى الكتابة وفقدان زينتها ، هذا الى أن الناس سيسودهم الشعور بأنهم جميعا أهل ثقافة وعلم، وعندئذ لا يقبلون على العمل بأيديهم فى فلاحة الارض ، ترفعا ، وهى مجال انتاجهم

ومورد رزقهم ، فماذا تكون حالهم عندما تبور أو عندما يضعف إنتاجها ؟! وماذا يجديهم التعليم اذا أصبحوا جياعا ؟!٠٠

فما ان قلت هذا حتى هب صارخا فى وجهى ، وقال مغضبا : ان الظلمة التى أتحاشاها تقف الآن بجانبى ممثلة فى شخصك يا «سنوحى»!٠ فما هذه الشكوك والعوائق التى تقذفها فى طريقى ؟! ان أفكارك هذه لهى بقايا القديم البالى ، ورواسب الظلام الذى بعثت لأبدده ، ولكننى لا أحفل بها وسأمضى الى غايتى مزودا بالايمان الذى يتأجج فى نفسى ، وان عينى اللتين تخترقان الحواجز بقوة صفائهما ، لتستشفان العالم الجديد الأفضل الذى سيجىء فى الغد ، فلن تكون فيه بغضاء ، ولن يكون فيه خوف ، وانما سيكون فيه يومئذ حب وتعاون وأمن ومساواة ، فلا فرق بين غنى وفقير ، ولا تنابذ هناك بالالقاب والمراتب ٠ وحينما يمس نور العلم عقول الناس فلن يقول واحد منهم للآخر : أيها السورى التعس ، أو أيها النوبى المنكود !٠٠ فالجميع اخوان متحابون ، ومن هنا تزول الخصومات وتنمحى الحروب بين الافراد والامم !٠٠ وانى لأنظر الى هذا العالم الجديد الذى يولد على يدى فأشعر بالغبطة تملأ قلبى ، وبالقسوة تفيض فى بدنى ٠٠

وبلغ به الانفعال ، وهو يقول هذا ، حد الحمى ، فاضطرب وتداعى ، فهبطت به الى فراشه وسقيته عقارا مسكنا ، ولكن كلماته كانت ، وهو صامت مسجى ، ترن فى أذنى وتلذع قلبى ، وأحس لها تجاوبا فى روحى ٠٠٠ وقلت أحدث نفسى : ان عقل « فرعون » يضطرب بأفكار يمليها الخيال وتوتر الاعصاب ، ولكنها مع ذلك أفكار مشوقة تتميز بالخير وتغرى به ، وانى لأتمنى أن تصبح حقائق ثابتة وشريعة متبعة ، ولكن هل الى ذلك من سبيل ؟! ٠ وهل يكفى لتحقيقه ذلك الايمان القوى الذى يخالط دم « فرعون » ويفور مضطرما فى صدره ؟! الواقع أن عالما فاضلا كهذا العالم الذى يتخيله لا وجود له فى حياتنا التى نحياها ، وان كان ثمة وجود له ، فهو هناك فى الارض الغربية حيث مدينة الموتى !٠٠ ولو أن « فرعون » قد أخذ نفسه بهذا الخيال الى غايته كما يقول ، فأكبر ظنى أن البلاد لن تنجو من الدماء والتخريب على ما رأينا من بوادر سياسته بالامس ، وتبعا لهذا فان مملكته العظمى ستصبح بناء متهاويا من حيث أراد أن تكون عالما كبيرا قويا !٠٠

وخلال الظلام كانت النجوم ترسل على الكون أشعتها اللطاف الهادئة ، فتأملتها بنظرى طويلا ، وطافت برأسى ، وأنا أحدق فيها ، ذكريات بعيدة ،

فتذكرت انني ـ انا « ستوحي » ـ لست الا غريبــا في هذه الدنيـا ، لا اعرف من جاء بي اليها ، ولا مطمع لي فيها ، فاني بمحض ارادتي الحرة اخترت أن أكون طبيب الفقراء في « طيبة » ، وليس من وراء هــذا غير الجهد والفاقة ، فالذهب قد بات شيئا لا يعنيني في كثير أو قليل ، وما دمت لا أملك في هذه الدنيا الا حياتي ، فلماذا لا أظاهر « فرعون » وأشد أزره وأكون الى جانبه ناصرا ومعينا ؟! فانه ملك البلاد ، والسلطان في يده ، وامكانيات «مصر» في الثروة والخصب لا مثيل لها في بلد من بلاد العالم • فمن الممكن اذن توقع النجاح لرسالة جديدة تؤازرها هذه العوامل • وأمل « فرعون » غــير بعيد من التحقيق فلا ينبغي أن نقف في ســـبيله متوجسين مستريبين ، ولا يليق بمثلي على الاقل أن ينحرف عن دعــوة كهذه يراد بها السلام والاخاء والمساواة بين الناس .

بهذا كنت أتحدث الى نفسي ، وأنا على سطح السفينة التي تتراقص على الماء ، والريح تحمل الى أنفي شذا الحنطة الناضجة وهي مجموعة في الاهراء • وكأني كنت مسترسلا في حلم ، فما أن داخلتني نسائم الريح حتى انقطع الحلم ، بل تبدد ، وعدت الى نفسي متحسرا وأقول : لو كان « كابتاح » هنا ، لافدت من رأيه ، فربما وقعت منه على صواب كما قد يجد الانسان الدر في التراب !•• ولكن ما عسى أن يكون رأي « كابتاح » ، وهو واحد من ملايين كثيرة قد اســـتعبد الامر الواقع عقولهم ؟!•• انه سوف يقول : ان الناس جميعا لا يمكن أن يكونوا على درجة سواء ، ولو حدث ـ وذلك أمر مشكوك فيه ـ انهم تكافأوا في الموارد والارزاق ، فلم يعد هناك غني وفقير ، فانهم لن يكونوا متكافئين فيما عدا ذلك ، فلا بد في هذه الدنيا من عالم وجاهل ، وماكر وساذج ، ومن هنا تكون التفرقة، وتكون القوة والضعف ، ويكون الصراع المتفاعل بين الطبقــات ، وبين النوازع والاتجاهات • وهذه هي طبيعة الحياة ، والانسان فيها مخلوق معقد ، والفضيلة فيه ـ ان وجدت ـ لا تبلغ مرتبة الكمال !••

وظللت في هذه البلبلة الفكرية الى أن بلغنا في اليــوم الخامس عشر أرضا كانت تلالها تتراءى خلف الشاطىء مختلفة الالوان بين صفراء كلون الذهب وزرقاء كلون السماء ، وعلى مدى البصر لم نر فيها أثرا من زرع ، ولولا ما كان يتناثر فيها من أعشاش أقيمت من القش ، وبعــض رعاة يدبون حولها لحراسة بعض الاغنام ، لبدت قفرا موحشا خاليا من الحياة • وهنا أمر « فرعون » بأن ترسو السفينة ، ثم تركها صاعدا الى الشاطىء ، حتى اذا صار على هذه الارض وأدار عينيه في جنباتها ، تنفس الصعداء وقال وهو منشرح الصدر : انها الارض التي أريدها ، فليس فيها

له يعبد ، ولا يملكها انسان مزعج . فلتكن اذن مدينة « آتون » ومشرق نوره !.. وليكن اسمها أخيت آتون » مدينة السموات ...

وكان هذا قرارا ملكيا نافذا ، فتتابعت السفن على شاطىء هذه الأرض الجديدة ، واحدة اثر واحدة ، وتجمع بأمر « فرعون » رؤساء البنائين ورجال التعمير حيث أوضح لهم رأيا مفصلا فى تخطيط الشوارع الرئيسية ، والمكان الذى يقام عليه قصره الذهبى ، والمكان الذى يشاد فيه معبد « آتون » ، والأماكن التى تبنى عليها منازل اتباعه .

وأخذ البناءون والعمال فى التنفيذ ، فأقصوا الرعاة وأغنامهم ، وأزالوا أكواخهم وبدأوا أعمالهم بانشاء رصيف على طول الشاطىء ليكون ميناء المدينة ، ثم بانشاء بيوت من اللبن خاصة بهم فى قسم معين من تخطيط المدينة ، وراحوا بعد ذلك يعملون فى تقسيم الشوارع وفقا لهذا التخطيط ، فكان خمسة من الشمال الى الجنوب وخمسة أخرى من الشرق الى الغرب ، وعلى جنباتها أقيمت المساكن ، وكان كل مسكن منها مؤلفا من غرفتين متماثلتين ، ملحقا بهما المواقع المعدة للمنافع الخاصة كالأفران والمواقد ودورات المياه ، وجهزت مساكن العمال بما يحتاجون اليه من الأثاث والأوعية ، تحقيقا لما كان فرعون يكنه لهم من النوايا الطيبة التى تكفل لهم الراحة والسعادة .

ولبث « فرعون » على ظهر السفينة متخذا منها مقر حكمه ، ومشرفا بنفسه على حركة البناء والتعمير الدائبة ، وكلما أخذ البناء يظهر وتتضح به معالم المدينة الجديدة ، كان يشتد سروره وتزداد غبطته . وقد اقبل الشتاء وانتهى وجاء من بعده موسم الفيضان ، وهو على تلك الحال ، بعيدا عن « طيبة » لا يفكر فيها الا متبرما ولا يذكرها الا ساخطا ، وكل ما كان يملأ خواطره وأمانيه هو الا يبرح مكانه حتى يرى المدينة الجديدة قد استكملت عناصر وجودها ، ليغنى بها عن « طيبة » ، تلك المدينة التى كان تفكيره فيها يشعره دائما بأنها كالسم الذى يسرى فى بدنه ! .. ولهذا أنفق على انشاء مدينته الجديدة عن سعة ، واستنفد فى ذلك كل المال الذى غنمه من « آمون » بعد أن وزع أراضيه على المعدمين من الشعب ...

وفى حين كان « فرعون » نفسه سعيدا موفور العافية منتعش الروح وهو يرى مدينته تظهر وتبرز على أعمدتها الملونة، وتبدو كالزهور

فى تفتحها ، فانى كنت على النقيض أعانى من الضـيق وكثرة العمل ، فقد تفشى المرض بين العمـال بسبب تلوث مياه الأرض قبل أن تتم تصفيتها ، ثم ان الاصابات قد تفشت بينهم كذلك للمشقة والرهق بسبب السرعة المفروضة عليهم .

وعندما انخفضـت ميـاه النهر ، وفد على المدينـة الجـديدة « حورمحب » ومعه أعضاء الحاشية ، ولم يكن فى نيته اطالة مقامه بها أكثر من الوقت الذى يستطيع فيه اقناع « فرعون » للعدول عن رأيه فى تسريح الجيش . ولكن « فرعون » لم يقتنع وأصر على امره ، فاخذ «حور محب» يحتال لثنيه عن ذلك قائلا : أن فى «سوريا» قلقا شديدا ، والجالية المصرية هناك أضعف من أن تثبت له ، والملك « عزيرو » يثير شعور الكراهية ضد «مصر» ، وهو يترصد الفرصة المواتية ليعلنها ثورة سـافرة ! ..

وفرعون يشيح عنه ثم يعود فيكرر عليه الأمر بتسريح النوبيين والشردانيين واعادتهم الى بلادهم ، فيعود « حورمحب » كذلك الى الموضوع نفسه مكررا المخاوف التى تنذر بها الحالة فى «سوريا» ، وموقف «عزيرو» من «مصر» . فيقـول «فرعـون» مفنـدا رأى «حورمحب» : ان الثورة فى بلاد سوريا لا تعـدو أن تكون مجرد أوهام ، فلا موضع للخشـية منها ، ذلك لأنى قد أرسلت الى امرائها جميعـا « صليب الحياة » ، وهذا الصليب نفسـه قد سـلمته بيدى الى « عزيرو » ، وبينى وبينه ، بخاصـة ، صداقة ومحبـة ، وقد أقام معبدا « لآتون » فى أرض « عمورية » ، ومعنى هذا انه من أوليائنا الخلصـاء فى هـذا العهد ، عهد الاخاء والسلام . وقد تلقيت منه كثيرا من الألواح الطينية يسألنا فيها المزيد من العلم عن « آتون » ، ويؤكد اخلاصه لمصر والهها الجديد . وتستطيع ، ان شئت ، الاطلاع على هذه الالواح بعد أن يتم تنظيم دار محفوظاتنا .

فقال « حورمحب » : أرجو أن يثق سيدى ان هذه الألواح لاتعبر عن حقيقة هذا الملك « عزيرو » . انه يخدع ويموه ويخفى ما فى نفسه ، ومع ذلك فاذا كنت مصـمما على تسريح الجيش ، فدعنى — على الأقل — استزد من قوات الحدود لتحصـينها فى وجه اى اغارة أو اعتداء ، وهذا أمر متوقع حدوثه فى أى وقت ولأى سبب ، وهذه هى قبائل الجنوب تترك قطعان أغنـامها لتـرعى داخل حدودنا فى بلاد «الكوش» ، وكذلك الحال فى «سوريا» ، ولا يكتفى أصحاب هذه الاغنام

بذلك ، وانما هم أيضا يعيشون بالقرى المحالفة لنا ويحرقونها ، وهذ يسير عليهم لأنها مقامة من القش ..

فقال فرعون « اخناتون » : ان هؤلاء لا يبغون علينا ولا يفعلون ما فعلوا عن سوء نية ، وانما هو الفقر الذى يضطرهم لذلك . وينبغى على حلفائنا ان يفسحوا صدورهم لجيرانهم ويقتسموا المرعى مع القبائل الجنوبية ، وسأبعث اليهم بصليب الحياة ليشرح صدورهم ويهدىء نفوسهم .. اما حرق القرى ، ان صح ، فلا يعنى العدوان المبيت ، وقد ذكرت أنها من القش . ففى امكان أى فرد غير مسئول أن يشعلها جميعا فى وقت واحد ، وليس من السهل اتهام كل القبائل بمثل هذا العمل التافه الذى يستطيعه فرد واحد ! ..

واستطرد « اخناتون » قائلا : ولكنى بالرغم من اطمئنانى وثقتى ، أرخص لك فى تقوية حرس الحدود فى أراضى «الكوش» وفى «سوريا» ، بوصفك مسئولا عن سلامة المملكة ، على أن يكونوا مجرد حراس وليسوا جيشا ذا عدة وعدد ! ..

وكان فرعون يقول هذا دون ان تفارقه افكاره الهاذية المختلطة التى كان يقطع بها الحديث بغتة ليقول له متسائلا : هل رايت كيف فعل الفنانون بالأرض التى تحيط بقصرى هنا ؟ ! انهم ، كما وجهتهم ، يحيلونها الآن بحيرات تتخللها الأعشاب ، وفى مائها يسبح البط كما يسبح فى « كريت » ! .. واحسبك لم تنس أن تستمتع بمنظر بهو معبد « آتون » الذى اقيمت اعمدته صفوفا بجانب القصر ! .. انها لا شك اعمدة تستهوى النفس ، وقد شيدت من الطوب فحسب ، توفيرا للوقت ، فضلا على انى آثرت أن تكون كذلك حتى لا نستخدم الأرقاء فى قطع الأحجار من المحاجر ثم نسخرهم فى حملها لنقيم بها أعمدة ! .. ان فكرة تجشيمهم هذا العناء شىء تعافه نفسى ... الى غير ذلك من الهذيان الذى لا علاقة له بموضوع المناقشة ..

ونفد صبر « حورمحب » فقال له : « اخناتون » ! .. يا صديقى المدخول ! .. ينبغى أن تأخذ الأمور مأخذ الجد ، ولا ارى مناصا من أن تدعنى أعيد تشكيل قوات الجيش والحاميات وتنظيمها فى كل انحاء القطر ، فانك لا تدرى أى خطر سيحيق بالبلاد من الداخل لو اننا طوعا لأمرك سرحنا الجنود ! .. انهم عندئذ لن يكون لهم عمل سوى ترويع الفلاحين وسرقة مواشيهم واموالهم ، وايذائهم فى انفسهم ضربا بالعصى ! ..

ولكن فرعون يجيب على ذلك فى أناة كأنه ينطق بالحكمة فيقول : أرأيت أنه لا خير فى أنك لا تصغى لما أقول اصغاء الواعى المتدبر ؟ ! ان هؤلاء الجنود الذين تخشى جرائمهم لن يقدموا على شىء من ذلك لو انك تحدثت اليهم طويلا عن « آتون » ! .. فانهم ، اذا عرفوه وآمنوا به ، يصبحون أخيارا صالحين لا يرتكبون اثما ولا يقارفون جريمة !.. ولكنهم الآن تائهون فى الظلمة وقلوبهم غلف لم يمسسها نور ، وسوطك يلهب ظهورهم كأنه شواظ من نار ، فهم لا يعرفون ماذا يصنعون !..

وارتد فرعون بغتة الى هذيانه فقال : قبل أن انسى ، ان ابنتى اصبحتا تستطيعان السير دون مساعدة من احد !.. الم تر ذلك يا « حورمحب » ؟ ! ان « ميريت آتون » تحنو كثيرا على اختها الصغرى وهما معا تلاعبان غزالهما الجميل الصغير وتتلهيان به !.. والآن فلنعد الى ما كنا فيه !.. ان هؤلاء الجنود المسرحين يمكنك ان تدبر أمرهم بطريقة أخرى .. نعم ، فى وسعك أن تستعملهم حراسا هنا وهناك وفى كل مكان من البلاد ، على أن يظلوا حراسا لاعلاقة لهم بالجيش الذى له صفة الدوام ومظهر الحرب ! .. والرأى الأفضل الذى أشير به عليك هو أن تحطم جميع ما لدينا من العجلات الحربية ، فذلك خليق أن ينفى الشك فى نفوس جيراننا ، ويؤكد لهم أننا لا ننوى بهم شرا ، وأن مصر ـ مهما يحدث ـ لا تفكر فى اللجوء الى حرب ! .. وحين يزول الشك ، يزول معه الخوف ، ويزول معهما الخطر ! ..

قال « حورمحب » متهكما : أيسر من هذا واجدى ، أن نبيع عجلاتنا هذه للملك « عزيرو » أو للحيثيين ، فهم فى سبيل العجلات والجياد يدفعون الثمن أسخياء ، أيها الصديق البعيد النظر !.. لقد فهمت بوضوح تام ماذا تريد ... ان الخير كل الخير هو آن تلقى بثروة «مصر» فى اقامة هذه المستنقعات وانشاء صناعة الطوب !.. فما حاجتنا الى الاحتفاظ بجيش نظامى ؟ ! .. أو ليس فى المستنقعات والطوب غناء عنه ؟ ! .

وطال الجدل بين « أخناتون » و «حورمحب» فى هذا الأمر أياما ، وحيال استمساك « حورمحب » بوجهة نظره ، انتهى الجدل بينهما الى الاتفاق على ان يلى « حورمحب » مركز القائد الأكبر لقوات الحدود وجميع الحاميات ، وله أن يحدد عددها ، أما أسلحتها فان « فرعون » هو الذى يقررها ، وقد قرر وقتئذ ان تكون حرابا من الخشب !..

وارسل « حورمحب » على الفور الى جميع قواد الأقاليم يدعوهم الى الاجتماع به فى « ممفيس » لوقوعها وسط البلاد وعلى الحدود بين

المملكتين . وفيما هو يهم بالأبحار اليها اذ أقبل بالنهر رسول ، حاملا اكداسا من الرسائل والألواح الآتية من «سوريا» ، وكانت تروى أخبارا مزعجة !.. ولكنه ارتاح اليها وتجددت به آماله ، اذ جاءت دليلا على صواب رأيه وصدق تقديره ، فقد كانت تنبىء في جلاء بأن الملك « عزيرو » رأى في القلاقل الشاجرة في « طيبة » فرصته المواتية لضم مدن معينة داخل حدود بلاده ، وأن « مجدو » ، وهي مفتاح « سوريا » ، قد انبعثت ثائرة ، وأن قوات « عزيرو » تحاصر الحصون وتضغط عليها حتى ان الحاميات المصرية اضطرت الى الارتداد عنها وأرسلت الى « فرعون » تطلب النجدة !..

غير أن فرعون « أخناتون » تلقى هذه الأنباء في غير مبالاة ، وعلق عليها قائلا : انى أعتقد أن تصرفات الملك « عزيرو » لا تخلو من سبب معقول ، فهو رجل حاد الطبع ، وربما تكون قد بدرت من سفرائى اساءة اليه ، ولا أستطيع أن أحكم على سلوكه وأعماله الا بعد أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه ، ولكن الشيء الوحيد الذى أستطيعه ، ولا أدرى كيف فاتنى التفكير فيه من قبل ، هو اننى وقد أقمت مدينة « لآتون » في الارض السوداء ، فمن الحق على أن أقيم أخرى مثلها في الارض الحمراء ، في «سوريا» وفي بلاد «الكوش» !.. ومدينة «مجدو» ، فيما أرى ، أفضل موقع لذلك . على أنه مادامت الأمور مضطربة فيها الآن ، فان فكرة انشاء مدينة « آتون » فيها تبدو غير ميسورة في الوقت الحاضر ! ..

والتفت الى « حورمحب » قائلا : كنت قد حدثتنى عن « أوروشليم » وانبأتنى بأنك أقمت هناك معبدا « لآتون » خلال معاركك ضد العبريين ، هذه المعارك التى انوء بعبء اثمها !.. ان « أوروشليم » ليست مركزا وسطا كمدينة « مجدو » ، اذ أنها أكثر بعدا الى الجنوب ، ولكنها ، بحكم الظروف ، المكان الملائم لانشاء مدينة « آتون » ، وأرى اتخاذ الخطوات العاجلة لاقامة هذه المدينة هناك ، واذا كانت « أوروشليم » اليوم » قرية متهدمة ، فانها ستكون في المستقبل مركزا يتوسط بلاد «سوريا» .

وضاق صدر « حورمحب » بهذه السخافات في الموقف البالغ الخطورة ، فالقى سوطه تحت قدمى « فرعون » ، وانقلب مسرعا الى السفينة وابحر بها الى « ممفيس » ليعيد تنظيم قواته وحامياته في كل انحاء البلاد .

وهكذا غادر « حورمحب » مدينة « أخيت آتون » غاضبا ، وكنت قد خلوت به أثناء اقامته فيها . وفي فترات متعددة واسعة ، أطلعته على كل ما رأيت وسمعت في « بابل » و « ميتانى » وبلاد « الحيثيين » و « كريت » . وكان يستمع لهذه المعلومات في اصغاء وصمت ولكنه كان بين الحين والحين يهز راسه ، مشيرا بذلك الى انه ليس فيما أرويه له جديد يجهله ، وقد لمس باصبعه السكين التي أهداها لي رئيس الميناء لينبهني الى انه قد أدرك دلالتها . وهي أن القوم هناك يستعدون للحرب ويحذقون صنع اسلحتها ... ثم طلب مني اخيرا أن أسجل له كتابة كل ما رويت له من أسماء وطرق وقناطر وأنهار ، فاستمهلته حتى أرجع في ذلك الى « كابتاح » ، لان ذاكرته كذاكرة « حورمحب » لاتزال في قوة شبابها ، وتعى الدقيق والجليل من الحوادث والأشياء !..

وحين تركنا « حورمحب » مبحرا الى « ممفيس » لاح الاغتباط على « فرعون » ، لأنه كان قد برم به وبمحاوراته الى حد أنه كان كلما رآه شعر برأسه يدور ويتصدع !..

وبعد ذهابه قال لي « فرعون » وهو شارد الفكر : قد تكون ارادة «آتون» أن نتخلى عن «سوريا» ، فلن تكن هذه ارادته فهي نافذة حتما ، ولا أحد يستطيع معارضتها . ومن أنا ، ومن يكون غيري ، أمام ارادة «آتون» ؟! وهو عندما يريد ذلك انما يريده لخير «مصر» ، ورحمة بها !.. وقد يكون تفسير هذا أن «سوريا» تجمع ثراءها استنزافا من قلب «مصر» ، وأن الشرور الفاشية في بلادنا وافدة عليها من هناك ، فلو انقطع ما بيننا وبينها من صلة ، فستعود « مصر » الى تقاليد حياتها البسيطة ، الى الحياة الفاضلة المبرأة من الفساد ، وذلك هو الذي ننشده ونطمح اليه ، واذا أصبحت بلادنا هكذا فانها ستكون مثالا يحتذى بين الشعوب ! ..

قلت له ، وقد بلغ الضيق من نفسي اشده : لما كنت في « أزمير » دعيت الى معالجة ابن قائد الحامية المصرية من مرض الجدري ، لقد كان ولدا ظريفا ذا عينين واسعتين تترقرقان بالجمال ، واسمه « رمسيس » ، وهو – حتى في مرضه – كان لا ينفك يلعب بالأحجار الدقيقة الملونة ، فعالجته في رعاية وعطف كما لو كان ابني . وكذلك حدث مرة أن جاءتني سيدة مصرية كانت تقيم في « مجدو » ، وقد سمعت بأني طبيب مصري ماهر ، فسمعت الى في « أزمير » ، وكانت تشكو

من علة باطنية . فأجريت لها عملية جراحية وأبرأتها من علتها ، وهى سيدة ذات ظرف وملاحة ، ككل المصريات ...

وقاطعنى « اخناتون » قائلا : لم افهم شيئا ، ولا أدرى لماذا ضايقتنى بمثل هذه المعميات ؟ !. وانصرف عنى متشاغلا برسم خطوط لمعبد يتمثله فى خياله ، وكان بهذه التخطيطات الخيالية يثير غيظ رجال العمل ورئيس البناءين ، لانه كان يحاول دائما أن يفرضها عليهم أو يوضحها لهم ، وهم يعلمون من امرها ومن دقائقها فوق ما يعلم !..

فقلت له مستأنفا حديثى : انما قصدت ان أقول انه من السهل ان نتصور الصبى « رمسيس » ابن قائد الحامية المصرية فى « أزمير » وقد صمت أذناه ، وقطعت شفتاه ، وشوه جماله ... ثم نتمثل كذلك المعبد المصرى هناك وقد لطخت جدره وأبوابه بالدماء ، وأهدرت حرمته وقداسته على اعين الناس جميعا ، ونتخيل ، الى هذا وذاك ، تلك السيدة المصرية الظريفة التى تقيم فى « مجدو » ، وقد القيت عارية أمام الحصن ملطخة بالدم ، ورجال « عمورية » يتعاورونها وينتهكون عرضها ! .. من السهل أن نتصور كل هذا ونتخيله شيئا واقعا على المصريين هناك ، ولست أراه شيئا لا يجوز وقوعه ، الا لم تكن توجد وراءهم قوة تمنعهم وتحميهم ! ..

ومع ذلك فانى اعترف ، بأن أفكارى لا تقاس بأفكارك ولا ترقى الى ذروتها العالية !.. وليس مطلوبا من الحاكم أن يزحم رأسه بالتفكير فى مثل هذه الشئون التافهة !..

فتقبضت عضلات وجه « أخناتون » ، وغامت عيناه ، وقال وهو يصرخ : اعلم انه لو كان من الضرورى أن أوثر الموت لأحد ، فاننى لن اتردد فى اختيار الموت لمائة مصرى ليعيش الف سورى !.. فذلك أفضل من أن نثير حربا على «سوريا» لنحرر المصريين فيها ونحميهم . ان حربا كهذه ستلتهم الكثيرين من السوريين والمصريين ، ومقابلة الشر بالشر لا تنتج الا شرا ، ويكون الأمر مختلفا اذا قوبل الشر بالخير ، فالشر حينذاك يقع ضئيلا ، محدود الأثر . ومهما يكن من أمر ، فانى لن أوثر الموت على الحياة ، ولهذا فان فى اذنى وقرا عن حديثك ، فلا تحدثنى بعد عن «سوريا» ، اذا كنت تحبنى حقا .. اننى عندما أفكر فى الموت ــ تفكيرا عابرا ــ أشعر بآلام الذين يموتون ، تنهش صدرى وتحرق قلبى ، والانسان بطبعه لا يستطيع أن يتحمل آلام الكثيرين !..

انني اريد السلام يا « سنوحي » من اجل « آتون » ، واعمل له عن ايمان وصدق .

قال ذلك ، ثم نكس راسه وكانت عيناه مكسوتان بالكآبة ، وشفتاه تختلجان تأثرا ، فتركته للسلام الذى يسبح خياله فى أفقه البعيد ، وكانت اذنى تغمرها حينذاك اصوات المعاول التى تضرب فى اسوار مدينة « مجدو » ، وصرخات النساء المولولات فى الخيام الصوفية « بعمورية » ، ولكننى أقفلت أذنى كما أقفل « فرعون » أذنه دون حديثى ، وابعدت بذلك ما بينى وبين هذه الأصوات المنكرة ، لأننى كنت قد أحببت « فرعون » ، وربما كان اكثر حبى له نابعا من جنونه... فقد كان جنونه عندى أجمل من حكمة غيره من الرجال !..

- ٥ -

كان انشاء المدينة الجديدة سببا فى تقسيم الأسرة الملكية ، فقد ابت الملكة الوالدة أن تلحق بابنها الى الصحراء ، وفضلت البقاء فى فى « طيبة » مع الأميرة « باكيت آمون » ، وكان بيت « فرعون » الذهبى الذى يتوهج بلونه الأزرق المائل المتموج بين السمرة والحمرة ، ويقوم وسط أسواره وحدائقه المطلة على النهر ، حيث عنى فرعون « امنحوتب الثالث » بتشييده لزوجته الحبيبة الى نفسه « تايا » الملكة الوالدة . كان هذا البيت قد دخل بمن فيه فى حياة جديدة أشبه ما تكون بحياة ابنة صائد طيور فقير وسط الأعشاب بمستنقعات المملكة السفلى ..

واستطاع الكاهن « آى » ، حامل عصا الراعى على يمين الملك ، أن يحكم وأن يقعد مقعد القضاء على عرش الملك ، ولديه القرطاس الجلدى الملفوف ..

وأخذت الحياة فى « طيبة » تعود الى ما كانت عليه من قبل ، فما من شىء غير عادى فيها سوى أن « فرعون » بعيد عنها ، وهو فى نظر أهلها ملك زائف ، وليس فيهم من يشعر بالأسف لغيابه !..

وعادت الملكة « نفرتيتى » الى « طيبة » لتضع حملها ، فانها لم

ثكن تطيق البقاء فى فراش الوضع بالمدينة الجديدة بعيدة عن مساعدة أطباء « طيبة » وسحرتها · وقد ولدت فيها ابنتها الثالثة التى سميت « أنخسن آتون » ، وهى التى قدر لها فيما بعد أن تكون ملكة ·· وقد اخذ السحرة خلال المخاض فى تيسير الوضع بما يحذقون من وسائل ، كما فعلوا عند ولادة الأميرتين السابقتين ·

وشاعت بعد مولدها مظاهر الأناقة بين سيدات البلاط ، فكن يبالغن فى التزين والتجمل ويضعن فى مؤخرة رءوسهن لفائف مستعارة تجعل الرأس تبدو فى استدارة كاملة ، وعلى النقيض من هذا كانت الأميرات يتركن رءوسهن حليقة مجردة من أية اضافة دخيلة ويظهرن بها كذلك ابرازا لجمالها الطبيعى ، غير أن الكثيرين كانت تفتنهم زينة سيدات البلاط دون ان يفطنوا الى انها من صنع السحرة ! . .

وبعد ان استقرت « نفرتيتى » فى « طيبة » بعض الوقت ، عادت بطفلتها الى « اخيت آتون » وأقامت هناك بالقصر الذى تم اعداده لسكناها ، ولم تصحبها فى عودتها واحدة من السيدات اللاتى تركتهن فى « طيبة » ، لأنها كانت تشعر بالكثير من الأسى لولادتها بنتا الى ابنتين سابقتين . وقد خشيت أن يكون اخفاقها فى ولادة مولود ذكر مما يحفز « اخناتون » الى تجربة رجولته فى فراش امراة منهن !. . ولكن « اخناتون » كان فى حقيقة الامر سعيدا بعودتها وحدها ، لانه كان مشغوفا بهواها ، ولا يخفق قلبه لامراة سواها ، وقد سره أن جمالها الرائع لم تنتقص الولادة منه شيئا ، بل انها تبدو بعدها اكثر جمالا وأصغر سنا ·

وكانت مدينة « اخيت آتون » قد اكتمل رواؤها فى هذه الرقعة الموحشة خلال عام واحد ، وقد بسقت اشجار النخيل وبرزت متمايلة على حفافى شوارعها الفسيحة ، ونضجت ثمار الرمان الحمراء فى الحدائق ، وبين أزهار اللوتس فى البحيرات كان يسبح السمك . وعلى الجملة أصبحت المدينة كلها كالروض الفينان اليانع · وزادها بهجة أن كثيرا من منازلها قد تحلى بالخشب والقاب واعمدة النخيل ذات الألوان الزاهية مما يخيل الى من يدخل منزلا منها أنه يدخل فى جزء متصل بحدائق المدينة .

والحق أن هذه المدينة لم يكن ينقصها شىء مما يبهج قلوب الناس ، فهى فضلا عن أن الفنانين قد صنعوا فى تزيين منازلها

الأعاجيب ، وافتنوا فى رسم الاشجار والزهور ومناظر البحيرات والسمك والطيور على جدرانها وارضها ، كانت ــ فضلا عن ذلك ــ تفور بالحركة وتموج بالحيوية ، وتزدحم بآيات الجمال . فالغزلان الأليفة تتجول فى الحدائق ، والعربات الخفيفة تجرها الجياد الفتية يعلو رءوسها ريش النعام ، والمطاعم هنا وهناك تنفح الروائح الطيبة للتوابل المستوردة من كل بقاع الأرض .

وعندما اقبل الخريف وفاضت مياه النيل ، وظهرت اسراب الطيور بعد اختفائها مغردة شادية ، أعلن فرعون « أخناتون » أنه قد تم انشاء مدينة السموات ، وأنه قد اختص بها الاله « آتون » وأضافها الى اسمه ، ثم وضع أحجار الحدود بالشمال والجنوب والشرق والغرب ، وعلى كل حجر منها تمثال «لآتون» تنبعث منه أشعته المباركة على « فرعون » واهله ، وعلى جوانبها جميعا عهد « فرعون » وميثاقه الا يجاوز بالمدينة هذه الحدود !..

واحتفالا بهذه المناسبة طاف « فرعون » بأحياء المدينة الأربعة مصحوبا بأسرته ورجال حاشيته ، على عرباتهم وكراسيهم . وحيثما ذهبوا كانت الزهور تنثر أمامهم ، فى حين كانت المزامير والآلات الوترية تعزف عزفا متصلا لتحية الاله « آتون » .

واعتزم « فرعون » الا يبرح هذه المدينة حتى بعد الموت . ولهذا فانه ما كاد يفرغ من اقامتها حتى أرسل العمال الى التلال الشرقية بالمدينة ليحفروا هنالك المقابر التى ستكون اليها النقلة الأخيرة ، وقد اتصلت بذلك اعمالهم فطالت غيبتهم عن مواطنهم الأصلية . وفى ظل رعاية « فرعون » وسخائه انتفت فيهم رغبة العودة اليها ، فبقوا فى مدينة « آتون » الى آخر حياتهم ناعمين بما يتوافر لديهم من الغلال والزيت ، وقد أنجبوا فيها أبناء أصحاء !..

وجعل فرعون من هذه المقابر خارج المدينة دارا للموت ، تحفظ فيها أجساد جميع الموتى بالمدينة ، واستدعى من «طيبة» لهذا الغرض المحنطين والمغسلين الذين علم أنهم أكثر براعة فى مهنتهم ، فأقبلوا على ظهر سفينة سوداء ، وقد سبقتهم روائحهم التى حملتها الريح الى أنوف الناس فجزعوا لها ولاذوا بمنازلهم فرارا منها ، وراحوا يصلون « لآتون » حانين الرءوس ، ومنهم من نبهت فيهم هذه الروائح ذكرى « آمون » ، فتحولت أفكارهم عن « آتون » وراحوا يصلون الى آلهتهم القدماء متجهين اليهم بمعتقداتهم القديمة .

وهبط المحنطون والمغسلون من السفينة وصعدوا الى الشاطىء ، مزودين بأدواتهم ، وعيونهم ترتعش من مواجهة الضوء لطول ما ألفت من الظلام ، ودلفوا مسرعين الى «دار الموت» الجديدة ، وفيها اختفت روائحهم، واتخذوا منها مقرا ومقاما ٠

وكان من بينهم « راموس » ، ذلك الخبير الذى برع فى القبض على الاجساد بالكتائف ، كما برع فى عمله الاصلى وهو استخراج المخ ، وقد لقيته فى «دار الموت» التى وضعها فرعون تحت اشرافى لان كهنة «آتون» كرهوا الاتصال بها ، رهبة منها !٠٠ وتأملنى الرجل مليا حتى اذا عرفنى أبدى دهشته ، فرحت أتودد اليه لأستميله وأنال ثقته ، فقد كنت شديد اللهفة على أن أعرف ما حل « بنفر نفر نفر » التى كنت قد دفعتها اليهم هناك فى شكل جثة انفصلت عن الحياة ٠

وتحدثت اليه قائلا : نبئني يا صـــديقى « راموس » !٠٠ هل وقعت بين يديك سيدة جميلة جيىء بها الى « دار الموت » فى « طيبة » أثناء الاضطرابات التى حدثت هناك ، وذكرت له اسمها لأعينه على التذكر .

فأجاب قائلا : لعل هذه هى المرة الاولى التى أسمع فيها رجلا ينادى مغسل الجثث بكلمة «صديق» ! فلا شك انك يا «سنوحى» رجل ممتـــاز وقد مسست قلبى بلطفك ، ولكنى أخشى أن تكون المعلومات التى تطلبها عن هذه السيدة بالغة الاهمية عندك الىالحد الذى يجعلك تصطنع اللطف فى مخاطبتى من أجلها !٠٠ وعلى أية حال فانى أرجو ألا تكون أنت الذى جئت بها الى «دار الموت» ملفوفة فى رداء الموت الاسود ! . . ذلك لانك لو كنت أنت الذى فعل هذا فلن تكون صديقا لأى واحد من مغسلى الجثث ولو عرفوك لما ترددوا لحظة فى الاجهاز عليك طعنا بخناجرهم المسمومة !

وانفعلت نفسى بعباراته ، فقلت له : كائنا من يكون الذى جاء بها اليكم ، فانها امرأة آثمـة وتستحق الموت !٠٠ واســتدركت قائلا : على أن فى كلماتك ماقد يحمل على الظن بأنها لم تكن ميتة !٠٠ فما هى الحقيقة إذن ؟ ٠٠

قال «راموس» : الحقيقة هى التى تذكرها أنت فى معرض الظن،فان هذه المرأة المخيفة عادت الى الحياة ، أو هى لم تكن قد فارقتها الحياة !٠٠ ولا أريد أن أسألك كيف ومن أين عرفت ذلك ؟!٠ وانما أقول لك أنها لم تمت ، وأمثالها لايموتون كمـا يموت غـيرهم من النـاس ، أو اذا ماتوا

فاجسادهم يجب أن تحرق حتى لايعودوا للحياة مرة أخرى .. ولقد أطلقنا عليها ، حين عرفناها ، اسم «ست نفر» أى جمال الشيطان !

وكان هذا الكلام الغامض يضاعف لهفتى لمعرفة المصير الذى انتهت اليه تلك المرأة ، وكنت أرهف أذنى ارهافا شديدا لأسمع منه أنها لقيت بين أيديهم صنوف العذاب والتنكيل ، فان هذا هو الذى أردته ، وهذا – لاغيره – هو الذى تشتفي به نفسى ! .. فقلت له : أتعنى أنها أفلتت من الموت ، وانطلقت الى الحياة ؟ ! وكيف سمح المغسلون لها بذلك بعد أن اقسموا ليبقنها عندهم سبعين يوما مكررة لسبعين ضعفا

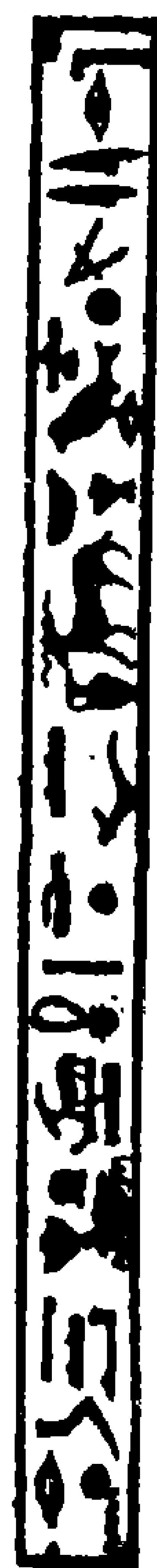
وعندئذ اعترت «راموس» خلجة عصبية ، وراح فى ثورة مكبوتة يقلب بين يديه سكاكينه وكتائفه ، حتى خفت أن ينالنى بسوء ، فرأيت أن أتقيه بالشراب ، فجئت له بجرة من النبيذ الفاخر المحفوظ بمخازن فرعون .. فتناولها لفوره وأخذ يتحسس سدادتها بأصبعه ، وقال لى وهو بادى الانشراح : اننا لم نكن نحمل لك فى نفوسنا يا « سنوحى » شيئا من الكراهية ، وشعورى نحوك هو شعور الوالد نحو ابنه ، وكنت أتمنى لو بقيت معى طول حياتك فى « دار الموت » لأدربك على حرفتى تدريبا كاملا ، ولعلك لاتنسى اننا تعهدنا جثتى أبيك وأمك بما لامزيد بعده من الرعاية ، فحنطناهما كما لو كانا من عظماء الناس ، وأضفينا عليهما أجود أنواع الزيوت والدهان ، فلماذا اذن رميتنا بالشر بتقديمك الينا هذه المرأة الشريرة ؟! أتريد أن تعرف أى شر فادح رميتنا به ؟! اذن فاسمع :

كنا قبل أن تقذفنا بهذه المرأة ، نحيا حياة رخية هانئة ، نتساقى الجعة فتنعش قوانا وتشرح صدورنا ، وتيسر علينا أعمالنا الشاقة المرهقة ، ونتوافر بالثروة مما كنا نناله اختلاسا من مجوهرات الموتى وحليهم دون تفرقة ولا تمييز بين طبقاتهم ومراتبهم ، وكنا نزداد ثراء بما نبيعه للسحرة من أعضاء الجثث التى يحتاجون اليها فى صناعتهم ! وعلى هذا كنا نعيش اخوانا متحابين سعداء .. ولكننا بعد أن حلت بيننا تلك المرأة استحال هدوؤنا اضطرابا ، وسعادتنا شقاء ، وثراؤنا فقرا ، وصارت «دار الموت» كأنها الهوة التى غارت بنا فى العالم السفلى! .. فمن أجلها اقتتل الرجال وتنافس الشبان وأصبحوا جميعا كالكلاب المسعورة ، وفى غشاوة افتتانهم بها وتكالبهم عليها استطاعت أن تسرق كل ماجمعناه مكدسا فى « دار الموت » على طول السنين ، من ذهب وفضة ونحاس! لقد سلبتنا كل شىء حتى ملابسنا ! .. كانت تؤلب بعضنا على بعض ..

وتغرى الشبان بالهول ، فاذا حاول واحد أن يقف فى وجهها ليمنع شرها ، اعترضه الآخر وبسط عليها حمايته ، ومكن لها فى نيل ما لم تنل ، وحسبه منها ابتسامة أو لمسة ، وفى هدوء خرجت من «دار الموت» حاملة معها ثروتنا وفيها من الذهب وحده ما لايقل عن الف أوقية ، الى ما تجمع لها من الملابس والضمادات التيلية والدهانات وغيرها وغيرها وكأنما كنا نجمع كل هذا ، خلال السنين الطويلة ، لحسابها الخاص !٠٠ وهى لم تخرج بذلك كله وحده ، وانما خرجت كذلك بما كان يظلنا من أمن وسلام ٠٠ فان رجالنا الذين وعدت كلا منهم بأنها عائدة اليه بعد عام لترى أيهم كان أكثر من سواه جمعا للمال واستكثارا من الثروة ، لم يبق لهم من شىء يعنون به سوى أن يسرق هذا من ذاك ، ويغافل الواحد رفيقه فى العمل لينتزع من أجساد الموتى أكثر ما تصل اليه يده ، ليتزود بما يرجو ان يقدمه الى المرأة اللعينة ليكون آثر عندها من غيره حين تعود بعد عام! وهكذا أثارت فى «دار الموت» فتنة مغرقة، ومن هنا كان الاسم الذى رأيناه أشد انطباقا عليها هو «ست نفر» ٠٠ فهل عرفت الآن أية داهية رميتنا بها أيها الرجل ؟!

وكان الذى أسمعه من «راموس» كأنه الصاعقة التى تهوى على رأسى فتحطمه !٠٠ لقد كنت أحسب أننى قد ثأرت لنفسى من « نفر نفر نفر » وان السهم الذى سددته اليها قد قضى عليها ، فاذا أنا أفاجأ الآن بهذا السهم يرتد الى صدرى مسموما !٠٠ وها هى ذى قد نجت من الاحبولة التى نصبتها لها ، وفارقت « دار الموت » عائدة الى الحياة أوفى ما تكون عافية ومالا، فيالها من شيطانة عجيبة ٠

ومن هذه الواقعة التى أورثت قلبى حسرة والتياعا ، أدركت أن الانسان لايستطيع أن يدبر بيده الانتقام الذى تهواه نفسه ، فربما انقلب عليه نارا تحرقه ولا تحرق سواه ٠



ميريت



- ١ -

ما أشبه الحياة البشرية بالساعة المائية ٠٠ ان حياة النـــاس تدور دوران هذه الساعة ، تحركها الاحداث مثلما تحرك الساعة دفقات الماء ، وكلاهما لا يفقه كيف ولماذا ومن أين والى أين تبدأ الحركة وتنتهى !٠٠ وهكذا كانت حياة الناس منذ أقدم العصور ، تسير سيرا مطردا ، لهجـا الى غير غاية ، وهى لاتقاس بالايام ولا تعد بالسنين، وانما تقاس بأحداثها وتعد بوقائعها ٠ ويوم ذو حادثة يقع أثره فى حياة انسان ، أشد وأبعد مدى من أثر عام ينقضى انقضاء رتيبا مملا ، لا يتأثر به القلب ولا تنفعل منه المشاعر ! .

وقد فقهتهذه الحقيقة فى مدينة « أخيت آتون » حيث قضيت فيها من حياتى عشرة أعوام فى رحاب فرعون «أخنـــاتون» بقصره الذهبى ، فكانت ــ على طولها وعلى ما نعمت فيها من هدوء بال ورغادة عيش ــ أقصر من أى عام من أعوام شـــبابى ، أعوام الرحلات والمغامرات والأحداث الجسام ٠ ولم أستطع فى هذه المدينة الجديدة ، خلال هذه المدة الطويلة ، أن أضيفشيئا الى حكمتى ومعارفى، بل لقد تناقص ماجمعته منهما فى الكثير من البلدان والممالك ، كما تتناقص أقراص العسل الذى جمعته النحلة فى الصيف حين تجعل منه غذاءها فى الشتاء ! ٠٠ ويخيل الى أن الزمن قد أثر فى قلبىكما تؤثر المياه المندفعة فىالحجر ، فلم أعد أحس أنى «وحيد» كما كنت من قبل ، وربما أصبحت أهدأ طباعا وأقل اغترارا بمواهبى ، واغلب ظنى أن هذا لم يكن ليحدث لو أن « كابتاح » لم يكن بعيدا عنى فى « طيبة » مشغولا هناك بادارة أملاكى الى جانب اشرافه على حانة « ذنب التمساح » ٠

ولقد عاشت المدينة الجديدة كلها فى عزلة عن العالم ، لاتهتم بما

يدور فى خارجها من أحداث هذا العالم وشئونه ، وكان كل شىء يجرى بعيدا منها يعد خيالا بعيدا عن الحقيقة ، كالقمر الذى يتراءى ملتمعا على صفحة الماء ، ومكانه هنـــاك ، هناك ، فى علياء السماء ! ٠٠ والحقيقة الواحدة ، غير المشوبة بشائبة أو المدخولة بخيال ، هى التى تقع فى مدينة «أخيت آتون» ليس غير ! ٠٠ مع أن العكس هو الصحيح !٠٠ فهذه المدينة هى التى كانت مسرح الاوهام والخيالات ، أما الحقيقة الصارخة فكانت ، خارج حدودها ، تتمثل فى الجوع والعناء والموت ، ولكن «اخناتون» لم يكن يجد من يجترىء على مكاشفته بواقع الحال ، لان الجميع كانوا يعلمون أن مكاشفته به تثيرسخطه وتضايقه أشد الضيق وترده الى نوباتمرضه المخيف ، فهم لهذا يتلطفون معه ويعرضون فى رفق وتزويق كل ماكانت الضرورة تقضى بعرضه عليه ٠

وكان الكاهن «آى» فى هذه الاثناء يحكم «طيبة» بوصفه حامل عصا الراعى الذى يقف عن يمين الملك ، فقد وضع « فرعون » خلف ظهره كل الواجبات الادارية التى لم يكن يجد فيها شيئا من المتعة ، واضعا ثقتــه الكاملة فى «آى» ذلك الكاهن الطامح الذى تجمعه بفرعون آصرة المصاهرة وقد اتسع نفوذه حتى أصبح هو الحاكم الفعلى للمملكتين ، ممسكا فى يديه بكل شئون الناس من قرويين ومدنيين ، وبعد أن زال سلطان « آمون » لم تعد ثمة من قوة تنازع أو تعترض طريق «فرعون» الذى هو فى الحقيقة الكاهن «آى» ٠٠ وكان أكثر مايشغل «آى» ويعنيه هو مدينة «أخيتآتون» تلك التى اتخذها فرعون « أخناتون » مقرا له ومقاما ، وطاب له أنيلتزمها فلا يبرحها ٠ لقد كان « آى » لا ينى عن جمع الأموال وانفاقها فى سعة وترخص لتوفية بناء هذه المدينة وتجميلها على النحو الذى يشبع هواية « أخناتون » ويغريه بطول الاقامة بها ، ثم هو الى ذلك لا ينفك يبعث بالهدايا الطيبة التى يعلم أنها تقع من هوى « فرعون » ورضاه ، ليزداد بها رغبة فى البقاء حيث هو ، بعيدا عن « طيبة » ! ٠٠٠

ان « آى » كان ينظر الى فرعون « أخناتون » كما لو كان هو حجر عثرة فى طريقه !٠٠ ولكنه كان غير قلق من هذه الناحية ، لأن «فرعون» كان منصرفا كل الانصراف الى الشئون الدينية ، لا يتدخل فى شىء من عامة شئون الشعب !٠٠

وكان « حورمحب » فى « ممفيس » مضطلعا فيها بنصيبه منحكومة « آى » فهو المسئول عن الأمن والنظام فى جميـــع أنحــاء البــلاد ، وهو

صاحب السلطة العليا على جباة الضرائب ، وهو وراء المطارق التي تمحو اسم « آمون » من التماثيل والنقوش وجدران المقابر الداخلية · وقد كان فرعون « أخناتون » يبدى اهتماما خاصا بذلك ، حتى أنه أمر بفتح قبر أبيه ليمحو منه اسم « آمون » ···

وهدأت الحال في «مصر» ، بعد فترة من أيام الفزع في « طيبة » : هدوء مياه البحيرة في فصل الصيف · وقد عهد « آى » الى كبار ضباطه بجباية الضرائب المفروضة على الشعب ، وكان يرى في تكليف الضباط هذه المهمة توفيراً للوقت والجهد ، ولكنهم لم يتمرسوا بها بأنفسهم بل عهدوا بها الى جباة القرى والمدن لقاء مبالغ كبيرة يدفعونها اليهم ، فأصابوا من هذا الطريق ثراء كبيرا ، في حين اشتط الجباة في اقتضاء الضرائب الفادحة من الفقراء الذين كانت تذهب توسلاتهم وصرخاتهم بددا في الهواء ، وهكذا الحال في كل عصر ! ··

وفي مدينة « أخيت آتون » ولدت الملكة « نفرتيتي » بنتا رابعة ، فكان مولدها أشد وقعا من سقوط « أزمير » ، واعتبر دليلا على سوء الحظ ، وتناهبت الأوهام عقل الملكة فاعتقدت أنها فريسة سحر ، فقصدت الى « طيبة » ليطب لها سحرة أمها السود !··

وعلى تتابع الايام انحدرت الأنباء من «سوريا» منذرة بالشر · وكنت كلما رست سفينة البريد على ميناء « أخيت آتون » أذهب الى محفوظات الملك لأطلع على آخر استغاثات الأمراء هناك في طلب المعونة · وعندما كنت أقرأ رسائلهم أشعر كأني أسمع أزيز السهام المراشة وأشم رائحة البيوت المحترقة ، وتقرع أذني أنات الصرعى المحتضرين من الرجال ، وأرى الأطفال الأبرياء وقد شاهت وجوههم وتقرحت بالجراح أجسامهم ! ··

لقد كان « العموريون » قوما أشداء ، غلاظ القلوب والأكباد ، حذقوا فنون الحرب على أيدى ضباط من « الحيثيين » ، ولم يكن باستطاعة أية حامية في «سوريا» أن تثبت أمامهم · وقد كانت رسائل ملك « بابل » وامير « أوروشليم » وغيرهما ، تفيض توسلا لاسعافهم بالنجدة ، منوهين باخلاصهم ووثيق علاقتهم بفرعون الراحل ، وخالص ولائهم « لأخناتون » ، وارتباط عواطفهم « بأخيت آتون » ، الى غير ذلك من الوان الشفاعة والتوسل · ولكن « أخناتون » كان يسئمه هذا الالحاح ، فكان يبعث بتلك الرسائل الى المحفوظات دون أن يقرأها ! ··

وجاء النبأ الاخير معلنا سقوط « أوروشليم » وتدميرها واستسلام

المدن التي كانت أكثر ولاء لمصر ، ومن بينها « مجدو » التي اقترن استسلامها بعقد محالفة مع الملك « عزيرو » . وهنا لم يجد « حورمحب » مناصا من العمل السريع لمواجهة الموقف الخطير ، فغادر « ممفيس » على عجل قاصدا « أخيت آتون » ليعرض الأمر على « فرعون » ويستأذنه في تجهيز جيش ينظم به المقاومة هناك ، وكان الى ذلك الوقت يصطنع الحرب الباردة عن طريق الرسائل السرية وبذل الأموال ، حتى لا تفلت «سوريا» كلها أو بعضها من يديه ! ..

وقال « حورمحب » « لاخناتون » بعد أن أطلعه على تفاصيل الحوادث : لم يبق بعد هذا وبعد تتابع سـقوط المدن وتلاشي قوات « مصر » في « سوريا » ، الا أن تأذن لي في استخدام عشرة آلاف رجل من حاملي الحراب ورماة السهام ، ومائة عجلة حربية معهم ، واني لقمين بهذه القوة ان أسترد لك « سوريا » واعيدها الى حظيرة بلادك ...

ولكن « اخناتون » لم يحزنه من هذه الأنباء الا تدمير مدينة «أوروشليم» لا لشيء سـوى أنه كان قد اعتزم أن يجعل منهـا مدينة « لآتون » ، كوسيلة لتهدئة الحال في « سوريا » ، وقال « لحورمحب » : مسكين ذلك الرجل العجوز في « أوروشليم » ! .. اني لا أذكر الآن اسمه ، ولكني أذكر أنه كان صديقا لأبي ! .. كنت في صباي أراه بالبيت الذهبي في « طيبة » .. لقد كانت له لحية طويلة مرسلة على صدره ... وأرى على سبيل المكافأة أن أمنحه معاشا من مال « مصر » ، وأظن أن هذا مستطاع بالرغم من أن موارد البلاد سيعتريهـا النقص كنتيجة لتوقف التجارة والتعامل مع « سوريا » ! ..

فقال « حورمحب » معترضا في جفاء : كلا ! .. انه لا يسـتحق شيئا من ذلك ! .. فقد علمت من رجالي الذين بثثتهم للتجسس هناك ، وأنا واثق من صدق روايتهم ، أنه باشارة « عزيرو » أهدى « طستا » فاخرا منقوشا بالذهب في مثل حجم رأسه الى الملك « شوبلوليوما » في « هاته شاش » ! ..

وامتقع وجه « اخناتون » واحمرت عيناه ، ولكنه ضغط على اعصابه وقال في هدوء : لا أكاد أصدق ما تقوله عن الملك « عزيرو » ... انه صديقي ، وقد تناول من يدي راضيا صليب الحياة ! .. على انى قد أكون مخطئا في ثقتي به ، وربما ران السواد على قلبه فلم يعد جديرا بحسن الرأي فيه !..

واستطرد قائلا : أما الحراب والعجلات الحربية التى تطلبها ، فشيء أراه مستحيلا لأن الناس قد آذتهم الضرائب الفادحة ، وحصادهم جاء أقل كثيرا مما كان متوقعا !..

قال « حور محب » ، محاولا التأثير فيه : من أجل الهك « آتون » ، وفي سبيل التمكين له ، أرجو أن تمنحنى السلطة لاعداد مائة محارب وعشر عجلات ... انها قوة قليلة العدد والنفقة ، ولكننى أستطيع أن انقذ بها ما يمكن انقاذه ، من «سوريا» ! ..

قال « اخناتون » : لا أستطيع أن أخاطر بالحرب من أجل « آتون » ، فذلك يغضبه ولا يرضيه ، انه يكره الحرب ويمنع اراقة الدماء ، وانى لأوثر أن أترك « سوريا » على أن اقيم فيها حربا ... ولماذا لا ندعها وشأنها تؤلف حكومتها الاتحادية حرة ؟! ثم نتبادل واياها التجارة كما كانت الحال فيما مضى ! .. ان علاقتها بنا لا يمكن أن تنقطع ، لأنها لا يمكن أن تعيش مستغنية عن غلال «مصر» ! ..

قال « حورمحب » منفعلا : أتظن يا « اخناتون » أن مطامعهم ستقف عند هذا ؟ كلا .. انهم سيذبحون المصريين هناك ، وسيدمرون الأسوار ، ويتجاوزون الحدود ، وكلما وقعت مدينة فى أيديهم أغراهم ذلك بغيرها . ولا شك فى أنهم بعد « سوريا » سيضعون أيديهم على مناجم النحاس فى « سيناء » ، وهى التى ان فقدناها فسنعجز تماما عن صنع الحراب ورءوس السهام ! ..

فأجاب « فرعون » مغضبا : لقد قلت أكثر من مرة ان الحراب الخشبية تكفى للحراسة ! .. ففيم اذن حديثك الذى لا ينقطع عن الحراب والسهام ؟! . ان حديثك هذا يوجعنى ويبلبل رأسى ، ويكاد يصرفنى عن انشاء التراتيل « لآتون » ! ..

فقال « حورمحب » مستطردا وكأنه لم يسمع : وبعد « سيناء » سيجيء دور المملكة السفلى ، وقد قلت أنت نفسك ان «سوريا» لا يمكن أن تعيش بغير غلال « مصر » ، وهذا خليق أن يضاعف شهوتهم فى امتداد سلطانهم عليها ! .. على أنك ان لم تكن تخشى « سوريا » التى تستورد الآن حاجتها من الغلال من « بابل » ، فانه ينبغى أن تخشى « الحيثيين » الذين تضطرم فيهم مطامع السلطة والسلطان ! ..

فقهقه « اخناتون » قهقهة تثير الاشفاق وقال : لم يحدث — على قدر ما تعى ذاكرتنا — أن عدوا واحدا وطئت قدماه أرض بلادنا ... والرأى

عندى أن احدا لن يجرؤ على ذلك ! ‥ « فمصر » أغنى وأقوى ممالك الأرض طرا ، ذلك الى أنى قد أرسلت أيضـــا صليب الحياة الى الملك « شوبلوليوما » مصنوعا من الذهب ، استجابة لطلبه ، حتى يستطيع أن يقيم لى تمثالا بالحجم الطبيعى يضعه فى معبده ‥ فهو لن يزعج سلام « مصر » وأمنها ما دام يحصل منى على ما يريد من الذهب ! ‥

وانتفضت العروق فى جبهة « حورمحب » ، ورأيته ــ وكنت بمقربة منهما ــ يغالب فى نفسه عاصفة شديدة من الانفعال والغضب ، فتدخلت لأضـــع حدا لهذا الجدال الذى قد تســوء عواقبه ، وقلت له : اننى ــ كطبيب ــ أمنعك من مضايقة « فرعون » ! ‥ وأشرت اليه اشارة خاصة ليتبعنى الى الخارج ! ‥

وعندما بلغنا منزلى ، ضرب « حورمحب » بسوطه على فخذيه فى عنف ، وقال : بحق « ست » وكل الشياطين ، ان قطعة من الروث ملقاة فى الطريق لأكثر نفعا من صليب الحياة الذى يتغنى بمنحة للملوك ؟‥ وان أشد ما يحيرنى من « فرعون » انه ــ على اختلافنا الصارخ فى الرأى ــ يضع يديه على كتفى ، كلما رآنى ، ويناديني بالصديق ! ‥ وأشـــعر فى داخل نفسى ، شعورا قويا ، بأنه صـــادق فى هذا ! ‥ وان كنت أعرف تماما ، وفى الوقت نفسه ، أنه ــ فيما يشتجر بيننا من اختلاف رأى ــ يرتكب حماقة الخطأ والاصرار عليه غير متفتح لما أبديه له من نصح وسلامة توجيه ! ‥ حقا ان فى هذا الملك لقوة غريبة تتجلى فى هذه المدينة التى زخرفها وأحكم زينتها حتى لتبدو كالعروس المجلوة ! ‥ ولو أن كل انسان فى هذا العالم مثل بين يديه واستمع الى حديثه ، ومسته أصابعه اللطاف ، اذن لاستطاع بما يبعثه من القوة السحرية فى نفس محدثه أن يغير العالم ، ويصهره فى بوتقة مبادئه الجديدة ، ولكن ذلك أمر مستحيل ، فلن يتاح لجميع الناس ، فى سائر الدنيا ، أن يجتمعوا له ويتأثروا به ! ‥ وأنا شخصيا أخشى على نفسى التحول والتغيير اذا بقيت طويلا هنا ! ‥ فما آمن أن تصـــبح ثورتى خمودا ، وحماســـتى ركودا ، واقدامي نكولا ! ‥

- ٢ -

وفارقنا « حورمحب » شاخصا الى « ممفيس » ، ولا تزال كلماته تشيع فى نفسى ، وتشاغل فكرى ، فقد أحسست انى فى موقفى منه ومن « فرعون » لم أحسن الوفاء بحقه صديقا ، وبحق « فرعون » ناصحا ، وانما آثرت العافية ، ولفقت فى سبيلها عواطفى ، استدامة للحياة الهادئة الهانئة التى أحياها ! ..

ولكننى ، بعد ، أخذت أضيق بكثرة العمل ، فقد أصيبت « ميكيت آتون » ابنة « فرعون » الثانية بعلة متلفة ، فتضرم وجهها بالحمى ، ورق جلد عنقها حتى بدت من تحته العظام !.. وكان على أن أتولى أمرها علاجا ، فسقيتها محلول الذهب ، وتعهدتها بغير ذلك من وسائل التلطيف والتقوية ، واقتضانى هذا عملا متواصلا ، وجهدا مضنيا ؛ وقد كان من سوء حظى بلا ريب ، أن العلة التى كانت تلازم « فرعون » ، وحسبته قد برىء منها بفضل علاجى ، قد انتقلت الى ابنته فى هجوم عنيف !.. وكان مما زاد فى متاعبى أن « فرعون » قد ارتد الى القلق والاضطراب ، متأثرا بمرض ابنته ، فقد كان يحب بناته حبا عظيما . وكما هى طبيعة البشر ، كان أشد حبا لابنته المريضة ، ولهذا كان يقدم اليها كرات من العاج والفضة لتلهو بها ، وجاء لها بكلب صغير يلازمها ويرقد عند سريرها . وخلال الليل كان ينهض مرات ذات عدد ، مرهفا اذنه ليستمع الى انفاسها المترددة ، وكان ينتابه الارتياع كلما ندت عن صدرها خفقة موجعة !.. وقد بدا عليه الهزال والضعف لفرط ما يعانى من الارق واللهفة .

وبهذا الشعور الأبوى نفسه . كنت أرعى هذه الفتاة الصغيرة ... فلم أكن أقل من أبيها حبا لها وعطفا عليها . لقد صارت أحب الى نفسى من أملاكى فى « طيبة » ومن « كابتاح » ، وأعجلنى التفكير فيها عن أى شىء آخر ، فلم أعد أفكر فى المجاعة الفاشية حينذاك ، وما عاد يعنينى أولئك الذين يموتون فى « مصر » جوعا ، أو الذين يموتون فى « سوريا » فى سبيل « آتون » !.. لقد شغلت بهذه الفتاة وحدها ، وبذلت لها أقصى ما أستطيع من عناية ومهارة ، منصرفا بذلك عن مرضاى المتازين الذين كانت تركبهم علل البطنة والبدانة والصداع الذى كان هو علة « فرعون » الدائمة ، وكنت فى علاجى لهم أتلقى منهم ذهبا كثيرا ، ولكننى كنت ، الى انشغالى عنهم بابنة « فرعون » ، قد سئمت الذهب مثلما

سئمت الزلفى !٠٠ وكان هذا السأم يدفعنى أحيانا الى شيء من الغلظة فى معاملة المرضى عامة ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يقولون عنى : لقد غره أنه طبيب الحاشية الملكية ، فهو كلما رأى « فرعون » مقبلا عليه ومصغيا اليه ، تجاهل واجبه نحونا !..

وكثيرا ما كنت أشعر بالأسى كلما سرح فكرى فى « طيبة » و « كابتاح » و « ذنب التمساح » ، وكان قلبى لشدة ما ينتابه من ذلك كانه الحيوان الذى يتضور جوعا !.. وأحيانا كان يثقل التفكير على ذهنى فأخال رأسى عاريا برغم أن قلنسوة الشعر المستعار كانت تكسوه ! ٠٠ وعندما كنت أفرغ من عملى وواجباتى ، كانت تلم بى فى يقظتى احلام عجيبة ، فأرى كأننى أولج فى طرق بلاد ما بين النهرين ، وأشتم خلالها رائحة الخبز الطازج وهو ينضج فى أفران القرى هناك ..

وأسلمنى هذا الى استرخاء وترهل ، فزاد وزنى وأصبح نومى اطول أمدا وأكثر عمقا ، ولم أعد أتنقل الا راكبا محفة ، اذ كان سيرى راجلا ، ولو لمسافة قصيرة ، يرهقنى وتكاد أنفاسى تتقطع منه ، على خلاف حالى من قبل ، فقد كنت فيما مضى اقطع أطول المسافات سيرا على قدمى فى كثير من الخفة والنشاط ، ودون أن أحس شيئا من التعب ٠٠

وحل الخريف مرة ثانية فارتفعت مياه النهر ، وظهرت معها الطيور التى كانت متوارية فى أكنانها ، وتدافعت فى الهواء محلقة مفردة ، وهنا راح قلبى يتبعها مستيقظا من غفوته ٠ وكانت ابنة « فرعون » قد اخذت تلوح عليها علامات العافية ، فشاع فى وجهها الابتسام والتهلل ، ولم تعد تشكو الما فى صدرها ..

وفى هذا الجو من الراحة النفسية ، أذن لى « فرعون » فى السفر الى « طيبة » ، فركبت سفينته ، وقد انابنى عنه فى ابلاغ تحياته لكل رعاياه على جانبى النهر فى طول الطريق ، وخاصة منهم أولئك الذين وزع عليهم اراضى « آمون » الاله الزائف ، كما انابنى عنه فى زيارة وتحية المدارس التى اقامها ، وتمنى وهو يودعنى أن أنقل اليه عند عودتى أنباء سارة !٠٠

وكانت رحلة لطيفة حقا ، لقيت فيها من الراحة والمتاع أكثر مما كنت أطمع ، فقد كان مكانى من السفينة مزودا بالفراش الوثير ، وكان يرافقنى طاه خاص بى ، ولكنه لم يصنع لى شيئا ، ذلك لان الاطعمة الطيبة كانت تتوارد علينا وفيرة من كل القرى التى كانت تمر بها أو

ترسو عليها سفينة « فرعون » ذات الراية العالية التى تخفق على ساريتها المنيفة ! ..

وكان الأهلون يتوافدون علينا بالسفينة فأحييهم باسم « فرعون » واتحدث اليهم مستطلعا احوالهم . ولشد ما راعنى أنهم كانوا على حال من الهزال والسقم ، حتى لقد حسبتهم هياكل من عظام نخرة . ولم تكن نساؤهم أحسن حالا ، بل لقد كان الخوف باديا عليهن الى حد أنهن كن يتلفتن فزعات كأنما يلاحقهن خطر غير منظور . وكذلك كان أطفالهم مرضى مهازيل ، لا تكاد تحملهم سيقانهم المقوسة !.. وخلص لى من احاديثهم أن صوامع غلالهم نصف خالية ، وأن القمح الذى أصابوه من زراعتهم كان خليطا من مواد ذات بقع حمراء كأنها مصبوغة بالدم !.. وقالو، لى : لقد كنا نحسب أول الامر أن هـذا نتيجة جهلنا بأساليب الزراعة ، اذ لم يتهيأ لنا التمرس بفلاحة الارض قبل ذلك ، ولكننا ، بعد ، قد عرفنا أن الارض التى وزعها علينا « فرعون » لم تخذلنا لجهلنا ، وانما خذلتنا بسبب اللعنة التى صبت عليها . ولا شك عندنا فى أن هذه اللعنة لاحقة كذلك بمن يزرعها . ومن هنا تتراءى لنا فى الليل اشباح تنقض على زروعنا فتنقص من ثمارها ، ومن وراء الحجب تمتد الايدى الخفية الى أشجار الفاكهة التى نزرعها فتقتلها او تهصرها ، وبلا سبب واضح نفقت مواشينا ، وجفت مجارى مياه الرى !.. وما أكثر ما رأينا فى آبارنا جثثا بالية وأقذارا نتنة ، فنسد الماء وأصابنا الظمأ ، ولهذا ترك الكثيرون أراضيهم وعادوا الى المدن أفقر حالا مما كانوا من قبل ، وهم يسخطون على « فرعون » والهه ، ويلعنونهما !.. غير أننا ، نحن ، قد بقينا حيث أمرنا أن نبقى ، وحيث لا تزال فينا بقية من الايمان بفرعون والهه ، الى الثقة فى رسائله التى بعث بها الينا ، وقد علقناها على قوائم خلال الحقول للوقاية من الجراد ! .. ولكن يبدو أن سحر « آمون » أشد وأقوى من سحر « فرعون » ؟! .. ونشعر أن ايماننا ينحل عراه شيئا فشيئا ، وأصبحنا اكثر جنوحا الى ترك هذه الارض الوبيئة قبل أن تطم علينا البلايا ، فنموت جميعا كما قد مات بالفعل كثيرون من زوجاتنا واطفالنا !..

ونزلت الى مدارسهم فزرتها ، وما ان أبصر المعلمون صليب « آتون » على ملابسى حتى أخفوا عصيهم ورسموا صلاة « آتون » . أما الأطفال فكانوا يجلسون على الارض بسيقانهم المتشابكة ، فلما رأونى راحوا يحدجوننى بنظرات طويلة تائهة ، حتى لقد نسوا أن يمسحوا أنوفهم !..

وقال لى المعلمون : اننـا نعلم أنه من خطل الرأى تعليم القراءة والكتابة لكل طفل ، ولكن ماذا كان فى وسعنا أن نفعل ؟ ! وهذه هى ارادة « فرعون » الذى نحبه ونعده لنا أبا وأما ، ونقدسه لانه ابن الهه ؟! ٠٠ على أنه ليس من اللائق بنا ، ولا مما يتفق مع كرامتنا ، أن نفترش الارض هكذا ، لنعلم أطفالا تطفح القذارة على أجسادهم وملابسهم حتى لنضطر ان نمسح الوفهم !.. وأن نرسم الحروف أمامهم على الرمال لاننا لم نزود بما ينبغى لذلك من الواح وأقلام !.. هذا الى أن تلك الحروف الجديدة شائهة وبغيضة الينا ولا نستطيع أن نظهر بها الحكمة والمعرفة التى أوتيناها بمشقة ونفقـــات طائلة ، ثم ان أجورنا لا تؤدى الينا فى آجالها المحددة ، واولياء أمور هؤلاء الاطفال لا يكافئون جهودنا الا بالنزر التافه ، فالجعـة التى يبعثون بهـا الينا مرة المـذاق ، والزيت فى جرارنا مختلط غير سائغ ، ومن أجل هذا نطلب اليك فى اصرار أن تقول «لفرعون» انه فى حكم الاستحالة تعليم كل الاطفال القراءة والكتابة ، وان الجدير منهم بالتعليم هم الاكثر نباهة والأصفى ذهنا فحسب ٠٠٠

وبعد أن استمعت الى حديثهم هـــذا ، أخذت فى اختبار مقدرتهم فلم اجدهم على حظ يستحق الرضا . وقد ضايقنى منهم على وجه خاص أن وجوههم كانت منتفخة ونظراتهم شاردة غير مستقرة ، فلم يكن يلوح عليهم سمت أهل المعرفة والعلم ، ولم استغرب ذلك ، فقد كانوا من أولئك الكتاب الفاشلين ذوى المعارف الضحلة المحدودة ، الذين لم يكن أحد يعهد اليهم عملا ، وكل مؤهلهم فيما ندبوا له من التدريس بمدارس « فرعون » ، أنهم حملوا صليب الحياة « لآتون » ! ٠٠

وكان الذين اتصلت بهم من الأهلين وشيوخ القرى وعجائز نسائها اشد تبرما بهذه المدارس من معلميها ، فقد قالوا لى — فى شبه اجماع — واقسموا « بآتون » على صدق مقالتهم ، وهم يطلبون رفع اصر هذه المدارس عن كواهلهم : ان أولادنا يعودون الينا مشوهى الاجســام لفرط ما ينـالهم من أذى معلميهم ، انهم يضربونهم فى وحشـية ويقطعون شعور رءوسهم ، ثم ان هؤلاء المعلمين ، فوق ذلك ، فى مثل جشع التماسيح لا يشــبعون أبدا ! ٠٠ فهم يلتهمون كل ما لدينا فى البيت أو خارجه ، ويبتزون كل ما نملك من نقود نحاسية ، ولا يقنعون بذلك فيقسروننا قسرا على بيـع مواشينا لنشترى لهم بأثمانهـا نبيذا !٠٠ وعنـدما نكون فى عملنا بالحقول ، يتسللون الى بيوتنا ، ويقضون شهواتهم مع نسائنا ، فاذا سئلوا لماذا يفعلون ذلك ؟! ٠ قالوا : هذه هى ارادة «آتون» الذى

سوى بين الناس ، فلا فرق بين رجل ورجل ، ولا تختلف امرأة عن امرأة ··· وهذا ما لا تحتمله طبائعنا ، ولسنا الآن بالراضين عن هذا التبدل فى أساليب حياتنا ، والحق اننا كنا ـ على فقرنا بالمدن ـ أكثر شعورا بالسعادة ، فما نرى هنا الا طين الارض ولا نسمع الا خوار الماشية !..

واستطردوا قائلين : ليتنا استمعنا الى نصح الناصحين الذين كانوا على حق حينما توقعوا لنا هذا المصير ، اذ كان من رأيهم أن التغيير فى حياة الفقراء يزيد حالهم سوءا ، ومن نتائجه ، كما هو الشأن الآن ، قلة فى الغلال الى نضوب فى جرار الزيت !..

ولم أشأ أن اجادلهم فى مقالهم ، فقد كنت واثقا من انهم لم يقولوا الا حقا ، ومضيت فى رحلتى حزينا منقبض الصدر ، لما تنذر به تلك الحال من سوء عاقبة لسياسة « فرعون » واتجاهاته ، والا فما معنى هذه الظواهر المتواترة ؟! انه ما من شيء قد تفرع عن التغييرات التى قررها الا أصابه العطب ، ولحق به الفشل ، وغشى الناس سحاب من الهم والكآبة ، فالكافح المثابر منهم أصبح مستخذيا متواكلا ، قانعا بما يناله فى غير عناء ، من أعطيات « فرعون » ومنحه ، ولا يتجمع حول « آتون » الا أولئك المتهافتون على منافعهم الخاصة ، مثلما يتهافت الذباب على الرمم !..

وكلما استرسلت فى التأمل والتفكير ، زاد قلقى وتضاعف ارتيابى ، فان « فرعون » ومن حوله من النبلاء الكسالى ، ولا أستثنى نفسى منهم لم يكونوا خلال السنوات القليلة الماضية ، الا مجموعة من الرجال يخوضون فى تيه من الاهداف ، ويسبحون فى آفاق غير محدودة من الخيالات · وما أراهم ، وقد بلوتهم من قريب ، الا أشباه الهوام الصغيرة التى تبدو فى جلود الكلاب !.. وما أيسر أن تظن تلك الهوام أن الكلاب لم تخلق الا لخدمتها !·· وهكذا « فرعون » والهه يبسطان نفوذهما على الشعب وهما ، بعد ، فى مثل قوة هذه الهوام ! ·· انه الغرور والخبال ، ولا شيء سوى ذلك !..

ان قلبى الغافى يستيقظ ، فتضؤل فى عينى مدينة « أخيت آتون » ولا ألمح فيما أرى من أحوال الناس بشيرا بخير ، ولعلى كنت متأثرا بقوة « آمون » هذه القوة السحرية التى ما زالت مسيطرة على « مصر » كلها بطرق سرية شتى ··· « فآمون » هو الذى يحكم البلاد فعلا ، ولا

ينفى هذه الحقيقة أن « مدينة السموات » لا تدخل فى اطار حكمه ٠٠٠ وقد حيرتنى هذه الخواطر وهى تزحم رأسى كلما قطعت السفينة شوطا فوق النهر ، ولكنى لم ابعد كثيرا عن الواقع الذى تصورته بالعين الفاحصة والتجربة القريبة ٠

واقتربت السفينة من شاطىء « طيبة » ، ولاحت لنا التلال الثلاثة التى كانت ، وستظل ، قائمة على حراسة هذه المدينة العظيمة ، وبدا لعينى من بعيد سقف المعبد وأسواره ، ورأيت رءوس المسلات كما لو كانت تطل علينا لتحيينا ، ولكنها لم تكن كالعادة تلمع فى ضوء الشمس، ذلك لان الأغطية الذهبية التى تغطيها قد أهمل تلميعها ، فصدئت ، على أن منظرها ذاك قد أنعش قلبى !٠٠

وعلى عادة البحارة عند عودتهم من رحلة طويلة ، صببت نبيذا فى مياه النيل ، ولكن بحارة سفينتنا كانوا يسكبون الجعة ، ليحتفظوا لانفسهم بالنبيذ ، ان كان ثمة شيء قد بقى معهم منه ...

ومرة اخرى ، عدت الى ميناء « طيبة » ، ورايت أحجار رصيفه ، وشممت رائحة المدينة تنبعث كريهة من القمح المتعفن ، والمياه الكدراء، والتوابل الفاسدة ، والاعشاب والقار !..

ووصلت الى الحى الفقير الذى اشتريت به منزلى من تاجر النحاس ، وكدت أنكر هذا المنزل لأول وهلة ، فقد بدا فى نظرى اصغر واضيق مما كان ٠ وعافت نفسى منظر الزقاق الذى يقع فيه لفرط قذارته وامتلائه بالذباب والروائح النتنة ، وحتى شجرة الجميز ، التى كنت قد زرعتها بيدى فى فناء المنزل ، لم ترق فى نظرى مع أنها قد نمت كثيرا أثناء غيبتى ، واحزننى الا اجد فى نفسى من البهجة ما يجده متها العائد الى داره بعد طول اغتراب ، ولكن العلة فى ذلك ليست فى الدار ولا فى الزقاق ولا فى الحى كله ، وانما هى ــ بلا شك ــ فيما كنت أعيشه بمدينة « أخيت آتون » من المتاع والثراء ورغادة العيش !٠٠ لقد أتلفتنى هذه المعيشة الناعمة ، وغيرت فى عينى الوان الحياة ومناظرها ! ٠٠

وكان « كابتاح » غائبا عن المنزل ، ولم يكن به سوى طاهيتى « ميوتى » ، التى دهشت لرؤيتى فجأة ، وقالت وهى فى اضطراب المفاجأة : انه ليوم سعيد ، ذلك الذى أراك تعود فيه الى بيتك يا سيدى ولكن ٠٠ قليلا من الصبر يا سيدى ! ٠٠ ان الحجرات لم تنظف بعد ، والمفارش الكتانية قد وضعت فى أوعية الغسيل ٠٠ لا تعجب يا سيدى

اذا قلت لك ان قدومك هكذا قد أحدث فى نفسى اضطرابا ومضايقة !٠٠ انني كنت اقدر دائما أن الحياة لن تمنحني شيئا من السعادة ، ولم يخطيء تقديرى فى عودتك المفاجئة ٠ ان هذه المفاجآت ، التى تسبب لمثلى ما أنا فيه الآن من اضطراب ومضايقة ، لهى أسلوب الرجال الذين قلما يرجى منهم خير ! ٠٠

فأخذت أهدىء من اضطرابها ، وأخبرتها أننى عائد الى السفينة لأقضى الليلة فيها مضطرا ، وتركتها لتمضى فى عملها هادئة ٠ وقصدت – راكبا محفة – الى حانة « ذنب التمساح » ، ورأيت لدى بابها «ميرييت» فلم تعرفنى أول الأمر ، للملابس الفاخرة التى كنت أرتديها والمحفة التى كنت مقبلا عليها ! ٠٠

وبدأتنى قائلة : اذا لم تكن قد حجزت لك مكانا هنا لقضاء الليل ، فانى لن أسمح لك بالدخول ! ٠٠

وقبل أن أجيب ، كنت أجيل نظرى فيها مدققا ، لقد ظهرت عليها البدانة بعض الشيء ، وفى اكتناز وجهها المضيء توارت ، أو كادت ، عظام خديها ٠ أما عيناها فان شيئا منهما لم يتغير ، انهما على حالهما من الصفاء والجمال ، ماعدا بعض خطوط دقيقة تناثرت حواليهما ، وشعرت بقلبى دافئا حين وضعت يدى على خاصرتها قائلا: لا يدهشنى أن أراك قد نسيتينني ففى هذه الدنيا كثيرون تمضهم الوحدة وتحزنهم ، وأنت ، ذات القلب الحانى على أمثالهم ، لابد أن تكونى قد جعلت لهم من فراشك مضاجع يأنسون فيها ويسعدون بها !٠٠ ومهما يكن من أمر ، فانى اطمع فى أن أجد بهذه الحانة مقعدا وكأسا من نبيذ مرطب ، وليس بذى بال ألا أجد موضعا فى فراش ! ٠٠

فقالت مشدوهة وكأنها تصرخ : « سنوحي » ! ٠٠ انه أنت ! ٠٠ ما أسعده من يوم تعود فيه الى موطنك يا سيدى !٠٠

وامسكت كتفى بيديها القويتين البضتين ، ومضت تقول ، وهى تتفرس فى وجهى من قرب : « سنوحي » ! ٠٠ قل لى ! ٠٠ ماذا كنت تفعل ؟! ٠٠

وفى دعابة ودلال ، أردفت تقول : اذا كانت وحدتك فيما مضى وحدة الأسد ، فانها اليوم وحدة الكلب الصغير ، وها أنت ذا قد عدت لأضع المقود فى رقبتك ! ٠٠

ورفعت قلنسوة شعرى ، وراحت تتحسس بيدها رأسى الحليق ، واستمرت قائلة : اجلس ــ اذن ــ ياسنوحى ، فسآتيك بالنبيذ المرطب، فان عروقك يتصبب ، وأتقاســـك لاهثة لطول ما عانيت من رحلتك المضنية ! ..

فقلت لها مستدركا : لا .. لا أريد هذا المخلوط من «ذنب التمساح» فان معدتى لم تعد تطيقه ، وكذلك رأسى ! ..

فركزتنى فى ركبتى . وقالت ســـاخرة : أهكذا صرت فى نظرك بدينة قبيحة ، الى حد أنك ، لأول مرة تلقانى بعد غيبة سنين ، لاتفــكر الا فى معدتك ؟! انت ، أنت الذى لم تكن تخشى من قبل صداعا فى جوارى ؟ ! وأين ــ إذن ــ لهفتك الشديدة ، وشوقك المتقـــد الى «ذنب التمساح » ؟ ! .. لقد كنت أنا التى أكبح جماحك لتقلع عن اسرافك فى تناوله ! ..

وكانت تقول الحق ، فأحسست بشىء من الخجل ، ولكنى لم أتردد فى أن أقول لها ، محاولا تبرير الموقف : لا عجب يا صديقتى « ميرييت » فقد أصبحت عجوزا ، وأشعر بأننى قد انتهيت ! ..

فقالت : تلك دعواك ، وهذا تصورك ! .. ولكن عينيك ، وهمـــا تحدقان بى ، تقولان غير هذا ، وهو حسبى ! ..

فقلت لها مستسلما : « ميرييت » ! .. لك ما تشائين ، وفى سبيل صداقتنا ، عجلى بمخلوط « ذنب التمساح » ، وسأغضب منك ان أبطأت! هيا فعجلى ، ولا يغيبن عنك أن جراح الجمجمة بالحاشية الملكية يجلس الآن هنا فى حانة يحى الميناء ! ..

وعادت « ميرييت » حاملة كأس الشراب ، فرحت أترشف منه ، ولم يكن رطبا ، فأحسست منه بمثل اللهب فى حلقى ، ولكننى لم ألبث أن استعذبت مذاقه ، وأنا أضع يدى على جسمها وأقول لها : سمعتك مرة تقولين ــ يا « ميرييت » ــ ان فى الكذب ما هو أحلى من الصدق لمن يكون وحيدا انقضى ربيع شبابه ، ولكنى أقول لك الآن صادقا ان قلبى لايزال مزدهرا ، وهو ــ عندما ألقاك ــ أكثر احساسا بفتوة الشباب ! .. لقد فرقت بيننا الظروف لسنوات ذات عدد ، ولكن يوما واحدا منها لم يكن يمضى دون أن أهمس باسمك للنسيم الدائم السريان ، وللطيور دائمة الارتحال على اتجاه تيار النيل ، كنت أحملها جميعا أعطر تحياتى اليك ،

وكان اسمك دائما التسبيحة المقدسة التى تتردد على لسانى كلما استيقظت فى كل صباح ! ..

وكانت « ميرييت » تصغى الى حديثى ، وفى عينيها اشراق يخالطه من بعيد مسحة من أسى كالذى يتراءى فى أعماق البئر تحت مياههـا الصافية ، وداعبت خدى بيدها وقالت : كلامك ، ياسنوحى ، جميل تطرب له نفسى ويأنس به قلبى ، ولا شىء يمتعنى الآن من أن أعترف بأن حبى لك لم يفتر لحظة من نهار أو ليل ... لقد كنت ، كلما أويت الى فراشى وحيدة ، أذكرك وأتخيلك الى جانبى ، فأمد يدى لأضمك الى صدرى ، وكم كنت أقاسى من مرارة الخيبة حينما كنت أجد مكانك خاليا ! .. وما أكثر ماكان يؤلمنى أن أسمع أصوات المترددين على هذه الحانة ولا أسمع صوتك . كانت وحـدتى هنا موحشـة محزنة ، بينما أنت ، هناك ، فى بيت « فرعون » الذهبى ، حيث النساء الجميلات ، تملأ بهن فراغ وقتك ، وتطفىء فى القرب منهن ضرام قلبك ! ..

قلت لها : لا أخفى عنك أن سيدات القصر جميلات فاتنات ، وقد استمتعت ببعضهن ، ولا غرابة فى ذلك فليالى الشتاء تحتاج الى الدفء ، ولا يتحقق الدفء فيها الا اذا كان هناك اثنان فى فراش واحد ! .. ولكنى أؤكد لك بالصراحة نفسها أن هذا كان نادرا ، وكان على ندرته ينقضى لساعته دون أن يترك فى نفسى أثرا ، ولهذا لم أعن بتدوينه فى مذكراتى والحقيقة التى أستيقنها وأحب أن تثقى بهـا هى أننى لم أنم وحيدا فى ليلة واحدة ، ذلك لأنك كنت دائما بجانبى هناك ! ..

وسرى مخلوط « ذنب التمساح » فى أعصـابى ، وفعل فعله بداخل بدنى ، وأحسست بنشاط الشباب ولطف النشوة ، وأنا أقول لها : اذا كان رجال قد قاسموك فراشك خلال غيبتى ، فمن الخير أن تنصحى لهم بالابتعاد عنى مادمت « بطيبة » ، فاننى عنيف صارم اذا أثارنى أحد أو اذا غضبت لأمر ، وكان جنود « حورمحب » يلقبوننى « بابن الحمـار الوحشى » عندما كنت أحارب معهم ضد العبريين !! ..

فرفعت « ميرييت » يديها ، وقالت وهى تتكلف الخوف : ذلك ماكنت أخشاه ، لقد أنبأنى « كابتاح » عن كثير من المناوشات والمشاجرات التى كانت تدفعك اليها حدة طبعك ، ولولا أن « كابتاح » كان يتدخل فى الأمر مدفوعا باخلاصه لك ، لما نجوت من هذه الحماقات ..

وهنا فطنت الى أن « كابتاح » قد لفق لها عنى أحاديث ووقائع ،

وقص عليها من حياتى فى بلاد الغربة أكذب القصص ، فذلك طبعه ، ولكن أين هو ؟! •• انه أحد أرقائى السابقين ، وخادمى الأمين ، وأنا مشوق الى لقائه لأضمه الى صدرى ؟! ••

ورحت أهتف باسمه ، كما لو كنت أناديه ! •• ولكن « ميرييت » حاولت أن تسكتنى ، فقالت : يظهر أنك لم تعد تحتمل مخلوط « ذنب التمساح » ! •• انك تحدث ضجة تلفت الأنظار الينا ، وهذا هو أبى ينظر فى اتجاهنا بادى الغضب ، وأكبر ظنى أنه يأمرنا بالكف عن هذاالضجيج المثير ! •• وعلى أية حال ، أنت لا تستطيع أن ترى « كابتاح » قبل حلول المساء ، فان أعماله الهامة فى بيع صفقات الغلال وشراء غــــيرها ، وفى الاشراف ـ عدا ذلك ـ على الحانة ، تستغرق معظم وقته • وسترى ، عندما تلقاه ، أنه قد تبدل كثيرا، فهو يأبى أن يذكر لنفسه ، أو أن يذكره أحد بأنه كان يوما رقيقا ،يحمل حذاءك على كتفه معلقا بعصا ! •• دعك من أمره الآن ، وأقترح عليك أن نمضى معـــــا الى خارج الحانة ، فنستروح النسيم العليل ، وترى من « طيبة » مالم تره فيها من قبل ، فقد تغيرت فى كثير من مظاهرها منذ تركتها ، وبهذه الوسيلة نقضى منفردين وقتـا طيبا ، بعيدين عن هذه الأنظار المتلصصة ! ••

وذهبت « ميرييت » فأبدلت ملابسها ، وجملت وجهها بالطــــلاء ، وتزينت بالذهب والفضة ، وعادت مشرقة الجمال ، والحق انها لم تكن أقل روعة من فتيات الطبقة الراقية ، بل ان الكثيرات منهن ليس لهن مثـــل صفاء عينيها وبهاء ثغرها ! ••

وجاء الأرقاء ، فحملونا على المحفة التى جلسنا عليها متلاصقين ،وكان يفوح من « ميرييت » شذا العطور التى تضمخت بها ، وهى من أريج « طيبة » ، وكانت أرق عبيرا والطف رائحة من عطور « أخيت آتون » • وفى طريقنا الى شارع « رامس » ، كنت أمسك بيدها ، سعيدا لا تشوب قلبى شائبة من خواطر السوء ، ولماذا لا أكون كذلك ، وها أنذا قد عدت الى موطنى ، والى فتاتى ، بعد طول شوق اليهما ؟! ••

واقتربنا من المعبد ، فرأينا الغربان السود تحوم وتنعب فى ساحته التى صارت خرابا مفزعا ، وقد طاب المقام فيــه لهــذه الغربان ، فلم تعـد الى تلالها ، وكان كل شىء فى هذه المنطقة يشير الى أنها أصبحت مثابة لعنة ، لا يرتادها الناس خوفا منها ! ••

وعندما هبطنا من فوق المحفة ، وأخذنا نتنقل فى تلك الســاحات

المهجورة ، ولم نر هناك من آثار الحياة وبقايا العمران الا « دار الحياة » و « دار الموت » ، فقد كانتا من الضخامة بحيث استعصى نقلهما من مكانيهما . وقد أخبرتنى « ميرييت » أن الناس لم يعودوا يترددون على « دار الحياة » لأن أطباءها قد هجروها ، وآثروا أن يباشروا عملهم فى المدينة ! ..

وتجولنا فى حديقة المعبد ، فاذا الحشائش قد فشت فيها وتكاثفت على طرقاتها ، وما بقى من أشجارها كان جذوعا تحطمت أغصانها ، ومعالم فى الأرض تدل على ما سرق منها . ولم نر بهذه الحديقة الفسيحة التى أمر « فرعون » بتحويلها الى ملاعب ومتنزه عام ، الا رجلين تبدو عليهما سمات التبطل والمرض ، وقد طفقا يختلسان النظر الينا طوال الوقت الذى قضيناه هناك ! ..

وقالت «ميرييت» : أن صدرى ليضيق بهذا المكان المخيف !.. وانى لأتوجس منه شرا ، فلنخرج منه ، ثم استوقف نظرها « صليب الحياة » الذى أضعه على صدرى ، فاستطردت قائلة : وكذلك يضيق صدرى بهذا الصليب ! .. انه شارة العهد الجديد ، وفيه بلا شك حماية لمن يحمله ، ولكنى مع ذلك أراه خطرا عليك فى « طيبة » ، فان كراهية « الطيبيين » للعهد « الآتونى » تعدل تماما ايمانهم « بآمون » وتعلق قلوبهم به ، واخشى لهذا أن يحطموا رأسك بالحجارة اذا ما ظل هذا الصليب على صدرك ، فانزعه ـ اذن ـ من موضعه ، واخفه عن عيونهم ! ..

وقد صدق حدس « ميرييت » ، فاننا لم نكد نعود الى الميدان المواجه للمعبد ، حتى رأيت الناس ، الذين يمرون بنا ، يحملقون فى شارة الصليب على صدرى ، فتتجهم أسارير وجوههم ، ويبصقون على الأرض علامة الاشمئزاز والبغض ! ..

وكان مما أثار عجبى ، أكثر من ذلك ، انى رأيت واحدا من كهنة « آمون » يمشى فى جراة ملحوظة بين الناس ، مرتديا ملابسه الكهنوتية البيضاء الفاخرة ، عارى الرأس ، كما لو كان لايزال يؤدى مراسمه الدينية لحساب «آمون» ، وكانت هذه مخالفة صارخة لأوامر «فرعون» !.. ومع ذلك فان الناس كانوا يلقونه باحترام ويفسحون له الطريق . وهنا لم أتردد فى الاخذ بنصيحة « ميرييت » ، فأخفيت صليب الحياة «لآتون» ، اجتنابا للشر الذى توافرت نذره وعلاماته ! ..

وقريبا من سور المعبد ، رأينا قاصا يجلس على الأرض مفترشـــا حصيرا من قش ، وأمامه طاس فارغة ، وحوله ــ في شكل دائرة ــ جمهرة من الناس ، وأكثرهم من الدهماء وعامة الفقراء ، قد تجمعوا في رغبـــة ظاهرة ليستمعوا الى ما يقصـــه عليهم من الوقائع والأســـاطير ، وكان وقتذاك يروى لهم قصة غريبة ، ملخصها أنه كانت هناك امرأة ســوداء من عامة الناس ، وكانت تشتغل بالسحر ، فاستعانت بارادة « ست » حتى استمالت اليها قلب « فرعون » العظيم ، وظفرت بحبه ، وولدت له « فرعون » الزائف . وكان هذا الفرعون الزائف ســـببا في خراب « مصر » واشقاء أهلها ، حتى أوشك أن يجعل منهم أرقاء في بلاد النوبة والاقطار المتوحشة ، وأعلن كفره بالاله « رع » ، فحطم تماثيله ، فحلت لعنة « رع » على الارض فأصبحت قفرا ، وطغت الفيضـانات العالية على الناس فاغرقتهم ، وزحفت أرجال الجراد على المحصولات الناضجة فالتهمتها وتحولت مياه البحيرات والمستنقعات الى دماء كريهة الرائحة ، وكان ، ثم صراع غير منظور بين « رع » و « ست » في عهد ذلك الفرعون الزائف ، ورجحت كفة « رع » لأنه كانَ أقوى سلطانا ، فمات « فرعون » الزائف ميتة شنيعة ، وكذلك ماتت أمه الساحرة ، وأنزل « رع » نكاله الشديد بمن أنكروه ، وبامره ومشيئته وزعت بيوتهم وأموالهم وأراضيهم عـــلى الذين ظلوا أوفياء له ، مؤمنين بعودته ! ..

وكانت القصة ، كما يقصها هذاالقاص ، طويلة ومثـــيرة ، وكان الجمهور المتجمع لسماعها متأثرا أبلغ التأثر بحوادثها . فلما بلغ القاص نهايتها ، وقال ان « فرعون » الزائف قد لقى جزاءه بالقـــائه في حفرة غير ذات قرار ، ولعن اسمه في كل مكان ، وأجزل « رع » مكافاته لمن أخلصوا له .. عند ذلك الحد من القصة ، صفق المستمعون تصفيقا شديدا وأخذوا يتصايحون صيحات البهجة والرضا ، والقوا الى القاص بنقودهم النحاسية في طاسه الفارغة حتى امتلأت ! ..

وقلت « ميرييت » دهشا : لم أسمع بمثل هذه القصة من قبل على كثرة ما كنت أسمع في طفولتي من أقاصيص ، فقد كانت أمي « كيفا » لذلك العهد مولعة بالاستماع الى القصاصين ورواة الأســاطير ، وتكرم وفادتهم وتقدم لهم أفضل ما عندنا من طعام ، حتى أن أبي « سنموت » كان يضيق بهم أحيانا فيطردهم من دارنا ، ضـــاربا بعصاه في أقفيتهم وخاصة حين كان يراهم يلتهمون طعامنا في المطبخ ! .. فقصة هذا الرجل اليوم جديدة غير مسبوقة ، وهي لغرابتها تبدو كأنها من نسج خيـــاله ،

ولكنى ألمح فيها ارتباطا بأحداثنا الجارية ، وكأنى بهذا القاص يعنى بها « فرعون أختاتون » وإلهه الذى يعتبرونه فى أنفسهم «زائفا» ولا يجترئون على ذكر ذلك جهرة ! .. إن هذه القصة ، لهذا الاعتبـــار ، يجب أن تصادر !..

فقالت « ميرييت » مبتسمة : ومن ذا الذى يستطيع أن يصادرها ؟! انها هكذا تروى فى كل مكان من المملكتين ، ويستمع اليها النـــاس فى شغف لدى الأبواب وفى ظلال الأسوار والأشجار ، ولو يتعرض الحـراس للقصاصين ليمنعوهم ، فانهم يؤكدون لهم أن القصة قديمة لاتعنى شيئا ، وفى استطاعتهم أن يقولوا أيضا انهم نقلوها عن الكهنة الذين وجدوها عندهم مكتوبة فى أوراق قديمة منذ قرون بعيدة ، وأحسب أن الـــكهنة لا يمتنعون عن تأييدهم فى ذلك ، فهل يملك الحراس ازاء هذا أن يمنعوا روايتها للناس ؟ ! وقد تقـــول لى ان « حورمحب » قد أقطع فى معاملة بعض القصاصين لارتيابه بهم ، فعلقهم من أرجلهم على الأســـوار ، وألقى بأجسادهم الى التماسيح ، ومن الممكن أن يؤخذ مثل هذا القصاص بمثل هذه القسوة ، ولكن يبقى بعد هذا أن القصة لاتنتهى بانتهاء رواتها هؤلاء وانما هى تدور بين الناس ، ويتروونها فى شيء كثير من الاغراب والتهويل فى داخل دورهم ومن وراء أعين الجند وآذان الجواسيس ! .. ان استخدام القوة والارهاب فى منع قصة يزيد الناس شوقا اليها ، واغراء بهـــا ، ولهذا اقول عن يقين انه لا احد يستطيع أن يمنعها ! ..

واستطردت « ميرييت » تقول: وهذه القصة بذاتها ليست هى كل ما يثير القلق والتطير ، فثمت تبوءات كثيرة شائعة الآن فى « طيبة » ، والناس يتلقفونها ويزيدون فيها ، ويتبادلونها باهتمام مصبحين وممسين وهى تنطوى على نذر وعلامات سيئة ، ومنها ما لايتقصك العلم به ، كقلة المحصولات ، وفساد الزرع ، وتعفن الغلال بالصوامع ، وجوع الفقراء، وارتفاع الضرائب وتعددها حتى فدحت كاهل الأغنياء والفقراء على السواء ولا أخفى عنك أنى لأرتعد خوفا كلما فكرت فيما سيلم بنا من الشرور التى تشير اليها هذه التنبوءات ! ..

واهمنى هذا الذى سمعته من « ميرييت » هما شديدا ، وكان مخلوط « ذنب التمساح » قد انتهى اثره من رأسى ، فشعرت بصداع وانهيار ، وزايلتنى البهجة التى كنت أستمتع بها فى رفقة « ميرييت » ، فعدنا الى الحانة ، وفى نفسى ما فيها من الكآبة ، وقد ذكرت حينئذ ماكان فرعون

« أخناتون » يردده ، وهو أن « آتون » ســـــيفرق بين الطفل ووالديه ، والرجل وزوجه ، الى أن يتم تشييد مملكته على الأرض ! ٠٠

وعلى ما كنت أشعر به من أسى واكتئاب ، فانى لم أشأ أن أنفصل عن « ميرييت » ، فقد كانت رغبتى فيها أقوى من حزنى على « آتون » ، ولهذا بقيت معها حتى وافانا « كابتاح » فى المساء ٠

- ٣ -

وعندما اقبل علينـــــا « كابتاح » ، أحسست بأن كآبتى تنكمش وتتقلص وتأخذ طريقها عجلى الى خارج كيانى ٠٠٠ لقد كان منظره مثيرا للضحك والتسلية الى حد بعيد ، فجسمه قد انتفخ وتضخم حتى أنه لم يستطع اجتياز باب الحانة الا بحركة جانبية ضاغطة ، وكان وجهه كذلك مستديرا مكتنزا ، وقد جلل رأسه بقلنسوة من الشعر الأزرق الجميل ، أما عينه العوراء فقد أخفاها تحت قرص ذهبى متوهج ، وأما ملابسه ، فقد كان يرتدى منها حلة فاخرة من صنع « طيبة » ، وأدركت بذلك أنه كف عن ارتداء الملابس الســـورية التى كان قد تعـــودها ٠ وكان أشد ما استرعى انتباهى لظهوره علينا فى هذه الصورة المترفة ، أنه كان أيضا يضع الدمالج والاساورالذهبية فى معصميهورسغ قدميه ،فيسمعرنينها لأقل حركة تصدر عنه ، وما أكثر ماكان يتحرك ! ٠٠ ذلك الى ما كان يعبق حوله من عبير العطور الغالية الثمن التى يتدهن بها ! ٠٠

لقد كان تحولا عجيبا عن الحال التى تركته عليهـــــا ، وكان المنظر لطيفا ومسريا ، فانتعشت به ، وما كاد هو يرانى حتى راح يصيح ويرفع يديه فى فرح ودهشة معا ، ثم انحنى أمامى ، مادا ذراعيه الى أســفل ، ولكن ضخامته وانتفاخ بطنه واكتناز لحمه ، قد جشمه عسرا شديدا فى أداء هذه التحية ، بل انه لم يستطع أن يؤديها ، مع هذه المشقة ، بالدقة المألوفة ! ٠٠ وقد أضحكنى ذلك منه ! ٠٠

وكان « كابتـــاح » يبكى لفرط تأثره ، وهو يخـــر على ركبتيه ويحتضن ساقى ، فتأثرت بدورى لصدق احساسه ، ورأيت فيه ، مرة أخرى ، خادمى القديم المخلص ، على الرغم من أثوابه الكتانية الفاخرة ، وذهبه الكثير ، وعطوره الغالية ، وقلنسوة شعره الزرقاء ! ٠٠ وقد مددت

اليه ذراعى واقمته عليهما وضممته الى صدرى ، فكانما كنت أضم به ثورا سمينا ! ..

وفى عبارات متلهجة ، كان يصيح محييا لى ومرحبا بى ، وهو يبارك ذلك اليوم الذى يلقانى فيه بعد غياب وطول اشتياق ، ثم يتحسس كتفى فى أدب واحترام ، وأخيرا جفف دموعه وقال ضاحكا : ان هذا اليوم أسعد أيام حياتى ، واحتفالا به سامنح كل واحد من رواد الحانة كاسا بغير ثمن من مخلوط « ذنب التمساح » ، وعلى كل منهم ، ان أراد كاسا ثانية ، أن يدفع ثمنها ، فان كأسا واحدة من غير ثمن ليست بالشىء القليل ! ..

ثم سار بى ، فرحا ، الى القسم الداخلى من الحانة ، وجاءنى بمقعد وثير ، وطلب الى « ميرييت » أن تجلس الى جانبى ، وأمر الخدم والأرقاء ، فقدموا لنا خير مافى الحانة من نبيذ وطعام .. وكان نبيذا معتقا لا يقارن به نبيذ « فرعون » ، وكان الطعام أوزة مشوية من أوز « طيبة » ، وهى مما لامثيل له فى كل أنحاء «مصر» ، ذلك لأنها تغذى بالسمك الذى يجعل لحمها طيبا شهيا ، وطعمها لذيذا ممتعا ! ..

وبعد أن فرغنا من الطعام والشراب ، قال : لابد أنك يا سيدى « سنوحى » قد راجعت بعناية ورضا ، كل البيانات التى أعددتها عن حساباتك هنا بوساطة الكتاب الحسابيين المهرة ، وأرسلتها اليك على عنوانك فى « أخيت آتون » خلال السنوات الماضية ، وحسنا تفعل يا سيدى ، اذا وافقت على أن نضيف الى حساب المصروفات ، تكاليف الطعام والشراب فى هذا اليوم ، وكذلك ثمن مخلوط « ذنب التمساح » الذى قدم الى رواد الحانة فرحا بقدومك ، وما أحملك هذا عن بخل منى ، ولكن عن رغبة فى مصلحتك ، فانك لا تدرى كم أعانى فى محاسبة ادارة ضرائب « فرعون » نيابة عنك ، فما أشد ما الاقى فى مخادعتهم وفى ارضائهم ؟! .. وأنت أذكى من أن اقول لك ان فى كثرة المصروفات ، اقلالا من ضرائب الأرباح ! ..

قلت له : صدقنى ، اننى لا افهم كلمة واحدة من هذا الذى تقوله ! وفى وسعك أن تفعل ما ترى أنه الأفضل ، فانى أضع فيك ثقتى كاملة ، ولقد اطلعت على تقاريرك وقوائم حساباتك ، ولا أزعم انى أحطت علما بكل ما فيها ، ، فقد كنت لا أستطيع أن آتى على آخرها لكثرة ما تشتمل عليه من ارقام ومعادلات لا حصر لها ولا نهاية ! ..

فاهتزت بطن « كايتاح » وهو يضحك مبتهجا ، وضحكت كذلك « ميرييت » ملء رئتيها ، وكانت قد شاركتني في شراب النبيـــذ ، فاستلقت على ظهرها منتشية ، وأسندت رأسها فوق يديها المتشابكتين ، واصطنعت في استلقائها وضعا يبدو به جمال صدرها تحت ردائها !..

وقال « كايتاح » على طريقته الماجنـــة : انى لمسرور يا ســـيدى « سنوحي » اذ أراك لاتزال محتفظا بمزاجك الصبياني ، فها أنتذا لاتعرف شـــيئا من ماجريات الامور اليومية ، الا بقـــدر ما يفهم الخنزير في قيمة الجواهر !.. وحاشاى أن أكون قد قصدت الى تشبيهك بالخنزير ، وانما هو مثل ، ياسيدى ، مع الفارق الكبير بطبيعة الحال ! .. وانى لأحمـــد جميع آلهة « مصر » وأشكرها بالنيابة عنك ، لأنهـــا وهبت لك خادما لا يسرق الا قليلا ، ولهذا تبدلت حالك من فقر الى غنى ! ..

فقلت له : انك لست بحاجة الى أن تشكر الآلهة على ذلك ، ولكنك محتاج الى أن تعلم بأن الفضل كله في هذا يرجع الى حسن اختيـــارى ، فقد رأيتك معروضا في سوق الرقيق ولا أحد يومها يحفل بك ، لأنك بعين واحدة ، ولأنك كنت قد فقدت الثانية فيمشاجرة بحانة ، فاشتريتك بثمن زهيد ، متوسما فيك صفات طيبة غير تلك التي كانت بادية عليك، ولعلك لا تنسى أنك في ذلك اليوم كنت مربوطا بمقود الى قائم الرقيق كما لو كنت حيوانا شرســـا يخشـــون قراره ! .. وأن صراخك كان لا ينقطع بلا خجل ، مستعطفا السيدات المارات بجانبك ، أو طالبا من الرجال شـيئا من الجعة ! .. ألا تذكر هذا يا « كايتاح » ؟! ..

فاربد وجه « كايتاح » واختلج جسمه وقال : ماهذا الذي تذكرني به ؟! انه لايعنيني شيء من تلك المواقف المخزية التي لاتليق بكرامتي في الوقت الحاضر ! .. فانما المرء بحاضره يا ســـيدى ، لابماضـــيه ، ولا بحسبه ونسبه . والرجوع الى الماضي قلمـــا يسر أحدا !.. ولا شـــك في أنك كنت حكيما عندما وثقت بي ، وكنت أكثر حكمة عندما زودتني بالجعران المقدس ليشرف معي على شئونك . واني لأعترف له بالفضـــــل فيما أصبناه من نجاح متصل أتاح لك أن تكون غنيا ، بل أغنى مما كان يخطر ببالك . وقد حرصت بذكائي وكفايتي على أن أصون لك هـــذه الثروة العظيمة ، متحملا مالا يطاق من جباة الضرائب الذين يتجمعـــون حولي كالذباب ، وقد اضطررت ، في سبيل التخلص منهم ، الى استخدام كتاب حسابات مهرة من السوريين ، فنظموا القيد ورتبوا السـجلات ، ونسقوا الأعمال على أوضاع دقيقة لاتنفذ اليها مطامع الجباة . وهـؤلاء

السوريون هم وحدهم الذين يحذقون هذا الضرب من أعمال التجارة وضبط الأموال ، ولا يستطيع أحد حتى « ست » نفسه أن يبزهم فى هذا المجال ! .. وعلى ذكر « ست » ، أذكر صديقنا « حورمحب » الذى اقترض من رصيدك نقودا ما تزال دينا قائمـا فى ذمته حتى الآن ، وأظنـك تعلم هذا ؟! .. وأدع ذلك الآن ، فأفضل منه أن نقصر الحديث عن هـذه الثروة الطائلة التى تملكها هنا ، ولا تعرف عنها سوى النزر اليسير ، فاعلم — اذن ياسيدى — أنك ، بجهدى وكفايتى وأمانتى واخلاصى، أصبحت أغنى من كثيرين من نبلاء المصريين ، وثروتك لم تعد ، كما قد تظن ، محصورة فى الذهب والفضة وعملات النقود على أنواعها فحسب ، وانمـا هى أيضا تمتد الى ماصار فى حوزتك ولحسابك ، من المنازل والعمـائر والمخازن والسفن والمواشى والأراضى والبساتين والأرقاء !.. انها — كما ترى — ثروة ضخمة وافرة ، وقد كان يسيرا على موظفى الضرائب أن يلتهموا الكثير منها ، فان ضرائب « فرعون » أثقل عبئا على الأغنيـاء منها على الفقراء ، ولكنى أخذت للأمر ما ينبغى له من الحيطة والحيلة فوزعت أرصدة الحسابات تحت أسماء بعض الخدم والكتبة ممن أثق بهم ، وبهذا تفاديت زيادة الضرائب ، ولك أن تقدر ماكان يمكن أن يضيع من ثروتك موحدة تحت اسمك ، لحساب هذه الضرائب ، اذا عرفت أن نسبة الضريبة على الفقير لاتجاوز خمس ايراده ، أما نسبتها على الغنى فلا تقل عن الثلث وترتفع صعدا حتى تبلغ النصف ! .. وهذا ظلم لاشك فيه وأراه مثلما يراه الناس جميعا ، أفدح المظالم التى اقترفها « فرعون » .. وقد كان لذلك أسوء الأثر فى حياة « مصر » ، فهذه الضرائب الصارمة مضافة الى انفصال « سوريا » وافتقاد مواردها ، قد أنشأت ضـيقا اقتصاديا مستحكم الحلقات ، وأفشت الفقر بين الأفراد والجمـاعات . والغريب أن هذا يغاير المعروف عن اتجاهات « فرعون » الانسانية ، ويخالف مايقال عن رغبته فى اسعاد الفقراء ، فلا أدرى كيف يتحقق ذلك والحال كما ذكرت ؟! ان العكس هو الذى سيكون بلا مراء ، فانخفاض مستوى الثروة القومية ، وتناقصها ، من شأنه أن يزيد الفقير فقرا ، فى حين أن الغنى ، بالقياس والنسبة ، سيزداد غنى ! .. فذلك هو المصير المؤلم لسياسة « فرعون » القائمة ! ..

وانتقل « كايتاح » من هذه المقدمات والنقدات ، الى تفاصيل مطولة عن أعماله وتصرفاته التجارية ، وكان قد أكثر من الشراب ، فراح يتحدث مفاخرا عن تجارته فى الغلال ، قائلا : مهما يكن من أمر مهـارتى فانى

لاأغمط فضل جيراننا المقدس ! ·· وقد كنت قررت ، منذ اليوم الأول الذى عدت فيه من أسفارنا البعيدة ، أن أنحو نحو التجارة ، فذهبت الى حانة نبيذ كنت أعلم أن تجار الحبوب يتواردون عليها ، وهنـــاك بدأت أشترى منهم قمحا لحسابك ، وكانت صفقات رابحة ، فالقمح سلعة معروفة متداولة ، ويمكن أن تباع وتشترى قبل أن تزرع وتحصد ، وأسعارها مطردة الزيادة ، ولذلك فالاتجار بها مكفول الربح ، ولهذا السبب نفسه اختزن كميات من القمح ولا أنوى بيعها ، بل سأتابع الشراء والخزن الى أن أبيع بالأسعار العالية التى لا مفر منها مادامت الأحوال جارية فى هذا القطر على مانرى من فقر وقلة انتاج ! ··

وتوقف « كابتاح » قليلا ريثما تفحص ملامح وجهى ليستشف منها اثر كلامه ، ثم صب نبيذا فى الكئوس لثلاثتنا ، واستمر يقـول : من الحكمة ألا يغامر انسان بكل مايملك فى سلعة واحدة ، ولذلك فقـــد استثمرت أموالك ياسيدى فى عدة وجوه ، وحالفنى النجاح فيها جميعا ، وأؤكد لك انى مع هذا لم أسرق منك أكثر من ذى قبل ، ولم أبلغ من هذا نصف الأرباح التى دبرتها لك بمهارتى وذكائى ! ··

وكانت « ميرييت » لاتزال مستلقية ممددة ، وهى أحيـــانا تبتسم ابتسامة وادعة ، وأحيانا أخرى تهدر بضحكاتها ، تبعا لما كان يقع فى نفسها من حديث « كابتاح » ، وكنت أنا مسترسلا فى الاصغاء اليـه ، لأقف على كل مالديه من معلومات ، ولأفسح له مجال الثرثرة التى هى جزء من طبعه · وقد تابع حديثه قائلا : من الخير أن تعلم ، ياسيدى ، أننى حينما أتكلم عن الأرباح ، فانما أعنيها صافية مستخلصة بعد سداد الضرائب وحذف ثمن الهدايا التى قدمت لموظفيها مع اثمان النبيذ الذى رشوتهم به ليغضوا أبصارهم عند مناقشة الارقام التى أعرضـــها عليهم مسجلة فى الدفاتر ! ·· وهذا وحده جزء هام لايمكن اغفاله ، فموظفـو الضرائب أشداء المراس وذوو فطنة ، وليس من السهل ارضاؤهم بغـير مقابل ضخم !.. ومن هنا كان ماهو ملحوظ من اثرائهم اثراء كبيرا ! ولم أنس ، الى جم أعمالى ومشاغلى ، أن علينا واجبا نحو الفقراء ، فكنت من وقت الى آخر ، أوزع عليهم مكاييل مختلفة من القمح ، ليباركوا اسمى وهذا تصرف أعتقد أنك تقره بلا أدنى معارضة ، لانطوائه على الحكمة فوق ما ينطوى عليه من معانى البر ، ذلك لأن الأمور عندما تكون قلقة وغير مستقرة ، فالواجب أن يتوخى الأغنياء ارضاء الفقراء ليعيشوا معهم فى وئام ! ·· يضاف الى هذا غرض آخر يدخل فى نطاق الحكمة والبراعة ،

وقليل هم الذين يفطنون اليه ، ذلك أن « فرعون » ـ في جنونه ـ يسمح بتخفيض الضرائب عما يوزع من المحصولات بهذه الطريقة على الفقراء، ولهذا فانني ، عندما أعطى مكيالا من القمح الى أحد الفقراء ، لاأنسى فى الوقت نفسه أن آخذ منه اعترافا بتسلمه خمسة مكاييل ، ولم أجد فى ذلك شيئا من المشقة ، فالفقراء لايعرفون القراءة ، ولا يمتنعون عن تقديم أصابعهم ليبصموا بها ، حتى الذين يعرفون القراءة منهم ، يوقعـــون بلا مناقشة ولا اطلاع على أية وثيقة تقدم اليهم ، تأثرا بالمعروف الذى يسدى لهم ! ..

ولما فرغ « كابتاح » من هذا الحديث الطويل ، ضم احدى ذراعيـه بالأخرى ، ورفع صدره فى مباهاة ، متوقعا أن يسمع منى المديح والاطراء ولكنى كنت قد استغرقنى التفكير فى المعانى التى أستخلصها من حديثه وخرجت من تفكيرى لأوجه اليه هذا السؤال : هل نملك ـ اذن ـ كميات كبيرة من القمح ؟! ..

فأومأ « كابتاح » برأسه ، علامة الايجاب ، وظل صامتا فى انتظـار المدائح التى يراها من حقه ! .. ولكنى استطردت قائلا : اذا كان الأمر كذلك ، فعليك أن تعجل بالذهاب الى أولئك الزراع التعساء الذين يزرعون هناك فى الارض الملعونة ، وتوزع عليهم من القمح ما يحتاجون اليه فى زراعة أرضهم ، فليس لديهم منه شىء ، وكل ماكان لديهم منه ، عندما مررت بهم ، لا يصلح نباتا لزرع ، ولا غذاء فى طعام ، فقد كان خليطـا مشوها فى لون الدم ، وقد انخفضت الآن مياه النهر ، وهذا أوان الحرث والزرع ، فعجل لتنفيذ ما أمرتك به ، فالوقت أضيق من أن يتسع للتمهل والابطاء ! ..

فاتسعت عين « كابتاح » ، وهو ينظر الى وجهى محملقا ، وحرك رأسه مشفقا ومستغربا ، وقال : هذه شئون صغرى لا ينبغى أن تشغل بها رأسك الكبير ياسيدى دعها لى لأفكر فيها بالنيابة عنك . والرأى عندى أن الذى تشير به ليس من عملنا نحن ، فاننا ـ نحن التجار ـ نتعامل مع الزارعين باقراضهم القمح لفقرهم ، على أساس أن يردوه الينا مضاعفا ، وهم بحكم حاجتهم لا يأبون ذلك ، بل يرحبون به ، فاذا عجزوا ألزمناهم ذبح مواشيهم لناخذ جلودها وفاء لديوننا ، وهنا مصدر الربح والانتفاع. ولا يكون أمرنا هكذا معهم اذا مازاد محصول زراعتهم ، فانهم عنــــدئذ يصبحون فى غنى عن معاملتنا ، ومن مصلحتنا ـ كتجار ـ أن تترك الأرض بغير زرع على قدر الامكان ، فينشأ من هذا ارتفاع كبير فى سعر القمح .

وتفيد من ذلك فائدة لها قيمتها في حساب التجارة ، فلا ينبغي أن تكون من البلاهة الى حد أن تعطى هؤلاء الزراع قمحا حسنا ليستخدموه في زراعة أراضيهم ويحصلوا من طريقه على غلة وافرة ، فذلك معنـاه أننا ، بمحض ارادتنا ، نلقى بما فى أيدينا من أرباح مضمونة الى البحر أو نقذف بها في مجرى الهواء ! ..

فقلت له منفعلا : ولكننى لا أتحول ، بالرغم من هذا ، عن موقفى فافعل ، يا « كابتاح » ما أمرتك به ، ولا تجادلنى فان القمح يخصنى ، ولا أحد سواى يملك التصرف فيه ، وليس يعنينى الآن التفكير فى الأرباح التى تحرص على ذكرها ، وانما الذى يتجه اليه كل تفكيرى هو أمر أولئك الرجال المساكين الذين استبد بهم الضعف والهزال وبرزت ضلوعهم من ثنايا جلودهم كما لو كانوا يعملون فى المناجم تحت سياط الجند القساة وهؤلاء النسوة الضارعات اللائى تتدلى أثداؤهن على صدورهن ضامرة كأنها الأشنان الجلدية لسقيا الماء بعد فراغها منه ! .. ومن وراء أولئك وهؤلاء ، أطفالهم المرضى يسهرون على شاطىء النهر مقوسى السيقان ، واهنى العظام ، مهلهلى الثياب ، وعلى وجوههم وحول عيـونهم يحتشـد الذباب والقذى والتراب ! .. فلست بازائهم تاجرا يطلب الربح عـلى طريقتك بالحق وبالباطل ، وانما أنا مواطن وانسان ، وأشعر بأن لهم فى مالى حقا ، وعلى ذلك يجب أن تبادر الى تنفيذ ارادتى ، بتوزيع القمح بينهم ليزرعوه ، ويجب كذلك أن تساعدهم بكل ما فى الطاقة من وسـائل الزرع ، ليتبتوه بأرضهم نباتا حسنا ، فانهم أحوج ما يكونون الى هذه المساعدة لقلة خبرتهم بأساليب الزراعة ، ولست أدعوك الى أن تعطيهم القمح منحة بغير مقابل ، فذلك من شأنه أن يفسد حالهم ويضـاعف ماهم فيه من استخذاء وتواكل ، وقد عرفت أن الهدايا والمنح السـهلة التناول تنفث الغباء والكسل فى هؤلاء وأمثالهم ، ولقد أعطوا أرضـا وماشية بلا مقابل ، ففشلوا . ولهذا يجب أن تلاحقهم وتتعقب أعمـالهم وتلهب هممهم بعصاك اذا اقتضى الأمر ذلك، فهذه هى الوسيلة التى يحسن استعمالهـا لنبلغ بها الغـاية المرجوة ، استصلاحا للأرض واجادة للزرع ووفرة فى الانتاج ! .. وسيكون سهلا عليك بعد هذا أن تسترد منهم القمح الذى أعطيتهم اياه ، على انى لن آذن لك فى أن تأخذ أكثر ممـا أعطيت ..

ولكن « كابتاح » كان يسمع لى فى حزن بالغ . ولشدة انفعاله ، كان يمزق ملابسه ويبكى ، ثم يقول معقبا : لا آخذ أكثر مما أعطيت ؟! .

تعنى مكيالا بمكيال ؟! .. فأى جنون هذا يا سيدى ؟! .. وماذا أفيد أنا من ذلك ؟! واذا لم يكن ثمت ما أصيبه من أرباحك ، فمن أى شىء اذن يكون جزائى وأجر عملى ؟! .. ان فى هذا الذى تأمر به ظلما صارخا ، وكان عليك أن تفكر فى سوء عاقبته . ولست أدرى كيف غاب عنك أننى بذلك سأتعرض الى عداء مزدوج ، عداء تجار الغلال المنافسين لى ، وعداء كهنة «آمون» ، فان عملنا ــ على الصورة التى ترسمها ــ يعد حربا سافرة عليهم ، وما لنا بعداوتهم طاقة . وانى لأقول لك هنا ، فى صراحة كاملة حيث لايسمعنا أحد : ان « آمون » لايزال حيا ، وقوته اليوم أشد مما كانت فى أى وقت مضى ! .. وهو يصب لعنته على بيوتنا وسفننا ومخازننا وحوانيت تجارتنا ، وحتى هذه الحانة لاتنجو من لعنته . ومن أجل هذا أرى من الحكمة أن أنقلها الى اسم « ميرييت » ، ولعلها لا ترفض ذلك ، حفظا للمكان الذى نحبه جميعا ! .. وقد عرفت الآن أننى كنت بصيرا بالعواقب ، مقدرا لأسوأ الاحتمالات عندما أدخلت ثروتك تحت أسماء أخرى ، فانها بهذا التوزيع والتعدد ستبقى بعيدة عن أفكار كهنة « آمون » ، وبالتالى بعيدة عن لعناتهم ! ..

ومضى « كايتاح » يثرثر هكذا ، محاولا أن يثنينى عن موقفى ، فلما رآنى مصمما لا أتزحزح عنه ، أخذ يسب ويلعن ويهذى كمن أصابته جنة ، ويقول : أسفى عليك يا سيدى ، فأغلب ظنى أنك مصاب بعضة كلب مسعور ، أو بلدغة ثعبان هائج ، فما يقول قولك هذا انسان عاقل ! وكنت أحسبك بادىء الأمر مازحا ، فالآن وأنت تركب رأسك عنادا واصرارا على الخطأ ، لا أستطيع مجاراتك فى هذا السبيل ، لأن ذلك يفضى بنا الى الفقر المحقق ، ولن يمدنا الجعران المقدس بمساعدته لأنه يضن بها على الذين يلقون بأيديهم الى التهلكة ! .. هذا الى أننى لا أطيق رؤية الفقراء ، وحينما ألقاهم فى الطريق أشيح بوجهى عنهم فرارا من النحس الذى يلازمهم ، وأنت حرى أن تكون كذلك بغضا لهم ، فما نحن بموكلين بهم . وكل امرىء مسئول عن نفسه وحدها ! .. ولقد فكرت أنا فى مساعدتهم ، قبل أن يخطر ذلك على بالك ، ولكنى تصرفت فى ذلك تصرف العقلاء ، فوزعت عليهم كميات من القمح من غير ثمن ، لأظفر بأضعاف قيمتها فى حساب الضرائب ، فما من شىء فى هذه الحياة يبدأ وينتهى من غير نتيجة ولا أثر ولا جزاء ! .. فكيف ، بعد هذا ، وبعد الذى عرفت من كراهيتى لرؤية الفقراء ، تدعونى الى الانتقال اليهم فى مزارعهم البعيدة وقراهم النائية ؟! .. اننى لن أستطيع ذلك بحال ، فانما أنا رجل عجوز

مجهد ، اذا مشيت في طريق تعثرت ، ولهثت تعبا ، فلا قبل لى ــ اذن ــ بالسفر الطويل ، والخوض فى الأوحال ، والسقوط فى حفر مياه الرى . ولو أنى أطعتك ، فمعنى هذا أننى قد رضيت لنفسى موتا لانجاء منه ولا مهرب ! .. ولكننى أرفض الدعوة الى الموت ، لأننى مازلت مستمتعا بسلامة عقلى ! .. اذكر ياسيدى ــ عافتك الآلهة ــ أن أنسب مكان لى ، فى مثل ظروفى وسنى ، هو هذه المدينة ، والموضع الوحيد الذى آوى اليه كل مساء ، هو فراشى الوثير فى حجرة نومى الهادئة ، والطعام الذى تسيغه معدتى الهرمة ويمتلىء به جوفى الواسع ، هو ما تطهوه « ميوتى » بيدها الصناع ! .. فبحق الآلهة ، لاترهقنى من أمرى عسرا يا سيدى ! ..

ولكن مقالة « كابتاح » لم تحرك عندى ماكان يترقبه من رثاء لحاله واشفاق عليه ، فقلت له : لقد صرت الآن ياهذا أكثر افتراء وكذبا منك فيما مضى ! .. فانك ، على خلاف ما تزعم ، تبدو الآن أشد فتوة وأوفر عافية ، وقد انجابت عن يديك الرعشة التى كنت أراها من قبل . وهذه عينك أحد وأصفى مما كانت ، ولا تتعلل بمايشوبها فى هذه اللحظة من الاحمرار ، فانها لم تكن كذلك قبل أن تكثر من شراب النبيذ ! .. وانى ــ كطبيب وبدافع من الحب الذى أكنه لك فى قلبى ــ ادعوك الى هذه الرحلة ، علاجا لما أصابك من هذه البدانة المفرطة ، لأنك لو بقيت عليها هنا ، فستضغط ضغطا قاتلا على قلبك ومجارى التنفس فى صدرك ، وتحيا ، ان قدر لك أن تحيا ، شقيا معذبا بآلامها القاسية ! .. فرحلتك هى علاجك الناجع ، وستعود منها خفيفا نشطا ، وثيق الأعصاب ، مشدود العضل ، تاركا هناك هذه البدانة المرهقة التى تذهب بهيبتك ، والتى لاشك فى أننى أشعر بالخجل كلما رآك الناس عليها ، فليس مما يرضينى أن يشيروا اليك قائلين فى سخرية : هذا « كابتاح » خادم « سنوحى » ، لقد تحول من انسان الى ثور ! .. ومع ذلك فما أنت بالغريب على هذه الرحلة ! .. افلا تذكر كيف كنا نستمتع بعناء السير فى طرق « بابل » المتربة ؟! .. وهل نسيت ماكنت تعانى من المشنقة وأنت تعلو ظهور الحمير ، متسلقا بها المسالك الضيقة فى جبال لبنان ؟! وماذا كانت حالك فى « قادش » ؟! كل هذا قد كابدته ، ومرنت عليه ، وألفت الحياة فيه ، وأهون منه وايسر ، أن تقضى بعض الوقت بين الزراع ، وهم مواطنونا ، وفى بلادنا ، وقراهم منا غير بعيدة ، واقسم ، انه لولا ما اضطلع به هنا من أعمال هامة ، نائبا عن « فرعون » ، لما تخلفت عن مرافقتك فى هذه

الرحلة التى ستكسبك المجد والفخار ، ويذكر الناس اسمك فيها مقرونا بالاعجاب والثناء ! ..

وعند هذا انتهى جدالنا ، فقد استنفد «كابتاح» كل ما استطاع من حجج لاقناعى بالعدول عن رأيى ، فاستسلم مرغما ، وعدنا الى ما كنا فيه من سمر وشراب ، وكانت «ميرييت» تشاركنا كأسا بكأس ، وهى يقظى فى رقدتها المثيرة ، وكنت لا أنفك ، بين لحظة وأخرى ، أنحنى عليها لاقبل صدرها الجميل ، بينما راح «كابتاح» يستعيد الى ذاكرته طرق «بابل» وبيادر (أجران) بلاد مابين النهرين ، وقد ردنى منظره هذا ، الى ذلك الماضى الحافل بالاحداث والذكريات ، فذكرت « مينيا » وما قاسيت فى سبيل حبها ، ولم ينسنى ذكراها اننى الى جانب «ميرييت» الفتاة التى احببتها كذلك . ان ميرييت الآن عزائى وسلواى ، وعلى فراشها أحسست بالدفء يملأ جسمى ، ولم اعد أشعر بأنى وحيد ، وهى تبادلنى عاطفة بعاطفة وشعورا بشعور ، وقد تمنيت أن تكون شريكة حياتى الى الابد ، ولكنها أبت أن أكسر الجرة بينى وبينها ، قائلة انها فتاة حانة ، وانى - لشهرتى ومكانتى - أكبر من ان أكون زوجا لها ، على أنها كانت تعطينى من نفسها أقصى ما تعطى امرأة رجلا ، راضية منى بالصديق مكان الزوج ، وأكبر ظنى أنها آثرت بذلك أن تظل حرة ، غير مقيدة بقيود الزوجية ، وقد قنعت أنا بذلك ، ورضيت به !..

- ٤ -

كان من واجبى فى اليوم التالى أن أمضى الى بيت «فرعون» الذهبى ، لاقابل الملكة الوالدة التى أطلق عليها اهل « طيبة » جميعا اسم الساحرة السوداء !.. ولم يمنع من ذيوع هذه الشهرة لها أنها كانت تتصف بصفات اخرى طيبة ، فقد كان كل ما يعرف عنها ، لدى الشعب ، انها امرأة قاسية ، وعجوز ماكرة متآمرة !..

وما ان ذهبت الى السفينة ، لاستبدال الرداء التيلى الفاخر بملابسى ، وتقلد الشارات ذات الدلالة على رفعة مكانتى ، حتى وافتنى الى هناك ، الطاهية «ميوتى» ، وقالت لى فى انفعال : لقد سرنى يا مولاى أن تعود الى موطنك ، ولكن مالا يسرنى أنك تقضى ليلك كله فى بيوت الملذات ، ثم لا تلم بمنزلك فى الصباح لتتناول الطعام ، مع اننى عكفت على اعداده وبذلت جهدا كبيرا لينال رضاءك !.. نعم لقد ظللت طول الليل ساهرة

أنضج الخبز ، وأشوى اللحم ، وأستحث الارقاء الكسالى لينظفوا المنزل ، حتى أصابني من ذلك الكلال والتعب !٠٠ فهل يليق بك أن تتركني هكذا عانية مجهدة من أجلك ، منصرفا الى ملذاتك ، وناسيا أن لك دارا مشوقة اليك ، وطاهية يسعدها أن تطعمك ؟!٠ ولكن ، لا عجب ، فأنتم هكذا معشر الرجال ، وكنت قد فقدت ثقتي بكم ، ولا أستطيع ، بعد تصرفك هذا ، أن أغير رأيي فيكم !٠٠

وأردفت قائلة : فهيا بنا الى المنزل ، فقد أعددت لك الطعام ، ويجب ان تتناوله ٠ فان كنت لا تقوى على مفارقة تلك المرأة التي فتنتك وأخذت بلبك ، فأت بها معك ، فاني لا أضيق بوجودها الى جانبك على مائدة الطعام !٠٠

كانت هذه هي عباراتها ، وكان وقعها على قلبي لطيفا ، فقد تعودت منها هذه الطريقة في التعبير ، وكنت أعلم انها معجبة « بميرييت » ولا تبغضها ، ولهذا قررت أن أعود الى المنزل نزولا على رغبتها المخلصة ، وأرسلت على الفور رسالة الى «ميرييت» أدعوها فيها الى موافاتي هناك، وعدت مع «ميوتي» راضيا مغتبطا ٠ والى جانب المحفة التي كانت تحملني سارت تجر رجليها وهي لا تنقطع عن الثرثرة ، فتقول : كنت أظن أنك أصبحت أكثر تعقلا واتزانا وحسن سلوك ، من ذي قبل ، لانك قضيت سنين عدة في جو الاسرة الملكية ، ولكنني تبينت آخيرا أن هذه البيئة لم تغير منك شيئا ، بل لعلك قد عدت أسوأ طباعا وأخلاقا مما كنت !٠٠ على أنه تلوح عليك آثار واضحة من النعمة والراحة ، ومنذ الآن ألفت نظرك الى أنني لن أكون مسئولة عما قد تفقده هنا من هذه الآثار الطيبة ! ٠٠ وانما ستكون وحدك المسئول عن ذلك ، لسبب بسيط ، هو سلوكك المشين الذي يودي بالصحة والمال ، وكما أعتقد دائما ، فأن الرجال جميعا متشابهون في سوء السلوك ، وكل ما في العالم من شر انما ينبعث من تلك الضعة الخفية فيهم !٠٠

وخلال هذه الثرثرة المتصلة ، تذكرت أمي « كيفا » ، فأسيت عليها وكادت الدموع تطفر من عيني ، فصحت في وجهها قائلا : كفى ! ٠٠ اقفلي فمك أيتها المرأة ، فحديثك هذا السليط يقطع أفكاري ويقع على أذني كأنه طنين الذباب !٠٠

فصمتت في الحال ، ولكنها كانت بادية السرور لانها استطاعت أن تخرجني من سكوتي العميق لأصيح في وجهها ، فقد شعرت عندئذ أن سيدها كان مصغيا ، يتابع حديثها ، وهذا حسبها !٠٠

وأبهج خاطرى منظر الدار حين بلغناها ، فقد كانت أعمدتها موشاة بباقات الزهور والورود ، كما كانت حديقتها مزدهرة منسقة ، ورحبة الشارع التي تمتد الى مسافة بعيدة قد نظفت تنظيفا دقيقا ، فلا أتربة ولا أقذار !٠٠ كل هذا قد فعلته «ميوتى» من أجلى ، ولم تقنع بذلك فاستأجرت أطفالا تجمعوا لاستقبالى على الطريق هاتفين : مرحبا ، مرحبا باليوم الذى عاد فيه مولانا الى داره ! ٠٠

وكانت «ميوتى» تعنى بذلك شـيئا غير تجمعهم وهتافهم ، كانت تريد أن تعبر بهم عن حسرتها لانى لم أنجب أطفالا ! ٠٠ انها تود ، بجدع الانف ، أن يكون لى أولاد حتى لو لم تكن لى زوجة !٠٠

ونفحت الاطفال نقودا نحاسية ، ووزعت عليهم « ميوتى » فطائر محلاة بالعسل ، فانصرفوا سعداء فرحين !٠٠

وبعد قليل جاءت « ميرييت » ، وكانت تضع على شعر رأسها الذى يتنفح بالزيت ذى الرائحة المعطرة ، ورودا زاهية الالوان ، مما زادها فتنة وسحرا ٠

وجلست الى جوارى على مائدة الطعام الذى صنعته « ميوتى » ، فتناولناه لذيذا شهيا ٠ والحق أنه ليس كطعام « طيبة » طعام ٠ وكثيرا ما كنت أحن شوقا اليه وأنا فى « أخيت آتون » ٠٠

وشكرت « ميوتى » ، وامتدحت مهارتها ، فسرها ذلك منى ، ونظرت فى عبوس الى «ميرييت» لانها لم تقل شيئا ، ومازالت عابسة الى أن تنبهت «ميرييت» فأغدقت عليها المديح والثناء !٠٠

ولست أدرى ما قيمة أن أذكر هنا طعاما طعمناه فى منزلى ، فذلك امر يبدو غير جدير بالذكر والتنويه ؟! ولكن الذى أدريه اننى كنت خلال هذه الفترة الخاصة أحس بالسعادة تملأ قلبى ، وأود لو تمهل الوقت ٠ وتوقف جريان ماء الساعة حتى لا تنتهى هذه السعادة مسرعة عجلى !٠٠

وتوافد على منزلى أثنـاء وجودى به ، بعض سكان الحى الفقير ، وكانوا يرتدون أحسن ملابسهم ٠ أقبلوا ليقدموا تحيتهم لى ، وليعربوا عن رجائهم فى ان أبقى لاخلصهم من آلامهم وأوجاع أمراضهم ، وكانوا يقولون : لقد غبت عنا طويلا يا « سنوحى » ، ولم نكن نعرف أنك تارك فينا فراغا موحشا لا يملؤه غيرك ، ولا يؤنسه سواك ، ولكننا عرفنا هذا بعد أن فارقتنا ، وطال بعدك عنا ! ٠٠ اننا لنستروح فى عودتك الينا ريح العافية والسلامة ، فقد ظللنا طوال غيبتك نهب العلل والأمراض ، لا نجد

من يحفل بنا معالجا أو مواسيا ، فكم نحن سعداء بك الآن أيها السيد الـــكريم ! ..

هكذا كان هؤلاء الفقراء يستقبلونني ، ويقـــسمون لى فى الوقت نفسه ، فرحين ، هدايا متواضعة ليست بذات بال من ناحية الكم والنوع، ولكنها كانت عندى كبيرة القيمة ، لدلالتها على صدق عواطفهم اذ كانت اقصى ما يستطيعون تقديمه لانسان يحبونه ملء قلوبهم فى ذلك الوقت.. فقد أصبحوا أشد تعاسة وفقرا مما كانوا عليه من قبل ، ولم يكن ذلك غريبا ، فما أكثر ما أرى من علامات التعاسة والفقر فى هذا العهد ، عهد «أخناتون» والهه الجديد !..

انهم كانوا ينبعثون فى ابتهاجهم بقدومى واحتفالهم بتحيتى ، عن شعور وفاء لا شبهة فيه ولا تكلف ، فانهم جميعا ، أو أكثرهم ، كانوا قد عولجوا من أمراضهم على يدى وبرئوا منها ، وانتهت حاجتهم الى طبى ، فليس فى أمرهم اليوم الا التقـــدير والوفاء والاعتراف بالفضل ، وتلك خلة من خلال الخير ، قلما توجد الا فى مثل هذا المجتمع من الفقراء !..

لقد رأيت من بينهم ذلك الكاتب الهرم الذى كان قد أوشك أن يموت معذبا بالدمامل التى أصيب بهـــا فى عنقه وشفتيه ، واستحالت بؤرة صديد تنفث فى بدنه سما قاتلا ، فأبرأته منها !.. وقد طابت نفسى كثيرا لانى لقيته أخيرا فى قيد الحياة موفور الصحة ، رافعا رأسه الذى كان قد أحنـــاه ذلك الداء الخبيث ، وهو يشير اليه ــ مسرورا ــ اشارة الثناء والشكر !..

ورايت من بينهم ، كذلك ، صاحب الاصـــابع المهشمة التى كنت عالجتها وقومت ما اعوج منها ، وكان يحركها ويطويها وينشرها ، وينظر فيها نظرات البهجة قائلا : هذه بعض فضلك علينا ! ..

وكانت فيهم امرأة تدافعهم لتلقانى محيية ومعها ابنها الذى كان قد انهكه المرض واضناه السقم ، وغشيت عينيه كدمات ســـوداء ، وأدمت رجليه قروح سامة ، انها تعرضه الآن تحت نظرى صحيح الجسم قوى البنية حاد النظر ، داعية لى بالخير والسعادة لانى كنت سببا فى انقاذه من الموت ، وقال لى ولدها مزهوا انه يستطيع اليوم أن يصرع أى طفل فى مثل سنه من أبناء الجيران !..

وكذلك كانت فيهم تلك الفتاة التى كنت قد داويت عينيها بعد أن كادت تفقدهما ، فلم تر من وسائل التقدير لمهـــارتى الا أن ترسل لى

فتيات اخريات من بيوت الدعارة لأزيل من أجسادهن آثار الحمل والولادة وبعض الزوائد الجلدية ، وهى تشويهات جسدية يردن التخلص منهـــا حتى لا تقذعهن العيون فى حرفتهن القذرة !٠٠ وقد كرهت منها ومنهن هذا العرض المرذول ، ورأيت فيه يومذاك اساءة الى سمعتى ٠٠٠ ولكنها مع ذلك جاءت لترحب بى مسرورة ٠ وقد علمت أنها لم تعد تلك الفتاة الفقيرة ، فقد أصبحت تملك حماما كبيرا بجانب السوق ، وتتجر تجارة رابحة فى العطور ، وتقود التجار الوافدين وطالبى المتعة الجنسية الى الفتيات الجميلات !٠٠

وقلن جميعا : نتوسل اليـك أن تتقبل هدايانا هـذه الصغيرة ولا تزدريهـا ، فانك ان تكن طبيب « فرعون » ، وتقيم فى بيتـه الذهبى ، وصاحب المقام المرموق فى حاشيته الملكية ، فاننا قبل هذا جيرانك وأقرب الناس اليك ، وأهل مودتك ، ولا يضيرك منا اننا مازلنا فقراء !٠٠ فانت كما عهدناك ، صاحب القلب الرحيم ، ولا بد أن قلبك هذا لم يفارقك ، وما دام لا يزال فى مكانه فهـو منا غير بعيد !٠٠ ولنا عندك بعد ذلك رجاء ، هو ألا تذكر لنا شيئا عن الاله « آتون » ، فان مجرد ذكره يكدر صفو سعادتنا بلقائك !٠٠

وكما أردن ، تقبلت هداياهن مظهرا ارتياحى اليهـا ، ولم أتحدث اليهن فى شىء يتصـل « بآتون » ، وانما أقبلت عليهن ، هاشـا راضيا ، وأخذت أعرضـهن واحدة بعد الأخرى ، مستمعا الى شكاياتهن ومتفحصا أبدانهن ، ومعـالجا ما أجد من أمراضهن ، بالعنـاية نفسها التى الفوها منى ٠ وقد شاركتنى «ميرييت» فى ذلك ، فنضت عنها ملابسها الأنيقة ، وأخذت تغسل الجروح وتعقم المباضع فى النار ، وتخلط العقاقير التى أستعملها فى تخدير اللائى اقتضت حالتهن أن أنزع أسـنانهن الملتهبة ، وكانت «ميرييت» ، وهى تؤدى عملها بجوارى ، مندمجة فيه ، ناشطة له ، تلوح فى عينى أكثر جمالا وأشد فتنة ٠ وقد أعظمت فيهـا هذا الروح الانسانى الكبير !٠٠

كنت سعيدا بها ، مثلما كنت سعيدا بهن ٠ ولم يؤسفنى أن النهار قد انقضى ، بل لقد وددت الا ينقضى لتطول سعادتى «بميرييت» المحبوبة الى جانبى ، وبهؤلاء المرضى الأصدقاء أطب لهن ، وأخفف من آلامهن ! ٠٠

وقد انسانى ذلك موعدى مع الملكة الوالدة ، فلم أذكره الا عنـد انصراف آخر مريض ٠ وهنا أخذت « ميرييت » تصب المـاء على يدى وتساعدنى فى ارتداء ملابسى ، وكذلك فعلت لنفسها ٠ وقد تلألأ وجهها

بالبشر والانشراح ، فملت عليها متحسسا خديها بيدى ومحاولا أن اقطف بشفتى زهرة من فمها الجميل ، ولكنها ذادتنى عنها برفق قائلة : أنسيت ساحوتك السوداء ؟! عجل بزيارتها يا « سنوحى » لتعود قبل حلول الظلام ، وستجد فراشى بانتظارك ، وانه لمشوق اليك ، وان كنت لا أدرى لماذا هذا الشوق ، فان أطرافك قد تراخت ، وجسدك اعتراه الترهل ، وابترد فيك ذلك اللهيب الذى كنت أستشعره كلما ضمنا مضجع واحد ؟! • ومع هذا ، فأنت فى عينى تمتاز عن سائر الرجال !••

وكانت ، وهى تقول هـذا ، تضع حول عنقى شارات الشرف ، وتثبت فوق رأسى قلنسوة الشعر المستعار ، وتداعب خدى بلمسات لطيفة ، قوية الاغراء !••

وفى عجل ، قصدت الى الملكة ، مستحثا حاملى المحفة ، ومن بعدهم مجدفى القارب ، فبلغت ميناء القصر مع مغيب الشمس خلف التلال الغربية ، حيث بدأ يظهر أول نجم فى السماء !••

وقبل أن أعرض هنا حديثى مع الملكة الوالدة ، أذكر انها خلال السنوات الاخيرة لم تزر ابنها فى مدينة «أخيت آتون» الا مرتين ، وفى كل مرة منهما كانت تعيره بجنونه • وكان هو يضيق بذلك أيما ضيق ، ولكنه لم يكن يفعل شيئا يغضبها ، لانه أحبها حبا أخفى سيرتها عن عينيه ، وغالبا ما يكون الأبناء مقفلى العيون عن مثالب أمهاتهم ، الى أن يتزوجوا ، فيرون عن طريق زوجاتهم ما لم يكونوا قد رأوا !•• ولكن «نفرتيتى» لم تشأ أن تفتح عينى فرعون «أخناتون» رعاية لحق أبيها ، الذى هو فى الوقت عينه عشيق أم زوجها !••

وكانت علاقة الملكة « تايا » بالكاهن « آى » قد صارت حديث كل انسان ، ولم يعد شىء من اتصالاتهما المخزية خافيا على أحد ، فهما — فى ذلك الوقت — يعيشان فى حرية واسعة غير محتشمة ، لا يتحرجان منها ، ولا يحاولان اخفاءها ، حتى قال الناس : ان البيت الملكى لم يشهد فيما مضى عارا مفضوحا كهذا العار !•• وكان ذلك خليقا أن يثير الشك فى دم فرعون «أخناتون» ، فليس بعيدا أن تكون أمه ، وهذا سلوكها ، قد ولدته من دم غير فرعونى !•• ولعل ذلك أن يكون سر تصرفاته الغريبة المجافية لمنهج أبيه وعقيدته !•• ومن هنا تلقف الكهنة دعواهم بانه فرعون زائف !••

ذلك ما كان يقال ، وتلهج به الألسنة خفية وجهرا • ولكنى كنت

بينى وبين نفسى ، لا أصدقه ، مؤثرا أن أظل على ثقتى بأصل « فرعون » وصحة نسبه ، فهـــذا عندى خير من فجيعة الشك ، وخير من مســايرة الكهنة فيما تدفعهم اليه أحقادهم على «فرعون» وعداواتهم له !٠٠

واستقبلتنى الملكة الوالدة فى حجرة خاصة ، حيث الطيور الصغيرة مقصوصة الأجنحة تغرد فى أقفاصها ، فقد كانت الهواية المحببة عنـد الملكة ، أن تصيد الطيور ، فى حديقة القصر ، وتشذب فروع الاشجار ، وتصنع منها أقفاصا أو شباكا ، جارية بذلك على عادتها فى شبابها !٠٠ وثمة هواية أخرى ، كانت لا تنفك تمارسها ، هى جدل أعـواد الغاب والسمار الرفيعة الملونة ، لتجعل منها مفارش كالسجاجيد ، وقد رأيتها حينما دخلت حجرتها ، منكبة على صنع حصير من هذه الاعواد ٠

وفى لهجة حادة ، عابت على تأخرى عن مقابلتهـــا ، وسألتنى ، باللهجة نفسها ، قائلة : أو لم يشف « أخناتون » بعد من جنونه ؟! ٠٠ واذا لم يكن قد شفى منه ، فمتى اذن تفتح جمجمته ؟!٠٠ انه لا يزال يحدث ضجة كبيرة حول الهه « آتون » ، ويثير بذلك مشاعر السخط عند الشـعب ، وهــذا شىء لا تبرره حكمة ولا تدعو اليه الآن حاجة ، بل العكس هو الذى ينبغى أن يكون ، فقد انهار «آمون» ولم يبق من ينازع « فرعون » فى سلطانه ، ففيم هذا التهور المثير ؟! ٠٠

فأخبرتها ، متلطفــا ، عن حال ابنهـــا « فرعون » ، وعن الاميرات الصغيرات ، وكيف يقضين أوقاتهن مرحات فى ملاعبة الغزلان والكلاب ، والتجديف بالبحيرة المقدسة فى « أخيت آتون » ٠

فهدأت الملكة الوالدة ، وانقشعت عنها سحابة الانفعال والحدة ، وأذنت لى فى الجلوس عند قدميهـــا ، وقدمت لى شراب الجعـة ، وهو الشراب الذى تؤثره على النبيذ ، وقد أخذت تتناوله معى ٠

وفى نشـــوة الشراب ، راحت تخرج من اطار الحذر والتزمت ، وتنطلق متحدثة فى صراحة تامة ، وأحسست اذ ذاك أنى بموضع ثقتها الكاملة ٠ وأكبر ظنى أن ذلك كان بسبب أنى طبيب ، فالأطباء مستودع الأسرار ، وللنساء بخاصة ثقة كبيرة فيهم ، وهن لذلك يطلعنهم على خفايا أمورهن مطمئنات ، ولا تختلف الملكة « تايا » فى هذا عن غيرها من النساء ! ٠٠

قالت : « سنوحى » ! أيها الرجل الذى أطلق عليه ابنى فى نزوة طيش اسم « الوحيد » ، فما أرى فيك أثرا من تلك الوحدة المدعاة ،

فانك لرجل وديع حقا ، وعليك سمات واضحة من طيبة القلب ، ولكن قل لى : ماذا يمكن أن يفيده الرجل من طيبة قلبه ؟ ! ٠ ان الأغبياء العاجزين هم وحدهم طيبو القلوب ، لانهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا آخر !٠٠ أقول هـذا عن تجـربة ودقة ملاحظة ، وليـكن رأيك ما يكون فى ذلك ، فالمهم عندى أننى أشعر أن لقاءك قد خفف عن نفسى كثيرا مما يثقل عليها ! ٠٠ ان « آتون » هذا الذى صنعته بدهائى ومقدرتى ، وسمحت له ، فى حماقة وسوء تقدير ، أن يلى الأمر كله ، ويقبض على مقادير السلطة بأجمعها ، قد أصبح مصدر عنائى ومشغلة بالى ، وكان ينبغى ألا يكون أمره هكذا معى ، فانما كان هدفى حين ابتدعته الها ودينا وصاحب سلطان ، أن أحطم به « آمون » ، وأستخلص به القوة لى ولولدى ، ومن وراء هـذه القوة لـكلينا ، السـعادة والأمن والراحة الضافية ، ولكن أين أنا الآن من هذا كله ؟ ! ٠٠ على أنه من الحق أن اقول اننى لم أكن وحدى فى صنع هذا الاله الجديد ٠٠٠ لقد كان « آى » أول من فكر فى ذلك ، ثم مضى معى فى الخلق والتكوين ، وتخطيط الوسائل والأهداف ٠ وما يضيرنى أن تعلم أنه زوجى ، وان لم تكن الجرة قد كسرت بيننا ، فذلك شيء لم يكن مستطاعا ! ٠٠ واذن ، فهذا التعس « آى » الذى ليس فيه من علامات الرجولة الا هدابة تشبه خلف البقرة ، هو الذى انشق عقله عن «آتون» ، وجاء به من « هليوبوليس » ، وأدخله فى رأس الفتى ، ومازال به حتى اسـتبد بكل تفكيره وكل حواسه وأعصـابه ، ولست أسـتطيع — من جهتى — أن أحدد معالم العقيدة المستقرة فى قلب ولدى لالهه « آتون » ، ولا أن أحدد كذلك مدى ما لهذه العقيدة من أثر فى تصرفاته ،٠ ذلك لأنه منذ طفولته كان مضطرب الأعصـاب ، وكثيرا ما كانت تنتابه أحلام اليقظة ، وتشرد بأفكاره وأخيلته شرودا بعيـدا ، فليس غريبا — اذن — أن يكون لطفولته المضطربة علاقة بعقليته فى شبابه فى أحكامه ٠ ومما يثير الحيرة فى نفسى أن زوجته الجميلة ، ابنة « آى » ، لا تلد له الا اناثا ، الواحدة فى اثر الأخرى ، مع أن السحرة المخلصين قد بذلوا أقصى ما فى وسعهم لمساعدتها فى انجاب ولد ذكر ! ٠٠ فأية نكسة هذه التى ينتكسها ولدى ؟ ! ٠٠ وعلى ذكر السحرة ، لا أدرى لماذا ينقم الناس منى أن جمـاعة منهم تحيـا معى وتلتف حولى ؟!٠٠ ان هؤلاء لدى بمثـابة كنز غال ، ولا يفرط أحد فيمـا يؤتاه من كنوز غاليـة ٠٠ وانى لذلك ، حريصة على رفقتهم ، وما لى عنهم غناء ، فان أحدا لا يعرف معرفتهم فى تدليك أقدامى ، وهم وحدهم القادرون على تزويدى بالعقاقير التى

تهيىء لى المتعــــة واللذة ، بل انى لاصرح لك أكثر من ذلك بأنهم هم وحدهم الذين يشبعون غريزتى كامرأة ! ‥ وليس صحيحا ما يبدو لك . وما قد يبدو لغيرك أيضا . من أن علاقتى «بآى» قمينة أن تغنينى عن مثل هؤلاء ، ســــود الوجوه ، ذوى الشفاة الغليظة ، الذين يضعون حلقات العاج فى أنوفهم ، فان « آى » أعجز من أن يبلغ مبلغهم فى هذا المجال ، وكان يجمل بى أن أدعه يهوى ويموت ، ولكن لماذا أفعل ، وحياته لا تضايقنى ؟ ! ‥

واستطردت تقول فى مثل ثرثرة عجائز النسوة ، وهن يغسلن الملابس على حافة النهــر . ثم ان هــؤلاء الزنوج الــذين أحدثك عنهم يا « سنوحى » ، أطباء من الدرجة الأولى ، وقد جهلهم الناس فسموهم سحرة ، حتى أنت الطبيب ذو العلم والمعرفة .! ‥ على أنك لو لقيتهم ، فسوف تصيبمنهم مزيدا من العلم والمعرفةوتدرك أن تسميتهم بالسحرة ليست من الحق فى شىء ، وبوصفك طبيبـــا ، لا تفشى سرا ، أصارحك اننى من حين الى حين ، أظفر عندهم بالمتعة التى يعتدل بها مزاجى وتنمو صحتى ، بالقدر الذى يرونه ، بعلمهم ، محققا لذلك !‥ ولا بد من مثل هذه السلوى لامرأة مثلى توشك أن تحطم الشيخوخة كيانهـا ‥ وأنا لا أطلب هذا على طريقة سيدات البلاط الملكى ، حبا فى التغيير ، وتنويعا فى المتعــة ، ولا أوثر الزنوج بذاتهم ، أخذا بما يقوله هؤلاء الســيدات أنفسهن ، وهو أنه ليس هناك ما هو أفضل من مضاجعة الزنوج !‥ بل اننى أفعل ذلك ، بباعث من ارادة قوية ، هى الاقتراب من الحياة الدافئة ، التى هى امشاج من الشمس والارض والحيوان ! ‥

وأمسكت الملكة الوالدة عن الكلام ، كما أمسكت عن شراب الجعة ، وبدا كأنهـا أخذت تفيق من تأثير الشراب ، وعادت الى تضــفير أعواد السمار الملونة ، وقد أكبت على هــذه العمليـــة ، فلم أعد أرى منهـا الا اناملها القاتمة وهى تتحرك فى خفة ، ولكنها ، بعد أن ران الصمت علينا ، استأنفت حديثها قائلة : فلنعد الى طيبة القلب ، انها ليست طريق النجاح ، وانما ينجح فى الحياة القوى الفاتك ، والمقدام المغامر . والقوة شىء عظيم ، وقد لا يقدرها حق قدرها ، أولئك الذين ولدوا فى احضـــانها ، ولكن المحرومين منها هم الذين يعرفونها ويتمنــونها . وهل يعرف قدر الصحة الا المرضى ؟ ! وقد استقبلت حياتى محرومة من القوة ، ولذلك جعلتها مطلبى وهدفى ، وبذلت فى سبيلها ما هو فوق التصور لانفثها مسلسلة فى ابنى ، وفى أبنائه من بعده ، ليظل الذين يجلسون على عرش « فرعون » عن طريق دمى ، أقوياء مرهوبين .

وقد أكون قارفت فى هذا السبيل شرورا وخطايا ، مما لا يرضى عنه الآلهة ، ولكننى فى الحقيقة لا أبالى الآلهة ولا أعنى كثيرا بهم ، اقتناعا منى بأن الفراعنة أعلى منهم مكانا ، وأعز مقاما وسلطانا • ورأيى أنه ليس هناك خير وشر ، وانما هناك عمل ناجح يسمى خيرا ، وآخر فاشل يسمى شرا • على أننى ، أحيانا ، أشعر بقلبى يختلج تقززا من أفعال إرتكبتها لتحقيق مآربى ، فما أنا الا امرأة ، ومن طبع النساء الطيرة والتشاؤم ، والريبة التى تثير الندم • ولكننى أجد فى الزنوج على الدوام راحة النفس وهدوءها ، ولا شىء هو أكثر تعذيبا لقلبى من أن أرى « نفرتيتى » لا تلد الا اناثا ، فكأنى أقذف بالحجر خلفى ، فيرتد أمامى ، ليعتاق طريقى ويعطل مسيرى ! ••

ثم استغرقت فى همهمة من الدعاء والاستعاذة ، وأخذت تحرك قدميها فى الارض بانفعال ظاهر ، ولكنها ، طول الوقت ، لم ترفع يديها عن أعواد السمار تجدلها جدلا دقيقا • وقد استوقف نظرى فى الحصير الذى تصنعه ، أنها كانت تجعل فيه عقدا كالتى يصنعها صائدو الطيور ، فذكرتنى بما كنت قد رأيته بالقارب الصغير الذى كانت أمى « كيفا » تعلقه فوق فراشى ، ذلك القارب الذى حملنى اليها طفلا بالمهد عبر النهر ، والذى شهد سر مولدى المجهول ولم ينطق به ! •• ان هذه العقد التى تصنعها ، تحت عينى ، الملكة « تايا » هى هى نفسها • أو شبيهة بها جد الشبه ، تلك العقد التىألفت النظر اليها سنين طوالا ، بالدار التى قذفت الأقدار بى اليها ! •• وهنا روعتنى الذكرى ، وشعرت بقلبى يرتعد ، وبأطرافى تتصلب ، وبأفكارى تترنح فى قسوة مرهقة ! •• وفى أعماق الماضى البعيد تراءت لى صور باهتة مفزعة ، من ذلك الوليد ، الذى هو أنا ، قد وضعته بذلك القارب الصغير يد مجهولة ، ودفعت به الى مياه النهر بغية الخلاص منه ، كما لو كان لعنة من اللعنات ، لعل الموج يبتلعه ويطويه ، أو أن تمساحا يلتهمه ويخفيه ، أو لعله ينجو ، فيحيا حياة اللقطاء المنبوذين ، معيرا بين الناس بهمجية الدم والنسب ! •• فمن يكون هذا الوليد ؟ ! ومن أى طريق جاء ؟ ! وأية جريمة تلك التى قذفت به الى الموت ، أو الى الحياة الذليلة التى هى شر من الموت ؟ !

فى هذا ، كنت أفكر محزونا ، فى حين كانت أنامل الملكة « تايا » تلعب بالأعواد الرفيعة ، صانعة منها عقدا جديدة كتلك التى هاجت فى نفسى ذكرى القارب المحطم والميلاد المجهول !••

وكدت ، لفرط ما إعترانى من هذه الذكرى ، أحس إن ثمة ارتباطا

بين تلك العقد التى تصنعها يد الملكة « تايا » ، وعقد ذلك القارب الذى حملنى على ظهر ماء الفيضان ، وأن سر مولدى يتحرك مضطربا فى يدها الصناع ! ..

ولكننى قلت لنفسى ، مقصيا عنها هذا الخاطر ، انه من المستطاع ، لأى انسان ، أن يضفر عقدا لا تختلف عن عقد القوارب وشباك الصيد ، واذا كانت الملكة الوالدة تحذق صنعها فان صيادى الطيور فى المملكة السفلى ليسوا أقل حذقا ! .. واذن — فحادث القارب والميلاد المجهول الا يزال سرا مطويا فى ضمير الغيب ، مختفيا وراء مالا عداد له من القوارب والشباك وضفائر الغاب والحصير ، ولا يبقى منه فى قلبى الا تلك الجراح الغائرة ، وهو أننى جئت الى الحياة من عالم مظلم ، ملفوظا كالنواة القذرة ، لا أعرف لى فى هذا الوجود الفسيح ، أبا ولا أما ! ..

كانت هذه الخواطر والأفكار ، تتفاعل فى نفسى تفاعلا شديدا ، ولكن الملكة الوالدة لم تلحظ شيئا من آثارها فى وجهى ، لانها كانت فى شغل عنى بما فى يدها ، ولم يلفتها منى أننى قد لزمت الصمت تائها فى بيداء الذكرى المؤلمة ، فقد كانت هى التى تمسك بزمام الحديث، وقد عادت اليه مسترسلة فى سرد آرائها وذكرياتها قائلة : ربما بدوت لك يا « سنوحى » فى صورة امرأة شريرة ! .. ولكن تصورك لى هكذا لا يخلو من قسوة ظالمة ، فما أردت بمصارحتك بأعمالى واتجاهاتى الا أن تفهم دقة الظروف والعوامل التى دعت اليها ، وهى فى ذاتها تنهض عذرا يبررها ، فليس من السهل على ابنة صياد فقير أن تصبح فى عداد سيدات « فرعون » ! .. فمن تكون ؟ ! وأنى لها أن تبلغ مبلغهن عنده ، وهى السوداء ذات اللون القاتم والقدمين المفرطحتين ؟! ان سبيلها الى ذلك ينبغى أن يكون هو السبيل نفسه الذى سلكته ، تجميلا للجسد ، وتنضيرا للشباب ، واثارة للغريزة ، واشباعا للشهوة ، واحتيالا على العواطف . وقد فعلت ذلك ، ولم أدقق فى اختيار الوسائل التى تؤدى اليه ، واستطعت أن أفتح قلب « فرعون » ، وأظفر بحبه ، حتى لم يعد يهنأ الا فى جوارى ، ولا يجد المتعة الا فى فراشى ، وكان سوزدى بما يقترن به من الفنون الجنسية الغريبة ، خيرا عند « فرعون » من الكثير الذى سئمه فى غيرى من سيدات القصر الشقراوات ! .. فآثرنى عليهن جميعا ، ومكن لى فى أن أكون صاحبة النفوذ فى حكم مصر تحت اسمه !.. وقد عرفت كيف أسدد سهامى الى أهدافها ، فلم أخطىء الضربة قط . وبهذا قضيت على كل ما كان يحاك لى من مؤامرات فى القصر الذهبى ،

وأفلت في مهارة من جميع الفخاخ التي كانت توضع خفية في طريقي ، واغتنمت كل فرصة سنحت لى ـ وما أكثرها ـ للانتقام من أعدائي ، فشاع فيهم الخوف من بطشي ، وانعقدت ألسنتهم فرقا ورعبا ، وأصبح كل من في القصر الذهبي رهن اشارتي ، لا يتحركون لأمر الا بارادتي ٠ وقد أردت ألا تلد زوجة أخرى لفرعون ولدا ذكرا ، وأن أكون أنا الزوجة الوحيدة التي تلده له ، فكان ما أردت ، ولم تلد زوجاته الأخريات الا اناثا ، زوجتهن الى كبار رجال الدولة ٠ وكان ولدي منه هو الوحيد الذي ورث العرش ، وحمل التاج ، وحكم البلاد ! ٠٠ وهكذا تحقق ما لم يكن ثم سبيل الى تحقيقه بغير ما تذرعت به من وسائل السيطرة على « فرعون » ، والفوز بقلبه وشهواته ! ٠٠ على أني ، بعد ، لا أرى الامر قد تحقق كاملا على الوجه الذي أردته ، فان ولدي الذي صار « فرعون » مصر ، لم يهيىء لى أن أسعد به ، فقد جاء مخبولا ، ولم يبق لى من أمل الا في ولده الذي لم يولد بعد ، ويضايقني أشد الضيق ، أن علامات مولده قد أبطأت أكثر مما يحتمل صبري ! ٠٠ أما ابنتي « باكيت آمون » التي لم تتزوج الى الآن ، فاني أدخرها في جعبتي سهما لاصطياد أمنية كبيرة ، ولن أخطىء الرمية ، فذلك شأني دائما ! ٠

واستطردت تقول في زهو : أرأيت يا « سنوحي » ، وأنت الطبيب المدرك ، كيف أن سحري كان عجيبا ؟! وكيف كان أثره في أرحام زوجات « فرعون » ، فلم يلدن الا اناثا ذهبت كل واحدة منهن الى احضان رجل ، وخلص لى دونهن الولد والتاج ؟! ٠٠

ولكنني سددت نظراتي الى عينيها ، وقلت لها وأنا أغالب الشعور بالخوف منهـــا : أن سحرك يا سيدتي من البساطة والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ! ٠٠ انه باد تحت عيني الآن ممثلا في هذه الضفائر التي تصنعها يداك من فروع الغاب ! ٠٠ وأية عين أخرى ، غير عيني ، لا يشق عليها أن تراه ! ٠٠ ولا نعرف السحر الا غموضا وأسرارا وأشياء أخرى تدق على الأفهام ، ولا تدركها الأبصار ! ٠٠

فانتفضت في جلستها وكأنما قد لدغها ثعبان ، وسقطت من يدها جديلة الحصير ، وحملقت في وجهي بعينين محمرتين ، وصاحت : أساحر انت كذلك يا « سنوحي » ؟ ! ٠ أم هو كما تقول شيء يدركه كل من لم يؤت قوة السحر ؟ ! اني أشك في هذا ! ٠٠

قلت لها : لقد عرف الناس كل شيء من هذا الذي تعتقدينه سحرا خافيا ! ٠٠ وقد لا يكون أحد منهم رأى شيئا رؤية عين ، ولكنهم مع ذلك

يحسونه ويتذاكرون به كما لو كانوا قد رأوه ، ومن يدرى ، فلعل الليل الذى أضواك وأنت تفعلينه ، قد وشى بسرك الى الهواء فتساقط على آذانهم ! .. وقد يكون فى وسعك أن تخرسى ألسنة الناس ، ولكن ليس فى وسعك أن تمسكى بألسنة الهواء ونسائم الليل الواشية ! .. ومع ذلك ، يا سيدتى ، فهذا الحصير السحرى الذى تصنعينه الآن يبدو جميلا بديع الصنع ، وانى لأكون سعيدا وشاكرا ، اذا تفضلت بمنحى اياه ، هدية منك كريمة . وثقى أننى سأعتز به أكثر من أى شخص آخر تفكرين فى اهدائه اليه ! ..

وكنت أتكلم ، وهى تصطنع الهدوء ، وتتشاغل بالتضفير بأصابعها التى لم يخف عنى أنها كانت حينذاك تختلج . ومن لحظة الى أخرى ، كانت تحتسى شراب الجعة ، فما ان بلغت هذا الحد من الحديث ، حتى رفعت رأسها وقالت لى فى خبث مكتوم : من الممكن أن أهدى اليك هذا الحصير يا « سنوحى » عندما أتمه ، وهو حقا جميل وثمين ، لأنه من صنع يدى هاتين ، وهو الى ذلك حصير ملكى يرمز الى الشرف الذى يتمناه كل انسان .. ولكن لا هدية من غير أخرى تقابلها ! .. فماذا أنت مهد الى لقاء هديتى هذه ؟ ! .

قلت لها ضاحكا ، وفى غير اكتراث : سأهدى اليك لسانى : سيكون لك أيتها الملكة الوالدة ! ..

فقالت ، وهى تحدجنى بنظرة جانبية : وما لسانك هذا ؟ ! انه ملكى فعلا ، والذى يملكه الانسان لا يعطاه ! .. ان أحدا لا يستطيع أن يمنعنى من قطع لسانك اذا شئت ذلك ، وفى مقدورى أكثر من هذا أن أقطع يديك ، فلا يكون لك لسان ينطق ولا يد تكتب ! .. بل انى لأستطيع أن أقذف بك جملة الى زنوجى فى مخابئهم ، ليقطعوا صلتك بالحياة الى الأبد ، فهم يقدمون القرابين الى آلهتهم من الأجساد البشرية ! ..

قلت لها متلطفا : ان هذه الجعة التى تؤثرين شربها ، من النوع القوى التأثير ، ويلوح لى أن الاكثار منها يسلم العقل الى أحلام قد لا تكون ممتعة أحيانا ، ولهذا أرجو ألا تزيدى منها حتى لا تلقاك فى أحلامها أفراس البحر ! .. أما لسانى ، فهو لك على أية حال ، ولا أنكر حقك فيه ، ولا قدرتك عليه ، وأما هذا الحصير الأنيق البديع ، فانى ما أزال طامعا فى اهدائه لى بعد أن يتم صنعه ! ..

ونهضت من مكانى ، متأهبا للانصراف ، فى حين كانت هى تبتسم

ابتسام النسوة المخمورات ، وتقول : انك تسليني كثيرا يا «سنوحي» ، انك تسليني كثيرا ! ..

وعدت الى المدينة ، واستقبلتني « ميرييت » فرحة ، وقاسمتني فراشها ، ولكنني لم أكن سعيدا ، فقد عاودني التفكير في قارب الغاب الذى كان معلقا في السقف فوق مهد طفولتي ، وخطرت بذهني صورة هذا القارب يضطرب في ماء النهر ، ويرفق به الجو والتيار والموج ، حتى يبلغ مأمنه من الشاطيء الآخر ، ثم تختلط هذه الصورة في ذهني بصورة أخرى ، هي أصابع الملكة « تايا » السمراء ، وهي تتحرك خفيفة في تضفير أعواد الغاب الرفيعة ، وتعتد لها عقدا كتلك التي تشابكت في هيكل القارب ! .. ويذهب بي التفكير الى ذلك الشاطيء الذى أبحر منه القارب ليواجه مصيره غير المنظور ، فلا يرد على خاطري من هذا الشاطيء الا أسوار القصر الملكي ! .. فما هذه الخواطر كلها ؟ ! ولماذا تلح هذا الالحاح على مشــاعري وأعصــابي ؟ ! وأية علاقة بين هذه الأحــداث ، تتجمع متقــاربة في ذهني الآن ، مع تبــاعدها في الزمن والأشخاص ؟ ! لست أدري ! ..

- ٥ -

كان من واجبي في اليوم التالي أن أزور « دار الحياة » . فذلك هو السبب الأول الذى استأذنت « فرعون » من أجله في عودتي الى «طيبة» . وكنت قد غبت عن « دار الحياة » سنوات عدة ، ولو لم تكن هذه الزيارة مأذونا بها من « فرعون » ، لكان من حق هذه الدار على ــ كطبيب الجمجمة في الحاشية الملكية ــ أن أزورها ، ذلك الى أني كنت أخشى ، لطول بعدي عنها ، أن أكون فقدت شيئا من مهارتي . فلم يحدث ، خلال اقامتي في « أخيت آتون » ، أن قمت بفتح جمجمة واحدة ، فمن الخير اذن أن أعود الى « دار الحياة » ، واصلا بها ــ لبعض الوقت ــ ما انقطع بيني وبينها من روابط الحكمة والمعرفة ... وقد ذهبت اليها ، وكنت أحسب أني ملاق هناك طلابا أذكياء ، تحررت عقولهم من آثار الدراسة الكهنوتية التي قضوا فيها الفترة السابقة على انتقالهم الى « دار الحياة » ، فقد كان مفروضا ، وقد زالت السلطة الكهنوتية ومناهجها التربوية ، أن تزول معها تلك التعاليم والتقاليد البالية التي كثيرا ما كانت تستعبد العقول ، وتعطل المواهب ، ولكن هذا الذى قدرته كان ضربا من الوهم والخيال لقد وجدتهم على ذلك الخمول القديم ، يتقبلون الدروس قضايا مسلمة

من أساتذتهم من غير مساءلة ولا مناقشة ولا استيضاح ، وكل همهم أن يجتازوا مرحلة الدراسة ، على أى وجه ، لتقيد أسماؤهم فى سجل « دار الحياة » ويخرجوا منها لممارسة مهنة الطب ، كوسيلة الى كسب العيش دون ابطاء ! ..

وخلافا لما كانت عليه الحال من قبل ، لم يكن هناك مرضى كثيرون، فقد انقضت عدة أسابيع قبل أن أتمكن من اجراء ثلاث عمليات جراحية لفتح الجمجمة ، كنت قد وعدت الطـــلاب باجرائها أمامهم ليفيدوا من مقدرتى ، وقد أجريتها بنجاح أكسبنى شهرة كبيرة بين الطلبة والمدرسين الذين راحوا يعربون عن اعجابهم ، ويمتدحون ما رأوا من مهارتى ودقة يدى ! .. ولكننى ، أنا نفسى ، كنت أشعر فى هذه العمليات ، أن يدى لم تكن على عهدى بها فيما مضى من المهارة والنشاط ، كما لم تكن قوة الابصار فى عينى كما كانت من قبل . وكان عسيرا ، لهذا ، أن أكشف عن المرض بالثقة التى كنت أعتمد عليها فيما سلف ، حتى لقد اضطررت الى ما لم أكن أضطر اليه فى الماضى ، من توجيه الأسئلة الكثيرة واجراء البحث الطويل ، لأصل الى القرار الحاسم غير المشوب بالشك . وقد أخذت ، من أجل هذا ، فى استقبال المرضى يوميا بمنزلى ، ومعالجتهم بالمجان ، لأستعيد ما زايلنى من المقدرة القديمة .

وكانت احدى العمليات الثلاث التى أجريتها فى « دار الحياة » لرجل يعانى من آلام شداد ، فقد فيها الأمل فى الشفاء ، ومن هنا كنت أكثر عطفا عليه ، وقد سرنى أنى أنقذته من آلامه ، فوق ما سرنى من نجاح العملية نفسها ، على دقتها وخطورتها . أما العملية الثانية ، فكانت لرجل سقط على رأسه منذ عام ، من موضع مرتفع بمنزل كان يرتكب فيه الاثم مع زوجة رجل آخر ، ضبطهما متلبسين ، وقد استعاد رشده قليلا ، ولكنه بعد ذلك وقع فريسة المرض المقدس ، واعتورته الازمات النفسية المتواصلة ، فراح يهرب منها الى الخمر ، يحتسيها فى ادمان واسراف ، حتى فقد بصره وصار يهذى ويصيح بصوت أجش ويعض لسانه ، فأجريت له عمليـــة الجمجمة ، وكشـــفت عن مخـــه الذى كانت الدماء السوداء تتجمد فى مواقع كثيرة منه ، واستغرقت عملية التنظيف وحدها وقتا ليس بالقصير ، ولم يكن بالمستطاع اتمامها دون اصابة المخ ببعض الجراح . وقد استراح الرجل أخيرا من أزماته وآلامه ، اذ قضى نحبه بعد ثلاثة أيام ، ولم يحل هذا دون اعتبار العملية ، من الوجهة الفنية . ناجحة نجاحا تاما .

أما الحـــالة الثالثة فكانت أيسر من سابقتها ، فالمريض كان شابا صغيرا ، عثر عليه الحراس بأحد الشوارع ، فاقد الوعى ، بعد أن هاجمه اللصوص وسرقوا كل ما كان معه ، وكان رأسه مشجوجا ، وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة . وقد جيء به الى « دار الحياة » ، وكنت بها اذ ذاك ، ورأيت الأطباء يغفلون العناية به ليأسهم من شفائه فتقدمت اليه ، وبالسرعة التى يقتضيها الموقف ، فتحت جمجمته ، وانتزعت من مخه قطع العظام التى نفذت اليه ، ثم غطيت رأسه بصفيحة من الفضة المطهرة ، وأفاق بعد ذلك . وقد غادرت « طيبة » بعد أسبوعين من هذه العملية ، وهو على قيد الحياة ، وأحسبه قد عوفى تماما بمرور الوقت .

ومع أنى كنت موضع الاحترام فى « دار الحياة » لمركزى كطبيب « فرعون » ، فان الأطباء متقدمى السن كانوا يجاهدون أنفسهم فى الاتصال بى ، ولا يولوننى كامل ثقتهم ، لأنى مقبل عليهم من « أخيتآتون » ، وأؤدى عملى فى خدمة الاله الزائف الذى يخافونه ! .. وقد حرصت من ناحيتى ، وبعد أن عرفت هذا ، على أن أمتنع عن ذكر «آتون» امامهم فى اية مناسبة ، وجعلت ادير الحديث معهم دائما فى الشئون الطبية وحدها ! ..

وكان هؤلاء فى حيرة من أمرى ، ويحاولون بمختلف الأساليب أن يتبينوا اتجاهـــاتى وأفكارى ، ويتعسسون حولى كالكلاب التى تشم طريقها ، استراقا لما يدور فى خاطرى ، وظلت حالهم على ذلك الى أن فرغت من عملية الجراحة الثالثة ، فجاءنى طبيب يتسم بالكفاية ويمتاز بالحكمة ، وقال لى : يا « سنوحى » ، أيها الطبيب الملكى ، هأنتذا قد رأيت « دار الحياة » على غير ما تعودت أن تراها ! .. ان المرضى المترددين عليها صاروا أقل عددا مما كانوا ، لا لأن المرض قد تخلى عنهم ، فهم فى « طيبة » اليوم أكثر من ذى قبل ، بل لأنهم فقدوا ثقتهم بنا فلم يعودوا يحفلون بمعـــارفنا الطبية ! وأنت قد طوفت فى بلاد أجنبية كثيرة ، وعرفت فيها فنونا مختلفة للعلاج ، غير أنى على يقين من أنك ، مع ذلك ، لم يتح لك أن ترى تلك الطريقة العجيبة الفذة التى تستعمل الآن سرا فى « طيبة » لابراء المرضى ، مهما تكن أمراضهم ، بغير مبضع ، ولا نار ، ولا عقاقير ، ولا ضمادات ، ولا شيء مما أوتيت العلم به هنا وفى الخارج من فنون الطب وشتى وسائله ! .. انها من الغرابة بحيث لا أشك فى أنك تود أن تراها بعينك ، فليس يكفى أن تســـمع عنها حديثا عابرا ؟ .. وللرابطة التى تجمعنا بك ، بوصفنا أطباء ، قد عهد الى أن ادعوك لمشاهدة بعض التجارب لهذه الطريقة الغريبة ، وهذا يقتضى أن

تعدني بالا تذكر شيئا مما ترى ، احتفاظا بسريته ! ·· فان استجبت لهذه الدعوة ، فستمضى معصوب العينين ! الى المكان المقدس للعلاج ! ··

وأثار حديثه اهتمامى ، وبدافع الفضول نزعت نفسى الى استجابة الدعوة بشروطها ، ولكنى خشيت غضب « فرعون » اذا ما انتهى هذا الى علمه بوسيلة من الوسائل ، فقلت لصاحبى مترددا : ان أمورا كثيرة تجرى الآن فى « طيبة » ولا تخلو من الاغراب والشذوذ ، وقد رأيت الرجال والنساء يعيشون فى غمر من القصص والأساطير والرؤيا الغريبة ، ويشغفون بذلك شغفا كبيرا ، غير أننى ــ فى الواقع ــ لم أسمع ما هو أشد امعانا فى الغرابة من هذا الذى تذكره عن العلاج بدون أدوات وعقاقير ، فهذا مالا يستسيغه عقلى كطبيب ، ولا أرى فيه الا خدعة من تلك الخدع الفاشية اليوم فى هذه المدينة ، ومن أجل ذلك أوثر الا أذهب معك ، حتى لا يزج باسمى فى الاستشهاد على صحة أشياء اعتقد أن لا وجود لها ، لاستحالة حدوثها !··

قال الطبيب العالم معترضا : نحن نعتقد يا « سنوحى » أنك رجل فوق مستوى الأحقاد ، ونعلم أنك حصلت ، فى طوافك الطويل بأقطار شتى ، على الكثير من المعارف والعلوم مما لايزال خافيا علينا فى «مصر» ، فلا يغيبن عنك أنه من الممكن وقف نزف الدم من غير استعمال آلات أو حديد محمى ، فكيف لا تتصور أنه يمكن شفاء المرضى من غير مباضع أو عقاقير ؟ ! ثم ان اسمك لن تكون له علاقة بهذا الأمر الجديد ، وأؤكد لك ذلك ، راجيا أن تثق بى · والأمر بيننا وبينك لا يعدو أننا نرغب فى أن ترى بنفسك هذه التجارب لتتحقق من أنها لا تنطوى على خدعة كما يتبادر الآن الى ذهنك ، ولتضيف بذلك جديدا الى حكمتك ! ··

فزادنى قوله فضولا ورغبة ، ذلك الى أن من عادتى التقصى والبحث فى كل ما يعرض لى فى مهنتى من أمور جديدة ، فلم يسعنى الا أن ألبى دعوة هذا الزميل ! · وفى المساء ، وافانى بمنزلى ، وركبت معه المحفة التى جاء بها · ووفق الخطة المتفق عليها ، وضع على عينى عصابة من نسيج فلم أتبين الطريق الذى سلكناه الى المكان المقصود ، فلما بلغناه ، قادنى ، معصوب العينين أيضا ، الى ممرات داخلية ، وأخذنا نصعد درجات ونهبط أخرى حتى نال منى التعب والكلال ، وضقت صدرا بذلك ، فقلت له متبرما : حقا انها لسخافة ! ··

ولكنه أخذ يهدىء من روعى ، ثم رفع العصابة عن عينى ، ودلف بى الى قاعة كبيرة منحوتة فى الصخر ، تضيئها عدة مصابيح زيتية ،

وكان بها اذ ذاك ثلاثة من المرضى ممددين على محفات ، وظهر فى استقبالى كاهن حليق الشعر ، تلتمع رأسه بدهان الزيت ، فرحب بى ، هاتفا باسمى ، ودعانى الى الكشـــف على المرضى والفحص عن أمراضهم ، للاستيثاق منها والتأكد من أن الأمر جد لاخداع فيه ! ‎··‏ وكان فى صوته أناة وهدوء ، كمـا كان فى مظهره سمات الحكمة والعلم ، فتقدمت الى هؤلاء المرضى ، والى جانبى رفيقى جراح « دار الحياة » الذى جاء بى الى هذا المكان ، وبان لى أنهم مرضى حقيقة ، وقد استبدت بكل منهم علته حتى لا يستطيع منها حراكا ، وكانت أولاهم امرأة ما زالت فى شبابها ، قد أصيبت أطرافها بالشلل ، فانقبضت وضؤلت وكادت تنمحى مظاهر الحياة فيها الا من عينيها السوداوين اللتين كانتا تلمعان فى رجفة الخائف الحزين ‎·‏ أما ثانيهم ، فكان صبيا قد اكتسى جسمه كله بطبقة شائهة من البثور الدامية التى تطفح قيحا وصديدا ، حتى ليبدو كأنه جثة ميت قد مشى فيها البلى والفناء ! ‎··‏ وكان ثالثهم شيخا هرما ، شلت ساقاه وتجمدت شرايينه ، الى حد أنه لم يكن يحس بوخز الابرة التى دسستها فى مواضع شلله لأختبرها ! ‎··‏

وقلت للكاهن : أستطيع أن أقرر ، بعد الفحص الدقيق ، أنهم مرضى ‎·‏ ولو كان لى رأى فى علاجهم لأرسلتهم ، من فورى هذا ، الى « دار الحياة » ، بالرغم مما يساورنى من الشك فى امكان شفائهم هناك ، على أن علة الصبى ، مع مايبدو من سوئها ، أيسر حالا وأقرب الى الشفاء ، اذا اغتسل يوميا لمدة طويلة فى حمام مياه كبريتية ! ‎··‏

فارتسمت على وجه الكاهن ابتسامة هادئة ، وأشار علينا بالجلوس على المقاعد فى مكان خافت الضوء بطرف القاعة ، واستمهلنا قليلا ، ثم استدعى عبيدا حملوا المرضى من أماكنهم ووضعوهم على المذبح القائم هناك ، وأطلق بخورا ذا رائحة قوية تدير الرءوس ‎·‏ ومن بعيد ، ترامى الى أسماعنا صوت غنـاء ، ودخل جمـــاعة من الكهنة يرتلون أناشيد « آمون » ، وأحاطوا بالمرضى ، وداروا حواليهم وهم يهزجون ويصلون ويبتهلون ويقفزون ، وظلوا على ذلك حتى تفصدت أجسامهم عرقا ، فسال على جباههم ، ثم حسروا الملابس عن صدورهم وأخذوا يضربون عليها بحجارة ذات أطراف مذببة ، وكانت الأجراس بأيديهم الأخرى تهتز وتتحرك ، فتدق دقات متواصلة الرنين ! ‎··‏

والى هذا الحد لم أكن رأيت فى ذلك شيئا ذا جدة أو غرابة ، فهذه طقوس كنت قد رأيت مثلها من قبل فى « سوريا » ، ولكن الكهنة

اســـتمروا فى صياحهم وتراتيلهم وقفزاتهم ، وأخذوا يدقون بقبضات أيديهم ، دقا عنيفا متداركا ، على الحائط ··· وفجأة انفرج هذا الحائط عن تمثال « آمون » المقدس ، مشرفا عليهم فى ضوء المصابيح ، وفجأة كذلك اختفت أصوات الكهنة ، واغتمرهم الصمت المطبق ، فكانت لحظـة رهيبة ! ··

وتحت وجه « آمون » الذى كان يشرق بضوء مقدس ، تقدم رئيس الكهنة ، فنادى المرضى بأسمائهم وصاح فيهم قائلا : انهضوا ، وسيروا !·· فقد باركم « آمون » العظيم لايمانكم به ! ··

وكان منظرا بالغ الاثارة والغرابة معا ! · لقد رأيت بعينى ، هؤلاء المرضى، يتحركون ويبرحون أماكنهم، وعيونهم محدقة فى تمثال «آمون» ، وهم يتحسسون أبدانهم فى دهشة كبيرة كأنهم لا يصدقون أنهم برئوا من أمراضهم المستعصـية ، ثم انفجروا يبكون ويصـــلون فى حرارة « لآمون » ! ··

وأقفلت بعد ذلك فتحة الحائط ، وانصرف الكهنة ، وحمل الأرقاء البخور بعيدا ، وأضاءوا المصـــابيح لنعيد النظر ، على ضـــوئها ، فى المرضى ! ··

لقد استطاعت المرأة الشــــابة أن تقف على قدميهـا المشلولتين ، وتسير بهما بقليل من المساعدة ، واستطاع الرجل العجوز أن ينهض ويسير نشطا بنفسه ، واختفت البثور والقروح جملة من جلد الصبى ، وعاد ناعم الملمس ، نظيفا كما لو لم يكن قد أصيب بشىء ! ··

حدث هذا فى سرعة ، وخلال ساعات قليلة بحساب ساعة الوقت المائية ، ولم أكن لأصدقه لولا أننى رأيته بعينى ! ··

وقال لى الكاهن الذى كان قد استقبلنى ، وعلى شفتيه ابتسامة المنتصر : ما رأيك الآن يا « سنوحى » يا طبيب الملك ؟!

قلت له فى غير تردد أو وجل : رأيى أن الرجل العجوز والمرأة الشابة ، كانا فريسة سحر استلبهما الارادة ، وفرض عليهما العجز عن الحركة والسير ، وقد عولجا من هذا السحر بسحر مثله ، وذلك ممكن مادام الساحر أقوى ارادة من المسحورين ! ·· فليس فيما رأيت من حالهما شىء معجز ··· ولكن مالا مناص من الاعتراف بغرابته حقا ، هو حال ذلك الصبى الذى لم يكن بالمستطاع شفاؤه الا بالعـــلاج المستمر

لبضعة شهور ، فما حدث له الآن شيء لم أره ولم أر شبيها له ، على كثرة ما مر بى من تجارب ومعضلات ! ..

قال لى ، وعيناه تبرقان : لا تزال اذن يا « سنوحى » جاحدا فضل « آمون » ، غير معترف بأنه هو ملك الآلهة ! ..

فقلت له : أرجو ألا تذكر اسم الاله الزائف هكذا بصوت مرتفع ، فان « فرعون » قد نهى عن ذلك ، وأنا خادم « فرعون » المخلص ! ..

فغاظه منى هـــذا التحذير ، ولكنه كان كاهنا من المرتبة العليا ، فسيطر على أعصابه وتغلبت حكمته على عواطفه ، وقال وهو يبتسم : ان اسمى « حريحور » ، وتستطيع أن تكشف أمرى لحراس « فرعون » فانى لا أرهبهم ، ولا أخاف سياطهم ، كما لا أرهب « فرعون » الزائف نفسه ولا أكترث له . وانى هنا أعمل باسم « آمون » وببركته أبرىء المرضى من عللهم ، ولن يستطيع أحد أن يمنعنى من ذلك ! .. ولكن مالنا ولهذا الجدل ؟! انه لا يليق بالرجال الذين أوتوا مثلنا حظا كبيرا من العــلم والبصر ، فتعال ، يا صديقى ، نتناقش مناقشة أهل العلم البصراء ، الباحثين عن الحق والمعرفة ، أحرارا من القيود ! ..

واستطرد قائلا : واسمح لى أن أدعوك الى حجرتى لتتناول فيهـا بعض النبيذ ، فأنك ــ فيما أرى ــ مجهد مرهق الأعصاب لجلوسك ساعات على هذا المقعد غير المريح ! ..

واجتاز بى الكاهن الى حجرته ممرات صخرية متعددة ، واستنتجت من ضغط الهواء ، أننا فى طبقة سفلى من الأرض ، وقد لا يكون بعيدا عن الحقيقــة أننا الآن فى أقبية « آمون » التى تردد ذكرها على ألســـنة كثيرين من الناس ، ثم أشار الى طبيب « دار الحياة » الذى كان يرافقنى ، فانصرف ، وبقيت معه ،منفردين ، فى الحجرة التى كانت مسكنا لاينقصه شيء مما يسعد القلب ! .. لقد كان فراشه دمثا وثيرا ، وخزائن ملابسه مصنوعة من العاج الأبيض والأبنوس الثمين ، والسجاجيد سميكة لينة ، والحجرة كلها معطرة برائحة طيبة نادرة ، وفى أدب وتلطف ، تقدم منى فصب الماء المعطر على يدى ، وقدم لى كعكا ، وفاكهة ، ونبيذا معتقـــــا مستخلصا من أعنــاب « فرعون » ، ومخلوطا بالمســك ، فطعمنا وشربنا معا ، وأخذ يحدثنى فقال : اننا لنعلم كل شيء عنك يا « سنوحى » ، ونتقصى خطواتك ، ولا نجهل أنك تحب « فرعون » الزائف حبا عظيما ، وأن الهه الزائف غير بعيد من قلبك ، وهذا ما لم نكن نحب أن تكونه .

وعلى أية حال ، فمن الحق عليك أن تعلم أن اله « فرعون » الزائف ليس فيه ثم جديد لا تلقاه فى الاله « آمون » . « فآمون » جامع الفضائل والمثل الكريمة ، وقد صار لفرط حقد « فرعون » عليه واضطهاده له ، أقوى قوة ، وأصفى صفاء ، وأعلى فى نفوس المؤمنين به مكانا . على أننا ندع هذه الناحية الالهية التى يرجع الأمر فيها الى الأرواح والقلوب ، قوة وضعفا ، ونورا وظلمة ، فأحق منها بالحديث الآن ، هذه اللعنة التى يصبها فرعون « أخناتون » على الفقراء ، وهذه الكوارث التى تتلاحق على «مصر» كلها بسببه . وانى لأستحلفك بحنانك على الفقراء ، ووطنيتك التى توجب عليك الوفاء للأرض السوداء أكثر مما تولى منه للأرض الحمراء ، أن تدبر الأمر قبل أن يطم شره ، ويستفحل خطره ، وتسوء عواقبه .

وأردف يقول : والشر لا يزول الا باجتثاث أصله ، ولا يتقى الا بانمحاء سببه ، فالعلاج الذى لا علاج غيره هو أن ينحى « فرعون » عن العرش ، والا زادت الطامة شيوعا والبلية استشراء ! ..

ولكنى قلت له ، وأنا أتجرع النبيذ المعتق : ليس للآلهة فى نفسى اليوم مكانها المرهوب ، لقد زهدت فيها ووهنت ثقتى بها . ولكن رأيى أن اله « أخناتون » غير هذه الالهة جميعا ، فشأنه جد مختلف عنها ، وأولى ظواهر هذا الاختلاف أنه ليس له تمثال خاص به ، وأن الناس لديه سواسية ، لا فرق بين فقير وغنى ، ولا بين مواطن وأجنبى ، ونحن من ذلك ندخل فى عهد جديد ، ينتظم العالم كله فى اطار انسانى واسع الأفق ، وذلك أمر لم تسنح من قبل فرصة لتحقيقه ، ولئن تحقق ليصبحن أبناء العالم ، فى مختلف الأقطار ، اخوانا متحابين ! ..

ورفع « حريحور » يده معترضا ، وقال والابتسامة لا تفارق فمه : حقا انك يا « سنوحى » ، على ما نعرف من ذكائك وسعة ادراكك ، قد صرت صريع أحلام اليقظة ! .. وما كانت هذه الأحلام يوما سبيلا الى عمل نافع ، أو قاعدة يعتمد عليها فى سياسة عامة . ولست أجرى معك فى هذا الطموح البعيد المدى ، الشائك الطريق ، وانما أنا أقنع بالرغبة المتواضعة فى أن ترجع الأمور الى ما كانت عليه ، فتحترم القوانين ، وينال الفقراء حقوقهم عن طريقها ، ويترك الناس أحرارا فى اختيار ما يريده كل منهم من عمل أو حرفة ، ويصلون للاله الذى يؤمنون به عن عقيدة ، على أن يمسكهم فى كل ذلك حكم النظام العام ، حتى لا تضطرب الأحوال ، ولا يختل ميزان الحياة ، فلابد من الفوارق التى تميز السيد من المسود ،

والحاكم من المحكوم ، والرئيس من المرءوس ، ليعمل كل فى نطاقه ، وداخل حدوده ، سعيدا بالطمأنينة ، بعيدا عن القلق فى حياته ، ولا يسعد المرء بشيء مثل سعادته بحياته الخاصة ، واضحة المعالم والحدود ، ولا مثل سعادته بالعيش فى البيئة التى نشأ بين أحضانها ... هذه هى الغاية التى أهدف اليها ، وأرى فيها الخير والرفعة لمصر وبنيها جميعا ، والوسيلة اليها — كما قلت — تنحية « فرعون » عن العرش الذى توالت الدلائل على أنه غير أهل له ! ..

وفى لهجة الرجاء والاستعطاف ، استمر يقول : وانك يا «سنوحى» لرجل سلام ، تؤثر الخير ، ولا تحب الشر لأحد . وما أنت فى حاجة الى العلم بأننا فى عصر ينبغى لكل انسان فيه أن يلزم جانبا من الجوانب لا يعدوه . فالعالم متفرق ، والناس متباينون ، وكل أمة ترى نفسها خيرا من الأخرى ، والعقيدة الراسخة عند كل فريق هى : أن من ليس منا ، فهو عدونا ! .. ومن هنا ، كان من الغباء أن تظن أن حكم « اخناتون » سيستمر طويلا ، لأنه من سائر نواحيه يمثل الشذوذ على سنة الطبيعة التى لا تبديل لها فى الحياة ، منذ كانت ، والى أن تنتهى ! ولا يعنينى الاله الذى يكون قد ملك عليك مشاعرك ، « فآمون » فى غير حاجة الى ايمانك به ، ولكن يعنينى أن تذكر واجبك كمصرى ، وأنت الآن بالمكان الذى يهيىء لك أن تعمل لرفع اللعنة عن « مصر » ، وانقاذها مما تتردى فيه ، لتعود الى مجدها وعزها ووحدتها ! ..

وشعرت بأن حديثه كاد يسلمنى الى القلق ، فأخذت أدافعه عن نفسى بشراب النبيذ ، وقلت له : أنت واهم يا سيدى ، فليست لى كل هذه القوة التى تتخيلها ، وقد رأيتنى لا أستطيع أن أبلغ مبلغك فى شفاء المرضى . فكيف بما تدعونى اليه من أمر خطير ، هو خلع « فرعون » عن عرشه ؟! ..

فنهض الكاهن « حريحور » ، ودعانى الى مرافقته قائلا : سأريك شيئا . ..

وتقدمنى الى ممر خارج الحجرة ، فسرنا قليلا ، ثم فتح بابا مغلقا بعدة مزاليج ، ورفع المصباح الذى كان قد حمله فى يده ، فأنار حجرة صغيرة ، تلألأ فيها بريق أكداس من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وقال لى : لا تخف ! .. فلن أحاول أن أرشوك بالذهب ، وقد لا يعنيك العلم بأن « آمون » لا يزال أوفر ثراء وغنى من « فرعون » ! .. ولكنى سأريك شيئا آخر ! ..

وفتح بابا آخر من نحاس ضخم ، ورفع المصباح أيضا ، مسلطا ضوءه على خزانة صغيرة ، قام على أحد رفوفها تمثال « لأخناتون » من الشمع ، يعلو رأسه تاج مصر المزدوج ، ورشقت فى صدره ووجهه ابر حادة من العظم ، فرفعت يدى بحركة لا شعورية ، وأخذت فى تلاوة تراتيل واقية من السحر ، كنت تعلمتها بمدرسة الكهنوت عندما كنت أتلقى دراستى الاولى فيها . وكان « حريحور » يخالسنى النظر مبتسما ، ثم قال : حسنا ، لعلك الآن قد اقتنعت يا « سنوحى » أن أيام « فرعون » أصبحت معدودة ؟! .. وها أنتذا ترى أننا قد جعلنا لفرعون تمثالا مسحورا ، ورشقناه بالابر المقدسة ، وقد يبطىء فعل السحر بعض الوقت ، ولكن مالا شك فيه أن شرورا كثيرة ستحدث خلال ذلك ! ..

وأوصد « حريحور » البابين باحكام ، وعاد بى الى حجرته ، وعدنا فيها الى شراب النبيذ ، واضطربت الكاس فى يدى ، وتساقطت قطرات منها على ذقنى ، عندما تصورت مفعول ذلك السحر الذى أشهدنيه الكاهن ، فقد أحسست أنه سحر قوى لا يستطيع أى انسان ان يبطله او يقاومه ! ..

وقال لى « حريحور » : ان سحر « آمون » ـ كما قد رأيت ـ يمتد حتى ليصل الى « أخيت آتون » ، ويأتينا منها بخصلات من شعر رأس « فرعون » ، وقصاصات من اظافره ، لندخلها فى هذا التمثال المصنوع من الشمع . ولا تسألنى كيف كان ذلك ؟! فهذا سرنا الذى لن تعرفه ، غير أنى أؤكد لك أننا لم ندفع فى هذه الخصلات من شعر « فرعون » وقصاصات اظافره ، ثمنا أو أجرا ، من ذهب أو فضة ، وانما قدمت الينا باسم « آمون » ، وبباعث من الايمان به ، وتقربا الى مرضاته ! ..

وتابع قوله ، وهو يرقب حركاتى بحرص : ان الحقيقة التى لم تعد تحتمل ريبا ولا جدالا ، هى أن سطوة « آمون » تزداد قوة على الايام ، وأن حكم « فرعون » سيظل هدف لعنته ، وأن المصريين هم الذين يضارون بهذه اللعنة ، فتحل بهم بؤسا وفقرا وأوبئة ! .. فماذا لو شاركتنا فى تخليص البلاد من هذا الشقاء الشامل ؟! .. ان كل ما يحدث الآن هو مخاض الصداع الذى لا يفارق رأس « فرعون » ! .. وان عندى من العقاقير مالو تناول منها قليلا لبرىء من صداعه ، وسكنت الى الأبد آلامه ... وانى لمعطيك منها ـ ان شئت ـ القدر الذى يكفى فى علاجه ! .

قلت له مستدركا : ان الآلام لا تسكن فى انسان الى الأبد الا اذا صار فى عداد الموتى ! ..

قال ، وهو يسلط على عينى بريقا من عينيه الساحرتين ، حتى انى لفرط تاثرى شعرت كانى سمرت فى مقعدى : قد فهمت ما تعنيه ! .. ولا بأس عليك من ذلك ، فان الدواء الذى سأعطيكه لا يترك أثرا يدل عليه ، ولن يستطيع المحنطون انفسهم أن يجدوا شيئا منه فى أمعائه ، وكل ما تفعله أنت هو أن تقدمه اليه ، عندما يشكو صداعا فى رأسه ، فما يكاد يتناوله حتى يمضى فى نوم عميق ، لا يعود يشعر بعده بألم أو كآبة !.. انك سوف تبدله من ذلك راحة ابدية ، ولن تجد احدا يلومك على هذا ! ..

واستطرد يقول ، وهو يشير لى بألا أتكلم : لا أفكر مطلقا ، وأنا أطالبك بهذا ، فى أن ارشوك بالكثير أو القليل مما رأيته مكدسا من ذهب « آمون » ، فانت عندى ارفع مكانا ونفسا من أن تؤدى هذه الخدمة الجليلة لوطنك ومواطنيك عن طريق رشوة ، وانما الذى ينبغى أن تعتقده بعقلك وقلبك وعواطفك ، هو أنك اذ تفعل ذلك ، فان اسمك سيظل على وجه الزمان مباركا خالدا مدعوا له بالخير من سائر الناس ، وسيظل جسدك مصونا الى الأبد ، وستحفظك الايدى الخفية طوال حياتك !.. وسيتحقق لك كل ما تطمح الى تحقيقه من الأمانى الانسانية الطيبة ... هذا هو الذى ينبغى أن تعتقده وتثق به ! ..

ثم رفع يده ، وبصرى لا يزال مأخوذا بالبريق المسلط من عينيه ، ولم يكن بمقدورى اذ ذاك أن افلت من هذه النظرات النفاذة القوية ، بل لم يكن بمقدورى أن أنهض من مكانى أو أن أحرك يدى ، وقال : أنت الآن رهن ارادتى ، لا تستطيع فكاكا من أمر آمرك به ، ولكننى مع ذلك لا آمرك بالركوع أمام « آمون » على غير ارادتك ، ولا بأن تفعل فعلا لايرضى عنه ضميرك ، فقد وكلت ذلك اليك ، وأرجو منك يا « سنوحى » ، من أجل « مصر » وأهلها ، أن تقدم هذا الدواء الى « فرعون » لتشفيه من آلامه الى الأبد !..

وخفض يده ، فاستطعت عندئذ أن أتفرج من ضيقى وأتحرك من جمودى ، فتناولت كأسا من النبيذ ، وتخلصت به من الرعدة التى كانت تسيطر على قلبى ، وقلت له : لاأعدك بشىء يا « حريحور » .. ولكن أعطنى هذا الدواء .. فانه لدواء فيه رحمة على أية حال ! .. ولعله أن يكون خيرا من عصير الخشخاش ، وربما حان الوقت الذى يرغب عنده « فرعون » فى أن يرقد رقدته الأبدية ! ..

واعطانى الكاهن ، من فوره ، سائلا فى أنبوبة من الزجاج الملون ،

واخذ يردد قوله أن مستقبل «مصر» في يدى ، وأن هذا المستقبل يشفع لى فيما هو مطلوب منى أن أفعل ، فوضعت الأنبوبة فى حزامى وقلت فى تهكم : منذ يوم ميلادى ومصير «مصر» فى أصابع يد قذرة تجدل الغاب !٠٠ ان هناك أشياء لم تؤت علمها يا « حريحور » ، وان كنت تظن أنك بكل شيء عليم !٠٠ وها قد صـــار الدواء معى ! ٠٠ ولكن لا تنس أننى لم أعدك بشيء ! ٠٠

فابتســـم الكاهن ، ورفع يده بالتحيـــة وقال : ســتكافئك الآلهة يا « سنوحى » ، وصحبنى بعد ذلك خلال الممرات ، ولم يخف عنى شيئا ، اذ كان قد وثق بأنى لا أفشى سرا ٠٠٠ بذلك أنبأته عيناه اللتان تنفذان الى أعماق النفس ، فتكشف خفاياها ، ولقد عرفت أن أقبية « آمون » تقع تحت المعبد الكبير ، ولكنى احتفظت بهذا السر ، اذ لم يكن من حقى البوح به ! ٠٠

- ٦ -

بعد أيام من هـــذا الحادث دعيت الى الذهاب من فورى الى القصر الذهبى لانقاذ الملكة « تايا » التى أصيبت بلدغة ثعبان سام ، وهى تعـد شباك الصـــيد فى حديقة القصر ، فذهبت الى هناك مهرولا ، ولكنى لم أستطع ان أفعل شيئا ، فقد فات أوان انقاذها ، ولفظت آخر أنفاسها ، ولم يسعنى الا أن أعلن بأنها قد فارقت الحياة ٠ وكان واضحا أن هذا ليس تقصـــيرا منى أو عجزا فى مقدرتى ، فالملكة قد أصيبت فى غيبة طبيبها ، وكان ينبغى تشريط مكان اللدغ وتطهيره قبل أن يدق قلبهـــا مائة دقة ، وقد دعيت اليها بعد ذلك ، أى بعد أن جاوز الأمر قدرة الطبيب مهما يكن علمه ! ٠٠

ووفقا للتقاليد ، بقيت بالقصر الى أن يأتى رجال « دار الموت » ليحملوا جثتهـــا ، وفى هذه الأثناء قابلت الكاهن « آى » بجانب فراش موتها ، فقال لى وهو يلمس خديها المنتفختين : كان من الخير أن تموت !٠٠ فلم يكن أحد يريد لها أن تعيش ! ٠٠ كان الجميع يبغضونها ، حتى أنا ! لقد كانت تاتمر بى ، وتكيد لى من وراء ظهرى ! ٠٠ ان شرورها وآثامها قد عجلت بمصيرها ، ولنا أن نرجو أن تنتهى بموتها هذه القلاقل الثائرة بين طوائف الشعب ! ٠٠

وخيل لى ، وانا اسمع حديثه أن له يدا فى اغتيال الملكة الوالدة

ولكنى استبعدت ذلك من خاطرى ، لأنه لا يقوى على ارتكاب مثل هـــذه الجريمة ! ٠٠

وشاع نبأ موتهــــا فى « طيبة » ، فتلقاه الناس فرحين مهللين ، واحتشدوا فى الميادين العامة ، مرتدين أبهى ملابسهم كما لو كانوا فى يوم عيد ! ٠٠ ورأى الكاهن « آى » أن يستميل اليه عطف الجماهير ، فأمر فى الحال بطرد الزنوج السحرة الذين كانت تؤويهم « تايا » بأقبية القصر الذهبى ، فأخرجوا منها والسياط تلهب ظهورهم ، وكانوا أربعة من الرجال ، وخامستهم امرأة دميمة الوجه ، بدينة شائهة كفرس البحر تماما ٠٠٠ وقذف بهم الحراس الى خارج القصر ، فانقضت عليهمالجماهير ، ومزقوهم شر ممزق ، ولم يعصمهم سحرهم من ذلك المصير الفاجع ! ٠٠

وجمع الكاهن « آى » ما كان لدى هؤلاء الزنوج من أدوات السحر ، من عقاقير وجذوع أشجار مقدسة ، فأشعل فيها النار ، وكنت أود الا يفعل ذلك ، حتى نعرضها للبحث ، استطلاعا لما تنطوى عليه من أسرار ! ٠

ولم يثر هذا الحادث حزن أحد ممن فى القصر سوى الأميرة «باكيت آمون » ، التى كانت تجلس الى جوار أمها ، وتضع يديها الجميلتين على جسدها المسجى وتناجيها قائلة : لقد أخطأ زوجك ــ يا أماه ــ اذ سمح للرعاع أن يفتكوا بسحرتك على هذه الصورة البشعة ! ٠٠ ورفعت رأسها لتقول لى : ان أحدا من هؤلاء السحرة لم يكن من سوء الطوية الى الحد الذى يبرر هذا المصير ، وما كانوا بالراضين عن اقامتهم بأقبية البيت الذهبى ، فما أكثر ما كانوا يتمنون الرجوع الى الغابات وأكواخ القش ، وانما هى ارادة أمى التى حالت بينهم وبين ذلك ، فظلوا بالأقبية هنــا كالمعتقلين ، على كره منهم ، وكان ينبغى الا يأخذهم الناس بجريرة أمى! لقد ظلموهم ! ٠٠

وحدقت الأميرة فى وجهى ، وقالت وهى ترفع رأسها بخيـــلاء : ما حال « حورمحب » الآن ؟! انه ، على وضاعة أصله وجفاء طبعه ، يتمتع بقوة بدنية ، يمكن ــ اذا تزوج ــ أن ينسل بها نسلا قويا ! ٠٠ أتراه لم يتزوج بعد ؟! ولماذا كان ذلك ؟! ٠

قلت لها : انه السؤال الذى يسألنى به كثيرات من النساء ٠٠ فلست فيه الأولى يا أميرتى ! ٠٠ ولكنك الأولى التى ستظفر بما لم أجرؤ على الافضاء به الى غيرك من حقيقة أمره !٠٠ فأنت الوحيدة التى يجوزلى أن أتحدث اليها فى ذلك ، تفسيرا للسبب الذى منع « حورمحب » ، الى

اليوم ، من الزواج!٠٠ فاعلمي ياسيدتي ، أنه حينما جاء في صغره ، ولأول مرة ، الى هذا القصر ، وقعت عيناه فيه على القمر ، فبهره ، وملأ قلبه ، وسلب لبه ، ولم تستطع الاحداث ، ولا طول الزمن ، أن تحد من افتتانه به ، وتدلهه فيه ، وكان هذا هو الذي صرفه عن النظـــر الى أية امرأة أخرى ، وهكذا — حتى الآن — لم تظهر في حياته المرأة التي يراها خليقة بأن تكون زوجته ، فذلك سره ، ويبقى منه أنك أنت يا «باكيت آمون» قد نموت نموا جعل القمر في عيني « حورمحب » أشد جمالا وأبهى ضياء !٠ وقد لا أحتاج في موقفي الساعة الى شيء هو أكثر أهمية من معرفة رأيك واستيضاح شعورك !٠٠ ولا شك فيأنك توافقينني علىأنه من غيرالطبيعي أن تبلغ الشجرة غاية ازدهارها ثم لا تثمر !٠٠ وأحســـبك قد فهمت ما أعني ؟! والحق انه ليسعدني — كطبيب — أن أرى بطنك يســـتدير بالجنـــين الذي ينبغي أن يكون ثمرة الشجرة التي بلغت غايتهـــا من الازدهار !٠٠

ولكنها دفعت رأسها الى الخلف استكبارا وقالت : ان ثمت أمرا كان يجب أن تذكره جيدا قبل أن توجه اليهذا الحديث المراوغ ، ذلك أندمي أنقى وأقدس من أن يختلط بأنقى دم في «مصر» !٠٠ وأنمكاني — كزوجة — لا ينبغي أن يكون أدنى من مكان زوجة « فرعون » ، وكان خليقا بأخي أن يتخذني زوجته الاولى ، ولو أن هذا كان قد حدث ، لولدت له — بلاشك — مولودا ذكرا منذ أمد بعيد !٠٠ أما « حورمحب » هذا ، فاني لم أكن لاتردد — لو كان الامر بيدي — في أن آمر بانتزاععينيه من وجهه ، جزاء اجترائه على رفعهما الى القمر في مكانه الأسنى !٠٠ على أني ، في الواقع ، أشعر بالاشمئزاز والتقزز لمجرد التفكير في الرجال ، وفي تلكالعلاقات البغيضة بينهم وبين النساء !٠٠ ان ما فيهم من خشونة ملمس ، وصلابة عضل ، يهبط بهم الى مرتبة الحيوانات المفترسة ، ولا تطيق المرأة الرقيقة أنتحيا في أحضان رجل له من هذه الحيوانات شبه قليل أو كثير !٠٠ هذا الى أني اعتقد أن المتعة التي ينالها النساء من الرجال مبالغ فيها كثيرا ، ولا تساوي ذلك الثمن الغالي الذي تدفعه المرأة من حريتها ونضارتها ! ٠٠

وبنظرتي الفاحصة ، فطنت الى أن « باكيت آمون » تتكلف رأيهـا هذا تكلفا ، وتخفي فيه رغبتها كامرأة ، فقد كانت عيناها تبرقان بريق الغريزة المكتومة ، وكانت القوة تخونها في مغالبة زفراتها ، فقلت لها : لقد رأيت صديقي « حورمحب » يشد عضلاته فتتحطم على الفور الحلقة النحاسية القوية الملتفة حول ذراعه ، وهو يمتاز بين الرجال بدقة البدن ورشاقته ، واتساق ضواحيه ، ووثاقة تركيبه ، حتى أنه اذا ما دقبقبضة

يده على صدره ، فى ساعة غضب ، سمع له رنين الطبل المشدود ، ولهذا فنساء البلاط يلاحقنه ملاحقة القطط للطعام الدسم ، وهو يستطيع أن يظفر منهن بكل ما يريد ، اذا استجاب الى ندائهن الأنثوى الصارخ!٠

فاختلجت شفتا « باكيت آمون » ، وحال لون طلائهما ، وصاحت في حنق : سنوحى !٠٠ ان كلماتك غير محببة الى نفسى ، ولا أدرى لماذا تضايقنى بهذا الحديث عن « حورمحب » ذلك الوضيع الأصل ، التافه المنبت ، الذى يثير اسمه غضبى وسخطى ؟! وفيم اختيارك لهذا الحديث فى لحظة الموت الرهيب ؟!٠٠

ولم أشأ أن أقول لها انها هى التى بدأت الحديث عن «حورمحب» ، ولكنى قلت لها متظاهرا بالندم : معذرة يا « باكيت آمون » ، ولتبقى ـ كما تشائين ـ شجرة يانعة ، من غير ثمر ، فان جسدك أقوى من أن تنال السنون من نضارته ، بل انى لأتسلف له على كرور الايام مزيدا من الفتنة والجمال !٠٠ ولكن خبرينى : أليست لأمك وصيفة كانت منها بموضع الثقة ، تأتى الآن لتنوح بجانب فراش موتها ؟! لابد من نائحة تبكى عليها الى أن يصل الرجال الذين يحملونها الى « دار الموت » ، حتى لقد فكرت أنا فى أن أبكى لأملأ هذا الفراغ ، ولكن ذلك ليس ممكنا ، لاننى طبيب ، وقد جفت عيناى لتعودهما منظر الموت !٠٠ والحق انها لعادة تفرضها العواطف لساعتها ، ولكنها تتلاشى عندما يطل العقل عليها بتأملاته البعيدة ، فما الحياة الا اليوم القائظ الشديد الحرارة ، وما الموت الا المساء اللطيف النسمات ٠٠٠ نعم يا أميرتى ، ان الحياة هى الشاطىء الضحل ، أما الموت فانه البحر الزاخر بالماء والصفاء !٠٠

قالت : دع حديث الموت يا « سنوحى » ، فالحياة محببة الى نفسى ، وحقا انه لمعيب ألا يوجد أحد يبكى أمى وينوح عليها بجانب فراشها ، ولست بمستطيعة أن أبكى ، فهذا لا يوائم مركزى ، وانى لمرسلة اليك امرأة من نساء البلاط ، تشاركك القيام بهذا الواجب !٠٠

قلت لها ، متفكها : لقد أثارنى جمالك يا « باكيت آمون » ، وترك حديثك فى نفسى أثرا جميلا ، فأرجو أن تبعثى الى بامرأة عجوز هرمة ، لا تشتهيها النفس ولا ينصرف اليها الهوى ، لأظل سعيدا بمتعة هذا الجمال الرائع !٠٠

قالت لى مؤنبة : يا سنوحى !٠٠ يا سنوحى !٠٠ الا تخجل من هذا الذى تقوله ؟! فاذا كنت لا تخشى الآلهة كما يقال عنك ، فلا أقل من أن تصانع الموت بشىء من الرهبة والوقار !٠٠

ولكنها ، كسائر النساء ، انصرفت غير غاضبة !..

وجاءت بعد قليل المرأة النائحة ... وكانت ــ كما رجوت ــ عجوزا شمطاء ، اسمها « ميهو نفر » ، وما أردتها كذلك الا عن قصد أهدف اليه، فان أسرار القصر ، لزمن بعيد ، لا يعيها وعيا دقيقا الا عجائز حريمه ، وكنت أعلم أن زوجات « فرعون » السابق ما زلن أحياء ، وهن يعشن بالبيت الذهبي كما يعيش به زوجات فرعون « اخناتون » ووصيفات الأميرات الصغيرات !..

وأخذت المرأة العجوز تؤدى دورها بالبكاء والنحيب وشد الشعر وتمزيق الملابس . وقد أدركت من نظرتي الفاحصة لوجهها انها من اللواتي لا تنطفيء عندهن شهوة الخمر والرجال !..فأسرعت الى احضار النبيذ، وعرضت عليها شيئا منه ، فلم ترفضه ، وراحت تحتسيه في غيراحتشام بعد أن قضت بعض الوقت فى البكاء المصطنع ، وبعد أن أكدت لها ، بوصفي طبيبا ، ان النبيذ يعينها على تأدية دورها بمهارة تكسبها الشهرة والثناء !..

وفى مداهنة محكمة ، رحت أتحدث عما يتجلى من آثار جمالهـا ، زاعما لها أن بقايا هذا الجمال تفوق اليوم جمال الكثيرات فى شرخ شبابهن، وتدرجت من ذلك الى الكلام عن الاطفال وبنات فرعون «اخناتون» ، وبلهجة ساذجة سألتها : أصحيح أن الملكة « تايا » كانت الوحيدة من زوجات فرعون « أمنحوتب الثالث » التى ولدت له ولدا ذكرا ؟!..

فهزت « ميهو نفر » رأسها ، مشيرة الى أن أمسك عن الكلام ، وقد تعلق نظرها ــ فى خوف ــ بجسد الملكة « تايا » المسجى فى فراش الموت ! ..

فتركت هذا الحديث ، وعدت الى مداهنتها ، متحدثا مرة أخرى عن جمالها ، وشعرها الناعم اللطيف ، وملابسها الأنيقة الفاخرة ، ومجوهراتها الثمينة الغالية ، معبرا بكلمات شعرية مؤثرة عن اعجابي بشفتيها وعينيها ! وقد استطعت آخر الامر أن أبلغ منها ما أردت بهذه العواطف الزائفة ، فلانت ونسيت بكاءها ، وانصرفت بكل حواسها الى سماع كلماتي ، كأنها تسمع لحنا مشجيا ، وكذلك شأن النساء ، يغرهن دائما الثناء !.. وأشدهن شوقا اليه ، وتفتحا له ، وأكثرهن تصديقا لما فيه من أكاذيب ، هؤلاء المتقدمات في السن ، العاريات من الجمال !.. وكانت « ميهو نفر » واحدة منهن ، فصدقتني وانعقدت بيننا ، سريعا ، أواصر الصداقة العزيزة ! ..

وجاء الحمالون من « دار الموت » ، فحملوا جثة الملكة الوالدة وذهبوا بها الى هناك . ولم تشأ « ميهو نفر » أن نفترق ، فدعتني الى حجرتها ، وأخذنا نعب فيها من شراب النبيذ ، وشيئا فشيئا انحلت عقدة لسانها ، فمالت على متحسسة وجهي بيدها ، وراحت تصفني بالصبي الجميل ، وتسرد على مسمعي وقائع شائنة وتصرفات فاجرة ، قالت انها حدثت بالبيت الملكي !.. وكانت ، وهي ترويها ، تندمج فيها وتدور معها كأنها جزء منها ، وتضفي عليها من حركاتها المبتذلة الوانا من الاغراء تثير بها عواطفي نحوها . وكان يشتد عندها وخز الشهوة ، فتأخذ في ملاصقتي ومعابثتي !.. ولكني ، في غمار شعورها الملتهب ، قلت لها : لقد كانت الملكة «تايا» تجيد جدل أعواد الغاب ، وتحذق تضفيرها كأحسن مايصنع صائدو الطيور ... فهلا علمت ، وأنت رفيقتها الأثيرة ، أنهـا صنعت بيديها قوارب صغيرة من الغاب وألقت بها الى النهر ، ليذهب بها تيـار المياه بعيدا عن الشاطيء ؟!

وأثار هذا دهشتها ، وقالت : هذا صحيح ، ولكن كيف جاءكالعلم به ، وهو الخفي الذى قلما يعلمه أقرب الناس اليها ؟! ..

وكان النبيذ قد لعب برأسها ، فراحت تصور نفسـها لي صـورة السيدة ذات المكانة العالية في القصر ، قائلة : وما أراك تعرف أكثر من هذا !.. ولكني أنا أعلم الكثير ، الكثير الذى لا يعلمه سواى !..ان الملكة « تايا » قد صنعت القوارب الصغيرة من الغاب ، وألقت بها في النهر ، ولكنها لم تكن تفعل ذلك لاهية ، كما لم تكن تدفع بها الى النهر فارغة !.. ان ثلاثة من أبناء « فرعون » الذكور قد وضعوا على هذه القوارب ، فور ميلادهم ، فاندفعت بهم في مضطرب الامواج والاعاصير ، الى حيث لا يعلم مصيرهم أحد !.. هكذا شاءت الملكة « تايا » أن تفعل بهم ، لانهم جاءوا من زوجات « فرعون » الأخريات ، وهي تأبى الا أن تكون وحدها أم ولده وولي عهده !.. وكان من اليسير عليها أن تقضى عليهم بطريقة أخرى ، فلا تدعهم احياء ، ولكنها وقتئذ كانت تخشى الآلهة ، ولا تأمن لعنتها ان هي سفكت دما أو أزهقت روحا ، فكانت تقنعباخفائهم على هذه الصورة، مطمئنة الى أنهم لو قدر لهم أن يعيشوا ، فلن يستطيع أحد أن يعـرف نسبتهم الى « فرعون » ، ولن يكونوا في الحياة أكثر من لقطاء منبوذين، وأبناء فقراء مجهولين !.. غير أن « آى » ، بعد أن استوثق مكانه بالقصر، واتصلت أسبابه بالملكة ، علمها كيف تستعملالسم في تحقيق أغراضها، وأزاح عنها ما كان يركبها من الخوف في هذا السبيل ، وكان من نتائج ذلك أن ماتت الاميرة « تادوكيبا » أميرة « ميتاني » ، وهي لمـا تزل في

غمرات الأسى والحزن والبكاء على ابنها الذى فقدته ، ولا تعرف مكانه ، وكانت تحاول الهرب من القصر لتبحث بنفسها عنه !٠٠

فقلت لها ـ فى مكر ـ وأنا أتحسس خديها مداعبا : أكبر ظنى أنك تتخذين من جهلى بما فى هذا القصر . وبما تلحظين من قلة تجاربى ،ملهاة وتسلية ، فتملئين رأسى بهــذه الاقاصيص الغريبة التى تروعين بهـــا أفكارى ؟! والا فما هذا الذى تقولينه عن أميرة «ميتانى» ؟! انهـــا على ما أعلم ويعلم الناس قاطبة ، لم تلد ابنا لفرعون ؟! فان كان حقا ماتقولينه، فاخبرينى متى حدث هذا ؟! ٠٠

قالت : لست ، كما تدعى ، جاهلا ولا قليل تجربة ، يا سنوحى !٠٠ وما يغيب عنى وأنت تجالسنى مجالسة الخبير بطبيعة النســاء ، أنك الفطن الواسع الحيلة ! ٠٠ وقد أكثرت من اطرائى ومدحى ، وتحسبنى مصدقتك فى هذا !٠٠ على أنى مع ذلك لا أضيق بأكاذيبك ، وأشعر فيها بلذة ، ولا أرى ثم مانعا يمنعنى من الاستجابة الى رغبتك فى الاحاطة بسر أميرة « ميتانى » ، فأعلم ـ اذن ـ يا سنوحى ، ان هذه الاميرة كانت طفلة صغيرة عندما دخلت فى عداد نساء فرعون « أمنحوتب الثالث » ، وكانت طوال طفولتها تتلهى بلعب الاطفال ، الى أن نمت وترعرعت ، تماما كما كانت حال تلك الامـــيرة الاخرى التى تزوجت « أخنــاتون » ، ثم ماتت كذلك !٠٠ ولم يكن فرعون « أمنحوتب الثالث » يعاشر هذه الطفلة كما يعاشر الرجل المرأة ، بل كان يحنو عليها حنوه على الاطفال ، ويحبها حبه لهم ، ويلاعبها ملاعبة الوالد لابنه ، ويهدى اليها لعبــا من الذهب ٠٠٠ ولكنهـــا كبرت ونضجت نضوج الثمرة الشهية . فما ان بلغت الرابعة عشرة من عمرها حتى استدارت أطرافها،واكتملت أنوثتها ، وتنضروجهها بالجمال المشرق الذى عرفت به نساء « ميتانى » الى ما كان فى عينيهـــا من سحر حالم !٠٠ وعندئذعاشرها « فرعون » معاشرة الأزواج ، واختصها بأكثر مما كان يوليه نساء القصر ، فلم يكن يغادر فراشها الا نادرا ، على الرغم مما كانت تحيكه الملكة «تايا» من مؤامرات لاقصائه عنها !؟ ٠٠وفى وقت واحد بدأت تظهر على الاثنتين ، أميرة « ميتانى » والملكة « تايا » ، علامات الحمل ، وقد فرحت الملكة «تايا » بحملها فرحا شديدا ؛ لانهـــا الى ذلك الحين لم تكن ولدت لفرعون سوى ابنتها « باكيت آمون » ، هذه الفتاة المتغطرسة !٠٠

وهنا تناولت « ميهو نفر » كأسا من النبيذ ، وتوقفت قليلا ، كما لو كانت تراجع ذكرياتها البعيدة ، ثم استرسلت قائلة : غير أن « تايا »

كانت خلال ذلك تعاني أشد الآلام وتسيطر عليها أقسى مشاعر الحقد والكراهية لهذه الزوجة الاخرى التي تحمل مثل حملها ، وقد حاولت جاهدة أن تجهض « تادوكيبا » كما فعلت بكثيرات غيرها من سيدات القصر ، مستعينة في محاولتها هذه بزنوجها السحرة ، بيد أنها فشلت ، وكان ذلك يضنيها ويشقيها ، فما تعودت أن تفشل ، ولكنها لم تيأس ، فقد حدث ، قبل ذلك ببضع سنين ، أن ولدت امرأتان من نساء «فرعون» طفلين ، فاستطاعت أن تخفيهما ، وتدفع بهما الى النهر على قاربين من الغاب ، ومن الممكن أن تفعل مثل ذلك اذا ما ولدت أميرة « ميتاني » ولدا !٠٠ ولكن الملكة « تايا » كانت تخشى ألا يتحقق لها هذا ، فقد كانت المرأتان ، والدتا الطفلين اللذين تخلصت منهما ، أسهل منالا من أميرة « ميتاني » ، اذ كانت كل واحدة منهما لا تبدى شيئا من السخط والاعتراض اذا وجدت في فراش المولود بنتا مكان الابن !٠٠ ودائماكانت الملكة « تايا » تشغلهما عن ذلك بالهدايا التي تزجيها اليهما في سخاء ، وليست هكذا حال أميرة « ميتاني » ! ٠٠ انها تعتز بنفسها اعتزازا كبيرا ، وتبدو عنيدة شديدة البأس ، فالدم الملكي يجرى في عروقها ، على خلاف الأخريات ، ثم ان لها مكانها الأعز من نفس «فرعون» ، عدا أن لها أصدقاء كثيرين ذوى نفوذ كبير ، وكانت هي بدورها ترجو أن تلد طفلها ذكرا لتزداد قربا من قلب « فرعون » ، ولتصبح لزوجته الاولى مكانا من عرشه ، ومعنى هذا أنها تنافس « تايا » على مكانها منه ، وذلك هو الذى يتفاعل في نفس « تايا » ويقض مضجعها ويزعجها أيما ازعاج ٠ وكلما كبر الجنين في بطن أميرة « ميتاني » ، ساء طبع « تايا » ، وشرست أخلاقها ، وأصبح جميع من في القصر يرهبونها ويخشون شرها ، خاصة بعد أن رأوا الى جانبها الكاهن « آى » الذى استقدمته من مدينة « هليوبوليس » ، فقد كان يشد من ازرها ، ويمكن لها من النفوذ والسيطرة ٠٠ فلما حان موعد الولادة ، أخذ هذا الكاهن في التمهيد لتحقيق أغراضها ، فأقصى أصدقاء أميرة « ميتاني » بعيدا عنها ، واستبدل بهم في أماكنهم الزنوج السحرة ، وقد أحاط هؤلاء بالاميرة ، وزعموا لها أنهم في خدمتها ليخففوا عنها آلام الولادة !٠٠ ولكنها بعد أن أفاقت من غيبوبة المخاض رغبت في أن ترى وليدها ، فقدموا اليها بنتا لا حراك بها ، فقد كانت فارقت الحياة قبل ذلك ، فهالها هذا الامر وروعها ترويعا قاسيا ، وصرخت في وجوههم ، منكرة أنها ولدت هذه البنت الميتة ؟ وعبثا حاولوا اقناعها أنها ابنتها !٠٠ لقد أصرت على أنهم كاذبون ، وكانت على حق ، فاني أنا « ميهو نفر » أعلم عن يقين ، أن أميرة « ميتاني » ولدت ابنا ذكرا ، مكتمل عناصر الحياة ،

ولكنه انتزع فى غفلة المخاض ، ووضع حيا ، فى الليلة نفسها ، بقارب من الغاب ، على صفحة مياه النيل ! ..

قلت لها ، وأنا أفتعل ضحكة عالية : العجيب فى هذا أنك ترو ينه كما لو كان سرا لا يعلمه احد سواك ، فكيف كان انفرادك به دون الآخرين ؟!..

فانتفضت ، وهى تشرب النبيذ ، وقالت : بحق الآلهة ، اننى لصادقة ... فقد كنت أنا التى جمعت فروع الغاب بأمر الملكة « تايا » ، ومن هذه الفروع صنعت الملكة القارب الذى ألقى الطفل فيه !..

فوثبت من مكانى منفصلا ، وأفرغت قدح النبيذ على الارض ، وحطمت القدح نفسه بقدمى فى اشمئزاز واحتقار !..

وأمسكت « ميهو نفر » بيدى واجتذبتنى اليها ، وقالت : انه سر كان لا ينبغى أن أفشيه لك ، ولكنك استدرجتنى الى افشائه بما فيك من قوة خفية سلبتنى ارادتى ، وما يعنينى ، بعد ، رأيك فى موقفى من هذا الحادث ، فانما هى الحقيقة ، أذكرها كما حدثت ، وليكن ما يكون ... نعم يا سنوحى ، اننى أنا التى جمعت أعواد الغاب بنفسى ، وأن « تايا » هى التى صنعت منها قاربا بيديها ، فلم تكن تركن الى أحد من الخدم فى ذلك لانتفاء ثقتها بهم ، وكنت واقعة تحت تاثيرها ، ولاأستطيع مخالفتها ، ثم انها كانت شريكتى فى هذا الجرم ، وهى الملكة ذات القوة والسلطان ، ولم ألحظ عليها ، وهى تقدم على ذلك وتدبر له ، أنها تشعر بشىء من وخز الضمير ، بل انها كانت تبدو مبتهجة لقدرتها على الفوز فيما كانت تحسبه معركة قائمة بينها وبين أميرة « ميتانى » ، وكان عزائى الوحيد أن طفلا حيا طافيا على وجه الماء قد يجد من يتلقفه ويحفظه ويرعاه ، ولكنه كان عزاء مشوبا بالاحتمالات السيئة ، فقد تشتد حرارة الشمس على الطفل فيموت ، وقد تتخطفه جوارح الطير فى الجو ، أو تلتهمه التماسيح فى الماء ! .. ذلك ماكان من أمر مشاركتى للملكة « تايا » فى جريمة كنت فيها مسوقة ، على كره منى !.. أما ما كان من أمر أميرة « ميتانى » ، فانها كما قلت ــ لم تصدق دعواهم فى أنها ولدت البنت الميتة التى قدموها اليها ، ذلك لانها ــ فوق شعورها الداخلى كأم ــ لا ترى فى هذه البنت شبها بها ، ولا علامة تدل على نسبتها اليها ، فثمة اختلاف كبير صارخ بينها وبين ما تتميز به نساء « ميتانى » فان بشرة أبدانهن فى مثل بشرة الفاكهة نعومة ، وازدهار لون . وكذلك رءوسهن تمتاز بالاستدارة الجميلة والدقة اللطيفة ، ولا شىء من هذا ، ولا قريبا

من هذا ، فى الوليدة المزعومة !٠٠ ولهذا أخذت الاميرة تبكى بكاء مرا ، وتشد شعر رأسها مهتاجة ، وتستنزل اللعنة على « تايا » وســـحرتها الزنوج ٠ ولكن « تايا » لم تفقد هدوءها ، فأمرت باعطائها مخدرا قويا ، ثم أذاعت أن أميرة « ميتانى » فقدت عقلها بسبب ولادتها طفلة ميتة !٠٠ وصدق الناس ذلك ، حتى « فرعون » نفسه ، اذ كان هياج الاميرة المستمر ، وأفكارها المبلبلة ، وشروعها أكثر من مرة فى مغادرة القصر للبحث عن ابنها الذى تتخيله مفقودا ، كان ذلك مما يبرر تصديق « تايا » فى ادعائها أن الاميرة قد جنت ، ولذلك لم يصغ « فرعون » الى ما توجهه الامـيرة علنا من الشكوك والاتهامات الى الملكة « تايا » ٠ وكان لهذا أسوأ الأثر فى نفس الأميرة فذوت نضارتها ، وخارت قواها ، واعترتها العلل ، ولم تلبث الا قليلا حتى انتقلت الى الحياة الاخرى !٠٠

وفى نشوة « ميهو نفر » ، وخلال غبطتها بالرفيق الذى ساقتـــه الظروف اليها ليجدد شبابها المنصرم ، راحت تنظر فى يدى متأملة ، ثم تقلب يديها متأملة فيهما كذلك ! ٠٠ وهنا اعتكر مزاجها ، لانها كانت تلحظ فرقا كبيرا بين يدى الناعمتى الملمس ، ويديها المعروقتين اللتين تشبهان مخالب الحيوان العجوز !٠٠ وخيل اليها أن هذا قد يصرفنى عنها ويزهدنى فيها ، فاضطربت ، ولكنى نحيت عنها هـــذا الخيـــال بالعبارات الخادعة المغرية ، لتواصل الافضاء بالقصة كاملة ، وقلت لها : « ميهو نفر » يا ذات الجمال الساحر !٠٠أولا تذكرين متى حدث ذلك؟!٠

فأبهجها هذا ٠ وفى شغف ، أخذت تتحسس مؤخرة عنقى بيديها المتفصدتين عرقا ، وقالت : أيها الصبى الجميل ، لماذا يضيع الوقت بيننا فى الحديث عن أشياء طواها الماضى البعيد ، ولا قيمة لهـــا فى حاضرنا السعيد ؟! ٠٠ ألا ترى انه خير من هذا أن نجعل من ذلك الوقت ، وهو يكاد يفلت من أيدينا ، سبيلا الى المتعة الحبيبة الى الرجل والمرأة عندما يلتقيان فى مثل هذه الخلوة ؟!٠ ومع ذلك فانى وقد صرت طوع أمرك ، لا يسعنى الا تحقيق رغبتك فى الوقوف على ما تشاء من المعـلومات عن هذه الاحداث القديمة ، وانى لأذكر أنها حدثت بعد اثنين وعشرين عاما من حكم فرعون العظيم « امنحوتب الثـــالث » ، وكان ذلك فى الخريف حيث كانت مياه النيل فى ذروة ارتفاعها ٠ ولا يدهشك أن أذكر هذا التاريخ محددا ، فان مولد فرعون « أخناتون » كان فى الربيع التالى من السنة نفسها ، وهذا تاريخ لا ينسى ! ٠٠

وغشيتنى من هذا الحديث غاشية ، كدت أفقد فيها وعيى تماما

حتى أنى لم أشعر « بميهو نفر » وهى تترامى على فى ثورة الشهوة الجائعة، وتنهال على وجهى تقبيلا بشفتيها المبللتين بالنبيذ ، وتضمنى الى صدرها ضما وثيقا ، وتناجينى مناجاة العاشق الولهان !٠٠

لقد كان ما أفضت به هذه المرأة شيئا بالغ الخطورة ، ومعناه ، إذا كان صحيحا ، أننى ذلك الوليد المقذوف به الى النهر على قارب الغاب ، وأن دم « فرعون » العظيم يجرى فى عروقى ، وكنت بذلك أخا غير شقيق لفرعون « أخناتون » ، وكان مفروضا أن أكون أنا مكانه ، صاحب العرش والتاج ، لانى كنت قد ولدت قبله ، وكانت أمى الاميرة آثر عند «فرعون» من أمه ، ولكنها الملكة « تايا » الطامعة الحاقدة ، قد حالت دون ذلك،ولم تعف فى هذا السبيل عن ارتكاب أشنع جريمة ! ٠٠

وأدركت من هذا سر شعورى بالوحدة الدائمة بين النـاس ، فان للدم حكمه الطبيعى فى مثل هذه الحال ٠

واستغرقتنى هذه الافكار القاسية الى أن أفقت على الحركات المريبة التى كانت « ميهو نفر » مسترسلة فيها معى ، وكانت اذ ذاك تحتوينى جملة بين ذراعيها ، فانتابنى منها ما يشبه الغثيان ، ودافعتها فى عسر شديد ، ورحت أغريها بالنبيذ ولكنها كانت قد بشمت فلم تعد تحتمل منه مزيدا ، ورأيت أن أضع لذلك حدا ، فمزجت كأسها بقطرات من عصير الخشخاش ، وما كاد الشراب يستقر فى جوفها حتى أسلمها الى نوم عميق !٠٠

وغادرت من فورى جناح نساء القصر ٠ وكان حرس القصر وخدمه يشيعوننى بضحكاتهم وغمزاتهم ، فقد كنت أخطر بينهم متمايلا لفرط ما أصابنى من اضطراب الأعصاب وشراب النبيذ ، وكانت ملابسى كذلك قد تشعثت على صورة تلفت الانظار !٠٠

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما عدت الى منزلى ، وهنـــاك كانت « ميرييت » ترقب عودتى فى قلق لطول غيابى ، ذلك الى أنها كانت متلهفة على معرفة الانباء المفصلة لوفاة الملكة « تايا » ، ولكنها ما ان رأتنى حتى امتقع لونها ورفعت يدها الى فمها فى دهشة عريضة ٠ وكذلك كانت حال « ميوتى » ، وقد أخذت كل منهما تنظر الى الاخرى فى استنكار !٠

وقالت « ميوتى » مخاطبة « ميرييت » فى مرارة : ألم أقل لك ، ألف مرة ، ان كل الرجال سواء فى فساد الطباع وسوء السلوك ؟!٠

وكنت أريد أن أخلو الى نفسى وأفكارى ، فقلت لهما غاضبا : لقد

قضيت يوما حافلا بالمتاعب ، ويعتريني الآن اجهاد شديد ، فلا اطيق ان اسمع ثرثرة او أرى مثل هذه الحركات السخيفة !..

فضـــاقت عينا « ميرييت » ، وعلت وجهها الكآبة ، وجاءت بمرآة فضية فوضعتها أمام وجهي وقالت : ماذا ترى من نفسك يا سنوحي ؟!.. انظر جيدا ، فما أحسب عينك تخدعك أو تكذب عليك !.. وانك لحر في الاستمتاع بمن يحلو لك الاستمتاع بهن من النساء ، فما أنا بمانعتك من ذلك ، ولكني لم أكن أتصور أن تبعد عني ساعات من نهار لتعود هكذا حاملا على وجهك آثارا ناطقة من العبث كأنها السهام المسمومة المصوبة الى كرامتي ؟!.. هذا كثير لا يحتمل !..

وروعني منظر وجهي بالمرآة !.. لقد كان منظرا مثيرا حقا ..فهذه المرأة « ميهو نفر » قد أشاعت فيه أخلاطا من اللون الاحمر الذى كانت تموه به شفتيها !.. انها كانت تسرف في ضمي وتقبيلي ، وذلك هـــو الدليل الذى يفضـــح سرها ، ويشي بما كان ينبغي أن يظل خافيا من امري معها !..

واسرعت ، في خجل ، الى مسح وجهي وغســـله بالزيت المعطر ، وقلت في خجل كذلك : لا شيء مما تبادر الى ذهنك يا عزيزتي «ميرييت»!.. ان الموقف ينطوى على حقيقة أخرى غامضة لا تحتمل ســـوء الظن !.. فدعيني أشرح لك !..

قالت « ميرييت » ببرود : لا حاجة بي الى شرح يا ســـنوحي !.. لا أحب أن تلوث مخك بتلفيق الاكاذيب من أجلي ، ان وجهك قد أغنانا ، كلينا ، عن هذا العناء !..

ومضى وقت طويل دون أن أستطيع اقناع « ميرييت » بانه ليس في الامر ما يريب . وكانت « ميوتي » في هذه الاثناء تبكي أشـــد البكاء ، راثية لحال « ميرييت » التي كان يجب أن تكون مثلها حذرة من الرجال سيئة الظن بهم ، ثم تركتنا ذاهبة الى المطبخ وهي تصب لعنتهـــا على جميع الرجال !..

وتابعت حديثي الى « ميرييت » ، محاولا تهدئة أعصابها الثائرة ، وقلت لها : انها لقسوة منك ألا تصدقيني !.. لقد كنت أومن بانه لا أحد سواك يعرفني مثلما أعرف نفسي ، وكان ينبغي أن تثقي بي ، فلا يأخذنك العناد فيما ليس من الحق في شيء ، ولست في حل من أن

اذكر لك ما لقيت هنـــاك بالبيت الذهبى !٠٠ انه سر لا أملك الكشف عنه ، ومن الخير لك أن تجهليه !٠٠

قالت لى فى حدة لسان ، كأنها وخزات الزنابير : نعم ٠ أعرفك كما لم يعرفك أحد غيرى !٠٠ وكنت أشعر أن فى أخلاقك عيوبا ، وهذا الذى حدث اليوم رشح منها !٠٠ وما أطالبك بكشف سر السـيدة التى قضيت معها الساعات الهانئة ، بالقصر الذهبى ، فما أنا بالتى تدس انفها فيما لا يعنيها !٠٠ وليس الذى بينى وبينك بأكثر من عـــلاقات عجلى يفرضها الفراغ !٠٠ وشكرا للآلهة اذ ألهمتنى الحكمة حين أبيت أن أكسر الجرة بينى وبينك !٠٠ فكلانا حر يفعل لنفسه ما يشاء !٠٠ حقا ماكان أكثر غبائى عندما كنت أستمع ـ مصدقة ـ لتلك الكلمات الكواذب التى كنت ترددها على اذنى ترديد الاغنيات ، مصورا بها حبك لى وهيـــامك بى !٠٠ كان هذا شأنك معى ، ولم تكن صادقا !٠٠ وأغلب ظنى أن هذا كان شأنك نفسه مع تلك الغادة الجميلة التى خدعتها أيضا بأغنيـــات الحب المزعوم !٠٠

وفى حسرة وأسى ، أردفت قائلة : ليتنى مت قبل أن أراك !٠٠

ودنوت منها لأربت بيدى على صدرها ، مخففا من حـــدتها وثورة نفسها ، ولكنها تراجعت صائحة : اليك عنى !٠٠ فما حاجتك الى ؟! ٠ ألست متعبا ؟! ان وسائد القصر الوثيرة أجدر أن تكون فراش المتعبين !٠٠ ولا شىء منها عندى ، وأنت غير غريب عليها ، فقد كنت منذ قليل تتقلب عليها !٠٠ وهناك كثيرات أوفر منى شبابا وجمالا !٠٠

بهذا الاسلوب اللاذع كانت تؤنبنى وتهيج آلامى ، ثم خرجت ثائرة دون أن تسمح لى بمرافقتها الى حانة « ذنب التمساح » ٠ وقد ضاعف هـذا فى ألمى ، ولـكننى كنت قد بلغت من اضـــطراب الافكار وثوران الاعصاب ، حدا لا يطاق احتماله ، وشعرت بالحاجة الملحة الى الخلوة ، لا تنفس فيها من هذا الضيق الجاثم ! ٠٠

ودخلت فى وحدتى مؤرق الجفن ٠٠ كانت أطرافى ، بعد أن زال أثر النبيذ ، ترتعش من البرد ، فتذكرت « ميرييت » ، وأسيت عـلى فراشها الذى كنت أجد فيه دفئى ، وران السكون على كل شىء حولى الا من صوت نقط الماء تتساقط رفيقة ، رتيبة ، فى ساعة الزمن المائية !٠٠ وبها وحدها ، عرفت أن الوقت يمر متتابع الخطو غير حافل بالقلوب الواجفة والعيون المسهدة !٠٠

وفى هذه الخلوة الغامرة ، حدثت نفسى قائلا : انى أنا سنوحى ،

ذلك الانسان الذى صنع نفسه بيده !٠٠ ان أعمال الانسان وحدها هي التي تخلق وجوده ، وتنشيء حياته ، وليس هناك شيء آخر يوزن معها ! ٠٠ وأنا ، كذلك ، سنوحى الذى قارف الاثم ، ومن أجل امرأة مستهترة ، عق أبويه وكرثهما بما لا قبل لهما به من أحداث الزمان ، فماتا فى ذل الفاقة وعار الحرمان !٠٠ وأنا « سنوحى » الذى جاب الاقطار ، وخفق قلبه بالحب الطاهر للفتاة التي زفت الى الموت الشنيع ، وهي تعتقد أنها قد زفت الى الاله المقدس !٠٠ انها « مينيا » ، تلك التي لا أنساها أبد الدهر ، والتي لا أزال محتفظا بالشريط الفضى الذى كانت تزين به شعرها !٠٠ أنا « سنوحى » ٠٠٠ قد بلوت الحياة صنوفا من حلو ومر ، فهل كان الدم الملكى ، الذى يجرى فى عروقى ، يستطيع أن يوجهني وجهة أخرى ؟! أو أن يحول بيني وبين شيء مما وقع ؟! انه ، كأى دم في الوجود ، لا ينطوى على قدرة خاصة ، ولا ينفرد بقوة مميزة ، ولا أرى ثمة حقيقة تلتقي فيها جميع العقول والافكار كحقيقة القدر ، تنبيء به النجوم وحدها !٠٠ وقد شاء القدر أن أبعث الى هذا العالم ، وأن أكون فيه غريبا ، والغربة معناها الشقاء !٠٠ ولقد عشت ، خلال اقامتي فى « اخيتآتون » ، مأخوذا بفكرة السلام التي تملأ رأس « فرعون » ، ولكن ما أسرع أن تبددت هذه الفكرة من خاطرى ، فأصبحت أعتقد أن الناس هناك انما يعيشون من هذا السلام في حلم لا وجود له في دنيا الحقيقة !٠٠ وكان الذى سمعته أخيرا من « ميهو نفر » كافيا لان يهز قلبى هزا عنيفا ، ويردنى الى ما شاء القدر أن أحيا فيه ٠٠٠ الى الوحدة ، أعنى الشقاء !٠٠

على تلك الحال ، من شرود الفكر وهواجسه ، قضيت ليلى وحيدا !٠٠

وما زالت هذه الافكار والخواطر تستغرقنى الى أن تنفس الصبح، وبزغت الشمس ، فأحسست فى ضوء النهار بهدوء الخارج من معركة مجهدة !٠٠ وكان لا مناص لى من التماس هذا الهدوء ، والسكون اليه ، والا قتلنى القلق المضنى الذى ظل آخذا بخناقى طوال يوم وليلة !٠٠ ورحت أسترجع نفسى بكل ما يمكن أن يرد على الفكر ، فى هذه الحال من تعلات ! ٠٠ فلماذا أذهب بعيدا مع هذا القارب الذى تحدثت عنه عجوز القصر «ميهونفر» ؟! ان قوارب كثيرة على مثاله تجرى فى النهر حاملة ـ بليل ـ أطفالا كثارا يراد التخلص منهم ، وليس من بينهم ابن ملك أو ابن أميرة ! ٠ فلم لا أكون واحدا منهم ؟! وهل يكفى بياض لون بشرتى ليكون دليلا على أنى ذلك الطفل الذى قذفت به الملكة « تايا » الى الماء ؟! الى طبيب ، وكأى طبيب آخر ، قضيت كل أوقات حياتى فى ظلال

الحجرات وتحت أسقفها بمنأى من لفح الشمس ، فبياض لونى ظاهرة لا ينفرد بها أبناء الفراعين وسلائل الملوك ! ٠٠

وبهذا تخففت من عذاب التفكير ، ونهضت هادئا فاغتسلت وارتديت ملابسى وتناولت الطعام الذى أعدته « ميوتى » ، وكانت عيناها محمرتين كما لو كانتا مخضبتين بالدم لفرط ما عانت من البكاء !٠٠ وكانت لاتبرح تنظر نحوى نظرات تنم عن ازدياد احتقارها للرجال لسوء سلوكهم !٠٠

واستأجرت محفة ذهبت عليها الى « دار الحياة » ٠ وهناك تفحصت عددا من المرضى ، وطببت لهم ، وأخذت بعد ذلك أطوف بالمعبد المهجور الذى كانت تهوم فيه مجموعة من الغربان !٠٠ وسنح ، على مقربة منى ، طير من الطيور المائية متجها نحو معبد « آتون » ، فمضيت فى أثره حتى انتهيت الى داخل المعبد ، ورأيت به كثيرين من النـــاس يستمعون الى التراتيل رافعين أيديهم بالدعاء ، منصتين الى الكهنة وهم يشرحون لهم دين « فرعون » ، ويبشرون له عندهم بالمقالة المؤثرة والعبارة الخالبة!٠٠ ولكن كثرة الناس وما يلوح عليهم من الانصات العميق ، لم يكن فى نظرى وقتئذ آية من آيات الايمان بدين « فرعون » ، وانما كان مظهرا من مظاهر الفضول الذى يحفز الناس دائما الى استطلاع كل جـديد !٠٠ وهؤلاء المتجمعون ، على ما يبدو من كثرتهم بالمعبد ، ليسوا الا قلة قليلة بالقياس الى « طيبة » ، تلك المدينة الكبيرة الحاشدة بالناس ، والحاشدة كذلك بمن لا يؤمنون باله « اخناتون » ودينه !٠٠ وللمرة الثانية رأيت النقوش على جدران المعبد ، ورأيت فرعون « أخناتون » مطلا علينا بوجهه ونظراته على رأس الاربعين عامودا التى أقيم له على كل منها تمثال ! ٠٠ وكانت سمات الايمان الصادق تبدو مشرقة على وجهه ٠ وغير بعيد منه ، رأيت تمثال « أمنحوتب » جالسا فوق عرشه على هيئة العجوز المتداعى الذى ينوء بثقل التاج المزدوج على رأسه ، والى جوار « أمنحوتب » رأيت تمثاله الملكة « تايا » وتمثال الاميرة « تادوكيبا » أميرة « ميتانى » ، وهى تقدم القرابين للاله « آتون » ، وقد وقفت أمام صورتها بعض الوقت متأملا ، وقد لفت نظرى أن كلمة « آتون » مستحدثة فى التمثال ، فهذا الاله لم يكن يعبد فى حياتها ، ولكنهم فى معبده الجديد قد محوا ما عداه من أسماء الآلهة وأثبتوا اسمه مكانها ٠ وقد تجلت الاميرة فى تمثالها سيدة جميلة، اقرب الى أن تكون فتاة ، منها امرأة فياضة الأنوثة ٠ وكان راسها الصغير ، تحت غطاء الرأس الملكى ، يبـــدو أكثر جمـــالا ، وكذلك كانت أجزاء جسمها ، رقة واستدارة ، ورشاقة تكوين ، وهنا ذكرت مصير هذه الفتاة الوحيدة فى بلاد غريبة !٠٠ وكدت أبكى حزنا عليها ٠ وبدافع من داخل

النفس ، حدقت فيها طويلا . وتقابلت في خاطري صورتي وصورتها ، وألحت على ذهني من جديد فكرة انتسابي بالبنوة اليها ، ولكني عدت أجاهد هذه الفكرة وأدافعها ، لوضوح الفارق الكبير بيننا ، فكيف تكون هذه الاميرة الصغيرة الوافرة الجمال ، أما لي ، أنا الذي ثقلت أطرافه ، واسترخت وثاقته ، وصلع رأسه ، ومشى التجعيد في وجهه ؟! .. هذا بعيد ، أو ينبغي أن يكون بعيدا .. فما جدوى التعلق بأفكار يعتريها الشك في أكثر نواحيها ؟! ولكني مع ذلك كنت أشعر بالكثير من الحنين اليها ، ولعله كان حنين ذكرى « ميتاني » وما رأيت فيها ، خلال رحلتي من دور فخمة وحياة رغدة مما يلذ لي تذكره ، ورجعة الفكر اليه ! .. فانما يرجعني الفكر ، به ، الى الشباب الخصب الذي ولى ، والى الحيوية النابضة التي زالت عني في « أخيت آتون » ! .

وانقضى يومي في مثل هذه الخواطر ، تلم وتمضي ، وتغدو وتروح ، حتى أقبل المساء ، فذهبت الى حانة «ذنب التمساح» لأصالح «ميرييت»، وأهدهد نفسها الغضبى ، وأستعيد قلبها النافر !.. ولكنها استقبلتني متراخية ، ولم تعطني من وجهها أكثر مما تعطي أي رائد غريب !. ولم أشأ التعجل في اقتحام عواطفها ، فطلبت منها طعاما ، فجاءتني به ورحت أتناوله في صمت ، وهي ترقبني شزرا ، حتى اذا فرغت من تناوله ، دنت مني وقالت بلهجة المغيظ : كنت هناك .. في أحضان خليلتك ، ومع ذلك تجيئنا جائعا ، لتأكل !..

قلت لها في شيء من الضيق : تخطئين كثيرا ، يا « ميرييت » ، اذ تحسبينني أضيع وقتي في تعقب النساء ، أو السعي الى أحضانهن ! .. هذا هراء ، يجب أن تكفي عنه ، كما يجب أن تفهمي جيدا أنني رجل مسئول أؤدي أعمالا هامة ! ..

ثم أخذت أذكر لها زيارتي لمعبد « آتون » وأعدد لها ، في حساب دقيق ، تحركاتي وخطواتي ، من أول النهار الى آخره . وكنت أتخيل أني قد ازحت عن صدرها كابوس الشك من ناحيتي ، ولكنها علقت على ذلك بقولها ساخرة : اني مصدقتك !.. فلم يكن باستطاعتك أن تكرر الفعل نفسه في هذا اليوم !.. لقد كان الامس يوما متعبا ، أجهدك واستنفد الصبابة الباقية في بدنك المتزايل ، ولكني انما ذكرت خليلتك، لانها جاءت الى هنا ، باحثة عنك ، فأرشدتها الى مكانك في « دار الحياة » !..

فانتفضت من مكاني ، وقفزت منه فزعا ، فانقلب المقعد ، وصحت قائلا : أيتها المجنونة !. ماذا تقولين ؟!.

قالت فى ابتسام وخبث : مرة أخرى ، أقول لك : لقـد جاءت إلى هنا ، باحثة عنك !٠٠ كانت فى أبهى زينة وأجمل ثيـاب وأثمن حلى ، وكان عبير العطر الذى أغدقته على نفسها يفوح قويا وينفذ الى بعيد ، الى أبعد من النهر !٠٠ ولكن وجهها ، والحق يقال ، لم يكن أكثر من وجه القرد جمالا !٠٠ ولا أدرى لمـاذا كان ذلك ، فى حين أن اليد الصناع قد ملأته طلاء ؟! انها حملتنى اليك هـذا الخطاب ، فخذه ! ٠٠ وهو ، كما تسلمته منهـا ، مختوم ، فلا عـلم لى بما فيه !٠٠ ولـكن لهفتها عليك وحرصها على لقائك ، وانفعالات وجهها المعبرة ، كانت كتـابا مفتوحا ، أكثر من ذلك الكتاب المغلق ابانة ووضوحا ! ٠٠ وليس يعنينى هذا فى كثير ، ولكن الذى يعنينى هو ألا تعود هذه المرأة الى الحانة مرة أخرى ٠٠ ان الحانة ذات سمعة حسنة ، وامرأتك هـذه ، كما يبدو عليها ، سيئة الخلق !٠٠

وفتحت الخطاب بيد مرتعشة ، وشعرت فى تلاوته بالدم يصعد الى رأسى ملتهبا ، وبقلبى يدق بين ضلوعى دقا عنيفا !٠٠ انها تقول :

« التحيـات الطيبـة الى « سنوحى » جراح الرأس الملـكى ، من « ميهونفر » حبيبة قلبه « والمشرفة على حياكة الملابس فى قصر « فرعون » الذهبى ٠٠٠ يا ثورى الصغير ، ويا غزالى الجميل : لقد استيقظت هـذا الصباح ، فألفيت نفسى وحيدة على وسائدى ، والصـداع يركب رأسى ، والآلام تنهش قلبى ، ذلك لانى وجدت مكانك خاليا بجانبى ، ولم يبق لى منك الا رائحتك المعطرة ، يعبق شـذاها فى يدى ، فأين ؟ أين أنت يا حبيب القلب ؟! وكيف طاب لك أن تتركنى هـكذا وحيدة عانية ؟! لكم أتمنى أن أكون الرداء الذى ترتديه ، أو الحلية التى تتزين بها ، أوالنبيذ الذى يترشفه فمك !٠٠ ها أنذا أجوب الطرقات مفتشة عنك ، متقصية أثرك ، متنقلة من مكان الى مكان ، ومن دار الى دار ، وسأظل كذلك حتى ألقاك ، ففى لقائك هنائى ، وبين ذراعيك سعادتى ، ولا حياة لى الا فيك ، فاذا قرأت خطابى هذا ، فوافنى مسرعا على جناح طائر ، فان أبطأ قدومك ، فانى ساعية اليك فى سرعة أخف الطيور ، ولك تحيات القلب من حبيبتك المخلصة « ميهونفر » » ٠

قرأت هـذا الخطاب أكثر من مـرة ، ولعلى كنت فى تكرار قراءته أخفى وجهى بين سطوره خجلا من « ميريت » ، فقد كان خطابا مزعجا ، وكانت عبـاراته مستهترة ، فيهـا أقوى الدليل على صدق ظنونها !٠٠ فماذا أقول لهـا دفاعا عن موقفى من هـذه المرأة الغريبة الاطوار ؟! ان منافذ الكلام قد أغلقت كلها أمامى ، وهى غير مصدقتى على أية حال !٠٠

وبينما كنت أخبط بفكرى خبط عشواء ، مدت « ميرييت » يدها ، فخطفت الخطاب ومزقته ، وحطمت بانفعال قطعة الخشب التى كان مطويا عليها ، وقالت لى ثائرة : لقد انكشفت الآن الحقيقة التى كنت حريصا على اخفائها عنى ... ولكن ماذا دهاك أيها الرجل ؟! وكيف أجدب ذوقك ، وأظلمت عواطفك ، الى هذا الحد المرذول ؟! ان هذه المرأة من القبح والدمامة بحيث تقذعها العين الرمداء ، ويزهد فيها القلب المحروم ، وقد حاولت أن تدارى قبحها ودمامتها وراء قشرة غليظة من الطلاء الذى أغرقت وجهها فيه ، ولكنها كانت بذلك أشد مسخا وتشويها ، ولم يجدها شيئا ، هذا الاسراف فى التصنع ، فكل شىء فيها كان يصرخ قائلا : هذه العجوز الشمطاء القبيحة لا تصلح لشىء سوى أن تكون وقودا للنار ، أو طعاما للكلاب ! .. انى لمشفقة عليك يا سنوحى ، فستجعلك هذه المرأة فى مدينة « طيبة » أضحوكة الناس وسخرية الساخرين ! ..

وهاجنى قولها ، وغلبنى الهم ، فضاق صدرى ضيقا شديدا ، فأخذت أمزق ملابسى فى ثورة عصبية جامحة ، وجعلت أصيح فى « ميرييت » قائلا : لم أعد أحتمل يا « ميرييت » !. ان الموقف بالغ القسوة والصرامة ، وهو يقتضينى عملا سريعا ، ولست أبرىء نفسى من هذا الخطأ الذى يبدو فظيعا ، ولكنه خطأ يهون كثيرا اذا عرفت دواعيه ، ولم أكن أعلم أنه سيلقى على رأسى بهذه الكارثة !.. والآن فلنلتمس سبيل الخلاص ، وهلمى فابحثى — فى عجل — عن بحارتى ، واطلبى منهم أن ينشروا القلاع ، فسأبحر من فورى هذا ، فرارا من هذه المرأة القذرة ، قبل أن تدركنى ، فلا أستطيع الافلات منها !.. انها تلاحقنى فى كل مكان من هذه المدينة ، فلنعجل !..

وهنا ، بدأت «ميرييت» تفطن الى حقيقة الموقف ، وارتاحت لذلك ، فقالت فى شىء من المرح: كان ينقصك هذا لتكون أكثر حذرا من النساء ، ولعلك أن تفيد من هذه التجربة فى المستقبل ! .. فان فينا — معشر النساء — قوة سحر ، ولا يستعصى علينا الرجال ، حتى من كان منهم على مثالك ! .. ولست معنفة فى لومك لوقوعك باليسر والسهولة فى مخالب هذه المرأة ، فلا شك فى أنك قد وجدت فيها من المتعة ما لم تجده عندى ، ولا غرابة فى هذا ، فهى تكبرنى بمقدار سنى ، ولها فى فنون الحب خبرة لا أستطيع منافستها فيها ، ومن يدرى ؟! فقد تعود ضعيفا أمام اغرائها ، فتنصرف اليها وتنسانى ! ..

وضايقنى ، فوق ضيق ، هذا اللجاج من « ميرييت » ، ورأيت أن الوقت يمضى ركضا فيما لا غناء فيه ، فابتدرت الباب ، ورغبت الى

« ميرييت » في مرافقتي الى المنزل ، فخرجنا معا من الحانة ، وهناك ، بمنزلي ، قصصت عليها كل شيء مما لم تعلمه من سر ميلادي ، ومايتصل به من أسرار البيت الذهبي التي استدرجت « ميهونفر » للافضاء بها ، ولم يكن ثم من سبيل لوقوفي عليها سوى اصطناعي موقف المشيق منها !٠٠ وذكرت « لميرييت » كذلك ، أنني ، رغم أن في هذه الاسرار ما يطوع لي الاعتقاد بأنني ابن « فرعون » الذي تخلصت منه الملكة « تايا » بالقائه في اليم على قارب من الغاب، قد آثرت أن أباعد بيني وبين هذا الاعتقاد ، لأن هنالك أطفالا كثيرين قد ألقوا بالطريقة نفسها باليم ، ومن المحتمل كثيرا أن أكون واحدا منهم !٠٠ ولا خير لي في أن أجعل حياتي مسرحا لعذاب التفكير في أمر خطير كهذا ، لمجرد أن امرأة مخمورة قد أفضت على مسمعي بسر حادث يشبه من طريق الظن سر مولدي !٠٠

واستمعت « ميرييت » الى حديثي هذا في اصغاء تام ، ثم سرحت بطرفها في الفضاء ، وأخيرا ألقت بيدها على كتفي وقالت : في وسعي الآن أن أقول انني صرت أكثر قربا من الحقيقة التي كانت تبدو لي كأنها لغز !٠٠ نعم ، لقد فهمت لماذا كانت نفسك شاردة دائما في بيداء من الوحدة التي تنجذب اليها القلوب متعاطفة لتؤنسها ، وما كنت ، فيما مر بي في حياتي ، على حال كهذه مع أحد من الناس على كثرتهم !٠٠

واستطردت قائلة : وما أراك وحدك في غمرات الاسرار ، فانني أنا الاخرى أحيا وحدي في سر ، كثيرا ما نزعت نفسي الى مكاشفتك به ، ولكنني أشكر الآلهة اذ شاءت ألا أفعل ، فكتمان الاسرار ، على ما فيه من عسر وشدة ، يكون في الارجح خيرا وأسلم عاقبة ، من البوح بها !٠٠ وأنا سعيدة لانك قصصت على ما كان خافيا من أمرك ، وأرى ألا ترسل نفسك وراء أمر مجهول ، من الجائز ألا يكون قد حدث أصلا ، وحسنا تفعل في محاولة نسيان هذا الامر !٠٠ انسه كما ينسى الناس رؤاهم وأحلامهم ، وكذلك أنا ، سأحاول النسيان !٠٠

وأثارني الفضول ، فرحت أداخلها لأتعرف هذا السر الذي تؤثر اخفاءه ، ولكنها استعصت وأبت أن تذكر منه شيئا ، وأخذت تشاغلني عنه ، فقبلتني وطوقت بذراعيها عنقي ، وكانت عيناها خلال ذلك مغرورقتين بالدموع ، ثم قالت : حقا ، قد لا تنتهي متاعبك في « طيبة » اذا بقيت بها ! ٠٠ ان هذه المرأة « ميهونفر » لن تنفك عن مطاردتك في كل وقت ، وكل مكان !٠٠ ستجعل حياتك جحيما لا يطاق ، فمن الافضل أن تبرح « طيبة » الى « أخيت آتون » ، وقد كنت حكيما اذ بدا لك هذا

المرأى لاول وهلة ،ولـكننى لا آمن أن تسعى وراءك ، مدفوعة بعواطفهـا المتأججة ، وهى تعتقد أنك مفتون بها وراغب فيها ، فقد صببت فى أذنيها، من غير حساب ، عبارات الهوى والحب ، وأثرت كامن غريزتهـا العجوز بما لفقته لها من تراتيل الغزل ، فصدقتك ، وما زالت تصدقك ، ولن تكف عنك الا اذا أصلحت خطاك ، وكتبت اليها عن حقيقة الموقف ، والا فهى فى اثرك ، تمضى حيث مضيت !٠٠ وقد لا ترى لك مفرا منهـا الا بتحقيق شهوتها ، فتكسر الجرة بينكما ، وهذا هو المصير التعس الذى لا أرضـاه لك !٠٠

واستصوبت رأى « ميرييت » ، فطلبت من « ميسوتى » أن تجمـع حوائجى ، وأنفـذت خادما الى البحارة ليبحث عنهم فى الحـانات وبيوت الملـذات ، ثم شرعت فى كتـابة خطاب الى « ميهونفر » عمـلا باشـارة « ميرييت » ، وقد حاولت أن أتلطف فى عباراته حتى لا تغضب وتثور ، فكتبت اليها أقول :

« سنوحى ، جراح الرأس الملكى ، يهدى أعطر تحياته الى «ميهونفر» السـيدة المشرفة على حياكة الملابس فى قصر « فرعون » الذهبى ــ اننى لأشعر بالندم يا صديقتى لما قد بدر منى مما جعلك تظنين ، فى غير حق ، أن قلبى خال !٠٠ وانه ليؤسـفنى أشـد الاسـف أن أصـارحك بأننى لا استطيع أن القاك مرة أخرى ، فليس من حقى أن أسلك طريقا قديسول لنفسى ارتكاب خطيئة ، ولا حيلة لى فى مخالفة قلبى ، ذلك الذى أصيب بهـوى امرأة أخـرى ، ويأبى ، متمردا على ارادتى ، الا أن يبقى مشـغولا بها ٠ وقد اعتزمت لهـذا أن أرحل بعيـدا عن « طيبة » ، اجتنابا لما قد يسببه لك بقائى فيها من متاعب !٠٠ وآمل أن تذكرينى كصديق يريد لك الخير ويتمنى لك الهدوء والسلام ، وانى لمرسل اليك مع خطابى هذا، باناء من شراب مخلوط اسمه « ذنب التمسـاح » فهو شراب ممتع حقا ، وسيعينك كثيرا على النسيان ، وأود أن أؤكد لك ، قبل أن أختم خطابى، أننى رجل لا يؤسف على فراقه ، فأنا عجوز أنهكنى التعب ، ولن أستطيع أن أهيىء المتعة لسيدة مثلك ، وانه ليسرنى أن الآلهة قد حفظتنا ، خلال اجتماعنا ، من الوقوع فى الخطيئة !٠٠ وتقبلى يا سيدتى أطيب التحية »٠

وقرأت « ميرييت » هـذا الخطاب قبـل أن أطويه ، وقالت : انك تداجيها بهذه العبارات الرقيقـة ، وقد يغريها هـذا بالامل فى امتـداد علاقتها بك ٠ والرأى الصواب أن تقول لها فى صراحة كاملة انها عجوز شمطاء ، تعافها النفس ، وانك هارب منها ، فبذلك يعتريها اليأس ، وفى اليأس راحة كما تعلم !٠٠

ولكنى لم آخذ برأى « ميرييت » فى صيغة الخطاب ، واقنعتها آخر الأمر بأن عباراته المكتوبة تؤدى الىالنتيجة نفسها ، ومن ثم لففت الخطاب وختمته وأوفدت به خادما الى البيت الذهبى ومعه أناء النبيذ ، ليسلمه الى « ميهونفر » ! ..

وحينما كان الخادم فى طريقه الى « ميهونفر » ، كانت « ميوتى » عاكفة على اعداد حوائجى ، وخلوت فى هذه اللحظة الى « ميرييت » ، فشاع الأسى فى نفسى لحرمانى من لقائها ، وافتراقنا هكذا سريعا ، بسبب تلك المرأة الشاذة الطباع والاطوار ، التى أوقعتنى الأقدار فى حبالها من حيث لا أدرى ، فلولاها ما حرمت من الاستمتاع « بميرييت » فى « طيبة » أياما عديدة أخرى ! .. وقد أكون مخطئا فيما حدث ، وقد لا أكون ! .. ولكن مالا جدال فيه أنه انتهى الى هذا الفراق العاجل ، ومن هنا أحس بوخز الضمير ، لأننى قد شاركت فيه من غير تبصر فى العواقب ! ..

كانت هذه الخواطر تتزاحم فى رأسى ، بينما كانت « ميرييت » تبدو فى خواطر مثلها ، وفجأة قالت لى باهتمام : أتحب الاطفال يا « سنوحى » ؟ ! ..

وأدهشنى سؤالها ، ولكنها استدركت قائلة : لا تخف .. انى لن ألد لك طفلا ، ولكن لاحدى صديقاتى طفلا ، فى الرابعة من عمره ، وكثيرا ما أعربت لى عن أمنيتها فى أن يرتاض ابنها فى رحلة بحرية على صفحة ماء النيل حيث يرى الوديان الخضراء ، والزروع النامية ، وما فيها من أبقار وخراف ، فانها تكره أن تظل أفكاره عالقة بما لا يتبدل حوله من القطط والكلاب فى « طيبة » ! ..

قلت لها فى غير ارتياح : ان طفلا كهذا فى سفينتى خليق أن يزعجنى ويحرمنى الهدوء ، فليس بعيدا أن يقفز من السفينة أو يمد يده لاهيا ، فتلتهمه التماسيح ! ..

قالت « ميرييت » فى ابتسام يشوبه الاكتئاب : لا أقصد أن أسبب لك شيئا من هذه المضايقات ، فكل ما فى الأمر أننى ظننت أن رحلة كهذه قد تحقق للطفل أمنية أمه ، خاصة أننى ـ لوثيق علاقتى بها ـ صرت أحنو عليه مثل حنوها ، وقد وعدتها بأنى متوليةختانه ، فلست منه بمبعدة ! . ولقد قررت أن وجوده بالسفينة منفردا ليس مأمون العاقبة ، ولهذا كان فى نيتى أن أرافقه فى رحلته ، لأرعاه وأمنعه من السقوط بالنهر ، وكان يسعدنى أن تتقبل هذا لتتاح لى فرصة مصاحبتك أيضا ، ولكنك

فيما أرى تضيق بالأمر ، ولا أحب أن أرغب في شيء يضايقك ، ولذلك يحسن بنا أن ندع هذا الموضوع ! ..

قالت هذا ، فسررت به ، وقلت لها : انها ، حقا ، لرحلة سعيدة ، تلك التي تصاحبينني فيها ! .. لم أكن أدرى أنك تنوين هذه النية الطيبة ، ... ان السفينة بكل ما فيها ، ومن فيها لتستقبلك مزهوة سعيدة ، والنهر نفسه يتلقاك مبتهجا طروبا ، « وأخيت آتون » لن تكون أقل من السفينة والنهر سعادة وابتهاجا ، فهلمي ولا تخافي ، فلن ترقى اليك ريبة فى رحلة تصحبين فيها طفلا هو ابن صديقتك ! ..

فقالت ، وعلى ثغرها ابتسامة المرأة حين تبحث مع الرجل فى أمر لا يفهمه : أصحيح يا « سنوحى » أن ريبة لن تعلق بسمعتى فى هذه الرحلة لأنى أستصحب فيها طفلا !.. آه ، يا لغباء الرجال !..

وانتهى الامر بيننا على اتفاق فى السفر معا . وعند الفجر أبحرنا ، وقد جاءت « ميرييت » بالطفل ملفوفا فى أربطة وكان لا يزال نائما ، وأنبأتنى « ميرييت » بأن اسمه « تحوتنح » ، وأعجبت بشجاعة أمه التى سمته بهذا الاسم ، وتمنيت لو رأيتها لأحييها ، ولكنها لم تحضر ، وانما أعجبت بشجاعتها فىهذه التسمية لانى أعلم أن كثيرين من الآباء لايملكون هذه الشجاعة فى اطلاق أسماء الآلهة على أبنائهم ، وقد اختارت هذه المرأة لابنها اسم « تحوتنح » وهو اله الكتابة والعلم البشرى والالهى ، وهذا مما يرفع شأن شجاعتها فى تقديرى . وقد ظل الطفل مستغرقا فى نومه ، الى أن سطعت الشمس بلونها الذهبى فوق مياه النيل ، فاستيقظ وزاد ابتهاجى به ، فقد كان هادئا لطيفا ، منضر الوجه ، أسود الشعر ناعمه ، وشعرت بأن بيننا تجاوبا فى العاطفة ، فقد كان ينزع دائما نحوى ، وتبدو رغبته قوية فى أن أضمه بين ذراعى ، وما أكثر ما كنت أراه محدقا فى وجهى بعينيه الداكنتين ، كأنه يبحث عن أمر خفى ، أو يحاول حل لغز معقد !.. وبلغ من شغفى به ، ومحبتى له ، أن صنعت له قوارب صغيرة من الغاب ، ولم أحل بينه وبين اللعب بأدواتى الطبية ، كما لم أمنع يده من الامتداد الى العقاقير التى كان يدس أنفه فيها متشمما رائحتها الطيبة ! ..

لقد كان هذا الطفل فى رحلتنا قرة عين لنا ، فانسنا به أنسا عظيما ، وكان على حبه للهو لا يتحرك حركة تثير خوفا أو تدعو الى استياء ، فلم يحدث مرة أن استشرف حافة السفينة ليطل على الماء ، كما لم يحدث أن حطم قلما من أقلام الغاب . ومما زاد الرحلة بهجة وأضفى

عليها الكثير من السعادة ، أن « ميرييت » كانت الى جانبى ، وكان يضمنا فى كل ليلة فراش واحد ، وعلى مقربة منا كان ينام الطفل الذى تلاقى قلبانا على حبه !٠٠

وقلت «لميرييت» ، وقلبى يطفح بالسعادة : «ميرييت» ٠ يامعبودتى!٠ هيا فلنكسر الجرة بيننا ، لنحيا معا الى الابد !٠٠ ان أهنأ ما يهنأ بهقلبى أن تصبحى زوجتى ، وأن تلدى لى طفلا جميلا مثل « تحوتنح » ٠ لقد كنت لا أشتهى الاطفال قبل اليوم ، ولكنك بقوتك السحرية استطعت أن تحولى مجرى تفكيرى ، فأصبحت أشد ما أكون رغبة فى أن أصير أبا، وأنت ٠٠ أنت القادرة على أن تلدى الولد الذى أنشده ، فالتى تغرس الشجرة ، هى التى تحسن انتاج ثمرها ! ٠٠ فكونى أم ولدى يا أحب من عرفت من النساء الى قلبى !٠٠

ولكنها وضعت يدها على فمى وقالت فى لطف: لاتتكلم يا«سنوحى» هكذا !٠٠ فانك لتعلم أنى نشأت وعشت فى أحضان حانة ، ومن كانت مثلى لا يرجى أن تلد أطفالا ، ومن الخير لك أنت على وجه خاص ، أن تمضى فى حياتك متخففا من أعباء الزوج والولد ، فان مصيرك مطوى فى قلبك، ولم تفرغ بعد من واجبات كثيرة ، أرى أنها ستفرض نفسها عليك ، ان قريبا وان بعيدا ، فابق لها وحيدا ، فارغا ، فذلك أعون لك عليها !٠٠ اننا ، كلينا ، نعيش فى حب لاتنفصم عراه ، وليس الذى بيننا بأقل قربا وامتزاجا ، مما بين الزوج وزوجته ! ٠٠ فحسبنا هذا يا « سنوحى » ، واننى لأحب هذا الطفل الصغير حب الام لولدها بلا فارق ، وأراك كذلك قد أحببته حب الاب لابنه ، وأنزلته من نفسك هذا الموضع الاثير ، فليكن منا هكذا ، ابنا بين أمه وأبيه ٠ وعما قليل سنطرب منه بالكلمة العذبة اللطيفة ، يتحرك بها لسانه اللدن حين يناديك بقوله : يا أبى ، ويناديني بقوله : يا أمى ! ٠٠ ومن هنا تجتمع لنا مقومات وعناصر الاسرة فى الحياة الزوجية وارفة الظل ، دون أن تعوق سيرك فى الطريق الذى رسمته لك الاقدار ! ٠٠ وعلى ظهر هذه السفينة فلنعش أياما ، بعيدين عن التفكير فيما كان وفيما سوف يكون ، خاليين الى هذه الطبيعة الجميلة الحانية ، وناهلين فى أحضانها كؤوسا من السعادة صافية ! ٠٠

وكان « لميرييت » ما شاءت ، فخلوت اليها فى أحضان الطبيعة المزدهرة المفترة الثغر ، مقصيا عن ذهنى ما كان يزحمه من التفكير فى الاحداث المثيرة التى صادفتنى فى « طيبة » ، وفى هؤلاء الناس الذين نلقاهم وهم يتضورون جوعا فى كل قرية تمر بها السفينة على شاطىء

النيل ! .. وكانت « ميرييت » حريصة أشد الحرص على أن تملأ وقتنا كله بالملذات والمباهج ، فقضيت معها أياما من السعادة ، لم أر مثلها من قبل ، كما لم أر مثلها من بعد ، وما أكاد أذكر لحظة من لحظاتها ، حتى تخنقنى العبرات ، أسفا عليها ، فقد كانت حلما هانئا ، ممتعا ، سنح فى حياتى وقتا قصيرا ، ثم برحها عجلان الى غير مآب ، فما أعجب أمر السعادة ! .. تخايل للناس بالكثير من الامل ، ثم لا تعطيهم الا أقل القليل ! ..

- ٧ -

وبلغنا « أخيت آتون » ، فبدت لعينى فى حال غير التى تركتها عليها ! .. لم تكن قد تغيرت فى شيء ، ولكننى أنا الذى تغيرت أفكارى خلال الزمن الذى قضيته بعيدا عنها ! .. ان منازلها الدقيقة السابحة فى ضوء الشمس قد استحالت فى نظرى صورا باهتة لا تختلف كثيرا عن صورة السراب الذى يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجد شيئا ! .. هذه المدينة المنسقة الحالمة لا تمثل قط حياة المصريين فى ذاك الوقت ، ان حياتهم كانت مزيجا من القلق والاضطراب . والفقر والبؤس ، ولذلك لم ترق هذه المدينة فى عينى ! ..

وعادت « ميرييت » و « تحوتح » الى « طيبة » ومعهما قلبى وسعادتى ، والحلم الممتع الذى عشناه أياما ! ..

وبدأت بعدهما فيما لم يكن منه محيص ، وهو الخوض فى الحياة التى كان فرعون « أخناتون » يحياها ويفرضها على البلاد .

وكانت هذه الحياة قد صارت شيئا مخيفا ، فأقبلت عليها متشائما كارها .

وبعد أيام قليلة ووجه « فرعون » فى بيته الذهبى بما لم يكن يحفل به من الاحداث الخطيرة ، فقد هبط فجاة على « أخيت آتون » جماعة من المهاجرين السوريين ، بعث بهم « حورمحب » من « ممفيس » ودفع لهم نفقات سفرهم ، ليصفوا لفرعون بالسنتهم ، الكارثة الكبرى التى حلت بهم ، وكانوا فى حال من البؤس لا يطاق النظر اليها ، ولهذا تقزز الناس منهم وتحاموا الاتصال بهم ! .. ولما ذهبوا الى القصر ليقابلوا «فرعون» ، فزع منهم النبلاء والحراس فأغلقوا دونهم الابواب ، ولكنهم راحوا يصرخون

بأصــوات عالية ويقذفون أســوار القصر بالاحجار ، وسمع « فرعون » صراخهم ، فأمر بفتح الابواب وادخالهم الى ساحة القصر الداخلية ٠٠

ومثلوا بين يديه ، فقالوا : من أفواهنا المكدودة ، اســمع صرخة شعبك : ان سلطان « فرعون » فى أرض « كيم » أصبح خيالا ، وأثرا عافيا ، ودماء الذين أخلصوا ولاءهم لك ، وعندوا كبار آمالهم عليك !٠، صبحت تسيل أنهارا خلال الحصون المتهاوية ، وألسنة النيران المستعرة ٠

ورفعوا أذرعتهم التى بترت منهـــا الأيدى وقالوا : انظر أيها الملك العظيم ! ٠٠ أين ذهبت أيدينـــا ؟! ثم دفعوا أمامهم رجالا منهم قد فقئت عيونهم وهم يتعثرون فى مشيتهم، وآخرين من الشيوخ المسنين قد قطعت ألسنتهم ، يفتحون أفواههم الفارغة ليتكلموا ولكنهم لا يستطيعون ٠

واستطردوا قائلين : أرأيت ؟ لقد فعل بنا كل هـــذا رجال الملك «عزيرو» والحيثيون ، لالذنب جنيناه ، ولكن لأننا استمسكنا بالولاء لك يافرعون «اخناتون» ، ولا تسل عما فعلوا بزوجاتنا وبناتنا ، فانه شيء فظيع تتفطر لذكره الاكباد ٠

ولكن «فرعون» راح يحدثهم، بعد استماع مقالتهم ، عن الاله «آتون» وبركاته ورسالته والمثل العليا التى يدعو اليها ! فسخروا منه ، وقالوا له : لقد ارسلت صليب الحياة المقدس الى أعدائنا ، وهو شعار « آتون» وآية دعوته للسلام وحقن الدماء ، فهل تدرى ماذا صنعوا به ؟ ! لقـد علقوه فى أعنـــاق خيولهم ، وانطلقوا بها فينا يقتلوننا ويخربون ديارنا ويهتكون أعراضنا ، ثم يثبون بكهنتك فى « أوروشليم » فيقطعون أرجلهم ويقسرونهم بعد ذلك على أن يقفزوا من غير أرجل ، امعانا فى الســخرية بالهك «آتون» .

وهنا اعتاد فرعون المرض المقدس ، فصرخ صرخة مدوية ، وهوى فاقد الوعى على أرض الشرفة التى كان يقف عليها ، وأخـذ الحراس فى تنحية أولئك المهاجرين البؤساء عن القصر ، ولكنهم امتنعوا به ، وصمموا على البقاء حيث هم الى أن يصدر فرعون فى أمرهم قرارا ، فأغلظ الحراس لهم ، فقاوموهم فى يأس وتخضبت أرض الساحة الداخلية بدمائهم ، ثم القيت جثثهم بعد هذا فى مياه النيل ٠

وكانت الملكة « نفرتيتى » والاميرة « ميريت آتون » والاميرة المريضة « ميكيت آتون » والاميرة الصغيرة « عنخسن آتون » ، كن يشـــاهدن كل هذا من شرفة القصر ، ولأول مرة رأين بأعينهن منظرا من مناظر الالم

والموت فى مجموعة من الناس ، ولاول مرة كذلك رأين باعينهن صـورة صارخة من صور الحروب ٠

وبادرت الى «فرعون» فوضعت حول جسمه لفافات مبتلة ، وسقيته عندما أفاق شرابا مسكنا ، ليسترسل فى نومه ، اذ كانت أزمته العصبية حادة ، ولا تؤمن السلامة منها بغير هذا التسكين ، فراح فى سبات عميق ثم استيقظ بعد ذلك فكان وجهه شاحبا وعيناه محمرتين لشدة ما عانى من صداع رأسه ، وأخذنى بنظرة طويلة وقال : سنوحى ! ياصديقى ، يجب أن نضع حدا لهذا ، وقد اخبرنى «حورمحب» انك تعـرف الملك «عزيرو» وتربطك به المودة ، فاذهب اليه ، وصالحه ٠٠ اشتر لنا منه هذا الصلح بأى ثمن ، ففى سبيل السلام لمصر ، يهون كل شىء ، ويرخص الثمن مهما كان غاليا ٠ ولو اننا دفعنا فى ذلك كل مانملك من ذهب ، لما كان هذا شيئا كثيرا ، وخير لمصر أن تحيا فقيرة فى ظلال الامن والسلام ، من أن تحيا غنية موفورة المال فى أتون مستعر من الحروب وما يلازمهـا دائما من دماء مراقة وأعراض منتهكة ، وأرزاق منهوبة وأوبئة فتاكة ٠

قلت له معترضا : يا فرعون « اخناتون » ، ان ذهبك هو الذى يخدم قضية السلام حقا ، وبه لابغيره ، تنتهى هذه الحرب الملعونة ، ولـكنه لايكون كذلك الا بالطريقـة الحكيمة الوحيـدة ، وهى أن ندفع به الى «حورمحب» ليشترى به أدوات الحرب وأسلحة القتال ، فليس سواهـا من سبيل الى استعادة مجد «مصر» ومحو عارها ٠

قال «فرعون» وهو ممسك رأسه بيده : بحق آتون يا « سنوحى » الا ما نزعت من نفسك هذه الاثارة من الغيظ والحنق ٠٠ ان الحقيقـة الكبرى التى يجمل بك ألا تفكر فى غيرها ، هى ان الحقد لايثمر الا حقدا والانتقام يغرى بالانتقام ويدفع اليه ، وسفك الدم يفضى الى مثله ، فتصير قطراته بحارا ، نوشك أن نغرق فيها جميعا.. اننا اذا حاربنا لنرفع الظلم عن المظلومين ، فسنوقع الظلم نفسه على الآخرين ! ٠٠ والحرب كما تعلم هوجاء عمياء ، لاتفرق بين ظالم ومظلوم ، ولهذا فلا متحول لى عن موقفى ، وعليك أن تذهب كما أمرتك الى الملك «عزيرو» لتعقد معه صلحا ، مهما يكن الثمن ، تحقيقا للسلام الذى نؤمن به ٠

قلت له منزعجا : يا فرعون « اخناتون » !٠٠ ان أمرك مطاع ، ولا استطيع الجدال فيه ، ولا قيمة لحياتى الا اذا انقضت فى طاعتك ، ولكننى أعلم انك لاترغب فى اختبار ولائى ، ولا فى القضاء على حياتى ، وانما ترغب فى تحقيق فكرة السلام ، ووقف رحى القتال ، وهذه رغبة جليلة

تتلاقى فيها قلوبنا جميعا ، وليتنى كنت قادرا على المشاركة فى تحقيقها بالطريقة التى رسمها مولاى ! •• ولكن يحزننى أن ذلك غير مستطاع ، فدونه أهوال وأهوال ، وسيحدث حتما ، وفى الخطوات الاولى من الطريق الى « عزيرو » انهم سيقابلوننى بعداوتهم المضطرمة ، ويبتدروننى بالتعذيب الذى رأيت دلائله على أولئك المهاجرين السوريين المساكين •• انهم سيفقأون عينى، ويقطعون لسانى، ويبترون يدى.. فهذا دابهم مع الأعداء ولن يصدهم عن ذلك اننى ذاهب الى مفاوضة ملكهم «عزيرو» ! على أنى لو قدر لى أن ألقاه لأنكرنى ، فقد افترقنا من زمن بعيد ، وما أظنه الا قد نسينى ، فلا جدوى من السعى اليه فى هذا الطريق الحاشد بالاخطار والمخاوف ، ذلك الى أنى لم أعد أحتمل الاتصال بميادين القتال أو الاقتراب من معامع العراك ، فقد علت سنى ، وتراخت أعصابى ، وثقلت حركاتى ، ثم انى لا أجيد التحدث فى المواقف التى تقتضى الحيلة والمداورة كأولئك الذين قضوا حياتهم فى الاكاذيب فحذقوها ، وهم سفراؤك عند الملوك الاجانب •• فأنفذ الى «عزيرو» رسولا غيرى ، من طراز هؤلاء الرجال البارعين •

ولكن «أخناتون» أصر على رأيه وقال : اذهب كما أمرتك !•• لقد أصدر فرعون أمره ، ولا تبديل له ! •

وانقلبت الى منزلى محزونا ، وأفكارى تائهة فى أمر «فرعون» ، وفى منظر أولئك السوريين المهاجرين ، مبتورى الأيدى والألسنة ، مفقوئى العيون ! •• ان هذا المنظر الشائه المزعج يأبى أن يفارقنى لحظة ، وهو يملأ نفسى وجلا وخوفا ، فسيكون هو مصيرى اذا قدر لى أن أعيش ! •• ولذلك قررت أن أرقد بالفراش متظاهرا بالمرض ، الى أن يعدل «فرعون» عن قراره •

ولقينى خادمى لدى الباب ، فابتدرنى قائلا : حسنا ، عدت الآن ياسيدى •• فان سيدة اسمها «ميهونفر» جاءتنا منذ قليل ، وهى تنتظرك فى شغف بداخل المنزل ، وقد قالت لنا انها قادمة اليك من «طيبة» على ظهر سفينة ، وانها ياسيدى لترتدى أجمل الملابس ، وتتزين بأبهى اللآلىء وتتعطر بأزكى العطور ، فكأنها العروس فى ليلة زفافها •

ومن غير تردد ، أدرت ظهرى للخادم والمنزل ، ورحت أعدو بخطوات واسعة عائدا الى بيت فرعون الذهبى ، وقابلته من فورى ، وقلت له : طوعا لأمرك يامولاى ، سأرحل الى سوريا ، وأرى من الخير التعجيل بالرحيل

تمر باعداد الالواح المثبتة لشخصيتي ومركزي ، لأتزود بها ، فبغيرهـا يستحيل الوصول الى «عزيرو» !

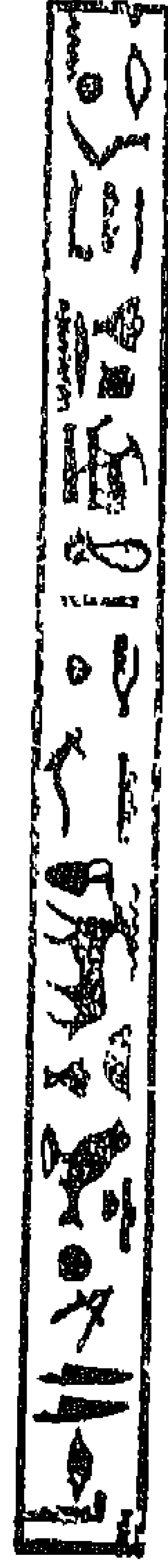
وبينما كان الكتاب المختصون مشغولين فى اعداد هـذه الالواح ، اسرعت الىمصنع «تحوتمس» الذىعرفت ، بمحضالصدفة ، انه يعمل نحاتا فى «اخيت آتون» .. انهصديقى القديمالذى يهفو اليه قلبى ، ولا تغيب ذكراه عن بالى ، وقد عرفت فيه الوفاء وصدق المودة ، وكان مسعفى دائما فى وقت الحاجة ! .. فلأزره الآن قبل هذه الرحلة ، الغامضة التى أساق اليها مرغما .. وتلقانى فرحا ، وكان قد أكمل تمثالا «لحورمحب» البطل المحارب الذى أعجب به ، ليقام فى «حيت نيتست» ، مسقط رأس البطل . وكان التمثال مصنوعا من الحجر الاصفر على الطريقة الحـديثة فى النحت ، وهو من دقة الصنع وبراعة التصوير، بحيث يمثل«حورمحب» على حقيقته ، تمثيلا تاما . ولا شىء فيه ، عند النقـد الدقيق ، الا أن «تحوتمس» قد بالغ فى ابراز عضلات «حورمحب» وسعة صدره ، حتى بدا مصارعا أكثر منه قائدا لقوات « فرعون » .. وهذه المبالغة فى صنع التماثيل كانت أمرا مألوفا فى المحيط الفنى الحديث ، لتبـدو الصورة مجسمة كاشفة !

وراح « تحوتمس » يحدثنى عن هذا التمثال معجبا به ، وهو يجلوه بخرقة مبللة ، ولما عرف أنى على وشك الرحيل ، قال لى : سأسافر معك مستصحبا هذا التمثال ، لأمضى به الى « حيت نيتست » وأشرف بنفسى على وضعه بالمعبـد فى المكان اللائق بمركز «حورمحب» بطـل الحرب ، وبمركزى أنا ، بطل الفن ! نعم ، سأسافرمعك يا «سنوحى» ، وانىلشديد الشوق الى نسائم النيل ، لتنعش رأسى الذى احترق بنبيذ «أخيت آتون» لقد انهكنى المبرد والمطرقة حتى أصبحت لا أستطيع مقاومة الرعشة وهى تدب فى يدى .

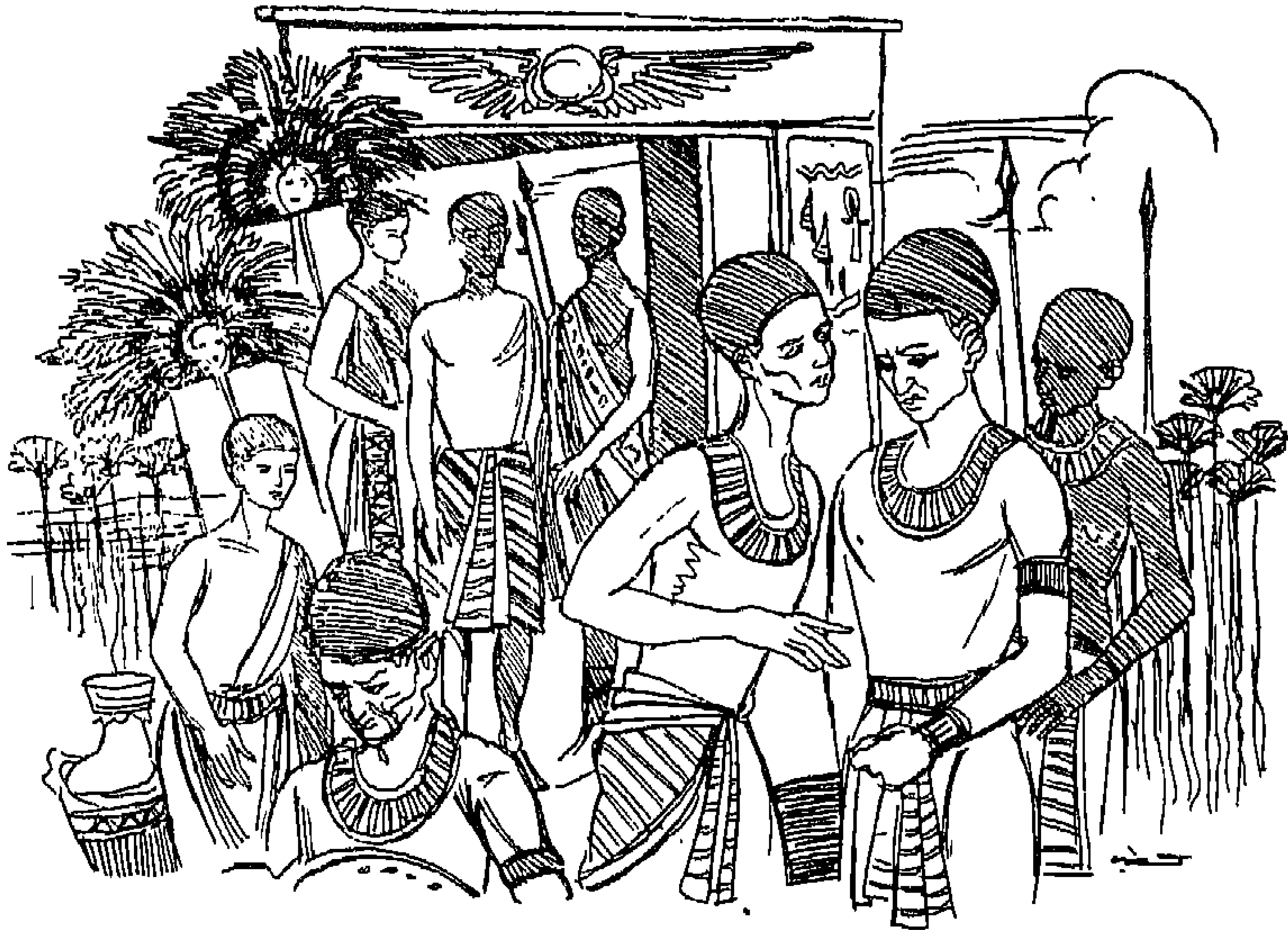
ورحبت بصديقى «تحوتمس» فى هذه الرحلة التى أحتاج فيها الى مثله رفيقا . وجاءنى كتبة فرعون بالالواح مزودة ببركاته ! . وذهبت بها على الأثر الى الشـاطىء ، ووافانى « تحوتمس » مـع تمثـال «حورمحب» ، وقلت لخدمى ، وانا أضع قدمى بالسفينة : أبلغوا «ميهونفر» اننى ذهبت الى ميدان القتال فى سوريا ، واننى لقيت حتفى هناك ! .. وساعتئذ ، كنت أعتقد أننى غير بعيد من الحقيقة ، فقد كان أملى فى النجاة من الموت بهذه الرحلة ، ضعيفا غاية الضعف ، ثم امرت خدمى بأن يحملوا

«ميهونفر» الى سفينة مبحرة الى «طيبة» مشيعة بوافر الاحترام ، فان جاهدتهم فى ذلك متأبية ، فليحملوها الى السـفينة قسرا ، وأنذرتهم بالضرب وقطع الآذان وجدع الانوف وارسالهم الى المناجم ليعملوا فيهـا معذبين الى آخر حيـاتهم ، اذا أنا عدت من الرحلة فوجدت « ميهونفر » بمنزلى ٠

وأبحرت السفينة بنا ، وتحت تأثير المخاوف التى تركب راسى فى هذه الرحلة ، عكفت على تناول النبيذ ووافقنى على ذلك «تحوتمس» ، اذ كان رأيه أن القادمين على الحرب لاينبغى لهم أن يكفوا عن شراب النبيذ وهو رأى لاتنقصه الحكمة ، لان صاحبه قد ولد فى الثكنات ٠



الساعة المائية تقيس الوقت



- ١ -

استقبلنى «حورمحب» فى « ممفيس » الاستقبال اللائق بمركزى كمبعوث لفرعون ، وعندما خلونا فى ذلك المكان قال لى وهو يضرب فخذيه بمقبض سوطه ، قلقا نافد الصبر : أية ريح سيئة سيرتك الينا يا رسول « فرعون » ؟! انها فى غالب الظن فكرة جنونية جديدة نجمت فى رأسه أخيرا ؟ ! .

قلت له : انها رحلة الى « سوريا » لشراء السلام من « عزيرو » بأى ثمن ! .. قال لى فى مرارة : ألم أقل لك انها فكرة جنونية جديدة ؟! ان هذا المدخول فى عقله سيفسد كل الخطط التى وضعتها فى دقة واحكام ، وبفضلها أصبح مركز « عزيرو » سيئا ، ولا شك فى أنه سيرحب بالسلام الذى يعرضه «فرعون» عليه ، ولكنه فى هذا سيكون مخادعا ريثما يصلح من أمره ، ويعزز قواته ، وبعدها ينقلب علينا مستأنفا الحرب التى توشك أن تدور دائرتها عليه الآن ! .. ان الموقف الراهن يتلخص فى أن « غزة » لا تزال فى أيدينا ، ولمصر بذلك مركز أمامى فى « سوريا » مجهز بالاستعدادات الحربية الكافية ، وقد تمكنت بوسائلى الخاصة من اقناع أسطول « كريت » ليتولى حراسة خطوط اتصالنا البحرى «بغزة» ، وكان ملحوظا فى هذا أن استقلال «سوريا» ـ لو تحقق ـ سيهدد سيادة « كريت» البحرية ، يضاف الى هذا أن الملك « عزيرو » بات يعانى أشد المعاناة من الاحتفاظ بسيطرته على حلفائه . فمنذ أن طرد المصريون من «سوريا» ، أخذت المدن السورية يحارب بعضها بعضا ، وانضم السوريون الذين فقدوا ممتلكاتهم ومنازلهم الى فرق الفدائيين ، وهم الآن مشتبكون مع قوات « عزيرو » ، ويسيطرون على الصحراء من « غزة » الى تانيس » ، وقد أمددت هذه الفرق بأسلحة مصرية ، وزودتها بمصريين

شجعان من جنود سابقين ولصوص وأرقاء هاربين من المناجم ··· وليس بأقل من ذلك أهميـــة أن « الحيثيين » قد وجهوا كامل قوتهم الى غـزو « ميتاني » ، فابادوا سكانها ولجوا فيها تخريبا حتى لم يعد لهذه المملكة وجود ، فاتشغل « الحيثيون » بهذا النصر وعاقهم عن تقديم المســاعدة الكافية الى الملك « عزيرو » ، واضطرت « بابل » أن تعالج حالة القلق الشائعة فيها بتسليح قواتها ، استعدادا لصد العدوان على حدودهــا ، فالموقف على ما ترى ليس فيمصلحة « عزيرو » ، وهو يشعر بذلك تماما ، وسيجد في السلام الذى أنت مرسل به من «فرعون» وسيلة الى اصطناع المهادنة وكسب الوقتوتجميع القوى ، ليثب بها بعد ذلك تحقيقا لمطامعه ، ومن أجل هذا سيرحب به ـ كما قلت ـ مخادعا · والرأى الذى لا أحيد عنه قيد أنملة ، هو أن السلام المشرف لمصر مستطاع بغير هذا العرض الذليل ، وأنا قمين بتحقيقه في أقل من نصف عام ، بالوسيلة الوحيدة التى لا أومن بوسيلة سواها ، وهى الأسلحة والعجلات الحربية ! ··· انها هى التى نجدع بهـــا أنف « عزيرو » ونقضى على غروره ومطامعه ، ونرده خائفا وجلا من « مصر » وآلهتها ! ··

قلت « لحورمحب » : ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا لأنك لا تملك حق اعلان الحرب ، فذلك حق « فرعون » ، وهو يبغض الحروب ولا يأذن بهـا ، ولن يمدك بالمال الذى لا بد منه فى اعداد الأســلحة والعجلات الحربية ! ··

قال « حورمحب » : أعلم ذلك ، وانىلأحتقر دهب «فرعون» احتقارى لعقله المأفون ، وقد عولت على نفسى وحدها فى تجهيز جيش أقوده الى « تانيس » ··· وفى هذا السبيل جمعت المال اقتراضا باليمين والشمال كما لو كنت متسولا ! ·· ولا ريب عندى فى أنك ، وقد عرفت الموقف على حقيقته ، لن تقوم بأى عمل من شأنه افساد خططنا ، والقضاء على أهدافنا ! ··

قلت له : ان « فرعون » قد أصدر لى أوامره ، وزودنى بكل الألواح التى أصل بها الى السلام الذىينشده ، وبالطريقة التى يراها ، ولا محيص من طاعة الأمر ، وستكون مهمتى هذه أيسر مما كنت أتصور ، ما دامت

ظروف « عزيرو » كما ذكرتها ، فهو بحكم هذه الظروف لن يكون معي ذلك المشتط المغالي في شروط السلام ! ..

واهتز « حورمحب » في مقعده ، منفعلا غاضبا ، وصاح قائلا : بحق صقرى ! .. لئن ذهبت الى « عزيرو » ساعيا الى هذا السلام المعيب ، لأقتلنك اذا قدر لك أن تعود من رحلتك هذه حيا ، ثم لأقذفن بك الى الماء لتأكلك التماسيح ، ولن تردنى عن هذا صداقتنا ، فالأمر أكبر خطرا من الصداقة ! .. في وسعك أن تذهب ، اذا شئت ، ولكن هذا هو المصير الذى ليس لك منه مهرب اذا جرى الأمر مضادا لخططى وأهدافى ! ..

واستطرد يقول ساخرا : نعم ، فيوسعك أن تذهب الى « عزيرو » ، وتتحدث اليه طويلا عن « آتون » الاله العظيم ! .. وعن « فرعون » المسـماح الكريم الطيب القلب ، ثم تخبره في سذاجة أن « فرعون » قد غفر له ، وأفسح له من صدره مكان الصديق ! .. ولكن ينبغى أن تعلم منذ الآن ، أن « عزيرو » من الدهاء بحيث لا تجوز عليه هذه التعبيرات المموهة بالطلاء البراق ، فهو لن يصـــدقك في دخيلة نفسه ، على أنه سيظهر لك غير مايبطن ، ويبادلك ــ في ارتياح ــ عواطف الود والسلام ، وهو ، في الوقت عينه ، سيدبر أمره معك تدبيرا محكما ، فيعطيك عن قوته صورا خادعة ، ويوهمك ، بأباطيله بأنه خير حالا وأعز نفرا وأملك لزمام الموقف ، وأقرب قربا الى النصر ! .. فاتحا بذلك بابا واســعا للمساومة والظفر بأقصى ما يرجو من «فرعون» ثمنا للسلام ! .. وكيفما كان الأمر ، فانى أعتقد أنك لست من البلاهة بحيث تقع في حبائله ، وتنخدع بمفترياته . وأكبر ظنى أنك لن تعده ، مجرد وعد ، بتسليمه « غزة » أو بالتحكم في رجال العصابات ، فلا سلطان لفرعون عليهم ، لأنهم متطوعون أحرار ، لا جنود منظمون ، وأحسب أنه لن يفوتك أن تقول له ماكرا : انهم على ما يرتكبون من جرائم النهب والسلب ، رجال لينوا العريكة ، وليست الجريمة في طباعهم ، وانما هم جماعة نزلت بهم كوارث الحرب ، فاندفعوا يضربون ضرباتهم على حواشيها ، وسيستبدلون بأسلحتهم عصى الرعاة ، من تلقاء أنفسهم ، عندما توقع وثيقة السلام ! .. قل له

هذا وما هو من هذا بسبيل ، ولكن حذار أن تقع في خطيئة تســـليم « غزة » ، فدون هذا رأسك الذى لن أتردد في فصله عن بدنك لو فعلت هذه الفعلة النكراء ! .. فانى في سبيل أن أستبقى أبواب « غزة »

مفتوحة في وجه « مصر » تحملت الكثير من العذاب ، ونثرت الكثير من الذهب في الرمال ، وضحيت بالكثيرين من عيوني وارصادى هناك ! ..

وفى « ممفيس » قضيت أياما ، ناقشت خلالها شروط السلام مع « حورمحب » ، وقابلت مبعوثين من « كريت » و « بابل » ، ومهاجرين ممتازين من « ميتانى » ... ومن أحاديثهم الشتى ، استطعت أن أتبين حقائق الاحوال الجارية التى كان ينقصنى العلم بها ، وأدركت جسامة المهمة التى أنا مقبل عليها ، وتمنيت لو أنى وفقت فيها ، فعلى نتائجها يتوقف مصير البلاد والرجال ! ..

وقد أيقنت أن « حورمحب » كان على حق فى حذره وتدبيره ، فالسلام فى الظروف القائمة يحقق مصلحة « عزيرو » أكثر مما يحقق مصلحة « مصر » ، اذ هو لا يعدو أن يكون نوعا من المهادنة ريثما تستقر الامور المضطربة فى « سوريا » ، ثم يتحرك بعدها « عزيرو » مستجمعا قواه ، ليولى وجهه شطر « مصر » مرة ثانية ، وربما لاح المستقبل غامضا من هذه الناحية أمام النظرة العجلى ، ولكن الاحداث المحيطة تشير الى نتائج من شأنها أن تحدد معالم هذا المستقبل ... فهؤلاء الحيثيون ! .. ماذا يكون أمرهم حينما يتوطد ملكهم فى « ميتانى » ؟ ! .. أيتحولون بقوتهم الى « بابل » أو الى « مصر » عبر « سوريا » ؟! .. انهم بطبيعة الحال سيختارون وجهتهم الى أضعف نقاط الغزو ، و « بابل » يومئذ ممتنعة عليهم بمايتوافر لها من القوى المسلحة تسليحا كاملا، وليستهكذا حال « مصر » ، فانها على النقيض من « بابل » مفتوحة الحدود ، مجردة من قوات الدفاع ، و « الحيثيون » قوم لا يفون بعهود ، ، ولا يحترمون مواثيق ، ولا يستريح معهم حليف أو صديق ، ولا يرجى منهم خير لانسان حتى لو كان « عزيرو » نفسه ؟! .. فاذا حدث أن ارتبط « عزيرو » بموثق مع « مصر » لتكوين جبهة واحدة ضدهم فانه يصبح معرضا لإخطار محققة ، فمصر فى حكم فرعون « أخناتون » لا تسعف حليفا طامحا « كعزيرو » ، وعليه عندئذ أن يروض ظهره لحمل الرمال !.. ولا شك فى أنه متفطن لذلك ، متحرز منه ...

وعلمت من « حورمحب » انه ملاق « عزيرو » فى مكان ما بين « تانيس » و « غزة » ، حيث تشتبك عجلات « عزيرو » الحربية برجال العصابات ... وقد شرح لى الحالة فى « أزمير » ، وأعطانى احصاء بالبيوت التى حرقت أثناء الحصار ، وبيانا بأسماء الشخصيات المعروفة التى ذبحت هناك ، وكذلك أعطانى بيانا عن جواسيسه الذين اندسوا فى

مدن « سوريا » وتتبعوا قوات « عزيرو » ، وهى أخلاط من المشعوذين والعرافين وتجار الزيوت والرقيق ، وقد أدهشنى علمه بكل هذا ! ..

وكلما دنت ساعة رحيلى شعرت بارتجاف الخائف الوجل لكثرة ما سمعت من ضباط « حورمحب» ومن المهاجرين ، عن الاحداث المروعة التى كانوا يروونها عن رجال «عمورية» وقوات «مصر» الحرة ! .. ولكن لم يكن ثم مناص من الرحيل ! ..

وقال لى « حورمحب » : لك أن تختار بين السفر فى البر أو فى البحـر ! ...

وأجبته مترددا : لعل الطريق فى البر أكثر أمنا منه فى البحر ! ..

فهز رأسه وقال : اذن فسوف يرافقك فى رحلتك من « تانيس » الى ما بعدها حراس من بعض حملة الحراب على عجلاتهم الحربية ، ولكننى مع ذلك أخشى أنهم اذا تلاقوا بقوات « عزيرو » لا يثبتون لها ، فيولون الادبار فرارا منها ويتركونك وحدك بالصحراء ... وعندئذ تقع فى أيدى رجال « عزيرو » ، ومن المحتمل عندما يرونك مصريا مرموقا أن يستبقوك حيا كرهينة عندهم ، ومن ثم يضعونك داخل سياج ذى أوتاد مسنونة ، على طريقة الحيثيين ، ويعبثون بالالواح التى تحملها وليس بعيدا أن يبولوا عليها ! .. فان لم يقع لك هذا ، فأنت مستهدف لما ليس خيرا منه ، فمن المحتمل ، ان لم يكن من المرجح ، أن يلقاك رجال العصابات ، وعلى رغم الحراسة التى تحيط بك ، فانهم لن يفلتوك ! سيجردونك حتما من كل شىء معك ، وسيوثقونك فى مدار الطواحين لتدير أحجارها كما لو كنت ثورا ! .. وتظل على ذلك الى أن يحين الوقت الذى نستطيع أن نفتديك فيه بالذهب ! .. ولكن أغلب الظن أنك لن تبقى حيا الى أن يحين حين الفداء ! .. فسياطهم مصنوعة من جلود التماسيح ، ومن يدرى !.. فقد يطيب لهم أن يستريحوا منك فور وقوعك فى أيديهم ، فيذبحونك ويلقون بجثتك الى الغربان لتنهشها ، وهذه على أية حال خاتمة غير مؤسفة كثيرا ، فالموت هكذا سريعا خير من العذاب الطويل الذى ينتهى ، غالبا ، الى النتيجة نفسها ! ..

واكثر من اى وقت مضى ، احسست بقلبى يضطرب فزعا من هذا الكلام الفظيع ! ..

وقلت له ، وأعصابى ترتعد : الآن أشعر بالندم المرير اذ تركت

جعرانى المقدس مع « كابتاح » ، فلا شك فى انه يكون لى ، وأنا أخوض غمار هذه الاهوال ، أكثر عونا من « آتون » اله فرعون الذى يبدو أن أثره لا يمتد الى تلك البقاع التى لا تؤمن بالآلهة ! .. ومع ذلك فانى لاناشدك بحق صداقتنا يا « حورمحب » أن تضع عيونك فى اثرى ، وأن تعجل بانقاذى اذا ما وقعت فى أيدى هؤلاء الوحوش ، ولا تبخل بالذهب بأى قدر يكون فى هذا السبيل ، فاننى موفور الغنى ، بل أغنى مما قد يخطر ببـالك ، الى حـد أننى أنا نفسى لا أستطيع أن أحصى ثروتى لكثرتها ! ..

فقال : انى أعرف ما فيه الكفاية عن ثروتك ، وقد اقترضت منها قدرا كبيرا عن طريق « كابتاح » ، كما فعلت مع غيرك من الاثرياء ، وما أردت باقتراضى منك الا أن أكون عميلا يحقق لك فائدة المال ، فلست انوى المطل فى الوفاء ، غير انى أرجو ، بحق الصداقة التى تستحلفنى بها ، أن تنسئنى أجل هذا الدين وألا تعجلنى وفاءه ملحا ، فانك ان تعجل أو تلح موهن صداقتنا ، مضيع لها من حيث لا تدرى ! .. والآن ، فاذهب يا صديقى « سنوحى » .. اذهب الى « تانيس » ، واختر هناك من تشاء من الرجال الذين يرافقونك حراسا خلال الصحراء ، ولعل صقرى يستطيع حمايتك ، فأنا نفسى لا أستطيع أن أصنع لك شيئا ، ذلك لان سلطانى لا يصل الى تلك الاصقاع ، ولئن وقعت أسيرا فسأبادر الى شراء حريتك ، فان كانت الاخرى ولقيت حتفك قبل بلوغ الفداء ، فلك على عهد أن أثأر لك ، وأحسبك بعد هذا غير محتاج الى مزيد من الطمأنينة ؟! ..

فقلت له فى أسى ويأس : وما جدوى أن تخضب وجه الارض بدمائهم جميعا بعد أن يصبح بدنى نثارا بين مناقير الغربان وطعاما فى أجواف الذئاب؟! أن خيرا من هذا عندى أن تذهب الى الاميرة « باكيت آتون » فتبلغها عنى أطيب تحيـة ، فانها يا صـديقى « حورمحب » ذات جمال رائع وأنوثة طاغية ، وعلى الرغم من أنها متكبرة متسامية ، كانت تسائلنى عنك وهى الى جانب فراش موت أمها ! .. فلعمرى انها لأميرة لطيفة فى كبرياء ، رقيقة القلب فى استعلاء ! ..

وتركت « حورمحب » شاعرا ببعض الراحة اذ سددت بهذه الكلمات سهما الى قلبه ! .. ثم استدعيت الكتاب الرسميين ليسجلوا وصيتى فى أنى قد نزلت عن كل ممتلـكاتى وأموالى الى كل من « كابتـاح » و « ميريت » و « حورمحب » ، واودعت هذه الوصية بعد توثيقها فى محفوظات « ممفيس » ...

وأبحرت على احدى السفن الى « تانيس » ، وهناك فى الجانب الآخر على أطراف الصحراء اتصلت بنقطة حراسة الحدود التابعة «لحورمحب» ، وكان رجالها وقتئذ يعبون من شراب الجعة ، ساخطين على الحيـاة التى يحيونها ، فقد كانت حياة مملة غاية الاملال ، موحشة غاية الايحاش ، حياة الصحراء المقفرة ، حيث لايكاد يكون لهم فيها من عمل سوى اصطياد بقر الوحوش ، ومطاردة الذئاب ، ومساكنهم هناك أكواخ من الطين تطفح بالاقذار والريح الكريه ، والنسوة اللائى يخدمنهم من أحط الطبقات ، فكانوا لذلك ضيقى الصدور بهـذه الحيـاة الفارغة التى تشبه الافران وسط براغيث الصحراء ، وهم يتطلعون فى شغف الى اليوم الذى يقودهم فيه «حورمحب» الى خوض المعركة فى «سوريا» ، وليكن بعد ذلك مايكون!٠٠ ليكن الموت نفسه ، فانه أحب اليهم مما هم فيه ! ٠٠ لقد كانوا على أية حال يتقدون حماسة للقتال ، وكانت أمنيتهم المفضلة أن يكونوا فى مقدمة القوات المصرية الحربية الذاهبة الى «أوروشليم» أو الى مدينة «مجدو» ، ليكتسحوا أمامهم السوريين ، كما تكتسح مياه فيضان النيل الاعشاب الجافة فى طريقها ! ٠٠ هكذا كانوا يقولون فى حماسة متأججة ! ٠٠

ومن هؤلاء الرجال اخترت قوة الحراسة التى سترافقنى فى رحلتى، وشرعت هذه القوة فى اعداد نفسها ، فتزودت بالقراب المملوءة ماء ، وتجهزت بالجياد التى جيىء بها من المراعى ، فشد منها حصانان الى كل عجلة من العجلات الحربية العشر التى أمر بها « حورمحب » بعد أن أصلحها الحدادون وأوفوها حاجتها كاملة ، وأردف بها بقية الجياد للمناوبة والاحتياط ، وأقيم على كل عجلة منها رجلان الى جانب السائق ، احدهما من الجنود المشاة ، والآخر من الجنود الرماة ٠٠٠

وجاءنى قائد هذه الفصيلة مقدما نفسه لى ، فأجلت فيـه نظرى طويلا ، متفرسا كما لو كان واحدا من أولئك المرضى الذين كانت أمراضهم تستخفى فأحاول استظهارها بالتمحيص الدقيق !٠٠ ولا عجب فقد كانت حياتى فى هذه الرحلة المخيفة وديعة بين يديه ! ٠٠ وكان فى مظهره لا يختلف عن بقية رجاله ، فملابسه كملابسهم مهلهلة قذرة ، وقد لوحت الشمس وجهه وصبغته بالسواد القاتم ، غير أنه كان يتميز فيهم بسوطه المضفر بأسلاك الفضة ، وبمظلته التى كان يحملها تابع خاص ٠ وأخيرا شعرت بالطمأنينة اليه والثقة فيه ، فما حاجتى الى من يلبسون الملابس الفاخرة ، ويتزينون بالحلل الزاهية ، فى سفر شاق محفوف بالمكاره ! ٠٠

ولما حان موعد التحرك للسفر سألته عن المحفة التى أعدت لى ،

فضحك ملء شدقيه وقال لى ان مكانى سـيكون الى جواره على عربته الحربية ، فليس ثمة محفات خاصة فى هذه الرحلة ، ذلك لان السلامة فيها مرتهنة بالسرعة مع التجرد من وسائل الراحة التى لا مكان لها الا فى الحياة المنزلية الوادعة ! ٠٠ ثم أردف قائلا انه من الممكن أن أجد معه، بالعربة الحربية ، مقعدا وثيرا ، ولـكنه مع ذلك يرى من الخير أن أظل واقفا بجواره ، فذلك من شأنه أن يحفظ لاعصابى توازنها خلال تحركات العجلة ، وأن يجنبنى الهزات العنيفة التى قد تقطع أنفاسى أو تحطم عظامى، الى آخر ما يؤدى إليه الاصطدام بجوانب العجلة ! ٠٠

قلت له ، وأنا اتأهب للصعود الى جانبه فوق عجلته الحربية : انها ليست المرة الاولى التى أركب فيها عجلة على هذا النحو ، فقد ركبتها مرة من « أزمير » الى « عمورية » ، وقطعت المسافة بينهما ــ على ظهرها ــ فى أقصر وقت ، ولقد أدهشت هذه السرعة أولئك الذين كانوا يرافقوننى فيها من رجال « عزيرو » ، وكنت اذ ذاك أصغر سنا منى الآن ! ٠٠

وأكبرنى هذا فى نظر قائد الفصيلة ، واسمه « جوجو » ، فأخذ يدعو جميع آلهـة مصر لتحمى حياتى ، وفى احترام أردفنى خلفه على العربة ورفع علمه صائحا فى الجياد ، فانطلقت بنا فى طريق معلم للقوافل وسط الصحراء ، ولكنها ما كادت توغل فى الطريق حتى تخلخلت ساقاى واضطربت أعصابى فاستندت لهجا على حشية العليق ، وأمسكت جانبى العربة بكلتا يدى ، وتلاشت صرخاتى فى ضوضاء العجلات المنطلقة فى سباق عنيف ، حيث كان سائقوها يهللون فرحا لخروجهم الى الصحراء الرحيبة من أكواخهم التى كانت حياتهم فيها جحيما لا يطاق ! ٠٠

وعلى تلك الحال قضينا يومنا الاول ٠ وفى المساء اضطجعت على حشية العليق منهك القوى ، أقرب الى الموت منى الى الحياة ، لاعنا اليوم الذى ولدت فيه ! ٠٠

وفى اليوم التالى تحايلت على اجتنـاب الرهق الذى عانيت منه بالامس ، فوقفت على العربة وأمسكت بوسط « جوجو » فى حرص شديد، ولكن لم تكد تمضى لحظات على تحرك العربة حتى اصطدمت اطاراتها بحجر فى الطريق فانقلبت فى شـبه قوس ، وهويت أنا من فوقها مقلوبا ، فساقاى فى الهواء ، ورأسى فى الرمال حيث تلقتنى النباتات الصحراوية كثيرة الأشواك ، فأدمت وجهى ومزقت جلدى ٠ ومع أنى استجمعت قوتى لأبدو قليل الاكتراث بما أصابنى ، فان « جوجو » كان ظاهر القلق على

حالتي ، وقد أخذ يصب على رأسي من الماء الذى كان يضن به على رجاله الا في أشد حالات الظمأ ، ويواسيني قائلا انها عثرة مألوفة في أسفار الصحراء ، وهي دليل على السرعة التي تفرضها علينا اهمية الفرض من الرحلة ، وقد قطعنا بها شوطا بعيدا ، وسوف نبلغ طلائع قوات «عزيرو» في اليوم الرابع اذا لم تفجأنا القوات الحرة خلال ذلك ! .. وبعد أن اقيمت العربة وأصلحت ، استؤنف السير كما كان ، انطلاقا وسباقا ، حتى أقبل الليل ! ..

وقبيل الفجر استيقظت على حركة غير عادية ، فاذا بي أرى «جوجو» يدفعني بقوة من فوق العربة فأسقط لفوري على الرمال ، واذا به كذلك يقذف ورائي بالواحي وحقيبتي .. ثم يلوى عنان جياده ويلهب ظهورها بسوطه وينطلق بها وفي أثره بقية العربات ، وكانت لسرعتها المتزايدة تثير في الافق شررا مولدا من احتكاك اطاراتها بأحجار الطريق ! ..

كانت مفاجأة مذهلة ، ما كدت أنتبه منها وآخذ في نفض الرمال التي علقت بوجهي وغشيت بصري ، حتى رأيت جمعا من العجلات الحربية تقبل نحوى منحدرة من التلال على شكل مروحة كما هي الحال في نظام المعارك ، فأيقنت أني مأخوذ بغارة حربية معادية ، انفلت منها « جوجو » ورجاله هربا ، فنهضت وجلا والتقطت من قريب غصن نخلة ورحت ألوح بها من عل علامة السلام . ولكن العجلات مضت في ركضـــها لتلاحق « جوجو » دون أن يعيرني قائدوها التفاتا ، وان كان أحدهم قد أبى الا أن يريش من كنانته سهما نحوي ، كان له حول اذني حفيف مخيف ، ولكنه أخطأني فغاص في الرمال الى جانبي ! ..

وكان « جوجو » قد أحكم طريقـة هربه فلم تستطع هـذه العجلات الرابضة في اثره أن تلحق به ، فعادت أدراجها حتى اذا بلغت مكاني توقفت وهبط منها قادتها ، وعرفت عندئذ أنها من قوات « عزيرو » ، فكشفت لهـم عن شـخصيتي وعرفتهم بمكانتي ومهمتي ، وأطلعتهم على ألواح « فرعون » ، وحسبت أن هذا عاصمي من شرهم ، ولكنهم لم يأبهوا بذلك واستغلظوا معي في وحشـية مريرة ، فنهبـوا متاعي وافتضـوا حقيبتي واستولوا على ما فيها من ذهبي ، وجردوني من ملابسي ، ووضـعوا في معصمي وثاقا ربطوه بمؤخرة احدى عجلاتهم ،وعادوا الى أماكنهم بالعربات منطلقين بها وأنا مشدود الوثاق أجرى وراءهم مبهور الانفاس حتى كدت أموت اختناقا في غمار الرمال التي كان غبارها يثور متكاثفا ! .. على أن معسكر « عزيرو » كان يقع خلف سلسلة التلال القريبة ، فبلغناه في

اللحظة التي كنت قد يئست فيها من الحياة . وخلال الغشاوة التي رانت على عيني لفرط ما تراكم عليهما من غبار الصحراء ، استطعت أن أرى خيام هذا المعسكر محاطة بسياج من عجلات الحرب والعربات التى تجرها الثيران ، وعلى مقربة منها جياد تنساب فى الكلأ والمرعى ، ثم غلبنى الاعياء فسقطت فاقدا وعيي الى أن أفقت بعد وقت ، لا أدرى أطويلا كان أم قصيرا ، فرأيت الارقاء حولى يرشون وجهى بالماء ، ويدلكون أطرافى بالزيت . وعندما اطلع أحد الضباط الذين يعرفون القراءة - على ألواحى - تبدلت نظراتهم نحوى وأعادوا ملابسى فارتديتها ، وراحوا يعاملوننى باحترام بدا فى نظرى عظيما بالقيـاس الى ما كنت فيـه ، منذ قليل ، من هوان واذلال ! ..

وبعد أن استعدت بعض ما تبدد من قواى ، وقويت ساقاى عـلى المسير ، ذهبوا بى الى خيمة « عزيرو » ، وكانت تنبعث منها رائحة الشحم والوبر والبخور . فلما انتهينا اليها تلقانى « عزيرو » مرحبا وهو يزأر كالاسد ، والقلائد الذهبية تحيط بعنقه وتلتمع على صدره ، ولحيته ذات الشعر الكث المعقد تلف بها شبكة من الفضة ، وقال لى وهو يضمنى الى صدره : لقد آلمنى أن رجالى أساءوا اليك ، وكان ينبغى أن تنبئهم بأنك « سنوحى » صديقى ومبعوث « فرعون » فى الوقت نفسه ، وأن تلوح لهم من فوق رأسك بفرع من النخيل علامة السلام كما جرت بذلك العادة فى التعبير عن النية الحسنة ، ولكنك لم تفعل هذا ، بل قالوا لى انك فعلت نقيضه تماما ، اذ هاجمتهم شاهرا سكينك ، فاضطروا الى القبض عليك دفاعا عن أنفسهم ! ..

فقلت له فى مرارة وأنا أشير الى ساقى ومعصمى : انظر ! .. فلعل فيما ترى بى من آثار وحشيتهم دليل صدقهم وبراءتهم ! .. ان رجالك لأجرأ من عرفت من الناس على الكذب والافتراء ! .. ولو كانت بهم شجاعة أهـل الحرب لقالوا لك الحقيقـة ، وهى أنهم حطموا غصن النخيل الذى لوحت به لهم ، ثم داسوا على ألواح « فرعون » التى ذكرت لهم أنى أحملها اليك ، ونهبوا متاعى ومالى وجردونى من ملابسى وأوثقونى عاريا بمؤخرة عجلاتهم ! .. لقد ارتكبوا بذلك اثما فظيعا ويجب أن تعاقبهم بالجلد ليعرفوا كيف يحترمون مبعوث « فرعون » ! ..

ولكن « عزيرو » فتح رداءه ورفع يديه فى سخرية وقال : ما اظنك الا قد عانيت من رؤيا سيئة يا « سنوحى » ؟! . ومع ذلك فماذا كنت استطيع ان افعل لأمنع هذا الذى اصابك فى ساقيك وبدنك من كلال ومن

آلام ، خلال رحلة طويلة مضنية ؟! أما هؤلاء الذين تطالبنى بجلدهم فهم الخيرة من رجالى ، ولن أنالهم بأذى لمجرد ارضاء مصرى تعس ! ٠٠ ان كلامك ، يا مبعوث « فرعون » ، ليقع على أذنى كأنه طنين الذباب ! ٠٠

قلت له مداهيا : « عزيرو » ! ٠٠ يا ملكا على ملوك كثيرين ٠٠ ان رجلا واحدا منهم — على الاقل — ينبغى أن تأمر بجلده ، وهو ذلك الذى أهدر آدميتى وعاملنى كما لو كنت ثورا أو حمارا ، فربطنى بلا خجل فى مؤخرة العجلة ، وجرنى بها مشدود الوثاق كالارقاء الاذلاء ! ٠٠ اجلده وحده ، وهذا حسبى ، واعلم أنى جئتك بالسلام ، هدية لك ولسوريا !٠٠

فضحك « عزيرو » ضحكة عالية وقال لى فى شموخ : لا يهمنى كثيرا أن يتمرغ « فرعون » البائس أمامى مستجديا السلام ، لا مهديا له ! ٠٠ على أنى ، من أجلك أنت ، كصديقى وصديق زوجى وولدى ، سآمر بجلد هذا الرجل الذى شدك الى العجلة وجرك خلفها ، فذلك الذى فعله مخالف للتقاليد المرعية ، ثم اننى — كما تعلم — أحارب بالاسلحة الشريفة فى سبيل أهداف سامية ! ٠٠

وجيىء بالرجل الذى أمر « عزيرو » بجلده ، تأديبا له على ماسامنى من اذلال وتعذيب ، وشاعت الغبطة فى نفسى عندما رأيت السياط تلهب جسده على مشهد من الجموع الحاشدة أمام خيمة « عزيرو » ، وكان رفاقه من أشد الناس ضحكا عليه وازدراء له كلما انفجر صارخا متأوها ، ولم يبـد على أحد منهم أى أثر من العطف عليه ، ولم يكن ذلك منهم استنكارا لفعلة كانوا منذ قليل شركاءه فيها ، وانما كان ذلك لانهم محاربون غلاظ القلوب رأوا مشهدا مثيرا ، فتلهوا به ، اذ كانت حياتهم الملأى بالجفوة والملالة قد أظمأتهم الى مثل هذا المشهد الجديد ، فهم فرحون به حتى لو كان ضربا بالسياط ، أو كان المجلود المتألم المستغيث واحدا منهم !٠٠ ولكننى مع شناعة ما أصابنى منه ، ومع ماكان ظاهرا من ارتياح رفاقه الى جلده ، ومع ماكان ظاهرا كذلك من رغبة « عزيرو » فى أن يستمر جلد هذا الشقى حتى يموت ، مع ذلك أخذنى الاشفاق عليه حينما رأيت دمه يسيل ولحمه يتمزق تحت السياط ، فرفعت يدى طالبا أن يكفوا عنه ويبقوا على حياته ، وعندئذ توقفوا وحملوه الى خيمة رافقنى اليهـا « عزيرو » وسط دهشة الضباط والجنود الذين لم يكن يخطر ببالهم أنى سأصفح عنه على هذه الصورة ٠ وفى الخيمة أخذت فى تضميد جراحه وتدليك ظهره بالمرهم الذى كنت قد استعملته فى تدليك مفاصلى التى أوهنها وأدماها هذا الرجل نفسه ، ثم أمرت له بالجعة يشربها ويملأ بها

جوفه لتمده بالقوة التى فقدها ، وقد استغرب منى هذه المعاملة الرقيقة، وأنا الذى لقيت ما لقيت من عدوانه وقسوته ، وخالنى لهذا مجنونا ، ولاح فى نظراته نحوى أننى لا أستحق شيئا من احترامه ! ..

وفى المســاء دعانى « عزيرو » الى طعام من اللحم المشوى والارز المطبوخ فى الدهن ، فتناولته معه فى خيمته وشاركنا فيه رؤساء جنده وبعض القادة من الحيثيين الذين ألحقوا بمعسكره ، وكانت تميز هـؤلاء الحيثيين أرديتهم الخاصة ودروع صدورهم المحلاة برسوم تمثل رءوس الثيران والشموس المجنحة .. وطاف علينا السقاة بالنبيذ فشربنا منه جميعا ، وشــعرت بأنهم يعاملوننى فى كثير من الرقة والاســماح ولطف الخطاب ، وكانوا لا يصطنعون ذلك مجاملة ، فقد علموا أنى مقبل اليهم بدعوة السلام ، وكانوا ـ لفرط ما يعانون من متاعب الحرب وكوارثها ـ قد برموا بها واشتد حنينهم الى السلام الذى جئت داعيا اليه ، ولهــذا طابت نفوسهم بمجلسى . وخلال نشوة الشراب أخذوا يتحدثون فى انطلاق وصراحة عن الحب والسلام وحرية « سوريا » ونير الطغاة الذين حطموه وتخلصوا منــه ، الى غير ذلك من أحاديث الماضى والحاضر والمستقبل ، ولكنهم ـ بعد أن أسرفوا فى شراب النبيذ ـ لم يعودوا جميعا على رأى واحد ، فاختلف بعضهم مع بعض فى الرأى ووجهة النظر ، وأسلمهم هذا الاختلاف الى الغضب والملاحاة والتشاجر ، وتحدث رجل من « عمورية » وآخر من « يافا » ، فاستل الآخير سكينه وطعنه بها فى عنقه ، وهنــا نهضت لاسعاف « العمورى » بالعلاج ، ولم يقتض هذا جهــدا كبيرا فان الطعنة لم تنفذ الى الشرايين ، ولكننى مع هذا تلقيت منه ـ على سبيل الاعتراف بالجميل ـ مجموعة من الهدايا الثمينة ! ..

ـ ٢ ـ

وأشار « عزيرو » الى رجاله بالانصراف الى خيامهم ليواصلوا فيها شجارهم اذا شاءوا ، وجاءنى بعد انصرافهم بولده الذى لم يكن قد جاوز بعد العام السابع من عمره ، وراقنى منظره ، فقد كان على حداثته يبدو صبيا جميلا ، منضر الخدين كأنهما تفاحتان ناعمتان ، وفى عينيه بريق لامع ، وعلى وجهه انعكاسات من جمال وجه أمه ، وكانت فيه ، الى ذلك ، مشابه من قوة أبيه ووثاقة بدنه . وقال لى «عزيرو» ، وهو يمسح على رأس ولده ذى الشعر المجعد : ما أظنك رأيت من هو أجمل وأظرف منه فى

الصبيان ؟ ! .. انه رفيقي في كل قتال ، فلا أطيق أن أمضي بدونه الى أمر بعيد أو قريب حتى لو كان ذلك في سبيل القضاء على الفتن الصغرى في القرى الدانية ، ذلك لانى ، فوق خشيتي على حياته الغضة العزيزة ، اعده ليكون رجلا ذا بأس ، وأروضه في سنه الباكرة على حمل التبعات العظمى فيما أهيىء له من ملك كبير ، فمن أجله ظفرت بتيجان كثيرة ، وسيصبح يوما حاكما عظيما على مملكته التي ستمتد الى آفاق بعيدة ، وقد أثمر غرسه كما لم يحدث لمن كان في مثل سنه الصغير ، فهو الآن يحسن القراءة والكتابة ، وظهرت فيه دلائل القوة والشجاعة حتى لقد استطاع أن يبقر بسيفه بطن أحد الأرقاء حينما اجترأ عليه بكلمة نابية ، وعلى هول ما يشهد معي من الوقائع الحربية ، لم يضطرب مرة اضطراب الخائف الفزع ! ..

بمثل هذا الزهو كان « عزيرو » يتحدث عن ولده . وقد عرفت منه أن زوجه « كيفتيو » تظل في « عمورية » طول الوقت الذي يقضيه بعيدا عنها في الحروب والأسفار ، وقال لى انه يحن اليها في غربته حنينا شديدا ، لانه يكابد الكثير من العناء في مضاجعة غيرها من النساء الأسارى وعذارى المعبد اللائى يرافقن الجيش ، فواحدة من هؤلاء جميعا لا تغنى عنده غناء « كيفتيو » التي يحبها أعمق الحب ولا ينساها أبدا.. واستطرد يقول لى ، مؤكدا هذا المعنى ، ان السنين التي تتابعت عليها ، منذ آخر عهدى بها ، قد زادتها فتنة وجمالا حتى أننى لا أكاد أعرفها الآن اذا رأيتها ! ..

وفيما كنا نتحدث ، قرعت أسماعنا أصوات عويل ، فقال لى « عزيرو » وهو يغالب غضبه : هاهم الضباط الحيثيون قد عادوا الى تعذيب نسائهم ! .. وهذا أمر يثير سخطى ولا أستطيع أن أمنعه ، لحاجتي الى بسالتهم في القتال . ولكنى ، لتكراره ، قد ضقت بهم ذرعا ، فلست راضيا عن هذه العادة السيئة التي أخشى أن تسرى عدواها الى رجالى ...

وتلقفت هذه الفرصة فقلت له : لقد عرفت الحيثيين وبلوت أخلاقهم وطباعهم ، والرأى عندى أنهم قوم لا أمان لهم ولا يرتجى خير فيهم ، ونصيحتى لك يا « عزيرو » يا ملك الملوك ، ان تقطع علاقتك بهم ، فهم غير أهل لثقتك ، وما أسرع ان يثبوا عليك ، لأول بادرة ، ليطيحوا بالتيجان من فوق رأسك ، وليحطموا رأسك في الوقت نفسه ! .. ان الغدر والخيانة طبيعة فيهم ، وخير لك وأجدى أن تعقد السلام مع «فرعون»

وتدعهم مشتبكين في المعارك مع « ميتاني » ٠ و « بابل » الآن مسلحــة ضدهم ـ كما تعلم ـ ولن ترسل لهم القمح مادمت على صداقة مع أهلها ٠ واني اذ أنصحك بمسالمة « فرعون » ومصالحته ، انما أنظر في الامر نظرة الصديق ، لا أخدعك ولا أداجيك ، وينبغي يا صديقي « عزيرو » أن تفطن الى ما سوف يكون عندما يحل الشتاء ولا يكون ثمة صلح قد انعقد بينك وبين « فرعون » ! ٠٠ ان « فرعون » عندئذ لن يرسل اليكم القمح الذى كانت «مصر» ترسله وافرا من قبل ، ونتيجة هذا أن تلم بكم حتما مجاعة فاتكة ، الى ما يحيط بكم من غدر الحيثيين وخيانتهم ! ٠٠

فأجاب « عزيرو » قائلا : كأنى ، حينما تتكلم هكذا ، أسمع هذيان مخبول ! ٠٠ فهؤلاء الحيثيون ليسوا على هذه الصورة القاتمـــــة التى يوحيها اليك الخيال الماكر ٠٠٠ انى أعرفهم تماما ولا أحتاج الى رأيك فيهم ! ٠٠ انهم لأصدقائهم مخلصون أحباء ، ولكنهم على أعدائهم قساة أشداء ٠٠٠ ومع أنه لم تنعقد بيني وبينهم معاهدة حتى الآن ، فانهم يزجون الى الكثير من الهدايا الغالية والدروع المصقولة اللامعة ، ودون ان يكون لهم دخل في موقفي وتصرفاتي ، أستطيع أن أقول اننى أوثر السلام على الحرب ، وما أفكر في القتال الا لأنال به سلما شريفا ، ولهذا وفي حرية مطلقة ، أرحب بالصلح مع « فرعون » منفردا ، على أن يسلمنى « غزة » التى اقتطعها منى عن طريق الخدعة ، وأن يجرد قطاع الطرق الذين أطلقهم في الصحراء من أسلحتهم ، وأن يعوضنى بالقمح والزيت والذهب عن كل ما وقع لى من خسائر في مدن «سوريا» أثناء الحرب ، فمصر هي وحدها المسئولة عن هذه الحرب ، كما لا أظنك تجهل ! ٠٠

قال ذلك ، وهو يحدجنى بنظرات وقحة ، وعلى فمه ابتسامة ساخرة ، فأجبته في عصبية واحتداد قائلا : ماذا تقول يا « عزيرو » أيها السفاح ، قاطع الطرق وسارق الماشية ؟! ألا تعلم أن مصانع «مصر» ، في كل أنحاء المملكة السفلى ، لا تنفك تعمل ، ليلا ونهارا ، لتصنع الدروع والاسلحة ، وما تدرى وما لا تدرى من أدوات القتـال ! ٠٠ ان لدى « حورمحب » من العجلات الحربية ما يزيد على عدد البراغيث التى تحتشد في فراشك ! ٠٠ وانها لتوشك أن تنقض عليك انقضاض الصواعق في موسم الحصاد ! ٠٠ ولقد أعماك الغرور عن ادراك هذه الحقيقة ، وأغرتك بفرعون دعوته الى السلام ، وهو لا يدعو اليه عن ضعف وانما يدعو اليه كوسيلة لحقن دماء الابرياء ارضاء لالهه فحسب ، ويجب أن تعلم أن «حورمحب» ذلك المحارب الذى طبقت شهرته الآفاق ، غير راض عن هذا

السلام ، وقد بصق على قدمي حينما حدثته عنه ، فليس لك قبل بقوته ، وعليك أن تنظر في الامر بما ينبغي له من أناة وحكمة ، والا فستندم حين لا ينفع الندم ! ٠٠ أما « غزة » فلن تفرط « مصر » في قيد أنملة من ارضها ، وستحتفظ بها رضيت أنت أم لم ترض ! ٠٠ أما قطاع الطرق في الصحراء ، فعلى رأسك يقع وزرهم ، انهم من هؤلاء السوريين الذين اجتاحهم ظلمك وقسوتك فانطلقوا الى الصحراء فرارا منك ليتخذوا منها مجالا واسعا لمناهضتك واقلاق بالك ، فانت المسئول عنهم ، وانت سبب ما تعاني من أعمالهم ، وعليك أنت ، لا على « مصر » ، أن تدفع أذاهم وتتقى شرهم ، واني لأطلب اليك الآن باسم « مصر » أن تفك اسار المصريين وتؤدي تعويضا عما لحق التجار منهم من خسائر في المدن السورية وتعيد اليهم ممتلكاتهم فيها ! ٠٠

وما ان سمع « عزيرو » هذا حتى راح يمزق ملابسه ويشد لحيته ويصرخ في غيظ قائلا : الم اقل انك تهذي ؟ ! لاشك في أن كلبا مسعورا قد قضم لحمك بأسنانه يا « سنوحي » ؟ ٠٠ ان « غزة » يا هذا ، بلد لايستطاع فصله عن «سوريا» !٠٠ وهؤلاء التجار المصريون الذين تتحدث عنهم هم وحدهم المسئولون عن خسائرهم ، أما الأسرى ،فلا مناص من بيعهم في أسواق الرقيق كما تقضى بذلك التقاليد ! .. على أن « فرعون » يستطيع أن يشترى حريتهم اذا كان لديه من الذهب ما يكفي لذلك ! ٠٠

وعدت أقول له فيهدوء : دع عنكهذا التحدى يا «عزيرو» ، وليكن حديثنا حديث صديقين ، مجردا من المداورة والخداع ٠٠ وصدقنى أن سلاما ينعقد بينك وبين « فرعون » ٠ خليق أن تجنى منه ثمرات طيبة ، منها أنك تستطيع أن تبنى قلاعا حصينة فيمدنكتأمن بها سطو الحيثيين أو غزوهم ، ففى هذا السبيل ستمدك «مصر» بعون كبير ، وكذلكستتواصل المعاملات التجارية بين بلادك و « مصر » ، وتزدهر بهذا تجارتكم وتنمو ثروات الكثيرين من تجاركم دون أن تقتضيهم « مصر » على ذلك شيئا من الجزية أو الضرائب ، ولا خوف في هذه الناحية من الحيثيين ، فليست لديهم مراكب حربية يستطيعون بها وقف أو تعطيل التبادل التجارى بيننا وبينكم !٠٠ فهذه وكثير مثلها ، منافع ستفوزون بها في ظل السلام المنشود ، وكفتك فيها يا « عزيرو » هي الراجحة بلا ريب ، ولا يمكن أن توصف شروط « فرعون » من أجل تحقيقها الا بأنها غاية الاعتدال ، وليس من حقى ، على أية حال ، أن أغير فيها شيئا !٠٠

ولم نصل من الجدال في هذا المساء الى نتيجة ، وقد استأنفناه بعد ذلك في أيام عدة ، وكثيرا ما كان يثور فيمزق ملابسه ويحسو الرماد

على رأسه ويسميني لصا أو يتهمني بأني أخدعه للوقوع فيحبائل «مصر»، ويبلغ به شعور الخوف من «مصر» الى حد أن يتخيل أنها تحتفر لابنه حفرة يموت فيها ، فيفزع من هذا الخيال ، وفي عبارات حزينة يروح يندب سوء حظ ابنه ويتفجع عليه !..

وكانت الايام والاحداث التى تلت ذلك عونا لى عليه ، فأخذ يلين ويسلس شيئا فشيئا ، ذلك أن المشاجرات بين جنوده المختلفين طباعا واخلاقا كانت تتزايد وتتفاقم داخلمعسكره يوما بعد يوم ، وكانالكثيرون منهم ، بين آونة وأخرى ، يتركونالمعسكر عائدين اليبلادهم ولا يستطيع هو أن يمسكهم لان سلطانه عليهم ، الى ذلك الحين ، لم يكن قد استقر استقرارا يمكنه منهم !.. وحدث ، ذات مساء ، أن أقتحم خيمته رجلان وحاولا اغتياله طعنا بالخناجر ، ولكن طعناتهما لم تكن قاتلة ، فنجا واستطاع أن يقبض على أحدهما ويذبحه ، واستيقظ ابنه وقتئذ ، فأدرك الثاني ورماه بسيفه الصغير في ظهره فأصاب منه مقتلا .

وفى اليوم التالى لهذا الحادث ، استدعانى « عزيرو » الى خيمته ، وبعبارات حارة مزعجة أخذ يتهمنى بمحاولة اغتياله . وعلى ما عرانى من خوف لهذه المفاجأة ، فانى استجمعت قواى لمواجهة الموقف بالاسلوبالذى تعودت مجادلته به ، وانتهى الأمر بيننا أخيرا الى تسوية نهائية ، ساعدت عليها الظروف الملابسة ، وتأكيدا لها وضعت باسم « فرعون » أسس السلام مع « عزيرو » ومع المدن السورية كلها ، على أن تبقى « غزة » تابعة لمصر ، ويتولى « عزيرو » اخضاع القوات الحرة ، ويكون لفرعون حق افتداء الأسرى المصريين وشراء الأرقاء ..

وعلى هذه الأسس ، وبهذه الشروط عقدنا معاهدة صداقة دائمةبين « مصر » و « سوريا » وسجلت على الألواح الطينية ، وتأيدت بأسماء آلهة « سوريا » وآلهة « مصر » واسم « آتون » . وكان « عزيرو » وهو يوقع بخاتمه على الالواح يصطنع الاستياء والسخط ، فيلعن ويسب ... وصنعت أنا مثله ، وأنا أوقع بخاتمى المصرى ، فمزقت ملابسى وبكيت ! .. كنا كلانا نتظاهر بذلك زيفا ورياء ، أما الحقيقة فقد كان كل منا مغتبطا داخل نفسه بهذه النتيجة !..

وتأهبت بعد ذلك للعودة ، فودعنى « عزيرو » وداع صديقوزودنى بهداياه ، وقد وعدته بهدايا مثلها له ولزوجته وولده ، أبعث بها اليهم على أول سفينة تبحر من « مصر » بعد عودتى ، وكان ولده حاضرا فيلحظة الوداع ، فرفعته فوق ذراعي حانيا عليه وقبلته في وجنتيه الموردتين ،

وامتدحت شجاعته متفائلا له بمستقبل سعيد ، فهز ذلك أعطاف «عزيرو» فضمني الى صدره شاكرا ، وعلى هذه الصورة الدالة على الوفاق المتبادل، افترقنا ! ..

ولكنه لم يغب عن فكرى ــ كما لا شك فى أنه لم يغب عن فكر «عزيرو» ــ أن معاهدة السلام التى وقعناها منذ قليل ، ليست الا مجرد خطوط رسمت على الطين ، اقتضاها من جانب « عزيرو » ادراكه للظروف القاسية التى تحيط به ، واقتضتها من جانبى ارادة « فرعون » وحده ، غير أنها ــ فى الواقع ــ أضعف من أن تحقق السلام الذى تهدف اليه ، فدون هذا السلام العواصف العاتية والانواء الشديدة ، وسيبقى ــ الى حد بعيد ــ مرتهنا باتجاهات الحيثيين بعد عودتهم من « ميتانى » ، ومتوقفا على مبلغ صمود « بابل » ، ومدى قوة سفن « كريت » الحربية فى حماية التجارة البحرية !.. وهذه كلها عوامل مؤثرة فى الموقف العام ، وخارجة فى الوقت ذاته عن نطاق المعاهدة ! ..

ومهما يكن من الأمر فى الغد ، فان « عزيرو » قد أخذ فى تسريح قواته فور التوقيع على المعاهدة ، وأصدر أمرا الى رجاله فى « غزة » لرفع الحصار عنها ، وجهزنى فى عودتى اليها بحرس من جنده . على أنى كدت أقع فريسة الموت قبل أن أدخلها ، ذلك أننا عندما اقتربنا من أبوابها رفع الجندى ، الذى كان يقف الى جانبى من قوة الحرس ، غصن النخيل ملوحا به وهو يصيح معلنا أن السلام قد تم ، ولكن المصريين المدافعين لم يأبهوا لهذا الصياح ، وأخذوا يريشون سهامهم فى اتجاهنا ، ويشهرون حرابهم ايذانا بالشر ، ورأيت نفسى ساعتئذ فى أحضان الموت . وقد حاول رفيقى الجندى أن يحمينى من هذا الخطر الداهم ، فوضع درعه فوقى ، وهنا أصابه السهم المريش فسقط مضرجا فى دمه ، ولاذ رفاقه بالفرار !.. وفى فزع واضطراب تقبض بعضى فى بعض ، وجثمت على الارض تحت الدرع كالسلحفاة . ولما رأى المصريون ــ وهم منى بمبعدة فى مواضع دفاعهم ــ أن سهامهم تخطئنى وأنا على تلك الحال ، أسالوا من وعاء ضخم قطرانا يغلى على الارض مصوبا نحوى . وكان هذا كافيا للقضاء على حياتى ، ولكن ــ لحسن الحظ ــ كانت هناك أحجار كبيرة وقفت سيره وحالت بينى وبينه ، فلم يمسنى منه الا قطرات أحدثت بيدى وساقى بعض حروق خفيفة !..

وكان المحاصرون من رجال « عزيرو » يشهدون هذا فضحكوا منه ضحكا شديدا ! .. وأخيرا أمر رئيسهم فنفخ فى النفير اعلانا للسلام الذى

وافاهم نبأه فى رسالة « عزيرو » ، واذ ذاك سمع المصريون لى بدخول المدينة ولكنهم أبوا أن يفتحوا أمامى أبوابهـا ، وكانت الوسيلة التى اختاروها لدخولى ، هى انهم القوا من فوق الاسوار سلة كبيرة ذات حبل موثق ، فدخلت فيها قابعـا بالواحى ومتاعى ، واسـترجعوها اليهم مشدودة بالحبل ، وبذلك صرت بينهم !..

وفى انفعال وغضب ، وجهت الى قائد الحامية عبارات تأنيب قاسية، ولكنه كان رجلا خشنا صارما ، فأخبرنى انه كثيرا مالقى من السوريين محاولات خبيثة من هذا النوع الخادع ، ولهذا قرر ألا يفتح أبواب المدينة الا بأوامر صريحة من «حور محب» ، وهو ـ الى الساعة التى جئته فيها ـ لا يعلم أن صلحا قد تقرر ، فأطلعته على ألواح المعاهدة وتحدثت اليه فيها باسم « فرعون » ، فلم يقتنع وظل على اعتقاده بأن الحرب مازالت قائمة ، وأن موقفه لن يتغير بمثل هذه الطريقة !.. لقد كان على سذاجته عنيدا، ولم أضق بعناده ، بل لعلى أكبرته ، فلولاه ما بقيت « غزة » فى قبضة « مصر » حتى اليوم ، ولهذا لم أر من حقى أن أطيل فى تأنيبه أو جداله !.

وركبت البحر من « غزة » قاصدا الى « مصر » .. وقلت للبحارة ان عليهم ، اذا ماراوا فى عرض البحر سفينة معـادية ، أن ينشروا فى الحـال ، فوق سارية سفينتنا ، راية « فرعون » المستطيلة مجهزة بكل إشارات السلام ، ولكنهم استغربوا هذا وخيل اليهم أنى أتحدث عن خرافة فحامت عيونهم حولى فى سخرية واشـفاق !.. ذلك لانهم لم يكونوا يتوقعون شيئا من هذا السلام المزعوم ! ..

وعلى شاطىء النهر ـ حين بلغناه ـ تجمع الناس فى كثرة كاثرة، وفى أيديهم اغصان النخيل يلوحون بها استبشارا بالسلام الذى عدت به ، فقد علموا أننى مبعوث « فرعون » فى سبيله ، وقد أصبت النجح فى مهمتى ، فهم لهذا يحتفلون بمقدمى فرحين . وعند هذا أكبر البحارة شأنى وشاركوا الآخرين فى تحيتى وتكريمى ، ونسوا ما كانوا قد عرفوه من أمر دخولى « غزة » محمولا فى سلة ، ومشـدودا بحبـل من فوق الاسوار !..

وفى «ممفيس» مرةأخرى ، لقيت «حورمحب» واقرأته الواح المعاهدة فأثنى على مهارتى كمفاوض ، وأدهشنى منه ذلك ، فما أعرف أنه أولانى قبل هذا شيئا من الرضا عن عمل قمت به !.. ولم اتبين سر خروجه عن هذه القـاعدة الا بعد أن علمت أن الاوامر كانت قـد صـدرت الى السفن

الحربية التابعة « لكريت » لتلزم مراسيها • وكانت « غزة » من أجل ذلك على وشك السقوط فى يد « عزيرو » ، فمن غير طريق البحر كان الاحتفاظ بهذه المدينة أمرا غير مستطاع ••• ومن هنا كان ما رأيت من تقدير « حورمحب » وثنائه ، فقد كان السلام الذى جئت به انقاذا ، لا شك فيه ، من هذا الموقف البالغ السوء ، وقد أمر « حورمحب » من فوره ، بارسال السفن الى « غزة » محملة بالقوات والاسلحة والذخيرة !•

وكانت سفينة « فرعون » تنتظر قدومى للاقلاع عليها ، فيممت شطرها مودعا من « حور محب » ، وعندما علوت ظهرها التقيت فيها بمبعوث « بورنابورياش » ملك « بابل » ، وكان شيخا وقورا واسع المعرفة تتدلى على صدره لحية بيضاء ناعمة ، فتحفيت به وأحسنت لقياه ، وعلمت أن ملك « بابل » بعث به الى « ممفيس » خلال اقامتى بمعسكر « عزيرو » ، وزوده بماشية وهدايا كثيرة ، وشاءت المصادفات أن نلتقى معا فى هذه الرحلة النهرية ، وكانت بحق رحلة ممتعة ، أنس فيها كل منا بالآخر ، وتحدثنا عن النجوم وكبد الشاة ، وحديثها يفتح أمامنا آفاقا واسعة لموضوعات شتى ، وتناولنا فيما تناولنا من الاحاديث ؛ الشئون العامة وأحوال الحكم ، فالفيته متطيرا من ازدياد قوة الحيثيين ، وقال لى فى سياق الحديث عنهم : ان كهنة الاله «مردوخ» تكهنوا بأن قوةالحيثيين ستتناقص وتضؤل على مدى زمن يقل عن مائة عام ، وان جنسا أبيض متوحشا يهب عليهم من الغرب فيبيدهم !• ولم أشعر بأن فى هذا الحديث شيئا هاما ، ولكنى مع ذلك عجبت كيف يصدق هذا النبأ فى ابادة الحيثيين من الغرب ، وليس فى الغرب سوى جزر البحر !••

وقدم لى هذا الشيخ المحدث الحكيم نبيذا من أجود أنبذة الجبال ، فتساقينا منه معا ، وازددنا به انتعاشا ونشوة ، وقال متابعا كلامه عن الظواهر الدالة على ما بعدها : ان ثمة علامات ودلائل تتواتر مرهصة بنهاية عهد قائم ، وانا من هذا العالم فى فترة تؤذن بغروب شمسه ، وعما قريب تبيد أقوام كثيرة ، كما باد بالفعل قوم «ميتانى» ، وكثير من الآلهة القدامى ستنقرض قبل أن تولد آلهة أخرى ، الى آخر ما يستشفه خلال ظواهر الاحوال الجارية • وقد كان فى طريقة عرضه وتقديراته ثبتا عميقا مؤثرا حتى اننى تجاوبت معه ووافقته على جملة آرائه فى اقتناع وتصديق !•• وقد سألنى فى اهتمام عن «آتون» ، فحدثته عنه واطلت الحديث ، فى حين كان يهز رأسه ويمشط لحيته ، وعقب على حديثى بقوله : ان هذا الاله لا يماثله اله آخر من الآلهة التى ظهرت على الارض ،

فتعاليمه شيء جديد لا عهد للبشر به ، وظهوره بها قمين أن يكون احدى العلامات الدالة على بداية النهاية !··

وانتهينا بهذه الرحلة الممتعة الى « أخيت آتون » ، وعندما برحت السفينة كنت أشعر بأني صرت أكثر علما وحكمة !..

- ٣ -

كان «فرعون» حينما عدت يعاني من الصداع الذى أخذ يعترى راسه خلال غيبتى ، وكانت حالته النفسية شديدة الاضطراب لتصورات غامضة أوحت اليه أنه ما من شيء تلمسه يده الا أصيب بمكروه ، وطغى هذا الشعور على أفكاره ، فكان كأنما يتلظى من ذلك فى نار مستعرة ، وتأثر جسمه بهذا فذوى واضمحل · ورأى الكاهن « آى » أن يصنع شيئا ما يبهج نفسه العانية ويشحذ قواه الوانية ، فقرر أن يقيم مهرجانا فى هذا الخريف بعد الحصاد وقبل ارتفاع مياه النيل ، للاحتفال بالعيد الثلاثينى لحكم « فرعون » ! ·· وليس مهما الا يكون فرعون «أخناتون» قد قضى فى حكمه ثلاثين عاما ··· وانما المهم هو أن يقام المهرجان كوسيلة لاسعاده ، وقد جرت تقاليد الفراعين على أن يقام مثل هذا المهرجان ـ وبالتسمية نفسها ـ فى أى وقت يشاءون دون نظر الى ما قد ينتفى فيه من التوافق بين وقت اقامته وعدد أعوام الحكم !··

وتوافدت على مدينة «أخيت آتون» جموع كثيرة من الناس ليشهدوا الاحتفال بهذا العيد ويشاركوا فيه · وفى هذه الاثناء وقع حادث مزعج ، فبينما كان «أخناتون» يرتاض سيرا على قدميه بجانب البحيرة المقدسة ، هجم عليه رجلان فجأة وحاولا قتله بمديتين مشهرتين فى أيديهما ، ولكنهما عوجلا بقدوم الحراس ولم يستطيعا الافلات فوقعا فى قبضتهم بعد أن أصيب «فرعون» منهمــا بجرح خفيف فى كتفه ، وتفقد الحراس سلاح الجانبين فلم يعثروا عليه ، ولمحوا من قريب شابا كان يجلس على الشاطيء ليرسم البط ، فارتابوا فيه وفتشوه ووجدوا هذا السلاح عنده ، اذ تلقفه وأخفاه بين أقلام الرسم ومحابره ، وسدد اليه أحدهم طعنة فأرداه ، وجاءوا به الى «فرعون» ملطخا بدمه · وكان هذا الشاب واحدا من تلاميذ «تحوتمس» الذين علمهم أن يكون الرسم على الطبيعة، لا نقلا من النماذج،

ولكن شاء حظه المنكود أن يلقى به في طريق هذين المجرمين ، فكانت هذه هي نهايته التعسة !٠٠

ودعيت على عجل لتضميد جرح «أخناتون» ، فجئت من فورى ورأيت الجانيين بمقربة منه في أيدى الحراس ، وهما يجاهدان في حركة عنيفة للتخلص من القيود التى كبلا بها ، ويصيحان صياحا عاليا متداركا . مرددين في صياحهما اسم «آمون» مقرونا باللعنة على فرعون «أخناتون» ، وكان أحدهما حليق الرأس يلتمع وجهه بالريت المقدس ، وكان الثـانى مقطوع الأذنين ، علامة ارتكابه من قبل جريمة أخلاقية شائنة ، ولم ينقطع صياحهما على الرغم من الضربات التى كانت تنهال عليهما من الحراس حتى سالت دماؤهما !٠٠

وكان الحادث غريبا فذا ، غير مسبوق بمثله في حياة الفراعنة ، فلم يحدث في تاريخهم الطويل أن أحدا اجترأ على أيهم حتى بمجرد رفع اليد في وجهه !٠٠ وقد يكون من بينهم من قضى نحبه اغتيالا ، ولكن ذلك لم يكن أبدا ليقع بمثل هذه المحاولة السافرة ، وانما كان يقع في كتمان وحذر ، دون أن يترك وراءه أثرا يفشى سره ، وكانت وسيلة اغتيـالهم لا تعدو دس السم في طعامهم أو شرابهم ، أو خنق أنفاسهم تحت ضغط الوسائد ٠ وعلى هذا ظلت هيبتهم مسيطرة ، تثير الرعب دائما في قلوب أعدائهم ، وفي قلوب أقرب الاقربين اليهم على السـواء ، ومن هنا كان الاعتداء على حياة « اخناتون » ، بأيدى رجلين من عامة الشـعب وبهذه الجهارة الفاجرة ، أمرا خطيرا ومفزعا !٠٠

واستجوب الجانيان فى حضور « فرعون » فأبيا الجواب على أى سؤال ، فى حين كانا لاينفكان عن ترديد اسم «آمون» فى اكبار واجلال ، كما لا ينفكان عن ترديد اسم «فرعون» فى زراية وسخط ٠ وقد أهاج هذا غضب «فرعون» ، فأمر حراسه بالمضى فى تعذيبهما ، فما زالوا بهما تعذيباً وتنكيلا حتى لم يبق فى وجهيهما مكان غير مشوه ، ولكنهما ثبتا لهذا العذاب ثباتا عجيبا ، وكانا يصرخان فى وجه «فرعون» قائلين : دعهم يعذبوننا الى آخر مافى أيديهم من قوة ــ أيها الفرعون الزائف ــ وليهشموا رأسينا ، ويفروا لحومنا ، ويلقوا بنا فى آتون النار ، فاننا فى كل هـذا لن نشعر بأى ألم !٠٠ وكان واضحا أنهما فى هذا الموقف البالغ القسوة، واقعان تحت تأثير سحر الكهنة !٠٠

ولما رأى «فرعون» فيهما هذه الصلابة وهذا التحدى ، على مايلقيان

من عذاب شديد ، انتحى جانبا وفكر قليلا حتى اذا استعاد هدوءه ، بدا كأنه قد ندم على ان أباح تعذيبهما على مشـــهد منه ، ومن ثم صاح فى الحراس قائلا : حلوا وثاقهما !٠٠ فانهما لا يعرفان ماذا صنعا !٠٠

وصدع الحراس بأمر «فرعون» فرفعوا عنهما القيود ، ولكنهما مع ذلك طفقا يلعنانه في ثورة وهياج ويقولان ، والزبد يطفح على شفاههما : بل اقتلنا ـ أيها الفرعون اللعين الزائف ـ وباسم «آمون» فلنمت الآن ، لندخل سراعا فى الحياة الابدية السعيدة !٠٠ وحينما رأيا «فرعون» جادا فى اخـلاء سبيلهما ، من غير قصـاص ، انفلتـا من أيدى الحراس وأخذا يضربان رأسيهما فى حائط السور حتى تناثرا ، وماتا على الفور !٠٠

ولم ينته أثر الحادث بانتهاء حياة هذين الشقيين ، وانما بقى منه الشعور السائد فى البيت الذهبى بأن حياة «فرعون» أصبحت فى خطر!٠ ولذلك ضوعفت الحراسة عليه ، وأخذ المقربون منه يتســابعون خطواته ويرصدون حركاته ، ويسلطون عليه عيونهم فى غدوه ورواحه ٠ وكان من شأن هذا الحـــادث أن ارتفعت درجات الايمان « بآتون » فى نفوس المؤمنين به حقا ، فازداد حبهم له وتعلقهم به ٠ أما الذين كانوا يتظاهرون بالايمان به طمعـــا فى الثروة والمنصب ، فانهم بدافع من الخوف على ثرائهم ومناصبهم راحوا يغـالون فى التقرب منه اثبـــاتا لاخلاصهم فى خدمته !٠٠

وكذلك كان من نتائج الحادث المباشرة أن ظهرت، فى جلاء ، أعراض حمى التعصب الدينى فى كل من المملكتين العليـــا والسفلى ، فأصـبح الناس هنا وهناك فريقين ، هؤلاء يؤمنون « بآتون » ، وأولئك يؤمنون « بآمون » فى غير خفاء وبلا خشية !..

ولندع هذا لنعود الى المهرجان الذى قرر «آى» اقامته احتفالا بالعيد الثلاثينى !٠٠ انه ينبغى أن يقام أيضا فى «طيبة» ، فرتبت هناك مواكبه وحفلاته ، ونسقت المظاهر المعبرة عن ولاء الشعب وتمجيده «لفرعون» ، ونقل منهـــا الى « أخيت آتون » على سفن النهر مجمـــوعات من السلال والاقفاص ملأى برماد الذهب ، وريش النعام ، والنمور والزراف والقرود الصغيرة والببغـاوات ذات الريش الملون الجميـل ، ليرى فيها أهل مدينة «أخيت آتون» دليل ايمانهم «بفرعون» !٠٠

ولكن الواقع ، وراء هذه المظاهر ، ان الناس فى «طيبه» قد شهدوا

مواكب الاحتفال فى صمت وتوجس ، وكثير منهم فى الشـــوارع انفجر شعورهم واستحال شجارا حادا ، وقد انتزع أتباع «آمون» صليب «آتون» من صدور حامليه ، وكان اثنان من كهنة « آتون » يختلطان بالناس وسط الزحام ، دون حراسة ، فضربا ضربا موجعا الى أن ماتا ! ٠٠

وكان أسوأ ما يسوء فى هذه الظروف أن الســـفراء الاجانب قد شهدوا بأعينهم الاحداث الواقعة وعرفوا منها حادث الاعتداء على حيـــاة «فرعون» ، وأتيح لسفير الملك «عزيرو» أن يظفر من أنبائها بالكثير الذى يحمله الى سيده !٠٠ وعلى أنى كنت آسفا لذلك ، لم أنس ـ وهو يتجهز للعودة الى سوريا ـ أن أضيف الى الهدايا الثمينة التى زوده بها «فرعون» الى «عزيرو» ، كثيرا من هداياى الخـــاصة الى كل من «عزيرو» وزوجته وولده ٠ وكانت هديتى لولده لوحة منقوشة تمثل جيشا صغيرا ، وتتضح فيها بالالوان صور دقيقة لحاملى الحراب ورامى الســـهام ، والجيـاد وعجلات الحراب !٠٠ وقد حرصت أن يكون الجيش فى هــــذه اللوحة عسكرين يتحاربان ، أحدهما عسكر من «الحيثيين» ، وثانيهما عسكر من السوريين ، ولكل منهما سماته الدالة عليه ، وابتغيت بذلك أن أنشىء فى نفس هــــذا الصبى ، خلال لهوه بهـذه اللوحة ، شـــعور الكراهية للحيثيين ، وكانت فى الحق لعبة لطيفة صنعت بمهارة فائقــة ، اذ قام بصنعها أبرع النقاشين على الاخشاب من أتباع «آمون» وكانوا قد أصبحوا لا يجدون عملا يملأ فراغ وقتهم بعد اغلاق المعبد وتعطيل مصانعه ، وفى هذه اللعبة وحدها دفعت من المال أكثر مما دفعته ثمنا لمجموعة هداياى الى «عزيرو» وزوجته !٠٠

وفى ذلك الوقت كان الارتبـــاك يزداد فى عقــل « أخناتون » وينهش قلبه ، وأخذ الشك يتسلل الى ايمانه حتى كاد يتزعزع ٠ فحادث الاعتداء عليه لا يفارق ذهنه ، ومبادىء المحبة والسلام التى أرادها للنــــاس قد استحالت فتنة وفوضى وعداوة فاشية ، وذهبت عبثا جهوده الشاقة التى بذلها فى هذا السبيل !٠٠ فلقد أخذ نفسه بالحرمان والتقشف ، وآثر من طعامه الخبز المر ، ومن شرابه الماء الملح ، فما أجدى ذلك شيئا على الشعب ، ولا يزال الكثيرون منه يقاسون الجوع والظمأ ، وأباح ـ من أجل المحبة والسلام ـ التنكيل بكهنة « آمون » ، وساق الى المنـــاجم ، للعذاب والالم ، كثيرين من الهاتفين باسم «آمون» ٠ ولكن كل هذا انتهى الى النتيجة المحزنة ، وهى أن الذين قتلوا وعذبوا لم يكونوا الا الفقراء وعامة الناس الذين أراد اسعادهم ، وأن كهنة «آمون» لم يفقدوا سلطانهم ،

واستطاعوا بتنظيماتهم السرية أن يحتفظوا بقوة تأثيرهم على جمهرة كبيرة من الشعب ، الى حد أن ينـدفع بعض المسحورين بهـذه القوة الخفية ، مخاطرين بحياتهم ليغتالوا حياته فى قصره !٠٠ أفلا يدل ذلك على أن « آتون » قد تخلى عنه ؟!٠٠

بهذه الهواجس والشكوك كان « أخناتون » يتعذب عذابا شديدا ، ويقترب بها ــ بين احجام واقدام ــ من التفكير فى وسائل أخرى أكثر حزما وحكمة لمعالجة أمور الدولة المضطربة !٠٠

وكان من الخواطر القاســية التى تكدر صفو حياته أنه لم يرزق ولدا حتى الآن ، فبدا له ــ ليحتفظ بعرشه ــ أن يزوج ابنتيه الكبيرتين « ميريت آتون » و « عانخسن آتون » ، من اثنين من أبناء رجال حاشيته الذين يثق بايمانهم واخلاصهم !٠٠ وقد اختار منهم للأولى صبيا اسمه « سيكينو » ، ومنحه لقب حامل كأس فرعون ، وأعده ليكون على العرش بعده ، اذ صار يائسا من انجاب الولد الذى يخلفه عليه ، وأذن له ، من أجل ذلك ، فى أن يرتدى لباس الرأس الملكى الذى يريده ٠ وكان هـذا الصبى فى الخـامسة عشرة من عمره ، ومن خلائقه الظـاهرة سرعة الاندفاع والانفعال العصبى ٠٠ وكذلك اختار لابنته الثـانية صبيا فى العاشرة من عمره ، اسمه « توت » ، ومنحه لقب سيد الجواد ، وأقامه مشرفا على أعمال المبانى الملكية والمحاجر ، وكان ضامرا فى اعتلال ، ينزع للهو باللعب ، ويهوى الفواكه المسكرة ٠ وعلى ما يلوح عليه من الوداعة ، فان بعض تصرفاته كانت توحى بأن قلبه ينقصه النقاء والطيبة .

وقد آثر « فرعون » هذين الصبيين على غيرهما فى مصاهرته ، لأن الدم الذى يجرى فى عروقهما متصل بأعرق وأنبل الاسر المصرية ، ولأن هذه المصاهرة ستنتج رباطا وثيقـا بينه وبين عشيرتيهما الممتازتين فى الدولة ، ثم لأنهما ــ الى ذلك ــ من فاقدى الارادة الخاصة ، وليس لهما اتجاه معين يتعصبان له ، وهذا يرضيه ، فهو فى هوسه الدينى لايحتمل الجدل والخلاف فى الرأى ، ويضيق أيما ضيق بمستشاريه اذا ناقشوا ارادته ، وقد كان من عادته حين يعرض أمرا ، أن يطلب ممن حوله الرأى فيه ، ولكنه أخيرا لا يأخذ الا برأيه الذى بدأ به !٠٠

وأصبحت الحياة ، فى « أخيت آتون » بالرغم من ظواهر هدوئها ، عسيرة على الناس ، فقلما كان فيهم من يشعر بالطمأنينة وهناءة النفس ، وكانوا يخفضون أصواتهم اذا تحدث بعضهم الى بعض ، كأنهم يتوقعون

شرا يوشك أن يسقط عليهم من سماء المدينة . وكان هذا الاحساس قد بدأ يشيع فيهم منذ وقوع حادث الاعتداء على حياة « فرعون » ، فقد كان فى نظرهم علامة سوء ونذير شر !..

وكثيرا ما كنت أرهف سمعى وأنا أعمل بجانب الساعة المائية ، فلا أسمع الا وقع خرير مائها ، فالسكون المطلق يخيم على المدينة من سائر أقطارها ، وكانت فى نظرى حينذاك أشبه ما تكون بقشرة الفاكهة التى أكل السوس لبابهـا ، فبدت ذاوية ذابلة ، وقد سئم الكثيرون مقامهم فيها ، فغادروها منتحلين لانفسهم فى ذلك أعذارا شتى كزيارة ضياعهم وتعهد شئونها ، أو تزويج أقربائهم أو ما هو من هذا بسبيل ، ومنهم من كان يؤثر البقاء بعيدا عنها . وتراخت ، فى عامة الاحوال ، عناية الناس بأمر « فرعون » ، وتحركت قلوب أكثرهم نازعة الى « آمون » ، فاعتمدوا على قوته الخفية أكثر من اعتمادهم على غيره . وأخذنى ، خلال هذا الجو المشحون بالتشاؤم والشك والخوف ، حنين شديد الى « طيبة » ، فدبرت الحيلة لذلك ، وجاءتنى من «كابتاح» أسباب ملفقة ـ وفقا لخطة رسمتها له ـ تذرعت بها عند «فرعون» ، ليأذن لى فى العودة العاجلة الى «طيبة» ، فكان لى ما أردت .

ـ ٤ ـ

وأحسست ، وأنا أرتقى سطح السـفينة مبحرة بى من « أخيت آتون » ، كأنى قد انطلقت من أسر أو تحررت من سحر . وكان الربيع قد أهل وانخفضت مياه النهر ، وحومت الطيور فوقها شادية ، وأطلت ثمار الفاكهة من بين أغصان الشجر ، وتخضبت الحقول بالطمى المخصب ، فابهجت نفسى هذه المشاهد الجميلة ، وشاقتنى الى «طيبة» فوق شوق ، واستلت من قلبى أثقاله ، فخف حتى لكأنه عصفور من هذه العصافير التى تزقزق من حولى .

أجل ، كان ذلك هو شـعورى ، لابتعادى عن « أخيت آتون » وأنا الطبيب الذى لم يكن « فرعون » عنده أكثر من رجل صديق ، اذ كنت منه بالموضع القريب ، آمنا وادعا ، فكيف بأولئك الذين كان مفروضـا عليهم أن ينزلوه من أنفسهم منزلة الاله المقدس ، كما كان مفروضـا عليهم ـ تبعا لذلك ـ أن يفنوا فى ارادته وتتلاشى حياتهم فى حياته ! ..

انهم ، بلا شك ، أشد رغبة فى الخلاص والهجرة ، وأشد اغتباطا حين يتاح لهم أن يعودوا الى الحرية التى اعتقدوا أنهم فقدوها فى القرب من « فرعون » ! ..

ولم يكن رأيى أن « فرعون » رجل سوء الى حد أن يفر الناس منه هكذا ، ولكن القلق الجاثم علىقلوبهم كان يصوره لهم انسانا مخبولا معتل الرأى والارادة ، يخبط خبــط عشواء فى تصريف أمور الدولة وشــئون الشعب، ويدعو الى المحبة والسلام وهو يأخذ الناس مع ذلك بالشبهات ويهدر دماء من لا يؤمنون بدينه ، أو من يحسبهم كذلك ، فآمنوا به خوفا وطمعا ، ولا تزال بهم بقية من الايمان « بآمون » لا يستطيعون التخلص منها ! ..

اننى ، كلما دنت السفينة من « طيبة » ؛ أذكر فرعون « أخناتون » والهـــه ، وأذكر فى ذكراهما الخير وأراهما ، من قريب أو من بعيــد ، جديرين بالاجلال والاكبار ، على رغم الظروف الســيئة التى اقترنت بظهررهما ، والأشواك التى تجمعت فى طريقهما ! ..

وقد يكون مصدر هذا عندى أننى كنت دائما انسانا طيب القلب ، خصيب العاطفة ، لا تنطوى نفسى على الحقد والكراهية ، فلم أضطغن على أحد ولم أسيء الى انسان » أوثر الشرف والاستقامة ومحبة الناس . وفى أيام شبابى كنت أعالج المرضىمن غير أن أسالهم أجرا ، بدافع العطف عليهم والرغبة فى تخفيف آلامهم ، وهذه صــفات انسانية سامية تلتقى بمبادىء « فرعون » و « آتون » ، وتجذبنى نحوهما جذبا قويا ! ..

واستوقفت نظرى ، فى هذه الرحلة النهرية ، مســاحات شاسعة من الاراضى الزراعية لم يكن قد هيىء منها للزراعة الا ما دون نصفها ، أما الباقى فقد ترك بورا ، تتجسم فيه دلائل الاهمال ، ولا تقع العين منه الا على حشائش متناثرة وأعواد من الشوك متفرقة لا ينتفع منها بشىء ؛ وكانت قنوات المياه وخلجانها طافحة بالطين وطمى النيل ، كأنها سدود اقيمت لحبس الماء لا لجريانه ! .. ودل هـــذا أيضا على أن الذين أهملوا الأرض قد أهملوا كذلك مجارى ريهـــا ، ففيم يتعبون أيديهم فى رفع الطين ، وهم تاركو الأرض نفسها من غير زراعة !

وأحزننى ان أرى ذلك فى الأوان الطبيعى المألوف لزرع الأرض ونشاط الزراع ، فلم تكن هذا حالهم وهم يعملون فى أرض « آمون »

مسخرين ، فما بالهم قد اجتووا الارض وكرهوا أن يؤدوا لها حقها الأزلى من الحرث والانبات والرعاية ! ..

وتحدثت الى من رأيتهم من هؤلاء على مقربة من مرسى السفينة فى احدى القرى ، فقلت لهم : أيها المجانين ! .. ما الذى امسككم عن حرث الارض وزرعها ؟! ألا تعلمون أنكم بهذا تلقون بأنفسكم الى الجوع والموت اذا ما حل الشتاء ؟! ..

ولكنهم كانوا يقلبون ابصارهم فى ملابسى الفاخرة ، ويقولون لى فى حقد ومرارة : ولماذا نحرث ونزرع ونكد ونتعب ، فى أرض قد صبت عليهـــا اللعنة ، فما نخرج من نبات أو ثمر الا انقلب شرا على زارعيه وآكليه ! .. لقد مات أطفالنا لأنهم أكلوا من حب القمح الذى زرعناه بايدينا ، ذلك لأن اللعنة كانت تلاحقه ، فتلونه تلوينا غير مألوف وتحيله فى بطونهم سما زعافا ! ..

وذلك شيء لم أكن قد علمته ، وانى لأراه غريبـــا ، فكيف يموت الاطفال اذا اكلوا من قمح شاءت الأجواء والعوامل الزراعية المؤثرة أن تخرجه ملونا ! .. ومع ذلك فثمة حقيقة تنطوى على سر يعلو على ادراك هؤلاء الســـذج ، هى أن ظاهرة القمح الملون تقترن فعلا بظاهرة مرض خبيث ينتشر كالوباء فى أطفالهم فتنتفخ بطونهم ويئنون أنينا موجعا ثم يموتون وهم على تلك الحال دون أن تجدى فى علاجهم وسائل الأطبـــاء وتدابير السحرة ! .. وقد كان اقتران الظاهرتين فى وقت واحد ، مؤكدا لما كان دعاة « آمون » يشيعونه بين أهل الأقاليم الزراعية من أن «آمون» قد أنزل لعنته على الحقول ، اعلانا لسخطه وغضبه ، ولهذا كره الفلاحون الأرض والزراعة ، ولم يبق منهم فيها الا من لم تسعفه القوة علىالهرب منها الى المدن ! ..

ولا شك أنهم كانوا فى هذا فريسة الوهم والجهل ، فما كانمرض الاطفال المنتشر ناشئا ، كما توهموا ، من لعنة « آمون » ، ومن القمح الملون ، ولكنه ناشيء ــ كما يفسره المنطق الطبى السليم ــ من مياه فيضان النيل التى شربوها ملوثة بما تحمله من جراثيم أمراض الشتاء المعدية ، ولكن انى لهم ان يفطنوا لهذا وسط الدعايات الساحرة ، وفى غشـــاوة الجهالة الفاشية ! ..

فما أبعد ما بين مدينة « اخيت آتون » ودنيا هؤلاء الناس ؟! ..

وكأنما كنت أنشد الفرار بنفسى من هذه المناظر المثيرة عندما ارتحت استحث بحارة السفينة ليسرعوا بهـــا الى « طيبة » ، اذ خيل لى أنهم ابطأوا ، ولكنهم نظروا الى فى استغراب مشيرين الى أيديهم التى تورمت، والى وجوههم التى تتفصد عرقا ، كدليل على أنهم يبذلون فى التجديف وسرعة السير بالسفينة أقصى ما فى طاقتهم ، فتلطفت لهمووعدتهم بالفضة مكافأة على جهودهم ، وقدمت لهم شراب الجعة اغراء بالمزيد من الجهد !

ولم يرقهم تصرفى هـــذا ، فتقاربت رءوسهم وأخذوا يتهامسون وسمعت بعضهم يقول لبعض : لماذا نحمل عناء التجديف لهذا الخنزير السمين ؟! .. ألسنا جميعا سواسية أمام الاله ؟! .. ولم لا يدع مكانه ويأتى الى هنا ويعمل مثلما نعمل ؟! فليأت ، وليجرب هو بنفسه ، وليرنا بعد ذلك كيف يداوى يديه بالفضة التى يعدنا بها ! ..

وكدت أثور عليهم وأحرك عصاى لتأديبهم ، ولكن قلبى المشرب حنانا الى « طيبة » ردنى عنهم وجعلنى أفكر فىأمرهم بروحالعطف ، وأوحى الى بأنهم لم يقولوا الا حقا ! .. ألست انسانا مثلهم ؟! وعندئذ دنوت منهم وأخذت موضعى الى جوارهم وتناولت مجدافا ، ورحت أجدف به معهم ، فلم يمض غير وقت قصير حتى امتلأت قبضة يدى بالفقاقيع ، ثم تحولت الفقاقيع الى قروح ، وأصيب ظهرى بالتصـــلب واحسست كأن سلسلته توشك أنتنكسر، وفى ألم وجهد، كنتأصعد أنفاسى، واستحييت أن أتخلى عن عملى معهم على هذه الصورة من الاعياء والعجز ، وهم الذين يصلونه بلا انقطاع ليلا ونهارا ، ولا يكفهم عنه الجهد والعرق وتقرح الأيدى ! .. وتوقعت أن يســـخروا منى ، فمضيت فيه مكرها ، وقلت لنفسى : فلأتحمل هذا العناد المرهق لأعرف ــ عن تجربة ــ كيف تكون حياة البحار ! .. وظللت أضرب بالمجداف كاتما متاعبى التى تزايدت الى أن غمرنى منها الكلال وأصابنى الاغماء ، فحملنى البحارة ــ دون أن أشعر ــ الى فراشى ! ..

وأردت فى اليوم التالى أن أعود الى ما كنت فيـــه معهم فتناولت المجــداف وأخذت موضـــعى منهم ، ولــكنهم ، فى ضـــحكات بريئة ، غير ساخرة ، قالوا : دع عنك هذا أيها السيد ، فانه عملنا نحن ، ومن حقك ــ وأنت مولانا وسيدنا ــ أنتقتضينا العمل لراحتك وسلامتك مهما يكن الجهد الذى نبذله فيه ، وحسبك من التجديف ما عانيت منه بالأمس فى غير حاجة تدعو الى ذلك ، وليس من عملك على أية حال أن تكون مجدفا فى سفينة ، ولكل انسان فى الحياة موضعه الذى قدرته له الآلهة ! ..

ولكنى برغم هذا أصررت على مشاركتهم فى عملهم ، فكنت طول الطريق الى «طيبة» واحدا منهم ، وكانت حركة العمل المتواصلة قدأكسبت أعصابى مرونة على مرور الأيام ، فألفتها وأرضانى منها أنها ذهبت بما كنت أنكره فى جسمى من الترهل والاسترخاء ، ومنحتنى احساســا جديدا بلذة الحياة وبهجتها ! ·· وامتدت مشاركتى لهؤلاء البحارة الى الطعام والشراب ، فأكلت معهم الخبز والثريد الذى قلما يأكلون سواه ، وشربت معهم الجعة المرة المذاق التى هى شراب الأرقاء ، وهم يستغربون هذا من رجل مثلى له مقامه الكبير ، وحياته المترفة ، ويقول بعضهم لبعض فى همس : لابد أن ســيدنا قد لدغه ثعبان ســام ، أو انه أصيب بلوثة الجنون التى فشت جراثيمها فى « أخيت آتون » ، ولكنه على أى الحالين لايستطيع أن يؤذينا ، ففى طيات ملابسنا نفر « آمون » ، ونحن منه فى أمن وعافية ! ··

وكنا قد اقتربنــا من « طيبة » ، فأمسكت عن التجديف من تلقاء نفسى ، ودعوت خدمى ليدهنوا يدى بالمرهم ، ثم اغتسلت وارتديت أبهى ملابسى ، وكان شحم بطنى قد ذاب بالتجديف ، فصار ردائى الكتانى فضفاضا ، فشددته حول جسمى الضامر ، وأرسلت من ينبىء « ميوتى » بقدومى ، لأتقى منها مرارة العتاب ، وصرامة الحساب ! ··

وقبل أن أغادر السفينة ، وزعت نقودا من الفضـــة والذهب على البحارة المجدفين ، وقلت لهم : باسم « آتون » اذهبوا واملأوا بطونكم ، واشرحوا بشراب الجعة صدوركم ، وتمتعوا ما شئتم بفتيات « طيبة » الجميلات ، « فآتون » يمنح الفقراء البهجة والســــعادة ، ويحب لهم أن يسروا ويمرحوا ، لأنه يحبهم ! ·· ولــــكنهم أمسكوا بالذهب والفضـــة بأطراف أصابعهم ، وقالوا : نود ألا يضيق صدرك اذا سألناك ما اذا كانت هذه النقود لم تلحقها اللعنة ، فانك تخاطبنا باسم « آتون » ، ونحن نعلم أن اسمه لا يتصل بشىء الا أصابته اللعنة ، ولهذا يخيفنا من نقودك أن تصير فى أيدينا شواظا من نار محرقة ! ··

فقلت لهم : لولا أننى شاركتكم عملكم ، غير مســـتعل عليكم ، لما اجترأتم فى مخاطبتى الى هذا الحد ، ومع ذلك فانى أؤكد لكم أن نقودى ليست فى شىء مما يصوره لكم الخيال المريض ، وكما أنها نقية المعدن ، فهى كذلك من المسكوكات القديمة ، ولا أثر فيها من نحاس «أخيت آتون» ، وفى وسعكم أن تستبدلوا بها الجعة والطعام ، فما أحسبكم تدخرون منها

شيئا تخافونه ، على أنكم لأغبياء حقا ، اذ لم تؤمنوا بعد « بآتون » ، بل ترتابون فيه وتتطيرون منه ، وهو الذى يوليكم عطفه ورعايته ، وينشر عليكم أجنحة الحب والسلام ، وينتشل انسانيتكم من حضيض الذل والهوان ! .. لا تخافوا أيها الجهلاء ، وثقوا بأنه اله رحيم كريم ! ..

قالوا : لسنا بالخائفين ، « فآتون » لا يخيف أحدا لأنه اله ضعيف ! ولكننا نخاف من هو أكثر منه قوة وسلطانا ، وأنت ـ أيها السيد ـ تعرفه جيدا ! ..

ورأيت من الخير الا أمضى معهم فى هذا الجدل العقيم ، ففارقتهم وأخذت السبيل من فورى الى حانة « ذنب التمساح » ، من غير محفة تحملنى اليها ، وفيها لقيت « ميرييت » صديقتى وحبيبة قلبى ، وكانت فى نظرى ـ بعد طول غياب ـ أروع جمالا مما كانت من قبل . وقد استقبلتنى فرحة ، فى انحناء طويل ، ثم رفعت يديها وأخذت تلمس بهما كتفى وخدى ، وقالت متهللة : سنوحى ! .. سنوحى ! .. ما هذا الذى جعل عينيك صافيتين ، وبطنك ضامرا ؟! ..

قلت لها : « ميرييت » ! .. يا أحب انسانة فى الحياة الى قلبى ! .. ان ما ترين فى عينى لهو شعاع شوقى اليك ، وما ضمور بطنى الا أثر من حرارة لهفتى عليك ! .. لقد كنت من هذه اللهفة فى سعير متقد ، صهرنى وأذاب شحمى ، ولو طال فراقنا أكثر من هذا لأذاب لحمى أيضا؟ ..

فضحكت ، ثم عادت ـ فى تأثر بالغ لتقول لى : عندما يكون الانسان وحيدا ، يكون أكثر استعذابا للكلمة المؤنسة وهو يعلم أنها مموهة بالكذب ! .. وانه ليزداد شعورا بحلاوتها اذا كان فى وحدته قد جاوز ربيع حياته ! .. وها أنتذا تعود فيعود معك الربيع مزدهرا يانعا والحياة منضرة بالسعادة والأمل ! ..

وكان لقاء ممتعا مؤثرا ، تمنيت لو سالمتنا فيه الأقدار التى لاتراها عيوننا ، فلا تكون له نهاية ! ..

واقبل « كابتاح » فى هذه الاثناء ، وقد اتسقت بدانته ، وتضخمت ضواحيه ، وزادت القلائد فى عنقه ، والأساور فى معصميه ، وازدانت عينه العوراء بغطائها المرصع بالجواهر الغالية ، فغلبه الفرح للقائى حتى دمعت عينه الواحدة ، وصاح قائلا : بورك هذا اليوم الذى عدت فيه الينا يا سيدى ! .. ثم دعانى فى كثير من التحفى الى غرفة خاصة ، وقدم لى

مقعدا وثيرا جلست عليه ، وأخذت « ميرييت » تروح وتغدو حاملة الينا المخلوط الفاخر من نبيذ « ذنب التمساح » ، فتساقيناه معا فى ابتهاج ونشوة ..

وعرض « كابتاح » فى زهو ، بيانا عن ثروتى ، وقال : لقد كنت يا سيدى « سنوحى » حكيما الى الحد الذى لا يدانيك فيه أحد من أولئك التجار الماكرين ... ذلك أنك أمرتنى بأن أوزع جميع غلاتك بين الزراع ليبذروها فى أراضيهم ، على أن أستردها منهم مكيالا بمكيال ، وكنت قد حسبتك يومئذ بمنأى عن صواب الرأى ، فلم يكن هذا التصرف فى ظاهره الا انتقاضـــا على منطق التجارة وقواعدهـا المرسومة ، وكدت أستريب لذلك فى سلامة عقلك ، على أنى أدركت فيما بعد أنك كنت بهذا أشد من التجار العاديين مكرا ودهاء ، فقد حدث عندما علموا أن القمح قد وزع على الزراع أن توقعوا ـ على خلاف ما كانوا يقدرون ـ أن انتـاجه سيجىء فى موسمه وافرا ، وهنا تسابقوا فى عرض المخزون منه لديهم ، وزادهم تسابقا فى ذلك ما أذيع من أنباء السلام ، فانخفضت الأسـعار انخفاضا متتابعا ، وأصيبوا من هذا بخسائر فادحة ، ولم أدع هـذه الفرصة تفلت من يدى ـ ولا تنقصنى كما تعلم فطنة التاجر العريق ـ فاشتريت بالثمن المخفض كميات كبيرة من القمح قبل نضجه فى الحقول ! وفى الخريف جمعت القمح الذى كنت أقرضته للزراع مكيالا بمكيال ، الى ما اشـتريته منه بالثمن الضـئيل ، فتوافر عندى حتى امتلأت به مخازننا ، وكان من النوع الجيد ، غير مشوب بعيب . وفى اعتقـادى أن البقع ذات الرائحة البغيضة ليست ـ كما يقال ـ أثرا من لعنة صبت على القمح مزروعا أو محصودا بأيدى الزراع ، وانما هى من عمل الايدى التى استخدمها الكهنة سرا ، فنفضت عليه الدماء فى بيادره . وعلى أية حال ، قد صح تقديرى عندما حل الشتاء ، فارتفع ثمن القمح . وساعد على ارتفاعه أكثر من ذى قبل أن « آى » قد شحن منه باسم « فرعون » عدة سفن الى أسواق «سوريا» . وفى وسعك أن تدرك ببصرك الحصيف، أن أرباحنا من وراء ذلك قد بلغت غايتها من الكثرة والتضخم ، وستعلو فى زيادتها وتضخمها كلما زدنا فى الاختزان وأمسكنا عن العرض ، ففى الخريف المقبل ستزحف المجاعة على البلاد ، لسببين بالغى الأهمية ، أولهما أن الزراع من الأرقاء فى أرض « فرعون » قد فروا منهـا وتركوها بلا حرث ولا زرع ، وثانيهما أن الفلاحين القارين فى أرضهم قد أخفوا حبوبهم مخافة ان تؤخذ منهم لترسل الى «سوريا» ، وهذا وذاك من شانهما ، الا

يوجد في الأسواق من القمح ما يحمى من مجاعة أرى قرونهـــا تطل على البلاد في الوقت الذى نملك منه الكثير ! ·· وكل هذا ثمرة رأيك الأول الذى كنت أظنه ضربا من الخبال والحماقة، فاذا هو ، آخر الأمر، الصواب والحكمة وحسن البصر بالعواقب البعيدة ! ·· فيالها من ظروف سعيدة تلك التى تسخرها القوة المحجبة لخدمة الانسـان الوافر الثراء لتزيده غنى وثراء ، دون أن يحاول ذلك أو يريده ! ·· وقد كانت هـــذه الظروف السعيدة حليفتى وخادمتى ، فى كثير من الصفقات الأخرى ، ومن ذلك أننى رأيت جميع الناس يشترون الجرار الفارغة ، فبدا لى أن أســتغل حاجتهم اليها ، ومن ثم استأجرت مائة من الرقيق ونشرتهم فى البــلاد والقرى ، فاشتروا منها اقصى ما استطاعوا بثمن بخس ، بل ان كثيرا من الناس كانوا يعطونهم منها ، بلا ثمن ، كل ما يرونه قديما .زائدا على حاجتهم لمجرد التخلص من خزنه ··· واجتمع لى منها بهذه الوسيلة كمية كبيرة للغاية واستطعت بعد ذلك أن أبيعها ، فى الشتاء ، بالثمن المضاعف ، ولا أبالغ اذا قلت لك اننى خلال أيام قليلة بعت منها ألف جرة فى كل مرة من الألف مرة ! ··

وقلت « لكابتاح » : وما هذه الحماقة التى تسول لك ان تشترى جرارا فارغة وهى صناعة محلية شائعة ، وفى أيدى الناس منها ما يزيد على حاجتهم ، حتى انهم ليقدمونها الى مأجوريك من غير ثمن ، تخلصـــا منها ؟! ··

فقال « كابتاح » وهو يغمز بعينه الواحدة غمز الماكر : كان يمكن أن يكون تصرفى هذا حماقة كما تقول ، لو أن الجرار التى عنيت بشرائها وجمعها كانت للاستهلاك العادى وحده ، فما غاب عن ذهنى أنها تصنع فى بلادنا ، وانتاجهـــا مطرد ، ولكنى نظرت للأمر من ناحية أخرى لم يسبقنى أحد فى النظر اليها ، هى أن طريقة جديدة اكتشفت فى المملكتين العليا والسفلى لحفظ السمك فى الماء والملح داخل الجرار ، فاشتد الطلب عليها مرة واحدة ، وفى الوقت نفسه كانت السفن تحمل منها شحنات كبيرة لتفرغها فى «تانيس» وفى « غزة » ، ومنها تنقل الى «سوريا» بطرق القوافل ! ·· وهكذا كانت الفرصة مواتية · والتاجر الماهر ، يا سيدى هو الذى ينتهز الفرص ! ··

وكان حديث « كابتاح » عن الجرار شيئا طريفا يستحق الاصغاء والموافقة ، ولكنى لم أشأ أن أمضى فيه وأشغل فكرى به ، فقطعته قائلا له : مع هـــذا ، أرى أن تعجل ببيع كل ما بقى لديك من هذه الجرار

الفارغة ، وأن تشترى بثمنها قمحا ، الى اقصى حد مستطاع ، وبأى ثمن يكون ، على أن تكون بضاعة حاضرة مسلمة ، فلست أجيزك فيما تفعل من الشراء نسيئة لغلات لم تحصد بعد · ولو استطعت أن تشترى ما هو فى طريقه منها الى «سوريا» ، لكان ذلك عملا حسنا على الرغم من المعاهدة التى تفرض على «فرعون» تصدير القمح اليها ، ذلك لان «سوريا» تستطيع أن تستورد حاجتها من « بابل » ، فى حين تلوح هنا طلائع المجاعة الزاحفة على أرض « كيم » فى الخريف · فعلى كل انسان فى « مصر » أن يساهم بما فى طاقته لدرء خطرها عن نفسه وعن مواطنيه ، وستنزل اللعنة على من لا يفعل ذلك ! ··

واستسلم « كابتاح » لرأيي وقال : لاشك فى أن توجيهك هـذا هو عين الرشد والصواب ، وسينتهى الى نتائج باهرة تصبح بها اغنى أغنياء « مصر » ! ·· ومن الممكن شراء القمح بأوفر قدر حتى لو اقتضانا ذلك أن ندفع فيه أسعار المرابين · أما اللعنة التى تستنزلها على من يفرط فى قمح « مصر » فى هذه الظروف ، فانها ستسقط ، أول ما تسقط ، على رأس الكاهن « آى » لأنه هو الذى باع القمح لسوريا فى مبدأ السلام عندما كانت الأسـعار منخفضة ، ولم يخل تصرفه من الغباء اذ كانت الكميات التى باعها كبيرة تكفى الحاجة لسنين عدة ، وقد أغراه بهـذا أن «سوريا» دفعت الثمن ذهبا فى الحال ، وكان اذ ذاك فى حاجة الى ذهب كثير لاقامة مهرجان « فرعون » ! ·· وما أرى السوريين الا أنهم مختزنون هذا القمح عندهم ، ليبيعوه لمصر بمقدار وزنه ذهبا حينما ينفد ما لدينا منه ، فهم ـ كما عرفتهم ـ من أمهر التجار وأبعدهم نظرا ، وبذلك يمتصون ذهب « مصر » ويكدسونه فى خزائنهم ! ··

وانتزعت نفسى من أحاديث القمح والمجاعة والمستقبل الذى انطوى فى غمر من الظلمات منذ أرسلت الشمس الغاربة أشعتها الدموية الحمراء على « أخيت آتون » ، وعدت أنظر مغتبطا الى عينى « ميرييت » ! ·· واسبح معها فى أجواء الحب والجمال ، فكانت لى الشراب المنعش ، والدم الحار ، والنغم الشجى ·

وتركنا « كابتاح » فى خلوتنا هذه ننهل وحدنا من جدولها الصافى ، الى أن حانت ساعة الرقاد ، فهيأت « ميرييت » فراشها ودعتنى اليه ، فاحتوانا معا · وفى صراحة كنت أدعوها أختى ، وبين أحضانها كاشفتها بكل أسرار قلبى ، ولكن قلبها ـ فيما احسست ـ كان مغلقا على سره الذى لم أدر ما هو ! ··

وفي الحانة رأيت الطفل « تحوتح » مرة ثانيـــة ، وقد هرول الى لقائي ، ولف عنقي بذراعيه في فرح شـــــديد وهو يناديني : يا أبي ، فأعجبت بذاكرته اللدنة التي لم تنسه اياى ، وقد أبهج لقاؤه قلبي فحنوت عليه حنو الوالد على ولده ، وأخبرتني « ميرييت » أنه يقيم معها لترعاه وتقوم بخدمته ، لأن أمه ماتت ، وأصبح هو ــ لطول مكثه معها بالحانة ــ يحس بأنه في داره ، يلهو ويمرح فيها على هواه ، وكان المترددون على الحانة يضاحكونه ويكثرون من اهداء اللعب اليه ، ارضاء « لميرييت » وتقربا اليها ! ٠٠ وفي الحق ، لقد كان طفلا لطيفا ، بادى الذكاء ، تعلق به قلبي ، فكنت خلال اقامتي في « طيبة » أصحبه معي الى منزلي ، وتفتحت له عواطف « ميوتي » . فكانت فرحة به ، تقدم له الكعك المعسول وتقص عليه الحكايات الطريفة ، وأسعدها أن تراني قد أنزلته مني منزلة الابن وكفلته كفالة الوالد ، وشغلت نفسي بتربيته ، اذ كان لم يزل دون السن التي تؤهله للحاق بالمدرســـة ، فقد كان من نتائج هــــذا ــ في تفكير « ميوتي » ــ أن المنزل الذى كانت تعاني فيه وحشة الوحدة قد عمر بالرجل والولد ، ووجدت المرأة فيه عملا يؤنسها ويرفعهــــا الى وظيفة « ربة البيت » من غير أن تكون هناك زوجة تضايقها وتلقى بالمياه الساخنة على قدميها ! ٠٠

وتمنيت لو بقيت سعيدا بهذه العزلة الهادئة ترفرف عليها أجنحة الحب المتبادل بيني وبين « ميرييت » و « تحوتح » الطفل ٠٠٠ ولكنهــــا كانت أمنية عسيرة التحقيق لرجل مثلي في « طيبة » ، تلك المدينة التي اشتدت المنافرات فيهـــــا بين أهلها حتى انهم ليصبحون ويمسون على اشتباكات لا تنقطع ، وكثيرا ما تؤدى الى اراقة الدماء ، وتحطيم الرءوس ، مما ألقى أعبــــاء ثقيلة من الاعمـــــال المتواصلة على حراس « فرعون » وقضاته ٠ ففي كل يوم ، يساق الرجال والنساء والأطفال موثقين بالحبال الى الميناء ليرسلوا منها الى مزارع « فرعون » للعمل فيها مسخرين ، ومنهم من يقذف به الى المناجم ، وجريرتهم التي يعاقبون عليها هي أنهم أتباع « آمون » الخارجون من أجله على طاعة « فرعون » والهه « آتون » ، وقد أثاروها فتنة بين الناس ، وعداوة فاشية بين الآباء وأبنائهم والزوجات وأزواجهم ، وأسرفوا في عنادهم الى حد أنهم كانوا يضعون على ظاهر ملابسهم رمز الايمان « بآمون » ، وهو « القرن » ، تحديا لأتباع « آتون » الذين كانوا يعلقون صليب الحياة في رقابهم أو يضعونه على ملابسهم ! وقد كان هؤلاء الذين ينفون الى المزارع البعيدة أو الى المناجم ، في صورة

المجرمين ، يودعون من جموع كثيرة من الناس وداع الأبطال ، فيرشقونهم بالأزهار ، فيلهب هذا حماستهم ويرفعون أيديهم المكبلة بالقيود قائلين لهم : لا تجزعوا فاننا عائدون عما قريب لنحطم « آتون » ونجهز عليه ! ٠

وكان واضحا أن استشراء الفتنة واستفحال العداوات فى «طيبة» ، يصدر عن انفعال قوى بين المؤمنين « بآمون » والمؤمنين « بآتون » ، ولم أكن أتوقع أن أرى « لآتون » كل هذه القوة فى المدينـــة التى تقع تحت التأثير الروحي الشديد لكهنة « آمون » ، ولكنها كانت كذلك لعوامل هامة طرأت على المدينة خلال العام الماضى ، ومن بينهـــا أن كثيرين ممن كانوا قد أقطعوا الأراضى ليزرعوها قد هجروها وعادوا ، هاربين منها ، الى « طيبة » ، يملأ قلوبهم الحقد على كهنة « آمون » لأنهم سمموا غلات الأرض وعطلوا قنوات ريها ، وحالوا بينهم وبين الاستقرار فيها والافادة منها ، فاضطروا ــ كارهين ــ أن يتركوها ليبحثوا ، فى معاناة ، عن موارد رزق أخرى ، وأسلمهم شعور الحقد على كهنة « آمون » الى فريق المؤمنين « بآتون » ، وكذلك من بين العوامل التى طرأت على المدينة ، أن المجتمع الطيبى قد ظهر فيه جمهرة كبـيرة ممن تعلموا الكتابة الجديدة بمدارس « آتون » وتثقفوا بثقافتها وتأثروا بتعاليمهـــا ، واقتفى اثرهم كثير من الشباب الذين ينزعون بطبعهم الى كل جديد ، هذا الى أن الحمالين والأرقاء ومن اليهم من العامة ، كان قد سادهم الشعور بأن « آتون » قد ترفق بهم فى جباية الضرائب ومكن لهم من حقهم كاملا فى الأقوات ، وســـوى بين الســـادة والعبيد ، ولم تكن هـــكذا حالهم فى عهـــد « آمون » !٠٠ ثم عامل آخر من عوامل ازدياد قوة « آتون » فى المدينة ، هو أن عددا غير قليل من الناس قد اتبعوه وتظاهروا بالايمان به عن غير عقيدة ، لأنهم لصوص يسترون أنفسهم خوفا من العقوبة أو لأنهم ممن كانت تحوم حولهم الشكوك فى الدين الجديد ، فاتقوا الوشـــاية بهم ، بالانحياز الى صفه لأنه صاحب السلطان الباطش ! ٠٠

وبين هـــؤلاء وأولئك ، أشراف المدينة والراغبون فى السلام من أهلهـــا ، قد أسأمتهم هـــذه الحال وأضرت بهم ، فوقفوا موقف الحيرة ، يتلمسون الفرصة من هذا الضيق الجاثم ٠ وقد تزعزعت عقيدتهم فى الالهين على السواء ، ويقول بعضهم فى حسرة : فليكن أيهما هو الاله ، فما يعنينا من أمرهما الا أن نعيش فى سلام ، وأن تعود هذه الاوصال التى تمزقت فى سبيلهما الى التماسك ، لتمضى الحياة هينة لينة ، وليعود كل منا الى عمله هادئا مستقرا ! ٠٠

تلك كانت حال « طيبة » وقتذاك ، اختلافا فى الاتجاهات والأهداف والنوازع ، وقلقا مسيطرا على الجميع ، ومجـاهرة بالدعوة الى هـذا الاله أو ذاك ، واقتتـالا مستمرا بين الدعاة !٠٠ فمن العسير ـ أشد العسر ـ أن أشعر وسط هذه العواصف الهوج ، بالدعة والأمن وهدوء البال ! ٠٠

وكانت كذلك حانة « ذنب التمساح » مسرحا تمثل فيه هذه الحياة المنافقة ، فقد اتخذ « كابتاح » لها شعارا هو الدين الجديد ، وأنا أعلم أنه فعل ذلك عن غير عقيدة ، فانه ما كان ليهتم لشىء فى دنياه سوى احتياز المال ، من أى طريق وبأية وسيلة ، ولو أنه كان حرا فى اختيار موقفه لما اختار غير الحياد ، ضمانا لمرضاة الجميع على اختلاف معتقداتهم ، وسـبيلا الى اجتذابهم لحانته ، ليحتلب أموالهم ، وهذا حسبه ! ٠٠ ولكن الظروف فرضت عليه أن يكون فى الجانب الاكثر أمنا ، واستطاع بهذا أن يتفادى احتمالات الشر ، ففى ظل صـليب الحياة الذى كان يعنى بابرازه على حوائط الحانة ، جعل من الحانة مثابة لهـو فاجر ، ومرتاد المرابين من عملاء الميناء ومن يجرى مجراهم فى الكسب غير المشروع ، واتقىفى الوقت نفسـه شر تجار الحبوب الذين يكرهونه وما كانوا ليترددوا فى الايقاع به لأنه نافسهم فى مجال تجارتهم حتى خسروا كل ثرواتهم ، ثم هو ـ فى ظل صليب الحياة أيضا ـ قد أمن مضايقات جباة الضرائب ، وما أكثر ما كان يفاخرنى بذلك ! ٠٠

وعلى أنى كنت طبيب البيت المالك ، وصلتى بفرعون « أخناتون » ظاهرة ، فان أحدا من شيعة « آمون » لم يحاول أن يمسنى بسـوء أو يضـايقنى فى أمر ، ذلك أن أهل حى الميناء الذى كنت أقيم به كانوا يعرفوننى بأعمالى ، رجل خير ، أوليتهم وما زلت أوليهم عطفا حسـنا ومشاركات طيبة ، وكنت من جهة أخرى ، أوثر أن تكون تصرفاتى بمنأى من اثارة الحفائظ والأحقاد ، فلم تظهر على جدران منزلى صلبان الحياة أو صور تشير الى علاقتى « بآتون » ، ومن هنـا كان أتباع « آمون » وبخاصة السكارى منهم يتجولون ليلا فى الشوارع والأحياء هاتفين باسم « آمون » ويكثرون من الاعتداء على مخالفيهم فى العقيدة ، ويزعجون الآمنين فى كل مكان ، ويتغلبون على الحراس فى كل اشـتباك ، ولكنهم كانوا يمرون بسلام على منزلى ، ولا تستوقفهم عنده لافتة أو ريبة ! ٠٠

ولم يحدث لى فى اقامتى « بطيبة » هذه المرة ، سوى حادث صغير كان من شأنه أن يتطور الى شر كبير ، ولكنه انحسم لساعته وزال أثره فى الحال ، اذ عاد « تحوتيح » الى المنزل فى يوم قائظ ، مصابا بجروح

والدم يرعف من أنفه ، وقد سقطت احدى ثناياه ، وهو ينشج بالبكاء ، ففزعت « ميوتى » لمرآه ، وبكت فيغضب لفرط تأثرها ، وأسرعتفغسلت وجهه ، ونظفت جراحه الصغيرة ٠ وما ان عرفت منه أن أبناء النساج ، وهو رجل من أهل الحي ، وداره من دارنا جد قريبة ، هم الذين أصابوه ، حتى تناولت بيدها المعروقة احدى العصي ، وانطلقت وهي تصرخ قائلة : « آمون » أو « آتون » !٠٠ بحـق هـــذا أو ذاك ، لأقتصن له من هــؤلاء الأوغاد ومن أبيهم ومن امهم كذلك !.. ولم اســتطع لسرعة اندفاعها الى خارج الدار أن ألحق بها لأمنعها ، وما لبثت أن سمعت صرخات تنفجر في الشارع ، وعويل أطفال يتعالى مختلطا بصوت رجل يحتج لاعنا ! ٠٠ وفي دهشة هذه المفاجأة ، خرجت أنا و « تحوتنح » الى الشارع نستجلى الأمر في خوف وترقب ، فرأيت « ميوتى » تضرب بعصاهـــــا ــ ضربا متداركا ــ في أولاد النساج ، وفيه وفي زوجته أيضا ، ثم تنفلت عائدة الينا لاهثة مغضبة ، فرحت أهدىء من اضطرابها وأهدهد أعصابهـــا الهائجة ، وأقول لها في رفق : ان معابثات الاطفال لاينبغى أن تعالج بمثل ما فعلت ، وان الكبار اذا تباغضوا بسببها أشعلوها نارا بينهم ، وقد لا تؤمن عواقبها في الجانبين ! ٠٠ غير أنها أبت أن تستمع لى ، وكادت ــ لشدة انفعالها ــ أن تهوى بعصاها على رأسى ! ٠٠ فأمسكت عن الحديث معها الى أن هدأت ثورتها ، ومن ثم استشعرت الندم وأنبها ضميرها ، فجاءت باحدى السلال ودست فيها كعكا معسولا واناء مليئا بالجعة ، وحملتها الى بيت النساج ، واعتذرت اليه واسترضته هو وأولاده وزوجته، ومن وقتها توطدتالصداقة بينهموبينها ، وأصبح الاولاد علىصفاءومحبة مع « تحوتنح » ، يدخلون دارنا كما لو كانت دارهم ، ويتهـــافتون على مطبخنا ليظفروا منه بالكعك المعســـول الذى كان لعابهم يســـيل عليه دائما ! ٠٠

بقي أن أقول ان الذى أثار هذا الحادثفيمبدء الأمر ، هو أنالأطفال كانوا في عبثهم الساذج يتنابذون على الطريقة نفســها التى يتنابذ بها الكبار في ذلك الوقت ، تعصبا لأحد الالهين ، « آمون » و « آتون » دون وعي أو ادراك ، وكان أولاد النساج يمثلون أتباع « آمون » كما كان « تحوتنح » يمثل أتباع « آتون » ، ولهذا قلت انه حادث صغير كان من شأنه ــ لو لم تتداركه « ميوتى » بالمصالحة والاعتذار ــ ان يتطور الى شر كبير ، وكان هو الحادث الوحيدالذى مسنى من قريب ! ٠٠

وتلقيت من « اخناتون » أمرا يعجل العودة اليه لأن صداعه قد أستبد به وأمضه ، فأعددت نفسى للرحيل آسفا على فراق « ميرييت » التى لم يطل مقامى معها • وقد ساءنى أنى غير مستطيع التلبث لأستصحبها معى هى وذلك الطفل المحبوب « تحوتنح » ••• فقلت لها وأنا أودعها : أرجو أن تتبعانى لنقيم معا فى منزلى « بأخيت آتون » ، فسوف نكون على القرب أكثر سعادة وأوفر هناءة ! ••

فقالت : لو أنك أخذت زهرة من موضعها بالصحراء ، فغرستها فى أرض مخصبة وظللت عليها ترعاها وتغذيها بالماء ، فما ظنك أن تكون بعد قليل ! •• انها ستذوى بعد ازدهار ، وتجف بعد ايراق ، فذلك هو حكم الطبيعة وليس عنه محيد ! •• ولست أحسبنى الا منتهية الى هذا المصير نفسه لو أنى طاوعتك فيما تدعونى اليه فى « أخيت آتون » ! •• فليس فيها مكانى المنشود ، وانما فيها أشياء كثيرة تعترض سعادتنا ، وتكدر صفوها ، هناك نساء القصر المتأنقات ذوات الاغراء ، وهن أقدر على اجتذابك بالوسائل التى لا أعرفها ، ولا أبلغ مبلغهن فيها ، وهناك مركزك النابه المرموق وهو يفرض عليك أن تكون فوق مستوى الشبهات ، ولن تكون كذلك اذا عرف الناس ، ولا بد أن يعرفوا ، أنك تعاشر فى منزلك امرأة نشأت وترعرعت فى حانة نبيذ ! ••

قلت لها : « ميرييت » !.. اذا لم تتبعينى كما رجوت ، تشبثا بالبقاء هنا ، فانى عائد اليك مسرعا ، فلن تطول غيبتى هذه المرة ، لأنى لا أطيق البعد عنك ، أيتها الحبيبة التى ملأت قلبى ولن يكون لغيرها من نساء الدنيا مكان فيه ! •• سأهجر من أجلك « أخيت آتون » الى غير عودة اليها ! •• هكذا فعل كثيرون ممن كانوا يقيمون فيها ، فماذا يمنعنى من أن أكون مثلهم ! ••

ولكنها أجابت قائلة : انك تحدثنى الآن بلغة قلبك وتلهج بلهجته ، ولكنه يملى عليك أكثر مما فى قدرتك أن تفعل ! •• وانى لأعرف عن يقين أنك ، أردت أو لم ترد ، لا تستطيع أن تفارق « فرعون » مهاجرا بالسهولة التى يهاجر بها سواك ، انك طبيبه ومداوى علله التى لاتكف عنه يوما فلا سبيل اذن الى مفارقتك اياه ، على نحو ما يفعل الآخرون ! ••

وأقلق كلامها بالى ، وأحسست كان شوكا قد ملأ قلبى ، فليس ما تذكره بمبعدة من الحقيقــــة والواقع ، وأشفقت على نفسى من هذه الظروف السيئة التى تباعد بينى وبينها ، وأنا الذى أصبحت لا احتمل العيش بدونها ، فقلت لها : « ميرييت » ! .. ان مصر ليست البلد الوحيد فى العالم ! .. وقد عشت بعيدا عنها سنين ذات عدد ، وكنت اســـعد حالا منى اليوم فيها ، فما أشد ما أعانى من هذه المعارك الدينية ، فوق ما أعانى من جنون «فرعون» ! .. لقد ضقت صدرا بالحياة فى «مصر» ، ويزيدنى ضيقا بها اننى أعيش فى ظلها محروما من لقائك ، فدعينا نفر منها الى بلد آخر بعيد ، نعيش فيه معا جنبا الى جنب ، انا وأنت والصغير « تحوتيع » ، سعداء بشملنا المجتمع ، فى غير خشية من الغد ! ..

وتبسمت « ميرييت » ، ولكنها عادت تقول ، وعلى وجهها وفى عينيها غلالة من اكتئاب : وهذا ايضا لا يغير من رايى ، وهو عندى ضرب من العبث ، وأكاد اعتقد انك مرسل فيه على عواطفك الخافقة لساعة أو بعض ساعة ، ثم لا شيء منه بعد ذلك ! .. على أنه برغم هذا يبعث فى نفسى كثيرا من الرضا والبهجة ، لانه يعبر عن حبك لى ، وما من امرأة ترى فى رجل مثلما أرى فيك من دلالات الحب الا أرضاها هذا وأبهجها ، ولكن الحب يا « سنوحى » شيء جد مختلف مما تدعونى اليه ، فالسعادة التى تتخيلها مقبلة علينا فى هجرة بعيدة عن «مصر» ، ليست الا أمنية عاشق، وكثيرا ماتطغى الحقائق على أمانى العشاق !.. وثمة حقيقة لاتقوى على مغالبتها ، هى أنك لا يمكن أن تكون سعيدا فى مكان بعيد عن هذه البلاد التى ولدت فيها وارتويت من مائها وترعرعت فى احضانها ! .. وأنا ، نفسى ، لن أشعر بالسعادة الحقة الا فى « طيبة » ! .. وحقيقة أخرى قد لاتدركها اليوم ، ولكنك مدركها حتما فى المستقبل القريب أو البعيد ، هى أن ما يروقك من نضارتى ويستهويك من شبابى ، سيعدو عليـه الزمن رويدا ، فيحول الى نقيضه ! .. وعندئذ لا يبدو لعينيك منى غير الدمامة فى موضع الجمال ، والبدانة فى موضع الرشاقة ، بل عندئذ يجفونى قلبك وينصرف عنى هواك ! .. وتلك نهاية محزنة ، أوثر معها أن يتقطع الحبل بيننا منذ الآن ، على أن أصير اليها بملء رضاى !..

• • •

قلت لها : « ميرييت » ! .. لا تسرفى هكذا فى الهك والتوجس صدقينى ، وثقى بى ! .. أنت خبزى الذى لا يشبعنى طعـــام سواه ، ونبيذى الذى لا يسكرنى شراب عداه ، وأنت وطنى الذى لا أستعذب غير هواه ، وأنت المخلوق الوحيد الذى لا آنس فى وحدتى بغير جواره ، فحبى

لك خالد لا ينقضي ولا يخبو ، مهما طال الزمن وتعاقبت السنون ! ..
فهذه هي الحقيقة التي تعلو على كل الحقائق ، وأنت تعرفينها ! ..

قالت: الحقيقة التي أعرفها ولا أرتاب فيها ، هي أنني الوسادة الوثيرة التي تمتص آلام وحدتك، والفراش اللين الذي يدفيء جسدك المقرور ، وهذا حسبي وحسبك ، وأنا به راضية ، لا أبتغي منه بديلا ولا أرجو عليه مزيدا ، وان من وراء ذلك لسرا ينهش قلبي ، وقد يكون من حقك أن تعرفه ، ولكني سأظل محتفظة به لنفسي ، فمن الخير ألا أكاشفك به ، وليكن ظنك بي ما يكون ، فسواء عندي ، أعلمت أم لم تعلم ، أني أحتمل آلامه وحدي من أجلك وحدك ، أعني من أجل راحتك وهناءة قلبك ! ..

كانت « ميرييت » تبهم في هذا ولا تبين ، ولم يكن خافيا على أنها في صراع شديد مع سر دفين ، كان يمنعها من افشائه أمر لاشك خطير ، ولكني لم اشأ أن اهجم عليه في قلبها ، لأني كنت أكثر تفكيرا في نفسي ! ..

ومرة أخرى ، تركت « طيبة » عائدا الى « أخيت آتون » ! ..

مملكة "آتون" على الأرض



- ١ -

عندما بلغت « اخيت آتون » ذهبت من فوري الى « فرعون » ، فرايته على اسوأ حال ، يشارف حينه من شدة الألم وقسوة العلة ، فوجهه قد تقبض ، وعظام خديه صارت أكثر مما كانت بروزا ، وبدا عنقه حدبا طويلا لفرط هزاله ، وبينما الورم قد فشا في فخذيه ، فان ساقيه قد علاهما ضمور جعلهما اقرب شبها بعصوين رفيعتين ، وقد تاثرت عيناه بالصداع المستمر فكانتا تائهتين في غمر من الانتفاخ والتقرح ، تحيط بهما ظلة فاقعة الاصفرار ، لا تنظران نظرات مسددة مستقيمة ، بل تهيمان هيمانا مشردا ، كأنهما تتصلان بعوالم أخرى غير منظورة ، ولهـــذا كان قلما يعرف من يتحدثون اليه ! ..

تلك كانت حاله حين رايته ، فرثيت له وتحرك قلبي اشفاقا عليه ، وتمنيت أن أوتى القدرة على تخفيف آلامه التي ضاعفت من حبي له .

وكان الصداع ، الذي يفرخ في راسه ، هـــو أدوى أدوائه . وقد تفاقم واستشرى بسبب العادة التي جرى عليها في كل يوم ، وهي عادة الوقوف طويلا تحت أشـــعة الشمس عاري الراس ليتلقى منها ، دون حجاب ، اشعة البركة وأنوار الرحمة ، ولكنها هبطت عليه صداعا يعذبه ، وآلاما تؤرقه ، ومرضا لم يبق منه الا هيكل انسان حائل ، فكأنما «آتون» الهه الذي يفنى فيه هذا الفناء ، قد شاء الا يكون المظهر الدال على حقيقته وعلى حبه لأتباعه شيئا سوى المحن والكوارث ، ولهذا كان « فرعون » ــ وهو مصطفاه ــ لا يمس بيده شيئا ، ولا يتصل حبه بأحد الا اصيب بمحنة وحلت به كارثة ! ..

وعكفت على علاج « فرعون » ، فكنت أضع على راسه خرقا مبللة ، وأعطيه ، في الفينة بعد الفينة ، حبوبا تخدر آلامه ، حتى تماسكت نفسه

المتزايلة ، وعاد اليه وعيه الهائم ، واخذ يحدثني ، فقال : أتراني يا « سنوحى » أعيش فى أوهام ؟!٠٠ وهل صحيح أن آمالى ليست سوى هذيان عقل مريض ؟!. ان كان ذلك هو الحقيقة ، فما الحياة — اذن — الا مسرح الرعب والخوف من قوة غير منظورة ، وما لغير الشر سلطان فى هذه الدنيا ، وذلك ما لا أستطيع أن أصدقه ، لأنه لا يمكن أن يكون صحيحا ، وانما الصحيح الذى اومن به ، وينبغى أن يؤمن به كل الناس، ان الاله العظيم فى علياء سمائه لا يمنح الارض ومن عليها غير الرحمة والسلام والخير ٠ أقول هذا فى ثقة من سلامة العقل ، واصر عليه أصرار المؤمن حق الايمان ، ولا يضعف من ثقتى وايمانى آن شمس الاله لم تعد تمد قلبى بالضوء الذى يملؤه نورا ، وأن أصدقائى المقربين أصبحوا يتنكرون لرسالتى ويزدرون اهداف دعوتى ، ويطوع لهم ظنهم أنى صرت أعمى ، فيبصقون على فراش نومى !.. كلا يا « سنوحى » !.. فلست اعمى ٠٠ ان نظرى يخترق الحجب وينفذ الى قلوب الناس !٠٠ حتى انت ، فانى كذلك لأعرف الآن ما يترنح فى قلبك الضعيف ، وأرى أنك مثل الآخرين تعتقد أننى مجنون !٠٠ ولكنى أغفر لك هذا ، لأن الضوء ، الذى شع فى قلبك يوما ، يشفع لك عندى !..

ويعاود الألم « أخناتون » فيقول متأوها صارخا : ان الناس لتأخذهم الشفقة بالحيوان المريض فيضعون حدا لآلامه بالاجهاز عليه بعصيهم ، وكم أراحوا الاسود التى تئن من جراحها بضربات حرابهم ، ولكنهم اذا ما ابتلى الانسان منهم بآلام المرض وعذابه ، ضنوا عليه بمثل هذه الشفقة والرحمة !.. بيد أنى ، على ما أكابد من آلام المرض ، وعلى ما يفدحنى فوقها من آلام الرسالة العليا التى تحسبونها وهما وخيالا أشعر بالعزاء والرضا والأمل ، لان ضوء الشمس يشع فى قلبى وينير نفسى ، ويمنحنى قوة اكبر من قوة البشر !.. وان جسمى هذا ليفنى كما تفنى سائر الاجسام ، فما من الموت فوت ، ولكن روحى لن تفنى ولن تموت ، وانما ستظل حية حياة الابدية والخلود ، فمن الشمس ولدت يا « سنوحى » والى الشمس اعود . وفى كل يوم يزداد حنينى الى هذا المعاد ،فما أشد ما أعانى من مرارة الوحدة فى هذه الحياة !..

وفى اقبال الخريف اقبلت العافية على « فرعون » ، واثمر الجهد

الذى بذلته فى علاجه . ولولا اننى طبيب ، ومن واجب الطبيب الا يدع المريض الذى صار فى ذمته ، فريسة الموت ، لنفضت يدى منه واخليت الطريق امامه الى الابدية التى يحن اليها !.. فقد كان ذلك خيرا له فيما ارى ..

على انه ، فى ظل العافية التى عادت اليه بعد يأس ، كان دائم الاستغراق فى أفكاره وخيالاته ووحدته ، لا يتحدث الى احد ، ولا يدير عينيه فى شىء مما يقع حوله ..

وكان اكثر ما سمعته امنه فى فترات صحوه لا يعدو التصورات التى يرسمها له محض الوهم ، ولكنه كان قد ذكر الحقيقة فيما قاله عن تنكر أصدقائه المقربين وازرائهم عليه وبصقهم على فراشه . وكانت زوجته « نفرتيتى » قد ضاقت به هى الاخرى ذرعا ،. فلا تنفك تعمل على ايلامه ، ويطيب لها أن تراه هكذا ، فقد سئمته عشيرا وزوجا ، ووقر فى ذهنها ، بعد أن ولدت منه خمس بنات دون أن تلد ولداً ذكرا ، أن ضعف رجولته هو علة ذلك ، فأباحت نفسها لغيره ممن كانت تشيم فيهم وثاقة وقوة ، وكان من بينهم صديقى « تحوتمس » . ومن هذا الطريق الذى لم تقو على كبح نفسها عنه ، تحرك فى بطنها الجنين السادس وقد وجدت فى ذلك المتعة التى أوهنت علاقتها « بفرعون » ، وطوعت لها أن تأتمر به !..

وكان جمال « نفرتيتى » المزدهر ، قد أخذ يتصوح ويذوى ، ولكن بقيت لها منه مسحة وسمات ساحرة لا يقوى الرجال على مقاومتها . وكانت تعتد بجمالها وذكائها فى اظهار قوتها وبلوغ ماتشاء من شهواتها ، فوق اعتدادها بسلطانها كملكة ذات حظوة عالية . ولقد كانت ــ لسنوات عديدة ــ قانعة بالجمال والجواهر والنبيذ والتغنى بالاشعار ، وبما تلقاه وافرا من متاع سيدة القصر الاولى وما يحف بها من مظاهر الحكم والسلطان . وكانت خلال هذه السنوات العديدة بمنآى من قالة السوء ، فلا يذكر أحد انها ارتكبت اثما أو تدنست بعار ، أو شاركت فى خيانة، بل لقد كان المعروف عنها دائما انها تبالغ فى وفائها وحبها « لفرعون »، وتدفع عنه ، بقوة ، تهمة الجنون ، وتؤمن بدعوته وآماله الى ابعدالحدود،

فلما انحرفت فى سلوكها الخلقى عن هذه الجادة ، ذهل الناس لهذاالتحول الغريب الشاذ ، وزاد فى ذهولهم أنها لم تكن تستخفى فى مآثمها وحماقاتها وراحت الشائعات والافاويل تقتحمها اقتحاما وتنهشها نهشا ، حتى كان مما يروى عنها اذ ذاك أنها تجد اللذة اكبر اللذة بين احضان الخدم الشردانيين ونحاتي القبور !.. ولا يخلو هذا من التزيد والمبالغة ، ولكنه مع ذلك غير مستغرب عندما يكون قصة تروى على السنة العامة والدهماء !..

وكنت أستمع الى اخبارها هذه ، فتخطر فى ذهنى ذكرى امها والكاهن « آى » ، والمح على ضوء هذه الذكرى دم هذا الكاهن يجرى فى عروقها ، ذلك الدم الاسود القذر ، الذى تتحرك فيه جراثيم الظلم والخيانة والجشع !..

وآثر « فرعون » أن يخلو الى افكاره ، بعيدا عن هذا المضطرب ، فاعتكف عن الناس ولزم وحدته حاملا نفسه على مشقتها ، وقصر غذاءه على الخبز وثريد الفقراء وشراب ماء النيل ، لا يزيد على ذلك ولا يخلط فيه ، مستعيدا بهذه الوسيلة الصفاء الروحى الذى استشعر حاجته اليه ، فقد كان يعتقد أن اللحوم والنبيذ يرسلان على الروح ضبابا وعلى العيون غشاوة ، وقد فعلا فعلهما فيه حتى اظلمت عيناه !..

وبينما كان هذا يحدث فى المدينة ، وفى القصر الملكى على الخصوص، كانت الاحداث الخارجية تجرى مضطربة قلقة ، « فعزيرو » قد أرسل الواحا من «سوريا» يقول فيها ان رجاله ، حبا فى السلام ووفاء للمعاهدة، يرغبون أشد الرغبة فى العودة الى بلادهم ليستأنفوا فيها حياتهم الوادعة بين رعى المواشى والاغنام وفلاحة الارض والانس بزوجاتهم واهليهم ولكن عصابات اللصوص ، المجهزة بالاسلحة المصرية والتى تعمل تحت قيادة ضباط مصريين ، لا تنقطع غاراتها على «سوريا» من صحراء «سيناء» ولا يزال خطرها متفاقما مهددا لأمن بلاده ، ولهذا فانه لم يأذن لرجاله فىالعودة الى بلادهم مضطرا ، للاحتفاظ بهم كجنود يقفون فى وجه هذا الخطر ، ذلك الى أن حاكم « غزة » يسير فى تصرفاته سيرة مناقضة لمعاهدة السلام نصا وروحا ، فقد اغلق أبواب المدينة دون التجار المسالمين ، ولا يسمحبدخولها الا لمن يشاء من غير هؤلاء ، وراح « عزيرو » يضيف الى ذلك الكثير مما لا يستطيع احد أن يصبر عليه سواه — على حد قوله —

وهو يحتج على وقوع هذه الحوادث والتصرفات ، ويطالب بوضع حد لها عاجلا ، والا فانه لن يكون مسئولا عن النتائج ..

وكانت « بابل » تنظر فى غير ارتياح الى منافسة « مصر » لها فى سوق الحبوب « بسوريا » ، ولم يتقبل ملكها « بورنابورياش » هدايا « فرعون » راضيا ، وعقب عليها بعديد من المطالب والتحفظات ! ..

أما سفير بلاد ما بين النهرين فى « اخيت آتون » فقد كان يشد لحيته ويهز كتفيه ويبسط يديه ويقول : ان مليكى يشبه الأسد الذى ينهض متثاقلا فى عرينه ، ويتشمم فى الهواء ريح الأحداث المقبلة ، وانه ليلتقى مع « مصر » فى آمالها ويعد عدته لمناصرتها ، ولكننى لاأدرى ماسوف تكون عليه حاله اذا لم تبعث اليه « مصر » بالذهب الذى يمكن له فى استئجار الرجال الاقوياء وشراء الاسلحة وتشييد العجلات الحربية ! .. ومليكى يبرهن دائما على انه خير صديق لمصر ، ولكن صداقة الممالك لاتنهض الا على دعائم قوية من الغنى والثراء ، وهو — فى اعتزازه بصداقة « مصر » لغناها وقوتها — لايرّحب أبدا بصداقة مملكة فقيرة ضعيفة ، لانها تكون حميلة عليه ، وعبئا على كتفيه ! ..

وفى ذلك الوقت وفد على « اخيت آتون » مندوبو الحيثيين ، ومنهم الرؤساء الممتازون ، ليؤكدوا الصداقة القديمة المتوازنة بين « مصر » وبلادهم ، وليقبسوا من « مصر » تقاليدها الطيبة التى سمعوا الكثير فى تمجيدها ، وليروا بأعينهم نظام الجيش المصرى وعدته وعدده ، ليستهدوا بذلك فى اصلاح جيشهم ! .. هكذا كانوا يقولون ويعلنون ! وقد كانوا يحملون معهم هدايا ثمينة لضباط الحاشية الملكية ، ومن بينها هدية قدموها الى الصغير « توت » ابن « فرعون » بالمصاهرة ، وكانت سكينا من المعدن الأزرق ، تمتاز بالحدة والصلابة ، وكنت أنا الشخص الوحيد فى « اخيت آتون » الذى يملك مثل هذا السلاح ، وهو الذى اعطانيه رئيس الميناء الحيثى ! .. وقد فرح « توت » بهديته هذه ، ولم تكن تفارقه ابدا حتى أنه كان يقول : انى سآخذها معى الى قبرى ! . اذ كان على رقته وتفتح براعم الحياة فيه ، يغلبه التفكير فى الموت ، على خلاف المألوف فى الأطفال والفتيان صغار السن ! ..

وقوبل هؤلاء الرؤساء الحيثيون بالحفاوة البالغة ، فلم تكد تمضى عليهم ساعة من نهار أو ليل الا كانوا فيها ضيوفا أعزاء على كبار المدينة وعظمائها فى قصورهم ! .. فقد كانوا محط الأنظار وموضع الاكبار

ومثار الاعجاب من الجميع ، لما يتسمون به من وقار العلم والمعرفة وحدة الذكاء ، ولم يكن النساء ـ وبخاصه سيدات الحاشية الملكية ـ بأقل من الرجال اعجابا بهم ، فقد كان يروقهن منهم جمال التكوين وحسن السمت وعلامات الرجولة المتمثلة فى أنوفهم الطويلة وذقونهم المحدودبة وعيونهم النفاذة التى كانت تشبه عيون الحيوانات البرية ! .. وهم يداخلون الناس فى كثير من اللطف والرقة ، ويتحدثون اليهم فى هشاشة وتبسم فيقولون لهم : نحن نعرف أن كثيرا من الأشياء المرعبة تروى عن بلادنا وليست من الحقيقة فى قليل أو كثير ، وانما اخترعها ولفقها جيراننا الحاقدون علينا لتسيء الى سمعتنا وسلوكنا فى الخارج ... ولهذا فاننا مغتبطون اذ أتيح لنا أن نلقاكم بأشخاصنا لتروا فينا دليل افترائهم ، ولنؤكد لكم بأنفسنا أننا شعب متحضر موفور الثقافة ، والقلة القليلة فينا هى التى لاتجيد القراءة والكتابة والاطلاع ، وأكثر ما نعنى به فى حياتنا هو البحث عن المعرفة حيث تكون ، لنزداد بها علما فوق علم ، ونستنبط منها خير ما فيها لتعليم أقوامنا وتهذيبهم ... فلا تصدقوا الخرافات التى يذيعها عنا المهاجرون من « ميتانى » ، فهم يحسدوننا لتقدمنا عليهم ، وينفسون علينا امتيازنا دونهم ، وقوتنا على ضعفهم ... فلو لم يكونوا ضعافا لما تركوا بلادهم خائفين ، ولما خرجوا عن كل ما يملكون فيها . وكان خليقا بهم ، لو كانوا واثقين بأنفسهم ، مطمئنين الى قوتهم ، أن يستقروا فى بلادهم ويبذلوا فى خدمتها كل جهودهم ، فما كان ليصيبهم فيها مكروه أو ينالهم منا سوء ، فنحن قوم مسالمون ، لا نسعى الى حروب ، ولا نحاول الاعتداء على أحد . ولم نكن فى دخولنا الى بلادهم نقصد شيئا من هذا ، وانما دخلناها لنحررهم من المظالم التى كانوا يضجون منها ، وكانوا هم أنفسهم يدعوننا مستغيثين لنخلصهم من اصرها ومآثمها !.. وفى أرض «ميتانى» متسع لنا ولهم ، وكان ينبغى أن نتلمس فى سعتها متنفسا لنا ، فأرضنا قد ضاقت بكثرتنا المتزايدة ، وألحت علينا الحاجة الى أرض أخرى ، تمدنا بالأقوات وتمد مواشينا بالكلأ ! .. وما كنا لنفعل هذا أو نفكر فيه لولا أن ملكنا العظيم « شوبلوليوما » يحب الأطفال ويدعو الى الاستكثار منهم ، فازداد النسل بذلك وتكاثر الناس على مرور الزمن ، فهذه هى حقيقة أمرنا مع هؤلاء الذين يطيب لهم أن يشككوا فى نوايانا ، ويخترعوا علينا الأباطيل !

كانوا يقولون هذا ، دفعا لما يعرفون أنه يشوب الأفكار من ناحيتهم، ثم يأخذون فى امتداح « مصر » والاشادة بعظمتها والتنويه بالحب المتبادل

بينها وبين بلادهم ، ويعربون عن رضائهم فى أن تتوطد علاقتها بهم مشيرين الى ما عندهم من العلوم والمعارف والعادات والتقاليد الحسنةالتى يستطيع المصريون أن يتعلموها ويفيدوا منها فى ظل العلاقة الوطيدة ! ..

ولكنى ـ على اسهابهم فى تعظيم « مصر » و « أخيت آتون » ، وعلى براعتهم فى اقناع من تحدثوا اليهم من المصريين بأن الحيثيين قوم شرفاء أفاضل ، لم أشعر بارتياح نحوهم ، فقد كنت أعلم من أمر بلادهم مالا يعرفه غيرى ، ولم أنس منها منظر الموضوعين فوق الخوازيق وكيف كان الغادون والرائحون يبصقون عليهم امعانا فى التنكيل بهم ، الى غير هذا من ضروب القسوة والفظاعة التى تخلو من كل ما يصطنعونه الآن من مظاهر الرحمة والسلام ! .. وخيل الى أنى أشم فى أثوابهم رائحة الدم المراق والجثث المتعفنة ، ولهذا أحسست كأن عبئا ثقيلا قد انزاح عن قلبى، عندما غادروا « أخيت آتون » ! ..

وفى ذلك الوقت فشت فى « أخيت أتون » ظواهر حياة غريبة لم يقع مثلها من قبل ، فأهلها فى سباق جنونى ، يسرفون فى طعامهم وشرابهم ويفرطون افراطا شديدا فى لهوهم ومجانتهم ، ويتكثرون بأسباب البهجة والمرح ، وما كان هذا دليلا على شىء أكثر من دلالته على يأسهممن المستقبل ، فهم ينتهبون لذاتهمفى يوم غير مأمول الغد ، وأحيانا كانت تستيقظ عقولهم ، فيمسكون عن هذه الحياة اللاهية أشد اللهو ، ويطبق على المدينة عندئذ سكون مخيف ، فاذا ضحكهم يحول أسى ، وبهجتهم تنقلب اكتئابا ، واذا بألسنتهم تجمد فى حلوقهم فلا يتحدثون وانما ينظر بعضهم الى بعض فى خشية !.. ولكنهم سرعان ما يعودون الى ما كانوا فيه ، هاربين من عقولهم ، تحت وطأة الحمى الجنونية المسيطرة ! .. وكان الفنانون أكثر أهل المدينة تأثرا بهذه الحمى وانفعالا بها ، فهم منكبون على الرسم والنحت والتلوين ، مبدعين فيها جميعا ، ابداعا قلما بلغوا مثله ، وكانت فى انتاجهم ، على كثرته ، أشكال ولوحات بالغة الغرابة ، عبرت عن الأفكار العابثة التى كانت تتحرك بها أقلامهم الراسمة . وكان يسيرا عليهم حينذاك أن يمثلوا التقاطيع الكاملة والحركات الدقيقة بأقل ما يمكن من الخطوط والألوان ! ..

وقد قلت لصديقى « تحوتمس » : ان فرعون « أخناتون » قد رفعك من الحضيض واتخذك صديقا له ، فهلا أخبرتنى لماذا تمثله بريشتك ، على ما رأيت ، كأنك تمثل به ؟! وهل يفعل به هذا الا أعدى أعدائه ؟! ثم

ما هذا الذي يلقاه منك من نكران الجميل وجحود الفضل ، الى حد أنك تبصق على فراشه وتزرى عليه ، وتمالىء الكائدين له ؟! ..

فقال « تحوتمس » : تلك أمور أرى ألا تقحم نفسك عليها ، لأنك لا تفقهها ! .. ولعلى أن أكون قد كرهت « فرعون » ، فما ذاك بالشيء الغريب بعد أن كرهت نفسي ، وهي مني بالمكان الأول ! .. دع هذا يا « سنوحي » ، وخير منه أن تعلم أن الابداع الفني يضطرم في داخل نفسي اضطراما قويا ، ولم تكن يداى يوما مثلما هما عليه الآن ، من الخفة والمهارة ، وربما كان ذلك لأن الاجادة والابداع لا يواتيان الفنان ولا يحالفانه ، الا إذا تجرد من أنانيته وكره نفسه ، واستشعر الأسى في حياته ، ولقد شأوت في هذا السبيل وبلغت منه أقصى المدى ، حتى لقد خلقت من الحجر خلقا كثيرا ، لا يفنى كما يفنى الناس ، وانما يبقى الى الأبد ! .. واستطيع ، بهذا الخلق العتيد الذي يطاول الزمان ، ولا يعتريه مرض ولا موت ولا نسيان ، أن أضع نفسي في مرتبة أعلى من « آتون » لأن خلقه الى زوال وانحلال ! .. فأنا – كما ترى – اله أكثر مني انسانا ! وقد تفردت في فني ، فليس هناك في الآخرين من يرقى رقيي أو يعدلني في مكانتي . ومن آيات هذا التفرد أني التزم قواعد محددة لايباح الشذوذ عليها ، وانما أطلق يدى اطلاقا لأني فوق القواعد والحدود ! ..

لم يكن « تحوتمس » ، وهو يقول لي هذا ، متماسكا في تعبيره أو في حركاته ، وعرفت أنه كان قد اثقل على نفسه بالشراب حتى ثمل ولذا تجاوزت عن حديثه هذا الذى لا يزنه ولا يعيبه ، وبخاصة اذ كانت تتراءى في وجهه وعينيه دلائل تعاسة عميقة يعاني منها في داخل نفسه ! ..

وخلال ذلك الوقت كان قد انتهى الحصاد ، وارتفعت مياه النهر ثم انخفضت . . . وجاء الشتاء مصحوبا بالمجاعة التى اجتاحت بلاد «مصر» جميعا ، ورانت على الناس منها مخاوف وظلمات ، وبات كل منهم لا يدرى أية كارثة هو ملاقيها في الغد ، هذا الى أن الأنباء تواترت بأن «عزيرو» قد فتح أكثر مدن « سوريا » أمام « الحيثيين » ، وأن عجلاتهم الحربية الخفيفة قد استشرفت في تقدمها ، صحراء « سيناء » ، مهاجمة « تانيس » ، واستطاعت أن تخرب ما حولها .

- ٢ -

وتأيدت هذه الانباء بقدوم « آى » من « طيبة » ، و «حورمحب » من « ممفيس » ، ليتشاوروا مع فرعون « اخناتون » فى الموقف الخطير وتدبير الوسائل لانقاذ ما يمكن انقاذه · وقد شهدت اجتماعهما بفرعون كطبيب، لاتقاء ماكان متوقعا من الخطر على صحته وحياته حينما يكاشفانه من الأمر بما لابد أن يسوءه العلم به ··· ولكن « فرعون » استمع اليهما فى هدوء وظل مسيطرا على أعصابه طوال الوقت ! ··

وكان مما قاله له الكاهن « آى » : ان مخازن « فرعون » خاوية وأراضى « الكوش » لم تؤد الجزية هذا العام ، وكنت أعلق كل آمالى على أدائها ! ·· والجوع قد استشرى فى البلاد ، والناس فى مجاعتهم القاسية يقتلعون الزرع من الأرض ليقتاتوا بجذوره ، بل لقد اضطروا الى التقاط الجراد والحشرات والضفادع ليأكلوها ، وقد مات الكثيرون منهم ، والآخرون فى طريقهم الى المصير نفسه · وبالغة ما بلغت الدقة المقسطة فى توزيع غلات « فرعون » فانها غير مجدية لعدم وفائها بالحاجة ، وما لدى التجار منها قد ارتفع ثمنه الى الحد الذى يتجاوز قدرة الناس على الشراء ، وقد ملأ الفزع والرعب سائر القلوب ، وأصيبت العقول بالخبل والاضطراب، فأهل القرى يفرون الى المدن ، وأهل المدن يفرون الى القرى ، وقد أصبحوا جميعا يعتقدون أن لعنة « آمون » تلاحقهم ، وأن اله فرعون هو الذى كرثهم بهذه اللعنة ! ·· والرأى عندى يا فرعون « اخناتون » ، أن تصلح ما بينك وبين الكهنة ، وأن تعيد « لآمون » قوته وسلطانه ليعبده الناس فى ايمان وأمن كما كانوا ، وأن تعيد اليه كذلك أرضه ليعود الناس الى زراعتها ناشطين ، فما يجترئون اليوم على العمل بها ، وهى ليست له ، خوفا منه ورهبة ! ·· وهم لا يقبلون على أرضك ويأبون المقام بها لاعتقادهم أن لعنة « آمون » قد صبت عليها ، ولهذا فقد خلت من الناس والزرع معا ، وأفضى ذلك الى المجاعة التى تلف البلاد فى أبراد الموت ! وانى لأدعوك الى ارضاء «آمون» ومصالحة كهانه ، اذ لا ارى غير هذا سبيلا الى دفع الخطر الداهم والخروج من الغواشى الداجية !·· وهذه نصيحتى خالصة لك ، فان لم تأخذ بها فحسبى أنى أديت واجبى ، ونفضت من العواقب الوخيمة يدى ! ··

وتقدم « حورمحب » من فرعون وقال : ان الملك « بورناجورياش

قد حالف « الحيثيين » و « عزيرو » ، بعد أن اشترى السلام منهما تحت تأثير الضغط والاكراه ! ٠٠ وجنود هؤلاء في « سوريا » في مثل عدد رمال الصحراء ، كما أن عرباتهم الحربية هي الأخرى في مثل عدد نجوم السماء ، وهم يرصدون « مصر » ويبيتون الشر لها ، وقد أعدوا عدتهم لغزوها ، حتى انهم اختزنوا لديهم كميات وافرة من الماء ، ملء ما لا يحصى من الجرار ، ليستعينوا بها في خوض الصحراء التي لا تؤمن الحياة فيها بغير ماء يبل الأوام ويطفيء الظمأ ! ٠٠ وما كان تزودهم بالماء منقولا الى الصحراء في جرار الا مخاض الدهاء الذى اشتهر به الحيثيون ، ودليل تصميمهم على بلوغ أقصى الغاية من هذا الزحف المسلح ! ٠٠ ومن عجيب أمرهم أنهم استطاعوا أن يشتروا جرار الماء التي لا تحصى من « مصر » نفسها ، دون أن يدرى التجار المصريون الذين باعوهم اياها ، أنهم بذلك يحتفرون لانفسهم ولمواطنيهم قبـــورا بعدد جرارهم ! ٠٠ وقد شوهدت العجلات الحربية التابعة « لعزيرو » وللحيثيين ، وهي تقـــوم بغزوات استطلاعية في « تانيس » وفي بلاد أخرى تابعة للتاج المصرى ، وبهـــذا خرقوا معاهدة السلام ، وكانت الخسائر التي احدثوها ، اول الأمر ، طفيفة ، ولكنها الآن مما لايمكن أن تحتمل !.. فالأنباء تتواتر عما يرتكبه « الحيثيون » من تدمير رهيب وقسوة مرعبة ٠ وقد وقع هذا في الناس اسوأ وقع ، وأثار فيهم العزم المصمم على القتال ٠ وأرى الا ندع الزمام يفلت من أيدينـــا ، والوقت لا يزال ملائما يا فرعون « اخناتون » ، فأمر بنفخ النفير ورفع الاعلام اعلانا للحرب التي لم يعد منها مفر ، ولنجمع من فورنا جميع القادرين على حمل السلاح في ميادين التدريب العسكرى ولنجمع كذلك كل ما يوجد من نحاس في جميع أنحاء المملكة لصنع الحراب ورءوس السهام ، فليس مستطاعا بغير هذا أن تنجو مملكتك وتصان بلادك ، واني لقمين أن اشعلها على « الحيثيين » حربا لا قبل لهم بها ، وأرميهم بشر هزيمة عرفوهـــا أو سمعوا بها ، ومن ثم أعيد فتح « سوريا » باسمك وأردهم الى حيث أتوا أذلاء صاغرين ! ٠٠ سوف أفعل كل هذا ، ولا مناص منه ، وهو أمر ينبغي أن ترصد له موارد « مصر » كلها ، وأن توضع بجملتها تحت تصرف الجيش ، ففيه اليوم تلتقى آمال البلاد ، وعليه وحده ينعقد الرجاء في الخلاص ٠ وقوته ، ولا شيء سواها ، هي التي تحفظ لمصر عزتها وكرامتها ٠ وان الناس الآن ليقتلهم الجوع ويستبد بهم الفراغ والقلق ، فتعبئتهم للقتال ، وقد أصبحوا جد مشوقين اليه بعاطفة الدفاع عن أنفسهم وبلادهم ، ستحيل ضعفهم قوة ، وجبنهم شجاعة ! ٠٠ وأتباع « آمون » منهم ، سينسونه عندما يكونون في حومة

الوغى . وفى هذه الحومة نفسها لن يكون لهذا القلق السائد موضع من نفوس المقاتلين ، فهم جميعا ، وعلى قلب رجل واحد ، يواجهون العدو الذى لا حياة لهم الا بقهره والظفر به ! .. ان الحرب يا « فرعون » ، هى وحدها التى توطد ملكك وتدعم سلطانك ، وتظهرك على أعداء بلادك بالقوة التى ترهبهم وتلقى الرعب فى قلوبهم ، وانى لأعدك بالنصر المؤزر فيها ، فأنا « حورمحب » ، ابن الصقر ، وقد ولدت لأعمال جليلة ، وهذه هى الساعة التى كنت فى انتظارها طوال حياتى ! ..

ولكن « آى » لم يطق سماع هذا ، فقال معترضا : لا تصدق « حورمحب » يا فرعون « أخناتون » ، يا ولدى العزيز ! .. فليس ما يجرى به لسانه الآن الا الكذب الملفق ، يمهد به لبلوغ مطامعه فى سلطانك ! .. ولئن كان حقا ان الحرب لا معدى منها ، فانى لا أرى ضيرا فى اعلانها ، ولكن بعد الذى أشير به من مصالحة كهنة «آمون» ، وعلى الا تكل قيادتها الى « حورمحب » ، وليكن قائدها رجل من رجالك المجربين ، أوتى العلم بفنونها ودرسها الدراسة الوثيقة فى المخطوطات القديمة على ما كانت فى عهود الفراعين العظماء ، وانك ، لواجد من هذا الطراز ، الرجل الذى تضع فيه ثقتك الكاملة ! ..

فقال « حورمحب » مغضبا : ان وقوفنا الآن فى حضرة « فرعون » ، هو الذى يغل يدى عن جدع أنفك القذر أيها الكاهن « آى » ! .. وانك لتصفنى بما هو فى طبعك ، وتقيسنى بمقياس الخيانة التى تتفجر من كل جارحة فيك ، وقد سولت لك هذه الخيانة أن تتفاوض سرا مع كهنة « آمون » وتعقد بينك وبينهم عهدا من وراء ظهر « فرعون » ، ولكننى لن أتخلى عن الصبى الذى ألقيت عليه يوما معطفى لأقيه بالقرب من تلال « طيبة » ، ولست أستهدف غرضا سوى عظمة « مصر » وعزتها ، ولا يستطيع غيرى انقاذها من المحن التى تلم بها مرعدة مروعة ! .. وقطع « فرعون » هذا الجدال قائلا : هل انتهيتما من الحديث ؟! ..

فأجابا بصوت واحد : نعم ! ..

قال : قبل أن أتخذ قرارا فيما عرضتماه ، يجب أن آخذ نفسى بالتأمل والصلاة ، وفى الغداة سأدعو جميع الناس ، أولئك الذين يحبوننى ، كبارا وصغارا ، سادة وخدما ، وسأستدعى كذلك الحجارين والبنائين من مدينتهم ، وسأتحدث الى شعبى فى أشخاصهم ، وأكاشفهم بقرارى ! ..

وقضى « فرعون » ليلته مسهدا ، مستغرقا فى التأمل والصلاة

رائحا غاديا في حجرته ، وقد امسك عن الكلام وعن الطعام ، وكنت في ملازمتي له ـ كطبيبه الخاص ـ أراه هـكذا فأرثي لحاله واشـفق عليه اشفاقا شديدا ! ..

وفي الغد ، تجمع الناس ، وكان « آى » و « حورمحب » على أحر من الجمر انتظارا لقرار « فرعون » ، وكل منهما يطمع في أن يجيء مطابقا للرأى الذى أبداه .

وحمل « فرعون » الى هذا الجمع الحاشد ، واستوى على عرشه متالق الوجه ، وتكلم فقال : بسبب ضعفي تجتاح المجاعة الآن بلاد « مصر » ، وبسبب ضعفي يهدد العدو حدودنا ، والحيثيون قد أعدوا عدتهم للوثوب على « مصر » وغزوها عن طريق « ســوريا » ، وتوشك أقدامهم أن تطأ الأرض السوداء ! .. ذلك أني لضعفي ، لم أستمع الى صوت الهي ، ولم أنفذ ارادته ! .. ولكنه أخيرا تجلى أمام عيني أقوى ما يكون التجلي ، وسطع نوره في قلبي فملأني قوة ، ولم أعد ضعيفا ولا مترددا ! .. لقد حطمت الاله الزائف « آمون » ، ولكنني في ضعفي سمحت للآلهة الأخرى أن تحكم بجانب « آتون » ، وتنشر ظلالها على أرض « مصر » حتى صيرتها ظلاما ! .. فمنذ اليوم يجب أن تسقط جميع الآلهة القدامى وتختفي ظلالها ، لتبقى أضـــواء « آتون » وحدها تنير الوجود والآفاق في أرض « كيم » ... أجل ! .. منذ اليوم تنتهي ـ نهاية أبدية ـ هذه الآلهة الأخرى ، ولا يبقى على الارض الا الاله الواحد « آتون » ، معبـودا في مملكته الكبرى ! ..

وسرت بين الناس عند سماعهم هــذا الكلام همسات تختلف بين الذعر والايمان ، وخر كثيرون منهم على وجوههم ساجدين أمام « فرعون » ولكنه رفع صوته واستطرد يقول في رباطةجاش : فيا أيها الذين تحبونني ، اذهبوا الآن فحطموا الآلهة القدامى ، وامحوا آثارها من أرض « كيم » ... لا تبقوا على شيء من مذابحها وهياكلها وتماثيلها ! .. وأريقوا على الأرض مياهها التي وسموها بالقداسة ، واطمسوا أسماءهـــا ونقوشها في كل مكان ، ولا تدعوا شيئا منها في القبور كذلك ، فهذا هو السبيل الى انقاذ « مصر » ، وبهذا تكون حمايتها من كل شيء !.. وانتم ايها النحاتون : استبدلوا باقلامكم ومناقيشكم فئوسا ... ويا أيهـــا العمال : احملوا مطارقكم ... وامضوا جميعا الى كل اقليم ، والى كل مدينة وكل قرية فاقلبوا ـ راسا على عقب ـ معابد الآلهة القدامى ، وأزيلوا معالمها وآثارها

فى كل موضع وناحية ! .. واعلموا أنه لن يكون هناك بعد اليوم سيد ومسود ، أو مخدوم وخادم ، وانما سيكون الناس جميعا سواء امام « آتون » ! .. لكل منهم أن يختار بمحض ارادته العمل الذى يريده ، وأن يغدو ويروح على ما يشاء ملء حريته ، ولن يستطيع انسان ان يسخر انسانا فى فلاحة أرضه أو فى طحن غلاته ، ... هذه ارادة « آتون » وبها تكلم « فرعون » ! ..

وران السكون على الجميع ، وقد بدا لهم « فرعون » أكثر تألقا ووضاءة وجه ، فأخذتهم روعة منظره ، وقال بعضهم لبعض : ان شيئا من هذا لم نره من قبل ، وأكبر الظن أن الهه هو الذى كان يتكلم بلسانه ومن ثم فقد وجبت علينا طاعته ! ..

وفى انصرافهم اعتراهم الهياج واشتدت بهم الحماسة ، وكان بينهم من لاتزال نفوسهم مطوية على الشك ، فتنازعوا فى الشوارع وتطور النزاع الى تضارب وقتال ، وأهوى المتحمسون لفرعون بخناجرهم على رقاب بعض مخالفيهم ، فذبحوهم ! ..

وخلا « آى » بفرعون ، فقال له : يا « أخناتون » ! .. ضع عنك تاجك ، وحطم عصا الراعى ، فما أرى لك ، بعد الذى جهرت به فى الناس ، تاجا ولا عرشا ! ..

وأجاب فرعون « أخناتون » قائلا : بل هذا الذى جهرت به فى الناس ، هو العظمة والخلود ، وسيعلو به اسمى فوق الأسماء ، ويجعل لى فى قلوب الناس المكان الأعز الى الأبد ! ..

وفى انفعال ومرارة ، فرك « آى » يديه وبصق على الأرض أمام « فرعون » ، ومسح البصقة بقدمه وقال : ما دام الأمر كذلك فانى أنفض يدى منه ، وأدعك الى رأيك غير مسئول عنه ، فما أنا بالمسئول فى أعمالى عن تصرفات رجل مجنون ! ..

وهم « آى » بالانصراف ، ولكن « حورمحب » وقف فى وجهه وأمسك بذراعه وعنقه ، ولم يستطع الافلات من يديه على موفور قوته ، وخاطبه « حورمحب » قائلا : انه مليكك ، وله عليك حق الطاعة والولاء ، فان لم تنفذ ما يأمرك به ، فأنت اذن خائن غادر ، وانى لقاتلك ان ارتكبت هذه الجريمة المنكرة ، فليس عليها غير القتل عقاب ، وفى وسعى أن أفعل حتى لو اقتضانى الأمر أن أجرد فى سبيله فرقة عسكرية كاملة ! .. ولئن

كان جنون « فرعون » يلوح عميقا مخيفا ، فانى مع هذا أحبه ولن أتخلى عن موضعى منه ، أو أنكص عن واجبى نحوه ، فقد أقسمت له يمين الولاء ! .. ذلك الى أنى لا آراه فى خلطه وتخريفه مرسلا الى غير قصد معقول ، وقد يكون أمره بالقضاء على الآلهة القدامى ، ودعوته الى تحطيمها والاجهاز عليها ومحو آثارها فى البلاد ، تصرفا خطيرا يؤدى الى حرب داخلية ، ولكنه ، فى الوقت نفسه ، يؤدى الى تحرير الارقاء من الذل والاستعباد وتخليص الضعفاء منظلم الأقوياء وعسفهم ، وهؤلاء المحررون من الذل والظلم كثرة كاثرة ، وسيكونون فى صفه بلا ريب ، وبهم يقوى ويعتضد ! .. فارادة « فرعون » تذهب فى الشعب على وجهين ، لا يخلو أيهما من خير ، وان كانت البلاد خلالهما كمثل حبات القمح بين شقى الرحى ، يطحنها الاضطراب والفوضى ، فذلك ما ليس منه بد فى اعتراك عهدين ، واصطراع عقلين ، وهو الى نهاية حتما ! .. على أن هذا لا يعنينى اليوم ، فأخطر منه شأنا عندى ، هو أن يقول فرعون « أخناتون » ماذا نحن صانعون فى موقفنا من الحيثيين ؟! انى لأوجه اليه سؤالى هذا ؟! ..

ولكن « أخناتون » ظل فى مجلسه ، لائذا بصمته ، لا يتحرك ولا يجيب ! .. فاستطرد « حورمحب » قائلا : أعطنى ذهبا وغلات ، وأسلحة وجيادا وعجلات حربية ، وسلطة كاملة أجند بها المحاربين وأستأجر المقاتلين ، وأستدعى الحراس للأرض السفلى ، فانى بهذا لمستطيع أن أصد هجوم الحيثيين ، وأردهم على أعقابهم مخذولين ! ..

وعندئذ تحرك « فرعون » وصوب اليه عينيه المحمرتين وقد غاض فى وجهه البريق المتألق ، وقال : انى أمنعك من اعلان الحرب يا « حورمحب » ، واذا أراد الناس ، من تلقاء أنفسهم ، أن يدافعوا عن الأرض السوداء ، فذاك شأنهم ولا يسعنى أن أمنعهم . أما الذهب والغلات — ولا أقول شيئا عن الأسلحة — فليس لدى منها ما أعطيكه ، ولو أنها كانت عندى فانك لن تأخذ منها قليلا أو كثيرا ، فما أريد مقابلة الشر بالشر . وفى مكنتك أن ترتب الأمر مقصورا على الدفاع عن « تانيس » ... على ألا تسفك قطرة من دم ! .. حسبكم أن تدافعوا عن أنفسكم اذا هوجمتم ! ..

فأجاب « حورمحب » مغيظا : فليكن ما تشاء ! .. وليذهبالجنون كلمذهب فىالبلاد ! .. على أنه يجب أنتعلم أننى ، بأمرك يا «فرعون» ،

سأمضى الى الموت المحقق فى « تانيس » ! .. فما تستطيع أعظم الجيوش قوة وبسالة أن تثبت لأعدائها من غير أقوات ومال ! .. ولكنى ذاهب لمواجهـــة الأعـــداء على أية حال ، وسأتصرف وفق ما يمليه على عقلى ، ووداعا ! ..

وانصرف « حورمحب » وخرج فى اثره « آى » ، وبقيت أنا و «فرعون» وحدنا ، فأجال فى عينيه اللتين اعتراهما خمود ظاهر ، وقال : لقـــد خرجت الفضيلة منى فى كلماتى ، على ما ترى يا « سنوحى » ، ولكنى أرانى - حتى فى ضعفى - سعيدا ، فماذا عسى أنت فاعل ؟! ..

فنظرت اليه فى دهشة ، ولكنه ، وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة ، أردف يسألنى : أتحبنى يا « سنوحى » ؟! .. فاذا كنت تحبنى حقا ، فانك لتعرف اذن ماذا عليك أن تفعل ! ..

ولم أفطن أول الأمر الى ما يعنيه بهذا السؤال ، ولكنى أحسست انه يدعونى أنا الآخر كما قد دعا سائر الناس الى استئصال الآلهـــة القدامى ، فقلت له ممتعضـــا : حسبت أن عملى لا يعدو أن أكون طبيبك الخاص ، فان لم تكن تراه كذلك ، فسوف أمضى الى ما تريد ، ولو أن هذا مما لا طاقة لى به ، فذراعاى من الضعف والكلالة بحيث لاتقويان على حمل الفأس أو المطرقة ، وسيكون يسيرا على الآخرين من أتباع الآلهة التى تستنفرنا عليها أن ينالوا منى أسوأ منال ، ولن أستطيع أن أدفع عن رأسى الأحجار التى يرشـــقونه بها ، أو أن أهرب من أيديهم وهم يسلخون جلدى حيا أو ميتا ويعلقوننى من أعقابى على الأسوار ! .. على أن هذا المصير المحزن لا يعنيك فيما أرى ! .. فاذا كان لا معدى لى عن أن أخوض معركة الآلهة ، فانى آخذ وجهى الى « طيبة » ، ففيهـــا المعابد الكثيرة التى يمكن أن أؤدى فيها عملا كبيرا دون أن أتعرض لخطر كبير ، فالناس هناك يعرفوننى ، وقد لا ألقى منهم شيئا مما أخشـــاه على حياتى ! ..

ولم يحر « فرعون » جوابا ، فذهبت عنه غاضبا ! ..

وابحر « حورمحب » على ســـفينته فى اليوم التالى قاصـــدا الى « ممفيس » ليتابع رحلته منها الى « تانيس » ، وكنت قد اجتمعت به قبل رحيله ، وانعقد الاتفاق بيننا على أن أقرضه كل ما تملكه يدى فى « طيبة » من ذهب ، الى نصف ما فى حوزتى هناك من غلات ، محتفظا بنصفها الآخر لحاجاتى ومعاملاتى الخاصة ، ولعل هذا هو الخطأ الذى

شاب حياتى وسيطر عليها ، فنصـــفا قدمته ــ انجازا لعهدى ــ الى « حورمحب » ، ونصـــفا قدمته ــ تمجيدا « لأخناتون » ــ الى الجياع من شعبه ! . .

- ٣ -

وصحبنى « تحوتمس » فى عودتى الى « طيبة » ، وقد رأينا ، وكنا لا نزال منها بمبعدة ، جثثا طافية على الماء يدفعها التيار نحونا ، وكانت منتفخة باذية عليها آثار التنكيل ! . . وبانت لنا فى كثير منهـــا رءوس الكهنة الصلعاء ، الى رءوس أخرى عرفنا من مميزاتها أنها لرجال من الطبقات العليا والدنيا ، من بينهم حراس وخدم ٠٠ وقد أغنت ، بكثرتها ، التماسيح عن السعى فى طلب الفرائس ؟ ٠٠ وكان ظاهرا أن الكثيرين من أهل المدن والقرى على امتداد النهر ، قد لقوا حتوفهم ، وألقيت جثثهم هكذا فى النيل ! ٠٠

وقبل أن ينجاب عنا شعور الأسى لهذا المنظر المثير ، وصلنا الى « طيبة » ، لنستقبل فيها مناظر أشد اثارة وايلاما ! . . فأحياء عديدة منها كانت تشتعل اذ ذاك بالنيران ، وكانت ألسنة اللهب تتصـــاعد كذلك من مدينة الموتى ، فالناس قد جنوا جنونا مرعبا ، فلم يفرقوا فى جنولهم بين أحياء وموتى ! ٠٠ لقد كانوا يقتحمون القبور فيسرقونهـــا ويحرقون جثث الكهنة المحنطة ، ويقذفون «القرون» الى الماء «بالصلبان» ولا يزالون بها ضربا بالعصى حتى تختفى فى القاع ٠ ولم نكن فى حاجة ، ونحن نرى كل هذا ملء عيوننا ، الى من ينبئنا أن الأمور فى « طيبة » قد جرت محمومة على ارادة « فرعون » ومشيئته ، فى الاجهاز على الآلهة القدامى وتعفية آثارها ! ٠٠

وأخذنا طريقنا مسرعين الى حانة « ذنب التمساح » ، فلقينا فيها « كابتاح » وهـــو قائم بنفسه على خدمة الأرقاء مهلهلى الملابس وحمالى الميناء المسلحين ، وقد نضا عن جسمه الملابس الفاخرة ، وموه شعره بأمشاج من الوحل ، وارتدى ملابس الفقراء ، وخلع عن عينه العوراء الصفيحة الذهبية التى كان يغطيها بهـــا ٠ وكان يقول لهم فى تلطف وملق : ابتهجوا ما وسعكم الابتهاج ، واطربوا أيها الاخوان ما شئتم ، فهذا هو اليوم السعيد الذى لم يبق فيه فرق بين سادة وعبيد ! ٠٠ لقد

أصبح الجميع سواسية أحرارا ، يفعلون ما يريدون مطلقى الارادة والهوى . واحتفالا بهذا اليوم الذى لا أرى يوما أسعد منه فى حياتنا سأقدم لكم شراب النبيذ بنفسى وعلى حسابى ، ورجائى أن تذكروا بالخير هذه الحانة حين يحالفكم الحظ الموفق ، فتملأوا ، أيديكم وجراركم وكل ما تستطيعون ملأه ، بالفضة والذهب من معابد الآلهة الزائفة ، أو من بيوت السادة الأشرار ! .. واعلموا أيها الاخوة أنى رقيق مثلكم ، وقد ولدت وعشت على هذا الرق البغيض ، وهذه عينى المحرومة من النور ، أنظروا اليها فسترون فيها الدليل على صدقى ! .. فلقد فقأها سيد غليظ القلب ، لا لذنب سوى أنى شربت صبابة من جعة كانت فى احدى قواريره ، وخيل لى حينذاك أنى لو تركتها فارغة فسيسومنى سوء العذاب ، ودفعنى الخوف منه الى أن أبول فيها بقدر الجعة التى كانت بها ، لأوهمه بأنها لم تمس ، ولكنه فطن لذلك ، وكان أن عاقبنى بقسوة على ما ترون ! .. انهذه الشناعات فى تعذيب الأرقاء لن تعود ! فقد أدبر عهد الظلم والظالمين الى غير رجعة ، وبدأ منذ اليوم عهد الانطلاق والمرح والملذات التى لا تنقضى ! ..

ولم ينتبه « كابتاح » الى وجودى أنا و « تحوتمس » الا بعد أن فرغ من حديثه هذا الى جمهور حانته ، فألقى علينا نظرة المتجاهل . وباشارة خاطفة دعانا الى حجرة خاصة ، وقال لنا فيها : انه ، ولاشك ، الحظ التعس الذى جاء بكما الى « طيبة » فى هذا الوقت ! .. فليس لمثليكما من أصحاب المراتب المرموقة مكان من التبجيل بين عامة الناس فى المدينة اليوم ! .. بل لقد أصبح كل ذى مقام فيها هدفا للأذى والسخرية ! .. ومن الحكمة أن تعجلا بابدال ملابسكما الأنيقة هذه بأخرى مما يرتدى أفقر الفقراء ، وأن تنشروا على أيديكما ووجهيكما اثارات من الطين والغبار ، اشعارا بأنكما من أولئك الأرقاء والحمالين الذين يجولون فى الشوارع ويرتادون الحانات هاتفين باسم « آتون » . وضاربين ، باسمه أيضا ، كل انسان يلمحون فيه ظاهرة الثراء وبارقة الترف ، حتى أصحاب الأجسام البدينة ، ولو كانوا من غير هؤلاء ، لا يفلتون من أيديهم . فالبدانة ، فى نظرهم ، سمة الأثرياء والمترفين ! . ولقد كدت أذهب ضحية كرشى المتهدل بالشحم ، لولا أننى كنت معروفا بين أكثرهم بأنى من الأرقاء مثلهم ، ذلك الى انى خرجت لهم عن الكثير من الفلات فوزعته عليهم ، وأبحت لهم ، هنا ، الشراب بلا مقابل ! ..

فقلنا ونحن نكشف له عن فئوسنا ومطارقنا : انما جئنا بهده

لنساهم مع هؤلاء فى تحطيم تماثيل الآلهة الزائفة ، ونمحو أسماءهـــا من كل النقوش ! ..

فهز « كابتاح » رأسه وقال بلجهة الفطن البصير : قد يكون هذا حسنا فى الظروف الراهنة ، وفيه لكما السلامة ما أقمتما فى غمار هذه الفوضى ، ولكن الأمر قد يحور ويتبـــدل وينقلب الى النقيض . وانى لأشتم من بعيد رائحة الانقلاب المضاد ، وقد شغل الناس كلهم بمعركة الآلهة ، وكفت الأيدى عن كل عمل سواها ، والأقوات فى طريقهـــا الى النفاد ، ويوشك هؤلاء الأرقاء المتهوسون أن يصبحوا يوما فلا يجدون طعاما ، وعندما يعضهم الجوع بنابه ، سيوجهون ثورتهم وجهة أخرى ، واغلب الظن انهم سيوجهونها الى « اخناتون » والهه ، اذ يعدونه المسئول عن هذه النتيجة السيئة ! .. وتنفتح الأبواب فى هذه الحالة أمام كهنة « آمون » وأتباعه ، فيخرجون للشعب ويستردون سلطانهم عليه ، ويثأر حملة « القرن » رمز « آمون » من خصومهم الذين أمعنوا فى النيل منهم ، وهنا لا أدرى ماذا سيكون مصيركما ! ..

فقلت له : أما وقد ذكرت الأقوات واحتمال نفادها قريبا ، فاعلم اننى عقدت اتفاقا مع «حورمحب» على أن ارسل اليه نصف ما فى مخازنى من غلات ، ليستعين بها فى محاربة « الحيثيين » ، فعليك أن تقوم منذ الآن بشحن هذا القدر بالسفن الى « تانيس » ، أما النصف الباقى فقد نزلت عنه للفقراء الذين يشق عليهم أن يجدوا الطعام فى هذه الأيام ، وعليك أن تنفذ ارادتى هذه فى الحال ، فتطحن الحبوب وتصـــنع من دقيقها خبزا ، وتوزعه على الجياع فى كل المدن والقرى التى يوجد لنا فيها قمح مخزون ، واختر الأمناء من الرجال للقيام بعملية توزيع هذا الخبز ، حتى يتقاضوا مقابلا ، وعليهم أن يقدموه الى المعـدمين قائلين لهم : هذا خبز « آتون » ، فاطعموه طيبا باسمه ، ومجدوا « فرعون » والهه ! ..

واخذ الفزع من « كابتاح » كل مأخذ ، فشق ملابســـه التى لم تكن الا ملابس الأرقاء ! .. وصرخ قائلا فى غيظ : انك بهذا ، يا سيدى ، تتعجل الفقر والتعاسة ، لنفسك ولى فى آن واحد ! .. وما أرى الا أنك قد أصبت بعدوى جنون « فرعون » ، وكأنى بك تضع رأسك فى موضع قدميك وتسير به الى الوراء ! .. اننا لو فعلنا هذا فسنصبح اســـوأ حالا من هؤلاء الذين نفرغ مخازننا فى بطونهم دون أن نظفر منهم بكلمة

شكر واحدة ! .. ولن ينفعنا بعد هذا أحد ، حتى الجعران نفسه ! ..
وأكثر من هذا حماقة وخطل رأى ، اعطاؤك « حورمحب » نصف ما نملك من الحبوب ، وهو الذى أقرضناه الذهب من قبل ولم يؤد لنا منه حتى اليوم قليلا أو كثيرا ، وكلما وجهت اليه فى ذلك رسالة أجابنى متوقحا كأننى أستجديه ، متجاهلا ما كان قد وعد به من وفاء هذا الدين زائدا فوائده ، فهو ماكر مخادع ، يلين عند الحاجة ويشتد بعد قضائها ... وانه عندى لأسوء أخلاقا من اللصوص ! ..

ورآنى « كابتاح » لا أحفل بكلامه ، فاستطرد قائلا : مادمت تصر على رأيك هذا فانى سأنفذه ، كارها ، فليس من حقى ان أخالفه ، ولكن يجب ألا تنسى أننى قلت ، وسأظل أقول ، انه تصرف غير حكيم سيصير بنا الى فقر محتوم ! .. وتركنا عائدا الى الأرقاء والحمالين الذين احتشدت بهم الحانة ، وأخذ يتملقهم ويساومهم فى شراء الأدعية المقدسة والأمتعة الثمينة التى سرقوها من المعابد ! ..

وخرجنا ، أنا و « تحوتمس » لنجول فى المدينة ، ونتلمس مكانا نؤدى فيه العمل الذى جئنا له ، فالفينا الشوارع خالية ، ودور الاشراف قد أغلقت عليهم حيث لاذوا بها وأقاموا فيها ، وأحكموا أرتاجها من الداخل ، خوفا على حياتهم وأحوالهم ! .. وكانت المعابد التى اتخذها الكهنة ملجأ لهم قد اندلعت فيها النيران ، وانتهب الناهبون كل ماوصلت اليه أيديهم منها ، فدخلنا الى ما لم تكن النيران قد أتت عليه من أبنيتها ولقينا هناك بعض المؤمنين بفرعون والهه ، وكانوا يقومون بالعمل نفسه الذى أمرنا به ، فرحنا معهم نهوى بفئوسنا ومطارقنا على كل مانلقاه من تماثيل وأحجار تحمل اسم « آمون » ! ..

وظللنا على هذا أياما ، وكنا فى كل يوم نزداد نشاطا وتحمسا فى عملنا عن اليوم الذى قبله ، وما كنا كذلك الا لأن هذا هو العمل الوحيد الذى يستغرق وقتنا ويصرف أنظارنا عن المآسى الفادحة التى كانت تطم وتستشرى حولنا ! .

كانت المدينة تعج بالجوع والفقر ، كما كانت مسرحا كبيرا للنهب والسلب ، فهؤلاء الأرقاء الذين تحرروا من عبوديتهم ، قد جمعوا فلولهم ورسموا خطط الاغارة على بيوت الأغنياء ، وانطلقوا وفق هذه الخطط المرسومة ، ليستولوا على ما يقعون عليه من أقوات وزيوت وثروات ، ثم يقتسمونها فيما بينهم ! .. وكان « كابتاح » قد استأجر رجالا ، فطحنوا

القمح وصنعوا الخبز ، ولكن الناس كانوا يتخطفون الخبز قبل توزيعه وهم يقولون : هذا خبز الفقراء الذى سرق منهم وحرموه ، فمن العدل أن يعود اليهم ! ٠٠ ولم يذكر واحد منهم اسمي مادحا ، لأنه لايعرف مصدر الخبز ولا الغرض الذى وجهته اليه ، وهكذا ضاعت الحقيقة فى غمار الفوضى ، ولم ابلغ منها الغاية التى استهدفتها ، واصبحت فقيرا ولما ينقض شهر واحد ! ٠٠

ومضت على هذه الحال أربعون يوما ، كانت كأحلك لياليها ظلاما ، تفاقم خلالها الاضطراب وفسدت الأمور ، واختلت الموازين ، وفقد الذين كانوا يدخرون الذهب والفضة ، ويتكاثرون بالغنى والثراء ، كل ما كانوا يملكونه ، واضطرت زوجاتهم الى بيع مابقى لهن من جواهر الأرقاء بالثمن البخس يشترين به خبزا ، وأصبحوا بعد هذا يتسولون هائمين فى الشوارع بحثا عن طعام يقيم أودهم ويدفع غائلة الجوع عن أطفالهم !٠٠

وفى اليوم الأخير جاء « كابتاح » الى منزلى مستخفيا بالظلام ، وقال لى : لقد حان الوقت ـ ياسيدى ـ لترحل هاربا بنفسك من الشر المخيف الذى سيقع لا محالة ! ٠٠ ان مملكة « آتون » على وشك الانهيار وبعد قليل ستذهب بفوضاها وكوارثها ، ويجيىء فى أعقابها النظام مؤيدا بقوة القانون ، وعلى رأسه كهنة « آمون » ولكنهم فى سبيل العودة بالبلاد الى ما كانت عليه من قبل ، وبدعوى تحريرها من الدماء والارواح الشريرة التى طغت عليها ، سينكلون ، أشد تنكيل ، برءوس العهد القائم وأذنابه على السواء ، وستزداد بذلك بطون التماسيح امتلاء وشبعا ! ٠٠

فقلت له : من أين لك علم هذا ؟! ٠٠

فأجابنى فى سذاجة : علمته ، وأنا على ثقة منه ، ذلك أنى بقيت مخلصا « لآمون » ، فلم يضعف ايمانى به ، وكنت أمارس عبادتى له سرا ! ٠٠ ولم تنقطع صلتى بالكهنة ، وكثيرا ماكنت أقرضهم المال ، وكانوا لا يمطلوننى فى الوفاء به ، ويزيدون عليه أرباحا كثيرة ٠ ومن طريق هذه المعاملات التى وثقت صلتى بهم ، علمت أن موثقا قد انعقد بينهم وبين الكاهن « آى » ، ليدير الامر على الوجه الذى يحقق مبتغاهم ، وقد أخذ عليهم عهدا أن يحفظوا حياته ، وهم من جانبهم يتولون الآن حراسته بطريقتهم الخاصة ! ٠٠ وقد جرى فى هذا المجرى نفسه كبار المصريين ، فواثقوا الكهنة وعاهدوهم ٠ واستعدادا لليوم الرهيب استقدم

الكهنة رجالا كثـــيرين أشداء من أراضى « الكوش » كمــا استقدموا الشردانيين الذين كانوا يعبثون في الأقاليم وينهبونها ، وأجروا عليهم جميعا أرزاقا وأجورا • وهؤلاء وأولئك في انتظار اشـــارة بالعمل فى الســـاعة التى يحددها الكهنة لهم ؟ •• فذلك هو الواقــع يا سيدى ، ومرة ثانيةستدور الطواحين ، ولكن دقيقها فيهذه المرة الثانية سيتحول خبزا باسم « أمــون » !•• فلن يكون هنــاك يومئــذ شيء يحمــل اسم « آتون » • وانى ، وأصدقك القول ، غير آسف على انقضاء عهدهوزوال سلطانه ، فقد سئمت هذه الحياة المضطربة الملوثة بالدماء على الرغم من أننى أصبت خلالها ثراء كبيرا •

وفى قلق ، قلت له : ان فرعون « أخنـــاتون » لن يوافق عـــلى ذلك ! ••

ودعك « كابتاح » عينه المفقوءة بسبابته وقال : ذلك اذا كانوا سيرجعون الى رأيه في تدبيرهم ، ولن يكون هذا ! •• فليس الأمر الا إنتقاضا عليه • ومدينة « أخيت آتون » مشرفة من اليوم على الهلاكالذى لافكاك منه ، فعندما يقبض الثائرون بأيديهم على مقاليد الحكم سيوصدون الطرق المؤدية اليها ، ويضربون على كل من فيها حصارا محكما ، الى أن يموتوا جوعا ، وسيطلبون الى « فرعون » أن يعود الى « طيبة » ليركع ساجدا أمام « آمون » ! ••

وتمثل لى وجه « فرعون » ، فى هــذه اللحظة ، فخفق قلبى عطفا عليه ، وقلت « لكابتاح » : تلك المظالم يجب ألا تعود مرة أخرى فى هذه البلاد ! •• وعلينا أن ندفعها بكل ما فى قدرتنا أن نفعل ، والا فاننــا نكون كمن يسترعى الذئاب وهو يعلم أنها واثبة عليه ، فاتكة به لامحالة ! والآن فاستمع لى يا « كابتاح » : لقد لزم كل منا صاحبه طوال حياته ، وعشنا معا فى السراء والضراء ، وكنت واياك دائمـــا على طريق واحد ، فلنمض معا على سواء فى هذا الطريق الى نهـــايته وان كنت أنا ــ عن خطأ أو صواب ــ قد أصبحت فقيرا ، فانك لاتزال على الغنى ووفرة المال، وفى وسعنا أن ندرع به فى قمع فتنة مدمرة يثيرها الطامعون ليرتد الشعب دليلا تحت أقدامهم ! •• فاذهب واشتر ما استطعت من أسلحة وحراب وسهام وعصى ، وانك لتستطيع أن تجمع منها الكثير ، واستأجر بذهبك حراسا يكونون طوع أمرك ، وضع الأســـلحة فى أيدى الأرقاء ، وحمالى الميناء ، ليذودوا بها عن العهد الذى حررهم ورفع عنهم اصر الهوان • وقد لا أعرف ماذا تكون نتيجة هذا على وجه الدقة ، ولكنى أعرف ، فى يقين ، ان هذه فرصتنا التى لن تسنح مرة أخرى ، لنؤدى بها عملا ، لا مندوحة

عن أدائه ، دفاعا عن حياتنا التي هي بضعة من كيان العهد القائم ! ٠٠ ولا تأخذنك الطيرة والتشــاؤم مما أدعوك اليه ، بل ينبغي أن تثق بأن الفتنة الحمراء التي يدبرها الطامعون في الظلام ستمنى بالفشل ، وسينكب فيها أصحابها على وجوههم ، فتأكلهم النار التي أشعلوها بأيديهم ، جزاء وفاقا ! ٠٠ ولا يخيفنك ما ترى اليــوم من اصطراع النــاس واعتراك الطبقات ، فتلك حال تقترن دائمــا بالانقلابات الاجتماعية التي تكون بطبيعتها نضالا بين حق وباطل ، وعدل وظلم ، وستنحسر دواجيها ، وبعد قليل يسفر الصبح وينبلج النور ويلتقي الناس على صفاء ، فتســتقر الأمور وتمضي الحياة في مجراها الطبيعي الهادئ ٠ ولا تحسبن الشعب ــ والكثرة الكاثرة فيه من الفقراء ــ سيرضى لنفسه النكول عن طريق الحرية بعد أن عاش فيها واستمرأ مذاقها ! ٠٠ وعبثا تظن أن هؤلاء مرتدون الى ما كانوا فيه من شظف العيش وذل الفــاقة بعد أن وزعت عليهم أراضي الأغنياء ، ومكن لهم في أموالهم وبيوتهم ذات الحدائق الوارفة ، وتقلبوا هم وأولادهم في مطارف هذه الحياة الهانئة ! ٠٠

واعترت « كابتاح » رعشة ، وجاهد نفسه ليقول : لقد دخلت من عمري في شيخوخة لا تطيق عملا من هذه الأعمال الشاقة التي لا مهرب منها حينما يستقر الأمر لهؤلاء الذين أصبحوا أحرارا ! ٠٠ وانك لتراهم ، ملء عينيك ، يعلقون الرجال النابهين في الطواحين ، ويســتخدمون زوجاتهم وبناتهم في بيوت الملذات ! ٠٠ وما في هذا من خير أبدا ! ٠٠ ولا قوة لي على مسايرتك في الطريق الذي تشير به ، فدعني يا سيدي ، وكفاني ما لقيت في مصاحبتك من أهوال ٠ وان قلبي ليخفق مضطربا كلما تذكرت ذلك البيت المظلم الذي كان واحدا من أحداث كثيرة ، عانيت منها معك أشد معاناة خلال تلك الرحلة ٠ وانما أذكر الآن هذا الحادث بذاته ، لانه ينطوي على مغامرة سيئة تشبه تماما هذه المغامرة التي تحاول أن تقذف بنفسك فيها الى التهلكة خلال هذه العواصف الهوجاء ! ٠٠ واقتحامك ، فيما مضى ، ذلك البيت المظلم المجهول ، غير متفطن لما يربض فيه من موت شنيع كان يتلقف العذارى والفتيان باسم اله « كريت » ، لا يختلف في نظري عن اقتحامك غمار الفتنة الشائعة اليوم ، انحيازا الى جانب اله فرعون « أخناتون » ، وغير متفطن ــ مرة أخرى ــ لما وراء ذلك من خطر محقق على حياتك ! ٠٠ لقد كان اله « كريت » أسطورة كاذبة ، كذلك اله « فرعون » ! ٠٠ والعاقل من وعظته التجارب يا سيدي ! ٠ وأخيرا فلن أتبعك الى مثل هذا المخاض المتلف ، لأني لا أحب أن أرى وجه « مينوتوروس » في دور جديد ! ٠٠

وكان « كابتاح » يصطنع الهدوء فى كلامه هذا ، محاولا ارجاعى عن خطتى ، ثم بدا له أن يأخذنى فى ذلك عن طريق العاطفة ، فاستطرد قائلا : على أنك اذا لم تكن تفكر فى مصيرك ومصيرى ، فمن الحق عليك أن تفكر فى مصير « ميرييت » والصغير « تحوتح » الذى يحبك أكثر مما يحب طفل أباه ! .. فكر فيهما قبل أن تفكر فى أى شىء آخر ، وابحث لهما عن المكان الخفى الذى يحفظ عليهما الحياة ، فلن تكون حياة انسان بمأمن حينما تدور طواحين « آمون » مرة ثانية ! ..

قلت له مشتدا : هراء ما تقول ! .. ان « ميرييت » و « تحوتح » ليقيمان بمنزلى اقامة أمن وسلام ... ولست أخاف عليهما من أحد ، لأن « آتون » منتصر ، ظاهر على أعدائه ، وينبغى أن ينتصر وأن يظهر ! .. والا فلا قيمة للحياة متلاشية فى طوفان الظلم والاستبداد ! .. وقد أيقن الناس وآمنوا بعقولهم التى لم تفارقهم بعد ، أن « فرعون » يريد الخير لهم ويعمل له ، وما هم بمرتدين الى الظلام والخوف بعد أن عاشوا فى النور والأمن !.. وهذا البيت المظلم الذى تذكرنى به ، لهو هنا بيت «آمون» لا بيت «آتون» !.. ولن يستطيع قلة من الأغنياء الحاقدين والمأجورين من الأفاقين أن ينالوه بسوء ، فالشعب دونهم وراءه ، يؤازره ويذود عنه ، فى قوة وايمان وصدق عقيدة ! ..

وقال «كابتاح» معقبا : لم أقل الا ما رأيت من الوفاء لك أن أقوله ، وهو سر كان يجب الا أبوح به ، لأنه مما لا أملكه ، ولكنى لم أستطع كتمانه عنك ، لتستبين سبيل الرشد والسلامة فيما أنت مقبل عليه من أحداث جسام ، غير أنك فى بلبلة أفكارك تجتوى نصحى وتأباه ، فلك من الأمر — اذن — ما تشاء ، ولا تعذلنى يا سيدى اذا ترديت بعد ذلك فى مهاوى رأيك الفائل ، وأصارك الفشل الى اليأس القاتل . أما أنا فسواء عندى الحياة والموت ، فقد كنت من الأرقاء ، وعشت فى الرق طويلا ، فليس يضيرنى أن أعود اليه ، وما من أحد يأسى على حيا أو ميتا ، فلا زوجة لى ولا ولد . وعلى هذا فانى سأتبعك فى طريقك الذى تريد أن تمضى فيه ، وان كنت لا أنفك معتقدا أنه طريق الشوك والقتاد ، وسبيل الروع والخطر ! .. وما أرجو الا أن تأذن لى فى جرة النبيذ تكون ثالثتنا فى هذا الطريق الموحش .

وفى هذا اليوم ، لم ينقطع « كابتاح » عن شراب النبيذ ، يعب منه عبا متداركا ، كأنما يختزنه فى جوفه ، وعلى فرط ما أصاب منه ، لم يتلبث فى تنفيذ أمرى ، فاشترى الأسلحة ووزعها على الحمالين فى الميناء ،

ودعا رؤساء الحراس سرا الى الحانة وأجزل لهم الرشوة ليأخذوا مكانهم الى جانب العامة والفقراء ، ضد « الأموليين » والأغنياء ! ..

وبلغت الفوضى بعد ذلك أقصى المدى فى « طيبة » ، فالجوع يفشو ويشيع ، والشغب يعم ويزداد ، والرعب يتفاقم ويستفحل ، والناس يضطربون فى متاهة حالكة السواد . ولم يعد ثم فرق - فى هذه الحمى الطاغية - بين حاملى صليب الحياة رمز « آتون » وحاملى القرن رمز « آمون » ، فالأمر فى المدينة اذ ذاك ليس أمر المنافحة عن عقيدة ، أو الملاحاة فى دين ، وانما هو أمر السلاح القاتل ، والقبضة الضاربة والصوت المدوى . واذا رأى انسان رغيفا فى يد غيره ، اختطفه منه قائلا : أعطنيه يا أخى ! .. ألسنا سواء فى شرعة « آتون » ؟! وكذلك اذا ارتدى انسان لباسا فاخرا من الكتان ، اعترضه آخر فانتزعه منه بهذه الطريقة وبهذه العبارة ! .. وأصبح من المناظر المألوفة أن يساق الرجل الذى يحمل فى عنقه رمز «آمون» الى الطاحون ليدير أحجاره ، أو الى البيوت المحترقة ليرفع أنقاضها ، أو يجهز عليه ضربا بالحراب أو بالعصى ثم تلقى جثته الى التماسيح المتلمظة فى جوف الماء ! ..

هكذا تطورت الحال واشتدت مضاعفاتها خلال ستين يوما ، واستنفد سلطان « آتون » ، آخر الأمر ، طاقته ، حيث أقبلت فصائل السود من بلاد « الكوش » و « الشردانيين » الذين استأجرهم « آى » ، فأحاطوا بالمدينة احاطة السوار بالمعصم ، وأغلقوا منافذها على سائر من فيها ، وتجمعت فى ذلك الحين عصابات « آمون » فى جميع أنحائها ، مزودة من الكهنة بالأسلحة التى أخرجوها من الأقبية ، وتجهز الآخرون من أتباعهم بالعصى التى شحذوا أطرافها صهرا فى النار ، وانضم الى هؤلاء كثير ممن كانوا قد آثروا العزلة وسالموا الجانبين ، قائلين : نحن مع « آمون » لأننا نريد النظام والطمأنينة ، وقد بلينا من « آتون » أشد البلاء ، وصبرنا على كوارث أتباعه حتى لم يبق فى قوس صبرنا منزع ! ..

- ٤ -

ولكنى أنا « سنوحى » ، أخذت أدعو الناس الى الثبات والصمود ، قائلا لهم : لا تهنوا ولا تضعفوا ! .. قد يكون هناك خطأ غلب الصواب وأخفاه فى هذه الأيام ، وقد يكون كثيرون وقعوا فى هذا الخطأ وراحوا ضحيته ، ولكن هذا لا ينفى الحق الذى يجب أن تؤمنوا به ، وهو : أن

« آمون » في سائر الاحوال اله الظلام والرعب ، وأنه يستعبد الناس في جهالتهم ! ٠٠ ولا عكذا « آتون » !٠٠ انه وحده اله الخير والرحمة ، وليس سواه من اله يعبد ، وهو قائم في أنفسنا وفيما حولنا وفي كل كائن من الكائنات ، فقاتلوا من أجله ، واصبروا وصابروا ، أيها الفقراء والأرقاء والحمالون والخدم ، ولا تخشوا شـــيئا ، فما عندكم من شيء تخشون ضياعه !٠٠ فان لم تفعلوا فقد انتصر « آمون » وانقلبتم بنصره عبيدا أذلاء ، يسومكم العذاب والهوان والموت !٠٠ انصروا فرعون « أخناتون » ، ومكنوا له في أرضكم وفي قلوبكم لتحيوا وتسعدوا ، فان نورا لم ينبلج في هذه المملكة مثل نوره ، وانه لكلمة الاله في هذه الحياة الدنيا ، فباسمه يدعو ، وبلســانه ينطق ، وبارادته يعمل ، وهذه هي فرصتكم الوحيدة لخلاص أنفسكم وخلاص العالم معكم ، ولن تجدوها مرة أخرى اذا أفلتت اليوم من أيديكم ! ٠٠

ولكن الفقراء والأرقاء والحمالين والخدم كانوا يستمعون لخطابي وهم يقهقهون في صخب ويقولون لي : ماذا اعتراك يا « سنوحي » حتى تتحدث الينا هكذا عن « آتون » ، حاملا عصـــاك كما لو كنت رجل قتال وقائد ثورة ؟! ألق العصا جانبا فانها ليست من عمل الطبيب الطيب الذي طالما ضمد جروحنا وداوى أمراضنا من غير أن يتقاضانا أجرا ! ٠٠ ولو رآها اتباع « آمون » في يدك ، فانهم بلا ريب سينقضون عليك ويذبحونك ، ومالك من قدرة تنجيك منهم ! ٠٠ اننا مشفقون عليك لما سلف لك من فضل علينا ! ٠٠ وسواء عندنا كل الآلهة وكل الفراعين ، ولا يعنينا أن يكون الأمر لهذا أو لذاك ، وانما يعنينا أن نظل على ما صرنا اليه من حرية وانطلاق ، وقد قضينا هذه الأيام في الاستمتاع بما لم يكن يخطر لنـــا على بال ، فوضعنا رءوسنا على الوسائد الوثيرة ، وتناولنا أشهى الطعام والشراب في صحاف وكئوس ذهبية ، فهل تظننا تاركي هذا لنرتد الى العبودية الأولى ؟! لا ٠ لن يكون هذا وفينا بقية من حياة ٠٠ سندافع عن حقنا ، اذن ، لا عن حق « فرعون » أو اله « فرعون » ، وقد حملنـــا السلاح وتخضبت أيدينا بالدماء ، وسنمضي في هذا الى النهاية ! ٠٠

واســـتحييت من قولهم ، فالقيت هراوتي ، وعدت الى منزلي لأعد صندوق العقاقير ، فقد كان علي أن أؤدي واجبي كطبيب في هذه المعركة الدامية التي دارت رحاها عنيفة بين أهل المدينة ثلاثة أيام بلياليها ، وقد اتسع نطاقها فشملت كل مكان ، واستسلم الكثيرون لفريق « آمون » ، وفر غيرهم الى البيوت وصـــوامع الحبوب والحجرات الخلفية بالحانات فأخفوا أنفسهم فيها ! ٠٠ ولم يبق على أرض المعركة غير الأرقاء وحمالي

الميناء يقاتلون فى شـــجاعة وبسالة ، فاذا جن الليل حملوا المشاعل وواصلوا القتال على ضوئها ، وكثيرا ما كانوا يستعملونها فى اشـــعال النار بالمنازل ، وكذلك كان يفعل رجال « الكوش » والشرداثيون ، وقد اختلط الأمر عليهم فكانوا يقتلون كل من يلقونه سواء كان من شيعتهم أو من عدوهم ، وهم خلال ذلك يمعنون فى السرقة والنهب ، وكان قائدهم هو نفسه « بيبيت آتون » الذى كان قد قاد الجند فى الاغارة على معبد « آمون » تحت امرة « حورمحب » ، وأمر يومها بذبح « الآمونيين » فى شارع « رامس » ، وقد تبدل اسمه الآن فصار « بيبيت آمون » ، حيث أقامه « آى » على المعركة الحاليةالمضادة ، وقد استطاع أن يحوله منالبمين الى اليسار ، ويسخره فى تحقيق مطامعه وأهوائه ، لقاء رتبة القيادة على جيش « آمون » ! ٠٠

ووجدت لنفسى فى المعركة عملا كثيرا ، فقد كان الجرحى والمهشمة رءوسهم من الأرقاء كثيرين ، فعكفت عليهم أضمد جروحهم وأعالج رءوسهم واتخذت من حانة « ذنب التمســـاح » مكانا لعملى ٠ وقـد شاركتنى « ميرييت » فى ذلك فكانت ، بعد أن نفدت الضـــمادات ، تمزق ملابسى وملابس « كابتاح » وملابسها هى نفسها وتصنع لفائف لتضميد الجراح وربط الرءوس ٠ وكان الصغير « تحوتح » يعاوننا أيضا ، فيحمل النبيذ الى الذين كانوا فى حاجة الى تهدئة أعصابهم ! ٠٠ وقد كان رؤساء الأرقاء وقادتهم يتوافدون على الحانة أثناء المعركة ليروحوا فيها عن أنفسهم بشراب النبيذ ، وقد أخذتهم نشوة المعركة ودماؤها المهراقة ، فما ان تقع عيونهم على حتى يربتوا بأيديهم الخشنة على كتفى ويقولون لى : لقد أعددنا لك فى الميناء مكانا سريا تستطيع أن تختفى فيه يا « سنوحى » ، فما نراك راغبا فى الموت مشنوقا ومعلقا من أعقابك على الأسوار فى هذا المساء !٠٠ فهيا يا « سنوحى الى مخبئك ، فالوقت يمر مسرعا ، ولا خير فى أن تبقى هنا لتضمد جرحا سيفتح من جديد ! ٠٠ فقلت لهم : لا أحد يستطيع أن يرفع يدا فى وجهى ، فانى طبيب الحاشية الملكية ، ولست مجهولا ! ٠

وكان هذا فى تقديرهم ضربا من البلاهة والحماقة ، فضـــحكوا ساخرين بأفكارى ، واســـترسلوا فى شرابهم حتى امتلأوا ثم خرجوا عائدين الى القتال .

ومال «كابتاح» على أذنى ليقول : ان بيتك يحترق يا «سنوحى» ، وقد وقفت « ميوتى » فى وجوه مشعلى النار فيه من أنصار « آمون » فطعنوها ، وأرى أن الوقت قد حان لتدع موقف العناد والتحدى فيما

لا طائل من ورائه ، وحياتك اغلى من ان تبذلها فى علاج الأرقاء واللصوص . فاتبعنى يا سيدى الى حجرة داخلية لترتدى فيها ملابسك الفاخرة وتتزين بشارات الشرف جميعا ، استعدادا لمقابلة الكهنة والضباط ، فما من ذلك بد ، ايثارا للحياة على الموت !..

ولكننى كنت فى غمر من الذهول والاضطراب ، فقد اضنانى التعب ، واشتد بى الحزن ، وروعتنى المعركة ومناظر صرعاها ، فلم اعد اتبين الناحية التى ينعطف اليها قلبى . وتدخلت « ميرييت » فى ذعر ، وطوقت عنقى بذراعيها ، وقالت : خذ برأى « كابتاح » وانج بنفسك يا « سنوحى » ، ان لم يكن من اجل حياتك أنت ، فليكن — على الأقل — من أجلى ، أنا ، ومن أجل هذا الصغير « تحوتح » ! ..

فقلت لها ، وانا لا اعى ما اقول : لم يبق شىء فى دنياى يستحق الحياة ، ولا قيمة لدمى ، وهذه الدماء أمام عينى تجرى انهارا ، انهـا دماء أخوتى أمام « آتون » ، فكيف أتخلى عنهم فى محنة ، أنا شريكهم فيها ؟ ! كلا ! .. ولئن تهاوت مملكة « آتون » ، فان الحياة بعدها لا تطاق ولا تحتمل ! ..

قلت هذا ، ولا ادرى كيف قلته ، فقد كان قلبى ساعتها يترنح وكأنه يحتج على ذلك وينكره ؟ ! وقبل ان اراجع نفسى مستجيبا لنداء قلبى الخفى ، ورجاء « ميرييت » الحبيبة ، كان «الشردانيون» والسود يحطمون باب الحانة ثم يقتحمونها بالقوة ، يتقدمهم كاهن حليق الراس يلتمع وجهه بالزيت المقدس . وفى سرعة مذهلة جعلوا يذبحون الجرحى ويطأون الجثث باقدامهم ، فى حين أخذ الكاهن فى اخراج عيون القتلى بالقرن المقدس الذى كان يحمله ويستثير رجاله صارخا فيهم : أشعلوا النار فى هذه الحانة لتطهروها ، فليست الا كهفا من كهوف « آتون » ومثابة رجس لأتباعه !..

وروعنى اشد ترويع اننى رايتهم ، بعينى راسى يحطمون راس الصغير « تحوتح » ويذبحون « ميرييت » عندما حاولت أن تنتزعه من أيديهم !.. وقد اندفعت كالمجنون لأحول بينها وبينهم ، ولكن الكاهن عاجلنى بضربة على راسى بالقرن المقدس ، فاختنق صراخى فى حلقى ، ووقعت مغشيا على ، فلم ار شيئا مما جرى ! ..

وافقت من غشيتى لأجد نفسى ملقى فى منعطف خارج الحانة ، ولأجد من قريب لهب النار متصاعدا منها ، فقد نفذوا أمر الكاهن واحرقوها حتى صارت كومة من فحم متسعر ، ولم يكن ذلك ليستفرق

سوى لحظات قصيرة اذ كانت مشيدة من اخشاب ، فالتهمتها النار التهاما سريعا . وكان الجند ، بعد انصراف الكاهن ، قد انكبوا على ما فى الحانة من نبيذ ، فأفرغوه فى بطونهم عن آخره ، ثم اشعلوا فيها النار قبل ان يخرجوا منها ليتابعوا القتال !..

وحاولت أن انهض على ساقى ، فلم أقو على ذلك ، فرحت أزحف على يدى وركبتى فى اتجاه الباب الذى كان لا يزال يتأجج بالنار ، ودسست نفسى وسط الركام والانقاض المتلظية ، باحثا عن « ميريت » و « تحوتح » ، غير مبال بشظايا النار التى تساقطت على شعرى وعلقت بملابسى . ورآنى « كابتاح » الذى كان لا يزال يقف غير بعيد ليشهد آماله تتهاوى وتحترق !.. فأسرع الى ، وهو يصرخ وينشج بالبكاء ، وجرنى بعيدا وقلبنى فى التراب حتى انطفأت النار المشتعلة بشعر رأسى وملابسى ! .. وشهدنى على تلك الحال جنود فى تجوالهم ، فأخذوا يتضاحكون فى ازدراء وسخرية ، وقال لهم « كابتاح » : انه لمجنون صغير ، وقد ضربه الكاهن على راسه بالقرن المقدس ، وهذا لا شك ، خطأ سيلقى عليه الجزاء الحق فى الوقت المناسب ؛ فان صاحبى هذا الذى ترونه ، طبيب فرعون ، وكاهن من المرتبة الأولى ، وقد اضطر فى ثورة الغوغاء أن يلبس مثل ملابسهم القذرة ، مخفيا شارات مركزه الكبير ، اتقاء لشرهم ! .. فليس من اللائق أن يرفع انسان يده فى وجهه ، فكيف بالاعتداء عليه ضربا بالقرون ، أو حرقا بالنيران ؟ ! ..

واستمعوا الى كلمات « كابتاح » ثم مضوا فى سبيلهم مسترسلين فى ضحكهم ، فى حين كنت فى مكانى على التراب ، أعتمد رأسى بيدى المحترقتين وأذرف الدمع حارا ، وأهتف باسم « ميريت » باكيا متفجعا !..

وفى غضب ، قال « كابتاح » : صه ! .. ايها الأحمق ، فكفانا ما جلبت علينا من النحس والتعاسة بطيشك وخرق رأيك ! ..

وعندما هدأت اعصابى الثائرة بعض الهدوء ، أقترب منى « كابتاح » وواصل حديثه قائلا : لعل الذى حدث ، على شناعته ، يعيد اليك الصواب يا سيدى ، فقد انكشفت به الأمور على حقيقتها ، ورأيته منها ما لم تكن تصدقنى فى توقع حدوثه . وانى لمخبرك الآن بسر يؤسفنى انك تعلمه متأخرا ، ذلك أن الصغير « تحوتح » لم يكن سوى ابنك من « ميريت » ، اذ كان ثمرة اتصالك بها ، ولم تشأ هى أن

تنبئك بهذا بدافع من كبـــريائها !.. وكانت لا تجد من سلوكك معها مشـــجعا على ذلك ، فقــد تركتها وحيـــدة واثرت عليها فرعون « اخناتون » !.. ولعلها لم تكن تريد أن تشغلك ، بنفسها وبابنك منها ، عما أثقلت به نفسك من أعمال « فرعون » واعباء خدمته ، مرجئة هذا الى الوقت الذى تفرغ فيه الى حياة الأسرة الهادئة ، ولو كنت فطنــا صفى القلب لأدركت هذه الحقيقة من تلقاء نفسك ، فقد كانت سمات الطفل من سماتك ، وعيناه كعينيك ، ودمه من دمك ، وكنت انا كلفا به ، شغفا بحبه . ولهذا تمنيت ان اجود بحياتى فداء له ، وليت ذلك كان مستطاعا ، فهل عرفت الآن كيف كانت نهاية حماقتك وجنونك ؟ ! لقد ذهب ولدك الطفل العــــزيز و « ميريبت » الوفية المخلصة ، ضحية بريئة ، وكنت انت السبب ؟ !

فصرخت كالمصعوق: يا لهول ما اسمع!.. ماذا تقول يا «كابتاح» ؟! ماذا تقول ؟!..

وقبل ان يجيب ، أقعيت على التراب ، متزايل الأعصاب ، ذاهلا لا اكاد أسمع أو أرى ! ..

وكما يرى النائم المتعب ، اشد التعب ، تعذبت أفكارى فى رؤى قاسية شائهة ، فهذه حانة « ذنب التمساح » التى كانت مراح سعادتى ومرتع هناءتى ، تلتهمها النــار التهاما تحت عينى ، وتلتهم بداخلهــا ولدى ، فلذة كبـــدى ، و « ميريبت » حبيبتى وأم ولدى ! .. وهأنذا بمقربة منهما ، اشـــهد ميتتهما الفظيعة وأرى جثتيهما العزيزتين بين جثث الأرقاء ، ولا استطيع أن اصنع شيئا ! .. لا أستطيع ان أواريهما محصنين للحياة الابدية ! .. فيـــالها من كارثة تهون الى جانبها كل كوارث الدنيا ! ..

وحملنى « كابتاح » الى « آى » و « بيبيت آمون » ، اذ كان القتال قد انتهى على ما يريدان ، ولم يبق منه الا نيران لا تزال تضطرم ويشيع لهيبها فى حى الفقراء . وقد كانا وقتئذ يجلسان مجلس القضاء برصيف الميناء على ارائك ذهبية ، والجنود يقدمون عليهما بالأسرى لمحاكمتهم ، فيحكمان على كل من قبض عليه حاملا سلاحا بتعليقه من عقبيه على الأسوار ، وعلى كل متهم بسرقة ، بالقائه فى النهر طعاما للتماسيح ،

وعلى كل من كان يحمل صليب الحياة « رمز آتون » بالجلد والأشغال الشاقة المؤبدة . أما النساء ، فكن متاعا مباحا للجنـــود ! .. وسيق الاطفال الى معابد « آمون » لتنشئتهم فيها ! .

بهذا كان يجرى حكم « آى » وقائد الجند ، صارما قاســـيا ، بلا رحمة ولا شفقة ! ..

وكان « آى » فى صرامته وقسوته ، وهو يقضى بالموت والعذاب ، يقول على مسمع من الجميع : انها دماء فاسدة ينبغى ان نطهر منها ارض «مصر» !.. وهو بهذا يطمع فى ارضاء الكهنة وكسب مودتهم!..

وكذلك كان القائد « بيبيت آمون » عنيفا ثائرا لأن الأرقاء اقتحموا بيته وحطموا أقفاص قططه وانتهبوا غذاءها من اللبن ، فجاعت وانقلبت وداعتها توحشا ! ..

وفى الوقت الذى كانت تصدر فيه هذه الأحكام، ويعلق فيه الناس على الأسوار ، أو يلقى بهم فى النهر ، أو يساقون الى المنافى والسجون ، كان الكهنة ، بين التهليل والهتاف ومظاهر الابتهـــاج ، يقدمون أعظم القرابين الى تمثال « آمون » الذى أعادوه الى حيث كان فى معبده ! ..

وصدر القرار الأخير ، قاضيا بتعيين « بيبيت آمون » حاكما على « طيبـــة » ، وتكليف « آى » بالذهاب من فوره الى « أخيت آتون » لارغام « فرعون » على التنازل عن العرش ...

وقال لى « آى » : لقد اخترتك رفيقا لى يا « سنوحى » ! .. فوجودك معى فى هذه الرحلة يبدو ضروريا لتيسر ما قد يستعصى من أمر « فرعون » ، فانك طبيبه ، وستقنعه ، اذا ما احتاج الى اقناع ، بأن سلامته رهن ارادتى . ..

فقلت له : سأرافقك يا « آى » الى هناك ، ومن المحقق اننى ساكون سعيدا بذلك ! ..

ولم يفهم ماذا أعنى ! ..

وفيما كنا ، أنا و « آى » نأخذ طريقنا مبحرين الى «أخيت آتون»، كانت أنباء هـذه الأحداث قد ترامت الى « حورمحب » فى « تانيس » ، فراح على عجل يجهز سفينته الحربيـة ، ويستقلها مبحرا هو الآخر الى مدينة « فرعون » ، ليدرك فيها « آى » ويفسد عليه خطته · ولم يجد فى طول طريقه عائقا يعوق سيره السريع ، اذ كانت المدن والقرى على جانبى النهر هادئة خالية من القلاقل والاضطرابات ، وكان قد مكن لنفسه بين جنوده ، بالعفو عن الأرقاء الذين ألقوا سلاحهم ، وتجاوزه عن عقاب من إسـتبدلوا بمحض رغبتهم « صليب آتون » بقرن « آمون » · وقد وقع هذا من نفوسهم جميعا أحسن وقع ، فأحبوه وأثنوا عليه واجتمعوا على طاعته ، وما كان فى الواقع يفعل ذلك الا عن مجرد الرغبة فى الاحتفاظ بهم جنودا محاربين صـالحين للقتال !·· وبهـذا كان قادما على « أخيت آتون » قائدا قويا معتزا بجنوده ! ..

وكانت « أخيت آتون » ، على بعدها من « طيبة » مطمح أنظـار كهنة « آمون » ومسرح تفكيرهم ، والمرصد الذى يرقبون فيه اتجـاهات الرياح · ولهذا أعلنوا بين الناس أنها مدينة ملعونة ، وأقاموا حراسـة شديدة على جميع الطرق الموصلة اليها · وكل من يفد مهاجرا منها الى « طيبة » كان يخير بين أمرين : اما أن يذبح ذبح الشاة ، واما أن يتطهر من اللعنة بتقديم القرابين الى « آمون » ! ·· واحكاما لخطة العزل الذى فرضوه على « أخيت آتون » ، أغلقوا النهر بالسلاسل النحاسية ، حتى لا يتخذ أحد منه طريقا الى الفرار ! ··

ووصلنا الى « أخيت آتون » فراعنى منها أن سكون الموت يخيم على آفاقها وشوارعها ، وأن أزهار حدائقها التى كانت تتألق نضارة قد أدركها الذبول ، وقد حال لون الحشـائش الخضراء ، الى اصفرار موحش ، ولم تعد هناك تلك الطيور التى كانت تتراقص على أغصان الاشجار مغردة · وكانت ترتسم على وجوه الناس علامات اليأس كما لو كانوا يرون الموت مقبلا عليهم ! ..

وعرفت ، بعد، أن مبعث هذه الكآبة الشاملة ، وهذا الجمودالمطبق، هو ماانتهى الى أهلها من أنباء ظهور «آمون» ، واعلان اللعنة على المدينة ، فأيأسهم ذلك من حياتهم ، وكفوا أيديهم عن العمل ، وراحوا لا يفكرون فى شىء أكثر مما يفكرون فى الخلاص من اللعنـة ، وكثير من الأغنياء

هجروا دورهم وتركوها بكل ما فيها هاربين من المدينـة • وكان من أثر هذا أن أمحلت الزهور والاشجار والمزارع ، ونفقت الكلاب والجياد جوعا، وانتشرت على المدينة الجميلة سحب سوداء وظلمات داجية !••

وكان فرعون « أخناتون » وأفراد أسرته وخدمه الاكثر ولاء له قد لزموا جميعا البيت الذهبى وأقام معهم فيه كبار السن من رجال حاشية « فرعون » الذين لم يكن بمستطاعهم العيش بعيدا عنه !•• وكانوا الى وقت وصولنا لايعرفون شيئا على حقيقته مماجرى فى « طيبة » فقد انقطع البريد عن « أخيت آتون » منذ شهر مضى ، وفرض عليهم — خلال اقامتهم بالبيت الذهبى — أن يجبروا على ارادة « فرعون » فى طعامهم ، فلا يأكلون منه الا ثريد الفقراء والخبز جافا بغير أدام • وكان المترفون منهم لا يطيقون هذا فيتسللون الى حيث يصطادون سمكا من النهر ويأكلونه سرا !••

ورغب الى « آى » فى أن أذهب ، قبله ، الى « فرعـون » ، لأخبره بما حدث ، فانى صديق « فرعون » وموضع ثقته ، وهو يتفتح لى أكثر ممـا يتفتح لغيرى ، فذهبت اليـه ، متجمد الحواس ، مغلق القـلب ، مبهم الشعور ، فلست بالفرح ، ولسـت بالحزين !•• فما ان رآنى حتى رفع وجهه الناحل الشاحب اللون ونظر الى بعينيه الخابيتين كأنهما عينا ميت، وقال : هل أنت الرجل الوحيد الذى يعود يا « سنوحى » ؟!•• وأين ، اذن ، الآخرون المخلصون لى ، وأولئك الذين أحببتهم وأحبونى ؟!•

فقلت له : لقـد وقعت الامور على غير ما تريد يا « فرعون » ، وعاد الآلهة السـالفون الى حكم « مصر » ثانية • وفى « طيبة » يقدم الكهنة القرابين « لآمون » وسـط مظاهر أفراح يتسابق النـاس الى المشاركة فيها ، وهنـاك يلعنونك ويلعنون مدينتـك ، ويمحون اسـمك من جميع النقوش !••

وحـرك « فرعون » يده معترضـا فى قلق وقال : ما سـألتك عن « طيبة » وأحداثهـا !•• انما سألتك عن أحبـائى والمخلصين لى ، فأين هم ؟!••

فقلت متهكما : انهم هنـا فى قرب قريب منك ، فزوجتك الجميلة « نفرتيتى » لا تزال بموضعها سيدة قصرك ، وحولك بناتكما الزهرات اليانعة !•• وهذا « سيكينير » وكذلك « توت » ، ليس أحد منهما بمبعدة عنكم • فأولهما يتلهى بصـيد السمك من النهر ، وثانيهما يتسـلى بلعبه كالعادة ، وهؤلاء هم أحباؤك المخلصون ، فما عنايتك بغيرهم ؟!••

قال ، وكأنه لم يسمع شيئا مما قلت : أين صديقى « تحوتمس »؟! انه أيضا صديقك يا « سنوحى » !٠٠ وقد أحببناه كلانا ، أين هو ذلك الفنان البارع الذى انبعثت الحياة ، من يديه ، فى الاحجار ؟!

فأجبته قائلا : لقد مات يا فرعون « أخناتون » !٠٠ نعم ٠ مات «تحوتمس» الصديق الفنان من أجلك وفى سبيلك !٠٠ فقد رشقه السود بحرابهم وألقوا بجثته فى النهر ليأكلهـا السمك والتماسيح ، وجريرته التى عوقب عليها هذا العقاب هى أنه كان يحمل شارة « آتون » ويهتف باسمك !٠٠ لقد كان حقا من المخلصين لك ، وان كان يوما قد بصق على وسادة فراشك !٠٠ ولا خير فى أن تفكر فى ذلك الآن ، فقد انتهى من هذه الدنيا وأصبح مصنعه خاويا الا من عواء ابن آوى !٠٠

ومرة أخرى ، حرك « فرعون » يده ومر بها على وجهه كأنما يمسح عنه نسيج عنكبوت ، واستطرد ينطق بأسماء أحبائه واحدا بعد آخر ، وكان الموت قد تلقف أكثرهم فى معركة « طيبة » ، فكنت أذكر له مصير كل منهم ، وأقول له : ٠٠٠ وقد تهاوت آخر الامر قلاع «آتون» وحصونه، وانهارت مملكته فى هذه الارض ، وقامت من جديد مملكة « آمون »، وهو الذى يحكم الآن !٠٠

ومد « أخناتون » بصره الى أمام ، وقد اختلجت أطرافه وامتقع لونه ، ثم قال : نعم ٠ نعم ، انى أعرف ذلك ! ٠٠ لقد أنبئت به فى أحلامى ، وليس للمملكة الدائمة حدود أرضية على أية حال ، وسيرتد كل شيء الى ما كان عليه من قبل ، وسيتردى العالم فى هوة المخاوف والاحقاد والخطايا ، وذلك أمر فظيع ، أراد « آتون » ألا يكون ، وجاهدت بكل ما أمدنى من قوة لانفاذ ارادته !٠٠ فليتنى مت قبل هذا ، بل ليتنى لم أولد لأرى الحق منتكسا ، والباطل ظافرا ، والشرور فاشية فى الارض !٠٠

وأثارنى خلطه وغباؤه ، فقلت له مغضبا : وماذا رأيت من هذه الشرور أيها الفرعون «أخناتون» ؟!٠ انك لم تر منها ، وأنت فى انطوائك هذا ، الا أقل القليل ، بل لعلك لم تر ولم تسمع الا ما تتصوره بخيالك المريض اختلافا على عقيدة دينية بين الدعاة القلائل من الجانبين ، فكيف لو أنك رأيتها حربا مسلحة يقتتل فيها الناس جميعا ، نازعا كل منهم الى هواه الخاص ، يقتل بعضهم بعضا فى وحشية لا أثر فيها لرحمة أو شفقة أو دين !٠٠ إنك لم تر شيئا من هذه الدماء المسفوحة ، ولا من هؤلاء القتلى المجندلين ، ولم تشهد دم ابنك مراقا بين يديك ، ولم يتصدع قلبك

اسى لصرخات أنصارك وأحبائك وهم يخرون صرعى الموت فى كل مكان !٠٠ فما تقوله أيها الفرعون ليس الا تخليطا وهذيانا !٠٠

فقال ، وقد أضناه التعب : اليك عنى ، اذن ، يا « سنوحى » ، ما دمت ـ كما ترانى ـ شرا !٠٠ اليك عنى ، حتى لا تضار ولا تألم بسببى !٠٠ وما بى من حاجة اليك ، فقد سئمت رؤية وجهك ، وكرهت أن أرى وجوه الناس جميعا ، فما أرى فيهم الا وجوه وحوش مفترسة ، وحيوانات ضارية !٠٠

ولكنى قلت له ، وأنا أجلس القرفصاء بين يديه : لا يا «فرعون»!٠٠ فالامر لم يبلغ نهايته بعد ، ولن يضيرنى القرب منك ، ولا تطاوعنى نفسى على الابتعاد عنك ٠ وقد فاضت كأسى، فماذا لو زاد مفاضها ؟! وانى لمخبرك الآن ، أن « آى » قادم اليك ، وهناك على الحدود الشمالية لمدينتك ، يتردد صوت نفير « حورمحب » ايذانا بقدومه هو الآخر ! ٠٠

فشاعت فى وجهه ابتسامة خفيفة وقال مادا يديه : « آى » و «حور محب» ، رجلا الجريمة والعنف ، هما اليوم الوحيدان اللذان قضى على ألا أرى غير وجهيهما بعد أن فقدت كل أحبائى !٠٠

وران علينا بعد ذلك صمت عميق ، لم نكن نسمع خلاله سوى الحركة الرتيبة الوحيدة تصدر عن الساعة المائية !٠٠

وبعد قليل ، وفى وقت واحد ، اجتمع لدى « فرعون » كل من « آى » و « حورمحب »، فتجادلا واشتدا فى الجدال ، ووجهاهما يتقبضان ويتلونان بين سواد واصفرار ، لفرط الانفعال ، وكل منهما يقذف الآخر بقالة السوء ، ويقذعه مفحشا فى غير تهيب ولا توقير فى مجلس « فرعون » !٠٠

وقد قال « آى » : أيها الفرعون « أخناتون » !٠٠ لم يبق الا أن تنزل عن العرش ، فليس غير هذا من سبيل الى حفظ حياتك ٠٠ وأرى أن يخلفك عليه « سيكينير » ، وهو زوج ابنتك ، فدعه له ، وانه منك لجد قريب ، وليذهب من فوره الى « طيبة » ليقدم القرابين الى « آمون » ، وسيرحب به الكهنة ، ويدهنونه بالزيت المقدس ، ويضعون بأيديهم التاج الابيض والاحمر فوق رأسه !٠٠

وقال « حورمحب » مخاطبا « فرعون » : بل سيبقى تاجك يا «فرعون» مصونا ، لا ينزل عن رأسك ، فان حربتى لذائدة عنه ، حافظة

له ، وفيها القدرة على ذلك • ولو انك نفسك عدت الى « طيبة » وقدمت القرابين « لآمون » ، فانى مع ذلك لا أنفك عن موقفى دفاعا عن هذا التاج لك وحدك ، وليغضب الكهنة ما شاءوا أن يغضبوا ، فان سوطى قمين أن يتولى حسابهم ، ولن يكون عندنا غير حرب واحدة مقدسة نعلنها شعواء فى سبيل استرداد « سوريا » الى « مصر » !••

وقال « فرعون » ، وعلى فمه ابتسامة ذابلة ذبول الموت : سأظل حتى الموت حيث أنا الآن على عرشى ، ولن أرضى ـ مهما يكن الامر ـ الخضوع للاله الزائف ، كما لن أعلن حربا لاحفظ سلطانى بالعنف والدماء !•• هذه هى كلمتى الاخيرة ، قلتها ، أنا فرعون !••

وانصرف عنا وهو يوارى وجهه بطرف ردائه ، وبقينا ، ثلاثتنا ، بالقاعة الفسيحة ، وكل منا يشم فى أنف صاحبه رائحة الموت !••

ورفع « آى » ذراعيه فى يأس ، مسددا نظره الى «حورمحب» الذى كان كذلك يأخذ « آى » بنظرات تنم عما يختلج بصدره من مشاعر الغيظ والحقد !••

وبغتة راح « آى » يداهى «حورمحب» ويقول له مبتسما : ان كنت أنت بجربتك الباطشة تستطيع أن تحفظ التاج ، فما يمنعك أن تناله لنفسك وتضعه على رأسك ؟! أرى أن تفعل هذا !••

ولكن « حورمحب » تلقى كلماته ساخرا وقال له : لست غبيا الى الحد الذى تخاله يا « آى » • وانى بدورى لادعوك الى الاحتفاظ لنفسك ، اذا استطعت ، بالتيجان القذرة التى تعرف كيف تحملها ! •• وحقا ، انى لقادر على أن أظفر بالتاج لنفسى اليوم، ولكننى ان فعلت لاكونن أسفه الحمقى ، فمصر الآن مهددة بالحرب والمجاعة ، وسيساء الناس منهما بخطوب لا قبل لهم بها ، فلو كنت أنا ـ وقتذاك ـ الجالس على العرش ، وحامل التاج ، فسيروننى مصدر هذه الخطوب وباعثها عليهم ، وسيكون يسيرا عليك ، أكبر اليسر ، أن تداخلهم بخبثك ودهائك، فتملؤهم حفيظة وسخطا على صاحب العرش والتاج ، ولا تزال تدفعهم بهذا دفعا الى الثورة عليه، حتى لا يبقى مفر من نزوله عنهما مكرها ، ويخلص أمرهما اليك !•• ألا يكون الامر هكذا أيها الرجل ؟!••

قال « آى » : اذا لم يكن بك من طمع فى العرش الآن ، فليكن عليه ـ اذن ـ «سيكينير» أو «توت» ، وهما يمتان الى الدم الملكى بالمصاهرة ، وليكن الامر فى عهد أيهما ما يكون ، وليحمل على رأسه سخط الناس

بالغـا ما بلغ ، الى أن يحين الوقت الذى تستقر فيه الاحوال ، ويستقر باستقرارها التـاج على رأس القـادر على حمـله !٠٠ فقـال « حورمحب » مسترسلا فى سخريته : وفى ظل هذا أو ذاك ، تكون شـئون الحكم وتدبيراته بين يديك ، تمضى فيها على ما تهوى حرا من غير معقب !٠٠

قال « آى » : وكيف يكون هـذا ؟!٠ ان الجيش تحت امرتك يا « حورمحب »، وستقابل الحيثيين غدا ، فلئن ظهرت عليهم وعدت منتصرا، فلن يكون على أرض «كيم» من هو أقوى منك قوة ، وأرهب جانبا !٠٠ وان قدر لهم أن يظهروا عليـك ويطأوا أرض « مصر » فسيصير أمرنا أسـوأ مصير ، ولن يكون لنا ، ان أبقوا على حياتنا ، جاه ولا سلطان !٠٠

وفى جدالهما الطويل ، أخذت شقة الخلاف بينهما تضيق شـيئا فشيئا ، وأدرك كل منهمـا أن لا سبيل الى حل المشكلات القائمة الا باشتراكهما معا متفقين ٠

وقال « آى » أخـيرا : اعترف لك بصراحة يا « حورمحب » ، أننى بذلت كل ما فى وسعى لاقصائك معزولا من قيادة الجيش ، ولكنك ـ على الرغم من هذا ـ علوت علوا كبيرا ٠ والآن وقد تطورت الامور ، وتقاربنا على صفاء وتفاهم !٠٠ أقول لك ، بالصراحة نفسها ، اننى لا أستطيع أن أفقدك صديقا وحليفا ، وأرجو أعظم الرجاء ، أن ينعقد لك لواء النصر على الحيثيين ، لتنجو مصر ، وننجو نحن بخاصة من شرورهم ! ٠٠ وقد كنت وكلت الى « بيبيت آمون » قيادة الحرب عليهم ، ولكننى أراه غير جدير بهذا ، فليكن الامر اليك يا ابن الصقر ، وليكن يومنا هـذا يوم قلبينا متحالفين !٠٠ وفى ظل هذا الوفاق بيننا فلنمض الى أهدافنـا المشتركة منذ الساعة ، وفى مقدورنا متعاونين أن نبلغ معا ما نشاء من حكم هـذه البلاد ، ولا يكون ذلك اذا اختلفنا وسيلة غاية ٠٠٠ وسيكون أكثر ما أعنى به أن يظل جيشك قويا، فهو لنا سياج ووقاء ، وهو للبلاد منعة وسلامة ، ولنقسم بكل آلهة «مصر» أن نسـير جنبا الى جنب ، ويدا فى يد ، على هذا النهج السوى ، ولست أخفى عليك يا « حورمحب » ، أننى أصبحت شيخا كبيرا ويشوقنى فى شيخوختى أن أكون صاحب سلطان ، ولا عليك من هذا ، فلا تزال شابا فتى القوة ، ومجال الحياة فسيح امامك !٠٠

فقال «حورمحب » : انى لا أطمع الى التـاج ولا أبتغى سلطانه ، وأوثر عليه الحرب والقتال ، والقضاء على الاوغاد والانذال !٠٠ وانما أريد

منك الآن عهدا وثيقا لا تخلفه ، هو أن تعاونني مخلصا فيما تنزع اليه نفسي ، وتتجه اليه آمالي ، من غير ما مناقشة ولا اعتراض !..

قال « آى » : وأى عهد وثيق هو أكفل لتحقيق آمالك من الجيش تحت امرتك ؟!.. واتجه « حورمحب » الى الاسوار ، فأطال النظر فيها، وقد علت وجهه سحابة قاتمة ، ثم التفت الى « آى » وقال له : بمثل الصراحة التي تحدثت بها الى عن مطمعك فى الحكم والسلطان ، أقول لك انى أرغب أشد الرغبة فى أن تكون الأميرة « باكيت آتون » زوجة لى !.. نعم .. أريد أن أكسر الجرة بينى وبينها ، ولا متحول لى عن هذا ، ولو انطبقت السماء على الارض لما تحولت عنه ، ولا تستطيع أنت يا « آى » أن تمنعنى من ذلك !.. ولهذا أريد الا تقف فى طريقى ، متأثرا بطبعك القديم وحقدك الدفين ، فان هذا - آخر الامر - لن يجدى !..

فصاح « آى » قائلا : آه !.. لقد عرفت الآن الى أى هدف تريش سهامك !.. حقا انك لأمهر مما كنت أظن !.. فلك احترامى أيها الصديق الماهر !.. ولعلك تكون أكثر اطمئنانا على أميرتك هذه ، اذا علمت أنها قد أبدلت اسمها فأصبح الآن « باكيت آمون » ، وبينها وبين كهنة «آمون» ود وولاء !.. ومن هنا يبدو الطريق الى مستقبلها ممهدا لا عثار فيه !. لا شك أنه لم يغب عنك أن فى عروقها يجرى دم الفراعنة المقدس !.. وسيقرر لك الزواج منها حقا ، غير منازع ، فى التاج ، فلن يكون هذا الحق لزوجى ابنتى « أخناتون » الآخرين ، لانتمائهما الصريح الى «فرعون» الزائف !.. ألم أقل لك انك أمهر مما كنت أظن ؟! على أنى ارى أن نرجىء هذا الأمر الى وقت آخر ، فلست بمستطيع أن أعطيك عهدا بموافقتى عليه فى ظروفنا الملابسة ! .. ذلك لأنه ليس ثم ما يدعونى الآن الى أن أضع الامر كله ، جيشا وتاجا ، فى قبضة يدك ، وأصبح أنا ، ولا شيء فى يدى ! .

قال « حورمحب » منفعلا : لا تكاد عيناك ترى شيئا سوى التاج !.. ولا أدرى كيف أقنعك وأنت جد مفتون بتيجانك القذرة ، انى لا أريد سوى « باكيت » وهى عندى أعظم شأنا من التيجان والعروش جميعا ، فلقد أحببتها منذ رأيتها لأول مرة فى البيت الذهبى ، أحببتها ملء قلبى ومشاعرى ، حب الرجل مأخوذا بجمال المرأة ، لا حب الطامع منها فى جاه وسلطان ! .. وما أرى من ضير عليك فى أن يتصل دمى بدم الفراعين العظماء ، عن طريق هذا الزواج ! .. فستكون أنت ، كما تشاء ، وفقا للعهد الذى بيننا ، صاحب العرش ، حينما يصير الامر

لينا ، وليطل عمرك ما يطول ، فلست بطامع فى الحكم ولا متطلع اليه ، ما دمت أنت على قيد الحياة ! ذلك عهدى ، ولا أنقضه ، فالمستقبل أمامى ، كما تقول ، فسيح ، فما حاجتى الى العجلة ؟!٠٠

ووضع « آى » يده على فمه ، وبدأ كأنه شارد الفكر ، ولكنى كنت ألمح فى وجهه سمات الرضا ، فقد كان الموقف أكثر ما يكون اتجاها الى تحقيق مآربه ! ٠٠

وقد عجبت ، وأنا أستمع الى حديثهما السجال ، من أمر الرجلين يتنافسان على تاج فرعون « أخناتون » وهو لا يزال حيا ، أدنى ما يكون منهما قربا ، بالحجرة المجاورة ! ٠٠

وخرج « آى » من تفكيره ليتابع حديثه مع « حورمحب» ، فقال : أوافقك على ما تريد يا « حورمحب » وأعاهدك عليه ، ولكنى أستمهلك فيه ريثما تفرغ من الحرب التى ينبغى الا تفكر فى شىء سواها لتكسب النصر الذى تتحقق به آمالنا ، ولقد صبرت طويلا ، فلا عليك أن تصبر فترة أخرى قد لا تطول ، وأنت ، بعد ، فى غير حاجة الى أن أقول لك ان الأمر مع الأميرة لا يمكن أن يتم على رغبتك بلا مداخلة وتمهيد واقناع ، فلا ريب فى أنها ستبدى لأول وهلة اعتراضها على الزواج من رجل تجهل أصله ونسبه ! ٠٠ ولكنى ، مستعينا بالوقت وبوسائلى الخاصة ، سأستميلها اليك ، وأحملها على الرضا بك ٠ وأقسم لك يا « حورمحب » بكل آلهة « مصر » بأنه فى اليوم الذى أضع على رأسى التاج الأحمر والأبيض ، سأكسر بيدى جرة الزواج بينك وبين الأميرة ، وحينذاك سأكون طوع أمرك ! ٠٠

وعلى ما كان يختلج فى نفس « حورمحب » من الرغبة فى المساومة الى أبعد مداها ، فانه قد رأى أن يقف بها عند هذا الحد ، فما كان الموقف مع « آى » يحتمل أكثر من ذلك ، فاختتم الحديث قائلا : فليكن ما ترى ! وسأدعك واثقا من أنك لا تخدعنى ولا تمكر بى ! ٠٠ فما من شىء يدعوك الى هذا ، بعد أن تركت لك التيجان التى تهواها ، والتى أراها ، أنا ، أقرب شبها بلعب الأطفال ! ٠٠

ولم يكن « حورمحب» لاستغراقه فى مجادلة « آى » يفطن الى وجودى معهما بالحجرة نفسها ٠ فلما وقع نظره على ، صاح قائلا : « سنوحى » ! ٠٠ ألا تزال هنا ؟! ٠٠ لقد سمعت ــ اذن ــ مالا يجوز لك أن تفشيه أو تنقله الى ذلك الذى يجب ألا يعلم من أنبائنا قليلا أو كثيرا !

ولعلى لا أكون مضطرا الى قتلك يوما لأنك فعلت شيئا من هذا ، فأنت صديقى ! ..

ووقعت مقالته فى أذنى وقع الدعابة التافهة ، فقد هان أمره وأمر صاحبه فى نفسى ، اذ هما يسترسلان فى الجدال وتدبير المؤامرات ، ليقتسما التاج الذى لا يمتان اليه بصلة قريبة أو بعيدة ، فى حين أننى أنا الجالس دبر آذانهما ، ولا يشعران به ، أحق انسان بهذا التـــاج ، فانى - على ما أنبئت به عن طريق المصادفة - كنت الوارث الوحيد لتاج « فرعون » العظيم الذى يجرى دمه المقدس فى عروقى ! .. ولهذا سخرت منهما ولم أحفل « بحور محب » وهو يلقى كلامه متوعدا ! ..

وكنت فى سخريتى بادى الضحك ، على الرغم من محاولتى كتمانه ، واسترب « آى » الماكر فى شعورى ، فقال : لا تضحك يا « سنوحى » هكذا ! .. فليس الأمر هزلا يثير الضحك ، وانما هو الجد كل الجد ، ولك أن تطمئن فلن نذبحك ، وانها لبادرة خير أنك ، من حيث لا تشعر سمعت حديثنا كله ، فأنت شاهدنا عليه ، وشريكنا فيه ، ونحن نعتمد عليك فى جزء هام من العمل الذى رسمناه ، وهو أن تعجل بنهـــاية « فرعون » ، لتنتهى الفتن والثورات القائمة بسببه ، وهذا يسير عليك لأنك طبيبه ، وفى استطاعتك أن تفتح جمجمته اليوم وتوغل فيهـــا بسكينك الى الأعماق فيموت الميتة التقليدية المريحة ! ..

وقال « حورمحب » معقبا : لا أقحم نفسى فى هذا التدبير ، فيداى قد تدنستا بما لا مزيد عليه من دنس ، بلمسهما يدى « آى » ! .. على أنه لم يقل الا صوابا .. فمن الحق أن يموت فرعون « اخناتون » ، ففى موته حياة « مصر » ، وليس هنا لك طريق آخر !..

وضحكت مرة ثانية ، ولكنها كانت ضحكة تنبعث من شعور مبهم كان لايخلو من ازدراء للمؤامرة الحقيرة ، ومع هذا فقد نزع بى الى المشاركة التى يدعواننى اليها ، ذلك أنى ، بغتة ، ذكرت فى حسرة والتياع مجزرة « طيبة » ومشاهدها المروعة ، والفتنة الرعنـــاء التى التهمت الأبرياء وفرقت بين الأحياء ، وذكرت ، فى ذكراها ، فرعون « أخناتون » ، هذا الذى أشـــعل نارها بجنونه وخباله ! .. فثـــارت نفسى حقدا عليه ، وكراهية له ، وخيل الى انى أسمع صوت « ميرييت » يهتف بى من وراء الغيب ، أن أثار لدمها ولدم ولدنا « تحوتح » ! .. واستجمعت قواى وقلت للرجلين : ان دستور مهنتى - كطبيب - يصدنى عن فعلة كهذه لاتجتمع لها مبررات مشروعة ، فانما تفتح الجمجمة فى سبيل الحياة لافى

سبيل الموت ، ومن أجل العلاج لامن أجل القتل ! ٠٠ ثم ان « فرعون » الآن ليس فى حال من المرض توجب أن أقرر على عجل اجراء هــذه العملية الخطيرة ، فماذا يكون الأمر لو أنى أجريتها هكذا من غير مقدمات ولا مظاهر سابقة عليها ! ٠٠ انها ستكون تصرفا مريبا لا محالة ! ٠٠ وقد فــكرت فى هــذا كله ، ورضيت أخــيرا أن أكون ثالثــكما فى خطة الخلاص منه ، ولكن بوسيلة أخرى أنفى للشك ، هى أن أعد له مخلوطا من العقاقير ، ما ان يتعاطاه حتى يأخذه النوم الى غير يقظة ! ٠٠ وها أنذا فاعل ذلك لساعتى ، لتعلما أنى قد ربطت نفسى بكما ، ولا تخشيا منى خيانة أو غدرا ! ٠٠

وجئت بالاناء الزجاجى الذى كان الكاهن « حريحور » قد أعطانيه ، ومزجت العناصر الموضوعة فيه بنبيذ ، وأفرغت السائل فى كأس ذهبية ففاحت منه رائحة طيبة ، وحملت الكأس فى يدى ، ودخلنا ثلاثتنا عــلى « فرعون » فى حجرته ، وكان قد وضع ــ جانبا ــ تيجانه ، واتكأ عــلى مخدعه ، باهت الوجه محمر العينين ، والى جانبه السوط وعصـــا الراعى ! ٠٠

وتقدم « آى » ، فتناول التيجان والسوط ، وأخذ يقلبها فى يديه كأنه يزنها بميزان ، وقال : أيها الفرعون « أخناتون » ! ٠٠ ان صديقك « سنوحى » قد أعد لك دواء حسنا يهدهد من أعصابك ويريح رأسك ، فخذه ولا تشغل نفسك بما كنا فيه اليوم ، ففى غد نعاود الحديث حيث تكون أوفى عافية وأهدأ بالا ! ٠٠

فاستوى « فرعون » فى فراشه ، وأمسك الكأس بيديه ، وأجال نظره فينا ، وقد أصابتنى رعشة حينما التقى نظرى بنظرته الباهتة ، وقال فى تخاذل : ان الناس فى عطفهم على الحيوان المريض يجهزون عليه بالعصا ليخلصوه من الحياة المعذبة ٠٠ فهلا فعلت ذلك بى يا « سنوحى » لتريحنى ؟! ٠٠ لئن فعلته لتكونن قد أسديت لى فضلا ومنة ، فقــد أصبحت من خيبة الأمل ومرارة الفشل ، وغلبة اليأس ، لا أشتهى شيئا مثلما أشتهى الموت ، فهو عندى أطيب رائحة من المسك ، وأحلى مذاقا من العسل ! ٠٠

فقلت له : من حقك أن تستريح يا « فرعون » ، وفى هذه الــكأس راحتك ، فاشربها فى سبيل « آتون » ! ٠٠

وقال « حورمحب » : نعم ، اشربها يا صديقى « أخناتون » لينزاح عنك هذا الوقر الثقيل من متاعبك ! ٠٠ ولنستطيع ، فى ظلال راحتك

انقاذ « مصر » ! ·· وسأقيك فى ضعفك بمعطفى كما وقيتك به يوما فى المهمه القفر خارج « طيبة » ! ··

ووضع « فرعون » الكأس على فمه ، وأخذ يرتشف منها ، واختلجت يده فتساقطت قطرات من الشراب على مؤخرة وجهه ، فتماسك وتناول الكأس بكلتا يديه وأفرغ كل ما فيها بجوفه ، وتمدد بعد ذلك على فراشه وراح فى غمرات السبات الطويل · وعندما انتفض انتفاضة المقرور ، تقدم « حورمحب» فألقى بمعطفه عليه ، بينما كان « آى » يضع التاج على رأسه كمن يختبر قدرته على حمله ! ··

وعلى هذا كانت نهاية فرعون « أخناتون » وخاتمة حياته ! ··

وخفق قلبى خفقة الألم ، اذ كانت يدى هى التى جرعته الموت ! ·· وكدت أنسى السبب الذى طوع لى ذلك ، وخشيت على نفسى من الندم ووخز الضمير ، فرحت أتشبث بذكريات عهده المحزنة ، وأستحضر فى ذهنى صور الضحايا التى لا عداد لها، والشرور التى أناخت بالناس والبلاد جميعا ، و « ميرييت » و « تحوتنح » وفجيعتى فيهما بلا اثم ومن غير جريرة ! ··

فى هذه الذكريات والصور ، وجدت العزاء والراحة ، وقلت انه العدل الذى قضت به النجوم ! ·· وما كان « فرعون » الا واحدا ، أزهقت فى سبيله أرواح كثيرة ! ··

وغادرنا البيت الذهبى ، بعد أن أوصينا الخدم بأن يدعوه هادئا فى نومه ! ··

وفى صباح اليوم التالى ، ضجت أصواتهم بالبكاء والعويل ، فأعلن بذلك موت فرعون « أخناتون » · وقياما بواجبى ذهبت الى القصر لأشرف على جثته الى « دار الموت » ، وهناك عهدت بها الى المغسلين والمحنطين ليحصنوها للحياة الابدية ! ··

ورأيت الملكة «نفرتيتى» تقف بجانب سريره وتقلب يديها الجميلتين فى أنامله وخديه ، صامتة لاتتكلم ولا تبكى ، ولم أستطع ، وأنا أنظر الى وجهها ، أن أستشف حقيقة شعورها فى تلك اللحظة الرهيبة ! ··

وعلى مقتضى القانون والتقاليد ، أصبح الشاب « سيكينير » ملكا على عرش « مصر » · وكان اذ ذاك مستغرقا فى حزنه ، منقبضا عمن حواليه ، فاذا تحدث اليهم تحرك لسانه بكلمات وأفكار يشوبها التخليط جاريا على طريقة فرعون « أخناتون » ، ولم يكن هذا بالشىء الغريب عليه ، فقد نشأ فى جوه وانطبع على مثاله ، وتأثر بأوهامه ! ·· وكان ،

بعد ، لم يزل وثيق الصلة بالطفولة ، سابحا فى أحلام اليقظة ، وقد صرخ فى وجه كل من « حورمحب » و « آى » ، حينما طلبا اليه التعجيل بالذهاب الى « طيبة » ليقدم القرابين الى « آمون » ، تثبيتا للتاج على رأسه ، وقال لهما . كلا !.. فسأمضى فى نشر ضياء « آتون » بين كل الناس ، وسأقيم معبدا لأبى « اخناتون » ، لأعبده فيه كاله ، فلم يكن أبى من البشر ! .. وفى يأس منه ، تركاه وانصرفا ! ..

وفوجىء الناس فى اليوم التالى بنبأ موته غريقا فى النهر ، اذ كان يصطاد السمك على عادته فوق قارب من الغاب ، فانقلب به . وكانت نهاية سريعة أثارت الشك فى نفسى ، وقد اتجه هذا الشك الى « آى » أكثر من اتجاهه الى « حورمحب » ، فقد كان « آى » ظاهر اللهفة على العودة الى « طيبة » للقبض على أزمة الحكم ! ..

وذهب « آى » و « حورمحب » بعد ذلك الى الصغير « توت » ، وهو ساعتئذ على أرض حجرته ، يلهو بالدمى فى أشكال مختلفة ، ويعابث بها زوجته « عنسخنت آتون » .

وقال له « حورمحب » : هلم يا « توت » ، فدع ما أنت فيه من اللهو بالدمى ! .. فقد صرت من اليوم « فرعون » الملك ! ..

فنهض فرحا ، كما لو كان قد وقع على لعبة أكبر ، ومضى الى الفراش فجلس عليه ، وقال فى خفة : لايدهشنى أن أكون أنا « فرعون » ! .. لقد كنت دائما أحس أننى أعلى موضعا من الناس ! .. وقد أوتيت العرش بحق وجدارة ، ومن الآن سيكون هذا السوط فى يدى سوط عذاب للأشرار ، أما عصا الراعى ، هذه ، فسأجعل منها تقية وحفاظا للأتقياء الصالحين ! ..

وقاطعه « آى » قائلا : اليك عن هذا الهذيان يا « توت » ! .. فلن تفعل شيئا الا ماأشير به عليك بلا مناقشة أو جدال ! .. ولنأخذ فى مراسم تتويجك التى نبدأ بها قبل كل شىء آخر ، ولا يكون هذا الا فى « طيبة » حيث تقام حفلات الابتهاج ، وحيث تمثل بين يدى « آمون » فى معبده ساجدا ومقدما اليه القرابين ! .. ومن ثم يدهنك الكهنة بالزيت المقدس ، ويضعون التاج الأحمر والأبيض فوق رأسك ! .. فهل فهمت ؟! ..

وأطرق « توت » قليلا ثم قال : أئذا ذهبت الى « طيبة » يقيمون لى قبرا فخما كقبور الفراعنة الآخرين ؟! وهل سيملؤه الكهنة باللعب والكراسى المذهبة والأسرة الجميلة ؟! ان القبور هنا فى « أخيت آتون »

ليس فيها غير الضيق والظلمة والفراغ الممل ، وأنا أكره ألا يكون قبرى حاشدا بكل ما أهواه من اللعب على حقيقتها الملموسة ، حتى السكين الجميلة الزرقاء التى تلقيتها هدية من « الحيثيين » يجب أن تكون الى جانبى كذلك فيه ! ..

فقال « آى » فى ابتسام ماكر : لاشك فى أن الكهنة سيقيمون لك هذا القبر الجميل ! .. وانى لأراك فتى عاقلا ، اذ تفكر أول ما تفكر فى القبر ، غير مفتون بما هو مقبل عليك من ملك « فرعون » ، على أنه لابد أن تعلم أن اسم «توتعنخ آتون » لا مكان له عند كهنة « آمون » ، فمن اليوم سيكون اسمك « توت عنخ آمون » ! ..

ولم يبد « توت » اعتراضا على ذلك . واذ كان لا يعرف الحروف التى ترسم بها كلمة « آمون » فقد رغب فى أن يتعلم كتابتها ، فكان له ما أراد ولأول مرة جرى اسم «آمون» مكتوبا فى مدينة «أخيت آتون» !..

وفوجئت « نفرتيتى » بنبأ اختيار « توت عنخ آمون » للعرش دونها ، فأسرعت الى ارتداء أجمل ملابسها وتدهنت بالعطور الزكية النادرة ، وذهبت فى الحال الى « حورمحب » على ظهر سفينته ، وقالت له: ان من الحماقة وخطل الرأى أن يختار لعرش « فرعون » حدث لايزال فى دور الطفولة العابثة ! .. وانى لأعرف لماذا اختاره « آى » ، فانه انما يريد أن يحكم « مصر » من وراء اسمه ، حكما مطلقا لا معقب عليه . وفى سبيل تحقيق مأربه هذا ، تخطانى ، ذلك الأب الجاحد ، فاقد الضمير ، أنا زوجة « فرعون » ووالدة بناته ! .. أعرف هذا ، ولكنى لا أعرف ماذا دهاك أنت ، لتقع فى حبالته وتشد أزره لبلوغ غايته ؟! انه — ان كنت لا تعلم — رجل غير مأمون العاقبة ، مفرط فى جشعه ، على غباء وقلة فطنة ! .. وستصاب البلاد بكوارث أشد هولا اذا ترك الأمر لأهوائه ومطامعه فهلا فكرت فى هذا يا « حور محب » ؟! اننى صاحبة الحق الأول فى العرش ، الى أننى أثيرة محبوبة عند الشعب ، فكل الناس يروننى أجمل نساء مصر ، ولعلك ترانى كذلك اذا نظرت الى الآن ، على ما أنا فيه من أسى واكتئاب ! .. وأحسب أن الفرصة لم تضع من أيدينا ، أنا وأنت فمن الممكن أن نتفق كلانا فى تدبير الوسائل التى تحقق لمصر الخير الكثير عن غير طريق ذلك الطامع الشرير ! .. ولا تنقصنا القدرة والقوة ، فأنت المحارب الشجاع صاحب الحربة النافذة ، وأنا الملكة المحبوبة ذات الجمال الآسر !..

قالت هذا ، وهى لاتعلم سر الاتفاق الذى انعقد بين « آى »

و « حورمحب » ، وراحت تحاول بالاغراء أن تستميله اليها ، فتركت رداءها ــ بحركة متعمدة ــ ينفرج عن مفاتن جسمها تحت بصره ، وأجالت نظرها فى قمرته وقالت له فى تهالك مثير : انها مكان دافىء لطيف ، يطيب فيــه لقاء القــلوب المتحابة !.. وما أرى خــيرا منه مكانا لرجل وامرأة ! ..

وكانت تطمع فى أن يستجيب من فوره لهذه الدعــوة الجنسية السافرة ! .. وبخاصة اذ كانت تعرف أنه يهيم فى حب «باكيت آمون» ويتلظى بغرامها ويعانى من استعلائها عليه واستغلاقها دونه ، فهو واحد فى الملكة الفاتنة متنفسا لعواطفه المكتومة وحبه المكظوم ! ..

ولكنه لم يؤخذ بفتنتها الخادعة ، وقال لها فى برود : لقد أوغلت فى اقذار هذه المدينة الملعونة بما جاوز طاقتى ! .. فما أســتطيع أن ألوث نفسى أكثر مما نالها من ذلك ، وان لدى من الأعمال الحربية العاجلة ذات الجسامة والخطر ، ما يشغل فكرى وبالى ، فليس فى وقتى متسع لك أيتها الجميلة « نفرتيتى » ! ..

كان هذا موقف « حورمحب » من « نفرتيتى » على مارواه لى بعــد ذلك . ومع أن الرواية كانت لاتخلو من مبالغة فى الشكل والتصور ، فانها كانت فى جوهرها صحيحة ، فقد أصبحت « نفرتيتى » من ذلك الحين شديدة الكراهية « لحور محب » ، تلاحقه بالأذى والشر ، وتدبر له المكائد فى الخفاء والعلن . وقد عنيت ، أكثر ماعنيت ، فى « طيبــة » بتوثيق علاقتها « بباكيت آمون » ، واتخذت منها سبيلا الى مضايقتــه واثارة متاعبه ، على ماسيجىء ذكره .

وقد كان أقرب للسلامة والحكمة ، أن يكون موقفه من « نفرتيتى » لأول لقائه بها أكثر لينا والطف مداخلة ، ليحتفظ بها صديقه مواليــة تعينه على بلوغ أهدافه فى غير مشقة أو عسر ، وليشق بها الطريق آمنا وسط هذه العواصف الهوج ، ولكنه أبى أن يفعل ، ولم يشأ أن يخون « فرعون » الذى مات ، فى زوجته التى لم تعف عن خيانتهحيا وميتا !.. وقد يبدو مستغربا بعد هذا ، أن « حورمحب» ، على مشاركته فىالانتقاض على « أخناتون » وتحطيم تمثاله ومحو اسمه منكل النقوش ، وهدم معبده فى « طيبة » ، كان لايزال وفيا له ، مطوى القلب على حبه ، حتى انه أمر أتباعه بأن ينقلوا جثمانه سرا من قبره فى « أخيت آتون » الى قبر أمه فى « طيبة » عندما علم أن الكهنة قد بيتوا النية على حرقه وذر رماده فى الهواء ! ..

وندع هذا الى حينه . لنصل ما انقطع من الحديث عن بداية عهد « توت عنخ آمون » ..

- ٦ -

أبحر جميع أفراد الأسرة الملكية وحاشيتها على السفن الكثيرة التى اعدها « آى » فى بدار وسرعة . وفى اثرهم غادر « اخيت آتون » كل من فيها من الناس ، فارين منها فرار من يتعقبه الموت ، لا يلوون على شىء ، فلم يبق فيها غير الذين كان مفروضا عليهم أن يبقوا لتحنيط جثة « أخناتون » ، وتحصينها للأبدية ! .. ورانت على هذه المدينة الجميلة غشاوة مخيفة كما لو كانت قد أصيبت بالدمار والخراب بغتة ! ..

وكذلك كانت حال البيت الذهبى الذى عصفت به رياح الصحراء فسفت رمالها على حجراته التى انفرجت نوافذها تحت ضغط الرياح العاصفة ، واقفرت حدائق « اخيت آتون » وغاضت مياه بحيرات السمك وتصوحت الزهور وأشجار الفاكهة ، واستوحش البط واستطاره الخوف والجوع ، فانطلق هاربا ليحط على ما يلقاه من مراتع الخضرة بعيدا عن المدينة ، وهام السمك سابحا فى المياه التى أسنت واستحال عذبها ملحا ، واسترسلت العواصف مزمجرة ، تذرى الرمال والتراب على كل شىء فى المدينة ، وتهز البيوت هزا عنيفا ، حتى تهاوت قوائمها وتساقطت سقفها ، وانقلبت المدينة — فى عمومها — أطلالا ورسوما حائلة ، فانثالت عليها الذئاب والوحوش والغربان ، تعوى فى جنباتها ، وتنعق على خرائبها ، وتتخذ لها من الوسائد الناعمة فراشا ، ومن المخادع الوثيرة أكنانا ! ..

وهكذا قضى على « اخيت آتون » أن يلحقها الدمار والزوال ، بمثل السرعة التى أقامها بها فرعون « أخناتون » ! ..

وبينما كانت هذه حالها ، كانت « طيبة » فى الوقت نفسه تنبض بالحياة ، وتموج بالأفراح . فالناس فيها مبتهجون بعودة « آمون » وتولية « فرعون » الجديد ، وقد احتشدوا صفوفا فى شارع « رامس » ، ليستقبلوه هاتفين بحياته ، وينثروا الزهور فى طريقه . وقد كانوا بالأمس فى غمرات اليأس ، يترددون فى مهاوى الفتن التى كانت فيهم كقطيع الليل ظلاما وفزعا ، فأصبحوا على بارقة من مطلع عهد مكان آخر يتفتحون للحياة ويتلاقون على الأمل فيما سيأتيهم به الغد من أمن وخير

وكذلك الناس في سائر أحوالهم ، يستدبرون أمسهم بمآسيه لأول اشارة تنبثق من فجر يوم جديد ، طمعا في حياة أفضل ، ناسين أن الحيـــاة ذات حقيقة واحدة ، تختلف أياما وليال ، ولكنها دائمـــا أمشاج من خير وشر ، وحلو ومر ! ..

وهذه الحقيقة نفسها كانت قائمة خلال مباهج « طيبة » في ذلك اليوم . فهناك في أكثر من مكان ، وبخاصة في حي الميناء وحي الفقراء كان دخان الحرائق لا يزال متكاثفا في الأفق منبعثا من بقايا بيوت أكلتها النار وصيرتها أكواما من تراب وفي قلبها وعلى جنباتها جثث مبعثرة من ضحايا المذبحة ، تتوارد عليها النسور وجوارح الطيور ، فلا تزال تنهش منها حتى تشبع ، وعلى خرائب الدور واطلالها يجتمع النسوة والأطفال مروعين باكين ، ويدورون فيها باحثين عما تكون النار قد افلتتـــه من مدخرات طعامهم ومتاعهم ! ..

ووجدت نفسي ، برصيف الميــناء ، أطوف منفردا لأشهد ملء عيني المقرحتين بالأسى ، الدماء التي لم تكن قد جفت بعـــد ، فتهيج في قلبي ذكرى « ميريبيت » التي افظعوا قتلتها ، و « تحوتنح » الصغير الذي فتكوا به ، وكانا وحدهما روض حياتي الفينان ، ونور وجـــودي المشرق ، فليس لي بعدهما غير الوحدة المقفرة ، والأشجان القاتلة ، والذكريات المؤرقة ! .. ويزيدني حسرة وحزنا أنني أنا ، الذي أوردتهما مورد الحتوف اذ كان لهما ـ بدوني ـ سبيل الى النجاة ومنفذ الى الحياة ! .. نعم ، لقد كنت أنا بموقفي الأحمق في صفوف « آتون » سبب النكبة المروعة التي اهدرت دماءهما ، واودت بحياتهما ، فيالهول جريمتي ! ..

لقد مات فرعون « أخناتون » بيدي ، ميتة واحدة على أيسر ما يكون الموت ، وكان يجب أن يموت موتا طويلا معذبا ، طافحا بالآلام ، تشتفي به تلك القلوب الكثيرة التي ملأها ، بجنونه وأوهامه ، عذابا وآلاما ! ..

وفي غمار الأفكار السوداء التي كانت تثيرها في نفسي هـــذه الذكريات المحزنة ، كانت تقرع أذني أصوات الجماهير وهي تحيي فرعون « توت عنخ آمون » ، ذلك الصبي الغر الذي يتمثلونه قادرا على اقتلاع جذور الظلم واعادة السلام والرخاء لأرض « كيم » ، وهو الذي لايفكر في شيء الا أن يقام له قبر مزدان بالدمى والتمـــاثيل ! .. فكم هم أغبياء ؟! ..

ورحت أسير على غير هدى ، يلهبني الحقد على فرعون « أخناتون » ويساورني اليأس من الحياة ، حتى بلغت منزلي الذي كنت اشتريته من

تاجر النحاس ، فرأيت حوائطه المنقضة مجللة بالسواد الفساحم من أثر الحريق الذى أصابه ، وكانت كذلك شجرة الجميز يعلوها السواد نفسه بعد أن ذهبت النار بفروعها وأوراقها ! .. وتحت كومة من الأنقاض كانت تربض « ميوتى » ، فما ان أحست بمقدمى حتى خرجت من هذا المخفى ، وشعر رأسها معفر بالتراب ، وأقبلت نحوى متهافتة اذ كانت الجروح قد نالت من ساقيها وقدميها ! .. واستقبلتنى قائلة فى سخرية: بورك هذا اليوم الذى تعود فيه يامولاى الى دارك ! .. ثم اختنق صوتها وارتمت على الأرض متهالكة وهى تخفى وجهها بيديها ! ..

لقد كان اعياؤها شديدا لكثرة ما أصابها من ضربات قرون «آمون» ولكنى ابتدرتها متسائلا : أين « كابتاح » ؟! ..

فأجابت فى صوت مختلج : لقد مات ! .. اغتاله الأرقاء ، هكذا يقولون ، لانهم اكتشفوا أنه كان يخونهم ويقدم النبيذ لرجال « بيبيت آمون » ! ..

ولم أصدق أن « كابتاح » قد مات ! .. فانى أعرف أنه ، مهما يكن الأمر ، يستطيع أن يفلت من الموت ! .. وفى فترة تشككى فى موته ، صرخت « ميوتى » قائلة : من الممكن الآن أن تضحك يا «سنوحى» سرورا بالنصر العظيم الذى أوتيه الهك « آتون » ! .. انكم أيها الرجال جميعا مصدر الشرور فى الدنيا ، وانكم لسواء فى الغباء ، لا تتعلمون ولا تفقهون ! .. نعم ، كل الرجال أطفال يترامون بالأحجار ويضرب بعضهم بعضا دون تفكير فى العواقب ! .. وأشد ما يبهجهم أن يروا الذين يحبونهم حزانى بسبب معابثهم البلهاء .. وهأنذا يا « سنوحى » .. لقد أحببت لك الخير دائما ، فكان جزائى أن صرت ذات ساق عرجاء وجسم دامى الجراح ، وليس عندى الا صبابة من قمح متعفن لاتقيم لى أودا ولا تدفع عنى جوعا ! .. جناية جنيتها يا « سنوحى » ، ولا يعنينى منها أمر نفسى ، وانما يعنينى منها ويبكينى ذلك المصير المفجع الذى صارت اليه « ميرييت » وطفلها اللطيف المحبوب ! .. لقد كانت تحبك، كما لم تحب امرأة رجلا ! .. فراحت ضحية أفكارك المخرفة ، ولقيت منك شر جزاء ! .. وذلك الصغير « تحوتمع » ! .. ماجريرته ؟! انه كان عندى بمنزلة الابن العزيز ، وكنت أسعد ما أكون حين أقدم له الكعك المعسول مصنوعا بيدى فيأكله فرحا ! .. ولكن ماذا يهمك من هذا كله ؟! ألست رجلا من الرجال ؟! كل الذى تبتغيه وتعنى به ، أن تجيىء الى هذه الدار متأنقا رافلا فى مظاهر الثراء ، لتبحث تحت هذا السقف الذى

تفصدت عرقا من اقامته والابقاء عليه . مراحا ومضطجعا ومجلس طعام وشراب ! ٠٠ وانى لعلى ثقة من أنك مع هذا ستفتتح صباح الغد بضربى وتأنيبى لأنك لاتراني على ماكنت عليه من خفة ونشاط فى خدمتك ! ٠٠ فهذه دائما حال الرجال ، يرهقون خدامهم بالأعمال ، ويأبون أن يشاركوا فيها لأنهم يستطيبون الكسل ويغتصبون راحتهم من أيدى الآخرين ! ٠٠

هكذا كانت تتكلم ، بينما كان فكرى شاردا ، كما كان قلبى طافحا بالأسى ، واعتادتنى ذكرى أمى « كيفا » وحبيبتى « ميرييت » ، فاشتدت لذكراهما لوعتى ، فبكيت ٠٠

واضطربت « ميوتى » لبكائى ، فاستدركت تقول : انك لا شك تعرف يا « سنوحى » أننى لم أرد ايلامك ، وانما أردت نصحك وتوجيهك الى طريق السلامة ، ولايزال عندى ملء قبضة اليد من الحنطة ٠ وانى لصانعة لك منها خبزا طيبا ، وسامهد لك فراشا مريحا من السمار الجاف فلاتزعجنك الحاجة وحواء اليد ، فلن يمض طويل وقت حتى تعاود عملك فى مهنتك فيصبح العسر يسرا وتعود الى ما كنت فيه من رخاء ! ٠٠ وفى وسعى ، الى أن يتم هذا ، أن أدبر الأمر بنفسى ، فانى واجدة فى بيوت الأغنياء عملا ذا أجر حسن ، هو غسل الملابس الكثيرة الملطخة بالدماء ! وسيكون من اليسير أن أقترض جرة جعة من بيوت الملذات التى استحوذ عليها الجنود ، لتجد فيها شرابا يشرح صدرك ! ٠٠

وأخجلنى كلامها ، فتمالكت نفسى وجففت دموعى ، وقلت لها : لم آت الى هنا يا « ميوتى » لأكون عبئا عليك ! ٠٠ وانما جئت لأرى المنزل الذى كان موطن سعادتى فى بعضما مضى من أيامى ، وألمس بيدى لحاء الشجرة التى شهدت هذه السعادة ، وأتحسس الارض الطيبة التى خطرت عليها يوما « ميرييت » الحبيبة و « تحوتح » العزيز ! ٠٠ وانى لتاركك الآن وقد لا أعود لوقت طويل ، وسأبعث اليك ، ولو بالقليل من النقود الفضية لتستعينى به على تدبير حياتك فى غيبتى ، فانك من نفسى بمنزلة أمى ، وأنا شاكر لك عواطفك التى تدل على طيبة قلبك ، ولا يؤلمنى من لسانك أنه فى بعض الأحيان يكون أشد وخزا من الأبر ! ٠٠

وبكت « ميوتى » فى تأثر ، ومسحت أنفها بظهر يدها العجفاء ، وأبت ان اذهب قبل أن أطعم من الطعام التافه الذى قدمته لى ، واضطررت أن أتناوله ارضاء لها ، وكانت تستحثنى عليه قائلة : انه طعام غير لائق ولكنه جدير بأن تستطيبه لانه من يدى ، ولأنك فى حاجة اليه على أية حال ، فما أحسب الا انك مندفع برأسك المختبل فى الطريق الشائك

الذى لاتجد فيه كسرة من قديد ! ‥ فخذ من طعامى هذا مايسد رمقك ويشد قواك ! ‥ ولاتبطىء فى عودتك الى ، فانى هنا دائما بانتظارك على شوق واخلاص ! ‥ ولا يشغلنك أمرى ، فانى بالرغم مما يبدو لك من ضعفى أشعر بالقوة والنشاط ، وسأظفر بما يكفينى مادامت توجد فى « طيبة » ملابس وحنطة تحتاج الى من يغسلها ومن يخبزها ! ‥

وقضيت يومى وسط الخرائب التى بقيت من منزلى ، مسترسلا مع الأفكار المتلاحقة التى أطبقت على رأسى من هنا ومن هناك ، وكانت كثيرة بعدد ما ألم بحياتى من أحداث ليس فيها الا ما يروع ويفزع ، ولم أفطن الى انقضاء اليوم الا حينما أوقدت « ميوتى » نارا لتضيىء ظلام الليل الذى أقبل . وقد نزعت نفسى عندئذ الى البقاء حيث أنا ، مؤثرا العزلة عن الناس ، فما نالنى باختلاطى بهم غير الشقاء وفقد الأحباء ، وقد جئت الى الحياة وحيدا ، مقذوفا بى على ظهر الماء ، فلم لاأعيش وأموت ، كما ولدت وحيدا ؟!

ولكنى خرجت من هذا الذى نازعتنى اليه نفسى ، عندما سمعت أصوات الحراس وهم يدقون على دروعهم ،تحذيرا للناس من البقاء بين الخرائب ، فنهضت وودعت « ميوتى » وأخذت طريقى مرة أخرى الى بيت « فرعون » الذهبى ‥ وخلال الشوارع التى مررت بها كانت تومض أنوار الاحتفال الذى شمل « طيبة » ابتهاجا بتتويج « توت عنخ آمون » ومن قريب كنت أسمع نغمات الموسيقى وهتافات الأفراح ! ‥

- ٧ -

وفى الليلة نفسها ، كان الكهنة يعملون فى حماس شديد بمعبد « سيخمت » لازالة الحشائش التى تشعبت بين أحجاره ، وعششت فوق بلاطه ، واعادة تمثال رأس الأسد الى الموضع الذى كان قائما به ، وتزيين ردائه الكتانى الأحمر بشارات الحرب الدامية ! ‥

وخلا « آى » الى « حورمحب » بعد أن انتهى من مراسم تتويج « توت عنخ آمون » بتاجى المملكتين الأحمر والأبيض ، وقال له : هاقد أظلنا وقت العمل ، وبدأ دورك يا ابن الصقر ! ‥ فهيا الى النفير فانفخ فيه اعلانا للحرب ، ولتتدفق الدماء ، تطهيرا لأرض « كيم » ، واقرارا لكل شىء فى مكانه ، وتعفية لذكرى « فرعون » الزائف فى نفوس الناس ! ‥

وعندما كان صوت نفير الحرب يدوى بأمر « حورمحب » فى اليوم

التالى ، كان « توت عنخ آمون » مستغرقا فى ملهاته المحببة الى نفسه ، يلاعب زوجته بما بين يديه من الدمى المختلفة الصور والألوان ، كما كان كهنة « آمون » مستغرقين كذلك فى مرحهم نشاوى بخمر السلطان الذى استعادوه ، حارقين البخور فى أنحاء المعبد الكبير وهم يرددون اللعنة الأبدية على « أخناتون » ! ..

وأقبل « حورمحب » على رأس قواته المجهزة للقتال ، مارا بطريق « وامس » ، متجها الى معبد « سيخمت » ليقدم القرابين الى الآلهة !..

وكان وهو يسير بين الناس فى موكبه اللجب يصطنع البساطة ، ليؤثر فى حكمهم على أخلاقه وتقديرهم لسلوكه ، ولهذا كان يركب عجـــلة نقل ثقيلة تجرها جياد عارية من ريش الزينة ، ومجردة من الطلاء الذهبى، على غير ما ألف الناس فى مظاهر قادة الحروب ورؤساء الجيوش ! .. والحق لقد أضفى عليه هذا جلالا وروعة ! ..

وكنت أرافقه فى موكبه هذا الى المعبد طوعا لأمره ، فلما بلغنـــا أبواب المعبد النحاسية التى فتحت على مصاريعها أمامه ، ترجل من فوق عجلته ودخل متبوعا بضباطه ورجاله ، فاســـتقبلهم الكهنة ، وأيديهم وأثوابهم ملطخة بدماء القرابين ، وتقدموه الى تمثـــال الالهة حيث كان الرداء الأحمر المسدل عليه يمثل هو الآخر لون الدماء القانية ، وقد لاح رأس التمثال فى ضوء المعبد الخافت كأنه يتحرك ، وكانت الجوهرتان المركبتان فى عينيه تشعان اشعاع الحياة النابضة ، وخيل الى «حورمحب» أنهما مصوبتان اليه وحده ، كأنهما تذكرانه بالقلوب الدافئة التى تجمعت بين يديه من القرابين البشرية .. فتقدم وأخذ يصلى للنصر الذى ينشده ، ويمضى فى طلابه ! . . بينما كان الكهنة يلتفون حوله مهللين والسكاكين فى أيديهم يطعنون بهـــا أجسامهم ، ويقـــولون له فى صوت واحد : عد منتصرا يا « حورمحب » يا ابن الصقر ! عد منتصرا ، وستتلقاك الآلهة متنزلة من عليائها ، فياضة الحياة لتضمك الى أحضانها !

ولكن « حورمحب » لم يعرهم فى حركاتهم ودعائهم التفاتا ، فأدى واجباته التعبدية فى هدوء ووقار ، وخرج من المعبد رافعا يديه الملطختين بالدماء ليجد جموع الناس قد احتشدت فى ساحته الأمامية ، فوقف بينهم وتحدث اليهم بصوته الجهير قائلا : ــ

يا أهل أرض « كيم » ! .. استمعوا الى وافتحوا آذانكم وقلوبكم لما أقول ! .. انى ، أنا « حورمحب » ابن الصقر ، أحمل بين يدى النصر الذى يخلد به الفخار والمجد لكل الذين يتبعوننى الى الحرب المقدسة ! .. الحرب التى لا معدى منها لحرية هذا الوطن وعلو شأنه بين الأوطان ! ..

ففى هذه اللحظة تنثال على صحراء « سيناء » عجلات الجيشين الحربية ، وقد أخذت طلائع جيشهم توغل فى المملكة السفلى وتنشر عليها ظلالا قاتمة من التخريب ! ٠٠ ولم يحدث أن كانت أرض « كيم » مهددة بمثل هذا الخطر فى أى وقت مضى ! ٠٠ انهم فى طريقهم اليكم ، وقواتهم لاتحصى عددا ، وفيهم غلظة وقسوة ، فلئن ظفروا بكم ، فلن تأخذهم فيكم رحمة، سيهدمون بيوتكم ، ويفقأون عيونكم ، ويهدرون دماءكم ، ويستحيون نساءكم ، ويستبيحون أعراضكم ، ويتخطفون أبناءكم ، ويتخذونهم عبيدا وأرقاء ! ٠٠ انها ــ اذن ــ حرب مقدسة أيها الرجال ! ٠٠ حرب فى سبيل حياتكم وآلهتكم وكرامتكم ! ٠٠ فلا مناص من أن نحشد لها كل القوى لندفع هؤلاء المغيرين ، ونردهم على أعقابهم خاسرين ، ونعيد «سوريا» الى حظيرتنا ، ونسترد ما انتقص من أرضنا رضاع من سلطاننا ٠ وعندئذ يعود الرخاء ويرغد العيش ، وتظفرون من أعدائكم بالغنائم والأسلاب ، من حنطة ومال ، فوق ما تظفرون به من لذة النصر عليهم والنكال بهم !٠٠ فاليوم يوم الجد ، يوم الحياة أو الموت ، وقد سخر الأعداء منا ، وظنوا الضعف فينا ، حين تركنا لهم الأبواب مفتحة ، والطريق خاليا ، وحين لم يكن يباح لنا أن نلقاهم بقوة السلاح والرجال ! فالآن ، وقد انقضى عهد الاستخذاء والأوهــــام ، لم يبق ثم عذر لمعتذر ، ولا حجة لقاعد متخلف ، فعلينا جميعا أن نكون جنود المعركة الكبرى ، وأن نقف دون العدو الزاحف فى وحــــدة كاملة ، لنحفظ لمصر عظمتهــا الحربية التى لا تطاولها فيها أمة من الأمم ٠ وانى لأناشد نساء « مصر » أن يضفرن من شــــعورهن أوتارا للأقواس ، ويدفعن بأزواجهن وأولادهن الى هذه الحرب المقدســـة ، وكذلك أناشد رجال « مصر » أن يستجيبوا الى نداء وطنهم وأن يصــنعوا من أدوات زينتهم نصـــــالا للســـــهام ، وينبعثوا خفافا ورائى الى ساحة القتال كما ينبغى أن يفعل الرجال ! ٠٠ ولكم على جميعا عهد لا أتردد فيه ولا أنكص عنه ، هو أن آتيكم بالنصر المؤزر الذى لم ير له العالم مثيلا فى تاريخه القديم ! ٠٠ سنذهب أيها المصريون من ساعتنا هذه الى الحرب ، ترفرف علينا أرواح الفراعين العظام وآلهة « مصر » كلها وفى مقدمتها « آمون » العظيم ! ٠٠ أيها الناس : استمعوا الى ، وافتحوا آذانكم وقلوبكم لما أقول ! ٠٠ واشهدى أيتها الآلهة ، فقد قلت كل مالا بد من أن يقال ، أنا « حورمحب » ابن الصقر ! ٠٠

وما ان انتهى «حورمحب» من خطابه هذا المتدفق حماسة حتى قوبل من الجموع الزاخرة ، بعاصفة مدوية من صيحات التأييد وهتافات الدعاء ، ثم نفخ فى النفير ، فضرب الجنود بالحراب على دروعهم ودقـــوا الأرض

بأقدامهم ، وسار هو الى عجلته فارتقاهـــا ، ومضى بها فى طليعة موكبه ميمما شطر الميناء ، ومن هناك استقل سفينته ليبحر بها الى « ممفيس » معجلا ، فقد طال ابتعـــاده عن مسرح المعركة ، وكان آخر نبأ تلقاه عن « الحيثيين » أن جيادهم لا تزال توغل فى مراعى « تانيس » ، فكان عليه ان يعجل بالرحلة اليهم ، وصمدت اليه فى السفينة ، دون أن يعترضنى احد ، وقلت له : لقد مات فرعون « أخناتون » يا « حورمحب » ، وتحللت بموته من القيد الذى كان يربطنى به ـ كطبيب الملك ـ واصبحت لذلك حرا اغدو واروح على ما اريد . وقد رأيت أن ارافقك الى المعركة ، غير وجل منها . فالحياة عندى لا قيمة لها ، وفى أى مكان لا أشعر بالسعادة ، وانى لمشوق الى شهود هذه الحرب المقدسة التى اجهدت نفسك فى الحديث عن بركاتها حتى يتاح لى ان ارى عن كثب ، وعلى بينة ويقين ، ما اذا كان عهدك الذى تبشر به ، خيرا وأكثر جدوى ، من حكم « أخناتون » ، أم أن هذه الأرض قد قضى عليها أن تحكمها أرواح الجحيم ! ..

فتبسم « حورمحب » ضاحكا من قولى ، وقال : لعل من علامات الخير ان تكون أنت يا « سنوحى » أول متطوع فى هذه الحرب . على انى أخشى الا تثبت على ذلك ، فقد صرت أميل الى الدعة وإخلد الى الراحة ، تؤثر المقعد الوثير على المركب الخشن ، وقد تستطيرك الحرب بمفازعها ، فتندم حيث لا يجديك الندم ، وكنت اوثر أن تبقى هنا لترعى مصالحى فى البيت الذهبى ، ولكن قد يكون من الخير لى أن تكون بمبعدة من هـــذا البيت ، فى هذه الظروف ، ذلك لأنك لست بالرجل الماكر الذى يفلت من مكر الآخرين ، وفى وسع أى انسان أن يستهويك ويجرك من أنفك ! .. فلتكن ـ اذن ـ الى جانبى ، رفيق حرب وصديق غربة ، وأنت الى ذلك طبيب ماهر ، وكثيرا ما تدعو الحاجة اليك ، وسوف يغتبط رجالى بك ، فلا يزالون على اعتقادهم بأنك ذو قوة وبأس ، منذ رأوك فى حرب العبريين ، تعلو ظهر الحمـــار الوحشى فينطلق بك بين أنجاد وأغوار ، وخلال مهالك وأخطار ، فلا تصاب مع ذلك بأذى ، ويرون أن هـــذا ، ما كان يستطاع لولا أن لك قلبا أقوى من قلب ذلك الحيوان المتوحش ! ..

وتحركت الســـفينة وأخذ البحارة يضربون بالمجاديف فى الماء ، والجماهير اذ ذاك متحشدة على رصيف الميناء ، تلوح بأيديها مودعة ، فى صياح يشق اجواز الفضاء ! ..

وشاعت فى وجه « حورمحب » نضرة الارتياح لما يرى من اقبال الناس عليه ، ومظاهر ثقتهم به ، وقال لى : الا ترانى قد نجحت فى التأثير فيهم واستمالة مشاعرهم ؟!

ورافقته الى مركز قيادته بالسفينة ، فغسـل يديه وشمهما وقال ببرود : بحق « ست » وكل الشـياطين ، انى ما كنت أظن أن كهنة « سيخمت » لايزالون على عادتهم فى تقديم القرابين اليها من البشر ! ٠٠ ولا شك أن أولئك الكهنة القـدامى كانوا فى عملهم هـذا ، مأخوذين بالذهول ، ولعل هذا لأن أبواب المعبد لم تفتح لأكثر من أربعين سنة مضت ! ٠٠ والعجيب من أمرهم أنهم يحرصون على أن يشهد شعائرهم هذه ، الأسرى من السوريين والحيثيين ! ٠٠ ولو كنت قد عرفت ذلك قبل مقدمى عليهم لما سمحت لهم به ، فكم كنت منزعجا عندما ألقوا بين يدى بالقلوب الدافئة لضحاياهم البشرية ، ولكن لماذا أعنى النفس بهـذا الآن ؟! فليكن لهم ما شاءوا من طقوسهم وعاداتهم ، فذاك أمر لا يضيرنى على أية حال ! ٠٠

وشـممت فى كلمـاته رائحة الشـك فقلت له : ألست تؤمن يا « حورمحب » ، بأن هناك أشياء مقدسة ؟!

فسكت قليلا ثم قال : فى شـبابى كنت أومن بالصداقة وبراءة القلب ، وبهذا الايمان أحببت أقوى مـا يكون الحب ، ولكن المرأة التى أحببتها اجتوتنى فى احتقار ، فصار حبى لها جنونا !٠٠ أما الآن ، فايمانى ينحصر فى حقيقة واحدة ، هى أن المخلوقات البشرية ليست سوى وسائل الى أهداف ، وأن نفسى قد ارتقت الى أعلى مراتبهـا حتى لأعدها المحور الذى تصدر عنه وترد اليه كل الشئون ، ومن هنا أصبحت « مصر » بكل من فيها ومافيها ، تتمثل فى شـخصى ، وتنبثق منه ٠ وما كفاحى فى سبيل عظمتها وقوتهـا ، الا الكفاح فى سبيل عظمتى وقوتى ! ٠٠ تلك هى الحقيقة التى أومن بها وأقدسها ، دون غيرها يا « سنوحى » ! ٠٠

ولم يكن لكلامه هذا كبير أثر فى نفسى ، فقد عرفته قبل ذلك مفتونا بنفسه ، مأخوذا بالغرور الى حد بعيد ، على الرغم من أن أبويه كانا من الرعاة صانعى الجبن ! وكان واضحا أنه يحملنى بذلك على أن أنظر اليـه نظرة التقديس ، ولكنى أخفيت شعورى وواريت أفكارى ، ورحت أتحدث اليه عن الأميرة « باكيت آمون » ، وكيف أنها لم تعط مكانا ملحوظا فى موكب « توت عنخ آمون » ! ٠٠ فوقع هذا من نفسه الموقع الذى هدفت اليه ، فأخذ يصغى الى فى انتباه ويستزيدنى من الحديث عن الأميرة ، ويغرينى فيه بشراب النبيذ ! ٠٠

وعلى هذا قضينا الوقت فى سفرنا ، مبحرين الى « ممفيس » ، بينما كانت عجلات الحيثيين الحربية تواصـل عملهـا ، تخريبا فى المملكة السفلى ! ٠٠

الحرب
المقدسة



- ١ -

ووصلنا الى « ممفيس » وفيهـا تجمعت القوات ومعدات الحرب وذخائرها ، فاستدعى اليها « حورمحب » ، الأغنياء وأصحاب الثراء فى البلاد ، ووقف فيهم خطيبا فقال : اننا مقبلون على حرب نخوض فيهـا عباب الموت دفاعا عن بلادنا التي يحيط بها اليوم عدو قوى ، مخيف فى وحشيته ، كما لابد أنكم تعلمون ... وامر هذه الحرب يعنيكم انتم أكثر مما يعنى سواكم ، فأنتم وجوه البلاد وأثرياؤها وأوفر الناس حظوظا من خيراتها ، فالمعركة فى الحقيقة معركتكم ، والأرواح تبذل فيها رخيصة من أجلكم ، وما كنت الا راعيا نشأ والطين عالق بأصابع قدميه ، ولست على قيادة الحرب الا بارادة « آمون » الذى زودنى ببركاته فيها ، فانبعثت لها مؤيدا بثقة « فرعون » . على أنه فى سبيل احراز النصر ، ينبغى أن يكون لنا ــ نحن الذاهبين الى الموت ــ عضد منكم ، أنتم الذين ستجنون غـدا ثمار هذا النصر ، دون أن تنقصوا قطرة من دمائكم ! .. وقد اقتضانا التجهز للحرب أن نخفض من أقوات أرقائكم وعمالكم ، فارتفعت من جراء هذا أثمان البضائع والسلع فى سائر أنحاء « مصر » ، وسيضيق بارتفاعها هؤلاء الفقراء ، ولكنهم سيحتملون ضيقهم فى سبيل معركة مقدسة ، يجب على كل فرد أن يساهم فيها بكل ما فى قدرته من تضحية ، وأراكم ، بعد ، قد أدركتم ماذا عليكم أن تفعلوا فى أداء هذا الواجب العام ! .. ولست أشـق عليكم ، فما أريد الا أن يقرضنى كل واحد منكم ، فى الحال ، نصف ما يملك من ذهب أو فضة أو حنطة أو ماشية أو جياد أو عجلات ، فكل ذلك لا معدى منه لنا فى حرب نريد أن نعود منها وعلى رؤوسـنا أكاليل النصر ! ..

وأخذهم الفزع من هذا ، فتصايحوا معترضـين ، وقالوا وهم يمزقون ملابسهم : ان « فرعون » الزائف قد أنزل بنا الفقر والفاقة ، فلم يبق لدينا مال نعطيه أو نشب نقدمه ! ..

ثم عادوا ، كأنما أدركوا أن هذا لن يعفيهم ، فقالوا : ولكن ماضمان الوفاء بهذا القرض ، وما فائدتنا منه ؟!

وأجاب « حورمحب » : ضمانه النصر الذى سأحرزه لكم ، أيهـا

الأصدقاء ! وسيأتيكم بالسرعة نفسها التى تقدمون بها قروضكم ! ٠٠ بيد أنكم قد نسيتم شيئا كان عليكم ألا تنسوه قبل أن تذكروا ضمان الوفاء بالقروض ٠٠ ذلك أن « الحيثيين » اذا ظهروا علينا ، فسيجيئون اليكم ويجردونكم من كل شيء ! ٠٠ وقد تعجلتم ، فتساءلتم عن فوائد قروضكم ، وكان ينبغى أن تصبروا حتى تسمعوا منى بقية الحديث ، فانى لم أفرغ منه بعد ! ٠٠ فهذه الفوائد ، أيها السادة ، لم تغب عن خاطرى ، وقد دبرت امرها فيما سأعقده من اتفاق مع كل منكم بمفرده ٠٠٠ واليكم موجزا من هذا الاتفاق الذى لا شك فى أنه سيكون مقبولا ! سآخذ منكم ، لساعتى هذه ، نصف ممتلكاتكم قرضا ٠٠ وبعد أربعة أشهر ، سآخذ نصفها الآخر ٠ فان امتدت الحرب الى عام ، فسآخذ نصف ما تكونون قد جمعتم ، وحسبكم ما يبقى لكم بعد ذلك ، فانكم لتحذقون تدبير المال وجمعه ، ولا شك عندى فى أنه سيكون بين أيديكم منه ما يزيد على حاجات معيشتكم الى آخر حياتكم ! ٠٠ هذا هو اتفاق القرض وفوائده ، ولعلكم قد اقتنعتم الآن بانى لا آخذ أموالكم نهبا ! ٠٠

فارتعدت فرائصهم ، وتراموا على الأرض بين يدى « حورمحب » ، وراحوا يمرغون وجوههم فى التراب ، ويضربون جباههم فى الأحجار ، حتى تفجرت منها الدماء ، وهم يجهشون بالنحيب والبكاء ! ٠٠

وقال لهم « حورمحب » بلهجة لا تخلو من التهكم : ما هذا يا أصدقائى ؟! ٠٠ لقد دعوتكم لبالغ ثقتى بوطنيتكم ، فأنتم — ولا ريب — تحبون « مصر » ، وتسترخصون كل غال فى سبيلها ! ٠٠ وما أطالبكم من أجلها بالكثير الذى يند عن قدرتكم ، لأنكم أغنياؤها وذوو المال الوفر فيها ، وقد جمعتم ثرواتكم بذكائكم وجهودكم ، فلن يضيركم أن تنزلوا عنها كلها أو بعضها ، فسيكون فى وسعكم أن تستردوها وتستكثروا منها فى وقت قصير! ٠٠ والمجال دائما فسيح أمام الأذكياء من أمثالكم ، والمال يغرى بالمال ، والغنى يزداد غنى ، فلا عليكم من بأس فى أن تشاركونا بما فى أيديكم اليوم ، وفاء بحق وطنكم ، فليس من هذا مناص ، وهو على أية حال لا يكلفكم حياتكم ، فستبقون هنا ناعمين بها ، بينما يساق هذا الجيش ، كما ترون ، ليبذل الألوف من رجاله هناك أرواحهم وحياتهم ! ٠٠ فأنتم ، فى هذه القسمة ، الرابحون لا محالة ! ٠٠ وان مثلكم منى لهو مثل الحديقة المثمرة من البستانى الماهر ، فان قطفت الثمار الآن فانى مبق على الاشجار ، لتعطى ثمرا جديدا ! ٠٠ فلا تخافوا ولا تحزنوا ، فسأدير ، لخيركم وخير وطنكم ، حربا عظيمة ، أعظم مما تتصورون ! ٠٠ وسأنتصر فيها نصرا يرفع رءوسكم ويمكن لكم فى الحياة

السعيدة الراغدة ! ٠٠ والآن أيهـــا الرجال ، عودوا الى بيوتكم مزودين ببركاتي ، وكونوا على سابق العهد بكم ، جدا ومثابرة ، واستكثارا من الثراء ، ويمكنكم أن تنصرفوا عنى آمنين ، منتفخى الأوداج كما يحلو لكم أن تفعلوا ، فليس هناك شيء يمنعكم من ذلك ! ٠٠

وتركهم « حورمحب » ، وهم لا يزالون على حالهم ، انتحابا وأنينا وتمزيقا للملابس ، ولكنهم كفوا عن ذلك بعد خروجهم ، اذ أخذوا ــ فى استسلام للأمر الواقع ــ يقدرون باهتمام حساب خسائرهم ويرسمون الخطط لتعويضها ! ٠٠

وقال لى « حورمحب » : ان هؤلاء المتظاهرين بالتفجع سيجدون فى الحرب فرصتهم الكبيرة ليسرقوا الناس خلال نقعها ونارها ، فهى لهم غنم كيفما كان مصيرها ، وسوف يداخلون النـــاس الذين يسرقونهم ، زاعمين ان هذه الحرب قد رمتهم بالكوارث ، ويلعنون « الحيثيين » الذين أثاروها عليهم عدما وفقرا !٠٠ كما سيكون في وسع «فرعون» نفسه أن يقول مقالتهم ويزعم زعمهم كلما عصفت المجاعة بنابها فى الشعب !٠٠ فهذا الشعب هو لعبتهم جميعا ، يغررون به ويعتصرونه ، ومن أجل ذلك فلن أنفك أطالبهم بالمزيد من القروض حتى لا يذهب مال الشعب كله لقمة ســـائغة فى بطونهم ! ٠٠ وتلك وسيلة حسنة تغنينى عن فرض ضريبة حرب ، فلو أننى فرضت هذه الضريبة فستعم الشعب وتفدح كاهله، فيلعن اسمى ويضطغن على ، واذن ــ فليفعل الاغنياء ما شاءوا بالعامة والفقراء عن غير طريقى ، فانهم ــ عندئذ ــ ســـيلعنونهم ، فى حين يعظم قدرى بينهـــم ، ويزداد حبى فى قلوبهم ، فيرددون اسمى مقرونا بالعـــدل والانصاف ! ٠٠

وكانت عصابات « الحيثيين » فى ذلك الوقت قد أحالت أراضى الدلتا بلاقع وخرائب ، وراحت توقد النار فى القرى ، وتطلق جيادهـــا راعية فى منـــابت القمح ، وتنشر هنـــالك الرعب والفزع ، حتى ترادفت على « ممفيس » حشود الفـــارين واللاجئين ، وكان ما يذكرونه عن فظـــائع « الحيثيين » ووحشيتهم يثير القلق والخوف ٠ وأحسست بقلبى يضطرب جزعا من ذلك ، فطلبت الى « حورمحب » فى ضراعة أن يعجل بملاقاتهم ! ولكنه ابتسم وقال دون اكتراث : من الخير أن يظلوا هكذا بعض الوقت ، ليعلم المصريون ما يجهلون من خطر « الحيثيين » وقسوتهم ، ويستيقنوا من أنهم اذا وقعوا فى قبضات أيديهم فسيجعلونهم عبيدا أذلاء ! ٠٠ ذلك الى أن من خطل الرأى المبادرة بالهجوم عليهم بهذه القوات التى تنقصها العجلات الحربية ! ٠٠ ولا أرى مع ذلك ما يوجب القلق يا « سنوحى » ، فان « غزة » لا تزال لنا ، وهى حجر الزاوية الذى أستند اليه فى هذه

الحرب ، ولو حدث أن سقطت في أيدى « الحيثيين » ، فانهم قلما يجترئون على ارسال قواتهم الرئيسية الى الصحراء ، ورقابتنا البحرية عليهم ناشطة في يقظة ودأب ، وقد بثثت في الصحراء رجالا ذوى بصر ، يجوسون خلالها ويثيرون من فيها من قطاع الطرق ورجال العصابات المحاربين ، ويتعجلونهم العمل لمناجزة « الحيثيين » من وراء ظهورهم ! .. فعسى أن تكون قد فطنت الآن الى أن الزمام في يد الرجل القوى واسع الادراك ، وتستطيع أن تكون أكثر اطمئنانا ، اذا علمت أنه ليس ثم من خطر مخيف على « مصر » الى أن يتمكن « الحيثيون » من دفع مشاتهم خلال الصحراء الى الأرض السوداء ! ..

وتواردت على « ممفيس » بعد ذلك جموع كثيرة من الرجال ، قادمين اليها من كل أنحاء « مصر » لينضموا الى صفوف القتال ، وهم اما جياع لم يجدوا في غير الحرب وسيلة الى القوت ، واما يائسون أوبقهم عهد « آتون » ففقدوا بيوتهم وأعزاءهم وأصبحت الحياة لا قيمة لها عندهم ، واما مخاطرون يندفعون الى الحرب طمعا في غنائمها ! ..

ودون مبالاة بارادة الكهنة ورغباتهم ، أصدر « حورمحب» عفوا عمن ساهموا في بناء مملكة « آتون » ، وأطلق سراح المسجونين بالمحاجر ،لينظمهم في سلك الخدمة الحربية ، فتكاثر بهم عدد الجنود ، وباتت « ممفيس » معسكرا كبيرا ، تفور الحياة فيها فورانا شديدا ، فاكتظت الحانات وبيوت الملذات بالرواد والسكارى الذين لم يكن يهدأ صخبهم أو ينقطع شجارهم ، بينما كانت الحركة على أشدها في المصانع ، تنبعث منها انبعاثا متواصلا دقات المطارق وأزيز المراجل ! ..

ووضع « حورمحب » أرصاده على الموانىء المصرية ، واستولى على كل السفن المقبلة من جزر البحر المختلفة ، بكل من فيها من ربابنة وملاحين ، وألحقهم بخدمته ، ولم تفلت من أسره السفن الحربية الواردة من « كريت » ، وكانت هذه السفن كثيرة الانتشار في البحر ، غادية رائحة بين المواني دون أن تستقر في بلادها . وقد روى الذين كانوا فيها أن الثورة اندلعت بين الارقاء في « كريت » وأن مدينة النبلاء القائمة فوق التل بتلك الجزيرة قد اشتعلت فيها النيران الى أن أتت عليها منذ اسابيع مضت ، حتى أنها لتبدو في البحر كأنها شعلة مضيئة ! .. على انه لم تكن هناك مصادر موثوق بها لمعرفة الاحداث الجارية في «كريت» على حقيقتها ، وقد عرف عن البحارة من أهلها أنهم قلما يصدقون في رواية ينقلونها ، فمن عادتهم أن يكذبوا ويهولوا . ومما يجرى في هذا المجرى أن بعضهم زعم أن « الحيثيين » قد غزوا جزيرتهم ! .. وعارفو

الحقائق لا يتصورون حدوث شيء من هذا ، فالحيثيون ليســوا قوما بحريين . كذلك زعم بعض هؤلاء الكريتيين أن أناسا غير معروفي الجنس، غزيرى الشعر ، قد أبحروا من الشمال الى « كريت » لتخريبها ونهبها !..

وعلى اختلاف روايات الكريتيين وتنوع صورها عن أحداث جزيرتهم، فانهم كانوا على اتفاق في أن المصائب قد حلت بهم بعد موت الههم ! .. وأنهم قد برموا بالحياة هناك ، فراحوا ينشدونها فى اى مكان ، ولهذا فانهم يشعرون بالغبطة والسرور اذ يعملون فى خدمة المصريين ، وأضافوا الى ذلك أن رفاقا لهم من أبناء جزيرتهم قد اتجهوا الى «سوريا» وتحالفوا مع الملك « عزيرو » والحيثيين .

وكانت هذه المعلومات ذات فائدة كبرى « لحورمحب » واتته من حيث لم يكن يتوقع ، وقد بدأت الحال تتكشف له في البحر مؤيدة هدا، فالسفن تتنافس على اتجاهاتها ، والعيون الراصدة فى الموانىء تجتذبها وتستهويها . وكانت عيون « حورمحب » أكثر رصدا وأقوى نفاذا ، فرجحت كفته فى مضطرب هذا التنافس البحرى ، ذلك الى أن عصيانا ثار ضد « عزيرو » فى مدينة « تاير » ، ففر العصاة ووصلوا أحياء الى « مصر » ، فتلقفهم « حورمحب » وضمهم الى قوته البحرية ، وبذلك استوى له أسطول بحرى مجهز بالبحارة المدربين ، يعتضد به فى خوض المعركة برا وبحرا ! ..

وعندما حل موسـم الحصاد ، وبدا النيـــل فى الفيضان ، كان « حورمحب » قد استوفى حاجته من الاستعداد ، وكانت « غزة » لاتزال صامدة في وجه الحصار الآخذ بخناقها ، فأرسل اليها ــ على سفينة بحرية ــ أمدادا كثيرة من غرائر القمح طوى فى كل منها رسالة تدعو الى الثبات والدفاع عن المدينة بأية تضحية ! .. وأرسل مع شحنة البحر ، رجالا أشداء مزودين بالسلاح ، وآخرين مثلهم عن طريق البر ، راسما لهم جميعا خطة الاندساس فى صفوف المحـاربين المحيطين بالمدينة ! .. وفى الوقت نفسه أخذ يتحرك من « ممفيس » بقواته وفصائله ، متجها بها الى « تانيس » ! ..

وقد استطاع رجاله المبعوثون الى « غزة » أن يتسللوا وفق الخطة المرسومة الى صفوف « الحيثيين » ويندسوا بينهم دون أن يستريبوا بهم، فقد كانوا يفعلون فعلهم ، ضربا بالسهام وقذفا بالغرائر والجرات ! .. ولكن ضرباتهم « الحيثيين » وقذائفهم كانت ، سهاما قاتلة أو مشتعلة ، أو جرات مختومة محشوة بالثعابين السامة ، تتساقط على المدينة من فوق

أسوارها للقتل والتدمير · أما سهام وقذائف رجال « حورمحب » ، فكانت تساقط عليها رسائل مكتوبة ، تبشر أهلها بالنصر القريب وتدعوهم الى الصمود في موقف الدفاع ، وتنثال عليهم معها غرائر القمح التى تسد حاجتهم وتشد قواهم ! ··

والحق ، لقد كان تماسك « غزة » وثباتها أمام هذا الهجوم العنيف الذى يشترك فيه – جنبا الى جنب – رجال « عزيرو » وجنود «الحيثيين»، مما يدعو الى العجب والاعجاب ، والدهشة والاكبار ، فانها ولا شك بطولة نادرة ، وشجاعة فوق مستوى الشجاعات !·· ولكنى لم أستغرب هذا من قائد حاميتها القادر شديد المراس ، ذلك الذى لم يسمح لى ، مرة ، أن أدخل المدينة ، وأنا يومئذ مبعوث « حورمحب » ورسول « فرعون » ، الا من فوق الاسوار ، موضوعا فى سلة ومجرورا بالحبال ! ·· ان هذا الرجل جدير حقا بالثناء والمجد والشهرة ، لاحتفاظه « بغزة » تابعة لمصر، رغم هذا الموقف العسير غاية العسر !··

وفى طريق « حورمحب » تراءت له من قريب ، فرقة من عجلات « الحيثيين » تقف على أحد خلجان النهر ، فأمر رجاله ، فاحتفروا تحت ستار الظلام ، قنوات الرى الجافة ، فتدافعت اليها مياه النهر من عل ، واستفاضت فيما حولها من جنبات واسعة ، وأصبح « الحيثيون » ، فاذا هذا الغمر من المياه يحيط بهم ، ويرون أنفسهم قد وقعوا من هذه البحيرة الكبيرة فى مأزق شديد ، فشرعوا يذبحون جيادهم ويخربون عجلاتهم ، ويحاولون الهرب بحياتهم · ولكن « حورمحب » نفخ فى النفير واندفع فى سرعة خاطفة ومن ورائه رجاله ، فأدركوا أولئك « الحيثيين » قبل أن يفلتوا منهم ، وأوقعوا بهم ومزقوهم شر ممزق ، وغنموا جيادهم وعجلاتهم قبل أن يجهزوا عليها ، وقد بلغت أكثر من مائة عجلة ومائتى جواد ، وقد سر المصريون بهذا النصر العاجل ، أكثر من سرورهم بالغنائم، اذ أيقنوا أن عدوهم ليس من المنعة والقوة ، بحيث لا يغلب ولا يقهر ، خلافا لما كانوا يظنون ! ··

وواصلت قوات « حورمحب » سيرها الى « تانيس » ، وكان يقول لى والشرر يتطاير من عينيه : اذا قاتلت ، فلتكن لك المبادأة ، وليكن ضربك متلاحقا ، وفى قوة وشدة ! ··

ومن « تانيس » تابع « حورمحب » تقدمه عبر الصحراء ، متعقبا قوات « الحيثيين » المتناثرة على موارد الماء ، وكانوا قد ملأوا منها مئات الالوف من الجرار على مسافات متباعدة أو متقاربة ، ليستقى منهـا

الظمآى من مشاتهم ، فما كان لهم من وسيلة غير هذه ، فهم لا يملكون سفنا بحرية ، ولهذا لم يحاولوا غزو « مصر » من البحر ، فاستولى « حورمحب » على هذه الموارد ، وعلى جرار الماء ، متغلبا على القوات التى أقيمت على حراستها ! ..

وفى قوة مستحثة ، وضغط مرهق ، انطلق « حورمحب » بقواته ، لا يتوقف ولا يلوى ، ولا يأبه بما يقع من الجياد نافقا فى الطريق لفرط اجهاده . وكانت العجلات المتداركة تثير نقعا من الرمال والغبار يتكاثف ويمتد عاليا فى الافق ، حتى لكأن هذا الزحف زوبعة عاتية هبت على الصحراء ، فملأتها عثيرا وسحابا متراكما . وفى الليل كانت المشاعل توضع على قمم التلال ، بأمر « حورمحب » ، ليخرج على أضوائها رجال القوات الحرة من مخابئهم ، فينصبوا على حراس « الحيثيين » ويفتكوا بهم حيث ثقفوهم . ومن هنا نشأت الاسطورة التى تقول : ان «حورمحب» مرق خلال صحراء « سيناء » كسارية من السحاب بالنهار ، وعامود من النار بالليل ! ..

وكان « الحيثيون » لا يحسبون حساب هذه المفاجآت المروعة ، اذ كان اجتماع آرائهم على أن « مصر » من الضعف بحيث لا تقوى على أن تأتيهم مهاجمة فى قلب الصحراء ، واطمئنانا منهم الى ذلك ، اكتفوا بتجريد بعض القوات على المملكة السفلى واحتفظوا بقواتهم الرئيسية بين مدن وقرى « سوريا » ، ووقفوا بها هنالك انتظارا لاستسلام « غزة » التى كانوا يعتقدون أنها مستنفدة حتما قوة المقاومة ، أمام حصارهم الوثيق وتجمعاتهم الكبيرة . وفى هذه الاثناء كانوا يأخذون الأهبة لغزو « مصر » فى ريث وتؤدة ، واثقين أنهم بالغون منها ما أرادوا ، طال الوقت أو قصر ، ولكنهم أخيرا يفجأون « بحورمحب » فى تيه الصحراء قادما اليهم على رأس جيش عتيد تظاهره عجلات حرب موفورة العدة والعدد ، وقد هالهم ، بخاصة ، أمر هذه العجلات ، فقد كان أكثر ما يغريهم بمصر أنها أصبحت لا تملك منها شيئا يعول عليه فى معركة ضخمة كهذه ! ..

والجانب الذى كان واضحا من خطة « حورمحب » أنه يؤثر تركيز هجومه على مراكز « الحيثيين » فى الصحراء ومواقع المياه فيها ، ليدمر ما اختزنوه منها ، دون أن يلتحم بهم التحام جيش بجيش ، فى موقعة فاصلة ، ذلك لأنه كان يشعر بحاجته الى الوقت لتجميع قواته وتدريبها ، غير أن النصر ، الذى أحرزه فى هذا الهجوم العابر ، ازدهاه وأطمعه فى ضعف الاعداء ، فمال بسرعة الريح الى « غزة » ، وانقض على محاصريها

من خلفهم، ففرق جمعهم وخرب آلات حربهم، وأشعل النار فى معسكرهم، ولكنهم ، قبل أن يتمكن من دخول المدينة ، جمعوا فلولهم واستزادوا من قوة عدوهم وسلاحهم وانقلبوا فى هجوم مضـــاد ، وأدرك عندئذ أنهم يفوقونه قوة ، فعجل بالانسحاب مرتدا الى الصحراء ليتابع تدمير كل ما يقع عليه - فى طريقه بها - من موارد الماء ! ..

وكنت أنا فى مؤخرة الجيش ، مكلفا باقتفاء أثر المشاة فى سيرهم السريع خلال الغبار المتكاثف وتحت لفح الشمس من وهجها المتقد ، فباعد ذلك بينى وبين المعركة ، وقد أنبأنى « حورمحب » ، بعد ارتداده ، بما حدث ، فتنفست الصعداء وهان على ما أكابده من عناء ، فاغلب الظن أننى لو كنت معهم فى المقدمة للقيت حتفى ، واستحال على بعد هذا أن أحيا لاكتب هذه المذكرات ! ..

و « حورمحب » مع ذلك كان قوى الثقة بنفسه ، معتدا بخططه ، مطمئنا الى النجاح فى مطاولة أعدائه ، وزاده ثقة وأملا أن صقره كان يلازمه ، وقد تذكر وهو يدلج فى صحراء « سـيناء » ، تلك الشجرة المشتعلة التى كان قد رآها مرة بين تلالها ، فأوحت له ذكراها أن يقيم على مثالها مشاعل فوق مرتفعات الطريق ، يهتدى بها حملة الرماح ورماة السهام من رجاله الذين أوعز اليهم بالأيغال فى لهوات الصحراء لتعقب « الحيثيين » ، وتقصى آثارهم ، وتحطيم ماكانوا قد أعدوه من جرار الماء ذات الكثرة الكاثرة ! .. وبذلك عاد « حورمحب » الى خطته الاولى وهى تركيز نشاطه الحربى - الى حين - بالصحراء . والى حد كبير ، كان هذا أمرا شاقا على العجلات الحربية ، فهى فى الميدان أكثر صلاحية للعمل منها فى كثبان الرمال . وكذلك كان الرجال أشد معاناة فيها مما لو كانوا يحاربون على أرض سواء . ولكن « حورمحب » لم يكن لديه منتدح من هذه الخطة فى هذا المهمه القفر ، حتى يلاقى الاعداء أوفى استعدادا ، مكتفيا بتقليم أظفارهم المنبثة فى الصحراء ! ..

وبعد أسبوعين قضيناهما فى جهد ومقاساة وضيق بالحياة ، فى هذا التيه الموحش ، رأينا - نحن رجال المؤخرة بالجيش - عمودا من النار يرتفع على تل قريب من الصحراء ، خلال الظلمة الداجية ، فعرفنا أن « حورمحب » يرابط هناك بعجلاته الحربية، وأنه بهذه الاشارة يدعونا الى موافاته . كنـا اذ ذاك مؤرقين ، لان الظلمــة أضفت على الرمال موجة من البرد القارس ، بعد يوم قائظ شديد الحرارة ، فأقضت مضاجعنا ، ذلك الى أن كثيرين من رجالنا كانوا قد قضوا أياما طوالا وهم يدلجون

فى الصـــحراء ، ويمشـــون على رمالها الملتهبة ونباتاتها الشائكة حفاة الاقدام ، فكانوا كذلك يتوجعون فى رقادهم ويئنون ولا يذوقون طعم النوم ، فنهضنا جميعا على نفخ النفير وأخذنا وجهتنا الى حيث يدعونا مشعل « حورمحب » ، وكنا أخلاطا من جنود نظاميين وقطاع طرق ورجال عصابات ، مهلهلى الملابس ، سود الوجوه ، مشعثى شعر الرءوس !٠٠

وكان هؤلاء الذين نال منهم اللغوب وأضناهم الجهد ، يتوقعون وهم يهرعون الى « حورمحب » أحد أمرين : اما أن يوطىء لهم فى معسكره مراحا يستجمون فيه بعض الوقت من عنائهم ، واما أن يزيدهم عنــاء بدفعهم الى السير فى وجهات أخرى حتى تبلى جلود أقدامهم ٠ ولــكن « حورمحب » لم يمسكهم لراحة أو يسيرهم لوجهة ، وانما تلقاهم وهو يزمجر غضبا وعيناه محمرتان من طول السهد والاجهاد ، وقال لهم ملوحا فى وجوههم بسوطه الذهبى الذى كان ملطخا بالدم والرمال : أيتهــا الحيوانات ، ويا ذرية شياطين الصحراء ! ٠٠ فى أية أوكار وجحور كنتم تختبئون ؟! أفى مثل ما نحن فيه تتخلفون عن ركب المعركة وترتمون بين أحضان الحياة الدون فى المغــاور والكهوف ! ٠٠ حقا انه ليسرنى أن أفتقدكم الى الابد وأن أرى جماجمكم فى مطلع الصبح مدفونة بالرمال !٠٠ فكم هو مخجل أن أراكم تقبلون على كالسلاحف الزاحفة فى ونائها ، والعرق يتفصد من أجسامكم هذه التى تطفح بالقذارة والنتن ، وتمج ريحا كريها أمسك أنفى تقززا منه ، فى حين أن صفوة رجالى مصابون بالجراح الدامية ، وخيرة جيادى قد لفظت أنفاسهـــا الاخيرة ! ٠٠ فالى العمل ، هيا أيها الجبناء ! ٠٠ الى العمل الذى يوائم طبيعتكم ، أنتم الذين عشتم طوال حياتكم تعفرون فى التراب ، وتحفرون فى الطين ! ٠٠

وكان العمل الذى أمرهم به هو حفر خنادق ، فى مواضع معينة ، وقــد تلقوا كلمــاته فى غير برم أو ضيق ، بل اغتبطوا لهــا ، اذ وجدوا فيها مخرجا من الموت الذى كانت تنذر به غضبة « حورمحب » ٠ وعلى الرغم من تقرح أقدامهم وتسلخ جلودهم وجفاف حلوقهم ، فقد تكبكبوا على أعمال الحفر التى أمروا بها ، فى رضا وارتياح ، فهم غير مدربين على أى عمل آخر ! ٠٠

وبارشاد « حورمحب » أخذوا يحفرون الخنادق العميقة ، ويدقون الاوتاد ويمدون بينها الحبال الوثيقة ، وينقلون الاحجـــار الضخمة ، ويضعونها حيث أشار ٠

وعدة رجال « حورمحب » المحاربين فى معسكره يومذاك نحو ألفين

وخمسمائة ، ولكن الصالحين للقتال لا يجاوزون الخمسمائة رجل ، فقد كان الباقون بين جريح ومجهد ، وهؤلاء الجرحى والمجهدون كانوا يخرجون الينا من خيامهم ومخابئهم ليفاخرونا ببسالتهم وحسن بلائهم!..
على أن شمس هذا اليوم لم تغرب حتى كان قد وصل الى مضارب « حورمحب » في سيل متدافع ، الجزء الاكبر من جيشه ، وكان يدفع بهم فور وصولهم الى حفر الخنادق واقامة المتاريس ، لمنع « الحيثيين » من اختراق الصحراء ، وقد بعث برسالة عاجلة الى بقية رجاله ، الذين لم يصلوا بعد — لفرط اجهادهم — ويستحثهم على القدوم السريع ليبلغوا الموقع المحصن عند طلوع النهار، والا فانهم مائتون أشنع ميتة اذا أدركتهم عجلات العدو الحربية ! ..

وقد انتعشت قوى المصريين في هذا القفر الموحش ، عندما رأوا عددهم يكثر ويزداد ، واتجهوا بكل مشاعرهم ، وفي ثقة لا حدود لها ، الى « حورمحب » معتقدين أنه ببطولته ومهارته سينقذهم من «الحيثيين» ، ويردهم على أعقابهم ! .. ولكنهم وهم في غمر انتعاشهم وثقتهم ، وبينما كانوا يعملون ناشطين في اقامة المتاريس ومد الحبال ودحرجة الصخور وارسائها ، بصروا بالحيثيين يقتربون منهم في سحابة من غبار ، فأدركهم الخوف والقلق ، وعاودهم الانزعاج مما يوشك أن يدهمهم من عجلات العدو ذات المناجل الحاصدة ! ..

ولكن طلائع الليل كانت قد أقبلت ، ورأى « الحيثيون » ألا يسترسلوا في الهجوم وسط الظلام قبل اختبار نقاط القتال وتعرف مسالكها وتقدير قوة المصريين فيها ، فتوقفوا حيث أضواهم الليل ، وضربوا خيامهم ، وأوقدوا نيرانهم ، فتلهبت حواشي الصحراء بالمشاعل المضيئة ، الى آماد بعيدة ، وكان كشافتهم في طول الليل يتسللون الى مواقع المتاريس والتحصينات المصرية على عجلاتهم الخفيفة ، فيذبحون الحراس ويقعون في مناوشات على مشارف الجبهة مع رجالنا ، ولكن في جناحي الميدان ، حيث لا توجد متاريس ولا تحصينات ، كان الأشداء من رجال قواتنا الحرة ، يفاجئون «الحيثيين» ، ويستولون على عجلاتهم وجيادهم!..

ومن هذه المباغتات تحت جنح الظلام انفجرت في الجو أصوات اشتجار المقاتلين مختلطة بدوى قعقعة العجلات ولعلعة السهام وصليل الاسلحة ، وأنين الصرعى ، ورانت غشاوة الرعب على غير المدربين من رجالنا فاضطربوا في مراقدهم مذعورين ، ولكن « حورمحب » راح يهدىء من روعهم ويقول لهم : يا أرانب البطاح ! .. ناموا واستريحوا ، وادهنوا

اقدامكم بالزيت ، ولا تنزعجوا ، فانى ساهر عليكم ، قابض على زمام حراستكم ! ٠٠

ولست أدرى اذا كانوا قد ناموا أو تناوموا !٠٠ وانما الذى أدريه أننى لم أنم ، لانى لم أجد الى النوم سبيلا ، ولعله الخوف من الخطر الداهم ، أو لعله الاشفاق على أولئك الذين يتهاوون قتلى أو جرحى من جنــودنا ! ٠٠ وعلى أية حال فقد وجــدت نفسى منبعثا للتجوال حول المعسكر ، أضمد جراح سائقى عجلات « حورمحب » ، وقد راقه ذلك منى ، فقال مشجعا : حسنا تفعل يا « سنوحى » !. فهؤلاء جديرون بأن تطب لهم بكل ما فى وســعك من مقدرة ومهــارة ! ٠٠ انهم محاربون بواسل قلما يوجد لبسالتهم فى العالم شبيه ، والواحد منهم يعدل مائة، بل ألفا ، من حفارى الطين ! ٠٠ فعالجهم ــ اذن ــ يا « سنوحى » ، بما أعرف من عنايتك ودقتك، فانى أحبهم حبا جما ،وحاجتى اليهم شديدة، فليس عندى من الرجال المدربين من يملأ فراغهم ! ٠٠

وهاجت كلماته حنقى وغيظى ، فقد كنت ساعتئذ أمسك فى نفسى ألما ممضا ، من هذه الرحلة المبهمة فى تيه الصحراء ، تلك التى أضنتنى وأورثتنى من العناء مالا طاقة لى به ، على الرغم من أنى كنت فيها مقتعدا محفة ، ولا أعرف منها الا أن « حورمحب » يركبه العناد ، فيعتسف بنا قفارا تدنينا من الموت وتوقعنا بين أنيابه ! ٠٠

فقلت له منفعلا : لست محتاجا فيما أصــنع الى وصية توصينى بها ! ٠٠ انه واجبى أؤديه بمحض ارادتى ٠ وقد أدركت ، دون تنبيه منك ، أن هؤلاء وليس سواهم هم الاكفاء من مقاتلينا ، فكان على أن أبذل ما أستطيع لانقاذهم ، أما أولئك الطغام من خفافيش الصحراء الذين جئت فى دهمائهم ، فهم العبء الثقيل على كاهلنا ، وما أراهم يثبتون فى قتال ، وسوف يولون الادبار اذا ما بصروا ــ من قريب أو بعيد ــ عيون الاعداء !٠٠ واذا كان لى أن أشير عليك بأمر ، فهو أن تتخير أسرع جيادك وتعجل بالعودة معى الى المملكة السفلى لتجهز تحت امرتك هنالك جيشا أوفر دربة وأقوى شكيمة وأكثر صلاحية ! ٠٠

فحك « حورمحب » أنفه وقال : انها مشورة من حكيم ! ٠٠ ولكن ليس لنا الآن أن نختار ، فقد تلاحمنا مع « الحيثيين » هنا فى الصحراء ، وفيها يجب أن نظهر عليهم وأن نهزمهم ، ولا سبيل لنا غير هذا ٠ وقد آن لى أن آخذ ، منذ الساعة راحتى ٠ فدعنى لها بعض الوقت ، وسأتنازل

خلال هذه الراحة من الشراب مايحيلني قويا شرسا ، وبعدئذ ستراها على يدى حربا تتناثر فى حومتها رقاب الاعداء ! ..

وتركنى «حورمحب» ليعب من النبيذ مع بعض رجاله المصطفين !..

وانحسر ظلام تلك الليلة الليلاء ، وأقبل الصبح على جثث الجياد والقتلى من المحاربين، متراكمة حول المتاريس والعربات المقلوبة، والنسور تحط عليها خماصا وتغدو بطانا ! ..

- ٢ -

وأمر « حورمحب » فنفخ فى النفير ، وعند سفح التل استعرض رجاله ، وأخذ يخاطبهم وهو يقضم قطعة من خبز غير مأدوم ، الى قطعة بصل جاف ، فقال : أنظروا أمامكم ! .. فسترونها معجزة كبرى ! .. أجل ، لقد أظلنـا « آمون » بظله ، وساق الينـا « الحيثيين » فى هـذه الصحراء ليقعوا بين أيدينا من حيث لا يشعرون . وعلينا أن نقوم بالاعمال العظيمة التى اختـارنا لهـا !.. واعلموا أن مشـاة « الحيثيين » مرابطون الآن على مشارف الصـحراء ، ولكن عجلاتهم تحاول أن تنقض علينا ، ليتمكنوا بذلك من وضـع أيديهم على ما وراءنا من مخازن المـاء وعلف الدواب ، فقد ظمئت جيادهم وجاعت ، ولم يبق لهم الا هذه المخازن التى يطلبونها من خلف ظهورنا بعد أن أحرقت مخازنهم وحطمت جرارهم فى طول الطريق من هنا الى «سوريا» ، وسيكونون بين احتمالات ثلاثة : اما أن يهجموا علينا ، واما أن يرتدوا عنا ، واما أن يضربوا ـ حيث هم ـ خياما يتلبثون فيهـا حتى توافيهم امدادات جديدة من المئـونة ، تعينهم على الاشتباك معنا فى معركة . على أنى أرجح الاحتمال الاول ، لانهم يطمحون الى سبقنا فى الاستيلاء على مخازن المئونة وجرار الماء ـ التى أنفقوا عليها كل ما ظفروا به من ذهب « سوريا » وفضتها ، ولانهم يعرفون أهميتها وخطرها وما يكون لها حتما من قوة أثر فى أى من الجانبين ، فهم لهذا غير تاركيها لنا غنيمة بدون قتال ! .. وتلك هى المعجزة التى حبانا بها « آمون » ، فانهم اذ يهجمون علينا ، ستتعثر خيولهم ، ويقع فرسانهم فى حبائل متاريسنا ، ولن يستطيعوا أن يسلطوا علينا قواتهم بأجمعها ، فهذه الخنادق التى حفرتموها والصخور التى أقمتموها والحبال التى شعثتموها ، ستتولى عنكم ، فى أوضاعها المحكمة وترتيبها الوثيق ، صد هجومهم وكسر حدتهم واصطياد مقاتليهم ! ..

وهنا ضرب الجنود باقدامهم على الارض وتصايحوا كالاطفال الذين شاقهم الاستماع الى قصة طريفة ! ..

واستطرد « حورمحب » قائلا : ولكن الذى أخشاه منكم ، أنكم فى تعلة من الجهد والعناء ، قد تتركون « الحيثيين » يفلتون من أيديكم ، وهذا ما لا اريد ان يكون ، فما انتم هنا الا رجال حرب ، ولا عذر فيها لمعتذر . وفى أيديكم ، ان كنتم لا تعلمون ، قضبان شحذت أطرافها لتشق بطون «الحيثيين» ، ولن يعييكم أن تسددوها الى اهدافها ، فانكم لم تحملوها لغير هذا ! .. والى حملة الاقواس منكم أقول : انكم ، لما أعرف من مهارتكم فى الرماية ، تستطيعون أن ترشقوا سهامكم فى عيونهم دون أن تخطئوا ، ولكنى أوثر أن توجهوا ضرباتكم الى خيولهم لانها أهداف أكثر وضوحا من راكبيها ، ولا تكونوا فى ذلك بمبعدة منها ، فكلما تقاصرت المسافة بينكم وبينها كانت الاصابة أسد وانفذ ، فدعوهم يقتربون منكم ، وتربصوا بخيولهم عند دنوها ، ثم اضربوا بحرابكم فى بطونها ، وامرقوا خفافا قبل أن تسقط عليكم ، فعند ذلك يتوقف سيرهم وتتعطل محركات عرباتهم ، ولا يبقى بعد مايخيفكم منها ! .. فهل سمعتم ما أقول لكم يا أرانب النيل ؟! ..

ثم رفع « حورمحب » الى فمه وعاء ماء ، فاحتسى منه طويلا ومضى يقول : لعلى أن أكون قد أتعبت نفسى فى الحديث اليكم على غير جدوى !.. فقد تكونون من كلالة الفهم وبلادة الحس بحيث لا تحرك كلماتى فيكم الجراة والاقدام ، فتهولكم صرخات «الحيثيين» وتروعكم عجلاتهم الحربية وتنخلع قلوبكم منهم رعبا ، وعندئذ تولولون كالنساء ، وتخفون رءوسكم فى الرمال ، أو تديرون لهم ظهوركم هربا ! .. قد يكون هذا حالكم لشعوركم بأنكم أضعف منهم قوة ، وأن ليس فى أيديكم دروع تتحامون بها ضرباتهم ! .. ذلك ما يخيفنى منكم أيها الرعاديد الجبناء ! .. ولكن يجب أن تفهموا الموقف جيدا ... انكم اذا لم تفعلوا ما آمركم به ، فلا نجاة لكم من الموت الذى تفرقون منه ، وليس وراء استخذائكم أمام « الحيثيين » الا حقيقة واحدة ، هى أنهم واصلون الى جرار الماء من خلفنا ، وضاربون علينا حصارا لا سبيل الى افلاتنا منه ، فلا يمضى اليوم حتى يطبقوا علينا ، ومن ثم تقع الكارثة التى تودى بحياتكم جميعا ! .. هذا هو الموقف ، وقد دبرت له هذه التحصينات والمتاريس ، ولاأستطيع التخلى عنها ، فهى لنا وقاء ونجاء ، وهى للاعداء مصائد وقبور ! .. فان كنتم تطلبون السلامة ، فهى فيما أستحثكم له ، ونحن كلنا فى قارب واحد ، ومصيرنا لا يتجزأ ، وساكون مقاتلا معكم ، وفى يدى هذا السوط

الهب به ظهوركم اذا تقاعستم ، فكونوا ـ كما اريد ـ شجعانا ، وأقبلوا على الموت لتظفروا بالحياة ، يا أبناء النيل : ..

وكانت عجلات « الحيثيين » تقترب منا ، فألقى « حورمحب » نظرة ناحيتها ثم التفت الى الجنود المأخوذين ، وقال لهم رافعا يديه : ها هم اولاء أصدقاؤنا « الحيثيون » في طريقهم الينا . وانى أحمد آلهة «مصر» على ذلك ، فاذهبوا ـ اذن ـ يا ارانب الوادى ، وليأخذ كل منكم المكان المرسوم له ، فلا يبرح الا بأمر يصدر اليه ، ولا يأخذنكم روع ولا فزع ، فانما تحاربون في سبيل آلهة « مصر » ، وفى سبيل الارض السوداء ، وفى سبيل زوجاتكم وأطفالكم !.. هيا ، عجلوا ، قبل أن تصل عجلاتهم الى المتاريس ! .. فبذلك ستنتهى الحرب قبل أن تبدأ ! ..

وتراكض الجنود على الاثر الى المتاريس وهم يتصايحون صيحات الحماسة ، و « حورمحب » يتبعهم فى اتئاد ، وبقيت أنا جالسا على منحرف من التل . لأرصد المعركة من مكان أكثر أمنا ، فان حياتى أغلى من أن تعرض على الموت عرضا سافرا ! .. وحيث يوجد الطبيب فى ميدان القتال ، يجب أن تحاط حياته بالأمن والحفاظ ! ..

وغير بعيد ، شوهدت عجلات العدو تخب وتضع خلال الارض المنبسطة ، متجهة الى سفوح التلال فى نظام حربى دقيق ترفرف عليها أعلام متعددة الالوان ، وأشعة الشمس تنعكس عليها فتزيدها وضوحا ، وكانت تترادف فى مجموعات تبلغ الواحدة منها عشرا . وقد أحصيتها على قدر ما وصل اليه نظرى ، فكانت نحو ستين مجموعة ، من بينها ،وفى مركز الوسط عجلات ثقيلة تجر الواحدة منها ثلاثة خيول يقودها ثلاثة رجال ، وهى فى تسيارها ، على ما رأينا من تجمع وترابط وترسل ، كانت تمثل قوة هجوم عتيدة ، مما جعلنى أشك فى قدرة « حورمحب » على مواجهتها ! ..

وعندما لم يبق بيننا وبينها الا مسافة قريبة ، رأينا جيادا تنفلت من صفوفها فرادى ، وتنبعث مسرعة الى المقدمة . وقد خيل الى أنها وحدها ، من غير فرسان يمتطونها ، اذ كانت سروجها تبدو خالية . فأدهشنى أنهم يتركونها هكذا كما لو كانت تزيد على حاجتهم ، أو كما لو كانوا يريدون التخلص منها ! .. ولكنها كانت تنطلق فى احكام الى وجهة واحدة فى غير تشعث ولا اضطراب ، فدققت النظر فيها ، فرأيت فرسانها قد انطووا فى سر جها والتصقوا بها ، وهم يستحثونها غمزا بالمهامز ، وفى سرعة البرق الخاطف اندفعوا بها على حبالنا التى

تشد أوتاد المتاريس ، ليقطعوها • وبالسرعة نفسها ، كانت هذه الجياد تقفز من فوق الخنـــادق ، ويقذف راكبوها حرابهم على الارض قذفا قويا مرتبا يركزها فيها تركيزا رأسيا • وفى طرف كل منها علم من أعلامهم، ثم قفلوا مرتدين من فورهم الى مواضعهم الاولى خلف العجلات ، تاركين وراءهم عددا من الرجال لم تخطئهم سهامنا ، وعددا من الخيول أردتها حرابنا ! •• ودلف « حورمحب » معجلا الى المتاريس بمفرده ، وانتزع احدى الحراب المركوزة فى الارض وألقى بها بعيدا ، وحذا حذوه الجنود، فانتزعوا بقيتها . ولقد كنت أول الامر لا أفطن الى الغرض الذى أراده « الحيثيون » بهذه الحركة الخاطفة ، ولكن « حورمحب » فطن له من الوهلة الاولى ، فهم انما أرادوا برشق الحراب بالارض وعليها أعلامها ، أن تكون علامات هادية تدلهم على مواقع الخطر من جانبنا ليتقوها . ولو تحقق ما أرادوا لتمت لهم الغلبة علينا على الارجح ، فقد كنا دون عجلاتهم قوة ، ولكن« حورمحب » أطاش بذكائه تدبيرهم ، وراح يشرف بنفسه على ترتيب رجاله وتنسيق قواته ، استعدادا للايقاع بالاعداء الذين أخذت عجلاتهم تتدافع على متاريسنا فى تبادر واسراع •

وانصبت قواتهم على مواقع التحصين، فترامت عليهم سهام رجالنا، وفقا للخطة التى رسمها « حورمحب » ، وكان الغبار المثار فى جو المعركة كثيفا بحيث لم أستطع فى مكان الرصد الجانبى الذى أقف به ، أن أتتبع مجرى القتال ، ولكنى مع ذلك رأيت جيادا من خيول « الحيثيين » تتهاوى أمام المتاريس ، وعجلات من عجلاتهم الخفيفة تتعثر فى الاحجار ثم تنقلب على جوانبها ، كما رأيت بعض سائقيها يفلتون منها بمهارة قبل انقلابها، واتضح أخيرا أنهـــا تمكنت فى نقطة أو نقطتين من الوصول الى صفوفنا برغم جسامة الخسارة التى منيت بها ، على أنها اضطرت أن تتوقف وتتجمع ويهبط منهـــا رجالها الاحتياطيون ، وقد أخذ هؤلاء فى تنحية الاحجار واخلاء الطريق منهـــا أمام العجلات الثقيلة التى كانت ترابط من قريب انتظارا لاشارة التحرك ! ••

وكان خليقا بهذا الهجوم الذى يتميز بقوة الاعداء وبسالتهم أن يثير فى جنودنا الشعور بالهزيمة ، وبخاصة فى غير المدربين منهم ، وكانوا هم الكثرة التى يرصدها « حورمحب » لهذه المعركة ، ولكن هؤلاء الذين لم يجد « حورمحب » وصفا يليق بهم ســوى تسميتهم بالارانب ، كانوا أثبت جنـــانا وأقوى شـكيمة ، اذ رأوا عجلات الاعداء تنقلب وتتوقف ، وخيـــولهم تتساقط فى الخنـــادق والحفر ، ورجالهم يتهاوون صرعى ، وخسائرهم تفـــدح وتزداد ، فشـــعر رجالنا هؤلاء أنهم الاقوى جانبا ،

وأغراهم ذلك بأعدائهم ، فانصبوا ، فى هياج وبكل ما فيهم من قوة ، على العجلات الحربية التى كانت تتأهب لمتابعة الهجوم ، وراحوا يطعنون سائقيها بالرماح ، وينتزعونهم من مقاعدهم فيها ويلقونهم جرحى على الارض ، وينهالون على خيولهم فيقطعون أوصالها ، ويرمى رماتهم السهام فى صدور الجنود الذين كانوا يعملون فى ازاحة الاحجار . وقد تركهم « حورمحب » يفعلون هذا راضيا دون أن يخشى مغبة هذه الملحمة الجامحة، فقد كانوا أكثر عددا ، وكانت ضرباتهم مسددة ، واستطاعوا فى النهاية أن يظهروا على أعدائهم ، ويأسروا عددا كبيرا من عجلاتهم !..

وعجل «الحيثيون» ، الذين نجوا ، بالانسحاب على عجلاتهم الخفيفة، بعد أن ظنوا أنهم قد فرغوا ، بالرغم من وابل السهام والحراب ، من تمهيد الطريق للقوات الثقيلة ، فتهلل رجال « حورمحب » ونصايحوا فرحين ، لاعتقادهم أنهم قد ألحقوا بالحيثيين الهزيمة التى لا قيام لهم بعدها . ولم يشأ « حورمحب » أن يصارحهم بأن لهذه المعركة ماوراءها ، وأن ثمة معركة أخرى أشد هولا عندما يهجم الاعداء بعجلاتهم الثقيلة . فقد آثر أن يدعهم الى ما هم فيه من الزهو والمفاخرة بما يحسبونه نصرا حاسما ! ..

على أن « حورمحب » كان فى الوقت نفسه مطمئنا الى أن النصر الحاسم لن يتخلى عنه فى هذا الميدان من الصحراء ، فهناك فى مواضع أخرى ، عند مؤخرة قواته ، خنادق أكبر مساحة وأكثر عمقا، احتفرها رجاله وأخفيت تحت أغصان الاشجار وفروعها الكثيفة ، لم يهتد اليها « الحيثيون » ولم تقترب منها عجلاتهم ، وقد عادوا وهم يعتقدون أن ليس يوجد من التحصينات سوى هذه التى اكتشفوها ومهدوا الطريق اليها ! ..

ومرة أخرى ، أمر « حورمحب » رجاله باعادة وضع الاحجار فى مواضعها ، والتجهز بالرماح والحراب والاستعداد لمقابلة « الحيثيين » ، ثم عين لهم مواقف جديدة يثبتون فيها ، على جانبى الطريق ، حتى لا تدهمهم ، جملة ، مناجل العجلات الثقيلة التى يعتقد أنهم عائدون بها اليهم !..

وما ان انجابت سحب الغبار بعد قليل ، حتى تراءت هذه العجلات الثقيلة مقبلة فى زحف سريع ، وكان لها ، فى اقترابها منا ، جلجلة ودوى كقصف الرعد ، وكانت مشدودة الى خيول ضخمة وثيقة الاجسام عالية الصهوات ، غطيت رؤوسها بصفائح من المعدن ، وأسدلت على جوانبها

جلال من الصـــوف السـميك ، وركبت فى أقنعتها مدى صغيرة متقنه الشحذ ، مما لم يره المصريون من قبل ! ..

كانت هذه العجلات لقوتها وضخامتها تسحق فى طريقها الاحجار والصخور وتجتاز ، فى غير ارتجاف أو انحراف ، كل ما يصادفها من أنجاد الطريق وأغواره وعقباته مهمـا تكن ، حتى لتبدو فى هجومهـا على هذه الصورة كأنها الوحوش الضارية ، احتشدت على الطريق متكالبة على فرائسها فى نهم ثائر ! ..

ورأى « حورمحب » أنه لا قبـل لرجاله بملاقاتها ، فان مناجلها لا شك ستحصدهم كما تحصد المناجل أعواد القمح ! .. فأصدر أمره اليهم بالانسحاب من الارض المنبسطة والارتداد الى منحدرات التلال التى كانت تستشرف صعيد المعركة من الجانبين ، وهنا أطلق « الحيثيون » صيحة الحرب مدوية ، وانقضوا الى الامام انقضاض الصواعق ، مثيرين خلفهم وحواليهم سحبا كثيفة من الغبـار . وعندئذ غشيتنى غاشية من الرعب الشديد ، فدفنت وجهى بين يدى حتى لا أرى هذا الهول الفظيع، وغلبنى الروع فبكيت بكاء حارا ، بكيت على « مصر » التى سوف تلاقى على أيدى « الحيثيين » عذاب الهون ، وبكيت على مصير المملكة السفلى التى كانت خالية من التحصين وأجهزة الدفاع ، وبكيت على جميع هؤلاء الذين سيتخطفهم المـوت ويحيق بهم الهلاك ، لا لشىء سـوى جنـــون « حورمحب » وعناده ! .. ولكنى لم أكد أسترسل فى جزعى وبكائى حتى ترامت على سمعى من ناحية الاعداء صيحات الرعب والذعر ، فرفعت وجهى لأرى الامر قد تبدل فجأة : فهـا هى عجلات « الحيثيين » قد مادت الارض من تحتها ، وها هى حفرة ضخمة واسعة ممتدة بعرض الوادى كله من تل الى تل ، تتلقفها وتبتلع عشرات منها ، وها هم « الحيثيون » تأخذهم المفاجأة فيصرخون وتتفرق قواتهم ! .. حقا انه لشىء هائل عظيم ، لم يكن يخطر بالبال ، ببالى أنا على الاقل !..

ولقد كان من الممكن ، وقد رأى « الحيثيون » عجلاتهم تتساقط دراكا فى المقبرة التى أعدها « حورمحب » وغطاها بفروع الاشجار ، كان من الممـكن أن يقوموا بحركة عكسية ، فيتراجعوا خلال التحصـينات التى اخترقوها فى بادىء الامر، ويجردوا نصف قواتهم على صفوف «المصريين»، فقـد كان ذلك كافيـا ليشغلوهم الى أن يسـتديروا لهم ويحيطوا بهم ، ولكنهم ـ استكبارا على الهزيمة التى لم يتعودوها ـ أمسكوا عن التراجع، ووقفوا عجلاتهم الباقية عند المنحدر، وراحوا يتفحصون الميدان ويتلمسون

الوسيلة الى مجاوزة الحفرة الكبيرة ، ويحاولون انقاذ المتردين فيها من زملائهم ، فأعطوا بذلك فرصة « لحورمحب » ليعاجلهم قبل أن يفيقوا تماما من غشية المفاجأة ، فأمر بالنفخ في الابواق معلنا لرجاله أن خطته البارعة أوقعت « بالحيثيين » ووقفت هجوم عجلاتهم التى أصبحت عاجزة تماما ، فلم يبق الا الاجهاز عليهم ، ثم أنفذ بعض الرماة الى أعلى المنحدر لاصطيادهم رميا بالسهام ، وعهد الى آخرين بأن يثيروا غبار الارض بالعصى وفروع الشجر ، ليحقق بذلك غرضين معا : الاول ، أن يعمى على « الحيثيين » فلا يرون شيئا مما يجرى ، والثانى : أن يخفى عن رجاله منظر عجلات العدو التى تفادت الوقوع في الحفرة ، وما تزال على حالها صالحة للحرب ٠ وكذلك أمر بالقاء الاحجار من فوق المنحدر لسد الثغرات التى وقعت فى بعض التحصينات ، وكان من نتائج هذه الحركة السريعة أن حصرت العجلات الناجية بين الحفرة الكبيرة والتحصينات الصخرية المكينة ، وأصبحت جميعها فى قبضة يد « حررمحب » ! ٠٠

كان هذا يجرى في الوقت الذى كانت فرق العدو الخفيفة تقف مبعدة ، وهى آمنة ، فالجنود منصرفون الى اصلاح اطارات العجلات ، والخيول مسرحة للارتواء من الماء ، وكلما انعقد الغبار فى الجو بين التلال الصغيرة ، وتعالى الصياح والصراخ ورنين الاسلحة ، ظنوا أن قواتهم الثقيلة الامامية تفتك « بالمصريين » وتطاردهم مطاردة الفيران الهاربة ! ٠٠

وتحت ستار الغبار ، وفى غمار هذا الظن ، كان « المصريون » يتابعون قطع الاحجار والقاءها من عل على العجلات وقادتها ، وكانوا ــ أى المصريون ــ يحذقون هذه العملية لطول مرانهم وخبرتهم فيها بالمحاجر المصرية ! ..

وضاقت صدور « الحيثيين » لهذا الغبار الذى لم تنقشع سحبه ، وأقلقهم الوقت الذى طال دون أن يتبينوا المعركة على حقيقتها ، وزادهم قلقا أن سهام الرماة « المصريين » أصابت كثيرين منهم وهم وقوف فى أماكنهم ، فتوجسوا من وراء هذا شرا ، وصاح ضباطهم آمرين بالنفخ فى الابواق ، ليتجمعوا ويرتدوا الى السهول ، ليعيدوا فيها تنظيم قواتهم، ولكنهم عند ارتدادهم منسحبين من الطريق نفسه الذى كانوا قد أقبلوا منه فى أول الهجوم ، كان الغبار المتكاثف قد ألقى عليه ضبابا لم يتبينوا خلاله الفخاخ التى أقامها رجال «حورمحب» ، فتعثرت عجلاتهم وانقلبت بين الصخور ، وفرض الموقف عليهم أن يترجلوا منها ليقاتلوا وقوفا على أقدامهم وهو مالم يكونوا مدربين عليه ، فقد اعتادوا القتال من فوق

العجلات ، ولهذا لم يثبتوا طويلا أمام رجال « حورمحب » على شدة ما أبلوا فى قتالهم !..

وانكشفت المعركة فى اقبال الليل ، عن استسلام من بقى حيا من « الحيثيين » ، وقد أمر « حورمحب » ، فكبلوا فى الاغلال ، وتهافت عليهم الجنود « المصريون » غير المدربين أو فئران مستنقعات النيل كما يسميهم « حورمحب » ، فأخذوا يطيلون النظر فيهم ويضعون أصابعهم على جراحهم كما لو كان يساورهم الشك فى أنهم قد أصيبوا ! .. ثم ينزعون من خوذاتهم وملابسهم صور المناجل ذات الرأسين والشموس ذات الاجنحة ، وهى رموز آلهة « الحيثيين » ! ..

ونظر الجنود المصريون فى مسرح المعركة ، بعد انقشاع السحب فارتاعوا وكادوا لا يصدقون أعينهم ، فقد كان قتلاهم أكثر عددا من قتلى الأعداء ، وكانت خسارتهم فوق ما كانوا يقدرون ، ولكنهم عادوا راضين عن النتيجة ، لانهم نجوا من الموت ، وقال بعضهم لبعض : لقد كان يوما عصيبا حقا ، ولكن من حسن حظنا أننا لم نر شيئا أثناء المعركة ، فلو أننا كنا قد رأينا بعض هذا الذى نراه الآن ، لطارت قلوبنا فزعا من بين جوانحنا ، ولما اتيح لنا أن نكون ، فى هذه المعركة غير المتكافئة ، أسودا بواسل !..

وأمر « حورمحب » ، فوزعت الجعة والنبيذ على رجاله ، وأذن لهم فى أن يجردوا القتلى ، الحيثيين والمصريين على السواء ، من كل ما يجدونه معهم من مال أو متاع ، وأباحه لهم غنيمة حرب ، وأضاف الى قواته ـ مغتبطا ـ الغنيمة الكبرى ، وهى العجلات الحربية الثقيلة التى وقعت فى أسره بخيولها ومحركاتها القوية ، دون أن تصاب بأى عطب !.. وأنفذ فى الليلة نفسها أمرا الى جنود الفرق الحرة الرابضين على الجناحين ، لينتظم الشجعان منهم فى فرق العجلات ، اذ كان رجال الصحراء أوفر مقدرة وخبرة من المصريين فى قيادتها ، فأقبلوا سراعا فرحين بهذه العجلات الضخمة ذات الخيول الرائعة !..

وانصرفت أنا بكل جهدى الى العناية بجرحى المعركة ، أضمد جراحهم ، وأجبر كسور عظامهم وأنظف رءوسهم التى هشمتها هراوات «الحيثيين» ، وقد عاوننى كثيرون فى عملى هذا الذى ظل ثلاثة أيام بلياليها، وعلى الرغم من ذلك قضى عدد غير قليل منهم نحبه لشدة اصاباتهم !..

وفى اليومين الثانى والثالث ، قام « الحيثيون » بهجوم آخر بعجلاتهم الخفيفة محاولين استرداد عجلاتهم المأسورة غير مبالين بما سيلقونه فى

سبيل اختراق التحصينات التى كانت سبب هزيمتهم ، فقد كان ذلك عليهم أهون من عودتهم الى قائدهم الاعلى فى « سوريا » ، وليس معهم الا أنباء الهزيمة وخسارة العجلات الكبرى التى هى أقوى دعائم قتالهم !٠٠

على أن «حورمحب» لم يقنع بملاقاة هجومهم ملاقاة دفاع ، أو أن يرقبهم من كثب حتى يصطدموا بالتحصينات ثم يفجأهم برجاله تحت ستار الغبار كما حدث فى المرة الاولى ، بل انه آثر أن يلاقيهم فى هذه المرة مهاجما فأمر بازاحة التحصينات لاخلاء الطريق أمام رجاله وأعطى اشارة الهجوم بالعجلات الثقيلة التى اقتنصها من «الحيثيين» ، ومن ثم وقع الاشتباك بين الفريقين ، وكانت ملحمة قاسية تكبدنا فيها خسارة كبيرة ، اذ كان المقاتلون من الاعداء أسرع حركة وأكثر مرانا على حرب العجلات ! ..

وقال لى «حورمحب» وأنا ألهث لفرط ما نالنى من الجهد فى أعمال الاسعاف وتضميد الجراح : يبدو أنه لم يكن من رأيك أن نخوض معهم المعركة على هذا النحو الذى فدحك منه ازدياد عدد المصابين !٠٠ ولكن هذا كان أمرا لا بد منه فى تقديراتى الحربية ، ذلك أن هذه العجلات الثقيلة التى غنمناها كانت تحتاج من رجالنا مرانا على استخدامها ، فمن الخير أن يقع هذا المران فى معركة يقبل العدو عليها متأثرا بشعور الهزيمة ، وخسارتنا اليوم ليست شيئا ذا بال اذا قورنت بما كنا ملاقينه من خسائر لو أننا اشتبكنا مع هؤلاء الأعداء المهرة وهم على استعداد وقوة ، ورباطة جأش !٠٠ ولقد أدركت أخيرا أنه من العسير أن يتحقق غزو « سوريا » بغير العجلات الحربية مزودة برجالها الأشداء وخيولها المدربة ٠ وقد نكون فى قتالنا وراء الخنادق قد استطعنا الوقوف بعض الوقت فى وجه غزو « الحيثيين » لمصر ، ولكن هذا لا يمكن أن يعطينا النصر عليهم آخر الامر ، ومن هنا ينبغى أن ندبر أمر المعركة الحاسمة على أساليب أشد ملاءمة لواقع الحال !٠٠

وكان « حورمحب » على حق فى نظره الاخير الى مقتضيات حرب ينازل فيها أعداء ، ظهر بجلاء أنهم مجهزون بالعدد الوفير من العجلات القوية والمحاربين المهرة ، وبخاصة أنه كان يقدر أنهم سيبعثون بالمشاة من جنودهم لملاقاته فى الصحراء ، فيقعون فيما أعده لهم من خنادق وحصون فضلا عن انعدام المياه التى كانوا قد اختزنوها ، فوقعت بين يديه ٠ ولكنهم ، على خلاف تقديره ، احتفظوا بقواتهم فى «سوريا» ، فلم يرسلوا منها الى الصحراء الا نزرا من الطلائع ، وظلوا مرابطين هناك انتظارا لقدوم قواته حيث ينقضون عليها انقضاض الكثرة المستعدة ، الكاملة الجهاز والعدة !٠

ومهما يكن من أمر ، فقد حدث أن أنباء هزيمة «الحيثيين» في الصحراء قد بلغت «سوريا» ، وأحدثت فيها ضجة كبيرة ، وأثارت شعور الانتقاض على الغزاة ، فهبت مدن كثيرة للثورة على « عزيرو » ، موصدة أبوابها في وجهه ، لكثرة ما عاني أهلها من شرور «الحيثيين» ، وقد استشفوا في أنباء هزيمتهم في الصحراء علامات النصر للمصريين، فطوع لهم ذلك أن يخرجوا من اطار الخوف والذعر الذى وضعهم فيه «الحيثيون» ، طمعا في الخلاص، واستمالة لعطف «مصر» ورضائها !·· ورأى جواسيس « حور محب » المنبثون بينهم حقلا خصبا فى هذه الاثناء ، لترويج الاشاعات ، والمبالغة فى هزيمة « الحيثيين » بالصحراء !··

وكان « حورمحب » لا يزال مشغول البال من ناحية « غزة » وموقفها من الحصار الذى طال ، فهو لهذا يتابع رسائله اليها عن طريق جواسيسه، مستحثا أهلها على الثبات فى الدفاع عنها ، اذ كان أخوف ما يخيفه أن تنهار قوتها فتسقط في أيدى « الحيثيين » ، وتسقط ، بسقوطها ، القاعدة الهامة التى يعلق عليها أكبر آماله ، لوقوعها على الساحل ولانها المركز الطبيعى الفريد الذى سيتخذ منه مركزا لعملياته الحربية فى سبيل استعادة « سوريا » !··

وفى الفترة التى أعقبت هزيمة « الحيثيين » وانسحابهم ، أذن « حورمحب » لرجاله فى أن يستريحوا ويستجموا ، وكانوا قد أجهدوا في المعركة اجهادا شديدا ، وران عليهم شعور من اليأس والتخاذل بعد الذى شهدوه من شدة بأس « الحيثيين » وكثرة من ذهبوا ضحية الاشتباك معهم ، فراح «حورمحب» يأخذهم بضروب من الاثارة والاغراء ، ناشرا بينهم الكثير من الروايات عن الثراء الذى تطفح به مدن « سوريا » ، وعن كاهنات « عشتروت » اللائى يقدمن أنفسهن متاعا للشجعان من الجنود ، الى غير ذلك من القصص الشيق المثير !··

وذات مساء أقبل على المعسكر رجل غريب يرتدى لباسا سوريا ، وهو يلهث اعياء ، وألقى بنفسه بين يدى الحراس ثم طلب منهم أن يذهبوا به فى الحال الى « حور محب » ، فسخروا منه ولكنهم دهشوا حين رأوا « حورمحب » يستقبله ويخلو به فى خيمته !·· وقد حيا الرجل « حورمحب » منحنيا انحناءة كبيرة ومادا يديه الى الارض ، وهى تحية ليست فى مألوف عادات السوريين الذين يرتدى هو لباسهم !·· ولما نهض مستقيما بين يديه ، وضع يده على احدى عينيه متظاهرا بأنها تؤلمه ، فسأله «حورمحب» عما اذا كانت حشرة طائرة قد أغارت على عينه ؟!

فأجاب : نعم ، فهناك في «سوريا» مئات ومئات من الحشرات الطـــائرة وكلها سامة وقاتلة !٠٠

وكنت موجودا في ذاك الوقت بخيمة «حورمحب» ، أرى هذا اللقاء وأستمع الى هذهالمقدمة الباديةالسخف ، وخشى «حورمحب» أنيحترس منى الرجل ويمسكه التحفظ عن الاسترســـال فى الحديث بالوضـــوح والصراحة ، فقال له وهو يشير الى : انه طبيب محدود الذكاء ، لا يفطن لشيء مما نحن فيه ، فلا تخشه وقل ما شئت حرا !٠٠

قال الرجل : يا مولاى «حورمحب» ، ان التبن جاهز !٠٠

ولم يزد الرجل على ذلك كلمة اخرى ! .. وهنـــا أدركت أنه أحد جواسيس «حورمحب» ٠

وغادر «حورمحب» خيمته من فوره ، وأمر باشعال النار فى أعلى قمم التلال ، على سلسلة ممتدة من موقع المعسكر الى مصر السفلى ، فالتهبت هذه السلسلة فى لحظات قصيرة بالمشاعل النارية التى كانت فى الوقت نفسه أمرا صادرا الى « تانيس » ليتحرك الاسـطول المصرى مبحرا الى « غزة » ليعمل هناك متعاونا مع الاسطول السورى !٠٠

وفى صباح اليوم التالى ، نفخ فى الابواق اعلانا لأمر «حورمحب» بمسير الجيش الى « سوريا »، فانطلقت قواته متلاحقة وعلى رأسها العجلات الحربية كقوة حرس أمامية ، وكان عليها أن تبيد الاعداء الذين قد يلمون بالطريق ، وأن تختار المكان الآمن الذى يحط به الجيش للراحة كلمـا احتاج الى ذلك ! ..

وكان الجنود يتدافعون فى هذه الرحلة فرحين ، تحدوهم الرغبـــه الشديدة فيما كانوا يمنون أنفسهم به من ثراء «سوريا» ، وكاهنـــات «عشتروت» الجميلات !٠٠

وأخذت أنا مكانى على المحفة فى اثر الجيش ٠ وتركنا خلفنا ، تلك التلال تفيض فيها ذكريات انتصارنا ، وتثوى فى جنباتها عظام القتلى من المصريين » و « الحيثيين » على السواء !٠٠ لقد رقدوا فى ثرى ذلك الوادى الهادىء ، جنبا الى جنب ، حيث الطمأنينة الأبدية والسلام الخالد !٠٠

هأنذا قد بلغت من مذكراتى باب الحديث عن حرب «سوريا» على أرضها ، ولعلى لا أجد فيما أحاول أن أكتبه عن هـذه الحرب جديدا يزيد على معلوماتى العامة فى غيرها من حروب ، وهى معلومات محدودة بقـــدر مايتسع له ادراكى ، أنا ذلك الرجل غير المحارب . فكل المعارك فى نظرى متشابهة النتائج ، تنشب على صور مختلفة ولكنها دائما تنتهى الى نتيجة قلما تختلف ، فالمدن المحترقة والمنازل المنهوبة والنساء النادبات والاجساد الممزقة ومناظر الموت والخراب فى كل مكان ، هى فى سائر الاحـــوال النتيجة التى لا يشهد الانسان سواها فى أى ساحة من سوح القتـــال ، وهكذا كانت الحرب فى «سوريا» !..

لقـــد كانت حـربا زاخرة بالأحداث المروعة ومن حقهـا التسجيل لارتباطها بحياتى ارتباطا وثيقا ، ولكنى لو رحت أتحدث عن معاركهـا ، معركة بعد معركة ، فالحديث عنها يطول ولايخلو من الاملال . ومع ذلك، لابد من تعقبها وذكر أحداثها ، فلأحاول ذلك فى حدود قدرتى على القصد والايجاز !..

انها كانت على الاجمال حربا مدمرة ، حالكة السواد ، قست فيهـا القلوب حتى لكأنها الحجارة أو أشد قسوة ، وقد ظلت مســتعرة الأوار ثلاث سنين تباعا ، فتك الموت خلالها بالكثيرين ، وشاع الخراب والدمار فى القرى والمدن ، والمزارع والحدائق ، حتى أمست قاعا صفصفا لا تنبض فيها حياة !..

و « حورمحب » ، هذا القائد الحاذق الداهية ، كان يمسك بزمامها جرىء القلب مقداما ، ويخوض عبابها غير هياب ولا وجل ، وقد استطاع بهذا أن يجتاز الصعاب والمآزق ويحقق النصر العتيد الذى كان يبدو بعيد المنال ! .. وعندما استشرف فى زحفه حدود «سوريا» أمر رجاله فأزاحوا الاحجار التى أقامها هنالك « عزيرو » ، وسمح لهم أن ينهبوا القرى ويغشوا نساءها ، حتى اذا قضوا أوطارهم واستشعروا بذلك لذة النصر ، مضى بهم مصعدين الى «غزة» ، ورأى «الحيثيون» الخطر مقبلا عليهم فأسرعوا الى تعبئة قواتهم بالسهول القريبة من المدينة ، ليقطعوا الطريق على قوات « حورمحب» ، وفى ظنهم انهم ظافرون بها ، اذ كانت السهول هى مسرح القتال الملائم لعجلاتهم القوية ، ولكن الشتاء كان قد حل وقتئذ ، وامتنع عليهم تسريح خيولهم فى المراعى ، فاشتروا كميات كبيرة من التبن الذى يبيعه لهم التجار السوريون وقدموه لها علفا ، وقد

حـدث أنهـا ـ بعد ما تناولته ـ أصيبت بالاسترخاء ، ورائت ما فى بطونها لينا أخضر اللون ، واختل ميزان سيرها فكانت تميل وتتعثر ، وكثير منها نفق قبل أن تبدأ المعركة ، وبذلك فقد « الحيثيون » ميزة تفوقهم فى العجـلات التى كانوا يعولون عليها تعويلا كبـيرا ، وقابلهم « حورمحب » أوفر قوة واستعدادا ، وتمت لم الغلبـة على عجـلاتهم ومشاتهم معا ، فولوا الادبار تاركين فى الميدان عددا كبيرا من القتلى والخيول النافقة . ولكثرة ضحايا هذه المعركة من الفريقين سمى هذا الميدان بعد ذلك باسم « ميدان العظام » ! ..

وكان أول ما فعله « حورمحب » حينما اقتحم معسكر الاعداء ، أن أمر باحراق كل ما فى مخازن مؤونة الخيل من التبن ، حتى لا تتناول خيوله شيئا منه ، اذ كان مخلوطا بأعشاب سامة ، وكانت هى سبب ما حاق بخيول « الحيثيين » ، ولم أدر وقتها كيف عرف « حورمحب » هذه الحقيقة الخافية ! ..

وبهذا الانتصار الذى أعان عليه ذلك السر الخفى ، هاجم «حورمحب» قوات « الحيثيين » على أسوار « غزة » ، فبطش بها وفرق جمعها وألحق بها خسائر فادحة ، وفتحت أمامه أبواب المدينة التى ظلت محصورة زمنا طويلا ، وكان ذلك يوما عظيما فى تاريخ «مصر» ، وقد مجده المصريون بعد ذلك ، اذ صاروا يحتفلون بذكراه عندما يحين موعده فى كل عام . ولوقوعه فى فصل الشتاء كان يدعى يوم « سيخمت » . ومن مظـاهر الاحتفال به أن الاطفال كانوا يقومون بتمثيل حصار « غزة » ويستعملون فى معركتها المتخيلة ، هراوات من الخشب ورماحا من أعواد الغاب ! .. والواقع أنه لم يحدث من قبل أن دوفع عن مدينة من المدن بمثل هـذه البطولة التى استحق عليها قائد المدينة كل التقدير والاعجاب . وانى لأذكر اليوم اسم ذلك القائد فى اكبار ، على الرغم من سوء استقباله لى حينما وفدت عليه قبل ذلك ، حيث لم يأذن فى دخولى الى المدينة الا محمولا من الارض الى أعلى الاسوار فى سلة ! .. ان اسمه « روجو » ، وكان رجاله ينادونه باسم « عنق الثور » ، وهو اسم ينطبق عليه تماما ؛ فلقد كان له من طبيعة الثيران الجامحة ، قسوة العناد وشدة الارتياب ! .. وقد بلغ من افراطه فى العنـاد والريبة انه ، بعـد أن فك الحصار عن المدينة ودوى صوت النفير معلنا ذلك ، لم يسمح بدخولها الا « لحورمحب » وحده ، ليتحقق من أنه هو بشخصه ، وليس سوريا متنكرا ! .. وكان له عذره فى هذا الحذر الشديد ، فقد لقى الكثير من مناورات « الحيثيين »

وخدعهم ، فوق ما كانت تلقاه المدينة دراكا من قذائفهم الملتهبة التى كانت تصب الموت على جنود الحامية ! ..

ولقد دخلنا المدينة بعد هذا ، فوجدنا القليلين من أهلها هم الذين لا يزالون على قيد الحياة ، وكان أكثر هؤلاء الاحياء من النسوة العجائز والرجال المنهوكى القوى ، لشدة ما نالهم من الجهد والجوع ، وكانوا يزحفون تحت المنازل المهدمة كالأشباح السارية فى الظلام . وقد اختلط الامر على هؤلاء حين وقعت عيونهم على الجنود المصريين وهم يدخلون المدينة من أبوابها ، فتجهموا لهم ولوح النسوة بقبضات الايدى فى وجوههم ، استنكارا ، وبدا كأن الجميع يلعنوننا !..

وأمر « حورمحب » بتوزيع الحبوب والجعة على هؤلاء ، فتهافتوا عليها تهافت الجياع على القصاع ، وأصابوا منها أكثر مما تحتمل بطونهم فمات منهم كثيرون متخمين ، فقد كانوا منذ شهور يعانون من الجوع الشديد ! ..

وليس فى مقدورى وصف الحال التى شهدت المدينة عليها يومئذ ، فهنا وهناك رأينا جلودا معلقة على الحيطان ، هى بقايا جثث آدمية انصهرت فى حرارة الشمس ، ولم يبق من جماجمها الا كرات سوداء انتخلتها مناقير الطيور الجارحة ، وهنا وهناك رأينا الخرائب قد أصارتها النيران ترابا فى لون الفحم الاسود ، والحيوانات النافقة تملأ الأزقة وتسد مسالك الطرقات وحولها أكوام من الاقذار تنبعث من عفنها ريح تزكم الانوف ، هى ريح الاوبئة والموت ! ..

ذلك بعض حال المدينة يوم دخلناها ، وكان بودى لو استطعت أن أصورها تصويرا معبرا عن الحقيقة الكاملة التى أسيت لها أشد الاسى فى لحظة انتصارنا ، على أنى أعتقد أن هذا القليل الذى ذكرته منها يكفى ، فى بشاعته ، للدلالة على ضخامة القوة التى كنا ننازلها ، وعلى فداحة المعركة التى خضنا غمارها ، وهذا من شأنه أن يضفى على الانتصار الذى كسبه جيش « مصر » قوة ومجدا ! ..

وعلى سبيل المكافأة والتقدير ، أعطى « حورمحب » لكل من بقى حيا من جنود « غزة » سلسلة ذهبية ، ولم يكلفه ذلك كثيرا ، فلم يكن باقيا على قيد الحياة من هؤلاء أكثر من مائتى رجل ! .. وكان عجيبا أن هذه الحامية على قلة عددها استطاعت الصمود فى وجه الكثرة الكاثرة من أعداء أقوياء موفورى العدة ! ..

أما « روجو » ، أو « عنق الثور » كما يسمونه ، فقد أعطاه « حورمحب » عقدا من الاحجار الكريمة الخضراء ، مثبتة فى الذهب والعاج ، وسوطا مضفرا بالذهب ...

وقد كان لهذه الاعطيات أجمل الاثر فى الجنود ، فراحوا يهتفون فى حماسة واعجاب بحياة « حورمحب » الرجل الذى أنقذ « غزة » ! ..

وكان « روجو » لا يزال خلال ذلك يقلب العقد بين يديه ، حتى اذا هدأت أصوات الهتاف ، نظر الى « حورمحب » وقال له بلهجة المستريب الحذر : أترانى يا « حورمحب » حصانا حتى تزين عنقى بهذا اللجام الذهبى ؟! وما هذه التوشية على هذا السوط المضفر ؟! أهى حقا من الذهب الخالص ، أم تراها تمويهات من الذهب السورى الزائف ؟!

وقبل أن يجيب « حورمحب » ، استطرد « روجو » قائلا : وما أرى الا أن تخرج برجالك من المدينة ، فان كثرتهم هنا تشتت أفكارى ، وتقض مضجعى ، وفى وجودهم لا يغمض لى جفن ، مع أنى كنت أستوفى حاجتى من النوم حينما كانت الكباش الخشبية تدق أبواب المدينة وأزيز المفرقعات النارية يغمر جوها ! .. أخرج برجالك أيها الرجل منذ الساعة ، فاننى هنا فى « غزة » كفرعون فى « مصر » ، فان لم تفعل فانى آمر رجالى أن يطبقوا على رجالك ويذبحوهم لأتخلص من ضجيجهم ، ليعود النوم الشارد الى عينى المسهدتين ! ..

أطلق « روجو » هذه الكلمات فى عصبية وانفعال ، وكان ظاهرا أنه لم يكن يعى ما يقول لطول ما عانى من الحصار المضنى الذى اعتصر قواه ، وقد طفحت عليه آثار هذا العناء الطويل منذ الوقت الذى انتهى فيه الحصار ، فاستيقظت حواسه وانفعلت مشاعره وفارقه النوم على شدة حاجته اليه ، ولم تفلح المخدرات والنبيذ فى هدهدته وتهدئة أعصابه المستوفزة ، وكان كلما استلقى على فراشه احتشدت فى رأسه ذكريات الحصار ، وسيطرت عليه مآسيه ، وظل هكذا مؤرقا حتى ساءت حاله واضطربت أفكاره ! ..

وفى لحظة من لحظات صحوه وهدوئه ، اقترب من « حورمحب » وقال له فى تواضع : انك سيدى وصاحب الامر المطاع ، ومن حقك أن تعاقبنى على ما ضاع من أشياء عهد بها الى « فرعون » ، وأرانى مسئولا عنها أمامه !.. ولكن ماذا عسى كنت أفعل ؟!. ان جميع أوراقى ذهبت طعاما للنار التى كان « الحيثيون » يقذفوننا بها فى جرارهم الملآى بالقار

المشتعل ! .. ومع أن ذاكرتي قد ضعفت لحرماني من الراحة والنوم وقتا طويلا ، فاني أتذكر كل الاشياء وأعرف سبب المفقود منها ، ولكن شيئا واحدا أفتقده دون أن أعرف السبب ، وهـذا هو الذي يحيرني ويقلقني ، ذلك أن أربعمائة من براذع الحمير قد اختفت ، وبحثت عنها في كل مكان على غير جدوى ، وأمناء المخازن كذلك قد عجزوا عن معرفة سبب اختفائها، وقد ألهبت ظهورهم وأرجلهم بالسياط حتىأصبحوا لا يستطيعون الجلوس أو السير على أقدامهم ! .. فنبئني ـ بحق الآلهة ـ يا « حورمحب » أين توجد تلك البراذع ؟! اننا لم نستعملها لاننا أكلنا الحمير منذ أمد بعيد!. أليس اختفاؤها ، دون أن نعرف السبب ، شيئا فظيعا يستحق العقاب!؟. بحق «ست» وكل الشياطين، الا ما أمرت بجلدى أمام الناس جميعا، فاني لمسئول عنها أمام « فرعون » ، ولا أدرى كيف أستطيع مواجهة غضبه عندما أمثل بين يديه ، أنا القائد الذى أحال حمير المدينة طعاما للجنود وأضاع براذعها ؟! ..

وعادت اليه عند ذلك ثورته العصبية ، فتلطف له « حورمحب » وقال : ليس في هذا ما تخشاه ، واني لمعطيك بديلا من هذا القدر المفقود من البراذع ! ..

ولكنه زاد احتدادا وهياجا وقال : لن أقبل هذا ، فانك لتمكر بي وتقودني الى شر لا يفوتني ادراكه ! .. ذلك أنه سيكون واضحا أن البراذع التى تعطينيها هى غير البراذع المفقودة ، وستفشى أنت سرها عامدا عند « فرعون » لتنتقص من قدرى لديه ، فأنت تحسدنى وتنفس على بطولتي، بل تطمع في مركزى كقائد لحامية « غزة » ! .. كلا .. لن أقبل عرضك هذا الخادع ! .. وسأعود الى مواصلة البحث عن هذه البراذع المفقودة ، وسأعثر عليها حتما ، ولو اقتضاني ذلك هدم المدينة حجرا حجرا ! ..

ومن غير أية مشاورة أمر « روجو » باعدام أمين المخزن الذى يعتقد أنه المسئول عن هذه البراذع ، كما أمر رجاله بحفر أرض البرج بالفئوس بحثا عنها ! ..

ورأى «حورمحب» أن خيال هذا الرجل قد استفحل ، فأمر باعتقاله في حجرته وعهد الى بأن أتولى أمره ، فذهبت اليه ، وبمساعدة رجال أشداء ربطته في مخدعه ، وسقيته شرابا مسكنا ، ولكنه لم ينم ولم يهدأ وكانت عيناه تلمعان كعيني الحيوان المفترس ، واشتد به الهياج وهو يتقلب في فراشه موثقا ، وقال لى والزبد يخفق على شدقيه : ألست أنا حاكم « غزة » يا ثعلب « حورمحب » ؟! اذن فاستمع الى واصدع بما آمرك

به ! ٠٠ لقد تذكرت الآن أن هناك فى سجن القلعة جاسوسا سوريا ، كنت قد أسرته قبل أن يأتى سيدك « حورمحب » وقد أعجلتنى واجباتى وأعمالى الكثيرة عن شنقه ! ٠٠ انه رجل مخادع خبيث ، ولست أشك فى أنه هو اللص الذى سرق براذع حميرنا الأربعمائة ، فأحضره من فورك ، لأقسره على الاعتراف بما يكتمه من أمر هذه السرقة ، أسرع به الى أيها الثعلب ، حتى أستطيع أن أذوق النوم آمنا ! ٠٠

وطال هذيانه عن هذا الجاسوس السورى الى أن ضقت به ذرعا ، فحملت مشعلا ونزلت الى سجن القلعة حيث رأيت الجرذان تنهش فى أجساد أناس موتى ، وكان على السجن حارس عجوز أعمى ، فسألته عن ذلك الجاسوس المزعوم الذى جيء به الى السجن قبيل انتهاء الحصار ، فأقسم أن السجناء جميعا قد ماتوا ، منذ زمن طويل ، بعد أن عذبوا عذابا مريرا ، فى سبيل الادلاء بما عندهم من معلومات ! ٠٠

ولكننى لمعرفتى بطبائع البشر ، ولما قد بدا من لهجة هذا الحارس ومسارعته الى توكيد مقالته بالقسم ، داخلنى الشك فى صدقه ، فضيقت الخناق عليه وتوعدته بالشر اذا لم يصارحنى بالحقيقة ، فلم يسعه الا أن يجثو على الارض فى استخذاء ويقول : أبق على حياتى يا سيدى ، فلقد أفنيت عمرى فى خدمة « مصر » باخلاص ، وباسم « مصر » وفى سبيلها ، عذبت المساجين وسرقت غذاءهم ، ولا أخفى عنك أن هذا الجاسوس الذى تريده موجود هنا حيث لا يزال حيا ، وهو ليس شخصا عاديا ٠ انه يختلف عن كل الذين سيقوا الى هذا السجن ، فكلامه غريب ، وله صفير عذب كالعندليب ٠ وقد وعدنى بالثراء اذا منحته الطعام وحفظت حياته الى حين يقدم « حورمحب » على المدينة ، فقد كان على يقين من قدومه ٠ وأكثر ما شاقنى منه واستمالنى اليه أنه وعدنى كذلك باعادة بصرى ، اذ كان هو نفسه أعمى وأبرأه من العمى طبيب عظيم حيث أعاد اليه الابصار قويا فى عين واحدة ، وأكد لى أنه سيقدمنى الى هذا الطبيب العظيم ليردنى بصيرا ، فيجتمع لى منه فى آن واحد نعمتا البصر والثراء، وأعيش بذلك سعيدا طوال حياتى ! ٠٠ وقد كان لكلامه فى نفسى قوة السحر ، فصدقته وادخرته حيا الى أن يحين الوقت الذى يتحقق لى فيه الامل الموعود ٠ وقد بالغت فى راحته واكرامه ، فقدمت له ماشاء من شهى الطعام وأصبح مدينا لى حتى اليوم بمليونين من القطع الذهبية ثمنا لهذا الطعام الشهى ، ولم أشأ أن أنبئه الى هذه الساعة بقدوم « حورمحب » طمعا فى زيادة دينه ، فكلما طال مكثه هنا تضاعف حسابه ، وكان لى من ذلك ، القدر الذى يجعلنى بحق من الاثرياء ! ٠٠ وهو كلما لقيته

يسألنى متلهفا عما اذا كان « حورمحب » قد اجتاز الاسوار ودخل المدينة، مؤكدا أنه سيحرره من سجنه فور وصوله ، وأنه أكثر من هذا سيمنحه سلاسل ذهبية ! .. على أنى ـ كما قلت ـ أخفيت عنه نبأ وصول «حورمحب»، مرجئا ذلك الى أن يبلغ دينه ثلاثة ملايين من القطع الذهبية، فان هذا هو الرقم الذى لا يتحقق الثراء بما هو دونه ! ..

واعترتنى رعدة عندما سمعت كلام هذا الحارس الاعمى ، فقد خيل الى أننى أعرف ذلك الشخص الذى يتحدث عنه ! .. ولكنى تماسكت وقلت له : أيها الرجل العجوز ! .. ليس فى «مصر» كلها ولا فى «سوريا» كذلك ، ذهب بالقدر الذى تذكره ، وما أرى الا أن هذا الاسير خادع قد فتنك وأغراك ، ولقد أحسنت صنعا على أية حال بابقائك على حياته ، فان ثمة أسرارا هامة سنعرف الآن كيف ننتزعها من صدره ، فاحضره من فورك أمامى ، واحمد الآلهة اذ جعلتك غبيا ، لتصدقه وتعنى بالحفاظ عليه حتى اليوم !..

فأخذ الرجل يبكى بمرارة ويدعو « آمون » أن يرعاه ويعينه ، ثم قادنى الى حجرة صغيرة مستخفية خلف الحجرات الاخرى حيث الممر المؤدى اليها مغلق ، امعانا فى اخفائها عن عيون رجال « روجو » . وعندما أدنيت مشعلى من نافذتها الضيقة ، رأيت بداخلها رجلا سوريا فى ملابس ممزقة ، مربوطا الى الحائط بسلاسل من حديد ، وقد اختلجت احدى عينيه على ضوء المشعل ، أما الاخرى فكانت جامدة لاتتحرك لانها عمياء !.. وصاح الرجل حين لمح وجهى : أهذا أنت يا مولاى « سنوحى » ؟! بورك هذا اليوم الذى يجمع بيننا بعد طول فراق ! .. لا تقف يا سيدى هكذا مشدوها ، وهيا فادع الحدادين ليكسروا قيودى ويحررونى من أسرى !. وآتنى ، دون امهال ، بجرة من النبيذ لعلها أن تنسينى الآلام الشداد التى عشت فيها معذبا ! .. ومر العبيد ليأتونى بالمداهن المعطرة ، ولن تجد منى أية معارضة اذا أعددت لى فراشا وثيرا ، فانك لتعلم أننى قد تعودت الراحة والرفاهية ، وحبذا لو جئتنى ببعض عذارى « عشتروت » ، فانى الى الاستمتاع بهن لشديد الظمأ ! .. ولا تخف ، فسوف أكون كفؤا لهن . فهذا بطنى قد ضمر وتخفف من الشحم والورم ! ولا تحسبن هذا نتيجة الجوع .. كلا ، فقد استهلكت من الخبز فى أيام معدودات ماقيمته مليونان من القطع الذهبية ! .. وان لم تصدقنى فسل الحارس الامين الذى لايكذب ولايمين !..

وكانت مفاجأة لم تخطر لى على بال، أن أرى «كابتاح» حيا ، وفى مثل

هذا المكان النائى ، وهو الذى كنت أحسبه فى عداد الموتى ! ·· فاندفعت اليه ووضعت ذراعى على كتفيه اللذين أدماهما قرض الجرذان وقلت له فى دهشة بالغة : « كابتاح » !.. « كابتاح » !.. لقد انبئت فى « طيبة » أنك لقد لقيت حتفك ، ومع أن هذا لم يكن غريبا فى وقت كان الموت فيه كالمنجل الحاصد ، لا يبقى ولا يذر ، فانى شككت فى صحة النبأ ذلك لانى أعتقد أنك عصى على الموت ، وفى وسعك دائما أن تجد الوسيلة للهرب منه ، ولم أكن مخطئا فى شكوكى ، فهأنذا ألقاك اليوم حيا الى جوار الموت نفسه ، موفور العافية بين الجثث المعفنة ! ·· وأعجب العجب أن يغفل عنك الموت هنا ومن حولك هؤلاء الذين قضى عليهم جميعا بمرآى منك ومسمع ، على حين أنهم أرجح منك كفة فى ميزان الفضيلة وأقرب منك مكانا الى الآلهة !..

فقال «كابتاح» : انك ياسيدى « سنوحى » لاتزال ذلك الثرثار القديم .. فأنت تتحدث عن الآلهة كما لو كانت آثرتنى برعايتها دون الآخرين بغير حق ، وليس هذا صحيحا ، فما أكثر ما استنجدت بها خلال شقائى وتعاستى فلم أجد منها عونا ولا استجابة · لقد تضرعت الى سائر الآلهة ، حتى آلهة « بابل » و « الحيثيين » ، ولكنها كانت كلها سواء فى التخلى عنى !.. هذه هى الحقيقة ، فان كنت قد وافيتنى فى لحظة اليأس من الحياة لتنقذنى ، فالفضل فى هذا الى الجعران المقدس الذى احتفظت به لحسن حظى ، مدسوسا فى موضع دقيق من جسمى ، وهو موضع كنت أراه غير لائق بقداسته ، ولكنه — فيما يبدو — قد استطاب المقام فيه ، وآية ذلك أنه هداك الى مكانى من حيث لم تكن تدرى ، فهو وحده ، ولا غيره ، صاحب الفضل أولا وأخيرا ! ·· وآه يا سيدى لو عرفت كم قاسيت من أهوال فى هذاالسجن الموبوء ! ·· ان ذلك الحارس الجشع قد استنفد كل نقودى فيما كان يقدمه لى من طعام ، ولم يكفه هذا فراح ينقلنى بما يزعمه من دين بلغ فى حسابه الملايين من القطع الذهبية ، وأنا لا أنفك أداجيه وأطمعه فى المزيد ليصبح من الاثرياء ! ·· وكل هذا رضيت به لقاء أن أبقى بمبعدة من موت كان منى جد قريب ، وتحملت صابرا فى سبيل ذلك ، العيش الدون والاسر الذليل ومعاشرة الحشرات، والجرذان وجثث الموتى ! .. ولقد حاولت جاهدا اول الامر أن اقنع قائد الحصن بأنى لست من عدوه ، ولكنه كان رجلا مجنونا لم يفهم ما أقول ، فأمر رجاله بأن ينهبوا متاعى ويشتدوا فى تعذيبى ثم ألقانى فى هذا السجن لأموت به مثلما يموت غيرى من المعذبين !..

ودعوت الحدادين ، ففكوا قيوده ومضيت به الى حجرتى بالقلعة

وكان يخطو خطوا وئيدا متعثرا لفرط ضعفه ، واضطراب عينه التى عشيت لطول مكثها بالظلام ، وجئت له بالعبيد الذين غسلوه ودهنوا جسمه بالزيت المعطر ، وألبسوه الملابس الكتانية الفاخرة ، وقلدته ببعض السلاسل الذهبية وأعطيته كذلك بعض الحلى ليصبح متزينا بها بين الناس ، ويظهر فيهم كما لو كان صاحب مرتبة مرموقة ، وقد بعث فيه هذا نشاطا وحيوية فنهض ليحلق بنفسه ذقنه التى كساها الشعر الكث ويمشط شعره الأشعث ويصلح من عامة شأنه ، ثم أقبل على ما أعددت له من اللحوم والنبيذ يتناول منها فى شراهة ونهم ، حتى اذا شبع وانتشى راح يمرح فى سرور وابتهاج ! ..

وبينما كان مسترسلا فى مرحه ، كان حارس السجن على الباب يبكى ويلطم خديه ويصيح قائلا : ان «كابتاح» مدين لى بمليونين وثلاثمائة وخمسة وستين ألفا من القطع الذهبية ثمن طعامه وحفظ حياته ، فليؤدها لى الآن كاملة ، وما أنا بتارك منها قطعة واحدة ! .. فليست هى بالشىء الكثير لقاء ماتعرضت فى سبيله من خطر ، وما سرقت له من أقوات الآخرين !.. انه عاهدنى على ذلك ، وها قد آن وقت الوفاء !..

وأضجرنى صياح هذا الرجل والحافة فى الطلب ، فقلت «لكابتاح»: لقد انتهت حاجتنا الى هذا العجوز السخيف الذى يريد أن يقتضيك دينا لاأصل له ، ولاحق له فيه ، ولاهو بالمستطاع على أية حال ... فقد صار الامر الينا فى المدينة بعد أن دخلها « حورمحب » بقواته منذ أسبوع، ولهذا فانى سآمر الجند ليجلدوه ، فان لم يسكته الجلد ، أمرتهم بقتله ، فانه مخادع أشر وقد قتل الكثيرين ! ..

وأبدى « كابتاح » دهشته لكلامى وقال : لا ، ياسيدى ، فاننى رجل شريف ، وقد وعدته بالمال الذى يطلبه ، ومن مقتضيات الشرف أن أفى له بهذا الوعد . ولا تنس أنى تاجر وينبغى أن أحتفظ لنفسى بحسن السمعة ، ولقد كنت أول الامر أساومه مخادعا لمجرد السلامة من الموت ، ولكن الجوع الذى أخذ ينهش أحشائى بأسنانه الحادة كان يوشك أن يتولى مهمة القضاء على حياتى ، فساومته على الطعام صادق النية فى وفاء الثمن الذى يقدره من غير مراجعة ولا جدال . وقد قام الرجل بالجزء الخاص به من الاتفاق ، فى ظروف شديدة السوء ، غير مبال بما كان مرجحا أن يلقاه من العقاب الصارم ، فمن حقه أن يقتضينى الثمن ، وليس من حقى الامتناع عن الوفاء ! ..

وفى ارتياب ودهش قلت « لكابتاح » . ماذا أسمع ؟! انى لا أكاد

اصدق ان مثل هذا يصدر عنك انت يا « كابتاح »الذى اعرفه !.. واغلب ظنى أن لعنة ما تكمن بين أحجار هذه القلعة لتصيب كل من فيها بالجنون، فهذا الذى تقوله ليس الا عرضا من أعراض الجنون !.. والا فقل لى ، ان لم تكن مجنونا ، من أين تفى لهذا الرجل بملايينه المدعاة ؟! لقد اصبحنا ، كلانا ، لا نملك شيئا منذ دال عهد الاله « آتون » ، أليس هذا هو الواقع أيها الاحمق ؟! ..

ولكن « كابتاح » كان قد لعب النبيذ براسه ، فقال : انى رجل متدين ، وامجد الآلهة ، واحترم عهودى ، فلست أعفى نفسى من سداد هذا الدين الى آخر قطعة ذهبية !.. وان لم يكن هذا بالأمر الممكن الآن، فلتكن اذن نظرة الى ميسرة ، ولن يضير الرجل أن ينسئنى الى أجل غير بعيد ، فاذا أصر على الوفاء المعجل ، وهذا حقه ، فليس يعجزنى أن أزن له مثقالين من الذهب ، فيرضى . بل لعله يطير فرحا ، فان أصابعه لم تلمس الذهب طوال حياته . على أن هذا لا يحلنى من الوعد الذى وعدته، وانى لحريص على الوفاء به كيفما كان الامر ، وسوف ترى أن هذا مستطاع على الرغم من أننى قد فقدت كل شىء فى ثورات « طيبة » ، ذلك أننى أدين « حورمحب » بأكثر من مليون قطعة ذهبية ، ويجب أن تعلم القصة من أولها .

واستطرد « كابتاح » يروى قصته فقال : حينما بلغت الثورة أشدها فى « طيبة » ، وبدت طلائع النهاية فى جانب « آمون » ، ارتاب الارقاء فى موقفى ، وظنونى قد خنتهم ، فانقضوا على يريدون قتلى . ولكننى استطعت أن أهرب بنفسى الى « ممفيس » وقد تبعنى الارقاء اليها ، فأفلت منهم . وفى غمار الاخطار الجسام هربت الى « غزة » عن طريق البحر فى قارب صغير ، وكنت قد قمت فى « ممفيس » بعمل كان « حورمحب » فى حاجة اليه ، فلما انتهيت الى «سوريا» زاولت أعمال التجارة متنكرا وداخلت الحيثيين بوصفى تاجرا ، فبعت اليهم حبوبا وتبنا ، وكان هذا عملا يهدد حياتى بالخطر الاكبر ، فان خيول الحيثيين ، التى هى عماد حربهم ، كانت اذا ما تناولت علفها من التبن الذى بعثه لهم تصاب بالمرض وتنفق، ولا شك فى أنك قد علمت هذا . وقد فطنوا أخيرا الى مصدر هذا الخطر، محنقوا على وكان لا مناص من فتكهم بى اذا وقعت فى أيديهم . ولكنى - بوسائلى الخاصة - نجوت منهم وتسللت الى « غزة » ابان حصارها ، وفيها وقعت بين يدى حاكمها المجنون الذى اعتبرنى جاسوسا سوريا ، فزج بى فى السجن الرهيب ، وأسرف فى تعذيبى وقرر تعليقى على الاسوار من أعقابى ، وكان موتى على هذه الصورة الفظيعة أمرا محتوما ،

لولا هذا الحارس العجوز الذى أخفانى ، وأقسم للحاكم المجنون أنى مت فعلا فى عداد من ماتوا من السجناء ، فأنقذ بذلك حياتى ، ولست بالناسى صنيعه ولا بالمتنكر له فى حسابه ! ..

وكشفت لى قصة « كابتاح » عن جانب هام من الجاسوسية المقنعة التى عرف « حورمحب » كيف يتسلح بها فى محاربة أعدائه المتفوقين عليه فى العدة ، وعرفت عندئذ أن « كابتاح » كان ممن استعملهم فى هذه الجاسوسية ، بل لعله كان أبرعهم حيلة وأنشطهم عملا . وعادت بى الذاكرة الى ذلك الرجل الذى كان قد وفد على خيمة « حورمحب » ليلا فى معسكرنا بالصحراء مرتديا ملابس السوريين الرثة ومخفيا احدى عينيه. لقد أدركت الآن أنه كان أحد رجال « كابتاح » أرسله «حورمحب» على هيئة الرجل الاعور ، اشارة الى أنه مبعوث من عنده ! فهذا الرسول قد ذكر « لحورمحب » ليلتئذ أن « التبن جاهز » ! .. ولم يزد على هذه الكلمة شيئا . وكان « حورمحب » يفهم المراد بها ، فأمر فى الحال بمسير الجيش الى «سوريا»، وفهمت ساعتهاأن الجاسوس قداشار الى شيءذى خطر !.. واذن فقد كان « كابتاح » هو الذى يقود المعركة من وراء ستار ، فهو الذى استطاع أن يخدع الحيثيين ويقدم اليهم التبن مخلوطا بالسموم القاتلة ليقضى على خيول عجلاتهم ، وبهذه الوسيلة وقعت هزيمتهم ..

وقلت « لكابتاح » أخيرا : حقا ان « حورمحب » مدين لك بالكثير ، ولكن ماجدوى أن يكون هذا الدين آلافا أو ملايين ما دمت تعلم أنه لا يؤدى ديونه ؟! ألم تكن دائم الشكوى من مطلبه فيما سلف لك عليه من دين ؟!

فقال : بلى ، انى أعلم ذلك ، فهو رجل قاس يجحد حق غيره ويلين عند الحاجة ثم يشتد اذا ما استغنى ، ومثله تماما فى هذه الخصال الرديئة ، حاكم « غزة » ، ذلك الفظ غليظ القلب الذى ألقيت اليه — من فوق الأسوار — جرارا لا عداد لها مشحونة بالحبوب والاقوات ، موهما الحيثيين أنها مملوءة بالثعابين السامة ، وقد جازت عليهم الحيلة عندما جئتهم منها ببعض جرار معينة وفتحت سداداتها أمام أعينهم ، فخرجت منها ثعابين رقطاء تسعى ، وقد لدغت ثلاثة رجال منهم فماتوا من فورهم ، فنفى هذا شكوكهم ولم يفكروا بعد فى فتح الجرار الاخرى !.. فعلت هذا ، متعرضا فيه للموت ، لخدمة « روجو » هذا الحاكم المجنون ،

فكان جزائى منه ما قد عرفت من السجن المهين وقرار الموت الذى وقانى منه الحارس الاعمى !.. على أن «حورمحب » بالغا ما بلغ من

فساد الطبع لا يستطيع ان يتحيفني حقى ، وهو الذى يعلم أى جهد عظيم بذلت فى سبيل نصره ، وقد يغلبه طبعه أو قد لا تسعفه الظروف الحاضرة ، فلا يدفع لى الذهب الذى يكافىء خدماتى الجليلة وجهودى المضنية ، ولكن لا اريد أن اشق عليه فى ذلك ، فمن الممكن — اذا ضن بالمال أو عجز عن تدبيره — أن يقيمنى على جباية رسوم الموانىء وضرائب المدن المحتلة ، ويمكن لى من تجارة الملح فى «سوريا» ، فهذا لايكلفه الدفع المعجل ، بينما انا قانع به أجرا على خدماتى وجهودى ! ..

قلت له : قد يكون فى هذا حل معقول لمشكلتك مع « حور محب » ، ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة الدين الذى تصر على تأديته لهذا الحارس المخبول !.. انه دين باهظ جدا يوقر كاهلك ، وأرى ألا طاقة لك على ادائه حتى او ظللت ما بقى من حياتك تشقى بالعمل وتكدح فى جمع المال ! ..

وقال « كابتاح » بعد أن تناول كأسا مترعة من النبيذ : ان فى شراب النبيذ وفى الاسترخاء على الفراش الوثير لمتعة لا يعرف المرء قدرها الا بعد مقامه عدة أسابيع فى مكان مظلم ذى أحجار حادة كذلك الذى كنت فيه ! .. وانك لترى أمرى مع هذا الحارس معقدا لا سبيل الى حله ، ولكن لا اراه على هذا الوجه ، وسأوفى للرجل حقه ، ولا أنكث عهدى له ، دون ان أجد فى ذلك مشقة أو عسرا ، ويجب أن تعرف أولا ان هذا الحق ينطوى على أمرين : أحدهما اعادة البصر الى عينى الرجل، وثانيهما دفع الذهب الذى يقدره بالملايين ! ..

أما اعادة البصر ، فأنت يا سيدى الطبيب كفيل بها ، وعليك أن تعد نفسك لها . وأما الذهب ، فانى الكفيل بأدائه له عن طريق المقامرة ! ..

لقد كان الرجل قبل أن يفقد بصره مقامرا كبيرا ، فأعد اليه بصره ، لأعود أنا به الى القمار ، اعنى الى دائه القديم الذى لاينفع فيه طب الأطباء ! .. وسوف الاعبه على مبالغ ضخمة تستغرق ملايينه المزعومة فى اقصر وقت ، وانى فى هذا المجال — ان كنت لا تدرى — الفارس المجلى ! ..

وأعجبتنى من « كابتاح » هذه الفكرة الشيطانية ، ففيها وحدها الخلاص من الدين الفادح دون اخلال بالوعد الذى ألزم نفسه به ، ولم يخالجنى شك فى نجاحها ، لانى أعلم أن « كابتاح » لاعب ماهر ، وبخاصة

اذا اختار هو نوعا بذاته من قطع النرد التى يلاعب بها منافسه ، ولذلك وعدته بأن استخدم كل مهارتى الفنية فى اعادة البصر الى الحارس . أو على الاقل اعادة ما يكفى لتمييز أرقام النرد .

وسر « كابتاح » بما رأى من حسن استعدادى لتنفيذ الشطر الاول من الاتفاق ، ووعدنى بدوره بأنه لقاء ذلك سيرسل أموالا كافية الى « ميوتى » لتعيد بناء منزلى المنقض فى « طيبة » ، ولتحيا حياة طيبة فى غيبتى عنها ! . .

ودعوت الحارس العجوز الذى كان لايزال يضج بالصياح والبكاء خارج الابواب ، فدخل الى حجرتنا متعثرا واستقبله « كابتاح » مرحبا وأكد له أنه مؤد له دينه كاملا ، واستمهله فى الأداء بعض الوقت الى أن يعـاد اليه بصره ، وقال له : انك الآن بين يدى الطبيب البارع الذى وعدتك به .

وفحصت عينى الرجل وتبين لى أن اصابته بالعمى ليست ، كما كان يظن ، نتيجة المكث الطويل فى الظلام ، وانما هى نتيجة مرض قديم اهمل علاجه . وفى اليوم التالى اخذت فى علاجه على الطريقة التى تعلمتها فى بلاد « ميتانى » .

ومضيت « بكابتـاح » الى «حورمحب» ، فسر كثـيرا بلقـائه ، واثنى على شجاعته وقال له : ان « مصر » كلها لن تنسى اعماله العظيمة وخدماته الجلى .

ولكن « كابتاح » بدا متجهما وراح ينشج بالبكاء ويقول : هلا نظرت يا سيدى الى أذنى وكيف فعلت بهمـا جرذان « غزة » فى الاوكار التى يسمونها سجنا ؟! والى بطنى هذه التى تقلصت وانكمشت كما لو كانت حقيبة جلد خاوية لشدة مانالها من الخماص والجوع !.. ان ثناءك على شجاعتى ، وتقدير مصر كلها لاعمالى وخدماتى ، شىء جميل ، لاشك فى هذا . ولكنى لا أكاد اشعر بجماله وأنا على ماترى من سوء حال ، وخير من ذلك عندى أن تنجز ما وعدتنى من حقائب الذهب ، فلست فى حاجة الآن الى الثناء والتمجيد ، وانما أنا فى حاجة الى الذهب الذى هو حقى عليك ، فأعطنيه كما ينبغى أن يفعل الرجل الشريف ، فان ثمة ديونا كثيرة قد أغرقتنى من قدمى الى رأسى ، وعلى أن أؤديها معجلة للغرماء الذين لا يعرفون لغة التسويف والارجاء ، ولا يسيغون كلمات الحمد والثناء ! . .

فتقبض وجه « حورمحب » وقال وهو يضرب بسوطه على فخذيه :
انك تتكلم يا « كابتاح » كمن به جنة وخبال ، وكان عليك أن تعلم أنه ليست هناك أسلاب أقتسمها معك ، وانني أنا نفسي فقير لا أملك شيئا، وان بيني وبين الحيثيين حربا لا تزال شاجرة ، وكل الذهب الذي يمكن أن تصل اليه يدي يجب أن أستخدمه في حاجات هذه الحرب ومطالبها، على أنه ان كان هناك دائنون يزعجونك بالطلب، فمن أيسر اليسر أن أريحك منهم ومن ديونهم ، فليس يكلفني أمرهم أكثر من القبض عليهم والقائهم في السجن ، متهما اياهم بالخيانة مثلا ، ثم أصدر الامر بعد ذلك باعدامهم ! ..

ولكن « كابتاح » لم يوافق على هذا الراى الذى يحقق له الخلاص من مأزق الدين ! ..

فضحك « حور محب » ضحكة الساخر ، وقال له في صرامة :
لا افهم لماذا عذبت في السجن على هذا النحو ؟ ! ان « روجو » رجل مجنون حقا ، ولكنه مع ذلك رجل محارب قديم ، وقد أدار معركة الحصار بمهارة القائد البصير الذى لا تخفى عليه خافية ، وليس من المعقول أن يعتبرك جاسوسا سوريا ، ويقضى بما قضى من تعذيبك ، دون أن تكون لديه أسباب تبرر ذلك وتوجبه ؟ !

وكان واضحا في عبارات « حورمحب » هذه انه يرتب على تصرف «روجو» اتهاما الى « كابتاح » يتوعده به ، فانزعج لهذا انزعاجا شديدا، وراح يمزق ملابسه الفاخرة تعبيرا عن براءته ويقول وهو يدق على صدره : « حورمحب » ! .. انت حقا الذى تقول هذا ؟ ! انت الذى كنت منذ قليل تستقبلني بالثناء وتصف أعمالي بالمجادة والتكريم ؟ ! الست أنا الذى دس السم بنفسه لخيول الحيثيين في علفها ؟ ! الم أكن انا الذى قمت بعملية تهريب الاقوات الى « غزة » واستأجرت الرجال الأشداء ليخوضوا أهوال الصحراء حاملين اليك ، هناك ، رسائلي وتقاريري شارحا فيها أدق أسرار اعدائك ؟ ! والم أكن انا الذى استأجرت كذلك العبيد ليفجروا قراب الماء بالعجلات الحربية التى كان الحيثيون يهاجمونك بها ؟ ! ..

لقد فعلت كل هذا ، وانت تدريه ولا تجهله ، وانت الذى تجنى اليوم ثماره وفخاره . ولم يكن دافعي اليه مجرد الرغبة في الجزاء ، ذهبا كان أو فضة ، فالتفكير في هذا خلال معركة الموت المحيط بنا من كل

جانب ، كان ضربا من الخيـال · ولقـد اندمجت فى هـذه المعركة مجازفا بحياتى ، وكان من الممكن فى اية لحظة أن أكون واحدا من الالوف الذين لقوا فيها مصارعهم ، ولـكنى لزمت الاخطار وعشت فيها بائعا نفسى فى سبيلك ، وكان لى اكثر من وسـيلة للنجاة لو اننى كنت ممن يطلبون الحياة ويحرصون عليها ! .. وقد كان العمل الذى اضطلعت به فى حربك هـذه ضخما شائكا اقتضـانى الكثير من العنـاء والمهـارة ، فداهيت «الحيثيين» ومالقتهم على نحو لايستطيعه سوى الفدائى الشجاع واسع الحيلة ، وقد خدعوا بما قدمته لهم من خدمات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، ولا ضير فيها على مصر بحال ، بل لقد كانت فى نتائجها وآثارها خيرا محضا لبلادنا ، على ما لاسبيل الى نكرانه ، وبهذه الخدعة استطعت أن احصل على جواز مرور من «عزيرو» ، وفى ظل الامن الذى حاطنى به هذا الجواز ، بلغت اسوار «غزة» واديت واجبى كاملا ، وتحقق النصر للجيش المصرى بفضل تدابيرى المستترة . وكنت أعتقد ، عندما مرقت الى المدينة ، أن «روجو» سيعرفنى بالعلامة السرية المتفق عليها ، ولكنه كان شديد الحذر والارتياب ، فلم يثق بى وذهبت عبثا محاولاتى فى اقناعه بأننى من أخلص رجالك ، وأبى الا أن يعدنى جاسوسا عليه ، ومن ثم وضعنى ممددا على عجلة التعذيب، واضطررت مكرها أن أسمعه الكلمة التى يريدها وهى أننى جاسوس « لعزيرو » !··

وقال « حور محب » ، وهو يضحك فى هذه المرة ضحكة الاشفاق: ان هذا العذاب الذى لقيته فى سبيلنا ستجزى عليه يا «كابتاج» أحسن الجزاء ، ولست انكر انك قد صنعت لنا خيرا كثيرا ، ولكننا فى ظـروف غير عادية لا يستطاع فيها تقديم الذهب الذى لا اغمطك حقك فيـه ، فلا تضايقنى بطلبه الآن ! ..

ولـكن « كابتاح » ظل يحاوره ويجادله حتى ظفر منـه بصك يعطيه الحق فى أن يكون وحده المتصرف بالبيع فى غنـائم الحرب وأسلابهـا فى «سوريا» ، واذن له فوق ذلك فى أن يزاول ماشـاء من اعمال التجـارة والمقامرة والمبادلة على جعة ونبيذ ونسوة او اى اسلاب اخرى تكون قد وزعت على الجنود ...

وكان هذا كله كافيا ليصير « كابتاح » موفور الغنى ، ولكنه استزاد « حور محب » ، فمنحه الحق نفسه فيما سيحصل عليه الجيش مستقبلا من الغنائم والاسلاب ! ..

ووجه «حورمحب» عنايته الى اصلاح العجلات الحربية وتجهيزها كلها للعمل ، واستدعى القوات الاحتياطية من مصر ، وجمع فى « غزة » كل مافى جنوب «مصر» من خيول ، وأخذ فى تمرين الجنـود ، حتى اذا ما استوثق من ان كل شيء أصبح تام الاعداد والتجهيز ، أصدر بيانا عاما أعلن فيه أنه انما جاء الى «سوريا» ليحررها لا ليغزوها ، فقد كانت تحت حماية «مصر» ، تستمتع باستقلالها وتمارس حريتها غير المحدودة فى حياتها وتجارتها وشتى شئونها ، وكان على كل مدينة منها ملك من أهلها ، ولكنها أخيرا منيت بمطامع «عزيرو» الذى انتقض على «مصر» ، وانقض على مدن «سوريا» واغتصب حقوق ملوكها ليستأثر بالامر كله فيها . وفى سبيل مطامعه حالف « الحيثيين » واستعان بهم فنكلوا بالبلاد وساموا أهلها سوء العذاب ، وفدحوهم بما لا طاقة لهم به من ضرائب ، ولهذا كان لزاما على «مصر» أن تعبىء قواتها لترفع عن«سوريا» العزيزة أوقار هذا الشقاء الذى تعانيه ، وترد اليها ماسلب الأعداء من حرياتها ، وتعيد ملوكها الى عروشهم ، وتمد عليها ظلال حمايتها الاولى، لتنعم بما كان لها من ازدهار حياة وانتعاش تجارة وشيوع أمن . وان « حورمحب» ابن الصقر ليضطلع بهذه المهمة قويا موفور العدد والعدة ، وقد الحق بالأعداء فى الجولات الاولى هزائم منكرة وخسائر فادحة ، وسيتعقبهم فى كل مكان من هذه الارض الى ان يطهرها منهم ، وهو يدعو مدن «سوريا» جميعها الى معاونته فى معركة تحريرها وخلاصها ، وسيولى كل عطفه ورعايته المدن التى تطرد « الحيثيين » وتغلق أبوابها فى وجه «عزيرو» ، أما تلك التى يغلبها الخنوع فتمضى فى ركاب«الحيثيين» مقاومة للمصريين فسيحرقها وينهبها ويدمرها تدميرا ويأسر أهلها ويبيعهم أذلاء بيع الرقيق ! . .

وعهد «حور محب» الى جواسيسه بهذا البيان لينشروه فى كل المدن السورية ، ومضى مسرعا الى «يافا» وامر اسطوله بالابحار الى مينائها لمحاصرتها . وكان لهذه الحركة آثارها العاجلة فى انحاء البلاد ، فاختلفت الآراء بين المدن المحتلة ، وانتشر القلق والذعر والمنازعات بين الأعداء ، وهذا هو الذى كان يريده ، ويستهدفه ، « حورمحب » !..

وآثر «كابتاح» البقاء فى «غزة» ابتغاء السلامة ، وابتعادا عن مواطن

الخطر ، اذ كان يخشى هزيمة «حورمحب» أمام «عزيرو» والحيثيين . الذين يعتقد انهم جمعوا جنودهم ولموا شمل قواتهم واكتسبوا بذلك القدرة على التفوق ! . .

واغراه بالبقاء فى «غزة» انه ــ الى هذا الاعتبار ــ قد أصلح مابينه وبين «روجو» عنق الثور ، واحكم صلته به ، واستطاع أن يخلصه من من أوهامه السخيفة عن البراذع المفقودة ، حيث أفهمه أن الجنود لم يسرقوها ، وانما اضطروا الى ان يأكلوها تحت وطأة الجوع الشديد أثناء الحصار الطويل ، فقد كانت من الجلد الرقيق الذى يمكن أن يتخذوا منه ــ فى هذه الأزمة العاتية ــ طعاما يسكتون به صراخ بطونهم!. واقتنع «روجو» بهذا التعليل ، واستراح له ، فهدأت ثورته ، وعفا عنهم، بل أعجب بشجاعتهم !..

وقد أقفل «روجو» أبواب «غزة» عقب رحيل «حور محب» ، واقسم انه لن يفتحها أمام أى جنود بعد ذلك ، ثم عكف على احتساء النبيذ والتلهى بمشاهدة «كابتاح» وهو يلاعب الحارس العجوز ويقامره على المال الذى يدينه به ، وكانت ملاعبة مثيرة ، يتخللها الشراب المستمر من الصباح الى آخر الليل ، وقد بدأت بمبالغ صغيرة ، وكان الرجل العجوز يخسرها دائما ، ولكنه كان يمضى فيها لهجا ليستردها ، ولا يفتأ «كابتاح» يستثيره ويحضه على الاسترسال . وفى كل دور جديد يلاعبه على مبالغ اكثر قيمة ، ولا تتغير مع ذلك النتيجة ، «فكابتاح» هو الكاسب على اية حال ! . . حتى اذا جاء رسول «حورمحب» منبئا بأنه اخترق أسوار «يافا» ، كانت خسارة الرجل العجوز قد جاوزت كل دينه وأصبح ، على العكس ، مدينا «لكابتاح» بمائة الف قطعة من الذهب، فبكى الرجل بكاء شديدا . ولكن « كابتاح » أعفاه من هذا الدين متفضلا وزاد فى تفضله فألبسه ملابس فاخرة وأعطاه مبلغا من النقود الفضية ، ففرح الرجل وبكى من شدة فرحه ، وأخذ يدعو « لكابتاح » ويحمد له كرمه !..

ولا ادرى كيف تحقق «لكابتاح» هذا الفوز العجيب على ذلك المقامر القديم !.. وقد أخبرنى «كابتاح» أن كليهما كان يلعب بمهارة ، وأن الحظ هو الذى واتاه وحالفه ، وحقق امله . وربما كان ذلك صحيحا ، ولكنى اشعر فى دخيلة نفسى أن الامر لم يخل من الغش والتمويه ، وكان ذلك ميسورا «لكابتاح» لما أعلمه من قدرته الفائقة على رماية قطع الزهر وتحريكها حيث يشاء . ولم يكن منافسه ، على سالف مرانه وطول

خبرته ، بمستطيع مجاراته او التفطن لتمويهاته ، اذ كان البصر الذى ارتد الى عينه لا يزال ضعيفا . على انه كيفما كان الامر فقد صار حادث هذه المقامرة ذات الملايين، حديثا يروى فى كل مكان من «سوريا»، لغرابته ومجاوزته المألوف فى أوساط المقامرة . وقد ارتد الرجل العجوز بعد ذلك اعمى ، فاعتزل النـاس معتكفا بقية حيـاته فى كوخ صغير بجانب اسوار « غزة » ، وكان الناس من البلاد الاخرى يقصدون اليه ليسمعوا منه قصة هذه المقـامرة ، وكان على مرور السنين يذكر جيـدا دقائق ملاعبته «لكابتاح» فى كل دور من أدوارها ، وقد زاده العمى تذكرا لها، ولم يكن يأسف على نتيجتها ، بل لقد كان يذكرها مباهيا ، لأنه قامر فيها بالملايين ، وهو مالم يسبقه اليه احد فى تاريخ المقـامرة !.. وكان الناس ، لشغفهم بسماع القصة من صاحبها ، يحملون اليه الهدايا ، فأوفى هذا بحاجته وعاش به الى آخر حياته قرير العين سعيدا !..

وعندما سقطت «يافا» فى يد «حورمحب» ذهب اليها «كابتاح» من فوره ، ودخلتها معه . ولأول مرة رأينا هذه المدينة الأثرية ، وقد ترك «حور محب» رجاله لمدة أسبوعين ينهبونها ويعيثون فسادا فيها ، لان أهلها لم ينتقضوا على «عزيرو» الا حينما دخلها «حور محب» عنوة !..

واغتنم «كابتاح» هذه الفرصة ، فاشترى من الجنود كل ما انتهبوه من السجاجيد الثمينة والأمتعة والتماثيل والآنية وغـير ذلك مما كان كثيرا فى أيديهم لقـاء نقود فضية ونحاسية وكئوس من شراب النبيـذ ، واصاب من ذلك ثروة كبيرة ! ..

وكان جنود « حور محب » قساة فيما قارفوا بالمدينة من مآثم ورذائل . فألى السرقة والنهـب وحـرق الدور وتدميرها كانوا يسبون النساء ويعتدون على أعراضهن ، ويمعنون فى تعذيب التجار ليكشـفوا لهم عن كنوزهم وخزائن أموالهم ، وكان من هؤلاء الجنود من يقف على منحنيات الطرق مشرعا هراوته أو رمحه ليتسلى بقتل كل سورى يمر به ، لا فرق عنده بين رجل أو امرأة ، ولا بين عجوز ، او طفل !..

وقد التاع قلبى لهذه الشرور التى رأيتها بعينى فى « يافا » على أيدى جنـود «حور محب» بمحض رضائه ورغبته لا لشىء سـوى أن يزدادوا ولاء لشخصه ، فانها كانت من البشاعة والفظاعة الى حد لا يقاس عليه ما كان يقع فى «مصر » من مناكر وشناعات بسبب « آتون » ..

وازعج هذا الذى وقع فى «يافا» سائر المدن السورية الاخـرى ،

فهبت فى وجوه «الحيثيين» وبذلت اقصى ما تستطيع لطردهم منهم اجتنابا لما عرفوه من بطش «حورمحب» وقسوة جنوده ! . .

وقد وقعت « سوريا » من هذه الحرب بين شقى رحى ، فجنود «حور محب» من ناحية ، والحيثيون من ناحية أخرى ، يطحنونها طحنا ويعتصرونها عصرا ، ولقد رأيت فيما رأيت مدينة من مدنها كان عدد سكانها عشرين الفا ، فلم يبق حيا منهم عندما بلغناها اكثر من ثلثمائة نسمة ، وهكذا كانت حال أغلب المدن .

وكانت حرب خراب وافناء دامت ثلاث سنين ، تداول فيها الفريقان النصر تارة ، والهزيمة تارة أخرى . وقد عشت فى لظاها أضمد جراح جنودنا واشهد مصارعهم ، واسمع أنين احتضارهم ، واتحرق حزنا على ما ارى من فتك الانسان بأخيه الانسان ، كما لو كنت بين وحوش الغابات تتصارع فى ضراوة ، ويقتل بعضها بعضا فى وحشية ! . .

وكان السوريون، وقد اشتد بهم البلاء، يلجأون الى الجبال ويختبئون فى كهوفها ، مذعورين هربا من الموت الذى يلاحقهم ، وقد امتد الخراب الى مزارعهم وحدائقهم ، اذ كانت القوات المحاربة تغير عليها فلا تدع شيئا من زروعها وثمارها ، وتجتث عمدا كل ماتصادفه من اشجارها حتى لاينتفع بها الأعداء ! . .

وعلى ما كان يلقاه «حور محب» من انتصارات فى أكثر المواقع ، فلقد كان احيانا لا يقوى على مواجهة عجلات «الحيثيين» فيتحصن ببعض المدن الى أن توافيه الامدادات التي لم تكن تنقطع من «مصر» . وقد استطاع ان يحتفظ بالمواصلات البحرية اليها ، فكانت السفن المصرية رائحة غادية تحمل الرجال والعتاد ، وبهذا كان «حور محب» كلما استفحلت خسائره ، يستعيض عنها بمدد جديد ، فينقلب به فى قوة على أعدائه ! . .

ولا أحتاج الى أن أقول ان هذه الحرب قد ابتلعت ثروة « مصر » ، وهصرت شباب ابنائها ، واودت بأرواح كثرة كبيرة من اهلها . فعلى طول نهر النيل من المملكة العليا الى المملكة السفلى ، لم تكن هناك مدينة أو قرية لم تصب فيها بكارثة ، كما لم تكن توجد امراة لم تفقد زوجا أو ابنا فى « سوريا » ! . .

وكان ذلك مما ضاعف فى حزنى وكآبتى حتى اننى فى هذه السنين

الثلاث كنت اشعر بالشيخوخة تسطو على بدنى سطوا سريعا ، فتساقط شعر راسى وانحنى ظهرى وتجعد وجهى كما لو كان قد صار ثمرة ذابلة متجمدة ، واصبحت برما بالناس ضيق الصدر بالمرضى ، اصرخ فى وجوههم على الرغم مما اكنه لهم فى قلبى من عطف ورثاء ! ..

وفى السنة الثالثة ظهر فى «سوريا» وباء الطاعون ، وهو يظهر دائما فى اعقاب الحروب . وقد افرخ ، كما لابد أن يكون ، فى كثير من المواضع التى احتشدت فيها جثث القتلى ، ومنها استفاض وانتشر ، وصارت «سوريا» كلها اذ ذاك قبرا كبيرا لما لاحصر له من ضحايا هذا الوباء الفاتك وبسببه أبيدت أجناس بأسرها وأبيدت معها لغاتها وعاداتها . وقد امتد الى معسكر «حورمحب» والى معسكر «الحيثيين» ، فأتى على كثير من جنود المعسكرين ، فتوقفت رحي الحرب بينهما اضطرارا ، وهرب من لم يصب به من الجنود الى التلال حتى يكونوا بمبعدة من خطره .

وقد القى هذا الوباء على كاهلى عبئا ثقيلا ، فما كان فى وسعى — وانا طبيب — أن أقف مكتوف اليدين امامه وهو يزحف زحفا شديدا على الناس جميعا ، اغنيائهم وفقرائهم بلا تفرقة ، ولم يكن له عندهم من دواء معروف ، فكان الذين يصابون به يستسلمون له فى يأس من السلامة ويستلقون على الارض حيثما كانوا ، ويرفعون أذيال أثوابهم ليضعوها على رؤسهم ووجوههم ، إنتظارا للموت الذى قلما كان يتأخر عن المريض أكثر من ثلاثة أيام !..

ولهذا المرض الخبيث ظواهر شاذة : منها انه « هوائى » فى الاصابة لا يمس انسانا الا سقط فى الحال مريضا من غير مقدمات ، وتلازمه هذه الهوائية فى سرعة الفتك بالمصابين ، وفى اختلاف تأثيره بالمرضى على غير المألوف فى عامة الأمراض ، فلم يكن المريض الذى ينجو منه هو دائما الشخص القوى البنية ، فثمة فقراء مهازيل لا يجدون ما يأكلونه ، قد نجوا منه بينما لم ينج كثير من الأقوياء الموفورى العافية !..

وكان لا مناص من أن أقوم بما فى استطاعتى الفنية لمقاومة هذا الوباء والتخفيف من وطأته ، فأخذت فى علاج مرضاه بالطريقة التى لم يكن ميسورا لى استعمال سواها ، وهى سحب الدم منهم لتلوثه بجرثومة المرض ، ومنعهم من تناول الطعام أثناء مرضهم . وقد شفى على يدى

كثيرون كما مات كثيرون ، ولهذا لا أجزم بما كان للعلاج بهذه الطريقة من فائدة !..

وسرت عدواه الى « مصر » عن طريق السفن الغادية عليها من «سوريا» ولكن ضحاياه فيها كانوا أقل عددا، وقد اختفى منها مع ارتفاع مياه الفيضان !.. وما أن أهل الشتاء على «سوريا» حتى كان قداختفى منها كذلك ، ومن ثم راح «حورمحب» يعيد تنظيم قواته ، ويستوفى مانقص من معداته ، استعدادا لمواصلة الحرب ! ..

وفى الربيع ، اجتاز «حورمحب» الجبال وانطلق بقواته فى السهول حتى بلغ «مجدو» وهناك اشتبك مع «الحيثيين» فى قتال مرير .واوقع بهم الهزيمة !..

وكانت انباء انتصارات «حورمحب» تترادف علي «بابل» فتثير فى حاكمها «بورنابورياش» الحمية والشجاعة ويذكر فى هذه اللحظات حلفه مع « مصر » فيرسل بقواته الى أرض « ميتانى » لتطرد الحيثيين من اراضى الرعى فى «نهارانى»..

ونظر «الحيثيون» فى الموقف فراوه يزداد سوءا ، فهذه بلاد «سوريا» قد شملها الخراب والدمار ، وليس فى مكنتهم مع هذا ان يقيموا لهم فى ناحية منها سلطانا ، فما جدوى أن يسترسلوا فى حرب يخسرون فيها خيرة رجالهم وعجلاتهم، وهم احوج ما يكونون الى الرجال والعربات لصد عوادى مملكة بلاد ما بين النهرين !.. وكان الرأى الذى انتهوا اليه ، هو أن يعرضوا الصلح على «حورمحب» !..

وتلقى «حورمحب» عرض الصلح مغتبطا ، فقد كان فى الواقع لا يقل عن «الحيثيين» رغبة فى انهاء هذه الحرب التى اصابت قواته بالاضمحلال والوهن ، واعتصرت حيوية «مصر» فى رجالها واموالها . وهو أكثر من ذلك سيجد فى السلام فرصته لتعمير « سوريا » وانعاش تجارتها واستثمار أرضها ، فيحصل بهذا على النتائج الحسنة التى تعوضه عن خسائر الحرب وتنسيه متاعبها !..

وقد وافق على الصلح مشترطا أن يسلم «الحيثيون» مدينة « مجدو » التى اتخذها « عزيرو » عاصمة مملكته وحصنها تحصينا قويا يشق اقتحامه !.. فنفذوا هذا الشرط وسلموه المدينة ومعها « عزيرو » وزوجته وأبناؤه مغللين جميعا بالسلاسل ، لكنهم ، قبل تسليمها ، استولوا على الأموال الطائلةالتى جمعها «عزيرو» من «سوريا» ، ونهبوا

كل ما وصلت اليـــه أيديهم ، وطردوا أغنـــام « العموريين » وأبقـــارهم من شمال المدينة بعد تسليمها وبعد أن أصبحت تحت السيطرة المصرية، ولم يمنعهم « حورمحب » من هذا أو ينازعهم فيه ، بل انه ابتهاجا بالصلح والسلام أقام مأدبة لامراء « الحيثيين » وزعمـائهم وظل يسمر معهم طول الليل على شراب النبيذ !..

وكان مقررا فى اليوم التالى ان ينفذ الاعدام شنقا فى « عزيرو » وافراد اسرته امام القوات الحربية .

ولم اشترك فى مأدبة الاحتفال بانتهاء الحرب ، لانى كنت محزونا للمصير الذى سيلاقيه غدا « عزيرو » ، ذلك الذى لم يعد له اليوم فى «سوريا» كلها صديق ولا معين ، وهو الذى كان بالأمس المتكثر بالأصدقاء والأعوان، الذاهب الى أبعد المدى فى زهو الحياة وأبهة السلطان ، فأصبح فى وحدة موحشـــة ، يجتنبه النـاس ويتنـكرون له ، لانه قد تجـرد من القـوة والثراء ، وحـكم عليـه أن يمـوت موت الاذلاء ، وهـــكذا حال الناس دائما ، يتعرفون الى القوة ويتنكرون للعجز ، ومن هنا اسيت على حاله واشفقت على مصيره ، ورأيت نفسى مســوقا فى الظلام الى خيمته التى القوه فيها مقيدا بالسلاسل والاغلال ، وما أملك له من أمر المحنة التى يتردى فيها ، سوى كلمات من العـزاء احاول بها تهيئـة نفسه القلقة لملاقاة النهاية الفظيعة التى أعدوها له فى الصباح القريب، فقد كنت أعلم انه شديد الحرص على الحيـاة ، وانه يعـانى الآن من العذاب فوق ما يطيق . فلألقه اذن كصديق ، ولأقل له ان الموت خير من حيــاة ليست فيما عرفنا منها ، وفيما بلونا من طبيعتها ، ســوى سلسلة متصلة الحلقات من الآلام والشـــقاء ، فذلك ما كنت ابغى أن اقوله له ، ترغيبا فى موت ليس منه فكاك ، وتزهيدا فى حياة لا سبيل فيها الى البقاء ، فلعله اذ يسمع هــذا يشـــعر بالعزاء ، ويتخفف من العذاب ، ويتفتح لفكرة الموت فيقبل عليــه اقبال العــانى المجهد على الراحة والهدوء !..

وكان الاتصال به فى منبذه محظورا ، ولكن الحراس لم يقفوا فى طريقى اليه، وقد سمعتهم يقولون، وهم يشيرون الى : هذا «سنوحى» الطبيب ، وهو لا شك موفد الى «عزيرو» ليؤدى عنـده عملا يتصـل بالمراسم القانونية ، فليس لنا أن نمنعه ، والا أصابتنا لعنته ، وربما استخدم سحره فى تقليص رجولتنا ، ذلك الى انه حاد الطبع وله لسان لاذع كانه العقرب !..

وفى ظلام الخيمة وقفت على الرجل الذى كان يحمل التـاج على، راسه يوما ، الرجل الذى هان شأنه وذل ، حتى رأى بعينيه الجنود يسخرون منه ويقذفونه بالاقذار حينما جىء به هو وافراد اسرته مكبلين الى معسكر «حورمحب» وقلت له : يا «عزيرو» يا ملك « عمورية » !. هل تسمح بلقاء صديق قديم فى وحدتك هذه ؟!٠٠

وتنهد الرجل من اعماقه ، وقال وانا اسمع قعقعة اغلاله : لم اعد ملكا ، كما لم يعد لى اصدقاء ، ولكن من انت ؟! يخيل لى انك «سنوحى»، فانى اعرف صوتك حتى فى الظلام !..

قلت له : نعم ، اننى أنا « سنوحى » .

فقال : بحق « مردوخ » وكل أبالسة الجحيم ، لتأتينى ، اذا كنت انت «سنوحى» حقا ، بمشعل ارى وجهك فى ضوئه ، فقد ضقت بهذه الظلمة الداجية فى هذا المكان ، أولا يكفى اننى سأظل فى الظلام بعد الآن والى الابد !٠٠ ان « الحيثيين » ـ عليهم اللعنـة ـ قـد مزقوا ملابسى واشتطوا فى تعذيبى حتى تيبست اطرافى ، واصبحت من وحشيتهم فى حال تثير الرثاء . ولكنك ـ كطبيب ـ قد الفت ان ترى ما هو اسوأ من حالى منظرا ٠ على أنى لست خجلا من ذلك ، فعنـد مواجهة الموت لا يبالى الانسان على أية حال يكون !.. فائتنى بالضـوء يا «سنوحى» لأراك واضع يدى فى يدك ، واذا استطعت أن تقدم لى جعة قوية التأثير أبل بهـا أوامى وأرطب ما جف من حلقى ، فسـأذكر لك هـذا الفضـل غـدا فى مملكة الموت !.. ويؤسفنى أننى لن اقدر على دفع ثمن هـذه الجعة ، فقد سلب «الحيثيون» كل ما أملك الى آخر قطعة من النقود، حتى النحاسية منها !٠٠

واشرت الى الحراس ، فجاءوا بالمصباح والجعة ، ونهض «عزيرو» من مرقده وهو يتململ ويتأوه من شدة الالم . وفى ضوء المصباح رأيت شعره مشعثا قد خالط البياض شـعيرات منه ، وكانت لحيته كذلك كثة الشـعر فى تهـدل وتلوث ، وعلى وجهه وجسـمه آثار صارخة من التعذيب ، فأصابعه وضلوعه محطمة ، واظفاره تعلوها الدماء ، وكان يجر أنفاسه بصعوبة وعسر ، ويبصق دما . وقد عاونته على التماسك فى جلسـته واخـذت اسـاقيه شراب الجعـة ، حتى نال منها أقصى ما يستطيع . واخيرا نظر الى ضوء المصباح وقال : ما أجمل هذا الضوء فى عينى بعد أن طال مكثى مسجى هكذا فى الظلام !.. ولكنه مع ذلك

سينتهي وينطفيء ، وهل الحياة الا ضوء يومض زاهيا ثم يخبو ؟! تلك هي الحقيقة في بدئها ونهايتها يا «سنوحي» ، واني لشاكر لك أن أمتعتني في لحظاتي الاخيرة بالضوء والشراب ، وقد كان بودي أن اهدي لك شيئا كفاء هذا ، ولكنك تعلم أن أصدقائي «الحيثيين» قد جردوني من كل شيء ، حتى من أسناني الذهبية التي صنعتها !..

وكان الظرف ملائما لتذكيره بما كنت قد قلته له من قبل تحذيرا من غدر « الحيثيين » ، ولكنني خشيت أن أنكأ جراحه بهذا ، وقد يحسبني شامتا أتظاهر بالحكمة في ساعة المحنة ، فلم أقل شيئا ، واخذت يده المحطمة بين يدي ، فأحنى رأسه وتحدرت الدموع من عينيه المحمرتين ، وقال : ان الفرق كبير يا «سنوحي» بين أيامي السالفة التي رأيتني فيها متقلبا في مطارف الدعة والرغد ، سعيدا مرحا ضاحكا في استعلاء ، وبين يومي هذا الذي تراني فيه ذليلا تعسا باكيا في استحياء ! .. ولكنني لا أبكي حزنا على نفسي او على ما زال من مجدي وثرائي ، وسعادتي وهناءتي ، وانما أبكي على زوجتي «كيفتيو» الحسناء ، وعلى ابني الكبير والصغير ، اللذين يشرقان جمالا ولطفا !.. أبكي على هؤلاء الاعزاء يساقون في وحشية الى القتل من غير جريرة ولا ذنب !...

واحسست بأنه يرجو مني أن أصنع لزوجته وولديه شيئا يحفظ عليهم حياتهم ، وذلك ما لم يكن ممكنا ، فقلت له : يا «عزيرو» ياملك «عمورية» .. لقد أصبحت « سوريا » قبرا ضخما ، يثوي فيه عدد لا يحصى من الموتى الذين ذهبوا ضحية أطماع لا دخل لهم فيها ، فما قيمة الحياة لزوجك وولديك اذا قدر لهم أن يفلتوا من الموت ، وسط هذا الركام من الاشلاء ؟! وماذا عساهم أن يجدوا من متعة البقاء في هذه الدنيا الطافحة بالآلام بعد اذ يفجعون فيك معلقا فوق المقصلة ؟! ان موتهم معك خير من حياتهم بعدك !.. على اني مع ذلك رجوت من «حورمحب» أن يعفو عنهم ولكنه أبى واشتد في الاباء ، وقرر اكثر من هذا ألا يكون لك قبر معلم ، مخافة أن يبقى في الناس أثر يذكرونك به ويتجمعون عليه ، فهو يريد أن يمحو اسمك وذكراك محوا تاما ، من «سوريا» كلها ، فكيف بأقرب الاقربين اليك من أفراد أسرتك ؟!..

وقال «عزيرو» في خيبة امل : بحق آلهتك عليك الا ما قدمت يا «سنوحي» القرابين من اللحوم والنبيذ الى الهي «بعل» في «عمورية» بعد موتي ، حتى لا اهيم على وجهي في مملكة الموت السوداء ، معذبا بالجوع والظمأ !.. وكم يكون فضلك عظيما اذا ما فعلت هذا كذلك من

اجل «كيفتيو» تلك التى أعلم انك احببتها فيما مضى من ايامك ، وانك منحتنيها كأعز مايمنح انسان انسانا للدلالة على مابينهما من وثيق صداقة ومحبة ، وارجو أن تكون يا صديقى أكثر سماحا وفضلا فى تقديم هذه القرابين باسمى ولدى . فلئن حققت رجائى هذا ، فانى ـ اذن ـ استقبل الموت فى راحة ، ولست الوم « حورمحب » فيما اتخذ بشانى من قرار ، فذلك ما كنت سأفعله به لو أنه وقع فى يدى ، وكان لا بد من أن تدور الدائرة على احدنا ، ولا رحمة لمخذول !.. وقد كان لا يكرثنى ويهيج حزنى سوى المصير الفاجع الذى سيلقاه أفراد أسرتى معى ، ولكننى الآن ـ وبعد أن سمعت حديثك ـ اشعر بالسعادة اذ نذهب معا ويختلط دمى بدمائهم فى وقت واحد ، فما أطيق ، وأنا فى العالم الآخر ، أن ارى «كيفتيو» من وراء الحجب ، بين ذراعى رجل آخر . ولا مناص من وقوع هذا اذا بقيت فى قيد الحياة ، فهى جميلة مشتهاة ، ولها معجبون كثيرون ، وكذلك لا اطيق أن أرى أولادى الذين ولدوا ملوكا وتزينوا بشارات الملك فى مهودهم ، قد اصبحوا اذلاء يباعون رقيقا فى «مصر» !..

وعاد «عزيرو» الى احتساء الجعة ، حتى اذا بلغ منها حد النشوة ، اخذ يعبث بيديه فيما كان لاصقا بملابسه من الطين الذى قذفه به الجند ، ثم رفع رأسه وواصل حديثه قائلا : لقد قلت يا صديقى ان «سوريا» تحولت الى قبر كبير ، ولا شك فى أنك كغيرك من الناس ، تحسب ان هذا قد حدث نتيجة تصرفى الذى تنصب عليه الآن كل اللعنات ، ولكن احدا لم يكن لينظر الى النتيجة على هذا الوجه اذا كنت قد كسبت الحرب مهما تكن ضحاياها !.. نعم ، لقد اخطأت فى ثقتى بالحيثيين الذين خدعونى ، واخطأت لانى لم أدر دفة القتال على الوجه الذى يمكن لى من النصر ، واسلمنى هذا الخطأ الى الهزيمة ، ولذلك وقعت ، على راسى وحدى ، كل الشرور التى اصابت البلاد ، واصبح اسمى بغيضا الى سائر الناس كما لو كنت طاعونا انبث فيهم !.. ولو أن الاقدار حولت مجرى النتيجة ، ومنحتنى فخر النصر ، لتحول كل الذى أصابنى الى « مصر » ، واحتملت وحدها اصر الشرور واللعنات التى اوقرتنى واودت بحياتى وملكى ، والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى !..

واندلعت الجعة براسه فقال بصوت مرتفع : آه منك يا «سوريا» !.. يا املى وحبى ، ويا عذابى وشقوتى !.. من اجلك فعلت كل شىء ،

وفي سبيل مجدك وحريتك شببت نار الثـورة ، وها انذا ــ على رباك المزدهر ــ اتلظى بنارها واموت في سـعيرها !.. وانت اليوم تشـهدين مصرعي غير آسية ، وتتخلين عني جاحدة مستنكرة !.. وأنت يا « بابل » الجميـلة ، ويا «ازمير» النضرة ، ويا « صيدا » الفاتنة ، ويا «يافا» السـاحرة .. ايتها المـدن التي كنت تتألقين كاللآليء في تاجي ، فيم اعراضك عني وسخطك علي وجفوتك اياي؟!.. كوني غاضبة او راضية، مقاطعة او مواصلة ، فاني على سائر الحالات احبك واهواك ، وأتلقى الموت سعيدا في سبيلك !.. اني أحبك يا « سوريا » لانك وطني وبلادي، احبك حتى في قسوتك وخداعك وخيانتك !.. احبك على الرغم من هذا كله ، فما انت من هذا كله الا فريسة ظروف ظالمة واحداث شـداد ، وستعودين يوما الى طبيعتك الخيرة ، وفطرتك الطاهرة !.. فصبرا ، صبرا يا مدائني الجميـلة المتعالية ، فمـا أكثر ما تفنى الشعوب وتبيد ، وترتفع الدول وتنخفض ، وتنحل الممالك وتدول ، وما أكثر مـا تعبث الرياح بالشهرة والمجد ، ولكن ثم حقيقة خالدة لا تزول من هذه الدنيا، هي أن كل شيء من هـذا يعود أقوى قـوة ، وأصـفى عنصرا ، وأعلى في الخافقين ذكرا ، بالصبر والثقة والايمان وقوة الاحتمـال !... واذن فستنجاب عنك هذه السحب الغاشية ، طال الزمن أو قصر ، واراك غير بعيدة من بعث جديد ، تتجلى فيه معالك النضرات ، متلألئة على جبال الساحل الحمراء !..

وقد تركت «عزيرو» يرسل نفسه في هذا الخيال الذي يتفرج به من ضيقه وحزنه ، حتى اذا هدأ واستراح ، مضيت معه الى آخـر الليل ، فيألوان شتى منأحاديث ، استروحنا خلالها عبير الماضي وذكرى لقائنا الاول عندما كنت أقيم في «ازمير» وحينما كنا اذ ذاك في مزدهر شبابنا واوج قوتنا !..

وفي مطلع الفجر ، جاءنا الارقاء بالطعام الذي لم يشأ الحراس ان يصلوا به الينا الا بعد أن اصابوا منه قدرا غير قليل ، وكان وفرا من لحم الضأن الدسم السـاخن والارز مطهوا بالسـمن ، وقدموا الينـا معه نبيذا فاخرا من «صيدا» مخلوطا بالمسك . وبعد أن طعمنا وشربنا، طلبت من الأرقاء أن ينظفوا « عزيرو » من الاوسـاخ الغاشية على جسـمه وملابسـه ، ويمشطوا شعره ، ويغطوا ذقنـه بشـبكة مصـنوعة من الخيوط الذهبية . وجئت انا بوشاح ملكي ، فسدلته عليه مواريا به قيوده وملابسـه الممزقة ، وصنع الارقاء والخـدم مثل ذلك لزوجته

«كيفتيو» واولادها ، وكانوا منا بمعزل ، ولم يأذن « حورمحب » بان يراهم « عزيرو » الا في ساحة الاعدام !..

وحلت الساعة الرهيبة المحددة للتنفيذ ، واقبل «حورمحب» من خيمته مرسلا في الجو ضحكات عالية ، وحوله الامراء «الحيثيون» ، وهم سكارى لكثرة ما شربوا من الخمر في ليلتهم ، فدنوت منه وقلت له : لعلك تذكر يا «حورمحب» انني من اصدقائك الخلصاء وقد اديت لك خدمات كثيرة منها انني انقذت حياتك عند ما انتزعت سهما مسموما من فخذك وضمدت جراحك المميتة في مدينة «تاير» ، فباسم هذه الصداقة وهذه الخدمات ، ارجو أن توليني اليوم معروفا وتسدي الى مكرمة ، بان تدع «عزيرو» يموت ميتة تحفظ عليه كرامته ، فلقد كان ملكا على « سوريا » ، وقد حارب شجاعا ، وأنت الغالب المنتصر ، وفى وسعك ان تنكل به على ما تشاء ، فمما يرفع من قدرك أن تمنحه الراحة عند الموت ، ومن البطولة أن يكون المرء كريما مع عدوه عندما يكون قادرا على تعذيبه ، ولقد سامه اصدقاؤك «الحيثيون» من العذاب ما لا زيادة بعده لمستزيد ، فكن أكرم عليه منهم ، وهم حلفاؤه !..

ولكن « حورمحب » تلقى رجائي هذا في غضب وتبرم ، اذ كان ما أدعوه اليه يخالف الخطة التي وضعها في عناية واحكام للتنكيل « بعزيرو » تنكيلا تطول به آلامه قبل موته ، على مشهد من الجيش الذى كان قد تجمع ـ طبقا لهذه الخطة ـ تحت سفح الجبل ، وعلى مرأى من الناس الذين كانوا قد اخذوا يتسابقون ، ويتدافعون بالمناكب، الى اقرب الاماكن من آلات التعذيب والاعدام ، وينبغي أن أقرر هنا، انصافا للحقيقة ، ان «حورمحب» فيما أعده من وسائل هذا الموت الفظيع ، لم يكن يصدر عن طبيعته التى اعرف انها لم تكن قاسية الى هذا الحد ، خلافا لما كان يروى عنه ، وانما كانت تقسره على ذلك وتطوعه له ، سياسة الحرب ، ومقتضيات الظهور بالقوة لاعتقاده أن الناس لا يهابون الرجل في مركز القيادة من الحرب أو في منصب الرياسة من الحكم ، الا اذا كان قويا قاسيا ، وهو عندهم الضعيف الخانع الذى لا يؤمن جانبه ولا يرهب سلطانه اذا بدا فيهم ملاينا مسماحا ، ولهذا اصطنع القسوة للزجر والترهيب ، وكان حريصا على أن تذاع أنباء قسوته مهولا فيها بين الناس ، في مختلف الاقطار !..

وفي انفعال ، سحب «حورمحب» ذراعه الذى كان يطوق به عنق الأمير الحيثى « شوباتو » ، وتناول سوطه الذهبى وراح يضرب به على

فخذه ، وقال : انك يا «سنوحى» دائما شوكه فى جنبى ، ولا تنفك تنفس على من تعرف أنهم من الرجال الذين يعلون ويرتفعون بأنفسهم الى مراتب السلطة والمجد ، ولهذا تبدو مشفقا على من لا يستحقون الشفقة من أولئك الذين قاتلوا وأفظعوا القتل والنكال فى سبيل أن يسودوا ، فسقطوا دون أن يبلغوا مبتغاهم من ذلك . ولو بلغوه ، لما عرفت الرحمة سبيلا الى قلوبهم . وانك لتعلم أننى أعددت لهذه الساعة عدتها ، وأنفقت ما أنفقت فى استقدام مهرة الجلادين من كل أركان الارض ، وفى اقامة ماترى من آلات تعذيب دقيقة الصنع والتركيب ، ليرى الناس كيف يموت الطاغية الذى اشاع الموت فى أرضهم وبلادهم ، وها هم أولاء ، تحت بصرك ، قد جاءوا مصبحين ، فى مثل انهمار السيل وتدفعه ، ليقروا عيونا بهذا المشهد الرائع ، وها هم أولاء جنودنا — فئران المستنقعات — يتجمعون كذلك ، ليستمتعوا ساعة من نهار ، بمصرع الرجل الذى رماهم بالكوارث والاهوال ، وأطلق الموت عليهم من كل ناحية ومجال . . افتحسبنى بعد هذا مستجيبا الى رغبتك الطائشة فى هذا الطوفان من المشاعر الفرحة المتلهفة ؟! . كلا ، يا «سنوحى» ، فهذا مستحيل ! . .

وهنا تدخل الامير الحيثى « شوباتو » ، فربت بيده على ظهر «حورمحب» وقال ضاحكا : ان كلامك يا « حورمحب » لهو الصواب بعينه ، فلا ينبغى أن تحرمنا لذة هذا المنظر الجميل ، منظر «عزيرو» معذبا ومشنوقا ، فنحن لمثل هذه الساعة قد ابقينا على حياته ، وكان فى وسعنا ان نمزق لحمه ونفرى عظامه ، ولكننا لم نزد على أن وخزناه بالابر ، وداعبنا جسمه بالمخارز ! . .

وضاق « حورمحب » صدرا بكلمات هذا الامير ، وانف منه ان يلامسه ويحشر نفسه فى أمر «عزيرو» على هذه الصورة ، فقال له متجهما : انك لا تزال تحت تأثير الخمر يا «شوباتو» ، ولئن كان فى أمر « عزيرو » شىء لا تعرفه ، فذاك أننى لا أبتغى من المجاهرة بتعذيبه الا أن يعلم العالم قاطبة أن هذا هو المصير الذى ليس منه منتدح لكل من يوالى «الحيثيين» ويثق بهم ! . . على اننا ، وقد اصبحنا منذ الليلة الماضية أصدقاء ، وتساقينا معا كئوس الاخاء ، فانى سأولى « عزيرو » ما لايستحق من رحمة ، وأمنحه ميتة مريحة ، فقد كان حليفكم ، ومن حق هذا الحلف أن نرعاه بعد ان جمعت بينى وبينكم أواصر الصداقة والاخوة ! . .

وشاعت فى وجه «شوباتو» سحابة غيظ وغضب ، فكأنما قد رماه «حورمحب» بسهم قاتل ، وكان هذا فى طبيعة « الحيثيين » ، فانهم مرهفو الاحساس فيما قد يقع ماسا بشرفهم ، وقد لا يتفق هذا مع ما عرف عنهم من انهم فى سبيل منافعهم الخاصة لا يحتفلون بالمواثيق والعهود ، ومن انهم على استعداد فى كل وقت لخيانة حلفائهم ، بل للانقضاض عليهم كلما اقتضت مصلحتهم ذلك ، فمن اليسير تبرير هذا التلق بأنه أمر تفرضه عليهم واجبات أو اهداف وطنية تتلاشى امامها أى اعتبارات أخرى ، ولعلهم ليسوا بدعا فى ذلك ، فتلك حال الامم عامة، وأخلاق الحكام والرؤساء على غير خلاف ، وما أكثر ما يسمى هذا حذقا ودهاء وحسن تدبير !..

وكاد « شوباتو » أن ينفجر غضبا فى وجه « حورمحب » ، ولكن اخوانه تداركوه ووضعوا أيديهم على فمه ليمنعوه من الكلام ، وذهبوا به بعيدا عن «حورمحب» وما زالوا ممسكين به حتى اجتر ما فى جوفه من خمر ، ومن ثم هدأت أعصابه وسكن هياجه !..

وباشارة من «حورمحب» جيىء «بعزيرو» الى الساحة فى كوكبة من الحراس ، وكان يخطو فى كبرياء الملوك . مرتديا الوشاح الملكى ، ممشط الشعر ، يلمع وجهه بدهان الزيت، مما أثار دهشة «حورمحب» وعجبه اذ كان لا يتوقع ان يراه على تلك الحال من الكبرياء وحسن المظهر، وزادت دهشته حين رآه ، الى هذا ، مرحا ضاحكا وهو مقبل على موت ليس منه مهرب . والواقع أن «عزيرو» كان قد تناول قبل مقدمه قدرا كبيرا من اللحم والخمر ، فهان عليه الموقف العسير ، واعانه ذلك على ملاقاة النهاية المحتومة بالشجاعة اللائقة به كملك عظيم . فلما اقترب من «حورمحب» صاح فى وجهه أمام الجنود قائلا : «حورمحب» ، ايها المصرى المنكود !.. لم يبق منى ما يخيفك ويزعجك ، فقد صرت مهزوما مغللا بالقيود ، فلا تتوار هكذا وراء حراب جندك !.. وما أبتغى من شيء الآن الا أن تدنو منى لأنفض تراب قدمى على وشاحك ، لكى أدخل فى حضرة «بعل» مطهرا من قذارة ارض لوثت بمعسكرك هذا ، الذى لم ار فى حياتى أشد نجسا منه !..

فكتم «حورمحب» غيظه ، وقال وهو يتكلف الضحك : لا سبيل الى مبتغاك يا «عزيرو» لسبب بسيط ، هو أن الاقتراب منك سيدفع برائحتك النتنة الى معدتى فتهتاج ألما ، ولست بكاره نفسى الى هذا

الحد !.. وانه لمضحك حقا أن تستقبل الموت فى هذا الوشاح المسروق الذى دسست فيه بدنك ليخفى قذارتك ، كأنك تأبى أن تموت الا ومعك الدليل على لصوصيتك !.. ومع ذلك فانى في لحظة الموت لا أحرمك من الكلمة التى تود أن تسمعها ، وهى انك رجل شجاع تقبل على الموت ضاحكا !.. ولهذا سأمنحك ميتة رفيقة سهلة !..

ثم امر «حورمحب» حرسه الخاص بأن يشتدوا فى حماية «عزيرو» من الجند ويمنعوهم من قذفه بالطين ، فأحاطوا به ودفعوا بمقابض رماحهم كل من حاول الاقتراب منه ، وكانوا لاعجابهم بشجاعته قد نسوا حقدهم عليه !..

وجاءوا فى اثره بالملكة « كيفتيو » وولديها ، وكانت قد تزينت وجملت وجهها بالطلاء الابيض والاحمر ، وتقدمت الى ساحة الاعدام فى هشاشة ، وكذلك تقدم الولدان فى اعتزاز الأمراء وكبريائهم ، يمسك الأكبر منهما بيد أخيه الاصغر !..

وما أن وقعت عين « عزيرو » عليهم حتى اعتراه الضعف وقال « كيفتيو !. كيفتيو ! » يا فرسى البيضاء ، ويا حبى المصفى ، ويا تفاحتى الحلوة !.. انى لحزين ، حزين ، اذ يقضى عليك بأن تتبعينى الى الموت وانت ما تزالين فى ميعة شبابك ، ونضارة جمالك !..

وقالت «كيفتيو» وهى مفترة الثغر : كلا ، لا تحزن يا مليكى ، فانى أتبعك راضية كل الرضا ، فأنت زوجى ، وقد كنت رقيقة فصيرتنى ملكة ، وأولدتنى ولدين جميلين ، فلن يحلو لى عيش بعدك ، ولن يملأ فراغ حياتى رجل سواك . ولقد حرمتك — خلال حياتك — من كل النساء واستأثرت بك لنفسى دونهن ، فمحال أن أدعك تذهب وحدك الى عالم الموت حيث تستقبلك النساء الجميلات اللواتى سبقنك اليه ، فسأتبعك — اذن — سعيدة بالموت ، ولو لم يقتلونى معك ، لقتلت نفسى بيدى ، يا مليكى وزوجى !..

وانتعشت نفس «عزيرو» لكلامها ، ونظر الى ولديه وقال لهما : يا ولدى الشجاعين !. لا تنسيا انكما قد جئتما الى الحياة مجيء أبناء الملوك ، فأقبلا على الموت اقبال الامراء البواسل ، وصدقانى أن أمره جد يسير ، انه لا يؤلم أكثر مما يؤلم خلع الضرس !..

وقبل أن يمد «عزيرو» عنقه امام الجلاد ، استدار الى زوجته

« كيفتيو » وقال لها : لقد سئمت منظر المصريين الكريه ، وبخاصة منظر رماحهم الملطخة بالدماء ، فاكشفى عن صدرك تحت نظرى الآن يا «كيفتيو» حتى تتزود عينى من جماله فأمضى الى الموت هانئا قرير العين !..

فكشفت له عن صدرها ، وفى هذه اللحظة هوى الجلاد بسيفه الحاد على عنقه ، فانفصل راسه عن كتفيه بضربة واحدة ، ووقع متدحرجا تحت قدمى « كيفتيو » وتدفقت الدماء غزيرة من الجسد الضخم ، وسالت حول ولديه فأصابتهما من هذا المشهد المثير رعدة شديدة ، وحملت « كيفتيو » راس زوجها المتفجر دما ، فضمته الى صدرها وراحت تقبل شفتيه ووجهه ، والتفتت الى ولديها وقالت : هيا ، تقدما !.. الحقا بأبيكما فى غير خوف ، لنسرع ثلاثتنا فى الذهاب اليه !..

فانحنى الولدان امام الجلاد ، فأطاح براسيهما ، وكذلك فعل بأمهما «كيفتيو» !.. وهكذا لقى الجميع حتفهم ، وكانت هذه هى الميتة السهلة التى منحهم اياها «حورمحب» كرما منه وفضلا !..

وقذفوا بأجسادهم بعد ذلك فى حفرة ، عارية لتنهشها الوحوش الضارية ، انفاذا لامر «حورمحب» !..

— ٥ —

وبعد أن فرغ « حورمحب » من مراسم اعدام «عزيرو» الذى لم يحاول استجداء حياته ، شرع فى معاقدة «الحيثيين» على الصلح . وكان يعلم ، كما كانوا يعلمون ، أن هذا الصلح فى حقيقته لا يعدو أن يكون هدنة لوقف القتال الذى سئمه الفريقان وتلاقت رغباتهم فى الراحة منه ولو الى حين ، ذلك لان «صيدا» و «أزمير» و «بابل» و «قادش» كانت كلها ما تزال تحت سيطرة « الحيثيين » ، وقد حصنوا موقع « قادش » تحصينا قويا لتمتد سيطرتهم الى شمال « سوريا » . وكان «حورمحب» متفطنا الى هذا ، ولكنه مع ذلك آثر مصالحتهم ، لان الأمور فى «طيبة» كانت اذ ذاك توجب عودته اليها ليتولاها بنفسه ، فقد انتقضت بلاد « الكوش » و « النوبة » على « مصر » ، وامتنعت عن دفع الجزية اليها . وكان «توت عنخ آمون » طوال سنين الحرب لا يعنى

بشيء من حكم «مصر» الا ببناء مقبرته ، وقد فشت الفاقة فى البـــلاد لـكثرة ما استنزف منهـــا فى نفقـات الحرب • وكان الأهالى يعـدون «فرعون» مسئولا عن ذلك ، ولهذا كرهوه ولعنوه ، وقال بعضهم لبعض : وماذا ننتظر من خير فى عهد «فرعون» الذى يجرى فى زوجته دم «فرعون» الزائف ؟!•• ولم يحاول الكاهن « آى » أن ينفى من الناس هذا الشعور الساخط ، بل انه ــ على النقيض ــ راح ينميه ويجسمه ، ويطلق فيهم اشاعات تزيدهم فى «فرعون» كراهية ونفـورا ، منها انه لتفاهة عقله وسوء تدبيره وطغيان انانيته يعمل على جمع كنوز مصر كلها ليضعها فى مقبرته !..

وكنت انا «سنوحى» قد غبت عن «طيبة» زمن الحرب كله» مرافقا الجيش فى كل مكان سار اليه ، وفى كل ميدان حارب فيه ، محتملا معه الشدائد والأهوال ، فاشـــــتد شوقى الى العودة • وقد علمت ــ فيما علمت ــ من أنباء «طيبة» على السنة الوافدين منها أن فرعــون «توت عنخ آمون» قد ألح عليه مرض جعل جسمه هزيلا ناحلا ، وان من الظواهر الغريبة التى لوحظت عليه ان مرضه كان يشتد اذا جاءت أنباء الحرب الى «طيبة» معلنة انتصارات «حورمحب» ، فاذا جاءت معلنــة هزائمه خف المرض وعادت العافية !.. وقال الناس ، فى تعليل هـذه الظواهر ، انها من عمل السحر . ولكن الذى كان يطيل التأمل وينفذ بعينه الى ما يجرى وراء الأستار ، كان يشعر أن للحرب السورية علاقة بمصير « توت عنخ آمون » ، وقد صدق هذا الشعور فيما بعد ..

وكان «آى» قد ركبه القلق ، فلا يفتأ يرسل الى « حور محب » من وقت الى آخر ، يقول له : لقد طال الانتظار ! . أفلا تستطيع أن تقف الحرب وتحصـــل لمصر على صلح ؟ ! لقـــد علت سنى وأصبحت شيخا هرما ، فعجل بالانتصار أو الصلح ، فتحقق الاهداف التى تواثقنا عليها مرهون بذلك ؟ ! ولا تصرفنك شهوة الحرب عن مصلحتنا المشتركة التى توشك أن تضيع فى دوران الزمن ، اذ يجب أن أتبوأ مكانى المتفق عليه قبل ادبار الحياة ، ليجيء دورك فى اثرى !..

لهذه الدوافع مجتمعة ، انعقد الصلح مع «الحيثيين» ، وتقـررت عودتنا الى « طيبة » ••• وبينما كنا عائدين على السفن المزينة بأعـلام النصر ، أنبئنا بأن فرعون «توت عنخ آمون» قد ترك الحياة مبحرا على مركب « آمون » الذهبى الى الارض الغربية ! •• وقيل لنا انه مات

اثر ازمة حادة انتابته عندما وصلت الى «طيبة» انباء سقوط «مجدو» وانعقاد الصلح مع «الحيثيين » !..

ولقد كان موت « توت عنخ آمون » موضوع جدال ونقاش بين أطباء « دار الحياة » ، ولم يستقر الرأى على ما اذا كان قد مات موتا طبيعيا أو مات مسموما ؟! على أن من الاخبار التى شاعت فى ذلك الحين أن أمعاءه وجدت فى سواد مريب ، ولا يكون ذلك الا اثرا من سم تجرعه!. أما أغلب الناس فقد ظنوا أنه مات كمدا وحزنا لان الحرب قد انتهت ، وكان يريدها مشبوبة لا تنتهى ، ليطول بها شقاء «مصر» وتعاسة أهلها !..

وقد كان علينا ، بعد أن تحققت لدينا انباء موته ، أن نعلن الحداد ونشارك فيه ، فموهنا وجوهنا بالسواد ، وانزلنا الأعلام الزاهية من فوق ساريات السفن ، وقذف «حور محب» الى الماء ـ فى غضب شديد ـ بأجساد الزعماء السوريين والحيثيين الذين كان قد علقهم من أرجلهم فى شرع سفنه على ما كان يفعل المحاربون حين يعودون منتصرين الى الفراعين العظام ! .. وغاض البشر والابتهاج فى وجوه جنود فرقة «حور محب» الخاصة ، الذين جاء بهم معه ليحتفلوا بعيد السلام فى « طيبة » ، لا حزنا على « توت عنخ آمون » ، ولكن حزنا على حرمانهم ـ بسبب موته ـ من المباهج التى كانوا يمنون بها انفسهم فى «طيبة» ، وتمنوا وقتئذ لو انهم لم يكونوا من خاصة «حور محب» ، ذلك لان الجنود الآخرين ، الذين كان «حور محب» يسميهم «فئران المستنقعات» قد بقوا ـ بأمره ـ فى «سوريا» ، لحماية الصلح والاحتفاظ به ، فهؤلاء لاشك أسعد حظا ، لانهم سيتمتعون ـ بمبعدة من « مصر » وأحزانها ـ بملذات « سوريا » وخيراتها !..

وعلى تلك الحال عدت الى «طيبة» ، وقد عقدت النية على ألا أبرحها مرة أخرى ، فحسبى من رحلاتى وأسفارى ما لقيت فيها من شرور فاجعة وكوارث فادحة . ولم يكن ثم شىء بعد ، تحت الشمس العتيقة ، جديرا بأن أسعى اليه ، وان احمله على كاهلى وقرا الى أوقار . ولهذا قررت أن الزم «طيبة» وان اعيش بها ، بمنزلى القديم ، عيش الفقراء . وقد زهدت فى ثروتى ، فكأنما كنت أشم فيها رائحة الدماء ، فأنفقتها فى تقديم القرابين الى روح «عزيرو» ، ذلك الذى كان دائما فى خاطرى وخيالى !..

على أن القدر كان يدخر لى شيئا آخر لم أكن أتوقعه ، فانتزعنى من الهدوء الذى أخـذت آلفه وأحينا فيـه ، ليرمى بى بين يدى «آى» و « حورمحب » ، حيث يقسرانى على القيـام بعمـل فظيع ، ملأ نفسى أسى وجزعا ، ولكن لم استطع الافلات منه ، فقـد كان جزءا هاما من خطة نسجا خيوطها باحكام ، ليصلا عن طريقها الى ما يريدان من سـيطرة وسلطان ! .. بيد أن القدر نفسه كان لهما بالمرصاد ، فاذا الطريق أمام مبتغاهما وعر شائك ، واذا بالأمل الذى ظناه مواتيا ، تقف دونهما فيه، نزوات امرأة !..

حور محب



- ١ -

كان الأساس الذى يقوم عليه الاتفاق بين «آى» و «حورمحب» ، هو أن يخلف الاول « توت عنخ آمون » على العرش ، ويصبح فرعون «مصر» وحامل تاجها ، وأن يليه الثانى ، بعد وفاته ، عن طريق زواجه بالاميرة « باكيت آمون » ، اذ يتقرر له بهذا الزواج الملكى حق الجلوس على العرش برغم أصله الوضيع ! ..

وانفاذا لهذا الاتفاق، أمر « آى » بالتعجيل باجراءات تحنيط جثمان « فرعون » ووقف العمل فى مقبرته ، كما اتفق فى الوقت نفسه مع الكهنة على أنه فى نهاية مدة الحداد ، تظهر الاميرة « باكيت آمون » امام « حورمحب » فى زى الالهة « سخمت » فى معبدها ، وأن تمنحه نفسها حتى يكون زواجهما مباركا من الآلهة ، ويصبح « حور محب » نفسه مقدسا ..

تلك كانت خطة « آى » ، ولكن الأميرة « باكيت آمون » كانت هى الاخرى قد رسمت لنفسها خطة خاصة ، اشتركت الملكة « نفرتيتى » فى تدبيرها وفتل حبالها، وهذه الملكة ، كما قد مر بنا ، تنطوى جوانحها على الحقد والكراهية « لحور محب » ، ولا تنى عن التفكير فى الثأر منه . وقد رأت فى الاميرة وسيلتها الى هذا الهدف ، فاستمالتها اليها وألقت فى روعها انها فوق مستوى الناس جميعا ، وأنها انما خلقت لتؤدى لمصر أعمالا عظيمة وتحررها من طغيان الدخلاء الذين ليس لهم حظ من شرف الاصل وعراقة النسب . وكثيرا ما كانت تحدثها عن الملكة القديمة « حتشيبسوت » التى كانت تضع حول ذقنها لحية ملكية ، وتتمنطق بذيل الأسد ، وتجلس على عرش الفراعنة وتحكم المصريين ! .. ومازالت بها ، هكذا ، تثير كبرياءها ، حتى أصبحت على درجة كبيرة من الغرور المتهوس ، مستعلية مترفعة ، لا تحفل بأحد ولا تفتح قلبها لانسان ، اذ لا ترى فى «مصر» كلها من هوأجدر منها بذلك! .. وحينما أيقنت «نفرتيتى» من أنها بلغت من الأميرة « باكيت آمون » هذا الحد من الغرور والاستغلاق دون الرجال ، ودون فكرة الزواج بخاصة ، راحت تذكر لها «حورمحب»

وتناله عندها بقالة السوء ، وترميه بهجنة الدم والأصل ، وتشككها فى نواياه ومآربه ، وكانت الاميرة قبل ذلك تكتم فى نفسها شعور الاعجاب بقوته ووثاقة بدنه ، ولكنها ــ متأثرة بأحاديث « نفرتيتى » عنه ــ باتت تحتقره وتجفوه ، وتلفظ من خيالها فكرة زواجه منها ، معتقدة أن هذا الزواج يلوث دمها المقدس !..

كانت « نفرتيتى » تستهوى الأميرة على هذا النحو لتجعل منها خنجرا فى صدر « حورمحب » الذى تبغضه ، ثم لتحقق لنفسها بذلك غرضا آخر هو أن تظل صاحبة الشخصية القوية المؤثرة فى المحيط الملكى، فقد شق عليها ــ بعد موت زوجها «اخناتون» ــ أن تصبح غير ذات سلطان ، والا يكون لها من الشأن أكثر مما لأية سيدة عادية فى البلاط ، وهى ما تزال موفورة الجمال ، على الرغم مما نالت الأيام منه . وكان يلهب اعتدادها بهذا الجمال أن الكثيرين من أمراء المصريين كانوا يتهافتون عليها ويبتغون القرب منها ، فزادها ذلك شعورا بالحاجة الى أن تبقى سيدة القصر الأولى ! ..

وكان « آى » يشعر فى داخل نفسه أن ابنته « نفرتيتى » تدرك ، لحدة ذكائها ، الغرض الذى يعمل له متعاونا مع « حورمحب » !.. وعلى أنه لم يكن يعلم شيئا من اسرار الخطة التى حاكت خيوطها مع الأميرة «باكيت آمون » ، فقد كان يتوجس منها شرا ، ويرى فيها خطرا عليه وعلى أهدافه، ولهذا كان حريصا على أن تبقى داخل القصر الذهبى لا تجاوزه الى الخارج، معزولة فيه عن دنيا الناس ، وظن هذا كافيا لابعادها عن طريقه !.. ولكنها ، وهى المرأة الواسعة الحيلة المتقدة الذكاء ، الساحرة الجمال ، قد صنعت فى معزلها ومخفاها أكثر مما كان يتوقع وفوق ما كان يحذر ! ..

واخذت معالم الخطة المستسرة تلوح على صورة مفاجئة حين جاء « حور محب » الى « طيبة » وراح فى لهفة ونفاد صبر يدور حول جناح الاميرة « باكيت آمون » ، محاولا أن يلقاها ويتحدث اليها ، ولكنها تمنعت عليه وأبت لقاءه ، وفى الوقت نفسه راى رجلا من « الحيثيين » يدلف الى جناحها ويطلب مقابلتها ، فتاذن له فى الحال ، ويقضى معها ــ منفردين ــ وقتا غير قصير ! ..

ودهش « حورمحب » لهذا أكبر الدهشة ، واستثاره الشك والغضب ، فتصدى للرجل الحيثى عند خروجه وأراد أن يقبض عليه ،

ولكن الرجل مضى فى طريقه لايباليه ولايحفل به ، مترفعــا كما لو كان ذا نفوذ وسلطان يعلوان على نفوذ « حور محب » وسلطانه ! ..

وكان هذا حدثا غريبــا ومريبــا فى الظروف الراهنة ، فاسرع « حور محب » الى « آى » ، ينقله اليه ويستوضح أمره ، فلم يكن « آى » اقل منه أستغرابا له واسترابة فيه ، ومن ثم اتفقا على كشف ماوراءه من أسرار ، وكان أن اقتحمت ، ليلا ، حجرات « باكيت آمون » وفتشت تفتيشا دقيقا . وفى رماد مدفأتها وقعوا على ألواح ورسائل خاصة ينبثق منها الضوء الذى يشى بما كانوا يبحثون عنه من اسرارها. وهنــا اعترى كــلا من « حورمحب » و « آى » ذعر وانزعاج ، فأمــرا من فورهما بقتل العبيد الذين كانوا يقومون على حراستها ، واستبدال آخرين بهم ، وعهدا اليهم بتشــديد الحراســة على الأميرة وعلى « نفرتيتى » كذلك ، حيث امرا بالا تبرحا غرفتيهما والا تتصلا بأحد ! ..

وفى الليلة نفسها جاءنى «حورمحب» و« آى » فى منزلى المتواضع، الذى أعادت « ميوتى » بناءه بما كان يرسله اليها « كابتاح » من نقود فضية . وكانا فى مجيئهما يخفيان وجهيهما حتى أن « ميوتى » تجهمت لهما وكادت تردهما عن المنزل ، مستنكرة قدومهما فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، غير أنهما ألحــا عليها لتوقظنى من النوم لأمر مهم ، فأدخلتهما على كــره منها وأشعلت المصباح ، ثم أيقظتنى وكنت متعبــا ، فقليــلا ما كنت أشعر بالراحة منذ عودتى من « سوريا » ، لكثرة ما يعتادنى من ذكرى المآسى والاهوال التى عشتها هناك . وقد حسبت الرجلين ــ وأنا أستقبلهما ــ من المرضى جاءا يطلبان الاسعاف والمعاونة الطبية ، ولكنهما كشفا عن وجهيهما ورغبا فى الخلوة بى على عجل . وفى غمرة المفاجأة ، أشرت الى « ميوتى » لتأوى الى فراشها ، وكانت قد أحضرت الينا نبيذا ورأت الرجلين سافرين ، فمضت وهى تحدجنا بنظرات متلصصة ، وهم عندئذ « حور محب » بقتلها ، لخوفه من آن تفضح سر هذه الزيارة التى يعلقان على اخفائها اهمية كبرى !.. ولكنى ــ وقد سرنى ان اراه خائفا على غير ما أعرف من طبعه ــ اعترضته قائلا : لا يمكن أن أسمح لك بأن تنالها بسوء فى دارى ، وأغلب الظن أنك مريض الى حد أن تخشى امرأة ! .. على انه ليس هناك ما تخشاه منها ، فهى عجوز ساذجة ولا تعرف من تكونان ، وهى أكثر من هذا صماء لاتسمع ، فدع أمرها وخــذ فيما قدمتما من أجله ! ..

قال « حورمحب » متململا : وهــل ترانا جئنا للنقــاش فى امرأتك

هذه ، التى لا قيمة لها ، حية أو ميتة ؟!٠ انما جئنا اليك لأن « مصر » فى خطر ، وعلينا أن ننقذها !..

وقال « آى » مؤيدا « حورمحب »: أجل ، يا « سنوحى » ، ان «مصر» فى خطر شديد لم يحدث من قبل أن تعرضت لمثله ، وهو يمتد الى اشخاصنا نحن كذلك ، ومن اجله سعينا اليك ! ..

وفيما كنت اضحك ساخرا من قولهما ، أخرج « حورمحب» من بين ملابسه الالواح والرسائل التى عثر عليها فى مخفى الاميرة « باكيت آمون » ، وناولنيها لاقرأها ، فما كدت أطلع عليها حتى تولانى الضيق وطار من فمى وراسى طعم النبيذ ولذته ، اذ كانت ألواحا ورسائل متبادلة بين الملك « شوبلو ليوما » والاميرة المصرية ، وكانت تقول له فى احدى رسائلها : اننى ابنة « فرعون » ، والدم المقدس يجرى فى عروقى ، وليس فى مصر كلها من هو جدير بى ، وقد علمت أن لك أولادا ، فابعث لى بواحد منهم لاكسر معه الجرة ، واشدد به أزرى فى حكم أرض « كيم » ! ..

وقد فهمت من تسلسل الالواح والرسائل أن الملك «شوبلوليوما» ، وهو الحريص الحذر ، قد ساوره الشك فى صدور هذه الرسالة وامثالها ، بمثل هذه الصراحة ، من الاميرة ، فأعادها اليها مع رسول خاص ، ليتحقق من أنها مرسلتها حقا ، وليعرف منها شروطها فى الزواج ! ..

وكانت من بين رسائلها ، رسالة أخرى تكرر عرضها وتؤكد فيها أن النبلاء المصريين وكهنة « آمون » يؤيدونها ويقفون وراءها ! ..

وعندما استوثق « شوبلوليوما » من ذلك ، كف عن القتال وعجل بمصالحة «حورمحب» وراح يستعد لارسال ولده « شوباتو » الى«مصر». وكان من المتفق عليه أن يشخص اليها « شوباتو » من « قادش » فى يوم معين ، حاملا معه هدايا كثيرة الى الاميرة « باكيت آمون » . وبان مما جاء فى آخر الواحه اليها أن « شوباتو » كان هو وحاشيته فى طريقهم الى « مصر » !...

وهالنى ما اطلعت عليه من معلومات فى هذه الالواح والرسائل ، وقلت فى دهشة : ذلك شىء غريب ومخيف حقيقة ، ولكننى — وحق آلهة « مصر » جميعا — لا أدرى ما هى علاقتى بهذا الأمر ، وكيف وعلى اية

صورة استطيع معاونتكما فيه ؟! فلست كما تعلمان سوى طبيب ، وفى غير مقدور الطب ان يسيطر على قلب امرأة مجنونة ، ويحوله من اتجاه الى اتجاه ، أو بالأحرى من « شوباتو » الى « حورمحب » !..

وقال « حور محب » :لقد عاونتنا فى كثير من امور لاصلة لهـا بالطب والاطباء . والذى مرنت يده على المجداف ، هو الذى يستطيع انقاذ المركب عندما تتلاطم حولها الامواج ! .. وسـواء لدينـا اكرهت أم رضيت ، فلا مناص من أن تسرع من ساعتك لملاقاة الامير «شوباتو» فى الطريق ، وتحول بينه وبين الوصول الى « مصر » !.. وانك لترى أننا لا نعهد اليك بأمر يخرج عن نطاق عملك كطبيب له فى مثله سابقة، ولعلك قد فهمت الآن ماذا يراد منك ان تفعل ... على أنى أقول لك شيئا أحب الا تنساه ،هو ان اغتيال « شوباتو » يجب أن يتم فى خفاء ، ودون أن يشعر أحد بأن لنا دخلا فيه ، حتى لا تعود الحرب بيننا وبين « الحيثيين »، فان الوقت الملائم لمحاربتهم لم يحن بعد ! ..

وشاعت فى بدنى رعدة قاسية ، لهول هذه المهمة الشريرة التى يفرضانها على فرضا ، وقلت متلعثما : لا أنكر أنى قد فعلت شيئا مثـل هذا من قبل مع فرعون « اخناتون » ، ولكنى فعلته من اجل نفسى وفى سبيل مصلحة « مصر » الكبرى ، بل فى سبيل مصلحته هو، اذ كان المرض قد ادنفه واضناه واصبح الموت خيرا له من الحياة ... والموقف اليوم غيره بالامس ، فهذا الامير لم ينلنى بسوء ، ولم يمسسنى منه ضر ، ولم أره فى حياتى غير مرة واحدة ، عارضة ، ساعة اعدام « عزيرو » ! .. ففيم اذن أقتله ؟! وبأى دافع ارتكب معه جرما شنيعا ؟! .. لا ، يا « حور محب » ، ان الموت احب الى مما تدعوننى اليه ، ولست بمستطيع أن تجعل منى هذا القاتل الآثم ! ..

فتعبس وجه « حورمحب » وفار غضبه ، فراح يضرب فخذه بقبضة سوطه ، والتفت « آى » الى وقال : انك يا « سنوحى » رجل عاقل تحسن تقدير الامور ، وليس الذى ندعوك اليه أمرا يتعلق بأشخاصنا ، وانما هو أمر هذه المملكة كلها ،وقد رايت بنفسك دليل المؤامرة الخبيثة التى توشك أن تلقى بالبلاد فى أيدى أعدائها ، تحقيقـا لشهوات امـرأة طائشـة ، فعلينا بعد ان علمنا سرها أن نقوم فى غير تلبث بمـا يجب علينا دفعا للخطر قبل أن يدهمنا جميعا ، وليس ثمة من وسيلة أخرى غير التى نندبك لها ، فهى أحكم وأدق الوسائل وأسلمها عاقبة وأسرعها نفاذا الى

الغاية . وهذا هو الامير « شوباتو » قادم إلى « مصر » ، ويجب ألا يصل اليها ، ولا نستطيع أن نمنعه لاننا حلفاء !.. فامض اليه ـ اذن ـ والقه فى طريقه بصحراء سيناء ، ولتكن لك فى مقدمك عليه صفة الطبيب الموفد اليه من الأميرة لترى بنفسك مدى صلاحيته للواجبات الزوجية . ولاشك فى أنه سيحتفى بك ويتلقاك مرحبا ، ويدنيك منه لتحدثه عن الأميرة ، وعن الرابطة السحرية التى ستجمع بينه وبينها .. الى آخر ما لا بد أن يكون بين عاشق مشوق ، ورسول محبوبته !.. ومن هنا ستكون مهمتك ميسرة وظروفها مواتية ، ولا تنس وأنت تجرعه الموت أنك تؤدى واجبا وطنيا ، وانك مع ذلك ستنال عليه مكافأة سخية تصبح بها من كبار الاثرياء !..

وأردف « حورمحب » قائلا فى لهجة صارمة : ولك الآن أن تختار ، فاما حياة أو موت !.. فان أبيت أن تمضى الى حيث نريد ، فقد اخترت لنفسك الموت العاجل ، اذ لن نسمح لك أن تبقى حيا ومعك سرنا . ولن اتردد ـ أنا صديقك القديم ـ عن جز رقبتك من الاذن الى الاذن . وسيحزننى هذا بلاشك ، ولكنه أهون على نفسى من أن أراك محجما عن موافقتنا فى عمل لا نرى سواه سبيلا الى انقاذ « مصر » ، وعجيب أن تسميه جريمة ، فى حين انه واجب لا يقبل الاعتذار منه ، ونحن شركاؤك فيه على أية حال ، ولا أحد سواك يمكننا الاعتماد عليه والثقة فيه ، فعجل برأيك قبل أن يضيع الوقت عبثا !..

وكالطير الذى يسقط فى شبكة الصياد ، وجدت نفسى بين هذين الرجلين حبيسا مغللا لا أستطيع الافلات من أيديهما ، ورأيت مصيرى ، رضيت أم لم أرض ، مرتبطا بمصيرهما الى الابد !..

وفى شجاعة متكلفة ، قلت : انك تعلم جيدا يا « حور محب » إننى لا ارهب الموت ! ..

ولكنى الآن ـ وأنا اكتب لنفسى ولا احاول أن أزور موقفى وشعورى حينذاك ـ أعترف فى كثير من الخجل أن وعيد « حورمحب » وتلويحه لى بالموت قد أفزعنى فزعا شديدا . وهنا بدت لى الحياة جميلة حلوة ، وسرح خيالى بين أفواف زهورها ومراتع لهوها ، وخفق فؤادى حنانا الى مشاهد الطيور محلقة فى الجو أو متواردة على ماء النيل ، والى نبيذ الميناء وطعام الاوز مطهوا بيد « ميوتى » الصناع ، فهاج هذا عندى حب الحياة ، وبغضنى فى فكرة الموت التى ستحرمنى من كل هذه المتع !.. وتذكرت عندئذ أننى قضيت بيدى على « اخناتون » ، وكان

صـــديقى ، لتنجو « مصر » ولأهيىء « لحورمحب » أن يصـــد « الحيثيين » عنها بقوة الســـلاح ، فماذا يمنعنى أن أفعـــل الفعلة نفسها مع ذلك الامير « شوباتو » ، وهو واحد من هؤلاء « الحيثيين » ، بل هو من كبارهم الذين ارادوا الشر بمصر واعلنوه حربا عليها ؟!.. انه لا شك قد ارتكب ضد بلادى اوزارا فى الحرب يستحق عليها الف ميتة لاميتة واحدة !.. واذن فليكن ما يريد « حور محب » و « آى » ، فانهما انما يندبانني لعمل غير بعيد من فكرة الدفاع عن « مصر » التى طوعت لى من قبل اغتيال صديقى « آخناتون » ... وعند ذاك خرجت من ترددى وقلت لحور محب : دع خنجرك يا « حور محب » فى غمده ، فانى ــ دون خوف منه وبلا خشية من وعيدك ــ ســأفعل ما تشيران به ، فلست أقل منكما رغبة فى انقاذ « مصر » من سيطرة « الحيثيين » ومطامعهم ومؤامراتهم!.. ومع انى لا اعرف الآن ماذا انا فاعل على صورة محددة ، فان اغلب ظنى ان المحاولة التى سأقتحم اخطارها الى حياة الامير « الحيثى » ستكلفنى حيـــاتى فى حالتى الفشـــل او النجاح ! .. فالحيثيون ، لسوء رأيهم فى المصريين ، سوف يكونون اشد حذرا على اميرهم حين يخلو به مصرى مثلى ، وقد يكتشفون سرى بعيونهم الراصدة قبل ان يموت . وقد تغلبهم الشكوك فى أمرى اذا مات ، وهنا تكون النجاة من أيديهم غير مأمولة ولا مأمونة العاقبة . على أنى لا أبالى بحياتى حين يكون الامر متعلقــا بحياة «مصر» ، وسأمضى الى مهمتى لهذه الغاية وحدها دون نظر الى ما تعداننى به من هـــدايا ومكافآت !.. وليــكن ما يكون من وراء ذلك ، فلن يكون الا ما هو مقدور لى أن ألقاه ، وليس ثمة مفر مما كتب لى على صفحة النجوم ! .. ومنذ هذه اللحظة تستطيعان ــ أنت يا « حور محب » وانت يا « آى » ان تطمئنا الى أن « سنوحى » هذا ، الطبيب الذى لا وزن له ــ يقدم لــكما تاج « مصر » ، محققــا به الأمل الذى تطمحان اليه ! .. فخذاه ، خذا تاج « مصر » ، من يدى هاتين ، ولا تنسيا ان تباركا اسمى حين تصبحان ــ احدكما او كلاكما ــ على عرش الفراعنة العظام ! ..

وعندما كنت اقول هذا ، كانت تغالبنى عاطفة السخرية والاحتقار لهذين الرجلين ، اللذين يتحفزان للوثوب على عرش «مصر» تحفز الذئاب للوثوب على الفريســـة !.. فانى ــ أنا الـذى تجرى فى عـروقه الدماء المقدسة ، ولى وحدى حق الوراثة الشرعية لهذا العرش الفرعونى ــ يراد منى أن اخوض معمعة الموت فى سبيل ان يعلواه دونى ، وهما الغريبان

عنه ، الطارئان عليه ، في هجنة دم وريبة اصل ، فما كان أمرهما — يوم مولدي — يزيد على أن أحدهما وهو « آى » كان كاهنا من كهنة الشمس، ضئيل الشأن تائها في غمار الكهنوت ، بينما كان والدا « حور محب » لا صقين بالارض هوانا وضعة ، لا ينم عليهما بين الأحياء سوى ريح بفيض من روث الماشية التي يرعيانها ! ..

وكاد شعور السخرية بهما يطفر على فمي قهقهة ، ولكنى أمسكت عن ذلك ، فقد ومضت في راسي صورة المصير الذي يتلهفان عليه ، فأدركت ان الاطماع التي يكتمها كل منهما في صدره ، ستتولى بنفسها حرمانهما معا من السعادة التي يبغيانها ، فما أعلم أن لصا قد سعد بما يسرق ، فكيف اذا كانا لصين يأتمر أحدهما بصاحبه ، ويكيد له ويؤثر نفسه عليه ؟! ..

ولكنى بعد أن سبحت قليلا في هذه الافكار ، نظرت الى وجه « حور محب » الطافح بالانفعال وقلت له : ياصديقى ! .. ان التاج — فيما ارى — ثقيل على الرءوس التي لم تألفه ! .. وقد لا تعلم هذا الآن، ولكنك ستعلمه في يوم قائظ عندما تتوارد الماشية على حافة النهر لتروى ظمأها ، وعندما لا تقرع اذنيك أصوات غير خوارها ، مختلطا بخرير الماء ! ..

وكان كلاما غامضا لا يخلو من سخرية ، ولكن « حور محب » كان عجلا فقال : هيا اسرع ! .. فالسفينة في انتظارك ، ويجب أن تلقى « شوباتو » في صحراء « سيناء » قبل أن يصل مع حاشيته الى « تانيس » ! ..

وطوعا لامرهما ، ذهبت الى السفينة التي أعدها « حور محب » فركبتها بليل ، حاملا معى صندوق عقاقيرى وقليلا من النبيذ وبقية الأوزة التي كانت « ميوتى » قد أعدتها لغدائى ! ..

- ٢ -

واضوتنى في سفرى هذا وحدة قاسية ، فالمهمة شاقة وفظيعة ، وشرها المطوى في دخيلة نفسي يلهب رأسي ومشاعرى جميعا دون أن أجد من يمكن أن أبوح له به لأتخفف من عبئه وأبترد من لظاه ! .. على أن

البوح به كان مستحيلا على أية حال ، فلا مناص - اذن - أن أتفرد به مكتوما على قسوته فى قلبى ، والا أرديت نفسى في ميتة شنيعة بأيدى « الحيثيين » ، ولهذا كان على أن أكون أكثر دهاء من الثعبان ! . على انه أحيانا كانت تلح بى الرغبة فى السلامة من الخطر المحيط والخوف الجاثم ، وتجنح بى الى التفكير فى الفرار ، واللجوء الى أرض بعيدة كما فعل من قبل « سنوحى » بطل الأسطورة الذى سميت باسمه ، تاركا « مصر » للقدر يفعل بها ما يشاء ! .. ولو انى طاوعت نفسى فى تفكيرها هذا لتغير مجرى الحوادث ، ولتغير كذلك تاريخ « مصر » ! .. ولكنى لم أفعل ... وقد تبينت الآن فى سنى المتقدمة ، ان جميع الحكام سواء ، وكذلك كل الأمم ، لا فرق بين حاكم وآخر ، ولا بين امة وأخرى ، فالنتيجة فى سائر الاحوال أن الفقراء هم الذين يتحملون كل الالم والشقاء ! ..

وانصرفت عن فكرة الفرار الى التفكير فى الطريقة التى أقضى بها على حياة الأمير « شوباتو » دون أن ينكشف الأمر ، ودون ان أكون مسئولا عن موته ، ودون أن تكون « مصر » مسئولة كذلك عنه !..

وتحت وهج الشمس ، والى جانب اناء النبيذ ، جلست افكر !.. وبدت المهمة فى خيالى معقدة وشائكة ، فالأمير - بلا ريب - محوط فى سفره بالحراسة القوية الملائمة لمكانته ، و « الحيثيون » بطبعهم أهل ريبة وحذر ، وهم لذلك مكتنفون أميرهم بالحفظ والتقية والحراسة المكينة ، فبينى وبينه منهم حاجز منيع ، وعيون يقظى ، فما السبيل - اذن - الى الانفراد به ؟! أن هذا ممكن إذا استطعت استدراجه الى صيد الغزال فى الصحراء !.. انه فى المهمه القفر سيمضى فى اثر اهداف غير مستقرة ولا معلمة ، والصيد فى الصحراء يقتضى العزلة والانفراد ، والتخفى عن اعين الحيوان والطيور التى يراد الايقاع بها فى اكنانها ، فهو لن يصحب فى رحلة الصيد حراسا ولا جنودا ، وسأكون وحدى معه ، فمن اليسير اقناعه بأنى جد خبير بفنون الصيد وأساليب المطاردة ، فيرغب فى صحبتى له ، ويستأنس بى فى مجاهل الصحراء !.. وعندئذ ستتاح لى الفرصة لأريش سهما قاتلا فى ظهره او صدره ، ولكن هذا سيكون عملا طائشا ، لأن الجريمة سرعان ما تنكشف ، وسيرى قومه اننى انا قاتله ، فليس يوجد من توجه اليه التهمة سواى ، أنا رفيقه الوحيد !.. ذلك الى اننى لست متأكدا من أنهم سيتركونه منفردا ، فأغلب الظن أنهم سيتعقبونه بعيونهم الراصدة من بعيد أو من قريب ،

فالحذر الذى يحاط به وهو بينهم لا يمكن أن يتخلى عنه وهو منهم بمبعدة ، وقد خطر لى وأنا أتصور نفسى خلفه فى الصحراء ، أن أقذف به ، وهو مشغول بمطاردة الحيوان الشارد ، فى غور من الأغوار العميقة، فيموت وأزعم لهم أنه تردى فيه فجأة أثناء المطاردة !٠٠ ولكننى سخرت من هذا الخاطر كذلك لتفـاهته ولاحتمال المراقبة التى تلاحقنا من حراسـه ! ٠٠ وانتقلت من هـذا الى التفكير فى قتله عن طريق السم مدسوسا فى طعام او شراب . . . ولكن ما السبيل الى ذلك ؟! . . اننى اعلم أن من عادة « الحيثيين » الكبار الا يتناولوا طعاما أو شرابا الا بعـد أن يتناوله قبلهم عبيدهم الذين يرافقونهم ، مأخوذين فى ذلك بغريزتهم المستريبة ، فهذه الوسيلة تبدو كذلك مستحيلة !. . وهنا وردت على ذهنى ذكرى السـم السرى الذى كثيرا ما سـمعت ان الكهنة كانوا يستعملونه فى أغراض الاغتيال الخفى بالبيت الذهبى ، وكيف كانوا ــ على ما يروى ــ يدسونه فى الفـاكهة التى لم تنضج بعد على أشجارها ، فاذا تناول أحد ثمارها بعد النضج يموت لسـاعته ، وكيف ان هؤلاء ــ صانعى السم السرى ــ كانوا يخلطون الرسائل المغلفة بمواد معينـة حتى اذا فضت قتلت ، ومثل هـذا كانوا يفعلونه بالزهور ذات الرائحة العطرة ، فلا تكاد رائحتها تنفذ الى الأنوف حتى ينفذ الموت معها !. . ولكن هذا ــ على افتراض صحة ما يحكى عنه ــ كان من أسرار الكهنة ، ولست منه على يقين ، ولا سابقة لى فيه !. . ثم اننى لو كنت اعـرف سره وطريقتـه ، لما كان فى مستطاعى أن أفعله ٠ فالصحراء التى هى مجال مهمتى ليس فيها اشـجار فاكهة خضراء يمكن دس السـم فى ثمارها غير الناضجة ، على أنها ان وجدت ، فالوقت وظروف الرحلة غير المتلبثة ، ووجودى الى جانب الأمير ضـيفا عابرا ، وقيام عبيـده على تذوق طعامه ، كل هذا يجعل التفكير فى هذه الطريقة ضربا من الخيال!٠٠ ومستحيل، بالاضافة الى ذلك، التفكير فى طريقة خلط السم بالرسائل أو دسه فى الزهور ، فأمراء « الحيثيين » لا يفضون رسائلهم بأيديهم وانما يدعون ذلك لكتاب ديوانهم . وليس من عاداتهم شم الزهور ، فهم اذا راوها نثـروها بسـياطهم ووطأوها بأقدامهم دون أن تمتـد اليها أيديهم ! . .

واستغلقت فى عقلى منافذ التفكير فى الوسائل الممكنة للقضاء على حياة الأمير فى سرية غير واشية ، وتولتنى من ذلك حيرة شديدة ! . . وقد عرضت لى فى هذه الحيرة فكرة ان اقدم له السم وهو على فراشه ، فذلك مسـتطاع لى كطبيب ، ولكن هذا لا يكون الا اذا كان الأمير

مريضا ، وهو لا يشكو من مرض ! .. وحتى لو كان مريضا فان الأطباء « الحيثيين » ادنى اليه منى مكانا ، وسيدعون الى علاجه ! .. وهكذا عاجلنى اليأس من هذه الطريقة الأخيرة والوحيدة !..

واتجه فكرى ، فى هذا الوقت ، الى « كابتاح » ، فتمنيت لو كان موجودا معى ليخرجنى بدهائه وحيلته من هذه الظلمات الحالكة ، ولكن لم يكن اليه من سبيل ، فهو لا يزال فى « سوريا » مشغولا بجمع الثروة ! ..

وانما عنيت بشرح افكارى وخواطرى هنا ، على هذا النحو من التفصيل ، بيانا لما انطوت عليه المهمة التى ندبنى لها « حورمحب » من العسر والصعوبة والخطر المخيف ! ..

بلغت « تانيس » مبلبل الفكر مجهد الحواس ، فاستأجرت محفة ومضيت عليها فى الطريق الصحراوى الحربى الذى رسمه لى « حورمحب » ، وعلى مسيرة ثلاثة أيام من « تانيس » التقيت بقافلة الأمير وحاشيته ، وكانت اذ ذاك قد رابطت على مشرب ماء ، ولفت نظرى انها مزودة بالعدة الكاملة للحراسة وتأمين السفر ، ففيها عجلات حربية ثقيلة كثيرة العدد ، وعجلات أخرى خفيفة لكشف الطريق وتمهيده امامها ، كما رأيت بينها مجموعة كبيرة من الحمير تحمل الكثير من الهدايا الى الأميرة « باكيت آمون » .

وقد عرفت أن تجهيز القافلة بهذه القوة الظاهرة كان من تدبير الملك « شوبلوليوما » الذى كان يعلم أن رحلة الأمير الى « مصر » للقاء الأميرة المصرية تقع على غير هوى « حورمحب » ، بل هى أمر يبغضه ويثير ثائره ، ولذلك رأى الاستعداد لاحتمالات الهجوم المفاجىء ! ..

واستقبلنى « الحيثيون » بالكثير من الحفاوة ، وكذلك فعلوا مع المصريين الذين جاءوا بى من « تانيس » . ولم استغرب هذا ، فنحن مصريون وبيننا وبينهم معاهدة صلح ، وهى تفرض عليهم الا يمدوا أيديهم الينا بسوء ، ومن عادتهم التجمل أو اصطناع المجاملة لمن لا يستطيعون نيله بأسلحتهم !.. وقد اخذوا فى معاونتنا على اقامة مخيم الى خيامهم لننزل فيه ليلتنا ، ولكنهم أحاطونا بحراسة مسلحة معللين ذلك بأنهم يريدون حمايتنا من اللصوص ووحوش الصحراء !..

وحينما علم الأمير « شوباتو » بمقدمى موفدا من الأميرة « باكيت آمون » ، استدعانى اليه فى الحال ، فرأيت فيه شابا شائق المنظر ،

ذا عينين حادتين فى جمـال ، ووجه يتنضر بالقـوة والسـعادة ، وأنف كمنقار الطير الجارح ، وأسنان كأسنان الحيوان المتوحش ، وقد استقبلني هاشا مسرورا ..

كان فى منظره وحركته يمثل الشباب المزدهر والقوة الفتية فى أعلى درجاتهما ، ولم يكن يشوب مظهره أثر من آثار الرحـلة المجهدة وسط الصحراء القاحلة ، ذلك انه كان على طول طريقها يسير محمولا على محفة وثيرة تحت مظلة ضافية ، محتفلا براحته من جميع الوجوه حتى يلقى الأميرة المصرية موفور العافية فيروق فى عينيها ! ..

وتقـدمت اليه بالرسالة التى زيفها « آى » باسـم الأميرة « باكيت آمون » ، وقد تكلفت فى تقـديمها مظهر التأدب والخشوع ، فانحنيت أمامه وارخيت ذراعى الى مستوى مفصل الساقين اشعارا له بأنى اعامله كما لو كان قد اصبح بالفعل ملكا على ! ..

وتسـلم الرسالة فى بهجة ظاهرة وقال لى : أهلا بك يا رسـول زوجتى المقبلة ، ويا طبيب القصر الملكى ... انك عندى منذ السـاعة لبالمنزلة الأثيرة والموضع الكريم ، فأنت لا شـك جدير بهذا اذ وضعت الأميرة ثقتها فيك واستودعتك دون سواك رسالتها ، وانى لموليك الثقة نفسها ومفض اليك بكل ما تريد الأميرة أن تعلمه من خفايا امرى ، فلا ينبغى أن يكون غير التكاشف والمصـارحة بين أميرة وأمير يرتبطان برباط الزواج ، واستطيع من جانبى أن أؤكد لك أننى أعد وطنها ، بهذا الزواج ، وطنى ، وأهلهـا أهلى ، وستكون عادات « مصر » عاداتى . وقد عنيت أكثر ما عنيت بالتعرف على هذه العادات وما برحت أجهد نفسى للانطباع عليها حتى اذا ما بلغت « طيبة » كنت منها غير غريب . وانى لمشوق أشد الشوق الى أن أرى فى « مصر » عجائبهـا التى قيل لى عنها الكثير ، وأن أتصـل عن كثب بآلهتها العظيمة التى ستصبح آلهتى أنا كذلك ، وأكثر ما يشغفنى ويشوقنى الى « مصر » هو لقاء زوجتى الملكية ، ولا غرو فانها ستكون شريكتى المحبوبة فى الحياة ، وسـتتمر علاقتنا الزوجية أبناء يحكمون « مصر » ولا شىء الآن هو أشهى وأحب الى نفسى من أن تحدثنى عنها ، فنبئنى ، يا رعتك الآلهة ، بكل ما تعرفه من صفاتها وسماتها واخلاقها ، واصدقنى القول حتى عن عيوبها ان كانت ثمـة عيوب فيها !.. فانى أريد أن أعرف عنها كل شىء ، ولا ضير فى هـذا وانما هو العـلم بمـا لا أعلم من حياتها الخـاصة ، لالاقيها على الصـورة

التى تلائم واقع حالها ومقتضيات طباعها ، ولك ان تطمئن الى وتثق بى ، فأنى جد مطمئن اليك وواثق بك .

وحين كان يرسل كلماته هذه معبرا عن الاطمئنان والثقة ، كان جنوده متراصين خلفى شاهرين سيوفهم ، كما كان الحراس المحيطون بخيمتى يضعون أيديهم على مقابض أسلحتهم !٠٠ ولكنى تعمدت الاغضاء عن هـذا المظهر المنطوى على بالغ الريبة والشك ، وكررت الانحناء أمامه على الأرض ، وقلت له : ان سيدتى « باكيت آمون » نسيج وحدها فى الجمال ، انها أجمل نساء « مصر » طرا ، فوجهها كالقمر اشراقا وعيناها كزهرتى اللوتس نضارة وقد حرصت على طهرها وعفتها كما لم تحرص امرأة أخرى ، لأن دمها المقدس يعصمها من الدنس . وانى كطبيب أؤكد لك انها أفضل امرأة هيأتها الآلهة لانجاب أفضل الأبناء ، ولا يغض من أنوثتها المزدهرة أنها تكبرك بعدد قليل من السنين ٠٠٠ ولقد أوفدتنى اليك لأتحقق من أن دمك الملكى خليق بأن يمتزج بدمها ، وانك من الناحية العامة تستطيع أن تؤدى واجبك كزوج !.. وهى أخيرا مشوقة الى لقائك مثل شوقك الى لقائها .

وهنا انتصب الأمير « شوباتو » ودفع صدره الى الأمام ورفع ساعديه بازاء كتفيه وضغط على عضلاته ، مبديا بذلك وثاقة بدنه وقال : انظر ! . فهذان ذراعاى تستطيعان ان تشد أقوى قوس ، وبوسعى أن أطبق بساقى هاتين على الحمار المتوحش فاذا به خامد الأنفاس ! .. وهذا وجهى ، كما ترى ، يفيض عافية ولا يخدشه عيب ، ولست أعرف من المرض الا اسمه ، فلا أتذكر ابدا انه ألم بى مرة !..

فقلت له : أرى انه ينقصك ، مع هـذا ، المزيد من التجربة والعلم بعادات « مصر » ، فما أميرة « مصر » بالقوس الذى يشد ولا بالحمار الذى تخمد انفاسه ، وقد كانت على حق حين ارسلتنى اليك لألقنك ماتجهل من خلالها ، وادربك على ما لاتعرف من عادات بلادها . وان للمصريين لفنونا فى الحب وآدابا فى التعبير عنه ، أشعر الآن أن من واجبى أن اعطيك فيها دروسا تتزود بها فى لقاء الأميرة حتى لا تمنى بالفشل بين يديها ! ٠٠

ومست كلماتى كبرياء الأمير ، فقد كان فتى بادى الغرور ، ظاهر الاعتزاز بنفسه وحيويته ؛ وغاظه ــ بخاصة ــ ان ضباطه الذين كانوا يستمعون الينا لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك ، فامتقع وجهه وأخذ

بضغط على أسنانه وكاد يصجر ثائرا ، ولكنه كتم ثورته وتحامل على أعصابه وتكلف الهدوء والملاينة وقال : يظهر انك لم تعرفني بعد على حقيقتي الكاملة ، فاعلم اذن أن قوتي الذاتية كانت دائما المصهر الذي تذوب فيه قلوب أجمل الفتيات ، وما أكثر ما كان لها من سيطرة واقتدار في هذا المضمار ، وأن للحيثيين فنونا وعادات ستكون مهوى فؤاد أميرتكم ومثار اعجابها ! ..

فقلت له : اني لايخالجني شك في قوتك أيها الأمير ، ولكنك فيما ارى تعتد بها الى حد الاسراف ، وآية ذلك أنك تقول ان المرض لم يلم بك أبدا ، مع أني ، بعين الطبيب ، أرى في عينيك ووجهك أعراضا تدل على أنك مريض فعلا ، وأستطيع ان أصف لك هذا المرض محددا وان كنت لا تشعر به كمرض ! .. انه اضطراب في المعدة واختلال في الجهاز الهضمي ، ومن علاماته « الاسهال » المتدافع على خلاف العادة الطبيعية ! ..

قلت هذا في شيء من الثقة ، مستندا الى حقيقة نفسية اكتشفها الأطباء واقروها في كل العصور ، وهي ان أيما انسان ، بالغا من القوة ما بلغ ، يشعر بالضعف والمرض معا ، حينما يقال له انه ضعيف ومريض ، فكيف اذا كان قائل هذا طبيب لا شك في علمه وفي صدقه ؟!.. وقد اخترت « الاسهال » المعوى المتدافع مظهرا للمرض الذي أدعيه لأني أعرف عن يقين أن مياه الينابيع خلال الصحراء تختلط بها مواد « البوتاس » و « الصودا » ، والأمير في رحلته الصحراوية هذه يتناول شرابه منها حتما ، وهي محدثة في المعدة ، بطبيعتها ، تفاعلا يتحول الى لين فاسهال ! .

ولكن الأمير « شوباتو » بدا دهشا من قولي هذا ، وصاح قائلا : كلا .. أيها المصري « سنوحي » ! .. انني لا أشعر على الاطلاق بأي مرض ، على أني مع ذلك لا أنكر أني منذ بدأت الرحلة أشعر بأن شيئا غير عادي قد أصاب معدتي ، فلا انفك راغبا في الافراز على صورة لم أعتدها من قبل ، وكثيرا ما يجيء هذا دفقا غير منتظم ومتلاحقا غير منقطع ... حتى لقد اضطررت مرات كثيرة أن انتحي جانبا ، وبعيدا عن القافلة ، لقضاء هذه الحاجة الملحاحة ، وعجيب أن تعرف أنت هذا في لمحة خاطفة في حين لم يلحظه طبيبي الخاص الذي يلازمني كظلي ؟ ! .. فخبرني كيف عرفت ذلك ؟! حقا انك لطبيب ماهر !..

وامسك الأمير عن الكلام قليلا ، ليتحسس نفسه مارا بيده على عينيه وجبهته ، ثم قال : الواقع أننى أحس بشيء من وخز الألم فى عينى ، ولعل ذلك لطول تحديقى فى الرمال المحرقة ، غير أنى كذلك أحس بأن جبهتي تضطرم بالحرارة ، وتلك علامة الحمى ، فلست اذن على خير حال !..

فقلت له :من الخير ان يعطيك طبيبك دواء يريح معدتك لتنام نوما هادئا ، فان اعتلال الأمعاء في الصحراء يوشك أن يكون مرضا خطيرا سيء العواقب اذا لم يتدارك بالعلاج . وانى أعلم أن كثيرين من المصريين أصيبوا به أثناء أسفارهم الى « سوريا » فماتوا به لانهم لم يجدوا من يسعفهم بالدواء . ومن المؤسف أنه لا يوجد الى الآن من يعرف سر هذا المرض ، ومن الناس من يقول انه نتيجة رياح صحراوية سامة، ومنهم من يقول انه من فعل الماء غير السائغ، وبين أولئك وهؤلاء من يقول انه جراثيم ينشرها الجراد فى الصحراء !.. وهم جميعا مختلفون فى مصدره وفى نوعه وفى طريقة التداوى منه . على انى لا اشك فى انك ستصبح غدا خيرا منك اليوم اذا استطاع طبيبك الخاص أن يعطيك دواء مناسبا ! ..

وأدار الأمير نظره فيمن حوله من ضباطه دون أن ينطق بكلمة .. لقد كان شارد الفكر بادى القلق ، واخيرا وجه نظره الى وقال وهو يصطنع الابتسام : هلا أعددت لى أنت هذا الدواء يا « سنوحى » ؟! انك بلا ريب اكثر من طبيبى علما وخبرة بأمراض الصحراء .

ولكننى كنت حذرا ، فرفعت يدى معترضا وقلت له : أرجو اعفائى من ذلك ياسيدى ، فهو أمر لا أستطيعه وانما يستطيعه خيرا منى طبيبك الخاص ، لأنه يعلم مالا اعلم من دقائق احوالك الصحية ، وقد لا آمن أن أجهز لك دواء يختلف عما تقتضيه حاجة بدنك فيكون له أثر مضاد عن غير قصد ، وعندئذ تلومنى وربما غلبك الشك من جهتى فتظن اننى المصرى الوافد عليك قد أردت بك سوءا وهو مالا أطيق أن يكون !.. فليكن ذلك الى طبيبك الخاص الذى أحاطا علما ببدنك وصحتك ، ولا ارى الامر يشق عليه ، فهو لا يحتاج الى اكثر من عقار قابض ومنعش ! ..

فابتسم الأمير وقال موافقا : الحق معك !.. ثم استقدم اليه طبيبه الخاص ، وهو حيثبى شديد الشك والارتياب ، وعرض الامر عليه ،

واخذنا نتجاذب الآراء الطبية فيه · وقد تفرج من حذره وارتيسابه عندما عرف أنى وكلت الأمر الى علمه وأيقن أنى لست منافســـا له ، بل لقد كبرت فى نفسه الى حد انه كان لا يخفى اعجابه بى . وفى ثقة واعتداد جهز الدواء الذى أشرت به ، وكان كما قلت ، دواء قابضا منعشا ، وقد زاد فيه فجعله ذا قوة غير عادية ، وقبل أن يقدمه للأمير ارتشف قطرات منه !..

وواضــح ان الأمير لم يكن مريضــا على الصورة التى رســمتها ، ولـكننى انما أردت ـ عامدا ـ أن يعتقد هو وأفراد حاشيته أنه كذلك ، واستطعت أن أنصح بالدواء الذى يحدث انقباضـا فى معدته ، حتى لا تلفظ ما يدخل اليها فى سرعة ويسر !..

وكان الأمـير قد رغـب فى أن أخلو اليـه ليستمع الى حديثى عن زوجته الملكية ، وقد امر باعداد مائدة بخيمته الخاصــة لهذا الغرض حيث اتخذت مكانى منها الى جواره . وكنت قد ذهبت الى خيمتى قبل ذلك فتناولت قدرا كبيرا من الزيت حتى امتلأت معدتى ، وقد أصابنى من هذا غثيان شديد ولكنى غالبت نفسى عليه لأبدو فى حالة طبيعية ، وجئت بقارورة نبيذ فأفرغتها ثم خلطت النبيذ بالسنم وعبأت القارورة بهـــذا المزيج وأحكمت سدادتها كأنها لم تكن قد فضت من قبـــل ، وحملتها معى الى مائدة الأمير فى خيمته ، وكانت حافلة بألوان كثيرة من الأطعمة والأشربة فتناولت منها جميعــا على الرغم من امتلاء معدتى بالزيت ، مسايرا الأمير حتى لا أثير شكوكه أو شكوك أحـد من رجاله ، ورحت خلال هذا اتحدث اليه فى عبارات مشوقة عن العادات والتقاليد المصرية مما لا علم له به ، واســـتطعت أن أختلب لبه بهذا الحديث ، فأغرق فى الضحك حتى كاد يستلقى على قفاه ، وربت بيده على ظهرى قائلا فى نشوة : ان حديثك لطريف ممتع يا « سنوحى » ... وماكنت أدرى أن من بين المصريين رجـــلا على مثالك ! وسوف اجعلك طبيبى الخاص عندما أستقر فى «مصر» !.. حقا لقد نسيت آلام معدتى فى غمرة حديثك العجيب عن عادات الزواج المصرية ، ويلوح لى أن المصريين قد التزموا هذه العادات اقتصادا فى انجاب الأولاد !.. ولكنى انوى أن أعلمهم عادات حيثية اكثر جدوى ، وسأقيم على الاقاليم المصرية حكاما من ضباطى ينفذون خططى وتعاليمى فى هذه الناحية ، وسيكون موضع عنايتى ـ قبل ذلك ـ أن أعطى الأميرة كامل حقها !..

ثم خبط على ركبتيه وأغرق فى الضحك ثملا ، اذ كان قد اصاب

كثيرا من الشراب وقال : لقد شغفني حديثك عنها حتى صرت اشد مما كنت شوقا اليها ، واجمل امنية اتمناها الآن هي أن أغمض عيني ثم افتحها فأرى الأميرة على فراشي ، حيث نتساقى معا كؤوس السعادة ، وحيث تشعر الى جانبي بمتعة الحياة كاملة ... واني لألمح من قريب المستقبل العظيم الذى ينتظر « مصر » وبلاد « الحيثيين » بعد أن تظلهما معا رابطة واحدة ، فلن تستطيع مملكة على وجه الأرض أن تبلغ مبلغهما من القوة أو تصمدأمامهما فيمجال المناجزة والنضال!.. بل اننا بهذا الاندماج سنسيطر على اركان الدنيا الأربعة ! .. ذلك ما سوف يكون ، لا محالة ، وهو أمر قد يقتضي « مصر » شيئا غير قليل من الجهد والعناء والاكتواء بالنار ، ولكن لا بأس عليها من ذلك آخر الأمر ، فكل شيء بحقه ، وقلما يجيء المجد والعظمة بغير تضحية !..

وكان الأمير خلال حديثه هذا يتابع الشراب فيزداد ثمله ، وكذلك كان الذين حولنا من الحيثيين ، فصاروا جميعا مخمورين ، يتضاحكون ويمرحون وتنفك بينهم عرى الحرج والتزمت . وكانت قصصي التي تأنقت في روايتها ، لتسليتهم ، تعجبهم وتبهجهم وتفتح مغالق قلوبهم فزالت ريبتهم بي وانتفى حذرهم مني ، والقوا بأنفسهم ــ جملة ــ فيما هم فيه من لذة الشراب ومتعة المرح ... وعندئذ اقتنصت هذه الفرصة فقلت للأمير وهو سابح في نشوته : ان نبيذك يا سيدى الأمير سائغ شرابه ولكني استميحك العذر اذا انا تناولت الآن من نبيذنا المصري هذا ــ واشرت الى اناء النبيذ الذى حملته معي ــ فهو اقوى تأثيرا واوفر لذة ، ولا استشعر النشوة في شراب غيره ، ولذلك فاني كلما دعيت الى مأدبة لا أنسى أن أتزود منه بما يكفيني ، ولست بهذا أنتقص من نبيذكم وانما هي الحقيقة التي أود أن تعرفها يا سيدى ! .. ولو أنك ذقت نبيذ « مصر » ــ وواضح أنك لم تذقه بعد ــ لأدركت أن انبذة الدنيا كلها ، بالنسبة له ، لا تساوى شيئا !..

قلت هذا وأنا أهز في يدى اناء النبيذ وأفتض ختمه أمام أعينهم ، واخذت أسكب منه في كأسي ، وتظاهرت بالسكر فامتلأت الكأس حتى فاضت على الأرض ، ثم رفعتها الى فمي مترشفا منها وانا اصيح قائلا : هذا هو نبيذ « ممفيس » الجيد ... نبيذ « الاهرام » المعتق ... النبيذ الذى يدفع ثمنه ذهبا ... النبيذ الذى يمضي الى الرأس مباشرة ، وينفرد بالقوة والعذوبة دون سائر الأنبذه في الدنيا كلها ! .

وكنت قد خلطت النبيذ بالمسك ففاحت رائحته الذكية ، وثار فضول الأمير فحمل كأسه فارغة واتجه بها نحوى قائلا : لم أعد غريبا عليك ، وسأصبح فى الغد مولاك وسيدك ، فاملأ كأسى هذه من نبيذكم لأتذوقه وأتحقق من مقالتك فيه ! . .

وهنا هولت فى اصطناع مظهر السكران المخمور ، وكنت فى تناولى هذا النبيذ ـ كأسا فى اثر أخرى ـ اصطنع المظهر نفسه ، فاذا ملأت كأسى وأدنيتها من فمى حركت يدى كما لو كانت يد مخمور مختلج الأعصاب ، فينسكب اكثر ما فى الكأس على الأرض ولا يبلغ فمى منه الا قطرات قليلة ... وقد جازت هذه الحركة التمثيلية على الحيثيين فعزوها الى تأثير النبيذ ، دون أن يرتابوا ! . .

ورآنى الأمير اضم اناء النبيذ الى صدرى كما لو كان شيئا عزيزا احرص عليه واتشبث به ، فكرر طلبه مستنكرا احجامى عن تلبيته فى الحال ، ولكننى ـ استرسالا فى تمثيل دور المخمور ـ تأبيت عليه وقلت له : لا استطيع ان اعطيك شيئا !.. ان هذه القاروره ليس فيها من النبيذ الا قدر يسير هو دون حاجتى وحدى ، فكيف لو صرنا اثنين ؟ ! . ان هذا يوم عيد لمصر ولبلاد الحيثيين وها نحن أولاء نحتفل به هنا ، وانا اريد أن أشعر بالسعادة الحقة فى هذه المناسبة الجميلة ، ولا سبيل عندى الى ذلك الا بما فى هذه القارورة ادفعه كله الى جوفى من غير ما شريك فيه ، فدعه ... دعه لى ، يا سيدى ، بحق الآلهة !..

وزاد هذا من فضول الأمير وهاج فيه شهوة الشراب ، فراح يأخذنى بالملاينة والرجاء حتى لم يبق ثمة الا الامتثال لأمره كيلا تسوء العاقبة ، فقد كان الحيثيون بالخيمة يشهدونه طالبا ملحا ، ويروننى متمنعا آبيا ، ويتضاحكون ملء حناجرهم . ومثل هذا الموقف غير مقبول ولا مستساغ لدى الأمير الذى اعتاد أن يأمر فيطاع ، وعندئذ كان لا مناص من الوقوف عند هذا الحد ، فملأت كأسه من نبيذى وانا اتكلف البكاء ، بل لقد كنت ابكى فعلا ، ففى هذه اللحظة كان يركبنى الذعر بحق ، اذ كنت اعلم انني بهذه الكأس أقدم على المخاطرة الكبرى !..

ولكن الأمير فى لهفته على هذا الشراب لم يتخل عن طبعه المستريب فناولنى الكأس ـ على عادة الحيثيين ـ قائلا : اشرب من كأسى أولا كصديق وسأشرب أنا كذلك من كأسك !.. فرشفت منها رشفة ، وأعدتها

اليه فأفرغها كلها فى جوفه وراح يتذوق طعمها فى فمه ، ثم مال برأسه الى اليمين وقال : حقا ان نبيذك قوى يا « سلتوحى » ، وانه ليصعد الى الراس فيديرها ، ويضطرم فى الأمعاء كأنه النار ، ولكنه غير سائغ ولا عذب كما تقول ، فانى أحس له فى فمى طعما مرا ، ولهذا فانى أوثر الشراب من نبيذ الجبال ! ..

وعاد يواصل الشراب من نبيــــذه ، وكذلك كنت أفعل حتى بلغ الوقت نصف مقياس من الساعة المائية ، فاســـتغرقت عنـــد ذلك فى التظاهر بالســـكر الى الحد الذى ينبغى ان آوى فيه الى فراشى ، فنهضت مترنحا واتجهت الى خيمتى ، ولم أنس أن أدس فى ملابسى اناء النبيـــذ حتى لا يقـــع فى أيدى الحيثيين فيكشـــف السر اذا ما فحصوه ! ..

وبعد أن ارقدنى الحيثيون بالفراش مســـترسلين فى الضحك وتبادل النكات ، نهضت مسرعا وأدخلت اصـــبعى فى حلقى واجتررت ما فى بطنى من السم والزيت الواقى ، وكنت خائفا أشد الخوف لاحتمال أن يكون الســم قد سرى فى أمعائى وتســـلل الى دمى وفات الوقت المنـــاسب لتدارك مفعوله ، ولذلك عنيت بغسل أمعائى مرات عدة ، وشربت عقاقير مطهرة ، وحملت نفسى على التجشؤ من وقت الى آخر بدافع الخوف ، ثم غسلت اناء النبيذ بالماء غسلا تاما ، وحطمته بعد ذلك حتى صار قطعا صغيرة دفنتها فى الرمال ...

واستلقيت على الفراش قلقا مسهدا ... لقـد كانت صورة الأمير « شوباتو » لا تفارقنى ... فأتخيله فى مجلس شرابه محدقا فى وجهى بعينيه الكبيرتين ، مرسلا ضحكاته المستهترة المتكبرة ، وكأنه يسـخر من فعلتى التى فعلتها !.. ويفزعنى هذا الخيال أشد الفزع ، ذلك انى كنت قد رتبت الأمر على الا يظهر اثر السم فيه الا مع الصبح ، فأمعاؤه كانت متخمة بالطعام الذى أسرف فى تناوله ، كما كانت منقبضة بالدواء الذى سقاه اياه طبيبه الخاص عملا بنصيحتى ، وهذا من شأنه ان يؤخر مسرى السم وانفعاله الى آن ينقضى الليل كله . وقد نجحت فى هذه المرحلة الأولى من الترتيب ، فانفض مجلسنا من غير بادرة تشى بالسر الذى أخفيه . ولكن ماذا لو كان قد فطن لمحاولتى فاتقاها ، وجاء الصبح ليلاقينى فيه معافى وليقول لى : ها انذا قد نجوت من منجلك الخفى الذى أردت أن تحصد به حياتى غيلة وغدرا ؟ ! . .

لشد ما كان يركبنى من الخوف لهذا الخيال ؟ ! . .

وجاء الصبح دون أن يلم بى طيف النوم ، ولم أسمع جديدا من أنبـاء الأمير ، بل لقد رأيتـه على رأس حراسـه وجنده يصـدر أوامره ليتجهزوا لمتابعة الرحلة ، كأن شيئا لم يحدث ، ثم يتقدم بنفسـه الى محفته فيعلوها ، وتمضى بنا القافلة الى وجهتها ! ..

ومن هنا زادت مخاوفي وكدت أرى الخيال المفزع حقيقة ماثلة !.. وعجبت من أمر هـذا الأمير ... كيف أصـبح هـكذا سليما مع أنى أنا نفسى كنت بادى التأثر من القطرات المخلوطة بالسم التى تجرعتها ثم اجتررتها ؟!..

لقد كان بدنى يشعر اذ ذاك بالبرودة والرعشة على الرغم من حرارة الجـو الطاغية ، فاذا كانت هـذه حالى ، بالقلة القليلة من الشراب ، وبالوقاية التى أحكمت صنعها لنفسى ، فكيف ـ اذن ـ استطاع الامير أن ينجو من الكثرة الكاثرة التى التهمها من هذا الشراب نفسه ؟!

ولكن عجبى لم يطل ، وكذلك لم تطل مخاوفى .. فلقد كان السم يسرى فى أحشاء الامير ويلهب بدنه ، غير أنه فى كبرياء الحيثيين كان يغالب آلامه ويكتمها ، فاصطنع العافية فى مشهد من قومه ، وأبى أن يؤجل الرحلة بسبب مرضه أو آلامه ! .. فسار فيها متحاملا على نفسه . وكان ذلك ـ الى حد كبير ـ عاملا هاما فى نجاح الخطة ، فما كاد ينتصف النهـار حتى سقط مغشيا عليه ، فتوقفت القافلة عن المسـير ..

واشتركت مع طبيبه الخاص فى محاولة اسعافه ، حيث أعددنا له أشربة منعشة وسوائل مطهرة ، وحرصت على أن يتولى طبيبه بنفسه خلط الادوية وأن يضعها بيده فى فم الامير خلال أسنانه التى تشابك أعلاها بأسفلها ... ثم جئنا بأحجار ساخنة فوضعناها فوق بطنه ، الى آخر ما كنا نملك وقتذاك من وسائل الاسعاف والعلاج ! ..

انه الآن فى طريقه الى الموت الذى خشيت أن يفلت منه ... الموت الذى صنعته بيدى مكرها ، وكنت واثقا من أنه لا فائدة من أى تدبير طبى لاجتناب النتيجة المحتومة . ولكنى ، امعانا فى التخفى وفى

اقصـاء الشبهة ، كنت أبدو معنيا بأمره كطبيب ومبعوث من الاميرة المصرية التى كان ذاهبا للقائها ! ..

وحمل الامير فى المساء الى خيمته ، وما يزال مستغرقا فى غيبوبته الرهيبة ، والحيثيون فى خارج الخيمة يحتشدون جماعات وفى أيديهم الخناجر يطعنون بها أجسامهم ويمزقون ملابسهم وهم يبكون أحر البكاء ... لقد كانوا الى فرط حزنهم لمرض الامير ، يرجفون خوفا ورعبا من فكرة موته ! .. ان أباه الملك « شوبلوليوما » سوف يأخذهم بالعذاب النكر فى غير رحمة أو اشفاق لا لشيىء سوى أنهم لم يدفعوا الموت عن ولـده ! ..

ووقفنا ، أنا والطبيب الحيثى ، بجانب الامير الممدد فى فراشه ، وقد أحسست بقسـوة الألم حينما رأيت ذلك الوجه الذى كان بالأمس يتنضر بالشـباب والحيوية ويفيض بالبهجة والسـعادة ، قد استحال هكذا الى الصفرة والشحوب ، والذوى والذبول ، ولم يبق فيه من الحياة الا أنفاس لاهثة توشك أن تنقطع ، ثم لا شىء بعدها غير الموت ! ..

وكان المشهد بالنسبة لى مؤلما ومثيرا ، ولكن كان عزائى فيه أننى فيما صنعت كنت أؤدى واجبى فى خدمة «مصر». وكثيرا ما يبذل الانسان من عواطفه ، ومن نفسه وروحه ، ومن سعادته وهناءته فى سبيل القيام بواجبه نحو بلاده ، ومع ذلك لم أشعر ، وأنا أرى الامير الشاب يلفظ أنفاسه الاخيرة ، بالفخر الذى يشعر به الرجل الذى قام بمثل هـذا الواجب ! ..

وأفاق الامير فى اليوم التالى من غيبوبته الطويلة ! .. لقد كانت الصحوة التى يرى فيها الموت ملء عينيه ، ويحس به ملء بدنه ، ولهـذا كان يصيح صيحات التوسل والاستغاثة فى صوت خفيض كالاطفال ، ونحن من حوله فى خنوع العجزة واستسلام اليائسين ، لا نستطيع أن نفعل شيئا ! ..

وأدرك ألا سـبيل الى خلاصه من أنياب الموت فاستجمع قـواه المتزايلة ، ليبدو فى ساعة الشدة قويا كما ينبغى أن يبدو أمير ملـكى مثله ، واستدعى ضباطه وقال لهم : سأموت دون أن يكون ثمة أحـد مسئولا عن موتى ! .. افهموا هذا جيدا ... وما كان الموت ليستطيع أن يبلغ منى مبلغه هـذا لولا أنه تسلل الى جسمى فى صورة مرض الصحراء ! .. لقد وفد على وفود الجبان المخادع ، وأخذنى أخذ الخائن

الغادر ، ولست بالذى يباليه على أية حال ، ولولا أنها ارادة السموات الغالبة لاستطاع هذان الطبيبان الماهران ، وهمـا من خير أطباء الحيثيين وأفضل أطباء « مصر » ، أن ينقذا حياتى بما بذلاه فى سبيل انقاذها من الفن البـارع والحـكمة العميقة والرعاية المتواصلة ، فلهمـا تقـديرى وثنائى ··· ويبقى أن تعلموا أن هذه الصحراء لا تحكمها أرضنا الأم وانما تحكمها آلهة «مصر» وتجعل منها درعا لحماية أرض «كيم» ، وقد بان جليا أنها غير راغبة فينا معشر الحيثيين ، وكانت هزيمة عجلاتنا الحربية قبل ذلك ، وهى التى لم تكن لتهزم ، دليلا على غضب الصحراء وثورتها فى وجوهنا ، ولكننا ــ مع الأسف ــ لم نفطن لذلك !·· فجاءنا الدليل الثانى مرضا قاتلا تضل فيه عقول الأطباء !·· فعلى الحيثيين أن يعرفوا هذه الحقيقة وألا يسعوا بعد اليوم لعبور الصحراء !·· ولا تنسوا بعد موتى أن تقدما لهذين الطبيبين المخلصين الهدايا الجديرة بهما ··· وأما أنت يا « سـنوحى » ، فاحمل ــ مشـكورا ــ أطيب تحياتى الى الأميرة « باكيت آمون » وقل لها اننى أحللتها من وعدها ، وانى أفارق الحياة آسفا حزينا لأن أمنيتى العزيزة ، فى أن ألقاها وفى أن أحملها الى فراش الزوجية ، لم تتحقق ، وها أنذا أموت وفى خيالى من جمالها الخالد صورة لا يبليها الموت ! ··

ومات « شوباتو » تحت أعيننـا ، وعلى شفتيه ابتسـامة الذى استراح بعد عناء ، وكنت أنظر اليه وأنا أرتعد ، ناسيا جنسه ولغته ولون بشرته ، متذكرا شيئا واحدا كان يؤلمنى ويحز فى نفسى ، هو أنه ــ وهو أخى فى الانسـانية ــ يلقى حتفه بيـدى ! ·· ولهذا اضطرب قلبى وانهمرت الدموع على خدى ! ··

ووضع الحيثيون جثة أميرهم فى نبيذ وعسل ليحفظوها ويحملوها معهم الى المقابر الملـكية حيث تسهر النسـور والذئاب على حراستها الى الابد ! ··

وقد ظنوا ، لفرط ما بدا لهم من حزنى وجزعى ، أننى متوجس شرا من الأميرة المصرية حين أعود لأخبرها أن الأمير قد مات ··· اذ قد تعدنى مسئولا عن موته ، وفى هذه الحال تأمر بقتلى ، كما جرت بذلك عادة الحيثيين !·· وهم بعـد أن سمعوا مقالة أميرهم يروننى غـير ملوم ، ولذلك أشـفقوا على هذا المصير فكتبوا شـهادة ببراءتى على أحـد الالواح الطينيـة قرروا فيهـا أننى بذلت أقصى الجهـد فى علاج الأمير ، وختموا هذا اللوح بخاتمهم وخاتم الامير نفسه ! ··

وفارقت الحيثيين منقلبا الى « تانيس » ومنها الى « ممفيس » ، وكنت خلالى عودتى فى أسوأ حال ، اشعر فى كل خطـوة اخطوها كأن الأفاعى تنهشنى وتنفث سمومها فى دمى ، وكان الموت يلاحقني ويسـير في أعقابى ، فلا أكاد أفكر الا فيه ، ولا أرى شيئا سوى صـور حالـكة السواد ، فهذا أبى وتلك أمى قد ماتا بسبب نذالتى ٠ ومن بعدهما ماتت « مينيا » بسبب ضعفى ، وبسببى كذلك ماتت « ميرييت » ومات صغيرنا « تحوتنج » ، وبيدى مات « أخناتون » ٠٠٠ فهؤلاء جميعا كنت أحبهم أصدق الحب ، وكنت كذلك قاتلهم أشنع قتلة ، وهذا هو ـ أخيرا ـ « شوباتو » ، ذلك الذى احببته فى الوقت الذى كنت أجرعه السم الزعاف ! ٠٠ فيا لها من لعنة تلازمنى ولا تريم عنى ، أنا الذى صرت طبيبا لأعالج الناس من أمراضهم وأستخلص لهم الحيـاة من بين براثن الموت !٠٠

وما ان بلغـت « طيبـة » حتى أسرعت بالدخـول على « حورمحب » و « اى » بالبيـت الذهبى ، وأنبأتهمـا النبـأ الذى ينتظـرانه بصبر نافد ، ففرحا بذلك فرحا شديدا ، وهنآنى على نجاحى فى مهمتى ، ونهض « آى » فخلع القلادة التى تحمل شارة السلطان ووضعها حول عنقى ! ٠٠ وطلب منى « حورمحب » أن أذهب الى الاميرة لابلاغها الخبر بنفسى لانها لن تصدقهما اذا أبلغاه اليها ، وقد تحسب أن الامير مات غيلة بأمر « حورمحب » لما تعلم من غيرته منه وحقده عليه ! ٠٠

واستأذنت فى الدخول على الأميرة لأمثل بين يديهـا أقسى دور فى المأساة ، فاستقبلتنى استقبالا حسنا ، وقلت لها فى عبارات حزينة : أن الامير « شوباتو » الذى اخترتينه زوجا قد أصابه مرض الصحراء فى « سيناء » ومات متأثرا به ، ولم تنفع فى انقاذه كل الوسـائل العلمية والفنية التى بذلتها أنا وطبيبا الحيثى الخاص ، وقد أحلك قبل موته من رابطتك به ، وذلك أمر مؤسف غاية الاسف ، ولكن لم يكن ثمة سبيل الى دفعه ! ٠٠

وتلقت الاميرة هذا الخبر فى هدوء ، وقالت وهى تخلع أساورها الذهبية وتضعها فى يدى ، حسنا ، يا « سنوحى » ! ٠٠ فأنباؤك دائما سارة ، وانى لشاكرة لك ، ومن حقك أن تعلم الآن أنى أصبحت كاهنة للالهة « سيخمت » ، وقد أعددت فعلا ردائى الاحمر الذى سارتديه فى الاحتفال بهذه المناسبة ، غير أنى مع ذلك لا أريد أن أخفى عنك أنه يثقل على عقلى أن يفهم لماذا أصبح مرض الصحراء فى هـذه الايام هكذا

طليقا لا ممسك له ، يعدو على الأرواح الكبيرة كأنه ينتقيها ، فبهذا المرض عينه مات أخى « أخناتون » الذى كنت أحبه أكثر مما تحب فتاة أخاها؟! وأخيرا جاء دور الامير « شوباتو » وهو فى طريقه الى أميرة « مصر » وعرشها ؟! وهل هى مجرد مصادفة أن نراك دائما الى جانب هـــذه الحوادث الجسام ؟! ..

ألا ترى يا « سنوحى » أنك تعبث بعرش « مصر » وتعمل على أن يصبح مرتعا للصوص والخونة ؟! سحقا لك أيها الشقى ، وعليك اللعنة الى الأبد ، ولتمــح الآلهـــة قبرك من بين القبــور ، واســمك من بين الأســماء ! ..

ولم يسعنى الا ان انحنى أمامها مادا يدى فى خشوع ، وانا أقول: كما تشاء أميرتى ! ..

والتمست طريقى الى الباب مسرعا بينما كانت الأميرة تأمر خدامها بأن يديروا مكانسهم خلفى الى آخر موضع تمسه قدمى بالقصر ! ..

- ٤ -

وفى هذه الاثناء كان جثمــان « توت عنخ آمون » قد أعد للدفن ، وكان « آى » يلهج فى حث الكهنة على التعجيل بالذهاب به الى الغرب لمواراته القبر الذى نحت له فى الصخر بوادى الملوك ، فأسرعوا بدفنه ودفنوا معه متاعا كثيرا ، وكان قد جمع فى حياته ثروة ذهبية ضخمة لتودع معه فى قبره ، ولكن « آى » اقتطع منها جزءا كبيرا ، محتفظا به لنفســـه ! ..

وبعــد أن أغلقت مقبرة الملك وختمت ، أعلن « آى » انتهــاء فترة الحداد وتمت مراسم تتويجه على عرش « مصر » ، من غير أن يلقى هذا اعتراضا من أحد ، فقــد استسلم الناس للامر الواقع ، اذ كانوا قد سئموا الخلافات والثورات مثلما سئموا الحروب والتضحيات ، وصارت « مصر » ــ لفرط ما عانت من ذلك ــ فى فاقة عاتية وفقر شديد ، فما يعنى الناس فيها ان يسألوا « آى » عن مدى حقه فى عرش فرعون وانما يعنيهم أن يجدوا الخبز والجعة والامن والسلامة ، وقد عرف « آى » موضع ضعفهم هذا ، فراح يسخو عليهم بالهدايا ويوفى لهم حاجتهم من الطعام والشراب .. وكان الكهنة أوفر عنده حظا من ذلك ، اكتسابا

لودتهم واستمالة لمشاعرهم ، ومن أجل هـذا هتف الجميع بحياته ، وأحاطوه بمظاهر التأييد والتعظيم ! ..

وكان « حورمحب » الى جانب هذه المظاهر يحتل برجاله وعجلاته الحربية شوارع « طيبة » عارضا بذلك قوته الرهيبة على الناس ، وقد شعروا بقوته هذه وبما رأوا من بروز شخصيته في الحوادث الاخيرة ، انه هو الحاكم ذو السلطان المؤثر في عرش « مصر » ، وعجبوا ، لذلك ، كيف أنه لم يرق بنفسه هذا العرش ، ولماذا آثر عليه فيه ذلك الرجل العجوز البغيض (آى) ؟!..

ولكن الذى لم يعرفه الناس من موقف « حورمحب » أنه لم يدع الأمر لصاحبه زهدا وايثارا ، وانما كان يفعل ذلك عن خطة مرسومة وتدبير محكم ، فالمصريون لم يتجرعوا ، بعد ، كأس الشقاء حتى ثمالتها، وما زال طريق شقائهم طويلا ، فقد تواترت الاخبار السيئة من أرض « كوش » ، وعليه أن يمضى الى قتال الزنوج لاخضاعهم ، كما أن عليه بعد ذلك أن يعود الى الحيثيين مجددا حربه معهم لاسترجاع ما بقى من « سـوريا » وهكذا تتوالى على المصريين الاعباء الثقال بذلا للارواح والاموال والاقوات ، وسوف يئودهم ذلك ويشقيهم كما لم يشقوا من قبل ، ومن هنا تنصب نقمتهم على «آى» ويزدادون له بغضا وكراهية !.. ومن ثم يتطلعون الى « حورمحب » البطل المحارب المنتصر ، ويلتمسون على يديه الخلاص والسلام !..

كانت هذه خطة « حورمحب » ونواياه المستورة ، ولم يفطن لها « آى » على مافيه من خبث ودهاء ، اذ كان قد ازدهاه واختلب لبه جلوسه مكان فرعون وارتقاؤه عرش « مصر » ، وذلك مطمعه العتيد وأمنيته العظمى ، فليس يبالى بعد ذلك ماعسى أن يجيء به الغد ، ولهذا كان ينفذ راضيا الاتفاق الذى انعقد بينه وبين «حورمحب» يوم وفاة «أخناتون»!..

وجاء الكهنة بالأميرة « باكيت آمون » الى معبد « سيخمت » فى احتفال كبير ، فالبسوها الوشاح القرمزى ورفعوها الى المذبح ، وفى الوقت نفسه كان « حورمحب » قادما الى المعبد وحوله رجاله يتعالى هتافهم بانتصاره على الحيثيين ، وأهل « طيبة » على جانبى الطريق يحتشدون لتحيته والحفاوة به . وعندما بلغ موكبه باب المعبد وزع على رجاله القلائد الذهبية وأوسمة الشرف وأذن لهم فى الانصراف ليرفهوا عن أنفسهم فانطلقوا فرحين الى بيوت الملذات وحانات النبيذ ، وكانت « طيبة » يومذاك فى أبهى زينتها احتفالا بعيد الالهة « سيخمت » !..

ودخل « حورمحب » الى المعبد متجها الى المذبح ، فاغلق الكهنة الأبواب النحاسية ليخلو بالأميرة ، التى قضوا مراسم زواجه بها ، وكانت هذه هى اللحظة السعيدة التى يرتقبها من زمن بعيد ! ٠٠

وفى مطلع الفجر عاد جنود « حورمحب » ليتجمعوا أمام المعبد ، انتظارا لخروج قائدهم . وبعد قليل فتحت الابواب وخرج عليهم « حورمحب » وفى وجهه وعلى ذراعيه وكتفيه خدوش دامية كما لو كانت قد نهشته أنياب أسد ! .. وهنا صاحوا صيحات البهجة والفرح وارتفعت أصواتهم باللغات الكثيرة المختلفة التى كانوا يتكلمون بها ، وقال بعضهم لبعض : ان قائدنا لذو حظ عظيم ، فقد منحته « سيخمت » بركتها ورعايتها ، وقلما تفعل ٠ ودليل هذا أن رأس الأسد ، وهو شعارها ، قد اتصل بجسد « حورمحب » على ما نرى من آثار مخالبه فيه، ولا يكون هذا الاتصال الا حين يكون الرجل بطلا مغوارا !!٠٠

واشرأبت أعناقهم نحو الأبواب ليروا الأميرة « باكيت آمون » التى أصبحت زوجة قائدهم المظفر ، ولكنها لم تظهر لهم ، فقد حملها الكهنة بعيدا عن الأنظار الى البيت الذهبى ! ٠٠

وفى هذه المظاهر انقضت ليلة زواج « حورمحب » دون أن أدرى ما وقع له هناك خلف الأسوار ، وأية متعة قد أصابها من الأميرة فى تلك الليلة ؟!٠٠

ولم يطل احتجاب « حورمحب » عن أعين الناس بالقصر الذهبى ، فقد خرج منه بعد فترة قصيرة ليجمع جيشه ويذهب من فوره الى أول خلجان النهر بالجنوب ليتفقد قواته وينظمها ، تاهبا للزحف على أراضى « كوش » ٠ ومن هناك ، وفى غير ما تلبث مضى بقواته المتجمعة الى ذلك الميدان الحربى الجديد ٠

وطابت نفس « آى » لانفراده بالنفوذ والسلطان ، وقال لى حين لقيته : هاأنتذا ترى ملء عينيك أنه ليس فى أرض « كيم » كلها من هو أعلى منى — اليوم — مقاما ، وسواء عندى بعد ذلك أن أحيا أو أن أموت ، فبفرعون لا يموت كما يموت الناس ولا يفنى فناءهم ، وانما هو — دونهم — يحيا حياة أبدية لا انقضاء لها ، وما يكون موتى على صورته المالوفة فى دنياهم الا انتقالا على قارب أبى « آمون » الى الغرب حيث الخلود العظيم والراحة الدائمة ٠٠٠ ومن هنا كانت سعادتى بأن صرت على عرش « فرعون » ٠ فلم أعد أرهب الموت أو أخشاه ، بل لعلى أرحب

به ، ففيه نهاية لما ينوشني من خيالات أعمالى فى ظلمات الليل ، وقد غدوت رجلا عجوزا وشيخا فانيا ! ..

وهززت رأسي ساخرا من قوله ، وقلت له : أما أنك عجوز وشيخ فان ، فتلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكنني أراك ــ فيما عداها ــ مسرفا فى اعتقاد الخلود والراحة بعد الموت فى الشاطىء الآخر .. ولو كنت أنت ــ كما أظن ــ حكيما ، لأدركت أن هذا الذى تتسلفه لنفسك منذ الآن فى الحياة الابدية لا يكفى لتحقيقه أنك ، بين غمضة عين وانتباهتها ، قد اقتعدت مكان « فرعون » وتبوأت عرشه . فلا هذا العرش ، ولا هذا الزيت الكريه الذى دهنك به الكهنة ، ولا هذه الشعور الملكية التى تعلو رأسك ــ لا هذا ولا ذاك ــ يمكن ن يعطيك الخلود المبتغى أو يمنحك السعادة الابدية المشتهاة ! .. ذلك أنك تعلم اى الوسائل جاءت بك الى العرش ، وأى الاعمال مهدت سبيلك اليه ! .. ولهذا فلن تلقى بعد الموت الا ما يلقاه الرجل ، عاش عمرا طويلا ثم ذهب عن الدنيا غير مزود بعمل صالح ! ..

فارتجفت شفتاه وتغشت عيناه بغشاوة الخوف ، وقال بلهجة الذى يدافع عن نفسه : كلا ، كلا ، انك مخطىء يا « سنوحى » ! .. فماصنعت شيئا مما لا يروق لك أو مما تحسبه خطيئة واثما ، الا لأكون بالمكان الجدير بى . ولا يعاب على المرء أن يعمل ليكون عظيما ، ومن ذا تظنه خيرا منى لذلك ؟! . وكيفما كان الامر من قبل ، فثمة حقيقة ينبغى أن تؤمن بها : هى أن ارتقائى العرش أخيرا لم يكن ليتم الا ثمرةاختيار الآلهة ورضاهم. وهؤلاءالكهنة باحاطتهم بىواقبالهم على انما يمثلون ارادة الآلهةوتأييدهم، وسيقوم الكهنة بواجبهم لانقاذى من جحيم الموت ، وسيحفظون جثتى بعد الموت الى الأبد . ألست فرعون «مصر» ؟! وان هذا لقمين أن يبرئنى من كل عمل سوء قد سلف ؟! .

ولكن « آى » مع هذه التعلات ــ ظل بعد ذلك نهب المخاوف ، فقد كانت خطاياه التى أثرت ذكراها فى نفسه تلازمه فى يقظته ومنامه، وفى قعوده وقيامه ، فلم يستشعر بذلك لذةالحكم ومتاع الملك ، وأصبح أكثر مايكون انطواء على نفسه ، خائفا من كل شىء ومن كل انسان ، فلم يعد يشرب النبيذ ، كما لم يعد يتناول من الطعام غير الخبز الجاف واللبن المغلى ، وعينه دائما على كل ما يقدم اليه من شراب وطعام ، خوف من السم الذى كان يتوهم أنهم لابد قاتلوه به . ومن هذا ، صار لا يثق

بأحد ولا تخلو علاقته بمن حوله من الشك الكبير ••• فكان لذلك قاسيا عليهم متجهما لهم ، فانصرفوا عنه وتجنبوا لقاءه ، وزاد هذا في مخاوفه وشكوكه ، والفى نفسه في وحدة موحشة وشيخوخة متهـــدمة ، وكان واضحا أن الرجل يسير حثيثا الى الجنون !••

وفى غيبة « حورمحب » ببلاد « الكوش » ، شعرت « باكيتأمون » بأن علاقتها الزوجية به — في ليلة الزواج — قد أثمرت جنينا يتحرك في أحشائها •• فضاقت بذلك أشد الضيق ، وحاولت أن تتخلص من هذا الجنين أكثر من مرة ، ولكن الحياة فيها كانت أقوى من الموت ، ففشلت كل وسائل الاجهاض واستتم الجنين دورته الطبيعية حتى جاءها المخاض فوضعته فى ألم وعسر شديدين ،واضطر الاطباء والعبيد أن يخفوه عنها لما قد عرفوا من رغبتها في القضاء عليه • وسرى خبر هذا الميلاد فيخارج القصر وتعددت فيه الاقاويل • فمن قائل انه ولد برأس أســـد ، ومن قائل انه جاء وعلى رأسه خوذة ، الى غير ذلك من التهاويل المشـــوبة بالخرافات !•• على أنى أشهد أنالطفل كان كسائرالاطفال ويزيد عليهم نضارة الصحة والقوة !•• وقد أطلق عليه « حورمحب » بعد ذلك اسم « رمسيس » ! ••

وكان «حورمحب» اذ ذاك لا يزال فى معمعةالغزو بأراضى «الكوش» وقد أوقع بعجلاته الحربية خسائر فادحة بين الزنوج ، وأشعل النــار فى بيوتهم المصنوعة من القش ، وأرسل أولادهم وزوجاتهم الى «مصر» كأرقاء !•• وحين لم يبق ما يخشاه من هؤلاء الزنوج ، قرر أنيستعملهم فى جيشه ، فكانوا فيه شجعـــانا بواسل ، ولعلهم كانــوا كذلك لأنهم وأولادهم وزوجاتهم قد أصبحوا فى قبضة يد « حورمحب » ، فكان عليهم أن يؤازروه بكل قوتهم ابقاء على حياتهم جميعا .

ومن أراضى « الكوش » أرسل « حورمحب » الى « مصر » قطعان الماشية ، فساعد ذلك على انبعاث النشاط الزراعى فى أرض « كيم » ، ومن ثم ازدهرت مرة أخرى زراعة الحبوب وزادت غلة القمح وتوافر بها الطعام لمن لم يكونوا واجديه من المصريين ، كما توافرت لكهنة المعـــابد حيوانات القرابين •

ولسنين طويلة ، بعد ذلك ، ظلت أراضى « الكوش » فى حالة تشبه الاقفار التام ، فقد تلاشى أهلها بين أسرى وغنائم وجنود ، ومنهم قبــائل بأكملها أسرعت بالهرب الى مناطق الغابات وراء حدود «مصر» حيث لايوجد هناك غير الفيلة والزراف •

وبعـــد سنتين من هذه الحرب ، عاد « حورمحب » الى « طيبة » مزودا بالكثير من الاسلاب والغنائم ، فاخذ يوزع الهدايا واقيمت أحفال النصر لمدة عشرة أيام وعشر ليال ، توقفت خلالها كل الاعمـال وانطلق الجنود فيها بالشوارع مخمورين يعبثون ويعربدون ويتصايحون كالنعاج وكان من نتائج هذا أن جاء الاطفال الذين ولدتهم نساء « طيبة » ، بعد ذلك ، سود البشرة !٠٠

والتقيت « بحورمحب » وهو يحمل ابنـــه « رمسيس » بين يديه ويحاول أن يدربه على المشي بقدميه الرخصتين ، وقال لى وهو يغمز بعينه · انظر يا « سنوحى » !٠٠ فهذا فرع جديد من الملوك قد نشأ من ظهرى!٠٠ ان فى عروقه تجرى الدماء المقدسة على الرغم من أننى ـ أنا نفسى ـ لم أكن كذلك ، أليس الأمر هكذا يا صاحبى ؟! ٠٠

وعندما ذهب « حورمحب » لملاقاة « آى » ، أصاب هذا ذعر شديد، وراح يصرخ فى وجهه قائلا : اليك عنى ! ٠ فانى أنا « فرعون » ولا أحد سواى ، ولا لقاء بيننا !٠٠ فانك ـ ولا أجهل ذلك ـ انما جئت لتقتلنى وتنتزع التاج لتضعه فوق رأسك !٠٠

وضحك « حورمحب » ملء شدقيه وقال له : لست أنوى قتلك أيها الثعلب العجوز ٠٠ فان بينى وبينك صهرا عزيزا ، وحياتك عندى غالية ، وانى لأعلم أنك فى شيخوختك هذه المتهدمة ، وفى ضعفك هذا الذى يتراءى جليا فى وجهك المتجعد المرتعش وساقيك اللتين لا تقويان على حملك !٠٠ انك فيما أنت فيه من ذلك لم تعد صالحا للتاج ولا قادرا على الاضطلاع بأعبائه ، ولكننى مع ذلك أرى أن تبقى وأن تعيش لفترة أخرى ، فما ينبغى أن يخلو عرش « مصر » من فرعون على مثالك يصب الشعب عليه جام غضبه ، فى حين أكون أنا من ذلك بمبعدة !٠٠ واذن فلك أن تتماسك وألا يأخذك منى هذا الفزع الشديد !٠٠

وتقدم «حورمحب» الى زوجته بهدايا ذات نفاسة ، كانت صناديق محلاة مملوءة بنثار الذهب ، ورءوس أسود صادها وقردة حية ، وقدرا كبيرا من ريش النعام ، ولكنها لم تشأ أن تلقى بنظرها على شىء من هذا كله ، وقالت له بلهجة مشوبة بالصرامة : انى زوجتك أمام الناس وقد ولدت لك ولدا ، وحسبك هذا منى لتكون سعيدا . ولن أسمح ليدك أن تمس جسدى مرة ثانية ، ولئن حاولت ذلك فسأبصق على مخدعك وأخونك كما لم تخن زوجة زوجا من قبل !٠٠ وسأمضى حينئذ الى الحمالين

والأرقاء والحمارين لأضاجعهم وأسلمهم جسدى علنا فى الاماكن العامة « بطيبة » لينالوا ما شاءوا من لذة !٠٠ فهل أدركت ما سوف يلحق بك بعد هذا من عار أيها القائد العظيم ؟!٠ فمن الخير لك أن تبتعد عنى ، ثم ان فى يديك وجسمك رائحة الدماء ، وذلك شيء لا أطيقه !٠٠

وساءه منها هذا الصدود ولكنه آثر ألا يجادلها وجاءنى ينفث همه وهو يتوقد رغبة فيها وقال : أعطنى جرعة يا « سنوحى » أذيبها لها فى شراب لتهدأ أعصابها ويأخذها النوم حتى أستطيع أن أعرف طريقى اليها نائمة !٠٠ ولكنى أبيت أن أجيبه الى طلبه ، فذهب الى أطباء آخرين اعطوه ما أراد ، وتمكن من نيل بغيته منها بهذه الوسيلة ، غير أنها عندما افاقت عرفت ما صنع بها فقالت له فى استنكار وازدراء : اذن لا تنس ما قلته لك ، تذكره جيدا ، فأنى فاعلته لا محالة !٠٠

ومضى « حورمحب » بعد ذلك فى رحلة الى « سوريا » ليجهز جيشه لاستئناف الحرب مع « الحيثيين » ، مبررا ذلك بأن الفراعنة العظام قد اقاموا احجار حدود بلادهم عند « قادش » ، فلن يهدأ له بال حتى تدخل عجلاته الحربية اليها مرة أخرى ٠

وخلال غيابه حست الاميرة « باكيت آمون » بأن بذرة حمل آخر بدأت تتفاعل فى احشائها ، فآوت الى حجرتها وقررت أن تظل فيها وحيدة لا تتصل بأحد من الناس ، حتى خدمها كانوا ــ لشدة اصرارها على الوحدة والانفراد ــ يضعون طعامها على باب الحجرة دون أن تراهم ٠ فلما اقترب موعد الوضع أخذ الاطباء فى مراقبتها احتيالاوبطريقة سرية، فقد كانوا يخشون أن تجهض نفسها لما يبدو من مقتها وخجلها من هذا الحمل ٠ على أنها ــ عندما جاءها المخاض ــ استدعتهم وكان واضحا أنها تغالب آلامها وتتكلف الابتسام أمامهم ، ووضعت أخيرا ولدا أسمته «سيتوس» دون انتظار للتعرف على رأى «حورمحب» فى هذه التسمية!٠ وكانت نظراتها المسددة الى هذا الطفل تنم عن الكراهية المريرة ، وقد قالت لمن حولها انها قد ولدته من « ست » !٠٠

وطلبت الاميرة من وصيفاتها ، بعد أن استعادت صحتها عقب الوضع ، أن يدهنها ويلبسنها لباسا كتانيا ملكيا ، ثم أمرت باعداد قارب خاص استقلته الى الشاطىء الآخر للنهر ٠ ومن هناك ذهبت بمفردها الى أسواق « طيبة » حيث يتجمع الناس من مختلف الطبقات ، وجعلت تتحدث اليهم وتلاطفهم فى اغراء شديد، وتطلب منهم أن يجمعوا لها ــ مااستطاعوا ــ

أحجارا تختلف أحجاما وأشكالا وألوانا ، لقاء ما يرتضونه من أجر مهما بالغوا فيه ! ..

وكانت دعوتها لهم مفاجأة غريبة عليهم ، فليس ما تطالبهم به شيئا يقع فى مهنتهم ، وحسبوها ساخرة تتلهى ببؤسهم ، وانصرفوا عنها فى كثير من العجب والدهشة !.. بيد أنها لاحقتهم لاهجة فى دعوتها واغرائها حتى اذا ما استثارت أحاسيسهم ونخوتهم ، عادوا فتجمعوا حولها بعد تفرق وأخذوا ينظرون بعيون متلمظة الى جمالها الرائع وردائها الخلاب ، ويتنسمون — فى نشوة — عطرها الفواح ، ويدافعون فى أنفسهم شعور الرهبة منها ، ويقول بعضهم لبعض : ان شأنها لعجيب حقا ولا نعرف له من قبل شبيها فى النساء ، فلا ريب فى أنها الهة مبعوثة الينا لتشعرنا أن الناس — كافة — سواسية ! .. وأنها — يقينا — لا ترسل نفسها هذا الارسال السافر لأناس فى رقة حالنا الا عن فكرة مثلى مقدسة ، تريد بها أن نسهم معها فى تجميع كمية كبيرة من الاحجار لتقيم بها معبدا جديدا للاله « باست » .. ومن أجل هذا ، يجب أن نلبى دعوتها لنؤدى بذلك عملا يقربنا زلفى عند الآلهة ! ..

وفى هذا الجو من الحماسة ، أخذوا يتبارون فى جمع الاحجار بكميات وافرة .. وكان قاربها الذى جاءت به أضيق من أن يتسع لها أو يقوى على حملها ، فاستدعت قاربا آخر أكثر سعة وأكبر حجما ، وعادت به محملا بأحجارها الى البيت الذهبى . وقد ودعها أولئك الرجال فى ابتهاج كبير ، وهم يؤكدون لها أنهم جامعون لها فى الغد أحجارا أخرى أكثر ضخامة وعددا ، وكانت تضاحكهم وهى تثنى على ما بذلوه من جهد ونصب .

وكررت الاميرة جولتها فى اليوم التالى ، فوجدت المزارعين قد انتزعوا درجات سلالم الحانات ، كما جاء الحراس بأحجار مستلة من مبانى الفراعنة . وقد عاونوها فى نقل تلك الاحجار الى القارب الذى أوقره حمايا حتى كاد يغرق لولا ما بذلته الوصيفات من جهد مضن فى التجديف به الى رصيف البيت الذهبى بالشاطىء الآخر .

وفى المساء نفسه انتشر الحديث بكل أنحاء « طيبة » عن « آلهة » رءوس القطط » التى ظهرت بين الناس . وكان حديثا غريبا ذهب فيه — مذاهب شتى — من لم يؤمن بالآلهة ومن لم يتصور وقوع شىء من ذلك ، والكثيرون منهم لم يروا فيه غير حديث خرافة لا يقبلها العقل بحال !..

وبكرت الأميرة فى اليوم الثالث الى شاطىء « طيبة » ، وقصدت من فورها الى الفحامين في سوقهم ، فاستجابوا لهـــا مؤمنين فرحين • وفى لهفتهم على جمع الاحجار ، ثغروا حوائط المعابد واستلوا أحجارها ! •• وقد فزع الكهنة من ذلك وأخذوا يتصايحون بالشكوى ويتهمون الفحامين بالمروق والالحاد لجرأتهم المنكرة على حرمة المعابد وقداستها !•• غير أن هؤلاء الفحامين لم يحفلوا بهذا الاتهام ، بل كانوا يتباهون بما صنعوا فى سبيل العقيدة ! ••

وزاد بذلك شيوع الحديث عن « آلهة رءوس القطط » التى كشفت للناس عن نفسها ، وكثر عدد الذين يروونه عن بينة ، فاضطرب الامر في المدينة ، وتمني كثيرون ــ حتى من علية القوم ــ لو واتاهم الحظ فاتصلوا بها وقاموا على خدمة أغراضها •

وقد انزعج الكهنة من ذلك واستبد بهم القلق ، وأرسلوا حراسهم ليقبضوا على هذه المرأة التى تحمل الناس من أمرهم رهقا وتشيع الفوضى والقلق بينهم •

واعتكفت الاميرة بالبيت الذهبى لتستريح من ذلك العناء المرهق ، وكانت ــ في حديثها وسلوكها ــ تبدو هادئة رقيقة مفترة الثغر على غير المعتاد من طبعها !•• وكان هذا مثار الملاحظة والعجب فيمن حولهـــا من أفراد الحاشية الملكية • وقد اغتبطوا ــ على أية حال ــ بهذا التغير الطارىء على أميرتهم دون أن يدور فى أخلادهم أنها هى المرأة الغامضة التى ظهرت فى « طيبة » واستفاضت حولها أقاويل الناس !••

وكان أول ما عنيت به ــ بعد أن استوفت جمامها ــ هو فرز الاحجار الكثيرة المتجمعة لديها وترتيب اشكالها وأحجامهـــا وتمييز بعضها من بعض ، ثم استدعت الى حديقتهـــا رئيس بنائى القصر لحظـــائر المواشى ، وقالت له : لقد جمعت هذه الاحجار بالقرب من شاطىء النهر ، وهى أثيرة عندى ، وأريدك ن تبنى لى بها فى هذه الحديقة « ايوانا » فسيح الجنبـــات رحب الضواحى عالى الجدران ، لآنس فيه بالظل والهواء وخمائل الازهار ، فقـــد أصبحت أشعر بالحاجة الى الخلوة بمثل هـــذا الايوان لما ينتابنى فى مخادع القصر وحجراته من ضيق الصدر فى غياب زوجى •

وكان رئيس البنائين رجلا ساذجا محدود القدرة الفنية ، فقال لها فى خضوع : أيتها الاميرة العظيمة •• انى ــ على ما تعلمين ــ غير كفء لاقامة هذا البناء من هذه الاحجار المتباينة الاحجام والالوان ، وأخشى الا

يجيىء بيدى موافقا لفكرتك الجميلة ومكانتك السامية ، فهلا عهدت به الى من هو أكثر منى مهارة وفنا من بنائى المعابد أو المعماريين المتخصصين؟!

ولكن الاميرة دنت منه وقالت له فى وداعة : بل أرى أنك مستطيع ذلك ، وعليــك وحدك وقع اختيــارى ، فلا حاجة بى الى هؤلاء البنــائين المشهورين ، وأوثر ألا أستدعيهم الى خدمتى لتحقيق رغبة خاصة كهذه ، فأنى هنا ــ وفيما أحسبه من طول غيبة زوجى ــ أحيا حياة انطواء وعزلة ، فخذ فى عملك غير متردد ، وثق بنفسك ، وسأجزل لك المكافأة ٠

ولم يسع الرجل أمام هذا الاصرار الهادىء الا أن أجاب فى ابتهاج أمرك مطاع ياسيدتى ٠٠ ثم أقبل على العمل متحمسا مفتتنا فيه ، وكأنما ألهمه التصميم علما وبراعة لم يكن يعرفهما من قبل فى نفسه ، وما زال هكذا حتى بلغ من « الايوان » غاية الدقة والاتقان ، فجاء تحفة للناظرين٠

وقد عرف « آى » نوايا الاميرة من تصرفاتها ، وكان فى وسعه أن يتخذ حيالها اجراء صارما ، ولكنه لم يفعل وسكت عنهــا راضيا ، اذ ستكون تصرفاتها هذه مصدر مضايقة وايلام « لحورمحب » ، وهذا أمر يصادف هواه ، ويوافق مبتغاه ٠

وكان « حورمحب » قد شن الحرب على « سوريا » وتم له الاستيلاء على «صيدا» و «أزمير» و «بيبلوس» ، انتزاعا من أيدى الحيثيين ،وأرسل الى « مصر » العدد الكثير من الأرقاء والغنائم ، كما بعث الى زوجته بالهدايا الوافرة النفيسة ٠ وكان الناس جميعا يتلقون أنباء الانتصارات المتلاحقة وينعمون بثمارها ويشيدون باسم قائد جيشهم المظفر ، ولا يكفون ــ مع ذلك ــ عن الحديث فى تصرفات زوجته ، ولـكنهم ــ حتى الذين اصطفاهم من رجاله وأقامهم فى المناصب الرفيعة ــ لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة على ابلاغه شيئا مما يدور على الالسنة حولها ، وكانوا يعللون ذلك بقولهم . خير للمرء أن يضع لسانه بين شقى الرحى الدائرة من أن يقحم نفسه بين زوج وزوجته ! ٠٠

ومن هنا ، ظل « حورمحب » فى المعركة لا يسمع شيئا يسوؤه عن زوجته ٠ وكان هذا ، بلا ريب ، خيرا على « مصر » وأعون على كسب النصر لها فى الحرب القائمة ، فلا ينبغى أن يفكر قادة الحروب فى شىء سواها ٠

أطلت الحديث عما وقع للآخرين فى حكم « آى » . ومع أنى شاركت فى هذه الاحداث وكان لى فيها دور كبير ، فأننى لم أذكـــر عن نفسى الا القليل ، وأشعر الآن فى خلوتى بعيدا عن الحوادث ، أن نهر حياتى الذى كان جياشا متدافع الموج قد اعتراه السكون واستحال هديره الصاخب الى ما يشبه الهدوء الذى يجىء بعد هبوب العاصفة ، فلست أجد عسرا - بعد - فى التقاط ما قد رسب فى قاعه من ذكريات تلك المآسى التى عشتها وتقلبت فى لظاها . وانى لأذكر منها أننى ، بعـــد الذى أوردته من أحداث ذلك العهد ، انصرفت عن الناس وزهدت أشد الزهد فى لقائهم، تقززا من المناكر التى شاعت فيهم وانكارا للمآثم التى تدجى ظلامها فى دنياهم ، فلزمت دارى لا أبرحها . فاذا ضقت بمقامى بها خرجت لأجوب وحدى الطرق الترابية غير المأهولة هائما على وجهى حتى تكل قدماى ، فأعود الى الدار لتلقانى فيها «ميوتى» التى ظلت قائمة على خدمتى ورعاية شئونى ، فكانت لى فى فراغ وحدتى نعم الرفيق المخلص ، تعد لى الطعام مطهوا بيدها الصناع وتقدم بين يدى شراب النبيذ كلما استشفت رغبتى فى شراب ولكنها كانت تقدمه فى قصد واعتدال حتى لا يرهق أعصابى الاسراف فيه !.. غير أنى لم أكن أستشعر - كثيرا - لذة طعامها هـذا الجيد ، كما لم أعد أستشعر فى نبيذها ما كان له من قبل من نشـــوة ومرح ، بل كان هذا النبيذ - اذا ما أضوانى الليل - يطلق خيالى فيما كان يمضنى التفكير فيه من أعمـــالى السـيئة ، فكأنما يطلق على ذئابا تنهشنى وتدمينى !.. فما أرى اذ ذاك الا صورا متكررة من وجه فرعون « أخناتون » وهو يحتضر ، ووجه « شوباتو » وهو يتلوى من الالم ويلفظ أنفاسه الاخيرة !..

وفى استعراض هذه الصور البغيضة المثيرة ، كانت تطغى كراهيتى للناس ولنفسى معهم ، وانظر الى يدى فى ازدراء لتلوثهما بالاثم والجريمة، وأراهما غير جديرتين بأن تؤديا - بعد - عملا صالحا . ومن هنا فارقتنى الرغبة فى استعمالهما لعلاج المرضى، وكنت فى تثاقل وانقباض لا أستقبل منهم الا الفقراء من جيرتى ، أولئك الذين لا يملكون ما يعطونه أجـــرا لأطباء آخرين !..

وكثيرا ما كنت أقضى النهار كله قابعا على حافة البركة الصغيرة القائمة بفناء دارى ، متأملا الاسماك الملونة التى حشدتها فيها ، تظللنى شجرة الجميز التى أخذت تورق وتزهر ، واشعر أن هذه الاسماك فى سبحها وهذه الشجرة فى ايراقها وازهارها ، أسعد منى حالا لانهاتعيش فى عالم غير عالم الناس وشرورهم ٠

وفى جلستى الطويلة المتأملة على حافة البركة وتحت ظلال الشجرة ، كنت أذهب مع نفسى وقلبى فى مناجاة تتحول أحيانا الىصراع وملاحاة، أتلمس مخرجا من الضيق الجـاثم على صدرى ومن الجرائم التى توقر ظهرى ، فأزعم لنفسى ولقلبى أنه اذا كان الذى حدث جنونا وشرا ، فانما يشفع لى فيه ان الدنيا بكل ما فيها ومن فيها ليست الا الجنون والشر ، وهذا العالم من سائر أقطاره لا يحكمه ولا يسوده سوى الحقد والجشع اللذين يتنزيان من جنون الناس وشرورهم ، فلماذا الأسى على ما كان أو على ما سيكون ، ما داموا ــ هكذا أبدا ــ يطاولون بعضهم بعضا متدافعين متناحرين فى لدد الى غير حد ، لا تهذبهم الحروب ولا تعظهم الطواعين ، ولا تكبحهم الحرائق والزلازل ، ولا تصلحهم الآلهة والاديان والدعـوات الموصولة فى المعابد والمحاريب ؟! وما الرجل الطيب الوحيد الا ذلكالذى يخرجه الموت من غمار هذه الدنيا !٠٠

ولكن قلبى ، مع ذلك ، ينهض فى خفق شديد صارخا فى أذنى : كلا يا صاحبى ٠٠ انك تستطيع أن تجلس جلستك هذه متسليا بالنظر الى أسماك بحيرتك التى لا تعـرف شـيئا من جرائرك ، أما أنا الذى تجاهلتنى وأنا بضعة منك وتصاممت دونصيحاتى وأنا أنصحكوأنهاك، فلن أمنحكالسلام والأمن لانك لم تمنحنى شيئا منهما طوالصحبتىلك!٠ لقد عذبتنى أشد العذاب بما كنت أراه دائما من ضحاياك !٠٠ فكم من ألوف وألوف ماتوا بسببك يا « سنوحى » ؟!٠ أولئك المساكين الابرياء الذين فتكت بهم المجاعة والطاعون ، والذين هدرت أرواحهم وتنـاثرت أشلاؤهم تحت العجلات فى الصحراء ، والذين ماتوا أجنة فى الارحام لفرط ما أصاب أمهاتهم من الشدائد والاهوال ، والذين سيقوا كالإنعام لتلهب ظهورهم المقوسة سياط الجلادين !٠٠ كل أولئك عانوا ما عانوا من عذاب الموت وعذاب الحياة بسببك ، وأنت تخدع نفسك وتحاول أن تخدعنى كذلك لتبدو غير مسئول عن هذه الكوارث جميعا !٠٠ولكن عبثا تطلب الخلاص ، فلن تفلت من قبضة الحقيقة التى ينبعث صراخها من داخل أعماقك ٠٠٠ ان فى الدنيا خيرا صيرته شرا ، وان فيها لعدلا وحقا

بدلتهما ظلما وباطلا ، وستظل ذكرى أفعالك السود عالقة بأفكارك ، تقض مضجعك وتكدر صفو حياتك !..

وروعني قلبي في يقظته وحسابه ، ولكنني تكلفت القوة لمواجهته قائلا له : ما فعلت شيئا من هذا الذي تعده ذنوبا وآثاما ، الا مكرها فاقد الارادة فلم تكن لي فيه حيلة أو منه مندوحة ، ذلك ان الحياة مع الناس — كما قلت لك — طافحة بالذنوب والآثام ، فجريت في مجراهم وانسقت مساقهم ، وقد رأيت آخر الامر ألا نجاء لي منهم الا في الانفصال عنهم ، وها انتذا تراني منهم بمعزل ، أوثر العيش بعيدا عنهم ، الى جوار هذه الاسماك بل انى لأوثر عليهم ذئاب الصحراء وأسود الاحراج ، انها جميعا لم ترزق العقل والحكمة ولكنها — على ذلك — خير من الانسان في عقله وحكمته ، وأسلم منه عاقبة على أية حال !..

ولم يقنع هذا قلبي فيقول ساخرا : تفارق الناس — اذن — لانهم أوتوا العقول التي يعرفون بها ما يفعلون !..هذه حجة عليك ياصاحبي!. فانت أحظى الناس بالعقل وأبعد منهم مدى في مجال المعرفة ، فقد تعلمت وارتقت مداركك وعرفت ما قلما يعرفونه من الحق والخير ، فان كان لهم العذر لانهم يفعلون ما يجهلون ، فما عذرك أنت في عملك وادراكك ؟!. ان هذا لحرى أن يفدح خطاياك ويثقل اصرها ، فتجرع كأس العذاب حتى ثمالتها ، فذلك جزاؤك الحق على ما قدمت يداك !..

وخارت قواى ، فاستسلمت الى هذه النتيجة المزعجة في حوار قلبي !.. واشتدت آلام نفسي وأخذت أصرخ وأمزق ملابسي وأقول : فلتنزل اللعنة على قلبي ، هذا الذي يدينني بعقلي وتعليمي ويأبى أن يغفر أو يتسامح لأظل حتى الموت معذبا شقيا !.. فمن لي بمن يجيىء بميزان « أوزوريس » لأزن به هذا القلب المجنون ؟!..

وسمعت « ميوتي » صراخي فهرولت الى مسرعة من المطبخ، وحملت رأسي بين يديها وأخذت تمسحه بقطعة من النسيج مبللة بماء البركة ، ثم قادتني وكأنها تجرني جرا الى فراشي وجرعتني شرابا مرا حتى هدأت أعصابي ، ولم تنس في هذه اللحظة المثيرة أن تسلط على لسانها الحاد لوما وتقريعا !..

وقضيت وقتا طويلا طريح الفراش حليف المرض ، متحدثا في مثل هذيان المحموم عن ميزان « أوزوريس » وعن « ميرييت » وعن الصغير « تحوتح » ، ومع أن هذا كان شيئا تكرهه منى «ميوتي» ويضيق صدرها به ويرسل لسانها ساخطا لاعنا ، فانها كانت تقوم على خدمتي باخلاص

باذلة أقصى الجهد فى سبيل راحتى . وقد بلغ من عنايتها بى أنهـــا منعتنى من الجلوس فى الحديقة نهارا الا فى ظل شـجرة الجميز حتى لا تمس أشـــعة الشمس الحارقة رأسى بعد أن سقط الشـــعر منه ، ذلك أنها كانت تعلم أن ارتيادى الحديقة أمر أرغب فيه أشد الرغبـة للاستمتاع بمنظر الاسماك غادية ورائحة فى ماء البركة ، ولولا هذا ما سمحت « ميوتى » بأن أغادر الفراش !..

وبفضـــل هـــذه الرعاية الرتيبة عادت العافيـة الى بدنى ونفسى واحسست أن المنافرة التى قامت بينى وبين قلبى قد زالت تماما فلم يعد يعذبنى ، وأن الآلام التى كانت تثيرها ذكرى «ميرييت» والصغير «تحوتى» قد خفت عندى فكففت عن الحديث عنهما ولو أنى لم أنسهما فهما مستقران أبدا فى قلبى ، وكان عزائى فى أمرهما أخيرا أن موتهما كان قدرا مقدورا لا مفر منه لتطفح كأسى وأصبح وحيدا ! .. فهكذا شاءت الأقدار لى منذ حملت على النهر وحيدا فى ليلة مولدى !.. ولا شك فى أنهما لو أفلتا من الموت لكان ذلك خيرا وأبعث لسعادتى بالعيش معهما ، ولكن ثمة هذه الوحدة التى فرضتها الاقدار على حياتى ، قد فعلت فعلتها فيهما ، وربما كان هذا خيرا لهما من البقاء لمشاركتى حياة تعسة !..

وذات يوم نزعت نفسى الى الخروج من عزلتى لمخـالطة النـــاس والتحدث اليهم فيما لم يألفوا الحديث فيه من الامور الجارية ، فارتديت ملابس خشنة مما يلبسه الفقراء ، وخلعت الصندل من قدمى ، وغادرت المنزل متنكرا على هذه الصورة وقصدت الى رصيف الميناء ، واختلطت بالحمالين وعملت معهم فى حمل الاثقال حتى أصاب ظهرى الكلال وتسلخت كتفاى !.. وعندما شعرت بالجوع ذهبت الى سوق الخضر وتنـــاولت طعامى من بقاياها ونفاياتها المتناثرة ثم عدت الى ما كنت فيه ، أعمل عمل الأرقاء والحمالين ، وظللت هكذا أحيا حياتهم وأطعم من طعامهم وأشرب من جعتهم حتى توثقت العلاقة بينى وبينهم . وكانوا بعد أن تعرفوا على شخصيتى ينكرون على أن أهبط الى دنياهم هذه الطافحة بالكدح والعناء والفاقة ، وهم يعلمون أنى فى غير حاجة الى ذلك ، فأقول لهم : وأية غرابة فى هذا أيها الأخوة ؟! انه ليس ثمة فرق بين انسان وانسان .. فالجميع قد ولدوا عرايا وجاءوا الى هذا العالم على نمط واحد لا يختلف !.. وهذه الوحدة الشاملة هى حقيقة الحقائق التى لا جدال فيها ، والخطأ الكبير بعد ذلك هو أن يقاس المرء بلون بشرته أو بملابسه أو بما يتزين به من حلى وجواهر ، وانما يقاس المرء بقلبه وعمله ، ولهذا كان الرجل الطيب

فى فقره خيرا من الرجل الشرير فى غناه ، والحاكم العادل أفضل كثيرا من الحاكم الظالم بلا مراء !..

وبهذا وبمثله كنت أتحدث اليهم كلما خلوت بهم متجمعين أمام أكواخهم الطينية فى كل مساء ، فى حين كانت زوجاتهم توقدن النيران فى الشوارع لتنضج عليها السمك الذى تنتشر رائحة شوائه فى الجو !..

وكانوا لا يفهموننى فيقولون ضاحكين ساخرين : اذا لم تكن مجنونا يا « سنوحى » لقيامك معنا بعمل الأرقاء مع أنك تحسن القراءة والكتابة ولك هناك مكان الطبيب العالم ، فأنت — لا شك تبطن أمرا خطيرا وتطوى نفسك على مكيدة قد لاتؤمن عواقبها ، ولهذا جئتنا متنكرا ! .. واننا لنلمح فى حديثك شيئا من تعاليم « آتون » الذى لايجوز لنا أن ننطق باسمه !.. على أننا وقد أدركنا نواياك الخفية ، لن نشى بك الى الحراس، فابق معنا — اذن — آمنا ما شئت أن تبقى ، ففى ثرثرتك تسلية لنا .. على أننا نريد ألا تتحدث كثيرا عن الالوان والفوارق والمقاييس ، لاننا وان كنا أرقاء وحمالين ، فنحن — على أية حال — مصريون فخورون بلوننا ولغتنا وماضينا ، قانعون بحالنا على أمل فى المستقبل !..

قلت لهم : هذا كلام لا معنى له ،ولا أكاد أدرى كيف تلتقى هذه المفاخرة وتلك القناعة بما يعرض للانسان فى عامة حياته من التعذيب بالاغلال والجلد والحراب والطيور الجارحة ؟! . ان هذا الانسان من حقه أن يعيش حرا لا يحكمه الا قلبه !..

ولكنهم أغرقوا فى الضحك وخبطوا بأيديهم على ركبهم وقالوا : حقا انك لرجل مجنون !.. وكأنك قد نشأت وعشت طول حياتك مطويا فى غرارة !.. اننا — فيما نحن فيه — نشعر أننا أحسن حالا من غيرنا فى بلاد أخرى وهذا حسبنا ، ونحن على ما تراه فينا من فقر وجهل ، مقتنعون بأننا أكثر منك حكمة ودهاء بالرغم من أنك تعرف القراءة والكتابة !..

فقلت لهم : انما أريد أن تميزوا الخير من الشر والعدل من الظلم، فالحياة لكم وللناس أجمعين ينبغى أن تكون خيرا وعدلا ، ولا مكان للشر والظلم فيها الا بغفلة الناس وسوء فعالهم ! ..

ولكنهم أجابوا فى مرارة : خير وشر !..وعدل وظلم !..ما هذا؟! اننا اذا ذبحنا سيدا لانه يجلدنا ويسومنا سوء العذاب ويحرمنا من طعامنا ويقتل زوجاتنا وأطفالنا ، فذلك عمل حسن ولا ريب ، وهو جزاء

حق يلقاه ظالم مستبد !·· ولكننا ما نكاد نفعل حتى يحيط بنا الجند والحراس فيقبضون علينـا ويسوقوننا ـ مكبلين فى الاغلال ـ الى قضاة فرعون ليحكموا علينا بالموت بتقطيع آذاننا وأنوفنا وتعليقنا من أعقابنا على الجدران !··

قلت لهم : ان القتل من أحط الجرائم التى يرتكبها الانسان ، مهما تكن أسبابه ودواعيه !·· والمقتول تسقط عنه بالقتل كل خطاياه ، فهذه جريمة لا اقرها بحال !··

فوضعوا أيديهم على أفواههم ونظر بعضـــهم الى بعض ثم قالوا : اننا مثلك لا نقر القتل ولا نريده ، ولكن لماذا توجه الحديث الينا فى هذه الأمور ، اذا كنت تبتغى ـ حقا ـ تخليص الناس من الشرور والمظـــالم وتحيل حياتهم خيرا وعدلا ؟!· فاذهب بدعوتك هذه الى النبلاء والأثرياء وقضاة « فرعون » آ· فهناك مجال دعوتك وليس هنا !· ونحن غيرملومين يا « سنوحى » اذا كان جزاؤك عندهم قطع أذنيك ونفيك الى جحيم المناجم، أو تعليقك من أعقابك على الجدران !·· فاغلب الظن أنهـــم فاعلون بك ذلك ، فهذا الذى تقوله خطير ، ولو سمع به قائدنا العظيم « حورمحب » فانه قاتلك لا محالة !··

وتركت هؤلاء الحمـــالين والأرقاء لانهم لم يفهموا آرائى ، أو لأنى وجدت فيما قالوه أخيرا وجه الصواب ، فما جدوى أن أبشر فيهم بهـذه المعانى الانسانية وهم أنفسهم ضحايا ظلم الآخرين ؟!·

وأخذت سبيلى الى من ينبغى توجيه الحديث اليهم ، متجولا فى شـوارع « طيبة » حافى القدمين مرتديا ملابس الفقراء ، ولقيت ـ فيمن لقيت ـ التجار الذين يخلطون الدقيق بالرمال ليثقل وزنه ويكبر حجمه، وأصحاب الطواحين الذين يجلدون أرقاءهم ويحرمونهم من الدقيق الذى يطحنونه ، والقضاة الذين يتناهبون أموال القصر واليتامى ويرتشـــون ليصـدروا أحكاما ظالمة !·· وتحدثت الى هؤلاء جميعا ناعيا عليهم المآثم التى يقترفونها وناصحا لهم بالتزام الحق والعدل والقناعة ، ولـكنهم كانوا يستمعون الى فى دهشة كبيرة ويقول الواحد منهم للآخر : من يكون « سنوحى » هذا الذى يتطاول علينا ويتحدانا بهذه الجرأة العجيبة ؟! فلعله وهو يطلع علينا هكذا بملابس الأرقاء وعلى مثالهم ، أن يكون أحد جواسيس فرعون ، فما كان يمكن أن يفعل ذلك مطمئنا لو لم يكن عينا فرعونية تتلصص علينا ، واذن فلنحذره ونتقيه !··

ولهذا اصطنعوا التفتح لأحاديثى وكأنهم يوافقوننى عليها ، ودعونى الى زيارتهم فى بيوتهم ومنحونى الهدايا وقدموا لى الطعام والشراب!٠٠ وعملا بنصحى أو خوفا مما وراء هذا النصح ، أخذ القضـــاة يصلحون من سلوكهم فى اصدار أحكامهم !٠٠ وعلى غير المألوف أصبحت الاحكام تصدر لصالح الفقراء ضد الاغنياء ، مما أثار سخط أهل هـــذه الطبقة المتعالية فى « طيبة » وكانوا يقولون : فى هذه الايام لم يعد قضـــاة فرعون أهـــلا للثقة بهم ، فقد انحطوا الى حضيـــض اللصوص الذين يحاكمونهم ، بل ربما كانوا أقل شرفا منهم !٠٠

وكان النبلاء الذين ذهبت اليهم قساة غلاظ القلوب ، فما يكادون يستمعون الى حديثى حتى يثور غضبهم وينهالون على ضربا بالسياط ويطلقون فى أثرى كلابهم ، فما يسعنى الا أن أفر من هذا العذاب هائما على وجهى فى شـــوارع « طيبة » فى أثوابى الممزقة والدماء تقطر من ساقى !٠٠

ويرانى التجار والقضاة على هذه الحال من المهانة ملفوظا من النبلاء وهم الطبقة الاقوى سلطـانا ، فيهون أمرى عليهم ويزورون بجنوبهم عنى ، فاذا حاولت التحدث اليهم طردونى وهم يقولون مهددين : اذا عدت الينا مرة أخرى فسنطلب القبض عليك ومحاكمتك لانك تثير الفتنة وتدعو دعوة السوء !٠٠

وفى يأس عدت الى منزلى ، آسفا على ما ضاع عبثـا من جهودى ، وتحت شجرة الجميز جلست سابحا بنظرى وفكرى مع الاســـماك الصامتة ، فلست مع غيرها أشعر بالسلام الذى أنشده ٠٠٠

وعلى غير انتظار جاءنى « كابتاح » زائرا ، فقـد عاد أخـيرا الى « طيبة » مجازفا كعادته ، وكان مقدمه الى منزلى مصحوبا بجلبة وضجيج لا عهد بمثلهما فى هذا الحى ، اذ كان يجلس على محفة أنيقة مزخرفة ذات وسائد وثيرة يحملها ثمانية عشر شخصا من الارقاء السود مفتولى السواعد ، وقد أفرغ العطور على ملابسه الموشاة وتدهن بالعقاقير الغالية ، ووضع فى عينه العوراء عينا صنعها له صائغ سورى من الذهب والاحجار الكريمة ، وكان مزهوا بها على الرغم من أن وضعها كان غـير محكم فى تجويف العين ، فكانت تضايقه حتى أنه ــ فور وصوله الى منزلى ــ أسرع الى ازاحتها من موضعها !٠٠

وتلاقينا بعد طول فراق ، وضمنى الى صدره ضما شديدا ، وقد

زاد سمنة وبدانة ، وجاءت له « ميوتى » بمقعد ليجلس عليه ، ولكن المقعد ناء به ولم يقو على حمله وكاد يهوى من تحته ، فاضطر الى أن يرفع طرف جلبابه الفـاخر ليجلس الى جانبي على الارض تحت شجرة الجميز ! ·· وطفق يحدثني عن حرب «سوريا» فقال : انها تستشرف نهايتها ، فقد اقترب « حورمحب » من حصار « قادش » وزاح يذكر ، بكثير من الفخر ، المهمة التي كان يضطلع بها هو بنفسه في « سوريا » ، وأخبرني ، مفاخرا كذلك ، أنه اشترى قصرا قديما في حي الاغنياء واستأجر مئات العمال لاعادة بنائه وتجميله حتى يكون لائقا بمركزه !··

واستطرد « كابتاح » فقال : لقد سمعت عنك في « طيبة » أخبارا لا تسر يا سيدي « سنوحي » !·· فأنت ـ كما يقال ـ تؤلب الناس على «حورمحب» !·· والقضاة وغيرهم من الرجال ذوى المكانة والنابهي الذكر ثائرون عليك ويرسلون ألسنتهم حدادا فيك ، لانك تنالهم بقالة السوء وترميهم باتهامات الاثم والظلم !·· ونصيحتي اليك أن تكون أكثر تحفظا وابتعادا عن هذا الطريق الشائك الكثير العثرات !·· وقد لا يفكرون ـ جديا ـ في اتهامك بالائتمار « بحورمحب » لما يعرفون من علاقتك القديمة به وسابقة عملك في صفوفه ، ولكن ليس بعيـدا أن يفجئوك في ليلة مظلمة ليقتلوك ويحرقوا عليك دارك ، فلا سبيل غير ذلك لخلاصهم منك ما دمت سادرا في الطعن فيهم واثارة الفقراء عليهم ! ·· ومع ذلك فنبئني ·· ما خبرك ؟! وماذا دهاك وحرك هذا النمل في رأسك ، فلعلى مستطيع أن أساعدك مثلما يساعد خير خادم سيده ؟!··

فاخبرته بما كان من تفكيرى ومحاولاتي غير مخف عنه شيئا ، وكان يصغي الى ويهز رأسـه حتى اذا فرغت قال لى : انى أعرف أنك رجل مجنون وحيد يامولاى «سنوحي» ! ·· ولكنى كنت أحسبك قد برئت أو تخففت من هذا الجنون بفعـل السنين ، فكم يؤسفني الآن أن أراه أشد سيطرة عليك من ذى قبل ، وأعجب ما في أمرك انك تعرف جيدا ـ أكثر مما يعرف أى انسان آخر ـ ما وقع من أحداث دامية تحت اسم «آتون» ، وكان خليقا بك أن تتعظ بها وترد نفسك عن مهاويها ، والرأى عندى أن هذه النزوة تعتادك لأنك تحيا حياة الفراغ وستنجو منها حتما اذا ماعدت الى عملك من جديد ·· وأنت في مهنتك ، اقرب قربى الى الخير الذى تدعو له ، فعلاج فقير عان أفضل بكثير من أحاديث تذهب مع الهواء أو تحدث قلقا وفوضى ، أو تدفع بك الى الموت !··فان كنت قدكرهت عملك كطبيب ـ ولا أدرى كيف يكون هـذا ـ ففى وسعك أن تقضى وقتك في

ايما عمل نافع ككل الرجال الاغنياء !٠٠ ومن الممكن أن تجمع الجواهر والتحف المصنوعة منذ عهد الاهرامات ! ٠٠ وانك ــ لو شئت ــ واجد وسائل كثيرة لتزجية الفراغ وملء الوقت بالعمل ، وليست النساء وأشربة النبيد بمبعدة عن هذه الوسائل !٠٠ فبحق «آتون» الا ما أنفقت المـــال والوقت مع الحسان وعلى موائد الشراب ، فذلك أشرح للصـــدر وأكفل للسلامة والعافية ، واحفظ لحياتك من هذا الهوس الذى لا جدوى منه ولا خير فيه !٠٠ أقول لك هذا وأدعوك اليه مخلصا لانى احبك يامولاى «سنوحى» ولا اريد أن ينالك مكروه ، وأود أن تفهم أنه ليس فى هـــذه الدنيـــا شيء يبلغ مبلغ الكمال ، فقشرة الخبز محروقة ، وما من فاكهة طيبـــة المـــذاق الا ولها آفة ، حتى الذى يقضى ليله فى الشراب مرحا سعيدا ، يشعر عند الصباح بالعناء الذى لم يكن يشـــعر به فى نشوة الليل !٠٠ ومن هنا تستطيع أن تدرك أنه لا توجد عدالة مطلقة أو خير محض ٠٠ وكثيرا ما تفضى الاعمال الحسنة الى نتائج سيئة ، وقد يكون من آثارها الموت أو الهزيمة !٠٠ وفيما كان من أمر «أخناتون» دليل ومثل على صدق قولى !٠٠ وهاأنذا يا سيدى «سنوحى» قد صرت الى ما ترى ، لاننى عرفت كيف أمضى فى مسالك الحياة متوافقا مع الآلهة والناس ، حريصا على كسب ثقتهم ورضاهم ٠٠٠ فقضاة فرعون اليـــوم ينحنون امامى ، والناس يشيدون باسمى ، بينما أنت ، أنت ياسيدى ، على تلك الحـــال من القعـــود والتخلف حتى لتبدو ملابسك فى غمر من قذارة الكلاب !٠٠ فخذ الحياة كما يجب أن تؤخذ فى سهولة وهدوء ، ولا عليك من أخطاء الدنيا وحماقات أهلها ، فانهـــا كانت وستظل كذلك ولست مسئولا عنها !٠٠

وتأملت فى مقالة « كابتاح » وبهرنى منه ثراؤه وموفور صـــحته واتساق عقله ومنطقه ، فقلت له : فليكن ماتقول يا «كابتاح» وسأعود الى مهنتى من جديد ، ولكنى سمعتك تذكر «آتون» فى سياق حديثك ، وهو أمر ــ كما تعلم ــ محظور ، فهل لايزال فى الناس من يذكر اسمه ؟! وهل يجيء ذكره مقرونا بالخير أو باللعنة ؟!٠ نبئنى بهذا يا صاحبى ٠٠

قال «كابتاح» : ان اسم «آتون» قد زال من الوجود بمثل السرعة التى زالت بها أعمدة «أخناتون» ، على أننى مع ذلك رأيت بعض الفنانين ما برحوا يرسمون ــ فى حذر وخفية ــ بطريقة « آتون » ، وفى بعض الاحيان يقع النظر على صليبه مرسوما على الرمال أو على حوائط المباول ،

ويقال : ان بين القصاصين من يدسون فى قصصهم اشارات خطيرة... ولذلك يمكن القول ان «آتون» لم يمت تماما !..

قلت له : حسنا !. سأزاول عملي طوعا لمشورتك ، وسآخذ فيه نفسى بلون من التجديد غير مسبوق عند غيرى من الاطباء !.. سأجعله لأولئك الذين لا يزالون يذكرون « آتون » ! ..

ولم يلق «كابتاح» باله لكلامي هذا ، فقد ظنه مزاحا بعد أن لم يعد خافيا عنا ــ كلينا ــ أن «آتون» كان شرا أى شر ، على «مصر» عامة وعلى شخصى بخاصة !..

ودار الحديث بيننا بعد ذلك فى شئون شتى ، وجاءتنا « ميوتى » بالنبيذ فشربنا معا ، الى أن أقبل الارقاء فأنهضوا « كابتاح » اذ لم يكن يستطيع النهوض وحده لفرط بدانته ، وأجلسوه على المحفة وعادوا به محمولا على أكتافهم .. وتلقيت منه فى اليوم التالى مجموعة من الهدايا التى توفر الراحة والسعادة لمن يريد أن يستريح ويسعد !! ..

- ٦ -

وعلقت لافتة الطبيب على باب منزلى اعلانا بأنى قد عدت لمواصلة عملى ، وتوارد المرضى فى كثرة كاثرة . وكنت أتقبل هداياهم وأجورهم فى حدود قدراتهم وأعفى الفقراء من ذلك . وكان فنـــاء منزلى يحتشد بالوافدين منهم عليه من الصباح الى المساء .. وفى بعض الفترات كنت أخالسهم فأسألهم فى احتياط شديد عن «آتون» ، فقد كنت أخشى عليهم الخوف اذا صورحوا بأسئلتى ، كمـــا كنت لا آمن على نفسى من الوشاة الراصدين بعد أن أصبحت سيرتى مثار الشـــك والظنون ، ولكنى آخر الامر أيقنت أن « آتون » قد انمحت ذكراه من عامة الاذهان ، فـــلا أحد يذكره أو يعرف شيئا عنه !.. كما أيقنت بعد ، ان الذين يذكرونه هم ــ ولا غيرهم ــ مثيرو الفتن وسيئو النـــوايا من أهل الظلم والفساد ، وأن علامة صليبه لم تكن ترسم الا فى معرض الطيرة والتشاؤم والانذار بوقوع الشر للناس !..

وعندما انخفضت مياه النيل ، مات الكاهن « آى » وقيل انه مات جوعا لان خوفه من السم كان يمنعه من تناول الطعام !.. وما ان انتهى

حبر موته الى «حورمحب» حتى أعلن انتهاء الحرب فى «سوريا» ، ولم يكن قد استعاد «قادش» فأذن للحيثيين فى أن يحافظوا عليها ، وعاد فى موكب النصر خلال النهر الى « طيبة » وأقيمت له فيها حفلات استقبال وتكريم كبرى ابتهاجا بانتصاراته ، وأبى أن يقام الحداد لأية فترة من الوقت بعد موت « آى » وعلل ذلك ــ فى تصريحات معلنة للشعب ــ بأن «آى» لم يكن الا فرعون زائفا وكان عهده شؤما ونحسا ، عانت فيه «مصر» ما عانت من خطوب الحرب وفداحة الضرائب !٠٠

وكما شاء «حورمحب» استقر فى أفهام الناس أنه كان لا يريد الحرب وانما هو قد أكره عليها اكراها ، طوعا لأمر «فرعون» هذا ، الذى تخلصت البلاد أخيرا من شره !٠٠

وبالغ «حورمحب» فى توكيد هذا المعنى باعلانه نهاية الحرب فور موت «فرعون» وبغلقه معبد «سيخمت» ٠

ولطول ما شقى الناس بالحرب وأهوالها وضحاياها ونفقاتها ، فرحوا أيما فرح بانقضاء عهد فرعون الزائف وبعودة قائدهم المحبوب الراغب فى السلام !٠٠

وأرسل «حورمحب» فى طلبى عقب عودته ، وقال لى : لعلى أبدو فى عينك .. ياصديقى «سنوحى» ــ أكبر سنا وأكثر كهولة مما كنت ترانى يوم أن افترقنا !٠٠ والامر فى هذا غير مستغرب ، فانى قضيت السنين فى أتون حرب مستعرة وما أكثر ما كنت أشعر به من الضيق لاتهامك اياى بأنى أحارب حبا فى سفك الدماء ، اذ كنت ترى فى هذه الحروب ضررا يقع على «مصر» ويوبقها ، ولم يكن الامر كذلك فى رأيى ، وهأنتذا ترانى أعود محققا النصر الذى كنت أرجوه ، مستعيدا لمصر عظمتها وسلطانها وقد انتفت جميع الاخطار التى تهدد أراضيها وحدودها ، ولم يبق بعد أن قصفت حراب «الحيثيين» سوى «قادش» ، وهذه أدعها لابنى « رمسيس » ، فقد شبعت من الحرب وأريد أن أفرغ لبناء مملكة قوية لابنى ٠ و «مصر» الآن فى مثل قذارة اسطبل لرجل فقير ، وسيكون أول ما أعنى به معجلا هو تجميع الاقذار والقضاء عليها جملة ، متوخيا وضع الصواب مكان الخطأ واعطاء كل انسان حقه كاملا ٠ وبعودتى ستعود لمصر أيامها الاولى وأوضاعها القديمة ٠ وتحقيقا لذلك ، سأصل ما انقطع من سلسلة ملوك «مصر» فأمحو منها اسمى الشقيين « آى » و «توت عنخ آمون» حتى لا يبقى لحكمها ذكر فى تاريخ الفراعنة ، وبهذا

يجىء اسمى تاليا لاســـم « أمنحوتب الثالث » ويبدأ تاريخ حكمى من الليلة التى مات فيها هـــذا الفرعون العظيم ، حينما جئت الى « طيبة » وحربتى فى يدى وصقرى يخفق بجناحيه أمامى !٠٠

وتوقف «حورمحب» عن الكلام ، مسندا رأسه على يده وقد رسمت الحرب خطوطا على وجهه ، وبدا كأنه يفكر مكتئبا ، ثم استطرد قائلا : الواقع أن العالم قد تغير عما كان وقت أن كنا صغارا ، ففى ذلك الوقت كان الفقراء ينالون حقهم غير منقوص ، وكان الرخاء شاملا حتى أن الاكواخ الطينية لم يكن ينقصها الزيت والسمن ، وليس الامر هكذا اليوم ! ٠٠ على أن «مصر» ستبعث بعثا جديدا وستظلهـــا سحـــائب الخير والرخاء والغنى كما كانت حالها من قبل ، وسأرسل السفن الى أراضى « بنت » وسأعيد حركة العمل الى المحاجر والمناجم لأستطيع أن أبنى معابد أكبر ، وأجمع الذهب والفضة والنحاس لخزانة فرعون ! ٠٠ وفى عشرة أعوام ستري ــ يا «سنوحي» ــ «مصر» أخرى غير هذه ، ليس فيها متسول أو عاطل ، ولا عاجز أو محتاج !٠٠ ومن اليوم سأطهرها من كل دم مريض ، وأخلق فيها شعبا قويا يقوده أبنائى ويسيطرون به على العالم !٠٠

وكان «حورمحب» ــ فيما رأيت من اهتمـــامه بالكشف عن خططه ونواياه ــ يتوقع أن يسمع منى شيئا يوافق هواه !٠٠ ولكننى كنت خلال حديثه أشعر بضيق الصدر وأحس كان معدتى تسقط الى ركبتى ، وقلبى تعتصره قشعريرة مميتة ، فوقفت أمامه جامد الحركة معقول اللســـان كأنما قد امتلأ فمى بالماء ! ٠٠

وساء «حورمحب» ذلك منى ، وفشا فى وجهه القطوب ، والتفت الى مغضبا كما كان يفعل قديما وقال : كنت أحسبك يا «سنوحى» قد تحررت من طبعك المرير ، فاذا بك لا تزال كشجرة الشـــوك العقيم ، فهل كنت مخطئا حين قدرت أنى سأكون مسرورا بلقائك ؟!٠ لقد كنت أنت أول من بعثت فى طلبه ، لألقاك قبل أن أمضى الى لقاء ولدى لأحملهما مبتهجا بين ذراعى ، وقبل أن أضم زوجتى « باكيت آمون » الى صدرى !٠٠ ذلك لان القوة والحرب قد جعلانى وحيدا ، ولم أكن أجد فى الناس فردا واحدا أستطيع أن أكاشفه بأسرارى وأقاسمه أفراحى وأتراحى !٠٠ وعندما كنت أتكلم ، كان لا مناص من أن أزن عباراتى وأحكمها بمقدار ، وفاق مناسبتها العامة ، فلست أبتغى فيك ــ فى ظروف وحدتى ــ الا الصداقة المجردة تؤنس النفس الموحشة وتريح القلب المتعب !٠٠ ولكن يلوح لى أنه حتى

صداقتك ـ على طول عهدنا بها ـ قد تبخرت وتلاشت ، ويخيل الى أنك غير مبتهج بعودتى يا «سنوحى» !..

فانحنيت بين يديه وقلت له : كيف هـــذا ياسيدى ؟ وأنا الذى لم يبق لى حيا من أصدقاء الشباب سواك ، وقد أحببتك مخلصا فى حبى وسأظل كذلك ما حييت ، وبروح هذه الصداقة التى لم تتغير ولن تتغير، أسمح لنفسى بأن أقول لك : ان القوة الآن ملك يمينك ، وغدا ستضع تاج المملكتين فوق رأسك ، وليس هنا أو هناك من يقدر على مطاولتك أو يقف فى طريق قوتك ، ولهذا فاننى أرجو منك ياصديقى «حورمحب» أن تبعث « آتون » مرة أخرى ، وفاء بحق صديقنا « أخناتون » وتكفيرا عن جريمتنا المرعبة ، وليصبح الناس جميعا أخوة لنا ويتحقق السلام ولاتكون هناك ثمة حاجة الى حرب جديدة !..

وقال «حورمحب» وهو يهز رأسه مشفقا : كنت يا « سنوحى » مجنونا ولا تزال !.. لقد ألقى «أخناتون» حجرا فى الماء أحدث به رشاشا واضطرابا ، ومهمتى الآن هى أن أعيد الهدوء الى سطح الماء !.. ولعلك لم تنس ، بعد ، أن هذه هى الرسالة التى ساقتنى صقرى من أجلها الى البيت الذهبى فى الليلة نفسها التى رحل فيها فرعون العظيم عن هذه الحياة !.. كان ذلك أمرا مقدورا لكيلا تتردى «مصر» فى الهاوية . فاليوم وقد شهدت الأحداث وعشتها ، ورأيت ما أصاب البلاد من البلايا ، وتعلق مصيرها ـ أخيرا ـ بارادتى ، فليس ـ بعد ـ من سبيل غير أن أعمل لأرد اليهـــا ما فقدته من طرائق حياتها الاولى . فالناس كمـــا ترى غير راضين عن حاضرهم ، وهم يرمقون ماضيهم ويحنون اليه مثلمـــا يرمقون المستقبل ويرغبون فيه موصولا بالماضى . ومن أجل هـــذا ، فسأعيد لهم الرباط المفقود بين أمسهم البعيد وغدهم المقبل ، وسآخذ من الاغنياء ما يفيض عن حاجاتهم ، وكذلك سأفعل مع الآلهة التى استفاضت وتجاوزت حدودها ، ففى مملكتى ينبغى ألا يزداد الغنى غنى ، أو الفقير فقرا ، ولن أسمح لاله أو انسان أن يزاحمنى على سلطانى أو ينافسنى فى حكمى ... هذه هى خطتى ، وذلك هو منهاج عملى .. ولكنك لا تفهمنى لانك رجل ضعيف ، والضعيف لا يستحق أن يعيش فى هذا العالم ، ولكنه انما خلق ليوطأ بأقدام الاقوياء ، وهذه هى حال الامم والافراد منذ كانت الحياة ، وستبقى هكذا دائما !..

وانتهى الحديث بنا عند هذا الحد فافترقنا دون أن تلتقى آراؤنا ، وكان ذلك سببا فى انتقـــاص صداقتنا . ومضى هو الى ولديه فرفعهما

بذراعيه القسويتين واحتضنهما فرحا ثم تركهما ذاهبا الى حجرة الاميرة «باكيت آمون» فابتدرها قائلا : يازوجتي الملكية ٠٠ ان شسوقي اليك لعظيم ، وقد كنت تطلعين في خيالي قمرا مضيئا خلال سنى فراقنا الطويلة ، وهانذا قد انتهى عملي كما انتهت غربتي وستجلسين الى جانبي جلستك الملكية المقدسة ، وأحسبني ـ وقد سفكت من أجلك الدماء وأحرقت المدائن ـ أصبحت عندك أهلا للمكافاة !٠٠

وفي شيء من الاستحياء ، خبطت «باكيت آمون» على كتفه وقالت له في ابتسام حلو : نعم ٠٠٠ لقد استحققت مكافاتي يا زوجي « حورمحب » ويا قائد «مصر» العظيم !٠٠ واني ـ اعرابا عن مشاعر تقديري لك ـ قد أعددت لاستقبالك ايوانا في الحديقة ، شيد على نسق لم يسبق له مثيل ، فكل حجر في بنائه أحضرته بنفسي وكل جزء أقيم فيه كان باشارتي ورأيي ، وكان هذا تسليتي المحببة في حنيني الشديد اليك ، فهيا بنا نذهب اليه لأمنحك فيه المتعة المشتهاة !٠٠

وتهلل وجه « حورمحب » لهذا الاستقبال الجميل ولهذه العبارات المغرية ، وخرج مبتهجا مع «باكيت آمون» الى الحديقة حيث قادته الى الايوان !٠٠ وقد توارى عندئذ أفراد الحاشية واختفى الأرقاء وسواس الخيول وكادت تقف أنفاسهم في صدورهم رهبة وفزعا مما يتوقعون حدوثه بعد ذلك ، فهم يعلمون سر هذا « الايوان » وسر الأميرة ورغبتها في مكايدة زوجها ايلامه !٠٠

وعندما احتواهما «الايوان» حاول ـ في شغفه ولهفته واعجابه ـ أن يحتضنها ، فردته في رفق قائلة له : اكبح جماح رجولتك لحظة يا «حورمحب» حتى أروى لك قصة هذا «الايوان» وانبئك نبأ الجهد الكبير الذى بذلته في اقامته !٠٠ ولعلك تذكر أنني قلت لك شيئا ليلة أن نلتني على غير ارادتي ؟!٠ فانظر ـ اذن ـ تر تجسيد وعيدي !٠٠

وظنها « حورمحب » ـ أول الامر ـ تمزح معه ، ولكنه حين نظر الى عينيها استبان فيهما الجد ممزوجا بالكراهية المرعبة ، فثار ثورة الجنون واستل سكينا ليهوى بها على عنق المرأة التي تجاهر بالكيد له !٠٠ ولم تفزع « باكيت آمون » ، ولكنها واجهته بصدرها عاريا وقالت له : اضرب يا « حورمحب » فانما تضرب التيجان التي تهيىء لها رأسك ، فاني كاهنة « سيخمت » ودمي مقدس ، ولن يكون لك حق ـ اذا قتلتني ـ في عرش « فرعون » ! ٠٠

وهنا تراخت يد « حورمحب » وأحس كأنما قد قيدته بأغلال ، فارتد عنها فى حسرة قاسية ، مؤثرا اجتراع كأس انتقامها المسموم على فقد حقه فى العرش ، ولم يجرؤ بعد ذلك على هدم «الايوان» الذى كان ملتقى نظره دائما ، غاديا أو رائحا أو مطلا من نوافذ القصر ، فقد كان هدمه يعنى عند الآخرين أنه يعلم عنه مايريب .. وهو — بعد التفكير العميق — قد رأى من الخير أن يتظاهر بجهله ، ولا عليه أن يتحدث الناس عن خطأ امرأته ، من وراء ظهره !..

وعاش «حورمحب» فى القصر الملكى وحيدا ، فأن يده — بعد ذلك .. لم تعد تمتد الى « باكيت آمون » ، كما أنها هى نفسها — والحق يقال — لم تعد تفكر فى بناء ايوان آخر !..

وعلى غير ماكان يتوقع «حورمحب» ، استحال صفاؤه كدرا وابتهاجه اكتئابا ، فلم يشعر بما كان يأمل أن يحس به من المتعة والكبرياء خلال الاحتفال باعتلائه عرش فرعون ، أو عندما كان الكهنة يدهنونه بالزيت المقدس ويضعون على رأسه التاجين : الاحمر والابيض !.. لقد كان فى مطوى نفسه غير سعيد بكل هذا ، لانه — لفرط شكه وارتيابه — لم يعد يرى فى كل من حوله واحدا جديرا بثقته أو يمكن أن يطمئن الى دخيلة نفسه !.. وقد أصبح يعتقد أن كل نظرات الناس اليه ليست فىحقيقتها نظرات حب وولاء ، وانما هى نظرات السخرية والاحتقار !..

وهكذا وجد — هو الآخر — العظم فى اللحم ، والشوك فى الورد ، وغص قلبه بالأسى ولم يعرف السبيل الى الدعة والسلام !..

ولكنه لم يتوقف يائسا أو يرتد عن طريقه مهزوما ، فراح يملأ وقته بالعمل ويذيب فيه أحزانه ، ويحقق به الاهداف التى كان يحدثنى عنها ، وهى بناء مملكة قوية ، وتخليص « مصر » من الاقذار وتطهيرها من كل دم مريض ، ووضع الصواب مكان الخطأ ، واعطاء كل ذى حق حقه كاملا ، واعادة طرائق الحياة القديمة الى البلاد ، وغير ذلك مما انتواه وأفاض فى ذكره ووعد به !..

- ٧ -

ومن الانصاف ان أشيد هنا بفضائل «حورمحب» ، فقد سار قدما على المنهج الذى وعد به فى غير انحراف أو ميل ، حتى انطلقت السنة

الناس بالثناء عليه ، واعتبروه ـ بعد سنوات قليلة من حكمه ـ ملكا عظيما يعد في الطليعة من فراعين «مصر» الخالدين • وكان عامة الشعب، وهم الغالبية العظمى ، أكثر اعجابا به وتحدثا بأفضاله ومآثره ، لانه كان يأخذ من الاغنياء ويضرب على أيديهم ، ويعطى الفقراء حقوقهم ، ويعاقب القضاة اذا جانبوا العدل فى أحكامهم ، ولم يدع الضرائب فوضى كما كانت ، بل عدلها ونسقها ووضع لجبايتها نظاما دقيقا واجرى على جباتها أجورا ومرتبات تدفع اليهم فى مواعيدها من الخزانة الملكية ، وبذلك لم يعودوا يستطيعون النهب من الناس والاثراء من الاختلاس والسرقة !••

وكان لا يكتفى باصدار الاوامر والتعليمات ورسم خطط العمل ، بل كان ينزل بنفسه الى الشعب مرتحلا بلا انقطاع من اقليم الى اقليم ومن قرية الى اخرى ، طائفا بين الناس ومتحدثا اليهم وباحثا فيهم عن آثار حكمه وعما يلاقونه من معاملة موظفيه وعماله ، وتحت اعينهم ، كان يقيم المحاكمات للمخطئين والمنحرفين ... فكانت رحلاته تقترن فى اغلب الاحوال بقطع آذان المرتشين وبتر أنوفهم ، ومن ساحات المحاكمة والتنفيذ كانت تنطلق فرقعة السياط وصيحات الالم والبكاء . ولم يكن فيما يصدره من احكام جائرا أو آخذا انسانا بغير جريرة ، وانما كانت احكامه كلها تصدر عن عدالة مطلقة • وكان أشد الناس فقرا يجد السبيل ميسرا للوصول اليه ، والاعراب لديه عن حاجته أو شكواه . واتجهت عنايته الى تجديد مادرس من العلاقات التجارية بين «مصر» والخارج ، فأرسل السفن ـ ثانية ـ الى بلاد «بنت» ، وانبعثت فى الميناء الحركة التى كانت قد انقطعت ، وشوهدت على رصيفه ـ مرة أخرى ـ زوجات البحارة واطفالهم ينتظرون الازواج والآباء ، لاطمين الوجوه بالحجارة كما جرت بذلك العادات القديمة ، ومن كل عشر سفن تبحر الى بلاد « بنت » كانت تعود ثلاث فى كل سنة ، محملة بكنوز من الثروات فانتعشت الحياة فى «مصر» وعاد اليها الرخاء وارف الظل ، ولاحت عليها مظاهر الثراء المطرد !. واخذ «حورمحب» ـ الى جانب ذلك ـ فى بناء معابد جديدة ، معطيا للآلهة حقوقها .. وكان «حوراس» أكثر الآلهة حظا من عنايته ، وكذلك كان معبد « حتنتست » الذى أقيم فيه تمثال «حورمحب» ليعبد كاله !.. وكان الناس يقدمون القرابين اليه من الثيران وبمجدون اسمه ويروون عنه الاساطير والخرافات !..

وادع قليلا «حورمحب» لأتحدث عن «كابتاح» ، ذلك الذى زاد فى هذا العهد ثراء وغنى حتى لم يبق فى « مصر » كلها من ينافسه فى ثرائه وغناه ، ولعله قد أوتي هذا الحظ الكبير منهما لان «حورمحب» كان يضفى عليه شيئا من الاسماح والاغضاء ، فلا يتقاضى منه الا القليل من الضرائب ، على خلاف ما كان يفعل مع الاغنياء الآخرين ! .. وذلك لان «كابتاح» لم يكن له زوج او ولد ، فاعتبر «حورمحب» وارثه الوحيد ، ومن هنا كان الامن والسلام مكفولين له بقية حياته ، كما كان ثراؤه يزداد وينمو بلا عائق !..

كان «كابتاح» قد اقام منزله وحديقته على مساحة كبيرة تعدل فى اتساعها ورحابتها حيا بأكمله ، وقد استطاع بماله أن يشترى ماكان يتناثر حوله من منازل الآخرين وأكواخهم ، ثم هدمها وأضافها الى منزله وحديقته ، وبذلك استمتع بهما فى أمن من الجيران الذين قد يعكرون صفوه او يقلقون راحته !..

ولم يبخل «كابتاح» على نفسه بشىء من الوان الترف ، فكانت الآكال والطعوم تقدم اليه فى أطباق من ذهب ، كما كانت حجرات منزله الكبير مجهزة بصنابير الماء الفضية والأبنوس ، وكانت حوائط الحجرات كان حمامة ومستراحه من الفضة والأبنوس ، وكانت حوائط الحجرات مبنية من أحجار مختلفة الالوان جميلة المنظر ، تشكل فى مجموعها لوحات فنية رائعة ، وكانت آكاله وطعومه تقدم طيبة فاخرة ، كما كان شرابه يقدم جيدا معتقا من نبيذ الاهرامات !.. ولزائريه جميعا أن يصيبوا منها ماشاءوا وكيفما ارادوا !.. واسرافا فى طلب التسلية واللهو كان اذا ماجلس الى مائدة الطعام ، أحاط به المغنون واللاعبون ورقصت أمامه اشهر وأمهر راقصات «طيبة» !..

وكثيرا ماكان يدعونى الى منزله لنقضى ــ معا ــ اطول وقت مستطاع ، وقد قال لى ذات مرة : أى مولاى «سنوحى» .. ان ثروتى هذه قد نبعت منك فأنت مصدرها الاول ، ولذلك سأظل أعترف بأنك مولاى ، وثمة حقيقة يجب ألا يفوتنا ذكرها هى أن الانسان قلما يكون فقيرا اذا حصل على ثروة معينة ، بل انه ليزداد ثراء دون ن يتجشم فى سبيل ذلك عناء رفع أصبعه لمساعدة نفسه ، ويبدو هذا عجيبا ولكنه نظام الدنيا ! .. على أن الناس جميعا ليسوا سواء فى استغلال مواهبهم

وثرواتهم ، وهانتذا مثلا لاينقصك مايحتاج اليه لتكون غنيا ، وربما كان من حسن حظك انك لم تكن فى شىء من الغنى ، فانك لو كنت قد أوتيت قدرا منه لما جعلته سبيلا الى مزيد ، وانما كنت تجعل منه بذورا للقلق وأسبابا لاثارة المتاعب لك ولمن حولك !..

وكما هى الحال فى مثل بذخ «كابتاح» وترفه ، أقبل عليه الفنانون من كل مكان ، وكان يفسح لهم صدره ويبالغ فى ارضائهم والتحفى بهم ، فنحت المثالون منهم تمثالاً له تأنقوا فى زخرفته وتجميله واظهروه فيه مظهرا نبيلا ممتازا ، فاعضاؤه رشيقة مسواة ويداه وقدماه صغيرتان دقيقتان ، وعظام خديه متناسقة ذاهبة الى أعلى ، وعيناه مبصرتان قويتا البصر !.. وهو — فى تمثاله هذا — جالس جلسة الذى يفكر تفكيرا عميقا وعلى ركبته قرطاس ملفوف وفى يده قلم كأنه يكتب شيئا !.. هكذا مثلوه ، وهو ليس فى شىء منه لانه فى سائر أجزاء بدنه أقرب الى الدمامة والقبح منه الى شىء قد يسمى جمالا ولو على سبيل المجاز !.. ثم ان احدى عينيه مفقودة تماما ومن المحال أن تؤتى بصيصا من النور ، وكذلك هو لم يتعلم ولم يحاول مرة أن يتعلم القراءة والكتابة ، حتى انه استغل على تجارته وأمواله كتابا استطاعوا لجهله باعمالهم أن يجمعوا لانفسهم — من ورائه — أموالا طائلة !..

ومع أن التمثال كان ظاهر الزيف بعيدا عن الواقع ، فأنه قد أعجب «كابتاح» ووافق مركب النقص عنده ، واجزل المكافأة لصانعيه ... ومازال يجزل العطاء كذلك لكهنة «آمون» للأعراب عن محبته للآلهة ، حتى انهم سمحوا بأن يقام ذلك التمثال بالمعبد الكبير على نفقة «كابتاح»!.

وكنت — فى الحق — مسرورا بما أرى من غنى «كابتاح» وسعادته ، وانا بطبعى اشعر الشعور نفسه بالنسبة لاى انسان أصاب فى الحياة مايرضيه ويسعده. وعلى مافى غرور الناس من سوء خلق ، فأنى كنت لا أبغضه ولا أضيق به فيهم، لأنى اراهم يشعرون فيه بالرضا والسعادة ، ومانحن بخاسرين شيئا اذا تركنا الناس يسعدون بالوسيلة التى لم يتح لهم ان يجدوا سواها !.. واحيانا يكون من الرحمة بانسان أن تقتله دون أن تنتزعه من أطياف أحلامه وخيالاته السعيدة !.

ولكننى — انا نفسى — اعيش فى قلق دائم وقد اقفرت حياتى من الامل فى هدوء البال واستقرار الحال ، بالرغم من أنى فى عملى كنت أكثر من ذى قبل توفيقا ونجاحا ، فنال الكثيرون من المرضى شفاءهم على يدى ولم يمت ممن أجريت لهم عمليات جراحة فى الجمجمة — على كثرة

عددهم ـ سوى ثلاثة لا غير !٠٠ وبذلك ذاعت شهرتى كجراح للجمجمة !.. وكان هذا قمينا ان يشغلنى عما سواه ، ويرطب صدرى وقلبى بالامل والرضا . ولكن شيئا من ذلك لم يخرجنى من دنيا الناس ولم يبعد بى عن اخطائهم وعيوبهم وساء ظنى بهم جميعا الى حد أنى لم اكن انظر الى وجه انسان الاوارى فيه عيباانكره ومنقصة اكرهها ، فالفقراء متواكلون راضون بالذل ، والاغنياء طامعون لايقنعون ولايشبعون ؛ والقضاة قليلو المبالاة بالحق والقسطاس المستقيم ، وهذه كلها عيوب وخطايا تجعلنى ساخطا عليهم غير راض عن أحد منهم !.. حتى «كابتاح» قد صرت أعيب عليه أنه شره مبطان يسرف على نفسه بالطعام ولايفكر الا فى ملء جوفه منه !٠٠

ومرضاى وحدهم ، هم الذين كنت أحنو عليهم وأعنى بعلاجهم وأحس بالسعادة كلما استطعت أن أخلصهم من آلامهم !٠٠ وكذلك أطفال الشارع ، كانت تذكرنى عيونهم دائما بالصغير « تحوتح » فأطلب الى « ميوتى » أن توزع عليهم كعكا معسولا !٠٠

وقال الناس عنى : أن « سنوحى » هذا رجل متعب ، كبده متضخمة وقلبه يطفح حقدا ، فلسانه لا يدور الا بقالة السوء ، وأعماله السيئة تلاحقه ، فهو لا يجد في حياته لذة الا فى التحدث عن عيوب الآخرين كما تصورها نفسه المريضة ، ومن الخير ألا نعيره اهتماما وأن ندعه الى نفسه ليموت بالسموم التى تنفثها !٠٠

وكان الذى يقولونه حقا ، فاننى كلما أطلقت لسانى فى عيوب الناس، لا ألبث أن أشعر فى دخيلة نفسى بمرارة وألم موجع ، فأنفجر باكيا منتحبا !٠٠

وكذلك ساء رأيى فى « حورمحب » فبدت اعماله ــ فى نظرى ــ شرا كلها ، ولم أمسك لسانى عنه فتحدثت جهرة عن معائبه وعن حاشية السوء التى يحيط بها نفسه ، والتى تنطلق معربدة فى الحانات وبيوت الملذات وتفحش فى هتك أعراض بنات الفقراء حتى لم تعد امرأة تستطيع أن تظهر أو تمشى فى شوارع « طيبة » آمنة شرهم !٠٠ وكان «حورمحب» يعلم هذا ولا يلقى بالا للشكوى منه ، حتى خيل لى وللناس أنهم يفعلون فعائلهم النكراء بأمره !٠٠

وبعث « حورمحب » بحراسه ــ يوما ــ الى منزلى ، فطردوا المرضى من فنائه وأخذونى اليه تنفيذا لامره ، وكان الربيع يومئذ قد أقبل وانخفضت مياه النهر !٠٠

ورأيت فى «حورمحب» عندما بلغت مجلسه ، رجلاتقدمت به السن، واصبحت عضلاته الفتية كخيوط متشابكة فيجسمه الفاره ، وكان رأسه حينذاك منحنيا ، فرفعه وسدد الى من عينيه نظرات ملتهبة وقال : لقد حذرتك يا «سنوحى» مرات ذات عدد فلم تكترث لتحذيرى وطفقت ترسل الاحاديث المسمومة فى الناس طاعنا على المحاربين وممتهنا عملهم ومبغضا فيهم ، وقائلا لمن يستمعون لك ان من الخير لهم أن تموت الأجنة فى أرحام زوجاتهم من أن يولدوا ليصبحوا محاربين !·· ثم تقول لهـم كذلك ان ولدين أو ثلاثة فيهم غناء لأية سيدة ، وان ثلاثة سـعداء موفورى الرزق خير من تسعة أو عشرة فقراء قد يموتون جوعا !·· ولا تقف يا «سنوحى» عند هذا ، فتقول للناس أيضا : ان اله فرعون الزائف « آتون » أعظم من كل الآلهة الآخرين ، وان النـاس سواسية فلا يجوز أن يكون منهم سادة وعبيد ، أو أن تنعقد للارقاء أسواق بيع وشراء !· وان الذين يحرثون الارض ويزرعونها هم أصحابها ويجب أن يملكوها حتى لو كانت أرض فرعون أو الآلهة !·· وتقول للناس أكثر من هذا : ان حكم «حورمحب» لا يختلف ــ فى قليل أو كثير ــ عن حكم الحيثيين ·· الى آخر الدعايات السيئة التى تقوم بها من وقتطويل وتتوالى علىأنباؤها من حين الى حين، فأرد نفسى عنك بالصبر على رجاء أن تثوب الى رشدك !·· ولو كان غيرك هو الذى فعل فعلتك هذه ، لعرفت كيف أتخلص منه ــ من زمن بعيد ــ بارساله الى المحاجر أو بأية طريقة أخرى، ولكنك كنت يوما ما صديقى!·· ومن هنا كان صبرى عليك · أما الآن فقد فاضت الكأس ونفد الصبر ، وأصبح لزاما علينا ــ كلينا ــ أن نضع حدا لهذه المهزلة أو المأساة !·· وينبغى أن تفهم أننى كنت فى حاجة اليك حينما كان الكاهن « آى » حيا لانك كنت شاهدى الوحيد عليه ، وقد مات «آى» فلم أعد فى حاجة اليك ، وربما كان وجودك الآن حيا أو حرا بين ظهرانينا مصدر متاعب لى خاصة، لانك تعرف من الاسرار ما لا أحب أن يذاع أو يعرف ، ولو لم تكن أحمق يا « سنوحى » لفكرت فى موقف كل منا من الآخر ، ولأمسكت لسانك لتعيش عيشة هادئة !··

واستطرد « حورمحب » يقول فى غضـب وهو يخبط على سـاقه الرفيعة : انك لست الا برغوثا بين أصابعى أو ذبابة فوق كتفى ، ولن اسمح للشجرة العقيم التى لا تثمر غير السم بأن تبقى فى حديقتى، ولهذا كان حقا وعدلا أن أقصيك عن « مصر » لتظل الى آخر حياتك بعيدا عن أرض « كيم » ، وينبغى أن تدرك أن نفيك عن «مصر» خير لك من البقاء فيها ، ذلك لانى اذا أبقيت عليك اليوم مغضيا عما سلف من سوء فعالك ،

فسيجيء عن قريب ذلك اليوم الذى تقتل فيه حتما ، ولا أريد أن يكون هذا مصير الرجل الذى كان فى يوم من الايام صديقى !٠٠ كما لا أريد أن تبقى هنا لتعبث بأفكار الناس وتروضهم على الفتنة ، فأحاديثك المسرفة قد تكون الشرارة التى تشتعل بها الاعشاب الجافة ، وأنا لا أسمح باشتعال النيران مرة أخرى فى أرض « كيم » لا بسبب الناس ولا بسبب الآلهة !٠٠ ان نفيك يا « سنوحى » عن « مصر » ـ اذن ـ عمل توجبه المصلحة العامة ، هذا الى أنى لا أراك مصريا خالص المصرية ، وأكبر ظنى أن فى دمك مزيجا مختلطا يتمثل فى الأفكار المريضة التى تملأ رأسك !٠

ولم أستغرب مقالة « حورمحب » ، بل لقد أحسست كأنه يقول الحقيقة ، فلماذا لا يكون عذاب قلبى ناشئا من أن عروقى قد اختلط فيها دم فرعون المقدس بدم « ميتانى » الباهت الضعيف ؟!٠

وعلى أية حال فلم يسعنى الا أن أضحك لكلام « حورمحب » على الرغم من أنه كان مذهلا ، « فطيبة » مدينتى وفيها ولدت ونشأت ، ولا أريد أن أبعد عنها الى أى مكان آخر !٠٠

وغضب «حورمحب» من ضحكى ، اذ كان يتوقع أن أخر بين يديه ساجدا ملتمسا رحمته وغفرانه فهز سوطه فى يده وصاح قائلا : فليكن الأمر كما قررت أن يكون !٠٠ انى أنفيك من » مصر » الى الأبد ، واذا جاءك الموت هناك فلن تعود جثتك لتدفن هنا ، فسيكون مثواها فى مكان نفيك بجانب شاطىء البحر الشرقى حيث تبحر السفن الى أرض « بنت »، وسوف تأذن وقتئذ بأن تتخذ الاجراءات التقليدية المتبعة فى تحنيط جثتك !٠٠ وقد اخترت لك هذا الموضع بذاته لانى لا أستطيع أن أرسلك الى « سوريا » ، فالجذوة فيها مشتعلة وليست بحاجة الى من ينفخ فيها ، كما لا أستطيع أن أرسلك الى أراضى « الكوش » ما دمت تؤكد أنه لا فرق بين الالوان وأن البيض والسود يقفون على قدم المساواة فى سائر الحقوق، وليس بعيدا أن تدس أفكارك الخطيرة فى رءوس أبناء بلاد «الكوش» !٠ ولكن شيئا من هذه المخاوف لا وجود له فى الارض القائمة على شاطىء البحر الشرقى ، فهى خالية مقفرة وليس فيها من الكائنات الحية سوى أبناء آوى والغربان والثعابين !٠٠ وفى وسعك هناك أن تتحدث ما شئت الى هؤلاء وأن تدعوهم الى ما تريد آمنا ، فلا حساب ولا عقاب !٠ وسيحدد لك الحراس نطاق حياتك الجديدة ، فان جاوزته لخطوة واحدة فانهم ذابحوك بحرابهم !٠ وما أحسبك ستفكر فى الخروج منه أو مجاوزته لأنه لن ينقصك فيه شيء ، فسيكون فراشك وثيرا وطعامك وفيرا ، وسيقوم الحراس بتلبية طلباتك المعقولة من فورهم ٠

ولم يزعجنى من قرار «حورمحب» اننى سأنفى الى وحدة موحشة ، فقد ولدت وحيدا وقضيت حياتى كذلك ، ولكن الأسى كان ـ مع ذلك ـ يعتصر قلبى لاننى مقصى عن « طيبة » الحبيبة ، ومقصى على ألا تطأ قدماى الأرض السوداء الناعمة وألا أرتوى ـ الى الأبد ـ بماء النيل ! ..

وقلت « لحورمحب » : لم يبق لى من الأصدقاء الا قلة قليلة فى هـذا البلد ، فالكثرة الكاثرة من أهلها قد وهنت علاقتى بهم بل لعلهم قد كرهونى للمرارة التى يحسونهـا فى كلامى ، فليس لى ـ الآن ـ من حاجة سوى أن تأذن لى فى لقاء هؤلاء الأصدقاء القلائل لأودعهم ، وسوف يسرنى أن أملأ عينى قبل الرحيل بمنـاظر « طيبة » وأنعم لحظات بالسير فى شارع « رامس » ، وأن أتنسم رائحة القرابين بين أعمدة المعبد الكبير ، ورائحة السمك يشوى فى المساء أمام الأكواخ الطينية فى حى الفقراء !

وقال « حورمحب » متأبيا : انى محارب ولا أعرف مثل هذا الضعف فى اللحظات الحاسمة ! .. فلن آذن لك بوداع لا أرى فائدة منه ولا حاجة اليه ، ومن الحكمة أن يتم رحيلك عاجلا فى غير جهر أو معالنة ، فأنك معروف فى « طيبة » وربما كانت شهرتك فوق ما تتصور ، وقد يؤدى اتصالك بالناس الى الاضـطراب والمظاهرات ، ولذلك فسترحل فى محفة مغلقة ! .. على انه اذا كان يوجد بين الناس من يرغب فى مرافقتك الى منفاك ، فأنى لا أمنعه من هذا ، على أن يظل هناك حتى لو مت أنت قبله ، فأنه هو أيضا يجب أن يموت حيث تموت بالمنفى نفسـه ! .. ذلك أن الأفكار المثيرة كالأمراض المعدية سريعة الانتقال من شخص الى آخر ، ولست أريد أن تتسرب عدواها الى أرض « مصر » مرة أخرى ! .. ومع ذلك فمن هم أصـدقاؤك الذين ترغب فى توديعهم ؟! . اذا كنت تعنى بهم أرقاء الطواحين المتشابكة أصابعهم ، أو بعض الفنانين السكارى الذين يرسمون الها يجلس القرفصاء على قارعة الطريق ، أو الزنجيين اللذين كانا يترددان على منزلك ، فهؤلاء جميعا قد انتهى أمرهم ، ورحلوا رحلتهم الطويلة التى لامعاد منها ولا مآب ! ..

وعندئذ ثار فى نفسى شـعور الاحتقار والكراهية « لحورمحب » وأحسست بأنى أكثر مقتا وكراهية لنفسى ، فهاأنذا ـ مرة ثانية ـ أرى أشـخاصا آخرين قد صب عليهم العذاب والموت بسببى ! .. ولذت بالصمت فى حزن عميق ، وقبل أن يمضى بى الحراس الى الخارج فتح « حورمحب » فمه مرتين ليقول شيئا ، ولكنه سكت قليلا ثم عاد ليقول : لقد تكلم فرعون ! ..

ودفعني الحراس فوق محفة مقفلة ، وحملوني الى خارج «طيبة» واجتزنا التلال الثلاثة ، ومن شرقيها اتجهنا الى الصحراء فى طريق مرصوف أنشىء بأمر « حورمحب » ، وبعد عشرين يوما وصلنا الى الميناء التى تبحر منها السفن حاملة البضائع الى أرض « بنت » وأبعد الحراس بى عن هذا المكان الذى كان يعيش حوله بعض الناس ، وواصلوا سيرهم لثلاثة أيام أخرى على ضفة الشاطىء حتى بلغنا قرية مهجورة كان يسكنها صائدو الاسماك فى وقت ما ، وعندها حطوا رحالهم وقاسوا المساحة المحددة لى وأقاموا عليها منزلا عشت فيه كل تلك السنين ٠

وكما قال « حورمحب » كان كل شىء موفورا بين يدى ، فعندى أدوات الكتابة وأوراق البردى الناعمة ، وصناديق من الخشب الأسود أودع فيها الصفحات التى أكتبها ، وكذلك أدواتى الطبية ! ٠٠ وكنت ـ أكثر الوقت أو كله ـ أشغل نفسى بالكتابة ٠٠٠ وكتابى هذا هو آخر كتبى ، ولم يبق ما أستطيع أن أقوله ، فقد نال منى الهرم وفشا فى بدنى الوهن ، وغشيت عيناى فلم أعد أبصر جيدا حروف الكتابة أو أميز بينها ! ٠٠

وكان عزائى فى هذا المنفى السحيق ، أننى قد وفقت فيه الى تسجيل تاريخي وتحرير نفسى ، جاهدا فى تعرف أسباب وجودى ! ٠ ولو أنى ـ وقد بلغت النهاية من هذا الكتاب ـ أرانى أكثر جهلا بتلك الأسباب منى يوم بدأت الكتابة عنها ! ٠٠

وفى وحدتى هذه كان البحر يبدو لعينى فى ألوان مختلفات ، فهو حينا أحمر ، وحينا آخر أسود ، وفى النهار يصطبغ بالخضرة ، وفى الليل يلتمع بياضا ، وفى الحر الشديد كان يتموج بالزرقة الفاقعة ، وهكذا كان البحر أمامى ـ أنا الرجل الوحيد ـ عالما فسيحا رهيبا متفاعلا بالحياة ! ٠٠

وهذه التلال الحمراء المحيطة بى قد ألفت فيها البراغيث التى تمجها الرمال ، واطمأننت الى الحيات والثعابين التى كانت تنبعث حولى من جحورها وتقف دونى كلما سمعت صوتى ، فلم يحدث ـ مرة ـ أن لدغتنى أو أصابتنى بمكروه ! ٠٠

ولست أنسى ـ فى تأريخ هذه المرحلة الاخيرة من حياتى ـ أن « ميوتى » جاءتنى من « طيبة » فى السنة الاولى مع أول قافلة من السفن الراحلة الى أرض « بنت » ، فما ان رأتنى حتى أجهشت بالبكاء ثم راحت تلومنى قائلة : لقد حذرتك ألف مرة ـ يا « سنوحى » من عواقب

حماقتك ، وطالما قلت لك ان الرجال الذين كنت تخطب فيهم وتتحدث اليهم ، انما هم أشد صمماً من الأحجار فلن يستمعوالك ، وكأنما كنت أنت كالطفل الغرير الذى يضرب رأسه فى الحائط ! •• وحقا ، لقد ضربت الحائط برأسك أكثر مما ينبغي ، فأن لك ــ بعد ــ أن تستقر وتسلك سبيل العقلاء ! ••

ومع أنى أنست بلقائها وأكبرت فيها اخلاصها لى فى محنتي ، فانني وجهت اليها أشد اللوم على قدومها الى ، فما كان ينبغى أن تربط حياتها بحياة رجل منفى الى الأبد ، حيث لاأمل فى عودتهاالى « طيبة » بعد ذلك ! •• ولكنها أجابتنى بقولها : بل اننى أرى فيما كان ، أفضل ما يمكن أن يكون ، ولا ريب فى أن « حورمحب » كان صديقا مخلصا لك مترفقا بشيخوختك حين أرسلك الى هذا المكان الهادىء البعيد عن صخب الناس وضجيجهم ، وأنا نفسى قد ضقت صدرا « بطيبة » وبمن فيها من أولئك الجيران الذين يقترضون أوانى الطهو ولا يردونها ، ويلقون بأقذارهم الى فناء منزلى فى غير حياء ، ثم هناك أكثر من هذا مما يدعو الى الهجرة من « طيبة » ••• هناك المنزل الذى اشتريته أنت من تاجر النحاس ، فأنه بعد الحريق الذى اشتعل فيه لم يعد صالحا للاقامة المريحة ! •• فالكانون فيه يحرق اللحم ، والزيت يتعطن فى الجزار ، وتيارات الهواء تعصف علينا من فرجات الابواب والنوافذ دون أن تجد ما يمسكها ! •• أما هنا فالأمر جد مختلف ! •• ففى استطاعتنا الآن أن نحيا حياة منظمة هادئة ، وأن نبنى ما نشاء أن نبنى وفق رغباتنا ، فالمكان فسيح ولا يوجد من يزحمنا فيه ، وقد اخترت موقعا حسنا للحديقة ، ومن الغد سأزرع فيه الاعشاب والكرسون المائى ، وسوف يسرك منظر الحديقة ــ بعد قليل ــ معشوشبة حاشدة بالزهور والثمار !

والتفتت « ميوتى » ناحية الحراس وقالت وهى تشير اليهم : وماذا يصنع هؤلاء الذين بعث بهم فرعون ليحرسوك ؟! • سأهيىء لهم عملا ، فما ينبغى أن يعيشوا على هذا النحو غير اللائق من الجمودوالكسل ! •• سأجعلهم يصيدون الأسماك من البحر ويجمعون المحار والكابوريا من الشاطىء ••

وتستطرد « ميوتى » قائلة : وفى هذا المهجر البعيد ، ينبغى أن يكون مستقرنا الى آخر العمر ، فلا سبيل الى العودة ، بل لا حاجة بنا اليها • وعلينا أن نختار ــ هنا ــ الموضع اللائق لنقيم عليه مقبرة ندفن فيها ، فأنك لا تدرى كم عانيت فى البحث عنك وكم شقيت فى رحلتى

اليك ، ولم أكن قد جربت فى حياتى شيئا من ذلك ، فهذه أول مرة تخطو فيها قدماى خارج « طيبة » ! ..

واعترف بأن « ميوتى » بثرثرتها هـــذه كانت ترفه عن نفسى ، وتضىء ما قد أظلم من تفكيرى ! .. وأعاننى هذا على متابعة الكتابة التى كان قد أصابنى فيها الكلال ، وكانت هى تســـتحثنى على ذلك خلافا لعادتها ، اذ كانت تكره منى فى « طيبة » أن أضيع وقتى فى الكتابة التى تراها عبثا من العبث ، وكنت ــ اذ ذاك ــ لا أستغرب ذلك منها لأنهـا تجهل القراءة والكتابة ، والانسان عدو ما يجهل ! ..

وسارت « ميوتى » على الخطوط التى رسمتها لحياتنا معا ، فكانت تقوم على خدمتى باذلة ما وسعها الجهد لتوفير راحتى ، مفتنة فى طهو ما تعلم أنى أشتهيه من ألوان الطعام ، وكان لا يسرها شىء مثلما يسرها أن ترانى على المائدة مبتهجا بمآكلها مستمتعا بتناولها ! ..

واستطاعت أن توثق صلتها بالحراس وتؤثر فيهم وتخلعهم من الحياة الهامدة التى استناموا لها ، فكانوا يعملون ما تشير به عليهم من أعمال ، وقد وجدوا فى ذلك ــ أول الأمر ــ مشقة وجهدا ، ولكنهم لم يجدوا فى أنفسهم الشـــجاعة على عصيان أوامرهـــا أو المخالفة عن ارادتها ، فقد أصبحوا يخشونها لحدة لسانها وقوة حجتها ! .. على أنهم ــ بمرور الأيام ــ استأنسوا بها وبعملهم ، فصار العسير عليهم سهلا ومألوفا ، وأحسوا بصحتهم تتقدم ومعنوياتهم ترتفع بتأثير الحركة التى دفعتهم « ميوتى » اليها ، وبفضل قيامها هى على رعاية شـــئونهم !.. فقد كانت تقدم لهم كفاء عملهم خبزا جيدا وتصنع لهم الجعة فى جرار كبيرة وتمكن لهم من ارتياد الحديقة ليقطفوا ما طاب لهم من ثمارها ! ..

وكان « كابتاح » يلاحقنا بوفائه وبره ، ففى كل عـام يبعث الينا على السفن المبحرة الى « بنت » بالعديد من الحمير محملة بالبضائع من « طيبة » ومعها رسائل مكتوبة ، كان يعهد الى كتبته بأن يشرحوا لى فيها أحداث « طيبة » ووقائعها وماجريات الامور فيها ، حتى لا أكون ــ على حد قوله ــ كمن يعيش داخل زكيبة ! .. وكان هذا الذى يأتينا وافرا من « كابتاح » يذهب أكثره الى الحراس ، فوق ما كانت تقدمه « ميوتى » اليهم من هدايانا ، فاستطابوا حياتهم بعد أن كانوا يبغضونها ، وخف حنينهم كثيرا الى « طيبة » !..

والآن ــ وقد عجزت عن الكتابة وسئمتها واشتاقت أطرافى الى الراحة الدائمة ــ فأنى أضع قلمى وأبارك أوراقى وأحمد لها أنها أعادتنى صبيا

الى بيت أبى « ســـنموت » وســـارت بى فى طريق « بابل » الى جانب « مينيا » وردتنى الى أحضان « ميرييت » تطوقتى بذراعيهـــا ! ·· وهى ذكريات مثيرة أبكتنى كثيرا على رفاقى هؤلاء ، وعشتها مرتين : بشخصى مشاركا فى أحداثها ، وبقلمى مسجلا لها ! ··

كل هذا كتبته ، أنا « سنوحى » المصرى ، لا للآلهة ولا للناس !·· وانما كتبته لنفسى أهدهدها وأعزيها ، ولقلبى المسكين يستروح بهـــا نسائم السلام بعد أن تعذب كثيرا فى معركة الماضى الطويل ! ··

ولست أعرف ماذا يكون مصير كتبى هذه بعـــد موتى ؟! · فمن المحتمل ـ ان لم يكن من الأرجح ـ أن يعبث الحراس بكل ما كتبت ، وأن يهدموا منزلى على كل مافيه بأمر «حورمحب» !·· ولكننى ـ على أية حال ـ قد عنيت بكتبى جميعا وحرصت على حفظها ، وشاركتنى « ميوتى » فى هذه العناية والحفـــاظ ، فصنعت لكل كتاب غلافا من ألياف النخيل ، وأودعت الكتب كلهـــا صندوقا فضيا ثم وضعت هـــذا الصندوق الفضى فى جوف صندوق آخر من الخشب المتين ، وأدخلت الصندوق الأخير فى قلب صندوق ثالث من النحاس ! ··

وما يهمنى بعد هذا أن تنجو من عبث الحراس أو غيرهم ، أم تستطيع « ميوتى » أن تخفيها دفينة بقبرى ! ·· فأننى ـ أنا « سنوحى » ـ لست الا انسانا من البشر ، عشت فى كل انسان جاء قبلى ، وسأعيش فى كل انسان يجيىء من بعدى ! ·· سأعيش ما عاش البشر ، فى دموع الانسانية وابتساماتها ، وفى مخاوفها وأمنها ، وفى شرها وخيرها ! ··

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى ثلاثة جنيهات
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب